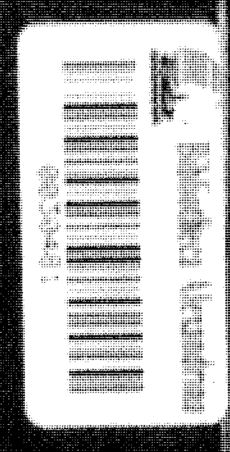
تاريخ الحضارات العام

٣

القرون الوسطى



منشورات عويدات
بيروت - باريس

تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيمة

٢

روما وأمبراطوريتها

اندريه ايمار — أستاذ في السربون
جانين اوبوايه — أمينة متحف غيمة

٣

القرون الوسطى

إداور بروى — أستاذ في السربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه — أستاذ في السربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه — أستاذ في السربون
و
أرنست لابروس — أستاذ في السربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب — أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه — مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الثالث

تاريخ الحضارات العام

القرون الوسطى

تأليف

إدوار برّوى

أستاذ في السُّربُون

بالتعاون مع

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيمة

كلود كاهين
أستاذ في السربون

جورج دوبي
أستاذ في كلية الآداب في ايكس

ميشال مولّات
أستاذ في السربون

نقله الى العربية

يوسف أسعد داغر

فريد م. داغر

منشورات عويدات

بيروت - باريس

الطبعة الثانية ١٩٨٦

مـــدخل

في هذا التقسيم الاتباعي الذي لا بدّ منه لدرس تاريخ الحضارة البشرية ، ليس أوضح حدوداً ولا أبرز قسمات من حقبة الأجيال الوسطى التي تبتدىء من انهيار العالم القديم وتداعي كيان الامبراطورية الرومانية السياسي وبنيانها الحضاري ، خلال القرن الخامس للميـلاد ، فهوت الى الحضيض تحت وطأة الغزوات التي قامت بها الاقوام الجرمانية وهي التي عرفت في التاريخ باسم «الغزوات الكبرى» . وقد ظهرت هذه التسمية في اخريات القرن الخامس عشر مع انطلاق عهد الانبعاث الفني الايطالي ، واكتشاف العالم الجديد والانشقاق الديني الذي قوّض أركان الوحدة المسيحية ، وهيأ طلوع « العصر الحديث » . باستطاعة المؤرخين ان يطيلوا النظر وان يتباحثوا ملياً حول ملاءمة او عدم ملاءمة هذه الحدود التاريخية المرسومة . هل يجب ان نردّ انهيار العالم القديم الى « أزمة » القرن الثالث ، وبذلك نضم الحقبة المتأخرة من تاريخ الامبراطورية الرومانية الى تاريخ الاجيال الوسطى، أخذاً بنظرية الاستاذ فردينان لوط، او ان نذهب، مع نظرية هنري بيرين التي تحافظ على وحدة العالم المتوسطي الى ظهور الاسلام وامتداد فتوحاته المظفرة في أواسط القرن السابع ؟ وعهد الانبعاث الايطالي الذي ظهرت بوادر طلائعه وروائعه ، قبل عام ١٥٠٠ بكثير ، ألا يفرض علينا هو الآخر ، جعل القرن الخامس عشر بدء التاريخ الحديث ؟ ومن جهة اخرى لما كانت نتائج الاكتشافات الجغرافية الكبرى اخذت تطبع بعيداً الوضع الاقتصادي في اوروبا ، بعد عام ١٥٣٠ فهل يترتب علينا ان نلحق بالاجيال الوسطى كل الحوادث التي تقدمت هذا الانقلاب الجذري ؟ ولا يزال المؤرخون الانكليز يتباينون رأياً لليوم ويتضاربون النظر متسائلين فيما بينهم ما اذا كان «النظام الملكي» الذي يميز الانظمة السياسية الحديثة ، ظهر عندهم، أي في انكلترا ، ابتداءً من سنة ١٤٦١ ، او بعد ذلك بنحو ثمانين سنة ، أي عام ١٥٣٩ .

فاذا كانت حدود الاجيال الوسطى الزمنية قلقة مضطربة ، فالتشويش لا يزال يلازم لليوم التسمية التقليدية لهذه الحقبة التاريخية . فالمصطلح الدارج الاستعمال يثير فينا فكرة انتقـال ، او فكرة مرحلة قائمة بين ذروتين او قمتـين ، او بالاحرى ، صورة فجوة او هوة قائمة بين حضارتين: حضارة قديمة وحضارة كلاسيكية. غير ان مرحلة الانتقال المديدة هذه التي تطاولت ألف سنة وأكثر ، تفقد أي معنى يفيد صفة الانتقال . ومع ذلك فهذا التقسيم الذي يجرون فيه على هذا الشكل ، لا معنىً له ، حتى في حال افتراض الغلط ، إلا في ما يخص اوروبا الغربيـة .

فلا يمكن ان نطلقه لا على الشرق الروماني حيث بقيت التقاليد المتوارثة على حيويتها ونشاطها حتى القرن السابع للميلاد ، والتي تناسخ الاخذ بهـا والعمل بموجبها ، بالفعل ، قبل سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين ، عام ١٤٥٣ ، ولا على الشرق الادنى ايضاً الذي عرف ، منذ أواسط القرن السابع ، حضارة جديدة لا تزال قائمة لليوم ، ولا بالاحرى، على آسيا القصية التي يجب ان نستعرض هنا تاريخها منذ غزوات قبائلها الرحل ، منذ القرن الرابع حتى أواسط القرن الخامس عشر ، عندما تأخذ امبراطورية المغول بالتفكك والانحلال فالانهيار . لا يتخلل التاريخ فجوات وفراغ . ففي حقبة تاريخية ، مديدة السحابة، تنوعت فيها اجزاء هـذا العالم وتباينت وقلت فيها الاتصالات بين اجزائه المتباعدة ، كان لا بد من تراكب الازمنة وتعاظلها بعضاً على بعض، ولو لأمد قصير. فاذا ما حافظنا، مراعاة للسهولة، على هذه التواريخ والمسميات المصطلح عليها ، فالطواعية التي تميز الاسانيد التاريخية ، تؤمن هـذا الاستمرار الذي لا بد منه للتاريخ .

هل من داع بعد هذا ، لتبرير خطة حتّمت الأحداث تناسقها وانسياقها على هذا النحو ؟. هنالك ميزتان أساسيتان تطبعان، في نظرنا، الحضارات التي تعاقبت بين القرنين الخامس والعاشر: اتساع الافق الجغرافي ورحابته من جهة ، ومن جهة اخرى هـذا السبق او التقدم الذي سجلته على الحضارة « الغربية » التي لا تزال في القـمُط ، الامبراطوريات الآسيوية الكبرى ودول العالم الاسلامي وممالكه . فاذا ما فتحت الغزوات الجرمانية ثم الصقلبية ، امام الاقطار الاوروبية الوسطى والشمالية والغربية، أبواب الحضارات على مصراعيها، وهي حضارات كانت تعاني كثيراً من عوامل التأخر والانحطاط ، وتخلفت كثيراً عن الحضارة المتوسطية القديمة ، واذا ما تجاوز المد الاسلامي وتعدى بكثير ، الحدود التي عرفها الاقدمون بحيث أوغل جنوباً ليبلغ السودان واريتريا ومدغشكر ، واذا ما استطعنا ، لأول مرة في التاريخ ان نقتفي اثر هجرات البدو الرحل في أواسط آسيا في حدود الامبراطوريات التي أسسها اهل الحضر حتى حدود سيبيريا ، فقد كانت بيزنطية والعالم الاسلامي والامبراطوريات الاخرى التي تركزت في أواسط آسيا مركزاً لحضارات باسقة من أزهى وأزهر ما سجّل التاريخ من أمثالها ، هي هذه الحضارات بالذات التي عرفت ان تحافظ وتحتفظ بالتراث التليد الذي خلفته روما واليونان قديماً .

واخذ الوضع يتحول والحال تتبدل بين عام الف والقرن الحادي عشر . فاليقظة التي دب رسيسها في جنبات اوروبا ، اذ ذاك ، تبلورت عن فوران اخذ يتسع وينشط ليبلغ ذروته بعد ثلاثة قرون . فقد اخذ العالم الاسلامي يتبدل في هذه الحقبة اذ اعترته عوامـل ادّت به الى الانكماش والتوقف والجمود كما اعترى دولَه وممالكه عوارض تنبيء بظهور قوة جديدة تتمثل في هذه الأسر العسكرية التي برزت الى الصف الاول من العرق الطوراني ، حتى رأينا ، بعد لأي قصير، جانباً من البلدان الاسلامية ومعظم هذه الامبراطوريات الآسيوية تغرق وتختفي تحت سيل المد المغولي الجارف . وهكذا ما كاد القرن الثالث عشر ينتصف حتى اخـذنا نتبين شيئاً من التوازن

القصير الامد ، يقوم بين اوروبا الاقطاعية والاسلام التركي وآسيا المغولية .

وهكذا لم يلبث ان ظهر في الاول والثاني من هذه المجالات ما اصطلحنا على تسميته بالأزمنة الصعبة . ففي الحين الذي تنكمش فيه آسيا على نفسها قابعة في قوقعتها وتقطع كل اتصال لها بالقارات الاخرى ، ويشهد الاسلام صعود دولة الاتراك العثمانيين ، نرى اوروبا التي تتجه اليها انظار المؤرخين محاولين تتبع اوضاعها ونظمها ، تحاول ، وهي تعاني من فقدان التوازن في اقتصادياتها ، ومن الصراع الطبقي في مجتمعها ، وفي ما نشاهد من نشأة دولها ، ان تتبين معالم الطريق أمامها وان تحدد ، قلقة ، اهدافها والقوالب الفكرية التي ستستقر عليها . تحوّل بطيء لعمري ، شأن كل هذه التطورات التي طبعت الحقب التاريخية قبل ان تبلغ حركتها السرعة المرجوة ، انما هو تحول استطاعت معه اوروبا الاقطاعية ان تنتقل ، وئيداً ، وتستحيل رويداً ، الى اوروبا العصرية وتنشىء لها ادوات سيطرتها الطالعة وفتوحاتها القريبة .

في هذه الحقبة التاريخية التي تمتد الف سنة ، وفي عالم كعالمنا هذا آخذ بالاتساع والتنوع تتراكب الحضارات او تسير جنباً الى جنب دون ان يستطيع المؤلف ان يتوقف ملياً عند كل واحدة منها . ومن الاهداف التي يترسمها هذا الكتاب ، ان يُبرز للعيان ، عوامل التقارب أو التباعد التي تجمع أو تفرّق ، من قريب أو بعيد ، بين المغرب الاقصى واليابان ، مثلاً ، أو بين إسلاندا واندونيسيا . فقد نتج عن هذا كله بالنسبة للحلقتين الأولى والثانية اللتين صدرتا من هذا التاريخ وتلك التي هي برسم الاعداد ، حدثان رئيسيان .

فقد اصبح من المتعذر ، ان لم نقل من المستحيل ، التكلم جملة عن عالم متوسطي ، قلب المدنيات القديمة ، والمحور الذي قامت حوله ، منذ اللحظة التي نحت فيها كل من اوروبا الجرمانية — اللاتينية ، والشرق البيزنطي ، وبعدهما بقليل ، الشرق الادنى الاسلامي ، اتجاهاً مغايراً للآخر . كذلك اصبح من المتعذر ايضاً ان نضع للحضارات الاسلامية الآسيوية دراسة خاصة مستقلة بذاتها وتكون نوعاً ما ، ذيلاً أو ملحقاً ، اذ ان هجرات اقوام الفيافي الآسيوية وشعوب فلواتها اخذت تمارس ضغطها في وقت واحد ، ضمن رقعة جغرافية تمتد من سهول هنغاريا حتى مشارف الصين . ولذا فقد حاولنا ان نرسم في خطوط متوازية ، صوراً مقتضبة لهذه الحضارات التي طلعت وازدهرت بين المحيط الاطلسي غرباً والمحيط الهادي شرقاً ، وبين الدائرة القطبية شمالاً ، والصحراء الكبرى جنوباً . وهكذا يستطيع القارىء الأديب ان يتتبع بتفهم ودراية ، بالرغم مما يواجهه من اختلاف البلدان وتباينها ، الروابط التي تشد تاريخ البشر بعضاً الى بعض ، هذا التاريخ الذي يرتكز اصلاً ، على وحدة الاصل والارومة ، وليس على الانقسام والتنابذ .

ومن جهة اخرى ، فتنوع هذه الحضارات وتلونها ، والتباين الكبير في معرفتنا لها وفي معلوماتنا حولها ، والمراجع والاسانيد العلمية والتاريخية التي تنهض بهذا كله يسمح لأي مؤرخ ان ينصرف لدرسها ، بالقدر الكافي من العلم والدقة . وعندما سنتكلم عن المدنية الاسلامية بعد

حين ، سنبين الصعوبة التي تعترض المؤرخ في رسم صورة كاملة لهذه المدنية ، لها من الدقة والضبط والصحة ما للصورة التي نرسمها لتاريخ اوروبا ، وذلك من ناحية اختلاف المصادر وتنوعها ، وقلة الاتصالات التي نشاهدها اليوم بين « علماء المشرقيات » ، وبين «المؤرخين » وهي عوامل لا تساعد الا على رسم فكرة عامة ، آنية ، لا صفة نهائية لها . فما عسى ان تكون دراسة المدنيات الاسلامية النائية ولم يضع لها المؤرخون بعد ، الا صوراً موجزة مقتضبة . وتاريخ اوروبا نفسها الذي ينعم بدراسات تفوق دقة كل ما يتوفر من امثالها حول هذه المدنيات ، لا تستقيم فيه وسائل البحث والتقصي ، ولا هي عندهم سواء ، او على نسبة واحدة ، سواء تعلقت بتاريخ القرون العليا للاجيال الوسطى التي تفتقر ، كثيراً هي الأخرى ، للنصوص التاريخية ، هذه النصوص التي اخضعها النقد التاريخي للصرامة ذاتها والشدة نفسها التي اخضع لها المؤرخون نصوص التاريخ القديم ، والتي لا يزال الكثير من معطياته ، بحاجة ماسة بعد ، كما هي الحال بشأن التاريخ الكلاسيكي ، لأيد الدليل الاركيولوجي والشاهد الاثري . وحوادث القرنين الرابع عشر والخامس عشر التي تفتقر للتأصيل والتسفير والتوثيق ، دونها اكداس مكدّسة من الوثائق والمحفوظات تنتظر بصبر جميل من ينهض لدرسها ويتصدّى لتوثيقها توثيقاً منهجياً بعلم واصول .

وهذه المادة المتنوعة موضوع هذا القسم من تاريخ الاجيال الوسطى تقاسمها اربعة اساتذة وراحوا يعالجونها معالجة الاختصاصي المتدبر . فقد درست الآنسة أوبوايّه حضارات آسيا (القسم الاول : الفصل الثالث والرابع ، والقسم الثاني : الفصل الثالث) . اما الاستاذ كاهين ، فقد اخذ على نفسه معالجة تاريخ بيزنطية والعالمين الاسلامي والصقلبي (الفصل الثاني والرابع والسادس من القسم الاول ، والفصل الثاني من القسم الثاني ، والفصل الرابع من القسم الثالث) . اما تاريخ اوروبا الغربية حتى القرن الثالث عشر ، فقد تولى الكتابة فيه الاستاذ دوبي (القسم الاول : الفصل الاول والخامس ، القسم الثاني : الفصل الاول والرابع) ، بينما تصدى الاستاذ مولات للتأريخ للقرنين الرابع عشر والخامس عشر (القسم الثالث : الفصل الاول والثاني والثالث والخامس) . وهذا العمل العلمي التعاوني لا بد له من ان يتصف بالوحدة والتجانس في جميع الابحاث التي تناهد على وضعها هذا الفريق من الاساتذة . وقد جرى النظر فيها ملياً وروجعت مراراً واعيدت احياناً كتابتها من جديد ، برضى المؤلفين انفسهم ، على يد مروض خبير ، همه الاكبر ان يؤمن لهذا الكتاب ، وحدة الخطة وافراغها باتّساق ، ووحدة التجانس والتناغم ، اكثر مما يهتم لتصحيح بعض الاوهام والهنات ، والمفارقات التي انزلق اليها قلم بعض هؤلاء الكتبة ، وهي شوائب لا بد منها في عمل شارك فيه وساهم مثل هذا العدد من الاساتذة ، فلا يعنيه قط ان ينتسب او يدعي التوفيق والنجاح ، ويكفيه ان يعلن هنا أمام الملأ انه من المتعذر على القارىء ان يتبين امام وحدة الموضوع والمادة ، ما هو نصيب كل واحد من هذا الفريق العلمي الكريم .

القسم الأول

تَفوُّق الحَضارة الشّرقية

(من القرن الخامس الى القرن العاشر)

الفصل الأول

انهيار العالم الروماني: الغرب

(من القرن الخامس الى السابع)

حوالي عام ٤٠٠ ، احتفل رجال الفكر وجمهرة من كتاب اللاتين ومؤلفيهم ، بعيد عظمة روما ، هذه المدينة التي جمعت تحت مسمّىً واحد ، كل « الجنس البشري » وأتاحت للناس أجمع : « ان يعيشوا مواطنين ورعايا مدينة واحدة ، كأعضاء أسرة واحدة » ، وفتحت المجال واسعاً امام الشعوب ليتعارفوا ويتمازجوا وينصهروا معاً، عن طريق الاتجار والحضارة والمصاهرة، بينما اخذ الشعراء المسيحيون بينهم يطوّبون روما ويعظمونها لأنها هيأت العالم أجمع، بعد ان نشرت فوقه ألوية السلام ، وجمعته كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ليشتركوا معاً في شراكة واحدة وايمان واحد . وبهـذه العبارات انطلقت ألسنة روتيليوس نماتيانوس وكلوديانوس وبرودانس، معبرين عن مشاعر الارستوقراطية الرومانية بأجمعها، بحماسة دافقة الشعور اندفعت من أغوار النفس المطمئنة . وقد آمنوا جميعهم وطيداً بأن حدود الامبراطورية لن تلبث ان تختلط بحدود العالم المتمدن اذ ذاك ، بينما ينعم من هم ضمن هذه الحدود ، بوحدة شاملة لمت منهم الشعث . وهذه الوحدة هي مادية ، في الدرجة الاولى . فقد اختفت هذه المنازعات الاقليمية وزالت هذه المشادات السياسية وما جرت اليه من دفع وجذب ، وقطع ووصل ، وارتفعت الحواجز التي كانت تباعد بين الاطراف المتضادة ، ويرى أعضاء الطبقة المسيحية ، أينا وقع منهم النظر ، في أي من هـذه البلدان المحيطة بالبحر المتوسط إحاطة السوار بالمعصم ، أقارب لهم وأصدقاء ، ومصالح وأطياناً واملاكاً . وكلهم ينهـج النهج الواحد ، سواء أقاموا على حدود الرين ، او سكنوا دارة من هـذه الدارات الشارقة التي عمرت بها بريطانيا ، وينعمون بمستوى عيش رضي رغيد . وهذه الوحدة المادية تفتحت ، من جهة اخرى ، عن وحدة ثقافية . ففي كل حواضر المقاطعات الرومانية وقواعدها ومراكز أقضيتها ، مدارس توزع نعمة العلم والمعرفة على الراغبين فيها ، حتى اذا ما صَقَلت نفوسهم ، عاشوا معاً الامجاد التاريخية الواحدة ، وتذوقوا الروائع الادبية الواحدة وهاموا بهذه الصور والمحسنات اللفظية والبيانيـة التي وردت على أقلام

الخطباء ، وهاموا بروائع الفن الهليني . وهي ، الى هذا ، وحدة دينية ايضاً بعد ان تغلغلت المسيحية بين طبقات المجتمع الروماني العليا ، فلقحت المناهج الدراسية بقوالب جديدة اتسمت بالعمق الفلسفي، وهو العنصر الذي كانت تفتقر اليه من قبل، كما انها اقتبست ، من هذا المجتمع، ما كان عليه من تنظيم فكري وذهني ، بدونه لم يكن في مقدور النخبة الرومانية ، ان تُقبل على هذه الديانة الشرقية الجديدة.. فالذين عاصروا القديس اوغسطينوس وايرونيموس تحسسوا الروابط ذاتها ، وهجست نفوسهم بالهواجس ذاتها التي أثارتها فيهم مصائر الامبراطورية ، قبل ذلك بمائتي سنة ، في عهد أباطرة الاسرة الانطونية . فلم يكن ليخطر لهم على بال حتى ولا ان يتصوروا بأن حادثاً طارئاً مهما بلغ من شدته ، سيزعزع أركان النظام الامبراطوري فيحول دون مواصلة روما للرسالة السامية التي أعدتها لها التقادير الإلهية وهيأت لها أسباب النهوض بها ، فتحققت على يدها وحدة العالم ، ووحدة الثقافة ، والوحدة الدينية .

أخذت هذه الوحدة تتم ، والحق يقال ، منذ أواسط القرن الثالث في ظروف قاسية كانت تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم . فالجهد الذي بذل بسخاء للحد من غزوات البرابرة ، او بالاحرى لتحويل اتجاهها وللتخفيف من أهوالها ، بعد ان طمعوا بخيرات الامبراطورية وسال لعابهم في حلوقهم لما خبروا من نعمائها ورأوا من ازدهارها وما بذل من جهد للمحافظة على استقرار الادارة الامبراطورية في الداخل بعد اضطراب حبل الامن لكثرة الثورات العسكرية يقوم بها الطامعون في السلطة والمحاولون اغتصابها والاستئثار بها ، كل ذلك وما اليه أرهق البلاد وأبهظ الادارة وعطل جانباً كبيراً من نشاطها . ففي أواخر القرن الرابع ، كانت الامبراطورية لا تزال تثير الاعجاب في النفوس وتستبد بالخواطر لرحابة رقعتها ، وهيبة عظمتها ، وهو وضع لا يستطيع المؤرخ إلا ان يلاحظ فيه بعض النزعات الخطيرة. فمن جهة اخذ شطرا الامبراطورية : الشرقي والغربي ، ينزعان منذ وفاة الامبراطور قسطنطين الكبير ، عام ٣٣٧ ، أكثر فأكثر ، للاستقلال التام ، بمعزل الواحد عن الآخر ، بحيث قام في كل منهما امبراطور خاص . ومن جهة اخرى ، لما كانت كل القوى الناشطة في الامبراطورية ، من سياسية واقتصادية وثقافية ودينية تتركز حول الشرق اليوناني، اخذ الغرب اللاتيني يشاهد اثر الاعراض التي انتابته، انحلال النظم السياسية التي ورثها من التاريخ القديم .

انحطاط الامبراطورية الرومانية

اول ما يطالعنا من عوارض هذا الانحطاط تدهور الروح الوطنية وتحللها . فبعد ان كانت الامبراطورية في بدء أمرها ، عبارة عن اتحاد عدد من المدن ، تنعم بالاستقلال على أنساب وأقدار متفاوتة ، اذ بها تتحول الى ملكية مطلقة من الجنس الفرعوني ، معقدة الادارة . فالاعباء التي كانت البلديات تضطلع بها من قبل او متروك أمرها للمبادرة الفردية، أصبحت الآن من خصائص الادارة العامة ، او عبئاً على دوائرها المعقدة الكثيرة النفقات، فأثقلت كاهل الشعب وأرزحته تحت وطأتها. وهذه الروح الوطنية الرومانية التي كانت تبعث النشاط والحماسة في قلب كلوديانوس كما أثارت حماسة القديس

ايرونيموس ، استحالت شيئاً من التعلق الصوري او الشكلي بهذه المدنية التي رفعت روما منارها عالياً ، ولم تلبث هذه الروح ان شابها عاطفة من الزهد وعدم الاكتراث بالحكم الامبراطوري والموظفين الذين يؤمنون الادارة ويصرّفون الاعمال. فأمام موظفين جشعين، لا يهمهم سوى تأمين جباية رسوم هم اول من يفيدون منها ، نرى المواطن الروماني يلتزم جانب السلبية ويحاول كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، التهرب من التزاماته المدنية والتملص منها . فمن عضتهم الفاقة بينهم اعتصموا بالهرب او أعلنوا العصيان المكشوف . وبينما يحاول الأغنياء وسراة القوم الحصول على المزيد من الاعفاءات والاستثناءات القانونية، تجيش نفوس الجميع بروح العصيان والتمرد . وتتمثل هذه الروح ، على أشدها ، في هذه الحركات العسكرية التي تكررت حوادثها : فالناس يتملصون من الخدمة العسكرية . فبدلاً من هذه الفرق العسكرية التي لا شأن لها ولا كبير وزن، تفضل الدولة عوضاً عنها وبديلاً لها ، كمية من النقود ، تكبر أو تصغر ، تنقص أو تزيد ، على نسبة الفرصة السانحة والحاجة الطارئة ، تتيح لها تجنيد فرق من متطوعة البربر أقوى على الحرب وحمل السلاح . ففي اواخر القرن الرابع ، ليس الجيش الروماني ، حتى في ملاكاته العليا ، سوى فريق لهم من الاغراب المرتزقة . فهم ، في الغالب ، جنود ملء وفاضهم الحماسة ، يتجندون للدفاع عن الدولة التي تدفع لهم المرتبات والأعطيات، وعن مدنية يتمنون استمرارها وامتداد حقلها وتمثل نظمها . ومن دواعي القلق الذي يشغل البال ويقلق الخاطر هو ان المنظمة السياسية الوحيدة الناشطة ، والقوة الفعالة الوحيدة لدى هذا الشعب الروماني الذي يعاني الجمود ، هي بيد البرابرة أنفسهم .

وهذا الانحطاط الذي أصاب الجيش واوهنه ، نراه يخلخل مرافق التجارة ويذهب برواء الحياة في المدن ويشل فيها كل حركة . ففي الغرب ، ولا سيما في غاليا حيث كان للسلام الروماني اكبر الاثر في تنشيط عوامل الزراعة وانهاض مرافقها ، اخذت الحركة الاقتصادية والتجارية التي قامت في القرنين الاول والثاني على قواعد اصطناعية واهية ، بالانحطاط تدريجياً واعتراها الذبول. فالطبقة الارستوقراطية كانت تعوّل على الاغريق في الحصول على ما ترغب فيه من اسباب البذخ والترف يؤمن توفيرها لهم، تجار شرقيون، سيطروا على حركة الاستيراد، يبيعون الرومان اكثر بكثير مما يشترون منهم ، وبذلك اخذوا يمتصون ، شيئاً فشيئاً ، ما تراكم من احتياطي المعادن الثمينة في الغرب ، خلال الفتوحات الرومانية . فقد اشتدت حاجة الناس الى الذهب ، منذ اواخر القرن الرابع ، الامر الذي أخّر ، الى حد كبير وشلّ حركة المقايضات التجارية ، وترك بالتالي ، اثراً عميقاً على الحركة التجارية بين الاقطار النائية ، فأدّى الى تقهقر الحياة الاقتصادية في المدن وتردّيها . وقد انكمشت المدن الكبرى خلف اسوار اقامتها حولها على عجل لتلقي شر الاضطرابات التي نشبت خلال القرن الثالث في الامبراطورية، او استحالت الى حصون وقلاع حصينة لم تلبث ان فارقتها معالم الحياة وغامت عنها كل مظاهر النشاط . وكان من جراء هبوط قيمة النقد الفضي ، ان تعطلت حركة المقايضات في المدن واصبحت المواد الغذائية عسيرة المنال، الامر الذي دفع الاثرياء من سكان المدن الى مبارحتها والاعتصام بالدارات

يشيدونها لهم في الارياف، حيث كان من السهل عليهم تأمين حاجتهم من المواد الغذائية، وحاجة ذويهم . وهكذا اخذوا يتذوقون السكنى في الريف ، كما يستدل من رسوم الفسيفساء التي يعود تاريخها الى القرن الرابع ، فيستسلمون لملاذهم . وراحوا يستعيضون عن الكماليات المستوردة من الشرق بمصنوعات محلية ، وان كانت دون الاولى دقة صنعة ، الا انها دونها بكثير كلفة وثمناً . وقد خضعت جمعيات التجار والصناع التي ازدهرت من قبل في المدن ، لمضايقات جباة الضرائب والرسوم ، بعد ان تفننوا في إبتزازها ، واخذت بالانحلال ، بعد الذي عانت من ركود الاعمال والاشغال اثر تناقص عدد زبائنهم من ذوي اليسار. وهكذا اتجهت البلاد نحو نظام من المعاملات الاقتصادية قضى على الزراعة ، فبارت الارض واجدبت ، وهكذا راحت المدن واسواقها والطرقات القائمة في الريف تزول معالمها شيئاً فشيئاً ، كما ضاقت فيها سبل العيش على الاهلين، بعد ان قل النقد المتداول بين الناس ، كما تعطلت الطرق التجارية ، الأمر الذي لم يكن ليسهل مهمة الدولة في جباية الضرائب وتحصيل الرسوم المفروضة على المحاصيل الزراعية ، وأصبحت لا تعوّل إلا على ضريبة الخراج والأعناق التي كثيراً ما كانت تجبى عيناً ، الأمر الذي كان يعقّد امور الجباية ويجعل من المتعذر الانتفاع من الرسوم المجباة . وكان من جراء اعتماد الامبراطورية المتزايد على الريف ، ان اخذت الدولة الاعتماد على كبار الملاكين مباشرة ، فعولت على المصادرة والسخرة في تأمين أوَد الجيش والموظفين الاداريين والحاميات العسكرية ، فهيأت بذلك تفتيت السلطة وتشعبها .

وهكذا ساعدت الدولة على خلق نظام اجتماعي جديد بالرغم من الجهود التي بذلتها الامبراطورية التي رأت ، تبسيطاً لمهمتها ولتأمين الاستقرار في تحصيل الضرائب ، ان تربط ، بصورة وراثية ، كل رجل حر بوضعه الاجتماعي فيلازمه ويتقيد به ولا يحيد عنه . فانحطاط المدن واشتداد وطأة الضرائب تسببا في انهيار طبقة صغار الملاكين الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال ، وحملهم على طلب حماية من تتوفر لهم القوة والبأس ، ليردوا عنهم غائلة المستبدين وجشع المستغلين ، وبذلك قضي تماماً على الطبقة الوسطى ، كما ازدادت الطبقة الارستوقراطية والطبقة المشيخية الاخرى نفوذاً على نفوذ، بعد ان اقتصرت الوظائف الحكومية عليها . وهكذا لم يلبث رب الارض الذي اتخذ من قصره حصناً حصيناً ، ونصب حوله الحراس يسهرون على سلامته وامنه ان أصبح السيد المطلق على هؤلاء المعمرين الذي يعملون في ارضه ويحرثون مزارعه ، ويضطرهم لدفع رسوم خاصة له او تأدية بعض أعمال السخرة مقابل حمايته لهم وتحمل مسؤولياتهم امام اصحاب الشأن . وهكذا لم يعتم المزارعون والفلاحون الذين يعملون في جواره ان وضعوا ، هم ايضاً ، أنفسهم تحت حمايته ، وقدموا له بكل اخلاص ، ما يلزم من الخدمات . والى جانب هذه الاقطاعات التي نشأت في البلاد وكانت بأمن من مضايقات ذوي الشأن لما تنعمت به من حماية المتزعمين، اخذ المجتمع اذ ذاك، بالتفتت والتفسخ، فاقفرت المدن من سكانها بعد ان ساءت الاحوال الاقتصادية وأخذت المجتمعات الريفية تتمتع بالمزيد من الاستقلال

وهي على أتم استعداد للدخول تحت طاعة من يؤمن لها الرعاية والحماية ، وعاثت في طول البلاد وعرضها جماعات من المتمردين ، وانتشرت في أرجاء البلاد طوائف من الأرقاء الفارين والفلاحين الذين يرزحون تحت وطأة الضرائب والرسوم المتراكمة عليهم سنة بعد سنة .

تداعي الحضارة وانهيارها

وهذه القيم الروحية للحضارة في الغرب، تبدو في أواخر القرن الرابع، على شتى مظاهرها : الدينية والثقافية والفنية ، وكأنها أقل تأثراً بهذا الانهيار . فتحت تأثير المسيحية ، وبفضل ما للديانة الجديدة من جذور شرقية وشعبية ، أخذ الفن والفكر يبتعدان شيئاً فشيئاً ، عن مظاهرهما الكلاسيكية ويتلبسان أشكالاً وصوراً جديدة، فتحت تأثير الفلسفة الافلاطونية الجديدة التي اخذ بها كل من امبروسيوس واوغسطينوس، ارتدى الرسم على الزجاج المذهب ، والتصوير على الالواح العاجية المزدوجة التي كثر استعمالها في شمالي ايطاليا ، طابعاً نمّ عما بلغه التجريد الروحي . فاذا ما رأينا الفنانين يكثرون من حفر صور بشرية على جوانب النواويس ، بارزة غضونها ، ظاهرة تجاعيدها ، فبحثاً منهم بالاحرى ، عن أنماط فنية جديدة وليس عن قلة دربة فنية في الصناعة ، اذ كانوا يحاولون التعبير ليس عن الجمال الصوري بل بالاكثر، عن العنصر الفائق الطبيعة الذي جاءت الديانة الجديدة تعلن للانسان عن وجوده ، وتـُفعِم به قلبه .

ومع ذلك ، فلا بد من ان نلاحظ ظهور بعض امارات التقهقر في هذا المجال . فالهبوط عن المستوى الذي لا بد من تسجيله هنا ، جاء نتيجة لانتشار القيم الدينية والثقافية بين الطبقات الشعبية . فكلما انتشرت المسيحية بين طبقات المجتمع الروماني الارستوقراطي ، وتغلغلت بين ثناياه، فقدت من سموها بنسبة ما حققته من سعة وانتشار . فالروح الدينية التي نلمسها لدى النبيل بولان ده بيلا ، احد سراة القوم في مقاطعة البوردوليه ، هي روح دينية ميسرة، مريحة جاءت على مقياس نهج الحياة والعيش الرخي الذي انتهجته الطبقة المشيخية ، اذ ذاك . وهبوط المستوى الثقافي يرتبط ، الى حد بعيد ، بهذا الانكماش الذي خلخل الوضع الاقتصادي وقضى على حياة المدينة ، وذهب بمباهجها . فقلة الطلب او انعدامه لدى الطبقة الارستوقراطية التي أخذت تأتلف، أكثر فأكثر ، مع حياة الريف وعادات أهله، أدت بالتالي الى التقليل من الانفاق ، والى اقفال المصانع الفنية، كما أدى هذا كله الى هبوط ملحوظ في الاساليب والمناهج الفنية نفسها ، كما يبدو ذلك واضحاً في معالم الفن الجنائزي ، في مدينة آرل ، عام ٣٩٠ . فالمدن يهجرها سكانها ، كما تخبو فيها جذوة الحياة الفكرية ، ممثلة بالمدرسة رمز النشاط الثقافي ، اذ ان المدرسة هي مكان لمطالعة الآثار الادبية ودرسها . وعندما يهجر هؤلاء الناس المدينة ويقطعون كل صلة لهم بها ، يألفون حياة الريف دون ان يقطعوا، مع ذلك، كل انعطاف نحو النشاط الفكري. فهم يعقدون اجتماعات لهم دورية كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، فيتعاورون الكتب ، ويتبادلون الرسائل مع بعضهم ، فتبقى المراسلة أنشط وسائل الاتصال ، ويعهدون بتربية أولادهم لمربين من الخاصة . ومع ذلك فكلما استحالت التربية نشاطاً عائلياً او عملية بيتية، وكلما ضعفت او قلت الاتصالات

مع الخارج ، ضمرت ، بالتالي ، الاعراف الثقافية والتقاليد الحضارية ، تحت تأثير الوسط الريفي المخشوشن . فالاهتمام بالثقافة الكلاسيكية القديمة ، في اخريات القرن الرابع ، أصبح وقفاً على نخبة مختارة . فطالما استطاعت هذه النخبة ان تثبت وجودها في الوسط الحضاري وفي المدينة ، استطاع بالتالي ، الفن والفكر معاً ، ان يحافظا على شعلتها مشبوبة وهاجة . اما اذا ما تفرق شمل هذه القلة المختارة وراح كل من أفرادها يقبع بين أملاكه وأقطانه الواسعة ، في عشرة موصولة مع الفلاحين ، فلا بد من ان تنقلب الحال غيرها . وهكذا بابتعاد المثقفين عن المدينة وانقطاعهم في شبه عزلة في الريف ، لم يلبثوا ان يفقدوا كل رواء المدينة وان تخشوشن طبائعهم وتغلظ أرواحهم .

وهكذا ما كادت شمس القرن الرابع تميل نحو الغروب ، حتى رأينا التحول يخيم على المدنية في الغرب دون ان يشعر الناس فعلاً بحقيقة ما يجري امامهم او يقع حولهم . ففي الوقت الذي تنعدم ، في الدولة، كل وسائل العمل والتنفيذ، ويتجاذب السلطة الفعلية كبار الاقطاعيين وقادة الجيش ، وجلهم أغراب ، لا تلبث تقاليد الريف وعاداته ان تنشط وتستبد بالاذواق والاخلاق والاعراف ، فتضعف ، بالتالي مباهج حياة المدينة وهذه الحياة الرهيفة التي سادت أجواء المدن وعمرت بها الحياة في ظل اقتصاد نشيط وتجارة مزدهرة . وسيحدث قريباً ما يعجّل من هذا الانهيار ويسير بهذا الوضع الذي صورنا الى النهاية المحتومة التي رسمت لها في هذه الموجات المتتالية من الغزوات تشنها القبائل الجرمانية .

الموجات الجرمانية

وقع وراء نهري الرين والدانوب ما اصطلحوا على تسميته بالعالم البربري او الهمجي ، أي هذا القسم شبه المجهول من العالم الذي لم يكتب له ان ينعم ولا قيّض له ان يسهم بالحضارة الرومانية . وهؤلاء الاقوام البرابرة الذين يعيشون على حدود الامبراطورية هم الجرمان ، وهم قبائل من سكان الارياف ، ما ان يستقروا فوق تربة ممسكة شحيحة حتى يعالجوها بأساليب بدائية . الوحدة الاجتماعية عندهم هي الاسرة ويؤلف مجموع الأسر من صلب واحد قبيلة تتوزع الى بطون وأفخاذ ، يتألف من بعضها احلاف عسكرية تعرف عندهم بأقوام او شعوب . من هذه الشعوب مثلاً : الفرنج *Francs* وهم على فرعين او شعبتين : *Saliens* و *Ripuaires* ، والألامان ، والبورغونيون *Burgondes* والفندال ، والاستروغوط والفيزيغوط ، تحت امرة رؤساء او قادة حرب ، هم على الغالب ملوكهم وأصحاب الكلمة النافذة ، والحل والربط عندهم . والحدود التي كانت تفصل بين هذه الاقوام الجرمانية والامبراطورية الرومانية ليست، على كل حال، صعبة النفاذ ، ولا من العسير التسرب عبرها والانسراح في المناطق الرومانية ، فقد سبق لمبشرين ان حملوا الى بعض هذه الشعوب النصرانية ، انما على مقالة الآريوسية *Arianisme* ، كما حدث للجرمان ان اجتازوا ، بأعداد كبيرة متراصة ، هذه الحدود ، ليعملوا مزارعين في بعض الاقاليم الرومانية ، او ليؤلفوا فرقاً مرتزقة في الجيش الروماني . وقد استطاعت روما ، منذ عام ٢٨٠ ، ان تهيمن على هذه الحدود

بنجاح وتتشدد بمراقبتها . إلا ان الضغط على هذه الفواصل اخذ يشتد، في أواخر القرن الرابع، بدافع من ضاغوط او كابوس لا يقاوم، من قبل هذه الشعوب التي اخذت تتململ وتتمطى وتهتاج في هذه الفيافي الشاسعة الممتدة من أواسط القارة الآسيوية . فلم تستطع الحدود الرومانية وما عليها من قلاع وحصون ، الصمود في وجه هذا الضغط ولا احتمال شدة الصدمة الدافعة، فانهارت أمام سيل جرّاف من هــذه الاقوام تدافعت من الثغرات التي انفتحت امامها ، فاكتسحت في اندفاعها اوروبا الغربية ودكت منها المعالم .

وأول من اجتاز حدود الامبراطورية على الدانوب ، من هذه الشعوب ، قبائل الفيزيغوط ، وثاروا في وجه الامبراطور فالنس عام ٣٧٨ . وقد استطاعت حكومة الامبراطور تغيير وجهة هذه الموجة البشرية وتحويلها نحو الغرب ، فلم يلبث ملكهم آلاريق ان فتح مدينة روما ، عام ٤١٠ ، واحتلت جحافله ، عام ٤١٢، غاليا الجنوبية في الوقت الذي اجتازت فيه قبائل الفندال حدود الرين تجر وراءها لميماً من القبائل الجرمانية الاخرى كالآلين *Alains* والسويف *Suèves* ، وذلك في اليوم الاخير من سنة ٤٠٦ ؛ ومن اسبانيا التي استباحتها شعوب الفندال واقامت فيها ردحاً من الزمن تستعيد عافيتها وقوتها ، راح ملكهم جنسريق يفتح لهم ، عام ٤٢٩ ، مقاطعة افريقيا . أما شمالي غاليا ، فقد راح غنيمة باردة للفرنج والألامان والبورغونيين الذين انتهى بهم مطاف الغزو، الى مقاطعة سافوى، عام ٤٤٣ . وبين ٤٠٠ ـ ٤٣٠ ، اضطرت الفيالق الرومانية لاخلاء بريطانيا وترك شؤون الجزيرة لسكانها من اقوام الكلتيين الذين لم يلبثوا ان عانوا الأمرّين منغزوات السكسون ومهاجماتهم المتكررة ، محاولين من وراء ذلك ، اقتطاع الأراضي الواقعة على شواطىء بحر الشمال وخليج المانش . وتمكن الكلتيون من الصمود في وجــه هؤلاء الغزاة حتى اواخر القرن الخامس . الا ان الجرمان توصلوا الى طرد سكان البلاد الاصليين ، الى الشمال والغرب منها. وجلا قسم من البريطانيينالى شبه جزيرة الارموريك، في غاليا، هرباً مما تعرضوا له من ضغط السكسون. ومنذ عام ٤٥١ — ٤٥٢ انطلقت موجة الهونز بقيادة أتيلا، من سهول بانونيا تدك تحت سنابك خيلها غاليا وسهل البو في ايطاليا الشمالية . وفي عام ٤٨٨ ، دخــل ثيودوريق ملك الاوستروغوط ايطاليا ، على رأس جيش لجب . وهكذا في أقــل من قرن واحد ، استباحت موجات عارمة متواصلة من اقوام الجرمـــان وشعوبهم ، معظم مقاطعات الامبراطورية الرومانية في الغرب بينما بقي شطرها الآخر ، في الشرق ، سليماً مصوناً الى حين . والرأي المعول عليه لدى المؤرخين هو ان يجعلوا من هذه الحقبة حداً ينتهي عنده التاريخ القديم، ويبتدىء معه تاريخ الأجيال الوسطى . فما هي لعمري ، النتائج التي ترتبت على هــذا الحادث الطارىء الذي أثـّر عميقاً في تاريخ الحضارة ؟

فالانشاءات الرومانية الممثلة في هذه الدساكر والقرى والمزارع والحاميات المتناثرة حباتها على الحدود ، في ابعاد متفاوتة ، مما وطأه الغزاة الطارئون بارجالهم ، زالت معالمها تمامـــاً من الوجود دون ان يبقى منها اثر بعد عين . فتقاسمت أقوام من السكسون والبريطانيين سكان

البلاد الأصليين ، مقاطعات بريطانيا . وسيطر على مقاطعة الفلاندر واقليم رينانيا بين الدانوب وجبال الألب ، قبائل الفرنج والألامان والبفاريون المتنصرة ، وراحت تستعمر بوسائلها ، هذه المقاطعات وتستغلها ، بينما نزح عدد كبير من الرومان عن هذه الارجاء ، واقاموا بعيداً الى الجنوب ، بينهم سلفيان التريفي *Salvien de Trèves* الذي جاء وسكن مدينة مرسيليا . ووقعت اعلاق الفن وروائعه ، والمباني التي كانت تزهى بها هذه المدن ، والرياش الفاخرة التي ازدانت به صروح سراة القوم ، ودوراتهم الجميلة في الارياف ، كل هذا ذهب فريسة للغزاة الفاتحين . فلم يبالوا قط بما لهذه الدرر والغرر الفنية من قيمة وشأن فاهملوا امرها ولم يلبث ان عفا الكثير من معالمها فاصبحت نسياً منسياً . وهكذا زال من الوجود ما كان قائماً فيها من مدارس وكنائس ، كما بادت فيها الجوالي والجماعات المسيحية ، وارتفع كل اثر للحدود الرومانية ، واقتسمت هذه القبائل الجرمانية الاقاليم الرومانية الواقعة اليها فوزعتها على ما عندها من بطون وافخاذ ، فانتهبتها الجماعة وحولتها الى مزارع ومراع فسادت فيها اخلاق الوثنيين وعاداتهم . وقد حدث شيء شبيه بهذا، في مقاطعة الارموريك التي نزلت بها جاليات من بريطانيا هرباً من وطأة الغزاة السكسون ، وفي جبال كنتبريا الى الشمال الغربي من اسبانيا حيث عاد السكان الى طبائعهم البربرية في المناطق التي لم تدرج فيها اللهجات الرومانية ، انما سادت فيها لغات البشق *Basques* والكلتيين وغيرها من اللغات الجرمانية .

اما في الجنوب من هذه المنطقة فنتائج الغزوات البربرية كانت اخف وقعاً . فقد كان عدد البرابرة الذين انساحوا في بعض اطراف البحر المتوسط الغربية كاسبانيا وافريقيا ، قليلاً نسبياً ، اذ لم يعبر مضيق جبل طارق ، الى افريقيا ، بصحبة جنسريق اكثر من ٨٠ الفاً كما لم يدخل اسبانيا تحت قيادة ثيودوريق ، سوى ٢٠ الفاً من الاستروغوط ، حيث اخذوا يستمرئون تدريجياً ، المدنية الرومانية ، اذ اعتنق السواد الاعظم منهم النصرانية . صحيح انهم كانوا مدججين بالسلاح ، قساة القلوب جشعين وكان عبورهم خلال ايطاليا وغاليا واسبانيا في طريقهم الى افريقيا كارثة هزّت اركان العالم اللاتيني وهددته بالمحاق ، لما انزلوا في هذه البلدان من خراب ودمار ، ونهب وسلب ، وما اضرموا فيها من حرائق ضروس اكلت الاخضر واليابس. فهذه الكنوز التي طمرها اصحابها من الاغنياء وسراة القوم في الأرض ، إستبقاءً لها وجعلها في منجى من عبث العابثين ، لم ترَ النور ثانية ولم يعد اليها اصحابها ، بعد ان ارتفعت الغمة وانقشعت الغمامة السوداء ، مما يدل على ان عدداً كبيراً من اغنياء الرومان لقوا حتفهم خلال النكبة ، أو جلّوا عن اوطانهم دونما رجعة . وبين الذين آثروا البقاء حيث هم ، أو لم تقتلعهم العاصفة ، من آل امرهم الى الخراب والدمار ، كما وقع مثلاً لبولان ده بيلا الذي جرب ان يتعاون مع الغزاة وآثر العيش بينهم محافظة منه على مقتنياته واملاكه وثروته الطائلة ، مع انه كان من الميسور له ان ينجو بنفسه مع ذويه ، الى املاكه الواسعة في الشرق . وعمت الفوضى البلاد لكثرة

الاضطرابات والانتفاضات الشعبية . فقد ثار العبيد وتمردوا على اسيادهم ، وراح البائسون من الفلاحين والمزارعين يناصرون جحافل البرابرة الغزاة ويشدون من ازرهم. وعمت الفوضى مرافق البلاد الاقتصادية : اذ اختل حبل الأمن واختلت بالتالي الحركة التجارية ، وانقطعت وسائل الاتصال والانتقال كما انقطع استيراد المواد الغذائية من الخارج . ومما هو انكى من هذا كله وأحز في النفس واوقع ، سقوط روما عام ٤١٠ ، بيد البرابرة . فكان لهذا الحادث دوي بعيد في النفوس انزل الهلع في قلوب العالم المتمدن، حتى ان القديس ايرونيموس انقطع حيناً عن متابعة عمله ، في عزلته في بلاد اليهودية . اما الوثنيون من اعضاء الطبقة المشيخية ، فراحوا يردون هذا الحادث الى عمل انتقامي من جانب الآلهة بعد الذي اصابها من زهد الناس بعبادتها وانصرافهم عنها ، كما رأوا في هذه النكبة النكباء نتيجة وخيمة لزواجر المسيحية ونواهيها . وغشيت قلوب المسيحيين هواجس مؤرقة من القلق والاضطراب ، فأخذوا يتساءلون بشيء من الحيرة : لماذا لم يصن الله مدينة القديس بطرس ؟ وراح فريق منهم ، بعد ان وقعوا فريسة الوساوس يتقربون من الأصنام التي رذلوها من عهد بعيد ، واطرحوها جانباً يعفرون أمامها رؤوسهم مستغفرين، قارعين صدورهم ندماً واسفاً، كما اخذوا يروجون الشوائع بقرب نهاية العالم. واسمع ما قاله بهذا الشأن بروسبير الاكويتاني : « فارق السلام ارضنا هذه ، فاصبح كل ما تقع عليه العين سائراً للزوال . » ولكي يرد القديس اوغسطينوس شماتة الشامتين ودعاة السوء والشانئين ويقوي ضعاف الايمان وضع كتابه : « مدينة الله » *Cité de Dieu* . ومع ذلك فما كادت العاصفة تمر حتى تناسى الناس ويلاتها ونتائجها المشؤومة ، كما عادت الثقة الى النفوس . وما ان اطل عام ٤١٧ حتى راح روتيليوس نماتيانوس *Rutilius Namatianus* يشيد عالياً ويتغنى بعودة البحبوحة والرفاه ، وعودة النشاط التجاري وحركة المبادلات وحياة اللهو . اما الكاتب اوروز (*Oroze*) فعلق على الحادث قائلاً : فالغزو حادث طارىء وانقضى. فقد سمحت به العناية الإلهية لتتيح للبرابرة الانسراح في الامبراطورية الرومانية المظفرة، وليفيدوا مما فيها من حضارة ومدنية ونصرانية. وقد ارتفعت في روما بين ٤٢٢ — ٤٤٠ كنيستان: الأولى باسم القديسة سابينا والثانية باسم القديسة ماريا الكبرى (ماجور) ، وفرشت جدرانها بالفسيفساء ، سيراً مع التقاليد الفنية المرعية منذ عهد قسطنطين .

التشكيلات الجديدة

لم يترك غزو القبائل الجرمانية ، للبلدان الواقعة حول البحر الابيض المتوسط ، أثراً عميقاً ، إلا في البنيان السياسي وتنظيماته . فبعد الغزو بمدة قصيرة ، راحت الحكومة الامبراطورية تحاول اعطاء صبغة شرعية لإقامة البرابرة في المقاطعات التابعة لروما . فقد اعتادت الامبراطورية ، منذ عهد بعيد ، استقبال رجال الحرب من بين البرابرة . فلم تكن جحافل الغزاة لتختلف كثيراً في الأصل عن فيالق الجيش الرسمي ، اذ ذاك. ففي توزيعهم على الأقاليم والمقاطعات ، دمج لهم في الملاكات والأطر العسكرية المعمول بها في البلاد ، بعد ربطهم والاستيثاق منهم بالمواثيق. فقبل ان يطأ ألاريق ايطاليا بسنابك خيله، كان

ضابطاً كبيراً في الجيش الروماني برتبة *Magister Militium* ، كما ان احلاف الفيزيغوط أقطعوا ، بموجب معاهدة عُقدت معهم ، عام ٤١٥ ، مقاطعة الاكويتان . وجرت اتفاقات مماثلة مع غير هؤلاء الشعوب أضفت الشرعية على استيطان الحلفاء الجدد من الفندال ، ان لم يكن في اسبانيا ، عام ٤١١ ، أقلّه في إقليم نوميديا ، عام ٤٣٥ ، وفي افريقيا عام ٤٤٢ ، كما أضفت الشرعية على اقتطاع قبائل البورغونيين ، مقاطعة السافوى ، عام ٤٤٣ . وثيودوريق نفسه الذي كان رئيس هؤلاء الاحلاف ، أصبح ، منذ عام ٤٨٣ ، بطريقاً وقائداً للجيش . وقد احتفظ هؤلاء الحلفاء بقوانينهم الوطنية وبما لهم من تشكيلات مستقلة اختصوا بها . فلملكهم وحده ، حق التفاوض مع روما ، وله وحده حق ابرام المواثيق ، التي يتعهد بموجبها تقديم كل مساعدة عسكرية مقابل القيام بأوَد رجاله .

وتنفيذاً لمسؤولياتها من هذا القبيل ، راحت الامبراطورية تطبق ، بعد ان تبنتها وأخذت تعمل بموجبها ، الاساليب ذاتها والمناهج نفسها التي كانت متبعة من قبل ، لتوفير السكن وأسباب الراحة لموظفيها وأفراد جيوشها . فكانت الدولة تسلمهم أذونات بالسكن ، وباستلام ما هم بحاجة اليه من المواد الغذائية ، من مستودعات التموين العامة ومخازن الإعاشة . وأمام انتشار حركة العيش في الريف التي نشطت أسبابها ، اذ ذاك ، ومواجهة ضرورة توفير مقومات السكنى الطويلة ، رأت الدولة نفسها مضطرة لتعديل قانون « الضيافة » المعمول بـه ، اذ طُلِب الى الملاكين التخلي عن ثلث او ثلثي بعض ممتلكاتهم ، لقواد هذا الجيش الذين راحوا يوزعونها بدورهم ، بين كبار الرؤساء والضباط . والظاهر ان العملية تمت دون ان تثير صعوبات كثيرة ، لضآلة عدد البرابرة الذين اقتضى تدبير سكناهم ، نسبياً ؛ ومن جهة اخرى ، فقد جرت العادة ان يقيم بعض أعضاء الطبقة المشيخية حاميات عسكرية على ممتلكاتهم ، وحداتها من البرابرة . ولم يمتعض لهذا التدبير التعسفي سوى قلة من أصحاب الذوق الرفيع ، أمثال سدوان ابولينير *Sidoine Apollinaire* الذي لم يكن ليطيق او ليحتمل خشونة هؤلاء النزلاء الخشان الطباع ومضايقاتهم . وبقيت الدوائر الادارية العامة ماضية في سيرها كالمعتاد ، لم يزعجها كثيراً ، تحمل أعباء جديدة نزلت على المدنيين من جرّاء تأمين أوَد جيش احتلال بصورة مستمرة ، وهو عبء جديد أضيف الى الاعباء الثقيلة الاخرى المترتبة على سكان بعض المقاطعات الرومانية ، من هذا القبيل .

كانت السلطة الفعلية ، والحق يقال ، في هذه الولايات ، في يد ملك البرابرة الذي كان الشعب يختاره رئيساً عليهم . والقوة التي له ، والسلطة التي كان يمارس صلاحياتها بتفويض رسمي من ممثلي الشعب ، اتاحت له : مراقبة الادارة والاشراف عليها عن طريق نوابه الذين كانوا يلقبون بـ – كونت – وهو لقب مصطلح عليه في مراتب الجيش ، في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، فيسهرون على سلامة الأمن في الاقضية الواقعة تحت اشرافهم المباشر . وهكذا لم تلبث تشكيلات الجيش وانظمته ان حلت محل النظم الادارية ، بعد ما اعتراها من تحلل واسترخاء ، في جميع انحاء الامبراطورية . وهكذا لن تعتم المقاطعة ان تصبح مملكة يخضع مَن

فيها من رومان وبرابرة للقائد العسكري المتولي شؤون الحرب . وكثيراً ما حاول هذا القائد الملك بسط نفوذه وسيطرته الى ما وراء حدود المنطقة التي تخضع لادارته العسكرية، الامر الذي كثيراً ما اضطر معه الامبراطور على الانكفاء نحو الشرق فتتقلص رقعة الامبراطورية وينكمش سلطانه . وقد سبق ان تم نقل مركز العاصمة في القسم الغربي من الامبراطورية من مدينة تريف ، الى مدينة ميلانو ، فالى مدينة رافينا ، عام ٤٠٣ ، وهي مرفأ معزول منقطع يقع بين الغياض والمستنقعات وينفتح على البحار اليونانية . وعندما ثار الجيش الروماني ، عام ٤٧٦ مطالباً لنفسه بذات الامتيازات والمنافع التي كان ينعم بها جيش الشعوب المتحالفة ، قام قائده ادواكر *Odoacre* يخلع الامبراطور ويحتل القصر الامبراطوري في رافينا ويسكن فيه ، ويبعث بشارات الملك الى بيزنطية . وكان من شأن هذه الحركة ان اعادت إلى الامبراطورية وحدتها ، اذ لم يصبح لها من بعد الا عاصمة واحدة هي القسطنطينية . اما الغرب فقد بقي شرعاً وقانوناً، مرتبطاً بالشرق يحكمه باسم الامبراطور قادة القبائل البربرية باعتبارهم ممثلي الامبراطور ومفوضين سامين في هذه المناطق . وجاء في رسالة بعث بها سيجسموند ، ملك البورغونيين ، الى الامبراطور أنستاس في مطلع القرن السادس : « اني اظهر بمظهر الملوك وشاراتهم ، بين رعيتي ، بينا انا جندي من جنودك » . وهكذا نرى كيف ان الشطر اللاتيني من الامبراطورية كان يتقاسمه عدد من الممالك تنعم كل واحدة منها ، بالفعل ، باستقلالها التام .

وعلى نقيض ما حدث في المقاطعات الواقعة على الحدود ، لم يتسبب الترتيب الجديد الذي سارت عليه العلاقات السياسية ، باي انقطاع أو انفصام في استمرار سير الحضارة وتطورها . فالبرابرة لم يؤلفوا سوى اقلية ضعيفة حتى في المقاطعات التي استقلوا بامورها على ساحل البحر المتوسط ، حيث تم لهم ملء السلطة المطلقة ، كما انهم لبثوا ، مدة طويلة ، موزعين جماعات صغيرة معزولة عن سواد الرومان الأكبر . فقد احتل الاستروغوط ، في المدن الايطالية احياء معينة اختصوا بها . فالرؤساء الجرمان ، وحدهم ، اخذوا ينمّون اتصالاتهم بالطبقة المشيخية ، فيشايعون النظام الجديد ويسيرون معه بنسبة ما يمكنهم من العيش على هواهم ، ويستمرون في تأدية الوظائف الادارية التي يقتضيها نظام الحكم . وقد اخذ الغزاة يستمرئون حضارة سكان البلاد. فالاخلاق والعادات والاعراف والتقاليد التي حملوها معهم كانت من الانحطاط والتأخر ، ما منع الارستوقراطية اللاتينية من الاكتراث بها ، فاعرضوا عنها ورذلوها ، باستثناء بعض أشكال وصور من البذل والعطاء الشخصي التي ما لبثت ان تغلغلت بين الاعراف والتقاليد المعمول بها .

وعلى خلاف ذلك ، أقبل البرابرة بشوق من يقبسون أوضاع الحياة المهذبة المصقولة وهم على يقين بان علامة النبل الوحيدة ، وسمة الشرف المثلى ، هي اقبال المرء بكليته ، على الآداب الرفيعة والعب منها ، كما يقول سدوان ابواينير . وهكذا راح الكثيرون يتتلمذون على مدرسة الرومان وينهجون نهجهم .

فبالرغم من الخراب والدمار ونهب كنوز البلاد وغير ذلك من الاستباحة والأعمال الوحشية التي رافقت غزوات البربر او عقبتها، فقد كان من جرّاء دخول عناصر خشنة ، فظة بين النخبة المثقفة، ان تدنى كثيراً المستوى الحضاري العام، فساعد هذا التقهقر على الانتقال من حضارة مدن ناعمة الى حضارة ريف غليظة، فظة، مخشوشنة دون ان يحدث او يقع أي انقطاع في سير الحضارة واستمرارها . ويستدل من رسائل سدوان ابولينير الذي عاد مأخوذاً من زيارة قام بها لبلاط ملك الفيزيغوط ، في مدينة تولوز ، ان هـــذه الثقافة الحضارية لم تتأثر قط في بعض الأجواء الارستوقراطية الرفيعة، عند منتصف القرن الخامس ، ولم تفقد شيئاً يذكر من نعومتها وتهذيبها ورهافتها . وبعد ذلك بمدة وجيزة، نرى قصر ملك الفندال ، في افريقيا ، يصبح مركزاً مرموقاً للاشعاع الثقافي والحضاري في تلك البلاد ، كما نرى الملك ثيودوريق يحاول ، في القرن السادس ، ان يعيد الى سالف عزها ، الحضارة الرومانية في ايطاليا ، اذ أخذ يرعى معالم هذه الحضارة ، ويعنى بصيانة المباني في روما وترميمها، كما شيّد ، في مدينة رافينا، عدداً من الكنائس والعمائر وفقاً للطراز المعماري المعمول به في الامبراطورية البيزنطية ، وأجرى عطاياه بسخاء على المدارس ومعاهد الفصاحة والبيان القائمة في المدن الكبرى ، هذه المدارس التي لم يطرأ عليها ما غيّر من مناهجها وأساليبها ، بينما أهل القلم ورجال الادب يحاصرون باب قصره ، طمعاً منهم بصِلاته السخية . ففي الحين الذي راح فيه الاسقف إينود *Ennod* ، أسقف مدينة بافي *Pavie* ، يُطري عالياً ، ويثني عاطراً ، في خطبه البليغة المحبوكة على قواعد الفصاحة والبيـــان ، ويمتدح الملك « البربري » لكونه رومانياً بقلبه وعقله وروحه ، أخذ الكاتب الشاعر ورجل الدولة بوسيوس *Boèce* (٤٨٠ — ٥٢٤) ، يحاول ان يوسّع من أذهان معاصريه ويشحذ أذواقهم لتذوق الروائع الفكرية والأدبية الكلاسيكية التي طلع بها الفكر اليوناني الخلاق ، بعد ان تعذر عليهم قراءتها بلغتها الاصلية ، كل ذلك ايماناً منه واعتقاداً بأن الجمهورية الرومانية باقية أبد الدهر ، وانه لا بد من العمل على إحياء آدابها . وكسيودوروس *Cassiodore* نفسه ، الذي ولِد رومانياً وتولى رئاسة الديوان الملكي، يحاول، عندما يدعو للتساهل والتسامح المتبادل ، ان يهيء انصهار الغوط والرومان انصهاراً كلياً كاملاً .

وهذا الانصهار ، هل كان وشيك الوقوع ، بعـــد ان انثنت المدنية الرومانية عن حدودها الشمالية وانكفأت الى الجنوب حتى مشارف البحر الابيض المتوسط ، فعادت بذلـك ونبدأ ، سيرتها الاولى ، ضمن الملاكات والأُطر الجديـدة التي طلعت اذ ذاك ، على البلاد ؟ لا لعمري ، وذلك لأنه لا يزال هنالك حاجز يفصل بـين الزعماء الجرمان ورعاياهم يتمثل بحاجز الدين . فالشعوب البربرية كانت اعتنقت المسيحية، انما على مقالة الآريوسيين وتعليمهم، أي انهم يرسفون في الهرطقة . فقـد كانت لهم كنائسهم ومعابدهم واكليروسهم ، كما ان حزبيتهم الدينية هذه كانت مدعاة لتوعيتهم من الوجهة القومية . فبدلاً من ان يعودوا الى الرأي القويم ، الى الارثوذكسية ، أخذوا باضطهاد الكاثوليك وراحوا يطردونهم من كنائسهم ويجلونهم زرافات عن أوطانهم . وفي الواقع ، فقـد كانت روما في نظر جميع المسيحيين رمزاً للوحدة في

الايمان الواحد ، ولهذا تولى الاساقفة الذين أصبحوا بعـــد هلهلة الادارة الرومانية وانحطاطها ، الناطقين الرسميين بلسان السكان والمدافعين الشرعيين عنهم وعن مصالحهم ، كما أخذوا ينظمون حركة مقاومة طابعها ديني ، راحت تنتظم وتشتد ضد الدخلاء المحتلين. وهذه المقاومة تبدو على أبرزها ، في غاليا ، بزعامة سدوان ابولينير الذي أصبح أسقفاً لمدينة كليرمونت ، فسعى جاهداً ، بعد عام ٤٧٠ ، يحاول منع اريق *Eric* ، ملـــك الفيزيغوط ، من ضم مقاطعة اوفيرني ، الى ممتلكاته ، وهي مقاطعة معظم سكانها كاثوليك . ومقاومة مماثلة في افريقيا يحرّض عليها ويدفع اليها مواعظ الاساقفـة المبعدين عن كراسي ابرشياتهم ، وأخرى في روما نفسها حيث أخذت المؤامرات والدسائس تحاك بكثرة ضد الملك ثيودوريق. واذ رأى الملك نفسه في خطر يترصده ، حزم أمره على الشدة ، والتزم موقف الدفاع العنيف . فقـد قضى بوسيوس والبابا يوحنا الاول نحبهما أسيرين في بلاط ملك الاوستروغوط. واشتد الضغط وازداد أواراً بحيث اخذ يهدد ، جدياً ، الممالك التي أنشأها البرابرة ، من الاساس . ولكي يتخلص الشعب من سيطرة لا تطاق ، خارجة على الدين ، راح الكاثوليك يؤيدون ، من جهة ، الدسائس التي كان الامبراطور يحيكها في بيزنطية ، طمعاً منه باسترداد سلطته على البلاد ، ومن جهة اخرى ، كان تقدم برابرة الشمال ، وهم الفرنج الذين لا يزالون على عبادة الاوثان ، يغذي في النفوس ، الايمان بامكان اعتناقهم المسيحية على الرأي المستقيم . وهكذا ، بعد مائة سنة على بدء الغزوات ، ساعدت المعارضة الدينية التي قام بها الرومان ضد ملوكهم من الغوط والفندال ، على طلوع وضع سياسي جديد في الغرب ، يفصل سواحل البحر المتوسط المرتبطة بالدولة اليونانية ، عن القارة التي وقعت فريسة بيد أكثر الجرمان همجية وبربرية ، كان شأنه ان يرسم اتجاهاً جديـــداً لتطور الحضارة في الغرب ويرسم خط سير جديد لتاريخها .

بلدان البحر المتوسط

استطاع الامبراطور يوستنيانوس ، عام ٥٣٣ ، ان يحرر بسهولة كليـــة افريقيا ويستخلصها بيسر من مغتصبيها الفندال ، كما تمكن ، فيما بعد ، أي في سنة ٥٥٤ ، من ان يحرر مقاطعة بَتيك *Bétique* (الاسم الذي عرفت به مقاطعة الاندلس في عهد الرومان وهو مشتق من اسم نهر بَتيس *Bétis* او نهر وادي الكبير اليوم) ، وبذلك تم له الاشراف على شطري البحر الابيض ، والسيطرة على معابره ومجازاته ومضايقه . غير انه لم يكن له من الوسائل الحربية ما يساعده على الايغال بعيداً داخل البلاد ، عن سيف البحر . وهكذا بقيت في المغرب مناطق شاسعة لم تخضع له ، كما بقيت في داخل اسبانيا مناطق تخضع للفيزيغوط . ولم تجرِ أية محاولة ضد بلاد غاليا ومقاطعة البروفانس فيها فتركت وشأنها ، لتروح فريسة بيـد الفرنج . ولكي يعيدوا ايطاليا الى سيطرة الامبراطورية ، مباشرة ، اضطر قواد يوستنيانوس ان يخوضوا غمار حروب دامية استنزفت الكثير من الجهد المرير ، والدماء المطلولة ، والتضحيـات الغالية والوقت الطويل ، اذ ان حروب الفتح هذه ضد الاوستروغوط ابتدأت ، عام ٥٣٥ ، واستمرت حتى عام ٥٦٣ ، فاضطر عندها العدو ان يلقي سلاحه ويستسلم ، بعد حروب ومعارك طاحنة

جرّت معها الخراب والدمار .

وبالرغم من الشوائب التي اعتورت هذه الحملات العسكرية ، فقد ساعد الفتح على ضم بعض المقاطعات المطلة على البحر، الى الامبراطورية الشرقية التي يقع معظم أقاليمها الشرقية على مقربة من البحر وتتقبل مفاعلات الشرق ومؤثراته . ومنذ ذلك الحين ، أخذت النماذج الفنية تغزو هذه البلاد متغلغلة فيها عن طريق المرافىء الايطاليـــة الكبرى ، أمثال : رافينا ، ونابولي ، وقرطاجة، يشجع على الأخذ بها، وعلى الترويج لها، هذه الجاليات اليونانية التي سبقت واستقرت فيها منذ القرن السادس، ممثلة بأفراد الجند والموظفين الاداريين وغيرهم من شذّاذ الآفاق والتجار القادمين من بيزنطية ، كما انتقل اليها ، في القرن السابع ، عدد كبير من رجال الدين والرهبان الذين فروا أمام الفتح الاسلامي . وهذا التغلغل البشري الذي صحبه تغلغل فني آخر ، يتمثل بهذه المباني التي شيّدت في مدينة رافينا بعد ان تم جلاء الغوط عن البلاد يشهد عالياً على روعة هذا الفن الذي كان تأثيره عميقاً ، كما يبدو من خلال هذه الرسوم الجدارية التي تزين تلك المباني ، ولا سيما كنيسة كاستل – سبريو الصغيرة على مقربة من مدينة ميلانو ، منها الى الشمال قليلاً . وكان من جراء ذلك تلقيح الفن الشعبي في البلاد بالاشكال والنماذج الفنية البيزنطية التي ، بعد ان تمازجت بالفنون المعمول بها في تلك البلاد، كما نشاهد ذلك في فسيفساء الكنيسة الرومانية المشادة على اسم القديسين كوزموس ودميانوس ، وساعدت على انتاج روائع فنية تفرض الاعجاب ، طبعت الفن الايطالي طيلة الاجيال الوسطى .

والاتصالات الوثيقة التي ربطت هذه المقاطعات التي تم تحريرها بالمراكز الثقافية والحضارية الكبرى في الشرق الادنى، ساعدت كثيراً على اذكاء شعلة الحضارة فيها . إلا ان محاولة الامبراطور يوستنيانوس القيام بما قام به من فتوح جرّت الدمار والخراب على تلك المقاطعات ، وارزحتها تحت ما اناخت عليها من ارزاء فهوت الى الحضيض . وهزّ الخراب الذي نزل بها ، ما تبقى من معالم المدنية الرومانية التي حاول ثيودوريق ، من قبل ، صيانتها والحفاظ عليها . والى هـــذه الحقبة يعود بالفعل الانحطاط الذي أصاب روما . فقد الغيت فيها ، عام ٥٤١، وظيفة القنصلية، كما ابطلت فيها العاب المصارعة عام ٥٤٩ ، والعاب الظفر عـــام ٥٥٢ . وآخر اجتماع لمجلس الشيوخ *Sénat* يعود لسنة ٥٧٩ . وقد دهك الريف في هـــذه الحروب وقضي على الكثير من النخبة بين صفوف الطبقة الارستوقراطية، كما امتلأت النفوس وأفعمت القلوب حقداً وضغينة على البيزنطيين الذين لم يكن لهم من هم سوى استثمار ظفرهم الى اقصى حد . فلا عجب ان تصبح هذه المقاطعات ، بعد ان اناخ عليها الدهر بكلكله ، لقمة سائغة للطامعين اليها والراغبين فيها ، اذ لم يمض سوى خمس سنوات على استسلام آخر المحاربين من الاستروغوط ، حتى اجتاز ، عـــام ٥٦٨ ، شعب جرماني جديد ، هم اللمبارديون، جبال الألب وانقض على شمالي ايطاليا التي كانت استنزفت كل دمائها . وبعـــد ذلك بنحو قرن ، راحت خيول المسلمين تدك بسنابكها أرض افريقيا ، فيغمر الاسلام شمالي القارة فتغرق تحت سيله الجارف . فبـــدلاً من ان يعيد الفتح

البيزنطي الوحدة الى الامبراطورية الرومانية ويوطد منها الدعائم ، ساعده بعكس ذلك تماماً على عزل هـذا القطاع الجغرافي الواقع بين شواطىء البحر المتوسط الشماليـــة وجبال الابنين ومجرى نهر البو الاسفل ، كما ساعد على فصل شبه الجزيرة الايطاليـــة وما اليها من جزر ، عن شمالي افريقيا وامتداداتها حتى اسبانيا من الغرب والحاقها بالشرق . وبذلك حيل بين القـارة الاوروبية وبين هذا البحر اللاتيني وما يمثله من تراث ، قديم ، خالد ، فارتمى بين احضان البربرية الجرمانية وهمجيتها وراح ينظم نفسه تدريجياً متخذاً من استقلال غاليا الفرنجية محوره ونقطة دائرته .

غاليـا الفرنجية

احتل الفرنج الساليون *Francs Saliens* المقاطعة الواقعة بين الرين ، شرقاً ، ونهر السوم ، غرباً . فانشأوا ، منذ منتصف القرن الخامس علاقات تحالف مع الدولة الرومانية الصغيرة المقتصرة رقعتها على مقاطعة إيل ده فرانس ، هي البقية الباقيـــة من الامبراطورية الرومانية في غاليا ، يدفعون عنها ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، عوادي الدهر ، وتمديات الهونز والفيزيغوط وقراصنة السكسون . وحوالي عام ٤٧٠ ، حل أوفر امراء قبائل الفرنج نشاطاً ، هو الملك شلدريق ، في مدينة تورنيه ، محل الحكام الرومانيين . وتمكن ابنه كلوفيس من التغلب ، عام ٥٨٦ ، على سياغريوس *Syagrius* ، آخر هؤلاء الحكام الرومانيين ، في معركة سواسّون واستولى على كنوزه ومجوهراته ، ثم راح يصفّي ، تباعاً ، ملوك القبـائل السالية الاخرى ، الواحد بعد الآخر ، وتغلب على قبائل الألامان وقلّم اظـافرهم ، واخضع لسلطانه النامي ، كل المقاطعات الواقعة بين نهر الموز *Meuse* واللوار *La Loire* . واستطاع في السنوات الاخيرة من القرن الخامس طرد الفيزيغوط بعيداً عن مدينة تورس ، فوقع تحت تأثير مطرانها القديس مرتينوس فاحسن وفادته ، وتأثر بالخرقـــات والعجائب التي تمت على يده ، فقرر اعتناق المسيحية ، ليس على مقالة الآريوسيين كغيره من برابرة الجرمان ، بل على المذهب الكاثوليكي ، وتمت حفلة تنصيره في مدينة ريمس *Reims* ، بين ٤٩٦ و ٥٠٦ ، فاصبح كلوفيس بذلك الرئيس الاوحد للدولة الكاثوليكية الوحيدة في الغرب . فكان لهذا الحادث صداه الداوي في جميع الارجاء ، تبلغه بارتياح كل اساقفة غاليـا حتى ان احدهم هو المطران أفيت *Avit* ، أسقف مدينة فيينا عبّر باسم الجميع عن ارتياحه لهذا التطور العظيم ، وراح يحث الملك الجـديد على ان يشرف بنفسه على أعمال الرسالات التي تتولى الكرازة والتبشير بالدين الجديد . ففي هذا دعوة صريحة لمباشرته بتطهير جنوبي غاليا من طغيان هرطقة الآريوسيين . وبالفعل أرسل كلوفيس جيشه لمهاجمة الفيزيغوط ، فكسرهم وهزمهم شر هزيمة في موقعة فوييه *Fouillé* ، عام ٥٠٧ ، وقتل الملك ألاريق ، وطارد فلول جيوشه الى ما وراء جبال البيرانيس . وبعد غزوته المظفرة هـذه ، ارتدى في مدينـــة تورس ، وشاح القنصلية الذي أرسله له الامبراطور انستاسيوس . ومنذ ذلك الحين ، كما يؤكد القديس غزيغوريوس التورسي أخذوا يلقبونه بـ «قنصل واوغسطس» . ثم اخضع قبائل الفرنج المعروفين بـ «*Ripuaires*» على الرين ، وجاء واستوطن باريس وفيها توفي

عام ٥١١ ، بعد ان ترأس ، في مدينة اورليانس ، أول مجمع وطني عقدته كنيسة غاليا الفرنجية واكمل بنوه عمله، واتموا الرسالة التي شرع بها، فضموا الى ممتلكاته مملكة البورغونيين، عام ٥٣٤، واخضعوا مقاطعة تورانج . والملك ثيبرت ، الذي وقف الى جانب الامبراطور يوستنيانوس وآزره في حروبه في ايطاليا ، يقطع مقاطعة بروفانس ، وضرب السكة الذهب ، فكان أول ملك « بربري » يضرب السكة باسمه . وهكذا ما كاد ينتصف القرن السادس حتى أصبحت كل غاليا ، باستثناء مقاطعة بريتانيا والبشق منها ، ومقاطعة سبتيانيا الفيزيغوطية ، مع قسم من جرمانيا ، تؤلف معاً مملكة واحدة ، هي مملكة الفرنج .

انه لنظام سياسي غريب : فالامبراطورية لم ترْعَ تكوين هذه الدولة ولا نشأتها ، فتم هذا كله بمعزل عن الأعراف والأطر الشرعية « للتحالف » واصول « الضيافة » والإقراء ، دون ان يحصل شيء من الخراب ، وربما بدون أي مصادرة بالجملة لأملاك الدولة . وليس ما يؤكد أو يثبت ان زعماء الفرنج استولوا على جانب من الأرضين التي كانت ملكاً للارستوقراطية الرومانية في غاليا ، هذا لو سلمنا فرضاً انهم صادروا قسماً من الاملاك العامة . وقد سهّلت وحدة الايمان المشترك عملية تمثّل الطبقات العالية في المجتمع ، اذ ذاك . ففي الربع الأخير من القرن السادس يُفتتي غريغوريوس التورسي باعتزاز كلي ، وهو سليل الطبقة المشيخية ، المجد الأثيل الذي يملأ بردتيه لانتسابه الى أمة الفرنج . فلم يكن في هذه المرة ، دخول أي من البرابرة في حوزة العالم الروماني ، بل على عكس ذلــك تماماً ، اذ ان جانباً من العالم الروماني دخل بين ممتلكات امة مسيحية ، لا تشدها الى بيزنطية صلة ما . من حواضرها الكبرى ومراكز الجذب والثقل فيها مدن مشهورة كباريس واورليان وريمس وسواسون ، وكلها واقع على مشارف العالم المتحضر ، كما ان قسماً من ممتلكاتها كان يمتد بعيداً ، سواء من الشرق أو من الشمال ، ليصل الى قلب البربرية الجرمانية . ففي هذا الإطار الجغرافي الاثنوغرافي نرى التقاليد الرومانيـــة تندمج بالعادات وتتمازج بالأعراف التي حملها معهم الغزاة الطارئون ليخرج من هذا الانصهار البطيء وهذا التمازج الوئيد ، حضارة كل ما فيها أصيل .

تميز هذا المركّب ، منذ بدء أمره ، والحق يقال ، بانخفاض ملحوظ في المستوى الحيـــاتي والثقافي والحضاري ، نمّ عن هذا الفارق العظيم القائم بين القارة والقسم الجنوبي منها : ايطاليـــا وافريقيا الشمالية الذي نشطت فيه الحياة من جراء الاتصالات المستمرة مع الشرق . وهـــذا الانحطاط الذي استطال حبله حتى مطلع القرن السابع ، طبع بدوره النظم السياسية القائمة اذ ذاك ، كما ترك طابعه على الوضع الاجتماعي، والحركة الاقتصادية والفكرية والدينية ، في المملكة .

المجتمع الميروفنجي

لم يكن كلوفيس وخلفاؤه من بعـــده ، بعكس الممالك الاولى التي أنشأها البرابرة، من أحلاف الامبراطورية ، وملزمين بالتالي ، مثلهم ، بالولاء للدولة الرومانية واحترام نظمها ومؤسساتها ، بعد ان أولتهم رعايتها وأدخلتهم في خدمتها ، فاتحين ، أحراراً ، متحررين من كل التزام نحوها . فقد أخذوا السلطة عنوةً وغلاباً ، بعد ان قضوا على

منافسيهم وأزالوا مزاحمتهم . فقد رأوا في السيطرة التي آلت اليهم صاغرة ، حقاً من حقوقهم الشخصية ، وجزءاً من تركة لم يكونوا ليؤدوا عن ادارتهم لها حساباً لأحد ، يتصرفون بها كيفما يشاؤون ، وينتدبون لها من يرغبون من الانصار والمحاسيب ، يتقاسمها ورثتهم وفقاً للأعراف المتبعة . وهكذا قسمت مملكة كلوفيس ، عند وفاتـه عام ٥١١ ، بين أولاده الاربعة . فنظر الملوك الميروفنجيون ، الى المقاطعات التي آلت اليهم ، نظرة بدائية ، واعتبروها نوعاً من الاقطاع التوابع ، لهم عليها ملء السلطة ، أخذاً منهم بالتقاليد التي سار عليها أجدادهم ملوك تورنيه . فكانوا يعتبرون أنفسهم قادة حرب يقودون جيوشهم لخوض المعارك ، ويسهرون ، باسم الشعب ، على استتباب أسباب السلام والطمأنينـة ، وترؤس الاجتماعات العامة ، يعقدونها لإجراء العدل وإقامة القضاء فيما بينهم ، ويحرصون على حسن تنفيذ قراراتهم وأوامرهم . فبعد ان نشروا سلطانهم على كل أطراف غاليا ، فرضوا على رعاياهم : رومانيـين كانوا أم برابرة ، الخدمة العسكرية والولاء للتاج . ولم يخطر لهم على بال انه يترتب عليهم مسؤوليـات او مهام أخرى ، كإتمام الرسالة التي قامت بها روما من قبل ، مثلاً ، ونشر أسباب الحضارة في أطراف البلاد ، كما تمنى ذلـك وراح يحققه الملك ثيودوريق نفسه . وكان يكفيهم ان ينعموا بالسلطان . فالملك أو الحكم ، في نظرهم ليس سوى وجه من وجوه الاستثمار الشخصي . للملك وحده دون سواه ، حق الاستمتاع به ، على هواه ، دونمـا رقيب أو حسيب . وكان يتولى الادارة باسمهم ، في المقاطعات ، نواب الملك ، فيُعهد اليهم بجباية الرسوم والضرائب التي تؤمن نفقة المقر الملكي وما في المقر من حاشية عريضة . وكان جل ما يطمعون به ، توفير النقد المتداول بين النـاس ، ولذا حرصوا الحرص كله ، على صيانة النظم والمحافظة على المؤسسات التي توفر لهم حاجتهم من المال . وكانت جباية الخراج وضريبة الاعناق معقدة للغاية لما كانت تقتضيه من الجهد الموصول لتأمين الدقة في سجلات المساحة والاحصاء . وكانوا يجهلون جهلاً تاماً كل ما يتصل بالضرائب المباشرة التي لم تألفها طباع القبائل الجرمانية وأعرافهم المتوارثـة . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان يُعرِض الملوك بسهولة كلية عن هذه الرسوم والحقوق المرتفقة التي كانت تؤمن دخلاً ضعيفاً لهم ، فاستبدلوها برسوم فرضوها على التنقل والانتقال ، وعلى معارض التجار وأسواقهم ، لما في جباية رسومها من سهولة وسرعة . وهكذا أهملت تدريجياً النظم الادارية التي عُمل بهـا طويلاً وروعي جانبها أبّان الادارة الرومانية ، فلم تلبث ان تنوسيَ أمرها وعفي ذكرها . اما الادارة المحلية في القضاء او الدائرة *pagus* ، فكانت من صلاحيات حاكم اداري ، من خاصة الملك يحمل لقب « كونت » تُركت له أعباء السلطة الادارية والعسكرية ، همه الاكبر ان يُوصل الى القصر الملكي ، العائدات التي جباها رسوماً او مخالفات ، فيحتفظ بقسم ضئيل منها كمرتب له ولرجاله ومعاونيه .

والمعنى المجرد او الاسمي للدولة ، فقَد كل مدلوله في الوقت الذي اتسعت فيه رقعة الدولة ورحُبت آفاقهـا ، فتخلخلت العلاقات التقليدية التي شدت ، من قبل ، الاحرار من الشعب

السالي ، الى ملوكهم ». فرأى الملوك الميروفنجيون أنفسهم مضطرين ، إبقاءً على السلطة المطلقة التي وقعت في قبضة أيديهم ، ان يفوزوا بأيد هذه الطبقة المتنفذة ، ويحوزوا على نُصَراء لهم عن طريق اشراكهم بمنافع السلطة . وفي هذا السبيل أخذوا يوزعون على من أنِسوا منهم الولاء، الذهب ، ويُقطعونهم الاراضي الواسعة ، جذباً لهم، واستدناءً ، لقاء تعهد بتقديم الولاء يقطعونه لهم . وآثروا لمناصرتهم والشدّ من أزرهم ، هذا الفريق من الاحرار الذين تعهدوا بالولاء للملك ، فجعلوهم في عـــداد رجال حرسهم ؛ وأنعموا عليهم بلقب كونت ، وأولوهم شيئاً من سلطانهم ، وأقطعوهم بعض الارضين ، وعهدوا اليهم ببعض الوظائف ، مــن بينهم أساقفـــة رأوا من حقهم وحدهم اختيارهم وترشيحهم لإدارة الابرشيات والاسقفيات . وهكذا ساعدت الهبات التي أغدقها هؤلاء الملوك ، والأعطيات التي أسبلوها اصطناعاً للانصار، على إنشاء طبقة جديدة من الاشراف ، توارث أصحابها هـذه المناصب خلفاً عن سلف ، وهي طبقة لم تكن معروفة من قبل ، في المجتمع الفرنجي حيث لم يكن ما يميز ، اجتماعياً ، الاغنياء عن الفقراء . وهكذا لم تلبث بعض أسر الفرنج ، على أثر ما أقطعت من ارض وسلطان ، وعلى أثر المصاهرات التي تمت بينها وبين الطبقة المشيخية من الغالو ـ الرومانيين، ان نعمت بامتيازات خاصة، من بينها « فِدية الدم » المترتبة للقائمين على خدمة الملك، وهي فدية كانت ثلاثة اضعاف الفدية المترتبة لغيرهم من الاحرار وأزود .

طالما عرف الميروفنجيون ان يحافظوا على قوة بأسهم، استطاعوا ان يحتفظوا بأعِنة السلطة، عن طريق توزيع عوارفهم وإنعاماتهم ، بدقة وحكمة وتدبر ، على من يصطفونهم . فأطفأوا بالدم والنار كل محاولة عصيان أو انتفاضة على السلطان ، وبذلك عرفوا ان يؤمنوا ولاء كبـار القوم ، وبواسطتهم ، السيطرة على البلاد . وعلى إثر وفاة ملكهم داغوبير *Dagobert* ، عام ٦٣٩ ، توالى على أريكة الملك ، عدد من الملوك ، مات كثيرون بينهم وهم في ميعة العمر وشرخ الشباب بعد ان انهكهم الاسترسال الباكر وراء لذائذ الحياة ومباهجها بينما تولى نفر منهم، مخبول معتوه، منحط، مهام الملك، فأناطوا امره وسياسته بغيرهم. فعاد ذلك على الطبقة الارستوقراطية بالمزيد من النفوذ والسلطان ، وراح النبلاء ، في كل من المقاطعات الثلاث التي توزعت اليها املاك التاج، وهي نوستريا *Neustrie* واوسترازيا *Austrasie* وبورغونيا ، ينظمون أمورهم ويضبطون شؤونهم على شكل يؤمن لهم استثمار هذه الإيالات لحسابهم الخاص واستخلاص خيراتها ومواردها لانفسهم، لهم في البلاط الملكي ممثل أو مندوب هو رئيس الخدم، أو قيم القصر *Maire du palais* الذي كان، أصلاً، المتصرف بخدم القصر وحشمه، يقوم بأحط الخدمات وأخسها. وكان يشرف، بحكم وظيفته ، على مصارفات الملك وحاشيته ، ويتولى تنظيم تنقلاته بين دارة واخرى ، ومن قصر الى قصر ، جامعاً في قبضة يده موارد المملكة ويقرر وجوه إنفاقها . فهو المسؤول الأول عن الترحيب بزائري القصر من أبناء الأسر الشريفة يستجدون منه التوصية ويطمعون على يده، بكسب العطف ونيل الرعاية للعمل في حاشية الملك ، يتدربون في المعية على الوظائف التي لا بدّ

من ان ينتدبوا يوماً لها . فليس من عجب ، والأمر كما ذكرنا ، ان يصبح سادن القصر *Le maire du palais* ، بعدما آلت اليه الاسرة المالكة من انحطاط ، الشخصية المرموقة الأولى، في البلاد ، مع ان وظيفته كانت ، في الاساس ، جد متواضعة . وهكذا تقع ، في اواخر القرن السابع ، حركة واسعة في ميدان التطور السياسي والاجتماعي ، اخذت بوادرها تطل ، منذ أواخر عهد الامبراطورية الرومانية ، فقد تنوسي كل ما هو مصلحة عامة *Respublica* وبُهِمَ مفهوم هذا المصطلح ، وألغيت الضرائب عن الرجال الاحرار ، واستعيض عنها بفرض خدمات شخصية ، عليهم ان يؤدوها خدمة فعلية في الجيش أو في القضاء والمحاكم . فملء السلطة المدنية صارت الى فئة صغيرة من كبار الملاكين من النبلاء الذين يحوزون اعداداً كبيرة من الارقاء والعبيد والاجراء العاملين في الارض ، والى مقدمي الفرنج ، ممن هم دونهم ثروة وجاهاً ، يعملون تحت إشرافهم .

وفي الوقت ذاته ، انتفت من مملكة الفرنج معالم هذه النظم الاقتصادية المتوارثة عن التاريخ القديم . فقد نشطت الى هذا العهد، الحركة التجارية ولا سيما حركة استيراد المنتوجات والمحاصيل الشرقية . فقد كان سبق للملك كلوتير الثالث ، ان أنعم ، في حدود عام ٦٦٩ ، على رهبان دير كوربي *Corbie* ، بحق الامتيار والتموين من المخازن الرسمية في دائرة المكس ، القائم في مرفأ فوس *Fos* ، من اعمال مقاطعة بروفانس، كما أعطوا الحق ان يتناولوا من المخازن المذكورة، حاجتهم من الطيوب والأفاويه ، والتمور والتين المجفف ، وكميات كبيرة من زيت الزيتون ، اذ كان رهبان الدير المذكور يستهلكون ، يومياً ، كميات كبيرة من هذه المواد التي كان يُؤتى بها من بلدان البحر المتوسط والشرق الادنى . وكان يقوم في حواضر البلاد الكبرى ، جاليات سورية من يهود ونصارى ، حذق اصحابها اليونانية ، وليس بعجب ، واحتكروا تجارة هذه المواد الاجنبية ، وكان من وفرة النقد الذهبي العائد لملوك الدولة الميروفنجية من جباية الرسوم المفروضة على بضائع التجار وسلعهم ، ما يقيم الدليل عالياً على رواج هذه التجارة وازدهارها . غير ان هذه الحركة التجارية اخذت تضعف مع الزمن ، وما عتمت ان زالت معالمها تماماً واندرس كل اثر لها ، في فجر القرن الثامن . فحلت المحاصيل الوطنية محل البضائع المستوردة من الشرق والجنوب. وفي الحقبة الواقعة بين ٦٦٠ — ٦٨٠، اخذ الديوان الملكي يُهمل استعمال ورق البردى ، المصري الاصل والصنع ، ويستعيض عنه بالرقوق ، كما حل في مقاطعات الشمال ، الشمع محل الزيت ، في انارة الكنائس . والمعادن الثمينة راحت تستعمل ، في الاكثر ، في صناعة الحلي والجوهرات التي كان يحرص الملوك على جمعها وتكوين مجموعات طائلة منها ، كما حرصت الرهبانيات وابناء الطبقات الارستوقراطية على ادخارها والإكثار منها . وتوقفوا عن سبك العملة الذهبية بينما تكاثر سك الفضة بعد خلطها بالرصاص بنسبة عالية ، مما افقدها الكثير من قيمتها الذاتية . ومن تدني قيمة النقد في عهد الدولة الميروفنجية نستطيع ان نتبين الى اي حد بلغت الحركة التجارية في انطوائها وانكماشها في هذه الحقبة بالذات .

تقهقر الحضارة

وهذا التدهور الاقتصادي ، كان من بعض نتائجه انحطاط الحضارة الكلاسيكية . فقد عرفت ان تحافظ على مستواها ، مدة أطول ، في المقاطعات الجنوبية من المملكة الميروفنجية ، ولا سيا في مقاطعة البروفانس . فقد عين الملك ، في اواسط القرن السادس ، احد رجال الاكليروس ، في باريس ، اسقفاً على مدينة أفنيون، فقد شعر الاسقف الجديد في صميم نفسه واعماق قلبه انه لا يليق بتولـّي رعي هذه الاسقفية ورعاية المؤمنين فيها ، لما كان عليه من خشونة الطباع وقلة البضاعة الثقافية اذا ما قارن نفسه بما بلغه مسيحيو منطقة الجنوب من درجة عالية في مدنيتهم . كذلك نرى مشاغل الحفر والنقش في مقاطعة الاكويتان ، تصدّر، في القرن السابع، نقوشها الفنية ومحفوراتها، الى كل انحاء المملكة. ولكن هذه المقاطعات التي اغرقت فيها اصول التقاليد الرومانية ، وضربت جذورها بعيداً في الأرض منذ عهد سحيق ، كانت تقع على اطراف المملكة الميروفنجية ، في الجنوب ، وقعت بالتالي فريسة للنهب والسلب – ولا سيما مقاطعة اكويتانيا منها – من قِبل جيوش الفرنج التي لا عمل لها . وهكذا تعطلت عندها ، على مر الزمان ، كل قدرة على الاشعاع ، الى ما يقع وراء نهر اللوار ، فغلبت على اهلها النزعة البربرية ، وخشنت بالتالي طباعهم وبَهُمَت افهامهم ، وندرت فيها وسائل العلم وضمرت النوازع الى طلبه والسعي وراءه ، باستثناء بعض مبادىء بدائية ، ساذجة ، كان يتلقاها الرهبان ورجال الاكليروس ، في المدارس الاسقفية . وقد اختصرت الادارة الملكية واستهانت بحيث كانت تقنع بمواطنين اداريين على مستوى واطٍ من التعليم . فانعدمت القراءة ، وتضاءل جداً عدد الذين يحسنون مبادىء الخط ، وتباعدت جداً لغة التخاطب ، عن اللاتينة الكلاسيكية ، لتستقر منها على لهجات هي بالاحرى لغى . والشاعر فورتونا *Fortunat* الذي تخرج على مدرسة رافينا ، وفيها نبه ذكره وعلا شأنه وامره ، وجد في اواسط القرن السادس ، من يتبادل معهم الرسائل من اعضاء الطبقة المشيخية القديمة في غاليا. وفي هذه الحقبة بالذات تقريباً ، نرى غريغوريوس التورسي يكتب بلغة لاتينية مهلهلة، ويلوم زمانه الذي أصاره ليشهد ذبول الادب وأفول الثقافة . ففي القرن السابع ، يكاد الاسقف ديديِيَه الكاهوري *Didier de Cahors* يكون الشخص الوحيد الذي تمت له مسحة من الثقافة القديمة . ونرى صاحب *Chronique de Frédé guire* يشكو زمانه ، ويلوم دهره ، لكثرة ما يعتور تاريخه من شوائب ونواقص ، مسؤولة عنها هذه البربرية التي صارت اليها البلاد .

وهذه القهقرى العامة تظهر على اتمها في التنظيم البدائي الذي بدت عليه النصرانية ، اذ ذاك. صحيح ان غاليا حققت وحدة الايمان في عهد الدولة الميروفنجية . فلم يرتفع فيها ، خلال هذا العهد ، أي صوت ناشز ، ولا ارتفع فيها هذا الجدل الديني الذي يثيره ظهور المشاقين الهراطقة ، الامر الذي يكوّن ، والحق يقال ، دليلاً قاطعاً على ما بلغه الفكر اذ ذاك ، من تبلّد وتبهّم وتحجر . صحيح ان الملك يرعى جانب المسيحية ويكلأ بعنايته الكنائس والمعابد فيغدق عليها

عوارفه بسخاء ، ويعترف للاديار بانعامات وامتيازات كثيرة ، ويعفي املاكها من الضرائب والرسوم . وليس من شك في ان ثروة الديارات والمؤسسات الدينية والرهبانية نمت نمواً كبيراً في وقت ساد فيه الاعتقاد ان الخلاص الابدي وقف على الاحسان والتصدق . إلا ان هذه المؤسسات أُصيبت تدريجياً ، هي الاخرى ، بانحطاط ذريع كغيرها من المؤسسات التي يرجع عهدها للمدنية الرومانية في العهد الامبراطوري. فقد كان الاساقفة يُنتَقون، في القرن السادس، من بين أعضاء الأسر الارستوقراطية الغالو ـ الرومانية المحافظة ، ممن تم لهم شيء من الثقافة وكانوا من ذوي السيرة الحميدة ومكارم الاخلاق . ولذا ألـِّف المصف الاسقفي ، في هذه الحقبة المعروفة بتفسخ الاخلاق وتحلل المبادىء القويمة، أنشط الطبقات الاجتماعية وأنقاها على الاطلاق، في عهد الدولة الميروفنجية . إلا ان ملوك هــذه الدولة بالذات ، لم يعتموا ان رفعوا للمنصب الاسقفي الذي يتمتع بانعامات ومنافع عديدة ، عدداً من أنصارهم والمقربين اليهم من العلمانيين ، ممن لا قيمة خلقية او أدبية لهم ، ولا همّ لهم غير استثمار مناصبهم الجديدة في ما يؤمن لهم المزيد من الربح . والمجامع الكنسية القومية التي كانت تنعقد من وقت الى آخر وتضم أساقفة البلاد ، تحت رئاسة الملك ، ويتخذ انعقادها رمزاً لوحدة الكنيسة بكامل ما يتصل بالايمان والعقيدة ، أخذ انعقادها يقل ، شيئاً فشيئاً ، في القرن السابع ، الى ان انقطع تماماً بعد عام ٦٩٦ ، وبعد هذا التاريخ أصبح عدد من الابرشيات شاغراً ينتظر عبثاً من يمــلأه باستحقاق ، ولا سيما في الجنوب .

وفي الواقع ، ان ما اصيبت به الحبرية من وهن وانحطاط ، وهي ما هي في النظام الكنسي، كان شديد الخطر في نتائجه . فالوثنية كان لا يزال لها ، في الإيالات والمقاطعات الواقعة في شمالي البلاد، عدد كبير من الانصار والاتباع. ففي كل اطراف المملكة، تسرب الى صفوف المسيحيين كثير من أعراف الغزاة والبرابرة الفاتحين ، كما نشط الاخذ بالاساطير والخرافات الوثنية القديمة، كما يبدو ذلك واضحاً من معالم المدافن والطقوس الجنائزية ، اذ ذاك . وهــذا أدى بدوره الى تأخر الحياة الروحية ، وبالتالي الى تخلخل الاخلاق وتفسخها . وبلغ من انهيار الوازع الديني في الطبقة الارستوقراطية ما ترتعد لهوله الفرائص وتقشعر له الابدان ، فانتفت الاخلاق من الحياة الزوجية ، وشاعت أيما شيوع ، عادة التسري والمعاشرة الجنسية غير المشروعة ، وأُهمل العدل واستبيحت العدالة ، فصارت الكلمة للقوة ، ومقاضاة الحقوق للسيف بهمجية لا تعرف الرحمة . وتبدو على الهياكل البشرية التي نبشت من أجداثها ، آثار الكلوم والجروح التي أصابت أصحابها وجرّت عليهم الشَوَه او الكساح ، وكلها تنطق عالياً بارتفاع معدل الوفيات بين الاطفال وانخفاض نسبة المراهقين. وفي هذا كله، دليل ناصع وبرهان قاطع على صحة ما تنوّه به النصوص والوثائق التاريخية ، من عنف الكبار في معاملة مرؤوسيهم ، وبؤس الطبقات السفلى وما تعانيه من سوء التغذية . وظواهر هذا الوضع الزري ، تبدو على أتمّها ، في كل مرافق المدنية، اذ ذاك: فساد التقاليد القديمة المتوارثة من أقدم العصور وتفسخها، وتغلغل العادات والذهنية الجرمانية، والانتقال الى الهمجية المرعبة .

ومثل هذا التحول والقهقرى ، حدث في اسبانيا ، في القرن الرابع ابان حكم الاوستروغوط على البلاد . فقد اعتنقت قبائل الاوستروغوط فيها العقيدة الكاثوليكية ، بعد ان تخلى ملكهم ريكاريد *Récarède* ، عام ٥٨٩ ، عن القول بمقالة الآريوسية ، الأمر الذي سهّل كثيراً ، حركة التقارب فانصهار البرابرة ، بالمجتمع الاسباني الروماني . فنجم عن هذا الانسياح الاثنوغرافي ، تحلل في المقومات الحضارية وتفسخها . وقد رسم لنا ايزيدوروس الاشبيلي الذي توفي عام ٦٣٦، في كتابه الموسوم: «*Etymologies*» صورة عن التراث الادبي للحضارة الرومانية التي زهد الناس في قراءة روائعها الفكرية وأعرضوا عنها أيما إعراض، كما زهدوا بقراءة روائع الادب الكلاسيكي، وتنوسيت اللاتينية ، وبطل استعمالها بين الناس ، كما نلاحظ انهيار السلطة الملكية وبروز الطبقة الارستوقراطية . إلا ان العنصر الجرماني الذي اندسّ في شبه الجزيرة الايبرية وانساح في أرجائها ، كان اعجز من ان يلقحها بعوامل ومؤثرات جديـــدة تؤمن لها شيئاً من التجدد والانبعاث ولو كان فيه ما يؤول الى إفساد الحضارة الرومانية وتبغيلها . وقـد تسبب الرجوع الى الهمجية وجاهلية الجرمان ، في هذه البلاد ، عن انهيار عام امتد افقياً وعمودياً ، بحيث ان السرايا العربية الاسلامية القليلة العَدَد والعُدَد التي هاجمت البلاد ، عام ٧١١ ، استطاعت على ضآلتها، فتح البلاد وتصفيتها بسرعة فائقة، بعد معارك قليلة دون ان تلاقي فيها مقاومة كبيرة. اما الوضع في غاليا ، فقد كان على عكس ذلك تماماً ، ولا سيما في هذه المنطقة الواقعة بين نهري اللوار والموز ، وبين البحر الشمالي ، نقطة الاتصال بين البلدان الرومانية القديمة وبين البلدان الجرمانية. فالتقهقر التدريجي الذي اصيبت به النظم الحضارية في هذه المنطقة ، وتدهور الثقافة والاخلاق والعلوم التي تبلّغتها من الاجيال القديمة ، كل ذلك أمكن تعويضه ، الى حد بعيد ، عن طريق العناصر الاصيلة التي نقلها معه العالم البربري . فانصهار الشعوب والاقوام في هـــذه الرقعة من العالم جاء بنتائج طيبة وأعطى أشهى الثمار. ففي وسط أكبر انهيار حضاري، وأعمق انحطاط فكري وخلقي شهده التاريخ ، بدا من خلال القرن السابع ، مع ذلك ، رسيس حركة بشّر طِلعُها ببدء نهضة جديدة مباركة .

بوادر يقظة تلوح في الافق

وهكذا ، فالحركة التجارية التي كادت تتوقف وتنقطع تماماً بين بلدان البحر المتوسط ، اخذت تستعيد شيئاً من نشاطها وتنتظم تدريجياً في أطُر جديدة ، وذلك بسلوكها طرقات تتجه شطر شواطي غاليا الغربيـة والجزر البريطانيـــة . فالملاحة نشطت أكثر فأكثر على مجاري السين واللوار وعبر المانش صوب بحر الشمال ، تتنقل السفن بين مرافىء المحيط الاطلسي الاوروبية وقـــد نشطت حركة التجارة والمقايضات في مرفأ روان ومرفأ كنتوفيك *Quentovic* الذي قام من عهـد قريب على مجرى الكانش *Canche* في مقاطعة أرتوَى . وبفضل تجار من قبائل الفريزون *Frisons* الذين كانوا يؤمّون الاسواق التجارية في سان دنيس *St. Denis* وأسواق لندن ويورك التجارية، قامت علاقات بين غاليا وربنانيا الجرمانية والبلدان الواقعة على البحر البلطيقي . ففي الوقت الذي قلّت فيه

العملة الذهبية ، احدى وسائل المقايضات التجارية الكبرى ، في العهد الروماني ، درج استعمال النقد الفضي في جميع أنحاء غاليا ، وهو نقد ألِف الانكلو سكسون ضربه ، كل ذلك جاء دليلاً على رسيس اليقظة التي دبّت في الحركة التجارية واتجاهها ، اذ ذاك .

ومن بوادر هذه الحركة التجددية، انتشار الديانة المسيحية. فبعد ان رسخت الديانة الجديدة، في المدن وحواضر البلاد الكبرى ، اخذت تمتد الى الريف وتنتشر فيه على نطاق واسع ، لا سيما بعد انتقال الطبقات الطافرة اليه واقامتها فيه . وأماكن العبادة التي أقامها الاساقفة في القرى والدساكر الريفية، والكنائس الخاصة التي شيّدها كبار الملاكين في ممتلكاتهم الواسعة على مقربة من الدور والصروح والفيلات التي قامت لهم فيها ، لم تلبث ان اصبحت مراكز اشعاع ديني ، وقواعد للكرازة والتبشير يتجند لها عدد كبير من الرهبان والرهبانيات ، كما أصبحت بعد قليل، مراكز لجماعات مسيحية تألفت منها رعويات وخورانيات جديدة . واخذت هذه الحركة التطورية تسير بخطى واسعة . فأبرشية مدينة بورج مثلاً ، التي لم تكن لتعد في اواخر القرن السادس سوى خمسين بيعة او كنيسة، رأت هذا العدد يرتفع بعد خمسين سنة من تاريخه الى أكثر من مائة كنيسة . ومن جهة اخرى ، راح كبار الاساقفة الذين عاصروا الملك داغوبير ، أمثال القديس إيلوّا ، والقديس أوان *Ouen* والقديس سولبيس ، يقومون دورياً برحلات راعوية ، يهدمون خلالها ويتلفون ما تقع عليه عيونهم من آثار الوثنية والصنمية ، كما يصادرون مراكز عبادة الاصنام بعد ان يغيروا منها الأسماء والمسميات ، ويضعوها تحت حماية او شفاعة احد الشهداء القديسين ، او على اسم احد رؤساء الملائكة ، كما أطلقوا مسميات مسيحية ، على مراكز العبادة ومواقع الحج الوثنية ، وألبسوا صِيَغاً وأشكالاً مسيحية ، المراسم الطقسية التي كانت تقام في الارياف ، ناشرين على هذه الكيفية الرمز الصوري او الحرفي ، على الاقل ، الديانة المسيحية . وقد قام أساقفة المراكز المتقدمة في الشمال ، في نويّون وكمبريه وريمس ، يساعدهم مرسلون قدموا ، هم ايضاً ، من مقاطعة اكويتانيا ، بينهم القديس اماند *Amand* ، بكرازة الدين الجديد في المقاطعات الواقعة الى الشمال من غاليا، بعد ان اكتسحتها موجة الفرنج وتوثّلت منها العادات والاعراف. وهكذا تم لهم ان يرفعوا راية الصليب فوق معالم نهري الموز والإسكو. وفي القرن السابع، اخذنا نرى الرموز والشارات المسيحية تحل في مقاطعة اللورين، محل الرموز والشارات القبرية الوثنية فيها .

وهنالك رسيس حركة تجدد تبدو ، هي الاخرى ، على الفنون ، بعد ان حملت الغزوات الجرمانية معها فناً جديداً يحمل كل مقومات النشاط بحيث عمّ كل البلدان المتليتنة في غربي اوربا، وهو فن ملازم للبداوة ولأهل الظعن ، يستوحي ملهماته من هذه الحضارة الجانبية ، مع ميل قوي للتركيز الصوري ونزعة شديدة لاستنطاق الأشكال الحيوانية ، هو فن مَهرَة الحدّادين في صناعة الاسلحة وشغل المعادن وتصنيعها، أوّل ما اخذوا في تطبيقه، على صناعة الحلي والجوهرات الدقيقة الصنع ، أخذت مادتها من أثمن العناصر وأجلها وأندرها ، كالذهب والحجارة الكريمة.

ففي زخارفه المستطيلة الأشكال التي تشبه ، الى حد بعيد ، زخارف القبور الجرمانية في الغرب التي تظهر على قبر شلدريك الميروفنجي ، المدفون في مدينة تورنيه ، عام ٤٨١ ، أو على القبور والمدافن الانكلوسكسونية أو قبور الفيزيغوط في اسبانيا . وهو فن طارىء ، جاء من الخارج، مغاير في مقوماته الجمالية ، للجمالية الرومانية ، يتميز باحتقاره التصنع ، همه ان يرسم الأشياء كما تبدو في الطبيعة . وهذا الفن الدخيل على البلاد مغاير تماماً للمبادىء الجمالية التي التزم الرومان جانبها وعملوا بها ، فوجد في شمالي غاليا ، في القرن السابع ، مرتعاً خصباً وتربة صالحة للازدهار والتطور . فقد صنع الصاغة في بدء أمرهم مصوغات من الحجم الكبير ، اختفى تقريباً كل أثر لها اليوم ويمكن مع ذلك ان نتبين غناها من بعض فقرات من سيرة القديس إيلوا . فقد بلغت بعض وجوه الصناعة على أيديهم ، درجة عالية من الاجادة والاتقان ، كما طبقوا أساليب جديدة في افراغ الشبهان وصناعة الحديد والتفنن في شغله ، في منطقة باريس ، واستطاع الصاغة ان يجددوا من وسائل إلهامهم ، فحاولوا ، دون ان يتخلوا تماماً عن التجريد ، ان يرسموا على أشكال واوضاع معينة ، صوراً بشرية. ففي الحين الذي راح فيه الفن الجرماني يوسّع من أفقه في المناطق المجاورة لنهر السين ، شهد الناس نهضة حقيقية وبعثاً صحيحاً للأساليب الفنية الرومانية والحفر والنحت ونقش الحجر ، وذلك تحت تأثير المؤسسات والمباني الدينية وما رفلت به من غنى الزخارف وعناصر التحلية. وقد بلغ من شهرة بعض المهندسين والبنائين ما حمل الرهبان في انكلترا على استدعائهم ليشرفوا على زخرفة كنائسهم وتحليتها ، ولكي يبنوا لهم معابد جديدة تحلّت واجهاتها بهذه المسلات التي ميزت المباني الغالية الكلفة في هذه الحقبة. وكان من زخرفة هذه الكنائس وتحليتها ان نهض فن النقش والحفر الذي تركز اول ما تركز ، على مقربة من المحاجر والمقالع الرخامية في جبال البرانيس ، وراح يقلّد بعض النماذج الواردة من الشرق ، المحلاة بالنقوش والتعاريش النباتية ، ثم لم تلبث ان انتقلت ، في اواخر القرن السابع ، الى مقاطعة إيل ده فرانس ، لتكون من ثمة على اتصال مباشر ، بدكاكين الصاغة الذين يستوحون للفن البربري . وهنا أخذ الرسامون المعنيون برسم الصور البشرية ، يجددون ، على شاكلة الحفارين الذين نقشوا نواويس كنيسة جوير *Jouerre* الحفر الناتىء للصور البشرية ، في الحجر الكلسي الطري .

ان اقتباس الرموز المسيحية وتطبيقها على مشاهد حياة الانسان وفقاً لعقلية سكان الريف ، ورسيس الحركة التجارية الذي اخذ يظهر ويقوى ، ومهارة الرسامين الفنية ، كل هذا وما اليه ، كان بشير نهضة واضحة المعالم . ولكي تشتد هذه النهضة وتنطلق في غاليا الميروفنجية كان لا بد لها من وضع سياسي يغاير الوضع القائم يسمح بقولبة الأطُر الارستوقراطية . غير ان انتشار العادات والطبائع الجرمانية ، كالولاء الشخصي ، ورفاقة السلاح ، كل ذلك هيأ الأخذ بحركة تجدد النظم والاوضاع السياسية في البلاد . وقد اخذنا نرى في مقاطعة اوسترازيا ، التي كانت تعتبر أشد مقاطعات الفرنج إيغالاً في الهمجية ، وأبعدها ذهاباً في البربرية ، تظهر حول قيّم القصر او سادنه *Le Maire du palais* مكونات الولاء والبذل والتضحية وكلها من ميزات نظام جديد .

وكانت غاليا بحاجة ماسة الى أطر ثقافيـــة وفكرية ، ولا سيما لنظام منهجي لتعليم اللاتينية الكلاسيكية تساعد رجال الاكليروس وتوفر لهم الاسباب والوسائل ، لتفهم الكتب المقدسة ، وتليح في الوقت ذاته ، إصلاح المصف الاسقفي ، وشد أزر رجـال الدين في أعمالهم التبشيرية ورسالتهم ، كما تساعدهم على محاربة أباطيل الوثنية وشجب ترهاتها ورذلها . وقد أخذنا نشاهد في اخريات القرن السابع ، يفد على مرافىء المانش الجديدة ، مبشرون انكلو سكسون الذين استطاعوا ان يحافظوا على التراث القديم كاملاً، نقياً، وان يحتفظوا بديانة أنصع رسولية، وأنقى تعليماً ، وأكثر فعالية ، واوثق ارتباطاً بالكرسي الرسولي .

الرهبان وعمل المبشرين الرسولي

تلقت الكنيسة ، خارج مملكة غاليا ، التراث الروحي لروما، بمعالم جديدة طبعت الحياة الرهبانية والاسقفية والتبشيرية .

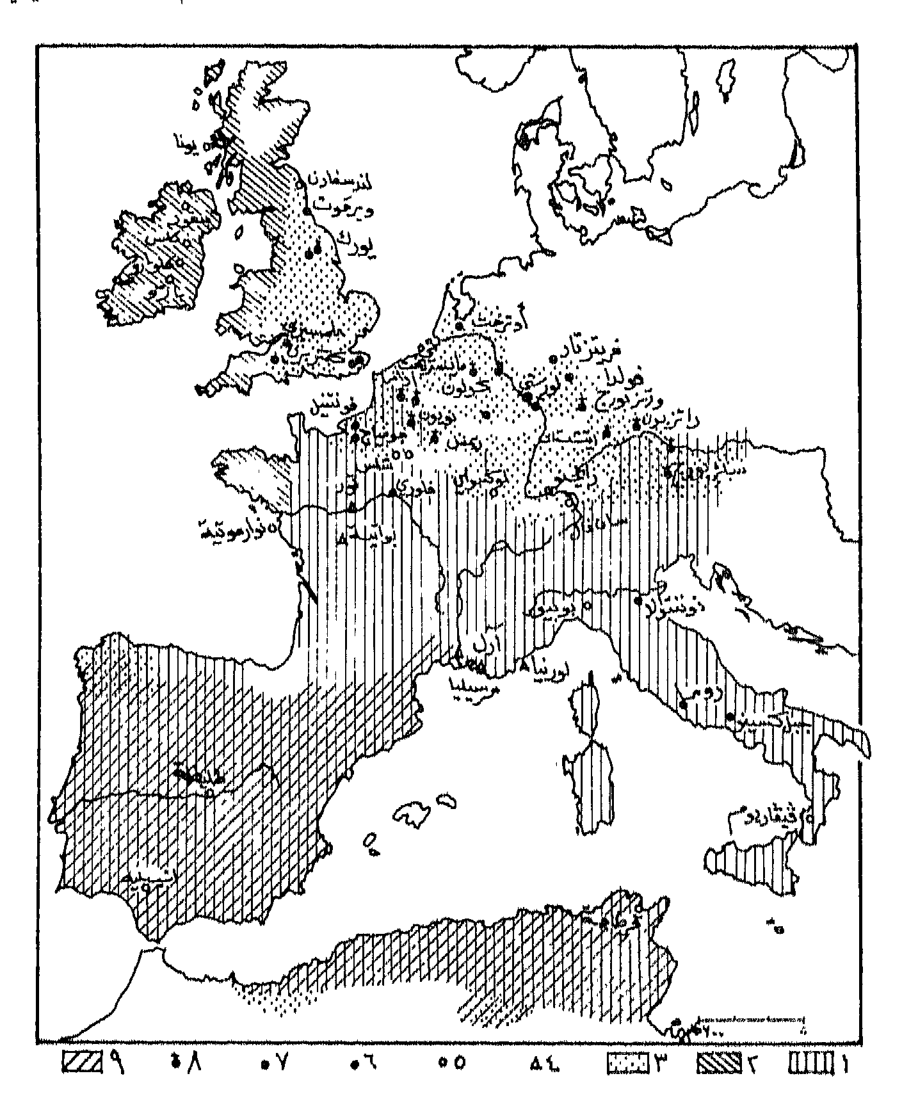
وهذه الحياة الرهبانية التي كانت ظهرت ، في وقت مبكر ، في مصر ، انتقلت عادتها الى الغرب وتركزت أسسها على شواطىء مقاطعة البروفانس ، حيث تأسس عام ٤١٠ و ٤١٨ ، ديران : أولهما دير لاريلس *Lerins* ، والآخر دير سان فكتور ، في مرسيليا . ومن هناك انتشرت الحياة الرهبانية في ارلندا ، عام ٤٢٥ ، على يـــد القديس باتريك وتلاميذه الغُيُـر . ورسخت الديانة المسيحية والحياة الرهبانية في هذه الجزيرة بحيث أصبحت محور كل حياة دينية فعّالة ، حية ، محيية ، ومنها شعّت وانتشرت في بلدان اخرى . واستقر في خلد رهبان الجزيرة ان الاغتراب والارتحال الى الخارج ، من احسن الوسائل التي تؤول الى تقديس النفس وتدنيها أكثر فأكثر ، من الله سبحانه وتعالى ، وتزيـــدها تقرباً من الكمال المسيحي . وهكذا انتشر الرهبان المرسلون من ارلندا في كل البلدان الكلتيـــة الاصل واللسان : في ايكوسيا والشمال الغربي من انكلترا والارموريك . وفي اواخر القرن الخامس ، رحـل الرهبان الايكوسيون ، بقيادة رئيسهم ومدبرهم القديس كولمبان ، الى مملكة الفرنج والى غيرهم من الشعوب الجرمانية ، فأسسوا تباعاً، أدياراً عديدة ، منها دير لوكسويل *Luxeuil* ، عام ٦١٠ ، ودير سان غال ، عام ٦١٢ ، ودير بوبيو ، في لمبرديا ، عام ٦١٥ . وهكذا وضحت معالم اتجاه التيار الروحي الذي بلغ أقاصي البلدان المسيحية في الغرب ، حتى بلغ قلب جرمانيا وادخل فيها انماطاً مختلفة من الحياة الرهبانية ، ومناهج متنوعة . غير ان الحيـــاة الرهبانية في ارلندا لم تلبث ان عرفت صوراً وارتدت مظاهر قاسية متزمتة ، وبدائـية في مظهرها ، اذ ان منطلق الحياة الرهبانية كان في الكتب المقدسة ، وعلى مجموعـــة من النصوص والآيات المقدسة تفرض في ملتزمهـا ، تعليما ابتدائيـــاً ومعرفة اللغة المكتوبة بها الكتب المنزلة والطقوس الليتورجـية ، وهي لغة أحسنها رهبان ايكوسيـا واتقنوا استعمالها ، وعرفوا ان يحافظوا على نقائهـا ، لا سيما وان لغة الأهلين الدارجة الاستعمال ، كانت ، بخلاف لغة المسيحيين في غاليا، مغايرة لها تماما، لا يخشون البتة من افسادها . والظاهر انهم لم يكونوا ليكترثوا كثيراً بالثقافـــة العلمانية او الدنيوية ،

لا سيما وقد لبست الحركة الدينية مسحة من الزهد المتزمت والتنسك المجافي لواقع الحيـاة . كما صوروا المغفرة وخلاص النفوس على اسس منفّرة ، لا تصلح ابداً ركيزة للتمدن والتحضر .

الا انه اخذ يظهر ، في الربع الثاني من القرن السادس ، صورة جديدة للحياة الرهبانيـة ، انتشرت في ايطاليا التي استباحتها الحروب والغزوات القوطية . فقد نشأ في مقاطعـة نورسي الايطالية راهب هو الراهب بندكتوس ، من اسرة ثرية من سكان الريف ، أتيح له ان يتلقى في روما ، قدراً ملحوظاً من الآداب اللاتينية . فقد وضع عام ٥٢٥ للرهبان الذين تحلقوا عليـه والتفوا حوله ، في دير جبل كسّينو ، فرائض للحياة الرهبانية اتخذت قسطاساً لها الاعتدال . فقد رأى هذا المرشد الحكيم ان الاسرة الرهبانية التي يتولى رئاستها رئيس مسؤول ، يجب ان تبرز وكأنها مليشيا أو جمعية لها نظام فرقة عسكرية ، يقوم أفرادها معاً ، بالصلاة الواحدة المشتركة ، أولى وصايا الله الكبرى واسماها . وعلى اعضاء هذه الاسرة ان يوقعوا علناً وخطيـاً تعهداً كالتعهد الذي يقطعه رجال الحرب ، بان ينهجوا ، في حياتهم اليومية ، نهجـاً سوياً ، متزناً ، ، يقسم يومياً ، بين العمل اليدوي دونما إرهاق مضنٍ للجسم أو تحرج ، تشبه ملابسهم ونظام عيشهم ، وطريقة إشغالهم الوقت وملء الفراغ ، نظام الجند العاملين في الريف، اذ ذاك. فالدير هو مكان عزلة وانقطاع عن حياة العالم ، ينعم ويتصرف باملاك واسعة ، تجعل ساكنيه ، ومن فيه ، بمأمن من العوز والسؤل ، ومع ذلك ، منفتح للجميع بحيث لا يبعث في الناس النفور من النظام الذي يسير عليه ، ولا يجعل نمط العيش المتبع فيه ، الناس تجفل منه او ترغب عنه او تسخر به ، اذا ما عنّ لأحدهم اعتناقه والعمل به. ولم يدُر في خلد القديس بندكتوس قط ان يعهد الى الدير برسالة الكرازة والتبشير أو العمل على نشر الحياة الروحية والمسيحية . فالدير ، في نظره ، لم يكن سوى ملاذ منكفىء على نفسه ، منطو على ذاته ، في هـذا العالم المضطرب الكثير الصخب والمنهار على نفسه . وكان من اختصاص البابوية المشعّة ، في أواخر القرن السادس ، ان تجعل الحيـاة الرهبانية ، كما وضعها القديس بندكتوس وقيدها بفرائض بيّنة ، صريحة ، تكوّن اداة طيبة لنشر المسيحية بين الناس .

منذ فتح يوستنيانوس لايطاليا، في القرن السادس، كان الكرسي الرسولي، في الامبراطورية البيزنطية، ابرشية محورية أو دائرية تخضع لرعاية الامبراطور الضيقة . وكان تأثير نفوذ البطاركة الشرقيين ، في الكنيسة اليونانية المتصاعد ، يهدد جدياً ، رئاسته الروحية واولويته . وكان البابا ، على عكس ذلك ، يحتل مركزاً مرموقاً في إيطاليا التي مزقتهـا غزوات البرابرة والحروب التي جرت فيها ، شر ممزق وارهقتها ، وتخلت الامبراطورية المهيضة الجناح ، والمنهوكة القوى ، عن مهمة الدفاع عنها . فقد أصبح البابا ، على إثر انهيار النظم والمؤسسات المدنيـة والادارية ، سيد روما ورئيسها غير المنازع . وكانت امـلاك السدة البطرسية ، وهي اغنى عقارات من نوعها ، في ايطاليا ، تدرّ عليه موارد طائلة . فاضطره هذا الوضع بالذات ليتولى بنفسه الدفاع عن روما ، لصد الهجمات المتتالية التي شنها عليها اللمبارديون ، كما انه رأى نفسه مسؤولاً عن تنظيم الأمن والسهر على استتبابه . واذ كان يمثل على احسن وجه الوطنية الرومانية

كانت سلطته هي السلطة الحقة التي يتوجب عليها الدفاع عن المصلحة الرومانية العامة . فلا عجب ، والحالة هذه ، من ان ينظر اليه الحجّاج والرحالة البرابرة ، نظرتهم الى الممثل الحقيقي



الشكل (رقم ١) ـ المسيحية اللاتينية في القرنين السادس والسابع

الوحيد لروما ولفكرة الامبراطورية التي بقيت عالقة في اذهان الناس وجمهرة السكان . وهذا لعمري شيء طبيعي وتفكير في محله ، لبعدهم عن بيزنطية والعالم اليوناني ، اذ ذاك . وهذا الوضع المتحيز على هذا الشكل ، عرف الباب غريغوريوس الكبير ٥٩٠ - ٦٠٤ اعظم بابوات الاجيال الوسطى واشهرهم على الاطلاق ، ان يستغله وينتفع منه على الوجه الامثل ، لمصلحة الكرسي

الرسولي . وهذا الروماني الذي كان يقرّ ويعترف متواضعاً ، بجهله اللغة اليونانية ، والذي كان اسس في دارته ، على هضبة التشيليوس *Coelius* نظاماً رهبانياً ، سار على وتيرة القانون الرهباني الذي وضعه القديس بندكتوس ، ادرك جيداً انه يتحتم على البابا ، ليصبح في مأمن من القيصرية البابوية البيزنطية وطوارئها ، ان يكون رأس الغرب البربري ، وراعيه . فالكتب التي وضعها وانتشرت بسرعة ساعدت على توطيد الكرسي الرسولي وإشاعة هيبته . فقد هيّأ وأعدّ اعتناق اللمبارديين للديانة المسيحية في ايطاليا ، وتبادل مع اساقفة غاليا واسبانيا ، عدداً من الرسائل التعليمية التنظيمية ، وراح يعمل على تشجيع الكرازة بالدين المسيحي ، بين الوثنيين في الغرب . فقد راودته بين ٥٨٦ ــ ٥٨٨ فكرة تبشير الانكلو سكسون بالمسيحية . وقد تم له ذلك ، عام ٥٩٦ ، عندما ارسل الى الجزيرة البريطانية ، عدداً من الرهبان البندكتيين برئاسة الراهب اوغسطينوس .

وكانت انكلترا السكسونية ما تزال على الوثنية والصنمية بعد ان خنق الرهبان الايكوسيون حنقاً شديداً على الغزاة . والبعثة الدينية التي جاءت برئاسة اوغسطينوس ، اسست لها ديراً في كنتوربري ، كان اول دير تؤسسه الرهبانية البندكتية خارج ايطاليا . فقد لقيت في بادىء امرها ، نجاحاً عظيماً بحيث شهدت تنصير معظم ملوك الدول السكسونية القائمة في انكلترا ، اذ ذاك . وحدث على إثر ذلك ، ردة فعل وثنية اوشكت تؤدي بكل شيء وتذهب بالنجاحات التي حققتها البعثة الدينية ، هباءً منثوراً . واستؤنف العمل التبشيري الديني ، في البلاد ، على يد رهبان إرلنديين استقروا ، عام ٦٣٤ ، في لندسفارن بحيث رأت انكلترا نفسها ، التي أصبحت كلها مسيحية ، على نهجين في الحياة الرهبانية ، مختلفين متباينين ، هما نهج الرهبان الايكوسيين ، والنهج الروماني .

في خدمة البابوية ، وبعد تعرفهم على النهج الرهباني المتجول الارلندي ، تحول الرهبان البندكتيون ، الى مبشرين . الا انهم لم يكونوا ليكترثوا ، وهم بعد في اواسط القرن السابع ، لأمور الفكر والثقافة . ففي الكنيسة الغربية ، كان العهد الكلاسيكي ومن يمثله من الكتبة ورجال الفكر ، يقابل بالازدراء ، كما كان الناس يشعرون برهبة أو يتهيبون العناية والاهتمام بالآثار الفكرية الكلاسيكية التي لا تزال تحمل اجمل ما في الوثنية من غذاء ادبي . وقد راح عامل من الزهد والتحرج يجعلهم يستنكرون كثيراً هذه المتعة الفكرية التي توفرها قراءة آثارهم العلمانية الدنيوية . أفَلَم يتعرض الاسقف ديزيه ، مطران فيينا ، للشجب الشديد والتنديد العنيف ، من قبل البابا غريغوريوس الكبير لانه راح يعلم اجرومية النحو والغراماطيق . وقد ظهرت ضد هذا الوضع الشاذ المتحرج ، اول ردة فعل ، في اواسط القرن السادس . فبعد موت ثيودوريق ، راح وزيره كسيودوروس يحاول ، بالاتفاق مع البابا اغابي ، فتح مدرسة لتعليم الآداب في روما ، تكون على شاكلة مدرسة نصيبين ، واخذ في تكوين مكتبة في روما وجمع نواة طيبة لها عندما سقطت روما بيد جيوش الامبراطور يوستنيانوس ، فقضي على المشروع وهو في المهد . وكان كسيودوروس

التجأ الى ساحل كلابريا وسكن دارة له جميلة للغاية في مدينة فيفاريوم، ودخل الدير بعد ان نهج الحياة الرهبانية . وهذا النهج الجديد الذي ارتضاه في حياته ولرفاقه كان نهج قوم من السراة ذوي ثقافة عالية ، تحرروا من المهام المادية وجمعوا حولهم طائفة من الكتب. اما عملهم الرئيسي فانصرف للاهتمام بامور الفكر والثقافة ، يقضون اوقاتهم بين استنساخ المخطوطات ومطالعة الكتب المقدسة . وخلافاً للتقاليد المتبعة من عهد إيرونيموس التي كانت تنتقص من قيم الثقافة الكلاسيكية ، رأى كسيودوروس انه لكي يتفهم الانسان الكتب المقدسة حق فهمها ، كان لا بد له من الاستعانة بالآداب الرفيعة . وراح ، في آخر ايامه ، يعد في هذا السبيل ، برنامجاً موحداً يجمع بين الدراسات الكتابية والعلوم الدنيوية ، وهو منهاج بسطه باستفاضة في الحلقتين اللتين يتألف منهما كتابه المعنون : « النظم » وبفضله ′كتب′ للمدرسة القديمة البقاء بعد ان كادت تفقد كل اثر لها وتضمحل ، لو لم تجد لها في الدير والحياة الرهبانية خير معوان لها وخير مسعف . غير ان المحيط لم يكن حليماً ولا مسعفاً . فالمحاولة جاءت في غير اوانها ، ولم تتخذ لها الظروف المهيئة ، كما ان الاهتمام بامور العقل والفكر لم يكن تملك بعد الاديار البندكتية.

وهذا الموقف يقفه الاكليروس من الثقافة الكلاسيكية تبدل تماماً ، بعد هذا ، بنحو قرن من الزمن ، وذلك بتأثير من رهبان مشارقة لجأوا الى ايطاليا وافريقيا . ففي البلاد اليونانية ، راحت المسيحية بعد ان رسخت أصولها وأعرقت في الارض ، تتمثل جانباً كبيراً من الثقافة اليونانية ، واخذ الناس يتذوقون التراث الادبي القديم. فزاد اقبال الناس على تلقف هذا الادب، في روما أولاً ثم في انكلترا التي تنصّرت منذ عهد قريب . فالبعثة الرسولية الثانية التي عهد اليها، عام ٦٣٩ ،في استكمال تنظيم الكنيسة الانكلو سكسونية كانت تحت ادارة رجلين تشبّعا من الثقافة الشرقية العالية ، هما ثيودوروس الطرسوسي الذي قد يكون من خريجي مدارس اثينا ، وهدريانوس ، وهو رجل افريقي الاصل تخرج بالآداب اليونانية واللاتينية في قرطاجة البيزنطية . ففي الوقت الذي سربلا فيه الكنيسة الانكليزية بهذه المزايا ، منحاها تنظيماً أسقفياً شديد الأسر وشدّاها الى البابوية بروابط متينة وأدخلا على المدارس الابتدائية القائمة في الاديار، حيث كان المرتدون الى الدين المسيحي ، يتلقون مبادىء اللاتينية التي لا بد منها لتفهم الكتاب المقدس ، برنامجاً تعليمياً أقوى بكثير من البرنامج المعمول به ، الى ذلك الحين ، يضم على شاكلة البرنامج الذي سبق لكسيودوروس ان وضعه من قبل ، وكان يتوخى التعمق بأسرار اللغة اللاتينية وآدابها ، « ساكباً » ، كما جاء على لسان الطوباوي باد المحترم ، وهو أبرز من خلفهما وأشهرهم على الاطلاق: «على القلوب، العلم دِفاقاً» . فلم تعتم الديارات البندكتية الجديدة ، أمثال دير ويرماوث ويارو،ان اصبحت منائر للثقافة في تلك البلاد وراح مؤسسها بندكتوس بسكوب ينشىء فيها مكتبات ، اذ جاء روما زائراً ست مرات متوالية ، وكان يعود في كل مرة منها محملا بالمخطوطات، ولم يلبث ان قام في مدينة يورك، أكبر مركز للتعليم في المسيحية جمعاء. وتحت تأثير هذا الازدهار غير المتوقع على هذا الشكل الذي عرفته الثقافة الكتابية في ديارات ارلندا

وانكلترا الشرقية والغربية ، ظهرت عام ٧٠٠ ، في الجزيرة رسوم التحلية والتزاويق البديعة التي تزين روائع المخطوطات واعلاقها ، في هذه الحقبة ، منها مثلاً كتاب مزامير دير كنتوربري الذي يحمل صوراً ورسوماً مستوحاة من نماذج قديمة جيء بها من ايطاليا ومن افريقيا ؛ ومنها ايضاً انجيل لندسفارن الذي استعار رسوماً حيوانيـة وأشكالاً زخرفية استعملت في مجوهرات بربرية بعد ان جرى تكبير حجمها .

وفي أواخر القرن السابع، في الوقت الذي أغرق الفتح العربي تحت سيله الجارف، الممتلكات البيزنطية في افريقيا وكادت أمواجه الطامية تهدد الفيزيغوط في اسبانيا، غادر مبشرون، الاديار الانكلو سكسونية ليقوموا بتأسيس ارساليات تبشيرية، في الاطراف الشرقية للمملكة الفرنجية حيث كان لا يزال يوجد بعد جماعات من المشركين . وهكذا أقاموا من جهة ، صلات وطيدة ، بين البابوية الرومانية وأقوى الدول من الوجهة السياسية اذ ذاك ، حيث كان لسَدَنة القصر أكبر شأن في مقاطعة أوسترازيا ، ومن جهة اخرى ، بين وجوه الثقافة اللاتينية الأكثر حيوية ونشاطاً ، هي الثقافة التي وطّد أركانها الطوباوي باد المحترم في البلاد وتعهدها تلاميذه من بعده ، وبين الفن الغالو – الروماني في منطقة باريس . وعن طريق هذه الاتصالات الرباعية الاطراف ، تمهد السبيل امام طلوع حضارة الاجيال الوسطى .

الفصل الثاني

انهيار العالم الروماني: الشرق

لا يتوهمن أحد ان الشرق ، في الحقبة الواقعة بين القرن الخامس والسابع ، اختلف عن الغرب كثيراً ، من حيث الوضع الاساسي . ففي الوقت الذي قامت في الغرب دول جرمانية حلت محل الامبراطورية الرومانية ، قامت في الشرق ، واستمرت قائمة حتى عام ١٤٥٣ ، دولة نعتت نفسها « رومانية » ، هي الامبراطورية « البيزنطية » باسم عاصمتها بيزنطية التي عُرفت في عهد قسطنطين الكبير باسم « القسطنطينية » . فلم يكن وضعها ، وهي على منتصف الطريق من الاجيال الوسطى، ليختلف كثيراً عن الوضع الذي لابس سميّتها في الغرب، بعد ان جدد شارلمان واوتون ، شبابها ونفخا فيها دماً جديداً . فالقطيعة جاءت اقل مفاجأة في الشرق منها في الغرب ، بينما سارت حركة التطور والتبدل لدى كليهما ، باتجاه واحد حتى في المراحل الاولى من هذا التطور .

الامبراطورية الرومانية الشرقية

تألفت هذه الامبراطورية من مقاطعات مختلفة كل الاختلاف . فشبه الجزيرة البلقانية ، باستثناء بلاد اليونان منها ، هي أقرب شبهاً الى الغرب الاوروبي ، من آسيا ، كما ان مصر تميزت ، هي الاخرى ، عن باقي أجزاء آسيا الرومانية؛ اذ كثيراً ما يحلو لنا ان نطبق على كل أجزاء الامبراطورية الرومانية ، الصورة المغرية الجذابة ، التي ترسمها لها الوثائق التاريخية ولا سيا البرديّات منها . صحيح ان هذه الاقاليم نعمت ببيروقراطية ونظام اداري ومالي افتقر الغرب الى أمثاله مع ما يستتبع من نتائج الا وهي كره الناس والسكان لشكل الدولة . فقد قام في الشرق والغرب على السواء ، اقطاعية عرفت بأملاكها وأقطانها الواسعة ، كاسرة آل ابيون في مصر ، بينما زالت طبقة الفلاحين الاحرار من الوجود او كادت ، اذ استحال قسم منها عبيداً او شبه عبيد علقوا بالارض وارتبطوا بها ولجأ القسم الآخر بنفسه هرباً من فداحة الضرائب او من قسوة اسيادهم الى حيث استطاعوا سبيلاً . أما في المدن والقرى فقد راحت الدولة تحجز كذلك على اوضاع الحياة الاجتماعية عن طريق إلزام الناس البقاء في المهنة التي ورثوها عن آبائهم ، والتمرس بالمسؤوليات العامة التي عهدت اليهم ، فأحصيت عليهم الانفاس في كل صناعة احترفوها او متجر فتحوه ؛ فاحتكرت الدولة صناعة

الاسلحة والمنسوجات الغالية الثمن، كما تسلمت بنفسها امور تموين المدن الكبيرة وتزويدها بوسائل العيش، منها العاصمة القسطنطينية، وذلـــك عن طريق المصادرة او الشراء بأبخس الاسعار. والجيش نفسه يتألف، كما هو في الغرب، من « برابرة » محترفين، لم يلبث قواده ان استأثروا بالسلطة، كما استأثر زملاؤهم بها، في غاليا وايطاليا واسبانيا وافريقيا، بينما يستقر رجالهم في أراضي الامبراطورية بشكل يشبه، من وجوه كثيرة حتى « الضيافة » المعمول بـه في الغرب، وضرورة محاربة الغزاة الطارئين وفقاً لأساليبهم المتبعة في فرقة الخيالة، كل ذلك وما اليه، عقـّد جداً تنظيم الجيش وطريقة تشكيله وجعلت تكاليفه باهظة مرهقة.

فما هي، يا ترى، الاسباب التي جعلت الامبراطورية الشرقية تصمد بنجاح، للعوامل الهدامة التي هددتها، فمكنتها، أكثر مما مكنت الغرب، من المقاومة والوقوف بوجهها؟ لفترة قصيرة لعمري، كما يجب ان نعلم، اذ ان الولايات الاوروبية لم تلبث ان اكتسحتها في القرن السابع، قبائل من « البربر » أكثر شراسة وضراوة من قبائل الجرمان، كما ان معظم القسم الآسيوي والافريقي منها سيذهب فريسة غزاة جدد لم يكونوا في الحسبان. فقـــد أمكن تفادي شر موجات البرابرة الاولى عن طريق تحويلهم شطراً آخر، او بادماجهم في الجيش، في حال تعذر امتصاصهم وتمثلهم. فالسر يكن رده، والحالة هـــذه، لسبب خارجي، في بعض وجوهه. فالامبراطورية لم تتعرض لضغط ملموس إلا في اوروبا. فالولايات الآسيوية المعروفة بغنى مواردها بقيت سليمة، تتعرض الفينة بعـــد الفينة، لحروب يشنها عليها الفرس، وهي حروب لم تتسم بالخطر الذي تمثل على أشده، في تغلغل البربر وانسرابهم في جميع ارجاء اوروبا، اذ ان الاخطار التي كانت تهدد الدولة الساسانية من الشمال، كانت تحول دون توغل جيوشها بعيداً، داخـــل الامبراطورية، مع العلم ان هذه الحروب لم تكن لتهدف إلا للسيطرة سياسياً، على بعض الولايات الشرقية وليس الى ضمها واقتطاعها نهائياً. وهنالك سبب آخر يقوم أساساً في القوة الكامنة في قلب الامبراطورية الشرقية التي حالت دون اكتساح البرابرة لمدينـة القسطنطينية والاستئثار بالسلطة، اذا ما حالفهم الحظ وعبروا مضايق البوسفور والدردنيل، اذ كانوا يفضلون، لدى سنوح الفرصة الملائمة، التوطن في مقاطعات الغرب.

تفوق الشرق اقتصادياً واجتماعياً

وتفوق الشرق على الغرب كان يتمثـــل، قبل كل شيء، في التجارة والصناعة التي أدّت بدورها الى ازدهار المدن، والى تكثيف عدد السكان في الريف. صحيح ان التجارة الدولية كانت تقتصر على بعض السلع الثمينة التي كانت تفي برغائب الطبقة الارستوقراطية، فلا تأثـــير لها، والحالة هذه، على الجماهير والطبقات الشعبية، بينما انحصرت حركة النقل في الداخل على محاصيل زراعية بالاكـثر، ذات طابع اداري محض اكثر مما هو تجاري. وبالرغم من هذا، فقد كانت لهذه الحركة التجارية اهمية كبرى، كما كان لها تأثير كبير على الطبقة البورجوازية الغنية في المدن وبالتالي، على سكان المدن، اذ كانت تؤمن لهم أسباب العمل وأود العيش. فالحركة التجارية تتجه بالاكثر شطر آسيا: الهند

وحتى الصين . فقد فقدت هذه الحركة البساطة التي طبعت المعاملات المالية خـلال الاجيال المنصرمة ، اذ كان التجار الرومان يبلغون بيسر المراكز والاسواق التجارية في الهند والصين . اما الآن ، وقد عزف الساسانيون ان يربطوا بقوافلهم البرية اقطار آسيا الوسطى بسواحل البحر المتوسط الشرقية ، وان يؤمنوا الاتصال بحرياً بالهند وموانئها بعد ان عزلوا البحر الاحمر لخير الخليج الفارسي ، فقد سيطروا تماماً واحتكروا حركة النقل فكان ذلك مورد ربح عظيم لهم كما سبب القلق والانزعاج للامبراطورية « الرومانية » . قد يتنطح البعض للقول فيزعمون ان الشرق المتوسطي ، كان بالنسبة لآسيا القصية النائية ، في وضع يشبه ، الى حد بعيد ، وضـع الغرب بالنسبة لهذا الشرق الادنى ، يعاني مريراً كما كانت تعـاني اوروبا ، من استنزاف الذهب . انه استنتاج لا يخلو لعمري من الغلو والشطط ، مع ان هنالك حوادث ثابتة لا تدحض لتسرب كميات من الذهب « الروماني » . فالصناعة التي عثر على بعض انتاجها في الصين ، كان باستطاعتها ان تؤمن التوازن ، مع انه لا يزال سراً من الاسرار كيف استطاع النقد البيزنطي ان يحافـظ ، اجيالاً متطاولة ، على متانته وقوته على الشراء ، بحيث اصبح النقـد الدولي المتعارف ، وهي متانة لا تأتلف ولا تنسجم البتة مـع افتراض افتقار البلاد للنقد أو القول باختـلال الميزان التجاري .

ولكن ما عسى ان تمثله ، في أعين تجار البحر المتوسط الشرقي ، هذه التجارة مع الغرب؟ فاذا ما انعمنا النظر ملياً في احوال الغرب ، في هذه الحقبة ، كان لا بد من الاعتراف ، بالدليـل القاطع والحجة المؤيدة ، باستمرار هذه العلائق التجارية في قلب الدول « البربرية » وانحطاطهـا في آن واحد ، وذلك لقصور الغرب عن الشراء بعد ان ضمرت وسائله وضعفت ، وبعد ان قام اسطول الفندال باعمال القرصنة في البحر ، ولو بصورة موقتة . وقد يتغير الوضع تماماً اذا مـا نظرنا اليه من الشرق. فقد استطاعت الحركة التجارية ان تحافظ على مستواها وعلى اهميتها ، بالرغم مما كان عليه الغرب من ضعف في اقتصادياته ، دون ان يعلق اهل الشرق كبير اهمية على هذا الوضع ، بالرغم مما اصطلحوا اجيالاً على تأمينه من الارباح الطائلة . والشيء الثابت الذي لا يوجه البشك هو ان الامبراطورية الشرقية ، تمكنت ، منذ اواخر القرن الخامس ، ان تنشىء لها عمـارة قوية ، وان تؤمن سيطرتها على البحر في الوقت الذي بدا لنا فيه انها في سبيل التخلي للبربر ، عن سلطتها على البر . وبفضل هذا الاسطول ، ستتمكن من استرجاع اقاليمها المغتصبة من قبـل ، قانعة بالشواطىء البحرية ، بعد ان استرجعت افريقيا واسبانيا وشبه جزيرة ايطاليا ، مكتفية بما عليها من موانىء ومرافىء تنفذ منها الى الداخل دون ان تتوغل فيه كثيراً مع ذلك ، ممـا يؤمن لها أسباب الدفاع عنها ، نزولاً منها عند مقتضيات الدفاع . ومع ذلك من يستطيع ان يزعم ان حركة الاتجار مع اقطار « البرابرة » كانت اكثر صعوبة مع الولايات « الرومانية » فالمصنوعات البيزنطية كانت تصل ، حتى اواخر القرن السابع ، الاقطار الواقعة حول الدانوب أو في اوروبا الشرقية لتبلغ منها شواطىء البحر البلطيقي ، على يد زعمـاء وطنيين مقابل الفراء والرقيق

يردهم عن طريق القبائل او عن طريق مسلوبات الحرب أو كانت تجدد بهـــا هبات واعطيات الديبلوماسية البيزنطية ، استدناء" لزعماء القبائل والشعوب البربرية . وليس مـا يثبت البتة أو يؤيد بشكل من الاشكال ، ان الاوساط التجـــارية في القسطنطينية أو في سوريا دعت الى الحروب او حبذت قيامها بغية عرقلة الحركة التجارية ، أو طمعاً باسترجاع اراضٍ طالما تعرضت للغزو ، وتألمت مما وقع عليها من نهب وسلب ، وذلك طمعاً منهم في استثمار هـــذه الحروب والاستفادة من الفتوحات الحربية . فاذا ما اتفق واعرض الامبراطور يوستنيانوس عن هـــذه وضرب بها عرض الحائط وقام بعجلاته العسكرية المعروفة للسيطرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط في الشمال والغرب والجنوب ، فنزولاً منه وامتثالاً لدوافع ونوازع مالية ، مُلحّة ، لا ترحم. فكم من مرة تحكمت بالسياسة البيزنطية العليا، الرغبة الملحفة بفرض رسوم وضرائب جديدة وتنظيم احتكارات جديدة ، وذلك بالرغم من معارضة كبار الملاكين وارباب الاعمال والتجارة الذين لم يكونوا ليساهموا كثيراً بهذه المنافع الحكومية . ولذا كان على الدولة ان تؤمن ، بجميع الوسائل ، مقتضيات الدفاع وما يحتاج اليـه من وسائل الاغراء ، لاصطناع الانصار ، وقطع الالسنة ، وإثارة البرابرة ، وتأليبهم بعضاً على بعض ، وتوفير اسباب البذخ للبلاط وحاشيته ، وتأمين أوَد الغوغاء في العاصمة ، وعدم تهييجها بشيء . وهكذا ، اذ عرف الشرق ان يضحي بمقاطعاته الدائرية في الغرب ويتخلى عنها للقبائل الجرمانية ، استطاع بمـا لديه من موارد ، ان يؤمن أسباب وجوده وان يستمر حيـــاً ، وان يقوم بهجوم معاكس ، ويحقق في الداخـل الاصلاح المنشود .

والتعبير الاجتماعي عن الحركة الاقتصادية التجارية ظهر، على أتمه، في ازدهار المدن. فقد نشأ في الغرب من آسيا الصغرى، وسوريا وأعالي الجزيرة، في ما بين النهرين، مدن عظيمة، كانطاكية مثلاً ، وشيء آخر له مغزاه ومدلوله الواضح ، عدد كبير من المدن الوسطى والصغرى برزت كالفطر في هذه البقاع ، أوجبت على أولي الامر ، مسؤولية تأمين أسباب العيش لسكانها وأدت بالتالي الى انشاءات هندسية ، زراعيـة ، لاستثمار خيرات هذه الارضين كما يستدل من الحفريات الحديثة ، واستغلال سهول سوريا الداخلية . ومن المدن الكبرى الاخرى في هـــذه المنطقة ، مدينة الاسكندرية التي خلافاً للمألوف من هذه المدائن ، قامت وازدهرت على سواحل بـــلاد ظلّت ريفية في الصميم . ومن بينهـا ايضاً مدينـة القسطنطينية العاصمة الاولى للامبراطورية ، ومرفأ جميل الموقع حصينه، ملاذ البلقانيين يكنّـون اليها هرباً من غزوات البرابرة ونجاة بأنفسهم من المخاطر التي تتهددهم باستمرار ، فاتسعت بذلك رقعتها وتضخم عدد السكان فيها متجاوزين المليون ، فارضة على أولياء الشأن مسؤوليات جساماً لتأمين أسباب المحافظة على النظام، والمواد الأولية لتموين السكان واعاشتهم وأسباب الدفاع التي أصبحت أكثر حرجاً . ولذا كنا نرى — وهذا من بعض سمات هذا العصر المميزة — الاسوار وأعمال التحصين تقام حول هذه المدن تزيدها منعة وقوة مقاومة ، ولا سيما في عهد الامبراطور يوستنيانوس . فجمال المباني العامة وأبهة

الصروح الخاصة تشهد عالياً عـلى ما عرفت الامبراطورية ، اذ ذاك ، من نعمة سابغة وازدهار حق ولو كان آنياً ، موقوتاً ، وغير مستقر ، ولو قامت على أنقاض من الخرائب . وكان أصحاب هذه العقارات يسكنون تلك المباني ، وان لم يكن دائماً في ممتلكاتهم العقارية . وقـام حول المدن مباشرة ، طبقـــة بورجوازية متوسطة الغنى ، عدّلت من شأن اصحاب الاقطان الكبرى الأبعد الى الوراء . والملكية القروية الصغيرة نفسها ، بدت راسخة ، في بعض الاماكن، وتساهم بدورها في تموين المدن الكبيرة . فالطبقـــة الصناعية نفسها في المدن تتوزع الى فئتين كبيرتين هما: الفئة الزرقاء والفئة الخضراء . ولقد لعبتا دوراً بارزاً في تنشيط الالعاب الرياضية، عن طريق المباريات التي تنظمها من آن لآخر ، وهي ألعاب كانت من الحيوية والنشاط ما نسينا معه ان نتذكر بأنها كانت تؤلف جزءاً من الحرس الوطني المسؤول عن النظام العام ، كما كانت تؤلف جمعيات نجهل الكثير من دقائقها تنعكس عليها الحزبيات التي انتابت الطبقات الاجتماعية ، اذ ذاك . وعلى هذه الكيفية يمكن لنا ان ندرك جيداً ان الانتفاضات الشعبية التي كانت تؤول الى اسقاط الأباطرة كانت ، على الغالب ، ترتكز على احدى هذه الفئات . وقد يحدث أحياناً ان اكثر من واحد من هـذه الاحزاب كان يشترك في التآمر على صاحب السلطان ، كما حدث ذلك تماماً في الفتنـــة التي أثارها نيكا على الامبراطور يوستنيانوس ، ولم يتمكن من اخمادها إلا بمذابح هائلة ، مريعة ، عهد بتنفيذها الى المرتزقة من جند « البرابرة » .

يوستنيانوس

اصطلح المؤرخون على ان يروا في عهد الامبراطور يوستنيانوس (٥٢٧ ـ ٥٦٥) العصر الذهبي للمدنية البيزنطية . وهذا خطل في الرأي ووهم لا سند له ولا دليل عليه ، يجب رده اصلاً ، الى الاثر الذي تركته فتوحاته الحربية ، والى غنى المباني التي شيّدها ، وما كانت عليه من فخامة وأبهة ، وطائفـــة محترمة من الأدباء والشعراء عمر بهم البلاط الامبراطوري . ومع ذلك ، فلم تحلْ هذه الاعتبارات كلها ، دون تحرج الوضع وتأزمه بحيث كاد يستحيل كارثة، لما حف به من ضعف وأخطار . وعلينا ان نعترف هنا، مع ذلك ، ان ما تم له من ارادة حازمة ، شابها لعمري ، شهوة جارفة للبذخ والاسراف ، مكّنته كثيراً من حشد القوى والطاقات التي كانت له خير معوان على انجاز المآتي التي تمت على عهده وأقامت له الشهرة العالية التي يتمتع بها وحفظها له التاريخ .

كان عليه قبل كل شيء ، ان يقبض بيد من حديد ، على أداة الحكم والادارة ويهيمن عـلى المجتمع . لنلمس الآن الفشل الذريع الذي آل اليه . باشر حكمه بتوسيع محاولة بُدىء بهـا من قرن ماض ، تتمثل بالقانون الثيودوسي ، وهي موسوعة قانونية ضمّنت ما يمكن الانتفاع به من التشريع الروماني ، على ضوء التطور الذي لحق بالاخلاق والعادات ، وانتصار المسيحية النهائي وفوزها المبين . فالقانون اليوستنياني هو المعين الذي استقت منه كل الشعوب اللاتينية شرائعهـا وقوانينها . فهو الاثر الخالد الذي يعتمده المؤرخون والفقهاء في تصويرهم ملامح التاريخ القديم . ويجد هذا القانون تكملته في المجموعة المعروفة بـ *Digeste* ، وهي مجموعـــة أضيفت اليه فيما

بعد ، وهيمن على وضعها الروح الذي سيطر على من قاموا بجمع الموسوعة الاولى ، تتألف من اجتهادات رجال القانون ونظرياتهم الفقهية .

ومنذ ذلك الحين اكتسبت الدولة البيزنطية بعض السمات التي لازمتها ، وهي سمات كانت ، والحق يقال ، نتيجة حركة تطورية طلعت مع عهد قسطنطين ، تبدو ، قبل كل شيء ، في دمج الكنيسة بالدولة . فقـــد أظهرت الكنيسة ، في الغرب ، العداء ، للملوك والامراء الجرمانيين لضلوعهم بالهرطقة الآريوسية ، وانتقصت من شأنهم لما كانوا عليه من وضاعة الثقافة ، ومسكنة في الحضارة وعجز في الادارة ، ولذا نفرت من وصايتهم ولم ترضَ منهم بأي رعـــاية . اما في الشرق ، فالدولة هي تجسيم لارادة الحكومة ، قسطاسها الدين حيث تنعم الكنيسة برعاية الدولة التي لا تقل عن الكنيسة نفسها ، مسيحية" . وهذه الكنيسة ، تلقت من أبنائها المؤمنين ومـن الدولة نفسها ما أفاء عليها الغنى والسلطان . فبطاركتها ، ولا سيا بطريرك القسطنطينية بينهم ، هم اقطاب جذب ووزن . انما الكلمة الاخيرة للامبراطور ، حتى في ما هو من امور الدين ، مهما كان رأي البابا القابع بعيداً ، في روما . وفي هذا يقوم ما اصطلحوا على تسميته بالقيصرية البابوية .

فالامبراطور او الفاسيلفس هو السيد السند المطلق ، من أي اصل نشأ ، وأياً تكون السلطة العسكرية التي افترعته ، والسلطان الذي آل اليه على الأكثر ، غلاباً واقتداراً . يعزله عن عامة الشعب وحتى عن رجال حاشيته ما نشهد له من غنى لا يتصوره عقـل ، ومراسم يجب التقيد بها والعمل بموجبها في قصر أشبه ما يكون بمدينـة مقفلة على نفسها تشبهاً ، من بعض الوجوه ، بالتقاليد التي سارت عليها هذه الاسر الملكية الشرقية ، والتي جاءت وفقاً لحركة تطورية داخلية . وقد خشي بعضهم في مطلع القرن الخامس ان يزهد الفاسيلفس بالحكم فيتخلى عن أزمّته ، كما حدث في الغرب . فها هو يصبح في نهاية القرن ، ويبقى ابداً : القائد الاعلى الذي يرئس الجيوش ، ورئيساً يدير كل شيء ويشرف على كل شيء . وقـد احتشد في معيته رهط كبير من المساعدين عمرت بهم مكاتب الحكومة المركزية ودواوينها ، او تولوا قيادة الجيوش في الولايات ، كما يشرف على المصالح العامة موظفون كبار ، لهم مكانتهم الشخصية . ومع ذلك ليس هنالـك من ارادة واعية منظمة تؤمن التعاون بين هذا الشتيت مـن الدوائر والدواوين ، غير ارادة الفاسيلفس والكل مصيره اليه وحده ، في نظام مسلسل من الالقاب والرتب ، بعضها شرفي محض يشير الى وضع خاص في المجتمع ، والبعض الآخر يتبلور في وظائف وصلاحيات فعلية واقعية . وكل هؤلاء الموظفين علمانيون ، سيصبحون تدريجياً ، مع الزمن موظفين في الدولة يتقاضون منها المرتبات والاجور ، بعد ان استبدلوا بهم الحكام المحليين الذين يحاولون دوماً التهرب من الاعمال الشاقة . وهكذا نرى ان المركزية في أبان ذروتها .

وتتمثل لنا نزعة يوستنيانوس الى الابهة والعظمة في هذه العمائر التي شيدها وتأخذ الالباب بعظمتها ، رامياً منها الى تمجيد الله عز وجل واعلاء شأن الامبراطور . والمهم في هذا كله ان اطل" من هذه الرغبة التي نزلت من الشعب منزلة التقدير والرضى فتبناها ، اثر فني جديد هو من

اروع واوقع ما عرفت البشرية من امثاله ، ممثلاً بكنيسة الحكمة أو آجيا صوفيا التي يغرق اليوم في ظلالها الظليلة الوارفة ، هـذا الحي من استانبول الواقع الى الغرب من مدخل القرن الذهبي ، مع ان ليس في مظهرها الخارجي من روعة الجمال ما يصدم الرائي أو يصدعه . ولكن ما ان يدخل المرء الى صحن الكنيسة حتى يدهش لضخامـة المبنى ولفن ما تقع عليه العين من الرخام المتعدد الألوان ، ومن هذا البذخ في الزخرف الذي لا تشوبه شائبة ، وارتفاع قبته التي تملأ القلب روعة ورهبة من هذه الجرأة التي راودت المهندسين اللذين أشرفا على هندسة هذه الكنيسة ، هما ايزيدوروس الميلي وانثيميوس الترالي . فكان عملهما الفني هذا ملهماً بعد ألف سنة للمهندسين الاتراك العثمانيـين والروس من بعدهم . فالمآسي البشرية التي توالت فيما بعد ، لم تترك شيئاً يستحق الذكر او التنويه به من هـذه الكنائس الاخرى ، التي زانت العاصمة بهندستها المتنوعة ، اذ كان بعضها يرسم لنا بازيليكا مستطيلة الشكل ، كما يرسم البعض الآخر شكل صليب يوناني . ففي مدينة رافينا ، احدى مدن ايطاليا الشمالية الغربية التي أعيد فتحها من جديـد ، يستطيع المرء ان يتذوق أجمـل الفسيفساء وأحفظها التي تخلّد صورة الامبراطور وزوجته الامبراطورة ثيودورا يحيط بهما كبار الموظفين . صحيح ان فن الحفر والنقش كان اذ ذاك ، في ابان انحطاطه ، غير ان فن الزركشة وتزيين المباني لم يبلغ يوماً من الدقة ما بلغه اذ ذاك . فالمرء لا يزال يتذوق النقوش الفنية الجميلة التي أودعها الفنانون البيزنطيون الخشب والعاج . ولا تقـل عنها جمالاً هذه المنسوجات المشرقية المتداخلة الالوان ، الشرقية الطراز ، والتزاويق البديعة التي كانت تحلّي المخطوطات . وهذا الذي يبدو لنا اليوم على شيء من الجمود في الايكونوغرافيا ، قد يكون سببه الانحطاط الفني ، انما يجب رده بالاكثر الى نظرية أسمى في رسالة الفن .

فالفن « البيزنطي » مدين لعوامل اخرى غير يونانية ، تتصل بسوريا وارمينيا . وهو أعجز من ان يلخّص او يمثل كل فنون الشرق الادنى . علينا مع ذلك ان نتجنّب المغالاة لئلا نقع في الجهة المعاكسة التي وقع فيها بعض من كشفوا عن هذه الفنون . فباستطاعة عاصمة امبراطورية كبرى وحدها ان تفرغ مثل هذا العدد العديد من المؤثرات المتباينة في بوتقة واحدة. وفي مقدور دولة كبيرة قوية ان تبني وحدها كنيسة على مثال كنيسة آجيا صوفيا . وهـذا الفن البيزنطي لم يقتصر في اشعاعه على الذين أسهموا في العثور على الاكتشافات التي حققوها وعلى من جاء بعدهم. فمن قبل يوستنيانوس ، استقدم أسياد رافينا وحكامها ، من بيزنطية ، مَهَرة الصناع الذين نقف اليوم مشدوهين امام انجازاتهم الفنية . وعلى بيزنطية عولت القرون العليا من تاريخ الاجيـال الوسطى في استلهام أسرار الفن واستيحائه .

وقد نهجت الآداب البيزنطية ، هي الاخرى ، النهج الذي ارتضته لهـا مسلكاً ، وبقيت محافظة عليه ، مستمسكة به . فالايحاء الفلسفي والعلمي ضاقت منه الانفاس ، لعمري ، مع انـه بقي محافظاً على تقاليده التي اعتمدتها مدرسة الاسكندرية ومن ثمّ « الجامعة » الجديدة الـتي تأسست في القسطنطينية . وفي المقابل ، ازدهر علم التاريخ الذي وجد مادة جديدة له في الامجاد

العالية التي حققتها المدنية البيزنطية ، وفي هذه الحروب التي نهضت بها . في طليعتهم المؤرخ بروكوبوس (+ ٥٦٢) الذي انتقد الامبراطور يوستنيانوس بعد ان كال له المدح والثناء، وذلك في كتبه المتعددة : « حروب الفرس » و « الفندال » ، و « الاوستروغوط » وكتابه الآخر : « رسالة في المباني» وفي كتابه: « التاريخ الخفي » (الذي اقل ما يقال فيه انه يزرع الشكوك). فمع ما يتصف به من صغائر الخلق ، فهو شديد الملاحظة ، كاتب مجيد ، زودنا بمعلومات من الطبقة الاولى حول عهده. وقد عاصر بروكوبوس جمهرة من المؤرخين من علمانيين وكنسيين ، بعضهم من اصل شرقي . ومن الشرق خرج ايضاً هؤلاء الفقهاء الذين عاونوا الامبراطور يوستنيانوس في موسوعته القانونية وفي *Digeste* . كل هذا وما اليه ، ادب يتجه بالطبع ، من الارستقراطية وقد افسحت الديانة الجديدة المجال ، في هذا التعاون الذي قام بين المؤمنين ورجال الاكليروس ، لظهور شعر ديني ، مقفى ، طلع له اول من طلع رومانوس ، وعلى شعره ومدائحه تغذت تقوى الشعب اليوناني طيلة اجيال متطاولة .

المطالبة والنزعات الاخلاقية

هذه المدنية التي كان محورها على البوسفور ، راحت تعلل نفسها مع ذلك بانها « رومانية » . فالفكرة التي تجسمها روما وتمثلها قيماً تسمو بكثير فوق هذه الصور الزائلة التي تبلورت على شاشة المجتمع ، عاشت طويلاً بعد انهيار الوحدة الرومانية وزوالها . ومن ثم ، فالاعتقاد الوطيد بان تراث روما القديمة انتقل الى القسطنطينية ، روما الجديدة ، جعلها رأس العالم المتمدين الاوحد . وهذا الايمان لم يأت يوماً اقوى وأرسخ تشد عليه الدولة بالنواجذ، الا عندما ترى نفسها مرغمة للتخلي عن احدى مقاطعاتها للبرابرة . فلم يكن اقوى من هذه العاطفة يجيش بها قلب يوستنيانوس ، هذا اللاتيني الايلليري الاصل والمحتد فتحمله على القيام بسلسلة من الحروب لاسترجاع الولايات المنفصلة ، فتسول له نفسه بتحقيق هذا الحلم المعسول . ومع ذلك فقد ادارت بيزنطية ظهرها لروما، وعندما سقطت ولاية الإلليريكوم بيد البرابرة واستباحوا باحتها ، لم يكن احد من رعايا الامبراطورية ، باستثناء سكان ايطاليا ، يعبر عن افكاره وخواطره باللاتينية . ولم يكن من أدب معروف رائج الا الآداب اليونانية والآداب الشرقية . ويوستنيانوس نفسه الذي عمل على جمع النصوص القانونية والتشريعية الخاصة بالحق الروماني ، باللاتينية، اضطر ان يصدر باليونانية القوانين التشريعية التي اصدرها فيما بعد ، وتسمى عندهم بـ ، *Novelles* . فالانحطاط الذي أصاب في الغرب ، منذ القرن الثالث ، الطبقة الارستوقراطية نصف المتهلينة ، قضى تماماً على كل انتشار للثقافة الاغريقية، فليس من الغرابة بشيء ان تتسع الهوة في الممالك البربرية كما سنتبين ذلك عما قريب : فلم يعد الشرق والغرب يتفاهمان .

وهذه الوحدة البديعة المنظر التي كانت تبدو على الشرق في الظاهر ، اخذت هي الاخرى بالتصدع شيئاً فشيئاً بعد المشاكل الاجتماعية والقومية التي تحالفت عليه ، فمزقتها كل ممزق . وهذه الدولة « الرومانية » التي عجزت الفينة بعد الفينة ، عن تأمين حماية مقاطعاتها الشرقية والدفاع عنها ضد تعديات اعدائها الاقوياء ورد كيدهم الى نحورهم ، والتحوط للأزمات الاخرى

التي اشتدت فيهـــا جباية الضرائب ، وغير ذلك من الاسباب كالمركزية الادارية والدينية ، كل ذلك وما اليه ، قوّى النزعات القومية . وقد اخذت الشعوب الآسيوية ومصر على الاخص تعي ، أكثر فأكثر ، الدور العظيم الذي لعبته في اقتصاديات الامبراطورية الرومانية وترسيخ حضارتها ، وهو دور زاد خطره وشأنه بعد سقوط الامبراطورية الغربية . ومن جهـة اخرى ، فقد كان لهذا اللقاء التدريجي الذي تم بين الارستوقراطيـــة القيّمة على التراث الهليني وبين المسيحية المتغلغلة بين الطبقات الشعبية الواسعة التي لم تفقد الشعور بقوميتها ، ان زاد في ازدهار الحضارات الوطنية التي غشتها مسحة دقيقة من الطلاء اليوناني . ولذا ، فقـــد بدت الدولة البيزنطية والنظام السياسي الذي انشأته بعيداً عن محور سوريا ومصر ، وكأنها سيطرة اجنبية دخيلة على البلاد ، ليس ما يبررها ، والانتظار البَرِم الطويل الذي اضطرت إلى الاعتصام بـه عناصر قومية متعددة كالاقباط والساميين والارمن ، اخـــذ يفت من عضـد الدولة ويخلخل وحدتها . فما ان جاء الاسلام وظهرت موجاته الاولى حتى راح يستثمر بنجاح ، هـــذا الوضع المـلائم .

المشاجرات الدينية والشقاق المذهبي

وهذا التفسخ بدا على اشده في هذه المشاجرات الدينية التي ادى اليها اختلاف العقيدة وتباين تعاليم بعض الشيع والهرطقات التي شجرت بين المسيحيين . ويصعب على المؤرخ تصور مـــا بلغته هذه المشاقات من العنف والبغضاء حول القضايا اللاهوتية ومـــا اثارته من انشقاق بين الطوائف الكثيرة التي طلعت في الاجيال الثلاثة الاولى للمسيحية . قد يكون في اهمية الادب الكنسي ما يطبع بالغلو هـــذه الحدة . ومع ذلك ، فالروح الدينية الشرقية تسيطر عليها ، اكثر مما تسيطر على الروح الدينية الغربية التي تهتم ، قبل كل شيء بمشكلة سلوك الانسان ، النظرية القائلة بان الخلاص يقوم ، قبل كل شيء ، في تفهم النظـــام الالهي بحيث يفنى فيه الانسان بصورة سلبية او يتدبر امره معه بصورة تكاد تقارب السحر . ولم يعتم ان اصبح واضحاً بان وراء علماء اللاهوت ، الجماهير التي كانت تخضع لمؤثرات اجتماعية وقومية اكثر من خضوعها لمؤثرات دينية صرفة . ومع ذلك يبدو من اللازم ان نعرض هنا بايجاز ، القضايا الدينية التي ادت الى مثل هذا الوضع الحرج ، اذ انها كانت بالفعل سبباً مباشراً لهذه الانفصالات التي لا يزال بعضها قائماً لليوم .

فالاختلاف الجوهري يقوم اصلاً على الصعيد الديني ، ويتناول وجود طبيعتين في السيد المسيح : الطبيعة البشرية والطبيعة الالهية . ففي نظر البعض الذين كان يهمهم في الدرجة الاولى ، المحافظة على الوحدة الالهية او الجانب الالهي في شخصية المسيح ، فظهور السيد المسيح بلحمه ودمه ، وآلامه وصلبه ، لم يكن الا تشبيهاً . وبهذا قال اتبـــاع الطبيعة الواحدة . اما خصومهم ، فقد رأوا في هذه كلهـــا حقائق مطلقة ووقائع لا يواجهها الشك ، تختلف عن الطبيعة الالهية بحيث ان الآلام التي تحملتها احداها لا تمس كمال الثانية بشيء . وصاحب هذه المقالة هو نسطوريوس ، بطريرك القسطنطينية في القرن الخامس ، ولذا عُرِف اتبـــاعه بالنساطرة او النسطوريين .

والحقيقة ان كلا التعليمين ، في جعلها الله بمعزل عن الألم عرضا على الفداء للخطر . بحيث ان ما اصبح فيا بعد الارثوذكسية اليونانية ـ الرومانية كان قوامه القول باتحاد الطبيعتين، وهذا مر عظيم لا ينفذ اليه عقل الانسان . فبعد ان حال النفوذ القوي لاصحاب العقيدة المونوفيزية في القرن الخامس ، دون انطلاق العقيدة النسطورية ، استطاع النساطرة ان يجدوا لهم منطلقاً واسعاً في الدولة الساسانية . وانتشرت مقالة القائلين بالطبيعة الواحدة بين الساميين ، بعد ان رأوا في هذه العقيدة استمراراً للتقاليد والتعاليم بوحدانية الله كما إنتشرت كذلك بين الاقباط ، وبين الارمن ايضاً ، على شيء من التخفف والتسامح . اما « الارثوذكسية » فاحتفظت باليونان الى جانب روما ، والعالم اللاتيني ، واخذ اصحاب الطبيعة الواحدة ، ينظرون اليها نظرهم إلى ديانة اسياد البلاد الغرباء اصلا عنها . وقد تبنى بطاركة انطاكية والاسكندرية ، ولا سيا كيرلس الاسكندري ، في القرن الخامس ، مقالة المونوفيزية. ووقفوا الى جانبها ، نكاية بزميلهم بطريرك القسطنطينية، للمركز السامي الذي كان ينعم به لدى السلطة العليا . وقد مضوا في موقفهم هذا بعد الذي نالوه من تأييد الشعب لهم ومؤازرة الرهبان لهذا الموقف المتشدد .

عرف الشرق قبل الغرب بكثير ، الحياة الرهبانية التي ازدهرت فيه وازهرت على اشكال وألوان مختلفة ، على السواء ان في اليونان أو عند الارمن والاقباط . وكانت الحياة الرهبانية تعتمد قاعدة لها القوانين التي وضعها القديس باسيليوس فاتخذها الرهبان دستوراً لهم ، سواء انقطعوا للحياة النسكية التقشفية أو لحياة التأمل والذوبان في الله . فبعضهم عاش حياة مشتركة بين جمهورهم كرهبان دير القديس سابا الذي انشىء في القرن الخامس ، على مقربة من القدس ، اما البعض الآخر فقد ارتضى لنفسه حياة نسك وتوحد فانعزلوا عن الناس وانقطعوا للتأمل ، شأن رهبان القديس سمعان العمودي ، الذين كانوا على شاكلة معلمهم ومرشدهم ، يقضون حياتهم في التأملات وهم قابعون على رأس عمود لا يفارقونه ليلا أو نهاراً ، ولا صيفاً أو شتاء ، متهجمين لله في شبه الخطاف مها بلغ من حمّارة القيظ او زمهرير البرد . وقد أحاطت برجال الله هؤلاء هالة من القداسة والتقديس حلت في قلوب الشعب ، فتكاثر عددهم ونما بحيث بلغوا عدة آلاف في منطقة واحدة ، مما حدا بالكثيرين الى الكفر بالعالم ، والالتحاق بهم ، معرضين طوعاً واختياراً ، عن ملذات هذه الفانية وبهارج الحياة. فقد كانت حياتهم كما كانت اقوالهم وتعاليمهم شجباً للشر وسوء السلوك والغنى والسلطة . واذ كانوا يفتقرون الى سلطة اسقفية حازمة ، فكثيراً ما كانوا اداة طيعة لاثارة الفتنة اذ كانوا غالباً وراء كل تمجس او انتفاضة شعبية تقوم بها الجماهير بمناسبة المشاجرات اللاهوتية وما تجر اليه من اعمال العنف . وكانت هذه الخصومات الدينية سبب تنغّص الحياة في جميع اطراف الامبراطورية البيزنطية وتسمم العلاقات بين مختلف طبقات الشعب ، جالبة على البلاد جماء ادهى المخاطر ، طيلة قرنين كاملين ، حتى اذا ما جاء الفتح العربي قضى على اسباب الفتنة الكامنة تحت الرماد ، بعد ان سلخ عن السيطرة البيزنطية الولايات التي كان معظم سكانها من المشاقة ، فوضعهم بمأمن من طغيان الكنيسة اليونانية .

ويمكن إيجاز المراحل الحاسمة في هذه الحقبة على الوجه التالي ففي عام ٤٣١ انعقد مجمع أفسُس وحرّم الهرطقة النسطورية ، فراح اتباعها يلجأون الى الدولة الساسانية . وفي سنة ٤٥١ ، انعقد مجمع خلقيدونيا ورذّل هرطقة القائلين بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح . ومع ذلك بقيت مقالتهم تلعب دوراً بارزاً في سوريا ومصر ، وكان تأثيرها بالغاً على الاوساط الحاكمة حتى في القسطنطينية . وتردد الاباطرة في اتخاذ سياسة ترمي الى تهدئة اصحاب البدعة المونوفيزية واشاعة السلام في طول البلاد وعرضها ، وذلك عن طريق تنازلات وامتيازات خاصة . وقد فشلت هذه السياسة ولم تأتِ اكلها المرتجى كما انها خلقت للدولة صعوبات مع روما نفسها ، تلتها محاولة اتحاد بين الكنيستين ، كما ادت من جهة ثانية الى اعتماد سياسة البطش والقسوة ضد اتباع الهرطقة المونوفيزية . وقد اصلاهم الامبراطور يوستنيانوس حرباً حامية اصاب رذاذها جميع الطوائف والبِيَع المشاقة وجميع الخارجين على الارثوذكسية : كالآريوسيين والمشركين ، والقائلين بالمانوية واليهود على السواء . وراح اتباع المونوفيزية من جهتهم ، ينظمون جبهتهم وصفوفهم بصورة نهائية عن طريق إنشاء كنائس مستقلة لهم : كالكنيسة القبطية والنسطورية واليعقوبية ، نسبة الى مؤسسها يعقوب البرادعي ومن ثم ارمينيه ، لكل منها ليتورجيتها الخاصة بلغتها القومية واساقفتها . وهكذا اصبح لكل من هذه القوميات كنيستها « الوطنية » الخاصة بها .

وعبثاً حاول الامبراطور هرقل ، في القرن السابع ، وهو يواجه ادهى الاخطار والغزوات من قِبل الفرس والآفار والعرب ، إيجاد مجال لاحلال التفاهم والسلام، عن طريق صيغ عقائدية جديدة . وهذه المحاولات تصدر عن الامبراطور انما تنبثق عمّا يعتقد من حقه بالتشريع في ما يختص بالايمان . وانتهى به الامر الى تحريم الحديث عن طبيعة أو طبيعتين في السيد المسيح ، محاولاً الترويج للقول بمشيئة واحدة فقط (هرطقة القائلين بمشيئة واحدة في السيد المسيح *Monothélisme*) دون ان يتمكن من اقناع احد على القول بمقالته هذه . وكان من نتيجة هذه المحاولة ان ادت في عهد خلفه الامبراطور قنسطان الثاني ، الى اثارة ازمة حادة مع البابوية كان من بعض نتائجها ان اثار ضده رعاياه اليونان في ايطاليا بزعامة الراهب مكسيموس المعترف ، وما عتم ان جاء الفتح العربي يسلخ عن بيزنطية رعاياها في الشرق ، فتؤول هرطقة المشيئة الواحدة في السيد المسيح الى هزيمة نكراء وفشل ذريع اضطرت معه الحكومة الامبراطورية ، في النصف الثاني من القرن السابع ، للتراجع والتنكر لهذه العقيدة .

المدنيات القومية

وفي وسط هذا المصطرع المنيف اخذت حضارات جديدة تنظم نفسها على أساس من الثقافات القومية كالسريانية والقبطية والارمنية والكرجية والمصرية ، وهي ثقافات معظمها نقول وترجمات واقتباسات عن اليونانية امتزجت بتراث قومي ساعدت شعوب الشرق الادنى على ترسيخ دعائم استقلالها الروحي والكلسي . ولم تلبث ارمينيا التي وقع معظمها تحت نفوذ الساسانيين ان ألفت جزءاً من اصل هذه المجموعة من القوميات ذات

الثقافة المسيحية في آسيا الغربية فقد أدّت مساعي رئيسها الديني ساهاك والكاهن مسروب ، في القرن الخامس ، الى تزويد لغة البلاد بأبجدية خاصة بها ، ساعدت على تكوين أدب قومي ارمني، هو ، في الغالب ، ادب ديني مسيحي ، منقول ، والى وضع عدد من كتب التاريخ تخلّد ذكر الامجاد الوطنية . ولعل أشهر هؤلاء الكتاب هرموس خورين الذي تجعله تقاليدهم من رجال القرن الخامس، بينما يُرَجَّح انه عاش حوالي ٧٠٠ ، والى جانب ارمينيا قامت بلاد الكرج التي، مع بقائها على الارثوذكسية ، تأثرت كثيراً بالنفوذ الارمني واليوناني على السواء .

اما الادب القبطي ، ومعظمه ديني ، فهو قليل الشأن . والادب الحبشي الذي اشتق من الادب القبطي ، لا يزال اذ ذاك في القمط . وأهم من هذه الآداب بكثير ، الادب السرياني . فالعلوم الدينية تؤلف منه السواد الاعظم ، وهو على جانب كبير من التنوع : كاللاهوت والحق القانوني الكنسي ،والليتورجيا والادب الروحي ، ولا عجب في ذلك اذ ان معظمه ادب رهباني. وينقسم الادب السرياني الى قسمين تجمع بينهما حدود سياسية واحدة : الادب الغربي والشرقي ، وذلك نسبة الى مواطن الشعب الذي كان يزاوله . فالادب السرياني الغربي ازدهر بين القائلين بالطبيعة الواحدة ، ومركزهم العلمي هو الرها ومدرستها اللاهوتية المشهورة التي أنشئت في أواسط القرن الثالث . اما الادب الشرقي فتألف من أتباع الكنيسة النسطورية ، ومراكز العلم عندهم نصيبين من مدن الجزيرة في سوريا ، وجنديسابور ، في العراق ، وكلاهما يقعان ضمن نفوذ الدولة الساسانية . والذي يهم المؤرخ بنوع خاص هو الكتب التاريخية التي وضعها اصحاب الطبيعة الواحدة (يشوع العمودي ويوحنا الافسسي ، المتوفى سنة ٥٨٧) وهي مؤلفات يشهد لها بالجودة والبراعة اللغوية . والجدير بالذكر هنا التنويه عالياً بحركة الترجمة والنقل التي نشطت عند السريان ولا سيما النساطرة منهم ، اذ تم على يدهم نقل معظم الروائع الفكرية الفلسفية التي وضعها اليونان . وعن طريق هذه الترجمات وصل الى الاسلام، وعنهم الى اوروبا الغربية، معظم التراث الفكري الهليني وفي مقدمتهم آثار ارسطو والافلاطونية الجديدة ، وبطليموس وهيبوقراتيس وجالينوس . وقد اشتهرت جنديسابور بمدرستها الطبية وببيمارستانها ، كما اهتمت بالهندسة (إقليدس) وبالكيمياء . وقد تكاثرت في هذا العهد، الكتب المنحولة مما خلق مشكلة امام الاجيال الطالعة في التمييز بين الاصيل منها والمدخول . غير اننا لا نرى في هذا الادب ، باستثناء الادب المسيحي منه ،محلاً للتاريخ القديم ولا للادب اليوناني الدنيوي،ولا بالاحرى للادب اللاتيني باستثناء « رواية الاسكندر » . وقد أدى السريان ، في هذا المجال ، خدمة عظيمة للعالم بعد الذي عُرِف من اعراض الغرب المسيحي حتى وبيزنطية عن كل ما ينضح بالوثنية ، وازدرائها له .

كذلك وقع على الحدود الفاصلة بين بيزنطية والدولة الساسانية ، اليهود الذين ، بالرغم مما تعرضوا له من اضطهادات وتشريد ، عرفت آدابهم ، في هذه الحقبة التاريخية فترة من الازدهار. يرئس الطائفة ، في المنفى ، زعيم روحي ، مسؤول في نظر أولياء الامر وممثلي السلطة العليا ،

عن امور طائفته ، كالبطاركة انفسهم . ولما زهدوا في كل مطمع سياسي كان أكابر القوم في هذه الملة ، هم العلماء الذين كانوا ينصرفون لدرس الكتب المقدسة والشريعة الموسوية، الذين ألفوا طبقة الربانية يتقدمهم المعلم الاكبر المسمى : غاوون . وقد كانوا يتحسسون ، منذ عهد قديم ، بضرورة جمع الاجتهادات الدينية والاحكام والسنن الفقهية المتعلقة بالعقيدة او المنظمة لشؤون الحياة . وقد ابتدأت حركة التجميع هذه ، في القدس ، منذ القرن الثاني ، وانتهى العمل منه في المدارس المشهورة: سورا وبومبديتا الواقعة على مقربة من مدينة طيسفون، في القرن الخامس فتألف من ذلك ، التلمود المعروف بالتلمود البابلي . وهو يتألف من مجموعة ضخمة من النصوص والاحكام والاجتهادات التي تنتظم التقاليد اليهودية ، بعد ان انكمش هذا الشعب على نفسه وانطوى على ذاته امام ما لاقى من اضطهادات ، وبعد غلبة المسيحية وانتصارها وانتشارها . وقد كان اليهود في الغرب يعوّلون على اخوتهم في الشرق اجيالاً عديدة، في كل ما يتعلق بأمورهم الدينية يستفتونهم في كل معضلة عقائدية .

وليس اقل جدارة بالاعجاب والتقدير ، اهتمام هذه الكنائس المسيحية بالفنون الجميلة . فقد اخذت ارمينيا بتشييد الكنائس العديدة بعد ان اعتمدت على عدد كبير من ابنائها المهندسين انتشروا في انحاء الامبراطورية البيزنطية . ولعلهم ساهموا في نقل مميزات الهندسة المعمارية الكنسية الى الغرب لما بين هذه الكنائس او البيع من تشابه ومحاكاة ، وعنها اخذ الفن المعماري الروماني اولى مفارقاته المميزة . وقد كان لكنيسة الكرج ، هي الاخرى طرازها المعماري الذي طبع مدرستها . وقد اعطى الفن المعماري الكنسي في سوريا عمائر بديعة لا تزال مقوماتها الجميلة بادية للعيان في خرائب هذه الكنائس والاديار في القرنين الخامس والسادس التي رادها روعة ومهابة انها قامت في بقاع اقفرت اليوم واصبحت هجراً منسياً ، منها : قلب اللوزة ، وطور مانين ، ومار سمعان العمودي . وقد ازدانت هذه الكنائس بالكثير من الوشي الزخرفي الشرقي الطابع واللون . وازدانت باشكال متنوعة من الرسوم الهندسية التي تحاكي ضروباً متنوعة من نبات وحيوان تأتلف مع المجموع الهندسي . كذلك ازدهر في مصر فن مستقل من الهندسة المعمارية الكنسية ، امتاز بانسجام الالوان الزخرفية ، وبامانته لاصول الفن الهليني مميزة بهذه الصور البشرية وبالعاج المحفور والاقمشة المزركشة، مما عاد على هذه الانجازات المعمارية بالشهرة الواسعة .

الدولة الساسانية

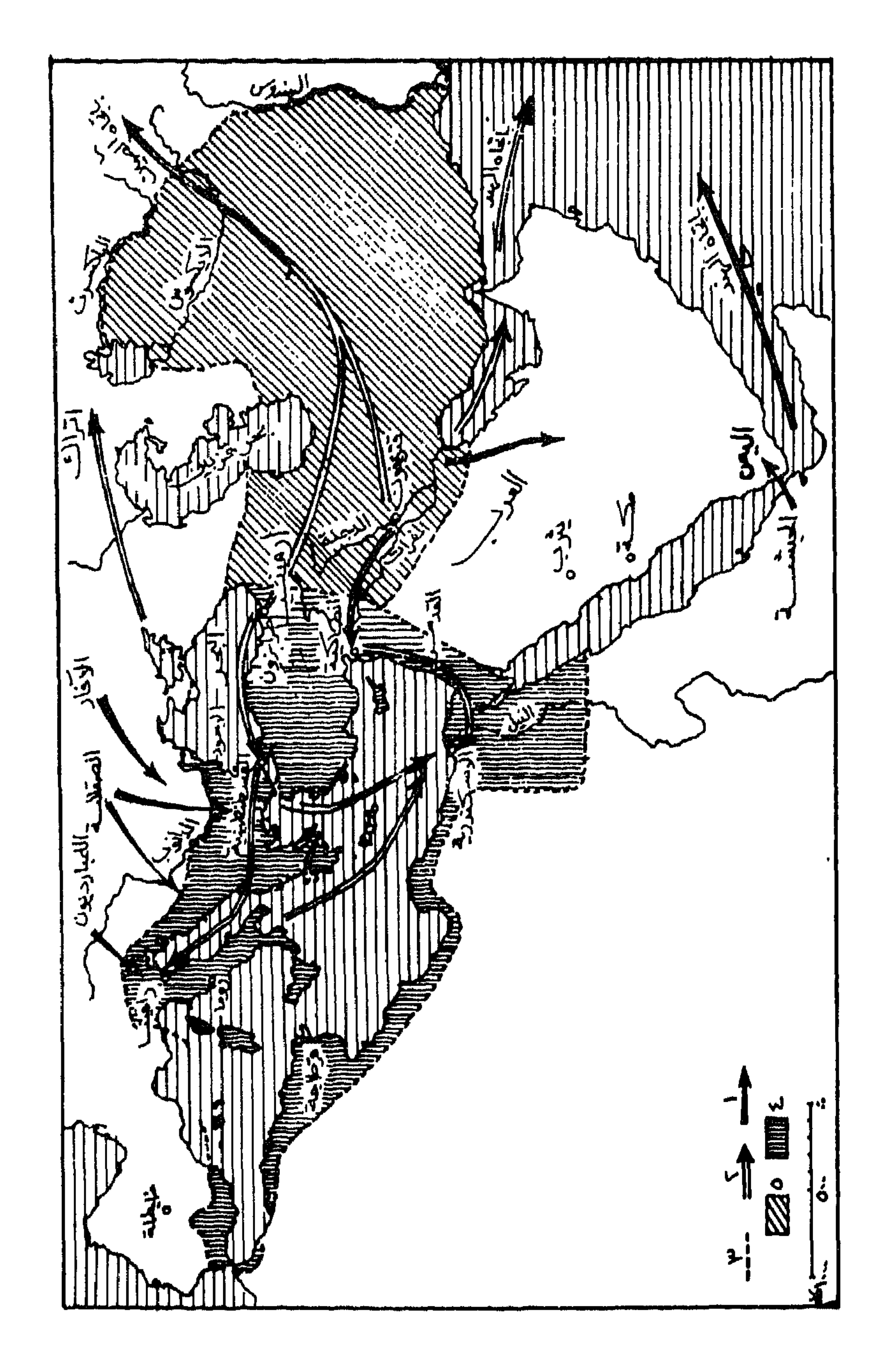
كم من مرة تجاوزنا ، ونحن نستعرض صورة هذا الشرق في واقعه الحيّز ، في هذه الحقبة التاريخية ، حدود الامبراطورية الساسانية، اذ من الصعب جداً، ان لم نقل من المستحيل ، ان نقتصر على الامبراطورية البيزنطية في درسنا لتاريخ الشرق الادنى في مطلع الاجيال الوسطى . وهذه الدولة الساسانية التي قامت منذ القرن الثاني، خصماً عنيداً ، ومنافساً خطيراً للامبراطورية البيزنطية ، يمكن مضارعتها ومقارنتها ببيزنطية من عدة وجوه. فقد ضمت ، فيما ضمته بين ممتلكاتها ، ايران برمتها حتى مشارف الهند ، وجانباً كبيراً من بلاد

ما بين النهرين وارمينيا ، كما ضمت ما وراء النهر من بلاد الصفد وبكتريا ، وخوارزم وخراسان (بحر آرال) والجـــازات المفضية الى التركستان الصيني . ووصف هذه الدولة « بالقومية او الوطنية » فيه تجاوز لا يسوغه مسوّغ: فسكان ما بين النهرين والارمن ليسوا بايرانيين اكثر منهم بيزنطيين . ومع ذلك ، فما من شك ان هذه الدولة عرفت ان تحقق ، بالنسبة للدول التي تعاقبت على الحكم من قبل ، تمازجاً اكبر ، وتلاحماً اشد واقوى ، عند الاكثرية الايرانية او اقله عند الطبقة الارستقراطية فيها .

قامت هذه الدولة على توازن متأرجح بين المقومات الثلاثة التي تألفت منها : طبقة الاشراف وهي طبقة قديمة قوية في البلاد ، إقطاعية حاكمة ، وطبقة رجـــال الدين ، وهي طبقة غنية متدرجة المراتب ، مسلسلتها ، تنعم بعطف الدولة وسندهـا ، وادارة مركزية محكمة السبك والحبك ، وفوق الجميع نظام ملكي مهيب يفرض الاحترام . وفي اسفل السلم الاجتماعي طبقة الشعب تعنى بالفلاحة وحراثة الارض ينتظمها طبقة وسطى من صغـــار الملاكين . وتكتظ حواضر البلاد الكبرى ولا سيما عاصمتها طيسفون الواقعة على نهر دجلة ، بطبقة من الصنـــاع المهرة النشيطين . وهذه الطبقات لها ما للطبقات في الهند من تماسك ان لم نقل من تحجر وتعدد، تتحسس الى حد بعيـد ، بالروابط العائلية المتوارثة التي حاولت الدولة في روما ، النهج عليها والنسج على منوالها . وقد تمكنت الدولة ، بعد ان اعترضت محاولتها صعوبات عديدة ، من بينها الاخطار التي تهدد، كما لدى بيزنطية ،حدودها الشمالية لاستهدافها لغزوات البرابرة الطارئة، من ابقاء سيطرتها على الطبقـــة الارستقراطية العليا التي كانت تصطرع مع طبقة الفلاحين . ولعل محاولة الاصلاح المالي والضرائبي التي قام بها الملك قواد وانوشروان (سنة ٥٠٠) كانت ترمي من جهة الى تأمين المزيد من الفعالية ، كما رمت من جهة اخرى ، الى تأمين المزيد من العدالة ، في توزيع ضريبة الخراج . وليس من المستبعد ولا من الخطل بشيء ان نفترض بان السياسة الحربية العدائية التي انتهجتها الدولة الساسانيـــة كانت تخفي وراءها رغبة شديدة في كبح جماح كبار النبلاء ومـا عُرف عنهم من جشع وقلة انقياد .

وعلى هذا الجيش الذي يؤلف النبلاء اُطرَه وملاكاته الاساسية، تهيمن روح الدولة الاخمينية التي عُرِفت بشهوتها الجامحة للفتح والتوسع . ويردف الجيش وحدات من المرتزقة، سوادهم من الارمن . اما فرقة المشاة التي كان افرادها من بين طبقة الشعب ، فقد فقدت الشأن الذي كان لها في الماضي كما خسرت بالتالي ، الكثير من نفوذها الاجتماعي .

والملـك الساساني الذي يلقب بملـك الملوك ، كان يتولى بالفعل قيادة الحرب كما كان رأس الحكومة والادارة ، وله شخصية تحف بها المهابة والعظمة والقدسية ، ويعيش في جو من البذخ والغنى والاسراف لا يمكن ان يتصوره عقل ، يعود اليه الملك بحق الوراثة ، بعكس الامر في بيزنطية . وهـذه الابهة والعدالة ، وحسن التدبير والادارة الرشيدة ، والاقـدام في الحروب ، والثقافة الواسعة ، هي كلها من بعض قسمات الصورة التي رسمها لنا المؤرخون عن بهرام غور



الشكل (رقم ـ ٢) الدولتان البيزنطية والساسانية في القرن السادس

١ ـ التوسع الجغرافي ٢ ـ الطرقات التجارية ٣ ـ الحدود الفاصلة ٤ ـ الدولة البيزنطية ٥ ـ الدولة الساسانية

وكسرى انوشروان . وعاشت في اذهان الاجيال اللاحقة ، بعد ان ضفرت حولها التقاليد ما ضفرت من وشي الخيال المجنح ، بعد زوال الدولة الساسانية بكثير ، وهي قسمات لوّنها لنا بالوان أخاذة زاهية ، الفردوسي في ملحمته الخالدة «الشاهنامة » او كتاب الملوك ، التي وضعها في حدود سنة الف . وفي عهد فراهمدار الكبير ، الصورة المثالية لمنصب الوزارة في الاسلام ، نعمت الادارة الملكية بكثير من الشهرة . فالادارة تبهى بما لها من قوانين ادارية دقيقة كما تفخر بما لها من خبرة عملية في تدبير شؤون الدولة ، وهي تؤلف من ذاتها طبقة خاصة ، عرفت في عهد الدولة العباسية ان تستعيد سبق وكان لها من نفوذ واسع .

وخلافاً للدولة الفرثية ، اصبحت الديانة المزدكية أو الزرادشتية ، دين الدولة الرسمي ، تشدها الى النظام الملكي اوثق الروابط . وهي ديانة تتدرج فيها الرتب وتتسلسل المراتب ، يأتي في المرتبة الأولى منها الموبذان أو المجوس الاكبر ، تطالعك هياكل النار اينما وقع مأتى العين . وتمّ في القرنين الخامس والسادس استنباط ابجدية جديدة ساعدت على وضع الأفستا وما اليه من أدب ضخم ، يعدل آداب الديانات الاخرى التي عرفت الكتابة . ومع ذلك ، جرت ، من وقت لآخر ، اضطهادات شبيهة بما كان يجري منها في الامبراطورية « الرومانية » اخذت بها الدولة من ليسوا على دين ملوكهم ، وبذلك شهادة ضمنية على ان هذه الديانة ليست قوة لا اعتراض عليها او مسلماً بها من الجميع . والسبب في ذلك ، انما يعود أصلاً : لعلاقاتها بالنظام القائم ، وبالطبقة الارستوقراطية . وباعتبار هذه الديانة دين الدولة الرسمي ، لم تحاول يوماً ان تتجه في دعوتها من غير الايرانيين ، وان تعاليمها بالرغم مما تحمله من عوامل «العلم » ، والحق التي تقول بها بقيت ، بالنسبة للديانات المسكونية الاخرى التي تسعى للانتشار وجمع المريدين والانصار ، غامضة ، مبهمة ، تعاني من الجفاف والقحط ، وتبقى اعجز من ان تحور جواباً عن القضايا والاسئلة التي يوجهها اليها ابن العصر . ولذا أطلّ على ايران في القرن الثالث ، ديانة جديدة ، كتب لها ، بالرغم مما تعرضت له من عنف واضطهاد ، ان تعرف بعض الشهرة ، هي الديانة المانوية ، التي عرفت رواجاً اكبر بين الطبقات الشعبية ، وعنّت نفسها بقضية الخلاص ، وتقدمت من اذهان الناس بكونها تأليفاً للديانات الاخرى ، تحلم بالذيوع والانتشار وكسب الانصار . وفي القرن الخامس نرى المانويين ، اتباع الديانة الجديدة ، منتشرين ليس في الامبراطورية الساسانية فحسب ، بل أيضاً في شمالي افريقيا ، ومصر ، وروما والقسطنطينية حيث لم يستطيعوا البقاء طويلاً اذ ان هرطقة الالبيجيين ستظهر بعد ذلك بزمن طويل ، ولا سيا في اواسط آسيا ، حيث اعترفت بالديانة الجديدة رسمياً احدى ممالك الاتراك ، في القرن الثامن ، وبقيت تقريباً شبه ديانة رسمية في تلك البلاد ، الى ما بعد الفتوحات الاسلامية ، في القرن الثالث عشر .

وفي الولايات الشمالية والشمالية الغربية من الامبراطورية الساسانية المفتوحة للثقافة الهندية ، بعض أتباع البوذية . كذلك نشاهد لدى الشعوب غير الايرانية التي تقطن الولايات الغربية ، النصرانية تنعم بحرية كاملة . فمقاطعة طور عابدين الواقعة الى الشمال الغربي من مدينة الموصل

تنغص بأديار السريان، كما نرى طوائف من النسطوريين تلتجىء الى الدولة الساسانية، اثر القطيعة التامة بينها وبين الحكومة البيزنطية، وتعمل على تنظيم نفسها ككنيسة مستقلة تحت رعاية الدولة، وتنشىء لها مقراً بطريركياً في طيسفون، ومدارس عرفت بنشاطها وازدهار الآداب فيها، كما مرّ معنا ذلك. وتقوم الكنيسة النسطورية بدعاية واسعة لكسب الانصار والمريدين. إلا ان العراقيل التي ثارت في وجهها في المناطق التي سواد سكانها على الزردشتية، وفي الاقاليم التابعة لبيزنطية، جعلتها تتجه بأنظارها نحو آسيا الوسطى، ضمن الدولة الساسانية وخارج حدودها. وسيلعب المرسلون النسطوريون دوراً بارزاً بين الاتراك، وفي ما وراء ممالكهم، طيلة الاجيال الوسطى. وكان لليهود جوالٍ في الدولة الساسانية، كما رأينا ذلك في حديثنا عن «التلمود البابلي».

وعند نهاية القرن الخامس، ظهرت في ايران، دعوة الى ديانة جديدة، هي المزدكية، كانت في حقيقتها، أكثر من كل دعوة دينية سابقة، استنكاراً صارخاً للوضع الاجتماعي في البلاد. وقد امتازت الديانة الجديدة عن المانوية التي اشتقت منها وصدرت عنها، بالدعوة الى شيء من الاشتراكية في مقاسمة خيرات هذه الارض ونعمائها بالسوية، وهي دعوة طالما تردد صداها في الاجيال الوسطى. وينسب خصوم هذه المقالة، الى اتباعها، الشطط والمروق، ويتهمونهم بالمطالبة باشتراكية المرأة، ليس لعمري انسياقاً منهم مع شهوة الجسد بعد الذي عُرِفوا به من مُغالاتهم باحترام الظواهر، بل احتجاجاً منهم على عادة التسري المتبعة على نطاق واسع بين عظماء البلاد الذين كانوا يحشدون في حرمهم، من النساء ما يشاؤون، وتحطيماً منهم للفوارق الاجتماعية. وقد أخذ الملك قواد مدةً، بتعاليم مزدك، اذ رأى فيه عوناً له على الارستوقراطية، إلا انه عاد وتخلى عنه وأسلمه للعذاب والتنكيل به. وسنتبين اثر المزدكية في بعض الحركات الدينية والاجتماعية التي ظهرت، فيما بعد، في العهد الاسلامي.

الادب والفنون في عهد الدولة الساسانية

فالادب الديني ابعد من ان يمثل وحده حضارة الايرانيين. ففي بلد هي نقطة التقاء الحضارات وتقاطع الطرقات التجارية – وهو امر لا يتنافى مع الخلق الاصيل والابداع – تلتقي معاً: التقاليد القومية، والمؤثرات الهندية، والتفاعلات اليونانية والسريانية، حتى و «الطورانية»، وتترك اثرها ظاهراً في آداب البلاد وفنونها، على نسبة ما يسمح بتقديره وتقويمه، ما تبقى من حطام هذه المدنية التي وصلت الينا بالرغم مما انتابها من تقلبات الدهر ودُوَله وصروفه. فالتاريخ الرسمي، والحكايات على لسان الحيوان التي وصلت الينا شعراً أو نثراً، وبعضها من الهند، والقصص الملحمي أو العاطفي، كل ذلك فيه ما يرضي الطبقة الارستوقراطية، والطبقة الوسطى، وفئة الموظفين. فعن طريق ترجمة هذه الآثار الى العربية أو الى الفارسية، لغة البلاد في عهد الفتح الاسلامي، والى الارمنية، واليونانية والكرجية والسريانية، وفي الاقتباس منها والتعليق عليها، وصلنا صدر طيب من تاريخ الدولة الساسانية الذي علق به شيء من الاسطورة، كما وصلتنا آثار هي على كل شفة ولسان، كقصة برلعام ويوشافاط التي فيها استعادة لحياة بوذا،

وكتاب كليلة ودمنة ، وهو من كتب الحكايات على لسان الحيوان مشهور ، كلاهما منقول عن الادب الهندي ، على يد احد علماء النساطرة المدعو بُرزُويه . وطالما تغنى الشعراء بحب خسرو الثاني وشيرين . ويروي لنا الرواة نكات تبين الدور الذي لعبه اثنان من رجال الطرب هما سركاك وبرباد فكانا مصدر وحي للموسيقيين « العرب » فيما بعد وقد جاء اكتشاف لعبة الشطرنج وسيلة تسلية وترفيه نقلها الصليبيون معهم الى الغرب، بعد ذلك بنحو ٥٠٠ سنة، وشاع استعمالها في الديار المسيحية . وقد برز الى جانب فضل اليونان على تقدم العلوم، ما للهند من تأثير في هذا المجال، ولا سيما على الطب، وعلم الفلك والرياضيات. ولم يكن اثر الهند على الفنون الجميلة باقل من ذلك ، في الولايات الشرقية .

وقد ظهر في غربي ايران فن جديد ، ساساني الطابع والنشأة ، عرف ان يمازج بين المؤثرات الفنية من العصر الهليني والفرثي وبين تقاليد قديمة تعود لعهد الدولة الاخمينية. وفي جملة ما وصل الينا من معالم هذا الفن ، باستثناء ابراج النار ، القصور الواسعة الابهاء المعقودة (إيوان) ، والنقوش المحفورة حتى في قلب الصخر الاصم والتي تعيد الى الاذهان، المآتي الجيدة التي سجلها احد الملوك فيما مضى ، والفسيفساء ، والالواح الموشاة بالمينا ،، وغير ذلك من مصنوعات البلور الصخري ، وانسجة الديباج المزركش حيث يرسم الفنان ، على هواه ، صور النقوش المحفورة او الصور التي تكون صاغتها مخيلة شاعر جموح . وقد اثر هذا الفن بعيداً في جميع اقطار الشرق الادنى ، ودخلت بعض عناصره هندسة بعض الكنائس دون ان يفقه الناس لها معنى ، حتى ان بعض هذه المصنوعات الفنية بلغت اوروبا الغربية على يد فنانين قدموا من الشرق .

واسس ملوك الدولة الساسانية في آسيا الوسطى وفي الغرب من ايران وبلاد ما بين النهرين ، مدناً عديدة عرفت الازدهار بفضل الحركة التجارية الناشطة التي تحولت بعض مسالكها القادمة من الهند ، عن مصر ، واتجهت الى موانىء البحر المتوسط الشرقية ـ ناهيك عن القوافل البرية التي كانت تؤمن الاتجار مع الصين . أما كون النقد المستعمل في هذه المملكة هو الفضة وليس الذهب ، فرده الى افتقار الامبراطورية الساسانية لهذا المعدن ، ولا تأثير له البتة على توازن الميزان التجاري ، اذ ذاك . وكان لحركة التجارة بين الصين وموانىء البحر الابيض المتوسط من الشأن ما اثار خصومات عنيفة بين بيزنطية وايران ، فتحاول الاولى الافلات من الطوق الذي نصبته الثانية لتجارتها ، كما تحاول التخفيف من حدة الاحتكار لطرق التجارة فتتحكم بدورها بمرافىء البحر الابيض المتوسط للقضاء على هذه المحاولات .

بيزنطية وآسيا

كان أمام بيزنطية وسيلتان لا غير ، لتفادي الطوق الذي ضربته الامبراطورية الساسانية حول تجارة الامبراطورية الرومانية ، اولها ايجاد طرق مواصلات جديدة لتجارتها الدولية مع اواسط آسيا. فاتجهت انظارها شطر البحر الاحمر، اذ اخذت تشتهر وتُذكر عنده دولة جديدة اعتنقت المسيحية منذ عهد قريب عند الطرف الجنوبي لحدود مصر ، عرفت باسم مملكة اكسوم ، هي الحبشة اليوم . فبعد ان فتحت اليمن

واخضعت لسيطرتها اليمنيين الذين كان لهم فضل يذكر في تأسيس هذه المملكة ، راحت تكسر من حدة احتكار البحّارة والتجار العرب للحركة التجارية في هذه المنطقة ولا سيما مع الهند ، كما ان الامبراطور يوستنيانوس اخذ يحرضهم على مزاحمة الايرانيين في هــــذا المجال . فلم تأت المحاولة أكلها المرتجى في هذا الباب، الا انها تركت اثراً طيباً وخدمة علمية جلى، اذ انها اتاحت لبحّار هندي يدعى *Cosmas Indocopleustes* ان يضع جغرافية حشاها بالمعلومات والفوائــد العلمية جمعها من مصادرها الوثيقة . وقد رأى البيزنطيون في الدولة التركية التي قامت في آسيا الوسطى ، حوالي منتصف القرن السادس ، فرصة سانحة افادوا منهــا واستخدموها بنجاح لكسر حــدة الطوق المضروب على تجارتهم . فبالاضافة الى مواثيق الصداقة والتحالف التي عقدوها بيسر ، بين بيزنطية والاتراك ، حاولوا في عهد الامبراطور يوستينيس الثاني (٥٦٥ — ٥٧٨) ان يفتحوا طريقاً جديداً امام التجارة الدولية مع آسيا تمر عبر القوقاس، متفادية بذلك المرور بالبلاد الايرانية . لا نعلم بصورة قاطعة ما الذي ادت اليه هذه المحاولة . ومـــا لا شك فيه البتة ، ان حركة من المقايضات التجارية انطلقت من الصين نحو الشرق ، مرت بمقاطعات روسيا الجنوبية والبحر الاسود ، على اثر سقوط المقاطعـــات الواقعة بين نهر الفولغا والبحر الاسود ، بيد الخزر الذين اسسوا دولة تركية الاصل ، في هذه المنطقة ، في القرن التالي .

ولكي تتحرر من ايران وتخفف من شدة قبضتها على التجارة، راحت بيزنطية تحاول أقْلَمَة بعض السلع والمحاصيل الغالية الثمن التي تستوردهـــا من الخارج ، وذلك عن طريق توطين زراعتها في بعض الاقاليم الصالحة ضمن الامبراطورية. واستطاع رهبان من النساطرة ، في اواخر عهد يوستنيانوس ان يطلعوا ، ليس على اسرار صناعة الحرير فحسب ، بل ايضاً ان يجلبوا معهم الى القسطنطينية، كمية من الفيالج مع ما يلزم من المعلومات والفوائد والخبرة اللازمة لتربية دودة الحرير. ولم تلبث تربية الحرير ان دخلت سوريا واليونان وكيليكيا . صحيح ان الحرير البيزنطي لم يُغنِ قط عن استيراده عن طريق الصين وايران ، لا من حيث الكمية ولا من حيث النوع او الجودة ، فقد رأى فيه الايرانيون ، مع ذلك منافساً خطراً حسبوا له الف حساب .

وهذه المنافسة الشديدة بين بيزنطية وطيسفون ، تلبست وجهاً جديداً ودخلت مجـــالاً جديداً هو مجال الدين . فبالرغم مما عُرِف وشاع عن تجرد المبشرين وكرازتهم للدين الجديد ، فاعتناق المسيحية ، انما كان يعني ، في نظر الساسانيين ، تقدماً محسوساً لصالح بيزنطية وربحاً لها في بلاد « بربرية » والسير على نظام سياسي واجتماعي وفقاً للنهج البيزنطي، الا اذا كان النظام الكنسي الجديد والبيعة التي ادى اليهــا ، كنيسة لا تمتثل لنواهي الفاسيلفس واوامره . ولذا اخذ الساسانيون ينظرون شزراً ، لانتشار المسيحية بين قبائل الهونز ، في جنوبي روسيا او في الجزيرة العربية ، ما لم تكن على النسطورية ، كما هي الحــال مع حلفائها اللخميين في الحيرة ، ولم يكن من الممكن محاربة المسيحية عن طريق المزدية او الاتخاذ منها يداً ، في هذا المجال .

فالوضع الحربي او العسكري بين الدولتين ازداد حرجاً وحدة لاشتراكهما بحدود واحدة .

والمنافسة التجارية التي احتدمت بينها ، والدسائس التي حاكهـا من كلا الجانبين : الارمن والسريان ، والمزاج الحربي الذي ُعرفت به الارستقراطية الايرانية ، والموقف الذي وقفته منها الحكومة الساسانية ، كل ذلك وما اليه ، يفسر لنا ، حالة الحرب المزمنة التي قامت باستمرار بين بيزنطية وطيسفون او بين « الرومان » والايرانيين ، منذ القرن الثالث . فالضغط الذي استهدفت له ايران من قبل « البرابرة » في القرن الخامس ، أودى ، ان لم يكن الى زوال هـذه العداوة الزرقاء التي اقامتها بعضاً على بعض ، فالى التخفيف ، أقله ، من حدة هذا العداء وكسر شوكته ، لخير بيزنطية . غير ان شعور ايران بالاخطار التي تتهددها ، وازدياد كلا الدولتين ، مقدرة اكبر على الحرب ، كان من شأنه ان يزيد الوضـع اضطراماً ، والحرب اندلاعاً بصورة اقوى واعنف . وقد بلغ الوضع الذروة ، في مطلع القرن السابع ، اذ استحال الشرق الادنى شعلة واحدة ، وكأنه بركان نار اندلعت حممه على آسيا الصغرى وسوريا بما فيها فلسطين . وقد ُشدِهَ العالم المسيحي لهول الصدمة ، اذ سقطت هذه البلدان فريسة في يد الفرس ، واصبحت مصر نفسها في خطر ماحق ، حتى انهم أجْلَوا الاحباش عن اليمن وحلّوا فيها محلهم . وفي عام ٦٢٦ اشتركت جيوش الساسانيين والآفار بحصار القسطنطينية والكل يتحسس قلبـه في مكانه من احتمال سقوطها بايدي الفرس وحلفائهم . وقد قام الامبراطور هرقل بهجوم معاكس اضطر معه العدو الى التقهقر والنكوص على اعقابه والتراجع الى ما وراء حدوده التي اصبحت هدفاً لهجوم الروم . غير ان هذا الجهد الحربي الكبير انهك قوى الجانبين لكثرة مـا استنزف من دماء الفريقين . وراح آخر ملوك الساسانيين يحاولون عبثاً الخلاص من الورطة التي سقطوا فيهـا والازمة التي استهدفوا لها . اما في بيزنطية فقد كان ُيعْوِز الحكومة لحمل الشعوب المستقلة على الاخذ بوجهة نظرها ، كثير من الذوق والمقدرة في اجتذاب الناس ، اذ ان الكنيسة اليونانية على الاخص ، كانت اكثر تصلباً واشد تعصباً من اي وقت مضى . وعلى بال َمن مِن النـاس خطر يوماً او تصور احد انه سيخرج من الجزيرة العربية خصم جديـد سيرمي بكل ثقله على الدولتين المتخاصمتين وهما اعجز من التصدي له او الوقوف بوجهه؟ وقبل ان تنزل بكلا الطرفين مثل هذه الكارثة الدهماء ، كانت حروب الفرس سبباً لذهـاب الشطر الآخر من الامبراطورية البيزنطية الا وهو شبه جزيرة البلقان ، فريسة بين البرابرة يتصرفون به على هواهم ، بعد ان عاثوا به طويلاً واستنزفوا خيراته .

برابرة افريقيا واسبانيا

يجب ان نطـّرح جانباً الوهم القائل ، بان التـاريخ ، ولا سيما تاريخ الحضارة ، يجب ان يقف عند حدود الدول التي تعرف النظام وتتمسك باسبابه . فالتفوق غير المنازع الذي تم لهذه الدول ، لا يعني البتة انه عمّ جميع الميادين ، وانه تم للجميع على السواء وبنسبة واحدة ، وان الانحطاط الذي أبتلي به البعض او ان الرقي الذي حققه البعض الآخر ، قد ازال الفوارق وذهب بالمسافات ، كما انه ليس من الممكن ان نتصور الواحـد دون الآخر من هذين العالمين : عالم « الروم » وعالم ايران ، او عالم « البرابرة » . فكم بالاحرى

ان يكون الوضع على مثل ما وصفنا عندما تداعت الحدود العسكرية للخراب وانهارت . فالفقر شبه المدقع الذي نعانيه لجهة المصادر والمراجع ، لا يسمح لنا بان نذكر شيئاً عن هذه الاقطار الافريقية الواقعة ما وراء الصحراء الكبرى او على حدود السودان . واقل ما يمكن ان نؤكد هو ان المجتمعات الزنجية التي كانت تمور في هذه السباسب، لم يربطها بشعوب البحر المتوسط ، روابط وثيقة بحيث تتفاعل بعضها ببعض وتنفعل . فالجمّل ، مركبة الصحراء ، كان يتيح للبرابرة الرحل،التغلغل مع ما اليهم من السلع،داخل الصحراء ليبلغوا مشارف النيجر. وتمتّع الأحباش في مواطنهم الجبلية بمدنية اتصلوا معها بيسر،مع مصر واليمن،كما السّف من قام منهم على سواحل البحر الاحمر ، مملكة تعرف بمملكة اكسوم، اتينا على ذكرها من قبل. اما ما تبقى من اقطار افريقيا الاخرى، فلن يدخل التاريخ العام الا بعد مجيء فاسكو ده غاما .

ومقابل ذلك ، فقد دخل في القسم الشرقي من جغرافية اوروبا الحديثة قبائل وشعوب جديدة ، او بالاحرى ، شعوب بقيت حتى هذا العهد بمعزل عن الدول « المتمدينة » . وسنروي فيما بعد بالتفصيل والتبسيط اللازمين ، قصة الشعوب التي وطئت اوروبا الشرقية او اوروبا الوسطى منذ القرن الرابع ، واستقرت بها، بينهم شعوب من الاتراك والمغول والفنلنديين، الذين يؤلف تاريخهم شطراً من تاريخ اوروبا،والهونز الذين لم يبق منهم شيء يذكر في اوروبا الوسطى بعد ان توارى عنهم أتيلا، ومنهم ينحدر مع عروق اخرى،البلغار (دولة الكوبرى،في مطلع القرن السابع) الذين انقسموا فيما بعد على انفسهم الى شطرين ، اقام احدهما على نهر الفولغا الاوسط بينما استوطن الشطر الآخر، مقاطعات الدانوب الاسفل ، ومن بينهم شعوب الآفار القادمين من البلدان الواقعة حول الدانوب (القرنان السادس والسابع) الذين لم يبق من عرقهم شيء يذكر ؛ والهنغاريون الذين استقروا بعد طول المطاف ، في القرن العاشر في هذه المقاطعة التي لا تزال تحمل اسمهم لليوم ؛ والاتراك بحصر المعنى ، الذين تركوا ، ما وراء آسيا الوسطى ، بين الفولغا والقرم ، بعد ان اختلطوا مع غيرهم من هذه الاقوام ، مملكة الخزر التي قامت ، بين القرنين السابع والعاشر ، وذلك قبل ان يبعثوا ، ابتداءً من القرن العاشر بصحبة *Petchinègues* والاوغوز ، قبائل واقواماً أقل منهم تطوراً ؛ واخيراً المغول ، ابتداءً من القرن الثالث عشر . والشيء المشترك بين هذه الممالك ويميزها عن سواها، سواء أبلغت في تطورها درجة عالية أم لا، هو سيطرة طبقة ارستوقراطية محاربة ، رحالة ، وتحكمها بجانب من سكان البلاد الاصليين ، يرسف معظمهم في الرق والعبودية ، يجرونهم وراءهم كيفما اتجهوا ويستقرون حيث انتهى بهم المطاف ، بعد زوال قائدهم ، بحيث ان الرواة والمؤرخين لا يذكرون شيئاً عن مغامراتهم ، بل يكتفون بذكر مآتي القادة والرؤساء ، ضاربين كشحاً عن بروز الصقالبة وتوسعهم في الأرض ، فلا يشعر الكتّاب بوجودهم بعد ان يكون استفحل شأنهم ونبه ذكرهم .

فسيطرة البدو كانت ابداً مسترخية الحلقات ، خفيفة من الوجهة السياسية، اذ كانوا يؤلفون أصلا ، أحلافاً من القبائل تشتد بينها أواصر القربى او تتراخى ، لا يمارسون على الشعوب التي

أخضعوها ، سوى سيادة خارجية يقنعون منها بدفع الخراج وشد الازر يوم الوغى ، فلا تؤثر بشيء على وضعهم الاجتماعي والنُظُم التي ينهجون عليها ، بقطع النظر ، طبعاً ، عن الاشخاص الذين يفشلون في حركة عصيان او تمرد فيفرضون عليهم ذل العبودية . وأقل مايمكن ان يكونوا أدّوه لهؤلاء الاقوام الخاضعين لسيطرتهم ، ان نمّوا فيهم عادات جديدة كركوب الخيل ، او المحافظة على أسباب التجارة والنقل في اخشن مظاهرها ، وقد توارثوها جيلاً بعد جيل ، من التاريخ القديم ، وساعدوهم على احلال بعض التشكيلات السياسية محل نظمهم القبلية التي كانت تتراخى أواصرها مع التنقل والظعن . ومع ذلك ، علينا ألاّ نغلو في الامر فنقع في النقيض ، كما جرى لبعضهم في تقييم المفهوم السياسي عند الجرمان ، بعد ان خضع فريق منهم ، كالصقالبة مثلاً ، لنير العنصر الاصفر ، فاستنتجوا من ذلك عدم عجز الصقالبة السياسي الذين عرفوا ، مع هذا ، ان يتطوروا كالجرمان انفسهم ، عندما كانت الظروف تسمح لهم بذلك .

انتشار الصقالبة وتوسعهم

ان توسع الصقالبة في شرقي اوروبا وانسياحهم في أقطارها ، لا يقل أهمية في التاريخ عن انتشار الجرمان في غربي اوروبا . ولذا ترتب علينا ان نتعرض لهذه القضية باسهاب في دراستنا هذه ، اسوة بالجرمان . والواقع انه قلما يأتي الامر على هذا النحو ، حتى لدى المؤلفات التي تسهب في وصف الغزوات التي أدت الى تبديل الوضع في اوروبا ، بينما تقتصر هذه المؤلفات نفسها على التعرض بايجاز ، للصقالبة وتحركاتهم ، ان لم تضرب صفحاً عن ذكرهم بالكلية . يمكن ان نرد ذلك لفقر مصادرنا وندرتها . ومع ذلك ، لا بد من ايراد ما هو معروف ثابت في هذا المجال ، ليس في فصل عابر مجزوء ، بل كجزء أساسي ، اصيل من تاريخ اوروبا المشترك .

تضاربت آراء المؤرخين حول أرومة الشعوب الصقلبية واصلهم الاول . فهم يرجعون ، من حيث اللغة ، الى العرق الهند – الاوروبي ، ابناء عمومة الليتوانيين ، ولو تميزوا عنهم واختلفوا . ففي بدء النصرانية ، نراهم يسكنون البقاع الواقعة الى الشرق من نهر الفستول ، كما نراهم ، في العصور المتأخرة للامبراطورية الرومانية ، قد يمموا بتأثير من موجات الغوط ، بعضهم شطر جبال الكربات ، والبعض الآخر الذين عُرفوا باسم *Antes* ، شطر القسم الجنوبي من روسيا اليوم . ان انتقال الجرمان وارتحالهم غرباً اوجد فراغاً شغله الصقالبة بعد ان قاموا بحركة التفاف ، وراء الكربات فاحتلوا بقاع الدانوب الاسفل ونهر إلايلب . كذلك حمل سيل غزوات الهونز والبلغار والآفار ، قسماً منهم . وكان من جراء فناء قبائل *Gépides* وارتحال اللمبارديين أن حدث فراغ آخر في سهول الدانوب ، لم يكن في وسع الآفار ملأه وحدهم ؛ ولذا جاءت قبائل صقلبية عبر الكربات واحتلتها ، وبلغت في تقدمها نهر الساف ، وجبال الألب الشرقية ، كما اطلت على مشارق بافاريا ومقاطعة التورنج ، واشرفت على سواحل البحر البلطيقي ، ونهري دنيبر والدونا حيث كان يسيطر ، الى الجنوب ، قبائل من الاتراك ، والى الشمال ، قبائل الفنز او الفنلنديين غير المتراصة الافراد . وقاموا ، على مثال البلغار والآفار ، باعمال الغزو والسلب

كما قاموا بأعمال السلب والنهب في الاقاليم الواقعة عبر نهري الساف والدانوب بعد ان اجتازوهما، في مطلع القرن السادس . ولا شك ان في البيزنطيين لم يعلقوا كبير امر على هذه الغزوات والتجاوزات التي ادت اليها ، فاهملوا الدفاع عن هذه المقاطعات لما تكلفه غالياً من العزيزين المال والرجال ، وهو ثمن مرتفع لا يعد له بشيء الفيء الذي تجنيه الدولة من هذه المقاطعات ، والفوائد المالية والاقتصادية التي تؤمنها لها، لاسيا وقد حدثت هذه الغارات يشنها البلغار والصقالبة ابان حروب الفتح التي نهضت بها بيزنطية لاستعادة ولاياتها السليب ممثلة بايطاليا واسبانيا وافريقيا، فتعرضت لغزوهم المقاطعات التي تتناوح بين تراقيا ودلماتيا . وكان الشعور العالق بالاذهان ان هذه التجاوزات لم تكن طليعة فتح منظم ، وعندما تمت الغلبة ، عام ٦٠٠ على الآفار عم الناس شعور عارم بان حدود الدانوب صامدة ، تقوم على حراستها والدفاع عنها وحدات يمكن الوثوق بولائها . غير ان حركة العصيان التي قام بها الجيش « الروماني » المزعوم ، بعد ان عيل صبره وثار ثائره من حروب مريرة لم تعد عليه باي نفع او كسب ، والهجوم العنيف الذي شنه الساسانيون ، كل هذا ادّى الى تحطيم الدفاع عن الحدود ، ودك معاقلها وحصونها . وقد سبب عبور « البرابرة » الموصول لهذه الانهر واستباحتهم للاقاليم الواقعة وراءه جلاء قسم كبير من سكان الريف راحوا يبحثون عن ملجأ امين يلوذون به ، يقوم في هذه المواقع الدفاعية الحصينة، كما ادى ، من جهة ثانية ، للابقاء على بعض مدن حصينة تحيط بها الحاميات العسكرية . كل هذا لم يكن فيه كفاء ولا بديل لما تقتضيه الحرب من ثمن ولا لما تجره من ويلات . وكم من مرة بقيت الارض شاغرة تنتظر من يشغلها . وقام الصقالبة اذ ذاك ، بحركة عامة حملتهم الى سواحل بحر ايجيه وشواطيء البحر الادرياتيكي ، دونما وحدة في القيادة او خوض معارك كبيرة ، وبدون « حوادث » تذكر . وحوالي عام ٦٤٠ ، جاءت موجة جديدة من الصقالبة ، فيها الكروات والصرب، انطلقت من جوار نهري الاودير والفستول ، وانضموا الى من تقدمهم من ابناء عمومتهم فاحتلوا مقاطعة الليريكون بعد ان استمان هرقل بهم لدفع الآفار وحدهم ، مها كلفه هذا العون من تضحيات تمثلت بتخليه عن بعض المقاطعات ، وسمح لهم بالاقامة الى الجنوب الشرقي من نهري الدراف والساف، وعرفوا هناك باسم السلوفين . وفي الفترة الواقعة بين ٦٧٠ — ٧٨٠ ، جاء فريق من البلغار بقيادة أسبروخ ، ابن الملك كوبرات ، واقام بموافقة السلطات البيزنطية ، في المقاطعة الواقعة بين الدانوب الاسفل والبلقان ، محيطين بالصقالبة الذين سبقوا ونزلوا في تلك الكورة ، معترفين لهم بالسيادة والصدارة .

وفي الربع الاخير من القرن السابع ، بعد ان دب الفساد والانحلال بشعوب الآفار ، تمكن أمير يدعى سامو ، من انشاء اول مملكة صقلبية قامت حتى ذاك ، في البقعة الممتدة من جبال الألب النمساوية ، حتى مشارف البحر البلطيقي ، ضمت بين العناصر التي تألفت منها : التشيك والموراف والسلوفاك . اما ما تبقى من قبائل السلاف، في الشمال ، وهم الذين عُرِفوا منذ التاريخ القديم باسم *Vendes* ، فهذا كل ما يُعرف عنهم، مع ما تم لهم من مواقع بين الفرنج والسكسون.

ومع ذلك ، فليس بين صقالبة الشمال وصقالبة الجنوب من مفارقات ملحوظة . فصقالبة الشرق وحدهم يعيشون في شبه عزلة او انفراد .

يغشى ضباب حالك القرنين اللذين استغرقها انتقال البلقان «الرومانية» الى أيدي الامارات الصقلبية الاولى التي عرفها التاريخ . فالآراء تتضارب حول الاتساع الذي بلغته الموجة السلافية او الصقلبية : ففي الوقت الذي يميل فيه المؤرخون اليونان الى التقليل من شأنه، يبالغ المؤرخون الصقلبيون في أهمية الدم الصقلبي الذي انصب في جسم بلاد اليونان القديمة ، مسبباً لها الانحطاط، في نظر البعض او باعثاً فيها دفقاً من النشاط، في نظر البعض الآخر. فاذا ما استطاعت اللهجات الصقلبية ان تتغلب على مقاطعة مقدونيا وترسخ فيها ، بقيت اليونانية مع ذلك اللغة المسيطرة على شبه الجزيرة البلقانية . اما مقاطعة إلليريكون ، « فتصقلبت » الى حد بعيد يفوق كثيراً « جرمنة » أية مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية الرومانية ، في الغرب . ليس من يدعي ، والحق يقال ، ان قدامى « الرومان » انقطع دابرهم تماماً او زال كل أثر لهم في هذه المقاطعات ، بالرغم مما استهدفوا له من مذابح وعمليات اجلاء وإفناء فقد بقيت جاليات منهم متمسكة ببعض سواحل دلماتيا ، او مطمئنة الى بقائها في بعض المدن الحصينة . الا ان الغزاة الفاتحين لم يلبثوا ان امتصوا تدريجياً هذه الجاليات المعزولة وسط شعب جديد دخيل ، اضطرت لمصانعته والتقرب اليه عن طريق المصاهرة والزواج . ولا بد من ان نلاحظ ، بعد ذلك بعدة قرون ، ظهور شعبين جديدين: هما الالبانيون والرومانيون الذين لا يمكن ان يكونوا طلعوا من لا شيء او هبطوا من السماء . فالشعب الاخير ذو الاسم الغني المدلول ، والذي يعرفه التاريخ قديماً باسم الفلاك او الفلاخ وهو الاسم الذي عرفهم به الصقالبة، قد يكون، على الارجح ، من ذراري هؤلاء الاقوام الذين جرى نقلهم الى هذه المقاطعة بعد ان تم فتحها على يد الرومان ، في عهد الامبراطور ترايانوس ، فتَصَقْلَبَتْ وَتَروْمَنَتْ على مر الزمن، لتكون في مأمن من دسائس البيزنطيين ومكايدهم . فبعد ان تمثل البلقان من استقر منهم فيه ، عرف الذين أقاموا منهم في الكربات ان يصمدوا ويحسنوا الدفاع عن انفسهم بوجه الطامعين ببلادهم .

يعجز المؤرخ ان يرسم صورة امينة ، دقيقة للمجتمع الصقلبي بعد ان تم له ما تم من توسع ويقظة في رقعته ومجاله الحيوي . فالقبيلة او الحياة القبلية هي الاطار الذي يتحرك ضمنه . فالحجيرة الإجتماعية الصغرى تتألف من مجموعة من الأسر تستثمر معاً رقعة معينة من الارض . دون ان يتمنع أفرادها بملكية معينة. فالصقالبة هم ، اصلا مزارعون من اهل الحضر ، يشبهون الى حد بعيد ، الجرمان ، قبل هجراتهم المعروفة ، ألِفُوا ، بالنظر لاتساع رقعة السهول التي يقطنون بينها ، استبدال مساكنهم بصورة دورية ، دون ان يركنوا الى نظام زراعي نشيط . انصرفوا مع تمسكهم بالزراعة الى الصيد والقنص وجمع الفراء الثمين ، وجني العسل والشمع يقدمونه لزعمائهم ورؤسائهم ، رسوم طاعة وولاء، فيتصرف به هؤلاء في متاجرهم او مقايضاتهم او يتخذون منه هدايا وأعطيات . وتوصلوا الى صنع بعض الحاجيات الاولية يستعملونها في

معايشهم . لا نعرف شيئاً عن امورهم الدينية وان كانت معالم الديانة الطبيعية عاشت طويلاً بين تقاليدهم الشعبية . فلم تبلغهم النصرانية بعد ، ولا عرفوا شيئاً من أمرها .

وهذا التلون الاجتماعي الذي اخذ يبدو عليهم، ظهر في هذه الفترة التي تمت خلالها هجراتهم، والحملات العسكرية التي قاموا بها . ونشأت تحت ظل بعض الرؤساء والزعماء جماعات او فئات صغيرة. ولكي يؤمن الزعيم أوَد جنوده اضطر ان يقتنيَ له أملاكاً وأطياناً عهِدَ بأمر العناية بها وحرثها الى أرقاء وعبيد وقعوا في الأسر . وأدت حركة النقل والاستيراد الى انشاء مخازن ومستودعات لهم على بعض الانهر او على مقربة منها ؛ وهكذا نشأت مثلاً ، في روسيا واوروبا مدن أمثال : كييف ونوفغورود . هذه صورة ذهنية تقريبية ، أكثر مما هي حقيقية لما كان عليه الوضع الاجتماعي عند هؤلاء الاقوام .

استهل تاريخ الشعوب الصقلبية على شكل يختلف تماماً عما بدا عليه تاريخ اوروبا الغربية في هذه الحقبة . فالجرمان الذين كانوا تفاعلوا ، بعض الشيء ، بالحضارة الرومانية قبل ان تصير اليهم تركة روما ، استقروا بعد طول المطاف ، في ممتلكات الدولة الرومانية وعجّلوا بانحطاطها وانحلالها ، انما عرفوا ان يحافظوا على خط السير القديم دون احــــداث اي فراغ او فجوة . وهكذا فالمجتمع الذي قام في الغرب خلال الاجيال الوسطى ، هو الوريث ، من وجوه عدة ، للتركة التي خلفها المجتمع الروماني . اما الصقالبة ، فعلى عكس ذلـك تماماً ، فقد بقوا بالفعل ، خارج العالم « المتمدن » . فمن انتهى بهم المطــــاف للاقامة في المقاطعات التي كانت يوماً ، رومانية ، فقد ألفوا هذه المقاطعات تفقد الكثير من معالم رومانيتها ، فتبربرت فهان لديهم ان يحلوا محل الاقوام التي اكتسحوها وان يستأصلوا ، دونما عناء ، المدنية التي وجدوها منــذ قدومهم ويقتلعوا منها الاعراف والعادات . فالاجيال الوسطى شهدت اذاً انتقال الصقالبة من الطور القبلي وخروجهم من الوضع الذي كانوا عليه من قبل ، دون وساطة روما .

فامام هذه الاحداث التي توالى وقوعها على ايطاليا اضطرت بيزنطية للانكفاء والتراجع ، امام اللمباردين في ايطاليا ، والبربر في افريقيا ، والفيزيغوط في اسبانيا . وهـــا هي على قاب قوسين وادنى لتفقد اغنى ولاياتها ، واكثرها عطاء وسخاء في آسيا ومصر ، حيث ستقع امور واحداث على شكل لم يعرف مثله من قبل .

الفصل الثالث

بين البدو والحضر في آسيا
(من القرن الرابع حتى السابع)

هذه الاجيال المتعاقبة التي شهدت ، في العالم المتوسطي ، إنحلال الحضارة اليونانية اللاتينية ، او انهيارها التام سجلت عند الدول والممالك الكبرى ، في آسيا ، عهداً بارزاً من الازدهار والتجلي والانجازات الكبيرة. وهي حقبة تميزت، من جهة ثانية بغليان القبائل الرحل الضاربة في فلوات هذه القارة وصحاريها ، وبما احدثته فيها من اضطرابات وتحركات عمت جميع ارجائها .

ففي مطلع هذه الحقبة الجديدة التي انطلقت في القرن الرابع ، نرى المحاور الثلاثة الكبرى للمدنيات الآسيوية الضخمة : ايران والهند والصين ، تتفاوت درجة ونسبة في منسوب التطور الذي اخذت بأسبابه . فقد مر معنا كيف ان ايران ، في عهد الدولة الساسانية ، استبطرت وتطلعت الى التوسع ، محاولة ان تحل محل روما ، في ولاياتها الشرقية ، وان تستأثر لنفسها بطرق المواصلات التجارية التي تخترق قلب القارة الآسيوية ، وان تتكافأ نفوذاً ، في اواسط آسيا مع قطبي الجذب الكبيرين : الصين والهند . فقد عرفت الهند في عهد السلالة الملكية غوبتا طوراً من ابرز واشرق عهود تاريخها المديد إشعاعاً حضارياً وفكرياً قيّض لها ان تحياهـا . فالوحدة السياسية التي حققتها في الداخل ، قابلها في الخارج ازدهار امتد إشعاعه ليبلغ اعالي آسيا والصين وكوريا واليابان ، من الشمال ، كما بلغ من الجنوب ، اقاصي مقاطعات الهند الصينية والانسولاند . فقد بلغت البوذية في هذا العهد ، اعلى ذروة عرفتها من الازدهار ، وذلك بفضل النفوذ والتقدم الذي حققته على يد فلاسفة اطلعتهم مشهورين بينهم : آزنغا وفازوبندره اللذين لم تلبث آثارهما الادبية ان دخلت الصين وانتشرت فيها ايما انتشار . وفي الوقت ذاته عرفت البراهمانية بعثاً دينياً جديداً اعتُبرت معه دين الدولة الرسمي في الهند ، كما نالت المنزلة ذاتها لدى امارات جنوبي شرقي آسيا . اما الصين ، فبعد الازمة الادبية والاجتماعية التي ادت الى سقوط دولة الهان وجدت نفسها ، في اواخر القرن السادس ، منقسمة على ذاتها ، موزعة أشتاتاً ، ولم تلبث بعد الذي اصابها من ذل وهوان ان ذهبت فريسة جحافل الهونز التي أوغلت بعيداً حتى بلغت

اقاليمها الشمالية ، جارّة وراءها قبائل مغولية كثيرة ، التي عُرفت بعدم استقرارها ، وهكذا انشطرت الصين من الوجهة السياسية الى شطرين : في الجنوب الحكومة الامبراطورية الشرعية بينما نشأ في الشمال عدد من الممالك التركية ـ المغولية ، التي لم تستقر على وضع ولا حال ، شأنها في ذلك ، شأن الدول الجرمانية التي ظهرت للوجود في الغرب اللاتيني ، خلال القرن الخامس ، كما يصورها لنا المؤرخ غروسيه ، فراحت تتطاحن فيما بينها وتقتتل محاولة تصفية بعضها البعض الآخر . وفي سنة ٣٩٨ ، تمكن اتراك تبغاتش او توبا من فرض سيطرتهم التامة بتأسيسهم دولة «واي» المهيبة الجانب ، وحموا حماها ووقفوا بوجه كل من تحدثه نفسه بمهاجمتها . ولم تلبث هذه الدولة ان اعتنقت البوذية واصبح رجالها من اشد الناس استمساكاً بتعاليمها والتشدد في الحفاظ عليها ، واخذوا يتطبعون بطبائع الصينيين ويتمثلون عاداتهم واخلاقهم ، فأنشأوا في شمالي البلاد عدداً كبيراً من المعابد الجميلة .

وكانت فيافي آسيا وسباسبها مرتعاً لعدد من القبائل التركية ـ المغولية تضرب في آفاقها المترامية الاطراف ، مع فريق من قبائل البدو الرحل التي اخذت هي الاخرى ، تتحرك باتجاه البلدان المحظية ، حيث يقوم بحرثها والعناية بها اقوام من الحضر الذين ألفوا الدعة والحياة الناعمة . واخذت هذه القبائل الرحل ، تدق ، على فترات متقاربة ، في موجات متراصة متلاحقة ، حدود الهند وايران . ولم تلبث ان احتلت واستأثرت بكابول والبكتريان وغندهارا وتاريم ، بينما راحت دولتا الغوبتا (الهند) والساسانيين (ايران) تحاولان صدهم ومنعهم من التغلغل في الداخل والعيث فيها فساداً . واستمر الصراع عنيفاً محتدماً تمكنت معه قبائل الهونز الهفتالية من خفض شوكة ايران والنيل منها . وقد تعرضت الهند لغاراتهم بعد الضعف الذي آلت اليه اثر انهيار دولة الغوبتا عام ٤٧٠ ، بعد ان انشقت على نفسها ، فعاثوا فيها نهباً وسلباً ، والحقوا بها الذل والهوان . وقد استطاع احد امرائهم المدعو ميهيراكولا ان يتوغل مرتين داخل البلاد ، سنة ٥٠٢ و ٥٣٠ حتى بلغ سهول الغانج فاحالها خراباً يباباً وقام فيها بمقتلة ومذابح هائلة . وكان سبق لأتيلا ، قبل ذلك بنحو ثمانين سنة ، ان قام في الغرب ، بمثل هذه الفظائع التي تقشعر لهولها الابدان .

وخلال هذه الانتفاضات الدامية وبالرغم منها احياناً نشهد ازدهار البوذية التي كانت عامل تقارب وتهدئة بين هذه الشعوب المتباينة ، كما اتاحت للصين المحافظة على مواصلاتها مع الهند والبلدان الاخرى الواقعة الى الجنوب الشرقي من القارة الآسيوية . فلم تعد الهند بالمحور الوحيد في هذه المنطقة . فقد طلع علينا ، في اواسط آسيا ، مراكز غاية في الاهمية ، منها : كوكا وافغانستان وغندهارا . والى هذه المراكز الجديدة الموزعة بين الهندوسيت والغر والايرانيين والطوخاريين ، اخذ الحجاج البوذيون يفدون من الصين على الاخص ، محاولين العثور على النصوص التي كانوا بأشد الحاجة اليها ، بحيث بلغوا الهند الغانجية حتى انهم ادركوا الانسولاند . ونشطت بين هذه الاقطار حركة من التبادل الثقافي ، استهدفت على الاخص ، البحث عن النصوص البوذية

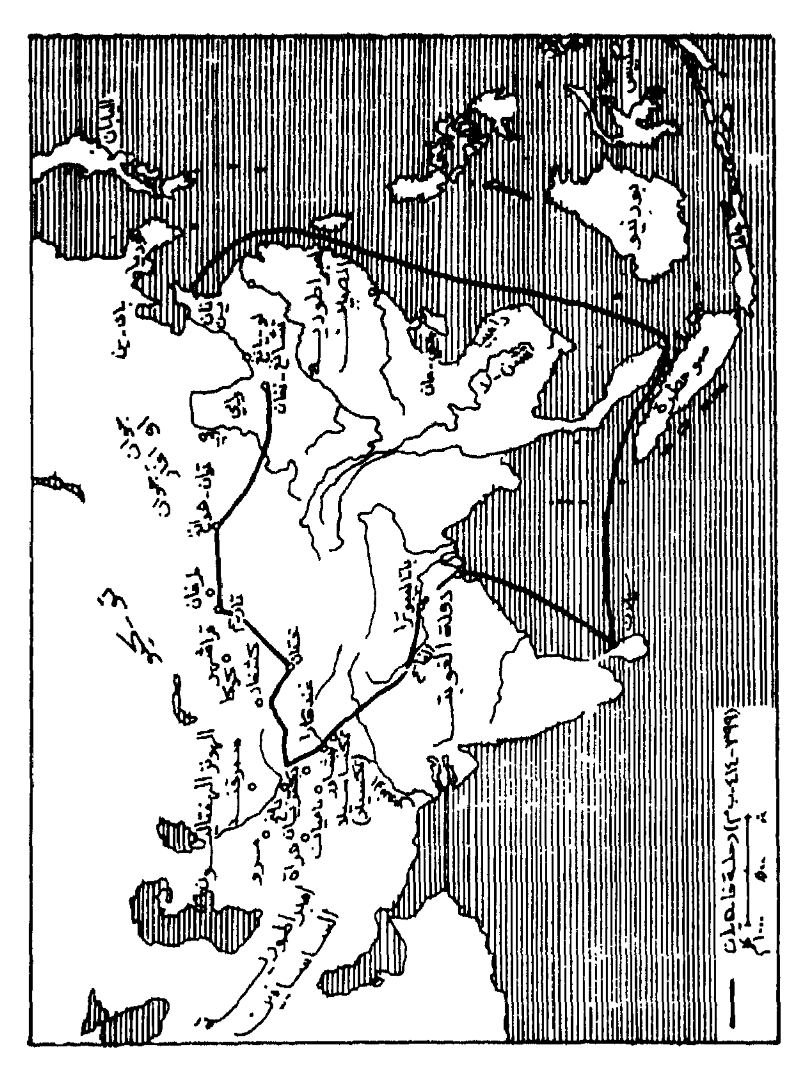
الى جانبَ تأمين العلاقات الديبلوماسية وهي علاقات ، كثيراً ما عهد اباطرة الصين الى الرهبان البوذيين الرحالة بتأمينها . وكانت اول وفادة غادرت الصين ، برئاسة فاهيان ، سنة ٣٩٩ ولم تعد اليها الا سنة ٤١٤ ، بعــــد ان جابت اقاليم تاريم وغوندهارا وسهول نهر الغانج ، واقامت مدة في سيلان وصومطرا . وقد توالى ارسال الوفود بعد ذلـك ، فأرسل تشي — مونغ ، من سنة ٤٠٤ الى ٤٢٤ ، وتلاه تاو — بو من ٤٢٤ الى ٤٥٣ ، ثم واي — تسي مـــن سنة ٦٠٥ الى ٦١٦ ، وكانوا يتبعون طرقاً صعبة المسالك ، عسيرة المرتقى ، اذ كان عليهم ان يجتازوا سلسلة جبال بامير ويعرضون انفسهم للمخاطر المتعددة ويقضون بعض الوقت في الاديار الـتي كانت ترحب بهم وتحسن وفادتهم ويمتعون انظارهم بمشاهد البلاد الطبيعية التي كانت تختلف كثيراً عمـا ألفوا مشاهدته منها في بلادهم ، وهمهم ان يصفوا بدقة المؤرخ ، مـــا رأوا وشاهدوا من معالم ومشاهد ، في وصفها على مثل هذا النحو من الدقة ما فيه متعة المؤرخين المحدثين . وقام بدوره فريق من الرهبان البوذيين ، من اصـــل هندي او فرثي او كوتشي ، برحلات معاكسة بلغوا معها الصين ، بعضهم وفد اليها من مقاطعة فو — فان القصية (كمبوديا) . ونحن مدينون كثيراً لهؤلاء الكهان البوذيين بهذه المعلومات الدقيقة والاوصاف الرائعة التي وصلتنا عن اواسط آسيا والهند والبلاد الواقعة جنوبي شرقي آسيا . فمن المشاهد التي وصفوها لنا ترتقص امـــام اعيننا اليوم ، ماجريات ملوك الهونز في هذه الحقبة ، وانماط معايشهم تحت المضارب واخبية اللباد التي كانوا يعيشون تحتها ، كما نستطيع معها ان نكون لنا فكرة صحيحة عن هـــذه الاحتفالات الدينية في الهند ، وغنى الطبيعة فيها ، وعادات السكان واعرافهم من الخمَير وتشام .

ولـمــا كانت البوذية الهندية بلغت الذروة من الازدهار في هذه الحقبة ، فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تصبح الهند قطب جذب لآسيا الشرقية برمتها . ولذا فالمنطق يدعونا لالقــاء نظرة متفحصة على الحضارة الهندية في هـــذه الحقبة التاريخية الواقعة بـــين القرنين الرابع والسابع .

١ ـ الهند تبلغ أوجها في عهد دولة الغوبتا

بعد هذه الحقبة التي شهدت ازدهار امبراطورية كوشانا في الشمال، ومملكة اندراه في الجنوب، والتي حاولت فيها كل من ايران وروما اثبات وجودهما والعمل لترسيخ نفوذهما، عرفت الهند فترة من الدهر انقسمت فيها على نفسها وخفضت من جانبها فخبت فيها شعلة النشاط وتضاءلت فيها مظاهر الحياة الثقافية والفنية . فمنذ عام ٣٢٠ ، في هذا الوقت الذي قد يكون عاش فيه فيلسوفان هنديان من اشهر الفلاسفة الذين اطلعتهم سماء الهند هما : آزنغا وفازوبندره ـ مع انه ليس ما يمنع الافتراض انهما ظهرا بعد ذلك بنحو قرن ـ ظهر في اقليم باتاليبوترا، امير من قبيلة غوبتا قام ببعض الحروب عادت عليه بفتوحات موفقة . ونقطة البدء انطلقت من مدينة ماغادها القديمة . هـــذه البقعة المقدسة التي رأت البوذية فيها النور ، وكان لايزال المُشاهد يرى ، عليم

٤١١ ، قصر آسوكا ، قائماً في باتاليبوترا ، عاصمة الموريا . فبعد ان بعث امراء الغويتا الى الوجود مملكة ماغادهي ، راحوا يوسّعون اطراف مملكتهم هـــذه لتشمل جانباً كبيراً من الهند ، كما



الشكل (رقم ٣) - آسيا في القرنين الرابع والخامس

ان نفوذهم امتد الى ولايات الهند الجنوبية، واشتد على الاخص ، في اقاليم البحر الجنوبي . عمرت نفوس هؤلاء الاباطرة بروح الفتح كما عمرت بحب الآداب والاهتمام بهـا والاحتفاء بالعاملين لها ، فراحوا يشيدون المباني ويكلأون بعنايتهم ورعايتهم الديانات الكبرى في البلاد ، كل ذلك وهم يحتذون حذو ملوك الدولة الاخمينية والدولة الساسانية في ايران ، كما جاؤوا بأكثر من دليل على

اظهار بطشهم وقوتهم وسيادتهم .

وقد تعاقب على الحكم بعد شاندراغوبتا الاول ، المؤسس الحقيقي لهذه الدولة الذي لانعرف عنه ما يطفىء غلة ، عدد من كبار الملوك ، اشهرهم سامودراغوبتا (٣٣٥-٣٨٥؟ وشاندراغوبتا الثاني (٣٧٩/٣٨٥ - ٤٠٤/٤١٤ ؟) وكوماراغوبتا الاول (٤١٤-٤٥٥) واسكندراغوبتا (٤٥٥ - ٤٦٧ او ٤٧٠) . وفي عهد الاخير منهم بدت على هذه الدولة عوامل الضعف والوهن، فانفصلت عنها بعض الإيالات التي كانت تابعة لها من قبل ، ولم تلبث ان انهارت هذه الامبراطورية تحت الضربات التي انهالت عليها من جانب الهونز الهفتاليين، كما نفضت الدول التوابع لها النير الذي كان يرهقها وتتبرم بـه . ومع ذلك فقد تابعت هذه الدول المهيضة الجناح ، الحكم وتدبرت أمرها حتى القرن السابع ، الى ان انهارت وسقطت ، على أثر ظهور دولة جديدة برهنت على ما تمّ لها من تحول وطول ، وبأس وبطش .

شخصية الامبراطور

لأول مرة منذ عهد سحيق ، أي من القرن الثالث ق. م. استطاعت الهند ان تعيد وحدتها وان يتولى الحكم فيها ملوك وطنيون ، والشيء الذي له أهمية خاصة هنا ، هو ان الغوبتا ، شعوراً منهم بهاتين الميزتين ، وتقديراً منهم للمنافع التي تعود منهما على البلاد ، راحوا يحاولون ربط اسرتهم الملكية باسرة موريا ، التي تركت اسماً عالياً وشهرة واسعة تناقلتها الاجيال خلفاً عن سلف : فقد حمل عدد من ملوكهم أسماء ملوك دولة موريا ، وراحوا يزعمون انهم يتحدّرون من سلالتهم وعرقهم. فالى جانب الشعور بالوطنية والعزة القومية، اخذوا يتطلعون الى ترسيخ سيطرتهم وتركيز سؤددهم ، وفقاً للتقاليد والاعراف الهندية . فأعادوا الى الوجود وأحيوا عادة الذبيحة الفيدية بأبهى مظاهرها ، بما فيه الحصان ، وهي عادة كان سقط الاخذ بها والسير عليها ، لكلفتها الباهظة . والظاهر ان الغوبتا علّقوا على اعادتها أهمية كبرى ، بحيث ان عدداً من ملوكهم تلقّب : « بمجدد ذبيحة الحصان » . وكان القيام بهذه الذبيحة يقتضي له عدداً كبيراً من أضاحي الحيوانات الكثيرة التكاليف ، فقد كان الاحتفال بها يستدعي استعدادات طويلة قد تمتد سنة او سنتين. كما ان الاحتفال بها كان يستغرق شهراً بكامله . وكان الملك الذي تتم في عهده هذه الذبيحة يقوم هو نفسه بمراسمها فيخلد ذكره كما تخلد أمجاده مدى الدهر. ومن الدلائل التي تشير الى رغبة الغوبتا بالظهور بمظهر السلطة المطلقة والقوة والبأس ، هذا العدد العديد من تماثيل الاصنام التي أمروا بنصبها وكانت تنصب وفقاً لمراسم عبادة خاصة وتحمل اسم الامبراطور نفسه فتجعل منه بذلك شخصاً الهياً او بالاحرى إلهاً . وليس من المستحيل البتة ان تكون الوقفة او الوضع المسمى : « بالوضع الاوروبي » ، الذي تكثر مشاهدته في الصور والرسوم (*Iconograghie*) العائدة لهذا العصر ، اقتبسها ملوك الغوبتا وأخذوها من وقفة الامبراطورية لشاه ايران. لا يخلو من أهمية البتة، ان نشير هنا الى ان هذه الوقفة ترتبط الى حد بعيد، بعرش يحمل من التزاويق الحيوانية ما يشير ، ولو بصورة رمزية، الى ما للشخص الجالس من صفة عامة الشمول .

فالملك الذي هو شبيه بالآلهـــة ، وملك الكل ، هو الامبراطور نفسه ، صانع (الزمن) (*Kala*) . فهو كالشمس يخضع لنظام دقيق ويضفي على النظام الكوني دقته وانتظامه .

فالمصادر التاريخية تبرزه لنا نموذجاً كاملاً للكشاتريا او الجندي النبيل . ومع ان السلطان يأتيه عادة بالوراثة ، عليه ان يستحق عرشه وصولجانه بما له من مناقب شخصية رفيعة ، أسماها وأرفعها ، على الاطلاق ، ما فيه مسرة شعبه وغبطته ، وذلك عن طريق تأمين العدالة واشاعته العدل على السواء . وهذا بعينه ما يشير اليه اللقب الذي يحمله « راجا » والذي يطلق عليـه ، وهو لقب او كنية انمـــا تعني « السار او التبرج » ثم زاده الغوبتا سمواً وتفضيلاً بنحت كلمة : مهَراجاً وهو وصف لا يُطلق إلا على الاباطرة أنفسهم .

ولكي يتمكن الملك من القيام بواجباته على الوجه الاكمل والامثل، يقتضي ان تتوفر له تربية تامة . فهو يخضع ، في عهد الطفولة ، لما يخضع له أطفال الطبقات الثرية وسراة القوم ، ويُقص شعره على شكل اكليل ويتم زواجه في السن القانونية . عليـه ان يكون متضلعاً من النصوص والآيات المقدسة وان يضعها دوماً نصب عينيه عندما يجلس للحكم والقضاء، وان يحسن الاضطلاع بالمسؤولية الملقاة على أكتافه . ويدرس الفلسفة وما وراء الوجود ، والمنطق ، وعلم السياسة ، وفن الحرب واصول الزراعة والتجارة ، وفرض الشعر والموسيقى . فالهدف الاول الذي يضعه نصب عينيه هو الاكثار من الفتوحات الحربية بحيث تبلغ أطراف مملكته « أقاصي المعمور » . وفي هذا السبيل عليه ان يعرف تماماً ما في مملكته من امكانات وطاقات كامنة ، ويتبين حقيقة وضع الدول التي يرغب في مهاجمتها وضمها الى ممتلكاته ، فيستعين على ذلك بالوسائل الديبلوماسية قبل كل شيء ، حتى اذا ما باءت بالفشل ولم تُؤتِ أكلها، عمد الى السيف واتخذه عدة الحرب . كل شيء يتوقف على السياسة التي يضع الملـــك اصولها وينهض بأسبابها ، كما يتوقف بالتالي على الروح المعنوية العالية في الجيش .

وعندما يكون وليّاً للعهد ، قبل ان يصبح ملكاً ، عليه ان يخضع لحفـــلة تكريس خاصة وفقاً للمراسم التي يتم بموجبها تكريس الملك ، انما على قدر اقل ونسبة اخف من الزهو والغنى . ينضحه الكهنة بالزيت وتتم المراسم التالية ، وفقاً للتقاليد المرعية الاجراء، بينما ينصرف الشعراء والزجالون للتغني بامجاد الاسرة المالكة ، وتنتهي الحفلة بتقديم التحية لوالديه . واذ ذاك يصبح اهلاً لتحمل اعباء الحكم مع الملك ، اذ اصبح يتمتع الآن بنصف السلطة . واذ ذاك ، يمهد اليه بادارة احدى الولايات ، يَحِفُّ به لفيف من الموظفين وبطانة تدور في فلكه ويمور بها قصره .

وفي الوقت المقدور ، يجري تكريسه ملكاً بكل ابهة وجلال، وفقاً لمراسم لا تتغير وُضعَت منذ العهود الفيدية ، ويجري الاستعداد لحفلة التكريس وتحدد مراحلهـــا وترتيباتها ، في قرار يتخذه الملك الخارج ، في جلسة رسمية لمجلس الوزراء . ويتولى المهندسون بناء جنـــاح خاص يرتفع على اربع ركائز ، ثم يؤتى برئيس البراهمان فينضحه بالماء المأخوذ من انهر الهند المقدسة . ويوزع الملـك بهذه المناسبة السعيدة مكارمه وهباته بسخاء ، كما يأمر بالعفو عن المساجين حتى

من كان منهم محكوماً عليه بالاعدام ، ويأمر بإطلاق سراح الحيوانات المعتقلة ، ويعيد الحرية الى العصافير في اقفاصها . وبعد هذه المراسم ، يأخذونه الى دارة جديدة اعدت له خصيصاً ، ويجلسونه على اريكة بعد تطهيرهـا ويلبسونه حلة جديدة ثم ينظر الى المرآة ويهدون اليه بشارات الحكم ، من بينهـا مظلة وزوج من المذبّات وعرش وصولجان وحذفة ، واكليل من الذهب ، وكرسي قوائمه من الذهب الخالص . ثم يتربع الملك الجديد على اريكة العرش في بهو القصر الكبير ، تحت المظلة . وعند الانتهاء من هذه المراسم ، يطوف ممتطياً احد الفيلة ، في احياء المدينة ماراً بشوارعها الكبرى .

فالمصادر الادبية التي تعود لهذا العهد لا تنفك عن وصف الابهة والجلال الذي كانوا يحيطون به الملك ، وهذه المواكب الزاهية بالحجارة الكريمة والثيـاب المزركشة ، والزهو الذي كان يتلألأ به القصر الامبراطوري ، ولمعان الملابس وبريقها ، ونور الحلي والجوهرات ، وغير ذلك من مظاهر الغنى والثراء والجمال التي تنم عن ذوق رَهيف مما نرى صورة عنه في هـذه الرسوم التي تزين جدران المعابد والهياكل .

واوقات الامبراطور تحدد بانتظـام ودقة ، كما في الماضي ، فيُعلِن مُؤذِن خاص مكلف بهذه المهمة ، تعاقب الساعات ومرورها اذ ان بين الزمن وشخص الامبراطور ، علاقة مباشرة. يبتدىء النهار بتعيين العسس في اماكنهم ، وفقاً لنوباتهم ، ثم يجلس الملك للنظر في امور الدولة. وبعد ان يكون الامبراطور اخذ القرارات اللازمة واصدر التعليمات التي يقتضيهـا تصريف شؤون الدولة سواء في المدينة ام في الريف ، يستحم ويتناول وجبة خفيفة من الطعام وينصرف للدرس والبحث . ثم يأخـذ باستلام رسوم الجباية والخراج ، عيناً او نقداً ، وينظر في ترفيع المأمورين والموظفين ويجري عليهم مكافآته . وبعد ذلك يرأس مجلس الوزراء ويستمع الى التقارير الواردة على القصر من العيون والارصاد المبثوثة . ثم يأخذ قسطاً من الراحة اذ ينصرف لهوايته المحببة او ينصرف للتأمل . وبعـد ذلك يذهب ليستعرض الفيلة ، وخيوله ومركباته الحربية وجيش المشاة ، وينظر برفقة قائد الجيش الاعلى ، في الخطط العسكرية التي يقتضيها النهوض بالحرب . وعند غياب الشمس يأخذ بتلاوة صلاة الغروب ، ليستقبل بعد ذلك موفديه السريين . ثم يتناول حماماً جديداً ، ووجبة ثانية وينصرف لدرس بعض القضايا العالقة ، ليتجه بعد ذلك الى جناحه الخاص على اصوات الموسيقى ، ويتناول وجبة العشاء . وهو يستيقظ باكراً عنـد الفجر ، على صوت الابواق الصادحة ، ويستجمع افكاره مستعرضاً في خاطره اهم الواجبـات المترتبة عليه ، ويطلع على كيفية تنفيذ القرارات التي اتخذت من قبل ، ويصدر اوامره وتعليماته السرية ، الى عماله وجواسيسه ، ويتقبل بركة البراهمان وادعيتهم وتضرعات الكهنة ، ويعرض شؤونه الخاصة على طبيبه ومنجمه الرسمي ، ويعطي الطاهي الارشادات اللازمة ، ويقدم مراسم التكريم لبقرة مقدسة . وهكذا يرى نفسه على اتم استعداد للاضطلاع بالمهام والواجبات التي ستعرض له في يومه .

فاذا كان كل شيء يتوقف على الملك او الامبراطور ، محور الدولة وركنها الركين ، فهو لا يزال بحاجة الى مؤازرة وزرائه والجمعية التي تمثل الشعب وكبار الموظفين الذين لا يستغنى عنهم في تصريف شؤون الحكم. فالمجلس التمثيلي هو هيأة سياسية عُمل بها منذ العهد الفيدي ، وهو عبارة عن مجلس شورى خاص . ومع ذلك ، فهذا المجلس هو احدى القوى الحيوية في الدولة ، ينتخب الملك ويحاكمه اذا ما بدر منه ما يحط من شأن الملك ، ويقدم له النصح والرشد في كل ما يتصل بأمور القضاء وشؤون الادارة . ليس عندنا أية فكرة عن تشكيله وتأليفه ، اذ نرى بين أعضائه امراء من العائلة المالكة ، وقادة حرب ، وكهنة وممثلين عن الحرف والمهن ، حتى وبعض المقدمين من الطبقات الشعبية . اما القضايا السياسية وما اليها فهي من اختصاص مجلس الوزراء الذي يتألف من ٣ وزراء ، على الاقل ، وقد يبلغ عددهم أحياناً ثمانية او عشرة ، وربما وصل أحياناً للثلاثين والقرارات التي تؤخذ بأكثرية الاصوات ، تأتي نتيجة المناقشات السرية وتبادل الرأي بشأنها . فاذا ما أصبحت المناصب الوزارية وراثية ، كان لا بد مع ذلك من موافقة الملك على ممارسة صاحب الحق لها . وقد يحدث بالطبع ، ان يختلف مجلس الوزراء رأياً مع الملك، او انه يفرض على الملك وجهة نظره . والملك يصدر القرارات بمراسيم او « فرمانات ملكية » يُعِدّها الديوان الملكي ، لها قوة القانون وتوجب الإلزام ما بقي الملك حياً ، الا اذا صدر أمر او قانون خاص بالغائها . وتشدد المصادر التاريخية على ما للوزراء من أهمية ، اذ انهم يتولون الحكم في حال تغيب الملك . فالى جانب وزراء دولة ، تذكر هذه المراجع منصب الوزير الاول ، الذي لا يقل صاحبه شأناً وأهمية في الامور المدنية ، عن منصب كاهن الملك الخاص او مستشاره الديني للأمور الروحية . وبين هؤلاء الوزراء وزير الخارجية ، ووزير الشؤون المالية ، والعدلية فالوزير الاول او رئيس الوزراء هو الوسيط بين الوزراء والملك ، او الناطق باسمه والمعبّر عن آرائه وسياسته . غير ان القرارات التي تتعلق بسياسة الدولة وتصريفها التصريف الصحيح ، فتؤخذ في مجلس الوزراء . من اختصاص الوزراء النظر مثلاً ، في كل ما يتعلق بهيبة الملك وأبهته وجلاله : كحفلات التتويج ، ومواكب اسفاره ، ومراسم الجنائز الملكية . فعليهم ان يسهروا على النظام وتأمين أسبابه في حال غياب الملك او موته، فعلى وزير الخارجية ان يؤمن حسن العلاقات الدبلوماسية والثقافية وان يهيء عقد الاحلاف والمعاهدات السياسية ، وان يرفع للملك تقارير مفصلة حول الهدايا المرسلة اليه من الخارج . ويشرف وزير العدل على ايرادات الدولة ودخلها ، ويجلس الى الملك عندما يقعُد للقضاء ، ويعد التقارير لكل قضية ينظر فيها ، ويتقبل عرائض الملتمسين وشكاويهم ليرفعها بدوره للملك. ومن الادوار المهمة والمسؤولية الكبرى ، الدور الذي يترتب على كاهن الملك ، فهو لا يقل شأناً عن دور الوزير . فالملك يكن له احتراماً كبيراً ويستشيره في امور كثيرة ويعوّل على رأيه السديد .

ويلي الوزراء اهمية ، الحكام الاداريون فجباة الضرائب والرسوم ، الذين يعهد اليهم بتأمين

الادارة في القطاعات التي يشرفون عليها ويضطلعون باعبائها : كالمساحة والمالية والشرطة والعدل ، وادارة مزارع الملك واملاكه الواسعة ، ومراقبة الاسواق التجارية وتقنيتها ، وادارة معامل الدولة ، واستغلال الاحراج واستثمارها ومراقبة الزراعة وتربية الماشية ، والاشراف على الصناعة ، ومراقبة تجارة المخدرات والمشروبات الروحية ، والاشراف على المسالخ والمواصلات النهرية والبحرية ، والنقل البري. وبين هؤلاء الموظفين الكبار من يعنى خصيصاً بالأمور الدينية ، بما فيها النظر في شؤون النساك والمتزهدين .

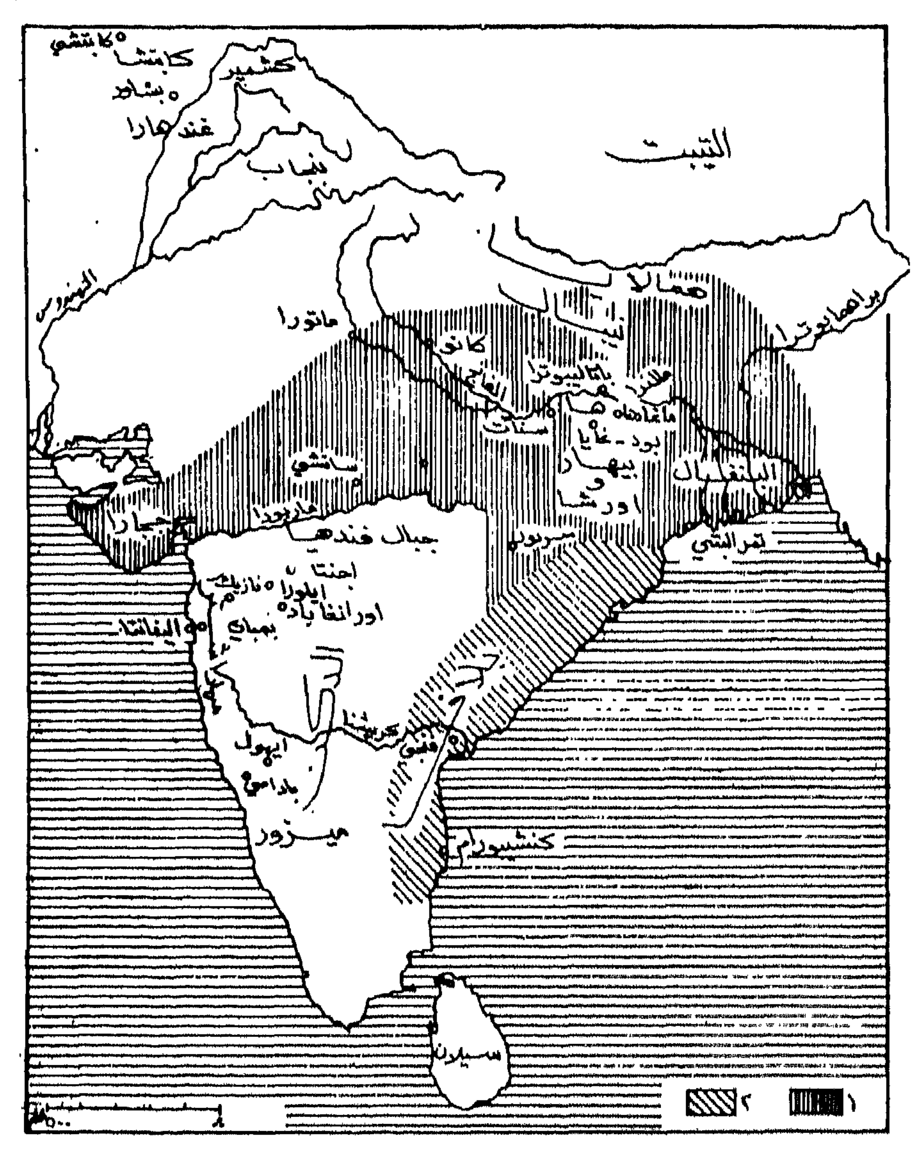
عدد كبير من الموظفين يعمل باستمرار لتأمين حسن سير الادارة في البلاد وامنها : كالسفراء الذين يتمتعون بمبدأ الحصانة ، وحكام الولايات والاقاليم والقادة وكبار الضباط في الجيش ، والقوامون على محفوظات الدولة وغيرهم من الموظفين في هذه السلسلة التي استطالت حلقاتها في عهد دولة الغوبتا ، ولكل منهم القابه الخاصة ومراتبه .

ويأتي في اسفل السلم الاداري مأمورون أقل شأناً : كالشعراء المتجولين ، وكتبة السر ورجال الادب والكتاب ، وحملة شارات الملك والحرس الخاص بكنوز الملك أو بحريمه ، وسائقو المركبات الحربية او الفيلة، والحرّاس والخدم والحشم، والحارسات المدججات بالاسلحة المعروفات باسم *Yavani* .

وتقسم البلاد ، ادارياً الى ولايات واقضية ، يتولى الامر في الولاية حاكم عام يعرف باسم نائب الملك ، له في مركز الولاية بلاطه وحاشيته كالملك في عاصمة الدولة . وتقوم في القرى ، هيئات ادارية تعقد لدى الاقتضاء ، مقابلات مع نائب الملك ، وتتمتع بصلاحيات قضائية وتنفيذية كما تتمتع بحق الاشراف على المؤسسات الدينية . والعاصمة نفسها التي فيها يقوم الملك ووزراؤه ، تخضع ادارياً الى لجنة من اربعة اعضاء يرأسها مقدم يشرف كل عضو على قطاع يضم ربع السكان القاطنين فيها ، كما يقوم الى جانب هذه الهيئة مجلس بلدي من اعضائه ممثلون عن التجار والصيارفة والكتبة. اما في الريف، فالهيئة الادارية المحلية يرأسها موظف قائم بالاعمال . وعلى هذه الوتيرة تسير الادارة الخاصة لدى كبار الاقطاعيين فيشرف على هذه الاملاك مدبّر عام، يتلقى اوامره وتعليماته جيش من الخدم والمأمورين . وكذلك قس الدول التوابع او الدول الدائرة في فلك المملكة فهم ينهجون ، على العموم ، النهج المتبع والمعمول به في الولايات ، مع الاحتفاظ شرعياً بشيء من الاستقلال الاداري .

والجيش الذي هو الركن الركين الذي يقوم عليه استقلال الدولة وقوام هذا الاستقلال ، يؤمن اسباب سلامة البلاد والدفاع عنها . وهو يتألف عادة من فرقة المشاة ، وفرقة الخيّالة وفرقة الفيلة . اما فرقة المركبات الحربية ، فقد استغني عنها في عهد دولة الغوبتا ، مع انها من عدة السلاح التقليدية في الهند . وهنالك فرقة جديدة ، عُمل بها منذ عهد قريب ، هي الاسطول الحربي الذي يتولى حماية الشواطىء البحرية ويسهر على سلامتها ، كما يحافظ على الملاحة النهرية . ويقوم على الحدود ، حاميات عسكرية بقيادة ضباط مجربين. وهذا الجيش يتألف من فئات عدة

بينها فرقة الحرس الدائم ، يتوارث افرادها الخدمة خلفاً عن سلف ، وهم حسنو التدريب ويتناولون رواتب طيبة . وهنالك فرقة من المرتزقة ، حاضرة دوماً للخدمة وللتدخل ،



الشكل (رقم ـ ٤) الهند في عهد دولة الغوبتا
١ ـ امبراطورية الغوبتا ٢ ـ حرب سامودرا غوبتا (٣٢٥ ـ ٣٨٥ ؟)

و « كتائب » تؤخذ وحداتها من بين أصحاب الحرف والمهن ، و « احلاف » يستعان بهم ويرجع اليهم بحذر كلي وتحسب ، ووحدات يتألف افرادها من جنود لجأوا بانفسهم من صفوف العدو هرباً من مظالم تعرضوا لها ، كما توجد وحدات اخرى تضم رهطاً من ليم الهمج وسكان الغابات

والاحراج . وتتألف الكتائب في الجيش من وحدات يتوزع افرادهـا الى عشرات ومئات والوف . فاذا كان الملك هو ، مبدئياً ، قائد الجيش الاعلى ، فالقيادة الفعلية يتولاهـا قائد عام *Machâsemâpâti* وهو شخصية بارزة في الدولة تعدل ، ان لم تبز ، شخصية ولي العهـد ، يتقلد مهام وظيفته السامية بعد ان يجري مسحه ، وفقاً لمراسم معينة كمراسم الملوك ، يرفرف أمامه علم مذهب .

فلا عجب ان يكون هذا الجهاز الاداري الضخم كثير التكاليف ، باهظها ، بالنظر للاعبـاء المرزحة التي تواجهه في توفير المرتبات لكل هـذا الجيش العَرِم من الموظفين على اختلاف درجاتهم .

مرافق البلاد ومصادرها

تغتذي خزينة الدولة بموردين رئيسيين هما جباية الضرائب ، والخراج . فرسوم الجبـاية هي التي تفرض على غلـّة الارض والمحاصيل الزراعية والحيوانية . فللامبراطور منها ، مبدئياً ، السدُس الا ان هذا المعدل عرضة للتغير : فقد يبلغ ثلث غلة الارض او ربعهـا اذا كانت الارض غنية معطاء ، وقد تصل حصته الى نصف الغلة اذا كانت من المواد الثمينة كالعاج والجلود . والعادة المتبعة هي ان تُدْفع هذه الرسوم نقداً بعد ان توزن محاصيـل الارض وزناً دقيقاً . فالرسوم تُفرض على الفاكهة والخضراوات ، والعسل والخشب ، كما تفرض على القرى ، في الريف ، ضريبة مشتركة يتناهـد المزارعون والاهلون على دفعهـا ، كل بحسب طاقته ودخله ، كما تفرض ضرائب سنوية على اصحاب الاطيان الكبيرة والصغيرة ، على السواء . وفي عهد الغوبتا ، فرضت على البلاد ضريبة خاصة اصابت مستأجري الاراضي . ولما كانت الدولة تأخذ على نفسهـا مهمة السهر على سلامة المراعي والحقول ، فهي تفرض عليهـا رسم حراسة خاصاً ، كما تفرض رسوماً اضافية على الذين يستفيدون من شبكة الري والسقاية . وهنالك رسوم دخولية وتعريفات جمركية على البضائع الواردة من الريف الى المدينة . يتراوح معدلها بين ٥٤٪ وبين ٢٠٪ . ولعل أخف هـذه الرسوم هي التي تفرض على الحطب والحبوب والمواد الدهنية ، بينما يرتفع معدل الرسوم المترتبة على تجـارة المشروبات الروحية ، المقننة من حيث المبدأ ، ان في ايام الاعياد والتجمعات العـامة . كذلك يفرض رسم خاص على تعيير الموازين والمقاييس ، وهي عملية تجري ثلاث مرات في السنة ، كما تفرض رسوم خاصة على وسائل النقل وانواعها ، حتى ما كان خاصاً منها . وتخضع للرسوم في دوائر المكس كل عمليـات التصدير ، كما انه محظور تصدير بعض المواد ، تحت طائلة الجزاء والمصادرة : كالاسلحة والجلود ، والحلي والحبوب والمواشي ، ويستثنى من هـذا الرسم بعض الحبوب المستوردة . ويُلزم العمال والصناع بدفع ما يتراوح بين ١٠ — ٢٠ في المائة من دخلهم ، ويعفون من دفع هذا الرسم ، اذا قبلوا ان يعملوا ، بعض الوقت ، لحساب الدولة . ويدفـع العاملون في تربية الماشية ، عيناً او نقداً ، حسبما يختارون . وهنالك رسوم اخرى تغذّي خزينة الدولة ، كرسم التأشيرة على تذاكر السفر ، والمسالخ والمومسات والبغي وغير ذلك .

هذه الرسوم والضرائب تنال كل المواطنين مبدئياً ، الا انها عرضة للتخفيف او الاعفاءات ، في مناسبات وظروف معينة ، كالمدّنين ، والحبـــالى ، والمرضى والطاعنين في السن والزهّاد، وكهان البراهمان وهؤلاء ينعمون بحق إلهي . كذلك تعفى من الرسوم المقاطعات التي تمد الدولة برجال الحرب .

وتملك الدولة عقارات واطياناً طائلة . كما تملك احتكارات عديدة يعود دخلهـا للخزينة . وفي عهد الغوبتا فرضت الدولة ملكيتها على الاراضي الموات ، غير المستثمرة وحظرت على اي كان تملكها او التصرف بها تحت اشد العقوبات . ويعود لها وحدها ملكية معامـــل الحياكة والنسيج ومعامل تنقية فلزات الفضة والذهب ، ومناجم الحجارة الكريمة والمرجان واللؤلؤ والملح ، وقاعات اللعب والملاهي . والى الملك او الامبراطور تعود التركات التي لا وريث لها ، باستثناء البراهمان ، والاغراض التي يمر عليهـا امد ان تفقد ، كما ان رسوماً خاصة تفرض على الحاجيات المسروقة او المفقودة ثم يُعرف صاحبهـــا . وفي حالات الحرب او الأزمات المالية تفرض ضرائب استثنائية ، يتحملهـــا الجميع ، على اساس تأمين التوازن بين دخل الدولة ، ونفقاتها العامة ، مـــع تأمين فائض للطوارىء . والدولة تتحمل نفقات مرزحة كالهبات التي تقدّمها ، والاحتفالات الدينية التي تقيمها ، وتأمين اعاشة القصر ومن فيـه من رجال الحاشية والبلاد ، وتكاليف المصانع والمعامل ، والمشروعات التي تأخذها الدولة على عاتقها ، ومرتبات هذا الجيش العرم من المأمورين والموظفين ، بين مدنيين وعسكريين ، اذا مـــا ضربنا صفحاً واهملنا جانباً المرتبات والاعطيات الملكية الاخرى . ولا بدّ من الملاحظة هنا، ان هذه النفقات الباهظة لا تصيب دافعي الضّرائب على السواء : فهي تنال بالاكثر ، التجار والصناع ، اذ ان البراهمان معفون من هذه الضرائب ، كما ينعم الى *Kshatriya* بانعامات كثيرة .

الحالة الاقتصادية

يستدل من المراجع العائدة لهذا العهد ان الازدهار عم جميع أطراف البلاد ، ابان حكم دولة الغوبتا ، أفراداً وجماعات . فقد سيطر على البلاد جو من الطمأنينة والامن ، لا بد منه ولا ندحة عنه لنمو التجارة وانتشار مرافقهـــا ، فكانت الطرقات تغص بقوافل التجار وما اليهم من عربات النقل، يقود خطواتهم دليل محنك. اما المدن فتزدان بالمباني الجميلة المتناثرة على جانبي الشوارع العريضة ، كما كانت دكاكين البقالـين وعربات الباعة ومخازن التجار تغص بالسلع والبضائع على أنواعها . والزراعة التي هي أهم مرافق البـلاد الاقتصادية هي قوام الثروة وركنها الركين ، فلا غرو ان تنشط ويتسع ميدانها يوماً بعد يوم .

والمزارعون ، وعددهم لا يحصى ، يستخدمون المحاريث التي تجرها الابقار ويؤمنون حاجة البلاد من الشعير والارز ، وقصب السكر والسمسم والصعفران . وبفضل نظام الري البديع ، وتسميد الارض وتخصيبها، كان باستطاعتهم ان يستغلوا عدة مواسم في السنة الواحدة. فالمراعي تغص بالكلأ حيث تسرح وتمرح الثيران ذات السنام والثيران العادية والبقر والعجول ، والحصان والبغل ، والماعز والجمل .

وبين المهن والحرف الدارجة نذكر التجارة والحدادة والصياغة، وحياكة الحرير والاصواف، والصباغة، والبناء، والهندسة المعمارية والتقطير، واستخراج الزيوت، وحفر العاج والصيد والقنص وطحن الحبوب، والطب، والطب البيطري، والموسيقى والرقص، وألعاب الخفة والرشاقة والتسري، والصرافة والتجارة. وأصحاب هذه الحرف ينتظمون جمعيات ونقابات بحيث كثيراً ما نرى قرية ما يحترف سكانها حرفة واحدة، لها رئيسها وكاتب سرها وجلاوزتها.

والى جانب التجارة التي تقوم على التعاطي بالحبوب والحجارة الكريمة، وملسوجات الحرير وصناعة العاج والافاويه والماشية، تزدهر الصناعة التي تعنى بالغزل والحياكة، وصناعة الحبال والسيور، ودباغة الجلود وشغل الحلي والجوهرات، وصنع المعادن واستخراج الفلزات والحجارة الكريمة وتوضيبها، واعداد العقاقير الطبية وبعض المواد الكيماوية.

اما معلوماتنا عن النقد والعملة، في هذه الحقبة، فقليلة. فقد درج استعمال الدينار الذهبي في عهد الغوبتا، وهو اصطلاح دخل الهند من العالم اليوناني الروماني، وكان يساوي عندهم ١٦ *Rûpaku*، وهي عملة من الفضة، أي ما يوازي قيمة ٢٤ روبية، في الوقت الحاضر. وقد عرف القوم، اذ ذاك، السفتجة او السند المالي. والمعروف ان ١٢ ديناراً ونصف كانت تكفي لاعالة خمسة رهبان في اليوم.

الوضع الاجتماعي

كانت الهيئة الاجتماعية لا تزال منقسمة الى طوائف. فلم يطرأ أي تغيير جذري على هذا الوضع. وقد زاد التقاطع والتباعد نظرياً بين هذه الطبقات تحت تأثير البراهمان، اما بالفعل، فاننا نلاحظ بعض التخفف من هذه الناحية، اذ كثيراً ما تعقد عقود زواج بين أبناء طبقات متباينة، مما أدى الى شيء من تخالط الطبقات وتمازجها بعضاً ببعض، الامر الذي حمل الغوبتا على اصدار اوامر مشددة باحترام نظام الطبقات والتقيد بمستلزماته التي تعود الى عهد بعيد. ففي عهد تميز بالازدهار التجاري والاقتصادي وتخزين الطبقات الدنيا، ثروات طائلة، أوجس اولو الامر من ان ينزع ممثلو هذه الطبقات الى الاستئثار بالسلطة معتمدين في تحقيق ذلك، على ما تم لها من غنى وافر. والذي يبدو لنا من المراجع الادبية التي تعود لهذا العهد، ان الثروة او الغنى، أصبحت المعيار او المقياس الاجتماعي الامثل، وبالتالي الوسيلة الفضلى لتخطي نظام الطبقات، بالرغم من تشدد البراهمان وتشبثهم باصرار وعناد، بموقفهم، لا يتزحزحون عنه قيد أنملة، بينما بقيت طبقة كشاتريا مقتصرة مبدئياً، على الملاكين ورجال الحرب، ولم يكن من النادر ان نرى بينهم من يمارس مهنة او حرفة، او يشترك عضواً في النقابات المهنية.

فالاسرة هي الحجرة الاجتماعية الاولى. ولذا بقيت التربية تسير وفقاً للنهج المتعارف القديم الذي كان يقسم الحياة الى أربع مراحل متميزة: الطفولة، المدرسة، الحياة الزوجية، الزهد، وهي مراحل كان للتربية فيها شأن وأي شأن، تبتدىء بفترة قصيرة عند الابتداء، ثم يعقبها انقطاع الطالب بكليته لمعلمه (*guru*) ويلازمه ويعيش في محيطه. فيتعلم منه كل ما يرى نفسه

بحاجة اليه في هذه الحياة ربما فيه التمرس على استعمال السلاح . وبعد أن يُتم دائرة تحصيله يتزوج ليؤسس بدوره اسرة . وأنواع الزيجات لم يطرأ عليها تغيير يذكر ، الا اننا لم نعد نسمع في عهد الغوبتا، بما كان متبعاً من قبل أو مشروطاً من العاب الحفة أو العاب عسكرية أو رياضية .

والعائلة بمعناها الواسع ، لم تكن لتقتصر على الجدود والابناء من الصلب الواحد بل تضم أيضاً البطون والارحام الجانبية وذراريهم ومَن اليهم من احلاف وتوابع ، وخدم وحشم ، وعمال وارقاء. كل هذه الجموع تسكن معاً رَبْماً هو نزل أكثر منه مسكن خاص. ورب الاسرة هو كبيرها وسيدها وقائدها ، له حق تعدد الزوجات ، زوجته الاولى هي امرأته الشرعية ، تشرف على البيت وتهيمن على الادارة المنزلية ، ومن هنا تبدو الاهمية التي يعلقونها على الاولاد الذكور . فان لم ينجب الاب ذكوراً تعقدت امور الوراثة وارتدت أشكالاً وألواناً هي أقرب الى الاعراف منها للقانون . فاذا لم يكن في الأسرة ولد ذكر احتاط الاب للأمر وراح يتلمس الحيلة فيجعل من ابنته الوحيدة « ابناً لا اخ له » . وباستطاعة الاب ان يتبنى ابناً له او يشتري له ابناً . وباستطاعة هذا الابن بالتبني ان يرث أباه الحقيقي وأباه بالتبني . وقد يحدث ايضاً ان ينقطع نسل الاسرة ، فتذهب املاكها للملك ، باستثناء البراهمان .

اما نظرة الرجل لزوجته فالنظرة الى سيدة جليلة ، محترمة مرشدة وهادية وصديقة . ولذا كان تأثيرها عظيماً في الاسرة . فهي قلما تخرج من البيت ، واذا ما خرجت فبتحفظ كلي ، بعد ان ترتدي إزاراً او ملاءة. فاذا لم تُعقب فقدت الكثير من منزلتها وشأنها. فاذا ما ترمّلت فقدت حق رعاية الاسرة وذهب هذا الحق شرعاً لكنّتها او زوجة ابنها . فهي لا ترِث ، انما يحق لها ان تأخذ صداقها والهدايا التي قدمها لها زوجها في حياته ، ولا سيا بجوهراتها وما لها من حلي تبقى لها مدى الحياة . والى هذه الحقبة بالذات يجب ان نرد ظهور تقاليد « المرأة الأمينة » التي تحرق نفسها فوق محرقة الحطب مع زوجها ، كما يستدل من نصب تذكاري تاريخه سنة ٥١٠ ، اكتشف في أران . فالارامل اللواتي لا يتبعن مثل هذا التقليد ولا يمتثلن له يحكمن على أنفسهن ، شئن أم أبين ، بالانزواء ، والانكماش عن المجتمع ، يتجنبن التبرج ، ويمقصن شعورهن ، ويعشن منزويات متزهدات . فزواجهن من جديد ، امر غير مرغوب فيه ، تشجبه العادات ، وتمجه ، الا اذا وقع من احد افراد الاسرة ذاتها ، أي أقرب أقارب زوجها المتوفى .

قانون الجزاء

وهذا المجتمع الذي يقوم أصلاً على الطبقية، محوره الاسرة او العائلة وينتظمه عدد من القوانين . فالسرقة هي الجرم الموصوف ، يحترفها محترفون مجربون ويستعملون لها عدة خاصة . يدخلون المنازل بعد تحطيم الابواب وكسر النوافذ ، او خرق الجدران . ويقوم على تعقب اللصوص واقتفاء اثرهم موظفون خصوصيون ، يتخذون لهم يداً من كل الوسائل الممكنة : كالحيلة والتجسس والترغيب والتشجيع . ولما كان الملك هو القوّام على أملاك رعاياه ومقتنياتهم ، فليس بمستغرب قط ان يولي أمر تعقب اللصوص اهتمامه الخاص .

وتنزل منزلة السرقة ، كل الجنح الشبيهة لها : كالغش في اللعب ، والتلاعب بالمقاييس والمكاييل وتزييف العملة ، وتزوير المستندات العامـــة او الخاصة ، والشهادة الكاذبة ، والغش في صنع الحاجيات الموصى عليها . ويدخل بين كبائر الجنايات والجرائم الموصوفة : القتـــل ، والخطف والاغتصاب ، ووسائل العنف والاكراه ، والاهـــانات ، والحاق الضرر المـادي او الاذى وللدولة وحدها حق الاقتصاص من المجرمين . فالعقاب يختلف طبعاً باختلاف نوع الجريمـة أو الجناية ، فيتراوح بين دفع تعويض وبين الحكم على الغريم بالتعذيب أو بالقتل أو بالنفي ، بعـد السجن والاعتقال مدة من الزمن . فقد بطل تعذيب المذنب ، في عهد دولة الغوبتا ، الا في حال تكرار ارتكاب الجريمة فيحكم على الجاني بقطع يده اليمنى . فاذا مـــا جلسوا للقضاء عُقدت المحكمة واحيطت المحاكمة بالمهابة والجلال ، سواء ترأسها الملك بالذات ، أم احد القضاة في الحالات الاخف . وكثيراً ما تنتقل هيئة المحكمة بكاملها في إثر حملة عسكرية ، فتشكل ، اذ ذاك ، من الملك او من احد نوابه ، ومن القضاة أو المستشارين ، ومن كاتب عدل ، ومن محلفين . أمـــا المحاكم المكلفة النظر في قضايا النقابات المهنية فتتألف هيئاتها عـادة من ذوي الخبرة المشهود لهم بالنصفة لحل المشكلات العارضة . تُعرض الدعوة وفقاً للقواعد والاصول القانونية في عريضة أو التماس يرفع للقاضي ، ويُمـلى على لوحة ، موجز مقتضب للقضية ، بحيث يتاح للنظارة والمشاهدين ان يقفوا على الوقائع . ويؤدي شهود الإثبات ، وعددهم ثلاثة شهادتهم بهيئة رسمية ، وهي شهادة مفروض فيها ان تكون صادقة ، ناطقة بالحق . فاذا ما ثبت زور الشهادة وبهتانها ، عوقب الشاهد ببتر احد اعضائه عقاباً له . واذا ما ظهر ان القضية مرتاب بامرها أو مشكوك بها أمر القاضي بالاحتكام الى الله ، أي تعريض الجهة المشكوك بامرها للتعذيب والتنكيل : كالكي أو السلق بالماء الحـار لاستخلاص الحقيقة . ويبلـّغ الحكم كتابة للجهة المدعية ولا يمكن نقض الحكم الا عنـــد ظهور بيّنات جديدة دامغة . ويناط بمأمور خاص هو مأمور الاجراء ، تنفيذ الحكم الصادر ؛ أما اذا نص الحكم على عقوبات جسدية أو على القتل ، عُهـــد بتنفيذ الحكم لجلاد لا ينتمي لطبقة المحكوم عليه .

الحياة العامة والخاصة

وهذا الاطار الحضاري او الريفي الذي يَلِفّ المجتمع الطبقي في الهند يبدو عليه بعض التحسن دون ان يكون دخل عليه اي تغيير جذري . فالعاصمة هي المدينة المنهجية او المثلى ، يحيط بها سور ضخم يستدير حوله خندق يطفح بالماء ، ويرقى اليها من ابواب ضخمة . ويستعملون في بنـــاء القصر الملكي والمباني العامة والهياكل وبيوت السكن ، الحجر والطوب او الخشب . اما السقف فمسطح ، وقد يأتي مقعراً او محدودباً من جهتيه او على شكل هرم . بحيث تطل عليك كل الاشكال الهندسية . اما العواميد فتطلى او تلبّس باللِك الازرق او الاحمر ، وتحلى برسوم نباتية او حيوانية بالوان زاهية ؛ اما النوافذ ، فتلبس شعريات من الحجر او من الخشب لترد العيون الشوارد والنواظر الوَقحة . ويعلو العواميد : اكاليـــل مزركشة تحمل رسوم حيوانات في شق المواقف او الاضافير من الزهر

الفواح واللآلىء الساطعة ، يتدلى بعضهـا من السقف او من الجدران . وتلبس الجدران احياناً الطنافس الجميلة تتهاوى منها القلائد والاضافير . امـا الكِوَى ، وهي من مميزات الهندسة المعمارية القديمة ، فاصبحت عنصراً زخرفياً ، وتلبّست اشكالاً وصوراً شتى تحت ازميـل النقاش ومرقه .

وكان الأمن يرفرف والسلام يسود الطرقات والمسالك النهرية وكلها بحراسة الشرطة ، بعد ان نشطت عليها حركة المرور والنقل ، بالرغم من الرسوم المفروضة على من يسلكها . ويمخر عباب اليم عمارات من السفن الضخمة تعمل على الاشرعة العديدة ، مرتفعة المقدم والمؤخرة ، تزينها رؤوس التنين وغير ذلـك من الحيوانات البحرية . والملاحة النهرية تقوم على قوارب بيضاوية الشكل ، مجهزة بمجاذيف مفلطحة الرأس . وتدرج على الطرقات : الفيـلة المسرجة باناقة ، والاحصنة على اختلاف اسرجتها الخالية من الركابات ، وقد زُيّن رأسها بالريش وتدلت من عنقها قلائد الجلاجل والاجراس . امـا السابلة فيمرحون ويسرحون ، يحمل العتالون والحمالون بينهم ، سلالاً من الاحمـال على ظهورهم او على اكتافهم او رؤوسهم ، كما يحملون اولادهم على اوراكهم . امـا عقيلات الاشراف والنبلاء فيسرن في هودج تجره عربة مزينة بالرياش ، او يحمله حمالون خاصة ، او يجره زوج من البقر ، كما لا تزال هي العادة لليوم . ويقوم على جوانب الطريق ملاجىء يأوي اليها الزوار والحجاج ، فيجدون فيها ما يحتاجون اليه من اسباب الراحة ، وما يرغبون فيه من طعام ، لمدة محدودة من الوقت لا يمكن تجاوزها ، وفقاً للحالات العارضة . ويقوم في المناطـق المحظوظة ، كمنطقة مغادها مثلاً ، وهي المنطقة التي خرجت منهـا سلالة الغوبتا الملكية ، مستشفيات ومستوصفات لمعالجة المرضى الفقراء ، والمرضى المعوزين الذين لا مورد لهم ، واليتامى والارامـل والمقطوعين الذين لا عماد لهم ولا سند ، فيخضعون للفحص الطبي من قبـل طبيب ، ثم يصف لهم العـلاج الناجع ، وتؤمن حاجتهم من الادوية والاغذية ، ولا يسمح لهم بترك المستشفى الا بعد ان يتم شفاؤهم تماماً .

والبذخ الاتم يطالعنا في القصور الملكية وصروح اهل اليسار ، من الطبقة الارستوقراطية . هنالك مقاعد واطية تقوم على قوائم جُلجليّة الشكل ، أو تشبه اقـدام الحيوانات ؛ واخرى اعلى مقعداً ، موشاة بالطنافس ، ازدان ظهرها برسوم حيوانية ، دقيقة الصنع ، ناعمة الصنعة ، تكفل للجالس عليها الراحة التامة كأنه على اريكة الملك . وقد بَطل استعمال الكراسي ذات المرافق ، كما زال ، استعمال الاستدارات المصنوعة من الخيزران وحل محلها مساند مستديرة من القماش المخطط . كذلك دخل الاستعمال نماذج جديدة من الصحائف واواني المطبخ ، جيء ببعضها من ايران ، كالكرافيات الطويلة العنق ، والاباريق وهنالك ما يشير الى رواج بعض الادوات الزجاجية ، وصناعة القصب والخيزران جوّدت كثيراً صنع الاطباق والسلال التي اعتاد الناس تعليقها بسواعدهم . أما غرف النوم ، فهي ، على الاجمال ضيقة يشغل السرير معظم مساحتها من الداخل ، مجهّز بمسند او وسادة عند الرأس وباخرى ، عند الارجل . والكوة او المشكاة التي

ترى احياناً في بعض الجدران تضم عادة الآلة الموسيقية المحببة لدى صاحب الدار كالقيثارة المقببة . ويقوم في الحجرة منضدة تطرح عليها المساحيق والمعاجين التي يمكن استعمالها اثناء الليل ، كما أَلفوا ان يتركوا على الارض الشماعدين والاباريق المذهبة . اما غرفة السلاح فهي تغص بالاسلحة على انواعها ومختلف اشكالها تتألق بياضاً ولمعاناً ، كالسيوف المهندة ذات المقبض المستدير ، والخناجر القصيرة النصل ، او طويلتها . ويوجد في قصر الملك وفي دارات الاغنياء ، مجموعات من الاسلحة المنظمة تنظيماً خاصاً بينها الرماح والفؤوس ، والخناجر على انواعها ، والقسي والنبال والهراوات والدبابيس . وللالعاب الرياضية محلها المرموق في باحات القصر وحدائقه ، كالنرد الذي عم استعماله كثيراً وادخلوه حتى على حفلات تتويج الملوك الرسمية ، والاراجيح الطقسية او التي تستعمل للتلهي ، والخضاريف ، والعصي المتراكبة . واهم الملاهي واكثرها شيوعاً هي الموسيقى والرقص ، فالملك نفسه هو من كبار هواة اللاعبين على القانون ، وكم من قطعة نقدية تبرزه لنا ينقر على القانون .

كذلك تنوعت كثيراً الازياء والملابس ، وغلا ثمنها بمدان سنا صنعها . فالشاش الناعم الصنع ، والديباج المزركش والانسجة القطنية التي تحاك في جميع اطراف الامبراطورية ، او يؤتى بها من ايران ، هي اكثر الاقمشة رواجاً واستعمالاً . فالملك والامراء يرتدون الـ Dhoti القصيرة او الطويلة ، كما تتدلى على اردافهم ، علائق وسلاسل تنتظمها الحجارة الكريمة والمجوهرات ، كما ان كبار الموظفين ورجال الحرب والصيد يلبسون اردية فضفاضة الاكمام والاردان ، قد تكون ، كما يرجحه العارفون ، جاءت من الغرب . كذلك ترفل عقيلات البيوتات الكبرى ووصيفاتها بفساطين تختلف شفافية وطولاً ، بينما حاملات المذبات والراقصات ، وغيرهن من المرافقات يلبسن سترات فصلت على قدودهن قصيرة الاكمام . وهذا التنوع ذاته يبدو على اشكال : فالراجا يلبس عمة مزركشة تشبه التاج ، اسلاكها من الذهب ، كما اعتادوا ان يضعوا في القرنين الخامس والسادس ، شعراً مستعاراً مقصباً . ويقص اهل الكيف من رجال الرقص والموسيقى ، وغيرهم من الخدم ، شعورهم قصيراً ويزينونها بزهرة . اما النساء فيمقصن شعرهن على اشكال مختلفة بين مقبب ومخروط ، او يملاصنه فوق جباههن او يضفرنه جدائل تتدلى طويلاً على الظهر او الأكتاف ، كما ترتدين بعضهن اكاليل من الزهر او الحجارة الكريمة . ثم يضفن الى زينتهن عقوداً من اللآلىء تشع نوراً وبهاءً وسناءً وتحمل على صدورهن انواطاً كريمة تتدلى من اعناقهن ، وفي معاصمهن ثروات من الاساور الكريمة . ويشدّ الرجال حقويهم بسير من الجلد الناعم كما تضع النساء الخلاخل بارجلهن ، ويلبسن اقراط الذهب او الماس ، والخواتم الكريمة في البنصر او في غيره من اصابع اليد الواحدة .

الحياة الدينية والفكرية والفنية

في هذا الجو العابق بالبذخ والغنى ، بلغت الحياة الدينية في الهند ، أوجها . فالبوذية المتفتحة والمسيطرة على عالم الروح والمادة ، عرفت ازدهاراً كبيراً من الحياة الرهبانية التي جمعت بين التأنق والبذخ . فالرهبان

في اديارهم ينعمون بحماية الملوك، وعطفهم فيغدقون عليهم ، ولا سيما على طبقة البراهمان ، الهبات الطائلة ، والاعطيات السخية . وفي ظل هذه الرعاية المشبعة بعطف الغوبتا تزدهر الحياة الروحية سمحاء ، أثيرة ، متخيرة . فتتكاثر الاديار وتنتشر في البلاد وتصبح منائر للعلم يقصدها الرهبان الاغراب العطاش الى المعرفة والحكمة الالهية . وهكذا نرى مثلاً عاهل سيلان يأمر ببناء دير في بلدة بودغايا ، للرهبان السنغهاليين ، كما ان اسرة سوماترانية تشيد لها ديراً آخر في مدينة تالاندا ، وهي مدينة بوذية رأت النور بين ٤٦٧ - ٤٧٣ والتي جاءها فيما بعد زائراً هيوانغتسان . ويلقى الرهبان المتجولون في كل هذه الديارات ، كل ما يحتاجون اليه من اسباب السلوى والترفيه، كما حصل للراهب الصيني، فما هيان اذ يأتي رئيس الدير بنفسه ليرحب بقدومهم ويتصدق عليهم بما يحتاجون اليه من لباس وماء وطاس ، ومن زيت ينضحون به اقدامهم ورحيق عصير قصب السكر الذي يمكن تناوله في غير اوقات وجبات الاكل القانونية . ثم يخصهم بغرفة فيها من الاثاث والمفروشات ما فيه راحتهم ويجيز لهم الاشتراك بالحياة الرهبانية وفروضها طيلة بقائهم في الدير. ولم يكن من النادر قط ان يتسع الدير لاكثر من الف راهب وراهبة ومبتدئين من كلا الجنسين . وكان الزوار يدهشون لكثرة الاديار في مدينة تالاندا ، وتعدد مبانيها ، وغنى أثاثها ، ورحابة غرفها ، تجري فيها الطقوس الدينية مواسمها بكل ابهة وجلال ، في جو يتناغى بصدى الاناشيد الروحية ويعبق بالبخور المتصاعد كالغمام ، وباريج الزهر والريحان ، تتلألأ زينة الهيكل على اضواء القناديل التي لا عد لها ، والمضاءة طوال الليل، على انغام شجية من الموسيقى الناعمة المتصلة .

وتتناوح المدارس الهندسية بين مناسك بسيطة متواضعة وبين باحات وافناء شاسعة تمور بحركة الطلاب وروام العلم يتحلقون حلقات حول اساتذة ومعلمين مشهود لهم بالفضل ، فيتلقون الى جانب دروس الفلسفة والحكمة ، اصول الصرف والنحو، والمنطق ، وتعليقات مستفيضه ، وشروحاً موسعة في الموسيقى وفن التمثيل ، والرقص والرسم الملون .

وهل من غرابة في هذا كله بعد ان ازدهرت الفلسفة وأينعت الآداب الرفيعة ؟ فالشعر الوجداني والملحمي ، وفن التمثيل نفسه ، وغير هذا من النشاطات العقلية يحمل بارزاً ، أثر الشاعر الهندي الاشهر كاليداسا (القرن الاول ق . م) الذي اعطانا : الغيمة الرسول (*Meghadûta*) ومولد كومارا ، ونزول راغو *Raghuvamça* وروايته الخالدة « إعتراف» التي نراها مترجمة اليوم الى جميع لغات العالم ، والتي مُثّلت مراراً في دور عديدة للتمثيل في الغرب . وقد بلغت اللغة السنسكريتية القِدَم المعلى نقاءً تحت ريشة كاليداسا . فقد رسم لنا هذا الشاعر الهندي المبدع ، صوراً اخّاذة تبناها المسرح الهندي ودرج عليها منذ عهد سحيق ، وهي صور تمور بالطبيعة والجنان السندسية الغناء ، وجلت لنا اغوار النفس البشرية بفن فيه الكثير من نوازع الادب الكلاسيكي . بعد ان ابرزت لنا مشاهد حية عن : ملك مدنف، تيمه الحب ، ومهرّج ماجن ضحوك ، ولاعب مدمن اخذ منه الهَوَس كل مأخذ ، والراهبة البوذية

والملكة الحسود ، والملكة الظليم وغير ذلك من صور النفس البشرية التي نطالعها في كل زمان ومكان . كل هذه الصور ليست بالفعل سوى ركائز عرف كاليداسا ان يضفي عليهـا من فنه وعلمه الواسعين ، ومن الجمال الجسم ما بلغ فيه سدرة المنتهى ، كل ذلك في نظم جزل ، ولغة مشرقة، مشمشمة، وبيان مزهر وقوافي راقصة مرقصة، حمّلها من المعاني ما لا تستطيع الالفاظ حمله . فالفن ، في عهد الغوبتا ، بلغ الذروة ، اذ جمالية الاسلوب ، تقوم ، قبل كل شيء ، في الايماء دون الافصاح ، وفي الاكتفاء والاكتناه دون التعبير ، وفي الرمز ، دون المرموز اليه ، وفي الاشارة دون العبارة. هنالك شعراء لا يقلون شأناً وشأواً عن كاليداسا . اضاؤوا كالشهب جو الغوبتا ، وألقوا على عهدهم ، ألقاً قلما عرفت الهند مثله . منهم : شودرا كا المؤلف المفروض ل « عربة الفخار » ، وفيشا كادتّا ، وامارو وبهارتراهري .

ولم يكن تألق الفلسفة ، في هذا العهد ، عند البوذيين اقل منه عند الهنود . فالاخوان ازانغا وفازوبندو من اتباع المدرسة الرمزية في الهنـد وضعا اذ ذاك ، مؤلفات كانت ، لقرون عديدة ، المحور بل الاساس الذي نهضت عليه التعاليم البوذية التي يمثلها احسن تمثيل ، « الوسيلة الكبرى» او *Mahayana* سواء في الهند او فيالبلدان الآسيوية الاخرى . ولم تلبث ان بلغت آثارهما الصين ، بعد ان ظهرت في الهند ، بقليل . وهذه الصيغة التي برزت عليها البوذية على يديها ، بالرغم من ظهورها في مطلع النصرانية تقريباً ، اختلفت تماماً عن التعاليم الاساسية الممثلة « بالوسيلة الصغرى » *Hinayâna* او *Theravadna* . وليس من العبث ان نذكر هنا بان أزانغا وفازوبندو خرجا اصلاً ، من غندهارا ، هذا الاقليم الذي وقـع تحت تأثير المدارس السريانية الفارسية وانفعل بها ، وهي المدارس التي عقبت مدرسة الاسكندرية وورثتها ، اي الفلسفة الاشراقية والمالوية . تقوم فلسفة اليوغا على النظرية القائلة بان الواقـع او الحوادث الواقعية ، ليست سوى خيال ووهم. وخلافاً للمدرسة او نظرية *Madhyamika* التي ادت باتباعها الى القول بالعدمية ، وصل بهـا آزانغا ولا سيا فازوبندو الى نتائج مناقضة تماماً : فاذا كان كل شيء وهماً في وهم ، فالوصول الى هـذه النتيجة والتأكد من الامر ، هو الاقرار ذاته بوجود فكر ، وهكذا ، فالفكرة المجردة او الفكرة الوعاء ، تؤلف الاسس التي تقوم عليهـا المثالية المطلقة .وقد كُتِبَ لهذه النظرية ان تنتشر في جميع ارجاء آسيا وادت بالتالي الى هذه التيارات البوذية العارمة التي بلغت أقاصي الصين واليابان .

وبرهنت الفلسفة الهندية ، من جهتها ، هي ايضاً ، عن نشاط يصح مقارنته ، من قريب ، بالنشاط الذي سجلته البوذية في هذه الحقبة . ففي الوقت الذي اخذت فيه تتبلور المحاولات الاخيرة لتركيز الملاحم الكبرى راحت النظم الفلسفية الهندية ، تبرز وتتطور بما تعرضت له من شروح وتعاليق وتفسيرات ، بشتى الصور والاشكال التي تفتّح عنها الفكر الفلسفي الهندي ، وتبلور عنه : كالاخلاقية الدينية ، والزهد والتنسك ، والمنطق ، وعلم الطبيعة ، وعلم ما وراء الطبيعة الديني ، واللاهوت والفلسفة ، وتناسخ الارواح او التقمص ، وما للفعل من اثر ضار ،

مؤذ (*Karman*) والوسائل المختلفة لخلاص النفس *Moksha* ، وغير ذلـــك من الموضوعات والتجريدات العقلية التي راح العقل الهندي يغوص فيها . كل ذلك يقوم على اساس وطيـد من استقلال الطبيعة الانسانية « والارواح » ، المـادة والروح . وعن طريق سلسلة من النفي ، توصلوا ، هنا وهنالـــك ، الى تحديدات وتعريفات لها من الدقة واللطافة مـــا في اللغة السنسكريتية من طواعية وليونة ومرونة ، او مـا تتيح له من مقارنات ومقايسات تنبض بالحذق . ومن هذه النظريات الفلسفية الهندية التي طلعت اذ ذاك ، نظرية الفيدانتا الـتي أطلت علينا بين ٣٥٠ — ٤٠٠ ، ثم اخذت تتطور في العهد التالي .

وبالمقابل ، نرى فن الرسم يبلغ اذ ذاك تمامه . فبعد ان استفاد من خبرة الماضي ، راح الفن، في عهد الغوبتا، يحاول التعبير عن الافكار الجديدة. فبينا نرى المثالية المطلقة تسيطر على الفلسفة البوذية وتستبد بها، ويبرز في النظريات الفلسفية الهندية عنصر الروح واحتلاله الصدارة، فالنزعة للتنويه عن الاشياء المحسوسة بالرمز ، واضفاء شيء من الروحانية عليها ، بلغت أوجها في فن التصوير التشكيلي . وقد وضعت ، اذ ذاك ، أبحاث تحددت فيه وتعينت الاسس التي تقوم عليها القواعد في المستقبل . فلم يسبق ان رأينا في الهند ، مثل هـــذه الاهمية يعلقونها لنقاء الصور والأشكال وسنائها ، ولتأمين مثل هذا التوازن بين الكتلة والقيمة ، وتأمين مثل هـذا التناغي والانسجام بين المقاييس والمسافات . فقد كان للنظرية الفنية في الهند ، في عهـد الغوبتا ، تأثير شديد الدفع على جمالية الفن ، بحيث ان الموضوعات الفنية التي عالجها هذا الفن ، في تلك الحقبة، أصبحت نماذج احتذاها الفنانون وساروا على هديها ووحيها ، حتى بعد زوال هـذه الدولة ، وتواريها عن مسرح السياسة في الهند ، بحيث امتدت المبادىء التي اعتمدتها وقامت عليها ، ليس الى جميع أقطار آسيا الجنوبية الشرقية فحسب ، بل ايضاً الى أقصى ما بلغته الركبان والقوافل الذاهبة الى الشمال والشرق . والهندسة المعمارية التي ترعرعت في الهواء الطلق ، اخذت اصولها تطبق على المعابـد والهياكل والاماكن الصخرية المؤلّهة كالمغاور والكهوف . وهكذا أخذت الجدران ترتدي أشكالاً وصوراً ، هي اليوم من أروع ما طلع به الفن في الهند .

٢ ـ أقطار آسيا الجنوبية الشرقية

بعد ان خبرت أقطار آسيا الجنوبية الشرقيـة ، في القرنين الثالث والرابع ، حركة واسعة من الاستهناد واقتباس الحضارة الهندية ، اذا بها تقع من جديد ، في الحقبة الواقعة بـين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن السادس ، تحت تأثير موجة جديدة من انتشار هـذه الحضارة ، والاقبال على مقوماتها وتمثلها . ومع ان هذه الاقطار كانت تدور ، اذ ذاك من الوجهة السياسة، في فلك الصين وتخضع لنفوذها ، وان مصادر تاريخها الركينة في هذه الفترة بالذات من تاريخها ، هي صينية في معظمها ، فتاريخها الحضاري والثقافي، في هذا العهد هو مع ذلك ، امتداد لحضارة

الهندية فيها . فمن المعقول ، جداً ، والحالة هذه ، ان نلقي على هذه الاقاليم ، نظرة شاملة من هذه الناحية بالذات .

مقاطعة فو ـ نان

يبرز تأثير الهند على أتمّه، في مقاطعة فو ـ نان ، عام ٣٥٧ ، وهي تخضع اذ ذاك ، لسيطرة دخيل طارىء معروف باسم الهندو تشان ـ تان الذي أرسل الى امبراطور الصين ، آنئذ ، هدية تتألف من أفيال حَسُن ترويضها . والملك هو أمير هندي المحتد يلقب « *Chandan* » ، وهو لقب جـاري الاستعمال عند الكوشانا ، من سلالة كانيشكا . من المعقول جداً ان تكون الفتوحات التي قام بها الفوبتا في هذه المقاطعات المتسهندة الواقعة الى الجنوب الشرقي من آسيا ، دفعت أمامها عدداً من الامراء والبراهمان والادباء ، جلَوا عن مواطنهم واستقروا نهائياً في تلك الربوع . وبفضل هؤلاء القادمين الجـدد الذين اقتلعتهم الاعمال الحربية وقذفت بهم بعيداً عن مساكنهم ، انطلقت الموجة الجديدة من النفوذ الهندي في البلاد ، عناصرها الرئيسية كانت في معظمها من شرقي الهند وجنوبيها . وقد آل الامر بعـد تشان ـ تان الذي لا نعرف عنه شيئاً يذكر ، الى ملك جديد يدعى كوندينيا ، وهو من براهمة الهند ، وقع عليه الاختيار ليتولى الامر في فو ـ نان باسم الشعب «الذي اخذ بتغيير قواعد الحياة واسسها وفقاً لمناهج الهند » ، كما جاء في تاريخ آل لوانغ . وقد أرسل احد خلفـائه المدعو سري اندرافارمان او سريستافارمان عدة بعثات الى بلاط ملوك سونغ *Song* ، وذلك بـين ٤٣٤ و ٤٣٨ ، كما أبى ان يؤازر ، عسكرياً وحربياً ، مملكـة لن ـ لي (٤٣١ ـ ٤٣٢) في حروبها ضد التونكين .

ومن سلالة هؤلاء الامراء ، طلع المدعو جايا فارمان ، الذي كان أوفد بعثة من التجار الى مدينة كنتون ، غرقت سفينتهم ، لدى عودتهم فتحطمت على شواطىء لِن ـ يي ، ونجا بينهم من نجا ، ومعهم راهب هندي اسمه ناغازينا . وفي سنة ٤٨٤ ، ارسل جايا فارمان ، الراهب المذكور بمهمة رسمية الى ملك تسي ، في الجنوب ، يلتمس مؤازرتهم عسكرياً في حمـلة يوجهها ضد لِن ـ يي . وحمل هذا الموفد السياسي معه : « صورة لأريكـة الملك من الذهب المنقوش المصنوعة من جلود الضباب، وفيلاً مصنوعاً من خشب الصندال، وصورتين لاحد المعابد مصنوعتين من العاج وإنائين من الزجاج ، وطبقاً من فلوس السمك لتقديم التمر » . ويتبين من العريضة التي كان عليه ان يرفعها لملك تلك البلاد ، ان البوذية كانت معروفة ومنتشرة في فو ـ نان ، مع ان عبادة سيفا كانت هي المسيطرة عليها، اذ ذاك . ومقابل ذلك استودع الامبراطور السفير هدية للملك جايا فارمان ، مجموعة من خمسة اثواب من الاقمشة الحريرية الفاخرة تتناوح بين البنفسجي والعقيقي ، عليها رسوم صفراء وزرقاء وخضراء ، ولكن ابى ارسال المساعـدة العسكرية المرجوة . ويتابع تاريخ آل تسي الجنوبيين روايته فيقول :

« سكان فو ـ نان مشهود لهم بالحيلة والمكر ، فيستولون عنوة على سكان المدن التي لا تخضع لهم ويتخذون منهم أرقاء ، من مقتنياتهم الوافرة : الذهب والفضة والاقمشة الحريرية ، ويرتدي أولاد الاسر الكريمة الديباج ، كما تلبس

النساء عندهم أقمشة تشقها من الوسط وترسلها على أجسامهن بدون خياطة . اما الفقراء بينهم فيسترون عورتهم ببعض المنسوجات الغليظة . ويشتغل السكان في فو ـ نان بصنع الخواتم والاساور الذهبية ، وصنع صحائف الفضة. ويبنون مساكنهم من الخشب . اما ملكهم ، فيسكن منزلاً ذا أدوار متعددة ، ويقومون أسواراً حول منازلهم من دعائم الخشب . وينبت على مقربة من البحر نوع من النبات أوراقه من ٨ الى ٩ أقدام ، يضفرونها ويجدلونها على أشكال متنوعة يغطون بها منازلهم . ويفضل الناس لسكناهم الاماكن المرتفعة . ويصنعون لهم قوارب من جذوع الشجر يبلغ طول الواحد منها من ٨٠ الى ٩٠ قدماً ، ويجوفونها بعرض ٦ ـ ٧ أقدام ، ويجعلون مقدم القارب ومؤخرته على هيئة سمكة . فاذا ما انتقل الملك ، ركب فيلاً ، وهو مطية يركن اليها النساء ايضاً . ويتلهى الناس بالتفرج على مصاوعة الديكة والخنازير . وهم لا سجون لديهم . فاذا شجر بينهم اختلاف ، رموا في الماء الغالي خواتم من الذهب او بيضاً يرغم المتشاجرون على انتشالها . وبدلاً من ذلك ، فهم يحمون سلاسل معدنية حتى تحمر ، على المتشاجرين ان يحملوها في ايديهم مسافة اقدام فتحترق اصابع المذنب ، اما البريء فلا يصاب منها بأذى . او انهم يلقون بهم في الماء فمن كان الحق عليه انحدر الى القعر بينما البريء منهم يطفو على وجه الماء . من فاكهة البلاد عندهم قصب السكر ، والرمان والبرتقال والتمر . اما الطيور والثدييات فهي ذاتها الموجودة في الصين » .

وبعد ذلك بقليل ، أي بين ٥٠٢ و ٥٥٦ ، يزودنا تاريخ آل لانغ بمعلومات اضافية جديدة :

لا آبار لهم في المحلات التي يقطنونها . ويشترك عدد من الأسر في التزود بالماء من حوض مشترك . من عاداتهم عبادة القوى الطبيعية والجوية ويضعون لها صوراً من البرونز ؛ فمن كان له منها وجهان صنعت له أربع أيد ، ومن كان له اربعة وجوه ، صنعت له ثماني أيد ، تمسك كل واحدة منها بشيء ما ؛ عصفور هنا ، وولد هناك ، او حيوان هنالك ، او القمر والشمس . يركب الملك في تجواله وتنقلاته الفيلة وكذلك سراريه ومحظياته ورجال البلاط . فاذا ما جلس الملك جثم على احدى ركبتيه بينما يرفع الثانية ، وتفرش الارض امامه بالطنافس والسجاجيد ، توضع عليها آنية الذهب والمجامر . في المآتم والجنائز ، تحلق الذقون ويقص الشعر . والجنائز على أربع طبقات . فالدفن في الماء وذلك باطراح الجثة في النهر ، والدفن بالحريق تستحيل معه الجثة رماداً ، والمواراة في الثرى او في قبر ، والدفن في الهواء الطلق بحيث تأتي الطيور والنسور وتلتاش جثة الميت .

توفي جايافارمان عام ٥١٤ ، بعد ان انعم عليه الامبراطور عام ٥٠٣ بلقب « قائد الجنوب وملك فو ـ نان » . في عهده دخل راهبان من فو ـ نان ، الصين ، فاستخدمهما الامبراطور لمعرفتهما اللغة السنسكريتية معرفة جيدة ، لنقل الكتب الهندية المقدسة وترجمتها الى الصينية . وهكذا استمرت العلاقات الثقافية والدينية ناشطة بين الاقطاب الكبرى في آسيا ، وهي الهند والصين والهند الصينية .

وخلفه على العرش ابنه المدعو رودرا فارمان الذي ارسل ، الى الصين ، بين ٥١٧ و ٥٣٩ عدة وفود سياسية ، فكان بذلك آخر ملوك دولة فو ـ نان التي زالت من الوجود ، عقب حوادث مبهمة تضرست بهما البلاد وأدت ، في اواسط القرن السادس ، الى انشقاقها فانقسامها على نفسها ، تاركة وراءها ذكراً لا يمحى في شبه جزيرة الهند الصينية ، بعد ان قيض لها ان تلعب دوراً بارزاً ، طوال خمسة قرون . وقام في البلاد حكم جديد تولته اسرة ملكية يعرفها الصينيون باسم تشان ـ لا ، احتلت عاصمة فو ـ نان عنوة ، واضطر الملك الى الهرب ناجياً بنفسه نحو الجنوب . واول عاهل من هذه الاسرة الجديدة هو شيتراسينا . واذ ذاك تألف من فو ـ نان ومن تشان ـ لا دولة جديدة ، تولى الامر فيها الملك بها فافارمان الاول ، الذي كان لا يزال يملك ، عام ٥٩٨ عند مطلع امبراطورية الخمير التي بقيت حتى اواخر القرن

الثالث عشر ، اكبر دولة ارتفع لواؤها في الهند الصينية ، اذ ذاك ، والتي خلّفت لنا حضارة عريضة ، لا تزال معالمها الماثلة تحدثنا عن العظمة التي نالتها والسيادة التي حققتها .

سلالة الشمبا

بقيت دولة لن – يي ، في هذه الحقبة ، تتابع حملاتها العسكرية ضد جي – نان كما ان اعمال القرصنة التي كانت تقوم بها زرعت الخوف في خليج تونكين، كما بقيت على عادتها في ارسال الجزية وبعث الوفود الى بلاد الصين . وقد تم للملك فان – ون ان يفتح قسماً من جي – نان ، لم يلبث ان فقده فان – فو ، عام ٣٥٩ ، الذي يرى البعض انه هو نفسه الملك بهادرا فارمان الاول ، الذي ترك لنا عدداً من الرُقم والكتابات السنسكريتية وغيرها من النقائش التي تساعدنا على تكوين فكرة صحيحة ، عما كان عليه الوضع الديني في تلك المملكة ، حيث نرى عبادة سيفا تسيطر على البلاد ، وتهيمن فيها على النفوس . ولاول مرة نشاهد ، على ارض الهند الصينية النفا الملكية هذه العبادة التي اخذت رمزاً لها قضيب *Phallus* سيفا ، وهو رمز بقاء الملك واستمراره وفي سبيله شيد الخمير والشامز « الجبال الهيا كل » مأوى للملك الإله الذي كان يلقب بـ : بهادرسفارا . وقد اضطر حفيد الملك فان – فو او ابن حفيده ان يتنازل عن عرش جدوده (القرن الخامس) لحساب ابن اخيه ، وسافر الى الهند لتكتحل عيناه برأى نهر الغانج ، الامر الذي يجعلنا نفترض انه كان هندياً ورعاً وتقياً .

كان الشامز لا يزالون بعد ، على ما عُرفوا به من خشونة الطباع وجفوة الاخلاق ، قراصنة قبل كل شيء ، يزرعون الخوف في قلوب جيرانهم من سكان مقاطعة جي – نان ، بعد ان استباحوا شواطئها ، عام ٤٣١ في حملة ضمت اكثر من مائة سفينة من سفنهم . وقد حاولت الصين تأديبهم في حملة اعترضتها عاصفة هوجاء ، فاعادت الكرة عليها ، بعد ذلك بقليل ، اي سنة ٤٤٦ ، ادت الى نهب عاصمة الشامز ، الواقعة في مقاطعة هويه ، وسلبت منها اكثر من ١٠٠،٠٠٠ ليرة ذهباً . وبعد ان اعلن خضوعه ، راح ملك الشمبا يوالي بعثاته ووفودها الى الصين كما فعل عام ٤٥٦ و ٤٥٨ و ٤٧٢ ، ثم بين عام ٥٠٢ و ٥٢٧ .

وبعد ان توالى على الملك اسرة جديدة ، راح ملوكها يرسلون كعادة اسلافهم بعثاتهم الى الصين . وفي عام ٥٣٠ ، تقلد الملك الجديد الولاية من الصين . الا ان خلفاءه من بعده ، حاولوا الخروج عن طاعة الصين وزحزحة نيرها عن اعناقهم الا ان حظهم العاثر جعلهم يتضرسون بيأس اسرة سويه الصينية الجديدة وقوة بطشها ، فاجبرتهم على استئناف التقاليد المرعية ووصل ما انقطع منها . وسنرى الشمبا ، في عهد دولة تانغ ، يوسعون نطاق مملكتهم ، في الجنوب ويزرعونها بالاديار والوقوفات الدينية .

شبه جزيرة الملايو والانسولاند

تشير المعلومات التي يمكن التعويل عليها ان شبه جزيرة الملايو والانسولاند بلغت في هذه الحقبة درجة قصية من الاخذ باسباب الحضارة الهندية : فالسنسكريتية فيها هي اللغة الرسمية ، والبوذية والهندوكية بلغتا منها اعلى

مبلغ ، في وقت كانت فيه مدنية سكان البلاد الأصليين لم تكن بعد تطورت كثيراً . والمـــلايو مقسمة الى عدة ممالك صغيرة ضالعة بالحضارة الهندية ، على درجات متفاوتة في تطورها . يرتدي الناس فيها ثياباً قطنية وشعورهم مسترسلة ، يتحلون بالحجارة الكريمة ويتزينون بعقود اللآلىء والجوهرات ، وقد جودوا البناء ، وعرفوا إقامة الحصون والإسوار حول مدائنهم ، وبنوا لها الابواب المتحركة على مصراعين . والى هذا ، هنالك اقوام لا يزالون على همجيتهم الاولى يجهلون فن العمارة وبناء الاسوار واتخذوا بديلاً عنها صفاً من السياج . والملك يحيى حيـاة كلها بذخ واسراف يحيط به العديد من البراهمة ، وهو نصف مستلق على سرير مصنوع من جلد الضب ، فاذا ما غادر قصره ، فعلى فيل غليظ الجثة تعلوه خيمة بيضاء اللون يتقدمـــه ضاربو الطبول وحَمَلَـة الاعلام، يحف به حرسه الذي يسمّر الخوف في القلوب لفظاظته وخشونة طباعـــه . وكانت جزر صومطرة وجافا تابعتين ، آنذاك ، لملوك هذه البلاد ، تطالعنا فيها معالم الحضارة الهندية ، جاءتها من جنوبي الهند متجهة نحو رأس كومورين . ومما لا شك فيه قط ان هذه البلاد تتبادل التمثيل والبعثات مع الصين ، في القرنين الخامس والسادس غير ان الاشياء الفنية التي امكن العثور عليها وجمعها تنم عن تأثير الهند البالغ، اذ نرى بينها تماثيل لبوذا من طراز مدرسة امارافاتي (جزيرة صومطرة) أو من طراز الغوبتا في جزيره بورنيو ، مؤيدة بذلك المعلومات المستمدة من النقائش الحجرية .

٣ ـ الامبراطورية الصينية في اعقاب أزمة القرن الثالث

في الوقت الذي كانت فيه الهند تشع بعيداً الى ما وراء حدودها ، كانت جارتهـــا الصين تتربص الدوائر وتعاني الصعاب في الداخـــل . قام على الحكم ، بعد زوال دولة الهان فيهـا ، سلالة تسن التي اسسها ساو ــ ما ، على انقاض الامبراطورية السابقة . الا ان الامبراطورية الجديدة لم تتمكن من السيطرة على الصين برمتها الا لفترة عشرين سنة تقريباً (٢٨٠ ــ ٣٠٤) اذ اخذت غزوات البرابرة : من تتار وهونز ومغول ، تقرع ابوابهـا بعنف ، وتحاول بنجاح ، مراراً ، عبور حدودها من الشمال . وقد كان من جراء إقامة هؤلاء الاقوام من قبائل رحّل في المقاطعات الشمالية ، ان ادت منذ عام ٣١٦ ، الى انقسام الصين دولاً وممالك تناحرت فيما بينها ، طيلة قرنين كاملين ، جرّت على البلاد الذل والهوان .

انها لحقبة حالكة مظلمة ، هذه الحقبة التي تكالب فيها الغزاة الفاتحون ، بين ٣٠٤ - ٣١٦ على اقتطاع اوصال الصين فذاقت البلاد من بطشهم وهمجيتهم ألواناً من العسف وصنوفاً من الجور والاذى . ففي عام ٣١١ ، استولى الغزاة الطارئون على العاصمة لو ــ يانغ ، والقوا القبض على الامبراطور ، وذبحو ، اكثر من نصف سكان مدينة تشانغ ــ نغان ، وساموا الامبراطور الاسير الذل والمهانة ، ثم قتلوه شر قتلة ، بعد ان استخدموه ساقياً ، لسيد البـــلاد الجديد ، الطاغية

الماني : هيونغ ــ نوليوتان ، الملقب بحق : « أتيلا الصين » إمعاناً منهم باذلاله وتحقيره . وقد تكررت المأساة ذاتها ، بعد لأي قصير من الزمن ، عندمـــا قام الهيونغ ــ لو بغزوة جديدة أوصلتهم الى تشانغ ــ نغان واقاموا فيهـــا . وكان مصير آخر ملوك تسن ، في الشمال ، وهو الامبراطور مِنتي (٣١٢ ــ ٣١٦) الذي وقع في قبضة ملك الهونز ، ان امسى غاسلا للصحون والطناجر ، ثم أعْدِم .

فأمام هذه الاهوال التي انزلها الغزاة بالصينيين ، وما الحقوا بهم من مهانة ومذلة ، بعد ان استباحوا باحتهم وزرعوا البلاد خراباً ودمـــاراً ، راح السكان ينزحون عن املاكهم ويفترون بانفسهم ، نحو الجنوب . وفي عام ٣١٨ ، نودي في نانكين بامبراطور جـديد من اسرة تسن ، فكان ذلك إيذانا بان هذه الدولة لن يُكتب لها استرجاع الشمال . وكان من جراء هذه الهزات المنيفة ان زادت من الفوضى في البلاد ، وافقدتها بالتالي لذة العيش الرضي وجعلت أمْن البـلاد الداخلي ريشة في مهب الريح ، وزادت من شقاء الشعب المسكين وبؤسه . وعزا الادباء ورجال الفكر سقوط دولة الهان وزوالها من الوجود ، الى فشاء سوء الاخلاق في المجتمع الصيني ، اذ ذاك ، بعد ان دب الفساد في كل مكان ، فأوهن الطبقات الاجتماعية وخلخلهـــا ، فتفسخت وانساحت وذهب ريحها في الارض ، وليس من يرعوي او يبالي بين الاشراف والنبلاء والطبقة البورجوازية . كل شيء كان يتوقف على اخلاق الامبراطور الذي بهديه يأتمّ الناس وعلى منواله ينسجون وعلى خطته ينهجون : أفلَم يكن الامبراطور التقويم المتبع وقسطاس العدل المروم؟ فسوء سيرة الامبراطور وفساد سريرته ذهب بالتوازن الذي كان يمثله وشجع الآخرين على احتذاء حذوه ، وعلى التحلل من الاخلاق الفاضلة ، والتنكر لمكارم الاخـــلاق والعبث بالفضائل البشرية . فلكي يعود النظام العام ويعود الناس الى الاعتصام بمكارم الاخلاق ، كان لا بد من ذهاب الدولة وزوالها . فالأزمَة التي نزلت بالبلاد وكادت توردها الهلكة ــ كما مر معنا في الجلد السابق من هذا التاريخ ، احدثت البلبلة والفوضى في نظام البـــلاد الاجتماعي والاقتصادي ، واقلقت الخواطر والضمائر ، واثارت الشكوك في قلوب الحكماء ودفعت المفكرين الى اليـــأس والقنوط ، بما حمل الحكيم الصيني تشونغ ـ تشانغ ـ تونغ (حوالي سنة ٢١٠ تقريباً) على القول : الى أين المصير يا ترى ؟

فسلالة تسن الملكية التي استرسلت في البذخ وانصرف ملوكها لأطايب الحياة ولذائذها ، أغفلت كل ما من شأنه ان يعيد النظام الى نصابه ويضبط سير المؤسسات العامة وحسن عملها . صحيح انها حاولت ، في اول عهدها ، الاهتمام بمرافق الزراعة ، محور الاقتصاد الصيني وركنه الركين ، وذلك عن طريق انشاء المزارع وتعمير الارض ، واقامة السدود للري ، وتوزيع الاراضي على الأسر الصينية بنسبة معينة . كذلك حاولت الحد من اطماع كبار الملاكين وصدهم عن توسيع أملاكهم عنوة واغتصاباً ، والحؤول دون منعهم افراد الشعب من الانتفاع بالاحراج ، ومجاري الانهر ، والمرتفعات الجبلية . وفي هـذا السبيل عينوا جيشاً من الموظفين للاشراف على حسن

تطبيق هذا الاصلاح الزراعي الذي اخذت الدولة بأسبابـه . الا ان كل هذه المحاولات ذهبت سدىً وصارت الى الفشل . فالملكية الكبيرة بقيت الاساس الذي قام عليه المجتمع الصيني . ولم يطمع هذا الشعب الضعيف ، المهيض الجناح ، البائس اليائس ، الذي يتآكله الإسى والاسف ، الا ان يلوذ بهذه المثالية الدينية ، قانعاً من امره ودنياه ، بالكفاف باهون الشرور ، والقناعة بأي قسمة ضيزى ، بعد ان وقعت البلاد فريسة المحسوبية والاتجار بالنفوذ .

الصين الجنوبية

عندما رأت السلطة الامبراطورية نفسها مرغمة للتخلي عن القسم الشمالي من البلاد للغزاة من البرابرة ، اخـذ الشعب ينزح زرافات ووحداناً ، كما اخذت أسر تجلو بقضها وقضيضها عن الاوطان متخلية عن ارزاقها ومقتنياتها ، بعد ان سُدّت في وجهها ابواب الرزق وانقطعت امامها سبل العيش . والطبقـة الارستوقراطية التي استقر معظمها في نانكين ، اخذت تطالب، كحق من حقوقها المكتسبة الاستئثار بالوظائف ومرافق البلاد الكبرى .

وهذا القسم من البـلاد الذي تساقط عليه جيش لجب من النازحين الذين نجوا بانفسهم من الشمال ، لم يكن الصينيون استكلوا ، بعد ، تعميره واحياءه . صحيح ان إقامة العائلة المالكة في هذا الشطر من البلاد ، ساعد كثيراً عملية التصيّن وحمل الاهلين على الاخـذ باسباب المدنية الصينية وتمثل حضارتهـا ، كما ازدادت الحركة نشاطاً ، باقامة الموظفين ، واصحاب الرتب العالية في البلاط ، والادباء والمفكرين ، واصحاب المهن والحرف ، بين ظهراني الشعب ، والخلود الى الدعة والاستقرار ، بين افراده . وعملية التطبع والتخلق بالاخلاق الصينية هذه ، لم تتم بالسهولة المرجوة . فالملايين من اللاجئين الذين اقتلعتهم العاصفة وطوحت بهم نحو الجنوب، اقاموا فيه تراودهم الفكرة بالرجوع يوماً من حيث أتوا ، ويعاودهم الحنين الى الفردوس المفقود، ولن يعتم ان يعود اليهم استقرارهم المنشود . ولهذا رفضوا ان يدفعوا مـا يترتب عليهـم من رسوم ، وأبوا ان يقوموا بالتزاماتهم الوطنية . وعبثاً حاولت الحكومة اعادتهم الى الصواب وتذكيرهم بوجوب اعتماد جادة الاعتدال والرشد . وعندما ادركوا ان الوضع قد يطول أمده ، وربما امتدت سحابته اكثر من الوقت المتوقع ، قبلوا باقطاعهم بعض الأرضين في جو تلعب فيه المصالح الشخصية وتتضارب المنازع الفردية . ولم تكن سنة ٣٦٤ حتى استطاعت الدولة ان تفرض عليهم ضريبة الاملاك واستيفائها . ففي الحين الذي راح فيه اللاجئون يتجاذبون المنافع ويجرون المغانم اخـذت سفينة الدولة تغوص في بحر من الفوضى المخزية فتزول من الوجود مفسحة المجال لغيرها .

كان لا بد من الانتظار الى عام ٤١٠ ، حتى نرى رسيس الحيـاة يدب من جديد في جسم هذه الامة ، بعد ان تمكن ، اسكافي قديم اصبح فيما بعد قائداً باسم ليو ـ يو ، ان يسترجع، باسم سلالة تسن ،مقاطعة نان ـ ين من أيدي المغول مو ـ جونغ ، كما تمكن من استرجاع مملكة هيو ـ تسن في تشن ـ سي ويستولي على مدينتي تشانغ ـ نغان ولو ـ يانغ . لم تكن هـذه النجاحات

سوى برق خلّب ، اذا استطاعت قبائل هيونغ ـ نو من استرداد تشانغ ـ نغان ، كما ان ليو ـ يو توصل ، بعد ذلك بسنتين ، الى خلع آخر امبراطور من اسرة تسن ، وتأسيس السلالة الملكية الاولى من اسرة سونغ . واستطاعت هذه السلالة ان تجر أذيالها متعثرة حتى سنة ٤٧٩ ، دون ان تتمكن من القضاء على اسباب الفوضى واستئصال شأفة فساد الاخلاق في البلاط وحاشيته ، ولا ان تكون أهلاً لأن تحكم بلاداً تجتاز مرحلة من الازمات الخانقة . وخلافاً لما كان منتظراً ، فقد تعاقب على الحكم سلسلة من الملوك الفاسدين المفسدين ، او من الشباب الغر الذين تنقصهم الخبرة امتازت حياتهم بالاجرام السياسي او قتل امراء الاسرة المالكة ، او الاوصياء على العرش وعشيقات الامبراطور . وهو عهد ملطخ بالدماء المطلولة ، في غمرة من البذخ وفساد الاخلاق ، وقد فشا السكر والتهتك حتى بين اصحاب التيجان .

وقد خلف اسرة سونغ على الحكم ، سلالة تسي (٤٧٩ — ٥٠٢) فسارت على غرار سابقتها ، فكأنها من معدن واحد وطينة واحدة ، ففي جو من القتل السياسي والاجرام ، صار الامر في الدولة الى المقربين واصحاب الحظوة من الخاصة . وقد كان عهد الامبراطور لنغ ـ فو ـ تي (٥٠٢ — ٥٤٩) مرحلة قصيرة من التمهل في اتيان الموبقات والمنكرات الشائنة . فقد كانت حياته من بساطة العيش ما قارب الزهد ، ومع ذلك فقد عرف هذا الامبراطور ان يوفق بين شجاعة الجندي الباسل الاديب الذوّاقة . واعتنق ، عام ٥١٧ ، البوذية وانقطع بكليته لواجباته الدينية ، حتى انه دخل بعد ذلك بعشر سنوات طغمة الكهان ، بحيث أهمل واجباته ومسؤولياته في الحكم فانهالت على الامبراطورية الازمات واضطرب حبل الامن فيها بعد ان اشتد ساعد الجند المرتزقة ، وراح احدهم يغتصب عام ٥٢٨/٢٩ ، الملك ويستأثر به لمدة ثلاث سنوات ، ويجعل من نانكين عاصمة ملكه . وفي سنة ٥٥٦ ، صار العرش الامبراطوري في الجنوب الى سلالة جديدة تولى الامر فيها أسرة تشن التي عجزت هي الاخرى ، عن ادخال أي اصلاح في الدولة ، فلم تمهلها اسرة سواي فاحتلت نانكين ممهدة بذلك السبيل لتوحيد الصين من جديد .

الصين الشمالية

وكانت قبائل البرابرة ، في هذه الحقبة ، قد انقضّت على الصين الشمالية واقامت فيها دولاً وممالك ناصبت بعضها العداء واخذت تتناحر فيما بينها . من هذه الدويلات : هيونغ ـ نو في شانسي ، وتبغالش في منطقة تا ـ تونغ ، ومو ـ جونغ في منشوريا الجنوبية . صحيح ان اسرة هيونغ ـ نو استطاعت ان تؤلف ، في الشمال ، مملكة قوية عاصمتها تشانغ ـ نغان لم تقل مساحتها عن مساحة الدولة التي نشأت في الصين الجنوبية . غير ان ما تعرضت له من المنازعات العنيفة الدامية ، في الداخل ، بين الغزاة ، جعل من المتعذر جداً قيام سيادة مركزية ، فلم نكن لنرى الا مذابح لا حد لها ، وفساداً في الاخلاق وغير ذلك من الموبقات التي يندى لها الجبين خجلاً . وكان لا بد من الانتظار حتى منتصف القرن الرابع ، اذ نهض ضابط من اصل مغولي ، كما هو الراجح ، يستقل بالامر في مدينة تشانغ ـ نغان ،

ويؤسس فيها دولة . وقد تمكن ابنه فو – كيان (٣٥٧ – ٣٨٥) من تدويخ مملكة مو – جونغ وضمها الى املاكه وأصبح بذلك سيد الصين الشمالية ، بالرغم من تصدّي امبراطورية الصين في الجنوب له ، وقيامها لاول مرة ، بهجوم معاكس . وكذلك يشتد في هذه الحقبة ساعد امارة تبغاتش ، التركية الاصل ، اذ استطاع زعماء اسرة توبا ان يؤسسوا لهم مملكة ويحكموها من ٣٩٦ – ٣٩٨ باسم ملوك وايي *Wei* ، ثم الى سنة ٥٣٤ ، بعد ان دخل القسم الاكبر من الصين الشمالية تحت امرتهم ، بالرغم مما تعرضوا له من غزوات البدو الرحل في الفيافي المجاورة لهم ، فأنشأوا بذلك وحدة عاشت مائة وخمس سنين . ويقصّر القلم عن وصف العظمة التي بلغتها اسرة وايي في الحكم ، اذ بفضلها رسخ امر البوذية في الصين ، وتلبست باخلاق الصينيين وطباعهم . فكانت ادارتهم من اكبر العوامل في نشر أسباب الحضارة في البلاد . فالتقوى التي عُرف بها ملوك هذه الدولة ، تركت اثرها عميقاً في النقش وفن الحفر ، اذ بلغ الفن الديني ، في هذه الحقبة الذروة من الاتقان ، كما يؤكد المؤرخ غروسيه ، بحيث يمكن مقارنتها بهذه الروح التقوية التي ميزت معاصريهم من ملوك الدولة الميروفنجية ، فكان ذلك خير اداة لتأمين وحدة البلاد وصهرها في بوتقة واحدة . وهنا ايضاً نرى الديانة تتلبس عادات واعرافاً تنزى بالهمجية وان بقيت بعيدة ، مع ذلك ، عن المنكرات والفظائع التي اتاها التتري الملقب باللحية الزرقاء : شا – هو (٣٣٤ – ٣٤٩) الذي لم تمنعه غيرته على البوذية ورعايته لها ، من ان يتلمظ ، وهو الى مائدة الطعام ، بشواء لحم بعض محظياته الجميلات .

وتبقى ، مع ذلك ، قصة الامبراطورة هو (٥١٥ – ٥٢٨) خير مثال يُضرب على وحشية القوم وهمجيتهم بالرغم من اعتناقهم البوذية والعمل بفرائضها . فقد قُيض لها ان تدخل حَرَم الامبراطور ، محظية من محظياته المحببات ، سعياً من احدى عماتها وهي راهبة بوذية عُرفت بالبلاغة والفصاحة وذرابة اللسان وخرّجتها في تعاليم البوذية . فقد كانت الوحيدة من بين هؤلاء السراري التي رغبت بالمجاب صبي ، وهي رغبة تجر الوبال على صاحبتها لو تحققت، اذ ان العرف المتبع عند ملوك دولة وايي كان يحتم قتل ام ولية العهد ، تفادياً لقيام الامبراطورة الضرة بمحاولة اغتصاب العرش ، ومع ذلك ، ابت ان يجروا لها اية عملية اجهاض ، ووضعت ابناً دون ان يأمروا بقتلها ، ولم تمتم ان اصبحت بعد موت الامبراطور تشي – سونغ ، وصية على العرش ، تحكم باسم ابنها الذي لم يكن عمره يتجاوز خمس سنوات . وتميز حكمها بالحزم والشدة والعزم بعد ان تسلمت زمام امور الدولة ، واشرفت على سير الادارة الحكومية ، الى ان توفي ابنها فجأة وله من العمر ١٨ سنة . وقد حامت حولها الشبهات فراحوا يتهمونها بانها دبرت قتله بدس السم له . ولكي تخفف من غضب الشعب راحت تدعي ان ابنها ترك وريثاً للعرش اتضح فيما بعد انها ابنة . واذ زينت لها النفس الامارة بالسوء ان الامور استقرت وان ثورة الشعب هدأت ، راحت تزعم ان القضية مجرد سهو بعد ان التبس الامر على القابلة ، واقترحت ان ترفع على العرش ابن عم ابنها ، وهو صبي لم يتجاوز الثالثة بعد ، تكون وصايتها عليه امتداداً

لادارتها وحكمها . ونشبت على الاثر ثورة حمراء قام بها الشاكون المتذمرون ، يتزعمهم احـــد قواد الجيش الذي امر بمحاصرة القصر الامبراطورة ولكي تتفادى غضبة الثائرين وانتقامهم ، التجأت الى احد اديار البوذيين وقصّت شعرها ، وادعت عبثاً انها سلكت الحياة الرهبانية . فبعد ان قبض عليها حكموا عليها بالموت غرقاً ، فطرحوها في نهر هوانغ ـ هو . كل هـــذا ، وقـــد برهنت الامبراطورة هو عن غيرة شديدة على البوذية والمحافظة على طقوس العبادة . فبإيعاز منهـــا سافر سونغ – يان وصاحبه هواي – شانغ قاصدين الهند ، وحملا معهما ، لدى عودتهما ، ١٧٠ كتاباًمن كتب البوذية على مذهب الوسيلة الكبرى .

وفي سنة ٥٣٤ انشقت مملكة وايي على نفسها الى شطرين : شطر هو – تان الذي عاش ١٦ سنة ، وشطر شانسي الذي استمر سبع سنوات بعد زوال الاول . ولاسرة سواي يعود الفضل الاكبر في ضم الصين الشمالية التي رسفت طويلاً تحت حكم الغزاة الدخـــلاء ، الى امبراطورية الصين ، في الجنوب التي عانت ، الى عهدهم ، ما عانت من سوء الحكم وفساد الادارة .

استمرار العمل الحضاري في الصين

بقيت الحضارة في الصين آخذة بأسباب التطور ، بالرغم مما رنها من شوائب وعورات في الظاهر ، وبالرغم ممـــا تساقط عليها من ضربات ونزل بها من كوارث قاصمة . فقد كان لها من الحيوية والقوة والنشاط ما صانها من الانسياح ، وأمّن لها الاستمرار ، بالرغم ممـــا تحالف عليها من ويلات . فهؤلاء الملوك البرابرة أنفسهم أدركوا جيداً ضرورة المحافظة على هذه الحضارة وصيانتها من كل ما من شأنه ان يلحق بها الاذى او ينتقص من قيمتها . فامتد خيطها ولم ينقطع بالرغم مما دق واسترق وأمكن تمتينه بفضل ما أدخل على البلاد من اصلاحات جديدة منها تبني الخط الصيني ، وانشاء نظام عقاري جديد ، واقتباس البوذية .

فالخط الصيني تمتع باستقلاله بمعزل عن اللغة ، اذ هو تصور رمزي للافكار ، لا يبالي كثيراً ولا يهتم لما يطرأ على الالفاظ من تغيير يتعلق بالنطق . ولهذا كان الخط في الصين ، كما يقول فيه ولهلم ، أشبه ما يكون بجريدة حية ناطقة للأطوار المختلفة التي مرت بها المدنية الصينية تشهد على ديمومة الافكار واستمرارها بالرغم من طروء الغزاة للبلاد واقتطاعهم لبعض اجزائها . واذا كان على اسياد البلاد الجدد ان يستعملوا اللغة الدارجة فيها، كان لا بد لهم من ان يتعلموها ويستعملوها فيسهل عليهم الاخذ بأسباب الحضارة الصينية .

ولم يقل نظام الاراضي المعمول به في البلاد، فعلاً او اسماً ، أهمية في تأمين استمرار الحضارة الصينية وديمومتها . فالمشكلة كانت لعمري تختلف في شمالي الصين والسلالات الملكية التي قامت فيها ، عنها في الجنوب . فقد انصرف جل هم الحكام، في الشمال، الى تشغيل اكبر عدد ممكن من اليد العاملة في الارض اكثر منه الى تأمين استغلال الاراضي الشاسعة المترامية الاطراف ولذا راح ملوك اسرة وايي يحاولون توزيع الاراضي بالسوية ، اذ ان الاملاك الصغيرة المتروك استثمارها

للفلاحين ، تتطلب ، اذا ما تساوت مساحات ، قدراً من اليد العاملة اكبر مما تتطلبه الاملاك الكبيرة . الا انها لم تستطع ، لوحدهـا اجراء اي تخفيض في مساحة الاراضي غير المزروعة ، ، ولا ان تؤمن المدخول العالي الذي كان من المتوقع ان يؤمنه نظام السقاية ونظام التصريف الذي عملت به الحكومة في الاملاك الزراعية الواسعة . ولذا ُعمِل بالنظامين معاً في وقت واحد .

فغزوات البرابرة وسيطرتهم على شمالي الصين هـــدد البوذية بكارثة ماحقة ، اذ راح الغزاة يضيقون عليها الخناق ويضطهدونها لدرجة انهم حظروا على الشعب اعتناقها خلال القرن الرابع. وعندما استفحل شان هذه الغزوات ، اخذ الرهبان البوذيون ينزحون عن لو - يانغ ، ملتحقين بالبلاط الامبراطوري الذي إنتقل الى نانكيين ، مخلفين وراءهم الهياكل والمعابد والاديار بعد ان عاث فيها الغزاة واستباحوا باحتها ، وسلبوا ما فيها من كنوز وتحف فنية ، بحيث لم يبق منها سوى ٤٢١ معبداً من اصل ١٣٧٥ . وغيّر اباطرة اسرة وايي ، فيما بعد ، موقفهم العدائي من البوذية ، وعاملوا اتباعها ومريديها بالحسنى ، فاعتنق بعضهم مقالتها وقالوا بتعاليمها ، حتى ان احدهم وهو الامبراطور هونغ ، تنازل عن العرش ، عام ٤٧١ ليدخل احد الاديرة ويقضي مـا تبقى من حياته راهباً . ان تصرفاً من هذا النوع كان ينبع ، ولا شك ، من تقوى هؤلاء المرتدين الحديثي العهد ، كما كان يرمي ، من جهة اخرى ، الى اهداف ديبلوماسية . فالبوذية ، هـــذه الديانة التي دخلت البلاد من الخارج، والتي كانت تزرع في روع أتباعها الايمان بقدرتها على خلاص نفوسهم ، كانت تتسع لاقامة علاقات مع البلدان التي كانت ، بالقوة ان لم نقل بالفعـل ، منطقة لانتشار الحضارة الصينية فيها . ومهما يكن ، فقد بلغت البوذية في الصين ، في القرن السادس ، ما بلغته المسيحية في جرمانيا ، خلال الحقبة ذاتها .

ومن الصين الشمالية انطلقت اولى بعثات المرسلين البوذيين الذين لم يكونوا ليقتنعوا بمـا لديهم من الكتب البوذية ، بينما كان الرهبان البوذيون في الهند ، يخاطرون بانفسهم ويتجشمون المخاطر والمشقات ، في اتجاه الصين، يدعون للبوذية فيها ويعملون على انتشارها في ارجائها.وقد تكونت من هذه الرحلات ،مكتبات كاملة ومجموعات كبيرة من كتب البوذيين الدينية. فقد قام في اواخر القرن السادس، برعاية الامبراطور فو ـ نيان، دائرة للترجمة والنقل كانت تعمل بنشاط في مدينة تشانغ ـ نغان . وخير من يمثل هذه الحرية الثقافيـة هو الراهب البوذي كومارا جيفا ، الذي اشرف على هذا العمل فلا بأس اذاً ، من الوقوف قليلاً عنده ، نستجلي شخصيته البارزة ، فقد رأى النور في اسرة هندية من مقاطعة كوكا ، واخذته امه ، التي كانت ابنة ملك هذه المقاطعة بالذات ، وهو بعد في ميدان الصبا ، الى مقاطعـة كشمير ليتخرج في الآداب الهندية والبوذية على علمائها ورهبانها . وقد كان ابوه بوذياً ورعاً ، راودته الرغبة من قبل، في ان يسلك الحياة الرهبانية . وقد غادر الفتى كشمير بعد ان أتم تحصيله،وتوقف في طريق عودته الى كوكا ، في مقاطعة كشجار ، سنة واحدة ، يلازم علماء مدرستين من مدارسها كانتا قبلة انظار طـلاب العلم ورواد المعرفة ، كما كانت معاهدها موئل الثقافة وبهجة الرحالة الصينيين في ذلك العهـد .

وفي تلك الاثناء ، هاجم نائب ملك فو ـ كيان مدينة كوكا. عام ٣٨٢/٣٨٣، واخذ اسيراً معه الراهب كومارا جيفا الذي كان لمع اسمه واشتهر امره بين علماء زمانه . وهكذا كُتِبَ لهذا الراهب الذي يجري في عروقه الدم الهندي والكوتشيني ، والذي إستبحر بعلوم البوذيين ، على يد علماء كشمير ، ان يَقْدم الى الصين حيث اخذ بترجمة اهم كتب البوذية الهندية وتعاليمها ، ولا سيا الكتاب المسمى : « لوتوس الايمـان القويم أو *Lotus de la bonne foi* ، وكتاب *Sutralamkara* الذي وضعه الشاعر الهندي الاشهر اسفاغوزا بعنوان : « دليل الارض الطاهرة» وكتاب فينايا لأصحابه *Sarvastivadin* وكتاب المدرسة الناقدة أو *Madhyamika* .

ففي الوقت الذي كان فيه الراهب فا ـ بيان وصحبه يغادرون الصين في اتجاه آسيا الوسطى والهند ، كان عدد كبير من الرهبان الهنود ، يَصِلون باستمرار الى تشانغ ـ نغان او الى نانكين. فبعد قدوم فا ـ بيان بقليل، أي حوالي عام ٧٢٠، قام بوذا بهادرا يترجم الى الصينية : «اضفورة الزهر » ، وهي رسالة رمزية في وحدانية الكون ، هي بمثابة التوراة لدى القائلين بالباطنية في مقاطعة هوا ـ يّن . ففي مطلع القرن السادس ، أقام راهب هندي آخر ، اسمه بوذيذارما من نانكين عند ملوك وايي في سونغ ـ تشان . وتولى رئاسة فرقة دينية ينقطع أصحابها للتفكير والتجريد الديني والفلسفي ، هي ديانا ُعرِفت ، في الصين ، باسم تشان . وفي سنة ٥٤٨، قدم نانكين راهب هندي آخر يدعى بارامارتا وترجم فيها المجموعة الفلسفية الدينية المسماة: «الواسطة الصغرى » التي ألفها فازوباندو ، قبل ان يعتنق مقالة « الواسطة الكبرى » .

وبعد ان تم للفكر الفلسفي الصيني مثل هذه الكتب المهمة ، من قديمة وحديثة عرف الفكر الفلسفي الديني في الصين عهداً من الازدهار والتألق ، اتجه في كثير من مناحيه ليس شطر البوذية فحسب ، بل ايضاً نحو الكونفوشية والطاوية . وهكذا هيمن الفكر الهندي ، مع ان الفلسفة الصينية ، انتهت في أواخر القرن السابع ، بعد ان رفعت من سمو هـذه التعاليم ، الى تكوين فلسفة طاوية لا تقل سمواً ومثالية عن الفلسفة البوذية .

وهذه الحركة الفلسفية الجديـدة التي برزت في الصين ، اذ ذاك ، وأدت الى ازدهار البوذية بحيث جعلت منها بحق ، منافساً للطاوية يُحسب لها ألف حساب ، لم تُلحق ، مع ذلك ، أي تغيير يذكر في صميم البوذية . فقد بقيت ديانة شعبية ، عالمية . فالى جانب العمل العظيم الذي حققه القائمون على حركة الترجمة ، اخذت اولى المعابد المنحوتة في الصخر تظهر للوجود ، عام ٤١٤/٤١٥ ، ولا سيا في مقاطعة يون ـ كانغ على شاكلة المعابد البوذية المحفورة في قلب الصخور العالية في توان ـ هوانغ ، احدى مقاطعات أفغانستان (باميان وككراك) ، والى ما وراء هذه البلاد في الهند ، حيث يكثر عددها . وكان إعداد هذه الهياكل وتوضيبها ينشط او يخمد وفقاً لصروف الدهر في عهد دولة وايي ، واستمر الاهتمام بها حتى طلوع دولة تانـغ ، بينما انصرفت العناية ، في الوقت ذاته ، الى حفر معابد صخرية اخرى في لونغ ـ من ، الواقعة الى الجنوب من

لو ـ يانغ ، كما كان انشىء ، عام ٥٢٣ معبد سونغ ـ يو ـ سو ، في مقاطعة هونان .

ففي الحين الذي انقطع فيه بعض الرهبان الصينيين للتأمل والتجرد واوغلوا بعيداً في حركة التجريد الفلسفي البوذي الى ان بلغوا فيها الأوج ، وقف السواد الاكبر من الشعب عند بعض الطقوس العملية البسيطة ، الكفيلة بان تفضي بصاحبها الى الولادة من الجديد ، في السماء ، مع الآلهة ، أو اقله ، الىتأمين حياة بشرية تتوفر فيها اسباب الغبطة والسعادة. فالحياة النسكية في الاديار العادية مقصورة اساساً ، على الاخذ ببعض القواعد المهمة، كعزوف الراهب عن الزواج ، وعن اقتنائه خيرات هذا العالم لنفسه ، وان يعيش من الصدقات التي تقدم له ، وان لا يأكل الا مرة واحدة في النهار ، قبل الظهر بقليل ، وان يقوم بفروض التـأمل . وعلى مثال الطاوية انشأت البوذية في الصين ، مراسم وطقوساً غاية في الروحانيات ، مع ما فيها من تعقيد، مخصصة لتكريم الموتى . اما العبادة نفسها ، فقد بقيت على بساطتها ، اذ كانت تقوم على فعل العبادة ، وعلى تقديم النذور والتقادم ، من زهور وبخور .

وكان تأثير البوذية ظاهراً جداً على الطاوية ، في هذه الحقبة : فالعزوبية امر مفروض على التلاميذ أو الرهبان الذين يعيشون عيشاً مشتركاً ، وانتشر القول بتقميص الارواح وتناسخها بين الناس ، وقد أصبحت الآلهة كائنات سماوية ، حرية بكل احترام ، مهمتها الاولى إرشاد الناس وتأمين خلاصهم الابدي . والى جانب الديانة الشعبية يطلع من صميم الطاوية مفكرون وفلاسفة عرفوا باستقلالهم الفكري ، أشبعوا بتعاليم المدرسة الكونفوشية ، وان كانوا خرجوا عليها لما آلت اليه من تحجر في مبادئها واوضاعها العامة . من هؤلاء المفكرين ، مثلاً تاو ـ يوان ـ منغ (٣٧٢/٣٦٣ ـ ٤٢٧) اكبر شاعر عرفه الشعر الغنائي ، قبل تانغ . والشيء المميز لدى هؤلاء المفكرين ، هذه الحرية الفكرية التي كثيراً ما أفضت بهم الى مواقف مستقلة ،غيرت اساساً من مجرى حياتهم الوظائفية أو المسلكية. وفي عهدهم اخذت تظهر بوادر هذا الشعر الوجداني الذي بلغ الاوج في عهد اسرة تانغ ، هذا الشعر الذي غنى جمال الطبيعة ، وبرزت فيه رهافة الحس الصيني على أتمها .

الحياة الاجتماعية

ألحق دخول البرابرة الى الصين الشمالية الفوضى فيها والقلق بين الشعب . فبعد ان نزحت طبقة النبلاء باجمعها ونجت بنفسها نحو الامبراطورية الصينية في الجنوب ، راحت تعيد تنظيمها وتستولي على املاك شاسعة ، وتحيي الامتيازات التي كانت تنعم بها ، وبمختصر القول ، العمل على تنظيم الامبراطورية . اما في الشمال ، فقد وجد اسياد البلاد الجدد أنفسهم ، في بلد يحول فقره بالموارد البشرية ، دون تنظيمه على الوجه الذي يرغبون . ولذا راحوا يستعينون على نطاق واسع ، بهذا الفريق من الادباء المفكرين الذي بقي قائماً في المقاطعات الشمالية في الريف ، واتخذوا من بينهم ، الموظفين الذين يقتضي حسن سير الادارة وجودهم ، وقسموهم الى تسع طبقات ، على نسق مسلسل في علاقاتها ، تتألف منها الطبقة الارستقراطية في البلاد، تتميز فيما بينها بالقاب خاصة كالباب القديم ــ والباب الجديد ــ والباب

الشريف ، وغير ذلك من الكنى والالقاب . وهذه الارستقراطية الجديدة لم تكن لترضى قط بالزواج بغير الفريق الآخر او بمصاهرة من هو ادنى نسباً، ولا سيما مع الغزاة الدخلاء بعد استفحال الشعور بكره الاجنبي وكل ما هو اجنبي ، واحتدام الروح العرقية في هذه الديانات الواقعة تحت حكم وسيطرة سلطان دخيل . ومثل هذا الوضع لم يحل قط دون بعض التدابير والاجراءات العمالية كما أدى بالتالي ، الى امتصاص المجتمع الصيني لهذه العناصر الدخيلة على البلاد . وهكذا تكونت في البلاد أسر وعائلات كبيرة ، ذات املاك وعقارات واسعة ، يعيش رؤساؤهـا في المدينة ، ويتدخلون بحسب الوظائف التي يقومون بها ، في امور الحكومة وشؤون الدولة ، وهكذا انتقلت السلطة شيئاً فشيئاً من الحكومة المركزية ، الى الارستقراطية صاحبة الاراضي الواسعة . وهذه الطبقات الاجتماعية متميزة ، تكاد تكون مغلقة على نفسها ، وتقسم الى النبلاء والبورجوازية والشعب . فالوظائف والمراكز الكبرى هي وقف على النبلاء ، اما ابن الشعب الذي يستحيل عليه ، الوصول الى اي منها ، فيترتب عليه ان يقنع بالدون منهـا . فالفوارق الطبقية عظيمة جداً بين دولة واي ، حيث الترابط المسلسل يتحجر ويقسو ، وبين المجتمع الصيني في عهد دولة تسن والهان ، حيث كان في مقدور شذاذ الآفاق ان يثروا ويرتفعوا اجتماعياً ، حتى يبلغوا العرش . وهذا التراكب الطبقي الاجتماعي تضاعف بشيء من الوحدة السياسية ، ازالت معها هذه الامارات والدويلات الصغيرة ، الواحدة تلو الاخرى . وكانت الامبراطورية الصينية في الجنوب لا تزال تعاني اعراض التفسخ الخلقي . وكان لا بد من انتظـار مجيء دولة سواي للقضاء على هذا التفسخ الاخلاقي ، ولاعادة الوحدة الى الصين برمتها .

ولعل اهم اثر تركه لنا المجتمع الصيني في هذه الحقبة ، هي هذه التماثيل او الدمى الجنائزية التي عثر عليهـا دون ان تمكننا الحفريات الاركيولوجية التي اجريت في هذا المجال ، من نسبة بعض منها الى الجنوب ، او ان نردها كلها الى الشمال . ومهما يكن من أثرها ، فهي تتيح لنا ان نتبين السمات التي طبعت بعض الشخصيات التاريخية في هـذا العهد ، معظمهم من النبلاء كما يرجحون ، من فرسان بين نساء ورجال ، ولا عجب ، اذ ان اسياد البلاد الجدد هم اصلاً من هؤلاء الفوارس البدو الرحل ، الظاعنين في الفيافي الرملية . ويستدل من هذه الدمى ما كانت عليه هامة الحصان من صغر وانحناء في العنق ، وارتفاع في المؤخرة ، بينما يرتدي الفارس منهم رداء فضفاضاً له قبعة ، واحياناً قبعة من اللباد ، بينما نرى منهم من يلبس رداء صيلياً ، ومشداً عند خصره . اما الفرسان النساء فيرتدين فساطين طويلة ضيقة تصل اردان اكمامها المتدلية ، الى الارض ، بينما نرى بعض النساء يلبسن فساطين فصلت على قدودهن ، لها "ذنب" طويل جداً ، بحيث تضطر الواحدة للم اطرافه وحملهـا على ساعدها ، اما شعرها فمرفوع ، تغطيه قبعة مفلطحة تنزل الى الاذنين ، لها طرطور ، ينتهي طرفه بعقفة ، وهو زي يشبه الزي الذي عرفت به المرأة المغولية .

واذا صح تاريخ نسخة الرق المنسوب الى كو ـ كاي ـ تشي (٣٤٤ ـ ٤٠٦) صح لنا ان

نستنتج بان ما درجت النساء على لبسه في الجنوب ، كان اخف وانعم ويحمل سحائب متاية . فامــام تصلب ملوك وايي في الشمال ، تطالعنا في بلاط اسرة تسن رهافة النوق والظرف . فالرسوم الجدارية القائمة في مغارة بن – يانغ ، في مقاطعة لنغ – من (حوالي عام ٥٣٥) حيث نرى صفوفاً من ملوك دولة وايي ، تبرز لنا مــا هم عليه من لبس وثير وظرف كيِّس صيني الطابع ، له اردية طويــلة الارداف ، متدلية الاكمام ، وعمة مختلفة الاشكال والاذواق . وفي الطرف الاقصى من الصين، نرى في كوريا مقدمات النذور ، نساء تنانيرهن مطمجة ، مكسرة ، وفساطين مزينة بالفرو . والفرسان يمتطون صهوة جياد غنية السروج ، ويلبسون قبعة محلاة بالريش ، سلاحهم القوس والنشاب وكنانة من الزي المغولي .

٤ ـ آسيا العليا وانتشار الهونز

يُفْهَم من المصطلح الجغرافي : آسيا العليا ، هــذه المناطق الشاسعة التي تشمل منغوليا والتركستان الصيني والتيبت وتفرعاتها السياسية والعرقية واللغوية ، مما يُلامس الهند او يشارف ايران : كمقاطعات كابيتسا وغندهارا ، وبكتريا ، وأركوسيا ، وبلاد الصُغْد حتى مشارف نهر الأوكسوس ، اذا ما اقتصرنا على الأسماء القديمة . ففي هذه الفيافي الشاسعة رأينا ، منــذ القرن الرابع، بين الشعوب والقبائل والاقوام التي تمور فيها، حركة عارمة لشعوب تروح وتغدو، وقبائل تتحرك ، وأقوام تغلي بالنشاط المحموم ، وقوافل تروح وتجيء في هذه المسالك التي كان يسير عليها تجار الحرير والسلع الشرقية ، وسرايا الرهبان وكهنة البوذيين، يقطعون هذه الصحارى ناشرين البوذية داعين الناس لاعتناقها ، وجيوشاً جرارة تسير ، هذه مظفَّرة منتصرة ، وتلك جارة وراءها أذيال اليأس والفشل. وتطالعك ، الفينة بعد الاخرى ، في هذه الصحارى المحرقة ، جزء من الاراضي الصالحة للحرث والزراعة ، هي واحات تُطلع من الزرع والضرْع ، ما فيها صلاح الهابطين فيها ، او القائمين عليها ، كواحات تاريم مثلاً ، تليها قفار لا حد لها ولا قرار يرتد عنها الطرف وهو كليــل ، تسمّر الخوف وتزرع الرعب في قلب من يشرف عليها ، فكيف بمن يجازف بالمرور فيها .

ففي هذه الحقبة التي نحن بصددها ، نرى موجات من البدو الرحل تــدق أبواب المناطق الزراعية بشكل مقلق لم تأنس مثله من قبل ، طمعاً منها بما بلغته هــذه المناطق من تطور في أساليب استثمارها ، او شهوة منها بما ينعم به سكانها من خيرات وافرة ، بعد ان نفرت نفوسها من خشونة الصحراء وجفوة الطبيعة ، امام ما تقع عليه العين من غنى وثراء بين اهل الحضر ، في وقت غصت فيه البادية بالفائض من سكانها وأهلها ، فاندفعوا كالشهاب الساطع ، يقتطعون منها ما رغبوا في اصطفائه من خيراتهــا ، ويستبيحون ما طمعوا به من فيء ورقاء . ومعظم هؤلاء الاقوام الذين يسرحون ويمرحون في هذه الفيافي هم من الترك والمغل ، لم يتجاوزوا ، في تطورهم ،

نطاق حياة الظعن ، بالرغم مما عُرف عنهم من ذكاء وتوازن في القوى العقلية ، وما جبلوا عليه من روح عملية ، بينما اهل الحضر من سكان المدن والريف ، الذين يسيطرون على مساحات واسعة من الاملاك والارضين ، وسجلوا تطوراً لا بأس منه في زراعتهم ، قد استسلموا للدعة والسكينة ، واسترخت منهم الاخلاق .

وتقوم هذه الشعوب ، في القرن الرابع بدفع وضغط لا يقاوم اخذت معه تغلي كالقدر . ولاول مرة منذ عهد بعيد ، توصل البدو الى تأسيس ممالك لهم مستقلة ، أولاها مملكة جوان – جوان التي انشأتها قبائل الآفار بين ٤٠٧ – ٥٥٣ ، كما ان قبائل من المغول تشدهم الى الآفار وشائج الدم والقربى ، تأخذ بمهاجمة اوروبا ويتمكن شارلمان من كبح جماحهم فيما بعد ، وبسط سيطرته عليهم . وتكاد لا تقل بأساً عن هذه المملكة ، مملكة اخرى ، اسسها اقوام الهوتز الهفتاليين ، فانقضت جحافلهم ، في مطلع القرن السادس (عام ٥٠٠) على الافغانستان والهند مخلفة وراءها الخراب والدمار ثم تطالعنا مملكة اخرى هي مملكة تو - كيو ، اسسها أقوام من الترك اخلوا الساحة ، فيما بعد ، في منطقة طُرفان ، لقبائل الويغور *Uigurs* في أخريات القرن السادس .

ومع اختلاف عروق هذه الاقوام ، فقد جمعتهم خصائص مشتركة ، بعد ان صهرتهم ظروف البيئة القاسية ، وطبعتهم بميسمها وتضرسوا بخشونتها . فلم يكونوا ، والحق يقال ، من البدو الخُلَّص ، اذ كان ملوكهم يقطنون في المدن .

« وكانوا يظعنون وفقاً لمقتضيات الماء والكلأ ، يبنون لهم مساكن من اللباد ، يقصدون صيفاً المناطق الباردة بينما يمطون شتاء المواقع المعتدلة . فالزوجة الواحدة هي مشتركة بين عدة اخوة ، يفصلون نساءهم في اماكن منزوية ، يتراوح بعدها عن مضارب القبيلة من ٢٠٠ الى ٣٠٠ لي (قياس للمسافات عند الصينيين قديماً يوازي طوله ٥٧٦ متراً) . ويقوم الملك او رئيس القوم عندهم باسفار ورحلات متنقلاً ، ويغير مقره شهراً بعد شهر . يقبع في مقره خلال فصل الشتاء مدة ثلاثة اشهر . عرفوا بالعنف والشجاعة والاقدام . » (مأخوذ من *Pei Che* فصل ٩٧) .

وعندما يسافر الملك أو ينتقل :

« يصطحب معه خيمة مربعة من اللباد ، طول كل ضلع من اضلاعها ٤٠ قدماً ، جدرانها من السجاد والطنافس الجميلة . ويرتدي ثياباً من الديباج والحرير الموشى ، ويتربع فوق سرير من الذهب يقوم على اربع قوائم من الذهب بشكل عنقاء . وترتدي زوجته الاولى الحرير المزركش ، تجر وراءها ذيلاً لا يقل طوله عن ٨ اقدام تتدلى منه اللآلىء والحجارة الكريمة بالوان مختلفة . فاذا ما خرجت الملكة خرجت في هودج تحمله عربة . اما في المنزل ، فهي تتكىء على سرير من الذهب بشكل فيل ابيض ، له ستة انياب ، واربعة اسود » (من رحلة سونغ - يون بعنوان : « الهونز الهيتاليون - ترجمة شافان)

ويشرف هؤلاء الاقوام الرُحَّل على كثير من المدن والارياف يسيل لعاب البدو لرؤيتها لما فيها من رفاه وخيرات فتحدثهم نفوسهم بالاستيلاء عليها . وكانت مملكة ختوتان منهـا ، على الاخص ، مثالاً للشهوة ، لما كانت عليه من ثراء وغنى .

فالملك يعتمر قبعة يعلوها عرف كعرف الديك ، ويتدلى على رقبته من الوراء منديل من الحرير الخام طوله قدمان وعرضه ٨ قراريط . فاذا ما حضر حفلات رسمية ، قرعت الطبول ، ونفخت الابواق ودقت الصنوج ، في جو يعبق برأى القوس والنشاب ، وحربتين وخمسة رماح ، ويحيط بالملك ، حرسه الذي لا يقل عن المائة بخناجرهم . وتلبس النساء نوعاً من السراويل ، وسترة مشدودة الى الخصر بزنار ويركبن الخيل كالرجال (المصدر ذاته) .

وعلى مثل هذا الوضع من الازدهار المثير ، تبدو مقاطعة غندهارا .

سهول خصبة فيحاء تتوسطها مدينة شاباس غارهي بما حولها من أرياض غناء ، عامرة بالسكان الناعمين بما هم عليه من دعة وازدهار ، والبلاد كثيرة الاحراج دافقة المياه ، والتربة خصبة تعطي بسخاء (المصدر ذاته) .

وكان هؤلاء البدو الرحل يصطدمون في تنقلاتهم اما بممالك قائمة ، منظمة او يعترض سيرهم وتقدمهم حواجز طبيعية ، يحول دون وصولهم الى الصين ، سورها المنيع ، كما ان افغانستان كانت بدورها تتحكم بالمعابر والمجازات التي تفضي الى غندهارا والهند ، ويقع جزء منها تحت سيطرة ايران الساسانية ، بينما تقوم في المناطق الاخرى جبال همالايا الصعبة المرتقى ، حائلاً دون الوصول الى التيبت .

اما اواسط آسيا ، فسكانها من الهند الاوروبيين ، يتكلمون الطوخارية ، وهي لغة بينها وبين الارمنية والسلافية ، والايطالية والكلتية ، اكثر من آصرة ورابطة ، او يستعملون في تخاطبهم الايرانية الشرقية ومعظمهم شقر ، ولهم عيون زرقاء وهم على البوذية . وقد تأثر بعضهم بالحضارة الهلينية كما يستدل من آثارهم الغنية ، ولا سيما من قام منهم في غندهارا والبكتريا ، بينما اخذ البعض الآخر ولا سيما من سكن منهم الواحات الشرقية ، باسباب الحضارة الصينية ، وتطبعوا بها ، فتبلغهم متأخرة جداً ، المؤثرات الايرانية ، كما يستوحون احياناً ، مبادىء الجمالية البيزنطية . فالافغانستان جزء لا يتجزأ من هذه المجموعة التي تؤلف كلاً جغرافياً وحضارياً . وتصدر هذه المناطق القريبة التجانس ، عن طراز جديد مشترك فيما بينها ، ذي طابع ايراني بوذي ، يتزيّى بعنصر حضاري مشترك هو حصيلة هذا الاتصال الواقع بين ايران الساسانية والعالم البوذي . وهذا المزيج الذي تتمثل معالمه ، بين القرنين الثالث والرابع في باميان وككراك ، ثم في طرفان وقزل وكوكا (في القرن السادس والسابع) وصل الصين عن طريق اسرة وايبي التي احتل ملوكها ، عام ٤٣٩ ، توان – هوانغ ، وهي موقع حربي وسوق تجارية تقع عند تخوم الصين الغربية ، عند مشارف صحراء غوبي ، في نقطة تتجه اليها وتلتقي عندها ، هذه المؤثرات التي تسلك طريق تجارة الحرير .

فلا عجب ، والحالة هذه ، ألاّ يقوى هؤلاء الاقوام الرحل الذين يحومون في هذه الفيافي ، على مقاومة الرغبة الشديدة التي تراودهم على احتلال هذه الاراضي الزراعية الخصبة ، ويتحرقون لاغتصابها من اصحابها ، والاستئثار بما فيها من مراكز حضارية جذابة ، مغرية ، وما اليها : من معابد وهياكل ، ومدارس وأديار ، قائمة بجوار القصور الملكية ، ومن اسواق تغص بالبضائع

والسلع والمواد الغذائية . فأخذوا يرنون باشتهاء وعُجْب ، الى هذه المدهشات المغرية التي عرف اهل الحضر ان يطلعوا بها ، بعد ان يقابلوها بما هم عليه من قسوة الحظ وقسمته الضئزى ، أبداً في طلب الكلأ والماء ، وقد ضمرت اجسامهم ، وخوت بطونهم ، لما أصابهم من حرمان ، وقاسوا من جدب الارض وجفوة الاقليم ، وعضة الطبيعة . ففي القرن الثالث ، نرى قبائل الهونز تتحامل بصفوف مكتظة ، على سور الصين ، تربطهم الى ملوك الصين روابط أشبه ما تكون بتلك الروابط التي شدّت ، في الغرب ، القبائل الجرمانية الى الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع . وكثيراً ما كان زعماء الهونز يختلفون الى عاصمة الامبراطورية الصينية ويترددون عليها ، متكسبين من هذه الاتصالات . وكثيراً ما استعملتهم في الفرق المرتزقة من جيشها واتخذت منهم عوناً لها عندما اصيبت دولة الهان بالعجز والوهن . وهكذا أتيح للعديد من هؤلاء البدو الرحل الخفيفين ، ان يجتازوا ، بأعداد متزايدة ، السور الكبير ، وان يعيشوا داخل الصين . وعندما انطلقت شعلة الحروب الاهلية ، اثر انهيار دولة الهان ، راح الهونز يثبتون وجودهم وقد شجعتهم الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد ، فوضع المقيمون منهم في الداخل ، أيديهم على الاراضي التي كانت بتصرفهم ، تحت ستار شفاف من الشرعية ، ملوحين بأقدميتهم الصينية . اما من كان منهم في الخارج ، فقد توافدوا عملاً بسنة التضامن مع ابناء عمومتهم . وهكذا ، بفضل هذا الدفع المشترك ، اضطر ملوك تسن ان يتخلوا لهم عن شمالي الصين . وقد مر معنا كيف ان هذه الممالك التركية ــ المغولية ، العديدة ، التي تكونت ، اذ ذاك ، لم تلبث ان ذابت في قلب مملكة واسعة اقامها الهونز ، زالت بدورها ، هي الاخرى ، عام ٣٤٩ ، وراحت فريسة ممالك ودول أنشأها البرابرة فيما بعد ، انهارت بدورها هي ايضاً ، وزالت من الوجود ، عندما استطاع أتراك تبغاتش او توبا انشاء امبراطورية وايي ، عام ٣٩٦/٣٩٨ .

وفي الوقت ذاته ، قامت ، قبائل اخرى من الهونز — يُعرفون بالهونز الهفتاليين ، أي الهونز البيض ، كما يسميهم المؤرخون البيزنطيون ، وهبطت من اعالي جبال ألتاي ، واستقربهم المطاف في التركستان الروسي ، ثم إتجهوا نحو الصغديان (سمرقند) والبكتريا التي بلغوها في عهد الملك الساساني بهران غور (٤٢٠ — ٤٣٨) . وبعد ان انتصروا على خليفته الثاني : فيروز (٤٥٩ — ٤٨٤) استقروا في مدينة مرو وهراة . الا ان ايران الساسانية كانت منيعة وعرفت ان تدافع عن ممتلكاتها . ولذا تحول الهونز ، بقضهم وقضيضهم ، باتجاه افغانستان ، بعد ان دفعوا امامهم ، باتجاه غندهارا ، الهندو — الفيز الذين كانوا يسيطرون على تلك المنطقة . ومن ثم ، راحوا يهاجمون الهند ، ويحاولون بسط سيطرتهم عليها ، في سلسلة من المعارك والحروب الدامية انهكت دولة الغوبتا . وامعن الهونز في همجيتهم : فساموا سكان هذه المنطقة الذين اخذوا ، منذ عهد بعيد ، باسباب الحضارة الهلينية واعتنقوا البوذية ، الواناً من العذاب واصنافاً من الآلام ، وأذاقوهم الذل والهوان ، بعد ان قاموا بمذابح هائلة بين السكان ، واضطهدوا بعنف ، الجماعات البوذية وهدموا اديارهم ، وقضوا على ما عندهم من روائع الفن الجميلة ، ودكوا

معالم الحضارة اليونانية ـ البوذية ، كما يؤكد المؤرخ غروسيه . وعندما بدت ترتسم امارات الضعف على دولة الغوبتا ، هاجمهـــا الهونز بعنف شديد ، فتوالت غزواتهم الماحقة بقيادة طوراماتا وميهيراكولا ، فزرعت الخراب والدمار وارزحت الهند لمدة قرن . واستهدفت الديانة البوذية للاضطهاد الشديد ، فهدمت الاديار ، واستبيحت المحرمات ، وقضي على روائع الفن ، فاتلفوا كل ما وصلت اليه ايديهم ، وبفضل ما الحقوا بالبلاد من خراب ودمار ، نرى انفسنا عاجزين عن درس معالم فن الغوبتا ، الا من خلال بعض النماذج النادرة التي وصلت الينا . وخلافاً لابناء عمومتهم الذين استقروا في شمالي الصين واعرقوا فيها ورسخوا ، نرى برابرة الهونز ، في الهند ، يزولون تماماً من أرجائها ، منذ اواسط القرن السابع ، اما لاستئصال شأفتهم ، او لذوبانهم بين سكان البنجاب وغوجارات ، حيث لم يلبث زعمـــاؤهم ونبلاؤهم ان انصهروا في بوتقة الارستوقراطية الهندية .

وكالاخطبوط يرسل مجساته في كل اتجاه ، هكذا ارسلت قبائل البدو الرحــل في اواسط آسيا ، سرايا جحافلها في كل مهب ، مضيقة الخناق على العالم البوذي ، دافعة امامهـــا كل من صدمته من شعوب واقوام ، تدك منهم الممالك والامبراطوريات . فقد واجهتهم ايران بدرع منيع من قوة جيشها وبأسه ، تحول معه الهونز في شمالي بحر ارال ، نحو اوروبا ووطئوا بسنابك خيلهم ورجلهم الامبراطورية الرومانية (٣٧٦) . فالوصف الذي ترك لنا عنهم المؤرخ اميان جاء يؤيد الى حد بعيد ، ما ذكره عنهم المؤرخون الصينيون :

بز الهونز همجية ، كل ما يمكن ان يتصوره العقل او يخطر على بال انسان . فقد جهلوا الزراعة ولم يفقهوا يوماً معنى المنزل او بيت او كوخ . فهم ابداً في دوران ، ألفوا منـــذ الصغر ، زمهرير البرد شتاء وحمارة القيظ صيفاً ، وانطوت بطونهم على الجوع ومـــا بالوا يوماً بظمأ . تجري قطعانهم من الماشية حثيثاً في اثرهم ، ويجرون وراءهم عيالهم واولادهم بعد ان يكردسوهم في عربات تسير متثاقلة . يلبسون صيفاً شتاء ، اردية من الكتان ، ومعاطف من جلود الجرذان خيطت بعضاً الى بعض ، وقد اعتمروا خوذاً من الجلد ولفوا افخاذهم الكثيفة الشعر بسيور من الجلد الخشن ، وانتعلوا في ارجلهم احذية لا شكل لها ولا قوام ، ولا تساعدهم على السير على الاقدام . ولهـــذا لم يصلحوا قط لحرب المشاة ، بينما اذا ما صاروا على صهوة جيادهم ، خلتهم قطعة من الجواد الذي يركبون ، والهونز من هذا الجيل الصبور الجليد الذي ينطلق فارسه كالنسيم العاصف او كالشهاب الخاطف . ليس من يضاهيهم برمي القسي والنبال ، عن بعد فهي لا تخطىء .

والفارس منهم مجهز بقوس ُشدّ وَتره ، وله نظر حديـــد يقدح شرراً من عين غارقة في محجرها الضيق ، وأنف مفلطح ووجنتان بارزتان . هو من هؤلاء البرابرة بالذات الذين سيطلون علينا بعد ذلك بالف سنة ، اي في القرن الثالث عشر ، عندما تندفع الموجة المغولية ثانية ، بعد ان تبلغ قوتها الذروة .

وبعد ان سيطر الهونز على منطقة السهول المترامية ، بين جبال الاورال وجبال الكربات ، أفضوا الى سهول فلاخيا ، ومنها دخلوا هنغاريا . واجتاز احد زعمائهم أتيلا ، نهر الدانوب ، عام ٤٤١ ، واتجه بعد ذلك بعشر سنوات ، بقضّه وقضيضه ، نحو غاليا ، فبلـــغ الرين ، واضرم

الحرائق في مدينة ميلز ، يوم ٧ نيسان (ابريل) ٤٥١ ، وجاء يهاجم مدينة اورليان ويضرب الحصار حولها؛ ولم يلبث انتراجع القهقري الىمدينة تروىحيث ابتُلِيَ بابشع هزيمة، ومنها عاد ادراجه الى الدانوب وها هو ينقض من جديد على ايطاليا، عام ٤٥٢، وعاد منها ليموت ويقضي نحبه في مقاطعة بانونيا بعد ذلك بسنة. وهذا الغازي المرعب الذي لقبوه بحق «سوط الله المصْلَت» هو الانسان النموذجي للهونز . قصير القامة ، عريض المنكبين ، ضخم الرأس ، غارق العينين ، أفطس الانف ، كالح الوجه ، امرد او يكاد ، سريع الاستشاطة والغضب ، ومع ذلك فقد كان يؤثر السياسة والديبلوماسية ، وان شئت فقل الحيلة والمكر ، على عنف الحرب ؛ عُرِف عنه تكالبه على زرع الخراب والدمار، وان حدّث الناس عن روح النَّصَفة عنده قاضياً بين اهله وذويه، مستسلم بكليته للخرافات . وعلى مثال الهونز في الصين الذين كانوا يتخذون مهذبين لهم من العلماء والادباء، تراه يحيط نفسه برهط محترم من ادباء اليونان والرومان والجرمان. فهو صورة مسبقة ، ونذير بطلوع الغازي الفـــاتح المغولي الاشهر جنكيز خان . وكما زال كل اسم وذكر للهونز الهفتاليين في الهند ، فقد تفتت جماهير الهونز التي استاقها اتيلا ، إثر ما نابها من تشعث وشتات في اعقاب موت رئيسها وقائدها . فانكفأت نحـــو سهول روسيا ومقاطعتي دبرودجا وميزيا . ونالت منهم بيزنطية ، عام ٤٦٨ ، عند مجرى الدانوب الاسفل ، ونالت منهم ثانية ، عام ٥٥٩ ، وفتت مشاحناتهم الداخلية والحروب الاهليـة التي نشبت بينهم ، من عضدهم فتقلص ظلهم ، وانكمش امرهم ، عندما اطلت موجة جديـــدة كاسحة من هؤلاء البرابرة ، هي غزوة الآفار الذين انقضوا على الامبراطورية البيزنطية ، يوم كان يوستنيانوس يلفظ انفاسه الاخيرة (٥٦٥) واتجهوا الى اوروبا واسسوا لهم ملكاً امتد من الفولغا الى مشارف النمسا ، ولم يلبثوا ان دخلوا من جديد ، في عراك مميت مع القسطنطينية ، في القرن السابع .

وقد اسس « البدو » الرحل في القرن السادس ، امبراطورية اخرى ، في منغوليا والصحاري المجاورة ، كان الامر فيها لاسرة تو – كيو ، فتحالف ملوكها مع بيزنطية ضد ايران ، واعتنقوا المزدقية ، كما يرجح العارفون ، استناداً لما ذكره ثيو فيلكتس سيموكاتا .

يرسلون شعورهم لتتدلى على اكتافهم ويسكنون مضارب من اللباد ، ويتنقلون بين مقاطعة واخرى طلباً للماء والكلأ . ينصرفون لتربية الماشية والصيد . سلاحهم السهم والقوس الصافرة والدرع ، والرمح والخنجر والسيف . ويتمنطقون بمنطقة على حقويهم ، فخرهم الاكبر ان يموتوا في ساحة الوغى، والعار الاكبر عندهم، ان يموتوا مرضى ، على أسرتهم (من مؤلف قديم ، عام ٥٨١) .

ولم يحسن ملوك هذه الاسرة سياستهم ، فانقسمت دولتهم قسمين متنافسين ، لم يلبثا ان ضعف شأنهما ، فزالا من الوجود امام سيطرة اسرة سواي ، ثم اسرة تانغ ، وعفا كل اثر لهما .

فبالرغم من الفوارق التي باعدت بين هذه القبائل البدوية ، وبالرغم مما قام بينهـا من حروب اهلية داخلية اقامتها بعضاً على البعض الآخر ، لقد شدها معاً : وشائج مشتركة ، وتقاليـــد واعراف متقاربة ، أمنت لها شيئاً من التجانس . فقد غلبت على هذه القبائل الأمّية ، وجهلوا القراءة والكتابة ، ونهجوا جميعاً نهجاً سوياً من حياة البـــداوة ، يقضون معظم اوقاتهم على

صهوة جيادهم ، كما يصف لنا اخبارهم كتاب القدامى ، يعيشون بين قطعانهم ومواشيهم ، ويستظلون مضارب من اللباد . طباعهم خشنة فظة وهم متوقدو الذهن والفهم ، يحيطون انفسهم برهط من الادباء ورجال الفكر والقلم ، مع ما كانوا عليه من سرعة الغضب ، وما عُرف عنهم من همجية ووحشية تزرع الارض خراباً ودماراً ، فكانوا خير سلف لهؤلاء المغول الذين طلعوا في القرن الثالث عشر واسسوا امبراطورية من اوسع ما عرف التاريخ من امثالها . وتدل آثارهم والمعالم التي تركوها وخلفوها على فن متجانس يعرف بفن الصحراء ، وهو فن قوامه تصوير الحيوان ، نجهل الكثير للآن من مقوماته ومفارقاته ، لعدم وجود حفريات اثرية منتظمة . ومع ذلك ، بالامكان الآن تمييز بعض مدارس خاصة في فن الصحراء تحمل في ثناياها الكثير من المؤثرات الايرانية والصينية ، حسبما تكون قامت وازدهرت على مقربة من الصين او من ايران . فاينما وقعت العين رأت رسوماً لحيوانات مختلفة : هنا أيّل جاثم ، وهناك عراك عنيف بين حيوانات حقيقية او وهمية ، فن تكاثر فيه ملامح الصيد والحياة بصحبة السائمة تظعن طلباً للماء والمرعى ، لا يخلو من اثر ظاهر على فنون اهل الحضر المقيمين على مقربة من البادية ، تبدو معالمه أكثر فأكثر كلما اتسعت اعمال النبش والحفريات الاثرية .

٥ ـ الصين في عهد دولة سواي

عرفت الصين عهداً من الاضطراب والقلق ، إثر انقسام دولة وابي على نفسها الى شطرين متميزين : هما دولة باي ـ تسي (عام ٥٥٠) ، ودولة باي ـ تشابو (٥٥٧) ، عُرفت الاولى بتمسكها الشديد بالبوذية كما قالت الثانية بالكونفوشية . واوشك هذا الوضع ان يلحق الاذى الكثير بالبوذية . فقد عرفت الدولة الاولى ، طوال عهدها الذي استمر ٢٧ سنة ، ازدهاراً غريباً للفن البوذي ، الذي اخذ ينأى ويبتعد ، اكثر فأكثر في تلك المملكة ، عن الفن الجاف الذي ساد عهد دولة وابي ، واتجه نحو حركة تجددية ناشطة ، ممهداً بذلك الطريق لظهور المدرسة الفنية التي طلعت في عهد اسرة تانغ . وقد تميزت هذه الحقبة بالاضطهاد العنيف الذي شنه ملوك دولة باي ـ تشابو ضد البوذية واتباعها في المملكة . وعندما تم لهم ، عام ٥٧٧ ، الاستيلاء على دولة باي ـ تسي ، امتدت حركة الاضطهاد التي اطلقوها بحيث عمت الصين الشمالية . ولم يدم هذا الوضع الشاذ طويلاً ، اذ استبد بالامر احد سَدَنة القصر هو يانغ ـ كيان ، بعد ان استولى على الحكم عام ٥٨١ ، واسس دولة جديدة هي دولة ملوك سواي . وبعد ان ملك سبع سنوات ، على الصين الشمالية وحدها ، تمكن من فتح نانكين ، عام ٥٨٩ والاستيلاء على امبراطوريتها وبذلك تم له توحيد الصين بعد ان بقيت مجزأة نحواً من مائة وسبعين سنة .

وقد عُرِف الامبراطور يانغ ـ كيان شخصياً ، برعايته للبوذية وبتعلقه بالطاوية ، بينما تنكّر للكونفوشية وراح يناصبها العداء . ففي الوقت الذي راح فيه يرمم هيا كل البوذيين ومعابدهم ،

ويشارك في الحج الى مقدسات الديانة الطاوية ، تقيةً منه وتقرباً ، أصدر أوامره باقفال عدد كبير من المدارس الكونفوشية . خلفه على العرش ابنه يانغ – تي (٦٠٥ – ٦١٨) الذي انتهج له نهجاً جديداً اقل تمسكاً من ابيه بامور الدين . فصرف جهداً كبيراً في تجميل العاصمة لو – يانغ بعد ان آثرها على سن – غان – فو ، واتخذها دار سكنى له ، وفتح ترعة مائية ، بين يانغ – تشايو ويو – يانغ ، واستسلم للملذات يقضي أيامه بين الكأس والطاس . واضطرته النفقات البالغة التي اقتضتها هذه الانشاءات ان يفرض رسوماً وضرائب باهظة على رعاياه ، فأرزحها ، ونشب من جراء ذلك ثورة لاهبة أدّت الى قتله . وبموته انتهت دولة سواي التي استمر حكمها تسعاً وعشرين سنة .

وبالرغم منقصر مدى هذه الاسرة في الحكم ،فقد كانتأثيرها بالغاً في سير الحضارة وتطورها في الصين . وكان من جراء تحقيق وحدة الصين ، ان نشطت حركة فكرية عارمة : أدت الى محاولة توحيد بين الاديان الكبرى الثلاث في الصين ، الا وهي البوذية والطاوية والكونفوشية . والرهبان الهنود الذين غادروا الصين على اثر موجة الاضطهادات التي هبّت عليها ، استأنفوا العمل بتقليد قديم من الرحلة الى الصين : فالراهبان نارانادرياساس وجيناغوبتا اللذان فرا بنفسيهما ، عام ٥٧٤ ، عادا الى الصين في عهد دولة سواي . كذلك قام الراهب بوذيسري يكرز ويبشر في هو – نان واستطاع حمل الراهب الطاوي تان – لوان ، الذي توفي حوالي عام ٦٠٠ ، على اعتناق البوذية الصوفية التي عُرفت في اليابان ، باسم *Amidisme*. وقد بذلت الجهود السخية ، من جهة اخرى ، لربط ما انقطع ، وازالة الضعف الذي أوهن العلاقات بين البلدين المتجاورين خلال القرنين الماضيين، عرفت خلالها البلاد عهداً من أسوأ العهود استباحة واضطراباً وخراباً . وقد وضع عام ٦١٠ ، فهرس بالكتب والاسفار الدينية التي امكن انقاذها .

فاذا ما تمكن عهد سواي القصير من اعادة الامن والنظام والوحدة الى الصين ، وأتاح للنفوس المهتاجة ان تهدأ وتعود سيرتها الاولى الى التجريد والتأمل الفلسفي ، فلم يكن هذا العهد لعمري ، بعهد مبدع خلاّق . فقد بدت على الفن سمات العهد : فهو فن جامد متثاقل ، جاف ، قاس ، تنقصه ، اساساً ، نبضة الحياة وهذا التألّق الذي عرفت دولة تانغ ان تضفيه على هذا الفن . فالصين على شفا عهد جديد من الانبعاث والتوعية يبشر بطلع زاهر ، مجيد .

الفصل الرابع

فجر الاسلام
(من القرن السابع الى القرن التاسع)

بين اوروبا الغربية الآخذة مدنيتها بالقهقرى ، وبين العالم الآسيوي الذي لم يستجمع بعد نشاطه ويسترجع عافيته ، مما ألمّ به من ضربات موجعة أنزلتها به جحافل برابرة البدو الرحل ، ظهر الاسلام كالشهاب الساطع ، فحيّر العقول بفتوحاته السريعة القاصمة ، وباتساع رقعة الامبراطورية الجديدة التي أنشأها .

نحن امام شعب كان للأمس الغابر مجهول الاسم ، مغمور الذكر ، فاذا به يتحد ويتضامّ في بوتقة الاسلام ، هذا الدين الجديد الذي انطلق من الجزيرة العربية . اكتسحت جيوشه ببضع سنوات ،الدولة الساسانية وهدت منها الاركان،ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للامبراطورية البيزنطية في آسيا وافريقيا، باستثناء شطر صغير منها يقع غربي آسيا الصغرى، ولم تلبث جيوشه ان استولت بعد قليل ، على معظم اسبانيا وصقلية ، وان تقتطع ، لأمد من الزمن ، يقصر او يطول ، بعض المقاطعات الواقعة في غربي اوروبا وجنوبيها ، ودفت جيوشه بعنف شديد ، ابواب الهند والصين ، والحبشة والسودان الغربي ، وهددت غاليا والقسطنطينية بشر مستطير . وقد تهاوت الدول ، امام الدفع العربي الاسلامي ، كالأكر ، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم ، وهذه الاديان التي سيطرت على الشعوب والاقوام الضاربة بين سيرداريا والسنغال ، ذابت كما يذوب الشمع امام النار ، بعد ان أطل على الدنيا دين جديد له من الاتباع والمريدين ، اليوم ، ما يزيد على ثلاثمائة مليون . وانجلى غبار الفتح وصلصلة السلاح عن امبراطورية جديدة ولا اوسع ، وعن حضارة ولا اسطع ، وعن مدنية ولا اروع ، عول عليها الغرب في تطوره الصاعد ورقيه البناء ، بعد ان نفخ الاسلام في قسم موات من التراث الانساني القديم روحاً جديدة عادت معه اليه الحياة ، فنبض وشعّ وأسرى . ولهذه الاسباب مجتمعة ، كان لا بد من ان يحتل تاريخ العالم الاسلامي محلاً مرموقاً في ثقافة رجل العصر، كما كان لا بد لرجل العصر هذا من ان يفهم جيداً ان المدنية لا يقتصر مدلوها ، على شعب

او بلد متحيز في الزمان، وان يعرف جيداً ان قبل توما الاكويني الذي رأى النور في ايطاليا، طلع ابن سينا المولود في احدى مقاطعات التركستان، وان مساجد دمشق وقرطبة ارتفعت قبابها قبل كاتدرائية نوتر دام في باريس بزمان ، والا ينتقص من شأن العالم الاسلامي اليوم في ما يعاني من غمرة ستنقشع بأسرع مما يظن ، وألا ينظر الى التاريخ الاسلامي من خلال مرئيات ألف ليلة وليلة ، هذا الاثر المدهش ، الاجنبي النشأة ، الذي دالت ايامه وزالت لياليه ، والذي ما لبث العرب ينظرون اليه بشيء من الحنين الى الفردوس المفقود ، بل علينا اعتبار هذا التاريخ قطعة من صميم التاريخ الانساني المتنوع بتنوع الازمنة والامكنة ، والذي لا يزال، بالرغم من جزئياته وخصوصياته ، تاريخ هذه البشرية الواحدة الجامعة الجماء .

يتحتم علينا ونحن نستعرض تاريخ العرب والاسلام ، التصريح، بكل تواضع هنا، انه بالنظر للظروف الماثلة في وضعها القائم ، لا نستطيع ان نجلو تاريخ الاسلام بالصورة التي جلونا بها تاريخ الغرب . فالنقص الفاضح الذي نراه في الوثائق التاريخية ، والفقر المدقع الذي عليه المحفوظات الاسلامية العربية ، لا تسده هذه الوفرة ، ولا يعوضه هذا الغنى الحافل في التراث الادبي الذي خلّفه العرب بن طارف وتليد . فبالرغم من الجهد الطيب الذي بذله المستشرقون في الغرب ، في مجال فقه اللغة والألسُنيّة اكثر منه في التاريخ ، وبالرغم من الحركة العلمية الحديثة التي اخذ الشرقيون باسبابها بعلم واصول ، فلا يزال العمل بحاجة بعد ، الى قرن واكثر ليلحق بركب المؤرخين في الغرب . فالشيء الذي سنقوله ونقرره بهذا الصدد سيكون لاقتضابه وإيجازه ، اقصر بكثير ، من الفصول التي مهدنا بها لهذا البحث .

الجزيرة العربية قبل الاسلام

لم يكن العرب ، في القرن السابع ، حديثي العهد بالوجود . فقد سكنوا شبه الجزيرة التي تحمل اسمهم قبل ظهور المسيحية بزمن طويل ، يعيشون فيها عيش البدو الرحل ، في وضع اشبه ما يكون باهل البادية والوبر ، اليوم، ذراريهم الاقحاح . وكانوا منقسمين قبائل يخضعون لمشيئة الشيخ او لرئيس القبيلة ويأتمرون بامره ويسيرون بهديه ، بينما تتفرع القبيلة نفسها الى بطون وافخاذ ، لكل منها زعيمها ، يجمعها بعضاً الى بعض عصبية قبيلية ، هي القاسم المشترك ايام الكر والفر ، يتألبون تحتها في حروبهم وغزواتهم . اما دياناتهم فكانت من التبسيط بحيث تتصل بالعقائد السامية المشتركة في جوهرها، مع جميع شعوب المنطقة، يخشون اكثر ما يخشون عمل الابالسة وكانوا يعبدون بعض الحجارة المؤلهة، كما هي الحال في مكة ، يقيمون في اعيادها مواسم للشعر والمفاخرة . وينقسم العرب في مجموعهم الى قسمين متميزين : اليمنيون في الجنوب ، والنزاريون القيسيون في الشمال . وقد حدثت موجات بشرية انتقلت معها بعض قبائل الجنوب متخطية الى الشمال ، ابناء عمومتهم هناك . وبالرغم من هذه الانقسامات ، كان يخامر العرب شعور بشيء من الوحدة ممثلة خير تمثيل بهذه اللغة الشعرية التي قطعت شوطاً بعيداً في التكامل والاستقرار . ومن بين مشاهير الشعراء في هذه الحقبة امرؤ القيس . فقد فاخروا بامجادهم الوطنية ومآثرهم الحربية ، كما فاخروا « بايامهم »

التاريخية ونظموا الحكمة فاوجزوا واعجزوا .

وقام عند أطراف الجزيرة العربية في اليمن مثلاً ، مجتمعات بشرية قطعت شوطاً قصياً في تطورها . فقد قام في اليمن ، قبل طلوع المسيحية بعهد كبير ، مملكة اشتهرت باحدى ملكاتها هي الملكة بلقيس أو ملكة سبأ . وقد قام بعد ذلك بكثير ، عدد من الممالك اشتهر أمرها في عهد الرومان ، كمملكة النبطيين أو الانبـاط ، في بتراء ، تقع الى الجنوب الشرقي من البحر الميت ، والمملكة زنوبيا التي ملكت على المنطقة الواقعة غربي الفرات ، كما قام في عهد البيزنطيين مملكتان ملوكها من النصارى ، هما مملكة آل غسان أو الغساسنة ، ومملكة اللخميين ، توازر الأولى منهما ملوك بيزنطية وتدور في فلكهم،بينما يدور اللخميون في فلك ملوك فارس ويشدون منهم الأزر . فبينما كان الغساسنة يقيمون في اذرع ، اتخذ اللخميون طيسفون (الحيرة) قاعدة لهم . والجدير بالذكر هنا هو ان قبيلة كندة استطاعت ان تؤلف في القرن الخامس ، في قلب الجزيرة العربية ، تحالفاً حقيقياً . وقد انشأت بعض القبائل ، في بعض المدن لها ، نوعـاً من الحكم على اساس من النظام الارستوقراطي تولى الأمر فيه كبار التجار اصحاب القوافل التجارية كما في مكة مثلاً ، اذ كان الامر بيد قبيلة قريش . وكانت الحركة التجارية قـد نشطت في شبه الجزيرة العربية ، اما عن طريق البحر الاحمر ، او عن طريق القوافـل البرية التي تحولت عن موانىء البحر المذكور تفادياً للاخطار التي كانت تتهددها . وكانت هذه المنطقة قـد اخذت تتأثر ، الى حد بعيد ، بنفوذ الدول القومية المجاورة ، فتتجاوب اصداؤها هـذه المؤاثرات . فقد حاول الساسانيون ان يحققوا لمصلحتهم الخاصة ويسيطروا على الحركة التجارية في المحيـط الهندي ، بينما اخذت بيزنطية تحاول ، عن طريق مصر ، تحويل هذه التجارة ، الى مرافقهـا بمساعدة حلفائها من الاحباش . وهكذا راح الفرس والاحباش يتجاذبون السيطرة على المراكز التجارية الكبرى . وليس من المستبعد قط ان تكون المشاحنات التي قامت بين الطرفين ، بهذا الصدد ، سبباً من الاسباب التي ادت الى انهيار سد مأرب ، وخراب نظام السقاية الذي عمل به مدة طويلة ، والى هذه الهجرات الواسعة التي عقبت انهيار السد . كما أدت الى هـذه اليقظة التي اخذت تتململ بها القبائل العربية ، اذ ذاك . وقد حدث في الوقت ذاته ان تغلغلت المؤثرات الاجنبية في البلاد العربية ، اما بواسطة القبائـل المقيمة على الخط الدائري ، او بواسطة الجوالي المسيحية واليهودية التي نشأت في بعض المدن ، كالجالية اليهودية في يثرب التي أصبحت المدينة بعد ان هاجر اليها النبي العربي . وهكذا نرى جيداً ان العرب لم يبقوا في عزلتهم ، كما كانوا من قبل، بل بدت عليهم معالم يقظة عارمة زاد من أوارها وقوعهم الى أطراف المدنيات الكبيرة. صحيح ان البلاد التي جاوروها لم يتوفر لها جماعة من كبار اللاهوتيين ، ولذا تنزّت عقائد سكانها الدينية ، بكل ديانات الشرق وعقائده الشعبية ، الا انها ديانات جديدة ، حديثة لمن كان مثلهم ضالعاً بالشرك الاكبر، منذ أجيال سحيقة ، في هذه الحقبة بالذات ، اذ ساعدت الظروف المادية القائمة ، اذ ذاك على ايجاد حالة من القلق والاضطراب كان يكفيها شيء بسيط جداً لاضرامها وتحويلها الى غليان دائم .

هذا هو بايجاز ، الوسط الذي رأى فيه النبي العربي النور ، وشب في جو تجاري شارك ببعض نشاطه قبل ان يتفرغ للدعوة التي قام بها .

محمد

في هذا المحيط الذي وصفنا ، ولد محمد بن عبدالله ، النبي العربي وخاتمة النبيين ، الذي جاء يبشر العرب والناس اجمعين بدين جديد ، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد ، وليكمل الوحي الذي نزل من قبل ، مجزوءاً ، على اليهود والنصارى ، وهو على يقين من امره انه يتلو آي الله في خلقه ، ولم يدّع يوماً انه غير انسان مخلوق ، وهو من سلالة الانبياء ، وليس باسم يسوع الناصري ، نبيهم الكريم كانت تعاليمه في غاية البساطة ، تذكرنا من وجوه عديدة ،بتعاليم موسى ووصاياه ،في نطاق القربى العنصرية التي تشد العرب الى العبرانيين الاقدمين . فالله الذي يدعو الى عبادته هو الواحد الأحد القيوم الكلي القدرة . يدعو الانسان الى الطاعة والتسليم المطلق ، الى الاسلام ، اذ ان الله كريم رحيم يعد عباده ومن يُسلّم امره اليه ، اي المسلم ، بالجنة ، ويبعث في قلبه الايمان والثقة بوعد الله . وهو لا ينهي المسلم عن السعي وراء خيرات هذه الدنيا ، انما بالشكر تدوم النعم ، اذ ان الله هو واهب الاشياء ومقسم الارزاق . وهذا الموقف ، وهذه القناعة الداخلية لا تلزم صاحبها الا بالدعاء لله والشكر له ، والسير على تعاليمه ووصاياه ، والجهاد في سبيله حسبما يدعو اليه نبيه ورسوله ، والاعتصام بمكارم الاخلاق ، والتزام حبل الفضيلة ، والتصدق للغير ، من اي لون او جنس كانوا ، وفقاً للتقاليد العربية المرعية ، والرفق بالمرأة . هذه هي بايجاز الرسالة التي قام محمد يدعو اليهــا العرب في مكة ، باسلوب جزل ، وعبارة جمعت بين الايجاز والاعجاز .

غير ان قريش خشيت على نفسها من أمر هذه الدعوة الجديدة ، ووجد أسيادها فيها تهديماً لعقيدتهم وخطرا على نفوذهم . فقاموا يضطهدون النبي وصحبه ، مما حمله على الهجرة الى يثرب ، عام ٦٢٢ ، التي عرفت منذ ذلك الحين باسم «المدينة» او مدينة الرسول . ومن هذا التاريخ او الهجرة اخذ العرب يؤرخون ، ومنها يبتدىء الحساب الهجري . وقد تغير موقف النبي العربي في المدينة : فلم يعد ليكتفي بالدعوة ، بل راح ينظم جماعته من الانصار والصحابة . اذ كانت الشريعة لا تختلف عن العقيدة او الايمان ، وتتمتع مثلها بسلطة الهية ملزمة ، تضبط ليس الامور الدينية فحسب ، بل ايضاً الامور الدنيوية ، فتفرض على المسلم الزكاة ، والجهاد ضد المشركين لحملهم على الاسلام ونشر الدين الحنيف . وبعد مواقع عديدة مع قريش ، استطاع محمد فتح مكة فأسلم أهلها وأقبلوا على الدعوة الجديدة محافظة منهم على ما كان لهم من مكانة في الجاهلية . وقد فُرض على كل مسلم ومسلمة الحج مرة الى بيت الله الحرام لكل من يستطيعه . ولم تلبث القبائل ان اقبلت على الدعوة تقدم خضوعها . وعندما قُبض النبي العربي ، عام ٦٣٢ ، كان محمد انتهى من دعوته ، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الاسلام ، وصهرهم في وحدة قوية ، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة ، لم تعرف مثلها من قبل .

وقد اوشك موت النبي ان يقلب الوضع في الجزيرة ، رأساً على عقب ، لو لم يتدارك الامر ابو بكر خليفة الرسول ، وامير المؤمنين بعده ، في سلسلة من الحروب العنيفة تعرف بحروب الردّة . وولي الامر، بعد ابي بكر،الفاروق عمر بن الخطاب ٦٣٤ – ٦٤٤ ثاني الخلفاء الراشدين، بعد الرسول . ولكي يبقي العرب كتلة متراصة ، كان لا بد من تجنيدهم في خدمة الدين الحنيف، وارسالهم في سرايا لفتح الاقطار المجاورة .

الفتوحات العربية

تم الفتح العربي بسرعة ادهشت الفاتحين انفسهم . ولم يكن الغرض من هذه الحروب ، في الاساس سوى الغزو ، فجاء الاصطدام يكشف عن عورات الخصم والضعف الذي ينتابه ، فاستحالت الفكرة الاولى ، الغزو ، الى فتح ، ساعد عليه ، وسهل امره ، الحماسة التي جاش بها الغزاة الفاتحون . وهذا الضعف يتكشف عنه العدو قام اصلاً في هذا الكره الذي حمله الاهلون لحكم الروم ، فآثروا عدم مقاومة الغزاة ، بل ان قسماً من سكان البلاد تواطأ مع الغزاة وعمل على نصرتهم. «ليس بالامر اليسير قط ان نتخلص من ربقة حكم الروم » كما جاء على لسان احد المؤرخين من النساطرة . تم فتح سوريا سنة ٦٣٦ ، بعد ان بوشر به عام ٦٣٣ ، وقد بوشر بفتح العراق في الوقت ذاته وتم نهائياً عام ٦٣٧ ، اما فتح مصر فقد تم بين ٦٣٩ و ٦٤٢ ، وقد تم فتح ايران نهائياً، باستثناء بعض المقاطعات الدائرية، عام ٦٥١ . وقد ساعدت طبيعة البلاد الجبلية ، على تنظيم شيء من الدفاع « الوطني » خلافاً للامر في الولايات البيزنطية ، اذ ما كادت جيوش العرب تطل على هذه الولايات حتى راح حكامها يخلونها بسرعة ، ويفرون الى القسطنطينية ان لم يتواطأوا مع الغزاة الفاتحين . وقد بات من الصعب على المسلمين ، بعد ان خفتت حماستهم وخفّ اندفاعهم ، ان يفتحوا آسيا الصغرى بعد ان فشلت محاولتان لهم للاستيلاء على القسطنطينية ، وبسط سيطرتهم على آسيا الوسطى حيث اصبح نهر السير داريا ، منذ اواسط القرن الثامن ، الحد الفاصل ، بين الامبراطورية الاسلامية وبين المقاطعات الواقعة تحت سيطرة الصين وقبائل البدو الرحل من تتر ومغول . كذلك لم يكن فتح شمالي افريقيا ، بالامر الهين لشدة مقاومة البربر لهذا الفتح، ولم يستقم الامر امامهم الا بعد ان جروهم للمساهمة بفتح اسبانيا، ثم صقلية، بعد ذلك بنحو قرن من الزمن. اما تقدمهم في غاليا فامتد حتى بلغوا مدينة بواتيه حيث كتب لشارل مارتيل ان يكسر الجيش العربي بقيادة عبد الرحمن الغافقي سنة ٧٣٢ .

وهكذا دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين اقاليم شاسعة امتدت من نهر الهندوس ، شرقاً ، الى نهر التاج ، في اسبانيا ، غرباً ، ومن بحر أرال شمالاً الى اقليم السنغال جنوباً ، وكلها مناطق تأتلف مع طبيعة العرب ، وتتوافق عاداتها ومعايشها ومفهومهم للامور المعايشية من حيث احتياجاتهم اليومية التي لا تختلف عند الكثيرين من سكان هذه البلاد الاصليين ، عن احتياجات العرب ومطالبهم الاساسية . وهنالك مفارقات شتى في الجغرافية والتاريخ، جعلت الفرق كبيراً بين هذه البلاد . لا بد من التنويه عالياً هنا ، انه بعد الفتح ، جرى تنظيم هذه

البلدان في إطار وحدة فضفاضة على اساس من الاتفاقات المشروطة لتأمين خضوع السكان واستسلامهم . بقي ان نقول انه اذا ما ادت الفتوحات الجرمانية الى تقسيم اوروبا ، فالفتح العربي ادى بدوره الى وحدة الشرق الاوسط .

وبدلاً من ان يذوب الفاتحون العرب بين اكثرية سكان البلاد الاصليين، مع ما بين الجانبين من فوارق العادات والاخلاق ، تراهم ينزلون في مخيمات عسكرية خاصة بهم ، في مقاطعات لم تأخذ بعد تماماً باسباب الحضارة والتطور ، فاذا بسكان البلاد يفدون على هذه المخيمات التي لم تلبث ان اصبحت مدناً عامرة ، كالكوفة والبصرة مثلاً ، في جنوبي العراق ، والفسطاط في مصر ، والقيروان في المغرب ، وكلها مراكز زراعية ، عامرة تقع على مقربة من الصحراء في الداخل ، بعيدة عن البحر ومواصلاته اذ لم يكونوا قد طوعوه بعد ، ولا ألفوا ركوبه . اما الجيش الذي كان يتألف من كل من يستطيع حمل السلاح، فينقسم الى فرق ، تتمركز في مقاطعات عسكرية تعرف عندهم باسم « جند » تجري عليهم الارزاق والمرتبات من الاسلاب والمغانم الحربية كل بحسب مرتبته ، او من الرسوم والضرائب المفروضة على الذميين وعلى من يدخل منهم في طاعة المسلمين مستأمنين . وتبقى القبيلة وحدة لها شأنها الاجتماعي، بالرغم مما تتعرض له من انقسامات تقتضيها مستلزمات الفتح العسكري ، تحت امرة الخليفة ومن يعاونه من الصحابة والانصار والتابعين . وكثيراً ما ادت العصبية القبلية الى الاقتتال والتناحر بين قبائل الشمال والجنوب ، مناصرة منها للحزبية الناشطة التي دعا اليها الوضع الجديد في العالم العربي والاسلامي ، فمزقت شمله وفرقته شيعاً واحزاباً ادت الى اشتباكات دامية استمرت قرناً واكثر .

كان لزاماً ان تفضي الاوضاع الجديدة ، بعد هذه الفتوحات الواسعة التي ساعدت على حل ازمة خلافة النبي العربي محمد ، الى ازمة جديدة ، اطول من الاولى واكثر تعقيداً . فقد واجه تنظيم الدولة الجديدة، مشكلات ضخمة لم تكن بالحسبان ولا خطرت على البال، منها مثلاً قضية الحكم ، انطلقت من صميم هذه الفوارق العميقة والاختلافات الجذرية التي تلازم اختلاف المصالح والاهواء الشخصية ، في الظاهر ، والتي اقامت الجماعة واقعدتها ، بعد ان زال الجيل الاول الذي صحب النبي وناصره . ويمكن رد هذه الاختلافات الى اعتبارات قد تبدو غريبة في نظر البعض ، والتي يمكن ردها اصلاً الى هذا الترابط الداخلي القوي الذي يشد العقيدة الدينية الى النظام الاجتماعي . فالتكتلات السياسية التي طلعت علينا ، اذ ذاك ، لم تلبث ان اصبحت احزاباً وشيعاً لها عقائدها وتعاليمها اللاهوتية التي اصبحت جزءاً لا يتجزأ من وضعها السياسي والديني .

الدولة الاموية

في هذا العراك السياسي العنيف الذي وقف فيه الخليفة عثمان ، ثالث الخلفاء الراشدين ، ومن بعده معاوية امير الشام ، ضد علي بن ابي طالب ، ابن عم النبي وصهره ، ورابع الخلفاء الراشدين ، تبرز للعين والنظر ثلاث نزعات لا بد من الوقوف عندها . فمنذ البدء ، نرى فئة الذين يراودهم الحلم المعسول ، الصعب المنال ، الذي يتبدّى لكل دين

جديد ، والذي يرمي للمحافظة على مظاهر الحياة البدائية الاولى واحيائها ، ممثلة خير تمثيل « بقدامى المسلمين »، والفئة الاخرى التي تتألف من هذا الفريق الجريء الذي يعمل على الافادة من الظروف القائمة وتسخير السلطان لمصلحته ومنفعته الشخصية ، وبعبارة اخرى ، بين من يقول بالتقية ويتمسك باهداب الدين الحنيف ، وبين هؤلاء الحكام الاداريين ، ممن يتولون تصريف الامور ، ومعظمهم من آل قريش الذين يهمهم في الدرجة الاولى ، ان يسترجعوا ، في الامة ، النفوذ الذي كان لقريش في مكة ، أبان عهد الجاهلية ويعيدوا اليها ، السيادة والنفوذ اللذين تمتعت بهما من قبل . وظهر بين الفئة الاولى نزعتان . فالخوارج رأوا ان المؤمنين سواء فيما بينهم اصلاً ، فاذا كان لا بد لهم من امير يتولى الامر بينهم فأولاهم به اقربهم الى الله ، دون نظر الى الاصل او العرق ، مع وجوب محاربة من كان بين بين في دينه ، من المسلمين ، باعتباره مارقاً ، خارجاً عن جادة السبيل . ومثل هذا الرأي يتفق تماماً والعرف التقليدي المرعي الجانب بين العرب. اما الشيعة ، فالتمسك بالاسلام الحنيف ، انما يعني في نظرهم ، التمسك بعترة النبي ولا سيما باهل بيته وولده من ابنته فاطمة وصهره علي بن ابي طالب . فالامر عندهم اكثر من مجرد مبدأ خلافة بشرية ، هو الرفض بالتسليم بما يذهب اليه خصومهم بان صاحب الامر : الامام ، ليس سوى مجرد حاكم ،بل اعتقدوا عن يقين ان الوحي المحمدي يجب ان يستمر وان يبقى في اهل عترته ، وبذلك يبقى الخليفة الإمام الهادي المهدي في امور الدين ، وبالتالي العزم على عدم التفريق بين الدين والسياسة . فلا عجب ان يفوز ، بنهاية الامر ، السياسيون بشخص معاوية بن ابي سفيان ، مؤسس الدولة الأموية في دمشق (٦٦١) . وقام الخوارج بحوادث دامية وفتن في معظم انحاء الدولة الاسلامية دون ترابط قط . اما الشيعة ، فقد رأوا اهل البيت منهم يستشهدون في كربلاء ، عام ٦٨٠ ، وينالون شرف الشهادة ، بينما انصرف بنو امية لتثبيت دعائم ملكهم وتوطيد سلطانهم .

وعندما بُويع معاوية بالخلافة ، جعل دمشق عاصمة لملكه ، مكرساً بذلك ما كان لا بد منه ، وهو التحول عن الجزيرة العربية ، مؤذناً بانتهاء الدور التاريخي الذي لعبته باعطاء العالم ديناً جديداً وجيشاً شمتا الى خارج الجزيرة العربية ، ليغمرها الصمت من جديد . صحيح ان لفريضة الحج الى مكة ، واستمرار ابناء الانصار والصحابة في المدينة المنورة حفظا لهاتين المدينتين اللتين يقدسها المسلمون ، منزلة كبيرة في القلوب ، غذت في نفوس البعض الرغبة في الثورة والانتفاضة في وجه السلطة ، الا انها محاولات باءت جميعها بالفشل . وقد اضفى انتقال مركز الخلافة الى دمشق اهمية متزايدة لعرب الشام فاصبحوا عماد الدولة الجديدة وذخرها ، واصبحت الشام في المنزلة الاولى بين الاقطار الاسلامية تفضلها جميعاً ولا سيما العراق حيث كان انصار اهل البيت اقوياء يتخذون من الكوفة مركزاً لدعايتهم ولدعوتهم . واضطرت الدولة الناشئة ان تعتمد في ادارتها على اهل الشام الذين اصبحوا عماد الدولة فأمدّوها بالعمال والموظفين من ابناء البلاد ، وهكذا رجحت كفة التقاليد البيزنطية على التقاليد الساسانية .

قلما عرف التاريخ والحق يقال ، فتوحات كان لها ، في المدى القريب ، على الاهلين ، مثل هذا النزر الصغير من الاضطراب يحدثه الفتح العربي لهذه الاقطار . فمن لم يكن عربياً من الاهلين لم يشعر باي اضطهاد قط . فاليهود والنصارى الذين هم أيضاً من اهل الكتاب ، حق لهم ان يتمتعوا بالتساهل وان لا يُضاموا . وكان لا بد من الوقوف هــذا الموقف نفسه من الزردشتية والمانوية والبوذية وصابئة حران ، هذه الطائفة التي كان اصحابها يعبدون النجوم والكواكب ، وغيرهـا من الملل والنحل الاخرى . والمطلوب من هؤلاء السكان ان يظهروا الولاء للاسلام ويعترفوا بسيادته وسلطانه ، وان يؤدوا له الرسوم المترتبة على اهل الذمة تأديتها ، والامتناع عن كل دعوة دينية لهم لدى المسلمين ، وان يحافظوا على عروبة الجيش . وفي نطاق هــذه التحفظات التي لم تكن لتؤثر كثيراً على الحياة العادية ، تمتع الذميون بكافة حرياتهم. والى هذا، فقد كان من الصعب جداً على العرب المسلمين الذين ألّفوا اقلية ضئيلة جداً في وسط هذا الخضم من الأمم والاقوام التي يسّر الله لهم السيطرة عليها ، ان ينهجوا نهجاً آخر ، ويأخذوا النـاس بالشدة والا لكانت الحروب افنتهم واكلتهم .

وتألفت ادارة الدولة من قطاعين، ينتظم الاول سياسية المسلمين، فينتظم منهم شؤون الحرب والسلم وامور العبادات ، ويؤمن اقتسام المرتبات والاعطيات وجمع الزكاة ويتولى شؤون هذه الادارة، في عاصمة الخلافة دمشق، وفي الاقاليم موظفون عرب . اما الثاني فيعنى بشؤون سكان البلاد ولا سيما بتنظيم الضرائب وجبايتها ، يتولى القيام به والاشراف عليه عمال وموظفون من اهل البلاد، يتولون كتابة الديوان وضرب السكة بلغة البلاد ، وبغير ذلك من امور الادارة التي لا علاقة لها بشؤون الدين . ونرى في القطاع الاول ، يزداد التباعد أو الانفصال بين الدولة والدين . فالدين ينظم مبدئياً كل شيء في الحيـاة العامة والحياة الخاصة ، بحيث لا يمكن ادخال أي تغيير عليها أو تعـديل .

وقد انتظمت العلاقات بين الدولة وسكان البلاد الاصليين بسهولة كلية وفقاً لروح القانون المعمول به في البلاد ، والنظام الساري المفعول ، كما هي الحال مع كل فتح جـديد . وبقيت كل ملة أو طائفة محتفظة بقانونها الخاص وبالموظفين الذين يسهرون على الشؤون الدينية عندهـا ، باستثناء ما كان منها تابعاً للحق العام، فمرجعه الحكومة ، أو ما تعلق بالعلاقات الخاصة بين هذه الطوائف بعضها ببعض ، فكان امره متروكاً للقضاة الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال بالنسبة للحكومة ، مع انها هي التي تتولى امر تعيينهم وتأمين مرتباتهم ، ويسهرون على تطبيق قانون لم تكن الدولة اصدرته . ونلاحظ تطوراً ملحوظاً يطرأ على وضع النصارى بعـد ان احتفظت بيعهم بجانب من ممارسة العدالة في الامور الخاصة ولا سيما العائلية منهـا . وهكذا برز البطاركة والاساقفة ، الرؤساء الاعلين لطوائفهم تعلو سلطتهم سلطـة الموظفين الاداريين المحليين ، حتى ان اليهود انفسهم لم يجـدوا بأساً في الاحتفاظ برؤساهم الدينيين وبربابنتهم وبحاخامهم الاكبر .

الشريعة الاسلامية اساسها الوحي المحمدي وهو وحي وتعاليم لم تكتب في عهد محمد، فتناقله الصحابة في قلوبهم كما تناقل الرواة الشعر من قبل ومن بعد. فهل يمكن ، لعمري ، القول او التسليم بوجود او بامكان وجود اختلاف ، او تناقض في كلام الله ؟ وامام خصومة الذين راحوا يتهمونه بعدم التدين او المروق ، راح ثالث الخلفاء الراشدين ، عثمان ابن عفان ، بجمع القرآن من حامليه ويدونه بحرف عربي لم يبلغ بعد الطواعية اللازمة ، وهكذا ظهر القرآن بوضعه الحاضر . ولم يكن الغرض من جمع آي القرآن على هذه الصورة إعداد ترجمة مفصّلة لحياة النبي العربي او ترجمة مسهبة له ، بل بالاحرى جمع وقائع حياته وتعاليمه التي حدثت او وقعت في ظروف وامكنة مختلفة ، والخروج من ذلك كله بكتاب او قرآن ، منهجي، نهائي، غير مربوط بزمان او مكان . ولذا جاء ترتيب آيات هذا القرآن وسوره لا يراعي التطور التاريخي لهبوط الوحي المحمدي ، اذ يجد العلماء اليوم من الصعوبة بمكان، تحديد اماكن هذا الوحي وتحديد الظروف التي نزل فيها .

ومع ان القرآن هو اصل العقيدة الاسلامية وركنها الركين ، فهو ليس مع ذلك ، مصدر الشريعة والعقيدة الاسلامية الوحيد . فالقرآن هو كلام الله المنزل . الا ان سلوك الرسول العربي ، واقواله ، واحاديثه ، حتى ما كان منها لا يتعلق بالوحي ، لها قوة تعليمية اسمى بكثير مما للناس من امثالها . ولذا بدا من المفيد لا بل من اللازم ، الرجوع الى هذا كله والاسترشاد به والهدي بما فيه من موعظة وحكمة وعبرة لاتمام الشريعة المحمدية ، اذ هنالك حالات وظروف واوضاع طرأت على الامبراطورية العربية ، لم يرد في القرآن ما يعرض لها او ما يسمح بمعالجتها . وهكذا راح المهتمون ، بالامر يدرسون التقليد او سنة الرسول يستخرجون منها الاحكام والقياسات المرتجاة ، يستخدمونها ضد الشيعة والخوارج . وهكذا اخذوا يجمع اقوال النبي واحاديثه بالرجوع الى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، ولم يلبث ان نشأ من هذه الحركة علم جديد هو علم الحديث ، كما اطلقوا على من يعنون به اسم المحدثين . وقد قام اصحاب الملل والبدع الاسلامية ، تعزيزاً لمقالتهم او لمواقفهم، يدعون احاديث نبوية، بعضها محرف وبعضها منحول من الاساس ، بحيث راح المحدثون يضعون حدوداً صارمة ليميزوا بين الصحيح منها والزائف . ويرى مؤرخو العصر في هذه الاحاديث ، وثائق تتعلق بتطور الاسلام اكثر منها وثائق تنير جوانب غامضة ، في حياة النبي العربي .

وهكذا اخذت تتضح مبادىء العقيدة الدينية في الاسلام ، كما تحددت اركانه الخمسة أو القواعد الكبرى التي ينهض عليها الدين الجديد ، الا وهي : الشهادتان ، والزكاة وصوم رمضان والجهاد أو الحرب المقدسة ضد المشركين، والحج الى بيت الله الحرام ، مرة في الحياة على الاقل، وإقامة الصلاة خمساً في النهار . وهي تقام ، بالافضل ، في موضع معين للعبادة هو المسجد ، ولا سيما يوم الجمعة جرياً على عادة إقامتها يوم السبت ، عند اليهود ، ويوم الاحد ، عند النصارى . فالمسجد ، كالكنيسة ، هو مكان للعبادة كما هو مكان تعقد فيه الجماعة اجتماعاتها العامة للنظر

وتبادل الرأي . وقد حدث ان حوّلوا كنائس الى مساجد ، غير ان العرف المتبع هو ان يُعهد، في أكثر الحالات ، بتشييد المساجد ، الى عمال من أبناء البلاد . وهـــذا المسجد يتألف ، في الداخل ، من بهو فسيح الارجاء الى صحن كبير أبهاء فرعية وأروقة تقوم جميعها على صفوف من الاعمدة ، تنتهي الى حائط مستقيم الخط تقوم امامه حَنيّة تتجـــه الى القبلة ، والمحراب والمنبر حيث يقف الامام مصلياً وخطيباً . ويمتد امام البهو فناء رحب أُعدّت فيـه أماكن للوضوء تجري فيها المياه . ويعلو المسجد عادة ، مئذنة تشبه القبة في كنائس النصارى ، يعتليها المؤذن خمساً في النهار يدعو الجماعـة : « حيا على الصلاة » . فالصلاة لا تستدعي ولا تتطلب ، مبدئياً ، أية رتبة دينية لترؤسها . فمن السهل على كل مسلم ارن يتفهم دينه ويحفظ ما فيه من حدود. وما من احد يتلقى من الله عن طريق التكريس أي مراسم اخرى ، عوناً خاصاً او نعمة ليسير بحسب هدى دينه . ومع ذلك ، فلم يلبث ان ظهر بين الجماعة طائفة من الفقهـاء تخصصوا بأمور الدين وتفقـّهوا بفرائضه، كتب لأصحابها انيلعبوا دوراً بارزاً فيالاسلام، هم طائفة العلماء.

سكان البلاد الوطنيون

لم يطرأ على مجموع سكانالريف تقريباً، ولا على السواد الاعظم من سكان المدن ، وكلهم غير مسلم ، أي تغيير يذكر في سير الحياة ونهجها . فقد اخذ المسيحيون الخارجون عن طاعة بيزنطية ، ينظمون أحوالهم ويضبطون شؤونهم الدينيـة والكنسية الخاصةبعد ان تخلصوا منمضايقاتالعاصمة وازعاجها. وسيدفعون غالياً،في المستقبل، ثمن تسرعهم للتقليل من اتصالاتهم بباقي العالم المسيحي، فقد اقتصرت علاقاتهم، مع الامبراطورية البيزنطية في الوقت الحاضر ، على بعض الاتصالات الانسانية ، بالرغم من الحروب التي كثيراً ما شجرت بين المسلمين والروم . وقد راحت بيزنطية ، بالاحرى ، تشعر بالاسف المرير لفقدانهـــا أغنى ولاياتها مادياً وروحياً . وخير من يمثل هذا الوضع ويصور هذا الواقع ، احسن تصوير ، هو يوحنا الدمشقي، احد كبار الموظفين في البلاط الاموي، الذي كفر بالعالم بعد حين، وانقطع لعبادة الله راهباً في دير القديسسابا، القريب من القدس، واشهر لاهوتييالكنيسةالشرقية الملكية في هذه الحقبة ، ولعب دوراً بارزاً في الجدل الديني الذي احتدم في بيزنطية حول تكريم صور القديسين . وقد عُرفت هذه الكنيسة بالملكية ، لبقائها على الولاء « للمـــلك » او لامبراطور بيزنطية ، وللعقيدة التي ترعاها القسطنطينية ؛ كما لحقها أذىً كبير من جراء فقدانهـــا السلطة الكنسية ولشغور كراسي بطريركيتها ، في المرحلة الاولى ، ثم لتوليها ، فيما بعـــد ، من قبل بطاركة أكثر التصاقاً بمركز الخلافـــة الاسلامية ، منهم بطريركية القسطنطينية . وقد بقيت ، بالرغم من هذا ، نشيطة حية ، كما نرى من سيرة القديس يوحنا الدمشقي .

والى جانب الكنيسة الملكية قامت الكنيسة المارونية التي اخذت اسمهـــا من اسم راهب يدعى مارون ، الا ان ابتعادها عن بيزنطية وعدم الاستقرار في بطريركية انطاكية ، جعلهـا تتردى في الهرطقة المونوثولية او القول بمشيئة واحدة في السيد المسيح ، في الوقت الذي تنكرت لها كنيسة القسطنطينية وتحولت عنها. وقد اخذتهذه الكنيسة تنظم شؤونها في وضع،بين بين،

من الانشقاق والانفصال ، تحت ادارة بطريرك خاص بها ، وبدون قصد معين . وبالرغم من عداوة اتباع عقيدة الطبيعة الواحدة الذين كانوا ينعمون برعاية الخلفاء وينالون حظوة في اعينهم ، اخذ الموارنة يستقرون تدريجياً على سفوح جبل لبنان الغربية ، بعد ان اخذوا في حرثها واستغلالها ، وبعد ان رأوها امنع جانباً وآمن لسكناهم من تلك الهضاب والنواحي الواقعة الى الشمال من سوريا والتي سكنوها ردحاً من الزمن في بدء امرهم . اما اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة من يعاقبة واقباط وارمن ، والنساطرة ، فقد استطاعوا في اول عهد السيطرة الاسلامية ، ان يحافظوا على عدد اتباعهم وكنائسهم . وقد هب البطريرك إيشونيهب الثالث النسطوري ، الى وضع سلسلة من التشريعات الليتورجية والقانونية ، ثم انصرف الى التأليف في الامور الرهبانية وسير القديسين والتاريخ الكنسي مع الحرص الشديد على السير مع الحركة العلمية التي نشطت اذ ذاك ، ولا سيا في الطب . وقد برز عند اليعاقبة في هذه الحقبة ، ولا سيا في الحياة الرهبانية ، يعقوب الرهاوي الذي كان اوحد علماء زمانه ، بل قطبهم وعميدهم ، اديب ، شاعر ، ناقل ، مؤرخ ، مفسر ، مشترع ، وفيلسوف لاهوتي صاحب التصانيف العجيبة المفيدة . ما ازدحم العلم في صدر احد ازدحامه في صدره ، فكان ملفان البيعة الاكبر. وبالرغم من موقفه المعادي لبيزنطية من الوجهة العقائدية فقد بقي عقله متفتحاً للقبس من التراث المسيحي اليوناني . وبالرغم من الفروق اللاهوتية التي قامت بين الكنيستين ، فقد جمعها العداء ضد الكنيسة اليونانية ، وتأثرت الواحدة منها بالثانية فاستعملتا في الطقوس الدينية والليتورجية لغة واحدة بالرغم من بعض الفوارق الطفيفة . فقد أثر اليعاقبة تأثيراً بالغاً على الاقباط والارمن ، بينما تابع النساطرة جهودهم لنشر المسيحية في الاقطار الوسطى من آسيا .

وهذا الاستمرار نراه قائماً في حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية . فقد وُزّعت الاراضي في الريف الى قسمين متميزين : الاملاك الخاصة ، والاملاك العامة ، ثم اضيفت اليها الاملاك التي فقد اصحابها ملكيتهم لها ، لفرارهم من البلاد عند الفتح او لوفاتهم في الحروب التي دارت رحاها اذ ذاك . فالقسم الاول من هذه الاراضي ترك لاصحابها ، شريطة ان يدفعوا عنها ضريبة عقارية هي الخراج التي كانوا يدفعونها من قبل للدولة البيزنطية او الساسانية . اما القسم الثاني من هذه الاراضي ، فقد أجر الى مزارعين او مرابعين (إقطاع) معظمهم من العرب ، بقصد استثارها واستغلالها وفقاً لعقود خاصة ، رأى فيها بعض الفقهاء من اهل البلاد استمراراً لنظام الحكم الذي عرفه البيزنطيون وعملوا به طويلاً ، مع ان الدولة الجديدة التي لم تكن ألفت بعد مثل الفروق الدقيقة ، اعتبرتها املاكاً تشبه في ملكيتها ، هذه الاملاك التي كان معمولاً بها في الجزيرة العربية قبل الفتح . فالاقطاع هو ملكية عقار يولي صاحبه جميع الحقوق الاقتصادية ، مع ما لذلك من حدود . فعلى سيد الارض ان يدفع الضريبة المترتبة على كل مسلم ، ويجعل مما يتصدق به عُشر ربحه او مدخوله . فهو لا يتمتع باي من الامتيازات التي تحق قانوناً للسلطات العامة ، على المرابعين او المستأجرين ، فسلطته عليهم هي اخف من سلطة اصحاب

الاملاك على مزارعيهم ، في عهد البيزنطيين والساسانيين . وعلى هؤلاء المزارعين ان يدفعوا رسوماً شبيهة برسوم الخراج المترتبة على أصحاب الاملاك من الفلاحين ، وهكذا نرى ان هاتين الفئتين من الاراضي لم تخضعا لنظامين اقتصاديين يختلف الواحد عن الآخر اختلافاً جذرياً . وهكذا لا نرى وجهاً « للاستعمار » العربي ، الا ما جاء استثماراً او استغلالاً للاراضي الموات غير القابلة للحرث والزراعة . وهكذا نرى ان الفتح العربي ، كان اخف وقعاً بكثير على الاهلين ، وكان شعورهم به أقل بكثير من شعور الناس ، في الغرب ، بغزوات الجرمان واحتلالهم لاوروبا الغربية .

ان هرب « ارباب » الاراضي البيزنطيين من البلاد ، وحلول ملاكين عرب محلهم أقل دراية وخبرة منهم بنظم الاقطاع ، لم يجلب معه الحرية للفلاحين . وكان من المحظور على العرب ، مبدئياً ، ان يصادروا أو ان يختلسوا أملاك سكان البلاد . اما في الواقع ، فقد ساعد الشعور والسرور بالخلاص من المحتل المستعبد ، وفقدان الادارة والنظام الذي ران على البلاد ، في اول الفتح ، بعض قادة العرب وزعمائهم ، على اقتناء قرى وضياع ضموها الى ممتلكاتهم السابقة ، وأعفيت من ضريبة الخراج ، فلم تستفد الدولة منها غير استيفاء العُشر ، ومثل هذا الوضع لم يكن واحداً سوياً في جميع انحاء الامبراطورية الاسلامية . ففي ايران مثلاً ، أسْقِط في ايدي أسياد البلاد وكبار الملاكين، وسُدّت في وجوههم منافذ البلاد فلم يستطيعوا ان ينجوا بانفسهم، ولذا بقي عدد كبير منهم داخل البلاد لم يستطع النجاة بنفسه . واذ رأى زعماء العرب انفسهم بمعزل عن كل رقابة حكومية ، قاموا بعدد من التجاوزات ، حدّ منها اضطرارهم للتغيب كثيراً عن املاكهم بداعي الجهاد ، وعدم خبرتهم ودرايتهم بسياسة الأرض والعناية بها . وتمسك الفلاحين بالارض وتعلقهم بها في عهد الادارة السابقة ، لم يتأثر كثيراً مع الفتح العربي . ولذا كان لا بد من الكشف عن الهاربين لاجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه عن املاكهم في الريف، من ضرائب ورسوم ، لانهم لا يزالون مسؤولين، قانوناً ، عنها امام الادارة المالية . ولذا نرى الوثائق البردية في مصر ، حيث كانت أعمال المراقبة المالية لا تزال فيها على اشدها ، تأتي على ذكر هؤلاء الفارين ، لدرجة انها اصطلحت على تسمية ضريبة الاعناق او الجزية المستحقة عليهم ، بكلمة « جوالي » أي اللاجئين ، وهم هؤلاء الذين يترتب عليهم شخصياً دفع ضريبة الاعناق أو الجزية ، بقطع النظر عن الاراضي أو العقارات التي يملكونها . وهذه الضريبة الثانية ، أي الجزية ، التي فرضت على غير المسلمين لم تكن ضريبة جديدة فرضها الفتح عليهم ، اذ كانت بيزنطية تفرضها على كل من لم يكن نصرانياً،او لم يكن حراً . وهكذا فالحياة وطرق الجباة ، كل هذا بقي على ما كان عليه قبل الفتح ، ولم يتغير غير المستفيدين من هذه الضريبة . وهو أمر لم يكن ليكترث له الاهلون ، او ليهتموا له ، بقليل او كثير .

أما المؤسسات البلدية والخاصة ، في المدن، فقد بقيت دونما تغيير يذكر وبقيت تعمل كالمعتاد في ظل النظم التي سارت عليها الادارة الجديدة .

وهل من تغيير يطرأ على التجارة ، يا ترى ؟ فقد تم بالطبع ، الغاء الاحتكارات الرسمية ، كما نسخت سيطرة الدولة البيزنطية ، على الاسواق في مصر ، وهي سيطرة كان يقصد منها تأمين اسباب تموين العاصمة القسطنطينية . وقد تكون خفت ، ان لم تتوقف تماماً ، الحركة التجارية في شمالي الشام ، ولا سيما تصدير الزيت والزيتون ، الى مقاطعات آسيا الصغرى . والذي نرى انه لم يحدث اي توقف أو انقطاع في حركة التصدير من مصر التي استمرت قائمة على ايدي بعض التجار ، كما ان الانتاج بقي على وفرته ،حتى في حال توقف حركة التصدير ، وتحولت الى أسواق جديدة تتمثل في هذه المدن الواقعة على مشارف الصحراء ، جديدة كانت ام قديمة ،وفي مقدمتها دمشق عاصمة الخلافة الاموية . ومن الجائز ان نفترض هنا بان الوحدة السياسية التي لفت هذه الاقطار بعضاً الى بعض ، مما وقع بين العراق وآسيا الوسطى ، والتي كانت ، الى ذلك الحين ، بين دفع وجذب ، بين امبراطوريتين متجاورتين ، متنافستين ، كان لها وقع طيب في الاوساط التجارية ، مع ان الناس لم يتبينوا فائدة هذه الوحدة ، إلا بعد حين. والمهم ان نلاحظ هنا ، على ضوء سوء الفهم الناتج عن نظرية عرفت بعض الشهرة ، ستطالعنا بعد حين ، انه لم يحصل تغيير كبير في التجارة البحرية : لا في بحر الهند الذي سيطر على التجارة فيه الايرانيون ولا في البحر المتوسط : فالعرب لم يكونوا رجال بحر كالبيزنطيين ، فلم يروا ما يمنع الا في بعض الحالات والاصطدامات المسلحة ، استمرار العلاقات التقليدية التي ربطت ، منذ اجيال ، بين البلاد المسيحية الواقعة الى الشمال من البحر المتوسط ، وبين سكان البلاد الواقعة في جنوبي هذا البحر والتي دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين . فقد يكون لحق ، بعض الاذى بالثغور السورية الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية ، أو لوجودها على مقربة من جزيرة قبرص . والظاهر ان نشاط الاسكندرية التجاري لم يتأثر بشيء يذكر من هذا كله .

حضارات متقاربة

وهذا الاستمرار عينه يلازم الحياة الفكرية : فحضارة سكان البلاد الوطنيين وحضارة العرب تسير كل منهما في خط أو اتجاه معاكس ، الا ما اتصل بمجال الفن . فالادب عند العرب ، في القرن الاول للهجرة يسيطر عليه الشعر وفقاً لعمود الشعر العربي في العصر الجاهلي ، بعد ان اخذ ينعم برعاية الامراء والخلفاء يستدنون رجاله ويقطعون السنة الشعراء ، فقد تلقح بموضوعات جديدة لم تكن مطروقة من قبل كمدح الامراء ، استدراراً لعطائهم ، أو كتصوير حياة الاحزاب ، وغير ذلك من الموضوعات التي تصف لنا حياة الدعة التي اخذ العرب باسبابها. ومن بين الشعراء الذين برّزوا في هذه الحقبة في المدح والهجو على السواء ، ثلاثة هم أنبغ شعراء عهد بني امية اسماً ، واعلاهم شأناً وذكراً ، الاخطل من قبائل الشام النصرانية ، والفرزدق وجرير . هنالك شعراء غيرهم ساروا على عمود الشعر العربي فتغنّوا ، في نظمهم ، بمآتي الجيوش العربية في فتوحاتها المظفرة ، كما نظموا في موضوعات شتى ، كالحماسة والموعظة والرثاء ، وفي العقائد وفقاً للاحزاب التي ينتمون اليها . ونرى كذلك ضروباً من النسيب والتشبيب ، شعراً يلتهب حباً عذرياً ، كما نرى في شعر مجنون ليلى ، أو يفيض اسى ً ولوعة فيصف لنا محاسن دمشق والمدينة ومكة ، على انغام المغنين

والقيان . اما النثر ، فيبقى باستثناء القرآن ، وقفاً على التغني بأيام العرب والحوادث المروية . كل هذا ، واللغة تزداد طواعية ومرونة ويسلس قيادهـــا مع المفسرين والمحدثين ، لتصبح في اواخر القرن السابع لغة الادارة والدواوين .

اما الادب القومي ، فمجال الكلام فيه قصير ، اذ لا يخرج معظمه ، عن التأليف الكنسي ، كما سبق وأشرنا الى ذلك من قبل . ومع ذلك ، اخذت تطالعنا بوادر حركة علمية ، تتمثل خير تمثيل في حركة الترجمة ونقل العلوم الدخيلة كعلوم اليونان والفرس والهند الى العربية ، على يد النصارى من سريان ونساطرة . فبينا لا نرى احـــداً يبرز في التاريخ عند الروم ، يلتمع امام نواظرنا اسم المؤرخ الارمني سَبَيُوس اذ بقيت بلاده تتمتع بشيء من الاستقلال الاداري ، في العهد الذي كتب فيه (القرن السابع) ، كما نرى ، عند الاقباط ، يرتفع اسم الكاتب يوحنا نيكيو . وهذان الكاتبان عاشا الفتح العربي وتركا لنا شيئاً عنه . وهكذا فالحضارة المسيحية ، في الشرق الادنى ، في القرنين السابع والثامن ، تتمثل خير تمثيل في الامبراطورية العربية ، بينما لا نرى في هذه الحقبة ، شيئاً عند الروم يستأهل الذكر والتنويه ، باستثناء بعض الآثار في التاريخ والتصوف ، وذلك في هذه الفترة الممتدة من منتصف القرن السابع حتى مطلع القرن التاسع .

وقد اشتركت الحضارتان معاً في ما نرى من انتاج فني ، يعهـــد به العرب الى المهندسين المعماريين من أبناء البلاد ويستخدمون له مواداً هي ، في معظمها ، من مخلفات العهود الماضية . فاذا ما اقتضت فروض العبادة ومناسك الدين في الاسلام ، ان يتميز بناء المسجد بالاصالة والاتساع من حيث مقاييسه ، فنقوشه وزينته من الداخـــل وتحليته تبقى مستوحاة من الطراز الوطني المعمول به في البلاد . وهذا الاستمرار في الوسائل التقنية والمضي في استلهام الموضوعات والنماذج الاهلية ، يبرز أكثر فأكثر ، في المباني المدنية بحيث ان نسبة قصر المشتى في الاردن ، تبقى أمراً مشكوكاً فيه جداً ، ولا يمكن بالتالي ، التسليم به بصورة مطلقة . ومن أشهر هذه الآثار الهندسية الباقية الى يومنا هذا ، مسجد عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، في الفسطاط ، ومسجد قبة الصخرة الذي يسميه البعض غلطاً مسجد عمر ، والمسجد الاقصى ، في القدس ، وكلاهما من انجازات الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، ويرجع تاريخ بنائها الى أواخر القرن السابع . وبعد ذلك بقليل المسجد الكبير في دمشق ، المعروف بالمسجد الاموي ، الذي كان ، أساساً ، كنيسة باسم القديس يوحنا المعمدان ، ولا يقل شهرة عن هذه المساجد مسجد القيروان الذي لم يبق منه شيء يذكر .

اقبال سكان البلاد الاصليين على اعتنـــاق الاســـلام

اخـــذ الوضع الناجم عن الفتح العربي يتغير تدريجياً ، وينقلب ظهراً لبطن ، تحت عوامل جديدة عديدة . منهـــا في الدرجة الاولى ، إقبال الاهلين على اعتناق الاسلام افواجاً افواجاً . وهي حركة تثير الدهش في مظهرها ، اذ يقوم بها اصحاب اديان اوفر غنى ، مادياً وحضارياً ، واوفر عدداً . الا ان هذه الحركة لم تأتِ سواءً ، في كل مكان ، اذ بقي في بعض الاقطار اقليات دينية

متراصة العدد ، كما هي الحال مثلاً ، مع الطائفة المارونية في لبنان . وقد كان المسيحيون ، على الاجمال ، اكثر تمسكاً بعقيدتهم ودينهم من الزردشتية ، مثلاً ، وهي ظاهرة يمكن ردهـــا بالاحرى ، الى اسباب عديدة ، منها مثلاً القوة الادبية التي كانت للمسيحية في كثير من الاقطار الاخرى ، ومن جهة اخرى ، تغلغل المسيحية بين الطبقات الشعبية في المجتمع القـائم اذ ذاك . ويتضح من جهة اخرى ، ان العرب ، خلافاً لما سار عليه الفاتحون من قبل ، اخـــذوا يدعون سكان البلاد لاعتناق دينهم ، بينما اعتاد الفاتحون فيما مضى ، ان يقبلوا على اقتباس ديانة البـلاد التي فتحوها ، وهي في مستوى ثقافي اعلى وارفع . ومهما بلغ من حـدة الجدل الديني ، وعنف الحروب التي قامت بين الاسلام والديانات الاخرى ، فقـد كانت هذه وتلك ديانات من نفس المستوى الذهني للمؤمن المتوسط ، اذ كان من العسير على المؤمن العادي ان يدرك ، او ان يفهم كما يجب ، او ان يميز بين مفارقات رجال اللاهوت . فبعد ان ملّ النصارى وسئمت نفوسهم عطـّن المناقشات التي ادت اليه المشاقات الدينية والمذهبية ، وهـذه الشروح ، والتفاسير والتعاليق الفلسفية اللاهوتية التي آلت اليها او شجرت عنهـــا ، فقد رأوا في الاسلام تبسيطاً معقولاً لمعتقداتهم ، غاية في الاستمرار والتركيز . وهـــذا الاسلام الذي اقبلوا عليه يعتنقونه زرافات ووحداناً ، كأنه لم يكن في نظرهم ، هذا الاسلام الذي خرج من بين يدي محمد : فهو دين طرأ على اتباعه تطور كبير منذ ان اصبح في تماس شديد مـــع الشعوب والبلدان التي تم إخضاعها ، بعد ان ادخل عليه معتنقوه من الاعاجم ما ادخلوا من رواسب تراثهم الروحي ، وبعد ان لفحوه بما لفحوا من صور ونماذج وقوالب جديدة . ولكي نفهم ، من جهة اخرى ، حركة اعتناق الاسلام بالجملة ، علينا ان لا نسقط من حسابنا الفوائد والمنافع المادية والادبية والاجتماعية التي طمع المؤمنون الجدد في قطفها من اعتناقهم الاسلام ، اذ ان اتخـــاذ الاسلام ديناً لهم ، يجعلهم من أبناء الطبقة السائـــدة المهيمنة في الدولة ، ومن أعضاء المجتمع المسيطر . وهكذا فاعتناق الاسلام ، كان في نظر القوم اشباعاً لنهم طبقي ، ولشهوة اجتماعية ، وتحقيقاً لرغبة او لحلم طالما راودهم بتحسين وضع اجتماعي ، وطالما اوردهم ، وهذا وضعهم ، مورد الذل والهوان ، أكثر مما هو ارضاء لنزعة دينية ، او لمطلب اسمى من مطالب النفس البشرية السامية . فالمرتدون الاسلام ، لم ينالوا حالاً ، المساواة مع العرب من الوجهة الاجتماعية ، التي طمعوا بالحصول عليها . فالاسلام الذي اعتنقوه لم يكن دوماً هذا الاسلام المتمثل في الحكومة والادارة المركزية . فهو كثيراً ما كان ، اسلام هذه الملل والنحل الاسلامية المعارضة . وهكذا فلكي تقوّي هـذه الملل من جانبها المستضعف ، وتشد من أزرها امام الاسلام الدولة او الاسلام الرسمي ، نرى اتباعها يقومون بجهد كبير لدى سكان البلاد الوطنيين ، لحملهم عـلى اعتناق الاسلام ، وفقاً لمقالتهم او حزبيتهم الخاصة .

فالدولة الاموية كرّست سيادة العرب وسيطرتهم . ففي نظر الفاتحين ، العربي والمسلم شيئان او وضعان مترادفان . فالاقبال على الاسلام واعتناقه بالجملة ، من قبل سكان البلاد ، ميمان هذا

الترادف ، وذهاب بهذا التوافق ، اذ في مثل هذه الحركة تغليب عنصر على عنصر آخر وترجيح فريق مسلم على فريق مسلم آخر ، والدين الجديد لا يقر مثل هذا الامر البتة . فالأول الذين اعتنقوا الاسلام من غير العرب ، أنزلوا منزلة القوم من القبيلة ، فجعلت منهم أشبه ما يكونون أبناء لها بالتبني، هم« الموالي »، بأخذ زعماء القبيلة لهم تحت رعايتهم وحمايتهم . ومع ذلك فوضع هؤلاء الموالي كان بالفعل ، دون أبناء القبيلة ، وهو وضع بَرِموا منه ، وتألموا له كلما ازداد عددهم ، وكلما تباعدت عن الاذهان ذكريات الفتح ، واخذت الدولة الجديدة في تنظيم امورها بعد ان اصبحوا ذخر الدولة يرفدونها بالعنصر الاداري . وقد اقتصر وضعهم في الحروب ، على دور ثانوي ، لا يخولهم أي حق بالغنائم والاسلاب التي يصيبها العرب في فتوحاتهم . وفوق هذا، فلم يكن وضعهم بالنسبة لنظام الضرائب مما يُرغِّب فيه . فاعتناقهم الاسلام ، كان يجب ان يؤدي ، في نظرهم ، الى اعفائهم من الجزية المضروبة عليهم قبل اعتناقهم الاسلام ، كما كان يجب ان تُحوَّل ضريبة الخراج المترتبة عليهم ، الى عُشر . فلم يحدث شيء من هذا عملياً . أفكان من المعقول ، ان تقبل الدولة بمثل هذا الرأي الخطل وقد أوشكت حروب الفتح ان تنتهي ، وان تقبل بمثل هذا الفيء المتدني من الرسوم والضرائب ؟ والحل الذي انتهوا اليه مع الوقت، هو الغاء الجزية ، هذا الميسم الذي يدمغ الذميين والخاضعين للاسلام ، على ان تستبدل ، فيما بعد برسوم اخرى تحل محلها ، وان بقي تصنيف الاراضي ، من الوجهة الضرائبية ، على ما كان عليه ، منذ الفتح : فتبقى ارضاً يترتب عليها الخراج ، هذه الاراضي التي يملكها صاحبها حتى بعد اعتناقه الاسلام . وهكذا استمرت قائمة، هذه الظاهرة ، ظاهرة عدم المساواة ، ممثلة خير تمثيل بالنظام المالي وجباية الضرائب ، هذا النظام الذي سارت عليه الدولة الجديدة . وأمام هذه الظاهرة من عدم المساواة ، قام المرتدون الى الاسلام يطالبون باجراء العدل بالسوية وتأمين المساواة بين المسلمين ، من أي جنس او عرق كانوا ، وليس بين العرب فقط . وهكذا ، فحركة التذمر التي ارتفعت ، اذ ذاك ، بين سكان البلاد ، لم تتجه ضد سيادة الاسلام وسيطرته ، ولا ضد الديانة الجديدة . فقد هدفت الى السيطرة على الاسلام من الداخل ، في هذه الأطر ذاتها التي ارتضاها الاسلام له وعمل بها. وعلى هذا الاساس، قامت الحركة في ايران، بلد الموالي الامثل، وفي المغرب الاقصى ، بين البربر من سكان البلاد الذين راح العرب يحيلون فتيانهم عبيداً ، وبعد ذلك ، في اسبانيا ، بين طبقة المولدين ، هذه الطبقة التي تألفت من ملاطي المسلمين او من الذين اعتنقوا الاسلام ، من سكان البلاد الاصليين . وبلغت الحركة اشدها في ايران ، وقد ساءها ان يعتمد الامويون على اهل الشام دونهم ، في تدبير امور دولتهم ، بينما رأى سكان الولايات الاخرى أنفسهم يذهبون هم أيضاً ضحية هذا النظام . والحال فقد كانت ايران ، من بين هذه الولايات ، القطر الوحيد الذي كانت له تقاليده الوطنية أو القومية .

وهكذا تلتقي في مجال النظام الضرائبي ، جنباً الى جنب ، القضية القومية والقضية الاجتماعية ، وزادتا تداخلاً وتشابكاً وتعاظلاً في نظام الملكية الذي عُمل به في الدولة الاسلامية . ففي ابان الفتح ، تُركت للعرب ، الحرية في ان يقتنوا ، شراءً او غلاباً ،

الاراضي التي كان على سكان البلاد ، مبدئياً ، ان يحتفظوا بها . الا انهم راحوا يوسعون من نطاق هذه الملكية عن طريق التَلْجئة ، وهي ضرب من التوصية او من الإرتفاق ، في الغرب ، يلجأ اليه من الناس المستضعفو الجانب ، ليأمنوا شر الجباة الشرهين ، وسوء معاملاتهم ، او لعجزهم عن تأدية الرسوم المتأخرة عليهم من السنين المؤجلة الدفع ، فيطلبون الانضواء تحت حماية زعيم قوي بعد ان يجعلوا املاكهم في استثماره وتحت تصرفه بصورة وراثية . امــا في المقاطعات والولايات الواقعة على الحدود ، فكثيراً مـا عمد العرب ، في غفلة من الخليفة او الأمير ، الى اغتصاب املاك السكان الذين لا يزالون متخلفين في تطورهم ، بعد ان يسيموهم الهوان الواناً ، كما فعلوا مثلاً ، مع قبائل البربر ، في المغرب . وقد رأينا في اماكن اخرى ، كايران مثلاً ، كبار الملاكين من سكان البلاد ، يعقدون صلحاً مع القادة من امراء الجيش ، من مندرجاته : استثمار الطبقات الشعبية السفلى ، بحيث يعارضون اعتناقها الاسلام ، لئلا يزعجهم مثل هذا الارتداد، في طريقة تأمين المنافع التي تؤمنها لهم هذه الترتيبات الخاصة التي عقدوها مع اولي الشأن . وهكذا نرى عدم المساواة تفرق بين النزعات الوطنية والنزعات الاجتماعية ، وفي هـذه المعارك التي لن تلبث ان قامت بين المسلمين ، نرى فيهـا كل فريق يضم بين صفوفه ، عرباً وغير عرب من الانصار .

اما على صعيد العواطف والمشاعر ، فالاصطدام وقـع بشكل مدهش : بين اشد العرب استمساكاً بالتقاليد ، من جهة ، وبين اشد سكان البلاد ثورة ومطلباً . فبينما راح الفريق الاول منهم يطالب بتطبيق الشريعة الاسلامية والتمسك بالتقاليد الاسلامية الاولى ، وهـذا يعني الوقوف في وجه الدولة الاموية النصف العلمانية ، بينما رأى الفريـق الثاني ، في تطبيق الشريعة الاسلامية، المساواة بين المسلمين ، على صعيد الأُطر والملاكات التي تنتظم الادارة العربية ، منذ الفتح . وبدون ان يوضحوا مطاليبهم والاهداف التي يرمون اليها ، نرى كلا الفريقـين يطالب الأخذ بتعميم النظام الاسلامي وتوسيعه. وهذا التحالف لم يكن قائماً على ما فيه لبس او غموض، فمن المعقول جداً ان تجمع الناس على استبدال نظام بغيض استطاع ان يطفىء بالدم الانتفاضات التي قامت هنا وهناك ، باتحاد اوسع واشمل ، وهو اتحاد ادى ، على ما حف به من غموض ، الى النصر المرتجى .

ثورة بني العباس وانقلاب الحكم

وقد اتخذت المعارضة اشكالاً شتى . فالخوارج نالوا تأييداً مؤزّراً في كل من ايران ومصر ، ولا سيما في المغرب حيث استفحـل امرهم وعظم شأنهم بعد ان استجاب الاهلون من البربر لهذه الدعوة لتوافقها مـع النزعات الفوضوية الدينية المتأصلة بينهم ، غير ان بُعْد بلاد البربر من جهة ، وانقسام فرق الخوارج على بعضها من جهة اخرى ، اذ كانت طبائعهم طبائع اهـل البادية الذين عُرفوا بالعنف والتهور ، كل ذلك حال دون ان يحققوا فوزاً فاصلاً . وقد وجدت الثورة خير تعبير لها في فرقة الشيعة ، او بالاحرى ، في هـذا الشعور العارم الذي كان الشيعة خير من يمثله ، الا وهي صورة سلطة يتلقى صاحبهـا من الله رأساً ، مناقب خاصة ، فكرة تستهوي معـاً

اصحاب النظرية التقليدية الذين يقدرون ما في رسالة محمد من قيمة سامية ، كما تبسم للايرانيين الذين أَلِفوا حكم الساسانيين وارتاحوا اليه . وقد اخذ البعض يضيفون الى نظرية الحكم هـذه ، آراء وتعاليم تعكس امجاد السلف والجدود عند الاعاجم . وكان الشيعة يطالبون بان يكون الحكم في اولاد علي بن ابي طالب وذريته ، بينما راح غيرهم يتمسك باسرة النبي دون ان يخصوا منها فرعاً معيناً ، واظهروا استعدادهم لمناصرة اية حركة ذات شأن . واستطاع احـد اولاد العباس ، عم الرسول العربي ، بما تم له من دراية وحسن سياسة ، ان يقيم له داعية في خراسان (مقاطعة تقع الى الشمال الشرقي من ايران) ، هو ابو مسلم الخراساني ، وان يوجه هذه المعارضة لمناصرة آل العباس ، وان يسقطوا الخلافة الاموية عام ٧٥٠ ، فيؤسسوا هكذا دولة جديدة استطاعت ان تستمر في الحكم ، ولو نظرياً او مبدئياً ، على الاقـل ، الى مطلع القرن السادس عشر .

حاولت الدولة الاموية، لعمري، ان تكيف نفسها حسب مقتضيات الوضع القائم، واستطاع الخليفة عبد الملك ، ان يُوحّد ، لاسباب اقتصادية وسياسية مما اقتضتها حروب الامويين ضد البيزنطيين ، ضرب السكة والنقود في ايام حكمه ، فضرب نقوداً تحمل كتابة عربية ، منهـا الدينار الذهب ، وزنته ٤ غرامات و٢٥ سنتيغراماً ، والدرهم الفضة ، وزنته غرامـان و ٧٩ سنتيغراماً ، وهي اسماء مشتقة أصلاً من الدينـار والدراخم البيزنطيين ، وكانت قيمة الثاني الى الاول بنسبة ٧ الى ١٠٠ على اساس الفضة ، اي بمعدل ١ ٠١ من سعر الذهب . ومن الاعمال التي حققها الخليفة عبد الملك ، في عهده ، تعريب الادارة ولغة الدواوين ، اقله في مركز الخلافة . وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وهو الملك المثالي ، في نظر المؤرخين العرب بتقواه ، ان يطبق خلال حكمه الذي دام سنتين لا غيره ، البرنامج المالي أو الضرائبي الذي طالب به أهل المدينة . وعلى ضوء حالة الحرب مع بيزنطية التي لم تعد ، كما في الماضي ، سلسلة متصلة الحلقات من الانتصارات ، ندرك بعض الشيء ، سياسة الشدة والتدابير القاسية التي اتخذها الخليفة ، ولا سيما يزيد الثاني ، ضد النصارى ، في بعض المناطق ، ولا سيما ضد الملكيين ، اذ فرض عليهم ابراز جواز سفر في تنقلاتهم في أطراف مصر ، كما فرض عليهم زيّاً خاصاً من اللباس ، وتحطيم الشارات المسيحية البارزة للعيان . كل هذه التدابير ، لم تكن على شيء من الرصانة ، ولم تأت باي علاج للمشكلة المتأتية عن اعتناق الايرانيين للاسلام بالجملة ، كما انها لم تفد شيئاً ولم تُجْدِ فتيلاً في تأخير اعلان الثورة ، ولا في إنساء أجل سقوط الخلافة الاموية .

بالطبع لم يستطع النظام العباسي الجديد الرجوع بالنظام المالي الى ما كان عليه من بساطة في عهد محمد . فلم يُدْخِل أي تغيير على نظام الخراج . ومع ذلك ، فقد كانت الدولة الجديدة تختلف كثيراً عن السابقة . فالفضل في النصر الذي حققه العباسيون وبه استطاعوا الإطاحـة بالخلافة الاموية ، انما يعود ، أصلاً ، لعرب العراق الذين ناصبوا الامويين في الشام العداء ، ولا سيما للموالي من الايرانيين ، وعلى الاخص ، للخراسانيين من بينهم ، اذ كانوا ذخر الدولة العباسية وسيفها المصلت ، فأعادوا الاعراف المتبعة في عهد الدولة الساسانية . امـا البدو من العرب ،

فقد أُبعدوا الى الصحراء بعد ان يئسوا من تطويرهم وتكييفهم ، كما أبعدوا كذلك، عن الجيش ، الذي تألفت صفوفه من الخرسانيين ، فاقبلوا ينخرطون في كتائبه واصبحوا العنصر الفني فيه ، ورمزاً لهذه التغييرات الجديدة أو تكملة لها ، تأسست عاصمة جديدة للدولة العباسية ، هي بغداد ، التي قامت على مقربة من مدينة طيسفون ، عاصمة الساسانيين من قبل. وقد انتقل معظم سكانها الى العاصمة الجديدة ، ونقلوا معهم عاداتهم واعرافهم . وهكذا زالت سيادة اهل الشام وذهبت سيطرتهم مع ذهاب الدولة الاموية ، فتحول قطب الجذب ونقطة الدائرة ، من البحر المتوسط ، الى المحيط الهندي وبحر العرب .

هدف النظام العباسي الجديد الى وصل ما انقطع من التراث الساساني ، كما رمى ، من جهة اخرى ، الى إحلال التمسك باهداب الدين محل « الالحاد » الاموي . فالنظام القائم هو نظام إسلامي ، لان صاحب الامر فيه هو من سلالة النبي ، فاتاح له ذلك ، ان يتمتع ، بوصفه الإمام، بكل ما لهذا المركز من المهابة والجلال والوقار ، دون ان تكون له القوة ، بالفعل ، ليغير شيئاً من الشريعة او ان يكملها . وهذه الصفة الفائقة للبشر التي تلبّستها ، الامامة ، تجعلنا ندرك جيداً البذخ الذي كان عليه بلاط الخليفة ، وعزلته عن الناس ، بحيث لا يتيسر لهم رؤيته ، الا في مناسبات خاصة ، كالاعياد العامة مثلاً ، وهو يرتدي بابهة وجلال ، ملابسه الفخمة تحفّ به كل مظاهر المهابة والوقار ، تشبهاً بملوك الدولة الساسانية ، من قبل . اسلامي كذلك هذا النظام القائم ، لانه قضى على كل ما يشتمّ منه امتيازات سياسية ومالية ، وقضائية وعسكرية ، بحيث تعود فائدتها على المسلمين كافة ولا تقتصر على العرب وحدهم . اسلامية أيضاً هذه الدولة لاعتمادها كل الاعتماد على علماء الدين والفقهاء ، حتى اذا ما اجمعوا على امر كان اجماعهم هذا تبريراً له ، واعترافاً بعدم مخالفته او مغايرته للعقيدة الاسلامية ، بحيث ان جميع المؤسسات والنُظُم التي طلع بها الحكم قد تبدو وكأنها من مستلزمات التنظيم الاداري للدولة . وعلى هذا الاساس يجب ان نفهم « كتاب الخراج » الذي ألّفه ابو يوسف الانصاري ، المتوفى ٧٩٨ ، بأمر من الخليفة هارون الرشيد .

فقد اعتمدت الادارة العباسية المناهج الادارية التي عول عليها البيزنطيون والساسانيون، من قبل ، وهي ادارة ، تألفت أصلاً من عدد من الدواوين المتلاصقة – ومن كلمة ديوان هذه اشتقت كلمتان فرنسيتان ، هما *Divan* و *Douane* – يشرف عليها موظفون اداريون كبار ، اشبه ما يكونون ب *Sekretu* لدى البيزنطيين ، دون ان يتألف من مجموع رؤوساء هذه الدواوين ، مجلس وزراء . وخلافاً لما كان يجري في بيزنطية حيث كان الامبراطور هو نفسه ، روح هذه الدواوين وهمزة الوصل بينها ، كان الخليفة العباسي ، في بغداد ، يعهد بالاشراف على الديوان ، الى وزير يشبه من بعيد ، *bozorg - frahmadâr* لدى الساسانيين. وكان الوزير يتعهد تأمين العمل الاداري ، مستعيناً على ذلك بعدد من العمال يأتي بهم من بين انصاره ورجاله. ولذا كان يُخشى من نفوذ سلطانه ، وهذا ما حدث بالفعل للبرامكة ، هذه الاسرة الفارسية التي

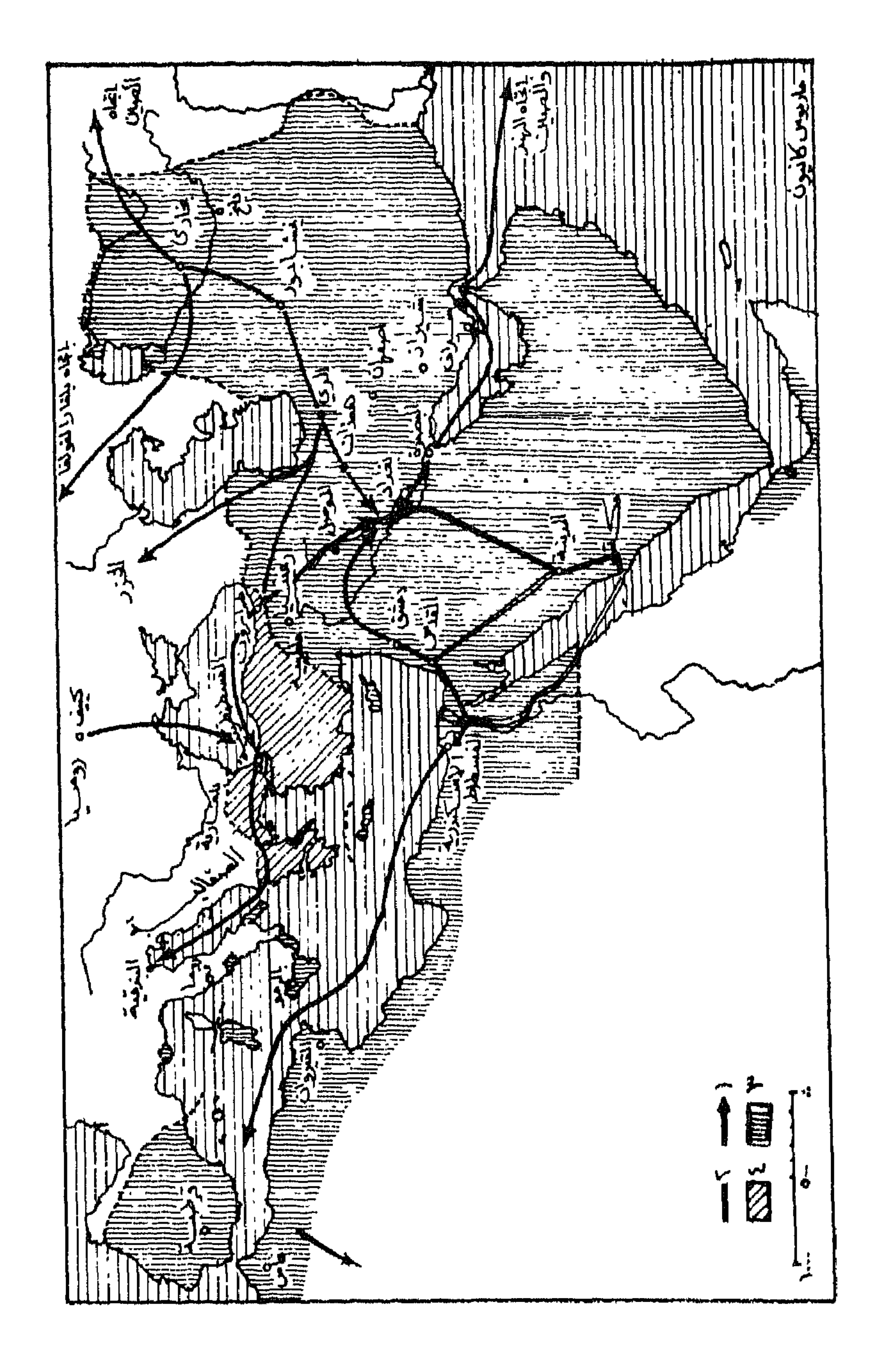
اثارت ، بما بلغته من غنى وسؤدد وسلطان ، هواجس الخليفة هارون الرشيد ، فنكبها شر نكبة ونكل برجالها وقضى عليهم . ومن اهم الدوائر التي يهم الوزير انتظام العمل فيها دائرة جباية الرسوم والبريد ، وديوان الرسائل . وكان البريد يؤمّن ، احياناً نقل بعض الامتعة الخاصة ، انما الغاية الكبرى منه تأمين تبليغ العمال ، في الولايات ، الاوامر والتعليمات الصادرة من الحكومة ، كما يحمل الى الادارة المركزية مطالب الاهلين في الملحقات ، ومظالمهم . فالبريد كان يلعب ، في هذا المجال ، دور الامن العام ، في حكومات هذا العصر . ويقوم باعمال البريد سعاة يستخدمون الخيل لقطع الطرقات ، وهي على الاجمال حسنة ، يقوم على ابعاد متساوية ، محطات خاصة لتأمين حاجة المسافرين ، وتسهيل متابعة سفر البريد بالسرعة المرجوة . أما الدواوين القائمة بمعية الوزير ، فكانت تقوم باعداد الاوامر ، وتعيين الموظفين والكتبة والعمال ، وتأمين المراسلات الديبلوماسية بعد ان يمهرها الوزير بخاتم السلطان .

وهذه الادارة التي عولت اكثر ما عولت على الدواوين ، كانت تكثر من القراطيس والوثائق والمحفوظات ، كما تكثر من السجلات الرسمية . وهي ادارة مركزية ، قائمة دوائرها الكبرى في العاصمة بغداد . وهذا لا يعني قط ان الفوارق الاقليمية مثلاً ، ولا سيما ما تعلق منها بجباية الرسوم والضرائب ، قد زالت واختفى كل اثر لها من الوجود . وكانت هذه الدواوين تجمع في مكاتب الادارة العامة ما تحتاج اليه من المعلومات ، كما كانت تشرف على اصدار الاوامر والتبليغات ، وتؤمن استلام رسوم الجباية ، بعد حسم تكاليف الادارة المحلية . وكانت ادارة الملحقات تمتاز ، هي ايضاً بالدقة كالادارة المركزية . وكان يقوم في الولاية قائد يمثل الخليفة ، كما ان الوزير كان يتمثل فيها بحاكم مدني او عامل ، اليه امر الولاية وضبط الادارة ، يستقل الواحد عن الآخر ، يشرف الاول على الجيش كما يؤمن الثاني الولاء للخليفة والموارد المالية التي تحتاج اليها الادارة .

اما العدل الذي كان امره ، ابداً على هامش الادارة او الحكم ، فقد بقي من اختصاص القاضي . غير ان عدم كفاءة القانون احياناً ، وعدم وجود الموجبات القانونية للمراجعة او الاعتراض ، وعجز القاضي عن تنفيذ الاحكام التي كان يصدرها على الزعماء النافذين ، كل هذا اضطر الدولة لايجاد دائرة خاصة يشرف عليها قاضٍ ، هي ديوان المظالم الذي كان ينظر في امور التجاوزات على حقوق الآخرين . اما الفقهاء فكانوا يعملون بالتعاون مع القضاة في كل ما يساعد على تطبيق احكام الشريعة . وهكذا رأينا يطل علينا قضاء دولة الى جانب قضاء شرعي يمثله القاضي . وقام في حواضر البلاد الكبرى ، دوائر للشرطة كان يعهد اليها السهر على الأمن وتأمين راحة العباد ، مستعينة في تحقيق هذا كله ، على فرقة « الاحداث » ، او الفتوّة .

استمرار الاضطرابات

وهذا النظام او الحكم الاسلامي القائم ، كان اعجز من ان يحل كل المشاكل العارضة ، أو ان يزيل اسباب شكوى الشاكين او الناقمين ،



شكل (رقم ٥) ـ العالم الاسلامي حوالي القرن التاسع

١ ـ الطرق التجارية ٢ ـ طرق الحج ٣ ـ اراض اسلامية ٤ ـ اراض بيزنطية

التي اتخذت منها الثوره العباسية "تكأة" لها . فالفوارق السياسية والاجتماعية لم تفقـد شيئاً من حدتها ، اذ لم يؤخذ شيء من اصحاب الاملاك الكبيرة ، عرباً كانوا ام اعاجم ، لارضاء هذه الطبقات، او للحد من هذه المعارضة الدينية، عن طريق فوز حلف تألف من اشتات الاحزاب، فكيف يرضى الشيعة مثلا ، عن عهد ، ليس رجاله والقائمون على امره من ولد الامام علي بن ابي طالب ، وبين انصار الامويين ، فريق من الاكراد، تشبع بالتقاليد القديمة ، وبينهم ظهرت فرقة الزيدية . كذلك بقيت راكدة تحت الرماد ، هـذه الحزبيات والعصبيات التي فرقت بين العصبيات ، او انها انبعثت من جديد تحت مظاهر واشكال جديدة . فانتصـار الايرانيين لم يزحزح العرب من طريقهم ، بل إضطرهم احياناً للوقوف موقف المعارض . امـا المنتصرون الحقيقيون ، فقد كانوا اهل خراسان الذين تركوا جانباً ، فئات كثيرة من الايرانيين تعرضت من قبـل لأذى الساسانيين ولسوء معاملتهم ، فبقوا على تشكياتهم يتذمرون بمرارة . ولعلهم قابلوا بشيء من الاسف والحسرة ، بروز بعض الاعراب الذين ساعـدهم انتصارهم على الظهور، فسارعوا ، بعد ان تمت لهم الغلبة، للتخلص من بطلهم القومي بالقضاء على ابي مسلم الخراساني الذي امّن النصر للعباسيين . كل هذه الامور تبقى غامضة ، مبهمة ، مجهولة ، تصعب معرفتها بالتفصيل المرتجى ، الا انها واضحة في خطوطها الكبرى بحيث نفهم جيداً وندرك تماماً ان هذا الغليان الفكري والاجتماعي الذي هيأ الثورة العباسية لم يهدأ بعد ان تمت له الغلبـة وحقق النصر .

وهذا الاضطراب الذي ضرب سرادقه عالياً في كل مكان : في اسبانيا حيث إستطاع احـد الامراء الامويين بعد ان نجا بنفسه من المذابح التي اعدهـا لهم العباسيون ، ان ينشىء له دولة مستقلة ، وفي المغرب، مع الخوارج كما سنفصّل ذلك بعد حين ، وفي مصر، تحت ضغط عمـلاء الخراج الذين زاد وضعهم حرجاً ، الصعوبات الناجمة عن الاتجار مـع بيزنطية ، وفي سوريا التي لم تغفر للعهد الجديد ، إغتصابه السلطة منها والاستئثار به دونها . ومما هو اوقع مدلولاً من هذا كله ، وافدح نتيجة ، الاضطرابات التي شجرت في ايران نفسها ، حيث نرى تطل علينـا ، تحت مظاهر دينية ، مطالب ادهى واكثر تعقيداً . وبجمـل القول ، فهذه المنطقة الجبلية الممتدة بين خراسان وارمينيا وما اليها من سكان، سوادهم يعيشون على جوانب الاسلام في هذه المناطق الجبلية التي تشرف على قزوين ، تبقى ابداً في غليان من جراء هـذه الدعوات الدينية المتتالية التي ادت اليها بعض التعاليم الدينية الاسلامية المنحرفة بما يحتمل به سكان هـذه المناطق من رواسب المانوية والزردشتية ، هذه القوالب الدينية التي حنّت اليها دوماً نفوس الطبقـات الشعبية في ايران القديمة . وهكذا كشفت هـذه الاقوام عن وجود معارضة قوية ، قومية ، واجتماعية ، انتصبت في وجه هـذه الاوساط الحاكمة التي ربطت مصيرها ، في المجالين الديني والسياسي ، بمصير العباسيين « الشعوبيين » . ومن اعماق بعض هـذه الانتفاضات انطلق عجيج المطالب الصاخبة ، فرددت اصداءها طبقات الفلاحين الرازحين تحت جور كبـار الملاكين ،

فراحوا ينزلونهم ، وفقاً لنزعاتهم الدينية ، منزلة الغريب المغتصب . ولعل ادهى هذه الثورات طراً ، الثورة التي قام بهـــا الخرمية ، فانطلقت من بدعة اسلامية منحرفة قالت بمبدأ الخير والشر ، واقرت عبادة ابي مسلم الخرساني ، وقالت بالتناسخ والاباحة الجنسية ، وباستواء الاديان جميعاً ، وذهبت للمطالبة بالمساواة الاجتماعية . فبعد ان هُزِم زعيمهم بابك الخرمي ، في مطلع القرن التاسع ، في اذربيجان ، انضمت بعض فرقهم ، فيما بعد ، الى الثورة التي قام بها مزيار . واذ ذاك ، قام صعاليك الفلاحين يهاجمون كبار الملاكين من العرب ، في هذه الاقطـــار الجبلية الواقعة الى الجنوب من بحر قزوين ، مما اضفى على هذا العراك طابعاً قاسياً . وبعد ان سيطر الخرميون واتباع مزيار على المنطقة سيطرة تامة ، حقبة من الدهر ، انهزموا شر هزيمة ، في عهد المعتصم ، على يد قائده الافشين . الا ان ابادتهم لم تؤدِ قط الى اية تهدئة في المعارضة التي اخذت تعتمد ، منـــذ ذاك ، على عناصر اسلامية خارجية . صحيح ان العباسيين خرجوا من المعمة ظافرين ، كاسبين ، الا ان الجهود القومي الذي بذلوه لم يبق بدون تأثير على هـــذه التغييرات العسكرية التي ستفضي بهم الى الهاوية ، بعد حين .

الفكرة الدينية

وهذا التطور ليس باقـل وضوحاً منه في الاخرى ، ان دخول السكان في حظيرة الاسلام واقحام الاسلام بالتالي في الحضارات القوميـــة وتغلغله في الطبقات الشعبية كان بمثابة اقحامه في هذه المشكلات الملازمة لهذه الحضارات ، واعطاء العالم الاسلامي حضارة واحدة حلت محل الحضارتين المتجاورتين اللتين رافقتا قيـام الدولة الاموية . ففي هذه المحاولة لتوحيد الحضارة ، راح اهالي البلاد الوطنيون يطالبون عالياً ، في ان يكون لهم دور بارز ليس في المجال الروحي فحسب بل ايضاً على الصعيد الاجتماعي ، ولا سيما الايرانيون بينهم ، عن طريق اعتمادهم الشعوبية . فالعنصر العربي لم يكن ليهمل جانبه ، مع هذا فالاسلام نفسه ، منذ دعوته الاولى ، اثار ضمناً هذه المشكلات ، ووعد اتباعه بالثراء والنعمى ، فجـاء الاعاجم بينهم يسهمون بتحقيق الوعود المقطوعة . في هذا الايغال عميقاً في الفكرة ، وفي هذا التوسيع في جنبات المعرفة ، ساهم عدد كبير من العرب ، كما ساهم باعداد اكبر ، الاهلون من سكان البلاد ، لا سيما الموالي بينهم . وهذا التمييز العرقي العنصري الذي تلبسه الغموض وسيطر عليه الابهام احياناً ، لم يُعد له من اهمية أو قيمة . فالكل يشاركون في نهج واحد من الحيـاة : فالشيء المهم الآن هو ان الثقافة الجديدة التي تطلع على البلاد ، لم يعـــد يعبر عنها باليونانية او السريانية ، بل بالعربية . وهكذا صح لنا ان ندعي قيام ثقافة عربية . ولغة العلم والعلمـــاء انفسهم ، التي أينعت وأثرت ، فارتاضت ولانت ، لم تعد هي العربية الدارجة . صحيح ان العربية الدارجة تغلغلت عميقاً بين الطبقات الشعبية ولا سيما بين الجماعـــات اليونانية والقبطية والسريانية ، بعد ان اصبحت اللهجات المحلية من قبل لدى هذه الطوائف ، لا يفهمها غير رجال الدين . فكان لا بد للعربية من ان تظهر وتظفر ، بعد ان اصبحت لغة القادة والزعماء والشريعة الاسلامية . وهل كانت بلغت ما وصلت اليه من سيطرة وسيادة وسؤدد ، لو لم يتم لها ما تم من

دقة البيان في التعبير ؟ الا ان الانتصار الذي حققته كان لعمري ، ابعد من ان يكون كاملاً .
فاللغة البربرية بقيت اللغة المحكية في المغرب . والجدير بالملاحظة هنا هو ان الايرانيين الذين لم يجدوا قط غضاضة عليهم في ان يمتنقوا دين الفاتحين ، احتفظوا في معاملاتهم بلهجاتهم المحكية ، ولم يلبث بعضها ان اصبح لغة الفكر والادب ، بعد ان تأثرت كثيراً ، في مفرداتها تأثراً لم نر له مثيلاً في دراسة علم اللغات وتطورها .

فان لم نستطع ان نحدد بالفعل ، هذه الفوارق بوضوح وجلاء ، فسهولة العرض تقتضينا ان نلقي تباعاً نظرة عجلى على النشاط الفكري الذي تجلى باحسن مظاهره ، اذ ذاك ، في هذا التيار الذي رمى الى تفهم اعمق وتطبيق ادق للاسلام ، او التيار الآخر الذي يتمثل في ثقافة اغنى واوسع ، هي على الغالب ، خارجية عن الاسلام . فتفهم الاسلام يقوم اساساً على تفهم القرآن، فادت هذه الحركة الى هذا الفيض من التفسير والشرح والتعليق، وتعدد مجامع الاحاديث النبوية ، وغربلتها وتخلها لانتقاء صحاحها ، بعد ان ارتاب كثيرون في صحة جانب كبير منها ، مما اقتضى عدداً من الاسانيد التي ، وان لم ترض النقد الحديث ، تشهد ، أقله، على هذا الاهتمام، وعلى هذا الحرص لتمييز الصحيح من المدخول أو المنحول أو المدسوس منها،فكانت هذه الصحاح التي من اثبتها صحيح البخاري ، ومسلم (اواسط القرن التاسع) . ولكي يطمئن المرء الى انه يفهم فهماً صحيحاً منطوق الآيات الكريمة ومدلولها ، اضطر الناس لدرس مباني اللغة من صرف ونحو ، ومعنى المفردات واشتقاقها واصولها ، وكلها علوم قام عليها علماء اعلام ، ولا سيا بين الاعاجم من سكان البلاد الاصليين . وقد سيطر في هذه الحقبة التي امتدت اكثر من قرن مذهبان في اللغة : مذهب البصريين وزعيمهم غير المنازع سيبويه ، ومذهب الكوفيين .

وبعد ان استقرت النصوص واتضحت منها المعاني والمدلولات ، كان لا بد من لاهوت يشرح أحكام العبادة ، ويوضح الحق العام والخاص ، ويؤمن له الانسجام ويوضح معاينه . كل هذا تم في القرن الاول من الدولة العباسية ، على يد كبار علماء الدين والفقهاء . فالذين باعد بينهم نظرياً ، ليس اختلاف النص ، بل الروح الذي يستعملون فيه تطبيق هذه الآيات ، وغيرها من الأحاديث الدينية . فالمذهب المالكي اعتمد النص الحرفي . اما الشروح والتفاسير التي لا بدّ منها فيتقبلها اذا ما حازت اجماع علماء المدينة ، لأنها مدينة الرسول ومهد الاسلام . اما مذهب ابي حنيفة ، فهو على عكس المذهب السابق الذكر ، يرتكز على الفكر الشخصي ، أي على الاجتهاد ، شرط ان يحظى بالاجماع ، وليس بآراء فقهاء المدينة وحدهم . فأمام هذا التجاوز في الحرية الذي قلق له البعض ، ومع اعتقادهم انه من المستحيل ان ينص الكتاب على كل شيء ، راحوا يقولون بالقياس جوازاً . وهو ما قال به المذهب الشافعي بالذات . وبحركة رجعية ضدّ المذهبين الأخيرين اللذين رماهما بالتجديد المذموم ، وامام المشاكل التي عانت منها الجماعة كثيراً ، راح ابن حنبل يدعو للتمسك بالتفسير الحرفي للكتاب ، دون ان يبالي برأي الفقهاء وغيرهم من علماء الأمة . هذه هي المذاهب الفقهية الاسلامية الاربعة الكبرى التي يعترف بها السنة والتي يجوز لأي مسلم ان يتشبع

منها ما يريد ، وبالتالي القاضي الذي يعهد اليه النظر بأمور الناس ويقضي فيهم .

وقد انتشر المذهب المالكي في المغرب الاقصى ، بينما سيطر المذهب الشافعي ، خلال الأجيال الوسطى ، على العالم الشرقي الذي نطق باللسان العربي ، قبل ان يتنكر له الأتراك ليقتصر ، فيما بعد ، على جزر الملايو. وقد كان للمذهب الحنفي مثل هذا النفوذ وسعة الانتشار، عند العباسيين ولا سيما عند اهل خراسان فيما بعد ، وعمل الأتراك على نشره في جميع البلدان والأقطار التي رفرف فوقها لواؤهم . اما المذهب الحنبلي الذي لم يعرف له رواجاً كبيراً الا في العصر الحديث ، عند الوهابيين ، في الجزيرة العربية ، فقد كان أثره بارزاً في عدد من الأقطار التي يتكلم أهلها العربية . وهذه المذاهب الفقهية الرئيسية الأربعة التي يجب ان يضاف اليها المذهب الجعفري المعمول به لدى الشيعة ، تمتاز فيما بينها باعتمادها على الاجماع ، أي اتفاق الفقهاء والعلماء رأياً في موضوع معين . وهكذا فلا نرى عند المسلمين قانوناً او تشريعاً واحداً ينبثق عن هيئة تشريعية في الدولة ، انما يوجد لديهم قوانين تأتي من خارج الدولة ، وعلى الدولة ان تأخذ بها وان تطبقها . فالقضية تقوم كلها على معرفة ما تقوم عليه دكتاتورية الفقهاء في وجه الدولة . ففي مطلع العصر العباسي نرى أنفسنا لا نزال من الاسلام الدوْلة في طور التنظيم .

وهكذا بعد ان اعتمد الفكر الاسلامي على اللاهوت والفلسفة ، وجد نفسه ، وجهاً لوجه أو أخذ لحسابه مواجهة هذه القضايا البشرية الخالدة التي تلازم كل الديانات الكبرى . منها مثلاً قضية الحرية والقدر . فبين قدرة الله الكلي القدرة وعدله الالهي، وبين القدرة والحرية الشخصية، راحت نصوص القرآن والحديث تتسع لكل التفسيرات . فالقدرية التي قال اصحابها بحرية الارادة، في اواخر الدولة الاموية، بدا اصحابها في نظر الأمويين عناصر تدعو للعصيان والثورة، الامر الذي جعل العباسيين يرحبون بهم . ثم طلعت علناً قضية العقل والايمان . وهكذا ظهر علم الكلام أو القياس الفلسفي ، والمتكلمون ، اي جماعة الذين يعتمدون على الكلام لتوضيح ما غمض من الوحي المحمدي وتفسيره . وهكذا طلعت النظرية الدينية الشعبية التي أخذت بمبدأ التشبيه . ولما كانت هذه النظريات مجردة ، أي عقلانية ، كان يخشى ان تبدو مخالفة للدين أو مغايرة له بعض الشيء . فقد نشب ، في هذا المجال ، جدل عنيف كان له اثره العظيم على التطوير الفكري في الاسلام ، تمثل في مذهب المعتزلة ، الذي ضم ، في الاساس ، قوماً همهم جداً النقد الادبي ، والإتزان السياسي ، فناصروا الدعوة العباسية . فراح بعض خلفائها يؤيدون الاعتزال ويفرضون على الناس الاخذ به والدعوة له . وقد علّمت المعتزلة القول بخلق القرآن فادخلت القلق والاضطراب على القلوب والاذهان ، وانتهى الامر الى محاربة الخلفاء العباسيين الذين جاؤا بعد المأمون ، للقائلين بالاعتزال .

الثقافة القديمة والنزعات الدينية

وهكذا بلغنا عطفة حساسة من تاريخ الثقافة في الشرق الادنى. فقد نظر العرب الى التراث الادبي القديم نظرتهم الى عنصر دخيل جاءهم من الخارج . فقد عني الداخلون في الاسلام حديثاً ، بدمج الديانة الجديدة في تقاليدهم

واعرافهم الفكرية . ومثل هذا الاهتمام واجهه المسيحيون في العصور السابقة . الا ان ادماج ادب دين جديد في تراث امة ما ، كان بحاجة الى عملية توضيح ، أي الى شيء من التكييف والتركيز . ومن جهة اخرى ، اتخذت هذه الثقافة ، اللغة العربية اداة تعبير لها واقتضت جهداً طيباً من الترجمة والتعريب ، والتفسير والتعليق والتلخيص . فهذا التشابك والتداخل بين التقليد والأعراف المتباينة الذي شهدناه في العصر العباسي ، لم يلبث ان ادى سريعاً الى وضع هذا العصر ، وجهاً لوجه مع التفاعل والانفعال المتبادل ، وبالتالي الى اغناء بعضهما البعض ، والى طلوع عدد من الاكتشافات الجديدة . وهكذا ، بدون ان يحدث أي تغيير جذري على أسس الفكر ، في تلك الحقبة ، شهد العالم ، مع ذلك ، يقظة عارمة تشبه من نواح كثيرة ، الانبعاث الفني والفكري الذي شهدته اوروبا في القرن السادس عشر ، فادى الى نجاحات وتطورات مدهشة .

انصرفت الجهود ، بادىء ذي بدء ، لتأمين حركة نقل العلوم الدخيلة وترجمتها ، وهي حركة اخذت بوادرها تظهر في عهد الدولتين البيزنطية والساسانية ، على يد علماء السريان ومفكريهم ، وادبائهم . وقد اعتمدت الترجمات الجديدة على نقول سبق وضعهما بالسريانية ، الى ان عادت تعول على النصوص اليونانية الاصيلة . ولقيت حركة الترجمة والنقل تشجيعاً حاراً من الخليفة المأمون الذي اخذ تحت رعايته ، عدداً كبيراً من المترجمين في الشرق ، فنهلوا ، على نطاق واسع ، من الادب اليوناني ، كما نهلوا ، على نطاق اضيق ، من اللغة الفهلوية التي كانت اداة الاتصال ، بين الهند والبحر الابيض المتوسط . وقد اقتصرت حركة النقل هذه ، على المؤلفات العلمية التي يسهل تطبيقها عملياً ، وعلى الفلسفة ، بعد ان حاولت البدع الدينية التي أطلّت اذ ذاك ، ان تجد فيها سلاحاً لها في هذه الخصومات والمجادلات الدينية التي شجرت ، اذ ذاك . اما الآثار اليونانية الادبية او التاريخية الصبغة ، فقد استبعدها النقلة العرب ، عمداً وقصداً ، كما استبعدها من قبل واهمل نقلها السريان والنساطرة ، هم ايضاً . وقد سار الغرب ، فيما بعد ، على هذا النهج ، عندما راح ينقل ، بدوره ، الآثار الادبية التي خلفها الاسلام والمسلمون . فقد نقل العرب ، عن الفهلوية او الهندية ، في عداد ما نقلوا من الآثار العلمية ، القصص والحكايات والامثال التي وصل منها قدر كبير الى عهد لافونتين فاستخدمه ، كما نقلوا غير ذلك من القصص التي لقيت رواجاً عظيماً لدى الشعب . والجدير بالملاحظة والتنويه عالياً ، هو ان ، في دولة سيطر فيها الايرانيون ، ورجحت فيها كفتهم ، استمر المسلمون ، في نقل كل ما يتصل بتاريخ ايران وتاريخ العرب القديم معاً ، بينما بقي التاريخ اليوناني الروماني مستبعداً .

فكل الملل والنحل والاعتقادات شاركت ، على اقدار متفاوتة ، بهذه الحركة . ان اعتناق عدد كبير من سكان البلاد ، الدين الاسلامي ، وانتشار اللغة العربية في الاقطار وبين الطوائف التي بقيت على النصرانية او على اليهودية ، والاتصالات العلمية بين العلماء المتخصصين ، ولا سيما بين الاطباء ، كل هذا وما اليه هو من بعض النتائج التي اتيح لنا تسجيلها ، بحيث ان الثقافات

الاصلية وجدت نفسها منقسمة الى قسمين متباينين. دخل اولهما كمنصر مقوّم، في ما اصطلحوا على تسميته بالثقافة الاسلامية ، بعد ان أسقِط في ايديهم ايجـــاد صفة اخرى اكثر ملاءمة. اما الثاني الذي يجب قصره على المجال الديني ، والتسلم بتمتعه بشيء من الاستقلال الذاتي ، فقد تبلور في ما بدا من آثار اللغات السريانية والقبطية والفهلوية والعربية ، حتى بعد ان استعربت، فقد بقيت على هامش التيار الكبير، وظهرت مظهر المستحاثات المتحجرة وهو طابع ما لبث ان زال من الوجود في اواخر الاجيال الوسطى .

وهكذا انتشرت ، في الشرق ، مؤلفات ارسطو الحقيقية او تلـــك التي انتحلها أصحاب الافلاطونية الحديثة ، كما انتشرت مؤلفات ابوقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس ، وبين هؤلاء النَقَلة الذين كانوا، في الوقت ذاته، كتاباً مشهوداً لهم بالابحاث الدينية والفلسفية، الراهب النسطوري حنين بن اسحق ، والرياضي الصابيء ثابت بن قرّه من حران ، وكلاهما من رجـال القرن التاسع ، وقد كان سبق لابن المقفع ، احد اعلام الكتاب العرب في ذلـــك العصر ، ومن كتاب الرسائل المشهورين ، ان ترجم عن الفهلوية كتاب كيلة ودمنة .

وتجند لهذا الغرض عدد كبير من المترجمين ، كما قام للترجمة مدارس عديدة . وحدث ايضاً ان الادب المسيحي وجد طريقه الى اللغة العربية لتقريبه من اذهان المسيحين. فاذا كان البطريرك ديونيسيوس التلمحري (+ ٨٤٥) كتب بالسريانية ما كتب في العلوم الدينية والتاريخ ، فقـد وضع الراهب الملكي ثيودسيوس ابو قره مصنفاته باللغة العربية ، ناهجاً في ذلك ، نهج القديس يوحنا الدمشقي .

فقد كان من جراء اختيار الافكار ، وظهور بعض الصعوبات التي اعترضت عمليـة الانسجام والتكيف مع الوضع الجديد، ان احدث الهيجان بين اليهود فالترحيـب الذي كان يلاقيه، من حين لآخر ، من يدعون انهم المسيح المنتظر القادمون من اسبانيـــا الى فارس ، كان يسبب سجسّاً كبيراً بين أتباع هذه الديانة من جراء اجترارهم للتعاليم التلمودية . وكانت الولايات تشعر ، في الصميم بوطأة الدكتاتورية الادبية والسيطرة الاقتصادية التي تمت لعلماء الناموس في العراق . وقد حدث ان اشتد شأن شوكة فرقة القرّائين التي وُجد عدد من اتباعها في بلاد القرم. فقد كانوا ، وهم يحاولون الرجوع لأسفار العهد القديم ، يحاولون تفسير عقائدهم الدينية ، وفقاً للمبادىء التي قالت بها المعتزلة .

لا نعرف شيئاً يذكر عن طائفة الزردشتية . وجُل ما نعرف عنها ان في القرن التاسع تم جمع النصوص الدينية القديمة المعروفة بالنصوص الأفستية ، كما تم وضع مؤلفات دينية جديدة لهذه الطائفة ، محاولة من اصحابها المحافظة على تراثهم امام الاسلام ، كما ان في هـــذا النشاط شهادة عالية على حيوية هذه الطائفة . وقد يكون مسلكها هذا اوحى للعباسيين الموقف الذي وقفوه من أتباع المانوية ، بعد ان نعم أصحابها بالتسامح الديني الذي نعم به أتباع المذاهب الدينيـة ،

الاخرى ، فقد اخذوا بمطاردة رجالها بعد ان رموهم بالزندقة ، وهي التهمة التي ألبسوها ، بعد ثورة بابك الخرمي؛ لكل هذه الدعوات الدينية التي خشيت السلطة جانبها وأوجست منها شراً، باستثناء الشيعة والخوارج. وقد رأى العباسيون أثراً للمانوية وتعاليمها في هذه الثورات الاسلامية والحركات الهدّامة التي قامت بها بعض الفرق الدينية ، في ايران ، بعد ان هدد نشوبها الدولة العباسية بأخطار شديدة .

فالازدهار الفكري والادبي ، وهذه الانتفاضات التي جرّت اليها بعض المعتقدات الدينية . لم تكفِ لتملأ وحدها كل نشاط الاسلام. هنالك اناس ظمئت نفوسهم للكمال الانساني، وهامت قلوبهم بمكارم الاخلاق والتقرب من الله . من المحال التساؤل ما اذا كان التصوف الاسلامي نص عليه الاسلام الاول، ام اذا كان نشأ عن العادات والاعراف الدينية التي حملها معهم السكان الذين اعتنقوا الاسلام، ام اذا كان نشأ عن الحياة الرهبانية عند المسيحيين والهنود. فقد كان التصوف، في مظاهره الاولى ، لدى بعض الاشخاص ، نوعاً من الزهد . وقد تمثل على أتمه في عهد الدولة الأموية ، في شخص الحسن البصري . ولما راح يستعيض عن الادعية الاسلامية بطلبات تهيء قائلها للانخطاف الروحي ، راح العلماء والحكام ينظرون اليه نظرة كلها التشكك والتحسب . وقد استطاع رجال الصوفية ان يتعرفوا ، تدريجياً ، الى النظريات التي تقول بها الافلاطونية الحديثة ، مما أدى الى تجديد في الافكار الصوفية . فقد راح المتصوفة يلبسون « الصوف » مسوحاً لهم ، ولعل من هذه الكلمة اشتقت ، في الاسلام ، كلمة « الصوفية » .

الآداب والفنون

بعد ظهور الآثار الفلسفية والدينية ، في القرن الاول من الدولة العباسية ، ازدهرت حركة أدبية عارمة عادت على اللغة العربية وآدابها بالثراء والنمو ، بما اطلعت من الروائع الادبية في الشعر والنثر، فتصقلت معها العقول والاذواق، وهذبت الخيال والعاطفة ، بقطع النظر عن القصص والحكايات الشعبية التي كان يتناقلها النـــاس اباً عن جد . وهكذا ظهر « الادب » الذي كان يراود ظهور الرجـــل الاديب ، في القرن التاسع والعصور التالية . وقد دخل الانشاء الادبي كل المؤلفات الادبية والدينية ، اذ اضفى عليها عبارة رشيقة وبياناً ناصع الاسلوب ، يقبل على الاخذ به ، كل من تعشق الحرف ومال اليه . والفضل في ظهور الادب على هذا الشكل ، يعود للكاتب البصري المشهور الجاحظ (٧٧٦ – ٨٦٨) الذي عرف ان يوفّق بين مذهب البصريين والكوفيين . كذلك عرف ان يوائم بين تعاليم المعتزلة وبين ما تم له من ثقافة عريضة ، متنوعة ، كل ذلك في بيان عربي ناصع ، ولغة ساخرة ، متهكمة ، كما يبدو لنا ذلك في كتابه «الحيوان»، وهو كتاب في العلوم الطبيعية، حشاه معلومات لا تثمن وأقاصيص كل مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية التي هزّت مشاعر جميع معاصريه . وبعد الجاحظ بقليل ظهر الكاتب الفارسي المشهور ابن قتيبة الذي شارك الجاحظ في تكييف الادب العربي .

اما الشعر فهو اكثر تمسكاً من النثر ، بالتقاليد العربية . وقد لمع في هـــذا العصر شاعران كبيران ، هما : ابو تمام والبحتري . وضع كل منهما « حماسته » التي بالرغم ممـــا فيها من شعر

منحول ، وسرقات شعرية ، تبقى اثراً لا تبلى جِدّتُه . فالشعر « الحديث » يطـــل علينا من شعراء ايرانيين ، شعرهم عطـــل من اية مسحة اسلامية ، يفتقر كلياً للترصن والاخلاق الرضية ينضح احياناً بالفجور ومجون البلاط ، ويفح منه الحب العابث الذي تعتمه السكر يسير مترنحاً في الازقة والشوارع ، انما هو شعر ينبض بالرقة والاحاسيس المرهفة ، بانتظـــار طلوع الشعراء الناجحين الذين يأخذون بمعالجة الموضوعات السياسية والدينية، وما لبثوا ان فضلوا على القصيدة العامرة الابيات المبنية، على عمود الشعر العربي ، شعراً مهفهف العاطفة ، يتمثل خير تمثيل بالرمز. ولعل اكبر هؤلاء الشعراء وأسيرهم ذكراً هو ابو نواس (+ ٨١٥) ويجب ان نذكر معه شاعراً آخر ، عُرِف بالوصف الدقيق ، تولى الخلافة ليوم واحـــد ، هو ابن المعتز (اواسط القرن التاسع) .

وبنسبة ما نستطيع ان نتبين الامور ، نرى ان الفن العباسي اخذ يزدهر بدوره ، محاولاً ان يوحد بين مختلف المذاهب : فالمساجد ازداد عددها ازدياداً كبيراً لاستيعاب المسلمين المتزايـد عددهم باستمرار،وذلك عن طريق بناء مساجد جديدة او بتوسيع القديم منها. فمسجدالقيروان، يعود القسم الاساسي منه الباقي لليوم ، الى مطلع القرن التاسع ، وبقي طراز بنائه منسجماً مع الطراز الهندسي للمساجد السورية التي اقيمت في العهد الاموي . وعلى عكس ذلك ، نرى قصور الخلفاء العباسيين في العراق ، تستوحي في عمارتها التقاليد الساسانية . فان لم يصلنا بالفعل شيء من المدينة « المستديرة » اي بغداد القديمة ، فقد وصلنا من الفن المعماري العباسي المدني ، بقايا حرية بكل ملاحظة ، هي كل ما تبقى من مدينة حلت يوماً ان تحل محل بغداد كمركز للخلافة ، هي مدينة سامراء التي كان يعلوها برج عالٍ يشبه ابراج النار المعروفة لدى اتباع الزرادشتية . وهذا الفن يستفيق على نفسه وينشط ، مـــع ان معظم الانشاءات الباقية منه لليوم ، تعود الى تاريخ لاحق للعهد الاول من دولة العباسيين . ويجب ان نشير ، منذ الآن الى الفارق الذي يزداد اتساعاً وتبايناً بين المباني المدنية والمباني الدينية . ففي الاولى نرى رسوماً بشرية وحيوانيـة كثيراً ما عمد اليها الرسامون في تزيين الحاجيات العادية ، مهما كان من تأثير حركة تطورية ظهرت فيما بعد ، وسيطرت على بعض المناطق دون غيرها . امـا في الثانية ، فلم تلبث هذه الرسوم ان حُرِّم استعمالها ، اذ كان مرآها يبعث ، كما هي الحيال في الديانة العبرية ، على الاعتقاد بشيء من عبادة الاصنام .

*

الحياة القلقة في بيزنطية

تبدو بيزنطية ، ازاء العالم الاسلامي في القرن الثامن ، مدعاة للاسف والسخرية معاً . فقد خرجت من العاصفة التي هبت عليهـا في القرن الماضي ، مثخنة الجراح ، مهشمة الجناح ، فراحت ببطء وتمهل كلي ، تستجمع قواها وتسوّي من حالها وتعيد تنظيم شؤونها في الداخل . والأزمة الدينية التي اخذت تتربص بهـا من جديد ،

تنسجم الى حد بعيد ، مع الاحداث والافكار التي تتفاعل بها وتمتلج، هذه الولايات التي اقتطعها منهـا الاسلام .

وقد أرغمت الامبراطورية على التخلي عن الكثير من المقاطعات الاخرى : فقد اخـذ سكان ايطاليا في الولايات التي لا يزال مصيرها مرتبطاً بمصير بيزنطية ، ينفضون عنهم تباعـاً ، سيطرة اجنبية طالما بَرِموا منها ، ارهقتهم فارزحتهم : تحت وطأة جباية صارمة زادت تهجماً وتجهماً بعد فقدانها الشرق ، ونفرتهم بهذه الارهاصات الدينية ولم تمنع عنهم خطر الغزو اللمبـــاردي . وستفلت منها صقلية في القرن التاسع . ولكن ما العمل وهذه كلهـــا ممتلكات نأت عن قلب الامبراطورية ومركزها، يغلب في الحفاظ عليها الغرم على الغنم. اما في البلقان ، فقد أصبح الخطر البلغاري ، بعد عام ٧٥٠ ، في المنطقة الواقعة عند الدانوب الاسفل ، سيفاً مصلتاً فوق رأسها وكابوساً يقض مضجعها . وقد استقر الصقالبة في الباقي من اطراف شبه الجزيرة البلقانية ، بعـد ان أقصوا قليلاً الى الشمال . وبفضل عملية تبادل السكان الصقالبة في اسيا الصغرى ، والاسيويين في اليونان وتراقيا ، استطاعت الامبراطورية ان تعيد سيطرتها التامة على مناطق حيوية جداً لها. أما الى الشرق ، فلم يقم بين المسلمين والبيزنطيين ، اثر الفشل الذي آل اليه حصار العرب الثاني للقسطنطينية ، عام ٧١٨ ، سوى غزوات دورية ، عرفت عند المسلمين « بالصوائف » ، لم تحدث تغييرات جوهرية في مناطق الحدود الدائرية بين الجانبين ، وان كانت انزلت فيهـــا الخراب والدمار. وهكذا اقتصرت الامبراطوية بالفعل، على المناطق المحيطة ببحر ايجه ، وهي مناطق معظم سكانها اغريق أو متأغرقون، انتفت منها أو كادت تنتفي ، الفوارق العنصرية او العرقية.

وهذا الانكماش او التقلص الجغرافي لرقعـــة الامبراطورية ، تم وسط تغييرات وتطورات اجتماعية من الصعب على المؤرخ ان يتبين مداها ، وان يحدد ابعادها . فالحاجـــة الشديدة لليد العاملة التي عانت منها المقاطعات الصالحة للزراعة ، في القرون الماضية ، حل محلها الآن ، فيض من الشغيلة ونقص في الاراضي الصالحة للزراعة ، بقطع النظر عن الوسائل التقنيـــة الزراعية . والذي يبدو للمدقق ، مع انه من العسير جداً تحديد الكيفية ، ان الممتلكات الواسعة والاقطان الشاسعة ، انكمشت رقعتهـــا بعض الشيء ، بينما ازدادت الملكية الصغيرة ، وهو تطور جاء ، لعمري ، مفيداً جداً ، للتنظيم العسكري . ولعل خير دليل على ذلك ، القانون الزراعي ، هذا القانون الذي صدر في مطلع القرن السابع ، والذي ينوّه بوجود جماعات او فرق ريفية ، بدا لبعض المؤرخين ان يروا في طلوعها، أثراً من آثار الجماعات الصقلبية التي تكاثر عددها بين طبقات الفلاحين وسكان الريف . وهذا الاثر لا يمكن تجاهله او التغاضي عنه. فهو يتمثل، خير تمثيل، في هذه المستعمرات الريفية التي عرفت ان تندمج وتنصهر في هذه الأطر والملاكات البيزنطية ، مع ان المبالغة في تقدير هذا التفوذ وتقييمه لا تخلو من خطر ، اذ ان هذه الجماعات التي يشير اليهـا القانون الزراعي لا تتضامن فيما بينها الا امام جباية الرسوم وفرض الضرائب ، مع العلم ان هـذه الجماعات القروية الصقلبية لم تتعرف على نظام الا بعد ذلك . ومن جهة ثانية ، نرى ان نمو الملكية

الصغيرة وتوسعها لم يقض على الملكيات العلمانية الكبيرة، ولاحال دون اتساع الملكية الكنسية . فادّخار الاوقاف ، والهبات التي كان يجود بها المؤمنون ليرفع الله غضب السماء عنهم ، وليجنبهم الويلات التي ما زالت تنتابهم ، ورغبتهم في استيداع املاكهم ومقتنياتهم في حماية الكنيسة ، كل ذلك ساعد كثيراً في اثراء وثراء الاكليروس القانوني والعلمـــاني ، ولا سيا الاديار التي ما زال نفوذها الادبي والمادي ، آخذاً بالنمو والازدياد في جميع انحاء العالم المسيحي .

والصفة العسكرية التي طبعت نظام الحكم والادارة في بيزنطية اذ ذاك ، ولا سيا البـــلاط الامبراطوري ، أدّت عن طريق التجـــديدات التي أتـّخذت والتي يعود بعضها أصلاً، الى عهد الامبراطور يوستنيانوس ، ومعظمها في عهد اسرة الامبراطور هرقل ، الى اعادة تنظيم الجيش والادارة معاً . فقد كانت ادارة الولايات ، من قبل ، بيد الحكام المدنيين ، مهما دعت الاعمـــال الحربية ، الادارة العسكرية والجيش الى التدخل ، حتى عندما يضطر الوضع العسكري الجيش للبقاء في الولاية ، فتقوم الادارة المدنية فيها بتأمين أو د الجيش وما يلزمه من تجهيزات ، ولو التجأ أحياناً الى اعمال المصادرة والاستملاك . اما الآن فقد انقلبت الامور أمـام خطر الوضع القائم ، وانعكست الادوار وبسطت الادارة . فقد انقسمت البـــلاد الى دوائر عسكرية أو « ايالة » يقيم فيهـــا جيش يتولى قيادته قائد ، يضطلع نفسه بكل اعباء الادارة المدنيـة ويشرف على اعمالها المختلفة . وتوريدات الجيش ووسائل اعالته تتأمن محلياً ، ليس عن طريق المصادرات الادارية ، كما في السابق ، بل عن طريق اقطـــاع افراد الجيش ، حصصاً في الارض يستثمرونها في ما يؤمن معيشتهم وأوَد ذويهم . وهكذا عمموا على كل الجيش في الامبراطورية البيزنطية نظاماً خاصاً يعرف عندهم بـ *Limitanei* (وباليونانية *Akritai*) جرى تطبيقـه ، منذ عهد بعيد ، على « حلفاء » روما من البرابرة . وهذا النظام الذي جاء تكملة طبيعية لقيام المستعمرات العسكرية، كان له تأثير بالغ على روح الجيش ومعنوياته، اذ انه ساعد كثيراً على نمو الملكية الصغيرة وما ادّت اليه من نتائج اجتماعية .

من المفارقات الصارخة التي استبدت بالخواطر اذ ذاك ، هو ان الاعمال الحربية، بين المسلمين وبيزنطية التي ركدت ريحها وخفّ أوارها ، قد اعقبتها بالفعل على ما يظهر ، حرب إقتصادية. ان اخفاء الطابع الاسلامي على النقد المتداول ، واحتكار الدولة لمصانع ورق البردي، والتدابير التي تتسم بالحذر وعدم الثقة ، التي اتخذها المسلمون ضد النصارى ، ولا سيا ضد الملكيين اوغرت صدر اباطرة بيزنطية وحملتهم على اتخـــاذ تدابير زجرية ، انتقامية . فاذا كانت رقعة الامبراطورية تقلصت وانكمشت ، فقد بقيت بيزنطية سيدة البحر ، كما يشهد على ذلك القانون المعروف بقانون الرودسيين، وهو اشبه ما يكون بالقانون البحري الذي تمّ وضعه في ذلك العهد. فالاباطرة البيزنطيون المعروفون باسم الاسرة الايصورية ، الذين انتهجوا هذه السياسة الحازمة ، لم يكن بوسعهم قط ان يحولوا دون ذهاب سيطرة الامبراطورية على التجارة مع آسيا وتفلتها

من ايديهم ، حتى انهم رأوا انفسهم مضطرين للتنازل للتجار ولكبار اصحاب الاقطاات الواسعة المسيطرين على القطاع الخاص ، عن تأمين تمويل القسطنطينية الذي كان تحت اشرافهم المباشر ، والتوقف عن توزيع المواد الغذائية على الفقراء من سكان المدينة . ولذا راحوا يحاولون الحؤول دون إتجار الدول الاسلامية مع اوروبا ، كما سعوا لابقاء القسطنطينية وبعض الموانىء البحرية الكبرى التي يسيطر عليها البيزنطيون ، تتحكم بالنقل التجاري وتأمين الاشراف على الملاحة في البحر المتوسط ، ناهجين النهج الذي كانت نهجته انكلترا في العصر الحديث بتحكمها بمسالك البحار على نطاق اوسع . غير ان النجاح لم يحالف قط هذه السياسية البعيدة المرمى . فاذا ما امكن الاستمرار في عملية تأمين أوَد العاصمة والبلاط الامبراطوري ، وهما هدف الحكومة الاول والاكبر ، فلم يعرفوا ان يحولوا دون هبوط الحركة التجارية في حوض البحر المتوسط الغربي .

فاذا ما اخذنا بوجهة نظر المؤرخ البلجكي هنري بيرين الذي كان رائداً من رواد البحث في هذا المجال ، فالاسلام هو المسؤول عن تدهور التجارة في البحر المتوسط ، في هذه الحقبة ، وعن انقطاعها المفاجىء الذي ادى الى زرع الاضطراب والبلبلة في حياة الغرب الاقتصادية ، اذ ذاك وتدهور الوضع التجاري الذي لم يكن كاملاً ، يمكن رده مع ذلك الى اسباب ودوافع اخرى فقد رأى فريق من المؤرخين ان الاسلام احدث يقظة عارمة في الحركة التجارية في الغرب : ألم يكن مؤسسه ورجاله الأول تجاراً ماهرين من قبل ؟ أو لم يُكتَب لاتباعه ان ينشروا ألوية الاسلام في كل قطر وصقع ، فرفرفت اعلامه وخفقت بنوده ، فوق هذه الاقطار الواقعة بين السودان في الجنوب ، ونهر الفولغا في الشمال ، او الممتدة من الصين شرقاً الى مشارف جزيرة مدغسكر جنوباً ؟ ومن جهة ثانية ، ان تدهور الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، تمّ قبل الفتح العربي الاسلامي بكثير ، ولم يكن للاسلام كبير اثر عليه . فقد عرفت بيزنطية ان تحافظ على تجارتها وعلاقاتها الاقتصادية مع ممتلكاتها الواقعة الى الجنوب من ايطاليا ، وعلى شواطىء البحر الادرياتيكي . فالركود التجاري الذي اصيبت به البلدان الواقعة الى ما وراء هذا القطاع الجغرافي المحدود ، يجب رده ، الى هذا التطور الداخلي الذي اخذت به اوروبا ، اكثر منه الى هذه السياسة التي انتهجتها بيزنطية فأبت عليها ، لاغراض مالية ، ان تتجر مع اي قطر ، او تقيم علاقات اقتصادية مع اي مرفأ لا يقع تحت سيطرتها واشرافها المباشر ، وهو وضع لم يلبث ان ادّى ، بعد لأي قصير ، الى سيطرة مدينة البندقية على الملاحة البحرية سيطرة كادت تكون تامة ، وتحكمها شبه المطلق ، بالاسواق التجارية ، اذ ذاك . ومن جهة اخرى ، فالغرب الاسلامي كان بَعدُ ، طري العود ، خشِن الطباع ، ليبعث النشاط في الحركة التجارية مع بلدان الشرق الادنى . ولم يحدث هذا كله الا بعد ان تم للاسلام السيطرة على جزر البحر المتوسط والتحكم ، بالتالي ، بالملاحة البحرية بين اطرافه المتباعدة ، وذلك منذ القرن التاسع .

تكريم الايقونات المقدسة وتحطيمها يقيم بيزنطية ويقعدها

عانت بيزنطية، في هذه الحقبة، من قضية دينية اقامت الاهلين واقعدتهم في جميع انحاء الامبراطورية البيزنطية، لم يكن من الصدف قط ان تحدث، في هذا الوقت بالذات الذي شهدت فيه آسيا الغربية، ولا سيا الولايات التي تجاذب اطرافها المسلمون والبيزنطيون، هـذه الاضطرابات التي كانت ارمينيا نقطة الدائرة منها . فالحماية التي تمتعت بها هذه المقاطعات الناعمة بشيء من الاستقلال الداخلي تحت اشراف الاسلام، فصلت بين الكنيسة الارمنية والقسطنطينية، وباعدت بين الطرفين . وقد ساعدها الوضع السياسي المضطرب الذي ساد تلك المنطقة وسيطر عليها، في نشوب هرطقات دينية حادة، كالهرطقة «البولسية»، التي لا نعرف شيئاً يذكر عن تعاليمها ولا عن نشأتها والتي ترتبط بعض الشيء، بتعاليم مرقيون التي انتشرت من قبـل، في مصر والشام وفارس، وآلى امرهـا الى مذهب مانى الذي كان اساس تعليمه الثَّنَوية اي القول بوجود عنصرين الهيين : الخير والشر، وهي مقالة سيطرت ردحاً من الدهر، على اذهان الناس وتفكيرهم وتحكمت بايران قبل الفتح الاسلامي . وقد كان من اشد المنكرات لدى اتباعها القول : بالتشبيه ووضع الصور للمقدسات والمؤلهات، وهو َحنَق شاركهم فيه، الى درجـة اخف، جيرانهم اتباع العقيدة القائلة بطبيعة واحـدة في السيد المسيح، اذ كانوا يأبون التسليم برسم صورته لانه يتنافى والألوهية . ففي هذا الجو العابق بالكره للصور والحنق الشديد عـلى من يرسمها، نشأت هرطقة تحطيم الايقونات والتنكر لتكريمها، هـــذه الهرطقة التي اقامت الناس واقعدتهم، ومزقت الامبراطورية كل ممزق، اذ لم يعـــد الامر محصوراً كما في العصور الماضية، بجدل لاهوتي، بـــل تعداه الى العبادة، ليستحيل، بعد قليل، قضية سياسية واجتماعية، هزّت الخواطر واقلقتها .

من مظاهر التقوى والعبـــادة لدى الشعب البيزنطي، تكريم ُصوَر القديسين والايقونات المقدسة، وهى عبادة غالى الشعب في بعض مظاهرها وخرج عـن الصدد المرسوم، اذ اتجهت بالاكثر، الى الرمز منه الى المرموز اليه، وأوشكت ان تفضي الى الصنمية او عبادة الاصنام . وهذا الانحراف في التقوى عن هدفها الاسمى، كان يسبب صدمة عنيفة في النفوس العطشى الى النقاء الروحي ذات الحساسية الدينية المرهفة التي احبت ان ترى في نائبات الدهر والنكبات التي توالت على البشرية، في ذلك العصر، صواعق السماء وذاجر غضبها، تأديباً لهم على معاصيهم . لما كان من الامبراطور ليون الثالث الأيصوري ان اصدر، عام ٧٣٠، امراً بتحطيم الايقونات المقدسة، بعد ان حرّم تكريمها، وتقديم أي احترام لها . فليس من عجب ان يقابل المؤرخون المسيحيون هذه التدابير التعسفية، وهذه الاضطهادات، بالحقد ويناصبوها العداء، ويروا فيها رجع صدى للتدابير التي اتخذها الخليفة الاموي يزيد الثاني، بهـذا المعنى . ومن الثابت ان فكرة محطمي الصور من البيزنطيين ومعظمهم ينتمون الى الولايات الشرقية في الامبراطورية، تتصل من قريب، بالمسلك الاسلامي المسيحي، وتمت الى الدعاوة البولسية والمونوفيزية بأوثق

الصلات ، وتنضح بل تنثرى بالكثير من مقالة المعتزلة التي احدثت ثورة في قلب الاسلام . وقد انطلق صوت يوحنا الدمشقي مدوياً في الشرق ، يعدّ القائلين بتكريم الايقونات المقدسة بالحجج الدافعة والبراهين الدامغة : فاذا وجب رذل عبادة الصور والايقونات ، فليس من ينكر ما لها من قيمة تهذيبية مثالية تحتذى، ورمز مستطاب لا بد منه للحفاظ على ايمان حيّ ، حي ، يخشى عليه من التجريد الجاف .

ولم تلبث المعركة الدائرة حول الصور ان ارتدت مظاهر جديدة وتلبست وجوهاً جديدة وكثر المناضلون عنها والمكافحون دون شرعيتها بين الرهبان، وفي مقدمتهم ثيوذوروس الستودي (مطلع القرن التاسع) ، اذ ان الحياة الرهبانية بدت منفّرة للعقليين ، كما ان عدداً كبيراً من الايقونات المقدسة الموجودة في الاديار ، كانت تولي اصحابها الكثير من النفوذ والسلطان ، كما تجلب لهم وللاديار التي تحتفظ بها ، الكثير من الربح الحلال والدخل الوافر ، ممثلاً بهذه النذور والأعطيات التي يغدقها المؤمنون بسخاء . ولم يكن بمستطاع هؤلاء الاباطرة العسكريين، ولا في مقدورهم قط ان يتصرفوا بهذه الكنوز ولا ان يتسلحوا بما للاديار من هيبة ونفوذ ، كما تشهد على ذلك الاجراءات والتدابير المالية التي اصدرها ضد الاديار ، في مطلع القرن التاسع الامبراطور نيقوفورس الاول ، مع كونه من اتباع القائلين بتكريم الصور، ومن انصارهم. وقد احتدمت هذه المعركة وبلغت ذروتها من الشدة ، في حقبتين متواليتين (منتصف القرن الثامن والربع الثاني من القرن التاسع) واصبحت حدثاً مميزاً في هذا الصراع الطويل يقوم به الامبراطور للسيطرة على الكنيسة ، وللحد، على الاخص ، من نفوذ الرهبان ، والخفض من سيطرتهم الاقتصادية والاجتماعية . فلاعجب ، والحالة هذه ان تثير هذه المعركة المحتدمة ، صعوبات جمة مع الغرب ولا سيما مع البابوية حيث لم تتجاوز عادة تكريم الايقونات الحد المعدل ، ولم تبلغ الزبى من الغلو ما بلغته في الشرق ، ولذا لم تستصوب الاسباب والدوافع الكامنة وراء الدعوة لتحطيم الصور وتحريم تكريمها . وفي النهاية لم تلبث السلطة الامبراطورية ان نكصت على اعقابها وانثنت وتحطمت التدابير التعسفية التي اتخذتها على صخرة التقوى الشعبية والتضامن الشديد الذي قابل به الشعب المؤمن والرهبان ، استعداء الدولة للايقونات والتنكر لتكريمها .

وهكذا استحال هذا التضامن الديني الصلب شكلاً من اشكال الوطنية الواعية ، واصبح شعاراً يرفع في وجه هذه المقاطعات والولايات التي يتسكع سكانها في مهاوي الهرطقات والتعاليم الدينية الهدامة ، والطابع المميز للتاريخ البيزنطي ، ليس بالنسبة لماضي هذه الامبراطورية فحسب بل ايضاً بالنسبة للعالم الاسلامي المجاور لها. كل ذلك جاء نتيجة لخفوت النشاط الفكري والادبي ، البارز هنا بروزه في كنيسة الغرب ، ولا سيما منذ ان جرى التعبير عن خواطر الجماعات الاسيوية وافكارها، في أُطر المدنية الاسلامية وحضارتها . وقد بقيت مقالة البولسيين الدينية المرطقة الوحيدة ذات الصولة في الامبراطورية البيزنطية ، الى ان محقت بالدم واطاشت جذورها ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، في هذه العمليات الحربية التي اقتضتها تقوية

الحدود ، ودعا اليها تدريع الثغور ضد الهرطقة ، الطابور الخامس للمسلمين بين صفوف الارثوذكسية . وهكذا خرجت الكنيسة من محنة بدعة تحطيم الايقونات ، ممحصة ، مطهّرة منقاة ؛ مجلوة كالعروس في خدرها ، كما يتمثل الوضع خير تمثيل في صورة ثيوذوروس الستودي وهكذا بمؤازرة قوى الشعب وأيده ، خرجت الكنيسة في الشرق اقوى جانباً واصفى عقيدة وأدل فناً ، وابين تعبيراً ، وانصع رمزاً بما اعترف للايقونات المقدسة من تكريم يتجه للرموز اليه اكثر منه للرمز .

ومع ذلك ، فقد كان من توالي الضربات ، وفقدان الامبراطورية لخير ولاياتها واغناها ، اكبر الاثر على الآداب والفنون . فقد مر معنا كيف انه حتى مطلع القرن التاسع ، لم يمدنا الادب بغير عدد وجيز من سير القديسين . فلا مؤرخين ، ولا فلاسفة ولا مفكرين حتى ولا لاهوتيين . فالقديس يوحنا الدمشقي ، ابرز رجال العصر فلسفة ونضالاً عن تعاليم الكنيسة ، لمع اسمه وشاع ذكره في محيط اسلامي . والفن ، عاودته الحياة وعرف شيئاً من النشاط ، وان لم تترك لنا بدعة تحطيم الصور وتحريمها ، شيئاً من اثر العهد يمكن التعويل عليه لابداء رأي معلل مسنود . واستناداً الى مخلفات الفن في العصر اللاحق ، يحق لنا ان نقرر بان التنكر للايقونات وتحريم صنعها ، ساعد كثيراً على البحث عن رسوم للتحلية والزينة . وقد راح فنانون شرقيون ، ولا سيا الارمن منهم ، يعنون ، باحياء رسوم التحلية والتزيين ، من حيوان ونبات ، مما هو متبع في بلادهم الام . والبعض منهم يحيون تقاليد مدرسة الاسكندرية الفنية ويبعثونها حية . وهكذا يصح لنا ان نتكلم عن ظهور فن علماني ، بينما الفن الديني ، بعد ان عم انتشاره بين طبقات الشعب أصبح يقنع برسوم عادية من الحياة اليومية ، توحي الكثير من السخرية اللاذعة التي تذكرنا بفن الغرب ، اذ ذاك . فزوال بدعة تحطيم الصور والايقونات وضع حداً لتحلية الكنائس بالرسوم الدنيوية . اما في مجالات الفن والفكر الاخرى ، فسنشهد ، منذ منتصف القرن التاسع ، يقظة فنية وادبية حرية بالذكر .

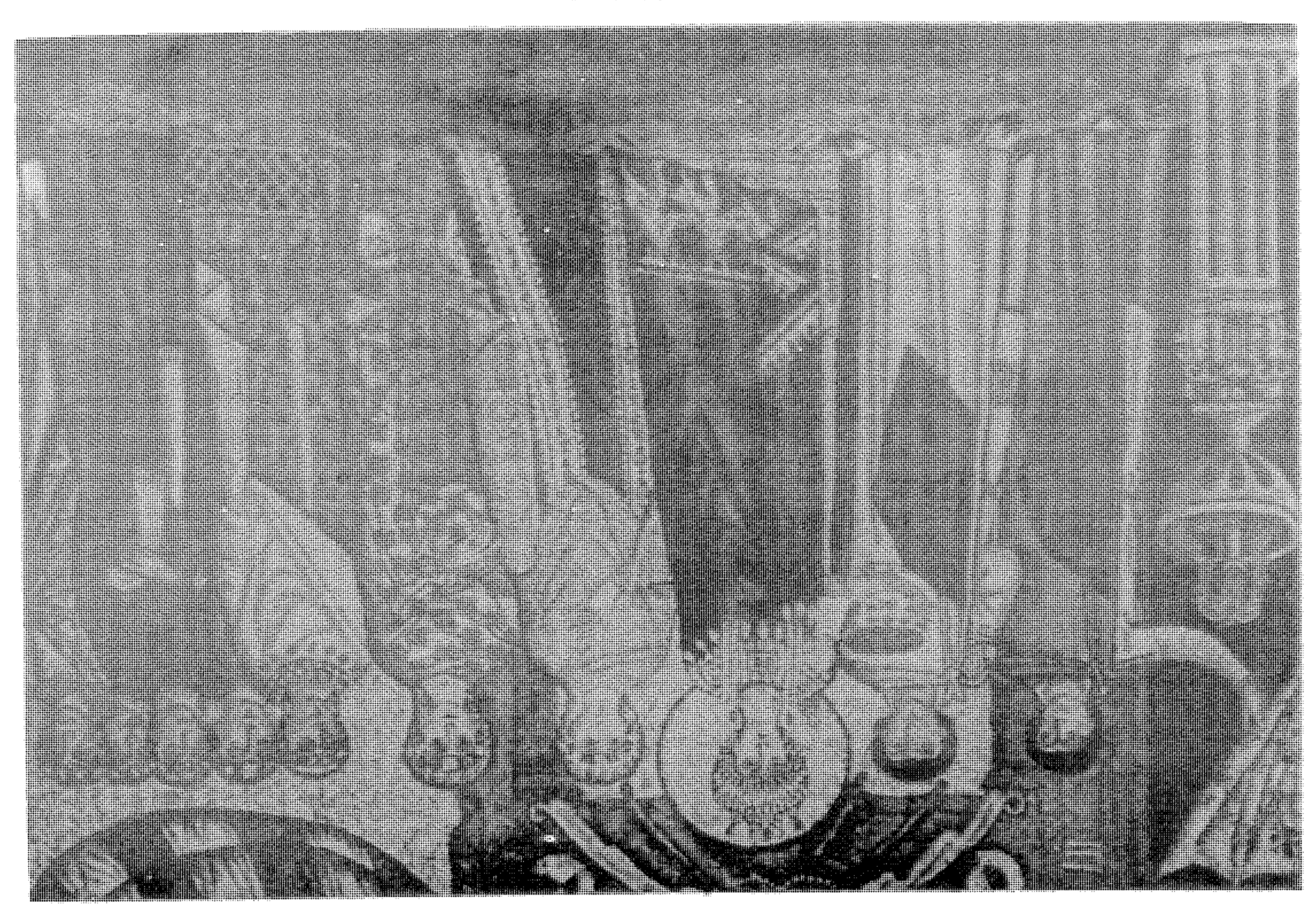
الفصل الخامس

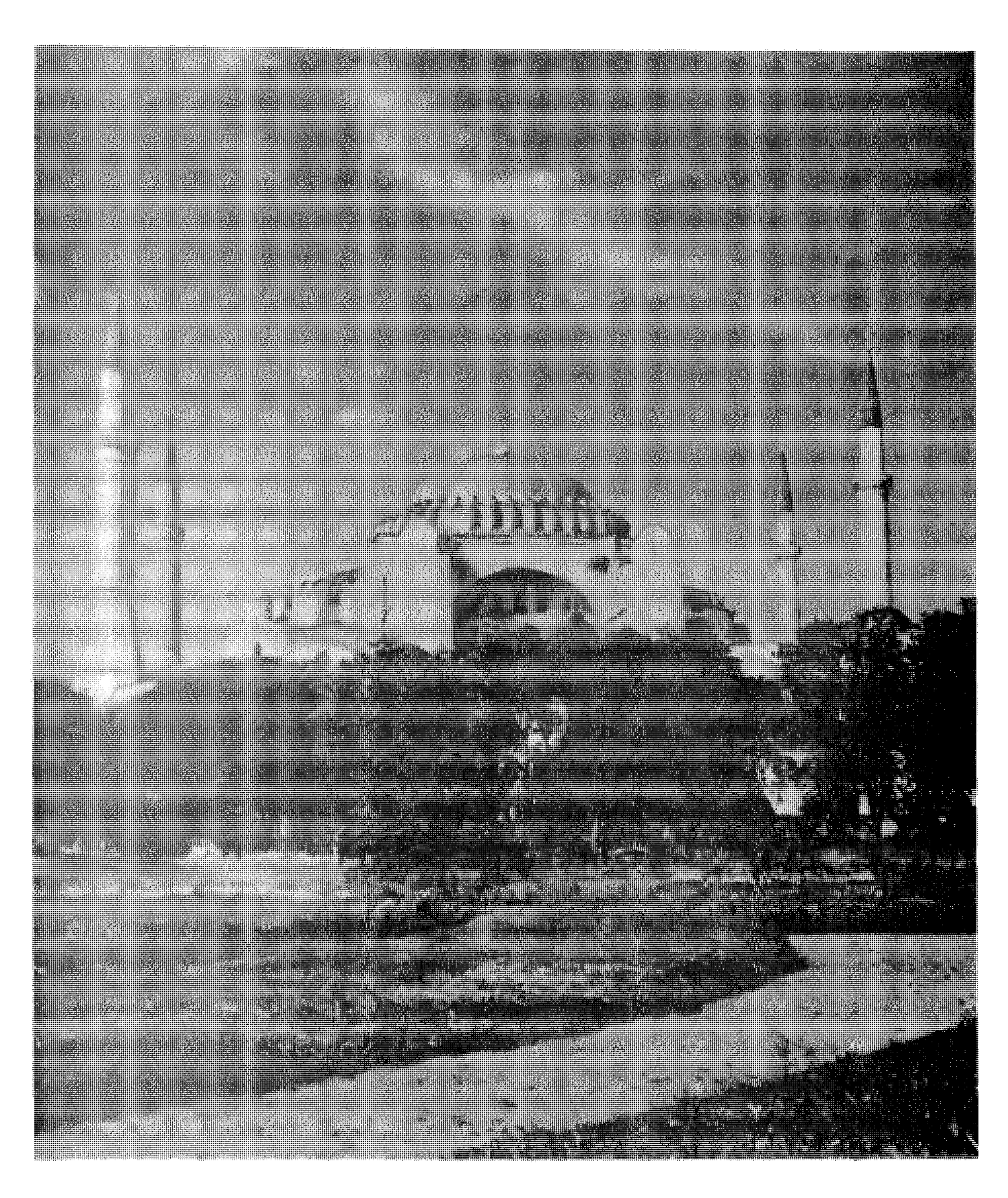
أوروبا في عزلة وانزواء
(القرن ٨ ـ ١٠)

رأت اوروبا نفسها، في مطلع القرن الثامن مهددة بشر مستطير أطلّ عليها من الفتح الاسلامي العربي ، بعد ان وطئت سنابك خيل العرب ارض جزيرة الاندلس ، فاذا بهذه القارة موحشة بعد إيناس ، تعاني البقية الباقية من الثقافة القديمة فيها سكرات الموت ، باستثناء بعض ملاجىء لها معزولة ، بينما كادت تلتبس على الرائي معالم النصرانية فيها ، بعد ان تداخلها ما تداخل من رواسب الوثنية ، انتقلت اليها فيما انتقل ، من اعراف برابرة الجرمان وأساطيرهم ، بعد ان استباحوا باحة البلاد وعاثوا فيها خراباً ودماراً . فاوروبا ارض العنف والعسف على ألوانه ، تسيطر عليها ارستوقراطية عطل من كل ثقافة ، صاخبة ، جَشِعة ، هي ابداً وراء لذاذاتها ، وقد أطلقت لها العنان ، فاستبطرت، وعبثت، دون حسيب او رقيب ، ولا من يكبح جماحها. واوروبا هذه ، أوحشها سكانها ، وافقرت اقطارها ، فراح من يُعنى بالارض منهم ، يحرثها بأساليب بدائية ، فيؤها محدود ودخلها مقسوط .

تفتتها السياسي

صحيح انه يطالعنا ، هنا وهنالك ، بعض مراكز ، للحياة الروحية ، فيها وزن ومقام، وبعض ملاجىء للفكر، فيها حيوية واشعاع، وبعض تشكيلات سياسية اقل تخلفاً من غيرها ، وهي عناصر ، على طيبتها ، مشتتة ، موزعة ، معزولة ليس لها من أثر كبير . فانكلترا التي تحتفظ في أديارها البندكتية بأغنى المكتبات وأحفلها طراً ، بالتراث المسيحي وبالثقافة الكلاسيكيه القديمة ، هي منقسمة على نفسها ، متفسخة ، تتقاسمها ممالك ، سواء في ضعفها، تتناحر فيما بينها وتتقاتل لأتفه الاسباب . وبالمقابل ، فاذا ما تم لسادن القصر في مملكة اوسترازيا ، بابن دو هرستال ، ان يروّض الارستوقراطية في المقاطعات الثلاث الاخرى ، ويكبح من جماحها ، ويخفف من غلوائها ، واستطاع ، بقوة السلاح ، اخضاع الشعوب الجرمانية المجاورة له ، فبفضل ما له من سلطة وشكيمة شخصية ، لا اساس لها مبدئياً





اللوحة ٢ — كنيسة اجيا صوفيا في اسطنبول (القرن السادس) .



اللوحة ٣ ــ شاهد مدفني من حجر يمثل شهيدين مصلوبين (القرن الثامن) .



اللوحة ٤ — الملك شارل الاصلع



اللوحة ٥ — حديث صوفي بين بوذيين . نصب برونزي مذهب يرتقي الى السنة ٥١٨ .



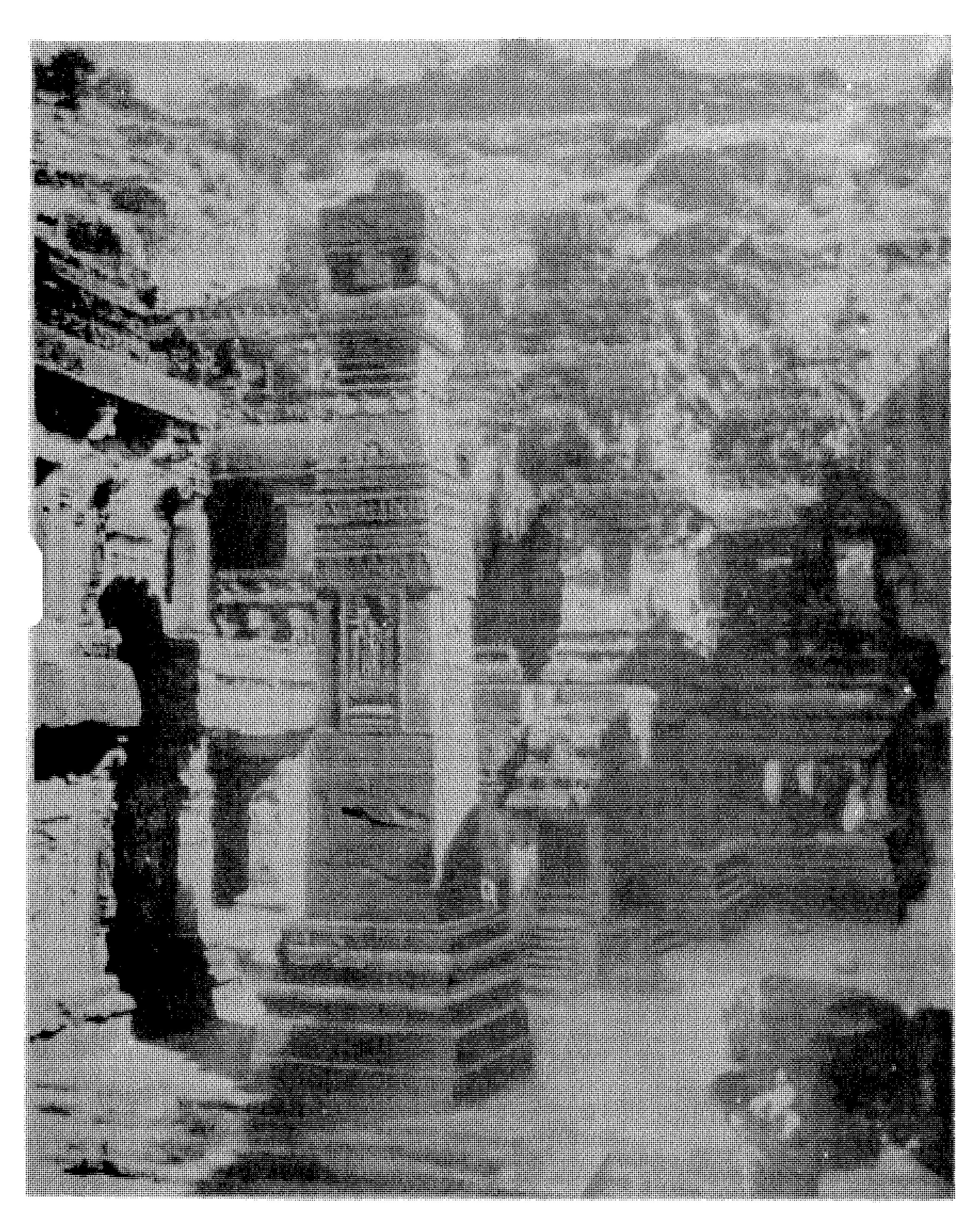
اللوحة ٦ — محاربون يشتركون فى حرب الاديان .



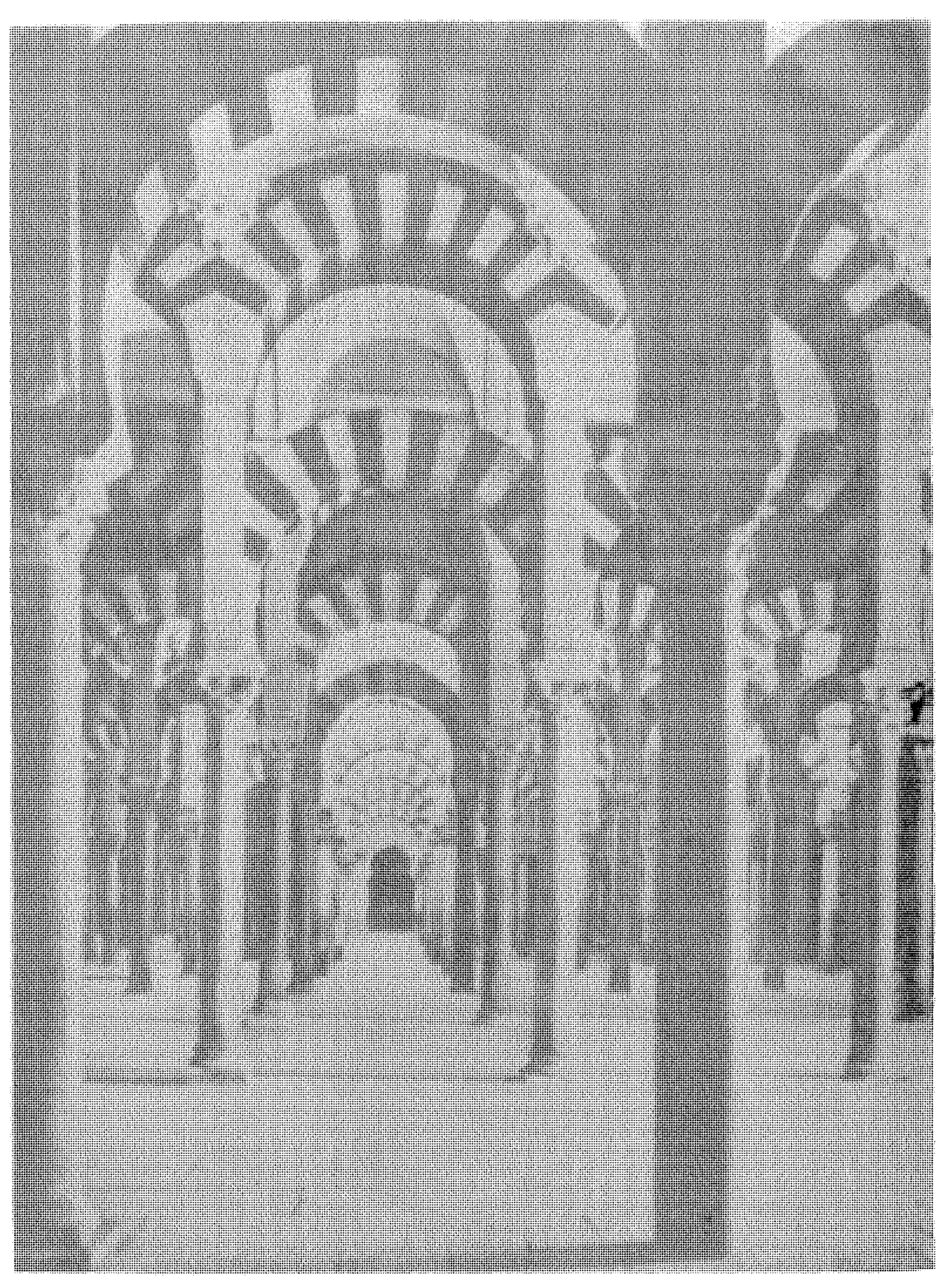
اللوحة ٧ — لاعبة الصنوج



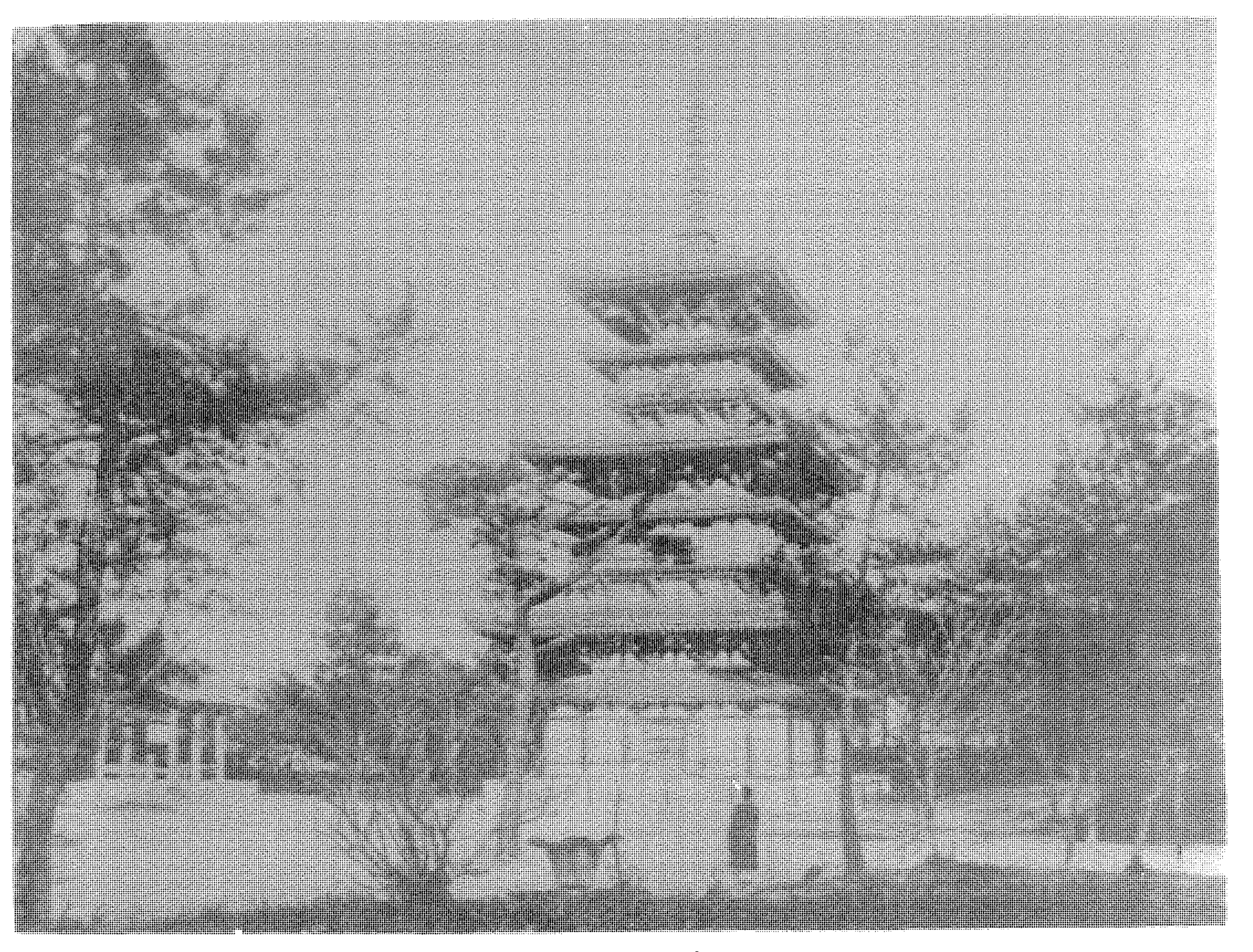
اللوحة ٨ — فارس وخادمه .



اللوحة ٩ — كيلاسيا في ألورا (الهند)



اللوحة ١٠ ـ المنظر الداخلي لجامع قرطبة الكبير (اسبانيا) ، القرن الثامن ـ القرن العاشر.



اللوحة ١١ — الـ « ياكوشيجي » في نارا (اليابان) .

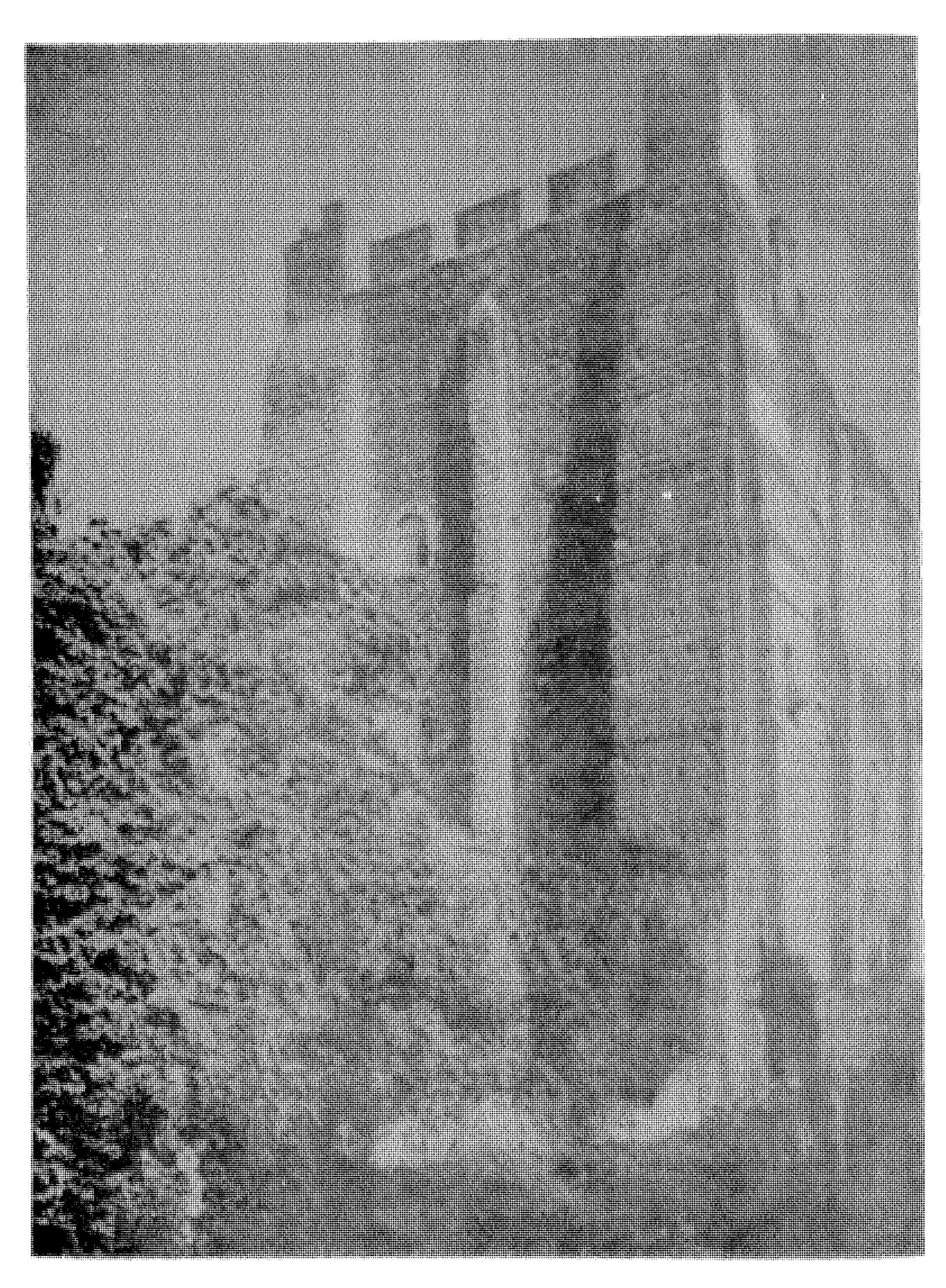


اللوحة ١٢ –معبد بهوفانشفارا (الهند) ، القرن العاشر .

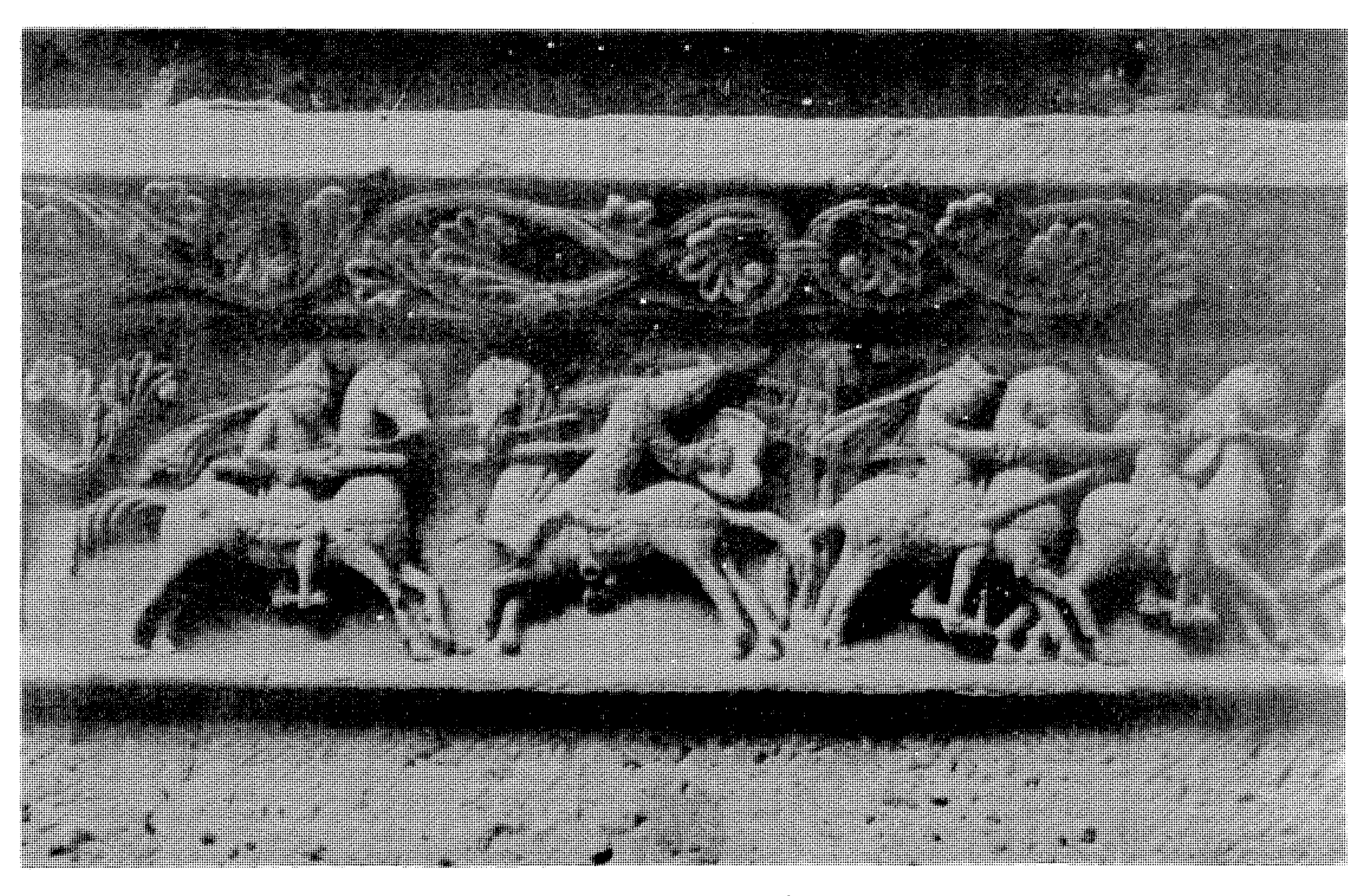
اللوحة ١٣ — موت هارولد .



اللوحة ١٤ – جوفروا بلانتاجنيه .



اللوحة ١٥ — البرج الكبير في حصن سان جان في «نوجان-لو-روترو» (القرن الحادي عشر).



اللوحة ١٦ – المسايفة بالرمح على الطريقة الجديدة .

ولا قوام ، في وقت انحدرت فيه الحضارة في شمالي غاليا الى الدرك الاسفل ، بينما كانت الأطر الكنسية من الركاكة والضعف بحيث تعجز عن مساندة ومعاضدة أي بعث سياسي قويم في البلاد . اما مملكة اللمبارديين في شمالي ايطاليا ، فذكريات أمجاد روما وأيامها الغر لا تزال حية في النفوس ، والتقاليد الفنية فيها محترمة مرعية ، والمدن في ازدهار ، والنخبة بين العلمانيين لا تزال بعد ، على اتصال بالثقافة القديمة . وقد جعلت هذه العوامل نفسها العمل الاداري في البلاد صعباً عسيراً : فالدوقة من اهل الحسب والنسب ، في نزاع موصول مع نظام ملكي لا سند له ولا عماد ، لنهك قواه في محاولات للاستيلاء على الولايات البيزنطية ، بغيـــة ضم ايطاليا تحت سيطرته . واخيراً وليس آخراً ، فاذا ما استطاعت البابوية، بفضل الرهبان الانكلو سكسون، ان توطد من نفوذها بـين الجماعات المسيحية المتكاثر عددها في الغرب ، فالبلاط البابوي الذي تهيمن عليه جوالٍ من الاغريق والسريان والدلمات ، محاولة اضفاء الطابع البيزنطي على الطقوس الليتورجية ، يقع تحت تأثــير بطاركة القسطنطينية العقائدية ، كما يرزح تحت وطأة ولاية الامبراطور الثقيلة بينما نراه يعاني مرياً في الشمال ، من ضغط اللمبارديين الذين أصبحوا خطراً مداهماً يتهدد باستمرار ، املاك الكرسي الرسولي وسلامتها . فانتفاء أي تعاون بين هذه القوى القائمة ، المتنافسة فيما بينها ، والتي يقعدها انفصالها ويشل فيها كل حركة ونشاط ، جعل اوروبا المسيحية منطقة مكشوفة يُنال منها بيسر وسهولة . فالغزوات الموسمية التي تشنها عليها قبائل الفريز والسكسون الوثنية من الشمال ، توهنها وتنهكهـا . اما في الشرق ، فقبائل الآفار الذين استقروا في مقاطعة بانونيا ، تهدد بخطر مستطير ، سكان مقاطعة فنيسيا ، ولذا فروا هاربين وفزعوا الى الغياض والمستنقعات الواقعة عند مصب نهر البو ، يعتصمون بجزرها وخلجانها . اما الجنوب من اوروبا ، فموجة الاسلام العارمة ، تهدد ابتلاعه تحت جرف من الغزوات الكاسحة . والكتائب العربية التي سحقت ببضعة معارك، مملكة الفيزيغوط في اسبانيا ، تجاوز مدها شمالاً، جبال البرانيس ، واحتلت ، عام ٧١٩ — ٧٢٠ ، مقاطعة الروسيّون ، والقسم السفلي من اللانغدوق، وفي سنة ٧٢٥ اتجهت كتيبة من فرسان المسلمين ، عبر وادي الرون ، ونهبت مدينة أوتون . وبعد ذلـــك بسبع سنين ، أنفذ الامير عبد الرحمن الغافقي سراياه على طريق بوردو وبواتيه ، في اتجاه نهر اللوار .

واتفق في هـــذا الوقت بالذات ان تمّ شيء من تجمع القوى ، في الغرب . ونشأت روابط زادتهـــا الايام متانة خلال القرن الثامن ، وحّدت بين زعماء الفرنج وقادتهم ، وبين المرسلين الانكليز والبابوية ، التي راحت تسعى للتحرر من سيطرة الامبراطورية البيزنطية . وكان من شأن هذا التيار الوحدوي القوي ، ان لاحم بين اجزاء الغرب اجمع وقوى من عضدها ، وكون منها درعاً تتقي به شر الغزوات وما تجره من ويلات ، ولو لفترة قصيرة او لأمَد وجيز . وفترة التمهل هذه واستجماع القوى ، كان لها تأثير حاسم على مجرى التاريخ ، في الاجيال الوسطى ، اذ افسحت المجال لاول عملية تأليف ذاتي في اوروبا ، كانت الاساس الركين والمحور الوطيد الذي ستبنى عليه نهضة اوروبا وبعثها ، فيما بعد .

نشأت على سواعد فريق من عبادة الاصلاح السياسي ، يمتون الى اسرة من كبار الملاكين في منطقة الموز ، فاتخذوا ُتكأة ً لهم في ما ينشدون من اصلاح ، وظيفة سادن او قيّم القصر ، وهي وظيفة لم يلبث شاغلها ان أصبح ، بعد ما آلت اليه النُظُم الملكية في عهد الدولة الميروفنجية من هلهلة وانهيار ، الاداة الطيّعة للقيادة والتوجيه ، واتخذوا قاعدة لانطلاقهم احدى ممالك الفرنج الثلاث ، اكثرها خشونة طباع ، واقلها سكاناً ، هي مملكة « اوسترازيا » ، حيث بدت الطبقة الارستقراطية فيها ، اكثر مرونة ، واقل حرثاً وتهذيباً ، والمسيحية الحديثة النشأة فيها ، اكثر رواء ونشاطاً ونقاءً . فعند وفاة بابين ده هرستال ، عام ٧١٤ ، إستولى على الحكم والادارة بعده ، احد اولاده الطبيعيين ، هو شارل ، الملقب بِ مارتل ، يشد ازره معظم رعاياه ويلتفون حوله . فما لبث ان اخمد الفتن واخضع لسلطانه مملكة « نوستريا » ، وصد في مقاطعة « بواتو » ، عام ٧٣٢ تدفق سيل الغزاة العرب بقيادة اميرهم عبد الرحمن الغافقي ، فبرز للناس اجمع مخلّص البلاد ومنقذ المسيحية في الغرب . واستطاع ، بعد حروب ومعارك لاحقة ، ان يوقف سيل الغزو الاسلامي ويحول دون تقدمه الى الشمال ، ويخضع لسيطرته ، بضربة معلم حاذق ، مقاطعتين : الاكويتان وبروفانس . واسند الوظائف الكبرى في الحكم والادارة ، الى موظفين اكفاء يتمتعون بثقته ، إصطفاهم من بين اعضاء اسرته ومن خاصة الأسر الكبيرة في اوسترازيا ، واعتمد على مناصرة رجال الاكليروس يمدهم بكل ما يحتاجون اليه من عدّة وعتاد . واذ بدا له ان لا بد من اخضاع جرمانيا لسيطرته، قرر ان يساعد المرسلين والمبشرين على نشر المسيحية فيها ، ولذا وضع جميع امكاناته ونفوذه تحت تصرف المبشرين الانكلوسكسون ، امثال « فيليبرورد » ، رسول قبائل الفريز ، وفيرمان ، الذي اسس ، عام ٧٢٤ ، في رايخنو ، على ضفاف بحيرة كونستانس ، اول دير انشىء على ارض جرمانيا ، واخيراً بونيفاسيو ، واسمه الاول « فنفريد » ، الذي عمل بعد ان تزود بتوجيهات البابا وارشاداته ، على تنظيم الحياة الرهبانية في مقاطعتي هس ، والتورينج ، وكنيسة بافاريا .

ولما كان اولاد شارل مارتل ، قد نشأوا نشأتهم الاولى في الاديار ، فقد وقعوا ، الى حد بعيد ، تحت تأثير رجال الدين ، فأخذوا ، بمساعدة القديس بونيفاسيو ، القيام بعملية اصلاح شامل المؤسسات والنظم الكنسية ، اذ ذاك . ولما تم الامر لبابين ، عام ٧٤٧ ، واصبح سادن القصر وحده ، اخذ بمؤازرة رسول جرمانيا ومبشرها الاكبر ، في اقامة صلات له مع الكرسي الرسولي الذي استجاب لهذه المبادرة وعطف عليها مشجعاً تخلصاً من ولاية بيزنطية البغيضة ومن اللمبارديين بعد ان ازداد ضغطهم عليه . ورغبة من البابا في توطيد سلطة سادن القصر ، مصلح الكنيسة وحامي المرسلين الغيور ، سمح له رسمياً ان يحل محل آخر ملوك الميروفنجيين الضعيف . وفي سنة ٧٥١ تمّ انتخاب بابين ملكاً على الفرنج . ولكي يزكي هذا التبدل في الاسرة الحاكمة، باسرة اخرى ويبرره، فيضفي بذلك على مغتصب السلطة هالة من المهابة والوقار تفوق

بقيمتها الهالة التي كانت تحف بخلفاء كلوفيس الشرعيين ، راح القديس بونيفاسيو يدهن الملك الجديد بالزيت المقدس . وهكذا تم تكريس العاهل الجديد وتنصيبه رسمياً . وقد جدد البابا نفسه ، عام ٧٥٤ ، تكريس الملك الجديد ومسحه بالزيت المقدس ، كما بارك ذريته من بعده ، وبهذه البركة يمنحها لعائلة ببين ، تكريساً للاتفاق أو التحالف المعقود بين ملك فرنسا واسقف روما ، وتوطيداً له ، راح الملك ببين يأخذ تحت رعايته الخاصة البابا غريغوريوس الثاني ونزع من ملوك بافيا اللمبارديين ، الولايات التي اغتصبوها حديثاً واقتطعوها من بيزنطية ووقفها ، بكل احتفال ، على الكرسي الرسولي . فانعم عليه البابا ، بالمقابل ، بلقب : « بطريق الرومان » وهو تصرف فيه الكثير من الاعتباط والتعسف ، بدا لذا ، غير قانوني ، اذ انتزع ممتلكات كانت تابعة ، من قبل ، للامبراطورية البيزنطية ، كما ان البابا انعم برتبة ليس من حقه ولا من صلاحياته ان ينعم بها ، بل هي من صلاحيات الامبراطور . وقد كانت هذه الاحداث والخطوات التي رافقتها ، الحجر الاساسي في إقامة سلطة البابا الزمنية ، كما كانت المسعف على تحريرها نهائياً ، من تابعية القسطنطينية ، وجعلها تعوّل دوماً ، على حماية دولة الفرنج لها . وهكذا تهيأت من بعيد اسباب اعادة الامبراطورية في الغرب .

وقد سهّل القيام بهذه السياسة ويسّر تنفيذها ، الفتوحات الحربية التي حققها ابن ببين ، المعروف باسم كارلوس الكبير او شارلمان ، الذي قاد جيوش الفرنجة كل سنة الى ظفر مؤثّل ، موسعاً بذلك حدود المملكة الى اقصى ما بلغه تغلغل المسيحية في الغرب . واستولى على عرش اللمبارديين وبسط سلطانه على الدويلات المستقلة ادارياً ، في جرمانيا المسيحية ، وبذل جهوداً مريرة في اخضاع السكسون وحملهم على إعتناق النصرانية ، وقضى على سيادة « الآفار » ، الشديدة الشكيمة ، وحمل كتائب الاسلام على التراجع والانكفاء ، عبر جبال البرانيس . وبلغ من اتساع رقعة مملكة الفرنج عام ٨٠٠ ، ومن قوة نفوذها ان راحت الاوساط الكلسية تفكر جدياً ببعث الامبراطورية الى الوجود ، لصالح الدولة الجديدة ، والرجوع بذلك الى التقليد القديم الذي انقطع عام ٤٧٦ ، عند سقوط روما بيد ادواسر ملك الهيرول ، وامتد هذا الانقطاع ثلاثة قرون بات فيها الغرب منقسماً على نفسه ، دائم القلق والاضطراب ، لا يعرف الاستقرار ، وبذلك عادت اليه وحدته السياسية والروحية . ويوم عيد الميلاد بالذات من سنة ٨٠٠ ، جرى تكريس شارلمان في كنيسة القديس بطرس ، وفقاً للطقوس والمراسم المتبعة في القسطنطينية ، وألبس التاج ونودي به امبراطوراً على الرومان . وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة اعترفت بيزنطية بواقع الامبراطورية ، وإعادتها من جديد في الغرب .

ومع ذلك فقد كان من نصيب الجيل التالي اي الجيل الذي عاصر الامبراطور لويس الورع وشهد النفوذ الذي كان يتمتع به ، اذ ذاك ، رجال الكنيسة ذوو الثقافة العالية ، تطبيق المبادىء التي أدّت الى بعث الامبراطورية . فالامبراطور هو القائد الاكبر للشعب المسيحي ، عليه ان يؤمن ادارة كل القضايا الزمنية ، كما ان سلطته او خلافته لا يمكن تجزئتها . وهكذا

فالمرسوم الامبراطوري الذي اصدره عام ٨١٧ بعنوان *Ordinatio Imperii* . يكون قد وضع حداً للتقليد الجرماني الذي عُمِل به الى ذلك الحين ، والذي كان يوجب بان يتقاسم ورثة الملك مملكته من بعده ، بينما ادعى الامبراطور نفسه عام ٨٢٤ ، حق الاشراف على دولة الكرسي الرسولي والتدخل بانتخاب البابا .

ساعد ما كانت عليه الاسرة الكارولنجية من ثراء وغنى ، وانبساط سلطان الفرنج واتساع مملكتهم ، على النهوض باسباب المدنية الغربية ، وهي مدنية محدودة الطاقات مع ذلك ، فلم يطرأ سوى تغيير بسيط على المقومات والعناصر المادية ، والاتصالات التجارية ، والتأليف الطبقي الاجتماعي في البلاد ، بينما نلحظ تطوراً محسوساً في القطاع المدني ، هذا القطاع كان يتردى في احط دركات الفوضى والانحطاط . وقد امكن استدراك هذه الاوضاع غير الملائمة ، خلال النصف الثاني من القرن الثامن ، عن طريق تقوية النظم والاجهزة السياسية ، مما ادّى الى إستتباب النظام وتوطيد اسباب الوحدة . وهكذا نشأ جو ملائم ، حليم ، يسمح بازدهار امور الفكر وانتشار الثقافة التي كادت شعلتها تنطفىء في اواخر العهد الميروفنجي ، وهي ثقافة أطلّت علينا فكرية ذهنية ، في البلدان الانكلوسكسونية ، وفنية في المقاطعات الشمالية من غاليا ، فأدّت طوالع حركة الانبعاث هذه الى نتائج طيبة ، مهدّت الطريق لطلوع نهضة أخذت تنمو وتتسع دونما انقطاع . وقد عادت هذه الحركة التجددية بالغنم والنفع على المناطق الواقعة بين نهري اللوار والرين ، اي على هذه الولايات الفرنجية القديمة ، قلب الدولة الكارولنجية ونقطة الدائرة فيها . ففي هذه الولايات قامت اوطد الاسس وارسخها . ومن هذه المنطقة جاءتنا اكثر الوثائق والمستندات . فمن هنا يجب ان نُطيل لنرى الصفات والميزات التي طبعت بين ٧٨٠ و ٨٣٠ المدنية الكارولنجية ، قبل ان نتبين ما كان لها من أثر بيّن ، على الاقطار الاخرى ، في الغرب المسيحي .

ضعف الوضع الاقتصادي ووهنه

فلا عجب من ان تأتي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، في شمالي غاليا ، والحالة هذه ، واهية ، ركيكة ، بدائية المظهر والمخبر ، بعد هذا التردي الطويل خلال هذه المدة . فالسكان فيها قليلون ، وتوزيعهم ليس على سواء ، والوسائل التقنية المتبعة في الزراعة لم تكن لتصلح الا للاراضي الخفيفة التربة ، السهلة الحرث والفلاحة ، سوادها من الدلغان والرمل ، بينما الاراضي العميقة التربة والكثيرة الرطوبة أهمِل امرها للاحراج والغابات والغياض والمستنقعات . ويفصل بين رقاع الارض المزروعة مساحات واسعة من الغابات والاحراج ، خالية تقريباً من السكان ، يرتادها من حين الى آخر بعض الحطابين والرعاة . والظاهر ان استتباب الأمن في هذه المنطقة ، بين ٧٥٠ — ٨٥٠ احدث تبدلاً ملحوظاً من الوجهة السكانية او الديموغرافية . فالقرى القائمة في السهل المحيط بمنطقة باريس حيث يقوم باستثمار الاراضي واستغلالها ، العديد من الأسر ، كانت تضم من السكان ، اذ ذاك ، ما كانت تضمه ، تقريباً ، في اواخر القرن الثامن عشر . وهي كثافة كبيرة

اذا ما نظرنا اليها من خلال عطاء الارض ومحصولها . ومع ذلك ، فهذه النسبة العالية في معدل السكان لم تتسبب باية هجرة نحو الاراضي البكر . ويبدو ان الناس في ذلك القرن ، كانوا اعجز من ان يوسّعوا نطاق اراضيهم الزراعية عن طريق احياء اراضٍ جديدة للزراعة . ولم يَحِن الوقت بعد ليسمح باستمرار الازدهار الديموغرافي واطراد نموه ، بحيث يتضاعف عدد العاملين في الارض والمستهلكين على السواء ، فيؤمنوا استمرار نمو ثروة البلاد باطراد .

فليس من عجب ، بعد هذا ، ألا يكون أي أثر يذكر للحركة التجارية ، اذ ذاك . ان استمرار غزوات العرب في الجنوب ، والحروب التي ساقها كل من شارل مارتل وبابين ، أخذ بعضها برقاب البعض الآخر ، وقد قضت على كل ما بقي من اثر النظام الاقتصادي القديم ، وذهبت بماله في تلك المنطقة ، فاتجهت الحركة التجارية صوب البحر المتوسط . فالمستعمرات الصغيرة التي نشأت في عهد الميروفنجيين بفضل تجار مشارقة ، والتي تألف منها محطات على طريق القوافل ، قد تلاشت واندرست ، وحل محلها ، مع الزمن ، تجار من أبناء البلاد يتعاطون البيع والشراء وفقاً للمناسبات ، بقوا ، مع هذا ، ندرة . ومع ذلك ، نرى كيف ان هذا الاصلاح البدائي من جهة وتوطيد اسباب الامن ، في شمالي غاليا ، من جهة اخرى ، ساعد ، منذ عام ٧٥٠ ، على اضفاء شيء من النشاط ، على الحركة التجارية في البلاد .

ومن جهة ثانية ، استمرت حركة استيراد المصنوعات الشرقية الغالية الثمن : كالأفاويه والطيوب والعطور والديباج وغير ذلك من الانسجة الجميلة التي يتهافت على اقتنائها الأثرياء وأبناء الارستوقراطية من علمانيين وكنسيين ، على السواء . والشيء الوحيد الذي تبدّل هنا وتغير ، هو تحول التجارة عن المسالك القديمة التي كانت تسلكها في طريقها الى الغرب ، الى مسالك جديدة . فراحت تعتمد بالأكثر ، اما على الموانىء البيزنطية الواقعة في جنوبي ايطاليا ، وعلى البحر الادرياتيكي ، وعبر وادي البو ، او على مجازات جبال الالب وممراتها ومعابرها ، او انها كانت ترِد براً ، متتبعة الطرقات التي تجتاز البلدان الصقلبية او طريق البحر البلطيقي المائية ، وهي ، اذ ذاك ، اخطر الطرق ، وقاعدتها الكبرى جزيرة غوتلاند ، ومنها تدخل مجاري الأنهر الكبيرة في اوروبا الشمالية . ومن ناحية اخرى ، تطلع علينا تيارات جديدة تتمثل بحركة المقايضات التجارية ، بعد ان اخذوا بنسج الاقمشة وحياكة الاجواخ في بعض البلدان الواقعة حول البحر الشمالي ، مما كان يغذي ، بعض الشيء ، حركة تصدير بطيئة . كذلك اخذ تجار الفرنج ، ابتداء من القرن الثامن ، يبيعون في الاسواق الاسلامية ، بعض مصنوعاتهم كالأسلحة الجميلة الصنع التي كانت تصنع في المعامل الواقعة الى الشمال من غاليا ، كما كانوا يتولون الاتجار بالرقيق ، فيبيعون ارقاء وقعوا في الأسر ، من البلدان الوثنية ، وهي تجارة رابحة انما كانت تجري بتحفظ كلي ، وبالخفاء . وذهب بعضهم الى القول ان حركة التصدير هذه ونموها المطرد كانت ذات شأن كبير على الغرب ، الذي كان اقتصر حتى الآن ، على استيراد المواد الشرقية لقاء أثمان باهظة ، معتمداً في دفع أثمانها على ما كان لديه ، بعد ، من احتياطي النقد ، دون ان

تكون له القدرة على تعويض التسليف او المتسرب منها الى الخارج . وهكذا فتح التيار التجاري مع العالم الاسلامي ، المجال لادخال معادن ثمينة وعملات قوية وطرحها للتداول لتُغذي الحركة الاقتصادية والمقايضات التجارية ، الأمر الذي مكّن الغرب من دفع ثمن السلع والبضائع التي كان يستوردها عن طريق بيزنطية والتي كادت حركة استيرادها تنقطع لانعدام وسائل الدفع فكان ذلك بدء حركة لم تلبث بعد لأي من الزمن ، ان قلبت الوضع تماماً .

وهذا الانتعاش ، الوَجِل – انما مؤكد – للحركة التجارية ، والاتجاهات الجديدة التي اتجهتها ، أدّى الى نتيجتين ثابتتين : تبدو الاولى في هذا الاصلاح التدريجي للنقد والعملة ، عند الفرنج ، وهو اصلاح تم بين ٧٥٤ و ٧٦٥ ، وعام ٨٢٠ . فأمام تداول النقد العربي والصقلي ، في البلاد ، كالدينار الذهب او الدرهم الفضة ، استطاع ملوك الفرنج ، عن طريق سك عملات مماثلة لها ، من حين الى آخر ، ان يعيدوا الى التداول دينار الفضة ويثبتوا قيمته ، وربما تم لهم ذلك بربطه بالنظام النقدي المتبع في العالم الاسلامي . فليس من عجب قط ان يكون لاصلاح النظام المالي وتقويته اثر كبير على الحركة التجارية . ثم ان هذا النشاط التجاري جاء نتيجة طبيعية لهذه الحركة الديموغرافية السكانية التي برزت بوادرها في هذه المنطقة الواقعة بين نهري السين والرين ، فأدّت بين ٧٥٠ – ٨٥٠ ، الى نمو عدد من المدن القديمة وتوسعها ، امثال : أرّاس وفردون ومتز ، بينا نرى مناطق سكانية تطلع وتكبر وتتوسع ، حول مراكز ناشطة للتجارة ، او لتفريغ البضائع وشحنها ، تقع على مجرى نهر السين الاسفل ، ونهر الموز والاسكو ، او على ساحل المانش والبحر الشمالي .

ومع ذلك ، لا بد من الاعتراف هنا ان تباشير هذا الانبعاث الاقتصادي كانت ضعيفة وخفيفة للغاية ، يكاد المرء لا يشعر بها ولا يلمسها . فاذا ما اخذ المؤرخ على نفسه الاشارة اليها والتنويه بها ، فلانها تهيء من بعيد ، وتمهد الطريق للنهضة العمرانية والاقتصادية التي انطلقت موجهتا في القرن الحادي عشر ، اذ لم يكن ، في مقدور المرء ، ان ينسى ، او ليتناسى التدهور العميق والارتكاس الذي طبع ، على العموم ، الوضع الزري الذي كان عليه القطاع الاقتصادي في العهد الكارولنجي ، وهو اقتصاد ريفي الطابع ، لا شأن يذكر للمدن فيه ، اذ كانت المعادن الكريمة مجمدة بشكل مجوهرات يختزنها الصاغة ، والنقد المتداول نادراً للغاية ، كما يستدل على ذلك من الرهونات على الاملاك ، ومن المسابك الكثيرة للعملة ، اذ كان يقوم على مقربة من كل مركز تجاري هام ، معمل لضرب السكة يؤمن ما يحتاج اليه الناس والعملاء من نقود ، عند الاقتضاء . وهذا النوع من الاقتصاد هدفه الاول تأمين أوّد العيش للتاجر ، دون ان يأبه لتحقيق أي ربح اضافي ، معتمداً في ذلك على غلة الارض دون سواها .

الاقتصاد العقاري : الاملاك

لهذه الاسباب التي اتينا على ذكرها ، كان عماد الاقتصاد ، في هذه الحقبة ، الثروة العقارية أو الملكية العقارية ، متكأ النظام الاجتماعي منذ اقدم العصور ، ولكن لا يبرز شأن هذه المؤسسة على حقيقته الا على ضوء الوثائق

والمستندات العائدة لمطلع القرن التاسع . وقد اطلقوا على هذه العقارات أو الملكيات الضخمة اسم *Villae*، وهي مزدرعات كبيرة قام منها عدد كبير في ايالات نوستريا وأوسترازيا، ولا يدخل تحت هذا المسمى الاملاك الصغيرة الحجم التي يستقل اصحابها في استثمارها . وهذه الاملاك الواسعة الاطراف لا يستقر وضعها على صورة ثابتة ، لما ينتابهـا من تغيير وتبديل ، ناتجين عن الإرث والبيع ، والشراء والهبة ، وغير ذلك من الاسباب التي تعتور الملكية من عوامل التصرف . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تتفاوت فيما بينها مساحة واتساعاً . فبينما تكون مساحة العقار هنا مائة هكتار ، مثلاً اذ بها ، هنالك ١٨٬٠٠٠ أو ٢٥٬٠٠٠ هكتار . وبالرغم من هذا الفارق في المساحة ، فطريقة استثمارها واحدة هي ، يُعمَل بهـا على شيء من التوافق والانسجام . فهي على العموم تقسم في استثمارها ، الى قسمين أو شقين : القسم المحفوظ لصاحب الارض أو مالكها ، ونسميه : « الرباعة » ، والقسم المؤجر للاستثمار . فالقسم المحفوظ هو الذي يحتفظ صاحب العقار باستثماره لحسابه الخاص بمحوره الفيلا أو الدارة وهو نقطته الدائرة في العقار ومحوره، الذي يضم، عدا منزل صاحب العقار،عدداً من المنازل وبيوت السكن لمن في خدمته من خدم وحشم ومزارعين، كما يشتمل عادة على كنيسة او مصلّى. وهذه الرباعة تضم قطعاً مختلفة من الاراضي الزراعية، يؤلف مجموعها ثلث او ربع مساحة العقار القابل للحرث والزراعة، بينها قطع الكرمة عندما تسمح طبيعة الاقليم بزرعها، ومروج، واراض بور، ومراع للماشية، وغابات واحراج للصيد والقنص. أما القسم الثاني من العقار، فيتألف من قطع للزراعة هي الدوّار *Manse*، الذي يقسم بدوره الى عدد من قطع قابلة للزراعة، توضع تحت تصرف المرابعين يستثمرونها ويستغلونها، وفقاً لشروط معينة ، ولهم حقوق الإرتفاق على بعض القطع البور في القسم المحفوظ لسيد الارض . ولبعض هذه القطع الزراعية ميزات خاصة تنعم بها وتميزهـا ، ولذا سميت *Ingénuiles* ، تمتاز عن سواها بالاتساع . وكثيراً ما يستغل الدوّار الواحد لاتساعه ، اكثر من مرابع واحد فيقسم حصصاً بينهم .

وتقسم الاملاك الكبرى والعقارات الواسعة على النحو الذي اقتضته الطريقـة المستعملة اذ ذاك للاستثمار . فالفيلا هي اضخم واوسع من ان يستطيع صاحب الارض تشغيلها واستثمارهـا لوحده . فهي تحتاج ، بالنظر لما كانت عليه وسائل الزراعة ، اذ ذاك ، الى عـدد كبير من المزارعين والشغيلة . غير ، ان ندرة النقد بين ايدي الناس ، كثيراً ما حالت دون اكتراء مـا يلزم لها من اليد العاملة. كذلك كان من المرهق والمزعج معاً لصاحب الاملاك الواسعة، استخدام أو تشغيل عدد كبير من الارقاء والعبيد ليس من السهل ايجادهم أو توفيرهم ، ولا سيما ونتيجـة العمل لم تكن قط مشجعة . ولهذه الاسباب ، فضّل أصحاب العقارات الواسعة استثمار قسم من املاكهم هذه على يد عبيدهم او احرار المزارعين ، فيستثمرون وفقاً لشروط معينة ، الارض المقطوعة لهم ، كما يرغبون ، على ان يؤمّنوا أوَدهم وأوَد ذويهم ، لقاء تعهدهم بشيئين : الاول تقديم مبلغ من المال ، كل سنة ، لصاحب الارض، وفي هذا دلالة واضحة على ان هؤلاء الفلاحين كان باستطاعتهم ان يقوموا ببعض الاعمال التجارية التي تعود عليهم ببعض الدخل ، مهما كان

ضئيلاً ، كما كان عليهم ان يقدّموا ، موسمياً ، بعض محاصيل الارض وشيئاً معيناً من غلالها ، وشيئاً مما تنتجه العائلة من الاشغال اليدوية ، كقطع من الخشب المشغول أو المنقوش ، وبعض الاقمشة مما ينسج على اليد أو يحاك في المنزل . كذلك يترتب عليهم ان يساعدوا بالمجان ، صاحب الارض على استثمار القسم المحتفظ باستثماره لنفسه ، كما يترتب عليهم ان يقدموا له ، عدداً من أيام السخرة ، في السنة يتبرعون بها لفلاحة أرضه ، أو مساعدته في الحصاد ، وقطع العشب والقصيل ونقل الغلال ، والسهر على سلامة وصيانة المباني القائمة على املاكه . وهذه الخدمات يتبرع بها الفلاحون ، هي في نظر صاحب الارض ، اهم بكثير من الرسوم النقدية أو العينية التي يترتب عليهم تقديمها له . وبالفعل ، فقد كان كبار الملاكين ، في القرن التاسع ، يؤجرون قسماً من اراضيهم ، ليس طمعاً منهم بما تدره عليهم من دخل وغلال ، بل ليؤمنوا لانفسهم الخدمات الثانوية التي كان يتوجب على المرابعين تقديمها لهم ، بعد ان يوفروا لهم الشيء الصعب أو العسير في الامر ، الا وهو دفع اجورهم . من الطبيعي جداً الا تؤمن هذه الطريقة لسيد الأرض في السنة الواحدة ، سوى دخل بسيط . غير ان كبار الملاكين كان يهمهم جداً ان تؤمن نفقات معيشتهم ومعيشة ذويهم ، وان ترسل الى اهرائهم وحواصلهم بانتظام ، المواد الغذائية عن طريق نقلها بالسخرة ، وان تساعدهم هذه الحفنة من الدراهم التي يقبضونها من المرابعين أو من بيع المواد الغذائية الفائضة عن حاجتهم ، على شراء ما يرغبون في شرائه من الكماليات ، التي يبتاعها من وقت لآخر ، من التجار المتجولين .

المجتمع الريفي

فالمجتمع في عهد الدولة الكارولنجية هو مجتمع يرتكز في الاساس ، على الثروة العقارية ، ويحمل تنظيمه الطبقي سمات الملكية العقارية . فهو مجتمع يقوم أصلاً ، على الرق والاسترقاق او الموالي ، شأن المجتمع الروماني في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، والدولة الميروفنجية . فالتمييز التقليدي المتوارث بين الملاكين وبين الموالي ، أساسه نظرة اهل العصر في ذلك الزمان . فالملاكون هم وحدهم اعضاء في المجتمع ويشاركون وحدهم بنشاطاته العسكرية والقضائية ، كما يستدل على ذلك من بعض المصطلحات والمترادفات اللغوية كما نرى في كلمتي *Libre* و *Franc* ، مع ان الرق كان ، والحق يقال ، سائراً القهقرى ، كما هو ثابت .

فالآداب والاخلاق المسيحية التي كانت تحظّر استعباد المعَمّد او المتنصّر ، كانت تعتبر تحرير الرقيق عملاً يستحق الاجر والمثوبة . فلا عجب ان تكون ساعدت بعض الشيء على الانتقاص من قيمة الطبقة العاملة . فالأسباب التي تكمن وراء هذا الوضع ، هي ، في صميمها ، اسباب اقتصادية صرفة . فالارقاء الذين كان يؤتى بهم من البلدان الوثنية ، اصبح الاتجار بهم عملية رابحة منذ ان اصبحوا سلعة تشرى وتباع ، يشد التجار المسلمون اليها الرحال . ومن جهة اخرى ، فالاخذ بنظام التملك الواسع والعمل به ، أدّى الى اهمال استعمال فرقاء الارقاء في الاعمال الزراعية الباهظة التكاليف . ففي مطلع القرن التاسع كان الارقاء يؤلفون عشرة في المائة من مجموع سكان الريف ، سوادهم الاكبر يعمل في المزارع والحقول . وقد ساعد وضعهم هذا

على التخفيف ، بصورة محسوسة ، من الروابط التي كانت تشدهم بسيد الارض ، مع العلم ان هذا الوضع كان عندهم وراثياً ، يجعلهم دوماً مرتبطين ، دونما محيص ، بسيدهم ، فيسومهم القصاص ألواناً والعذاب أصنافاً ، وله الحق المطلق والاخير ، على كل ما يملكون حتى على ولدهم وذراريهم . فهم لا يستطيعون الافلات او التنقل ، ولا ان يتزوجوا الا بناءً على رغبة سيدهم وباذن صريح منه ، كما عليهم ان يستجيبوا ، سريعاً ، لكل مطالبه . فاذا ما استقر احدهم مع اسرته في الدوار الزراعي الذي تحت تصرفه ، فواجباته تخف نوعاً ، اذ ينحصر معظمها في استثمار الارض المقطوعة له ، وهو استثمار باستطاعته ان يورثه اولاده من بعده . ففي الايام التي لا سخرة عليهم فيها ، يستطيع الواحد ان يعمل في ارضه دونما اعتراض من احد ، وان يتصرف بغلاله كيفما يشاء ، فيبيع قسماً منها . كذلك باستطاعتهم ان يوفّروا ، وان يدخّروا لهم مالاً ، وان يؤمنوا لهم ربحاً حلالاً ، كما باستطاعة من كان بينهم على شيء من النشاط والاقدام ، ان يشتروا ارضاً حرة ويتصرفوا بكل حرية باستغلالها . وكلما ازداد انتشار النصرانية في الريف اندمجوا ، أكثر فأكثر ، في المجتمعات المسيحية واكتسبوا ، بالتالي ، شيئاً من الشخصية الادبية ، فزواجهم لا يصبح مجرد مساكنة وتسرٍّ ، بل يتم وفقاً لمراسم الاسرار المسيحية ، له ذات القيمة ويجري على النمط الذي يجري مع الاحرار .

فاذا كان وضع العدد الاكبر من الأرقاء اخذ يتحسن في نطاق الملكية العقارية الواسعة ، فوضع المرابعين الذين تسميهم الوثائق التاريخية التي ترجع لهذا العهد بـ *Coloni* ، لا ينعم بسوى شيء ضئيل جداً من الحرية . فهم بالاسم ، جزء لا يتجزأ من الشعب الحر ، ويخضع بالاسم للنظم التي يخضع لها العامة . غير انهم يخضعون ، بالفعل ، لمشيئة رب الارض الذي ينظر اليهم نظرته الى متاع ، يستغلهم كيفما يشاء . ويصدّر اليهم اوامره دونما رقيب او حسيب . فهم ، في الاساس معفون من الواجبات العسكرية ، الا انهم ملزمون الدخول في تنظيمات سيد الارض التي يعملون عليها ، كما انهم يجبرون على دفع رسوم خاصة اذا ما رغبوا في تكليف من يحل محلهم ، كما أن من كان منهم يعمل في اراضٍ خاصة بعمل العبيد ، يلزمون القيام بالاعمال الشاقة التي يطلب الى العبيد ، القيام بها . فالمدلول بين الحرية والعبودية لا يزال بعيداً ، والفارق بينهما قوياً ، ليصبح انزال المولى او الفلاح المعمر ، قانوناً ، منزلة العامل الشغيل . ومع ذلك فهم يؤلفون معهم ، عملياً ، طبقة واحدة مرهقة ، رازحة . وهذا الفارق الاجتماعي الاقتصادي الطابع الذي يفصل بين العمال الذين يعملون في الاملاك الواسعة ، وبين الرجال الاحرار الذين يعملون في اراضيهم الخاصة ، يزداد اهمية يوماً بعد يوم .

والفلاحون الاحرار يشاركون بجميع النشاطات العسكرية والقضائية في مجتمع الفرنج . الا انه عندما تكون ثروة الواحد منهم متواضعة ، فليس في وسعهم ان يعهدوا باستثمارها الى آخر ، يكبدهم حضورهم امام الحاكم واشتراكهم خلال الصيف بالحملات العسكرية ، مصارفات ونفقات لا قِبَل لهم بها ، يتفادى الكثيرون منهم تحملها ، وذلك عن طريق وضع انفسهم

تحت حماية احد كبار الملاكين ، ورعايته فيحوّلون قطعة الارض التي يملكونها الى اقطـاع يستثمرونه كفلاحين في حماية متنفذ كبير . وهكذا لم تلبث الطبقة الوسطى ان ذابت فغابت تدريجياً . والانهيار الذي اصيبت به الطبقة الحرة يُبرز بصورة اجلى ، تفوق كبار الملاكين العقاريين الذين يعمل في استثمار اراضيهم ، اثنتا عشرة عائلة على الاقل ، بحيث يلتحقون بخدمة الجيش فرساناً لابسي الدروع . وهـذه الطبقة التي تتميز في الشرائع البربرية والقوانين الكارولنجية بالقاب فخرية وشرفية ، ونعوت طنانة ، منهـا *Proceres* ، و *Optimates* و *Nobiles* ، تزداد ثراءً وغنىً بما ينهال عليها من الانعامات والأعطيـات العقارية الموقوفة على الوظائف العالية واصحاب المراتب السامية ، عسكرية كانت ام كنسية . فهم اسياد الفلاحين العاملين في املاكهم ، لهم وحدهم الحق بمراتب الجيش ومجالس القضاء والمحاكم ، والدنو من الملك والاتصـال به مباشرة ، والتمتع بالحرية التامة . فهـذا المجتمع الريفي الطابع حيث المراتب تعطى بنسبة ما يملك الفرد فيه من اطيان وامـلاك ، منقسم الى طبقات منعزلة بعضهـا عن بعض ، مغلق عليها ضمن الاراضي التي تستثمرها ، لا منفذ لها على الخارج ، جمـاع السلطة والشأن فيها بيد قلة من كبار الملاكين .

وسائل الحكم

لما كان سَدَنة القصر في مقاطعة اوسترازيا هم اكبر اصحاب الاملاك ، فقد استطاعوا ان يقبضوا على زمام الحكم فيها ويستولوا على السلطة . فحاولوا ان يحكموا بالفعل ، وهي مهمة شاقة للغاية دونها خرط القتـاد . صحيح ان الوضع الاقتصادي الذي كان عليه المجتمع ، اذ ذاك ، كان يساعدهم على ذلك ويجعل مهمة الحكم سهلة نسبياً ، اذ ان معظم سكان الريف والطبقة العاملة في الارض ، كانوا كلهم يخضعون ، بحكم ظروفهم الاجتماعية ، لملاّك كبير ، يقوم في منطقتهم . وتحقيق هذا الهدف لم يكن يطلب اكثر من المحافظـة على التاج وعلى احترام ما للملك من سيطرة اقتصادية ، واكتساب ولاء بضع مئين من كبار النبلاء في البلاد . ومن جهة اخرى ، فقد كان المفهوم العام للدولة وللواجب الوطني لا يزال بعـد غامضاً ، غائماً مستغلقاً . فاكتساب ولاء كبار النبلاء انما كان يتم عن طريق اغراقهم بالهـدايا والهبات ، أو باخضاعهم بالقوة والبطش . وهذا الاستسلام والخضوع هو بالطبع موقوت ، ووضع متأرجح ، وذلك لعدم وجود اجهزة تمتّن من العلاقات بين البلاط والرئاسات الاقليمية . ففي وقت كان فيه تجول الافراد ونقل الارزاق والمقتنيات ضيّقاً للغـاية ، والقراءة والكتابة في سبيلها الى العفاء والزوال ، فالعلاقات السياسية كان لا بد من ان ترتكز على العهـد المباشر المقطوع ، وعلى الاتصالات الشخصية وعلى الذكريات ، اذ ان الملك الذي لم يكن في وسعه ان يكون في كل مكان ، لم يكن له من ممثل في المقاطعات سوى الكونتية ، هؤلاء الموظفين الكبار الذين كانوا ، على الاجمال ، دون المهمة الموكولة اليهم ، يعاونهم قلة من العملاء يعملون في الوظائف القضائية الدنيا ، يفتقرون كلياً ، الى عدد كاف من صغار المساعدين ، ليتمكنوا من القيام بمهام الادارة في دوائرهم ، كما يجب . وهؤلاء الحكام الاداريون هم انفسهم من كبار الملاكين ، غير

قابلين للرفت أو العزل ، مبدئياً ، بعيدون عن الملك، ويعتمدون محلياً على انصارهم في المنطقة. فكثيراً ما تمرّدوا هم انفسهم على النظام ، وضربوا بالانضباط عرض الحائط . ومن جهة اخرى فالرسوم المجباة من افراد الشعب ، والتقادم التي كان عليهم ان يرفعوها للملك ، وهي عادة يُعمل بها منذ عهد الميروفنجيين ، لم تكن تمد الملك بموارد كافية ، منتظمة الدخل ، بحيث يستطيع معها ان يجتذب ولاء الامراء ، ويصطنع النبلاء حوله عن طريق توزيعه ، الفينة بعد الفينة ، الاعطيات والهبات السخية .

ومع ذلك ، فقد استطاع الكارولنجيون ان يسيطروا ، في اواخر القرن الثامن ، على الارستقراطية معتمدين ، في ذلك ، على وسائل وذرائع شتى . منها انهم كانوا ينظمون كل سنة ، حملات عسكرية يرسلونها وراء الحدود . فالملكية الفرنجية ، هي عسكرية في الاساس ، لانها جرمانية ، بربرية في صميم طبيعتها . فالشعب هو قبل كل شيء ، الجيش ، والملك هو ، قبل كل شيء ، قائد حرب وقائد سلاح . فبمجرد ما كان يقوم بوظيفته هذه ، ويؤدي هذه الخدمة ، كان ذلك امتداداً لسلطته وسلطانه ، فيتقوّى ويتوطد ، وعندما يجند شعبه ويدعوه لحمل السلاح ، يصبح هذا الشعب في قبضة يده وتحت تصرفه . فكل من كان حراً ، ولا سيما الاغنياء ، عليه ان يلبي نداء الملك بدقة وان يتقيد بالموعد المعين ، وإلاّ تعرض لجزاء ثقيل ولغرامة باهظة . فأقل تلكؤ او تأخر يبدر منهم خلال العمليات الحربية ، يجر على المذنب او المخالف اشد العقوبات . ففي كل صيف يتوجب على الارستوقراطية الفرنجية ان تحتشد على ادق ما يكون من الانضباط والنظام ، في فترة تطول من حزيران الى تشرين الاول ، فتشعر ، فيما بينها ، بتضامن اكبر عن طريق ما بينها من زمالة السلاح ورفاقة الحرب ، تحت ادارة الملك وقيادته . ثم فالحرب كانت دوماً حرفة مربّحة ، مغذّية . فالغزو والاسلاب والمغانم ، والاراضي المفتوحة ، كل ذلك يمد الملك ويوفر للملك ، ويعد له ظروفاً جديدة ومناسبات ناهزة ، ليوزع عوارفه ومكافآته على الذين يتفانون في خدمته ، وبهذا السخاء يكسب ولاء الآخرين . والشيء الجدير بالملاحظة هنا هو ان محاولات التمرد او شق عصا الطاعة ، حوادث لا تقع الا في اعقاب معركة خاسرة او موقعة فاشلة . فالحرب وما تتيحه للجيش من اسلاب وغنائم، هي اولى ادوات الحكم وأمثلها على الاطلاق .

واذا كانت الحرب تتجدد في كل سنة ، فهي ليست بذلك مستمرة دائماً ، والا أصبحت سلطة الملك نفسه فصلية موسمية او حينية ، عليها ان تتوارى وتختفي في الاشهر القُعود ، أي عندما يكون المحاربون ملازمين بيوتهم ومنازلهم . من العسير ان لم نقل من المستحيل، الاتصال بهم لوعورة المسلك ، وصعوبة المرتفعات معزولين بعضهم عن البعض لاتساع رقعة المملكة ، أثر حرب ناجحة وسّعت من اطراف البلاد . ولذا كان من المهم جداً ان يبقى استنفار الملك لوحدات جيشه معمولاً به والبلاد في حالة حرب معلنة ، من حين الى آخر ، بحيث يتم للجميع مشاهدة ما للملك من قوة وبأس ، وما له من بطش حتى في أيام السلم ، عندما يكون الجيش

مرابطاً في قواعده خلال فصل الشتاء. ولذا كان من المحتم على الملك ان يكون له عيون وارصاد، له بهم كل الثقة ، يبثهم في جميع الولايات ، تشدهم الى الملك او الى الأسرة المالكة ، وشائج القربى الوثقى ، وأخلص روابط الود عن طريق علاقات شخصية لها من المتانة ما لآصرة الدم. ولذا بين ١١٠ كونتاً الذين كانوا يمارسون الحكم ويضطلعون بمهام الادارة في مختلف الإيالات والولايات ، في عهد شارلمان والامبراطور لويس الورع وتحديد مراكز اقامتهم ، كان ٧٠ من بينهم اصلهم من مقاطعة اوسترازيا ، و ٥٢ بينهم من اقارب الملك وأنسبائه . ولهذه الاسباب عينها ، يهم الملك ان يترعرع تحت انظاره ، في البلاط الملكي ، أبناء النبلاء ، وهكذا يصبح لدى هؤلاء اليافعين الذين عاشوا في رفاقة الملك مباشرة ، واتصلوا به ، وسكنوا في غرف القصر وحجراته العديدة الفسيحة ، شعور الابن نحو الاب ، كما يجعلهم تذكرهم لهذه الالفة ، أكثر ولاء له ، وأكثر ثقة به عندما يعودون ، بعد انفراطهم من الخدمة ، الى ايالاتهم الخاصة. ولهذه الاسباب لجأ الكارولنجيون الى طريقة عملية طالما عُمل بهـا منذ عهد بعيد ، في الاوساط الارستوقراطية في شمالي غاليا ، وهي ان يجعل الملك ، عظماء الدولة ووجوه البلاد وأعيانها ، أتباعاً له .

ملكية وتبعية

في مطلع القرن الثامن كان عدد الرجال الاحرار الذين يضعون انفسهم تحت كنف عميد يحميهم ، او رئيس يسيج عليهم بجناحيه ، كبيراً جداً دون ان يفقدوا شيئاً من حريتهم وحقوقهم . وهذا الخضوع او التكريس الذاتي كان يتم وفقاً لمراسم وطقوس ، نقرأ وصفاً لها ، وبياناً عنها ، لاول مرة ، في وثيقة حررت عام ٧٥٧ ، فيجثو طالب الحماية ويضع يديه بين يدي السيد السند الذي يلتمس رعايته ، فيصبح بذلك من « ازلامه » ، مديناً له بالولاء والخضوع والامتثال . ثم يؤيد او يختم تكريسه هذا بتأدية قسم احتفالي ، ويُشهد الله والناس ، على صدق ولائه وامانته . وكان يتلقى بالمقابل ، الحماية وغير ذلك من المنافع المادية ، منها مثلاً اقطاعه ، بالمجان ، ارضاً يستثمرها طالما بقي موالياً ومحافظاً على العهد المقطوع ، تعرف عندهم « باقطاع » او أخاذة . وينشأ بين الرجلين شيء من القرابة الروحية والادبية . فالضعف الذي كانت الدولة تتردى فيه ، واضطراب حبل الأمن في البلاد ، وتطبع الاقتصاد بطابع ريفي محض ، كل ذلك ساعد على ترسيخ هذه التقاليد ، والتمكين لها في النفوس ، وهي اعراف وتقاليد لها جذور عميقة في المجتمع الغالي ، الروماني ، وجرمانيا البدائية. ان اسلاف بابين وشارلمان استخدموا الطريقة ذاتها ، وبهذه الطريقة بسطوا نفوذهم على اوسترازيا باكملها ، وهي تقاليد تغلغلت في صلب الحكومة بعد التغيير الذي طرأ على دولة الفرنج ، بحلول الاسرة الكارولنجية محل الاسرة الميروفنجية .

فالملوك تشبثوا ، قبل كل شيء ، بان ينالوا ممن يعهدون اليهم بمهات رسمية ، كونتية كانوا أم من ارباب المناصب الكنسية العليا ، الاعتراف بالولاء والطاعة ، وان يُتمّوا الواجبات الملقاة عليهم من جراء الوظائف التي يعهدون بها اليهم ، منها خدمتهم للملك ، سيدهم وزعيمهم ، خدمة

نصوحة. وعن طريق انابتهم لبعض دوائر الجباية ، او بتوزيعهم عليهم قطعاً من هذه العقارات الواسعة الارجاء التي يملكونها ، استطاع اوائل الكارولنجيين ان يجعلوا ، في عداد زبائنهم أو تابعيهم ، اغنى الملاكين ، وكبارهم الذين لم يلبثوا ان امسوا « توابع للملك » ، ولذا ترتب عليهم اكثر مما يترتب على غيرهم من الناس ، ان يقوموا بواجباتهم كرعايا مخلصين ، فينخرطوا في الجيش وهم باحسن عدة وعتاد ، والاختلاف الى محكمة الملك ، ومساعدته بكل قواهم ، على تأمين اسباب الراحة واستتباب الامن في البلاد . اما الصغار من بين اصحاب الاملاك ، فكان عليهم ان يضموا انفسهم تحت كنف اتباع الملك انفسهم . وهكذا ، فالطبقة العليا في هذا المجتمع الحر رأت نفسها مندمجة كل الاندماج ، في نظام مترابط من الولاء المسلسل ، والمواثيق المقطوعة للتابع ولتابع التابع ، حتى تصل الى شخص الملك .

وقد جاء هذا النظام مجدياً فعالا ، ثابتاً ارتكز عليه كل بنيان الدولة وكيانها ، بعد ان مكنت تقاليد التبعية والولاء في نفوس القوم ، وانتظم الأخذ بها عرفاً ونصاً . ومدة الاستعهاد تحددت بكل دقة ووضوح ، فالفريقان مرتبطان الواحد بالآخر مدى الحياة ، الا ان يتجاوز السيد واجباته تجاوزاً يخرج بعيداً عن الصدد ، واقطاع التابع أخاذة يستغلها ويستثمرها ما دامت قائمة رابطة العلاء ، هو ما يميز ، اكثر فاكثر ، العمل بنظام التَّبَعِيَّة . وهذه المنافع تعود على التابع ، تأتي ثمناً لولائه وخضوعه ، ولذا استثمرها مدى الحياة . اما اذا أخلّ بواجباته وحنث بقسمه ، كان من حق سيد الارض ان يستخلصها منه وان يقطعها عنه . وهكذا فالكَرَم الملكي يبقى مشروطاً ، واحتمال المصادرة يبقى اكبر وسائل الضغط والتأثير. اما طبيعة التبعية نفسها ، وطبيعة واجباتها ، فتبقى غامضة ، مبهمة . غير ان الملك يتوقع ان يقوم رجاله بواجباتهم بكل اخلاص ، وان يأتوا بالدليل على تعاونهم تعاوناً نيراً ، في حالتي الحرب والسلم على السواء .

وبعد ان أخضع الكارولنجيون ، بواسطة نظام عسكري شدّت من متانته ومداه روابط الدم ، ومتّنته روابط التبعية والمواكلة ، بعض عشرات من الأسر والبيوتات الشريفة المسيطرة على الثروة العقارية في البلاد ، اخذوا يحاولون ادخال بعض التحسينات على النظم الادارية التي توارثوها من الميروفنجيين . فعبثاً طلبوا من الكونتية ان ينظموا اعمالهم الادارية ويضبطوها ويحكموا قيدها ، وان ينشئوا لهم دوائر خاصة لحفظ الوثائق والمحفوظات . وقد راحوا هم أنفسهم يضعون مذكرات ومفكرات تبلورت ، في آخر الامر عن هذه القوانين التي جاءت تضبط الأوامر الشفوية الصادرة التي كانوا يسُنّونها في ربيع كل سنة ، امام الجيش المحتشد والمتأهب للانقضاض . وحاولوا ان يتشددوا في مراقبة عملائهم الاقليميين . وفي سنة ٧٨٩ ، تُلْمِع الوثائق التاريخية ، لأول مرة ، الى نشاط مفتشين متجولين يسمونهم : *Missi Dominici* ، لم تلبث صلاحياتهم ان اتضحت ، شيئاً فشيئاً واتسعت . فقد كان موفدو الملك ، في مطلع القرن التاسع ، يجوبون ، في فرق مختلفة ، تضم الواحدة منها دوماً : اسقفاً وكونتاً ، وعدداً من

الإيالات يتراوح عددها بين ٦ – ١٠ ليس للبلاط فيها أي ممثل . وقد انتظمت هذه الدورات ، وأصبح القيام بها فرضاً لازماً اربع مرات في السنة . فبعد ان يتزود موفدو الملك بالتعليمات اللازمة وينصرفوا للنظر في امر تنفيذ أوامر الامبراطور وكيفية تطبيقها ، يشرفون على اوضاع الامن في ربوع البلاد . كذلك كان عليهم ان يجمعوا شكاوى الرجال الاحرار ، اذا كان لهم الجرأة على الاعراب عنها ، وان يُصلحوا ما ساء او اختلط امره من شؤون ادارة الكونت في الإيالة التي عُهد اليه بادارتها .

واذ تبين للكارولنجيين بأن هذا التفتيش لم يفِ دوماً بالغرض وليس بالتالي كافياً ، فقد راحوا يحدّون كثيراً من حرية تصرف الكونتية ، لا سيا في ما لهم من صلاحيات تخولهم النظر في امور العدل وشؤون القضاء ، في أثر توسيع صلاحيات محاكم البلاد ، عندما انشىء في قلب كل ايالة ، هيئة من القضاة المسلكيين المعروفين بـ *Echevins* ، غير قابلين العزل والرفت ، يجري اصطفاؤهم وانتخابهم من قبل المفتشين . وقد كلفوا حضور الجلسات الاحتفالية العامة لمحكمة البلاط وكان على الكونت ان يأخذ رأيهم بعين الاعتبار والاحترام .

ثم ان امتداد سلطة الملك وسلطانه الى مناطق شاسعة ، جعل من المحتم انشاء حلقات اضافية متوسطة ، بين البلاط والكونتية ، اتسمت بالاحكام . والى جانب الولايات والايالات الفرنجية امثال نوستريا واوسترازيا وبورغونيا ، هنالك مناطق اخرى في الامبراطورية كايطاليا والاكويتين والبافيار ، اصبحت ممالك لها استقلالها الاداري ، بينها الولايات الواقعة تماماً على الحدود : في الشرق ، باتجاه شعوب الدانمارك والصقالبة والآثار ، وفي الغرب ، على حدود بريطانيا ، وفي الجنوب في هذه المناطق التي استخلصوها من سيطرة العرب المسلمين ، فقد انشئت فيها ادارة عسكرية خاصة هي دائماً في حالة تأهب للحرب ، تحت ادارة قائد عسكري مباشر ، يراقب ، عن كثب ، أعمال الكونتية ويخضعهم لاوامره . وهذه الاعفاءات التي اعطيت لعدد كبير من المؤسسات الدينية ، في عهد الدولة الميروفنجية ، جرى توسيعها . فمنذ القرن التاسع ، اخذنا نرى أملاك الاساقفة ، ورؤساء الاديار خارجة عن سلطة الكونتية ، ومُداخلات معاونيهم ، وبذلك أصبح صاحب المركز الديني ، في نظر الرجال الاحرار ، القاطنين على املاك هذه العقارات ، الممثل الوحيد للسلطة الملكية . فهو الذي يقودهم للجيش ، والذي يقتص من مخالفاتهم ، ويقدم للمحاكم الملكية ، المجرمين الذين اقترفوا جرائم كبرى . وهكذا اخذ الاحبار ورؤساء الاديار يمارسون ، بالنظر لما يتمتعون به من نزاهة ، ومن ولاء للبلاط ، جانباً من الادارة الحكومية في قسم كبير من المملكة . وهكذا نرى ان الميزة الاخيرة التي اتصفت بها النظم والمؤسسات السياسية ، في عهد الدولة الكارولنجية انما كانت الاتحاد الوثيق بين السلطة الملكية والكنيسة .

وبالفعل ، فقد ارتدت السلطة الملكية ، خلال القرن الثامن ، في كل من مملكة الفرنج وبيزنطية والعالم الاسلامي ، صبغة دينية ظاهرة ، أدخلت تغييراً عميقاً على طبيعة السلطة

ومفهومها . فقد جاء ذلك نتيجة منطقية لحفلة التكريس . فبعد ان يكون الملك مختاراً من الله ، ليمثله على الارض ، اصبح من حقه ان يمارس شيئاً من الكهنوت وواجباته . فلم يعد حاكماً مطلقاً . فقد ترتبت عليه مسؤوليات ، وتحمل واجبات جديدة نحو شعبه ورعيته ، عليه ان يسهر على الكنيسة وان يدافع عن الضعفاء والمساكين وان ينشر على الارض العدل والسلام، وهما اهم ما يراود خواطر مستشاري الملك من رجال الدين والكنيسة . فاذا ما تحددت سلطته على مثل هذا النحو ، كان لزاماً على رعاياه ، ان يتعاونوا معه وان يبذلوا اقصى ما بيدهم، لتأمين السلام وتوطيد اركانه . وهكذا تبدو الفكرة الذهنية، المجردة، للدولة، هذه الفكرة التي غامت كثيراً في عهد الدولة الميروفنجية ، وتتبلور على هذا الشكل الشؤون المسيحية العامة لتختلط بشؤون الشعب الذي اصطبغ بالعماد والذي تؤلف الكنيسة فيه ، قوامه الادبي والديني والعنصر الضابط له . قد يشك المرء في ان تكون هذه الفكرة الذهنية لهيكل الدولة السياسي قد وجدت لها صدى قوياً في خواطر الارستقراطيه العلمانية ، في عهد شارلمان . فليس بالقليل النافل ان تمسي هذه الفكرة ، التي ظهرت واطلّت علينا في هذا العهد ، الاطار الاساسي لكل النظم الملكية التي عرفتها الاجيال الوسطى . هنالك مراسم او تدابير خاصة ، ليتورجية الطابع ، رآها شارلمان خليقة بان توطد حكمه وتشيد سيادته ، تتمثل في هذا القسم او اليمين المغلظة يؤديها صاحبها ويده على بعض المقدسات . فقد بعث الى الوجود تقليد قديم تنوسي امره ، وذلك عندما اوجب ، عام ٧٨٩ ، على كل رعاياه ، ان يقسموا بإلا "يأتوا شيئاً إدّا" يسيء الى الملك او يضر به، ثم فرض ، عام ٨٠٢ ، الالتزام والتقيد فعلا ، بواجباتهم الدينية من حيث تناول الاسرار ، والتعهد بالامتناع عن كل مخالفة للشرائع الكنسية والمدنية، والعمل على ما فيه مرضاة الله وخدمته. وتحت طائلة "قسم يؤدونه وايديهم على الانجيل او على ذخائر القديسين ، يضعون بموجبه نفوسهم وقواهم تحت تصرف الامبراطور ، اصبح المجتمع في مملكة الفرنج مرتبطاً بالملك ، الملزم ، بحسب التكريس الذي تم له ، بتوجيه شعبه وقيادته الى الخلاص . وهكذا فالمشاعر الدينية ، كوّنت عضداً ادبياً قوياً شد من أزر القوى المادية العظيمة التي تمت للدولة الكارولنجية .

ومع ذلك ، فهذا التنظيم السياسي للدولة يبقى ، لعمري ، واهناً لما هو عليه من طابع بدائي . وبين ٧٨٠ و ٨٣٠ أخضع اصحاب الملكيات الواسعة لشيء من الانضباط والانتظام ، وهو تدبير ضروري لم يكن بدّ منه ، فلاقى نجاحاً مدهشاً ، اذا ما نظرنا اليه من خلال الاوضاع الاقتصادية والمجتمعية غير الملائمة جداً ، فاصبحت مملكة الفرنج ، اذ ذاك ، اشبه شيء بمملكة يرفرف فوقها النظام وتنعم بالسلام الداخلي ، مدة نصف قرن ، وهي نعمة بقي ذكرها طويلا في اذهان الناس وخواطرهم ، وهكذا ، اتاح بعث السلطة واعادة النظام في البلاد للحياة الدينية وللثقافة ان تحققا الكثير من التطور والازدهار .

الكنيسة الكارولنجية

الرواد الأول لهذه النهضة ، هم المرسلون الانكلوسكسون الذين نشروا لواء المسيحية فوق ربوع جرمانيا، بعد ان شدّ من ازرهم، سدّنة القصر في اوستراز يا وجعلوهم يفكرون بان التعاون بين الكنيسة المتجددة بالاصلاح من شأنه ان يوطد سلطتها . وبطلب صادر عن بابين القصير القامة واخيه كارولمان ، قام القديس بونيفاسيو باصلاح شامـــل عم الكنيسة الفرنجية وتناولها من جميع نواحيها ، وذلك وفقاً للمبادىء والمناهج التي وضعت خلال المجامع الاقليمية الثلاثة المعقودة تباعاً ، عام ٧٤٢ و ٧٤٤ ، في اوسترازيا ونوستريا وقد تابع عملية الاصلاح هذه ونهض باسبابهـــا ، ملك الفرنج الذي اصبح ، عقب تكريسه ، شخصية كهنوتية الى جانب كونه حليفاً للبابا ، ليصبح ، عام ٨٠٠ ، الامبراطور ، اي رائد المسيحية ومرشدها . وقـد تمّ في مطلع القرن التاسع ، اصلاح كل النظم والمؤسسات الكنسية وتنقيتها من الشوائب اللاصقة بها . وهكذا برزت كنيسة الاجيال الوسطى .

لهذه الكنيسة قانونيتها المميزة . ففي أواخر عهد الدولة الميروفنجية ، كان قام في شمالي غاليا ، العديد من الأديار التي ، عانت الامرين من الفوضى الضاربة أطنابهـــا ، اذ ذاك ، ومن مداخلات العلمانيين ، واختلاف نهج الحياة الرهبانية لدى الكثير من هذه الرهبانيات التي لم يحافظ عليها اصحابها ، وتوزيع شارل مارتيل جانباً كبيراً من املاك هذه الاديار ، على اتباعه ورعاياه . ومع ذلك فقد كانت هذه الاديار أسلم وأتقى هذه المؤسسات على الاطلاق ، فقد كاد اهتمام القديس بونيفاسيو بها لا يذكر . ولم يتمكن قط من حمل جميع الرهبان على اتباع قانون بندكتوس وفرائضه ، هـذا القانون الذي كان على احسن ما يكون تطبيقاً وعملاً به ، في الاديار الجرمانية، الحديثة النشأة، ومنها انتقل، على النمط ذاته، الى أديار اوسترازيا . وفي هذه الاديار ازدهرت الحياة الرهبانية وفقاً للنزعات والمناهج الانكلو سكسونية ، اذ لم يكن رؤساء هـذه الاديار مجرد مديرين قايمين بين رهبانياتهم ، كما ارادهم ان يكونوا القديس بندكتوس ، بل رسلاً ومبشرين ، النشاط ملء وفاضهم ، يقومون بأعمال الكرازة بالانجيـــل ، تحت اشراف روما مباشرة . ولم يلبث البحث والدرس ان رجحت كفته في هذه الاديار على كفة الاشغال اليدوية .

وقد حرص كل من بابين وشارلمان على ابقاء هذه الاديار ، في حالة جيدة وعلى مستوى عال ، محاولين مع ذلك استخدامها لسياستهم الخاصة . فقد استمروا ينعمون ببعض الاملاك المأخوذة من عقارات الاديار ، ويقطعون بعض انصارهم وخدّامهم من العلمانيين الذين ينعمون بألقـــاب رهبانية ، اطيب املاك الاديار وأجودها . الا انهم حرصوا على ان تنال الاملاك الباقيـة بين ايدي الرهبان ، احسن عناية وأتمها . وبالفعل فقد تمتعت الجماعات الرهبانية ، في عهـــدهم ، بجميع اسباب اليسر والراحة . وفي هذا الوقت بالذات برزت الدعوات التي انصرف اصحابهـا للعلم والدرس ، اذ ان الاخذ بالنظام العقاري على النهج المعمول به اذ ذاك ، والسير بأمـــلاك الاديار على الطريقة العقارية التي وزعت بموجبها الامـــلاك ، حرر الكثيرين من الرهبـــان من

الانصراف للاعمال اليدوية التي يتطلبها تأمين أوّد الحياة . وقد نظر الملوك الى رؤساء هـــذه الاديار نظرتهم الى موظفي الادارة ومأموري الحكومة ، فراحوا يصطفونهم ويتخيرونهم من نفس الوسط او مستوى الطبقة الاجتماعية التي يختارون منها الكونتية ، او من بين اولاد النبلاء الذين نُنشئوا في البلاط الملكي ، وعهدوا الى هـــذه النخبة وهم عادةً من الشباب الذي يزخر بالنشاط ، بمهمات ادارية وسياسية دقيقة . فقد كانت الكنيسة ، بين ٧٥٠ – ٨١٤ ملاذاً لثقافة وموئل العلم والفكر ، والبوتقة الاولى التي صاغت وافرغت النهضة الفكرية والفنية التي اخذت تظهر اذ ذاك ، كما كانت بلا منازع ، الاداة المثلى والعنصر الفعّال ، والعامـــل الاقوى في نحت الحضارة الفرنجية وافراغها وفقاً للقالب الاقتصادي الذي تحكم بالوضع الاجتماعي ، في هـــذه الحقبة ، وبذلك كانت الكنيسة السند الاقوى والدعامة الكبرى في هذا الانبعاث الذي انطلق في العهد الكارولنجي .

في عهد لويس الورع ، وقع حادث هام يمكن رده لتأثير رئيس احد الاديار هو بندكتوس انيان الاكويتيني الذي تاقت نفسه للأخذ بتفسير جديـــد اكثر صرامة ، للفرائض الرهبانية البندكتية . فقد اقلع الامبراطور من جهة ، عن الاغتراف من اموال الاديار واملاكهم ، ووهب علانية عدداً منها ، حق انتخاب رؤسائها بكل حرية ، كما ان القانون الذي صدر عـــام ٨١٧ ، اوجب العمل بفرائض القديس بندكتوس بعد ان اجرى فيها تعديلات مهمة ، اذ ابطل الاخذ بالنظرية الانكلوسكسونية للحياة الرهبانية المفتوحة التي تتوزع بين الدرس والتبشير ، واحـــل محلها نزعات ، تنسجم ، اكثر فاكثر ، مع الحياة الرهبانية المشتركة التي عُمل بها في دنيا البحر المتوسط ، والتي تتميز بالتشدد في عزلة الرهبان ، والاقلال من الدروس ، والاكثار من التمارين الليتورجية . ومنذ ذلك الحين ، اخـــذ عمل الاديار التبشيري بالتضاؤل شيئاً فشيئاً ، واخذت الاسقفية تلعب في الكنيسة الدور الاول في هذا المضمار .

كانت الرتبة الاسقفية قد بلغ منها الانحطاط كل مبلغ ، في مطلع القرن الثامن ، مع انها لها المحل الاول والدور الابرز في التنظيم الكنسي . وقد كان اصلاح هذه الرتبة ، الشغل الشاغـل للقديس بونيفاسيو الذي اولى جـــل اهتمامه اصلاح الناحية المادية للكنائس القائمة في كراسي الابراشيات ، واملاء الكراسي الشاغرة منها باساقفة اكفاء ، واقصاء من كان غير اهـــل منهم وقطعهم عن شراكة الكنيسة ، وتنظيم المجامع الكنسية . وقد كان هذا الاصلاح عملية شاقة ، بطيئة ، ولم ينته منـــه الا في عهد الامبراطور شارلمان . فكان الاسقف ، اذ ذاك ، يجري اختياره من بين كهنة البلاط او من بين رؤساء الاديار المتقدمين في السن ، شريطة ان يكونوا من اصحاب الكفاءات ، مشهوداً لهم بالفضـــل والتقى ، اذ كان الامر يتعلق بتنصيب اسقف راعياً روحياً لمنطقة يقوم مركزه في قاعدة هي على الاجـــال ، مدينة رومانية الاصل ، يتولى هو نفسه تدبير الكهنة رعاة الكنائس ، ويتولى امر تربيتهم وتخريجهم في امور الدين ، ومراسم الطقوس الكنسية والعبـــادة ، في مدارس خاصة تقوم على مقربة من المقر الاسقفي ، ويشرف

على مسلك المؤمنين وتصرفهم ، ويساعدهم على القيـــام بواجباتهم الدينية والمدنية على احسن وجه ، وبذلك يمهدون السبيل امام الكونت والملك ، لاستتباب الامن والسلام في البـــلاد ، واشاعة العدل بين الناس وخضع الاساقفة انفسهم لمراقبة شديدة من قبل موفدي الملـــك ومفتشيه ، وكانوا عرضةً للقطع والفصل من مناصبهم ، من قبل مجمع كنسي يجتمع بتوجيه الملك او تحت رئاسته ، كما ان مجالس الاكليروس العـــامة كانت تزودهم بارشادات وتعليمات عليهم بالتقيد بهـا ، وتدرج اهم قراراتها في القوانين الرسمية . فالاساقفة ومصف المطارنة هم اجهزة ضرورية في دولة تتداخل فيهـا الامور الروحية والزمنية بصورة لا يمكن انفصامها .. وتمكيناً للاساقفة القيام بخدمة امثـــل ، واحياءً للتقاليد المعمول بها في الكنيسة ، راح الامبراطور شارلمان في مطلع القرن التاسع ، يعطي انعامـــات مميزة للمتقدمين من الاساقفة او المتروبوليت الموكول اليهم امر الاشراف على الاساقفة التـــابعين لهم ، والذين اصبحوا يُعرَفون ، كما في الكنيسة الانكلوسكسونية ، برؤساء اساقفة . وهكذا بعد ان تم على مثل هذا النحو ، اصلاح الاسقفية ، وتنقيتها من الادران والشوائب التي تسربت اليهـــا ، وبعد ان أُمدّت بالأطر والملاكات اللازمة ، احتل المصف الاسقفي ، في الامبراطورية الكارولنجية ، بعد عام ٨١٤ ، محلاً بارزاً ، ورأى نفسه مدعواً ، كما جاء عـلى لسان يونان الاورلياني ، في كتابه : « حول النظام الملكي » ، ليس فقط لقيادة الرهبان وتوجيههم ، فحسب ، بل ايضاً العلمانيين والرهبان على السواء ، وعلى السير احسن مما تستطيعه السلطة الملكية الآخذة بالتقهقر ، بجماعة المسيحيين الى معارج الفضيلة والكمال المسيحي .

وهذا الاصلاح الذي تناول الرتبة الاسقفية والمصف الاسقفي ، ادّى ، من جهة ثانية ، الى تقوية الاجهزة والمؤسسات الكنسية والعلمانية السفلى . فقد اخـــذ الكهنة ، في المدن يعيشون عيشاً مشتركاً ، تحت اشراف ورئاسة المقدم بين الكهنة ، وفقاً للفرائض والقوانين التي سنهـا الاسقف كرودغانغ ، مطران مدينة متز ، في منتصف القرن الثامن ، للفيف الكهنة الذين يخدمون في الكاتدرائية الاسقفية . اما الريف ، فقد اخذ بتنظيم كنائسه على اساس راعويات ، وذلك منذ عهد الدولة الميروفنجية . فقد بقي امر خدّام هذه الكنائس الريفية مرتبطاً الى حد بعيد ، بكبير الملاكين ، ولي الكنيسة الاول ، لا سيما وهم على الغالب ، في جهل مدقع لمـا هم عليه من تربية سطحية للغاية ، تزداد انحداراً وسوءً لمعاشرتهم اناساً خشوشنين ، اجلافاً . ومع ذلك فالتطور جاء عظيماً ، اذ اتاح لهـــذه المجتمعات الوثنية ، المنعزلة في هذه المقاطعات المسيحية ، ان تذوب تدريجياً وتندمج معها ، بحيث اصبح تحت تصرف اكثر الجماعات الريفية خشونة ، كاهن يعنى بخدمتهم الروحية .

وهكذا بفضل الجهود المشتركة التي بذلها كل من البابا وملك فرنسا ، أمكن توحيد الاعراف الكنسية ومناهج الانضباط بين رجال الكنيسة . فقد تلقى شارلمان من روما ، عام ٧٧٤ ، المجموعة القانونية المسماة *Hadriana* التي لم تلبث ان اصبحت القانون الذي تمشت عليه كنيسة

الفرنج ، كما تلقى على التوالي ، فيما بعد، نصوصاً ليتورجية طقسية منها: «الليتورجية الغريغورية» التي أحلت الليتورجية الرومانية محل العادات والطقوس الغالية المتباينة

وهذا الاصلاح الكنسي الذي مكّن من تحقيقه ، اعادةُ السلطة الملكية وتقويتها كان بحق ، النقطة الاساسية التي انطلقت منها نهضة ثقافية وحركة تجديدية تناولت الآداب والاخـــلاق . وبفضل هذا الاصلاح للاخلاق والآداب الذي تم بفعل ما كان لرجال الاكليروس من تأثير فعّال، اصبح العلمانيون أسلس قيادة ، واقل خشونة في طباعهم . يجب ألا يذهب المرء للظن ان الناس ، في هذا العصر ، كانوا يسيرون بهدي التعاليم الانجيلية بكل دقة . فقد كانت الامور الدينية خارج الأديار ، على جانب كبير من البساطة والسذاجة ، لا يتحرج الناس فيها كثيراً ، ولا يتورعون في ركوب المركب الخشن . الا انه هنالك تطور ملحوظ يبدو بوضوح في الاسرة الملكية . فمنذ عهد بابين ، لم يعد القتل السياسي القاعدة المطردة للوصول الى الحكم ، كما ان عادة التسري اخذت في الانتساخ من الاذهان ، كما ان الاولاد السفاح اصبحوا من الندورة بمكان ، كما انصرف الامبراطور لويس الورِع الى اصلاح البلاط منذ ان اعتلى العرش، وحرص على استئصال الموبقات والمنكرات. وهكذا اخذت الامة الفرنجية تتخلص تدريجياً مما علق بها من شوائب الهمجية .

ازدهار الآداب

هنالك ، كذلك ، بعث ثقافي وفكري، انما على نطاق أضيق واشعاع اخف، افاد منه قِلّة من رجال الكنيسة ، وبضعة آلاف من الرهبان وبضع مئات من رجال الدين العلمانيين . ففي نظر روّاد هذه النهضة والناهضين بأمرها ، كالقديس بونيفاسيو ومساعديه الاقربين ، فالحياة الدينية يجب ان تسير جنباً الى جنب مع الدرس والبحث والتعلم ، الامر الذي حمل المبشرين على تأسيس مدرسة في كل دير أنشأوه ، في جميع اطراف اوسترازيا . وهكذا جاء الاصلاح الديني للكنيسة في الغرب مقروناً ، منذ البدء ، ببعث الحيـــاة الفكرية والثقافية . وهذه الثقافة هي دينية بحتة تهدف ، في النهاية ، الى خدمة الله والى انتهاج نهج قويم في الحياة ، قواعدها الكبرى : الديارات الرهبانية والكاتدرائيات المتوزعة بين شعب مخشوشن الطباع ، بليد الذهن ، متبلّد الفهم . وهي كذلك ثقافة لاتينية الطابع ، لغوية في جوهرها ، لم يكن الغرض منها سوى تبسيط فهم نصوص الكتب المقدسة ، كما نقلها الينا مترجمة ايرونيموس، ومؤلفات آباء الكنيسة في الغرب ، عن طريق دراسة الادب الكلاسيكي اللاتيني . وهي الى هذا كله، ثقافة من وحي الطقوس الليتورجية، ساعدت الاماديح والأناشيد الفنية الرائعة التي أبدعتها على تحلية وتزويق الكتب التقوية والكنسية والكتاب المقدس .

انطلقت هذه الحركة الاصلاحية من بين المرسلين الانكلوسكسون ، ولم تلبث ان اتجهت الاتجاه السديد في السنوات الاخيرة من القرن الثامن ، عندما وضعت الفتوحات الكارولنجية ، الولايات الفرنجية ، وجهاً لوجه مع البلدان الجنوبية ، حيث كان التراث اللاتيني الروماني اقـــل اندثاراً وانحطاطاً مما صار اليه امره في البلدان الاخرى، وعندما اخذ شارلمان نفسه يهتم برفع المستوى

الثقافي بين رجال الاكليروس ، في شمـــالي غاليا . وفي هذا السبيل ادخل العاهل الفرنجي في بطانته ، وألحق بحاشيته ، فريقين من اهل الفكر والادب من الاغراب ، أتى بهـم من بلاط اللمباردين ، امثال بطرس البيزي ، وبولين الاكيلي ، والشماس بولس ، كما استقدم بعضهم ، مـن بين الاسبانيين ، امثال ثيودولف الذي رسم ، فيا بعد ، اسقفاً على مدينة اورليان ، ومن بين الانكليز : ألكوينس احد مدرسي مدرسة يورك ، بعد ان اجتمع به اتفاقاً ، في ايطاليا ، واستقدمه الى بلاطه عام ٧٨٢ . وقـــد كان هؤلاء المثقفون عوناً له وعضداً قوياً اذ كلفهم اعداد الأطر والملاكات اللازمة لتعليم منهجي يعطى بانتظـــام في مدارس الكنائس الاسقفية ، والديارات الرهبانيـــة او في مدرسة البلاط ، يرتادها رجال الاكليروس من أبناء النبلاء وسراة القوم اذ اعتاد الامبراطور ان يختار من بينهم ، أساقفة الكنيسة وأحبارها . وقد وضع ألكوينس بنوع خاص برنامجاً نموذجيـــاً للدرس أمّن ذيوعه وانتشاره في سلاسل من كتب النصوص التي هيأها وأخرجها للناس ، وهو نهج جاء عن طريق مرتيانوس كابيلا ، امتداداً للنهج الذي كان عليـــه المعوّل في الادب الكلاسيكي القديم . ويتألف البرنامج المذكور من حلقتـين متميزتين ، تُعرف الاولى باسم *Trivium* وتشمل التعليم الاساسي الذي يضم ثلاثة فروع : الصرف والنحو ، مع شروح وتفاسير للنصوص الكتابية لتيسير فهم اللغة اللاتينية ، والخطابـة او فن الانشاء ، والجدل او فن المنطق . اما الثـــاني فيعرف باسم *Quadrivium* ، وهو يهدف عن طريق تعليم الحساب والموسيقى و « الهندسة » اي الجغرافية الى تزويد الطالب بدورة موسوعية من المعلومات حول الطبيعة والعالم .

سارت هذه الحركة الهوينا في البدء ، فجاءت نتائجها متواضعة ، اذ لم يكن لدى المفكرين والكتّاب المعاصرين لشارلمان ، ومعظمهم اغراب ، باستثناء الراهب سان ريكيـه انجلبرت ، رغبة في وضع مؤلفات اصيلة ، بل كان جل رغبتهم ان يحتذوا ، ما استطاعوا ، النماذج والقواعد التي بلغت اليهم من التاريخ القديم . وقد تصرف ، هؤلاء الاساتذة ، تصرف طلاب متواضعين ، ليس لهم من هاجس سوى طلب العـــلم والسعي اليه . فالمهم عندهم وضع الادوات والاجهزة الموصلة للعلم ، واعادة النقاء والاصالة اللغوية الى النصوص المسيحيـــة ، وتنقيح نص الكتاب المقدس . وفي هذا السبيل ، وتوفيراً لنصوص واضحة ، مُوثّقة ، وتيسيراً لعدد اكبر من النسخ ، طلع علينا طراز جديد من الخط يعرف عنـدهم بالكارولنجي الصغير ، وهو حرف اعتمدته على نطاق واسع ، دار النسخ (*Scriptorium*) التي أنشئت في مدينة تورس . وهكذا لم يتجاوزوا كثيراً الدرجة الابتدائية من الحلقة الاولى *Trivium* ، أي درس الصرف والنحو على أساس من الشروح والتعاليق التي وضعها دوناتس ، وبريسيانوس . وقد امكن بعد هذا الجهـد الطيب ، وبعد عدة قرون من الهمجية والبربرية ربط ما انقطع ، ووصل من انفصم من امور اللاتينيـــة الكلاسيكية ، اذ بفضل ما تحلى به النساخ من الرهبان ، من صبر جميل واحترام لهذه النصوص ، امكن انقاذ القسم الاوفى من تراث روما الادبي والفكري . وهكذا اصبحت للغـة اللاتينية ،

في غاليا ، المنزلة التي بلغت اليها في البلاد الانكلوسكسونيـة : لغة علم وانضباط ودقة ، تتميز جيداً عن اللهجات الشعبية المحكية ، وتسمو فوقها بكثير . ومن الحوادث الاساسية البارزة التي ادت اليها هذه المرحلة الاولى من الانبعاث الكارولنجي ، هو ان اللهجات الرومانية اتجهت كل منها ، في اتجاه مفرّد . وهكذا أصبحت البلاد المسيحية ثنائية اللغة ، مزدوجتها .

وهكذا قُيّض للجيل الذي تخرج على هذه المناهج واخذ ينتج في الحقبة التي عقبت وفـــاة شارلمان ، ان يمضي قدماً في مضمار التقـــدم والرقي . فالحركة الاصلاحية التي قام بها بندكتوس الانياني الذي خشي من انصراف الرهبان نحو الادب العلماني وانقطاعهم اليه وراح ينقص من الساعات المخصصة للدرس ، في الاديار ، تؤلف دليلاً آخر على الاتساع الذي بلغته حركة البعث الادبي ، يجب اضافته الى الدليل الآخر القائم في هذه المقاومة التي لقيتها هذه الحركة الاصلاحية ، في الاوساط الكنسية الاكثر تطوراً . فقد جاء يقوّي من هذا التيار فريق من المثقفين الاجانب معظمهم ارلنديون ، هذه المرة ، فرّوا من وجه الغزو السكندينافي الذي تعرضت له بلادهم ، بينهم سيدوليوس سكوط ، وجون أريجينا الذي كان على اتصال مباشر بالفكر الفلسفي ، وهو اول فيلسوف نبغ ، خلال الاجيال الوسطى ، في الغرب تميز بالجودة والإصالة ، مع ان معظم رجال الفكر اللامعين ، في القرن التاسع هم من الفرنج . وقـــد اعرقت ثقافتهم ورسخت ، واتسعت مداركهم ورحبت منها الجنبات تشهد على ذلك رسائل لو ده فاريار . فاذا كان البعض منهم امثال رابان مور سار على خطى ألكوينس ووضع لجيله كتب نصوص للمدارس ، كما وضع نصب عينيه تثقيف الرهبان ورجال الاكليروس ، فالسواد الاعظم بينهم حاول ان يشق طريقه بوضع آثار شخصية تتميز بالاصالة ، رامياً منها الى اربعـة اغراض رئيسية . اولها اغناء الليتورجيا والطقوس الكنسية عن طريق وضع اناشيد وتراتيل دينية تأتي منسجمة مع الروح الموسيقية التي تجددت بعد ان روعي فيها التناغم المسلسل على أساس من الرموز الجديدة . والثاني هو النظر في المؤسسات والنظم السياسية المعمول بها ، اذ قام أحبـار واساقفة عُرفوا بقوة عارضتهم ومقدرتهم على الجدل والمناقشة ، أمثال اغوبار ده ليون وجوناس الاورلياني بمحاولات التنسيب والتكييف وتأمين الانسجام بين المجتمع العلماني والمجتمـع المسيحي . والثالث هو التاريخ الذي يمثله ، في هـــذه الحقبـة أدجنهارد ، وأرْمولد الاسود المعروف ايضاً باسم نيثارد ، اذ في علم التاريخ تتبع ، واقتفـــاء أثر سير الشعب المسيحي نحو الهدف الذي وضعه نصب عينيه . واخيراً اللاهوت ، وهو الغاية القصوى لكل ثقافـــة دينية تحاول مع بسكاسيوس ردبرتوس المتوفى ٨٥٦ ، اكبر لاهوتي الفرنج في القرن التاسع ، وغوتشالك ده فولدا تقريب فهم قضايا الايمان الكبرى . صحيح انه يجب الا نغلو كثيراً في تقدير هذه لآثار الادبية التي يثقلها ويرزحها كثرة الاستشهادات ، والتي كثيراً ما تفتقر الى بساطة العفوية والبداهة ، وتبقى تعليمية بحتة ، الا ان ما فيها من زخم وقوة ، يكوّن بوادر اليقظة الفكرية ، في الغرب .

نهضة الفنون

كما في الادب والفكر ، كذلك نهضة في الفن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاصلاح الذي تناول الوضع السياسي والحياة الدينية . وقد جاء هذا الاصلاح اسبق من غيره مما رافقه من وجوه الاصلاح الاخرى ، واكثر اصالة ، وأقل اتكالاً وتعويلاً على الماضي ، اذ لم يعد الفنانون كالادباء ، مثلاً ، منهمكين باحتذاء النماذج الكلاسيكية ، فتتنزّى انجازاتهم الفنية ، بنوازع وتيارات فنية بدت طوالعهـا منذ اواخر القرن السابع ، بين نهري اللوار والرين ، في هذه المنطقة بالذات التي تم فيها التقاء التقاليد القديمة مـع العنصر البربري الجديد ، فتمازجا بعضاً ببعض .

وقد تجلت قدرة الفنانين والرسامين الغالبين الفنية ، في هذه الانشاءات الهندسيـة التي تمت خلال عهد شارلمان ، ممثلة خير تمثيل ، في كنيسة جرميني التي شُيدت وجرى تزيينهـا وفقاً للاساليب والمناهج القومية المرعية الاجراء . واذا كان ملك الفرنج الذي بنى كنيسة البلاط في مدينة اكس ، وارادها دليلاً على ان قوته هي من طبيعة قوة اباطرة بيزنطية ، فالمهندس أويد ده متز ، هو ايضاً من مقاطعة اوسترازيا .

فالعهد الخصب بالانجازات ، هو ، هنا كما في مجال الادب والفكر ، العهد الذي جاء بعـد عام ٨١٤ ، فالكنائس والمباني الاخرى التي ترجع الى زمن لويس الوَرِع ولوثير ، امثـال كاتدرائية ريمس القديمة ، وبزيليكا سان جرمين دوكسير ، تحوي هندستها المعمارية ، ما ينمّ جيـداً على التجديدات التي جاءت تعبيراً عن حاجات الليتورجيا الجديدة والتي تمهد السبيل مباشرة ، للهندسة الرومانية . ان انتشار عادة تكريم دخائر القديسين ادى الى الحاق البزيليكا من الطراز القديم ، والتي نرى منها وجهاً في كل من الشرق والغرب ، بمبان جديدة لاستعمال الزوار والحجاج ، اذ يقوم الى الامام ، حَنيّة بشكل مغارة حيث نرى جدَث القديس في صحن من صحون الكنيسة ، يعلوه معبد بشكل محدّب ، وفي الداخل اروقة ، قليلة الارتفاع يعلوهـا منصّات ، وكنيسة فرعية يعلوها برج من كل جانب . والشيء الجدير بالملاحظات هنا ، هو هذا التغيير الاساسي الفاصل ، اذ نرى الانشاءات الفرعية ، الضخمة تحل فيهـا الاعمدة المتخذة من الحجارة ، محل الاعمدة الرخامية التي ساروا على استعمالها في البزيليكات ، كما حـل الخشب محل العقود .

وهذا الفن الكارولنجي يبلغ ذروته في تزويق الكتب والمخطوطات والتوشيات البديعة التي وُشّيت بهـا انواع الجلود المستعملة لتغليف الكتب ، وهو ازدهار يكاد يكون مفاجئاً ، لم يوطىء له العهد الميروفنجي السابق ، بشيء ، اذ ان زركشة الانجيل المعروف بانجيل غودسكال تمت قبل قدوم العلماء الاجانب الى بلاط شارلمان . وتجديد الليتورجيا لم يكن بعيداً عن هـذه الانشاءات بعد ان جرى تبني الليتورجيا الرومانية وتجديد نسخ الكتب المقدسة ، كل ذلـك تسبب عن إنشاء مدارس خاصة لتحلية المخطوطات وزركشتها بالعـاج ، كمدرسة سان دنيس وتورس ، ومتز ، وهوتفلر ، وكوربي ، واكس لاشابيل ، وقد اطلعت هذه الورش او المعامـل

الفنية كبار الفنانين الذين بعد ان استوحوا الصور والرسوم البشرية المرسومة على الافاريز ، كما هي الحال في مغـارة اوكسير ، والنقوش الظاهرة على بعض الاقمشة المستوردة من الشرق ، وحفر المصنوعات الحديدية في منطقة الموزيل ، طلعت علينا بروائع فنيـة ، كتوراة كنيسة القديس بولس خارج الاسوار ، وكتاب القداس المعروف بكتاب دروغون، ومزامير اوترخت، او توراة شارل الأصلع .

وحدة الحضارة في الغرب

هذا هو الوضع الذي بدت عليه الحضارة في الغرب ، بين ٧٨٠ - ٨٣٠ ، في هذه البلدان الواقعة بين نهري اللوار والرين ، وهو وضع اخـذت تتأثر به وتتفاعل معه جميع اجزاء الامبراطورية الكارولنجية . واذ كانت هـذه الامبراطورية تتجه ، مشبعة الى حد بعيد ، بالعوامـل والمؤثرات الدينية ، وكان جميع الذين يقومون بالتوجيه الروحي فيهـا من رجال الدين ، فليس من عجب ان تتجه افكارهم ، في الدرجة الاولى ، اتجاهاً مسيحياً وان يروا ، كما رأى اغوبارد الليوني ، بان كل النزعات الخاصة يجب ان تنصبّ وتنسكب في وحدة شاملة . ولما كانت الولايات التي تشع منها هذه الحضارة هي محور هذه الدولة التي تغطي رقعتها الجغرافية جميع ارجاء الغرب تقريباً ، وملك الفرنج هو المالك للقسم الاكبر من العقارات الواقعة الى الشمال من غاليا ، ورأس الطبقة الارستوقراطية في كل من اوسترازيا ونوستريا ، فقد اصبح الامبراطور الروماني ، والرائد المشارك للبابا ، ولجميع المؤمنين بالسيد المسيح . وقد مهد لانتشار هـذه الحضارة الكارولنجية ، العلاقات التي شدت الفكر ورجال الدين بعضاً الى بعض ، شداً محكماً عن طريق الزيارات والرسائل التي يتبادلونهـا فيما بينهم ، والكتب التي يتماورونها ، كما ربطت بينها هذه الاجتماعات الدورية التي تعقدهـا الارستوقراطية العلمانية بمناسبة الحملات والسرايا العسكرية، والاصل الواحد المشترك الذي يجمع بين مختلف القائمين باعمال الادارة : من اساقفة ورهبان وكونتية ، الذين ، بالرغم من توزعهم في جميع انحاء الامبراطورية ، يعودون تقريباً للاسرة الكبيرة الواحدة ، اذ قضوا معاً في البلاط الواحد ، حداثة واحدة مشتركة . صحيح ان الامبراطورية ليست الغرب كله او بكامله ، وانه لا يزال في بعض الاقاليم ، تقاليد ونزعات محلية قومية . ولهـذا لم يكن الاشعاع الحضاري في هذه المدنية الكارولنجية ، على نسبة واحـدة ، وبمعدل واحـد في جميع انحاء هـذه المناطق على السواء .

عرفت الاقطار الواقعة عبر نهر الرين ، من نهر الإلب حتى جبال الألب ، كيف تنصهر في بوتقة واحدة. فقد قام الكارولنجيون بتحضير جرمانيا في الوقت الذي كانت تجري فيه حروب الفتح ليخضعوا هذه الاقطار لنفوذهم . فبتعيينهم الكونتية في هذه المقاطعات ، وبانشاء الولايات العسكرية على الحدود ، أو ُلتوا ، من حيث يدرون او لا يدرون، الاقوام المتأرجحة في تحالفها اتجاهها المرسوم وأطُرها السياسية . ان دمج هـذه الولايات في صلب المملكة الفرنجيـة ساعد كثيراً على تشجيع النشاط التجاري على اختلاف وجوهه ، وعلى تمهيد السبل لظهور التجمعات

المدينية الكبرى . ولم يلبث النظام العقاري ان عم الريف وانتشر فيه ، دون ان يبلغ ، مع ذلك ، من التوسع والامتداد ، ما بلغه في القسم الشمالي من غاليا ، اذ بقيت الملكية الصغيرة الحرة معمولاً بها بكثرة ، ورائجة كل الرواج في الولايات الدائرية : في الفريز ، وسكسونيا والمقاطعات الألبية الاخرى . وقد قام المبشرون بنشر الدين والثقافة معاً ، بعد ان أقاموا لهما مراكز اشعاع واحدة تتمثل ، خير تمثيل ، في هذه الديارات البندكتية ، امثال دير راينخو ، وسان غال وفولدا ، وكو في (كوربي الجديدة). ولما كان من الواجب لهذه الثقافة اللاتينية ان يتلقفها رهبان ورجال الاكليروس من اصل جرماني ، فقد ساعدت ، عن طريق المعاجم التي أدّت الى وضعها وتصنيفها ، الى تثبيت بعض اللهجات الالمانية القومية . وهذه الثقافة التي تغلغلت في محيط لا يخشى ان يزاحمها فيه منافس او مزاحم لغوي يفسد عليها نقاء الاصل والمصدر ، لم تأتِ الحضارة الكارولنجية ، في أي مكان ، بأنقى منها في المانيا ، وقُيِّض لها ان تستمر في تطورها الصاعد مدة اطول لم يتم مثلها لأي منطقة اخرى .

وعلى عكس ذلك ، فقد اصطدمت العوامل والمؤثرات الفرنجية ، في الاقاليم الواقعة الى الجنوب من مدينة تورس وشالون على الصون ، وجبال الألب ، بتقاليد وطنية متأصلة في نفوس اصحابها ، لا تلين ولا تني ، في قليل او كثير . فالجنوب من غاليا كان يؤلف محيطاً شديد التماسك والتضام ، صعب النفاذ اليه : فلا النظام العقاري المعمول به على نطاق واسع في غير هذه المقاطعات ، ولا أعراف التبعية وتقاليدها تأصلت فيها او أعرقت في ارضها . فالنظم والمظاهر الثقافية المعمول بها في هذه الاقاليم عانت كثيراً ، وأصابها المزيد من الاذى ، خلال هذه الحملات والغزوات العسكرية التي تعرضت لها تلك الاقطار خلال النصف الاول من القرن الثامن ، والمقاومة العنيفة التي قام بها السكان هناك ، حالت دون تجددها عن طريق المؤثرات الفرنجية المتسربة اليها من الشمال . وهكذا نرى مقاطعتي الاكويتين وبروفانس تؤلفان ، في عهد شارلمان ولويس الورِع ، فراغاً في خريطة الغرب الثقافية ، في هذا العصر . وعلى عكس ذلك ، فبقايا الحضارة القديمة في ايطاليا اللمباردية وفي المقاطعات التابعة للكرسي الرسولي ، دب اليها النشاط وفاضت بالحياة عندما نعمت بالأمن والسلام الكارولنجي ؛ والحركة التجارية مع الشرق شقت لها مسالك جديدة عبر شبه الجزيرة الايطالية ، بعد ان تعطلت او تمهلت الاتصالات والمقايضات التجارية في البحر التيريني ، فعادت هذه الحركة بالنشاط على التقاليد المدنية ، وعادت الحياة تزخر من جديد في هذه المدن العريقة ، ولا سيما تلك التي وقعت منها في سهل البو ، أمثال ميلانو ، وكومّارشيو ، وفراره . وقامت في نفس هذه المدن ثقافة لم تنقطع وشائجها بالثقافة الهيلينية لانها بمنجى عن السيطرة الكنسية . امـا في الفن فتعود الصور والاشكال الرومانية للظهور بشيء من الجمود ، تحت تأثير العوامل البيزنطية ، سواء في محفورات العاج اللمباردية الاصل أو في الصفائح الذهبية التي تغطي كنيسة القديس امبروسيوس في ميلانو ، أو في الفسيفساء الرومانية الموجودة في كنيسة القديسة براكسيدس ، أو في تماثيل سيفيدال ده فريول

المقتطعة من الملك. وولاية اسبانيا العسكرية هي في الوضع ذاته: فالروح العسكرية الفرنجية قليلة الاثر في هذه المقاطعة التي يأهلها لاجئون من الفيزيغوط، وهي نقطة عبور ومركز تجاري كثير الاتصال بالعالم الاسلامي.

وهنالك اخيراً، بعض المقاطعات في العالم المسيحي اللاتيني التي لا تخضع للامبراطورية، كالممالك الصغيرة التي قامت الى الشمال من اسبانيا او في الجزر البريطانية، اذ لم تخل النهضة الكارولنجية من اثر على مملكة أستوريا حيث سيطر التداول بالنظام النقدي الفرنجي، وحيث اخذ تدريس الآداب اللاتينية يزدهر وفقاً للمناهج ذاتها، وحيث راجت بعض نماذج الهندسة المعمارية المعمول بها في الشمال. اما الجزر فبقيت في شبه عزلة. فانكلترا وحدها لها حساب، اذ ان المقاطعات الكلتية الاخرى التي دبّ اليها الانحطاط منذ عهد بعيد، أي منذ ان تعرضت، في اواخر القرن الثامن، لغزوات السكنديناڤيين، هي في حالة تضعضع كلي. ومع ان البلدان الانكلوسكسونية لم تقع مباشرة تحت تأثير نفوذ الدولة الكارولنجية الا في ما يتصل بنظامها النقدي، فالفرق يكاد لا يذكر، في الوضع الحضاري، بين الطرف الواحد والآخر من المانش. فقد اخذت حضارة القارة، من انكلترا، بعض العناصر والمؤثرات الاساسية، من بينها النظم الكنسية والتعليمية، فاذا كانت الخطوات التي قطعتها النهضة الفكرية في الدولة الفرنجية اقل بروزاً من العنصر الذي استمدته من ثقافة الجزيرة البريطانية، فالمدرسة الاسقفية في يورك، لا تقل شأناً، حتى بعد ان غادرها الكوين، عما لمدارس غاليا الشمالية من سطوع وتألق، ولا شك في انه تمّ في خلال القرن الثامن، وضع الرائعة الشعرية باللهجة القومية، المعروفة باسم *Beowulf*.
ومن جهة اخرى، فكلا الطرفين، مشبعان بالتقاليد الجرمانية الواحدة. ومع ان النظام القضائي المعمول به في المجتمع الانكلوسكسوني، والنظام الآخر الجاري الاخذ به، في بلدان الفرنج، ينمّان عن كثير من مواطن القربى وفيها الكثير من الوشائج الوثقى، فالاول هو، مع ذلك، اكثر تحرراً لان روابط التبعية فيه ليست من التماسك والترابط في نظامها ما هي عليه في الثانية، واوضاع الأطر التي يتم فيها استثمار الملكية العقارية ليست محكمة الحلقات. فانكلترا افادت كثيراً، كما افادت غاليا الشمالية، من ازدياد النشاط في حركة المبادلات والمقايضات التجارية. فتجارها يصدّرون المنسوجات الصوفية للاقطار المجاورة لبحر الشمال، ويبيعون من التجار المسلمين القصدير والعبيد. كذلك أفادت انكلترا، بين القرنين السابع والتاسع، من الناحية الادبية، اذ ان ملكها «أوفا»، تعامل مع شارلمان، كالند للند. وهكذا كانت حضارة الغرب المسيحي، حوالي عام ٨٠٠، لاول مرة منذ انطلاق موجات الغزوات الجرمانية الكبرى، ذات تأثير بيّن، ومتجانسة كل التجانس، بالرغم من الفوارق المحلية العارضة.

انقسام الامبراطورية الكارولنجية

ومنذ الربع الثاني من القرن التاسع، اصيبت هذه الوحدة، وهذا الزخم الذي جاشت به المدنية الكارولنجية بصدمتين عنيفتين، متلازمتين الواحدة مع الاخرى: من جهة: انحطاط الملكية الكارولنجية التي كانت

الركن الركين لهذا البيان السياسي الذي قام في الغرب، ومن جهة اخرى، الغزوات التي تعرضت لها هذه المملكة في وقت واحد من الجنوب والشمال والشرق .

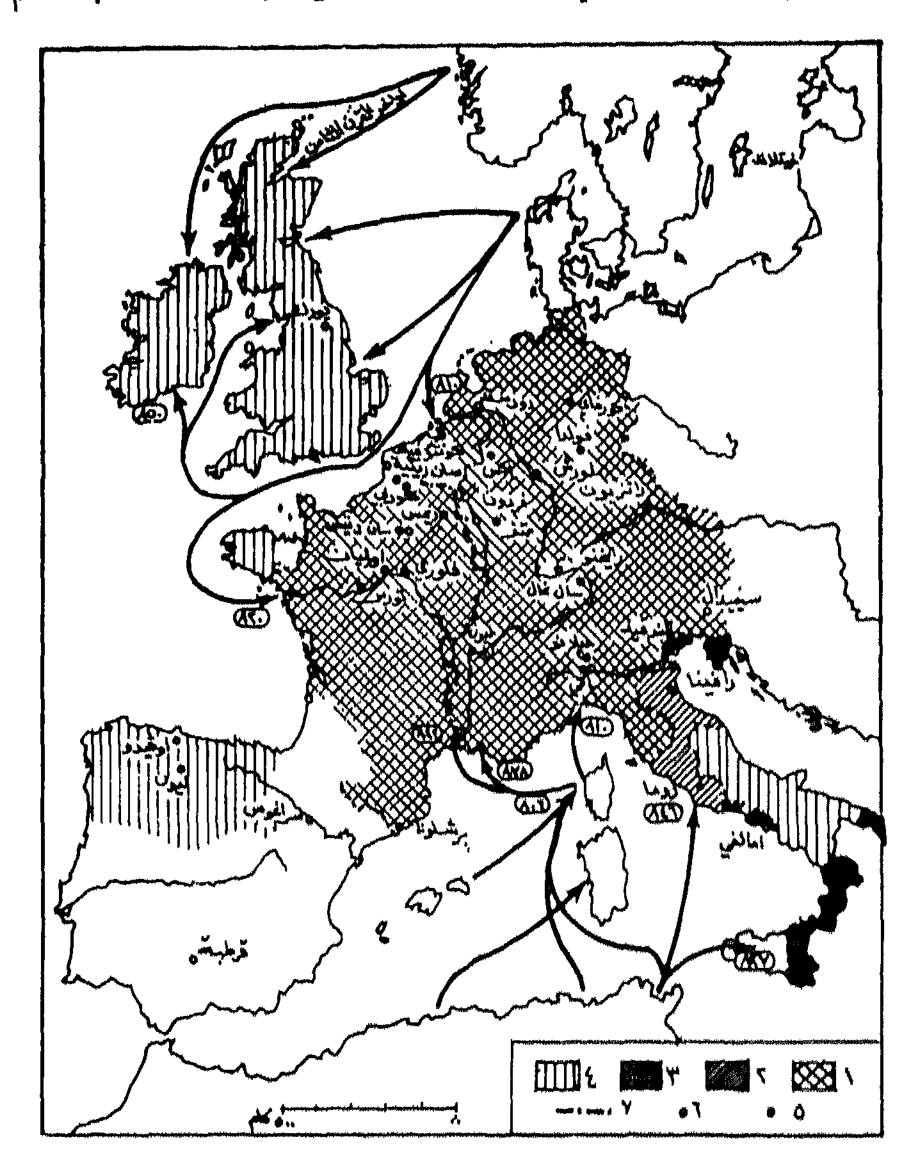
ففي عهد بابين وشارلمان ، وتحت تأثير الانصهار التدريجي للسلطات الروحية والزمنية ، دخل على النظام الملكي الفرنجي عاملان متضادان : الاول عامل بدائي قديم ، يقوم على مبدأ عسكري ، اساسه العنف والحرب والسلب ، وبفضل هذا العامل ، امكن السيطرة على ارستوقراطية الفرنج . اما الثاني فمبدأ ديني اصلاً ، وعنصر جديد رأى ان يقيم السلطة ويقيد سيادتها على مراسم وانظمة طقسية ، ليتورجية ، اساسها مراسم التكريس الرسمي والقسم الاحتفالي تصبح معها مسؤولية الملك الاولى والكبرى ، المحافظة على السلام وتأمين العدالة بين الناس ، وتؤمن له مناصرة النخبة الممتازة من رجال الفكر واهل الرأي والثقافة بين رجال الكنيسة . وهذا التوازن الذي قام واستمر ردحاً من الدهر ، كان واهي الاساس اصلاً ، فلم يلبث ان اختل واضطرب . فمنذ ان تولى لويس الورع مقاليد الحكم ، افضى تطور النهضة الادبية والفكرية الى المزيد من نفوذ رجال الكنيسة ، فراحوا يلقنون الامبراطور بالتزام حدود واجباته في المحافظة على السلام ، والسهر على اشاعة العدل بين الناس

وهكذا بدا الامبراطور وديعاً ، مسالماً ، وانقطع عن ترأس الحملات والتجريدات العسكرية وقيادتها الى ما وراء الحدود . ومضى المبشرون في دعوتهم للمسيحية والتبشير بتعاليمها ، يحاولون اقناع رؤساء القبائل الوثنية باعتناقهم الدين الجديد . وكان من جراء هذا الموقف والوضع الموصوفين ان فوّت على الملك فرص النهب والسلب التي كانت تتيح لها الغزوات والحملات العسكرية ، اي ان ذلك حرمه من الوسيلة الوحيدة التي كانت تمكّنه من بسط عوارفه ، والجود بانعاماته على رعاياه ، دون ان يمسّ هذا الكرم والسخاء بشيء ثروته العقارية . ولذا لم تلبث ثروة الكارولنجيين العقارية الضخمة ان ذابت وتطايرت بدداً .

وحاول الملك ان يبرز للناس ، متصفاً بالعدل والعدالة ، وان يتم واجباته بكل دقة ويقوم بالمسؤوليات التي تولاها في حفلة التكريس الرسمية ، وهذه الواجبات التي فرضتها عليه روابط التبعيّة التي تشدّه الى النبلاء . والحال ان حفلة التكريس ، وهذه التبعية ، اللتان زادتا كثيراً من نفوذ الملك الكارولنجي الاول ، ورفعت عالياً من شأنه ، وزادته مهابة ووقاراً ، اخفتا ضمناً ، تحديداً ضيقاً لسلطة الملك .

فحفلة التكريس الرسمية التي كانت تتم بحضور رجال الاكليروس الاعلين ، وتحت اشرافهم ونفوذهم ، لم تلبث ان صحبها وعد رسمي يقطعه الممسوح باسم الرب ، على نفسه ، بان يضع حدوداً لسلطته وسيادته . فمنذ عام ٨٤٣ ، راح الامبراطور شارل الاصلع ، يتعهد في كولين ، وهو بحضور كبار رجال الدين والدنيا في مملكته ، ويقسم مغلظاً ، انه سيتصرف وفقاً « لمقتضيات العقل والعدالة » ، وان يعطي لكل واحد : « مهما كانت الطبقة التي ينتمي اليها ،

والوظيفة التي يشغلها ، والمرتبة التي يحتلها ، الحق بالمحافظة على القانون » . امـ الترابط القائم



الشكل (رقم ٦) ـ اوروبا الغربية في القسم الاول من القرن التاسع
١ ـ الامبراطورية الكارولنجية ٢ ـ الدولة البابوية ٣ ـ الممتلكات البيزنطية ٤ ـ بلاد مسيحية اخرى
٥ ـ مراكز الاشعاع الثقافي الرئيسية ٦ ـ المحطات التجارية الكبرى ٧ ـ الحدود الشرقية « لفرنسا الغربية » عند انقسام الامبراطورية الكارولنجية ، عام ٨٤٣ .

على التبعية ، فلم يكن يقيم سلطة غير مشروطة من قبل السيد الرئيس ، على التابع المرؤوس ، بل على عكس ذلك ، كان يلزم السيد ان يهب لمساعدة تابعه والدفاع عنه ، اذ كان من حقه ان

لا يتوقع اي ضرّ او أذى من سيده . وهكذا ، فالملــــك كان يتردد في استرجاع الامتيازات والالقاب الشرفية التي كان ُينعِم بها على رعاياه ، عندما تحين وفاتهم ، او ان يعاقب ، بالمصادرة لهذه الانعامات ، مَن مِن رعاياه يتهاون او يقبل بما يلطخ هذا الشرف او يشينه . وهكذا كان الملك يفوّت عليه فرصة تجديد الموظفين كلمــا سنحت له ، من وقت الى آخر ، وان يزيدهم شعوراً بقيمة الولاء له عن طريق اعطائهم درساً في قصاص مثالي يكون عبرة لمعتبر . وهكــذا فالرابطة التي قامت على الولاء اخذت تتحلل شيئاً فشيئاً ، ولم تعــد لتؤدي ما يرجى لها من خدمات ومنافع . وهكذا بدا في الثلث الثاني من القرن التاسع ، ان نظام التبعية الذي أحكم وضعه رؤساء الدولة الكارولنجية الأوّل ، بات اعجز من ان يتيح ، إخضاع عظماء هذه الدولة لسلطان ملك متردد ، كثير الوساوس والهواجس وهو لم يعد عندهم ، بقائــد حرب يقود جيشه للنصر ، ولا بالواهب الجوّاد الذي يوزع عوارفه ، وأعطياته بسخاء . اما في اوساط الطبقات الاجتماعية السفلى التي لم تتأثر بعيداً بهذه الافكار والنظريات الكنسية ، فقد عرف هذا النظام ان يَبقى محكمة ، الروابط التي شدّت ممثلي الأسر الارستوقراطية الدنيــا الى رؤساء الأسر الاستوقراطية العليا . وعلى هذا الاساس تألفت تدريجياً ، هيآت سياسية صغيرة ، جاشت نفسها بالنزوع للمزيد من الاستقلال ، التي ، بالرغم مما تمّ لها من شأن محدود ، وجدت نفسها اكثر استمداداً للانسجام مع البنيان الاقتصادي الذي لم يترك مجالاً واسعاً للعلاقات ، من بعد ، ومع البنيان الاجتماعي الذي كان يؤمن السيطرة والسيادة لكبار الملاكين من اصحـــاب العقارات الشاسعة . فالسلطة الملكية ، رأت نفسها مشلولة ، لا تبدي ولا تعيد ، امـــام الاعتبارات الادبية المشدودة اليها ، وامام مشاركة المصف الاسقفي ومراقبته ، فاخذت بالانقسام على نفسها تتوازعها اجزاء مملكة الفرنج ، وتتجاذب اطرافها وصلاحياتها ، كل لنفسه .

والذي عجل في هذا الانقسام ، الاختلافات التي مزقت الاسرة الكارولنجية ، عندما رأى لويس الوَرِع ، بعد ان طعن في السن وشاخ ، نفسه تتنازعها الرغبة في الحفاظ على وحــــدة الامبراطورية والميل الى الاخذ بالتقاليد العائلية القديمة التي كانت توحي بان يوزع امبراطوريته على اولاده بالتساوي . نجم عن هذا الوضع عراك عنيف بين الامبراطور الوالد واولاده ، زاده احتداما آراء رجال الاكليروس الذين أفتوا بضرورة المحافظة على سلامــــة الامبراطورية . ثم اشتدت عنفاً بعد موت الاب ، بين الاخوة المتنافسين . وقـــد راح كل من هؤلاء ينثر الوعود و يُغدِق الأعطيات، جذباً منه للانصار من ابناء الارستوقراطية ، الذين راحوا بدورهم يبيعون ولاءهم بالمزاد ، يرسو على من يدفع أعلى الاثمان واسناها، مما زادهم ثراءً وغنى. واخيراً تم اقتسام اوروبا الغربية فتوزعت الى ممالك متباينة ، وذلك وفقاً لمعاهدة فردان ، المعقودة عام ٨٤٣ ، اما الحدود الفاصلة بين هذه الممالك فخطوط الطول ، بحيث دخل في هذه الممالك واحدة من هذه الدويلات التي احترم شارلمان استقلالها ، الا وهي الاكويتين ، وبافاريا وايطاليا ، يضاف اليهما جزء متساوٍ من الولايات التي تألفت منها مملكة الفرنج . وهكذا أطلّت علينا مملكة فرنسا

أو فرانكيا ، في الغرب ، وقفت حدودها الشرقية عند نهر الاسكو والموز والصون وجبال السيفين ؛ ومملكة فرنج الشرق الواقعة ما وراء الرين وجبال الألب ، ودولة ثالثة تتوسطها امتدت من البحر الشمالي الى ايطاليا في الجنوب ، فضمت المدينتين الامبراطوريتين : روما واكس لاشابيل،وهي الحصة التي عادت للامبراطور،هذه الرتبة المشرفية التي لم تكن تؤمن لحاملها سوى صدارة اسمية لا غير . أما المملكة الشرقية حيث النظم والمؤسسات الملكية كانت احدث عهداً ، وأعلق في النفوس ، فقد عرفت السلطة الملكية فيها ان تحافظ ، لمدة اطول ، على تماسكها ، مع انه اخذت تبرز فيها أكثر فأكثر ، نزعات اقليمية هي تعبير عن نوازع الشعوب الجرمانية الدفينة . ومقابل ذلك ، رأينا المملكة الوسطى تتناثر اشلاؤها الغربية حيث اخذ ممثلو السلطة الملكية المحليون ، من مركيز ودوق ، الذين كانوا يتولون إيالات حربية كبيرة ، ينظرون اليها كأنها اقطاعات عائلية ، دون ان يقطعوا أو ان يصرموا ، على المكشوف ، روابط التبَعية المتخلخلة التي كانت تشدهم الى الملك ، فاستطاعوا ان يتحرروا ، بسرعة ، من كل وصاية أو ولاية ، وان ينشئوا لهم امارات وراثية . وقد راح بعضهم ، بعد ان اصبح التكريس ، وليس الدم ، هو الذي يولي الشرعية ، يغتنمون وضع الانحطاط الطبيعي الذي آل اليه حَفَدة احفاد شارلمان ، وانتزعوا منهم ، بالقوة ، الرتبة الملكية عن طريق انتخابهم من قبل طبقة الاشراف في الامارة .

ولم يخلُ اقتسام الامبراطورية وتناثرها ، كما رأينا ، من أثر سيء على وحدة الكنيسة نفسها . فقد حاول رؤساء الاساقفة ، في الغرب ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع ، ناهجين في ذلك نهج المركيزة ، بسط سيطرتهم على المطارنة الذين تحت ولايتهم ، كما حاولوا التحرر او التخفيف من مراقبة الكرسي الرسولي واشرافه ، كما فعل مثلاً ، هنكمار ، رئيس أساقفة ريمس (٨٤٥–٨٨٢) وقد رد الكرسي الرسولي ، بالطبع ، على هذه المحاولة ، متذرعاً بمجموعة من القوانين ، تعرف في التاريخ باسم *Fausses Décrétales* ، مع انه لم يشك احد في صحتها. وقد اغتنم البابا نيقولاوس الاول فقدان هيبة الامبراطور ، وراح يدعي الأولوية الادبية لخليفة القديس بطرس ، ويعلن بالتالي ، انه القائد الوحيد لجماعة المسيحيين ، كما ادعى لنفسه الحق بمحاكمة الملوك والجزم قطعاً بقضاياهم. ولكن هذا الحبر الروماني، رئيس دولة صغيرة عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، واسقف روما، هو ابداً عرضة لاضطرابات تثيرها في وجهه الارستوقراطية الرومانية والشعب في روما، وهو بأشد الحاجة لحماية فعّالة من قبل الامبراطور. وهكذا في مطلع القرن العاشر ، والامبراطورية ليست بعد، سوى لقب هزيل يتنافس على حمله عظماء سهول لمبرديا، رأى الكرسي الرسولي نفسه ينحدر الى أدنى دركات الانحطاط ، دون ان يفقد ، مع ذلك ، سلطته الروحية تماماً ، على الكنيسة في الغرب .

وهكذا، في الوقت الذي لم تستطع فيه مملكة مرسيا الاحتفاظ بسيادتها في انكلترا ، جعل

التصدع الذي اصيبت به الدولة الكارولنجية في القرن التاسع ، اوروبا كلها هدفاً لاطماع الغزاة يحاولون نهشها وقضمها من جميع الجهات .

العرب والنورمنديون والمجر

تعرضت المسيحية في الغرب ، للهجوم من كل الجهات : فقد هاجمها المسلمون في الجنوب ، فاستطاعت جيوش الفرنج ، في القرن الثامن ان تصد هجوم العرب وان تحملهم على التراجع والنكوص على أعقابهم الى ما وراء جبال البرانيس . فقد كانت الولاية الواقعة على الحدود الاسبانيــــة ، وهي ولاية عسكرية ، في الاساس ، درعاً قوياً تولى أمر الدفاع عنها اسرة من القادة العسكريين الاشداء ، وقفت سداً منيعاً ضد توسع العرب والمسلمين ، من هذه الناحية . غير ان البحر كان حراً والبلاد الواقعة على سيفه مكشوفة . فمن اسبانيا الى المغرب، استطاع قراصنة المسلمين ان يحتلوا الجزر الواقعة الى الغرب من البحر الابيض المتوسط ، كجزر البليار وكورسكا منذ عام ٨٠٦ ، ثم صقليــة التي تم فتحها تدريجياً بين ٨٢٧ - ٩٠٢ ، ومن هذه الفتوحات المتقدمة اخذوا يرسلون سراياهم لغزو السواحل البحرية الواقعــة تحت سيطرة المسيحيين ، بقصد السلب والنهب . وهكذا تعرضت لغزواتهم المتعاقبة مدينة نيس (٨١٠) ومرسيليا (٨٣٨) ، وآرل (٨٤٢) وروما نفسها (٨٤٦) ، كما ان مقاطعات بويل وكمبانيا تعرضتا مراراً لهذه المغازي . وفي السنوات الاخيرة من القرن التاسع ، أنشأ فريق من المسلمين ، في جبال المورس ، الى الجنوب من الالب ، قاعدة لهم ، تحصنوا فيها ، واخذوا يتسللون منها الى كل جهات الألب ، قاطعين بذلك طرق المواصلات ، بين غاليا وايطاليا ، فارضين الرسوم الباهظة على التجار ووفود الحجاج ، مدة ثلاثة اجيال .

ومن البحر ايضاً جاء الغزاة يطرقون ابواب غاليا من الشمال ويهزونها بعنف . فالقبائل الجرمانية المستوطنة حول الاقطار السكندينافيــــة ، كالنرويج والدانيارك ، كانت بلغت شأواً بعيداً بفن الملاحة ، واستطاعت ، خلال القرنين السابع والثامن ، ان تحسن كثيراً من بناء السفن التي تستعملها ، وهي ، على الغالب ، قوارب لا ظهر لها ، متوسطة الحجم ، تسع الواحدة منها من ٤٠ الى ١٠٠ رجل ، يمكن استخدامها في الملاحة النهرية ومجاري الانهر الخفيفة المياه . وبفضل ما كان عليه هذا الجيل من تقدم فني وجرأة واقدام ، راح هؤلاء الاقوام الذين اصطلح الغرب على تسميتهم باسم النورمان او النورمنديين (أي رجال الشمال) يهاجمون الامبراطورية مدفوعين الى ذلك بعوامل عديدة . من ذلك مثلاً ، الضغط الذي تعرضت له البلدان المسيحية ، وازدياد السكان في سكنديناڤيا ، الامر الذي حدا بهم للبحث عن موارد جديدة للعيش . وقد انطلق النروجيون افواجاً صغيرة ، يبحثون لهم عن اراض جديدة يعمّرونها . وهكذا لم يلبثوا ان احتلوا ، دون ان يحدث احتلالهم أي دويّ او صدى له في الخارج ، جزر شتلاند وجزر الاوركايد وارخبيل هبريدس ، وراحوا ، منذ عام ٨٣٤ يحاولون ، من سواحل لانكشير ، الاستيلاء على ارلندا واستباحتها ، بينما استطاعوا ، في أواخر القرن التاسع ، ان يحتلوا اسكتلاندا نفسها .
اما قبائل الدانيارك فقامت بسلسلة من الغزوات الجريئة اشتركت بها فرق أكبر واوفر عدداً

يتولى قيادتها زعماء من الشعب .

وهذا الايغال يتم هذه المرة ليس على ايدي مزارعين او صيادين، بل على ايدي تجار قراصنة، تعاطوا ، منذ عهد بعيد ، الاتجار مع التجار المسيحيين في البحر الشمالي ، وهم يعرفون جيداً ما عليه سكان مناطقه المتاخمة ، من غنىً وازدهار ، في شمالي غاليا او في المقاطعات الانكلوسكسونية فكلما أنِسوا وجود حامية بوليسية تحافظ على الامن ، في المرافىء التي كانوا يأتونها ، اقتصرت معاملاتهم على تأمين الربح الحلال من المقايضات التجارية ، التي يقومون بها . الا انهم عندما كانوا يأنسون مكمناً للضعف او مقاومة خفيفة ، كانوا يتخلون عن التجارة فيقبضون بالقوة والبطش ، على ما في الموانىء التي يؤمونها ، والمدن التي يهبطونها ، من ثروة ومتاع ، ويأخذون السكان عبيداً وارقاء ، ويستولون على ما تقع عليه ايديهم من مال وفضة ، ويوغلون في داخل البلاد بحثاً عن مغانم جديدة . فقد اقتصرت غزواتهم ، في بادىء الامر ، على سواحل الفريز ، منذ عام ٨١٠ ، وسواحل انكلترا والمنطقة الواقعة عند مصب نهر السين ، ثم تحولوا من المانش ، فنهبوا نوارموتييه ، عام ٨٢٠ ، وسواحل النافار ، عام ٨٥٩ ، واخيراً داروا حول شبه الجزيرة الايبيرية ، فدخلوا البحر المتوسط ، واذ لم يبق شيء في المناطق الساحلية توغلوا في الداخل على متن سفنهم ، ثم تراهم يتخلون عنها ويتحولون فرساناً . وليس ما يمثل تغلغلهم مثل قصة جلاء رهبان دين سان فيلبرت ، الذين غادروا ديرهم في نوارموتييه ، قبل عام ٨١٩ ، وراحوا يبحثون عبثاً لهم عن ملاذ يلجأون اليه ، الى ان استقر بهم المطاف في بلدة تورنوس ، على نهر الصون ، عام ٨٧٥ . ومنذ منتصف القرن التاسع اخذت هذه الفرق الدانيماركية تستقر في المناطق التي يغزونها ويستبيحونها ويلنشئون فيها مستعمرات لهم بعد ان استخدموها قواعد مؤقتة يقضون فيها فصل الشتاء . وهكذا ، فقد انشئت دولة سكنديناڤية شملت القسم الشمالي الشرقي من انكلترا ، قامت حول يورك . وفي سنة ٩١١ ، انتزع النورمنديون ، من ملك فرنسا ، الاعتراف رسمياً باحتلالهم المنطقة الواقعة عند مصب نهر السين واقامتهم فيها نهائياً ، فعرفت باسمهم « نورمنديا » .

وبعد ان استُبيحت اوروبا ونُهبت على مثل هذا النحو ، تعرضت ، في النصف الاول من القرن العاشر ، لغزو جديد ، قام به فرسان جاؤوا من بوادي آسيا ، هم المنغاريون أو المجر . فقد كان استقر بهم المطاف في سهول بانونيا . ومن هناك ، قاموا ، قبل عام ٩٠٦ ، بغزوات خاطفة ، بقصد النهب ، باتجاه المانيا الجنوبية ، ومنها يمموا شطر اللورين ولمبارديا ووادي الرون ، وبلغوا مقاطعة بورغونيا ، ومقاطعة برّي ، عام ٩٣٥ ، وروما عام ٩٣٧ ، والأكويتين ، عام ٩٥١ ، وهكذا لم تسلم اية مقاطعة في الغرب من ويلات الغزو .

نتائج الغزو الجديدة

يدهش المرء عندما يفكر بهذا النجاح البعيد تصيبه غزوات القرصنة والنهب والسلب . فالمسيحية اللاتينية لم تكن معبّأة لحرب دفاعية . فقد قاد ملوكها حتى الآن ، هم انفسهم ، حملات دائرية ، وجيش الفرنج الذي كان بطيئاً في تحركاته

للحشد والتجمع ، كان مكيفاً لمثل هذه التجريدات العسكرية توجه ضد عدد معين يمكن تحديد موعد الهجوم عليه مسبقاً ، قبل المباشرة بالهجوم بكثير ، وكان دفاعه يرتكز على سلسلة من الحصون ، القلاع تقوم فيها حاميات بمدد واف تستطيع ، كما هي الحال في كتلونيا ومصب نهر الإلب ، الدفاع عن حدود الامبراطورية ضد عدو طارىء يهاجم بوسائل واساليب شبيهة كل الشبه ، بالاساليب والوسائل التي كانت تحت تصرفه . الا ان هذه الترتيبات والتجهيزات برهنت عن عجز تام في مواجهتها غزوات طارئة ، غير متوقعة ، تتجه ، بالاحرى ، ضد السواحل البحرية التي اهمل تحصينها لعدم توقع الهجوم عليها ، أضف الى ذلك عنصر المفاجأة ، وتأثير الفشل الذي لحق بالمدافعين في الاصطدامات الاولى ، فاثارت فيهم عقدة نفسية وشعوراً بالعجز فتّ من عضدهم وزادهم ضعفاً وابهاناً . لهذه الاسباب مجتمعة ، وقعت اوروبا ، خلال قرن كامل ، فريسة سهلة المنال ، وتألب عليها من الويلات والذل والهوان ما كان له التأثير السيء في المناطق الواقعة الى الغرب حيث كانت الحدود البحرية مكشوفة في كل من الجزر البريطانية ومملكة الفرنج .

فقد ساعدت هذه الغزوات ، على هلهلة النظم وتفسخ المؤسسات الملكية وانتقصت كثيراً من هيبة الملوك وخفضت من شوكتهم ، بعد ان عجز الجيش عن ردّ غائلة هذه الغزوات ، فحاولوا ، منذ عام ٨٤٥ ، الحد من اعمال النهب ، في غاليا وانكلترا ، عن طريق شراء سلامة ممالكهم بتنظيم جباية خاصة ودفع غرامة سنوية للنورمانديين، وهو حل ليس فيه ما يشرفهم ، كما انه ينفّر الشعب ولا يعطي نتائج يمكن الاطمئنان اليها . ومن جهة اخرى ، ان تفاقم اضطراب حبل الامن والشعور بعدم الاطمئنان اضطر الدولة لتوسيع نظام الولايات العسكرية (*Marches*) الى جميع اطراف المملكة والاكثار من القلاع والحصون ، وعلى توزيع الجيش الملكي على نقاط معينة للقيام باعمال السهر على الامن ، وان يتخلّوا عن المبادرة في الاعمال العسكرية ، لممثليهم الاقليميين . وهكذا أُعدّ الناس وتهيأت افكارهم لقبول فكرة توزيع سلطات القيادة .

وقد سببت هذه الغزوات خسائر مادية جسيمة للغاية . فقد نهب الغزاة اوروبا وسلبوها جانباً كبيراً مما لديها من مختزن المعادن الكريمة . واذ لم يحدث فقدان الجوهرات المذخورة في الاديار ، تأثيراً مباشراً على تداول النقد ، بين الناس وعلى الحركة التجارية ، فالامر جاء على عكس ذلك من هذه الفديات والغرامات التي كانت تفرض بانتظام على الممالك والمقاطعات ، اذ حرمت البلاد من كميات كبيرة من العملات المسكوكة . وقد قاست الارياف على الاخص ، كثيراً من هذه الغزوات، اذ ان سكان المدن كثيراً ما وجدوا لهم مأمناً وملاذاً ضمن الاسوار الحصينة التي ردّت عنهم هجوماً مفاجئاً . وهذا التطور الديموغرافي الذي لوحظ في المقاطعات الواقعة الى الشمال من غاليا ، في مطلع القرن التاسع ، توقف فجأة وانقطع بغتة فاقفرت اجزاء البلاد الاكثر تعرضاً لهذه المخاطر، من جراء ما تعرّض له الاهلون من اعمال القتل والمذابح، والخطف

والإجلاء ، والفرار ، ونقص المواد الغذائية ، فعادت الأرض بوراً ليس من يعنى بها .

كذلك لحق بالتراث الادبي والفكري الكثير من الاذى ، اذ ان الغزاة اخذوا يهاجمون على الاخص ، الديارات ، في ارلندا وانكلترا وشمالي مملكة الفرنج ، للنهب والسلب والخراب، بينما فر عدد كبير من الرهبان من الاديار الاخرى ، هرباً من الغضب المداهم ، حاملين معهم ذخائر القديسين وما خف حمله من الحلي والمجوهرات والاواني الكريمة ، سعياً منهم وراء ملجأ يأمنون اليه ويطمئنّون الى سكناه، وقد استهدفوا، بعد ان انقطعت اسباب العيش للصروف والظروف المريرة التي يخفيها الجلاء المفاجىء ، لمن عضتهم الاقـدار بانيـاب حداد ، فتحللوا من فرائضهم الكهنوتية ، واستبيحت مكتباتهم ، وتفرقت محتوياتها من المخطوطـات ايدي سبا ، واهملت الدروس ، وانقطعت كل عناية بها . وهكذا قضي على الحركة الفكرية التي كانت اخذت تزدهر في عهد الدولة الكارولنجية مع انهذه الحركة لم تتأثر كثيراً من جراء التقهقر الذي بدت بوادره مع انحطاط الدولة المذكورة . وقد انحدر المستوى الثقافي والحضاري بعد ان تغلغلت في البلاد وانسرحت فيها عوامل البربرية والهمجية والوثنيـة ، وعمت الفوضى التي يحملها معه البؤس والشقاء ، ومثول الخطر الماحق باستمرار .

صحيح انها رجعة او حركة الى الوراء ، انما حركة محدودة ، موقوتة . أما انهـا محدودة فلأن كل بلدان اوروبا الغربية لم تتضرّس بدرجة واحدة من الخراب والدمار ، الذي جرته هذه الموجة من الغزوات على الناس ، كما انها كانت قصيرة المدى ومرت بسرعة باستثناء تلك الـتي تعرضت لها الجزر البريطانية ، وغاليا الشمالية ، ومقاطعة بروفانس ، تخللها فترات طويلة من الهدوء والسلام، أمكن رتق الفتق واصلاح ما تعطل او اختل من شؤون الادارة والامن، ولأنه قام ، في كل مكان تقريباً ، ملاجىء وغابات ومدن حصينة وأديار امكن تسويرها وتحصينها بسرعة، حيث يمكن التخفي فيها والتواري وراءها، عند اول بادرة خطر ، ووضع أثمن الاشياء بمأمن من عبث الغزاة . وأما انها حركة موقوتة ، فلأن الغزوات توقفت ، وقـد ألِف الناس ، في الغرب، شيئاً فشيئاً هذه الاساليب الحربية. فكلما ازدادات أعمال التحصينات حول الصروح والقصور ، قلّت ، بالتالي المخاطر التي تنطوي عليها هذه الغزوات ، كما عادت على القائمين بهـا بكسب اقل . وفي الوقت ذاته ، وقعت في البلدان الاصلية التي خرجت منها هـذه الغزوات ، تغييرات جذرية خففت من شوكتها وكسرت من حدتها. فالمجر الرُحّل استقروا نهائياً في سهول هنغاريا حيث انقطعوا للفلاحة والزراعة . والسلطة الملكية ، اشتد منها الساعد وقوي العَضُد في البلدان السكندينافية : في النروج ، في اخريات القرن التاسع، مع الملك هارالد هارفغر ؛ وفي الدانيمارك ، خلال القرن العاشر ، مع الملكين غورم و « هارالد ذي السن الزرقاء » . وهكذا خفّت وطأة الخطر الى ان توارى تماماً . وآخر مرة استهدفت بلاد الفرنج لخطر جلل ، كانت عندما تعرضت ، عام ٩٢٦ ، لغزو جيش لجب من الدانيماركيين ، والنصر الذي سجله ملـك جرمانيا ، عام ٩٥٥ ، عند نهر الليخ ، فوضع حـداً نهائياً لخطر المجر . وعندما سقط ، عام

٩٧٢، المعقل الذي اتخذ منه المسلمون قائدة لهم في جبال *Maures* من اعمال مقاطعة بروفانس، امكن تطهير منطقة جبال الألب من هؤلاء القراصنة الذين عاثوا فساداً في تلك المنطقة ، مدة طويلة . وهكذا انقضى عهد الغزوات دونما رجعة لتبقى انكلترا تعاني وحدها ، حتى منتصف القرن الحادي عشر ، ضغط قبائل النوروى ، بحيث اصبحت اوروبا البرية في مأمن من اي غزو اجنبي .

ومع هذا ، فالغزوات التي وقعت في القرنين التاسع والعاشر ، لم تحمل في ثناياهـــا ، غير الخراب والدمار . فالاتصالات الجديدة التي ادت اليهـــا ، ساعدت كثيراً على نشر المسيحية وتغلغلها بين هؤلاء الاقوام . هنالك عـــدد لا بأس به من الفيكنغ ، اقتبسوا مبادىء الديانة المسيحية ونقلوها معهم الى ارجاء سكندينافيا حيث امتزجت بالعقائد الوثنية واختلطت بها . وهذه الفترة من « الايمان المختلط » مهدت السبيل نهائياً، لارتداد هؤلاء الاقوام، الى المسيحية ، بالجملة بعد ان لقوا تشجيعاً حاراً من قبل الملك هارالد ، ملك الدنمارك ، والملك « اولاف » ملك النرويج . وقد كان من اثر هذه الغزوات ان عادت بالنشاط على الحركة التجارية . فالانتقال من مجال القرصنة الى مجال التجارة حركة يكاد لا يشعر بها الانسان . والمخيمات الدائمـــة للغزاة النورمنديين ، كانت خلال فترة الحروب ، امكنة تقام فيها الاسواق التجارية والمعـــارض . والحركة التجارية، في البحر الشمالي، التي اصيبت بشيء من التأخر، خلال الهجومات الاولى العنيفة، لم تلبث ان عادت سيرتها الاولى من النشاط . واخيراً وليس آخراً ، شهدت بعض المقاطعات استيطان الفيكنغ واستقرارهم نهائياً في ربوعها ، بشتى الاشكال والاوضاع ، كصيادي اسماك ، وتجار متجولين بين ارلندا والسواحل البحرية الاخرى ، وبعض وحدات من المعمرين الزراعيين في الشمال الشرقي من انكلترا ، وظهور ارستوقراطية عسكرية ، سيطرت على سكان البـــلاد الاصليين ، عند مصب نهر السين . وهذه المقاطعة « نورمنديا » لم تمتم ان اصبحت من انشط المقاطعات التي عرفها الغرب ، تشهد الحركة الزاخرة التي قامت فيهـــا ، على خصب التربة السكندينافية .

وهكذا بعد ان توقف تطور المدنية في الغرب ، من جراء الاضطرابات وأعمال السلب التي رافقت هذه الغزوات ، لم تلبث الحضارة ان استأنفت سيرها وئيداً عندما عاد الامن الى نصابه والسلام الى محرابه . صحيح انه لم تعد الى اوروبا وحدتها ، ولكنها احتفظت بخير ما خلّفـه العصر الكارولنجي . وهذه البذور الطيبة التي هبطت في الارض في العهد الذي احاط بشارلمان وحفّ به لم تلبث ان أتت طلْعاً شهياً، اختلف طعمه وتباين مذاقه باختلاف الاقطار المسيحية .

انكلترا السكسونية

قاست انكلترا من هـــذه الغزوات التي تحالفت عليها اهوالاً شداداً ، مدة طويلة . فأديارها التي كانت منائر أشعّت على القـــارة جمعاء ، أصبحت خراباً يباباً . ومدينة يورك ، مسقط ألكوينلس ، اشهر علماء زمانه ، اصبحت ، بين ٨٦٧ – ٩٥٤ عاصمة لمملكة سكندينافية وثنية . ومع ذلـــك ، فالحضارة الانكلوسكسونية

عرفت ان تجتاز المحنة التي نزلت بها ، بسلام ، ولم تلبث ان نهضت بعد ان استجمعت قواها ولمت من شعثها . فاتخذت من مملكة وسكس ، اكثر ممالك الجزيرة الى الغرب ، قاعدة لها ، وعرف ملكها ألفريد الكبير (٨٧١ — ٨٩٩) ان يقاوم بعناد ، الغزاة السكنديناڤيين وان يسترجع منهم قسماً من الارض التي كانوا اغتصبوها منه ، واستطاع ان يبقي تحت سيطرته وسلطانه كل الاراضي التي فتحها او استرجعها ، بحيث ألتفت كل المقاطعات الانكلوسكسونية مملكة واحدة . وحاول الملك الفريد ان يعيد الى الثقافة رواءها ، فاستقطب حوله في البلاط ، عدداً من العلماء الرهبان استقدمهم من القارة ، ولا سيا من مدينة ريمس . ولما كان مقتنعاً كل الاقتناع ان اسباب المعرفة يجب ان تنتشر بين طبقات المجتمع العلماني ، لم يقصر جهده فقط على نشر الآداب اللاتينية والكنسية . فوضع تحت اشرافه المباشر ترجمة الآثار الكلاسيكية الى اللهجة الشعبية ، من بينها كتاب غريغوريوس الكبير المعنون « *Cura Pastoralis* » او الرسالة الراعوية ، حيث نرى تحديداً واضحاً لمهمة الاسقفية ولاهدافها ، كما أشرف على ترجمة « التاريخ الكنسي » للطوباوي بيد ، ونقل مؤلفات « بويثيوس » و« أوروز » وكتاب *Soliloques* للقديس اوغسطينوس ، فساعدت هذه الترجمات والنقول على تقعيد اصول النثر الانكليزي وتوطيدها .

ففي الوقت الذي كان فيه خلفاء الملك ألفريد الكبير : كادارد القديم«وأثلستان»، يواصلون الجهاد ضد غزاة الدانماركيين وتوصلوا الى تحرير القسم الشمالي الشرقي من انكلترا ، تماماً ، استمرت الثقافة ، في ازدهارها مستعينة على ذلك بالمؤسسات والهيئات الكنسية التي عادت اليها العافية واخذت تتجدد . وعلى نقيض الحركة القديمة ، عولت حضارة الجزيرة ، هذه المرة ، على مؤازرة القارة لها ، وجلب دم جديد لها جيء به من المراكز الثقافية والحضارية الجرمانية المشبعة باخلص وانقى التقاليد الكارولنجية . فاصلاح الحياة الرهبانية الذي باشر به القديس « دولستان » ، في دير غلاستونبري ، في مقاطعة سمرست ، جرى الاخذ به وفقاً للمبادىء والقواعد التي يسير عليها رهبان دير فلدري سير لوار ، وسان بيير الكبير « وايفسيدالن » ، يرعى هذه الحركة الاصلاحية كل من الاحبار « إيثلوولد » من ونشستر ، واوزوالد من ورسستر ، الذي استقدم الى الدير حيث يعيش ، ليعهد اليه بالتعليم ، الراهب الفرنجي « ابون ده فلوري » . وقد انتهت هذه الحركة الاصلاحية باعلان ما يعرف : « الاتفاق القانوني للامة الانكليزية » ، وذلك في مجمع ونشستر ، الذي انعقد حوالي عام ٩٧٠ . وهذا الاصلاح للحياة الرهبانية في انكلترا ، ساعد كثيراً على ازدهار الحياة الفكرية والفنية فيها ، اذ كانت قاعدتها الأم كاتدرائية ونشستر التي كانت مركزاً ممتازاً للنسخ المخطوطات وزخرفتها وتنميقها ، بعد ان استوحت في عملها الفني هذا النماذج الكارولنجية . وقد درج اذ ذاك استعمال الحرف « الكارولينغي الصغير » ، وانتشر في جميع مراكز نساخة المخطوطات في انكلترا ، بينما سارت الكنائس الجديدة التي انشئت اذ ذاك ، في طراز عمارتها ، على الطراز الهندسي المستعمل

في منطقة رينانيا . وقد اخذ النشاط يدب ايضاً ، في اواخر القرن العاشر ، بين هذه المقاطعات الانكلوسكسونية التي ما زالت عرضة للخطر السكنديناڤي . واشتدت سلطة الملك وقويت هيبته في النفوس ، خلال الحروب التي دارت رحاها لاسترجاع البلاد المغتصبة . غير ان انكلترا فقدت ما كان لها من مركز الصدارة في الاشعاع الحضاري المسيحي . فالسناء الذي طبع مدنيتها ، اذ ذاك ، مكتسب منقول هو ، والنهضة التي نشهدها فيها ليست سوى وميض جامها من تألّق النهضة في القارة .

فرنكيا الغربية

في مملكة فرنكيا الغربية ، كما حددتها معاهدة فردان ، بلغ انحلال السلطة السياسية وتدهورها ، في هذه الفترة ، حداً لم تبلغه من قبل . فقد تنازع السلطة الملكية ، طوال القرن العاشر ، خلفاء شارل الأصلع وورثة المركيز « روبرت القوي » الذي كان تولى امر الدفاع ضد النورمنديين ومقاومتهم ، بعد ان استقر بهم المقام ، بين اللوار والسين . وقد ادت هذه المنافسات بالنتيجة الى المزيد من انقسام السلطة الملكية . فقد اصبحت المملكة عبارة عن امارات مستقلة الواحدة عن الاخرى ، بينها دوقيات : فرنسا ، وبورغونيا ، واكويتانيا ، ونورمنديا ، ممثلة لاهم العناصر العرقية او الاثنوغرافية التي تسكنها ، بعضها امتداد لهذه الدويلات البربرية القديمة ، آخرها الدوقية التي تكونت من استيطان غزاة النورمنديين واستقرارهم فيها ، بينما تألفت امارات اخرى حول كونتليات عديدة ، منها : كونتلية الفلاندر ، وفيرماندوا ، وشمبانيا ، وأنجو ، وتولوز ، بعد ان تمكن امراؤها من فرض سيطرتهم وهيبتهم على الطبقة الارستوقراطية المحلية . صحيح ان اسياد هذه الامارات والكونتليات ، يستمرون كالموظفين الكارولنجيين الذين يتحدرون منهم ، على ولائهم للملك انما هو ولاء لا يعني اية تابعية او علاقة خضوع ، او اي ارتباط بالملك . فالمناداة بهم التي كانت توليهم حق اصدار الاوامر وفرض القصاص والعقاب — وهو حق كان يناله اسلافهم بانعام خاص من الملك — اصبحت حقاً وراثياً مكتسباً ، يستعملونه دونما رقيب او حسيب . وانحطاط السلطة الملكية وانحلالها هو اشد وطأة في جنوبي المملكة حيث لم يُتح لتقاليد التبعية الكارولنجية ان ترسخ وتتمكن بين الناس . ففي السنوات الاخيرة من القرن العاشر ، لم يلبث الكونتية انفسهم ان فقدوا سيطرتهم ، والحقوق الملكية تتفلّت لتستقر في المقاطعات والاقضية او في احد الاديار التي تنعم بالاعفاء او بيد القيّم على احدى القلاع او احد الحصون . وامر المناداة بالملك تنوع وتشعب ، واذ بنا يطل علينا وضع خاص او نظام خاص هو ما يعرف بالاقطاع .

ويتميز هذا الوضع السياسي القائم بالغموض الذي يكتنف معنى السلطة العامة . فكل سلطة ، هي سلطة خاصة . فالذي يتولاها بالارث يرى فيها جزءاً لا يتجزأ مما تم له من ميراث ، فيمارس هذه السلطة لما فيه خيره ومنفعته الخاصة . فهو يجنّد احرار الرجال دفاعاً عن شؤونه الخاصة ، والرسوم التي يتقاضاها الفلاحين لقاء الحماية التي يوليهم اياها ، لا مبرر لها سوى العرف المعمول به ، ولذا راحوا يطلقون عليها اسم « العوائد » . فاذا ما أفتى في امر ، او اصدر حكماً في

قضية ما ، فطمعاً منه بما تؤمنه له هــــذه الاقضية والاحكام ، من منافع خاصة ، كالغرامات والمصادرات . طبيعي جداً ان تكون هذه النظرية غيّرت كثيراً من مفهوم مؤسسات الدولة الكارولنجية ونُظُمها ، ومن قوام المجتمع نفسه . فالجيش الملكي توزع بين المخافر او رابطت وحداته في القصور ، وهذه الهيئات القضائية العامة القديمة العهد ، استحالت حاشيات خاصة ، ودوائر استشارات الكونتية تحولت ، هي الاخرى ، الى بلاطات اقطاعية يختلف اليها أعضاء الارستوقراطية المحلية ، ومجالس المائة او الألوية اصبحت محاكم تابعة للأمراء تتولى محاكمة الفلاحين التابعين لرب الارض ، سواء منهم الاحرار والارقاء . وامام السلطة الخاصة التي يتمتع بها ارباب القصور واصحاب الامتيازات ، فلم يلبث التمييز بين الحرية والعبودية عندهم ان زال تدريجياً من اذهان الناس، بينما اتسعت الهوة بين هؤلاء الفقراء الذين يستثمرون بأنفسهم املاكهم وعقاراتهم ، وبين الأغنيـاء او السراة من الأثرياء الذين تؤمن لهم أملاكهم الواسعة دخلاً طيباً يستطيعون معه اقتناء حصان للطعان ، وتأمين اسلحة كاملة كفارس ، والتمرن على مسايفـة الفرسان في اوقات فراغهم ، فهم وحدهم يستطيعون ان يلعبوا دوراً له شأنه في المعارك . ففي اواخر القرن العاشر ، في هذه الفترة التي انتسخت فيها كل معالم المنظمات العامة التي عُمِل بها في عهد الفرنج ، نرى المجتمع العلماني ينقسم الى قسمين بارزين : من جهـة ، الفلاحون سواءاً أكانوا مرابعين او مستأجرين او مشدودين الى ملكيـة الارض . فهم يخضعون لعدل وعدالة السيد او الرب الذي يعيشون في كنفه واستثمار ارضه ، هذا السيد الذي له الولاية على المقاطعة ، او مـن تعود اليه ملكيتهم بحق وراثي . ومن جهة ثانية ، الفرسان وهم محاربون محترفون معفون من الضرائب المعمول بها في المنطقة، والذين لا يرتبطون به الا برابطة الولاء يؤدّونها طوعاً واختياراً، والذين تربطهم برئيس الاقطاع روابط وعلاقات خدمة السلاح والاستشارة ، وكلهـا خدمة محدودة النطاق ، والذين لا يخضعون لأي ضغط او اكراه . من هذه الفئة تطلع النخبة المحدودة لأصحاب الولاء المحلي ، من نسل المساعدين العسكريين في عهد النظام الملكي القديم .

ان استيلاء رؤساء الشرطة المحلية على صلاحيات القيادة لم يكن سوى تطبيق موفق للنظم السياسية والاجتماعية المتبعة في الاقتصاد العقاري حيث المواصلات في وضع لا تحسد عليـه ، وحيث السلطة الفعلية هي بيد كبار الملاكين . وهـذا التقاطع او التوزع للسلطة الذي تهيأت أسبابه منذ عهد بعيد وتأخر تطوره برهة من جراء توحيد السلطة الملكيـة في عهد الدولة الكارولنجية ، بدا للناس ابان غزوات السكندينافيين والدانياركيين ، المنظمة الوحيدة التي باستطاعتها المحافظة على السلام والنظام. فلنحاذر من ان نرى في هذا الحادث ، عاملاً من عوامل الانحطاط والانحلال . فالنظام الاقطاعي حقق ، على العكس ، بعض التوازن ، ويبدو انه مهّد السبيل جيداً امام انتشار المدنية الغربيـة . وبالفعـل ، ففي الوقت الذي استقر فيه النظام الاقطاعي نهائياً في فرنسا ، في اواخر القرن العاشر، ظهرت بوضوح وجلاء بوادر نهضة جديدة،

الآمال المعقودة على مجتمع قوامه النظام الاقطاعي

كان النظـــام الاقطاعي اقوى وامتن ركن ارتكزت اليه السلطة الملكية. ففي عام ٩٨٧، وهي السنة التي تم فيها انتخاب روبرتيان هوغ كابت ملكاً ، دخل هـذا النظام صميم التقاليـد العائلية لمركيزة فرنسا القدماء ، اغنى الامر على الاطلاق في غاليا الشمالية .. فمنذ هذا التاريخ فصاعداً ليس للملك حقوق مجزأة ، متقطعة ، متناثرة ، بين مجموعة المقاطعات التي تشكلت منها فرنسا ، اذ ذاك ، من العسير استثمارها والانتفاع بها ، بعلم واصول ، بـل جملة من الحقوق المتماسكة ، نواتها وركيزتها الكبرى ، املاك وعقارات ومداخيل مختلفة محشودة حول باريس ولورليان . والى هذا الاساس العقاري القوي الذي تفوق متانته متانة اقوى الامارات الاقطاعية ، اذ ذاك، يجب ان يضاف دعامتين قويتين اوجدهما النظام الملكي الفرنسي ، هما : من جهة حفلة التكريس الرسمية التي أضفت على شخصية الملك ، هالة رمزية ومهابة في قلوب الجميع ، فجملت منه بحق، المدافع التقليدي عن الكنيسة ، وهو تكريس ، يوليه ، وفقاً للتقاليد الكارولنجية ، حق تقديم عدد كبير من خيرة رجـــال الدين والاكليروس لترشيحهم للمناصب الاسقفية ورئاسة بعض الاديار ، ومن جهة اخرى رابطة التبعية التي تصبح الاساس الصحيح لعلاقة ادبية ، روحية ، شدّت الى شخصية الملك ، ليس كل ارباب السلطة في المملكة ، على اختلاف مستوياتهم ، اذ ان سلّم الولاء او تسلسله فقد شكله الهرمي ، وتوزع الى وحدات من التبعيات المستقلة ، لا عد لها ولا حصر ، بل اكثر الدوقية والكونتية سلطة ونفوذاً .

ومن جهة اخرى ، فهذه النهضة الاقتصادية التي ظهرت بوادرها في عهد شارلمان ، اخذت معالمها تتضح اكثر فاكثر . ففي سنة ٩٥٠ وما اليها ، نرى أدلة بينة تشهد على نشاط العاملين على احياء موات الارضين ، وتكاثر عددهم في البلاد ، وذلك بفضل تحسين تقني ادخـــل على وسائل الفلاحة والزراعة ، استطاع معها الفلاحون والمزارعون ان يعمّروا الاراضي الحرجية ، وان يتعاونوا معاً ويتناهدوا على إحياء اراض جديدة للزراعة ، بعد ان اقتصر عملهم من قبل، على القطع الجرداء الواقعة في قلب الغابات . فمهدت هذه الورش والمشاريع الزراعية السبيل لمضاعفة انتــاج المواد الغذائيــة ، وسهّلت بالتالي ، الطريق امام تطور ديموغرافي وتكاثر عدد السكان، الامر الذي ادّى، تباعاً، الى القضاء على الاراضي البور،والى تسهيل اتصال الناس ببعضهم ببعض ، فنشطت المقايضات التجارية ، وتبايع النـاس نبيذ حوض باريس ، والملح المستخرج من سواحل المحيط الاطلسي ، جرى تسويقه وتنفيقه في مناطق الشمال ، بينما نشطت الحركة الاقتصادية ، مع اسبانيا الاسلامية ، كما ازداد ، في النصف الثاني من القرن العاشر ، عدد التجار المتنقلين الذين كانوا ينقلون سلعهم من البحر الشمالي ، عبر وادي الموز ، وهضاب مقاطعة شمبانيا وبورغونيا واوفيرنيا ووادي الرون حتى البلاد الاسلامية .

وعلى طول هذه الطرقات في هذا القسم الشرقي من مملكة فرنسا ، اقرب هذه المقاطعات الى مراكز الاشعاع الفكري والفني في جرمانيا وايطاليا، في هذه الولايات بالذات التي لم تتعرض كثيرها

لغزوات قبائل الشمال، والتي كانت ملاذاً لرجال الفن والعلماء والكتب، نرى ينشط ويزدهر هذا التراث الادبي والثقافي الذي انتقل الينا من عهد الدولة الكارولنجية . وقد نشطت للعمل بعض المدارس الكاتدرائية ، منها مدرسة ريمس ، مثلاً ، التي جرى تجديدها وبعثها في اواخر القرن التاسع ، على يد رئيس الاساقفة فولك ، ليتولى ادارتها بنجاح ، بعد عـام ٩٧٢ ، جربرت دورياك الذي استطاع ان يحصل ، خلال اقامته في روما وفي الولايات العسكرية المتاخمة لاسبانيا ، وان يجمع اكبر قدر من المعارف والمعلومات ، حول الفنون والعلوم التي تؤلف نواة منهاج الـ *Quadrivium* . ولما كان الصف الاسقفي منهمكاً اذ ذاك ، بالشؤون المادية والدنيويـة ، ومنغمساً بالمؤامرات والدسائس التي كانت تحاك في الاقطاعات والامارات ، ويتسكع ، على العموم ، في وضع زري مـن الانحطـاط ، فالمراكز الاكثر نشاطاً وإثماراً ، كانت ، ولا شك الاديار ، أمثال دير فلوري سير لوار، حيث كان علم المنطق والجدل يزدهر على يد الراهب ابوت ، احد تلاميذ مدرسة ريمس ، ودير سان مرسيال ده ليموج المشهور بكونه قاعدة نشيطة لنساخة المخطوطات وتزويقها وتحليتها ، حيث كانت تبذل عناية خاصة بتطوير الطقوس الليتورجية ، وادخال تحسينات على التراتيل والاناشيد الكنسية المتعددة الاصوات ، مهيئة السبل لطلوع المسرح الديني . واخـيراً ديركونك ، حيث تم حفر ونقش صندوقـة ذخائر القديسة فوا ، فكان اول تمثال تم وضعه في الاجيال الوسطى ، واخيراً « دير كلوني » .

تأسس هذا الدير عام ٩١٠ ، على يد غليوم الاكويتاني ، وتولى ادارته الراهب « برنون » رئيس دير « بوم » ، ودير « جيني » ، وادخلت عليه الفرائض البندكتية ، كما شرحها وفسّرها وعلق عليها بندكتوس الأنياني . فبعد ان تخفف الرهبان عملياً ، من كل المهام والاشغال المادية واليدوية ، وعهدوا الى خدام بقضاء حوائجهم وتأمين خدمتهم وأمّنوا كفاف معيشتهم بفضل ايرادات املاكهم الواسعة ، انصرفوا بكليتهم لما فيه مرضاة الله ، والاحتفـال بكل ابهة ، بالطقوس الليتورجية. وكان الدير ، وفقاً لارادة مؤسسه ، بمعزل من كل تدخل علماني بشؤونه، يرتبط مباشرة بالكرسي الرسولي في روما ، ونال في اواخر القرن العاشر انعام الاعفاء الذي يجعله خارج نطاق اشراف اسقف المحلة او البلدة . وساعدت الحياة الرهبانية المثالية التي سار عليها جمهور الرهبان والآباء ، على اذاعة شهرة هذا الدير ورفع اسمه في العالم المسيحي ، فتدفقت عليه الهبات والأعطيات . وعهد الى رؤسائه « أودون » ، و « أيمارد » ، و « مايول » ، وكلهم من رجال التقى ، مشهود لهم بالفضل والعلم وحسن السريرة ، التفرغ بهمة قعساء ، لاصلاح بعض المؤسسات الرهبانية ، كما عهد اليهم بقيادة هذه الاديار التي تولوا اصلاحها ورئاستها . وهكذا ، اطلت علينا الرهبنة الكلونية التي ضمت عدداً من الاديار ، تعمل تحت رئاسة رئيس عام ، اخذت تمتد وتنتشر باتجاه مقاطعة الاوفيرني وشواطىء البحر المتوسط ، كما قام لها اديار تناثرت حباتها على طول الطرقات التجارية

وكانت هذه الطرق تفضي بسالكيها الى مشارف اسبانيا الاسلامية . اما الولايات المسيحية الواقعة على هذه الحدود، كمملكة استوريا، مثلاً فقد كانت ملاذاً لعدد كبير من مسيحيي اسبانيا لجأوا بانفسهم من حكم خلفاء قرطبة حاملين معهم اساليب هندسية معمارية جديدة ، وعناصر تحلية وزركشة مستمدة من الفن الشرقي . وقد قام في هذه الولاية الاسبانية اديار مزدهرة كان لها من الشهرة وبعد الصيت ما جذب اليها جربرت دورياك ، ليدرس فيها الرياضيات والعلوم العربية . وقد اصبحت هذه الاديار مراكز ثقافية عرفت بنشاطها وعملت على اغناء الثقافة الاوروبية . ومع ذلك فقد كان الجانب الشرقي من الامبراطورية الكارولنجية القديمة ، في النصف الثاني من القرن العاشر ، المركز الاكبر لهذا الاشعاع الفكري الديني في الغرب .

جرمانيا وامبراطورية اوتون

فكما ان تأسيس الدولة الكارولنجية ارتكز ، في القرن الثامن ، واتخذ قاعدة له اقل المقاطعات الفرنجية تطوراً ، وابعدها إيغالاً في الروح الهمجية ، هكذا تمّ تجميع القوى السياسية وتوحيدها ، في القسم الشرقي من اوروبا ، في قطر هو احدث الاقطار الجرمانية عهداً بالمسيحية حيث الاعراف والعادات والتقاليد الجرمانية ، كانت لا تزال محتفظة بحيويتها ونشاطها ، وحيث قام التنظيم العسكري وارتكز على طبقة واسعة من الرجال الاحرار ، هو قطر الساكس الذي انتخب حاكمه الدوق هنري ، عام ٩١٩، ملكاً على جرمانيا . فقد اخذ العاهل الجديد ينظر الى السلطة التي تمت له ، نظرة بدائية وصرف جلّ همه للدفاع عن ولايته غير ان ابنه اوتون الكبير (٩٣٦ — ٩٧٣) جهد نفسه ليعيد للملكية سيادتها وهيبتها باحياء التقاليد الكارولنجية وبعثها من جديد. فقد جرى تتويجه في احتفال رسمي علني ، وجرى تكريسه ودهنه بالزيت المقدس في مدينة اكس لا شابيل . وحاول ان يحد تدريجياً ، دون ان يلغي رتبة الدوقية ، من استقلال حاملي هذا اللقب من امراء البلاد ، وان يحملهم على الاعتراف بحقوق الملك داخل الدوقيات الوطنية ، وان يقيم علاقات مباشرة مع الكونتلية أنفسهم . وراح يطبق اخيراً الأساليب التي سار عليها الاوائل من ملوك الدولة الكارولنجية ، محاولاً ان يجعل من رجال الاكليروس الذين يتولى هو نفسه ترشيحهم للمصف الاسقفي ، ويقلدهم لقب كونت يحملونه في المنطقة التي يقع فيها الكرسي الاسقفي ، معاونيه ومستشاريه في الادارة ويثق بهم كل الثقة . وهكذا تمكن من الحد من امتيازات الامارات المحلية ، وان يؤمن السيادة وحق الصدارة للملك الذي هو وحده المدافع الاول ، والمناضل الاكبر عن السلام ، ومقيم العدل بين الناس ، وموزع العدالة في كل ارجاء المملكة الجرمانية ، دون ان يغلو في استعمال حقوق التَّبَعيَّة وآصرة الولاء التي له عليهم . وهكذا لم يتمكن صغار الرؤساء المحليين من ان يغتصبوا ، كما فعلوا في فرنسا ، السلطة الملكية ، اذ بقي الناس في المقاطعات الجرمانية يشعرون عميقاً بوجود جيش وبوجود هيبة للسلطة العامة . وهكذا بقي حياً في النفوس الشعور بالحرية ، هذا الشعور الذي جعل الناس يحسون انفسهم مرتبطين رأساً بأعراف وتقاليد ملكية .

وهذه الانتصارات يحققها الامبراطور اوتون الكبير على الصقالبة والمجر ، زادته مهابة في النفوس واحتراماً عندهم ، فاستطاع ان يتابع الرسالة التي قام بها الكارولنجيون بانشر الديانة المسيحية وحملها ابعد الى الشرق والشمال ، واصبحت مدينة همبورغ في عهده ، قاعدة للكنائس السكنديناقية الحديثة العهد ، ومرجعاً رئيسياً لها . وفي سنة ٩٦٢ ، انشىء في مجدبورغ كرسي اسقفي ، واخذ نفوذ ملك المانيا يمتد الى البلدان المسيحية المجاورة لجرمانيا ، كما كان الملك الحكم الفصل في هذه الاختلافات والمنافسات العائلية التي نشبت في فرنسا ، بين الكارولنجيين وانصار روبرت كابت ، واخضع عام ٩٤٠ ، مقاطعة لوثرنجيا لسلطانه ، وأتاه ، عام ٩٤٢ ، ولاء ملك بورغونيا ، واخيراً اعترف به ملكاً عام ٩٥١ ، وفي عام ٩٦١ نودي به ملكاً على ايطاليا ، وولاه البابا يوحنا الثاني عشر ، رتبة الامبراطورية ، وهو شرف عاد حقاً وشرعاً لمن له حق الصدارة في اوربا . إلا ان الشيء الوحيد الذي أضفى أهمية كبرى على تتويج الامبراطور ، عام ٩٦٢ ، هو انه ، لأول مرة منذ اواسط القرن التاسع ، وجد الامبراطور نفسه ، اقوى سلطة ، وأشد سطوة من أي امير قام في الغرب ، اذ كان باستطاعته ان يؤمّن ، بالفعل ، توجيه العالم المسيحي وقيادته . وخير دليل ، وأقوى شاهد على ما نقول ، هو ان الامبراطور اوتون ، غيرةً منه على الدور السياسي الخطير الذي أسنده للأسقفية الجرمانية ، أولاها مهمة اصلاح الكرسي الرسولي وانقاذه الارستوقراطية الرومانية من الدسائس التي تحط من شأنها . فقد خلع البابا يوحنا ، في مجمع عُقد تحت رئاسته ، واستبدله ببابا آخر . فقد كان اوتو الكبير ، بحق ، شارلمان ثانياً ، وكان لتتويجه بالتاج الامبراطوري ، المدلول الذي يعني انه الباعث الجديد للامبراطورية الرومانية .

وهذا البعث ، وهذا التجديد للامبراطورية الرومانية طال واستمر ، اذ حصر الامبراطور هذه المرتبة في اسرته ، ففي الوقت الذي جرى فيه تكريسه ، تم تكريس زوجته امبراطورة ، كما توّج ابنه مسبقاً ، باسم اوتون الثاني ، عام ٩٦٧ . وبعد ان أمّن هذا المنصب بالوراثة ، تلبّست الامبراطورية معنىً اقوى واوقع في النفس ، كما راحت هيبتها تمكن في عقول الناس وترسخ في نفوسهم تمشياً مع النظرية البيزنطية في هذا المجال ، وهي نظرية عُهِد على نشرها والدعوة لها رجال الاكليروس في روما والاميرة اليونانية ثيوفانو زوجة اوتون الثاني . وكان من الامبراطور الجرماني الثالث ، اوتون الثالث (٩٨٣ — ١٠٠٢) ان امر بنقل كرسي ملكه الى روما . وبالاتفاق التام ، رأياً وروحاً ، مع الكرسي الرسولي الذي شغله اذ ذاك تحت اسم سلفسترس الثاني ، صديقه الحميم العالم جربرت دوريّاك ، رغب ، على شاكلة الامبراطور قسطنطين الكبير ، من قبل ، ان يجعل من وظيفة الامبراطور ، بعد ان يستبدل تدريجياً كل اشكال السلطات السياسية التي تقاسمت اذ ذاك ، المسيحية اللاتينية ، رئاسة هي في الصميم : ادبية ، مسكونية ومسالمة . فكأنه كبر شأناً وزاد مهابة بعد ان تبنتها نظريات الرهبان الاكثر ثقافة الذين تألفت منهم بطانة الامبراطور لويس الورع ، وسياسة الملاينة التي اتخذها تجاه الاستقلالات

القومية ، ساعدت كثيراً على ربح الشعوب التي اعتنقت المسيحية حديثاً ، في جماعة المسيحيين الكبرى ، كالدوق البولوني « ماسكو » ، والملك اسطفانس المجري اللذين اعترفا برئاسة البابا الامبراطور رئيساً اعلى لهما .

والى الشرق من الحدود التي جعلتها معاهدة فردان حداً لمملكة فرنسا ، رافق اعادة الامبراطورية ازدهار واسع في الحياة الروحية والنشاط الفكري والفني ، هذا الازدهار الذي جاء تتمة للنهضة التي تمت في عهد الامبراطورية الكارولنجية ، وفقاً للأطر والتوجيهات التي وضعتها له الكنيسة ، والتي اتخذت عماداً لها ، تطوير المؤسسات الدينية برعاية هؤلاء الملوك ومؤازرتهم الشديدة ، اذ ان هذه المؤسسات نفسها، ألفت، هنا ، كما ألفت ، في عهد شارلمان، سنداً قوياً للدولة الجديدة ، وأيداً قوياً شدّ من ازرها ووطّد من شأنها .

كذلك ، انطلقت الحركة ، في كل من انكلترا وبورغونيا ، باصلاح شامل للحياة الرهبانية ، في القرن العاشر ، راعى ، ولو بعيد ، وضع الكنيسة المختلف في كل من شبه الجزيرة الايطالية واللورين . واشرف على بعث الحياة الروحية ، في ايطاليا ، فريق من الزهاد والنساك ، تأثروا الى حد بعيد ، بنساك الصحاري والقفار ، امثال القديس نيل الذي رغب الامبراطور اوتو الثالث في استقدامه الى روما ، والقديس « روموالد » ، الذي عرف ان يوحّد بين طريقة الرهبان العائشين معاً عيشة مشتركة ، وبين النسّاك والحبساء ، في رهبانيات مشتركة تتألف من رهبان وزهاد ، جرى تأسيسها على مقربة من مدينة رافينا ، وفي جبال الابنين ، عرفت فيما بعد برهبنة « كامالدول » . وعلى عكس ذلك ، كان القائمون بالاصلاح في اللورين عديدين ، اولهم « جيرار ده بروني » ، فراحوا يحاولون اصلاح فرائض القديس بندكتوس لارجاعها الى نقائها الاول . واكثر هذا الفريق نشاطاً وحماسة ، هو حنا فندير ، الذي انتخب ، عام ٩٥٩ ، رئيساً عاماً لدير « غورز » في ابرشية متز ، وفرض على الرهبان قانوناً صارماً ، وافسح مجالاً واسعاً للطقوس الليتورجية ، وشدد ، بعكس دير كلوني ، على التقيد بفرائض التنسك واعمال التقشف ، وفرض على الرهبان ، العودة الى الشغل اليدوي والاتصال الدائم بالاساقفة . فلا عجب ان يحدث هذا الاصلاح للحياة الرهبانية الذي تم تحت رعاية الامبراطور وانتشر في جرمانيا ، تأثيراً بعيداً على رجال الاكليروس العلمانيين ، وساعد على تكوين احبار لهم قيمتهم الادبية العالية ، امثال نوتجر ده ليبج ، و « برنار هلدشايم » ، الذين انقطعوا لنشر الثقافة ، وتأمين ازدهار الآداب والفنون .

وهذه المطالب الثقافية العالية ، تفهمها الامبراطور اوتون وتبنّاها ، وراح، تشبهاً بشارلمان وللاسباب ذاتها ، ينشيء مدرسة في قصره ويلحقها ببلاطه ، واستدنى اليه عدداً من علماء زمانه وحملة الثقافة ، فاستقدم من اللورين : « روثيه ده لوبّس » ، وعدداً كبيراً من ايطاليا ؛ بينهم « لاون ده فرسايل » و « ليوتبراند الكريموني » ، الذين انشأوا في مراكز التعليم

الكبرى ، في لمبرديا ، المعروفة بتمسكها بالتقاليد الادبية والبيانية الرومانيـة . ففي كل مكان من هذه الامبراطورية التي عمها الاصلاح ، سارت الحركة الادبية والفنية ، في النهج الذي انطلقت منه في اواخر القرن الثامن ، وهو نهج اخذ ينمو ويزداد متأثراً بالروح والاهداف الواحدة ، اذ كانت وطأة الغزوات خفيفة عليه ، فلم تحدث فيه اي انحراف عن الصدد ، او اي انقطاع عن السير . والمراكز الرئيسية لهذه الثقافة هي هذه الاديار البندكتية الكبرى التي تأسست في مطلع الامبراطورية الكارولنجيه ، امثال كورفاي ، في مقاطعة الساكس ، ورايخنو ، وسان غال ، في مقاطعة « الصواب » . فهي التي غذّت المراكز الاخرى القائمة في منطقة الموزيل ، وذلـك عن طريق العلاقات الثقافية التي ربطت بين مناطق الشمال وسهل البو في ايطاليا ، فامتد اثرها نحو الشرق البيزنطي عبر البندقية ، التي كانت في أبان ازدهارها .

فالحالة هي أشبه ما تكون بالوضع الذي تهيأ في مطلع القرن التاسع : فأهم وجوه النشاط لرجال الفكر هو درس الصرف والنحو وتأليف كتب في التاريخ ، منهـــا مثلاً : « تاريخ السكسون » الذي وضعه « فيتوكند » ، والاهتمام بدرس الليتورجيـا وتهذيبها عن طريق وضع اناشيد والحان موسيقيه دينية ، كالانجازات التي حققها في هذا المضمار هوكبالد ده سان امان ، ونوتكر او نويتيلوده سان غال ، ولا تزال الآثار التي وضعوها حية الى يومنا هـــذا بصيغتها وروحها . واذا كانت وضعت القصائد الشعرية المسماة *Waltharius* كالتي وضعها أكتّهار ده سان غال ، او ان الاساطير الجرمانية القديمة قد نقلت شعراً الى اللاتينية ، فقد تلقحت بافكار وموضوعات جديدة جدّدت منهـــا الشكل وبعثت فيها روحاً جديدة ، الا انها كانت على الاجمال ، محاولات تقليد ومحاكاة لآثار كلاسيكية ، كهذه الهزليات والملهيات التي وضعتهـــا الراهبة الرئيسة « هرُوسْويثا ده غندرشايم ، محتذية فيها حـــذو الشاعر اللاتيني تيرانس . وعندما اراد المهندسون ان يشيدوا الكنائس الكبرى من غير عقود مزدوجة الحنايا ، كالكنيسة القائمة في دير جيرنرود ، راحوا يستلهمون المباني الضخمة التي انشئت في عهـد لويس الوَرِع . واستمرار الاساليب الفنية ورسوم الديكور والتحلية التي راجت في العهد الكارولنجي ، يبدو واضحاً في الفنون التي اعتادوا ان يسموهـــا الصغرى ، كما نرى ذلك في بدايات هالدشايم البرونزية ، وفي قطع العاج الموجودة في كنائس كولونيا ومتز أو في الجوهرات الموجودة في مدينة تريف وراتزبون ، وفي منمنمات «اختزناك» المزوقة ، ورايخنو ، أو في افاريز غولدباخ واوبرزيل . « فالنهضة التي رافقت عهد الاباطرة أوتون » ، هي بالفعل المصير الذي انتهت اليـــه جهود ألكوينس ، والمهنـــدس « أويد ده متز » والفنان الذين تولى تنميق مخطوطة المزامير في اوترخت .

والجدير بالنظر والملاحظة في معالم الحضارة الغربية ، في اواخر القرن العـــاشر هو التأثير البالغ للعهد الكارولنجي . فاوروبا برمتها ، بما لها وفيها من حدود وتخوم ، وما هي عليـــه من نُظُـم ومؤسسات سياسية ، ومن نظام التبعية وعادة تكريس الملوك ومسحهم بالدهن ، وبعث

الامبراطورية ، ومؤسساتها الاقتصادية ، والسيادة الاقطاعية ، والنظام المالي ، وما الى ذلك من مؤسسات دينية ، وما يجيش فيها من روح وفن ، كل ذلك اخذ شكلاً واضحاً في هـذه الفترة التي نعمت فيهـا هذه البلاد بالامن والوحدة ، وهي هذه الحقبة البالغة النصف القرن تقريباً التي احاطت بسنة ٨٠٠، فالمسيحية اللاتينية، اذ اتخذت ها مثل هذا الزمن الوطيد اصبحت بمنأى عن الغزوات ، وبمعزل عن الطوارىء المفاجئة ، وتجددت كلياً عن طريق المبـادلات وازدياد السكان ، هي في أتم ازدهار وعلى احسن ما تكون استمداداً للانطلاق .

الفصل السادس

الشرق الأدنى : ازدهاره وأزماته
(القرنان التاسع والعاشر)

عرف العالم الاسلامي ، بين منتصف القرن التاسع ومطلع القرن الحادي عشر ، كيف يفيد الى حد بعيد ، من هذه النهضة الروحية وهذا الازدهار المادي اللذين تهيأت أسبابها في القرنين السابقين ، وهما نهضة وازدهار تحالف عليهما من الازمات والضائقات الاجتماعية والسياسية والدينية ما افقدهما الكثير من الرواء ، واذهب عنهما الكثير من مباهج النعماء . ففي هذا الوقت بالذات ، راحت الامبراطورية البيزنطية ، تلملم ما تشعّث من احوالها ، وما تفكك من اوصالها ، وتقوم ، هي الاخرى ، باصلاح شامل لاوضاعها، لاقى هو الآخر ، مشاكل وصعوبات اجتماعية تجاوبت اصداؤها في جميع ارجاء الامبراطورية . فنحن أمام امبراطوريتين تتعادل فيهما كفتا ميزان القدر ، في وقت كان كل منهما يُحاول ان يطبع مصير المدنية ويُفرغ أحداث الدهر بما يتفق وطاقته على البناء والتكوين والانشاء. ومهما بلغ بينهما الخصام والعداء ، واشتدت بين الجانبين النفرة والجفاء حتى راحتا تستمطران السماء اللعنات الواحدة على الاخرى، فلم يكن لهما بد من ان يقوم بينهما شيء هو اشبه ما يكون بالتعايش السلمي ، خال معه كل منهما ذاته خالداً ابد الدهر ، فهما على شيء قريب أو شبيه ، مما تم لهما من نظم اجتماعية وحياة فكرية وادبية لمن هو في عمر واحد من الزمن مع الآخر . فاذا ما تشاجرا وتراشقا الضربات واللكمات، ففي اوضاع ومصطلحات مشتركة يفهمها جيداً كلا الفريقين ، لانهما على صعيد سوي واحد .

فالصعوبة القائمة في وضع رسم بياني للمجتمع الاسلامي المترامي الاطراف : من جبال الاطلس ومشارف الاوقيانوس غرباً ، حتى نهر الهندوس شرقاً ، هي نفسها الصعوبة يلاقيها من يرسم مثل هذا الشكل البياني للمجتمع الاوروبي ، الممتد من نهر الإِبْر (في اسبانيا) الى جبال الاورال . فلن نقف ، والحالة هذه ، الا عند القسمات البارزة ، والملامح المميزة ، والمفارقات المشتركة ، والاحداث الكبرى الناتئة .

التجـارة

فالعلم الاسلامي والمجتمع البيزنطي ، كلاهما ، من الوجهة التقنية ، في حدود المستوى القديم تقريباً : فلم يحدث في اي من الجانبين ، اي اختراع واكتشاف جديد استطاع ان يغير أو ان يبدّل من الاوضاع السياسية التي احاقت بالانتاج والمبادلات التجارية . فالتجارة واوضاع الحياة في المدينة ينعمان بمركز ممتاز اذا ما قيسا بالوضع الذي كان عليه الغرب في هذا العصر المشترك ، وعلى درجة اقل ، اذا ما قيسا بما كان عليه الوضع في التاريخ القديم . ومع ذلك ، فليس هو بالوضع المسيطر أو المتحكم ، اذ ان معظم الاهلين يقطنون خارج المدن، في الريف ، والزراعة وتربية الماشية هما المعوّل عليهما بالاكثر لدى الدولة والمجتمع، ونتائج التجارة ، تبقى ، منع هذا محدودة . ومع ذلك ، لا بد من التشديد هنا ، على التجارة اذ ان التطورات العظيمة التي خضعت لها ، كان لها تأثير بالغ ، وصدى عميق في القطاعات الاقتصادية الاخرى .

فالتجارة الاسلامية والبيزنطية حركتان متلازمتان متعاقدتان ، لا يمكن فصلها او تصوير الواحدة منهما دون الاخرى . فهذه هي حاصل تلك . غير ان الاولى ، كانت اوسع مجالاً وارحب افقاً من الثانية ، وتتحكم بتجارة السلع الاساسية مع آسيا ، التي اصبح العراق منها اشبه شيء بالمفتاح . والخليج الفارسي ، اكثر مما هو البحر الاحمر نفسه ، الطريق الموصل بين المحيط الهندي وبلدان البحر الابيض المتوسط . فمن مرفأ سيراف ، على ساحل ايران ، ومن أبُلّة والبصرة ، في العراق ، كان التجار ، شأنهم في هذا العصر شأنهم في عصر الساسانيين ، يخرجون حاملين بضائعهم باتجاه اقطار الهند الغربية ، يتجرون مع جواليهم العديدة في هذه الاقطار ، ويلتقون مع التجار الصيليين في طريقهم الى سيلان . وقد قطعت تعديات القرصان ، في القرن الثامن هذه الحركة واوقفتها ، ثم عادت سيرتها الاولى في القرن التاسع ، ونشط التجار فبلغوا معها الصين وشارفوا خان — فو ، الواقعة على مقربة من كنتون ، حيث كانت توجد جالية اسلامية تتمتع بشبه استقلال اداري . ولما كانت الاضطرابات الدامية التي وقعت في الصين ، خلال هذا العصر ، قد سببت خراب هذه الجالية، انتقلت نقاط تلاقي التجار ، الى شبه جزيرة الملايو او الى سيلان ، دون ان يكون لهذا التغيير اثر يذكر على الحركة التجارية . .وقد تركت لنا اخبار الرحّالة والاوصاف التي وضعوها لنا ، ذكر هذه الاسفار ، منها في القرن الثامن : الرحلة المنسوبة الى سليمان ، وفي القرن العاشر الرحلة التي وضعها سيرافيان بوزورج التي تذكرنا اخباره بقصص السندباد البحري . ففي الاسفار التي قاموا بها ، باتجاه اليمن والبحر الاحمر حتى مرفأ جدّة ، وافريقيا الشرقية حتى مشارف جزيرة مدغشقر ، تفوق الفرس ، قبل القرن العاشر ، على المصريين ، في هذا المجال .

والطرقات البرية كانت تنطلق من العراق متجهة الى اواسط آسيا مارة بالمحناء ، في ايران ، لملاقاة التجار الصينيين ، بينما اتجهت طرق اخرى نحو سوريا ومصر والامبراطورية البيزنطية ، وكانت آسيا الوسطى ، منذ القديم ، احد مراكز الاشعاع التجاري ، اذ كثيراً ما يتم التجار

المسلمون في هذه المنطقة ، الصين والهند وبلاد الفولغا . ويستدل من النقود التي عثر عليها المنقبون انهم وصلوا الى مناطق بحر البلطيق ، كما ان تجاراً آخرين بلغوا الاقطار الشمالية الغربية التي لا يعرف عنها الرحالة العرب ، شيئاً كبيراً ، ويرى البعض ان هذه القطعات الوفيرة التي عثر عليها انما هي من بقايا الفدية والاسلاب التي اصابها « النورمنديون » في الغزوات التي بلغوا فيها مشارف بحر قزوين . وقد بلغ هؤلاء التجار في اسفارهم اقوام البلغار في منطقة الفولغا كما تشهد على ذلك رسالة تركها بن فضلان حول وفادة ديبلوماسية ، عهد بها اليه احد الخلفاء العباسيين ، اجتاز فيها آسيا الوسطى ، وهي رسالة لها أهمية كبيرة للتعريف بأقطار اصبحت فيما بعد روسية . ولعل هؤلاء المسلمين بلغوا في اسفارهم ، نحو الغرب ، مدينة براغ ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، اليوم . وقد يكون من الغلو بمكان ان ننسب أهمية كبرى لهذه الاسفار ، او تأثيراً لا تستحقه على اوروبا الوسطى واوروبا الغربية .

فاذا لم يكن للتجارة المصرية نشاط يذكر في المحيط الهندي ، قبل الدولة الفاطمية ، فقد بلغت قوافل التجار المصريين ، باستثناء الشام والعراق ، الى الحبشة وقلب السودان والمغرب الاقصى . فالازدهار الداخلي الذي عرفته البلدان الاسلامية في الغرب ، واستيلاؤهم على كبريات الجزر في البحر الابيض المتوسط ، كجزيرة اقريطش (التي احتلها لاجئون اسبانيون) وصقلية ، والقواعد التي أقاموها في شبه الجزيرة الايطالية - ولا سيما باري منها ، منذ القرن التاسع - وسردينيا وكورسكا وجزر البليار ، شجعت كثيراً حركة التجارة في البحر المتوسط ، وأمنت للمسلمين السيطرة التامة على البحار الواقعة الى الغرب ، كما جعلت الطمأنينة والسلام يرفرفان على طرق المواصلات بين مصر والمغرب الاقصى . وقد طردت بيزنطية من كل بحر ايجه والبحر الادرياتيكي لما لقيت من تهديد القراصنة السوريين والدلمات ، اضف الى ذلك ان اسطولها التجاري اصبح في خطر مداهم ، من جراء الثورات والانتفاضات التي قامت في البلدان التي تستمد منها حاجتها من البحارة كالثورة التي قام بها توما الصقلبي ، والعراقيل التي قامت في وجه التجارة الحرة ، وبعد ان اعيد تنظيم هذا الاسطول في اواخر القرن التاسع ، بقي ، سواء منه عمارته الحربية وعمارته التجارية ، عاجزاً عن تحقيق ما كان له ، في الماضي ، من سيطرة وسيادة . ولذلك اتجهت الحركة التجارية ، في بلاد النصارى ، الى تجار البندقية ومدينة امالفي ، من رعايا الامبراطورية ، ولو بالاسم ، وقد عرفوا ان يعقدوا ، في هذا المجال ، مع جيرانهم من المسلمين ، عقوداً واتفاقات مجدية للغاية وسّعوا من احكامها فيما بعد ، بحيث دخلت مصر في احكامها ، بعد ان احتلها ملوك الدولة العبيدية الذين جاؤوا من المغرب . والشواطىء المسيحية الممتدة من روما الى برشلونا ، بقيت مقفرة موحشة بعد ان عاث فيها القراصنة المسلمون ، وتوصلوا الى اقامة معاقل لهم في جبال المورس بينها المعقل المعروف بـ *Garde Freinet* . وقامت في اسبانيا حركة تجارية ناشطة ، اتصلت براً بمملكة الفرنج في الغرب ، كان واسطة العقد فيها ، تجاراً من اليهود يقيمون في البلاد المسيحية اكثر منهم تجاراً من المسلمين ، اذ لم يكن يرضون

بالتعامل معهم في المناطق الواقعة جبال البرانيس الى الشمال . اما في البحر ، فلم يعد ليرضي التجار المسلمين ، ان يستقبلوا ، قانعين ، التجار القادمين من الشرق مع ما لديهم من السلع والبضائع . ويبدو ان نشير هنا الى هذه الجمهورية البحرية الغريبة القصيرة الامد التي قامت في بلشينا على مقربة من الماريا والتي بقي عام ٩٠٠ ، نطاق اتصالاتها البحرية مقتصراً على نقطة ضيقة ، فقد كتب ابن خردازبه أن التجار الاسبانيين من اليهود ، كثيراً ما بلغوا ، عن طريق البر أو البحر ، بلدان الشرق الاقصى ، فكانوا بذلك يهيـأون قلب الوضع التجاري لصالح الغرب ، لصالح النصارى . اما في المغرب ، فقد كانت أفريقيا (تونس) الملتقى للحركة التجـارية في البحر المتوسط ، اذ كانت القوافل التجارية تجتاز الصحراء فتنتعش لمرورهم الواحات القائمة اكثر الى الغرب ، امثال مدينة سلجلماسة القائمة على سفح جبال الاطلس الغربي ، والقاعدة الكبرى للخوارج في هـذه المنطقة .

وقد ظهرت بيزنطية ، أمام الاسلام ، مظهراً زرياً . ولا يعني هذا انها لم تستفد من ازدهار الحركة التجارية الكبرى التي كانت ناشطة ، اذ ذاك ؛ فالطرق الآسيوية التي تفضي الى سواحل البحر الاسود يجب ان تمر حتماً بالقسطنطينية ، وعلاقاتها مع شعوب الدانوب واوكرانيا ميسّرة . والمشاريع التجارية الايطاليـة في الشمال من البحر الابيض المتوسط يقابلها قدوم الروس الى القسطنطينية . والمسلمون ايضاً الذين انشأوا لهم فيها جامعـاً ، وهي حركة عـادت على اباطرة بيزنطيـة بالربح الوافر من الرسوم التي كانوا يتقاضونها ، كما عادت عليهم بالكثير من النفوذ والمكانة ، دون ان يلاحظوا قط ما تخفي هـذه الحركة وراءها من خطر في المستقبل بنسبة ما يتخلى رعاياها عن تحكمهم بالاسواق التجارية وفتح اسواق جديدة لتجارتهم .

وهذه الحركة التجارية الناشطة في كل قطر وصقع من بلدان الشرق الادنى ، كانت تدور ، في الدرجة الاولى ، على الخامات والمواد الاولية التي تفي بمطلب الحياة كما تناولت سلعاً غاليـة التكاليف والاثمان هي ابداً مطمع العظماء وكبار الاغنياء . وكان التجار المسلمون يستوردون من الشرق الاقصى التوابل والأفاويه (في مقدمتها الفلفل) ، والحجارة الكريمة والعاج من الهند ومن افريقيا ، والذهب من السودان والحرير من الصين الى جانب الحرير الوطني ، والاخشاب الثمينة كالمقشر والصندل ، من اندونيسيا ، وخشب البناء من آسيا الصغرى واوروبا ، والجلود والفراء ، والعسل والشمع ، من روسيا ، واخيراً العبيد والارقاء : من بين صقالبة دلماتيا على يد تجار ايطاليين ، أو صقالبة من بلدان اوروبا الوسطى ، من سوق النخاسة في براغ ، واتراكاً من قبائل الخزر او يأتون بهم من اواسط آسيا ، وزنوج السودان . ومن بين السلع التي كانت تنفق في داخل البلدان الاسلامية : حرير مناطق بحر قزوين ، والقطن والبخور المستورد من البـلاد العربية ، واللآلىء والاسفنج من اطراف عُمان ، كما استوردوا كل المعادن التي تفتقر اليها البلاد العربية من ايران وشمالي العراق والمغرب والاندلس ، حيث كانت تتوفر بغزارة هذه المعادن على أنواعها . وكانوا يصدّرون الى البلاد الواقعة خارج الاسلام السلع والمصنوعات التي تنم عن تفوق

مهارات الفن الإسلامي الصناعية ، في مقدمتها المنسوجات والمصنوعات المعدنية . فاذا مـــا وضعنا تجارة الرق جانباً ، نرى ان تجارة بيزنطية كانت تقوم على مثل هذه الاصناف ، انما على درجة اخف من التنوع . فالاولوية التي احتفظ بها هذا العالم وذاك ، تقوم بان كلاهما كان يصدّر للخارج بضائع وسلعاً مشغولة ، غاية في الدقة بينما اقتصرت الحركة التجارية في البلدان الاخرى، على استيراد المواد الاولية .

من الصعب ، وايم الحق ، ان نتبين كيف كان يتم التوازن في هذه الحركة التجارية وتداول النقد ، اذ ان كل الوثائق التي لدينا غامضة للغاية . فاستمرار هذا التيار التجاري بين بلدان الشرق الادنى واقطار آسيا النائية ، على الاخص ، دليل كاف على سلامة اوضاعها ، امـــا ان ينتقل قلب هذه الحركة التجارية ، فيما بعـــد الى مصر ، فامر يعود لاسباب ودوافع اخرى . وبعد هذا كله ، فقد احتفظت كل من بيزنطية ودول العـــالم الاسلامي حتى ظهور الحروب الصليبية بنقد من الذهب لم يتم منه للغرب شيء ، وهو نقد مستقر ، قوي ، معتمد دولياً ، مع العلم ان كلاً من ايران ، ومن اسبانيـــا ابتداءً من القرن العاشر ، عوّلتا بالاكثر ، على النقـــد الابيض ، أي الفضة . وكان هذا يتعارض مع ما كانت عليه العلاقات التجارية في الداخل حيث تدنت طاقة النقد الشرائية لأسباب ضرائبية ،منذ القرن العاشر . ولا شك عندنا قط في ان هذه الحركة التجارية العالمية كانت أدت الى احداث نقص في النقد المتـــداول ، لو لم تعوض مناجم الفضة والذهب الموجودة في نوبيا والسودان هذا النقص ، بيسر . ويقال ان بيزنطية التي كانت تشتري من الشرق اكثر مما تبيعه ، حققت التوازن في ميزانها التجاري بفضل المشتريات الاوروبية ، كما ان توفر النقد في اوروبا الغربية يعود لما كان تصدره الى البلدان الاسلاميـــة ، في الشرق والغرب ، من سلع وبضائع . ولعل في هذا التأكيد بعض الغلو من حيث تقدير أهمية الحركة التجارية في هذا المثلث الجغرافي . ومهما يكن من الامر ، فبيزنطيـــة لعبت دور المستهلك أو الوسيط ، ولم يكن لها بالحقيقة كبير تأثير على الحركة التجارية العالمية .

التقنية التجارية

قلما قام التجار باسفارهم لوحدهم او منفردين . فالتجارة البحرية ، اقـله في ما يتعلق بالمحيط الهندي ، كانت ، تبعاً للرياح الموسمية ، تتكيف بهـــا من حيث مواعيد الذهاب والإياب . وكانت كل سفينة تضم دوماً الى جانب قبطانها ، عـــدداً من التجار . اما في البر ، فالى جانب هذه الاساطيل النهرية التي كانت تمخر في النيل ودجلة وغيرهما من الانهر ، كانت الاسفار البعيدة تتم مع القوافل ، فتعتمد الجمال ، وطرقاً سالكة لتعذر الرحلة على مسالك غير صالحة .

والتاجر المثالي الذي يجوب الارض مستثمراً ماله ومهارته ، هو هذا الذي يصفه لنا كتاب « الف ليلة وليلة » . ولكن لم يكن احد ليتجر بماله وحده . فمَن طريق اتفاقات يجريها مـــع غيره من التجار ، او بالاشتراك برأس مال يتناهد بعضهم على تكوينه بدفـــع اقساط منه على

انجم معينة ، كان التاجر ينهض لعمله ويمضي في مغامراته على بركة الرحمن ، وهي عادة ترجع باصولها الى الاجيال القديمة .. والاموال المستثمرة على هذا الشكل ، كان يُؤتى بها من جهات شتى ، فيشارك بها العمال ورجال الادب ، وصغار التجار من جميع طبقات المجتمع ، وكبار الملاكين وابناء الارستوقراطية من رجال الجيش . فاذا ما راح التجار يستثمرون بعض اموالهم ومكاسبهم في ابتياع الاملاك ، عمد كبار الملاكين الى تشغيل جانب من اموالهم ، في المشاريع التجارية ، وهي مشاريع كثيراً ما تهددتها المخاطر والارزاء . الا ان هذه المضاربات كثيراً ما عادت على اصحابها والقائمين بها بالربح الوفير ، وحفزت اصحاب الطبقة الوسطى على الاقبال عليها . وعلاوة على ذلك ، فالدولة كثيراً ما ساهمت من جانبها بهذه التجارة ، اذ لم يكن الملوك والامراء يأتمنون هولاء التجار على مبالغ طائلة ، مساهمةً منهم بهذه الحركة فحسب ، بل كثيراً ما كان التجار يشاركون بجباية الخراج ويتصرفون ، في تجارتهم ومضارباتهم باموال لم تكن لتتوفر لهم مهما اقتصدوا وادّخروا . وكان بيت المال نفسه يستفيد ، هو ، الآخر ، من جباية الرسوم المفروضة على هذه المقايضات ، اذ كان عليهم ان يتقيدوا بدفعها وفقاً للاصول .

وتحسين الاعتماد ، وتوفير النقد لم تكن ابخس فوائد هذه المعاملات التجارية ، فليس فيها من جديد . ومع ذلك ، فقد كانت هذه المعاملات تجري على نطاق لم يبلغ من السعة ما بلغه ، اذ ذاك . فاذا ما حمل التاجر معه نقداً عداً ، فلم يكن ، على الغالب ، كميات ضخمة او مبالغ كبيرة ، اذ كان لكبار التجار ، في الاسواق التجارية الكبرى ، عملاء او وكلاء معتمدون يسحبون عليهم سندات لشخص ثالث ، فيدفعون له من ضمنهم ، ما يطلب اليهم دفعه ، لقاء فائدة معينة . والعمل بهذه السفاتج (جمع سفتجة ، والكلمة فارسية) كان شيئاً متعارفاً لدى التجار ، اذ ذاك ، كما ان السند او الشيك كان تعهداً بالدفع من قبل موقعه ، اذ ان السَّنَد ، كان بيد حامله ، بمثابة قيمة السند . ولم نرَ تركة او ميراثاً ، مهما بلغت ، لم يذكر المورّث ، في جردته ، من السندات المستحقة عليه ، ما يربو على ما يتركه من ثروة نقدية . وكان بيت المال يستوفي حصته من هذه الرسوم ، ويدفع بدوره ما يستحق عليه من ديون . ففي مركز تجاري كبير كالبصرة ، مثلاً ، كانت المبالغ المستحقة على التجار اولهم ، تدفع لاصحابها او تستوفى منهم عن طريق الاعتماد المالي . وكثيراً ما كان التجار المتنقلون يستودعون وكلاءهم مبالغ طائلة ، بعد ان يتعهد هولاء بعدم مسها او التصرف بها الا بامر صريح منهم . وقد كان القانون يحرم شرعاً ، الربا اينما كان ، ومع ذلك فقد كان الربا فاشياً ، في كل مكان ، يتحيل التجار على القانون لتامين الكسب غير المشروع .

كانت المعاملات المصرفية وقفاً على كبار التجار. اما الصيارفة فقد تميزوا عنهم بأنهم اختصوا بأعمال الصيرفة المحلية . وكثيراً ما كان هؤلاء الصيارفة ، جهابذة (الكلمة فارسية) أي يُعهد اليهم من قبل بيت المال ، لخبرتهم ، بتمييز الجيد من الزائف، بين هذه النقود التي تدفع للخراج، وكانوا يتقاضون عمولة عن خدماتهم هذه ، كما كان باستطاعتهم ان يشاركوا ، بالمضاربات المالية

والاعمال التجارية .

وكان من جراء اعتناق سكان البلاد للاسلام واقبال المسلمين على التجارة ان كثر عدد الصيارفه في المدن والمراكز التجارية ، وهي اعمال تعاطاها النصارى واليهود والمجوس وعدد من المسلمين ، على السواء . فالفوارق الدينية لم تؤلف حاجزاً او حائلاً دون احد لتعاطي مثل هذه الاعمال . وكان كبار التجار ، ولا سيما البزازون بينهم ، يأنفون من التعامل مع التجار بالمفرق ، او التجار المتجولين في الاسواق لانتماء معظمهم للطبقات الدنيا .

والتاجر ، سواء أكان مسلماً او غير مسلم ، لم يكن ملزماً بدفع رسوم المكس إلا عندما يجتاز الحدود بين بلد مسيحي وآخر اسلامي. غير ان التجزؤ الجغرافي وقيام الممالك والسلطنات والخانات الكثيرة ، في العالم الاسلامي ، جعل من هذه القاعدة شيئاً وهمياً او حبراً على ورق . ومهما يكن ، فقد انشئت في المدن والحواضر الكبرى للتجارة رسوم خزن ومرور ، كثيراً ما ندّد بها وانتقد من فرضها ، الفقهاء الذين كثيراً ما خرجوا من الوسط التجاري ذاته ، مع انهم لم يتعرضوا بكلمة نقد ضد ضريبة الخراج . وليلزموا التجار دفع هذه الرسوم ، كان عليهم ان يودعوا سلعهم في الفندق الذي كان يقوم عادة ، عند مداخل المدينة ، ثم يعمدون الى التصرف ببضائعهم وبيعها من تجار المفرّق ، اذ كان من المحظور على التاجر ان يبيع بضاعته بالفرادى . وكثيراً ما تقاضى رؤساء القبائل وكبار الاقطاعيين رسوماً خاصة « خوّة » يفرضونها على القوافل كرسم حماية . وكانت حركة التجارة في المدن مستمرة ؛ اما الاسواق القائمة على طريق الحج ، فلم يكن لها شأن يذكر .

وكانت الدولة والهيآت المحلية تستوفي رسوماً عالية من المكوس بلغت ١٠ ٪ على المسلمين ، و ٢٠ ٪ على غيرهم ، ما لم ينعموا باستثناء خاص . وقد يحدث ان تقوم الدولة نفسها بالتجاره ، في بعض الحالات التي تشتد فيها المجاعة ، تأمناً منها للمواد الغذائية . وقد كانت تحتكر في بعض الاحيان الاتجار ببعض الاصناف أو المواد ، كبيع الذهب الخام مثلاً . وهذه الاحتكارات كثرت انواعها ، وتعددت مناهجها في مصر . وعلى هذ النهج سارت ايضاً بيزنطية عندما كانت تستورد كميات وافرة من المواد الغذائيـة ، يحدوها الى ذلك ، الرغبة في تأمين تموين البلاط والعاصمة . اما في البلدان الاسلامية ، فتدخل الحكومة لم يتعدّ على ما يظهر ، الاهتمام بخزن مقادير كبيرة تحسباً للطوارىء وفرض رسوم على المواد الغذائية الاساسية كالطحين والخبز عند ارتفاع الاسعار ، وبيع المواد باسعار مخفضة عند نشوب المجاعة . وفي ما عدا هذه الاستثناءات، يبدو ان اسعار المواد الاساسية لم تتبدل كثيراً. الا ان الاسعار كانت تختلف اختلافاً بيناً بين قطر وآخر : فالطحين ، في مصر كان سعره ارخص مرة او مرتين مما كان عليه في العراق .

وهكذا نرى ان العالم الاسلامي برمته نظم جيداً اعراف التجارة وآدابها واساليبها التقنية وهي اعراف وآداب واساليب لم تلبث ان انتشرت في جميع أطراف عالم البحر الابيض

المتوسط المسيحي . ولكن من أين لنا ان نعرف ، في هذه الحركة التجارية التي ازدهرت ، في ايطاليا مثلاً ، ما هو ، في هذه الاعراف ، بيزنطي او عربي ، من التراث الماضي القديم أو من الاشياء المستحدثة في الظروف المتشابهة الواحدة ؟ والثابت الاكيد هو ان الحركة التجارية البيزنطية التي تميزت بالسلبية وانحصرت في حيّز جغرافي ضيق ، لم يتمّ لها شيء مما تمّ للحركة التجارية في العالم الاسلامي ، من تنظيم للاعتماد المالي ولا من مرونة الرسوم والجباية .

الحرف والمهن

والصناعة التي كانت دوماً من النوع اليدوي ، لم تكن تتعارض وتشغيل عدد كبير من الفَعَلَة والعمال ، في بعض الحالات . نحن نعرف الكثير عن وضع الصناعة في الامبراطورية البيزنطية ، في القرن العاشر ، وذلك بالاعتماد على كتاب مشهور عنوانه : « كتاب الرئيس *Livre des Préfets* . اما معلوماتنا عن الوضع التجاري في العالم الاسلامي ، فهي متوفرة جداً ، ولو جاءت متأخرة عن تلك ، وذلك من الكتب الموضوعة في « الحسبة » والتي يعتمدها « المحتسب » الذي يشرف على تنظيم الاسواق التجارية ويسهر على اسباب الأمن فيها . ففي كلا الوضعين ، فالمظاهر البرانية أو الخارجية والناحية الادارية للمهنة تحظى بعناية اكبر مما يُحظى به وصف المهن أو اصحاب الحرفة انفسهم .

لا بد من التمييز ، سواء في بيزنطية او في الاسلام ، بين الحِرف التي تقوم الدولة بتنظيمها والاشراف عليها ، وبين الحرف الاخرى الخاصة . يدخل في الفئة الاولى ، الى جانب ضرب السكة ودور الصناعة والمصانع الحربية ، مصانع النسيج التي كانت تؤمّن صنع الملابس الفخمة اللازمة لرجال الحاشية والبلاط او لديوان الملك ، كالديباج الموشّى بالذهب واسلاك الفضة ، او الحرير الملون بالقرمز والارجوان مما تدأب على صنعه دار الطراز ، في الدول الاسلامية ، والـ *Gynécée* ، عند البيزنطيين ، كذلك كانت الدولة تحتكر صناعة البَردي في مصر ، الى ان زالت صناعته وماتت عند ظهور صناعة الورق او الكاغد . اما ما تبقى من الصناعات الاخرى فصناعات خاصة ، ولو فرض على بعضها ، كما في بيزنطية مثلاً ، وجوب تأمين بعض الاصناف اللازمة للحكومة ، في الدرجة الاولى ، تبتاعها بالثمن المعين مع الرسم المفروض ، او تستوفي منها عيناً بعض المصنوعات ، كرسم مقطوع ، وهي طريقة ليس عندنا ما يشير الى وجود مثلها في العالم الاسلامي ، اذ ذاك .

وكانت الحرف في التاريخ القديم والاجيال الوسطى تنتظم حلقاتها على اساس نقابي . وهذه النقابة ، هل كانت تشبه لعمري ، الـ *Collège* في التاريخ المتأخر عند الروم وهو جهاز دولة في الصميم ، ام انها كانت صورة سابقة أوانها ، لهذه النقابات التي قامت في الغرب ، فيما بعد ، أو هي مؤسسات ومنظمات خاصة ، في جوهرها ؟ لا شيء من هذا على الاطلاق في بيزنطية . فمذهب تدخّل الدولة المعمول به في بيزنطية والمنتقل اليها في جملة من انتقل من تركة تاريخ الروم المتأخر ، جرى تطبيقه على النقابة او اهل الحرفة الواحدة ، مع الاخذ بعين الاعتبار ان وفرة اليد العاملة

جعل من غير الضروري قط، انتساب العامل للحرفة امراً متوارثاً أباً عن جد، او امراً إلزامياً. وقد خضعت الحياة النقابية والنشاط النقابي ، عندهم ، لقانون محكم ، دقيق ، تضعه الدولة وتشرف عن كثب ، على تطبيقه . فالنقابات المهنية في القسطنطينية تقع اداريا ، على رئيس الشرطة الذي يتوجب عليه ان يسجل الاعضاء في الحرفة المعينة ويرخص بانتماء أعضاء جدد اليها . وسنرى ، فيما بعد ، ما هو عليه الوضع النقابي ، في العالم الاسلامي . فمع ازدياد الطابع الديني للدولة في الاسلام ، خضعت الحرف والمهن لادارة المحتسب ولاشرافه ، وهو الموكول اليه ، أصلاً ، السهر على التقيد بالفروض والواجبات الدينية ، والاعتصام بالآداب العامة ، أي انه مشارك للقاضي من بعض الوجوه والصلاحيات ، وتقوم الدولة بتعيينه كذلك ، دون ان يكون للقاضي أي اشراف فعلي على وظيفة المحتسب. والشعور السائد، مع ذلك هو ان النقابات اجهزة تعمل من ضمن الادارة العامة اكثر مما هي تشكيلات عفوية ، اذ ان هنا ، كما في بيزنطية، ليست الجمعيات الشعبية التي تنتظم سلك الجماهير ، مهنية قط. ولا يبدو قط ان النقابة تكوّن، عند رؤساء الورش ، الاطار العادي لحياة « معلم الكار » .

ومهما تكن عليه طبيعة هذه النقابات، فالقانون الذي تخضع له يحمل الطابع الاقتصادي الواحد، ويهدف الى غرض واحد ، الا وهو الحؤول دون المنافسة وتأمين شيء من الاحتكار للحرفة الواحدة ، الامر الذي يفرض القول بوجود سوق ضيقة تملأ بسرعة ، وبتحديد الاجور والصفات التي يجب ان تتوفر في صاحب المهنة ، تأميناً لمصلحة المستهلكين والمنتجين ، على السواء، بعد ان يصبحوا في مأمن من كل مزاحمة أو منافسة . هذا اهم ما جاء من احكام وتوصيات في كتاب *Livre des Préfets* الذي اشرنا اليه اعلاه . اما في الولايات والارياف ، سواء في بيزنطية أم في العالم الاسلامي ، فالامر لم يكن على مثل هذه الدقة ، اقله فيما يتعلق بالاجور والاسعار ، بعد ان يكون المحتسب اخذ على عهدته ، تحديد الأجور ، وتحرير المكاييل والموازين والسهر عليها من الزيف والتلاعب . وعندما تعمل الصناعة تلبية لحاجة سوق في الخارج ، تضفي عليها المراقبة من قبل الادارة ، ضمانة أكبر لحسن الانتاج واتقانه .

اما في المدن فالمهنة أو الحرفة لها اختصاصها ومحترفوها . واصحاب المهنة الواحدة يعملون في سوق واحدة أو في حي واحد ، وعلى هذه الوتيرة سار الغرب فيما بعد . والروح النقابية هذه تغلغلت بعيداً بين الموظفين الاداريين واصحاب المهن الحرة . ويخضع لرئيس المهنة العمال المتدربون والعمال المياومون ، واصحاب المرتبات المعينة ، حتى العبيد الارقاء ، في بيزنطية ، حيث كان يسمح لهم بممارسة بعض المهن ، على مسؤولية اسيادهم الذين كانوا يحتفظون لانفسهم ، بقسم من اجورهم . وعلى الاجمال ، فالعمل اليدوي هو بيد اصحاب الحرف والمهن ، سواء في المدن أو في الريف، في كل ما يصون مصالح سيد الارض. واصحاب الحرف لا يشاركون، الا ما ندر، في الاعمال الزراعية ، فقد نظر الفلاح الى الرقيق نظره الى ابن المدينة ، لا يراه الا عندما يحضر مطالباً ، بكل خشونة ، بحصة سيده من الغلال . ففي الورش العامة ، يؤلف العمال المياومون

القسم الاكبر من اليد العاملة ، بينما لا يكوّن الارقاء سوى قلة بينهم ، يتصرف بهم سيدهم وفقاً للحاجة ومقتضيات العمل .

المدن

كثيراً مـــا غصت المدن بثالة السكان تتألف من الافـاكين ، والشطّار ، والدجالين والخَـطَـفَة والسرقة ، يتحيل الواحد منهم في عيشه على المغفلين ، ويقتاتون من فتات موائد الاغنياء ، كما في روما قديماً ، وكما هو الوضع في بعض مدن الشرق اليوم، حيث عدد السكان هو اكثر بكثير مما تتمّ عليه اهمية الوضع الاقتصادي فيها .

فالمدينة ، في الاسلام ، ابتعدت كثيراً عما عُرف لها من هندسة وتخطيط في عهد اليونان والرومان . فلم تحتفظ بما كانت عليه من شوارع واسعة عريضة تسير في اتجاه واحــد مشترك ، ولا بالوسط المحوري الذي كان يؤلف منها قلب الحياة المدنية والاقتصادية . فباستثناء القيصرية ، التي هي سوق الاقمشة والبزازين ، والتي بقيت قائمة في قلب المدينة ، انتقلت الحركة التجارية فيها بالاحرى الى الاطراف ، الى مخارجهـا ، اي ابوابها البرانية . وكثيراً ما قام محل الساحة العامة المكشوفة مسجد كبير . وقام في المدينة الواحدة، المتعرجة الشوارع والازقة، احياء عديدة كاد الواحد منها يستقل تقريباً في عزلته ويقنع بما يقدم فيه من حركة مهما انكمشت معالمها . وتنفتح البيوت في هذه الاحياء من الداخل ، على افنية مكشوفة بينما تدير ظهرها للشارع في جدار أصم لا ثغرة فيه ولا نافذة . ومع ذلك حذار من ان نغلو في تقتيم الصورة المرسومة . فالمدينة القديمة التي لم تتميز دوماً بتخطيط هندسي مبَسَّط ، لم تتبدل معالمها بالسرعة المرجوة ، ولا بالقـــدر اللازم . فانقسام المدينة الى حارات او احياء لم يَحُل قط دون قيام نشاط جماعي فيها امتد الى جميع اطرافها . فقد لا تقع منا العين على معالم للتجدد جديرة بالذكر او التنويه ، الا انـه يبرز في كثير من هذه المدن ، كدمشق وبغداد ، مثلاً ، شبكة ممتازة من الاقنية البديعة لجر المياه ، وايصالها الى جميع الاحياء ، والاكثار من سُبُل المياه والاحواض فيها ، وبالتالي من الحمامات العمومية .

وهذه التقسيمات الادارية التي كانت عليهـــا المدن في عهد الامبراطورية البيزنطية الاعلى ، يبدو لنا انها مثلت دوراً بارزاً في هذه الاضطرابات التي كانت تنشب ، الفينة بعد الاخرى ، في القسطنطينية وتهزها بعنف . وقد عرفت المدن الاسلامية مثل هـــذه التنظيمات والتقسيمات التي جاءت استمراراً لما عرفت من امثالها قديماً . فقد قامت في المدن السورية ، منذ القرن العاشر ، منظمات الاحداث يتولى افرادها السهر على الامن والهدوء ، وهي منظمات كثيراً ما قام الاعضاء المنتمون اليها بحركات انتفاضية عندمـــا كانوا يأنسون ضعفاً او تراخياً من جانب صاحب السلطان ، وذلك تعبيراً منهم عن عـــدم رضى المواطنين ، او عن وجود غليان فكري بين الناس . ومن جهة اخرى ، نرى في عـــدد كبير من مدن ايران ، وفي بغداد بالذات ، منظمات اكثر تعقيداً في تنظيمهـــا ، تعرف عندهم باسم « الفتوّة » التي تفيد ، من حيث الاشتقاق ، معنى

الاحداث ، واعضاؤهـا « الفتيان » ، وهي منظمة وعت الكثير من عادات العرب واخلاقهم قديماً ، كالشجاعة والجرأة والجود والعصبية او التضامن . فاذا كان المصطلح عربياً ، من حيث الوضع والاشتقاق، فمدلوله يتمّ عن تشكيلات يعود اصلها لعهد الدولةالساسانية، فتقدّت الكثير من عروبتها او سماتها العربية . فبمعزل عن الاسرة والقبيلة ، يتعاون افرادهـا على العمل معاً ، كما يتعاونون فيما بينهم على كل ما يؤمّن لهم الرفاهية والانشراح والترويح عن النفس ، وكلها اهداف لا تتم على شيء من الامور الدينية . والى جانب هذه الفئة ، نرى طبقة العيّارين ، وهي طبقة تتألف من جمهرة البائسين والمعوزين الذين لا قِوام لهم، ولا سند ، يهيمون على وجوههم ويتطفلون على موائد الناس ، وقد يقومون بحركة تسجّس من وقت الى آخر ، فتتثاقل وطأتهم على الاحياء الغنية ، ويطالبون بحلهم من شرطة المدينة ليبعدوا من وطأتها . ومع ذلك نرى هؤلاء الفتيان ، يصبحون في القرن التاسع ، نقطة الثقل لتجمع فئة العيارين ، فينظمون انفسهم في وحدات غير قانونية . فالمدلول الادبي لهذا التضامن الذي يدين به الفتيان ، لا يتنافى مع حق او واجب سرقة الاغنياء واستخلاص ما يرغبون في استخلاصه من ارزاقهم ، والا كيف نستطيع ان ندرك او نفهم تصرف هـذه الطبقة من اللصوص الاشراف الذين يسرقون لمساعدة غيرهم . وقد عرف الفتيان في القرنين العاشر والحادي عشر ، مواقف سيطروا فيها على الوضع السياسي في البلاد ، اذ كثيراً ما اصبح رئيسهم ، كما هي الحـــال تماماً عند الاحداث ، رئيس الشرطة ، في المدينة .

حياة الريف في البلاد الاسلامية

وحياة الناس في الريف اصعب إحاطة بها من الحياة في المدينة التي اصبحت مـــادة التاريخ الاسلامي الاولى والمعين الاول لمصادره المختلفة . فالريف هو قوام الحياة منها ، يمدها بحاجتها من القمح وبغير ذلـــك من الغلال والمحاصيل . فهي لا معنى لها بذاتها ، ولا بدون الفلاح او المزارع الذي يصعب مع ذلك تحديد محله في المجتمع البشري . فبين المدينة والريف ، لا محل لحركة تبادل تجاري . فالتجـــار يتعاطون الاعمال ، بين مدينة واخرى ، والارباح التي يحققونها ، يجب ردها ، بعد كل حساب ، الى المنافع التي يجنيها سكان المدن الاغنياء ، من عمـــل الفلاح والشغل الذي يقوم به . ولكن مقابل ذلك لا يتلقى الريف شيئاً من المدينة . فالسكن فيه ، والغذاء، واللبس والادوات، كلها امور في غاية البساطة ، تدبّر محلياً .

فليس من داع بعد هذا ، للتبسط والاستفاضة في تبيين مـــا كانت عليه الوسائل الفنية في الزراعة من طابع بدائي ، اذ لم يطرأ عليها اي تطور اساسي منذ التاريخ القديم حتى القرن العشرين . ومع ذلك فقد شجع الاسلام أقلمة بعض المزروعات ووطنهـــا في اماكن جهلت زراعتها من قبـــل . فقصب السكر ، وزراعة التوت الذي عليه تقتات دودة القز او الحرير ، دخلت فنون زراعتها الى الغرب . والاساليب الفنية التي عولوا عليهـــا في ري الاراضي ، في الشرق ادخلت الى الاندلس وراجت فيها ايمـــا رواج . ونمو المدن ، وتكاثر السكان ، زاد من

شدة الطلب على المواد الغذائية . فقــد كانت عمارات كثير من السفن تمخر دجلة ناقلة المواد الغذائية الى بغداد . ومع ذلك فلم تؤدِ هذه الحركة الى اي تحسين يذكر في حياة الفلاح، وبالتالي في حياة الريف .

فالنشاط الزراعي هو ابداً رهن بحاجة الاراضي والناس للماء . وكانت مسؤولية الادارة الاولى تأمين الاعمال والاشغال التي تؤمن وصول المــاء من الآبار او الانهر ، واسالته الى حيث تشتد الحاجة اليه . واساس الضريبة على الاراضي ونسبة الرسوم المفروضة عـلى المزارع تختلف باختلاف طبيعة الارض ونسبة ما هي عليه من ري طبيعي او سقاية . فالاراضي المشجرة تؤلف طبقة خاصة . وتربية الماشية كانت تجري على نطاق ضيق ، والفلاحة لم يكن يقتضي لها جهداً كبيراً ، بينما أهمل امر تسميد الارض بالاسمدة الطبيعية . والظاهر ان صناعة الالبان ومشتقاتها كانت ، مع الحنطة ، اهم ما يعول عليه الانسان في امور غذائه .

وكانت تربية الماشية جل ما يعتمد عليه البدوي في امور معايشه . فالبدو الرحـــل منهم اعتمدوا تربية الجمل ، بينما اتخذ البدو الظواعن ، عماداً لهم تربية الاغنام ، يظعنون بهـــا طلباً للكلأ والعشب مع تقلبات فصول السنة . والتعاون المشترك بين البــدو والحضر هو من الامور الحيوية في العالم الاسلامي ، وهو في ايران اقل منه في البلاد العربية الاخرى ، قبـــل هجرة الاتراك الذين وحّدوا من مظاهر الحياة في البلاد . فقد قام الجانبان بتبـــادل محاصيلهم . ففي الازمنة والاقطار التي طغت فيها الانقسامات والتحزبات السياسية كثيراً مـا فرض البدو على سكان المدن تقديم العوائد العينية . والاملاك الواقعة عند الحدود ، كان استثمارها ينتقل مناوبة وبصورة مطردة ، بين البدو واهـــل الحضر ، الا ان اختلاف انظمة الحكم ، والاضطرابات الاجتماعية التي كانت تقع ، كثيرا ما الحقت تغييرات اساسية في نسبة سكان الحضر والبدو ، على السواء ، وبالتالي بين المناطق التي اعتاد البدو ارتيادها والمناطق الاخرى التي كان يستغلهـا سكان المدن . وكثيراً ما تحول اهل الظعن الى مزارعين ، وهو وضع كثيراً ما نظروا اليه نظرة هزء وازدراء ، واعتبروه محطاً لهم . وعندمـا يستقر بهم المطاف ، ينزع زعماؤهم للسكنى في المـــدن ، الامر الذي ساعدهم على تعاطي الحياة الريفية دون ان يقوموا ، هم انفسهم ، بامور الفلاحة .

ونود كثيراً ان نعرف فيما اذا كان الازدهار الاقتصادي ادّى الى اي تحرر أو تحسين في حياة الريف ، او ادى ،بعكس ذلك ، الى المزيد من ابهاظ الحياة وارزاحهـا . فالجواب الواحد لا يمكن ان يعبر تماماً عن الوضع الذي ساد واستبد في جميع انحاء العالم الاسلامي . ويمكن القول باختصار ، دونما اطـــلاق او تعميم ، انه حدث ، ولا ريب ، من جراء ذلك ، شيء من تركيز للملكية ، ومن التضييق على الفلاحين ، والى المزيد من الاحراج في وضعهم ، والامعــــان في البوس . فالمسؤول الاول عن هذا المصير القاتم ، انما هوالطبقة البورجوازية التجارية ، واكثر منها مسؤولية ، الجيش نفسه . فالملكية البورجوازية التي عادت الى عهد بعيد ، سيطرت على

الحدائق والجنان والبساتين الواقعة قرب المدن ، وهي اقطان عرفت بغناها وخصبها مع ما هي عليه من ضيق المساحة او الرقعة ، كما انها سيطرت على مساحات عقارية واسعة شملت قرى بكاملها . فلم يكن من النادر قط ، ان نرى هنا وهنالك ، في العهد الاول من الدولة العباسية ، الفلاحين يتمتعون بملكية قوية الجانب ، وهي ملكية لم يستطيعوا ان يحافظوا عليها فيما بعد ، الا بشق الانفس . فالظروف التي ساعدت على استمرار المشاركة في مزارعة الارض ، لم تعد تتوفر الا في المقاطعات التي توزعت فيها الملكية العقارية وكلّف تشغيلها غاليا ، الا انها كانت تعطي دخلاً طيباً ، وتزخر بالسكان ، كما هي الحال في لبنان الماروني مثلاً ... اما في غير اماكن ، التي كانت توفرها الاعمال التجارية ، فالارباح قد استخدمت في شراء الاملاك والاقطان العقارية ،وهي ملكيات نمت وازدادت على اساس نظام الجباية الذي عُمل به اذ ذاك . وكان الفلاح عندما يروح فريسة العوامل الطبيعية او يقترض لأي حادث عائلي ، يقترض ، عادة من المالك المجاور له ، وعندما يرى نفسه عاجزاً عن الدفع كان يرى من مصلحته الخاصة ، ان يتخلى عن ارضه للدائن واضعاً نفسه وذويه تحت رعايته وحمايته ، ويعمل مزارعاً عنده . ومع ان القانون لم يكن ليقر او ليعترف باية عبودية تشد الفلاح الى ارضه ، كان الفلاح المعسر الذي يعجز عن دفع دينه ، يتعهد بوفاء الدين بالعمل في الارض . فاذا ما حاول الهرب أو التهرب أو التملص ، امكن مطالبته بما عليه ، لا سيما وان جميع سكان القرية كانوا مسؤولين ، جماعياً ، أمام ادارة الجباية ، عن جميع الرسوم المترتبة على قريتهم .

وقد عرف القسم الجنوبي من العراق تغييرات اخرى تقربنا من عهد الرومانيين . ولكن يجب الاحتراز من القول بتعميمها . كان كبار الملاكين في بغداد يستثمرون الاراضي الخصبة الواقعة على جنبات شط العرب ، ويزرعونها قصب السكر مستخدمين لها عدداً كبيراً من الزنوج بعد ان تناقص كثيراً عدد الفلاحين ، يأتون بهم باعداد كبيرة من سواحل افريقيا الشرقية. تألف منهم جماعات تسكع افرادها في فقر مدقع والبؤس، كما يشهد على ذلك كتّاب العصر . وقد زاد هذا الوضع الفلاحين بؤساً بعد ان تعذر عليهم مقاومة هذه المنافسة الشديدة التي تعرضوا لها . وقد ادّى الوضع المذكور ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، الى ثورة الزنج ، فانضم اليهم بدافع من الشعور بالتضامن ، عدد كبير من الفلاحين . وقد امكن ، بعد جهد طويل ، التغلب على هذه الثورة اسوة بثورة الزنج ، في عهد سبارتاكوس ، بعد ان وضعوا الخلافة ادنى من قاب قوسين من هلاكها . الا ان هذه الثورة تركت في الطبقات الشعبية بذوراً لم تلبث ان طلعت في انتفاضات عنيفة قامت فيما بعد .

وكان من جراء البؤس الذي غمر الريف ان توافد الناس على المدن،فغصّت بسكانها وزخرت ارباضها بالوافدين عليها طلباً للعيش وفراراً من الضيق الخانق الذي اخذ بتلابيبهم ، مما ادّى الى اضطراب حبل الامن في البلاد ، ولا سيما في هذه المناطق التي يأهلها الاكراد ، اذ كانت اعمال اللصوصية ضاربة اطنابها . فقامت في البلاد عصابات من شذاذ الآفاق تسلب المارة

وتبلص كبار الملاكين وتقتصرهم ، واستفحل خطرها بعد ان انضم الى هـــذه العصابات عدد كبير من اهل البدو .

الجيش في البلاد الاسلامية

لما كان نظام الجيش مسؤولاً ، الى حد بعيد ، عن المصير المظلم الذي آل اليه الوضع في الريف ، كان لا بد هنا من إلقاء نظرة الى الوراء تتحلى الجيش وتشكيله .

كان هذا الجيش عنـــد الفتوحات الاسلامية الاولى يعني العرب ، يتأمن أوَدُه من المغانم والاسلاب ، ومن المرتبات والاعطيات التي تُدفَع له . غير ان بعض العناصر المقيمة باستمرار على الحدود ، تميزوا بعض الشيء ، عن اخوة لهم في السلاح توزعوا على الحاميات في المؤخرة . الا ان توقف حروب الفتح ، وعدم الانضباط ، الذي نشأ في صفوف الجيش ، والتفاوت في التدريب المهني والتقني ، بينما كانت الحرب تتطور وترتدي اساليب لم يألفها العرب من قبل ، والحاف الموالي بالطلبات ، كل هذه الاسباب وما اليها ، ادت كما رأينا ، مع الانقلاب العباسي ، الى إقصاء العرب واقصارهم على المرتبة الثانية ، لتؤخذ منهم عند الحاجة ، بعض العناصر اللازمة للاعمال السريعة . فالعنصر الخراساني اخذ يؤلف نقطة الثقل في الجيش وقوامه الاولى ومادته الاساسية ، تدفع لهم المرتبات السخية . وهذا الجيش نفسه هو الذي شال ورجّح ، في مطلع القرن التاسع ، بعد المعارك المتتالية ضد الامويين ، كفة حاكم خراسان ، اذ ذاك ، على اخيه الأمين الذي كان يسانده العنصر العربي في الجيش . وكان من الصعب ، وايم الحـــق ، على الخراسانيين الذين كانوا يشعرون بقوتهم ونفوذهم ، ألاّ يدلّوا لهـذا النفوذ على غيرهم ويبهوا به ، او ان يبقوا محافظين على ولائهم ، نحو الخليفة ، في كل المناسبات ، ناهيك عن ان تجنيد عناصر تم لها الاستعداد الفني والمسلكي ، لم يكن دوماً بالامر اليسير ، وهو امر يمكن نكرانه او التشكك فيه ، الا في بلاد البربر حيث كانت طبيعـة المعارك والحروب ، تتطلب الاعتماد على الخيالة الثقيلة والتمويل عليها ، مما كان يقتضي له تدريباً اكبر واوسع . وكانوا يحولون ضد صغار القوم للعمل في الجيش ممن لم تكن لهم طاقة على شراء حاجتهم من الجياد والعتاد .

وفي الربع الثاني من القرن الثالث ، تمت خطوة ثانية ، الى الامام ، وذلك بتدبير من الخليفة المعتمد . فازدهار التجارة ، واتجـــاه حركتها نحو البلدان الشمالية ، سهّل اقتناء الكثير من الارقاء والعبيد ، من سكان هذه البلدان ، ولا سيا من بين الاتراك منهم الذين اشتهروا بتقاليدهم الحربية ، حيث كان الاهلون يتخلون بارتياح ورضى عن اولادهم ، رغبةً منهم في تأمين مستقبل افضل لهم عن طريق الخدمة في جيش المسلمين ، حتى ان قبائلهم كانت تحارب بعضهـــا بعضاً وتتقاتل فيا بينها طمعاً في اسرى يقعون بين ايديهم ، فيبيعونهم بيع النعاج في سوق النخاسة ، كما جرى ذلك من بعد ، لرؤساء القبائل من العبيـــد في افريقيا . وهكذا ضم جيش الخليفة وحدات من العبيد اخذ عددهم يتكاثر وينمو بما يرفده من الاحداث الارقاء ، بعد ان يتم تدريبهم

في القصر، وتخريجهم في امور الدين والجيش، ويدربوا على اعمال الحرب وفنون الكر والفر. اما ما تبقى من وحدات الجيش فقد كانت تتألف من ابناء البلاد، ولا سيا من بين العناصر الخشنة الطباع، شأنهم شأن العبيد الاتراك، يعملون تحت امرة ضباط رؤساء من ابناء جلدتهم. وبعد ان يرقوا المراتب، ويصبحوا في مصف الضباط الاعلين، ينهجون، معتقين كانوا ام عبيداً، حيـــاة تختلف كثيراً، بما تم لهم من اسباب الرفاه والقوة والسيطرة، عن حياة معظم احرار الرجال، اذا ما شئنا ان نسقط من كل حساب، العبيد العاملين في الاعمال المنزلية.

الاقطاع والوقف

وهذا الجيش الجديد، كان اكثر كلفة ونفقة، بالطبع من الجيش القديم فالخليفة، كالاباطرة الرومان بالنسبة لقائد الولاية، كان جل اعتماده على الجيش، كما ان مصيره كان يتوقف، الى حـــد بعيد، على ولاء هذا الجيش له. وكانت معرفة هذه الامور لا تفوت الجيش، ولذا لم يكن ليتورع في مطالبه والتشدد فيهـــا. فبيت المال لم يكن يستطيع الاعتماد على دخل مطرد بحيث يمكن له مواجهة دفع مرتبات عالية. ولهذا كان افراد الجيش يفضلون ان يُعطَوا بعض الاطيان التي تدرّ عليهم مزيداً من الدخل والارباح يطمئنون لها ويعوّلون عليها اكثر من تعويلهم على مرتبات يقتّر صاحب السلطان في دفعها. ولهذه الاسباب، كان لا بد من خصهم بتوزيعات خاصة من الاقطاع، كان الخليفة، الى هـــذا العهد، يتصرف بها للذين يلاقون عنده حظوة خاصة. ولم يكن هذا التدبير وحده كافياً، اذ ان كمية الاراضي التي امكن للخليفة التصرف بها، كان يحـــد منهـــا اتساع الاملاك الاميرية، ولم يكن من الممكن انتزاعها من ايدي الذين صارت الى ملكيتهم منذ عهد بعيد، ومنـــذ بدء القرن العاشر، اخذوا يوزعون على الجند، تحت اسم اقطاع، الرسوم المستوفاة عن الامـــلاك الخاصة، ليس فقط عن طريق مرتبات عُهد الى مأمور بيت المال، او الى متعهدي الامـــلاك الاميرية، بدفعها لهم، بل ايضاً بالاعتراف لهم بحق استثمارها واستيفاء رسومها بعد ان تتخلى الادارة عنها لهم. هذا بعض مـــا كان عليه الوضع، أقلّه في سواد العراق وفي غربي ايران. اما المناطق الدائرية الاخرى، فقد سارت الحركة فيها بتمهل كلي، كما اختلف الوضـــع كذلك في الولايات التي بقي الجيش يعول في تشكيله، على القبائل التي بقيت تقاليد الحرب فيها قوية، كبلاد البربر، مثلاً.

وعلى كل، فقد آل الامر الى كارثة على الدولة وعلى سكان الريف معاً. فالدولة فقدت، ان لم يكن بالفعل، فاقله بالاسم، الاشراف الاداري على قسم متزايد من الارض كما فقدت الإشراف على جانب من الفيء. فبعد ان جهل اسياد الأرض الجدد ومن يعمل فيها من المزارعين، كل شيء يتعلق بكيفية استثمار الارض والوسائل المساعدة على ذلك، فلم يعـــد لهم من هم سوى الاثراء باسرع ما يمكن، سيان عندهم أأقفرت الارض أم اجدبت، طالما كان بوسعهم استبدالها بقطعة غيرها اكثر عطاء واقل إمساكاً. وبعد ان اصبح الجند اسياد هذه الاقطاعـــات، رأوا انفسهم يتمتعون بالثروة والقوة. فقد كان من اليسير على الملاكين البورجوازيين ان يرغمـــوا صغار

الفلاحين أو متوسطيهم ، على طلب حمايتهم ، وحملهم على التنازل عما يملكون من عقار ، طمعاً منهم بحمايتهم ورعايتهم . فاذا ما استطاعت الملكية البورجوازية ، ان تحافظ على شيء من نشاطها في المناطق التي اشتدت فيها حركة تجميل المدن ، فقد اضطرت للتخلي عن جانب كبير من هذه الاقطاب ، لهذه الطبقة الارستوقراطية ، العسكرية والعقارية ، التي طلعت من جديد .

ومما هو أنكى من ذلك ، الخطر الذي كان يرزح على كواهل الدولة. فالنظام الاداري الذي عمل به في عهد اوائل الخلفاء العباسيين ، كان ينص ، كما سبق واشرنا الى ذلك من قبل ، على وجود قائد للجيش وحاكم اداري، في كل ولاية، يستقل الواحد عن الآخر في ما له من صلاحيات وما يقع عليه من مسؤوليات . فلا يستطيع الأول دفع مرتبات الجند العاملين تحت امرته الا من المدفوعات التي يقدمها له الحاكم المدني ، بينا لا يستطيع هذا الاخير النهوض بما يدبّر من خطط الا بالاعتاد على الجيش وقائده ، والدولة في شبه اليقين من ولائهما لها . أما الآن ، فقد اتجه هم كبار القادة في الجيش الجديد ، للسيطرة على الادارة المدنية ، والتصرف بمملاتها ، بين تعيين وعزل ومراقبة ، والتصرف على هواهم بموارد الدولة يوزعونها على الجند أو يحتفظون بها كما يشاؤون . وهكذا لم يلبث قائد الجيش ، في الولاية ، مهما حافظ على الشكليات ، ان اصبح السيد المطلق . ولم يفت الوضع على الخلفاء ووزرائهم مهما بلغت منهم الغفلة ، فراحوا يحاولون الحد من الامر . ولكن ما ان تندلع ثورة أو تبدر في الولاية حركة انتفاضية حتى يستنجد ذوو الأمر بصاحب الجيش لاخماد الفتنة ، فيضطروا للتسليم مرغمين ، بما رفضوا التسليم به من قبل . واذا ما رغبوا في استعادة ما سلموا به ، كان عليهم ان ينعموا بذات الامتيازات ، على من يصطفونه ، لاعادة الامر الى نصابه . وهكذا أطل الخطر على وحدة الامبراطورية من خلال مطامع العسكريين ، ومن هذه النزعات القومية التي كان يتمخض بها سكان البلاد الاصليون .

وبالرغم من الغلَبَة التي تمت في النهاية للارستوقراطية العسكرية ، بعد ان خفضت من شأن القطاع التجاري وجعلته في المرتبة الثانية بالرغم مما كان يمثله من قوة ، والذي كثيراً ما استعان بأموال العسكريين لتحقيق ما كانوا يقومون به من اعمال تجارية ، يجمل بنا ان نجانب المغالاة في تصوير قوة البورجوازية . فمهما بلغ من نشاط هذه الطبقة ومن حيويتها ، فهؤلاء التجار ، سواء في العالم الاسلامي او في الغرب ، لم يكن نفوذهم ، مهما بلغ من قوة ، بالعامل الاكبر في خلق الامبراطوريات الواسعة .

وبالفعل لقد افضى التخصص المسلكي في الجيش وتشكيله العنصري الى التفريق بين السلطة العسكرية والسلطة الادارية : كمسائل التوجيه ، الوظائف الادارية. فقد كان يعهد بهذه ، الى المواطنين الاصليين من سكان البلاد ، وبتلك الى عنصر اجنبي دخيل عليها . وقد حل محل

النظام الاسلامي القديم نظام احتلال عسكري ، بلغ اشده مع فتوحات الدولة السلجوقية ، الا ان معالم هذا التطور برزت بوضوح ، منذ القرن التاسع .

وفي الوقت ذاته ، برز الى جانب الملكيـــة البورجوازية ، والعسكرية وطلـع من تفاعلهما ، نوع آخر من الملكية ، كُتِبَ لها ان تلعب ، فيما بعد ، حتى في التاريخ الحديث، دوراً متزايد الاهمية ، الا وهو نظام الوقف او الحبوس . وقد كانت نواة هذا النظام ، وهذه الاملاك والاقطاعات التي صارت ملكيتها الى رجال الدين، من أبناء الطوائف الاخرى التي لم يمسّها الاسلام ولم يُلْغِها . غير ان الوقوفات التي كان يجود بهـا المسلمون تلبست لبوساً شتى ، أفاد منها افراد المجتمع او بعض الهيئات والمؤسسات العامة . ففي الحالة الاولى ، أدّى النظـام الى حفظ تركة درية خاصة وصيانتها من الضياع ، وان كانت ، اجمالاً ، صغيرة ، لا كبير شأن لها ، وذلك بحجة تأمين اسباب العيش لأسرة فقيرة ، وبذلك يحيلّ دون توزع التركات . امـا في الحالة الثانية ، فقد كان الغرض من الهبة دعم عمل خيري ، او اقامة بنـاء ديني ، كمسجد ، مثلاً ، او ذات منفعـــة عامة ، كالحمامات والمستشفيات والخانات ، اذ لم يَرِد نص قانوني على صيانتها والمحافظة عليها . وقد يفيد من هذه الوقفية اسرة ما من الاسر عندما يعهد اليها بادارة الوقف وباستيفاء ما يدره من عطاء . وقـد شاعت عادة الوقف للأفراد وذاع استعمالها ، وهو يتألف ، على الاجمال، من اطيان وعقارات وأشياء اخرى غير منقولة، اذ انه كان من المحظور، على الواقف ، في بدء الامر ، في مصر وغيرها من البلاد الاسلامية، وقف املاك منقولة . ويبدو ان التبرعات للمؤسسات العامة لم تكن مهمة قبل القرن الحادي عشر . وكان الوقف على الاجمال وضيع الشأن اذ كان في مقدور الملوك والامراء وحدهم ، واصحاب المراتب العليا، في البلاط ان يقوموا بتبرعات ووقوفات لها أهميتها . ومع ذلك ، فلم يلبث ان اصبح للوقف شأن كبير ، كما لحق ادارته شيء من التشدد والتحرج ، الامر الذي أفسد تحسينه ، من الوجهـة الاقتصادية ، فأدّى الى اهماله .

المجتمع البيزنطي

وقد اخذ المجتمع البيزنطي يتطور هو الآخر ، متبعاً الاتجاه ذاتـه الذي سار عليه التطور في العالم الاسلامي ، وان تميز ببعض الميزات الخاصة به . فالاملاك والاقطاعات الخاصة بالبورجوازية التي لم ترتكز على ثروات عملية تجارية ، كما هي الحال في العالم الاسلامي ، لم يكن لها شأن كبير . فالثروة العقارية التي كانت تحت تصرف النبلاء ضَؤُل شأنها من جراء الغزوات التي تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية . وهكذا برزت في المرتبـة الاولى ، حتى القرن التاسع ، الملكيـة الكنسية التي حاول الاباطرة الذين قالوا بتحطيم الصور منهم ، حتى نيقوفورس الاول ، عبثاً ، الحد منها . ولم تلبث الملكية العلمانية ان استأنفت تطورها الصاعد بالنسبة التي ضعف فيها شأن طبقة الفلاحين ، في كل من الامبراطورية البيزنطية ، في عهدها الاعلى ، وفي العالم الاسلامي ، اذ ذاك ، امام تزايد عظماء الدولة شأناً . فقد احدثت موجة الغزوات ، حركة تراجع وتقهقر ، دون ان تلحق حركة التطور ، أي تغيير او تحوّل

يذكر . غير ان اضطراب حبل الامن ، وتراكم الديون ، بربا او بغير ربا ، وجشع عظماء الدولة وطمعهم الاشعبي ، كل ذلك وما اليه ، أدّى بالتالي : الى بيع الفلاح التركة العقارية التي وصلت اليه بالارث ، والى استخذاء المستضعفين والتماسهم عطف الاقوياء ، كما ان العجز عن الدفع أدّى الى شد الفلاح وربطه بأرضه ، والسلطة التي توفرت للعسكريين ساعدت على توسيع ما لهم من الاملاك الواسعة والاطيـــان والعقارات ، فنشأ في قلب آسيا الصغرى ، منطقة اصبحت تنعم تقريباً بالطمأنينة ، إلا انها ما زالت مع ذلك ، المجال الاكبر للجهاد من كلا الجانبين ، وفيها تمت أكبر ملكيات من الاطيان لضباط الجيش الذين كان معظمهم من أبناء البلاد الاصليين ، تغطي الواحدة منها باتساعها ، ولاية برمتها ، كما حصل للأسر الشهيرة من آل فوكاس ، وسكليروس ، وماليينوس وكومنينس ، بحيث استطاعوا ان يقفوا بوجه الامبراطور نفسه .

وقد عاد هذا الوضع بالحيف الكبير على الدولة نفسها ، اذ فقدت الكثير من دخلهـــا ووارداتها ، بعـد ان عجزت عن إرغام عظماء القوم على دفع ما يترتب عليهم دفعه من رسوم وضرائب مفروضة على الاراضي التي اضطر للتخلي عنها صغار الملاكين ، كما أسقط في يدهـــا عندما ارادتهم على التزام حدود الاحتكارات العامة ، عندما يعمدون لتصريف محاصيلهم . كذلك فقـــدت الدولة كل سلطة لها ، وراح عظماء القوم واكابرهم يتحدّون الحاكم في الاقضية التي تصدرها ضدهم . كذلك فقدت وحدات جيشها بعد ان اخذ هذا الجيش يعتمد في تشكيله على طبقة الفلاحين الاحرار . فالوحدات التي كان هؤلاء العظماء يشكلونها من بين الفلاحين التابعين لهم ، لم يكن لها من كثرة العدد ، ولا من الولاء للامبراطور ما كان للجيش قديماً . ولذا جاءت ردة الفعل من قِبَل حكومة الامبراطور قوية وسريعة جداً ، طوال القرن العاشر ، ضد تضخم الملكية العقارية ، كنسية كانت ام علمانية . فقد حظر القانون على كبار الملاكين شراء اراضي الفلاحين، واعاد الى هؤلاء الاملاك التي اغتصبها منهم مغتصبوها بالحيلة او بالعنف والاكراه، وفرض على العظماء ، في هذه المجتمعات المسؤولة بالتكافل ، امام بيت المال، الضرائب التي لم يكن في مكنة صغار الملاكين حملها والقيام بها .

كل هذا لم يُجدِ فتيلا . فمنذ القرن العاشر راح بعض الاباطرة ، امثال نيقوفورس فوكاس ، ويوحنا كزيمنيس ، مـــن الارستوقراطية العسكرية يلملمون باليمين ما يهدمون باليسار . فتجاه تطور السلاح الثقيل، لم يعودوا يكترثون الا بالملكيات المتوسطة الحجم بينما ضحوا بالصغيرة منها التي فقدت كل قدرة لها على الاحتمال، والنهوض بما يترتب عليها من واجبات . ففي اواخر القرن المذكور ، أتاحت المنافسات التي نشبت بين العظماء ، وامكانية الحروب مع الخارج ، للامبراطور النشيط باسيل الثاني ، ان يتغلب على هذه الثورات التي نشبت في عهده ، وان يقوم بمصادرات كثيرة ، فيكبح من جماح الارستوقراطية ، ويشد من شكيمتها . وقد اخذت هـــذه الحركة تتطور بسرعة أكبر ، في القرن الحادي عشر ، وهي حركة شابهت الحركة التي قامت في العالم الاسلامي ، وان تأخرت عنها قليلاً ، مع فارق وحيد هو ان الامبراطورية البيزنطية استهدفت،

لصغرها ، للعديد من محاولات الانقلابات ، يقوم بها العظماء للاستيلاء على الحكم والاستبداد به ، وليس لتوسيع رقعة الامبراطورية او لاقتسامها ، لما كانت عليه من متانة الجانب ، والتضامن العنصري والتماسك الديني ، ولبقاء الجيش معتصماً « بالروح الوطنية » .

الملل والنحل الاسلامية

ادى اشتداد النزعات الاجتماعية في العالم الاسلامي الى استفحال امر الملل والنحل التي تلبست مظاهر دينية اسلامية بينما اخفت في ثناياها مطالب ودعوات قومية مبطنة . واتسعت الفروق بين هذه الملل ، يوماً بعد يوم . فالخوارج لم يحافظوا على كثرة عددهم الا في بلاد البربر حيث استفحل منهم الامر ، واخـذ يتلبس شكل دكتاتورية جماعية بزعامة آل رستم الذين ألـّفوا ، في اواخر القرن الثامن ، امارة لهم في مقاطعة تباريت (ولاية وهران اليوم ، في الجزائر) وستمهد هذه الفرقة السبيل لظهور الحركة التي قـام بها « رجل الحمار » في منتصف القرن العاشر ، ضد الفاطميين . وقد اقتصر عملها ، في البـدء ، على بعض الواحات الواقعة في القسم الشمالي من الصحراء ، وثم في مقاطعة المزاب ، ومنهـا اخذ اتباعها ينتشرون في الجزائر .

اما الشيعة ، فهي التي استقطبت ، في الشرق ، جميع الناقمين على الدولة ، بعد ان انقسمت الى عدة فرق ونحل اشتدت بينها المنافسات الشخصية ، وبرزت الفوارق العقائدية والمنافسات الاجتماعية العنيفة ، وظاهر الاختلاف انحصر في شخصية الائمـة الذين ينحدرون ولا شك ، من سبط علي بن ابي طالب ، الا انهم يختلفون في بُنوتهم منه . الا ان سوء سلوك بعض العلويين ، والاختلافات العقائدية التي نشبت فيما بينهم ، اوجدت بـين الجماعة شعوراً بان سلسلة الائمة انقطعت عند اختفاء الامام الاخير وتواريه ، دون ان يكون مـات ، وسيعود يوماً بشخص المهدي ، على شاكلة المسيح المرتجى ، في النصوص الكتابية ، قبـل انقضاء الدهر ، ليملأ العالم عـدلاً وسلاماً . ولذا ، لا يمكن ان يقوم على ادارة الجماعة سوى قادة يتولون الامر انتداباً او بالوكالة ، ليحافظوا مع علماء الملة على نقاء العقيدة ، وكلها امور تناقض تماماً مـا اجمع عليه اهل السنة . فالثورة عليها لا تجدي فتيلاً ، ولا تفضي الا لانحلال الجماعة . ولذا كان من الافضل التقيد بالعقيدة الرسمية ، والاخذ بالتقية .

قلنا ان فرق الشيعة تباينت فيما بينها . فمنها من رأى ان الامامة الشرعية تقف عند الامام الخامس زيد ، الذي مات سنة ٧٤٠ ، وقام اتباع هذه الفرقة بثورة عارمة ، في منتصف القرن التاسع ، فانشأوا في طبرستان (مازدران) الى الجنوب من بحر قزوين ، كما انشأوا في اليمن ، امارتين لا تزال الثانية منهما قائمة الى يومنا هذا . فتعاليمهم وفقههم لا تختلف كثيراً عن عقيـدة السنة وفقهها ، الا انهم غلبوا على امرهم امام شيع أخرى .

اما الشيعة الامامية ، فعدد الائمة عندهم ١٢ إماماً آخرهم الأمام محمد ، في اواخر القرن السابع ، فهم يتميزون عن السنة بانتظارهم المهدي ، وبقولهم ان جوهر الألوهية ، ينصب في

الامام ، كما يختلفون معهم ببعض الاحكام الفقهية كزواج المتعة او الزواج الموقت . وقد انتشرت هـذه الشيعة في ايران ، ولا سيما بين الديلم ، وبين العرب من سكان العراق وسوريا الشمالية ، وتغلغلوا على نطاق واسع بين طبقة التجار ، الا انهم بقوا شبه مجهولين في الغرب ، وفي مصر . صحيح ان بعض زعمائهم الدينيين قاموا احياناً بثورات لاهبة ، دون ان يفعلوا ذلـك باسم تعاليمهم الدينية ، ودون ان يحرروا وراءهم اتباعهم . وهكذا بقي اثرهم السياسي ضعيفاً .

ويختلف عن الشيعة الامامية ، الشيعة الاسماعيلية التي يقف الائمة عندهم عند الامام السابع اسماعيل بن الصادق ، وهو شقيق الامام موسى الكاظم ، كما هو حسب ترتيب الائمة عند الامامية . فالاسماعيلية التي حافظت ، ولو ظاهرياً ، على العقيدة الاسلامية ، اخذت الكثير من تعاليم الافلاطونية الحديثة والقول بالاشراق وهي مبادىء شاعت في بلدان الشرق الادنى ، قبيـل الاسلام بقليل . فهي تشرح آي القرآن على اساس من التورية والرمزية ، بحيث ان الاديان لديها كلها سواء تقريباً . فالانتقال من الله الى الانسان ، انما يتم على سبعة ادوار او مراحل : اولها الله ، ثم العقل الكلي الذي تجسد تباعاً في سبعة أنبياء ، سادسهم محمـد ، وسابعهم ابن الامام اسماعيل الذي توارى ، حوالي عام ٨٧٠ . وبين كل نبي ونبي ، سبعة أئمة ، اولهم بعد محمد ، علي ابن ابي طالب ، اما الفاطميون فهم ائمة النبي السابع . وهم يعتقدون ان الامام معصوم ، وهو ملك النفوس كما انه سيد الناس اجمعين . اما الخلاص والجحيم والجنة ، فأشياء لا تعني شيئاً كبيراً عند الاسماعيلية ، بعـد ان سلموا بتناسخ الارواح او التقمص . وهكذا ابتعدوا عن جادة الاسلام .

يظهر مما تقدم ، ان عدداً قليلاً جداً من الاتباع والمريدين استطاع فهم هـذه التعاليم واستمراءها . فقد كان على المريد ان يمر بسلسلة من التعاليم السرية ، لا يبلغ منها القمة إلا فريق مختار . وتعاليمها تبقى سرية ، ويقوم بالدعوة لهـا جيش من المبشرين الداعي (جمع دعاة) يجوبون العالم لنشر الدعوة ، ودعوة الناس للاستعداد والتهيؤ ، بعد ان اقترب موعد مجيء المهدي ودنت نهاية العالم . وقد انتشرت تعاليم الاسماعيلية ، بين الطبقات الشعبية ، سواء في المدن او الارياف . وتألفت منها جمعيات مهنية ونقابات على اساس من مبادئها التي كانت محوراً لتنظيماتها . وفي الهيئات السرية التي نشأت فيها ، جماعة « اخوان الصفا » التي نعرف الكثير من تنظيماتها عن طريق « رسائلها » . وهذه الرسائل عبارة عن موسوعة للعلوم والفنون في ذلـك العصر . ووجدت الاسماعيلية موطناً لها في الهند وبعض انحاء فارس وأفغانستان ، وفي زنجبار وافريقيا الشرقية .

ومن الحركات الهدامة ، في الاسلام ، حركة القرامطة ، وهي نحلة قامت على اساس مـن المطالب الاجتماعية والتعاليم الدينية ، هزّت بما أتته من الحوادث الدامية : الجزيرة العربية ، والشام ، والعراق وايران والهند ، وتركت في اذهان الناس ، ولا سيما المثقفين منهم ، ذكريات مريرة لما جرته على البلاد من ويلات ودمار . وقد امكن كبح جماحها او حصرها في مناطق

ضيقة لا يخشى من شرها . وحوالي عام ٩٠٠ ، اشتعل العراق والتهبت جميع أطرافـــه بثورة لاهبة قامت بها جماعة الفلاحين بعد ان انضم اليهم من نجوا من ثورة الزنج . وبعد جهود طويلة ووقائع مريرة امكن اخماد الفتنة وانقاذ الخلافة العباسية والحؤول دون سقوط بغداد .

ولم تستطع السلطة ان تقضي على اعشاش الثائرين المتحصنين في المستنقعات او في المنـــاطق الصحراوية ، الا بشق الانفس ، ولا ان تخفف من روع الطبقة الحاكمة الا بعد طول عناء ، كما انها عجزت عن منع القرامطة من اقامة حكومة مستقلة في جزيرة البحرين في الخليـج الفارسي هي اشبه ما تكون بجمهورية شعبية جماعية ، معادية للطبقة الارستوقراطية ، مع انها شجعت اعمال الرق ، فزرعت الخوف في البـــلاد وروعت مكة بالذات ، بعد ان استولت على الحجر الاسود الذي يتبرك الحجاج بلمسه ، والحقوا اضطراباً في الحركة التجارية بين البصرة وسيراف . وقـــد الحقت الحروب التي دارت ، اذ ذاك ، الخراب والدمار في طول البلاد وعرضهـــا ، وانهكت الدولة العباسية ، فالقت بها بين ايدي العسكريين ، وهي ضربة لم تستطع ان تنهض منها . وبعد القضـــاء على حركة القرامطة ظهرت الاسماعيلية بشكل سياسي ابرز ، فراحت تؤيد دعوة الفاطميين ومطالبتهم بالاستيلاء على السلطة ، وهم من سلالة علي بن ابي طالب وابنته فاطمة ، وقد كتب للحركة ، هذه المرة ، نجاحاً تاماً .

انقسام العالم الاسلامي

وبدون هذه الاضطرابات التي مزقت الاسلام، كان من الصعاب المحافظة على هذه الامبراطورية الاسلامية المترامية الاطراف . ان كبح الحركات الانتفاضية كانت تذكي المطالب القومية ، وتحد من رغائب الشعوب التي ألفت ان تحكم نفسهـا بنفسها . اما الحل الآخر القائم بارسال حاكم عسكري شديد الشكيمة ، فانما يعني انشاء امارة جديدة مستقلة . وحركة الانقسام السياسي هـذه التي ابتدأت في القرن الثامن ، اخذت تشتد فيما بعد . فبالاضافة الى الدولة الاموية في الاندلس ، ودولة الخوارج في المغرب ــ نشأت عنـــد البربر الحديثي العهـــد بالاسلام ، دولة جديدة ، هي الدولة العلوية ، التي لم تكن من دول الشيعة ــ هي دولة الادارسة التي اسست مدينة فاس وجعلت منها عاصمة امارة مستقلة . ولـكي تكبح الخلافة من شكيمة هذه الحركات ، اولت الامر في افريقيـا الى دولة وراثية هي دولة الاغالبة في تونس ، التي عرفت ان تحافظ على علاقاتها مع الشرق كما حافظت على نفوذ الخلافـة في الغرب .

اما في الولايات الشرقية ، فالوضع كان اكثر اضطراباً منه في الغرب . فاينما القينـا النظر ، رأينـــا الانقسام السياسي ضارباً اطنابه على حساب سلطة الخليفة . فالزيديون يسيطرون على اليمن برمتها ، والقرامطة على البحرين وما اليها ، امـا مصر التي بقيت ، مدة طويلة ، مسرحاً لاضطرابات دامية فلبثت محافظة على ولائها للسلطة الشرعية . وقد استطاع ابن طولون ، وهو قائد تركي اوفدته بغداد لارجاع الأمن الى نصابه ، ان يؤلف في البلاد دولة جديدة : هي الدولة

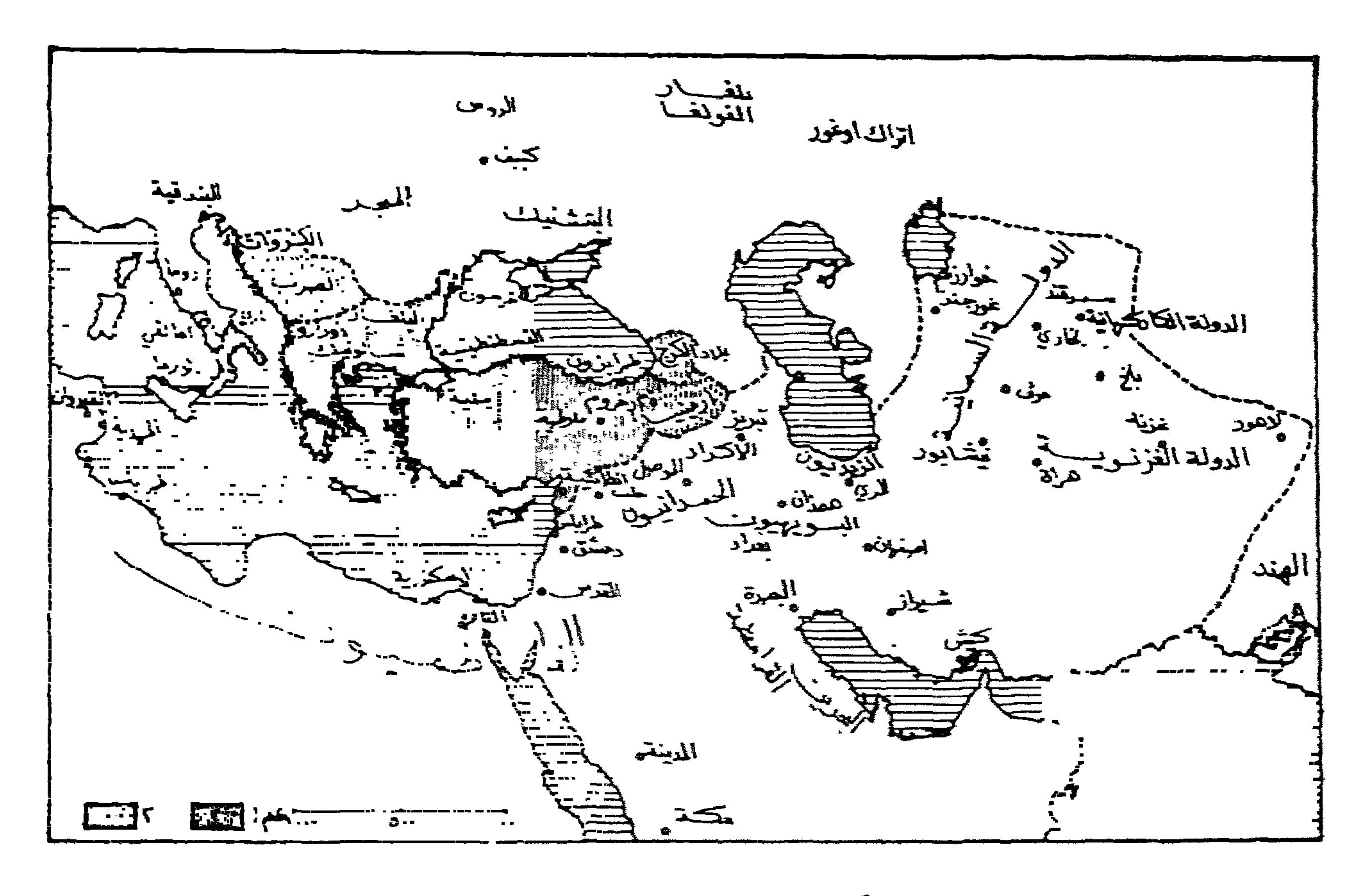
الطولونية ، زالت من الوجود ، في اواخر القرن التاسع امـــام طلوع الدولة الاخشيدية ، التي عرفت ان تحافظ على علاقتها ببغداد . وفي القرن العاشر ، سقطت سوريا الشمالية وولاية الموصل تحت سيطرت الدولة الحمدانية ، حيث استطاع سيف الدولة ان يكسب مجداً مؤثلاً ، بما حقق من انتصارات في حروبه ضد البيزنطيين ، وبرعايته للادب والادباء .

اما ايران ، فقد شهدت ، خلال القرن العاشر ، قيام عدة دول كردية تقاسمت البـلاد من بحر قزوين حتى شطآن دجلة . فقـــد قام في قلب البلاد ، بين الديلم الحديثي المهد بالاسلام ، دولة قوية ، تولى الامر فيها البويهيون ، من الشيعة الامامية . اما في شرقي ايران ، فقـد تألفت في خراسان وبلاد الصغد ، دولة اخرى هي الدولة السامانية التي انحدرت من آل الضحـاك ، احدى الاسر الوطنية التي امنت للبلاد ازدهاراً اقتصادياً واشعاعاً ثقافياً عالياً . وهكذا قامت في جميع ارجاء ايران ، دويلات وطنية ، تولى الامر فيها امراء من اهل البلاد . وهـذه الفترة القصيرة التي عرفت في التاريخ : « بالفترة الايرانية » . فان لم تستطع ان تحل شيئاً من هـــذه المشكلات العارضة فقد ارضت المطامع الوطنية . وبعد فترة وجيزة ، اي حوالي عام ١٠٠٠ ، سقطت الدولة السامانية فريسة لهجوم استهدفته له من الخارج ، ومن الجيش في الداخل ، كلاهما على يد عناصر تركية . وقد تقاسم الغزاة الاسلاب بالسوية : فتمكن العصاة من قادة الجيش من انشاء دولة ضمت الجانب الاكبر من افغانستان ، عاصمتهـا غزنة ، اشتهرت بالمآتي العظيمة التي قام بها محمود الغزنوي . ولم تلبث ايران بعد ذلك بقليل ، ان وقعت فريسة لغزاة جـــدد من الاتراك .

وقبل هذا التاريخ بكثير ، كان الانحطاط بلغ من الخلافة العباسية ، كل مبلغ . فقد وقعت بغداد نفسها فريسة لفتن متعددة قام بهـــا العيّارون ، ورجال الجيش . وعبثاً حاول بعض الوزراء ، بالرغم من المنافسات الشديدة التي قامت فيا بينهم ، منهم الوزير علي بن عيسى ، وابن الفرات ، ارجاع الامن الى نصابه وانقاذ ما يمكن انقاذه من الادارة العـــامة ، ولا سيا ادارة بيت المـــال . وتعاقب سراعاً على السلطة اذ ذاك ، باسم الخليفة عدد من الامراء عرفوا بـ : « امير الامراء » ما كاد يستتب لهم الامر ، حتى يتهادى بين ايديهم الى الحضيض ليقع بيـــد أقوى . وفي سنة ٩٤٥ ، سقطت بغداد بين ايدي سلاطين الدولة البويهية ، كما وقع الخلفـــاء العباسيون تحت سيطرة الديلم الامامية ، ولمـــا كان السواد الاعظم من المسلمين بقي معتصماً بالشرعية ، لم يعمد الفاتحون الى إلغاء الخلافة ، بل حافظوا على ما لها من سلطة روحيـــة كانوا يتسلحون بها لتبرير استئثارهم بالسلطة في نظر السنيين .

الفاطميون في مصر والايوبيون في الاندلس

اما فتح الفاطميين لمصر فقد أخفى في ثناياه ، خطراً أكبر هدد الخلافـــة العباسية . وبفضل داعيتهم ابي عبدالله ، الذي لاقى عند الفاطميين المصير السيء الذي لاقاه ابو مسلم الخراساني عند العباسيين ، راح احد الائمة الفاطميين هو عُبيد الله الفاطمي ، يستغل الخلافات الداخلية التي نشبت بين البربر



الشكل رقم ٧ أ - الشرق الأدنى حوالي عام [illegible]

١ - الامبراطورية البيزنطية ٢ - الدول التابعة

وتذمراتهم ضد الاغالبة ، يستولي على الامر ، في افريقيا ، في مطلع القرن العاشر ، كما استولى على صقلية والمقاطعات التابعة لامراء آل رستم . وفي سنة ٩٦٩ ، استطاع احد خلفائه هو المعز لدين الله ان يستولي على مصر ، وأسس قائدهم جوهر الصقلي ، على مقربة من الفسطاط ، مدينة جديدة هي القاهرة ، وتركوا امر تدبير افريقيا لأمراء استقلوا بهـا تحت سلطة الفاطميين . ولم يلبث ان اصبحت الاسماعيلية في مصر العقيدة الرسمية في البلاد ، مع ان الشعب لم يقبل عليهـا اقبالاً واسعاً ، كما ان الذميين فيها حققوا لهم بعض النفوذ السياسي . إلا ان قيام خلافة فاطمية في القاهرة ، مناهضة للخلافة العباسية في بغداد ، كرّس فصل مصر عن القارة الآسيوية . وقد نشطت الدعوة الاسماعيلية في مصر ، ترعاها السلطات الحاكمة ، تشد من ازرها جامعة الازهر، وامتدت هذه الدعوة الى الخارج ، مما اقلق اهل السنة .

ان قيام دولة الفاطميين ، عند مداخل آسيا من الغرب ، لم يهدّىء من هيجـان العناصر المتطرفة في الاسلام . فعدم تحقيقها أي اصلاح اجتماعي في البلاد ، أفقدها عطف القرامطة . اما الاسماعيلية الذين حلموا دوماً بقيام دولة نصف إلهية ، واعتقدوا دوماً بقرب انتهاء العالم ، فقد شقّ عليهم كثيراً ما شهدوا من الضعف البشري في الخلفاء والحكام . فالخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي اعتلى عرش الدولة حوالي سنة ألف ، والذي عُرِف بشذوذه ، تبدّى للناس ، لهذه الاعتبارات بالذات ، تجسيماً للألوهية . وقد لقيت دعوته قبولاً عند بعض سكان سوريا ممن عرِفوا فيما بعد بالدروز نسبة للداعية الذي قام بالدعوة للحاكم في اوساطهم . وفي الوقت ذاتـه تقريباً ظهرت في شمالي سوريا فرقة النصيرية او العلوية،وهي فرقة قد يكون بعض أتباعها من بقايا الاقوام الوثنيين الذين اخذوا بشيء من المسيحية والاسلام ومبادىء الشيعة المتطرفة. فقد رأوا في علي نفسه،الله بالذات،فتمثلوه واحتفلوا بذكراه وفقاً الأساطير الميثولوجية القديمة.اما الخليفة الحاكم فقد راح يضطهد المسيحيين والذميين من رعاياه ، نزولاً منه عند انتفاضة شعبية، اذ ساء الجماهير ونغّصهم كثيراً ما رأوا من حسن معاملة الخلفاء الفاطميين الذين تقدموه للذميين ، وأمر بهدم كنيسة القيامة في القدس الشريف. إلا ان هذه النزوة لم يطل أمدها ، وبقيت برقاً خلّباً . وقد كان لهذه الحركة تأثير كبير على الحجاج المسيحيين الى القدس ، وبقي صداها يـتردد بعيداً في الاوساط المسيحية في الغرب، بعد ذلك بقرن، فاتخذ منها بعضهم حجة لهم عندما قاموا يدعون للحروب الصليبية .

ولم يستطع الفاطميون ، كالعباسيين منافسيهم في الشرق ، ان يؤمنوا الاستقرار السياسي في البلاد . فقد وجدوا انفسهم أسرى جيوشهم من البربر والزنج اضافوا اليها ، تأميناً للتوازن ، وحدات من الاتراك والاكراد والارمن ، بينما راحت افريقيا الشمالية تحاول الانفصال عنهم بعد ان زهدوا بهـا وتناسوا امرها . ولكي يقتصّوا لأنفسهم من الموقف العدائي الذي وقفته ضدهم الدولة الزيرية في تونس ، اطلقوا يد القبائل الهلالية التي كانت تزرع الخوف والفزع في جنبـات مصر ووجهوها ، في اواسط القرن الحادي عشر ، ضد افريقيا ، فجرّت عليها الخراب والدمار،

وأنزلت بالبلاد ضربة قاصمة ونكبة نكباء لم تعرف البلاد ما يماثلها بين الغزوات التي تألبت عليها منذ القديم ، وبدّلت من معالمها الزراعية وخلخلت نظامها الاقتصادي . فقد جعل الهلاليون من البلاد قفراً يباباً ترتادها الركبان والقوافل ، وانتفت منها معالم الزرع والضرع ، وتهدمت شبكة الاقنية التي كانت تؤمن سقاية الارض . ولم يستطع البربر ان يحولوا دون تقدم الهلاليين نحو الغرب . فقد أنزلت غزواتهم الخراب في البلاد ، وقد كانوا السبب الاول في هذا الخراب الاقتصادي الذي لا يزال يعاني منهم المغرب الامرين .

ولم يلبث الفاطميون ان تحولوا عن عقيدتهم الاسماعيلية . فقد كان من جراء حرمان الامير نزار ، بكر الخليفة الفاطمي المستنصر ، من حق الخلافة ، في اواخر القرن الحادي عشر ، ان تحزّب له فريق من الايرانيين ونهضوا بأمره، فكان ذلك اول انفصال وقطيعة للفاطميين . وقد عقبه انفصال ثان ، في مطلع القرن الثاني عشر ، عند اختفاء ابن الخليفة الآمر ، الذي ولد بعد موت أبيه وقد رأت فيه اليمن، الوريث الشرعي للخلافة . وقامت بين الفاطميين فتن وحروب داخلية أفقدتهم ما بقي لهم من شأن ومنزلة في النفوس ، كما زادت من نقمة السنة عليهم . ومنذ وزيرهم بدر الجمالي ، وهو ارمني اعتنق الاسلام (اواخر القرن الحادي عشر) الذي قام باصلاح شامل في البلاد ، صار امر الدولة الى عدد من الوزراء معظمهم من قادة الجيش. فاذا ما استطاع الفاطميون البقاء في الحكم الى عام ١١٧١ ، مع ما كانوا عليه من ضعف ووهن، فالفضل فيه يعود لجيرانهم الضعفاء ، من جهة ؛ ومن جهة اخرى ، لهذه الدولة العازلة التي قامت في الاراضي المقدسة ، مع الصليبيين ، وفصلت بين مصر وبلدان آسيا .

اما في الاندلس ، فقد راح الامير عبد الرحمن الثالث ، في مطلع القرن العاشر ، يعلن نفسه خليفة مستقلاً ويقطع بذلك كل صلة له بالعباسيين والفاطميين على السواء ، جاعلاً من اسبانيا الاسلامية – الاندلس – ومن سكانها الوطنيين الذين اعتنقوا الاسلام ، منارة العالم الاسلامي اذ ذاك . فالممالك المسيحية التي قامت في الشمال الغربي من اسبانيا والتي عرفت ان تحافظ على سيادتها واستقلالها بالرغم من هجمات المسلمين ، والتأثير البالغ الذي كان للاندلس على المغرب الاقصى ، ولا سيما لعاصمتها الجميلة قرطبة ، أمّنت للاندلس اشعاعاً ادبياً وفكرياً عظيماً ساهمت فيه جميع عناصر البلاد على اختلاف عقائدها ونحلها . وقد اقبل مسيحيو البلاد على مناصرة الحكم والاسهام بهذا الاشعاع الفكري والروحي الذي عرفته الاندلس اذ ذاك ، مع حرصهم الشديد على استمرار علاقتهم مع اخوانهم في الدين في الشمال ، وهو وضع لا نرى له مثيلاً ، ولو على نطاق اضيق ، إلا عند الارمن . وقد لعب اليهود دوراً بارزاً اذ ذاك وازدهرت اعمالهم وبرز نفوذهم بحيث ان احدهم المدعو خسداي بن شبروط، وزر للخليفة عبد الرحمن، كما ان احدهم نال الوزارة بعد ذلك بقرن، وتمتع بنفوذ عريض في احدى دول الطوائف في الاندلس. فلا عجب ان يقوم بين العرب والبربر ، وسكان البلاد الاصليين ، والارقاء – ومعظمهم من الصقالبة – اختلافات واصطدامات لم يكن بد منها ، إلا انها لم تصل يوماً لما وصلت اليه هذه الاصطدامات من عنف في

الشرق ، كما انها لم تفض قط الى وقوف العسكريين وسكان البلاد الاصليين ، وجهاً لوجه . واذا كان استطاع المذهب المالكي ان يسيطر في كل من الاندلس والمغرب ، فقد تمّ له ذلك دون ان يترك أية ردّة في البلاد او بسبب أي ضغط او اكراه . فقد كانت الاندلس ، حتى القرن الحادي عشر ، مثالاً للتساهل . ومع ذلك فلم تستطع ان تحول دون وصول بعض الشخصيات المدنية والعسكرية الى الحكم واستئثارهم بالسلطة ، على شاكلة سَدَنة القصر عند ملوك الفرنج . وقد اشتهر احدهم حوالي سنة ألف، هو ابن ابي امير المنصور — المعروف باسم « المنصور » في الملاحم المسماة *Chansons de gestes* . غير ان اولاده لم يستطيعوا الحد من العناصر المتنافسة في الداخل : من بربر وصقالبة ، ووطنيين ، الذين ألفوا عدداً من الامارات المستقلة عرفت باسم ملوك الطوائف لعبت احداها، أي مملكة اشبيلية، دوراً بارزاً في الاشعاع الحضاري . وهذا الانقسام والتوزع كان من شأنه ان يهدد الاسلام في الصّميم ، في الاندلس ، في الوقت الذي راحت فيه المسيحية في الغرب تستفيق من سباتها وتستجمع من قواها .

بعد هذه النظرة الدقيقة في التطور الذي خضع له الاسلام ، لم يعد من الدقة بشيء التحدث او التغني بوحدة العالم الاسلامي . ومع ذلك ، فبالرغم من هذا التشتت السياسي ، والتباين المتزايد الذي نلاحظه بين العوامل الثقافية والحضارية ، فلا يزال الشعور بالتضامن قوياً بين اقسام هذا العالم . وسيبقى هذا الشعور الميزة التي تطبع العالم الاسلامي بالرغم مما اعتراه من انقسامات سياسية ودينية واجتماعية ، في هذه الالف من السنين التي تعاقبت عليه .

النهضة السياسية في بيزنطية

فتجاه عالم الاسلام الذي اخذ في التفتت ، نرى الامبراطورية البيزنطية ، تقوم في القرن العاشر بحركة اصلاحية تجدد فيها من قوتها ونشاطها ، فلم تعد تعاني ، الا بعد ذلك بزمن طويل ، وعلى نطاق ضيق ، من هذه الانقسامات الدينية التي عانى العالم الاسلامي فيها ما عانى . فالحياة الرهبانية المشتركة تبلغ الذروة ممثلة باديار جبل آثوس التي تؤلف فيما بينها ، تحالفاً دولياً من هؤلاء الرهبان الذين ينتمون الى عدة بلدان من العالم الارثوذكسي ، أضف الى ذلك وحدة الايمان التي تشد من الوحدة الوطنية ويشتد منها الساعد عن طريق نشر المسيحية الارثوذكسية بين الشعوب الصقلبية ، والدفاع عن امتيازات الكنيسة الارثوذكسية من تدخلات البابوية المستضعفة الجانب . وقد تمثلت الحركتان خير تمثيل في شخص علم من اعلام الكنيسة ، اذ ذاك ، هو فوتيوس . فقد كان من امجاد جامعة القسطنطينية ، رُفع الى الكرسي البطريركي ، عام ٨٥٣ ، في ظروف مشبوهة كانت مدعاة للظنة والجدل ، وراح يقاوم مطالب الكرسي الرسولي الذي لم يعترف بشرطنته بطريركاً على القسطنطينية ، كما راح يغذي حركة ارتداد الصقالبة والبلغار الى الديانة المسيحية ، وهي رسالة نشطت للنهوض بها كل من روما والقسطنطينية ، على السواء . وقد نظر الرأي العام البيزنطي الى البطريرك فوتيوس نظرته الى خير من يمثل المطالب الوطنية ، والى من يعرف ان يحدّ من تدخلات روما ويقف في وجهها . فالفوارق ، مهما كانت طفيفة ، التي قامت بين الكنيسة

الشرقية والكنيسة الغربية ، برزت على حدتها : كاختلاف الطقوس الليتورجية ، اذ ان الكنيسة اللاتينية تستعمل الفطير في الذبيحة الالهية بينما تستعمل الكنيسة الشرقيه الخمير ، واختلاف في بعض الانظمة كقص الشعر عند الرهبان في الكنيسة الشرقية لاي طقس انتسبوا ، وهذه الفروق بين الطبقات الدنيا في الاكليروس واصحاب المراتب العليا منهم الذين كان يؤتى بهم من رهبان الأديار ، والعلاقات بين الكنيسة والدولة ، واللغة المستعملة في الليتورجية والطقوس الكنسية ، وبعض قضايا الايمان بعد ان ادخلت روما على قانون الايمان القول بانبثاق الروح القدس من الآب والابن . والانفصال الذي تمّ على يد البطريرك فوتيوس لم يلبث ان امكن رتقه رسمياً ، دون سد الثغرة او الهوة التي شجرت بين الكنيستين الشقيقتين ، وعندما سنحت ، عام ١٠٥٤ ، امام البطريرك ميخائيل كيرولاريوس فرصة جديدة للانفصال من جديد ، تمت القطيعة نهائياً بينهما ، وهي قطيعة تهيأت ظروفها منذ عهد بعيد .

وفي سنة ٨٦٧ ، صار العرش الامبراطوري ، في شخص الامبراطور باسيل الاول ، الى الاسرة « المقدونية » التي بذلت جهداً طيباً في اصلاح نظم الدولة البيزنطية ومؤسساتها العامة ، وفي توطيد دعائم الادارة وهيبة الدولة في قلوب الاهلين . فالمجموعات الفقهية ، والمؤلفات الوصفية التي ظهرت في هذه الحقبة نتيجة طيبة لهذا الاصلاح ، هي خير المصادر التي تمدنا باوثق المعلومات حول النظم والمؤسسات التي راجت في الامبراطورية البيزنطية ، في هذه الحقبة بالذات . ان اعادة النظر بالقانون اليوستنياني وتكملته باللغة اليونانية ، كل ذلك افضى الى نشر ما يعرف بالقوانين الباسيلية ، التي ظهرت في مطلع القرن العاشر ، في عهد الامبراطور لاون التاسع ، والى هذه المجموعة من القوانين يجب ان نذكر هنا : « كتاب الولاة » الذي جاء ظهوره يكمل سلسلة الكتب الشرعية المعمول بها اذ ذاك . وبعد ذلك بنحو قرن من الزمن ، راح الامبراطور العلامة قسطنطين المتدثر بالارجوان ، يضع عدداً من الرسائل والابحاث تؤلف مجموعة هامة من الوثائق والمصادر الاولى ، تصف لنا العادات والاحتفالات الرسمية التي كانت تجري في البلاط الامبراطوري ، كما تصف بالتفصيل ، الادارة العامة في الامبراطورية ، والعلاقات التي قامت بينها وبين البلدان الاجنبية الاخرى . كذلك ظهر في هذه الفترة بالذات ، كتاب « *Taktikon* » وهو بحث يدور حول تنظيمات الجيش ، تم وضعه في نطاق حاشية الامبراطور العسكري نيقفوروس فوكاس . ومع ان هذه التشريعات ، والقوانين والتنظيمات التي وضعت ، اذ ذاك ، لم تأتِ اكلها كاملاً ولم تتبلور عملياً عن اعمال ووقائع ذات شأن ، فليس في مكنة احد ان ينتقص من قيمة هذه المحاولة الجبارة او من نتائجها الطيبة ، ولو جاءت منقوصة ، غير مكتملة .

وهكذا نرى الامبراطورية البيزنطية : أكفأ عدةً ، وأمضى سلاحاً ، لاستئناف الهجوم ضد العالم الاسلامي المتفكك الاوصال. فقد اقتضى لها قرناً (٨٥٠ — ٩٥٠) لبسط سيطرتها وتأمين سيادتها على قلب آسيا الصغرى ، وهي منطقة جديدة لها ، بعد ان تخلصت من خطر البولسيين

وشوكتهم ، فقتلت منهم من قتلت ، وأجلت منهم الى مقاطعة تراقيا ، من أجلت وأبعدت .
وقد استعادت على الساحل الدائري للبحر الابيض المتوسط ، ما فقدته من املاكها السابقة في ايطاليا الجنوبية باستثناء صقلية ، وحررت جزيرة كريت من سيطرة العرب عليها . وقامت على حدودها الشرقية بسلسلة من الحملات والغزوات ، تلقى ضرباتها وهجومها الامير سيف الدولة الحمداني وحده تقريباً ، واستولت على المقاطعات الواقعة الى ما وراء جبال الطوروس ، كاقليم انطاكية في سوريا الشمالية والحصون الواقعة على الفرات كملاطية والرها . وبمساعدة الارمن الذين اشتهر عدد كبير منهم على رأس الامبراطورية امثال يوحنا تزيميسيس الذي خلف نيقوفوروس على كرسي الملك ، حل النفوذ المسيحي في ارمينيا محل النفوذ الاسلامي . وقد جمعت وحدة المصالح والعداء المشترك ضد اسياد العراق ، بين البيزنطيين والفاطميين ، بالرغم من الموقف العدائي الذي وقفه الحاكم بأمر الله ، من المسيحيين ، وقاربت الاهداف فيما بينهم فأتاح ذلك للامبراطور ان يأخذ تحت حمايته المسيحيين، ولا سيما الملكيين بينهم في الاراضي المقدسة. قلما رأينا النفوذ البيزنطي يبلغ ، بعد الفتح العربي ما بلغه من نفوذ في هذا العهد .

وبفضل الوهن الذي نزل بالعالم الاسلامي ، والتفكك الذي آل اليه ، استطاعت ارمينيا ان تسترجع استقلالها السياسي . فهذه البلاد التي لم تنسجم يوماً مع النظام الاداري الاسلامي ولم تأتلف معه ، انقسمت بالرغم مما قام في اطرافها من بعض الحاميات الاسلامية، الى عدة امارات مسيحية مستقلة ، حيث تولت مقاليد الحكم فيها والتوجيه السياسي ، ارستوقراطية عسكرية وكنيسة عمرت بالحياة النسكية والرهبانية ، يأتمر بتوجيهاتها ، شعب يعتاش من اعمال الفلاحة والزراعة ، مشدود كغيره من طبقة الفلاحين في اماكن اخرى ، أكثر فأكثر ، الى الارض ، وبينهم تجمعات قوية من سكان المدن ، من محترفي المهن والحرف . كل هذه الامارات اعترفت على انساب متفاوتة ، برئاسة « ملك الملوك » من السلالة البغراتية التي كانت عاصمتها مدينة آني الواقعة عند منتصف نهر أراكس، وقامت الى الغرب، وحدات ارمنية ، في الاراضي البيزنطية، كما قام غيرها، من جهة الشرق في امارات ودول اسلامية. وقد جاشت هذه الوحدات السياسية، على اختلافها ، بروح وطنية عارمة ، فراحت تتجاوب مع كل معضلة وتتفاعل بكل جدل طارىء ، وتتوزع احزاباً تميل ، هذه مع النبلاء المتنافسين ، وتلك مع اتباع الكنيسة اليونانية ، لقد رأى الامبراطور باسيل الثاني ، حوالي السنة الألف ، في هذه المناسبة ، فرصة سانحة لبسط سيطرته على بعض هذه الامارات الارمنية ، كما اتاح لخلفائه ، عندما أطل عليهم الخطر التركي بعد ذلك بنصف قرن ، بسط سيطرتهم على الامارات الاخرى . وقد راح عدد كبير من الارمن ممن انقطعوا لاعمال الفلاحة والزراعة وتعمير الارض الموات ، ولبعض نبلائهم ممن اقطعتهم بيزنطية ، بعض الاراضي ، ينزحون الى اواسط آسيا الصغرى ، بعد ان افقرتها الحروب المتتابعة ، من سكانها ، كما راح غيرهم يطلب الرزق لهم في ارض مصر . ومنذ ذلك الحين ، لم تعرف ارمينيا في تاريخها المديد قيام دولة موحدة في اراضيها ، باستثناء امارة صغيرة قامت في كيليكيا ، سيأتي الحديث عنها فيما بعد .

فامام هذه الانتصارات التي حققتها بيزنطية ، استطاعت ان تواجه معاً الصقالبة والبلغار في البلقان ، بشكل عاد على الامبراطورية بنجاح اكبر مما عادت عليها به حملاتها المتكررة ضد الولايات الشرقية التي افاد منها كبار الاقطاعيين من الرجال العسكريين ، في آسيا الصغرى . فالتوسع الديني ، والديبلوماسية البيزنطية التي عرفت ان تقيم الشعوب بعضاً ضد بعض ، والانتصارات الحربية التي حققتها جيوشها ، كل ذلك ساعد بالتضافر والتضامن ، على تحقيق مثل هذه النهضة ، التي بفضلها عاد النفوذ البيزنطي الى اقطار مرت بتطورات جذرية منذ الغزوات الصقلبية الكبرى .

البلدان الصقلبية

بين القرن التاسع والعاشر اخذت معلوماتنا حول البلدان البلقانية تزداد اكثر فاكثر ، وضوحاً وتوثيقاً . فاينا اجلنا النظر ، رأينا الاقوام الصقلبية تتكون وتنشىء لها امارات مستقلة ، فيتفاعل القائمون منهم في الغرب ، امثال الكروات والسلوفين بنفوذ الكارولنجيين ، بعد ان دخلوا برهة ، في وحدة الامبراطورية التي شكلوها . اما الذين قاموا منهم في الوسط او في الشرق ، كالصرب والهرسك على الاخص ، فقد ساروا في تطورهم الصاعد ، على نهج مماثل . فالبلغار وحدهم ، بين هذه الشعوب ، يتمتعون بنظم سياسية نامية ، يبز ما عرف من امثاله عند الشعوب المجاورة . فمنذ منتصف القرن الثامن ، حل محل المعاهدة التي عقدت بين بيزنطية والمملكة التي انشأوها الى الجنوب من الدانوب الاسفل ، سلسلة من الحروب ، لم يكن بد منها ، عادت على « القيصر » كروم ، بعد عام ٨٠٠ بقليل ، بنصر مبين ، استطاع معه البلغار ان يوسعوا شيئاً فشيئاً ، من نفوذهم وسيطرتهم ، على حوض نهر مارتزا الاعلى ، ثم وسعوا من نفوذهم نحو الغرب والجنوب الغربي ، على الاقوام الصقلبية المستوطنة في حوضي نهر المورافا والفردار ، اما في الشمال الغربي ، فقد اصطدم نفوذهم بغزوة المجر . وحوالي سنة ٩٠٠ ، نرى القيصر سمعان يسيطر على امبراطورية فعلية امتدت اطرافها من البحر الاسود شرقاً الى البحر الادرياتيكي غرباً ، حيث العنصر البلغاري اخذ يذوب ، تدريجياً ، بين الاكثرية الصقلبية : فالعنصران يعتبران مترادفين ، واللغة السلافية اخذت تدريجياً تحل محل اللهجة البلغارية التركية الاصل .

لا نعرف شيئاً يذكر عن صقالبة اوروبا الوسطى من قبائل الصوراب ، والبولاب والبوميرانيين والبولونيين القاطنين ما وراء نهر الإلب ونهر السال ، ممن دخلوا في حروب كثيرة مع الكارولنجيين واباطرة الاسرة الاوتونية . ونملك معلومات اوثق حول المملكة القوية التي انشأها ، في اواسط القرن التاسع ، امراء مورافيا فضمت ، فيما ضمت من اقوام وشعوب ، التشيك والسلوفاك. وليس من شك قط ان قامت بين الروس، وعلى الاراضي الروسية، نزعات مماثلة وامارات متشابهة . وسيشهد تاريخ هذه الاقوام ، هنا ايضاً ، تطورات جذرية ، اثر تدخل عنصر اجنبي جديد ، يتمثل خير تمثيل في هؤلاء الاسوجيين ، اخوة « النورمنديين » في اوروبا الغربية ، الذين كانوا يجوبون على ظهر سفنهم ، خلال الاراضي الروسية ، متنقلين عبر

الانهر الكبيرة ، حتى بلغوا مشارف بحر قزوين والبحر الاسود . وقد صرّفوا نشاطهم بين التجارة والسلب ، كما تشهد على ذلك النقود التي عُثِر عليها في مناطق بحر البلطيق ، واسسوا خلال القرن التاسع مواطن مستقرة على طول الطريق التجارية الكبرى الممتدة من البلطيق الى البحر الاسود مروراً بمدينة نوفغورود وكييف ، وبسطوا منها سيطرتهم على الصقالبة . وحوالي عام ٨٥٠ ، قام زعيمهم روريك ، وهو شخصية تحيط بها كثير من الاساطير ، بتوطيد هذه المناطق التي تمر بها هذه الطريق السلطانية ، ووضعها تحت سلطته . وليس ما يؤكد قط ان لفظة « روس » ، أطلقت ، اول ما أطلقت على الاسوجيين قبل ان يعم اطلاقها على هـــذه الطائفة من الصقالبة ، كذلك ليس ما يؤيد قط ان هذه الكلمة أطلقت ، قبل ان تطلق عليهم ، على فريق من الصقالبة خضعوا لسيطرتهم . وقد اصطلح البيزنطيون ، بعد ان استعملوا العديد منهم مرتزقة في جيوشهم ، على تسميتهم بشعوب *Varègues* ، مـــع انهم لم يجهلوا اسم : « روس » الذي عرفوا به ايضاً . ومهما يكن من الامر ، فليس من يزعم بعد ، ان مملكة كييف لم تقم لها علاقات مـــع الصقالبة ، ولا تلقت شيئاً من اثر الاسوجيين.. فتاريخ هـــذه المملكة هو بالفعل حبيكة من هذه العوامل والمؤثرات ، ونتيجة منطقية لصقلبتها ولاخذهـــا بسرعة ، بالعوامل والعناصر السلافية . وهذه المملكة التي حدهـــا من الشرق ، بصورة عامة مملكة البلغار الواقعة على نهر الفولغا ، ومن الجنوب الشرقي مملكة الخزر ، ومن الجنوب مملكة البلغار على نهر الدانوب ، كما تاخمت بعد ذلك بكثير قبائل *Petchenègues* والبحر الاسود ، ومن الغرب امارة بولونيا الناشئة التي كانت دولة قوية حتى منتصف القرن الحادي عشر ، تولى مقدّراتهـــا ملوك خلّدت اسماءهم الآداب الشعبية ، منهم أوليغ وإيغور ، وأولغا وفلادمير وياروسلاف . والثابت ان احدى اميرات كييف تزوجت بهنري الاول من آل كابت .

وقد استهدف صقالبة الدانوب لضغط قوي من قبـــل المجر ، وهم قوم من العِرْق الفيني ، اقتبس الكثير من الطباع والاخلاق التركية . وقـــد زحزحهم عن مناطق الأورال حيث كانوا يقيمون ، قبائل البتشينيك ، فاستقرّوا ، بعد غيرهم من الغزاة الذين سبقوهم، في سهول بانونيا ، وهكذا سيطروا على من فيها من صقالبة ، فصلوا بصورة نهائية ، بين صقالبة الشمال وصقالبة الجنوب . وقُيِّضَ « للمجر ان يسيروا في تطورهم على نهج لم يعرف شيئاً منه ، لا شعوب الهونز ولا قبائل الآفار . واستطاع المجر ان يصمدوا في وجه الشعوب التي جاورتهم ، وان يتخلّوا عن بداوتهم ، ويتحضروا ويستقروا في مواطنهم ،ويؤلفوا مجتمعاً تميز بالملكية الجماعية التي سارت جنباً الى جنب والملكية الفردية وكادت تحل محلها ، وهو مجتمع اخذ في عهد سلالة ارباد يتماثل مع المجتمعات المجاورة له .

وبقي المجتمع السلافي سواءً في تركيبه تقريباً ، لدى جميع الدول الصقلبية او ذات الاكثرية الصقلبية ، عماده الاكبر وركيزته الكبرى القرية أو الاسرة الكبيرة التي عُرفت في البلقان باسم زدروغا ، كما ان زعماءهم أو امراءهم — وهم حكام الأقضية على الغالب — وقد عرفوا في البلقان

باسم : جوبان ، احتفظوا لانفسهم بحق توزيع الاقطان الخاصة ، على انصارهم وازلامهم الذين اطلقوا عليهم اسم *Boiars* ، يعهدون بفلاحتها وزراعتها لعدد كبير من الارقاء ، من اسرى الحروب . وقد ألف الرق السلعة الكبرى في هذه الحركة التجارية التي اخذت بوادرهـا تظهر عندهم ، في هذه المبادلات التي اخـذوا يقيمونها مع مدينتي تسالونيكي والقسطنطينية . ومن الاصناف التي كانوا يقايضون بها او يبيعونها ، ما كان يقع في ايديهم من حصائل الصيد والقنص وجني العسل ، وكان كبار القوم منهم يستوردون المنسوجات الجميلة والكماليات التي تؤمنهـا الصناعة في بيزنطية . اما في روسيا ، فالآفاق اخذت تتسع وتنبسط امـام الحركة التجارية في مملكة كييف ، فربطت بين البحر البلطيقي والبحر الاسود ، وكانت ضفتي تجارة بلغار الفولغا التي اتجهت بالاحرى نحو آسيا الوسطى . ولا شك قط في ان المحاصيل الريفية كانت اساس الاستهلاك المحلي ، وعليها قامت بالاكثر الحركة الاقتصادية في البلاد ، وقد اخذت المدن الكبرى فيها تنمو وتتطور بسرعة بعد ان استحالت اسواقاً تجارية نشيطة ، ومراكز سياسية وعسكرية لها شأنها ، كمدينة كييف مثلاً ، ونوفغورود . وقد كان لملوكهم حاشية تشبه الى حد بعيد ، مـا كان منها لملوك الجرمان ، إبان غزواتهم على الغرب . من الصعب جداً تحديد السرعة والاساليب التي استحال معها اعضاء هذه الحاشية الى ملاكين اسياد ، كما بدوا لنا منـذ القرن الثاني عشر ، وبالتالي يستحيل علينا ان نعرف ، ما هي نسبة الفلاحين *Smerdi* الذين كانوا ، من حيث المبدأ ، احراراً ، انما اخذوا يتحولون تدريجياً الى توابـع ، من جراء الديون التي ارهقتهم ، او لاسباب اخرى . وهذا التطور تمّ على اقـدار متفاوتة ، حسبما يكون القوم في وسط المملكة ، او في المقاطعات المكسوة بالاحراج الواقعة عند اطراف البلاد حيث السكان قليلون ، وحيث الناس يتسكعون في فقر مدقع ، في عزلة تامة من كل توجيه او مراقبة ، في جوار بعض الاقوام الفينية الممعنة في خشونة الطباع والهمجية .

التبشير بالمسيحية بين الصقالبة

اخذت المسيحية تتغلغل بين اقوام الصقالبة وتنتشر في اوساطهم الشعبية ، مغيرة نظمهم السياسية ، والاجتماعية . فقـد رأت بيزنطية في حمل الدعوة المسيحية اليهم بسطاً لنفوذها . وقد لقيت هذه الدعوة نجاحاً كبيراً بين الصقالبة المقيمين في مقدونيا واليونان ودلماتيـا . وبفضل علاقات الكرواتيين بالامبراطورية الكارولنجية ، اعتنقوا المسيحية اللاتينية ، بينما تولى تنصير الصرب رهبان يونان ومبشرون على الطقس البيزنطي ، وهو اختلاف لا تزال آثاره باقية ، ظاهرة على اشدها حتى يومنا هذا ، بين العنصرين القوميين اللذين يتألف منهما الشعب اليوغوسلافي . اما الكرازة بين المورافيين والنجاح المظيم الذي اصابته ، فالفضل فيه كل الفضل يعود : « لرسولي الصقالبة » كيرلس وميثوديوس . فمن الانجازات العظيمة التي حققاها في هذا المجال ، تزويد الصقالبة بابجدية خاصة مستوحاة من الابجدية اليونانية ، استجابة منهما للرغائب التي كثيراً ما اعرب عنهـا المبشرون الذين سبقوهما الى هـــذه الدعوة ، كما اعدّا نصوصاً بلغتهم مكتوبة بالحرف الجديد ، ونظّما لهم الطقوس

الليتورجية ، وشكلا كنيسة سلافية ، بحيث يمكن التأكيد هنا بان دخول الدين الجديد الى هذه الشعوب الصقلبية ، وآدابهم القومية ، كل ذلك هو من صنعها . فالمسيحية الشرقية التي نشأت وتطورت بين لغات وثقافات مختلفة ، حاولت دوماً ان تكييف الطقوس الدينية وفرائض العبادة وفقاً للسان كل شعب من هذه الشعوب ، وقد ساعد هذا على تغلغل الروح الدينية بين الطبقات الشعبية ، الا انها اضعفت من جهة ثانية الشعور بالوحدة المسيحية واوهنت الاتصالات بين الثقافات الام الاخرى . فلا عجب ان تكون روما نظرت الى عمل كيرلس وميثوديوس نظرة ملؤها القلق والريبة ، اذ لم يكن عندها الا كنيسة واحدة ، ولغة واحدة هي اللاتينية . كذلك اثار هذا الوضع الهواجس بين الالمان وحرك حفائظهم ، فمارضوا قيام كنيسة سلافية لا تخضع لسلطة الاكليروس الجرماني،وهذا ما يتفق تماماً والقاعدة المرعية في الكنيسة اللاتينية . الا ان دخول المجر مناطق الدانوب جعل الولاء للجرمان امراً لازماً، وهكذا ندّ تاريخ الصقالبة في اوروبا الوسطى عن تاريخ الشرق المسيحي .

فالعمل الكيرلسي عرف حركة انكفاء عند البلغار كما لاقى لديهم مجالاً ارحب واخصب ، اذ ان امراءهم لم يلبثوا ان وقعوا تحت تأثير المدنيات المسيحية التي اتصلوا عن كثب بقواعدها الكبرى ، كما انهم لم تفتهم المنافع التي يجنونها من هذه النظريات السياسية التي طلعت بها هذه المدنيات . الا انهم كان عليهم ان يحسبوا حساباً لمارضة كبار القوم وعظمائهم الذين كانوا يرون في المسيحية نظاماً سياسياً مليئاً بالخطر ، وشكلا يتلبسه التدخل الاجنبي في البلاد . ولذا راح القيصر بوريس (اواسط القرن التاسع) يتشدد في إنشاء كنيسة قومية وطنيــة في بلاده . فالمساومات التي دارت سوقها اذ ذاك ، كانت ولا شك ، من هذه الاسباب التي ادت الى الرقيمة بين القسطنطينية وروما والى الانفصال الذي تم في عهد البطريرك فوتيوس . كل هذا حدا بالكنيسة البلغارية المستقلة للسير في الاتجاه الذي رسمته لها القسطنطينية ، والبقاء في إطار الكنيسة اليونانيــة ، الامر الذي لم يساعد ، بطبيعة الحال ، على تهدئة خواطر ملوك البلغار لمارضته الاهداف والمرامي السياسية التي دغدغت آمالهم .

وبعد ذلك بنحو قرن،كان لا بد للروس من ان يعتنقوا النصرانية بقالبها البيزنطي فقد سبق واعتنق بعض امراء العائلة المالكة المسيحية . وقبل عام الف بقليل ، رأى القيصر فلادمير انشاء كرسي اسقفي في كييف يتربع عليه رئيس اساقفة . وفي الحين نفسه ، اخذ المجر يعتنقون المسيحية ، بعد ان رأوا جميع البلدان المجاورة لهم ، سبقتهم اليها ، فحذوا حذو ملكهم القديس إستفانس ، فأخذوا المسيحيــة بقالبها اللاتيني . ومنذ ذلك الحين اخذوا يسيرون في فلك الغرب ويهتمون ، أكثر فاكثر ، بامور شعوب الكروات والالمان وغيرهم من الاقوام المجاورة للبحر الادرياتيكي .

فانتصار المسيحية وفوزها النهائي في اوروبا الوسطى ، عنى اكثر من انتصار دين جديد وحضارة جديدة . فقد نتج عنه فكرة جديدة للدولة ، ومعنى جديد لتشكيلها ، وهي فكرة

حلا لرؤساء الدول الصقلبية تحقيقها واخراجها الى حيز الوجود ، الا وهي انشاء كنيسة تنعم ، على شاكلة الكنيسة في بيزنطية ، باملاك ووقوفات غنية يرتبط بها فلاحون ومزارعون ، يكون لها اكليروس يؤتى بقسم منه ، أقله في البدء ، من بين الاكليروس اليوناني . فلا عجب قط أن تلاقي مثل هذه النظرة ، حركة مقاومة على الصعيدين الاجتماعي والوطني ، كما لاقت في بلغاريا ، في الحال ، دعاوة ناشطة معادية للمسيحية ، غذتها وبثتها سموم التعاليم التي نشرتها الجوالي البولسية التي كانت أبعدت الى تراقية ، من قبل ، بتوجيه الداعية بوغوميل زعيم هذه البدعة ورسولها .

الشرق الادنى ومتاعبه العديدة

استهدفت الامبراطورية البلغارية ، أكثر دول البلقان تطوراً اذ ذاك وأوفرها أخذاً بأسباب الحضارة ، لهذه الاسباب بالذات ، لخطر مداهم ماحق ، كاد يطيح بها . فبالرغم من الانحطاط الذي صارت اليه ، في الداخل ، فقد بقيت مع ذلك خطراً ماثلاً على البيزنطيين يتهددهم باستمرار ، اذ كانوا ادنى من قاب قوسين من البلغار الذين امتدت سيطرتهم الى مشارف القسطنطينية . وبعد ان حشدت بيزنطية جيوشها قام باسيل الثاني يهاجم الملك البلغاري صموئيل ويصليه حرباً طويلة لا رحمة فيها ولا هوادة ، استطاع معها كثيرون من امارات الصقالبة ، في الغرب ، خضعوا لبلغاريا ، الى ذلك الحين ، التحرر من ربقتها والتنعم باستقلالهم تحت رعاية الامبراطورية البيزنطية ، بينما وقعت بلغاريا نفسها تحت سيطرة بيزنطية واصبحت احدى ولاياتها في الغرب (القرن الحادي عشر) . وكان لا بد من مرور قرنين على الشعب البلغاري يرزح معها تحت نير العبودية ، قبل ان يستعيد حريته من جديد وينعم بشيء من الاستقلال المشروط .

اما مملكة كييف الروسية ، فقد استهدفت ، في هذا الوقت بالذات ، لسلسلة غير منقطعة من الهجمات العنيفة ، شنتها الاقوام الرحل الضاربة في تلك الفيافي ، بينهم قبائل البتشنيك ، والاوغز والكومان (بولوفتز بالروسية) ، ملحقين البوار بتجارتها ، والخراب باقتصادياتها ، وان عجزوا عن النيل من استقلال البلاد السياسي . واذ عجز خلفاء ياروسلاف عن تأمين سلالة ملكية وراثية ، انشقت المملكة ، في اواسط القرن الحادي عشر ، على نفسها ، اذ راحت كل من نوفغورود وكييف ، وهما حواضر البلاد الكبرى ، اذ ذاك ، يتجه الواحد شطراً مغايراً للآخر . فمن الطبيعي ان يؤلف هذا الضعف ، تصاب به البلاد ، خطراً عليها .

وقد وقعت بيزنطية نفسها ، في القرن الحادي عشر ، في خطر مماثل ، سببته لها الانتصارات نفسها التي حققتها . فقد دخل ضمن حدودها ، من جرّاء الفتوح التي قامت بها ، شعوب وقوميات مختلفة ، متباينة . من هذه الشعوب ، الارمن مثلاً ، الذين ألفوا الاغلبية الساحقة بين سكان ولايات الامبراطورية الشرقية ، وكانوا حانقين على بيزنطية ، لا يصفحون لها عبثها باستقلالهم الوطني ، كما ان الكنيسة اليونانية التي لم تستفد شيئاً ، على ما يظهر ، من عظة الماضي ، راحت

تعاود سيرتها الاولى ، وتتابع اضطهادها للارمن ولأتباع المونوفيزية القائلين بوجود الطبيعة الواحدة في السيد المسيح . اما البلغار ، فقد زادت معارضتهم الاجتماعية للاكليروس اليوناني من الكره لسيطرة الاجنبي وحكمه للبلاد ، وهذا العداء الشديد للاجنبي اوشك ان يحمل من المبادىء التي حملها بوغوميل ، وعمل بها وعلم ، الديانة الوطنية في البلاد . ومن بلغاريا ، انتقلت هذه التعاليم والعقائد الى الكروات ، ومنهم انتقلت الى فرنسا ، لتطلع في القرن الثاني عشر بشكل جديد ، هي الهرطقة المعروفة بـ *Albigéisme* او مقالة الالبيجوا .

وفي الوقت ذاته ، تفاقمت المصاعب والمشكلات التي نشأت غب استفحال امر الارستوقراطية العقارية في البلاد ، بعد ان عرف الاباطرة العسكريون في بيزنطية كيف يوجهونها ويسيّرونها . فالملوك الذين تعاقبوا على الملك بعد الامبراطور باسيل الثاني ، لم يكونوا على شيء من قوة الشكيمة ، فاستخذوا في الملحقات واستسلموا للامر الواقع ، بعد ان احاطت بهم بطانة من المدنيين اخلدوا باسباب الثقافة وفضلوا الدعة والطمأنينة ، فاستفحل شأن الارستوقراطية العقارية في هذه الولايات ، وراحت تسعى جهدها لانهاك الفلاحين الاحرار وخرابهم . وعندما كان الاباطرة يطلبون من النبلاء التجند وخدمة السلاح ، كانوا يغدقون عليهم ، من املاكهم الخاصة الاعطيات الوافرة ، كما كانوا يجودون عليهم بانعامات خاصة ، موقتة او يستثمرونها مدى الحياة ، لا تلبث ان تصبح وراثية عندهم ، فتتألف من هؤلاء النبلاء وحدات عسكرية لم تكن اكثر ولاء للامبراطور من زميلاتها في الغرب . ولكي يأمن ملوك الروم شر هذه الوحدات ويؤمنوا لهم ما يوازيها ، راحوا يشكلون من بين سكان الولايات القريبة من القسطنطينية ، بفضل الموارد الغنية التي امنتها لهم التجارة ، اذ ذاك ، وحدات من المرتزقة ، ازداد عددها فيما بعد ، بازدياد ازدهار التجارة في البلاد ، تألف معظمها من قبائل الفاريغ ، الى ان راحوا يستبدلونها ، بعد عام ١٠٥٠ ، بوحدات من النورمنديين في الغرب ، او من قبائل الصقالبة او من الاتراك بعد ان يجري تنصيرهم . وقد دخل الجيش البيزنطي ، فيما بعد ، وحدات من الارمن والبلغار أفقدته وحدته الادبية . ولما كانت هذه الوحدات العسكرية تحتفظ بولائها لقادتها ، فلم يكن خطرها على الملوك باقل من الخطر الذي اطلّ عليهم من تشكيلات النبلاء العسكرية او من الجيوش المرتزقة التي عمل بهما في البلاد الاسلامية . فاذا لم يفض الامر الى خلخلة الامبراطورية وانقطاع اوصالها ، فلان الثورات والانتفاضات التي تعرضت لها كانت كثيراً ما تنتهي بالقضاء على الفتنة وهي في المهد ، او باستيلاء الثوار على السلطة . وعندما اطلت فيما بعد من الخارج اخطار ماحلة ، كانت الارستوقراطية تسارع للسيطرة على الامر بالاستيلاء على السلطة .

والحال ، فقد مثلت امامهم هذه الاخطار وكانت منهم ادنى من قاب قوسين ، ممثلة بقبائل البتشنك الذين اصبحوا على الدانوب ، وبالاتراك السلجوقيين عند مداخل آسيا الصغرى ، والنورمنديين الذين بعد ان انتزعوا ايطاليا الجنوبية من بيزنطية ، وصقلية من الاسلام ،

اخذوا يحاولون ان ينشئوا لهم موطىءقدم على سواحل البحر الايوني الشرقية ، وبفضل حادث مؤسف هيأته الاقدار العابثة ، اتاح الانفصال الذي اعلنه كيرولاريوس ، للبابوية المتحالفة مع النورمنديين للاستعانة بهم في الخصومة القائمة بينها وبين الاباطرة الالمان ، ان تسلك نهجاً معادياً لبيزنطية . صحيح ان روما والقسطنطينية وقفتا فيما بعد ، موقفاً اكثر اعتدالاً ساعد على القيام بهذه المفاوضات التي مهّدت للحروب الصليبية ورافقتها ، الا ان الوقيعة الكبرى كانت قد وقعت ، هذه المرة ، على يد شعوب جديدة اعتنقت الاسلام حديثاً .

ان استعادة بيزنطية للولايات التي فقدتها من قبل ، والاضطرابات التي شجرت في جميع انحاء العالم الاسلامي وادت بالتالي الى انقسامه الى امــارات ودويلات وسلطنات ، الحقت تغييراً محسوساً في العلاقات التجارية ، في الشرق الادنى ، خلال القرن الحادي عشر ، وجعلت من اللازم القيام بعملية تنسيب جديدة عسيرة . فالهجرات التركية باتجاه الفلوات الروسية خلخلت كثيراً والحقت اذىً عظيماً بالعلاقات التي ربطت بين البلدان الروسية وبين اقطار آسيا الوسطى والامبراطورية البيزنطية . وكان من جراء هذه التغييرات والتطورات الجذرية التي لحقت بطرق المواصلات التجارية بين آسيا والغرب، ان حل البحر الأحمر ومصر محل الخليج الفارسي وبلاد ما بين النهرين ، كما راح التجار الايطاليون ينافسون التجار البيزنطيين والتجار الاسلام في علائقهم مع بلدان البحر المتوسط . وقد ساعد على هــذا التطور ، في الشق الاول ، عوامل عدة ، منها : القلاقل والاضطرابات التي شجرت في الطرق ، وقسوة الجيش والاعمال الوحشية التي قام بهـا بفظاظة لا توصف في عهد العباسيين ، وجشع بيت المال واعمال القرصنة التي قام بهــا قرامطة العراق والبحرين ، وقيام حدود جديدة فاصلة بين بغداد ومقاطعة انطاكية اثر احتلال البيزنطيين لها ، يقابل ذلك انفصال مصر السياسي عن الخلافــة العباسية ، وحركة الاستقطاب التي تمت حول القاهرة ، وسهولة نقل المواد الغذائية وانتشارها بسرعة اكبر في الموانىء القائمـة على شواطىء البحر المتوسط . وقد عادت هذه الحركة بالفائدة الكبرى على مدينتي البندقيــة وامالفي ، الاولى من جراء استعادة بيزنطية للمقاطعــة الواقعة الى الجنوب من شبه الجزيرة الايطالية ، وجزيرة كريت ، ومن جراء الانتصارات التي تمت على حساب الكروات التي امنت لها الاتصال بسهولة مع بيزنطية ، اما الثانية ، فبعد ان اقامت لها علاقات طيبة مـع الاسلام في افريقيا الشمالية ، راحت توسع من نطاق هذه العلاقات ، الى مصر الفاطمية ، حتى ان غزوة الهلاليين لتونس والخراب الذي زرعوه في البلاد ، كل ذلك افاد منه الايطاليون الى اكبر حد . وبعد ان رأى المغاربة القاطنون على سواحل البحر المتوسط الغربي الحيف الذي نزل بهم من جراء انقطاع حركة النقل التجاري ، راحوا يعوضون عن خسارتهم بممارستهم القرصنة البحرية على السواحل القريبة من فرنسا وكتلونيا وايطاليا الشمالية . وبانتظار رد الفعل المسيحي لاعمــال القرصنة هذه التي كانت استعادة صقلية من احدى نتائجها ،فقد افادت البندقية وامالفي لحسن موقعهما التجاري من هذه الحركة . ومن جهة اخرى ، لما كان المغرب رأى ثروته من الخشب في

شطر ، وكان عاجزاً عن بناء عمارة من السفن قوية، كان باستطاعة بيزنطية ، بالطبع ، ان تفيد كثيراً من الوضع الذي كانت عليه الحركة التجارية اذ ذاك ، وقد آثرت ، لاسباب مالية بحتة ، ان تجذب اليها الايطاليين فيهبطون القسطنطينية، عوضاً من ان تبعث باليونان الى ايطاليا نفسها ، بعد ان عجزت من دفع الايطاليين الاتجار مع المسلمين مباشرة . وهكذا قامت حركة منظمة من التبادل التجاري بين ايطاليا والاسكندرية حلت جزئياً محل الحركة الاخرى التي قامت بين محوري بغداد والقسطنطينية ، واربت عليها بكثير . فان لم تنقطع حركة النقل التجاري التي قامت على القوافل في آسيا ، فاننا نلاحظ نقصاً كبيراً في المنقول من الثروة المنزلية ، في الشرق الاسلامي كما يشهد على ذلك ، نهوض طبقة جديدة تتألف من العسكريين وكبار الملاكين العقاريين .

وحدة الحضارة الاسلامية وتنوعها

في هذا العالم الاسلامي القلق ، الجيّاش بعظائم الاحداث ، والمضطرب في الصميم ، ليس ما يلفت النظر ، ويستبد بالخواطر مثل الرواج الذي بلغته الآداب ، والازدهار الذي آلت اليه الحركة الفكرية . فما من امير الا وقامت حوله حاشية انخرط فيها جماعة من اهل الفكر والحس ، وما من قاعدة او حاضرة الا وقام فيها للادب والفن اسواق رائجة ، وراح كثيرون ممن صَلُحَت احوالهم وبسم لهم الدهر ، كما راح كثيرون من عظماء القوم وعليتهم يتبارون في تشجيع حَمَلَة الادب ورجاله ، ومناصرة اهل الفن والنبوغ ، من اي لون كانوا ، او الى اي مذهب انتسبوا . فاذا حدّثت الركبان عن امجاد بغداد والسامانيين ، والبويهيين والحمدانيين في الشرق ، فاخبار القاهرة والقيروان ، وباليرمو وقرطبة ، في الغرب ، عن الحركة الادبية ، تملأ بطون الكتب والتاريخ . واتساع هذه الحركة الفكرية التي عمت مشارق العالم الاسلامي ومغاربه ، فتحت الباب على مصراعيه امام التنوع لظهور تيار فكرية عامة وتلقيح الافكار والاذهان في كل مكان بالتالد والطريف من الآثار الادبية .

وقد بلغ من غنى التآليف في العالم الاسلامي ما جعل الناس يشعرون بحاجة ماسة لمن ينهض ويعرّف به في فهارس علمية . من ذلك مثلاً ، فهرس ابن النديم ، وكتاب الاغاني لصاحبه ابي الفرج الاصفهاني ، الذي يعد بحق ، من الكنوز الادبية الغالية . وقد ساعد على كثرة التآليف في العالم الاسلامي وفرة الكاغد او الورق الذي اخذ العرب سر صناعته من الصين ، وأدخلوا بعض اجناسه عن طريق سمرقند ، وما ان جاء القرن العاشر حتى انتشرت صناعته في جميع اطراف العالم الاسلامي ، فتلاشت امامه صناعة البردى كما قلت الحاجة الى الدروج والرقوق الجلدية التي طالما عوّل عليها النساخ في اديار الغرب . وقامت في بعض حواضر البلاد الاسلامية الكبرى دور للكتب ، غصّت بعشرات الالوف من الكتب جرى تسفيرها على نُظم فنية خاصة روعي فيها تصنيف العلوم على ابواب ومطالب ، وقام على خدمتها جيش من النساخ والوراقين ، والخطاطين

والمزوقين والمنمقين . كل هذا كان يفترض عدداً كبيراً من القراء والمطالعين ، وطائفة كبيرة من الكتّاب وحملة الاقلام والمفكرين .

اما نتاج الادب الوجداني، وادب الخيال او الرواية فقد كان اقل رواجاً من الكتب التي تبحث في الموضوعات الفلسفية، بنسبة ما يمكن التفريق بين النوعين المذكورين. وقد رعى الامير سيف الدولة الحمداني الادب وقرّب الأدباء الى بلاطه ، فراجت دولة للشعر عنده ، وراح الشعراء يتغنون بالحروب التي شنها ضد الروم كما راحوا يدعون للجهاد ، كما نرى خبر ذلك في شعر ابي الطيب المتنبي (٩١٥ – ٩٥٥) . اما في سوريا فقد بلغ الشعر الذروة مع شاعر المحبسين : ابي العلاء المعري (٩٧٩ – ١٠٥٨) الذي امتاز بقريحته الوقادة وبما وضع من الكتب التي تفيض سخرية وتهكماً بكثير من امور الأدب والدين والفلسفة. وقد اسهمت الاندلس بهذه الحركة اسهاماً كبيراً . فقد نبغ فيها ، في مطلع القرن العاشر ، الشاعر ابن عبد ربّه الذي له حماسة ووضع عدداً من الشعر الاصيل . ثم طلع علينا ابن حزم (٩٩٤ – ١٠٦٤) الذي غنى لنا في كتابه « طوق الحمامة » الحب العذري ، وقام في اسبانيا من راح يقلده ، كما لقي كثيراً من الاتباع والمريدين . فليس من ينكر ما كان لهذا النوع من الشعر في ما بعد ، على شعراء الزجل او أهل الطرب ، في جنوبي فرنسا *Troubadours*.

اما في العراق ، فقد كانت العناية شديدة بالنثر ، يحاول الكتاب تتبع خطى الجاحظ دون ان يتمكنوا من مجاراته او سبقه في هذا المضمار . وقد ازدهر فيه فن القصص والنوادر الذي برّز فيه التنوخي (٩٣٩ – ٩٩٤) ، كما برز فن المقامة وهي نوع من القصة تسير حوادثها حول بطل يستقطب ماجريات القصة ويرويها بشكل من النثر المسجع المليء بالتهكم والسخرية . وأشهر اصحاب المقامات ، الهمذاني (٩٦٨ – ١٠٠٧) ومن هذه الفنون التي راجت في هذا العهد ، فن الرسائل الذي امتاز بفصاحة اللفظ وبلاغة المعنى جامعاً بين الايجاز والاعجاز

وفي القرن الثاني للعباسيين برز فن التاريخ والجغرافية وبلغ الأوج من الازدهار . وقد عني اول من عني بسيرة الرسول ، لاتصال هذا البحث بالحديث ، وقد اخذ فن السيرة يتسع ويتنوع محافظاً على وسائل الاعلام والعرض التي كانت له في الاصل . وقد ظهر في منتصف القرن التاسع مؤرخون امثال ابن قتيبة وابو حنيفة الدينوري واليعقوبي الذين وضعوا تواريخ عامة . فبعد ان أرّخوا لعهود الكتب المقدسة ، و « للأيام » عند العرب والفرس ، ولا سيما منذ عهد الاسكندر المقدوني ، نرى غيرهم يتعرض للبحث في الفتوحات العربية كالبلاذري الذي له «فتوح البلدان» . اما واضع علم التاريخ عند العرب ، فهو الطبري (٨٣٩ – ٩٢٣) الذي وضع كذلك تفسيراً للقرآن . فقد كان عالماً نابهاً ، ومؤرخاً وضع كتاباً ضخماً في التاريخ ، يمكن اعتباره موسوعة تاريخية ضم كل ما وضع عن التاريخ القديم والتاريخ الاسلامي على السواء ، وذلك بعبارة واضحة وباسلوب من السرد الاخباري ، وهو نهج حذا حذوه كثيرون ، دون ان يبدي في الموضوع الذي يبحث، آراءً شخصية مما يجعل له قيمة كبيرة لدى النقد الحديث . ومنذ ذلك الحين اصبح

التاريخ اكثر فنون الآداب رواجاً في العالم العربي خلال الأجيال الستة التالية . وقد برز بين المؤرخين، في القرن التالي، أي في القرن العاشر، المسعودي الذي توفي عام ٩٥٦، والذي وضع لنا كتاباً ضخماً لخص فيه كتباً لم يبق منها سوى قسم ضئيل، «مروج الذهب»، ضم عدداً كبيراً من سير الخلفاء طواها على فوائد كثيرة. ومن بين هؤلاء المؤرخين ايضاً الصولي، المتوفى عام ٩٤٦ الذي يحدثنا بكثير من الحرارة، عن ذكرياته كمواطن بغدادي عمل في بطانة الخليفة العباسي . وقد راح عدد كبير من المؤرخين لمعوا بين القرنين العاشر والثاني عشر، يكملون تاريخ الطبري، انما في غير النهج الذي سار هو عليه، منهم هلال الصابىء، المتوفى عام ١٠٥٦ الذي لم يبق من آثاره سوى بعض نتف، وابن مسكويه المتوفى عام ١٠٣٠، صاحب كتاب «تجارب الامم». وقد برهن كلا المؤرخين الاخيرين عن اطلاع واسع، ومعرفة دقيقة لشؤون الادارة عند العباسيين والبويهيين وضمنا كتاباتهما معلومات جزيلة الفائدة فكانت معيناً لا ينضب من الفوائد والمعلومات .

وقد كان من جراء الانقسامات السياسية التي مزقت وحدة العالم الاسلامي، اذ ذاك ان طلعت علينا تواريخ عديدة تبحث في تاريخ المغرب والاندلس ومصر وايران، ليس في ذكرها هنا كبير فائدة . وقد شارك في حركة التآليف هذه، عدد من كتّاب النصارى، كتبوا بالعربية تاريخ بطاركة الاسكندرية (الاقباط) ساهم في اكماله فيما بعد كثيرون . وبين هؤلاء المؤرخين المؤرخ الملكي يحيى الانطاكي الذي سكن انطاكية، في الربع الثاني من القرن الحادي عشر، وهي اذ ذاك، تحت سيطرة البيزنطيين، وفيها وضع تاريخه المشهور الذي جمع فيه تاريخ العالم الاسلامي، لا سيما مصر والشام، وتاريخ بيزنطية . وفي هذه الحقبة بالذات ظهر عدد من كتب التراجم، وفقاً للبلدان او المدن التي سكنوها، وتراجم العلماء وفقاً لطبقاتهم : كطبقات الفقهاء والحكماء والشعراء والمحدثين والقضاة . ولم يلبث هذا الفن ان ازدهر فيما بعد، ازدهاراً عظيماً .

اما الجغرافيون العرب، فقد وضعوا لنا آثاراً حرية بالذكر، فكتبوا في الرياضيات وعلم الفلك، سيراً منهم على النهج الذي انتحاه بطليموس، وتركوا لنا اوصافاً حية، شيقة افادت منها الدوائر الادارية التي كانوا يعملون فيها او تابعين لها، وهي كتابات تفيض بالمعلومات الدقيقة والفوائد الجزيلة، دارت حول العالم الاسلامي، وتناولت وصف الهند والصين وآسيا الوسطى وروسيا، والقطران الأخيران لا نعرف عنهما شيئاً إلا من خلال هذه الكتب .

فالمعلومات التي ضمنوها كتبهم ترتكز الى نصوص من الوثائق الاصلية، كما تعتمد، من جهة ثانية، على ما نقله عنها الرحالة العرب، امثال سليمان وابن فضلان . فالكتب التي وضعها ابن خرداذبه في القرن التاسع، والاصطخري وابن حوقل، في القرن العاشر، واخيراً المقدسي، حوالي سنة الألف، وهو اوسعهم واحزمهم مادة، على الاطلاق، اذ عوّل فيما كتبه، على من تقدمه في هذا المضمار، وهي كتب كثيراً ما ضمت خرائط ومصورات جغرافية، وصل بعضها الينا . وهذه الكتب تذكرنا بالكتب التي جاءت على وصف الادارة الحكومية، وهي على منتصف الطريق بين الابحاث النظرية التي وضعها بعض الفقهاء، كأبي يوسف، والكتب الاخرى التي

ظهرت فيما بعد ، وهي اسهل أخذاً . ولعل أهم هذه الآثار ، على الاطـلاق ، كتاب ابن قدامة الذي باشر بوضعه في مطلع القرن العاشر ومات دون ان يتمه . وقد كان المؤلف من كبار نقـّاد الادب في عصره .

وما عسانا ان نقول عن نابغـــة عصره البيروني (٩٧٣ — ١٠٤٨) المعروف باوروبا باسم *Aliboron* . فقد عالج بنجاح جميع الموضوعات ، وكتب بالعربية والفارسية . فنحن مدينون له بهذه المعلومات الوافرة الدقيقة التي جمعها بعـلم ومعرفة ، بفضل وصف الفتوحات والغزوات والعلاقات الديبلوماسية ، التي قام بها السلطان محمود الغزنوي ، في كل ما يتصـــل بمدنيات آسيا والهند . فهو ، من هذا القبيل ، مؤلف ليس من يعدله في التاريخ الاسلامي ، على الاطلاق .

ونرى بعضاً من كتـّاب العجم يستعملون تارة البهلوية الهندية ، وطوراً العربية الدخيلة على البلاد . والجديد في الامر هو ظهور ادب جديد ، فارسي ، اسلامي في الوقت ذاته. وساعد على ذلك اقتباس الايرانيين للأبجدية العربية . وقد جاءت حركة التأليف هذه على غير استواء في بعض البلدان : قوية ، ناشطة في الدولة السامانية ، البعيدة عن العالم العربي ، وئيدةً ، بطيئة ، متأخرة ، في ايران الغربية . ومع ذلك فستبقى اللغة العربية في ايران مدة طويلة ، الاداة الوحيدة للتعبير في كل ما يتصل ، من قريب او بعيد ، بالقرآن الكريم ، والعلوم الاسلامية والفلسفة . فاجادة العربية وتجويدها أمر لم يكن منه بد في الاوساط المثقفة ، وهي وحدهـــا قادرة على معالجة الموضوعات اللغوية . غير ان ما للغة الايرانية من ميزات ، وما لها من قدرة ظاهرة على معالجة الموضوعات الخيالية تفوق ما للعربية منها ، والرغبة في التأثير على أكبر عدد ممكن من القراء ، كل ذلك جعل من اللغة الايرانية اداة طيعة ، مثلى ، للتعبير عن خلجات الفكر بفن وجمالية . ويبدو الفرق بعيداً مع الولايات الاسلامية الاخرى التي توارى كل اثر فيها للغات الايرانيـــة والآرامية واللاتينية ، ومع لغة البربر في المغرب ، وما كانت عليه من ضعف ووهن ، جعل منها مجرد لهجة من اللهجات المحكية قلّ من يكتبها او يستعملها اداةً للتعبير عن مكنونات النفس. فالادب الملحمي في الايرانية بلغ الذروة في المحاولة الاولى ، مع « الشاهنامه » (او كتاب الملوك) للشاعر الخالد الفردوسي ، الذي باشر بوضعها في اواخر القرن العاشر ، وهو في بلاط السامانيين ، ولا تزال لليوم اكبر وأكمل ملاحم الايرانيين على الاطلاق ، يقرأون فيها امجادهم الوطنية قبـل الفتح الاسلامي ، بلغة شعرية بديعة . وقام بين الايرانيين من عالج قبل الفردوسي الفنون الشعرية على نطاق اضيق واضعف . ثم ظهر النثر الايراني في كتب التاريخ ، في بلاط الملوك الأوّل للدولة الغزنوية ، مع البيهقي (حوالي عام ١٠٥٠) وأحياناً في الكتب العلمية .

ففي الحين الذي تبرز في ايران وترسخ اللغة الفارسية الوطنية ، يطل علينا في العالم الاسلامي نوع جديد من الأدب الشعبي ، من العسير على المؤرخ تتبعه وتقصي مراحله لأن النـــاس تناقلوه شفوياً ، ولم يُكتب الا بعد ذلك بمدة طويلة ، بلغ ازدهـــاره في عهد العباسيين . وهذا الادب الشعبي الجديد ، يتألف اصلا ، من قصص اخذ بعضه من الآداب القديمة ، كما أستمد البعض الآخر

من تاريخ الاسلام وتاريخ شعوبه الى ذلك الحين ، فيتألف من هذا كله مجموعة قصص تعرف بألف ليلة وليلة ، التي لم يستقر وضعها النهائي الا في اواسط القرن الرابع عشر. وقصص البطولة كقصة عنترة بن شداد مثلاً ، تضع أمامنا صوراً ومشاهد من بطولات العرب ، بين قدامى ومحدثين ، بينما تتغنى الاخرى بالبطولات التي شهدتها الثغور الواقعة على الحدود بين المسلمين والبيزنطيين ، فتروي لنا المكان والدسائس والحيل التي كانت تجري كل يوم حتى ايام الجهاد المقدس ، والعلائق الودية التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين الذين كانوا اكثر تفهماً للواقع من سادة بغداد والقسطنطينية . من تلك القصص مثلاً الملحمة النصف التاريخية ، بعنوان : « سيد بطّال غازي » التي بعد ان تحولت وتطورت اصبحت الملحمة الوطنية الكبرى عند الاتراك ، في آسيا الصغرى . ولما كان الشيء بالشيء يذكر ، لا بد ان ننوه هنا ، ولو بصورة عابرة ، بالقصة البيزنطية التي لم تلبث ان وضعت شعراً ، وهي المعروفة بـ « *Digenis Akritus* » التي تضع أمامنا مشاهد مثيرة من حياة رجال الحرب على الحدود .

العلم والفلسفة

اطلع القرن التاسع والعاشر ، أطيب الآثار العلمية والفلسفية التي عرفها الادب العربي في هذه الحقبة . وقد حاول واضعو هذه الآثار الفكرية ان يبرزوا أمامنا كعلماء محيطين بكل شاردة وواردة ، على شاكلة بيك ده لاميراندول ، في عصر الانبعاث الفني والادبي ، في الغرب . ولذا يصعب تصنيفهم الى فئات معينة . ومع ذلك يمكن ردّهم الى قسمين رئيسيين : الفلاسفة المتكلمون أو اهل الكلام ، وهي تسمية اطلقت في الاسلام على الباحثين في شؤون العقل أو الحكمة ، والعلماء وهم هؤلاء الجماعة الذين يعوّلون على الأيمان فيتخذون من العقل اداة تشد من ايمانهم . فالفلاسفة والعلماء ليسوا على الغالب سوى مظهر واحد للفكر ، اذ كان العقل يتجه دوماً من المشكلات الفلسفية اكثر من تعويل هؤلاء على العلم . اما بين العلم والتكنولوجيا التي تعتمد عليها المهن الاخرى ، فالاتصال يبقى ناقصاً ، اذ ان الملاحظة والتجربة هما المعول عليهما للوصول الى تحديدات وتعريفات واضحة ، ولو لم يؤلفا أساس العمل . فسواء عالج العالم المقاييس والوسائل الحسابية التي يلجأ اليها الرياضيون ، واستعان بوسائل النجامة والكيمياء ، فهو يضع نصب اعينه ، اهدافاً عملية ، مع التأكيد ان النتائج لا تتحكم قط بتوجيه العمل وفرضه .

وعلى عكس اهل الكلام الذين نراهم منتشرين في جميع انحاء العالم الاسلامي ، لا نجد الا في الشرق ، ولا سيما في ايران ، علماء يعملون للعلم ، وفي القسم الشمالي الشرقي منها . فالطب يسجل تقدماً محسوساً . فهو يؤلف مهنة او حرفة مغلقة ، او موصدة ، لا تنفتح لاصحابها ومحترفيها ، الا بعد درس ومراس وامتحان عسير ، يجب اجتيازه بنجاح . وهي مهنة ممارستها مباحة للجميع من يهود ومسلمين ومسيحيين ، كما نرى في اسرة آل بختيشوع السريانية ، التي سيطرت على بيمارستان جند يسابور . ومنذ القرن التاسع ، نرى الامراء والحكام ينشئون لهم مستشفيات حرية بكل احترام وتقدير . فالطبيب ، سواء أعَمِل في البلاط أو في المدنية ، فهو شخصية بارزة لها شأنها واهميتها . وقد اشتهر منهم عدد بما بلغوه من كفاءات وقدرات عالية ،

وان فاتتنا معرفة الكثير من وجوه هذه المقدرة . وليس من يشك قـط بالتطور العظيم الذي تحقق على ايديهم ، في مجالات : الكحالة وطب العين والقبالة وفن الاقراباذين ، والاكتشافات العلمية التي حققوها في هذا المضمار ، كالدورة الدموية الصغرى بين القلب والرئة . وقد برز بين اطباء هذه الحقبة طبيبان طبقت شهرتها الآفاق، هما الرازي المعروف عند الغربيين باسم *Rhazes* الذي برع ايضاً بالكيمياء وقد رأى النور في مدينـة الري (٨٦٥ – ٩٢٥) ، وابن سينا (٩٨٠ – ١٩٣٧) الذي ولد في بخارى، والذي اشتغل كذلك بالفلسفة، فكان من اكبر واشهر فلاسفة الاسلام ، في الاجيال الوسطى ، فكان له فضل عميم على الطب ، لا سيا بعد ان وضع كتابه المشهور بـ « القانون » وهو موسوعة طبية ، واسعة ، منهجية . وكتابه هذا كان عليـه المعوّل في الشرق حتى عهدنا هذا فكان القسطاس او النبراس الذي سار عليه الاطباء في الشرق الى هذا العهد ، كما اعتمده الاطباء في الغرب الى عهد موليير ، بعد ان عم نقله الى اللاتينية وطبع في روما لاول مرة ، سنة ١٥٩٣ .

اما علم الهيئة الذي اعتمد كثيراً على علم النجامة ، فقـد حقق تطوراً محسوساً ارتكز من جهة ، الى ترجمة كتاب « المجسطي » لبطليموس ، كما ارتكز ، من جهة اخرى ، على ترجمة مجاميع طبية تعود لعهد الساسانيين والهنود . فمنذ مطلع القرن التاسع ، أنشأ الخليفة المأمون مرصداً له في بغداد ، كما انشأ بعده ، غيره من الامراء مراصد اخرى اشهرها على الاطلاق مرصد فرغانة ، كالمرصد الذي بناه شرف الدولة البويهي ، في اواخر القرن العاشر . والاعمـال العلمية التي حققها العرب والمسلمون حول : الإهليلج ، والكسوف والخسوف ، وحركات النجوم السيارة ، وقياس درجة الدائرة الارضية على اساس فرضية استدارة الارض ، وما الى ذلك ، يثير الدهشة والاعجاب ، اذا ما فكرنا في الادوات التي كانت بين ايديهم كالاسطرلاب مثلاً ، وغير ذلك من ادوات توارثها العرب في التاريخ القديم ، وعولوا عليها في تحقيق ما حققوه من هذه الكشوف العلمية ، ولا شك ان البتاني (٨٧٧ – ٩١٨) هو اكبر علماء الفلك في زمانه . فقد كان من صابئة حران ، هؤلاء الصابئة ، الذين كانوا يعتمدون على النجامة ورصد النجوم . وبلغت شهرته الغرب حيث عرف باسم *Battenius* .

ومع ان العرب تمهلوا جداً في اقتباس الارقام الهندية ، فقد استعملوها مع الكسور العشرية والصفر ، فنحن في الغرب ، مدينون لهم ، مع ذلك ، بهذه الاعداد التي اخذناها بالفاظها العربية احياناً . واشهر رياضيي العرب، واقدمهم على الاطلاق ، هو الخوارزمي (٧٨٠ – ٨٥٠) الذي ولد في خوارزم، بالقرب من بحر آرال ، واليه تعزى الجداول الحسابية المعروفة في الغرب، باسم *logarithmes* ، مع انه ليس بواضعهـا الحقيقي ولا عرفها . غير ان كتاباته حول المعادلات الجبرية قد جعلته اول من اخترع علم الجبر ووضع اصوله في العالم . وقد عالج غيره من الرياضيين الذين جاؤوا بعده ، الهندسة وحساب المثلثات .

اما الكيمياء ، فلن نهتم لها بنسبة الاهتمام الذي لقته عند المفكرين في الاجيـال الوسطى .

فالأكسير الذي بحث عنه كل الكيميائيين ، في الشرق والغرب ، على السواء ، هو من اشتقاق عربي . واشهر من عالج هـذا العلم هو جابر بن حيان ، الذي عرف في الغرب باسم *Geber* ، وعاش في القرن الثامن . والذي وصل الينا باسمه من المؤلفات ، تم وضع بعضه بعـد وفاته بقرنين ، واكثر . وقد كانت اكثر تطبيقاً ، المؤلفات التي وضعها فريق من علماء المعادن وعلماء النبات والفلاحة ، اشهرهم على الاطلاق ابن وحشية الذي ينسب اليه ترجمة ، كتاب الفلاحة ، من النبطية الى العربية ، والذي لا يخلو مع ذلك من كثير من الاوهام والاساطير والخرافات .

كثيراً ما جمع هؤلاء الفلاسفة بين العلوم والفنون والموسيقى ، فراحـوا يستلهمون نظريات ارسطو العلمية والعلوم الكونية والادبية التي قالت بها الافلاطونية الحديثة . واقـدم هؤلاء الفلاسفة واعرقهم عروبة هو الكندي الذي لقبوه بفيلسوف العرب ، وقـد عاش في القرن التاسع . اما المفكر الكبير والفيلسوف الذي جدد الفلسفة القديمة فهو الفيلسوف التركي المحتـد والنسب ، اعظم فلاسفة الاسلام على الاطلاق ، هو ابن سينا الذي عاش في بغداد وحلب ، في القرن العاشر ، وعلى يده تطورت الفلسفة نحو الاشراقية العقلية .

فامام مظاهر هذا التفكير التي جاءت مغايرة للدين ومناقضة لتعاليمه ، ولهـذه الهرطقات العديدة ، والتفاسير المخالفة للنصوص القرآنية ، اخـذ القلق يساور رجال الفكر الذين تهمهم كثيراً امور العقل والوحدة . فقد رأينا كيف ان المعتزلة راحوا يحاولون التوفيق بين الايمـان والعقل. فالاشعري (٨٧٤ – ٩٣٥) والماتيريدي الذي توفي عام ٩٤٤ ، حاولا ان يضعا في خدمة الايمان ، سلاح القياس الذي عمل المعتزلة على تطويره . ولم تلق هذه الطرق والمناهج ، في بدء الامر قبول الاجماع . الا انها لم تلبث ان انتصرت وانتشرت في القرن الحادي عشر ، واصبحت جزءاً لا يتجزأ من تعليم الامة في الاسلام ، اضيف عليها شيء من التفكير العقلاني والشرعي ، على يد اهل الكلام الذين ظهروا فيما بعد .

ولهذا السبب قامت القطيعة بين موقف هؤلاء المفكرين المؤمنين حتى عندما يدافعون عن الايمان ضد العقل ، وبين فئة المتصوفة ، هؤلاء المؤمنين بقلوبهم الذين كثيراً مـا رموهم بالكفر والزندقة . فالمحاسبي والجُنَيْد ، في القرن التاسع ، يعربان عن رغبتهما في الزهد والنقاء الخلقي عند هـذه النفوس التي لا تقيم وزناً للقياس ، كالحلاج ، مثلاً (٨٥٨ – ٩٢٢) . الذي قال في بعض تعاليمه : « انا الحقيقة » وذلك في الوقت الذي احتدمت فيه الحرب ضـد القرامطة ، فكفّروه ورأوا فيه خطراً على الجماعة . فظهوره يعتبر حادثة نادرة في الاسلام ، جرت عليه الموت ، بعد عذابات اليمة ، مبرحة تذكرنا بمأساة المسيح .

ادت محاربة هذه الزندقة الى ادب خاص ، منه نفهم ما كانت عليه هذه الملل والنحل. وقام في الاندلس ، عند مطلع القرن العاشر ، حول ابن مَسَرّة وأخذه بتعاليم الافلاطونية الحديثة ، شعور بالقلق من جراء استفحال هذه التعاليم ادى الى وضع ابن حزم كتابه المشهور عن الملل

والنحل ، وهو احسن كتاب في الموضوع يصف لنا الفروق التي باعدت فيما بينها . وقد رأينا ما كان لابن حزم من اثر على الشعر في عهده .

الادب المسيحي واليهودي

على نقيض البحث العلمي الذي انفتحت ابوابه امام الجميع ، يبدو ان الفكر الديني لدى الطوائف غير المحمدية ، اختلفت عنده مظاهر الحياة العقلية ، عنها لدى العالم الاسلامي ، مع انه استعمل اللسان العربي ، تعبيراً وتبايناً . فهو يجدب ويتصلب عند المسيحيين فلم يطلع بأي اثر بارز ، ولا أفسح المجال لطلوع أية مشاقة دينية مهمة . وقد اقتصر الجدل ، بعد ان تصلّب وقساً ، على الامور الكنسية دون العقائدية. اما الفكر اليهودي فقد استيقظ برهة من الدهر ، ونفض عنه الجمود واليبس الذي اعتراه من جراء التعاليم والمذاهب التلمودية. ففي الوقت الذي راح فيه الاشعري يدخل على الاسلام المناهج الفلسفية المعروفة ، عرف رئيس الكهنة ساديا ، في بغداد ، ان يكتسب شهرة واسعة بتجديده الناموس القديم ، وراح يحاول من جهته ، التوفيق بين النصوص الكتابية وتعاليم الربانيين ، أي بين مطلب الايمان ومناهج العقل . ومن كل الجوالي اليهودية في اوروبا وآسيا كانوا يقصدون بغداد لاستيحاء تعاليم مدرستها المشهورة . ومن الرسائل المتبادلة بين هذه الجماعات الدينية ، تكونت مجموعة الوثائق المعروفة باسم *Papiers de la Genisah* التي عثر عليها في القاهرة ، منذ نحو خمسين سنة ، وهي مجموعة تمدنا كل يوم بنماذج مثيرة . ومع ذلك ، فازدهار المدارس الملّية التي قامت في كل من القدس ، والقاهرة ، والقيروان — التي تجاوز اشعاعها ولايات ايطاليا الجنوبية — والاندلس ، يبدي بصورة قاسية ، الصدارة التي احتلها ربابنة مدرسة بغداد ، على غير استحقاق او جدارة احياناً ، مع ان الانحطاط اخذ يدب اليها ويتغلغل فيها ، اثر القلاقل والاضطرابات التي نشبت في القرنين العاشر والحادي عشر . واذ ذاك ، انتقلت جذوة النشاط للأدب اليهودي ، الى البلدان الواقعة حول حوض البحر الابيض المتوسط ، وراحت رئاسة الاحبار ورئاسة الربابنة تضمحل تدريجياً وتموت. فاذا ما عرفت مدرسة القيروان الضعة والهوان في عهد الهلاليين ، فقد اشتهرت مدرسة الاندلس بأن انجبت جبريل الملقّي ، احد فلاسفة المدرسة الافلاطونية الحديثة الذي كاد يكون غريباً عن ملته ، كما كان شاعراً مشهوراً ، كما ان بهيا بن باكوري راح يضع كتاباً في مجالدة النفس والزهد ، يبدو غريباً جداً في الادب اليهودي . ومنذ القرن الحادي عشر ، اصبحت الاندلس ، ملاذ الفكر اليهودي ، كما اصبحت مركزاً للاشعاع الثقافي في العالم الاسلامي .

الادب البيزنطي

اذا ما قارنا الادب البيزنطي بما ظهر حوله من آداب اخرى في الشرق او في الغرب ، استطعنا ان نكوّن لنا رأياً معللا ، وان نبدي حكماً حول قيمته الحقيقية او النسبية . فهو ينعم بعلم اكبر ، وبدقة اوفر ، من الادب في الغرب ، واصاب نجاحات اكبر من التي حققها ، الا انه اقل غنا وتنوعاً من الادب الاسلامي . فقد عرف

الاسلام ان يتمثل آداب الشعوب التي دوخها ، وان يطبعها بميسمه المميز ، وان ينميها ويطورها بينما لم تشع بيزنطية على الشعوب التي خضعت لحكمها وسلطتهـا الا في المجال الديني ، وفي بعض مظاهر خاصة من مجالات الفن ، مع العلم ان الشعوب التي اخضعتها لنفوذها لم يسمح لها طابعها البربري ان تستمرىء عناصر ثقافيـة اخرى ، كما ان بيزنطية كانت اعجز من ان تعطي الغير شيئاً مما كانت تحرص عليه من تراثها الهليني التليد ، وبذلك جعلت نفسهـا بمعزل عن كل مؤثر اجنبي يأتيها من الخارج . فقد استطاعت ، وايم الحق ، ان تقتبس، من الخارج ، بعض العناصر التي شاركت في تكوين فنها . ولكن ما من شيء جديد في المجال العقلي او الفكري . فلم تكن من القوة بحيث تستطيع ان تستغني ، دون ان تتعرض للخطر ، عن هذه العوامل التي ساعدت في إخصاب ثقافتها واغنائها . وهكذا راحت الثقافة البيزنطية تتطور وتتكامل من الداخل ، وتعمل ضمن حلقة مفرغة ، اتمازت بالاخذ والقبس دون ان تكون لها القدرة على العطـاء ، وبالتالي على الاشعاع . فقد كانت تحيا وتعيش لنفسها ، لا للغير . قد يكون الادب الشعبي هو الشيء الوحيد الذي شذّ عن هذه القاعدة ، الا انه ادب مجهول القدر ، منقوص القيمة ، ليس من يشعر به الشعور الذي نعمت به بعض المؤلفات العلمية التي وضعت لنخبة مختارة من الطبقة الارستوقراطية .

وبالرغم من هـذا ، وبعد الركود الادبي الذي طبع العصور الماضية ، وسيراً مـع حركة الازدهار والاشعاع الفكري الذي عرفتها الثقافة العربية ، عرفت بيزنطية ، في القرن التاسع ، ازدهاراً عظيماً وتطوراً كبيراً في امور الفكر ، فازدادت فيهـا المدارس ، ودب النشاط في جامعة القسطنطينية بعد ان اجرى فيها البطريرك فوتيوس ، وهو من اشهر تلاميذها ، إصلاحاً جذرياً وسكب فيها دماً جديداً ، وصقلت الاذواق والطباع في كل مـا يتعلق بامور الفكر والفن . وبعـد قرون من المناقشات البيزنطية الجوفاء حول قضايا دينية او كنسية لا طائل تحتها ، اخذ الناس ، بتأثير من هـذه اليقظة الجديدة ، يحفلون بالتراث الحضاري القديم ، ولا سيما بالهليني منه . فبينما راح الاسلام ينقل من هذه الثقافة اليونانية بعض مـا يتعلق بالعـلم والفلسفة ، انصرفت بيزنطية للجانب الادبي الذي كان من العسير نقله الى العربية لمـا يتنزّى به من الاساطير الوثنية والميثولوجيا ، ولما يستدعى تمثّله من ذوق رفيه . وراحت تكمل رسالة مدرسة الاسكندرية ، وان تعثرت منها الخطى واشتط النهج في القبس ، اذ اقتصر على حرفية مرزحة ومقعدة . ففي هذا التطور من تاريخها ، إكتست الثقافـة البيزنطية أريجاً من الفكر العلماني لا يتعارض او يتنافى قط مع الايمان ، انما يتميز تماماً عما خلفته العصور السالفة واللاحقة كما يتميز كلياً عن الانتاج الفكري ، في الغرب ، خلال هـذه الحقبة . فبالاضافة الى المؤلفات التعليمية الطابع او الموسوعية الهدف ، وكتب النصوص والادلة الموضوعـة للحكام الاداريين والخاصة ، كانت كل الفنون الادبية ، من نثر او شعر ، موضوع اهتمام خاص . ويبرز من بين هذا الادب السقيم ألهزيل ، بعض قصص ومسرحيات لها قيمتها الفنية . وعـلم التاريخ الذي

يرى مادته الاولى تتجدد باستمرار ، ترك لنا ، قبل القرن الحادي عشر ، مؤلفات قوية بقيت على الزمن ، ابتداء من التاريخ الذي وضعه ثيوفانس (غرة القرن التاسع) ، والتواريخ الاخرى التي رأت النور في القرن العاشر ، بتشجيع من الاباطرة امثـــال لاون السادس ، وقسطنطين المسربل بالارجوان ، وخلفاؤهم من بعدهم ، منها التاريخ الذي وضعه لاون دياكر . وقد لقيت تراجم القديسين على انواعها ، رواجاً عظيماً لما كان لها من وقع في نفوس افراد الشعب . وحري بنا ، ان نذكر هنا ، بعض الآثار النقدية التي نحا فيها واضعوها ، نحو لوقيانوس ، وان جاءت المحاكاة حرفية ، وكان علينا ان ننتظر القرن الحادي عشر لنرى آثاراً ذات قيمة ارفع واسمى . ويأتي التاريخ في خدمة هذه الآثار ، منها التاريخ الذي وضعه ميخائيل اتّاليات ، ونيقوفورس برايين ، وكدرينوس ، وسكيلتزيس . كذلك علينا ان ننوه عالياً هنـــا ، بالكتاب الذي وضعه « النبيل » كيكومانوس الذي ضم قصصاً مثيرة وعظات وارشادات عملية . وقد برزت فوق هذه الحركة ، شخصية بسيلّوس ، الذي كان من الطراز الاول : رجل ادارة ، وفيلسوفاً موسوعياً ، ومجدداً للفلسفة الافلاطونية ، وللافلاطونية الحديثة ، كما كان مؤرخاً وسيكولوجياً يخترق اغوار النفس البشرية ، في كتابه الموسوم « كرونوغرافيا » ، والمنظم للتعليم الجامعي بمساعدة الامبراطور قسطنطين مونوماخس (اواسط القرن الحادي عشر) ، والمؤسس لمدرسة الفلسفة ، الى جانب مدرسة الحقوق التي كانت تمد الدولة بما تحتاج اليه من رجال الادارة والحكم.

وبالرغم من هــــذا النشاط ، فليس ابرز للعين ، من الادب الشعبي الذي امتاز بالاصالة والعفوية والطبيعية . ويمكن ان نضيف الى هــــذا اللون ، فن كتابة سير القديسين ، والقصص المستوحاة من القصص الشرقي ، امثال قصة برلعام ويوشافاط . واسوة بما كان عليه الوضع في الغرب ، فالمسرحية ، كالقصص الشعبي في الأجيال اللاحقة ، مزيج من التلاحين والاغاني والسرد القصصي ، تغنّى احياناً ، وحيناً تتلى وتقرأ ، ويبقى هذا الفن ناشطاً حتى القرن العـــاشر . وقد طلع بعد قليل فن تمثيل الاسرار (*Mystères*) ، وهو مسرح ديني عرفه الغرب ، اذ ذاك ، يتألف أصلاً من حوادث يراعى في سردها الليتورجيا . ولعل أشهر هــــذه الآثار طراً ، وان جهلها العلم مدة طويلة ، هي بلا مراء ، الملحمة المعروفة بـ *Digenis Akritas* التي استقرت في شكلها النهائي ، في القرن الثاني عشر ، مع ان القسم الاساسي منهـــا يعود لقرن أو قرنين من قبل . وهذه الملحمة تذكرنا بالقصص الحماسية التي ظهرت في العالم الاسلامي ، مما سبق واشرنا اليه من قبل . فهي تصف لنا وصفاً حياً ، مثيراً ، مشاهد من حياة جندي يعمل في حاميات التخوم والثغور ، وما تم له من علاقات مع بعض المسلمين ، تارة حربية ، وطوراً سلمية ، نستطيع معها ان نتبين ظروف وصروف الحملات والصوائف التي كانت آسيا الصغرى ملعباً لهـــا ، في القرنين التاسع والعاشر ، كما نتبين ما كانت عليه ، اذ ذاك ، اخلاق القوم الساكنين على الحدود . ولا تزال ذكريات هذه الملحمة حية لليوم في نفوس افراد الشعب في اليونان .

والادب الارمني الذي استوحى قسماً من مقوماته ، من النماذج البيزنطية والسريانية ، ولا

سيما الدينية منها ، اخذ يتحرر أكثر فأكثر ، ويعتمد على نفسه في هذه الآثار التاريخيـــة التي خلفها لنا توما الارزرومي، واستفانس طارون، وارستفاكس ده لسديفرد وهي آثار جد مفيدة، بالرغم مما هي عليه من تفخيم واطناب . وقد ازداد الادب الرهباني إزدهاراً ، خـــلال عهد الأسرة البغراتية . واكبر شخصية علمية في هذا العهد ، هي شخصية غريغوريوس ماجسْتروس (النصف الاول من القرن الحادي عشر) ، وهو نبيل ارمني ، وقائد عسكري ، عمل في الجيش البيزنطي ، موسوعي الثقافة ، جوّد اللغتين : الارمنية واليونانية، وراح يحاول اخراج مواطنيه من العزلة التي وضعتهم فيها لغتهم الأرمنيـــة . صحيح ان الشاعر الصوفي الأرمني غريغوريوس ناريك، الذي عاش في اوائل القرن العاشر والذي لم يقع تحت اي اثر اجنبي، تمتع بين الأرمن، ولا يزال ، بشهرة اوسع مما تم لماجستروس . ولما كانت بلاد جيورجيا هي الآخرى، مفترق طرق، وملتقى الثقافات البيزنطية والارمنية والايرانية ، فقد اخذت تستيقظ تحت تأثير ترجمة الآثار والمؤلفات الكنسية ، وتتفاعـــل مع الحركة الفكرية في البلدان الصقلبية الاخرى التي اخذت تتحرك وتتحرر سياسياً ، لتصل بعد القرن الحادي عشر ، الى آثار تتميز ، أكثر فأكثر ، بالطابع الشخصي .

فنون الشرق الادنى

في جميع أقطـــار الشرق الادنى ، المسيحي والاسلامي على السواء ، ينزع الفن نحو التنوع ليقيم له مذاهب أو مدارس « وطنية » خاصة ، مع حرصه مع ذلك ، على التمسك بعناصر مشتركة . وبالرغم من الفروق القائمـــة بين الفن الاسلامي والبيزنطي، حدود واضحة المعالم والصوى، بين هذه المذاهب الفنية المعمول بها، في كلا الجانبين، فكلاهما يتجاوب وحاجات مجتمعه الخاص الذي استعرضنا، من قبل، لتطوراته المتوازية، فيستعمل كل منهما وسائل تقنية مماثلة. ويهمنا هنا ان نكشف، ولو بايجاز واقتضاب عن العوامل المشتركة التي تؤلف ما بينهما من وحدة، بحيث نستطيع ان نُظهر، بصورة محسوسة ، ما في هذه الانجازات التي حققتها هذه الفنون ، من قوة التأثير والاغراء .

نحن نجهل تماماً التكنيك الهندسي الذي يختلف ، هنا وهناك ، باختلاف المادة المستعملة في البناء كالحجر او الآجر او اللبن ، في كل ما يتصل بالمباني العسكرية ،والقلاع والحصون ، الدفاعية ، بالرغم من كثرتها وعددهـــا . للدفاع عن حدود بيزنطية ، او للدفاع عن البلاد الاسلامية ، ضد المشركين ، في آسيا وفي افريقيا ، وهذه الرُبُط التي تقيم فيها متطوعـة الغزاة الملبين نداء الجهاد المقدس ، ليوطدوا من سلطان الزعماء المحليين ، او لمراقبة المقاطعات الصعبـة المرتقى ، التي كانت ، في كل من سوريا وكردستان والمغرب ، شهوداً ناطقة على ما بلغته السلطة المركزية من شدة التفتت ، والانحلال . اما الهندسة المعمارية المدنية ، فلم يصل الينا منهـا شيء يذكر . غير ان الحفريات التي جرت في سامراء العاصمة الموقتة للعباسيين ، بعد بغداد ، فقـــد كشفت عن معالم القصر الخلافي التي تساعدنا كثيراً على تفهم ما كان عليه هـذا القصر من اوضاع خاصة ، كما نعرف جيداً ان القصر المقدس الذي شيدته اسرة الاباطرة المقدونيين ، في القسطنطينية،

استوحى خطوطه من الطراز الهندسي المعمول به في بغداد . وهو عبارة عن مدينة ضمن مدينة، أكثر مما هو قصر . فقد ضم العديد من الأبنية : هذه للسكن ، وتلك للتلهي والترفيه ، واخرى للدفاع ، واخرى للتموين وخزن المؤن التي يحتاج اليها الخليفة وحاشيته . كل ذلك يبدي الفارق الكبير بين هذه القصور الفسيحة الارجاء ، وبين هـذه المنازل القذرة التي كانت مأوى السواد الاعظم من سكان المدن .

اما الهندسة المدنية التي حفظت مبانيها أكثر من الاولى ، فقد قام فيها فروق بارزة اوجدتها مقتضيات العبادة ، سواء أكانت مساجد او كنائس . والقضية المشتركة التي كان على المهندسين مواجهتها وحلها بالتي هي احسن ، تنحصر في السقف الواسع الذي كان يجب ان يغطي الردهة الكبرى المعدة لاجتماع المصلين . وهكذا راح المهندسون المعماريون ، في كل من القسطنطينية وايران ، يتعاونون معاً لاقامة قبّاب او قناطر من الآجر ، بينما استعمل مهندسو ارمينيا وسوريا ، ثم البلقان ، الخشب لسقف كنائسهم المبنية بالحجر . وقد أدى التطور الذي رافق إقامة القباب في كنائس بيزنطية ، الى جعل السطح بشكل صليب يوناني .

فاذا ما زالت معالم الكنيسة الاولى التي بناها الامبراطور باسيل الاول ، فلا يزال قائماً لليوم ، سواء في القسطنطينية ام في الولايات التابعة لها ، كنائس عديدة متواضعة المظهر ، استحال بعضها الى مساجد وجوامع . ان عهد السلالة البغراتية هو بالفعل العصر الذهبي للهندسة المعمارية عند الارمن ، كما يبدو ذلك في هذه التحفة الفنية الرائعة التي تتمثل على أتمها في كاتدرائية آني ، ومـا تركته من اثر بيّن في كنائس جيورجيا ، ولا سيما في كاتدرائية عاصمتها القديمة كوتائيس .

اما المسجد الذي هو عبارة عن بهو او صالة كبيرة لا مكان فيه لحنية او هيكل ، فهندسته لم تثر أية مشكلة او صعوبة . فمسجد ابن طولون ، في القاهرة (اواخر القرن التاسع) استوحى خطوطه الكبرى من مساجد بغداد العباسية . وبقيت هذه الهندسة مرعية الجانب في عهد الدولة الفاطمية ، كما يظهر ذلك بوضوح ، في مسجد الحاكم الذي استوحيت في هندسته بعض العناصر البنائية المستعملة في الغرب وطبقت في بناء جامعة الازهر . اما في افريقيا ، فروائع الفن المعماري الهندسي ، تتمثل في مسجد القيروان الذي تم تشييده في مطلع القرن التاسع ، ودخلت في هندسته عناصر مستوحاة من عمارة المساجد في الشام والعراق . اما في الاندلس ، فتحفة الفن الهندسي فيها ، هي مسجد قرطبة الذي استمر البناء فيه اكثر من قرنين (القرن التاسع والعاشر) . اما في ايران حيث مواد البناء لم تقوَ على مغالبـة الزمن وعوامل الفناء ، والهزات الارضية الكثيرة الوقوع ، فلم يبق لنا شيء يذكر مما سبق بناؤه القرن التاسع ، وهو العهد الذي قام فيه مسجد أصفهان الكبير الذي أدخلت عليه فيما بعد ، تعديلات واضافات جديدة . ونحن مدينون لايران بهذه الاضرحة التذكارية الكبيرة التي تنتهي ببرج او قبة هي التي أوحت بالطراز الجديد للمساجد

الجنائزية . وبعد ان اضيفت على هذه المساجد ابراج حلزونية الشكل مستوحاة من الفن القديم للعمارة ، في البلاد ، انتهت بظهور هذه المآذن المستديرة التي تنتصب مرتفعة نحو السماء والتي تختلف كل الاختلاف عن هذه المآذن المربّعة الشكل ، ذات الادوار او الطبقات الضخمة التي شاع استعمالها في مساجد بلدان حوض البحر المتوسط . ومما يلفت الانظار في هذه المساجد ، بعد ان يجتاز المرء الساحة المسورة التي تحيط بها ، وبعد ان يدخل بهو الجامع وصحنه ، هو هذه الأعمدة العديدة التي كثيراً ما تعلوها اقواس او قناطر متنوعة الأشكال ، من هلال الى قنطرة كاملة .

ويوحّد بين المهندسين النصارى والمسلمين رغبة قوية في زخرفة المبنى وتحليته (الديكور). فقد زالت تماماً ، معالم التماثيل والشخوص والنقوش الضخمة ، اتفسح المجال لفيض من الرسوم والزركشة للمسطحات عن طريق الألوان او عن طريق نقش الحجارة وتفريغها ، او عن طريق التلبيس او التكفيت . وكم سمعنا ورددوا على مسامعنا ان الاسلام حرّم ويحرّم تصوير الكائنات الحية في المعابد . فهذا القول لا يخلو من تشدد وعنت ، لا نرى قط الايرانيين يأخذون به او ينزلون عند حدوده . فالمسألة لم تكن لتعني تصوير ذات الجلالة ، بهيئة انسان ، او على شكل حيوان مهما كان كريماً ، اذ ان الله روح يعلو فوق كل مادة وعَرَض ومخلوق ، كما لا يعني تمثيل الكائنات لذاتها . فالفنان المسلم لا يتحرج قط ، ولنا على ذلك امثلة عديدة ، عن تزيين المباني المدنية بكل ما لديه من وسائل التحلية والزينة : من نبات وحيوان وانسان ، اذا كان في هذه الرسوم ، ما ينهض بأسباب الفن ، او يزيد من قوة جاذبية التحلية ، في اي المظاهر التي تبدو عليها ، وفي اية حالة من الحالات ، كالصيد والقنص والحروب . والثابت هو ان الفنان في البلاد السامية ، همه الاول ان يأخذ من الكائنات رمزاً يُسقِط منه ما له من معالم حسية ليصل منها الى فكرة التجريد ، بما توحيه هذه الحبائك والشجرات والدوائر الهندسية ، والخطوط الكتابية المتشابكة التي راجت رواجاً عظيماً في العالم الاسلامي . وهذه النزعة بالذات لم تكن غريبة عن الفنان البيزنطي نفسه بالقدر الذي يُظن او يذهبون اليه ، صحيح ان هؤلاء الفنانين لا يترددون قط منذ بدعة محطمي الصور والايقونات ، في تصوير القديسين والألوهية نفسها ، في الكنائس . الا انهم على عكس الفنانين في الغرب الذين نزعوا دوماً الى تجسيد او تشبيه قصص الكتاب المقدس ، ليبشّروا بذلك ، عن لاهوت مجرد ، بأشكال وصور لا تتغير ولا تتحول ، هي فوق البشر ، لا تعود اليها الحياة الا عندما يستطيعون التصرف بفنهم بكل حرية .

والفسيفساء ، هذا الفن الذي يمكن وصفه بالفن الارستوقراطي والذي طالما ركن اليه الفنانون وعولوا عليه في الاجيال الاولى من تاريخ البيزنطيين والاسلام ، راحت بيزنطية تستبدله او تستعيض عنه بالاكثار من الافاريز التي تكلف ما تكلفه الفسيفساء ، من نفقات . فالشواهد العديدة التي وصلت الينا من المباني الواقعة خارج القسطنطينية ، تبدو احياناً فخمة ، كما نرى ذلك في كنيسة القديس مرقس في البندقية (القرن الحادي عشر) ، وفي صقلية النورمندية

(القرن الثاني عشر) ، وفي مدينة كييف (القرن الحادي عشر) ، واكثر بساطة في الكنائس الواقعة في الملحقـــات ، ككنيسة دفنة في اليونان ، واحياناً كنائس من ذوق شعبي خشن ، ككنائس قبادوقية « الكهفية » التي عثر عليها من عهد قريب . ومع ان العالم الاسلامي عرف استعمال الافاريز ، فقد فضّل مع ذلك استعمال القاشاني المغطّى بالمينا والذي تفننت مصر كثيراً بصنعه . اما ايران ، فقد اشتهرت بصنع البلاط المربع ذات اللمعان المعدني ، فاستعملت مجموعة كبيرة منه في مسجد القيروان . ولكي يستروا المبـــاني المصنوعة من القرميد البسيط ، راح الفنانون ، سواء البيزنطيون منهم او المسلمون ، يغطّون السطوح بطلاء متعدد الالوان . امـــا المرمر ، فقد أقتصروا استعماله على الداخل ، واستعملوا فيه جميع العروق . اما الفنانون في ايران الشرقية فقد حاولوا ان يخلقوا نوعاً من التحلية بمجرد رصف الآجر دون الركون الى الألوان .

اما الزركشة والتزيين بالحفر فلا يستعمل الا في تيجان الأعمدة والكورنيش. كذلك الجدران المخرّمة التي بالغوا في دقة صنعها ، فيكثر استعمالها ، بالاحرى ، تحت القناطر والقباب والسطوح التي لم تكن مرصوفة بالفسيفساء . وتكتمل اسباب الزينة بوجود الأرتجة الضخمة والمفروشات والطنافس والسجاد .

فبعد ان زهدت الهندسة المعمارية بالحفر والنقش ، راح هـــذا الفن يثأر لنفسه بسيطرته على الفنون المعروفة بالفنون الصغرى . فالاخشاب الثمينة تُحفر في العالم الاسلامي وتستخدم فيـــه على نطاق واسع ، في المساجد وفي المنابر . كذلك التكفيت والترصيع فهو من هذه الفنون التي اختص بها الاسلام . واستعمال العاج يبقى رائجـــاً على نطاق واسع في بيزنطية ، لما كانت الارستوقراطية فيها ، ميسورة ، ثرية ، قادرة على إقتناء الصناديق الخشبية التي تحمـــل نقوشاً تنبض بالحياة ، وهو فن بقي مستعملاً في جميع ارجـــاء البحر الابيض المتوسط : في مصر ، وصقلية والاندلس . واشتهرت بيزنطية بالابواب الضخمة المصنوعـــة من البرونز وبمصنوعاتها الفضية ومجوهراتها المنقوشة والمطعمة . وكنا نرى في العالم الاسلامي الصحان الكبيرة والصواني الواسعة ، والمغاسل النحاسية ، والمصابيح المصنوعة من البرونز ، المستوحاة نماذجهـا من الفن الساساني ، والتي كانت تصنع كذلك في مصر وفي الاندلس ، كما كانت تصنع في العراق وايران، فنالت شهرة واسعة لا يزال يفيد منها من راحوا يقلدونها ، حتى في عصرنا هذا . والاسلحـــة الفنية المصنوعة في الهند اولاً ، ثم في دمشق وقرطبة لم تكن لتقل عنهـــا شهرة . وفي صنع الحلي والجوهرات والدمى ، كانت بيزنطية تخضع ، كاوروبا نفسها ، لفن سكان البدو ، الذي لم يُعرف كثيراً في الاسلام .

ومن الفنون الخاصة ببيزنطية والغرب ، تحلية المخطوطات وتزويقها بصور ورسوم دينيــة ، يضاف اليها احياناً صور بعض الامراء ومشاهد مأخوذة من الحياة اليوميـــة . وفن تزويق

المخطوطات الذي مارسه المسيحيون في البلدان الاسلامية ، لم يلبث ان انتقل الى المسلمين في أقطارهم ، فراحوا يزينون العديد من الكتب الاسلامية الدينية كالقرآن ، مثلاً . ولم يصل الينا نماذج سابقة للقرن الثاني عشر . والتحف الفنية لفن التزويق الايراني التي وُضعت بعد هذا العهد بكثير ، جاءت وليدة عوامل ومؤثرات اخرى .

اما الخزفيات التي استعملت على نطاق واسع في جميع انحاء العالم الاسلامي، ولا سيما في مصر وايران ، فأمدّتنا بصحائف وصوان واطباق ترفل بمشاهد متنوعة ، وبعضها عطل من كل حلية، وان وجدت فغاية في البساطة . وقد عرفت بيزنطية هذه الصناعة ، انما على نطاق ضيق . الا انها اشتهرت على الاكثر بصناعة الزجاج ، فلم يبق من مصنوعاتها سوى عدد قليل يحفظ معظمه بين مجموعة كنيسة القديس مرقس الفنية ، في البندقية ؛ وهي صناعة تمثلت على احسن وجه ، في العالم الاسلامي، سواء في سامراء وفي الغرب وفي مصر، حيث اضيفت اليها صناعة البلوريات، وقد عرف الصناع ان يتفننوا كثيراً بمصنوعاتهم ، فلونوها واستعملوا الزجاج مع المعادن . وقد عرفوا كذلك صناعة النوافذ الزجاجية الملونة وان لم يبلغوا فيهـا مبلغ الصناع المسيحيين في الغرب .

وقد اشتهر الشرق الادنى بصنع الانسجة الفاخرة التي استعملت في الملابس كما استعملت لأمور الزركشة والتحلية . وقد اطنب الادباء وصفاً بصناعة الديباج والخز ، كما تفنن الصناع في استعمال هذه النسائج في اعمال الزينة، وهي مصنوعات عرفت في بيزنطية قبل الاسلام، وقامت لها دور ملكية في بيزنطية ، كما عرفت بغداد والقاهرة وقرطبة دور طراز ، اخرجت لغراة القوم واعيانهم ، منسوجات حريرية ملصّبة نسجت بأسلاك الفضة والذهب ، لا يزال باقياً منها للآن نماذج رائعة في بعض الكنائس القديمة في الغرب . اما فن صناعة السجاد الذي اشتهر بها الشرق منذ عهد بعيد ، فلم يصلنا شيء مما تم صنعه قبل اواخر الاجيال الوسطى . كذلك عرفت صناعة الجلود فنا عظيماً جوّد فيه الصناع المسلمون وأتقنوه للغاية . فالكلمة الفرنسية *Cordonnier* (اسكافي) اشتقت من اسم مدينة *Cordoue* التي اشتهرت بهذه الصناعة . كما ان صناعة الجلود الثمينة جاءت هي الأخرى من كلمة *Maroc* المغرب الذي جوّد هذه الصناعة .

اما البلدان السلافية التي كانت حضارتها على مستوى أدنى ، فلم تعرف اذ ذاك ، فناً خاصاً بها . صحيح ان الاصنام الخشبية التي وُجدت عند صقالبة الغرب ، لفتت اذ ذاك، انظار الرحالة والمسافرين ، كما ان مخلفات قصور الامراء البلغار هي أكبر شاهد ، على انتقال التقاليد الساسانية عبر الهضاب الصحراوية . كل ذلك ، مخلفات حقيرة ليس لها شأن يذكر ، فليس من عجب ان أعرض عنها العالم المسيحي ويزهد فيها . وقد كان من نصيب الفنانين البيزنطيين ان يحملوا الى الصقالبة فناً متكاملاً ، لم يلبث ابناء البلاد ان اقبلوا عليه يتمثلونه ، ويقبسون منه ما شاء لهم

القبس ، بعد ان تتلمذوا عليه .

وهكذا نرى ان الازمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية التي هزت الشرق الادنى من اركانه ، كانت اعجز من ان تسبب ، في الحال، انهيار المدنية. إلا انها مهدت الطريق وأفسحت المجال امام عوامل وقوى جديدة، لم تلبث ان اثرت تأثيراً عميقاً في هذه المدنية ، وهددتها بخطر ماحق نزل بها في القرن الحادي عشر .

الفصل السابع

الحضارات الآسيوية في الأوج
(من القرن السابع حتى الثاني عشر)

في القرون الاولى من تاريخ الاجيال الوسطى التي شهدت في الغرب ، انطواء العالم المسيحي كما شهدت ، في الشرق الادنى ، ظهور الاسلام وانطلاقه كالشهاب الراصد ، عرفت البلاد الآسيوية ، من جهتها ، درجة رفيعة من الازدهار سجلت معها مدنياتها المختلفة رقماً قياسياً في جميع هذه البلدان . ففي مطلع هذه الحقبة ، أي في غرة القرن السابع ، كانت الامبراطورية الساسانية على قاب قوسين وادنى من انهيارها وزوالها . أما الهند ، فلم تلبث ان نهضت من كبوتها ، بعد ان نفضت عنها غبار الدمار والخراب الذي انزلته بها الغزوات الماحقة التي قامت بها قبائل الهونز ، وراحت اسرة هارشه ده كانوج تسعى ، على مثال اسرة الغوبتا ، لتعيد اليها وحدتها . أما الصين ، فبعد ان تغلبت على غزاتها من الاتراك والمغول بفضل السياسة الرشيدة التي اتبعتها سلالة تانغ الجديدة ، راحت تبسط سيطرتها وسلطانها على التركستان والتونكين ، وشمالي مقاطعة الانام ، بينما ربطت الاقطار الاخرى الواقعة على سواحل البحار الجنوبية مصائرها بالهند ، واخذت تتطور وتتكامل تحت حمايتها ورعايتها ، فتمهد بذلك لهذا الازدهار الذي تميز بهذه الروائع الهندسية الفخمة التي تتمثل على احسن وجه في هياكل انككور وبارا بودور ، كما راحت أقطار جديدة تعب ، بملء رئتيها ، من الحضارات الآسيوية . فهذه هي التيبت التي اعتنقت البوذية ، لن تلبث ان اصبحت ، على شاكلة الترك ، خصماً عنيداً للصين ، وملاذاً للبوذية الهندية ، وحمى لها توفر لها الرعاية والحماية . أما اليابان فقد اخذت ، هي الاخرى ، تستيقظ من سباتها العميق ، وتقتبس بدورها من مقومات الحضارة الصينية ، ولم تمتم ان كشفت عما هي عليه من الصفات والمناقب التي لن تلبث ان ميزتها وفردتها . وحركة التطور والتكامل التي اخذت الاقطار الآسيوية باسبابها ، وجدت جذورها الكبرى في الهند والصين . فكلاهما استطاع ان يحافظ على مناطق نفوذه التقليدية التي عرف ان يسيطر عليها : الصين في التركستان والتونكين ، والهند في المناطق الهند الصينية واندونيسيا ، كما استطاع كل منهما ان يحتفظ بمناهجه وأساليبه الخاصة ، اذ في الوقت الذي كانت فيه الصين تعتمد على القوة والبطش في

سياستها وتعمل على توطيد النظم الادارية التي اتقنتها ، واحتفظت الهند ، مع البلدان الدائرة في فلكها ، باحسن العلاقات واطيبها في المجالات التجارية والدينية والثقافية .

عند هذا القدر نقف في هذه الموازنة ، وهـــذه الازائية التاريخية التي تقابل التطور الذي اخذت الاقطار الغربية باسبابه والمدنية التي اطلعتها . فلا نرى في آسيا حول هـــذه العطفة التاريخية التي تكونت من سنة الالف ، شيئاً يمكن مقارنته بهذه اليقظة ، هـــذا الانبعاث الذي دب في الغرب الآخذ باسباب النظام الاقطاعي ، كما لا نرى شيئاً يمكن ان نقارن به هذا الانقلاب الجـــذري الذي قلب الشرق الادنى ، رأساً على عقب . صحيح ان الامبراطوريات الاسيوية الكبرى ليست بمعزل او بمنأى عن اي تغيير او تبديل ، ولا مؤسساتها ونظمها متحجرة بحيث لا تقبل التبدل . فهنالك اخطار كثيرة تترصدها ، يتحتم علينا تحديدها وتبدّل باستمرار من حدودها واوضاعها ، قبل ان تحمل اليها الخراب . ومع ذلك فقد استطاعت ان تحافظ على مقوماتها الاساسية مدة اطول وان تصونها من عبث العابثين . فليس من فجوات عميقة يلحظها المؤرخ في تاريخ هذه الامبراطوريات ، قبل طلوع الفتح المغولي الذي اخذت بوادره ترتسم منذ فجر القرن الثالث عشر ، فبعد ان عبثنا قليلاً بالترتيب الزمني الذي نحاول ان نرسم ضمنه التطور المتوازي لهذه المدنيات البشرية الكبرى ، علينا ان نكشف ، في هـــذا الفصل ، عن الخصائص المميزة لهذا العالم الاسلامي كما تبدت لنا من خلال تطوره التاريخي حتى السنوات الاخيرة من القرن الثاني عشر او ابعد من ذلك بقليل .

هي نظرة خاطفة ، جريئة نلقيها على تاريخ هذه القارة الشاسعة ، خلال حقبة من الدهر على مثل هذا الاتساع ، والمدى الذي نيّف على خمسمائة سنة . هنالك امران يساعداننا في الكشف عن الطابع المميز لوحدة التاريخ هنا ، بالرغم من تلـــك الاحداث الكثيرة كما يساعداننا على التسامي فوقها ، همـــا : انتشار البوذية وتوسعها ، في بدء هذه الحقبة ، والنشاط البالغ الذي عرفته الحركة التجارية ، طوال هذه الحقبة بالذات .

انتشار البوذية

في هذا العالم الاسيوي ، كما يبدو لنا في القرن السابع ، الذي ينعم بالاستقرار الموقت وبالازدهار ، كما يظهر ، تلعب البوذية ، دوراً اساسياً . فالبوذية ، تنعم في الهند رسمياً برعاية الامبراطور هارشا ، والمناطق التي تسيطر عليها كجزيرة سيلان ووادي نهر الغانج ، هي اراض مقدسة . وقـــد بلغت البلدان الواقعة على سواحل البحار الجنوبية وتغلغلت بين شعوبها ، واقامت لها في التركستان نفسه ، نقطة ارتكاز قوية ، أشعّت منهـــا بعيداً . وقد اغدقت عليهـــا اسرة تانغ ، الصينية ، الانعامات السابغة ، وساعدتها على ايفاد كتائب من المرسلين والمبشرين والحجاج ، الى الهند والبلدان الواقعة الى الشرق من القـــارة الاسيوية ، وبلغت التيبت التي كانت بقيت ، الى ذلك الحين ، مغلقة في وجه المؤثرات الاجنبية ، كما دخلت اخيراً كوريا واليابان ، حيث استقرت ، وازدهرت بفضل ما عُرفت به من روح

مسكونية ، اذ كانت عنصراً ضاماً ولحمة ربطت بين اشتات المدنيات التي لفحتها وتغلغلت بين ثناياها . فاينا حلت ونزلت ، ساعدت على بعث مذاهب ونزعات فنية حملت معهـــا ليس تيار المؤثرات المختلفة التي عملت على نشرها فحسب ، بل ايضاً العبقرية التي ميزت كل قطر من هذه الاقطاره بمفرده .

قام خلال القرن السابع سلسلة متصلة الحلقات من قوافل الحجاج الصينيين بغية زيارة الهند والمراكز البوذية المشهورة في الانسولاند والتركستان ، يبحثون جادين في اثر الوثائق والاسانيد التي كانوا بحاجة اليها ، ويحرصون على جمعها وحفظها . وقامت ركبان اخرى ، في القرون اللاحقة ، تؤم اليابان التي ارسلت بدورها العديد من الوفود الدينية الى الصين. وقد علّق البلاط الامبراطوري في الصين ، اهمية كبرى ، على تبادل هذه الرحلات وتنظيم هـــذه الاسفار ، بين الجانبين ، اذ كثيراً ما اردف الوفود التي كان يرسلها ، بكاهن له شخصية لامعة ، كثيراً ما عهد اليه بمهمات دبلوماسية ، وكان هـــذا الكاهن موضوع احترام كبير ، كما تم للراهب يي تسنغ ، الذي استقبلته عند رجوعه ، الامبراطورة نفسها ، عندما بلغ البوابة الرئيسية من جهة الشرق، على قرع الطبول والزمور وتصداح الموسيقى ، على رأس وفود من الرهبان جاؤوا من كل اديار البوذية ومعابدهم في العاصمة ، حاملين الاعلام والمظلات ، سائرين على انغام الاجواق الموسيقية والتراتيل الدينية . ان عدداً كبيراً من هؤلاء الحجاج لم يعودوا قط لبلادهم ، إما لانهم استقروا نهائياً في البلاد التي هبطوا فيهـا ، او لانهم قضوا نحبهم في طريق عودتهم ، لما تعرضوا له من الاخطار الكثيرة التي هددت حياتهم : من بحار هائجة تمخر عبابها سفن تجارية سريعة العطب ، او من وقوعهم في ايدي القراصنة الذين كانوا يعبثون بطرق المواصـــلات البحرية والبرية على السواء ، او من وقوعهم اسرى بين ايدي اللصوص وقطاع الطرق الذين كثيراً ما جردوهم من امتعتهم وملابسهم او قتلوهم، او المخاطر التي كانوا يصادفونها في الاحوال الجوية والمصاعب البرية كالرمال المائعة التي كان يغوص فيها سالكها ، وغير ذلك من جهد وضنك وعناء عندمـــا يحاولون قطع هذه الطرق والمسافات الشاسعة التي تباعد بينها .

نشاط الحركة التجارية

ففي الوقت الذي راحت فيه قوافل الحجاج والوفود الدينية تهزأ بهذه المخاطر العديدة التي تعترض طريقهم ، نشطت نشاطاً كبيراً الحركة التجارية التي قامت بين البلدان الواقعة على سواحل بحار الجنوب وبين الاقطار الاخرى في آسيا. فالسفن الصينية الكبيرة التي كان باستطاعتها ان تشحن من ٥٠ - ٦٠ طناً ، كانت تمتار من جزر السوند وتستبضع ما طاب لها من مواد ، بينما كانت سفن العرب تلمع باسيخ - تشو ، في الوقت الذي كانت فيه سفن جزيرة جافا المصنوعة من الخيزران ، تتجه غرباً لملاقاة التجار المسلمين . صحيح ان الاخطار الناجمة عن هذه الملاحة التجارية التي عرفت ان تعتمد على الرياح الموسميـــة كانت كبيرة لكثرة حوادث الغرق التي طالما ادت اليها ، ولهجوم القراصنة عليها ، او التحول

عن خط السير في الطريق المرسوم لتفادي هيجان البحر ، او بيع البضاعة بسعر بخس جداً عند حراجة الموقف ، مع ان الناس في المرافىء والاسكلة البحرية ، ينتظرون وصولها بفارغ الصبر، كما ان مستودعات التخزين في المرافىء ، كانت عرضة للحرائق ، عدا عن رسوم الدخولية والباج المترتبة على التجار ، مع العلم ان الصينيين كانوا يدفعون ابهظ الرسوم وأثقلها، اذ ان وسق سفنهم كان يبز الجميع . ومع ذلـــك ، فحركة المقايضات التجارية هــذه التي وصفها لنا الرحالة العرب بكثير من التفصيل والاسهاب ، كانت تقوم على قواعد راسخة ، ثابتة ، كما نعمت بالازدهار .

وقد بلغت الحركة التجارية هـــذه مدينة كنتون ، وهاي ـ تشيو على مصب نهر هواي ، ومدينة يانغ ـ تشيو على مصب نهر اليانغ تسيو ، كما بلغت مقاطعة فو ـ كيان . والقناة الكبرى التي تم فتحها بأمر الامبراطور يانغ ـ تي ، والـتي جرى توسيعها فيما بعد بأمر من الامبراطور سواي (٦٠٥ ـ ٦١٧) ، سهّلت وصول الملاحة البحرية والنهرية الى داخل البلاد . وعند بلوغ التجار مرفأ يانغ ـ تشيو ، وهو مرفأ دولي نشيط الحركة ومزدهر التجارة ، كان وكلاء الامبراطور يتسلمون البضائع ، ويحتفظون بها في العنابر الحكومية لمدة ستة اشهر . وكان البائع يدفع للشاري مبلغاً من المال تأكيداً منه وضماناً لجودة بضاعته ، بينما يأخـذ الاخير على عاتقه بعض الاخطار التي قد تتعرض لها البضاعة . وفي نهاية الرياح الموسمية عندما يكون البائـــع على أهبة مغادرة المرفأ ، تصبح الصفقة التجارية قطعية ، اذ يعمد وكلاء الامبراطور الى قبض ثلاثة اعشار البضاعة ، ويسلمون الباقي للشاري . اما اذا كان الامبراطور هو نفسه الشاري ، فيدفع نقداً ضعفي الرسم المفروض ، لا سيما اذا كانت البضاعة كافوراً . وكان الاجانب الذين يتجولون داخل الصين ينعمون ببعض الحماية . كذلك كان عليهم ان يبرزوا جواز سفرهم والترخيص المسبق لهم ولتجارتهم ، والتصريح عن المبالغ التي يحملونها . وكانت هذه الرخص تبرّز في كل مركز لجباية الرسوم الـتي تمرّ بها البضاعة .

وفي الواقع ، فقد ألفت الصين ، خلال اجيال سحيقة ، ولا سيما من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر ، سوقاً ممتازة لتجار الخليج الفارسي ، وللتجار المسلمين القادمين من بغداد ، اذ كانت الأسعار مقبولة ، وتدع مجالاً لتحقيق ارباح طائلة عند طرفي المحيط الهندي . وهكذا نشطت حركة تجارية عارمة بين العراق والصين ، على طول المراحل والمحطات العديدة التي تمركزت في قواعد : كيداح (شبه جزيرة الملايو) وامبراطورية الخمير ، وصومطرة ، وجافا ، بالرغم مـن تباين العملات التي كانت الصفقات التجارية تتم على اساسها ، سواءً أكانت نقداً ذهباً ، ام فضة ، في الهند ، او نقداً من الفضة ، وسبائك النحاس ، في الصين او عبـــارة عن مقايضات عينية في بحار الجنوب . والوزن المعمول به في الصين وبلاد الخمير وفي غيرها من البلدان ، كان القبّان المعروف بالقبـــان « الروماني » ، انما بموازين صينية . والنشاط الذي عرفته حركة المقايضات التجارية ، كان تعبيراً عن ازدياد مطالب العالم الآسيوي بأسره وحاجاته المتنوعة ، ولم تكن حاجات الهياكل والاديار دونها جميعاً فلنبين عن كثب ، لائحة الاصناف المستهلكة يومياً في

هيكل تا ـ بروهم ، احد الاديار المهمة في كمبوديا ، في القرن الثاني عشر ، وهي : ٧ أطنان من الارز غير المقشور ، و ٦٤ كيلو غراماً من السمسم ، و ٤٨ كيلو من الفاصوليا ، و ٢٠ كيلو من القمح الاسود ، و ٣ كيلو من سكر القصب ، و ٥ ليترات من الزيت ، و ١٢٠٠ غرام من الزبدة المذوبة . والتبرعات الملكية التي يجود بها الملك ، كل سنة ، لم تكن تقل شأناً عن هذه الكميات ، وهي ٢٦٧٩ طناً من الارز غير المقشور ، و ٤٠ طناً من الرصاص ، و ٥٢٦٤ كيلو غراماً من المصنوعات الذهبية ، و ٣٨٦٠ كيلو غراماً من المصنوعات الفضية ، وبضع مئات من الكيلوات من النحاس الاحمر والنحاس الاصفر والقصدير ، و ٣٥ الماسة ، و ٤٠٦٢٠ لؤلؤة ، و ٤٥٢٠ حجراً كريماً ، و ٥٢٣ مظلة ، و ٩٦٧ قلوعاً صينياً ، و ٥١٢ سريراً من الحرير ، و ٢٣٨٧ بدلة معدة لأكسية التماثيل والاصنام .

وفي الدرجة الاولى بين المواد التي كانوا يتجرون بها ، تأتي المعادن على انواعها . الذهب الذي كان يؤتى به من مناجم صومطرة وكوريا ؛ والفضة من مناجم شبه جزيرة الملايو ، بالاضافة لما كانوا يسمونه «الرصاص الابيض»، او الزئبق الذي كانت الصين بحاجة اليه لتأمين مطالب علمائها، والنحاس الذي لم يكن بد منه لسك النقد ، والحديد الذي اشتد طلب اندونيسيا عليه بعد ان كانوا يقايضون به جوز الهند ، والنفط اللازم للسفن الصينية . ويأتي بعد ذلك ، الأخشاب الثمينة كالبقم (*Campêche*) الذي كان اكبر انتاج شبه جزيرة الملايو ، والصندال الذي كانت الهند وبلاد الخمير تنتجانه بكثرة ، والخيزران ، والكافور لمنافعه العديدة ، اذ كان يستخرج منه زيت الكافور ، ذات القيمة العالية لدى التجار العرب والصينيين ولا سيا امبراطورهم على السواء، وخشب التيك في الهند وكمبوديا وأخيراً الابنوس . والعطور والطيوب على أصنافها العديدة ، منها : المقر او الصبر الذي كان ينبت اصلاً في مقاطعة أسّام والتي كانت اجود اصنافه تأتي ، مع ذلك ، من مقاطعة تشمبا وبلاد الخمير ، والبخور الذي كانت الصين تستورده ، والمسك الذي كان عبارة عن قوح يعطيه بعض الماعز البري الذي كانوا يصطادونه في الصين وفي التيبت بعد برميه بالنبال او نصب الشباك . وأفخره على الاطلاق عند سكان الخليج الفارسي ، النوع الذي كان يؤتى به من التيبت ، عن طريق القوافل البرية ، بينما المسك الصيني والاخر الذي يؤتى به من جزيرة صومطرة ، كان سريع الفساد والتلف عندما يتعرض لرطوبة البحر . ولذا كانوا يعمدون لصرّه في نوافج ويضعونه في أوعية مقفلة اقفالاً هرمسياً . وهذا النوع من المسك كان يؤخذ من بعض الجرذان المسكي . وتجارة التوابل والافاويه التي اشتهرت بها الهند وبلدان جنوبي آسيا الشرقية : كالفلفل على أنواعه ، وجوز الطيب ، وكبش القرنفل الذي كان يؤتى به من مقاطعة كيداح ، وحب الهال الذي كان يطلع في بلاد الخمير ، والكبابة او حب العروس ، والصعتران الذي كان يصدّر من الهند وكمبوديا ، والقرفة ، يجب الا تنسينا تجارة بعض المواد الطحينية الغذائية كجوز الهند الذي يستخرج منه الزيت ، وزيت الورون المستورد من الصين ، وسكر القصب والارز وغير ذلك من الحبوب . وبين المواد الثمينة الاخرى يجب ان نذكر العاج الذي كان

يؤتى به من الهند ومقاطعة كيداح وبلاد الخمير ، والعنبر او الند الذي يؤتى بـــه من الصين ، وحراشف السلاحف البحرية يؤتى بها من البلاد الواقعة على سواحل بحار الجنوب، وقرن وحيد القرن من جافا وكمبوديا، وغير ذلك من المواد الثمينة التي كانت تدر على التجار العرب والمسلمين مكاسب طائلة ، اذ زبائنهم من الصينيين كان يهمهم اقتناء سيور يتمنطقون بها ، مرصعة بالحجارة المذهبة او المفضضة وبغير ذلــك من الحجارة الكريمة ، والياقوت الاحمر ، والماس واللآلىء ، والعقيق التي كانت تصدر من الهند وسيلان وغيرهما من بلدان آسيا الجنوبية الى الصين. والى تجارة المواد الصبغية او الكيماوية المعدة للصباغة ، كالزنجفر الذي تصدره الصين ، والكبريت وملح البارود ، وشلش السوسن ، والسنباذج المستعمل في صقل المعادن ، وشمع العسل المستورد مـن بلاد الخمير ، يجب ان نضيف الانسجة الثمينة والفراء : كالانسجة النباتية ، والمخمل ، والجوخ والموسلين القطني، والديباج المزركش بالحرير وأسلاك الذهب . وكلها مواد كانت تصنع في الهند وتصدّر الى الصين، مع غير ذلك من الحصر وقماش القنّب. وكانت الصين تصدّر الفراء المصنوع من جلد السمّور مع ان البلاد كانت تستهلك منه مقادير كبيرة تستعمل كبطائن لمعاطف الشتاء عند الاغنياء ، حتى ان بعض الحيوانات كانت تصدر للخارج كالببغاء مثلاً ، يرسلون بـه من المحيط الهندي الى الخليج الفارسي ، وكلاب الصيد ، تصدّر من المقاطعات الشمالية الغربيـــة في الهند ، الى العراق ، بينما كانت الصين تستورد : الماعز والجاموس والثيران . وبالاضافة الى هذه الاصناف والسلع، هنالك مصنوعات اخرى كانت تصنع في الصين وتنفـّق في الاسواق الخارجية، منها القيشانيات الصينية التي كان يراعى في صنعها اذواق الزُبُن في الخارج ، وأطباق من اللك والنحاس والورق وأمشاط مصنوعة من الخشب، ومظلات، وقدور حديدية، وغرابيل ومناخل وابر ، وبرادع الاحصنة وأحسن أنواع الخفوف وأجملها على الاطلاق تلـك التي كانت تصنع في مقاطعة كمباي ، في الهند . وكمبوديا التي كانت تصدر ريش الرفراف او الورْور ، كانت طريقاً لمرور المرايا الزجاجية الزرقاء التي هام الصينيون باقتنائها وكانت تصنع في بلدان الشرق الادنى.

وقد درت هذه التجارة الناشطة على البلدان الواقعة الى الجنوب الشرقي من القارة الأسيوية ربحاً وافراً ، يتوافد اليها الهنود والصينيون لجمع في مايرغبون في جمعه من الذهب والافاوية لكثرتها ، كما ان عدداً كبيراً من بينهم كان يقصد هذه البلدان ويقيم فيها تفاديـــاً للقلاقل والاضطرابات والثورات التي كثيراً ما كانوا عرضة لها . وقد عاد ذلك على هذه البلدان بالغنى الوافر ، كما ان الاهلين عرفوا ان يفيدوا من هذه الاتصالات المثمرة ، بحضارات الهنــد والصين معـــاً .

الاخطار الخارجية

وهذا العالم المزدهر على احسن وجه ، والذي كان مسرحاً للحجاج البوذيين في القرن السابع يسرحون فيه ويمرحون ، ومرتعاً لرحالتهم امثال : هوان ـ تسانغ (٦٣٠ ـ ٦٤٥) وبي ـ تسنغ (٦٧٥ ـ ٦٨٥) لم يكن ليدور في خلد

انسان ، ولم يخطر على بال احد من السكان ، اذ ذاك ، انه على قاب قوسين من الاخطار الخارجية تهدده بأسوأ مصير ، تلتابه الواحد بعد الآخر ، على فترات متلاحقة ، وجرت عليه الخراب والبوار . هنالك حادثتان ثقيلان رزح تحتها تاريخ هذه البلاد : إطلالة الغزاة العرب على أبواب آسيا الشرقية ، وبروز الغزاة المغول ، في الشمال .

ومنذ اوائل القرن الثامن ، اخذت جحافل الغزاة المسلمين تقرع ابواب الهند وتدق مداخلها من الغرب ، بدافع من الجهاد المقدس فيحتلون تدريجياً المواقع الستراتيجية التي كانت تتحكم بالحركة التجارية مع الهند والصين ، ويدوخون الولايات الشمالية الغربية كافغانستان وتركستان وقد زرعت هذه الفتوحات معها الدمار والخراب بما لم نر له مثيلاً منذ عهد الهونز ، فحطموا كل شيء. وقد شهدت البوذية ، اذ ذاك ، تراجعاً قوياً وانكفاء بعد ما لقيت من منافسة الديانة الهندوكية التي كانت آنذاك ، في ابان ازدهارها ، واخذت تتراجع امام الغزاة العرب يوغلون بعيداً حتى بلغوا المنطقة المقدسة في حوض نهر الغانج . وعندما قضي تماماً على آخر ملوك الدولة البوذية في الهند من أسرة بالا ـ سينا ، كانت البوذية تلفظ في الهند آخر انفاسها ، مع انها البلد الذي اطلع البوذية وشهدها تترعرع وتنمو وتنتشر . وقد عرفت الهند قبل ذلك بقليل ، كياناً مضطرباً : فبعد الوحدة التي حققها الملك هارشاده كانوج ، في النصف الاول من القرن السابع ، عرفت البلاد عهداً من التفسخ السياسي ، اذ راحت الدول الكبرى فيها تتطاحن فيما بينها في سبيل تحقيق السيطرة التامة ، الامر الذي ادى الى حروب واشتباكات متصلة ، كما ادّى ، من جهة اخرى ، الى تشتيت القوى وهدر الجهود ، وانهاك المناطق الاكثر عرضة للخطر . والهند الجنوبية التي كانت بمنأى عن هذه الغزوات لبعدها ، قامت دويلاتها تتناحر فيما بينها وتتقاتل تحزباً منها مع هذه او تلك من الممالك الكبرى . ومع ذلك ، فقد عرفت البلاد عهداً من الازدهار رعى فيها جانب الفنون والآداب . كما استطاع هذا القسم من الهند ان يحافظ على علائقه مع البلدان الواقعة على شواطىء بحار الجنوب ، وبذلك امكن المحافظة على معالم الحضارة الهندية فيها .

اما الخطر الثاني الذي كُتِبَ له ان يبدّل ويغيّر كثيراً ، من معالم آسيا الشرقية ، فقد بدت بوادره تبرز بوضوح ، منذ القرن الثامن . فمنذ عام ٧٤٤ ، اخذ الترك من العرق ويغور ، يلشؤون لهم امبراطورية ، خلفها بعد ذلك بنحو قرن ، امبراطورية اسسها الترك من العرق كيرغز ، فكان ذلك تمهيداً من بعيد، لهذه الامبراطورية الضخمة، المترامية الاطراف التي اقامها المغول فيها بعد . صحيح ان الخطر ، من هذه الجهة ، كان لا يزال بعيداً ، اذ عملية توحيد الاقوام البدوية الرحل الذين كانوا خطراً على الصين من الشمال والغرب ، لم تكن اكتملت بعد ، ولن تتم وتكتمل بكل ما كان لها من نتائج الا في سنة ١٢٠٦ ، اي عندما ظهر جنكز خان .

فانحلال الامبراطورية الساسانية ، وانقسام الهند وتفسخها على بعضها ، والضعف الذي اصاب ملوك تانغ ، والفتوحات التي قامت بها سلالة سونغ ، ثم انكفاؤهم السريع في الصين

الجنوبية ، واخيراً الاضطراب والقلق الذي احدثه المغول ، كل هذه الاحداث الجسام وما اليها هي من معالم هذه الحقبة التاريخية التي امتدت خمسة اجيال بكاملها ، مع ما جرت وراءها من بؤس وشقاء ، وقتل ونهب وسلب ، بما تحمله الغزوات في مطاويهـــا . ومع ذلك ، لا بد من التنويه عالياً هنا ، ان الثقافة البوذية بقيت آخذة في الاتساع والتغلغل طوال هــذه الاجيال ، فانشأت في الهند طرازاً فنياً جديداً هو مـــا يعرف بطراز بالاسينا ، وبطراز تانغ في الصين ، وطراز مدرسة نارا في اليابان ، والطراز الهندي الجاوي الذي سيطر في اواسط جافا ، دون ان تهمـــل الانتاج الفني الذي ازدهر في تشامبا في القرن التاسع ، وفي امبراطورية الخمير ، وفي مملكة الثاي التي قامت في السيام ابتداءً من القرن الحادي عشر . وهذه الثقافة الهندية لم تكن لتقل ازدهاراً في الممالك الاخرى التي قامت في الدكن، كمملكة آل بلافا ، وآل غالوكيا ، وآل تشولا ، وآل باندايا التي اعطتنا مباني هندسية لم يكن لها مثيل في جمالها . ولذا كان لا بد من استعراض نتائج هذا الازدهار الفني ، بلداً بعد بلد .

مصائب الهند وويلاتها

تُبْرِز المعلومات التي يمدنا بهـا الحجاج الصينيون عن الهند ، في القرن السابع ، استمرار التقاليد الهندية وديمومتهـــا ، وتنوع العادات التي سار عليها القوم ، اذ ذاك ، وهـــذا البذخ والجود الذي تحلى عند حكام البلاد وملوكها . فهي تصف لنا بدقة متناهية نظام الطبقات المعمول به في طول البلاد وعرضها ، والفروق التي باعدت بينها ، كالبراهمان الذين جعلوا قاعدتهم المثلى في الحياة الطهارة الى اقصى حدودهـــا ، والنبلاء « *Kshatrya* الذين كانوا من السلالات الملكية » ، والتجار *Vaigia* والمزارعون والفلاحون *Cadria* ، واخيراً طبقة المنبوذين وهم اهل الطبقة الدنيا *Paria* كالجزارين والصيادين والجلادين، الذين اجبروا على الاقامة والسكنى، خارج المدن . فاذا ما خرجوا من بيوتهم وتنقلوا ، ساروا وحدهم منزوين ، ولزموا اليسار من جانب الطريق او الجادة .

فالملك او الامبراطور له الدور الاول . فهو يعطي المَثل في كل شيء كما يختصر في شخصه جميع الفضائل التي يمثلها المحاربون *Ksha Triya* . فالامبراطور هارشا هو صورتها الاتم ، ومثلها الاعلى في نظر الحجاج الصينيين ، وهو المدافع المخلص ، والحـــامي الغيور للبوذية ، ينهج نهج الغوبتا في البذخ والابهة . فقـــد فاز على الاخص ، باعجاب هيوان ـ تسانغ ، الذي نزل عليه ضيفاً بضعة اسابيع، فوصفه : بانه من اثقف رجال عصره، واعلاهم كعباً، فحرص على ان يجعل من بلاطه ملتقى رجال الفكر والادب ، من شاكلة : مايورا ، وبانا ، وضع عدداً من القصائد المستطابة والتمثيليات الحية . وكان الى جانب هذا رجل حرب ، كما دلل على ذلك بمناسبات عديدة ، وكان رجل دولة ، كما برز خلال الحروب والمفاوضات السياسية التي ساعدته على توحيد شمالي الهند . فاذا لم يلتزم دوماً جانب الحياد في الامور الدينية ، فقد نحا مع ذلك ، نحو كبار ملوك الهند ومشاهير عظمائهم ، اذ كان متساهلاً ، سموحاً مع الديانات الهندية الاخرى ، وسار بعيداً في هذا الطريق بحيث افضى الى مذهب توحيد الاديان .

وباعتباره الوريث الادبي لملوك الغوبتا ، فقد نهض الملك هارشا بالمدنية التي خلفوها ، ورفع عالياً مشعل الازدهار الذي حققوه للهند حتى القرن السابع . اما عاصمة ملكه كانيا كوبجا او Kanan وهو الاسم الذي تحمله اليوم ، فكانت موضوع اعجاب هيوان ـ تسانغ ، اذ جاءت شبيهة تمام الشبه بعواصم اسلافه :

« كانت على مقربة من نهر الغانج ، يحيط بها سور عال وخندق ماء عميق . يرتفع فيها الى عنان السماء العديد من الابراج الشاهقة ، وتقوم فيهـا الحدائق الغناء والرياض الفيحاء ، والبرك المائية والاحواض البديعة كأنها صفحة مرآة . اما اسواقها ، فتغص بالبضائع الاجنبية من كل لون وجنس . يرتع سكانها بالهناء والغنى كما ترفل أسرهـا بالرفاه . اينما اجلت النظر ، وقعت منك العين على معارض من الزهور والرياحين والفاكهة اللذيذة . وفيها نحو من مائة دير يضم مجموعها اكثر من ۱۰۰۰۰ راهب ، وفيها نحو من ۲۰۰ معبد لمختلف آلهة الهند ، كما يقوم فيها بضعة آلاف من الخوارج على البوذية » .

وهذا الوصف يمكن اطلاقه ايضاً على المدن والقرى والدساكر في الارياف ، اذ كلها ترفل بنعمة الرفاء والثراء ، كما نجد فيها كثافة السكان . وهـذا الغنى قوامه الاقتصاد الزراعي ، مع العلم ان التجارة كانت ناشطة للغاية ، كما ان المقايضات التجارية كانت على اشدها مع البحـار الجنوبية .

ويفيض الحجاج الصينيون وصفاً وتعريفاً بامور الدين واوضاعه اذ ذاك . فبعد ان شالت الديانة الهندوكية وراجت ، اصبحت كل المراكز البارزة التي سيطر عليها البوذيون من قبـل محوطة بمدن ومعابد هندوكية ، فمدينة بيناريس ، احدى المـدن المقدسة عند الهندوكيين ، كانت تضم نحواً من ۳۰ ديراً للبوذيين ، و۱۰۰ هيكل للبراهمانية ، لم تفقـد لليوم شيئاً من ابهتها وفخامتها :

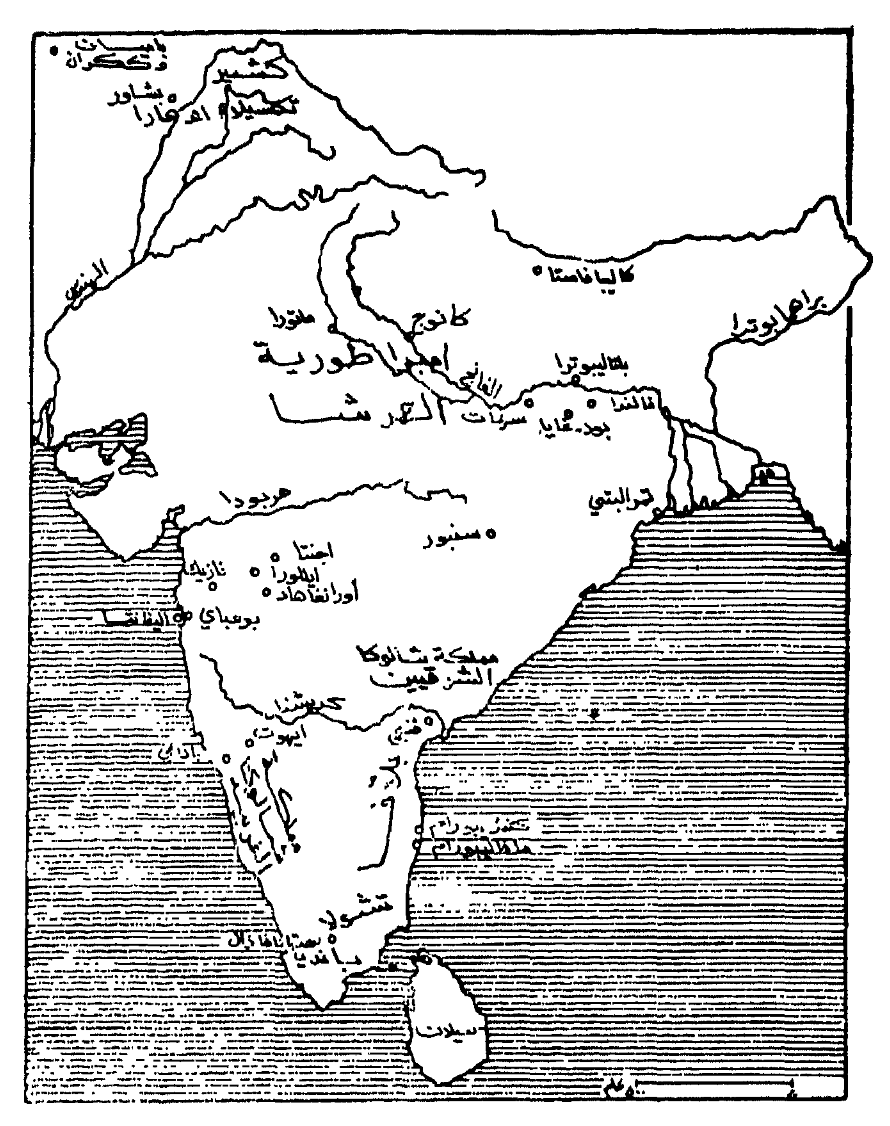
« ترتفع فوقها ابراج من عدة ادوار او طبقات ، ومعابد لها جمال فتان ، صنعت من الحجر المنحوت والخشب بشتى الالوان ، وكلها يقع في رياض غضيضة ، كثيفة الظل ، يترقرق فيها الماء السلسبيل » .

وقد أثار اتباع سيفا اعجاب الحجاج الصينيين ودهشتهم :

« اذ ان بعضهم كان حليق الشعر ، بينما احتفظ البعض الآخر بغدائر متدلية فوق أكتافهم ، وهم عرايا الاجسام تماماً ، لا يسترون عريهم بشيء (فرقة الـ Jaïna) والبعض الآخر يأخذ بفرك اجسامهم بالرماد ويخضعون نفوسهم لأصعب العذابات وأشدها ، فتصبح جسومهم دكناء كالحة . وبينهم من اعتمر ريش الطاروس كما ان بينهم من يغطون اجسامهم ببعض الاعشاب المضفورة ... وهنالك فريق قلعوا شعورهم ، واحفوا شواربهم ، وبينهم من ارخى سوالفهم وأعقصوا شعورهم فوق رؤوسهم » .

اما المباني البوذية والجماعات التي تختلف اليها ، فشيء آخر تماماً . فالمدينة الرهبانية : نالاندا التي كانت ، اذ ذاك ، في اوج عزها ومجدها ـ هذه المدينة التي خربها المسلمون ابان القرن الثالث عشر وجعلوها قفراً يباباً ـ كانت تضم نحواً من عشرة أديار تكون معاً وحدة ، يحيط بها سور من القرميد ، له من جهـة الغرب ، رتاج ضخم . وكان الدير عبارة عن قاعة او بهو مسقوف ،

مربع الشكل تقريباً . اما المباني فكانت هي الاخرى ، تصنع من القرميد ، وتتألف الواحدة من ثلاثة او اربعة ادوار، تضم مساكن الرهبان ، وقاعات للاجتماعات العامة ، واخرى للصلاة،



الشكل (رقم ـ ٨) الهند في عصر الملك هارشا ده كانوجا (٦٠٦ ـ ٦٤٧)

وشرفات . ويفصل بين الدير والدير فسحات واسعة فرشت ببلاط القرميد ، او جرى رصفها بشيء اشبه ما يعرف بالعَدَسيّة ، ترك لنا الرحالة يي ـ تسنغ وصفاً دقيقاً لصنعها. اما الجدران فمغطاة ببلاط مصقول ، مُمزوج بماء الذهب وكسارة الحجارة الكريمة ، وأنشئت فيها ، على مسافات محددة ، مشاكٍ للتماثيل المموهة بالذهب . وهذه الاديار التي تؤلف معاً مجتمعات زاهرة

وجامعات مُشِعّة ، كانت لها املاك واطيان واسعة بينها أكثر من ٢٠٠ قرية تؤمن لها الرزق والمؤن اللازمة . ويرسل عدد كبير من المحسنين يومياً ، لهـذه الاديار ، مقادير كبيرة من المواد الغذائية كالارز والسمنة والحليب اللازم لغذاء الرهبان وتلامذتهم ، كما ان الملك نفسه كان يجود عليهم من عوارفه السابغة ، بهبات طائلة. ويدرّس في هذه المعاهد الدينية أكبر جهابذة البوذيين ، واوسعم علماً ، فيلقنون العلوم الدينية كما يدرّسون العلوم الاخرى ، وهو تعليم ناجح ، رصين ، على مستوى طلاب جامعيين ، بلغوا العشرين من عمرهم ، ونالوا درجات جامعية عديدة . ولا يمر الطالب من صف الى اعلى إلا بعد ان يجتاز بنجاح ، امتحاناً صارماً. ويخضع الطلاب لنظام آمر بني على الحكمة والاختبار البشري. ويترأس كل دير رئيس يكون عادة المتقدم عليهم سناً. والحياة الرهبانية تفرَّغ على ترتيب دقيق ، وفقاً لسير الساعة المائية ، هذه الساعة التي ترك لنا عنهـا بي ـ تسانغ ، وصفاً دقيقاً في كتابه *Nan - hai - ki* ـ الفصل الثالث منه ، ولها جرس يقرع في الوقت اللازم إيذاناً بانتهاء عمل ما وحلول عمل جديد: كوقت الاجتماع العام ، او وقت الصلاة ، او وقت تناول الطعام . وعندما يأتي الليل ، تقفل ابواب الدير ، بعد ان تُركت مفتوحة على مصراعيها طوال النهار ، وتختم ، وتسلم الاختام والمفاتيح للرئيس . وجماعة الرهبان أنفسهم يقضون في امورهم فيأخذون احكامهم بالاجماع ، كما ان جمهور الرهبـان بهيأته الكاملة هو الذي يقرر كل ما يلزم لادارة الدير وأملاكه الواسعة . فكل سرقة او اختلاس ، يعاقب عليه فاعله بالطرد ، في الحال . وهذه القوانين والانظمة ، يخضع لها المبتدئون انفسهم في السلك الرهباني ، كما يخضع لها الطلاب العلمانيون ، ويجبرون عليها جبراً .

والحياة العلمانية نفسها تتأثر الى حد بعيد بمنهج حياة الرهبان في الاديار الهندوكية والبوذية. وهذه الاديار هي ملتقى تجمعات وحشود كبيرة تؤمها في بعض الاعياد التذكارية التي يحتفل بها الشعب ، والتي تصبح مظهراً من مظاهر البذخ والجاه . وكان الملك هارشا ، يقوم في كل سنة بتوزيع المواد الغذائية ، على كل الرهبان في الامبراطورية ، كما كان يعقد ، كل خمس سنوات ، «ندوة الخلاص» ، وذلك في السهل الفسيح الواقع على مقربة من مدينة الله اباد ، عند ملتقى نهري الغانج والجمنا ، ويقوم ، اذ ذاك ، بتوزيع الصدقات ، على نطاق واسع . وقـد حضر هيوانغ ـ تسانغ ، سنة ٦٤٣ الندوة التي وقعت في تلك السنة ، ضمن سياج من القصب يرفع في الوسط برادفات من القش ، حيث توضع الهدايا على اختلافها : من ذهب ، وفضة ، ولآلىء ثمينة وزجاجيات حمراء؟ وحجارة كريمة ، وألبسة الخز والديباج والقطن ، ونقود الذهب والفضة . ويمدّون في خارج هـذه الحظيرة ، غرفة للطعام ، فسيحة الارجاء ، مسقوفة ، وقاعة للاجتماعات تتسع لأكثر من ألف مقعد وكرسي ، يدعى اليها الرهبان واتباع الهندوكيـة ، والنساك العريان ، والبؤساء ، والمعوزون ، واليتامى ، والاولاد الذين لا سند لهم ولا قوام . ويضرب الامبراطور وحاشيته خيامهم على مقربة من نهر الغانج حيث ترسو عمارة من السفن النهرية ، بينما تأخذ الفيلة والجيش مواقفها المعينة ، في السهل . وكانت عملية التوزيع هذه ، تستمر شهرين ونصف ، اذا ما اخذنا

بأقوال هيوان ـ تسانغ ، فتبتدىء بالبوذيين المحتشدين امام تمثال بوذا ، وتنتقل بالتوالي ، الى عَبَدة الشمس حاملين صورة أديتيا ، ثم اتباع سيفا ، ويأتي بعد ذلك اتباع الديانات الهندية الاخرى ، ثم تمر مواكب النساك والزهاد العراة ، ثم مواكب الرهبان والعلمانيين والبؤساء واليتامى . فيوزع الامبراطور كل الاموال التي جمعت في خزينة الدولة خلال السنوات الخمس ، بما في ذلك : « ملابسه الملكية ، واحذيته واقراط الذهب واساوره والاكليل المحيط بتاجه ، واللآلىء التي تزين عنقه ، والدرة الثمينة التي تتدلى من عمّته » . فيهب رجال حاشيته للعمال لشراء هذه الكنوز ويعيدوها الى الملك هارشا ، وفقاً لتقليد سار عليه جدودهم الأولون كان بمثابة رسم او ضريبة يتحملونها طوعاً واختياراً . ويزيد هيوانغ ـ تسانغ على ذلك فيقول : ولكن ما هي إلا بضعة أيام ، فيعود الملك ويهدي هذه الكنوز من جديد ، ويوزعها كما فعل في المرة الاولى .

اما الحياة في مقاطعات الهند الاخرى ، فكانت على مثل هذا النحو المتناقض ، من البذخ والفقر المدقع ، كما كانت عليه في مملكة هارشا . فالسكان ، كأهل الدكن مثلاً ، شديدو السمرة ويتكلمون لهجات مختلفة ، كلهجة تلغو والتامول ، بينما كانت الطبقات الاجتماعية العليا ضالعة بالثقافة السنسكريتية . وقد جعلهم المناخ الاستوائي الذي يعيشون فيه ، على استعداد نفسي للغلو والتطرف : خمول من جهة ، وفيض في الكلام والعاطفة ، من جهة اخرى . وكانت الهندوكية هي المسيطرة بالفعل ، مع ان البوذية كانت لا تزال قائمة على بعض نشاط . وقد دارت بين الجانبين معارك وحروب طويلة تورطت فيها الأسر الملكية الدرافيدية ، التي عرفت كلها ادواراً زاهية زاهرة من الاشعاع الحضاري . وقد استطاعت احداها ، وهي الاسرة الملكية البلافا ، التي سيطرت على ساحل الدكن الجنوبي الشرقي ، ان تقيم لها حضارة ازدهرت حتى القرن التاسع ، فبنت في القرنين السابع والثامن ، الهياكل المشهورة في مدينة : مافاليبودام ، وشدّت من ازر الآداب والثقافة التامولية التي عرفت ، اذ ذاك ، عهداً من الازدهار ، لم تسجل مثله من قبل ، كما كان لها اثر كبير على البلدان المستهندة او التي اخذت بالثقافة الهندية : كالهند الصينية وكمبوديا ، وتشامبا . اما دولة تشالوكيا التي سيطرت على سواحل الدكن الغربية الشمالية والتي تمكن احد فروعها من تدويخ مملكة اندراه القديمة وفتحها ، فقد تركت ، هي الاخرى ، آثاراً حريّة بكل تقدير واحترام . فقد كان ملوكها رؤساء شعب مهرات ، وهو شعب حربي ، شجاع ، باسل ، فاخر افراده بقواهم البدنية ، وربّوا جنودهم ونشأوهم على ذلك ، ولذا راحوا يضرّسون جيوشهم وافيالهم بالحروب ويكوونهم بنيرانها . وقد تركوا ، هم ايضاً ، مباني ضخمة ، تأخذ بمجامع الالباب ، لا يزال بعض هذه العمائر ماثلاً للآن في مدينتي ألورا ، وبادامي (القرن الثامن) .

اما مقاطعات الهند الشمالية الغربية ، فقد تخالطت العروق فيها : كالترك والايرانيين والآريين ، وتمازجت المذاهب والعقائد والاديان ، كالديانة الفارسية القديمة ، والمانوية ،

والنسطورية والهندوكية ، والبانية والاسلام . واستمرت اتصالاتها التجارية ، بحراً مع ايران وبلدان الغرب على اساس من تبادل السلع والبضائع المصنوعة في الخــارج ، كالديباج والخز والسجاد والطنافس على انواعها الكثيرة . فكانت هذه المقاطعات ، بالنسبة لموقعهـا الجغرافي ، اولى الاقطار الهندية ، التي وطأتها سنابك خيل غزاة المسلمين لدى الفتح . ومع ان سكان هذه الاقطار كانت طباعهم الفت الغزوات منـــذ اكثر من الف سنة وهم يتعرضون لها من الميمنة والميسرة ، اذ كانت كلها تتبع طريقاً واحداً واعتادت رؤية الفاتحين يدقون منهـا الابواب بعنف وجلبة ، فقد هبوا جميعاً يستميتون في صد الغازي الجديد ويبذلون ارواحهم في سبيـــل الدفاع عن ديارهم ومنازلهم . ومنـذ ذلك الحين نشأت بينهم عادات واعراف ، لا يزال بعضها قائماً حتى يومنا هذا ، كزواج الاولاد منـذ الصغر ، مغالاة منهم في محافظتهم على نقاء العِرق وصيانته ، والحجر على المرأة وفرض الحجاب عليهــا ، صَوْناً لها من عبث الغزاة وشرود نظراتهم الامارة بالسوء . وكان من نتائج الفتح الاسلامي ، لتلك الاقطار ، ان انكفأت الحياة في الهند على نفسها ، وانطوت على ذاتهـا ، وايقظت ، في النفوس النزعات القومية الغافية بين الاجناس والملل والنحل ، واوقفت تطورها وحجّرته . وبعد محاولة اولى نحو المصالحة ، من آثارها هـذه المساجد الهندية الطراز الماثلة اليوم في مدن غوجارات وكاتياوار ، عادت مقاومة الاهلين تتصلب من جديد . وبذلك طلع على الهند عهـد قاتم ، حالك ، اضاعت معه هذه البلاد استقلالها ، كما استنزفت فيه كل قواها . وهذا السبات العميق الذي استسلمت اليه ، لم تفق منه الا لماماً ، في انتفاضات محلية ابدتها مقاومة الاقوام الوطنية . وكان من فضل هذه الردة ان صانت لنـا ، سالماً صحيحاً حتى اليوم ، التركيب الاجتماعي الذي عُرِفت به الهند ، وهذه التقاليد الدينية والفلسفية ، وهذه المناقبية التي ميزت شعوب الهند ، والتي لا تزال لليوم ، في كثير من امورها واحوالها ، ما كانت عليه في القرنين السابع والثامن .

امبراطورية الخمير

يتذكر القارىء الكريم كيف ان في السنوات الاولى من القرن السادس ، هوت الى الحضيض ، مملكة فو ـ نان ، اقوى الدول المستهندة الواقعة على بحار الجنوب ، وانشطها طراً منـــذ عهد بعيد ، وذلك تحت الضربات القاصمة التي انهالت عليها من ملك تشان ـ لا (منطقة بسّاك اليوم) ، احد الملوك التوابع لها الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لامبراطورية الخمير . وقد ازدهرت هذه الامبراطورية طيلة قرن من الزمن ، وعاش ملكهـــا ، في مقاطعة *Sambor Prei Kuk* اولاً ، ثم في مقاطعة انغور بوراي ثانية ، عيشة ملوك زمانه ، محوطاً بجيش لجب من رجال بطانته وكبار موظفي دولته ، يستقبل بكل أبهة وبهاء ، ثلاث مرات في الاسبوع ، من يطمع بشرف المثول بين يديه .

اما الموظفون فهم على مراتب مسلسلة تسلسلاً آسراً ، وفقاً لوظائفهم التي نعرف القاب حامليها اكثر من معرفتنا لحقيقة او ماهية الخدمة التي يؤدونها . وقد عاشت معظم الطوائف الدينية الهندية الاصل ، معاً في ظل هذا النظام الواحد ، كما نستدل على ذلك من هذه الرقم والنقائش الحجرية ، وكلها بلغة سنسكريتية ، شعرية صحيحة ، ثم بلغة الخمير ، منذ مطلع

القرن السابع . كل هذه المصادر تنوه عالياً كيف ان هذه البلاد تمثلت حضارة الهند السنسكريتية . والجدير بالذكر هنا ، طلوع عبادة خاصة هي عبادة الـ *Linga* (وهو الـ *Phallos* عند الاغريق) وهو رمز الخصب والاخصاب عند الاله سيفا ، التي كادت تصبح ديانة الدولة الرسمية . ومن الاهمية بمكان التنويه هنا بهذه الظاهرة ، كما سنرى بعد حين .

كان القرن التاسع في تاريخ البلدان الواقعة الى الجنوب الشرقي من آسيا ، عصر اختمار ونضج. فلم تلبث الدولة الجديدة التي ظهرت ان امتصت دولتين « هنديتين » قامتا معاً في مقاطعة تشامبا ، التي ابتلعت تدريجياً مملكة لِن ـ يي القديمة فكوّنت حوالي منتصف القرن التاسع مملكة تشامبا الموحّدة . اما مملكة شريفيبايا التي تألقت في الجنوب الشرقي من جزيرة صومطرة وضمت قسماً من الملايو اليها ، والتي برزت للعمل بنشاط منذ عهد قريب ، فقد اخذت تمتد الى أطراف شبه الجزيرة الهند الصينية والتونكين وتشامبا ، في الشمال ، واضعة منذ انطلاقتها الاولى ، الاسس التي قامت عليها سيادتها وسيطرتها على البحار ولا سيما مضايق تلك المنطقة . وفي الوقت ذاته ، ظهر في جزيرة جافا ، مملكة جديده هي مملكة سايلاندرا ، أي مملكة الجبل ، وهو تعبير هندي للعقائد الاندونيسية التي كانت تجعل من الجبال مهبطاً للآلهة تستقر عليها ، كما انه لقب حاكى ، الى حد بعيد ، اللقب الذي كان يحمله ملوك فو ـ نان قديماً . فباحيائهم هذا اللقب ، رمز ملوك جافا الى الدوافع التي جالت في أفكارهم ، والاهداف التي نشدوها من اقامة سلطة شاملة . وقد يكون في تكنّيهم بهذه الكنية ما قد يشير الى حقوقهم المكتسبة على فو ـ نان . وقد وقعت في الوقت ذاته حوادث مهمة جداً زرعت الفوضى في مملكة الخمير وجعلتها تنقسم على نفسها الى مملكتين هما : تشان ـ لا البرية (ضمت جنوبي اللاوس والقسم الاوسط منه) ، وتشان ـ لا المائية (ضمت حوض نهر الميكونغ) . وهنالك من الدلائل ما يشير الى ان جافا حاولت ان تفيد من هذا الظرف بالذات لتخضع كمبوديا لسيطرتها وتضعها تحت نفوذها. ومع ان المقاطعة الاخيرة كانت تجتاز عهداً مظلماً ، فقد عرفت ان تحافظ على استمرار الانتاج الفني فيها . اما جافا ، فقد عرفت ، هي الاخرى ، ان وصول سلالة سيلاندرا للحكم يتفق في الزمن مع الوقت الذي عرفت فيه الوسيلة الكبرى للبوذية ، ازدهاراً كبيراً في البنغال الغربي ، والاتصال الذي تم بينها وبين جامعة نالاندا ، واستهناد كل الادارة الرسمية للبلاد ، كاتخاذها مثلاً أسماءً مشابهة لأسماء الهند ، وتبني اللغة السنسكريتية المعمول بها في شمالي الهند . وغصّت جافا اذ ذاك ، بالمباني والعمائر البوذية برز بينها الأثر المشهور المسمى *Chandikalasan*) ، الذي شيّد ، سنة ٧٧٨ ، وبواسطته نستطيع ان نضع ترتيباً زمنياً للآثار المعمارية الاخرى . ولعل اهم هذه الآثار وأجلها على الاطلاق هو البارابودور ، اذ في نقوشه البارزة الحفر ، ما يشير الى بعض النصوص البوذية الهندية . فبعد ان سيطرت البوذية على أواسط جافا ، دفعت أمامها ، الى اطراف الجزيرة الشرقية ، العناصر الموالية للهندوكية ، حيث نرى ، منذ عام ٧٦٧ ، بعض آثار لعبادة شارة الخصب الملوكية .

وفي مطلع القرن التاسع ، وقع حادث عظيم في مملكة كمبوديا ، وذلك عندما رجع امير من

سلالة ملوك الخمير ، من جزيرة جافا ، وراح يحرر المملكة من نير الاستعباد لجافا ، وأسس عام ٨٠٢ عبادة الإله ، الملك ، في هيكل شيده ، هو نفسه ، على قمة رابية هو جبل كولين الذي يطل على سهل انغكور . وهذا الحادث كان لا يخلو من مغزى كبير . فللتحرر كلياً من عبودية ملوك الجبل ، في جافا ، كان لا بد له من الاحتفاظ باللقب ذاته الذي بعثها الى الوجود وأقامها هو نفسه ، فيضم اسمه ، وبالتالي شخصه ، الى عبادة الـ *Linga* او شارة الخصب عند الإله سيفا العجائبي ، فهو درع المملكة ، وحامي ذمارها . ولهذا السبب بعينه، اقام قصره على قمة احدى التلال المرتفعة ، وتسلم من يد احد البراهمة رمز الخصب (*Lingu*) الملوكي الذي رمز به الى قوة ملوك الخمير وسيطرتهم . واعتمد الراهب البراهمـــاني النصوص الهندية وراح يحتفل بالطقوس الدينية ويعلمها لحاجب الملك الذي كان هو الآخر كاهناً براهمانياً ، وأخذ منذ ذلك الحين يسير في صحبة الإله ـ الملك ويرافقه في جميع تنقلاته . وهكذا أطل على مملكة كمبوديا عهد جديـد بولود امبراطورية الخمير ، هذه السلالة الملكية الانغكورية الناجزة الاستقلال .

ففي الحين الذي كانت فيه الصين تواجه عهداً من الاضطراب والقلاقل يتفق وآخر عهد سلالة تانغ والسلالات الخمس ، وبينما اخذت سيطرة ملوك سيلاندرا ، من جهة اخرى تنحط لتزول تدريجياً امام بأس مملكة جافا الشرقية ، راحت مملكة الخمير تتجه بخطى ثابتة نحو الازدهار ، وتنحت لها الخصائص التي ميزتها والتي حافظت عليها حتى بدء انحلالها في القرن الرابع عشر .

فالملك هنا ، كما في الهند ، هو محور الدولة وقطب الدائرة فيها . فهو رأس كل سلطة فيها واليه مصيرها . فهو حارس القانون ، والمشرف على النظـــام ، وحامي الدين ، والحافظ على النذورات والوقوفات التقوية ، والمناضل في سبيل سلامة البـــلاد واستقلالها . فهو الإله على الارض . ويجلس الملك للديوان مرتين في النهار ويبرز من خلال نافذة ، مصراعاها من الذهب ، حاملاً سيفاً بيده . يعلن عن وصوله بصداح الموسيقى وعن ترؤسه الديوان بالبوق . فان مشى فليس على الارض العارية، بل يفرشون دوماً تحت قدميه الطنافس البديعة . فاذا ما غادر قصره فعلى ظهر فيلته ، فوق هودج فخم . عاصمته صورة مصغرة للعالم ، فالقلب منها هيكل قائم على رابية يشبه جبل ميرو ، هو محور الدنيا ، ونقطة الدائرة ومهبط الإله الملك . ويحرص كل ملك على ان يشيد ، على نسبة امكاناته ، جبـــلاً معبداً وينصب عليه بكل حفاوة ، محوطاً بالمراسم الرسمية شارة رمز الخصب ملفوفاً بالقمط الملكية دون ان يدري احد ما اذا كان هذا التمثال جديداً او من القرون الماضية .

يتولى الادارة في البلاد ويتحكم بهـــا الطبقة الارستوقراطية : كالبراهمان واعضاء الاسرة المالكة ، واقارب حاجب الملـــك . والمجتمع نفسه يحمل طابع التسلسل : فبعد الملك يأتي البراهمان توا ، ومن كان على شاكلتهم من اساتذة الدين واللاهوت و « ارباب المنزل » ، ثم يأتي ولي العهد ، فالوزراء ، فقادة الجيش ، فاصحاب المقامات العليا والمراتب ، فرجال الحرب الاشداء ، ثم سواد الشعب ولميمه من البائسين ومناكيد الحظ . وفي ثفالة المجتمع يأتي المقمدون

والمشوهون ، والحُدْب والاقزام ، وكبار المجرمين وشذاذ الآفاق، والبرص ومن لا عذار لهم . فاعضاء الطبقة الاولى وحدهم : من الملـــك الى المحاربين الاباسل ، لهم الحق بدخول الهيكل . فالادارة هي كذلك بين يدي موظفين يخضعون لتسلسل دقيق وترابط آسر : من وزراء ، الى قادة جيش ، الى مستشارين ، فولاة ، وحكام اقضية ، ومدراء ناحية ، ومأموري المخازن والمستودعات ، ورؤساء السُخرة الذين يقسمون الى اربعة مراتب يصعب علينا تحديد ماهية كل واحدة منها على حدة . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار الاهمية التي بلغتها السوق التجارية عنـــد الخمير ، ظهر لنا كم كان ضخماً عدد التجار في البلاد ، وقد يكون حكمهم حكم الفلاحين وسكان القرى من السلم الاجتماعي ، وهو وضع لا نعرف عنه كبير امر . وجل ما نعرف هو ان عدداً كبيراً منهم كان يعمل في خدمة الهياكل والمعابد ، عرضة لسخرية كبار القوم والتهكم عليهم .

وقد سارت هذه الاقلية ، فترة من الدهر ، تارة مـــع الهندوكية واخرى مع البوذية ، وراحت تحتفل بالاضافة الى هـــذا ، بعبادة خاصة ترتبط ولا شك بعبادة الجدود : فالملك والامراء ، واصحاب المراتب العليا ، ورجال الجيش البواسل ، اخذوا يشيدون وهم احياء ، معابد باسمائهم وينصبون فيها تمثال احد الآلهة يسمونه باسم الاله الشفيع . وكان الواقف يحرص جداً على هذه العبادة ويؤمن استمرارها ، اذ كان الناس يهتمون كثيراً لامر المصير بعد الموت ، كما يبدو من نقيشة محفورة في معبد انغكور – قات ، مكرسة للسماء والجحيم على السواء . وهذا النوع من العبادة والتكريس غير مألوف قط في الايقونوغرافيا الهندية .

ففي هذه الدولة التي حَسُنَت ادارتها فسلسلت امورها ، نعمت المواصلات بشبكة جيدة من الطرق النهرية والبرية ، منها طريق بري مبلـّط ، تراوح عرضه بين ١٠ و ٢٥ متراً ارتفع نهره فبرزت جادته في تقاطع مستقيم الزوايا، وتمر فوق الانهر والمجاري المائية الضخمة على جسورة كبيرة . ويقوم على طول الطريق مراحل ومحطات معينة ، يسهر على الاهتمام بهـــا فريق من القرويين ، ويقوم في هذه المحطات باعة متجولون امامهم اطباق شتى يعرضون عليهـا سلعهم . والنقل يتم بواسطة حمالين يحملون الاثقال على الظهر او الرأس او الكتف . اما المرزح مـــن الاحمال ، فينقل على ظهور الافيال او يُعهد بأمره الى عربات النقل ، وهي على عجلين ، يجرها زوج من الثيران او الجاموس تعلوها مظلة مـــن الهشيم . اما اصحاب الرئاسات ، فيتنقلون في هوادجهم الخاصة ، بصحبة آلهتهم وما اليها من مقدسات . كذلك نرى عربات كبيرة للنقل لها اربعة او ستة عجلات فوقها مظلة وستائر مدلاة تغطي مستودعات البضائع . ويمخر في الأنهر العديد من القوارب التي ترك الحجاج الصينيون وصفاً دقيقاً لها .

فباستثناء الهياكل المبنية كلها من الحجر ، وأجلهـا على الاطلاق يعود للقرن الثاني عشر ، كمعبد انغكور – قات ، مثلاً ، فبيوت السكن كلها تقريباً تُصنع من الخشب وتسقف بالقش ، ما عدا القصر الامبراطوري الذي كان سقفه من القرميد الاحمر . لم يصلنا شيء من هذه المباني الخشبية . وكان في القصر، على ما يقدر العارفون ، وفقاً للنقائش المحفورة ، جناح خاص بالعامة

من الشعب ، بينما لم يترك احد من الرحالة ، في ذلك العهد ، أي وصف للجناح الخاص بالملك . ومهما يكن من الامر ، فقد كان فيه قسم خاص بالحريم ، وآخر خاص بسكنى الملك ، يسهر على سلامته حارس خاص .

اما الاثاث ، فكان يتألف من مقاعد واطية ، وغير ذلك من الادوات المختلفة الجميلة النقش والمنظر ، اضف الى ذلك شكّة كاملة من السلاح على اختلاف أنواعه بينها مجموعة من السيوف الهندية، واخرى من القسي ، والنبال والعرّادات التي قلدوا منها المنجنيقات المستعملة في الصين ، والمظلات ، والمذبّات ، والمراوح والألوية ، وآلات الطرب التي كانت تحتفظ في مخازن خاصة ، اسوةً بما كان يجري في الهند . ويبدو المحاربون لابسي دروعهم ومعتمرين خوذهم . اما المدنيون، فكانت ملابسهم ترفل بالكثير من الحلي والحجارة الكريمة ، وتتألف اصلاً من سروال طويل للرجال ، ومن تنورة او قفطان للنساء . وتمر اوقات النهار رتيبة على دقّات الساعة المائية . ولفت نظر السياح ، كثرة استعمال القوم للخلال او السواك ، وما عليه القوم ، عادة ، من نظافة ، يتلهون برؤية مصارعة الديوك بعد ان اعتاد الملك الاستمتاع بهذه الألهية البريئة يومياً ، ويراهن عليها ، ويدفع في حال خسارته ، ذهباً . وتلعب المرأة ، في المجتمع ، على ما يبدو ، دوراً بارزاً . وليس بغريب قط ان يراعى في النظام الوراثي قرابة الرحم ضمن الصلب . والاسر الكبيرة التي تعد بين افرادها كريمات جميلات ، تهدينهن للملك ، فيقمن في بلاطه مع سراريه وقيانه وراقصاته . وكثيراً ما أدى هذا الوضع بهن الى التدخل بشؤون الدولة ، والى لعب دور بارز في الحياة الدينية .

فاذا ما عولنا على الوثائق الخطية التي وصلت الينا ، يبدو لنا ان المعابد ومن اليها من خدَم وحَشَم ، لعبت دوراً هاماً . فالى جانب المعبد يقوم عادة دير يتولى ادارته رئيس عام يؤمّن النظام ويسهر على ضبطه وصيانته بكل دقة ، كما يقوم بتدبير اموره المادية . فالرئيس هو الذي يعيّن مقرّبي الذبائح والمنجمين ، بينما يطلع الحاجب بتأمين مراسم العبادة ، ثم يأتي المراقبون ، والبراهمة والنساك والكهّان معهم عدد كبير من الحراس : هؤلاء يقومون على حراسة الودائع الثمينة وكنوز الذهب والفضة ، واولئك يسهرون على النار المقدسة ومشاكي الموتى، بينما يحرس البعض منهم الابواب ، والحدائق ، والبعض الآخر الرحى التي تطحن الارز او تحلجه . ويلي هؤلاء حشود من الاتباع يقيمون ضمن دائرة الهيكل او خارجها يسهرون على تأمين انتظام الحياة في المعبد وراحة سكانه وخدَمه على انواعهم كالمعنيين منهم بضفر الزهور والعناية بالحدائق ، وغير ذلك كالنسوة اللواتي يعملن في تنقية الارز او طحنه ، ومتعهدي الماشية ، وناظري الارقاء والحراس ، وآخرون يعنون بالكتب ونسخها وبالمحفوظات وصيانتها . اما الراقصون والراقصات وأهل الكيف، فيؤلفون طبقة خاصة بهم. ومعظم هؤلاء الخدم قرويون، جيء بهم من القرية القريبة ، ويؤتى منهم باعداد أكبر في فصل الامطار ، وكلهم معفون من السخرة او مصادرة الحكومة لهم ، ولا يدينون بالطاعة إلا لرئيس الدير . ويحظر عليهم القيام

بأعمال سخرة لغير آلهة لا يعملون في خدمتها . ان معبداً واحداً هو معبد باكو ، ضم وحده ، في القرن التاسع ٢٢٥٣ شخصاً ، ثلثاهم من العبيد الارقاء . وقد بلغ معبد تا ــ بروهم ، في القرن الثاني عشر ، شأناً اكبر ، اذ كان يعمل في خدمته ٧٩٣٦٥ شخصاً ، من بينهم ١٨ من كبار الاحبار ، و ٢٧٤٠ كاهناً ، و ٢٢٠٢ مساعداً و ٦١٥ راقصاً . وهكذا نستطيع ان نكوّن لنا فكرة تقريبية عما كانت هذه الجموع المحشودة تحتاج اليه من المواد الغذائية والكميات الضخمة اللازمة لتأمين عيشها . ولذا فليس من عجب قط ان يبلغ عدد القرى التي يملكها هذا الهيكل والدير القائم الى جنبه ، ٣١٤٠ قرية لوحده وكل هؤلاء الخدام ومن اليهم من نُظّار ، ومراقبين يعملون جميعاً في خدمة المعبد ، جميعهم معفون من الرسوم والضرائب ، إلا انهم يتعرضون لجزاوات قاسية اذا ما أتوا شيئاً يمس المعبد او يلحق الاذى والضرر بجمهرة الرهبان ، او يؤلف تعدياً على املاكه ومقتنياته . فاذا ما كان المسيء براهماناً ، فقصاصه الطرد دون أي عقاب او جزاء مادي آخر ، او فرض أية غرامة مالية عليه . ويفرض على كبار القوم ، اذا ما كانوا من المعتدين ، غرامات عينية ، تدفع ذهباً ، يختلف مقدارها باختلاف المراتب التي ينتمون لها : من ولي العهد الى أدنى مأمور . فمن حاول التملص من الدفع ، حُكِم عليه بالجلد على ظهره ، مائة جلدة .

ومظاهر الحياة عند الخمير التي استمرت خصائصها المميزة في كمبوديا الى وقت حديث ، بقيت معمولاً بها ، دونما تغيير كبير ، بينما اخذ شأن الدولة الانقكورية ينمو باطراد ، منذ تأسيس انقكور على يد باسوفرمان الملك (٨٨٩ – ٩٠٠) ، الى ان بلغت اوجها في عهد الملك باسوفرمان السابع (١١٨١ – ١٢١٩) الذي كان من اشهر الملوك الذين اعتلوا عرش كمبوديا. ونحن مدينون لهذا الملك الذي كان من معاصري ملك فرنسا فيليب اوغست ، والملك بودوين الرابع ، في المملكة اللاتينية في القدس ، باشياء كثيرة ، ولا سيما بهذه المباني الكبيرة التي وصلتنا من عهد دولة الخمير ، وعلى يده نعمت مدينة انقكور بسور دائري ، طوله ١٢ كيلو متراً ، يحيط به خندق عميق ، وله خمسة ابواب ضخمة . وقام خارج السور المعبد الكبير الذي بلغت مساحته ٨٢٠٠٠٠ متر مربع . وهو يقوم في وسط هذا المجمّع الضخم المسمى بايون ، الذي يعلوه عدد من الابراج ذات الاربعة الوجوه . وقد كان الملك جايا فارمان السابع ، بوذياً صادقاً ، يرعى عبادة الاله الملك ، ولكن ليس على مذهب الـ *Linga* الخاص بسيفا ، بل وفقاً لتمثال ضخم لبوذا جالس فوق الثعبان . وقد يكون هذا الملك أصيب بالبرص ، وهذا ما حمله على انشاء ٢٠٠ مستشفى للبَرَص ، وزعها على جميع انحاء البلاد . وفي عهده بلغت العبادات الشخصية الذروة من الازدهار والاقبال ، انطلاقاً من عبادة الملك نفسه الذي برزت صوره ، ليس على ابراج المجمّع الضخم ، على شكل ملك العالم « وجهه في كل مكان » ، بل ايضاً في ٢٣ مدينة اخرى من مدن الامبراطورية . ومنذ ذلك الحين ، ارتدى المظهر الامبراطوري صبغة دينية عنه . فالعاصمة الملكية والمملكة كلها ليست سوى صورة مصغرة لهذا العالم الألهي ، حيث النظام البشري يبقى صورة طبق الاصل للنظام الالهي او السماوي .

فاذا كانت امبراطورية الخمير هي القطر الوحيد ، بين الاقطـار المطلة على بحار الجنوب التي نملك بشأنها معلومات واوصاف دقيقة ، علينـا ان نعتبر ، مع ذلك ، ان جميع البلدان التي تألفت منها هذه المنطقة الآسيوية الواقعة الى الجنوب الشرقي ، قد نعمت جميعهـا بحضارة واحدة ، في هذه الفترة من تاريخها كانت التقاليد والاعراف الهندية نسيج وحدها . فقد كانت هذه البلاد بطريقة ليس هنا محل تفصيلها باسهاب ، تعبيراً واضحاً لاشياء وامور لم يُرْمَز اليها في الهند إلا تضميناً وتلميحاً . ومن بين المميزات المفردة لهذه البلدان ، اقله لفترة معينة ، العبادة الملكية للـ *Linga* التي كانت رمزاً للسيادة التامة والسيطرة الشاملة .

الا ان الحوادث التي تألبت على البلاد فتضرست بها ، وانبعاث العقائد والعادات القومية ، كل ذلك ذهب بفوائد هـذه الوحدة ومنافعها ، وافضى ، بالتالي ، الى تغييرات هامة ، في جغرافية الهند الصينية والانسولاند . ففي الوقت الذي تابعت فيه كمبوديا توسعهـا الجغرافي باحتلال بعض ولايات تشامبا والسيام ، وراح الاناميون ، من جهتهم ، يستولون على الشمال من مقاطعة تشامبا ويتابعون ، وئيداً ، تغلغلهم صوب الجنوب ، طلعت قبائل الثاي ، قادمة ولا شك من يو - نان وظهرت في شمالي السيام ، ثم اخذت تنحدر رويداً نحو مصب نهر مينام . ثم ان الانحـلال الذي اصيب به ملوك سْرِيفيايا ، مكّن امراء جافا الشرقية ، من بسط سيطرتهم على بلدان ارخبيل الملايو .

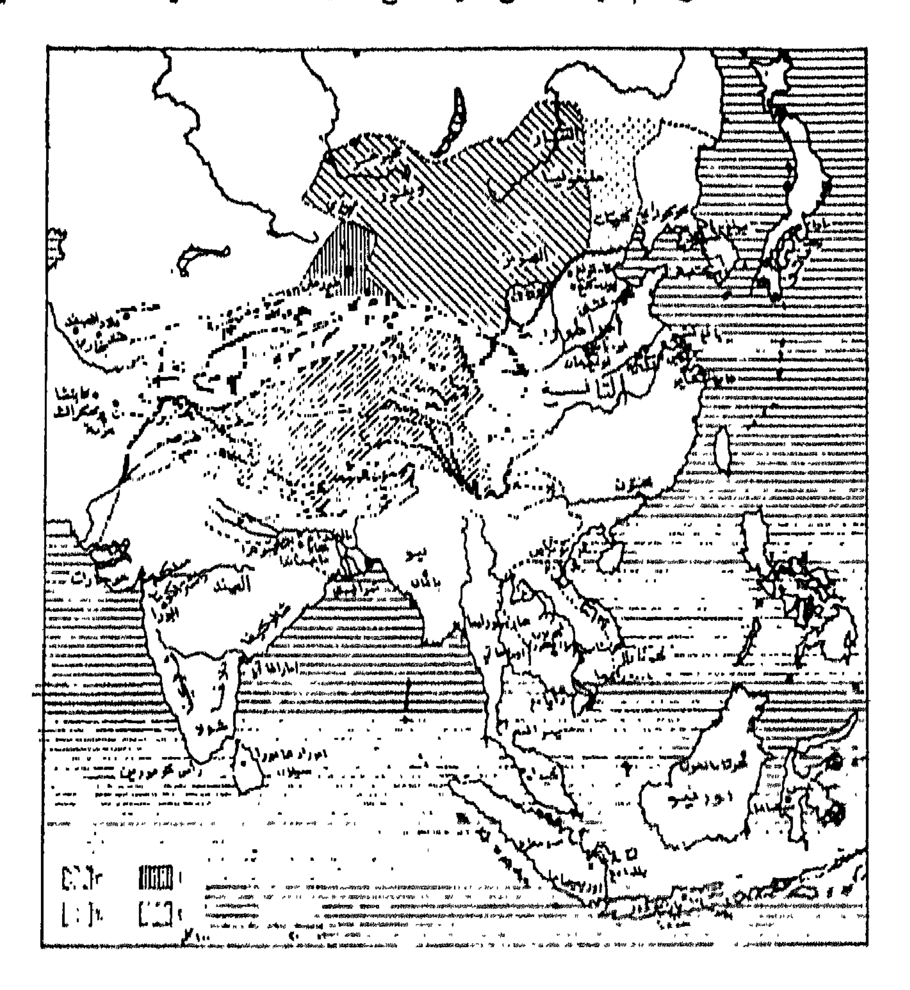
وعندما قام ماركو بولو ، حوالي عام ١٢٨٨ ، وتشيو ـ كاكوان ، عام ١٢٩٦ ، بالرحلة الى الولايات الجنوبية الشرقية ، كانت دولة الخمير تُودّع آخر ايامها ، تحت الضربات التي انهـالت عليها من قبائل الثاي التي كانت فرضت سيطرتها ، اذ ذاك ، على الجانب الاكثر من السيام ومع ان التشامبا فقدت نصف اراضيها ، فقد كانت عرفت مع ذلك ، اذ ذاك ، مرحلة من الهدوء جاءت بين عاصفتين : فقد راحت بورما نفسها التي عرفت في القرن الحادي عشر عهـداً عجيباً من الازدهار ، ومعها مقاطعة الانام ، فريسة احتلال مغول الصين. كذلك استطاعت جافا الشرقية ان تحافظ على استقلالها وان تستمر المضي في تطورها ، انما في اتجـاه جديد ، ملايوي الطابع ، اخذ يطبعها ويفردها ، على حساب التقاليد والاعراف الهندية التي درجت عليها اجيالاً طوالاً واخذت بها حقبة طويلة من الدهر .

* * *

الصين في عهد سلالة تانغ

من ستة الى سبعة قرون مضت ، رزحت الصين ، في اواخر عهـد دولة سواي ، تحت فوضى قاتلة ، استطاع معها شاب شجاع ، جريء عُرف بكفاءته وبمقدرته ، ان يخلص البلاد مما تعاني ، هو لي ـ شي ـ مين . فقد كان هذا الشاب ابن الكونت الذي عمل ، من قِبل أباطرة سواي ، حاكماً عسكرياً على احدى المقاطعات وبرهن عن صدق ولائه لهم . وقد نمت لهذا الشاب شخصية بارزة ، فنصب اباه ، عام ٦١٨ ، على العرش

الامبراطوري ، وقام خلال اربع سنوات كاملة ، بعدة حروب وتجريدات حربية دوّخ فيهـا جميع اقطار الصين، ثم اعتلى العرش هو نفسه، بعد ان بذل ما بذل من الشجاعة والدهاء السياسي وحسن التصرف ، وتوّج باسم تاي ـ تسونغ ، في الرابع من ايلول ٦٢٦ . وفي مدة ملكه الذي



الشكل (رقم ـ ٩) آسيا الصينية حوالي عام ٧٥٠

امتد ٢٣ سنة ، استطاع ان يعيد الى الصين ، ما كان لها من امبراطورية شاسعة ، وما كانت تنعم به من مجد وفخار . فضمت اليها مقاطعة منغوليا برمتها (٦٣٠) واخضعت اتراك التركستان ، والواحات الهند ـ الاوروبية في صحراء غوبي ، وأنشأت لها من بين هؤلاء الاقوام التي عُرفت من قبل ، بعدائها للصين ، انصاراً لها وعيوناً . ولا شك في ان الدسائس التي حيكت في البلاط ، في اعقاب هذا العهد المجيد ، والوهن الذي اصاب بعض الاباطرة ، والفظاظة التي بلغتهـا بعض السراري والحظيات اذ زين الغرور لاحداهن ان اعلنت نفسها امبراطوراً ، وهذا الوضع المخزي

الذي استمر نحواً من قرن كامل ، عرف ان يضع له حداً نهـــائياً ، الامبراطور هيوان تسونغ (٧١٢ – ٧٥٦) لدى اعتلائه العرش . فالسيطرة الصينية التي عرف هذا الامبراطور ان يوطدها ويرسّخ من اسبابها ، بلغت اذ ذاك ، ابعد مدى عرفته الصين ، في آسيا ، من قبـل . فقد دخلت في حدودها ، من الغرب جبال تيان ـ شان وجبال بافير ، فأخضعت لها طشقند ، وفرغانة ، وجلجيت ، ووضعت تحت حمايتها كشمير وبلخ وكابول ، وتحالفت ضد المسلمين ، مع بخارى وسمرقند ، وسيطرت على التركستان بكامله ، وحملت قوافلهـــا التجارية كما بسطت دبلوماسيتها ، نحو الجنوب والشرق . وهكذا تم لها التحكم والسيطرة عـلى الممرات والمجازات المفضية الى الهند ومضايق المحيط الهندي . وهكذا عرفت الصين عهداً من الحروب والفتوحات المظفرة تجاوبت أصداؤها الانجازات الفنيـــة الصينية ولاسيما ما اتصل برسوم المعارك ورسوم الحيوان . وفي هذه الحقبة استقرت امور الصين ، ولو موقتاً ، وبلغت حضارتها واشعاعهـــا الفكري عهداً مشرقاً من الازدهار ، كما نشطت المبادلات التجارية والدينية بين الصين والاقطار الآسيوية الاخرى ، وبينها وبين بلدان الشرق الادنى الواقعة تحت السيطرة الاسلامية .

ومع ذلك ، فقد انهار هذا البنيان الشامخ دفعـة واحدة ، حوالي عام ٧٧٠ ، عندما راح قائد صيني اخرق ، بمهاجمة اتراك طشقند بالرغم مما كانوا عليه من صدق الولاء للصين. واذ ذاك، شرعت مقاطعة يو ـ نان ، في أقصى جنوبي الصين ، تتململ وتتحرك في محاولة لها للتحرر مـن نير الصينيين ، واخذت بمهاجمة القوات الصينية العاملة فيها . واذ كانت الصين استنزفت الكثير من دماء بنيها في هذه الحروب الدامية التي استمرّت اجيالاً وكلفتها زهرة شبابها ، ورغبة منها في اعادة الطمأنينة والهدوء الى البلاد ، استسلمت للتفسخ الاداري والانقسام السياسي . وعندما زالت سلالة تانغ ، من الوجود ، عام ٩٦٠ ، لم تكن الصين تتألف من غير الولايات الجنوبية ، كما ان عدد السكان فيها كان قد تناقص كثيراً .

فسلالة تانغ الصينية التي امتد عهدها ثلاثمائة سنة ، قامت في بـــدء ملكها ، بفتوحات هي اوسع ما حققته الصين من فتوح ، الى ذلك العهد . فقد حققت في المجال الفكري ، التآليف التام بين التقاليد الماضية وبذلك رسمت لها نموذجاً ووضعت منهاجاً نسجت على منواله، الاجيال الصينية الطالعة. فملوك سولاي الذين حققوا وحدة البلاد من جديد، لم يسعفهم الوقت من حل المشكلات التي تأتت عن عملية الوحدة هذه. فباشر ملوك تانغ الامر منذ ان تسلموا الحكم، فحاولوا، بادىء ذي بدء ، القيام باصلاح شامل في الادارة العامة . ولكن ايانا والغرور ! فقد جاء هـذا الاصلاح نظرياً أكثر منه عملياً او واقعياً ، اذ ان الادارة كانت من التعقيد والتشابك بحيث بدا مـــن المستحيل تقريباً ، اجراء أي اصلاح فعلي في البلاد . فالتمسك بالتقليد ، والاخـــذ بالاعراف المستبدة ، وجهل الموظفين المدنيين للمشكلات التي عانى منها كثيراً سكان الريف وتربصوا بها ، كل هذا يفسر لنا كيف ان الحكومة كانت تضطر الى إلغاء او تعديل القرارات التي كانت تتخذها او تصدرها ، قبل ان تأتي هذه التدابير ثمارهـــا ، او قبل ان تباشر بتطبيقها . فكل سلطة

مصدرها ، مبدئياً ، الامبراطور الذي كان يصدر قراراته عندما يجلس للديوان ، بينما كانت التعليمات والارشادات تصدر عن الاجهزة الكبرى والمصالح الادارية الرئيسية ، وترسل للموظفين والحكام الاداريين العاملين في الملحقات . وقد تغيرت صلاحياتهم مع الزمن كما سنرى .

الاطر الادارية والعسكرية

الوصول الى الرئاسات العليا وبلوغ المراتب الكبرى ، طريقة الامتحان الناجح بين حملة الشهادات العليا ، في مباريات يجتازونها لهذه الغاية : شهادة العالمية التي تخول صاحبها للتقدم للمناصب ، ومباريات لاصطفاء خير الموظفين والعمال المدنيين والعسكريين ، واخيراً شهادة تقويم الكفاءات ، تبنى على علامات وترقيات يضعهـــا رئيس الموظفين على طالبي الوظائف والمتقدمين اليها ، ان يكونوا من خريجي الجامعات ، وان يزكي ترشيحهم اساتذتهم . فاذا ما كانوا من ابناء الاسر الكبرى ، وهو الوضع السائد لعمري لدى الجامعيين ، كثيراً ما نالوا المنصب الذي يرومونه ، بأيسر السبل ، بالاستناد الى حسبهم ونسبهم ، وبالنظر لان الاب تولى الوظيفة من قبل ، او لاستطاعة المرشح ان يحصل على الوظيفة المرومة باساليب اخرى . غير ان عدد المراكز كان محدوداً ، الامر الذي اوجب على طالب الوظيفة ان ينتظر طويلا للحصول عليها . اما المباراة ، فقد كانت تدور ، على الغالب ، حول مواضيع ادبية . وقد يتضمن الامتحان بعض المواضيع الرياضية والفلكية اذا ما اقتضت طبيعة الوظيفة ، من صاحبها ، مثل هذه المعلومات ، مع حفظ بعض النصوص او التعليق عليها أو التفسير لها او كتابة موضوع خاص . وكانت عنايتهم بضبط الحروف واتقان كتابتها تفوق عنايتهم بالترتيب . والنجاح في المباراة كثيراً ما ادى الى اقامة المآدب الرسمية التي لم تلبث ان استحالت عادة رسخت في القوم واستبدت بهم في المناسبات العارضة .

وقد سيطرت ، في العاصمة ، خلال القرن الاول من حكم ملوك تانغ (٦١٨ ـ ٧٠٥) مركزية شديدة قوية ، أضفت بالتالي اهمية اكبر على ثلاثـــة اجهزة رئيسية هي : دائرة شؤون الدولة ، والديوان الامبراطوري ، والسكرتيرية العامة . فقـــد ضم الاول ، مناصب الوزراء الستة وهي : الادارة العامة ، المالية ، الاديان ، الجيش ، العدل ، الاشغال العامة . اما الديوان ، فقد اشتمل ، الى جانب صلاحياته المعروفة ، الاشراف على مدرسة البلاط التي كانت تؤمن مع تدريس الادب ، تعليم اولاد الاسرة الملكية ، بينما دخل في صلاحيات السكرتيرية العامـــة ، الاشراف على مكتبة القصر والمحفوظات الملكية ، ودائرة المؤرخين ، ودائرة الاقتراع ، وغير ذلك من الدوائر الفرعية . فارتبط بالبلاط ، مثلا مجلس الدائرة الفلكية الذي انيط به السهر على ضبط الساعة المائية وتأمين الارصاد الجوية والفلكية ووضع التقاويم المختلفـــة ، ثم الشؤون المنزلية ، واخيرا تدبير الامور الخاصة بالقصر الموكولة امورها الى فريق الخصيان . ولا بد هنا من ان نذكر ، ولو بصورة عابرة ، الدوائر التسع التي كانت تشرف على المراسيم الرسميـــة والاحتفالات الدينية ، وكلها تتمتع باختصاصات وصلاحيات لها شأنهـــا تتعلق بادارة المعابد والهياكل والمدافن ، وتأمين الاضاحي والتقادم ، وتنظيم المآدب الامبراطورية ومراسيم

التشريفات المتبعة في استقبال ممثلي الدول الاجنبية ووفودها ، كما كانت من اختصاصهم النظر في امور القضاء العليا والزراعة .

وطوال المدة التي سيطرت فيها على البلاد مركزية آمرة ، حتى مطلع القرن الثامن ، لم تعرف الادارة في تقسيماتها الادارية ، دائرة اكبر من الولاية او المحافظة التي كانت تنقسم بدورها الى عدد من الاقضية وهذه الى عدد اكبر من النواحي . وباستثناء بعض الظروف الخاصة ، لم تكن السلطة العليا في الولاية ، تلقى ليد موظف كبير واحد . وكان هنالك مندوبون ملكيون يعهد اليهم الامبراطور بزيارة الولايات ومراقبة سير العمل في الملحقات على اختلاف دوائرها . وقد تراخت هذه المراقبة تدريجياً ، نتيجة محتومة لحركة ارتبطت ، ولا شك ، بانحلال طبقة الفلاحين من جهة ، ومن جهة اخرى ، بظهور طبقة ارستوقراطية عقارية . ومثل هذا الوضع ، طلع على الخلافة العباسية وفي تشكيلات سياسية اخرى لدى الغرب . ونلاحظ من ناحية اخرى ، بين ٧٠٥ ــ ٧٥٦ ، ازدياد سلطة الموظفين الاداريين ، في الملحقات ، بالرغم من وجود مفوضين حكوميين ومفتشين اداريين مهمتهم مراقبة الاقضية والمحافظات والولايات الكبرى . واستطاعت معظم الوحدات الادارية الكبرى ان تحقق ، خلال النصف الثاني من القرن الثامن ، وطوال القرن التاسع ، شبه استقلال اداري تحت زعامة حكام جمعوا بين السلطة المدنيـــة والعسكرية. وبمجمل القول، فقد شهدت العاصمة التي تمتعت بالسيطرة التامة في الشطر الاول من هذا العهد ، سيادتها تتناهبها الولايات الاخرى ، ورأت في هذه السيادة والقوة العسكرية التي سارت في خدمتها شبحاً اخاف السلطة الامبراطورية، بحيث ان كلا من كبار الحكام في الولايات الكبرى اصبح في القرن العاشر ، دولة ضمن الدولة ، يوقف سلطة الامبراطور عند حدها . وراح اقوامهم ساعداً يعلن سقوط العائلة المالكة ويتربع هو مكانها على العرش . وهكذا أطلّت علينا ، عام ٩٦٠ ، سلالة سونغ .

فالخطوط الكبرى لهذا التطور تهمنا أكثر من الصلاحيات التي تمتع بهـــا جيش لجب من الموظفين ، موزعين على مراتب ودرجات . وبــــدلاً من الافاضة في التفصيل والاسترسال في العموميات يكفي ان نعطي بعض الايضاحات التي لا بـــد منها . فالحكام المدنيون في الولايات كانوا ينتقون من بين اعضاء العائلة الملكية . وكانوا قلما يقيمون في الملحقات ، فيكلون امر الحكم والادارة الى نائب او وكيل يعينونه ويعتمدون عليه في تصريف الامور . ومن هنا نتبين بعض الشيء ، الاهمية التي اخذها الحكام العامون وكبار القواد الذين لم يكن عددهم ليتجاوز الخمسين ، وكان تحت امرتهم وحدات من قوى الجيش يتراوح عدد افراد الوحدة، عام ٧٤٢، بين ٢٠،٠٠٠ و ١٤٥،٠٠٠ ، جندي بينا بلغت القوة العسكرية التي رابطت في ولاية هو ــ باي ٩١،٠٠٠ ، اذ ان أكثر من ثلثي قوة الجيش كانت ترابط في المقاطعات الحربية الواقعة على الحدود. وقد اضطرتهم الامور العسكرية ، شيئاً فشيئاً، لأن يسيطروا على كل المصالح الاخرى: على مستودعات وعنابر التموين ، والشؤون المالية ، والاشغال العامة ، وامور القضاء . وكثيراً ما ادت اقامتهم مــــع

الحكام الاداريين في دار الولاية الى اصطدامات، الى استصفائهم ملء السلطة الفعلية في المقاطعة.

ففي الايالات العسكرية القائمة وراء حدود الصين الخارجية ، كان يقيم المفوضون العامون السبعة ، وهو عدد لم تعرف مثله الصين في ازهر عهودها وفي اعظم امتداد لسيادتها عبر التاريخ، وهي ايالات كادت تزول من الوجود ، في اواخر عهد هذه الاسرة بنسبة فقدان الصين السيطرة على هذه الايالات العسكرية . فرقعة المحمية الواحدة التي يتولون امرها كانت شاسعة ، اذ ان محمية واحدة ضمت بين أرجائها ما يؤلف اليوم التركستان الروسي والتركستان الصيني وأفغانستان وكان هؤلاء الحكام يصطفون من بين كبار الاداريين المحليين ، ويعمل تحت ادارتهم موظفون محليون ويمارسون صلاحيات مدنيـــة وعسكرية على السواء ، ويقومون بالاشراف على عدة مقاطعات او عدة ولايات عامة .

فالولاة الذين يرتبطون بالامبراطور شخصياً ، بلغ عددهم عام ٦٣٩ نحواً من ٣٥٨ والياً ، ثم نزل هذا العدد الى ٣٢٨ ، سنة ٦٤٠ ، دون ان تدخل في هذا العدد البلدان التابعة للصين بموجب مواثيق . ويقسم الولاة الى رتب ودرجات تختلف باختلاف عدد السكان في الولاية التي يعملون فيها، وهو عدد كان يتحدد دورياً بعملية احصاء تجري في اوقات معينة،ويتراوح بين ٢٠،٠٠٠ و ٤٠،٠٠٠ عائلة او اسرة. فاذا ما تعادلت ولايتان احداهما في الداخل والاخرى على الحدود، بعدد سكانها ، جاءت الثانية في مرتبة اعلى . والنواب الولاة كانوا أثبت عملاء الامبراطور مركزاً ، تتاوح عددهم بين ١٥٢٨ و ١٥٧٣ نائب وال بـــين عامي ٦٣٩ و ٦٤٢ ، كما كانوا اقربهم اتصالاً بالأهلين . وفوق الأسر التي كان رئيسها يتحمل كل مسؤولية ويتعرض وحـــده للجزاء اذا ما اتهم احد أعضاء اسرته بالتقصير ، تأتي القرية التي كانت تتألف عادة من ١٠٠ اسرة ، كما ان خمس قرى كانت تؤلف ناحية . ورئيس القرية هو الشيخ أي المتقدم في السن بين سكانها ، ويترتب عليه كما يترتب على مدير الناحية ان يعد قائمة بالافراد الخاضعين في القرية وفي الناحية ، للضرائب او لأعمال السخرة ، وبذلك يصبح في مقدور نائب الولاية ان يصنف السكان حسب فئاتهم ، ويشرف على توزيع الاراضي ، ويحافظ على السجلات العقارية وجدول الضرائب وادارة الجباية ، كما كان باستطاعته ان يحافظ بدقة على نظام البريد ، وعنابر الدولة ومستودعاتها ويضع تحت اشرافه السير على الطرقات العامـــة ويؤمن سلامتها وسلامة الملاحة النهرية . وهو بوصفه حامي الشعب ، عليه ان يرعى مكارم الاخلاق ويؤمن أوَدّ العيش للأرامل ، ويضع تحت جناحيه الايتام والبائسين ، وينظر بنفسه في القضاء ويكافح الاوبئة .

والجيش الذي اصبح طيلة عهد اسرة تانغ في الحكم قوام النظام وركنه الركين ، خضع خلال الاجيال المتعاقبة ، لتطور سار جنباً لجنب والتطور الذي مرت به الادارة . ومع ذلك فتعبئته بقيت مشكلة مستعصية بحيث ان الانتصارات الحربية التي حققتها الدولة في بـــدء الامر يجب ردها للمقدرة والكفاءة التي تحلى بهـــا قواد الجيش وليس لتنظيمات الجيش . فالى سنة ٧٢٢ تقريباً ، كانت الوحدات العسكرية التي تقدمها كتائب الميليشيا الباسلة تعمل لشهر واحـــد في

الحرس الامبراطوري ، بينا الوحدات الاخرى التي ترسل للخدمة على الحـــدود كانت تمضي في خدمة الجيش ثلاث سنوات ، بينا الحاميات المرابطة على الحدود الشمالية ، كانت تغذيهـا اسر خاصة فُرِضت عليها الخدمة العسكرية الاجبارية لقاء بعض امتيازات ومنافع خاصة .. وكثيراً ما أجبرت الوحدات العاملة في الجيش المرابط في قواعده على الحدود، على تجديد تعهدها بالخدمة دون ان تعطى الحق بالرجوع الى البلاد ، فتؤلف بذلك جيشا محترفا مستمراً في الخدمة . ومن المحتمل كثيراً ان تكون وحدات من هذا النوع ، ألفت حرس الامبراطور الخاص او عملت في خدمة بعض كبار الحكام او القادة . اما الوحدات الاضافية الاخرى ، فقد جيء بهـــا من بين الذين صدرت عليهم أحكام قضائية ، فيرسلونهم الى المعسكرات الحربية . وفي القرن الثامن ، كان الحرس الامبراطوري يتألف أفراده من سكان العاصمة وارباضها الذين يُعفون من السخرة ، لقاء خدمتهم في الحرس ، مدة ستة اشهر ، ثم انزلت الى شهرين ، عام ٧٢٥ . وكثر عدد التجار الذين راحوا يتجندون لقاء اعفائهم من الضرائب المترتبةعليهم، ثم يعمدون الى استبدال أنفسهم بعبيد وأرقاء في خدمتهم . فبينا كانت الجيوش المرابطة في الشمال تتألف بمعظمها على هـــذا الشكل ، كانت الوحدات المرابطـــة على التخوم تؤلف جيشاً محترفاً بعد ان برهنت الطرائق الاخرى لتشكيل الجيش التي عمل بها، عن عدم جدواها . وفي سنة ٧٤٩ صدر مرسوم امبراطوري ألغيت بموجبـــه « الكتائب الباسلة » ، ولم يحتفظ إلا ببعض وحدات للمحافظة على الامن . وهكذا يمكن لنا ان نؤكد بأن الجيش بين ٧٥٦ و ٩٠٧ كان برمته جيشاً محترفاً .

فقد عُرِف الصينيون بمقتهم للحروب واعراضهم عن كل ما يسببها او يدعو اليهـــا ، وهو شعور تحسسوا به ليس فقط أثر الانكسارات العسكرية العديدة التي منوا بهـا ، بل ايضاً بعد الصعوبات المتزايدة التي صادفها اباطرة الصين في الداخل . فمن علامات الازمنة المميزة : ان الناس، اذا ما ملّوا القتال وسئموا الحروب، مالوا الى الدعة وطلبوا الهدوء والراحة ، وفضّلوا الاخلاد للسكينة والانزواء بعيداً عن صَخَب الدنيا. ولكي يتفادوا داعي الحرب راح الصينيون يشوهون انفسهم . فهستيريا الحرب التي ميزتهم في القرن الاول من عهد سلالة تانغ ، حـل محلها روح الاستسلام والمقاومة السلبية ، وكلها امارات تدل على مبلغ تفسخ الامبراطورية . وهـذا السأم تردد صداه عالياً على لسان الشعراء ولا سيما تو ـ فو الذي كتب عام ٧٥٢ قائلاً :

مما يؤسف له جداً فالحشود تتوالى ،
في الخامسة عشرة نرسل الى الشمال للدفاع عن النهر الاصفر
وفي الاربعين نجد انفسنا جنوداً نفلح ونزرع ، في غربي البلاد
وكهولاً وبعد ان ابيض منا الشعر ، ندعى للسلاح من جديد بعد عودة قصيرة
تباً لهذه الحياة ، وما أشقاها مع الاولاد .

تطور المجتمع

وهذا التحول والتطور نحو سيطرة جيش محترف له ما يبرره ويزكيه في هـذه الثورات والانقلابات الاجتماعية التي جرت البؤس والشقاء على الجماهير الشعبية .

صحيح ان البلاط يستمر كمألوف عادته ، في هـــذا البذخ والبطر الذي عُرف به وشاع عنه من قديم الزمان . واحسن شاهد على ما نقول ، هذه الخزفيات القبرية، الدقيقة الصنع ، العائدة لهذا العهد التي تبرز لنا صوراً من ترَف البلاط ، ومواكب الراقصات في غلائلها المثيرة تستر منهـــا الاقدام الناعمة ، ومنظر المحاربين ممتطين صهوات جيادهم ، كل ذلــــك ينم عن مجتمع فروسي مترف . غير ان الشعب اخذ منذ القرن الثامن يتربص بمشكلات عانى منها الامرين ، كان من بعض نتائجها هذا التناقص الفاضح في عدد السكان. ففي اقل من ٧٥ سنة اي من سنة ٧٥٤ الى ٨٣٩ ، هبط عدد سكان البلاد من ٥٢ مليوناً الى ٣٠ مليوناً ، بعـد ان زال في اواسط القرن الثامن كل اثر للملكية القرويين التي كانت الدولة تحافظ عليها ، فرزحت تحت ما تواقع عليها من الضرائب واعمال السخرة والخدمة العسكرية والديون المتراكمة ، ممـا اضطر معه صغار الملاكين الى بيـع ما يملكون من عقار والعمل في خدمة كبار الملاكين الذين كانوا في الوقت ذاته من كبـــار الموظفين . ونسمع صدى هذا كله في ما كتبه تاونغ - يوان (٧٧٣ - ٨١٩) ، اذ جـــاء على لسانه :

« تزداد حياة جيراننا من القرويين بؤساً يوماً بعد يوم . فما اسرع مـــا يستنزفون غلال ارضهم ، ويدفعون الى آخر بارة مـــا يترتب على اكواخهم من رسوم ، ويأخذون بالبكاء والعويل وهجران اوطانهم ، ويتضورون جوعاً ويموتون عطشاً ، ويخرون صرعى الى الارض . تنتابهم الارياح والامطار ويشكون البرد شتاء وحرارة القيظ صيفاً ، ويستنشقون السموم القتالة المهلكة ، وتتراكم على الطرقات جيف الموتى . فمن عشرات الاسر التي عاشت هنا مع جدودي لم تبق اسرة واحدة . وبين الاسر العشر التي عاشت هنا مع ابي ، لم يبق سوى اثنتين او ثلاثة ، ومن بين الاسر العشر التي عاشت معي هنا مدة اثنتي عشرة سنة لم يبق سوى اربع او خمس اسر لا غير . فاذا لم تمت كلها ، فقد هاجرت ورحلت عن الديار وبقيت وحدي هنا » .

واذا اردنا ان نأخذ باقوال الشعراء ، لسان حال هؤلاء الناس والمتكلمون باسمهم ، فالتجارة بارت وماتت هي الاخرى . « فقـــد كانت الحكومة في ابتزازها لمرافق التجارة كالنمرة في جشعها » . ومع ذلك فقـــد اخذ التجار يتابعون ، بكل الوسائل لديهم ، المقايضات التجارية طمعاً بالارباح التي تدرها ، مع التجار المسلمين والاسواق التجارية في بلدان جنوبي شرقي آسيا ، وهكذا استطاع بعضهم ان يتغلب على مـــا تعرضوا له من فداحة الرسوم الباهظة التي فرضت عليهم ، واعمال المصادرة والضرائب التي رزحوا تحتهـا ، بحيث انهم كانوا يدفعون ١٠ في المائة رسماً على الشاي الذي كان قد اصبح ، في هذا العهد ، مشروباً وطنياً .

فانهيار طبقة الفلاحين ، والعراقيل التي سدت سبل التجارة ، وهما عماد الحياة الاقتصادية في الامبراطورية الصينية ، كانا من اكبر الاسباب التي دعت للثورة التي انطلقت في اواخر سنة ٨٧٤ . فالاتراك الذين كانوا استقروا في شمالي الصين وجدوا في الوضع الموصوف ، فرصة سانحة لزحزحة النير الصيني عن اعناقهم . فلم تقو الاسرة المالكة على تحمل الصدمة ، وراح النظـــام

الاقطاعي الجديد الذي أطل على البلاد من خلال كبار الموظفين ، يسدد لها الضربة القاضية فسقطت وتوارت عن مسرح التاريخ .

الحياة العقلية والدينية

في هذا العالم الصيني الشاسع الاطراف الذي عرف عهداً من الازدهار في بدء الامر ، وما عتم ان راح فريسة طغيان سلطة ناشزة ، تمتع الناس بحرية فكرية لم يعرفوا مثلها من قبل ، فارتفعت الاصوات منددة بعبث الارادة الامبراطورية . ولم يكن من الغريب قط ان نسمع في المجال الديني جدلاً صاخباً ، مع البوذية وضدها على السواء . ومع ذلك فقد عرفت البوذية في هذا العهد ازدهاراً انتشرت معه وامتد في واحات التركستان الصيني الذي خضع اذ ذاك ، لاشراف ملوك التانغ الا انهم نظروا اليها ، في بدء الامر ، نظرتهم الى ديانة غريبة ، ولذا ناصبها العداء المكشوف ، المستمسكون بالتقاليد والتعاليم الكونفوشيوسية : « ما بوذا ، بعد هذا كله ، سوى بربري دخيل ، يختلف عن الصيني لغة ولساناً وزياً » . وبالرغم من شدة هذا النقد وطرافته ، رعى اباطرة التانغ للبوذية عهداً واخذوا بنصرتها ، ورحّبوا بتعاليمها وحجاجها . وبدافع من هؤلاء الملوك ، راحت مصانع الحفر والنقش البوذية تعمل بكل نشاط : والى هذا العهد تعود المغاور المشهورة في لونغ – ين وما تحمله من حلي النقوش ، فارتفعت في البلاد معابد وهياكل بوذية كثيرة ، وهذا المدد المديد من التماثيل والشخوص ، وكلها ينم كم كانت البوذية غريبة بالفعل عن الصين ، اذ ان كل هذه الانجازات الفنية كانت من طراز هندي حاول الفن الصيني ان يلطف قليلاً من طابعها ، حيث تطل علينا مُثل وتقاليد جمالية تختلف كثيراً عما عُرف في الصين من امثالها . صحيح ان تَطبُّع البوذية بطابع الصينية في المجالين الفكري والفني تم ببطء كلي ، فاقتربت بالاكثر من التاوية ، سيراً منها مع حركة تطورية اخذت باسبابها قبل مجيء سلالة تانغ بكثير .

وتابعت ديانات اخرى دخلت الصين منذ عدة اجيال ، انتشارها في البلاد . فقد تغلغلت المانوية منها في منغوليا ، وكسبت لها انصاراً ومريدين صادقين لدى اتراك ويغور في تاريم وشيدت لها معابد وهياكل في معظم المدن الكبرى في الصين . والمسيحية على المقالة النسطورية دخلت ، هي الاخرى ، الصين وشيدت اول بيعة لها في مدينة تشانغ – نغان ، عام ٦٣٨ ، ونعمت فيها برعاية مستمرة . ومنذ عام ٨٤٥ ، تعرضت البوذية فيها لاضطهاد عام اصطلت بنارها ديانات اخرى « دخيلة » . كذلك استهدفت التاوية والبوذية لمهاجمات عنيفة من قبل اتباع الديانة الكونفوشيوسية ، باعتبارهما ديانتين كثيرتي التصوف وذات مراسم غريبة . واخذت المهاجمات تشتد ضد الحياة الرهبانية والنسكية ، واللاعمل البوذي ، وضد سلبية التاوية والاعمال السحرية التي أتهمت بها وغير ذلك من التهَم التي الصقوها بها ، كما يجب التسليم ايضاً بان اتباع التاوية والكونفوشيوسية لم يروا اي فائدة من تحالفهما ضد البوذية التي عرفت ان تتخلق باخلاق الصين وتتطبع بطباعها بحيث بدت وكأنها ديانة جديدة قالت بوحدانية الوجود ، واخرجت للناس نحلة جديدة تعرف عندهم بنحلة التأمل او التجريد لقيت انتشاراً واسعاً في طول البلاد

وعرضها ، حتى انهـــا بلغت اليابان تحت اسم « زن » ، وهي مذهب روحاني يحرك المشاعر ويحمل الفرد على القيام ببراسم دينية شخصية تحرك العواطف والشفقة في القلوب ، حيث طريق الخلاص مفتوح لاصحاب الشطحات الصوفية .

وعهد دولة تانغ الذي امتاز ، من جهة ، بالبطولة والفروسية ، كما امتاز ، من جهة اخرى ، بروح النقد والسخرية والصوفية ، شهد انتشار صناعة الورق واستعماله أكثر فأكثر فنشّط ذلك ظهور الطباعة الخشبية ومهد الطريق امام الطباعة بالحروف المتنقلة ، وذلـــك بعد التوصل الى حروف متنقلة اتخذت من الدلغان او الفخار (النصف الاول من القرن الحادي عشر) . وقـد اتاحت الكشوف العلمية التي أمكن تحقيقها ، في هذا المجال ، للثقافة ان تقطع مراحل من الرقي والتقدم خلال حكم التانغ والوصول الى شيء مـن التأليف في مجالات الفكر والدين والفلسفة كما وصلت عبر الاجيال الماضية .

الحميات الصينية في عهد دولة تانغ

لا يصح قط ان نجهل او نتجاهل الدور البارز الذي لعبته البلدان المجاورة للصين في هذا الطور الحضاري الذي مرّت به البلاد في عهد ملوك تانغ . وهذا الدور يبرز على امثلة ، من كتابات الرحالة هيوان ـ تسانغ الذي قام في القرن السابع ، برحلة الى واحات التركستان ، وعرف ان يصفها لنا وصفاً دقيقاً . وكان يقيم في هذه الاقاليم ، ممالك توابع ، تباينت فيها العروق الاثنوغرافيـة واختلفت اللغة واللهجات ؛ وكانت تمر بها طرق تجـارة الحرير ، فتترك فيها حركة ناشطة بالازدهار ، كما كانت ممراً للمؤثرات الحضارية الغربيـــة في تغلغلها نحو الصين ، فكانت بالتالي ملتقى حضارة العرب وايران الساسانية كما انتهت اليها معالم الثقافة الهلينية البوذية، والهند بعد ملوك الغوبتا ، والمانوية حتى والتيبت. وعن طريق هذه الواحات بلغت البوذية الصين مع المؤثرات الخارجية الاخرى، اذ ان المناطق المتاخمة للصين من الجنوب الشرقي ، والتي كانت تقـــع تحت مراقبتها واشرافها المباشر ، كالانام والتونكين ، كانت قطعت شوطاً بعيـداً في تصيّنها بحيث لم تكن قادرة على مدها بعناصر جديدة تجدد من ثقافتها وحضارتها .

وكان سكان هذه الواحات ، ومعظمهم رجال حرب ورعاة ، يعيشون على التجارة والزراعة تحت تبعية الصين وولائها ، مع محافظتهم على عاداتهم الخاصة وعلاقاتهم الروحية بالهند . فقـد كانوا مستمسكين بالبوذية. ويتكلمون لهجات هندو اوروبية ، فقد جعلوا من ممالكهم متاحف للادب والفن البوذي ، وأضفوا على هذا الاخير طابعاً ممـــيزاً ، هو صيني السمت في الواحات الشرقية ، ايراني الطابع في الشمالية منها ، هندي المظهر في ما وقع منه في الجنوب . وهـــذه الرسوم والصور التي تغطي جدران المغاور تعطينا صورة صحيحة لما كانت عليه الحياة والنشاط الديني في هذه المناطق من معالم ومظاهر . وهذه الرسوم التاريخية التي تعود لهذا العهد ، قـــد زالت من الصين وايران ولم تسلم لليوم غير تلك التي كانت في التركستان الصيني ، فوصلت الينا

شاهد عدل على ما كان عليه قادة القوم من ملبس ومعشر بثياب على الزي الهندي او الصيني ، ممتطين صهوات جيادهم في هجوم على الحصون والقلاع تحت خفقان البيارق ، او سائرين الهوينا، مرتدين اجمل حللهم وزينتهم . فنحن امام عالم جيّاش ، يعيش على الحدود عيش بذخ واباء وشمم ، في اطار اجتماعي خاص به . وهو عالم يرجع القهقرى ليهوي وئيداً في البربرية ، خلال هذه الحقبة التي تمتد من اضمحلال ايران الساسانية وسلالة تانغ في الصين .

الصين في عهد سلالة سونغ

ظهور سلالة تانغ في الصين ، في القرن العاشر حمل معه الى البلاد ، جواً جديداً ، اتسم بالهدوء والسلام . فبقدر ما حافظت سلالة تانغ على تقاليد البلاد القديمة ، وخاضت من حروب ، وهدرت من دماء زكية ، وعانت من المجاعات وتضاريس الحياة بين حلوها ومرها ، احتقر ملوك دولة سونغ العنف والحروب الفتح والغزو فقد هم ملوك تانغ ، في ايام دولتهم ، ان يشبعوا اذواقهم من الفنون والاشياء الخارجية ، بحيث بدا اشهر شعراء هذا العصر : لي - تايبو اقرب الى الفكر الغربي منه الى نفسية الصينيين وذهنيتهم . اما في عهد السونغ ، فاننا نشهد ، خلافاً لذلك ، تجديداً للقيم التقليدية ، وراحت مدنيتهم تبرز ، في كل المجالات ، ما هو صيني الطابع ، في الدرجة الاولى .

فاذا ما رضي ملوك سونغ ان يفقدوا نصف اراضي الصين وان يقنعوا بالقسم الجنوبي منها ، فما ذلك لضعف فيهم ، او لزهد او عدم اكتراث قط . فقد كان باستطاعة الأول من ملوك هذه السلالة ، بما تم لهم من حزم وعزم وسمو الهمة ، ان يعيدوا الى الصين ، قوتها وبأسها بعد ان استحكمت الفوضى بخناق البلاد في اواخر عهد تانغ (السلالات الخمس) . فقد وجدوا امامهم صعوبات جمة في الداخل والخارج على السواء، ولا سيما هذا الفقر المدقع الذي كان الريف يتسكع فيه من بعد ما تكالبت عليه المحن والاحن: كالمجاعة ونزوح السكان، التي فتّت من عضد الصين، وفتّتل فيها كل الرغبة في الحروب وخوض المعارك . والاصلاح الزراعي ، هذه المشكلة التي أقضّت مضاجع المسؤولين وأقعدتهم ، ازدادت تأزماً بدلاً من ان تلقى الحل المرتجى ، فشلّت ميزانية البلاد وأوقعتها في الفوضى ، بعد ان انعدمت اسباب الجباية ، وتخلخلت انظمتها ، وزادت تكاليف الحكم والادارة ، وأسقط في يد الدولة بعد ان رأت نفسها في حلقة مفرغة . وعهد مؤسسو هذه السلالة، الى بعض العلماء الكونفوشيوسيين، من محافظين ومجددين، بتحقيق الاصلاح المنشود . ولكي يؤمنوا ما هم باشد الحاجة اليه ، ويمدوا الادارة بموظفين اكفاء ، اخذوا باصلاح نظام الامتحانات ووضعوها على مناهج واساليب سارت عليها طويلاً . واعادوا الى الاستعمال النظام الذي جروا عليه من قبل بانشاء احتياطي للقمح حفظوها في حواصل للحكومة . واعادوا التوازن في ميزانية الدولة بتخفيض النفقات العامة الى ٤٠٪ وقد شجعوا الانتاج عن طريق التسليف على الغلة ، والغوا نظام السخرة واستبدلوها بضريبة على الاعناق تدفع سنوياً . واعادوا مسح الاراضي من جديد ، واجروا توزيعاً جديداً لها ، وهو اصلاح قصد منه في الدرجة الاولى ، تحسين الوضع المالي ، اكثر منه اصلاح النظام الاجتماعي ، اذ ان

نظام الملكيات الكبرى بقي معمولاً به ، كما انه كان من الايسر تأمين الضريبة العقـارية . كل شيء نُظّم وفُرضت عليه الرسوم : الزراعة وملكية الارض والتجـارة ، حتى البضاعة الموجودة في المستودعات فُرض عليها رسم بلغ ٢٠ في المائة من قيمتها ، يضاف اليه ٢ في المائة اذا لم يتم الدفع في اوانه. وتشجيعاً للاعمال التجارية، اخذت الدولة بنظام التسليف على الاملاك، فانشأت لهذا الغرض وكالة خاصة تعطي التجار سلفة لقاء رهن . فاخذت تكاليف العيش تنزل تدريجياً ، واخذ الناس في الريف والمدن يعوّلون على الارز في معايشهم ، كما تشددت الدولة في ملاحقة المحتكرين .

من المؤسف ان هذا الاصلاح لم يعمر طويلا . ولكي يتمكن المزارعون من تسديد مـا استلفوه على غلالهم راحوا يستدينون من مصادر اخرى : من المرابين بفائدة تبلغ احياناً ٥٠ بالمائة بالاضافة الى ٢٠ بالمائة المستحقة عليهم للدولة . وقـد راح المتعلمون المعروفون بتحفظهم يرفعون عقيرتهم عالياً ضد الذين قاموا بحركة الاصلاح هذه ، فانقسم الناس على بعضهم في الداخل وعمت الاضطرابات ، وفقد التوازن ، بينما وقعت الصين الشمالية بما فيها العاصمة بكين ، فريسة بيد اقوام الكيتات ، والجرتشات . وبعد محاولات فاشلة قام بهـا اباطرة الاسرة سيونغ ، قر الرأي عندهم ان يقيموا نهائياً في مدينة هانغ – تشيو ، متخلين عن القسم الشمالي من الصين .

وهكذا بعـد ان تحرر المفكرون والمثقفون من ضواغط الروح العسكرية البغيضة راحوا يعملون على تحقيق نزعاتهم السمحاء واهدافهم السامية . فما من عهد حقق في مجال الفكر والفن ما حققه عهد ملوك سونغ في تاريخ الصين . فالاباطرة انفسهم ضربوا بسهم في الثقافة ، لا بـل كانوا اثقف من تربع على عرش الصين طراً ، كما يشهد على ذلك الامبراطور هواي – تسونغ (١١٠٠ – ١١٢٥) ، الذي كان ذوّاقة ، وعالماً بالآثار وحفياً بها ، جماعاً لهـا ، وناقداً فنياً وادبياً ، ورساماً في بعض الاحيان . فلا عجب ان تصبح العاصمة الجديدة ، بين ١١٣٢–١٢٦٧ اشبه مـا تكون بمدينة متحفة ومقراً لمحفى الفنون الجميلة ، حَفَل موقعهـا الجغرافي البديع ، بالمعابد والهياكل ، والقصور والصروح الجميلة في مثـل هذا الجو العابق بالسلام ، وفي متعة من العيش المترع ، وفي مثل هذا الاطار الجغرافي البديع المناظر ، اعطت مدرسة الرسم والتصوير في عهد دولة سونغ ، ابهج روائعهـا الفنية . فبعد ان ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمناهج الفلسفة والشعر الرفيع ، راحت تضع لنا مناظر تعبق بالظـلال المترعة بالسحر، السابحة في غلالة من الندى ، الغارقة في البعيد الرجراج ، القائمة على خطوط شاطحة . وقد رُسمت على أرْضيّة من الحرير الشفاف بالحبر الصيني فبدت في قدمها كانها عنبر ماصع . وقـد خضع فن التصوير عندهم لهذه المثالية الصوفية التي آل اليها مفكرون انقطعوا للتجريد والتأمل ، معظمهم من اتبـاع الديانة التاوية ، فبدت المناظر وكأنهـا رؤى متحيزة ، عبّرت عن النفس برموز ، وورّت عن طبيعة الرسام الفيلسوف برسوم مهفهفة وهو تصوير نفساني حـاول ، على طريقة الفلسفة ، ومستعيناً بالمحسوس ، ان يتلمس جوهر النفس وحقيقتها وان يذوب معهـا . فاذا كانت الصورة

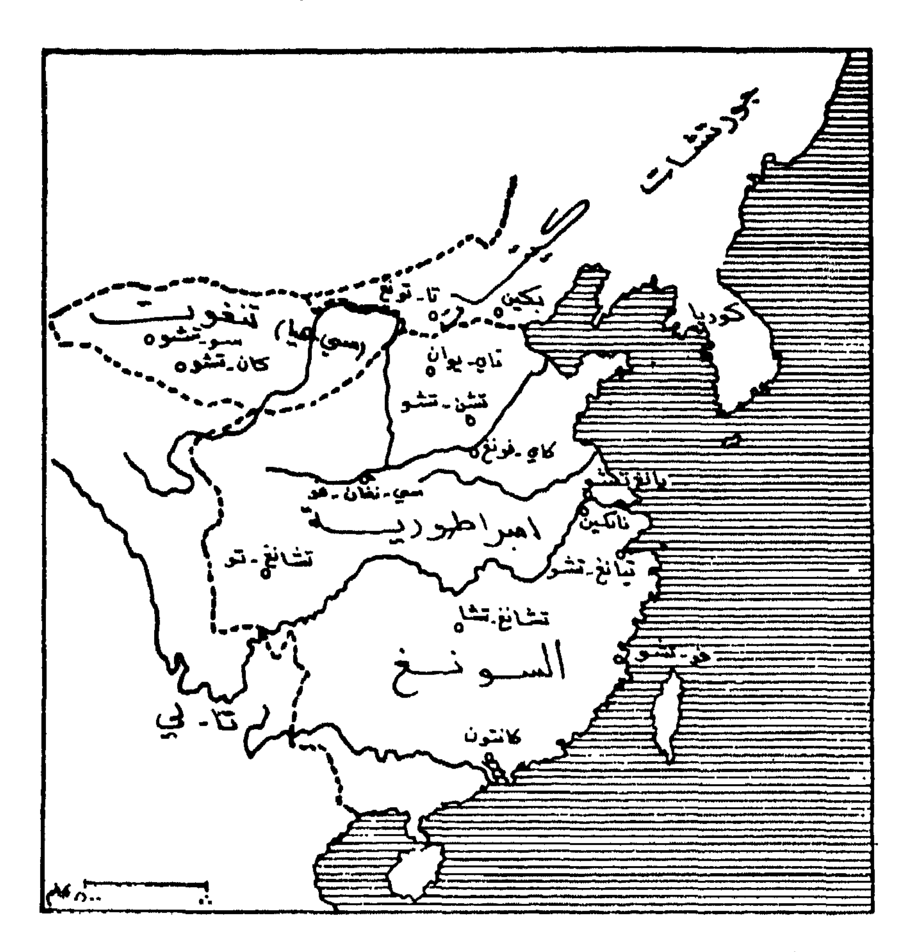
ذات اللون الوحيد تؤلف وجدها قصيدة، فالقصيدة التي تسبح نسج بردتها ملوك سونغ هي نفسها صورة ناعمة مهفهفة تمور بالحس والشعور ، وبكل ما في الطبيعة من حب وهيام .

وقد رافق هذا الازدهار الفني إشعاع ادبي واسع النطاق ، مكّن له اختراع الطباعة فانتشرت الفلسفة الكونفوشيوسية . فاذا كانت البوذية والكونفوشيوسية والتاوية، لا تزال مثاراً فيما بينها لجدل عنيف ، هو من مميزات هذا العهد المفرّدة ! فقد وضعت كلها نصب عينيها ، هدفاً واحداً : وحدة الوجود او الكون ، فترد الكون والانسان الى مادة واحدة لا غير . فاسمع ما يقوله تشاد – يونغ (١٠١١ – ١٠٧٧) بهذا الصدد : « فللانسان والارض والسماء تؤلف جميعاً وحدة واحدة ، مع كل الكائنات التي كانت في كل الازمنة والامكنة ، اذ ان ناموس الكون واحد هو ... فمبدأ الحياة واحد هو ، وينبض في الجميع ... » ويضاف الى هذا عامل تطوري تختلط فيه وتتمازج به اقدم ما عُرف به المجتمع الصيني البدائي والنظرات الفلسفية الهندية التي حملتها البوذية الى اطراف الشرق الاقصى . وقد ألبس تشو – هي (١١٣٠ – ١٢٠٠) هذه الفلسفة صيغتها النهائية التي تبرز لنا على أتم وجه ، هذه الفكرة كما تبدت لنا في عهد ملوك سونغ . وبالرغم من متانة هذه النظرية الفلسفية التي وضعها تشو – هي وذهب صداها بعيداً في الارض ، فقد فتحت ، مع ذلك ، الباب على مصراعيه ، امام التأمل في شبه حلقة مفرغة ، مانعة في المستقبل ، كل انطلاقة ، نحو المذهب الروحي . وهكذا كان السبب في هذا الشلل الذي اصاب الفلسفة الصينية بين القرنين الثالث عشر والعشرين وهو شلل زاده جموداً وقموداً الفتح المغولي ، وفيما بعد ، الروح المحافظة التي ميزت عهد ملوك منغ .

دخول اليابان الحلبة

منذ اواخر القرن الرابع بلغت الحضارة الصينية كوريا واليابان . كما دخلتها البوذية . وفي سنة ٥٥٢ ، حملت بعثة كورية الى امبراطور اليابان تمثال بوذا ، ومجموعة من الحكم البوذية والكلم المأثور ، وهو حادث كان له تأثير عظيم ودوي كبير تمثل في اعتناق اليابان رسمياً للديانة البوذية . وقد نشبت اذ ذاك ، حركة عنيفة بين المحافظين المشهورين بمعارضتهم للبوذية ، وبين المجددين التقدميين الموالين لها ، بزعامة اسرة سوغا الكبيرة . وعندما تمت الغلبة للفريق الثاني ، تمت معها المناداة بالبوذية ديانة اليابان الرسمية ، مع ارتقاء الامبراطورة سويكو العرش (٥٩٣ – ٦٢٩) ، وهي من اسرة سوغا ، فكانت اول امرأة تجلس فوق عرش اليابان واتخذت مساعداً لها احد امراء سوغا هو اومايادو سوغا الذي عُرف منذ ذاك ، باسم شوتوكو تايشي ، الذي كان من اشهر رجال عصره . واذ كان بوذياً مخلصاً وغيوراً ، فقد ادرك سمو الثقافة البوذية وتعاليها وتساميها فوق ديانة البلاد البدائية المسماة شنتو ، التي لم تستطع ان تعلو فوق الاساطير والخرافات التي علمتها حول مراسيم التطهير والرجس ولم تخرج من هذا كله باية نظرية ادبية . واعتماداً منه على الخلقية البوذية، راح شوتوكو يصدر ، عام ٦٠٤ مرسوماً تألف من ٢٧ مادة صح اتخاذه دستوراً لحكومة ذات سيادة تأخذ الناس بالعدل ، بعيداً عن كل استبداد . ومن هذا العهد ارتفعت في البلاد اولى الادیار والمعابد

البوذية ، فقد ُعدّ منها ٤٦ عام ٦٢٤ ضمت ٨١٦ راهباً ، كما ضمت ٥٦٩ راهبة ، وهي مبانٍ من الخشب ُصمّمت وفقاً للتقاليد اليابانية ، وسهروا على حفظهـــا وصيانتها فوصل معظمها الينا سالماً حتى القرن العشرين ، كما كانت تماماً في مظهرهـــا القديم . فليس من فرق جوهري في



الشكل (رقم — ١٠) الصين في عهد دولة سونغ (حوالي ١١٠٠)

المظهر ، بين المعبد الياباني والهيكل الصيني . فهو يقع في ساحة مرّبعة الاضلاع تحف به الاروقة كالدير ، ويحيط به افناء واسعة وعدة مبانٍ مخصصة للاعمال الادارية في الدير . ويرقى الى هذه الساحة الفسيحة الارجاء من عدة ابواب ، فيطل علينا الهيكل الذي يشابه الـ *Stupa* في الهند ، والسرادق المذهب (*Kondô*) الذي يضم الايكونوستاز حيث لا يسمح للجمهور بالدخول ، ثم قاعة الوعظ والارشاد ، فالمكتبة ، فقبة الجرس ، فبيت المنامة ، وغرفة الطعـــام ، والمطبخ ، وجناح الحمامات تقوم كلها في الخارج ، الى الشمال من سور الدير . ومن ابرز هياكل هذا العهد

ومن اجملها على الاطلاق ، هيكل هوريوجي ، الذي تأسس عام ٦٠٧ ، والذي اكلت النار احد أفرزته ، في حريق شبّ فيه عام ١٩٤٩ .

فاذا كانت العلاقات الرسمية المباشرة بين الصين واليابان ابتدأت في سنة ٦٠٧ ، فالعلوم والفنون الصينية كانت دخلت اليابان، قبل ذلك بقليل عن طريق كوريا، منذ اواخر القرن الخامس. فقد احدث دخولها الى اليابان ، بين الطبقات الاجتماعية العليا، حركة تعاطف واقبال قوية للغاية، بعد ان صدمت بمنظرهـا الخارجي البسيط ، وباعتقاداتها البدائية ، الرجال الذين تألفت منهم البعثة الصينية . فقد بدا القصر الملوكي كانه مجموعة من الاكواخ تعلو ابوابهـا احواض المياه وعقّافات عديدة يركن اليها عند شبوب النار لهدم المباني ، منعاً لانتشار اللهيب واتساع الحرائق. اما الزي فكان يلبس الجسم لبساً، مع سترة تشبه ما كان مستعملاً من امثالها في كوريا. اما الفتيان ، فكانت شعورهم توزع بين ضفيرتين ، تعقص فوق الاذنين او تمقص فوق الجبين . والوشم الذي يعتبره الاغراب من سمات النبل والشرف ، فقد اصبح فرضه على الناس ضربـاً من القصاص .

وقد اثّر الازدهار الذي عرفته الصين في عهد الأول من ملوك تانغ تأثيراً بالغاً على اليابانيين ، فراحوا يقتبسون كل ما هو صيني ، كالكتابة والرسم على الحرير وصنع اقلام التصوير والورق ، وعلم النجامة ، والتقويم ، وحساب تواريخ ايام السنة ، وهندسة المناظر ، وبناء الجسور . وتشبهاً بالصين ، راح اليابانيون يحصّنون من شواطئهم البحرية ، ويتبنون نظام الضرائب، وسك العملة ، ووضع المراسم في استقبالات البلاط ، والملابس والزين الرسمية في الاستقبـالات ، والرتب والمراتب في الوظائف . وقد كانوا اقتبسوا منذ عهد بعيد ، اي منذ عام ٤٠٥ ، الخط الصيني ، اذ قدم الى اليابان ، هذه السنة بالذات كاتب كوري ، لاستخدامه في القصر ، ومـا انتصف القرن الخامس حتى اقتبست اللغة المحلية في اليابان، الابجدية الصوتية المستعملة في الصين التي كانت تتألف من ٥٠ صوتاً صوروها حروفاً رُتّبَت على النسق الهندي المعتمد في التعليم . ومنذ ذلك الحين طلعت علينا المحفوظات ، والسجلات ، والاوامر والمراسيم المكتوبة ، مرسّخة في البلاد لاصول السلطة المركزية الحاكمة وسهلت وضع تاريخين للبلاد هما الـ *Kojiki* والـ *Nihonji* ومجموعة من القصائد *(Manyoshi)* وبيان طوبوغرافي *(Fûdoki)* كذلك طلعت بوادر يقظة فكرية وذوقية تردد صداهـا في الموسيقى الوطنية ، اذ ان اليابان تبنّت الموسيقى التي راجت في عهد تانغ، وهي صينية الاصل ، وموسيقى *Kan* المستوردة من كوريا ، والنظرية الموسيقية التي حملها معه لن – يي ، وهي هندية الاصل، واكثرها رواجاً، وموسيقى تمرا ، من اسم جزيرة قريبة من كوريا . وكل هذه المدارس الموسيقية الاربعة ولا سيا المنسوبة منها الى لن – يي ، تبدو معالمها واضحة من خلال التطور الذي مرت به الموسيقى في اليابان .

كل هذه المؤثرات الفنية والفكرية دخلت اليابان عن طريق الكوريين . فالعديد من رجـال الفن والصناعة ، بين مهندسين ورسامين ونقاشين ونسّاخ وغيرهم من ذوي المواهب الصناعية ،

قدموا من بعيد وسكنوا اليابان، لا سيا ابان الاضطهاد الذي اعلنته الصين ضد البوذية ، في اواخر القرن السادس. ولا بد من التنويه هنا بهذه الحركة التي قامت في العصر التالي فحملت عدداً كبيراً من طلاب العلم يفدون من اليابان على الصين لاقتباس العلوم ولا سيا الطب منها .

وعندما راحت اليابان تقلد الصين تقليدا حرفياً ، اخذت عنها في جملة ما اخذت ، النظام الاداري الذي عمل به في عهد دولة تانغ ، كما اقتبست اصلاحاتهم ونظمهم الاقتصادية ، دون ان يدركوا جيداً كيف ان الشكل الديموقراطي لهذه السلطة لا يأتلف قط مع التقاليد الارستوقراطية الصرفة المتبعة في الطبقة الموجّهة التي تتألف ، في اليابان ، من كبار الملاكين للارض المتوزعين احزاباً والمتنعمين بامتيازات الطبقات الممتازة . فادّى الامر في عهد الملك نارا (٧٠٧ — ٧٨١)، الى شيء من الاتفاق للتعلرف اصبح معه الامبراطور *(Tenno)* الذي هو في الاساس نظام وراثي، حاكماً زمنياً وروحياً ، فكان بهذا ، زعيماً وطنياً، وإلهاً قومياً. فتحت سلطته يعمل جهازان خاصان، هما الـ *Shinto* الذي لا نرى له مثيلاً او مرادفاً، في الصين، والآخر هو مجلس شورى الدولة . فالاول يهتم بكل الامور الدينية ولا سيا ما تعلق منها بالعبادات القديمة ، في اليابان ، بينما الجهاز الثاني يؤلفُ رأس هرم الادارة العامة الذي يتشعب منحدراً من الوزراء لينتهي بالدوائر المحلية. فالوظائف لا تعطى لاصحابها والرتب لحاملها، وفقاً لاستحقاقات خاصة او لنجاح يصيبونه في الامتحانات. فالوظائف والمراتب هي من حظ ابناء الاسر الكبيرة الذين تهيأوا لها واستحقوها بالدروس والعلوم التي تلقوها في الجامعة الامبراطورية . وابناء كبار ارباب البلاد الذين ساهموا من قبل في قيادة المملكة وتوجيهها ، تسند اليهم وظائف تستمر في بيوتهم بالوراثة. ولما كانوا يتقاضون مرتبات ضخمة لقاء هذه المراتب الشرفية التي يحملونها ، فقد ألـّفوا عبئاً ثقيلاً على خزينة الدولة التي كانت تتغذى من الرسوم المفروضة على المكلفين من غير النبلاء وعلى العبيد الارقاء . وقد سببت الضرائب الباهظة خراب الملكية الصغيرة التي فرض على اصحابها من كلا الجنسين ، دفع رسوم ، منذ بلوغهم السادسة من عمرهم . ولما كانت الارض لا تورّث ، فقد كانت تعود الى ملكية الدولة عند وفاة صاحبها ، كما كانت الدولة تعمد الى توزيعها من جديد ، بعد كل ست سنوات ؛ فلا يمكن التنازل عنها لاحد او بيعها من احد ، باستثناء قطع الارض التي تقوم عليها عمائر ومبان ، او فيها اغراس من شجر اللك. وكان افراد الشعب يخضعون لثلاثة انواع من الضرائب : ضريبة على الارز تتناسب واهمية الاراضي المزروعة أرزاً ، وضريبة اخرى تترتب على الرجال وحدهم يدفعونها عيناً : انسجة او محاصيل زراعية محلية ، واخيراً السخرة . والى هذا ، فقد سُمح لحكام الولايات ان يحتفظوا لانفسهم بقسم من الفوائد المترتبة على السلفة التي استلفها المزارعون من الدولة، فيضطر هؤلاء لدفع فائدة فادحة ، تكوّن ضريبة اضافية جديدة . ثم ان الخدمة العسكرية الاجبارية ، تلزم رجلاً من اصل ثلاثة، على قضاء ثلاث سنوات ، في خدمة الجيش بعيداً عن ذويه ودياره ، هذا ان لم تضطره الظروف للبقاء في الخدمة العسكرية الى ما لا حد له ، مع العلم ان على الجندي ان يتكفّل بتأمين غذائه

وعدته، وان يستمر في دفع الضرائب الثلاثة المترتبة عليه، كما عليه ان يُسهم في التجهيزات العامة. وهو يمضي اكثر اوقاته في اعمال السخرة اكثر منها في خدمة عسكرية فعلية. واليابان مدين لما هو عليه من وبالة الصحة لانه لم يتعرض يوماً للغزو من الخارج، اذ ان جيشه كان في وضع زري جداً بحيث لم يكن يرجى منه شيء.

صحيح ان طبقة النبلاء رأت أملاكها تنتزع منها، ولو اسمياً، وتُعطى لأعضاء الاسرة الامبراطورية، إلا انه قبل ان يوضع القانون موضع التنفيذ، نال رؤساء البيوتات الكبرى تعويضات محسوسة على الاملاك التي انتزعت من ملكيتهم، كما نالوا مراكز عالية، وأعفوا من الضرائب والرسوم المفروضة، والسخرة والخدمة العسكرية والمدفوعات العينية، وكلها امتيازات أصبحت وراثية في اسرهم يتوارثونها خلفاً عن سلف. وبموجب المراتب التي أجريت عليهم، يحق لهم الحصول على بعض الاتاوة من الأرز وغيره، وان يفرضوا بعض الرسوم، وان يتقاضوا فوائد على ما يقرضون. واذا ما أدّوا للامبراطور ولحكومته خدمات سنية، نالوا عنها تقديرات محسوسة ومنافع عينية جزيلة. وقد اخذوا يعملون بنازع من النفس، على توسيع دائرة مقتنياتهم كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً: فيجمعون بين وظائف عديدة عالية، ويُعترَف لهم بحق املاء المناصب السفلى من اتباعهم ومريديهم، وبذلك فتحوا الباب على مصراعيه امام الرشوة والفساد. وهذه المكاسب والامتيازات العريضة التي كانت تزداد قيمتها بارتفاع المركز وسمو الوظيفة، تمتع بمثلها وأكثر، رجال الدين من رؤساء ديانة الشنتو والبوذية.

النظام الاقطاعي في اليابان

هذه القوانين التي صدرت عن جماعة مضت بعيداً في حركة تصيّنها وأخذها بأسباب الحضارة الصينية، وهامت كثيراً بالمركزية التي سادت البلاد في عهد دولة تانغ، صدرت لعمري، عن سلطة مركزية طرية العود، ضعيفة العضل بحيث تستطيع ان تفرض ارادتها على مصالح بعض الخاصة. وجاء توزع السلطات واقتسامها يخدم الى حد بعيد، الجشع الذي جاش في صدور ونفوس بعض كبار الزعماء الذين راحوا، امعاناً منهم في المقاومة، يعتصمون في املاكهم الواسعة او في اقطاعاتهم *Shôen* ولم يلبثوا ان نالوا تدريجياً، اعفاءات متزايدة عن اراضيهم كما اعفي المزارعون والفلاحون العاملون في اراضيهم من السخرة. ولم تلبث هذه الاقطاعات الشاسعة ان اصبحت ممالك مصغرة، مستقلة ضمن الامبراطورية. والموظفون الذين كانوا من كبار الملاكين ازدادوا نفوذاً وشأناً: فقد نعموا، من جهة، بأُعطيات واسعة اجرتها عليهم الدولة، كما استطاعوا، من جهة ثانية، ان يستثمروا دونما قيد، اراضيهم والمزارعين العاملين فيها. وهكذا تمكن كبار الزعماء في البلاد من استرجاع ما كانوا يتمتعون به من نفوذ وجاه، واستطاع كبير زعيم هؤلاء الاقطاعيين الـ (*Fujiwara*) ان يجمع بين قبضة يديه، كل مراكز القيادة والتوجيه، وتوصل عن طريق أنصاره وأتباعه ومريديه بعد ان اخذ عددهم بالنمو والازدياد، ان يسيطر على المجلس الاعلى للنبلاء، والوظائف الكبرى في الدولة، ويقدم للعرش الامبراطوري، الامبراطورات والوصيفات.

وسواءٌ اعتبرت هذه الاقطاعات *Shôen* ممتلكات خاصة او انعامات نالها اصحابها للخدمات الجلى التي أدّوها للبلاط، فقد كانت النقطة التي انطلق منها وارتكز عليها النظام الاقطاعي في اليابان. صحيح ان وحداتها اختلفت مساحةً ووضعاً وقواماً. فالتي قطعت منها شوطاً بعيداً في التطور، نزعت الى الانقسام والتفرع الى استثمارات تولى امرها ملتزمون، بينما راحت الاخرى تتسع وتزداد بضم الاراضي المتفرقة بين أقضية مختلفة، ومعظمها يتألف من مزروعات الارز يستغلها مكترون او مرابعون. اما التي كانت منها ملكاً لمؤسسة دينية، فكان يتولى تشغيلها وكيل فوّضت اليه العناية بها والسهر عليها فكان شبه مالك لها، يتقاضى لحسابه الخاص بعض العائدات التي يجبيها من اصل غلة الارض، بمثابة مرتب له. وكثيراً ما كان صاحب الارض يقدّم، هو نفسه، للمزارع ما يحتاج اليه من نصوب وبزار على ان يقدّم الفلاح عمله بالمجان وان يسلم كامل المحصول عند تمام المواسم، كما كان عليه ان يقدم، علاوةً على ذلك، عيناً بعض محاصيل الارز وغيرها من نتاج الارض، كثيراً ما اضطر المزارع لشرائها من اصحاب الاملاك المجاورة. ومن كان من هؤلاء المرابعين والخدّم والارقاء صالحاً للخدمة في الجيش، كان عليه ان يقوم بشيء من الخدمة العسكرية عند سيد الارض ليردّ عنه عوادي الغزاة والمهاجمين. اما في الاقطاعات الواسعة، كان الوكيل يتولى ادارة الاقطاع فينظمها على شاكلة الادارة العامة في الدولة، بعد ان كان تحت امرته، عدد كبير من العمال التوابع لسيد الارض. وهذا السيد المستقل في اقطاع، كان يخضع، مع ذلك، لرئيس اعلى هو الحارس القانوني لهذه الاقطاعات الذي كان ينتخب عادةً من بين اعضاء مجلس النبلاء الاعلى، فيكون من كبار الاشراف او من الاسرة الامبراطورية، او من بين سراري الامبراطور، او ممثلاً لأحد الهياكل الكبرى في البلاد الذي ينعم بنفوذ عظيم. ومقابل هذه الحماية والرعاية التي يؤمنها الحارس، لهذا السيد، يترتب على هذا الاخير، ان يدفع سنوياً مبلغاً معيناً يتناسب والخدمات التي يتلقاها منه عن البلاط.

ان تاريخ اليابان الداخلي طوال هذه الاجيال التي نستعرض هنا لبعض معالمها، ليس سوى سلسلة متصلة الحلقات من خصومات ومواثيق بين رجال الاقطاع على اختلافهم وذلك رغبة من السلطة المركزية بتخفيض عدد هذه الاقطاعات، او الغاء بعضها او اخذها بنظام آسر عليه ان تتقيد به؛ ولم تعتم هذه العقارات الكبرى ان استحالت تدريجياً الى اقطاعات فاقت بقوتها العسكرية، قوة السلطة المركزية للامبراطور. فالبنيان السياسي الذي حذوا فيه حذو ملوك تانغ في الصين، ساعد على اتخاذ مثل هذا الوضع، اذ كان على رأس الادارة المركزية، موظفون كبار يتوارثون هذه المراكز، لا يمكن عزلهم او رفتهم، فسدت منهم الاخلاق والضمائر، وماعت نفوسهم. فحيث اخفقت الدولة، استطاع نظام الاقطاع ان ينجح، لأنه عرف ان يساير تطور الشعب الياباني، وان يراعي طبيعته، فتوصل الى حل مشكلة تزايد السكان، وان يؤمن النظام في الداخل، بعد ان كان الـ *Shôen* احسن ادارة مما كانت عليه الدولة، وان يرفع من مستوى العيش. واستطاع ان يشكل وحدات عسكرية تفوق كثيراً بنظامها وفعاليتها ما

كان منها لدى الدولة . ففي الوقت الذي كانت فيه الخدمة العسكرية ، لدى الدولة اشبه بسجن يقوم السجين فيه بأشغال شاقة ، كان جنود الاقطاع يجدون في خدمتهم لذة وفخراً .

وبالرغم مما كان عليه هذا الوضع الاجتماعي في اليابان ، من معاناة وغموض ، فقد جاء ، مع ذلك ، وضعاً بنّاء ، سجلت الدولة فيه ، خلال القرن الثامن ، اي في عهد العاصمة نارا ، رقماً قياسياً في تطورها التاريخي . فقد راحت الدولة التي نعمت ببنيان سياسي واقتصادي قوي ، ترعى الآداب والفنون وتؤمن لها الازدهار . وقامت الدولة باصلاحات رمت منهـا للحد من نفوذ الاسر الاقطاعية القوية والتسييج حول ملكية صغار الملاكين . والبوذية التي اصبحت دين الدولة الرسمي ، عرفت عهداً من الازدهار لم تعرف مثله من قبل ، تمثل بهذه المؤسسات التقوية او الانسانية العديدة ، التي،بفضل ما نعمت به ، تحت اشراف الامبراطور ومراقبته المباشرة ، من ادارة قوية ، صحيحة ، استطاعت ان توسع من نطاق عملهـا الاجتماعي ، فانشأت المستوصفات ، واهتمت بامر المرضى ، ومدت يداً رفيقة للمعوزين وساعدت رجـال الدين ، ونشرت اسباب المعارف . فالجامعة الحكومية التي قامت في العاصمة نارا ، عرفت ازدهـاراً كبيراً عام ٧٠١ ، اذ تألفت من اربع كليات ، هي التاريخ والادب والحقوق والرياضيات ، كما كانت تعلم علم الاصوات والخط . وكان للرهبان البوذيين نفوذ كبير ، فقد ترأسوا الحفـلات الدينية ، ونظموا الاعيـاد الوطنية ، وشقوا الطرقات في البلاد وانشأوا الكثير من الكباري عليها ، وساعدوا على التشجير وزرع الاغراس على جوانب الطريق ، وقاموا بحفر الآبار واقنية صالحة للري . ولم يقل عدد الرهبان اذ ذاك عن ٨٠٠٠٠ راهب وراهبة في بلاد تراوح عدد سكانها بين ٧ و ٩ ملايين نسمة ، اي بنسبة واحد في المائة من السكان . واستطـاع الاباطرة ان يسيطروا تباعاً على الجزر المتاخمة ويحققوا انتصارات مدوّية على اقوام الـ *Ainu* الذين مـا عتموا ان ذابوا تدريجياً في جسم الامة اليابانية .

كان فن التصوير العنصر الذي وحّد بين هذه النزعات على اختلافها ، بالرغم من ان منابعه الكبرى لا تزال بعد صينية ، الا انه اخذ يبرز اكثر فاكثر ، بطابعه الياباني . وقد اتخـذ مادة له عناصر شتى ، منهـا اللك الناشف المفروش على صحائف من المقوى ، والنحاس المذهب والقوالب المتخذة من الصلصل الممزوج بقصاصة القش والتبن ، والطلق ، فاتخذ من هذه العناصر التي عالجها بمهارة المنقوشات الفنية التي امدنا بها . واخذت المصنوعات الثمينة المعدة للاستعمال ترد على البلاد من الصين والتركستان الصيني ، وايران ، حتى ومن اقاصي الهنـد ، وتحفظ في مبنى *Shōsōin* الذي استعمـل متحفاً فكان اقدم متحف في العـالم على الاطلاق ، يفتح ابوابه امام الزائرين ، مرة في السنة . وقد انشأت الدولة ، في طول البلاد وعرضها ، مصانع ومعامل، اهتمت بشؤون الرسم وصناعة الجوهرات، واللك ، والسلال والخزفيات ، على اختلاف اشكالها وغير ذلك من الصنائع والمهن لا نعرف شيئاً كبيراً عنها . والموسيقى والرقص الايقاعي اللذان ترعرعا تحت رعاية واشراف دائرة الطقوس والمراسم ، استمدا الكثير من موحياتها من الصين

نفسها ، ولا نزال نمتّع النظر ، لليوم ، بمرأى وجوه مصطنعة يعود صنعها الى هذا العهد ، حتى ان الشّعر نفسه ظهرت له مجموعات من المنتقيات المختارة .

وكلما امعنا السير في هذه الحقبة طالعتنا الفتن الكثيرة والدسائس تحيكها الاسر الكبيرة ضد بعضها البعض ، بتحريض مفضوح من الفوجيوارا ولحسابهم ، اذ لم يكن احد لينكر ما كان لهم من شأن وشأو ونفوذ عريض . وراحت الدولة من جهتها تنشىء لها جيشاً له قدرة ثابتة على الحرب والكفاح ،تألـّفت وحداته من طبقة رجال الحرب والشفاليه ، هذا الجيش الذي كـُتِبَ له ان يلعب فيما بعد ، دوراً كبيراً في المجتمع الياباني . ومهما يكن ، ففي عهد دولة هايان (٧٨١ – ١١٦٧) ، ولا سيما في الحقبة الاولى منها التي امتدت حتى سنة ٩٦٧ ، بلغ الفوجيوارا القمة من القوة والسؤدد ، كما بلغت اليابان الذروة في هذه الحقبة من اقتباس الحضارة الصينية ، مع ان حركة التعاطف هذه بين الجانبين كانت خفت قليلاً ، كما هو ملحوظ . فالعاصمة الجديدة كيو تو ، بما قام فيها من هياكل ومعابد ، وقصور وصروح ، وبما بلغه فيها البلاط الملكي من بذخ في العيش ورهافة في الذوق ، برزت بالفعل ، المرآة التي تجلت على اديمها هذه النزعات ، فبعد ان صقلت الاذواق لدى طبقة النبلاء ، مالت افكارهم نحو الفنون الصينية الجميلة ، الا انهم اخذوا ، بعد ان وعوا شخصيتهم وشعروا بقيمة الذات ، بتكييف العناصر الدخيلة وفقاً لما يأتلف وطبيعة مزاجهم القومي . وهكذا قل ايضاً عن البوذية التي اخذت علاقاتها مع الصين تخف وتتباعد ، بعد ان ارتدت طابعاً قومياً . وهكذا بدت اليابان اكثر استعداداً من اي وقت مضى ، لتعي ذاتها وتشعر بنبوغها وعبقريتها ، بعد ان اخذ الانحطاط ينخر في دولة تانغ الصينية ، فانحطت وزالت من الوجود ، فتراخت بالتالي العلاقات الاقتصادية والروحية التي ربطت طويلاً بين البلدين .

وهكذا بدا البلاط الامبراطوري في اليابان أقل اخذاً بالثقافة الصينية ، كما تَلَبَّس الشعر سمات اكثر يابانية واقل تقليداً من قبل ، واكثر طبيعية . وبعد ان تكاملت وسائل الخط والكتابة راحت المرأة اليابانية نفسها تهتم بالأدب وتعنى بالتأليف وأمور الفكر وراحت بعض النساء ينظمن قصائد تفيض عذوبة وتميل اكثر فاكثر الى التجدد . من ذلك مثلاً : « مذكرات مِخدّة » التي وضعتها الاديبة اليابانية : ساي شوناغون (٩٨٧ – ١٠١١) . وقد تسبب التعليم الجامعي عن فتح المزيد من الكليات ، فاقبل عليها التلاميذ وهم بعد في سن حداثتهم يدرسون علم الاصوات ، وآثار الصين الكلاسيكية ، والطب ، بنسبة واحد على خمسة طلاب . والفنانون من ابناء البلاد راحوا يمارسون بنجاح كلي الخط وفن التصوير الصيني ، اذ بالرغم من التحرر الذي حققوه ، بقي رجال الادب من اليابانيين ، على اتصال متين بزملائهم في الصين ، حتى بعد زوال دولة تانغ . ورهافة الذوق هذه برزت على اتمها في بلاط الفوجيوارا الذين بزّوا بما وصلوا اليه من بذخ ، البلاط الامبراطوري نفسه ، فمارسوا في الدولة دكتاتورية فعلية . فاكثروا من اقامة الولائم في اسواق الادب والحفلات الموسيقية ، والمراقص الايمائية التي كثيراً ما تلهّوا بها . فقد ألفوا في فصل الربيع الترفيه عن انفسهم برؤية حدائق الكرز في ابان نورها وزهرها ، واستمتعوا بمرأى الاشجار تتعرى من اوراقها في الخريف ، وجلوا نواظرهم بمنظر الثلج يكسو

قمم الجبال . اما المرأة ، فقد كانت بهجة القصر وعطره ، وشمم الحياة ومتعتها .

طلوع عهد الشوغونات

هذا النظام الاقتصادي والسياسي الذي اقامه في اليابان المتعصبون للثقافة الصينية والمقتبسون لها ، في القرن السابع ، لم يلبث ان انهار ، عام ٩٦٧، في الوقت الذي يضعف فيه نفوذ الفوجيوارا في البلاد بعد ان استكانوا الى الدعة واستسلموا بكليتهم للملاذ . وتضخمت قبيلتهم الى درجة فقدت معها الوحدة ، فانقسمت على نفسها تحت تأثير الدسائس والمؤامرات والاحزاب الداخلية والعصبية التي شدت البطون بعضها الى بعض فلم يستطيعوا الدفاع عن انفسهم ، وعهدوا بامرهم الى رؤساء من المرتزقة ، فاضطروا اخيراً للتنازل عن سلطتهم وسيادتهم للنبلاء والبارونات ، القائمين في المقاطعات ، والى اصحاب الاقطاعات الضخمة .

وطلوع هذه الاقطاعية الريفية جرّ على الشعب موجة من التطير والتشاؤم ، زاد من حدتها هذه الاعتقادات والاوهام الشعبية التي راحت تروج وتنتشر ، منذرة بان سنة ١٠٥٢ ، ستحمل معها زوال الناموس البوذي . فبعد ان اثرى الرهبان البوذيون ، واستبحروا في البذخ والجاه ، راحوا يناصبون بعضهم البعض العداء ، ويوغرون صدور بعضهم بالنم والدس والافتراء ، وكلها امور يتبرأ منها الدين . ولذا راح الشعب يبحث له عن ديانة جديدة تحمل معها التعزية والسلوان لمن ذهب فريسة التشكك والارتياب ، فالتفت الى بوذا أميدا ، فاخذت عبادته تزدهر اذ ذاك وتنتشر . وفي الوقت نفسه اخذت اليابان تنكفىء على نفسها وتنطوي على ذاتها ، ولو بصورة مؤقتة ، واقصرت علاقاتها مع الصين على الامور التجارية دون سواها ، وانصرفت لفتح الجزر الواقعة على مقربة منها الى الشمال ، حتى اذا ما تمّ لها تدويخها ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، عادت اليابان سيرتها من الاتصالات مع الغرب .

فالحقبة القصيرة التي مرت على البلاد في عهد دولة الروكوهارا (١١٦٠ — ١١٨١) ، رأت المنافسات والحروب يشتد أوارها بين الاسر الاقطاعية الكبرى التي راحت تتنازع السيادة وتحاول الخفض من جانب الفوجيوارا ، كما اشتدت المنافسة بين قبائل التايرة والميناموتو ، وتحول الاسرة الامبراطورية نحو ساحل البحر الداخلي . وقد تم الامر في سنة ١١٨٤ ، لامير من اسرة ميناموتو ، ان يعيد الامر الى نصابه ، فأنشأ له عاصمة جديدة هي مدينة كاماكورا ، وأقام فيها نظاماً جديداً من الحكم هو ما يعرف عندهم بـ *Shogunat* ، وهو نظام حافظ ، ولو بالاسم ، على سلطة الامبراطور الذي استمر يعيش في بلاطه وبين حاشيته عيشاً سداه العبث ولحمته الغرور ، الذي بعد ان حاول عبثاً اعادة نفوذه والاستقلال بالأمر ، وقع تحت وصاية الشوغون زعيم النظام العسكري الذي جمع في قبضته ملء السلطة . وقد عول في ضبط الامر على رئيس الاركان العام ، وعلى محكمة عليا للاستئناف ، ومجلس تنفيذي . وقد مثله في المقاطعات حاكم عسكري لم يلبث ان جمع بين يديه السلطة المدنية ايضاً . وأخذ على نفسه جباية الرسوم

والضرائب المترتبة واستلام ما يعود للسلطة من غلال الارض . ولكي يحدوا من استغلال كبار الموظفين المحليين، أنشأت الدولة دائرة للتفتيش، وخلقت عدداً من المقررين او الخبراء الاقتصاديين، ومحققين استثنائيين. وهكذا استمرت الآلة الحكومية تسير ظاهرياً وفقاً للتقاليد المرعية ، بعد ان أدخلت عليها مثل هذه الاصلاحات الجذرية .

وهذا الاصلاح الاداري الذي جاء يسدد من خطوات السلطة ويقوّمها لصالح الشوغون ، لم يلبث ان اعطى اطيب النتائج في المجالين الاقتصادي والاجتماعي . فنشطت التجارة الداخلية والخارجية على السواء ، فزادت حركة المقايضات والمبادلات . وقد نال التجار بعد ان توزعوا الى نقابات محلية ومهنية حق نقل تجارتهم بكل حرية ، بعد ان تعهدوا بدفع رسم سنوي مقطوع ، كما تعهدوا بان يدفعوا للهياكل شلتو ، قيمة المبالغ المفروضة عليهم كذلك اخذ وضع الفلاح بالتحسن ، وسار الرق في طريق الزوال .. والحادث البارز الذي احدث في اواخر القرن الثالث عشر ، دوياً عظيماً في حياة البلاد الاقتصادية . هو ادخال زراعة الشاي الى اليابان . والمرأة نفسها نالت هي الاخرى ، نصيبها في هذا الاصلاح بنيلها بعض الحقوق الجديدة .

وفي الوقت الذي كانت فيه الشنتو هي ديانة الطبقة الارستوقراطية في البلاد وانتشرت بين الطبقات الشعبية الديانة المعروفة بـ *Amidisme* ، تلقت اليابان من الصين، مذهباً صوفياً جديداً لقي رواجاً عظيماً في البلاد هو مذهب *Zen* وهو نظرية فلسفية يعد ظهورها عطفة في تاريخ الفكر والفن في اليابان ، وساعدت على تحييز النبوغ القومي . ومذهب الـ *Zen* هذا ، الذي هو تأليف للتعاليم البوذية والتاوية والهندوسية ، هو تعبير لهذه الحركة الاجتماعية العكسية التي استهدفت محاربة البذخ والبطر لدى الطبقة الموجهة ، وردة فعل ضد صنمية المثقفين وعبادة المتعلمين ، وحركة رجعية موجهة ضد الشكليات التي سارت عليها ديانة الشنتو ، وضد مجموعة العبادات الطقسية التي سار عليها اتباع أميدا ، وضد العصبية الدينية الذميمة التي يمثلها ، على احسن وجه ، نيكيرين (١٢٢٢ - ١٢٨٠) والاساطير الخرافية التي راجت في هذا العصر ومنها انبعثت نظرية جديدة في الهندسة المعمارية الدينية، واستعمال الحبر الصيني في تصوير المناظر، واخيراً الاحتفال بالشاي ، وكلها امور تركت طابعها العميق في الثقافة اليابانية . وفي هذه الحقبة تم حريق الهياكل والمعابد الكبرى التي احترقت او هدمت اثناء الحروب الاهلية : وقد جاء الصيليون يعملون في حركة التجديد والبعث ، وصنع التماثيل بعد ان اشتد الطلب عليها بكثرة . وبفضل هذا الانبعاث ، راح الشعر يجدد من نشاطه ، كما راح النثر ، بعد ان استقامت الجملة البيانية ، يتحفنا بهذه الآثار التاريخية ، اشهرها على الاطلاق *Heike Monogatari* و *Heiji Monogatari* .

وهذه اليابان المتجددة ، ستقوم وحدها ، في القرن الثالث عشر ، بعد تضحيات كثيرة في اقتصادياتها ، وفي روحها الحربية ، بحروب دفاعية مظفرة ، ضد غزو المغول للصين .

القسم الثاني

عصور أوروبا الأقطاعيّة والأسلام التركي وآسيا المغوليّة

(منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر)

الفصل الأول

تحوُّل أوروبا
(القرنان الحادي عشر والثاني عشر)

طالما نظر المؤرخون الى السنة ١٠٠٠ نظرتهم الى فترة رعب وظلمة وفتور واعتقدوا ان مسيحيي الغرب ، الذين اقتنعوا بدنو نهاية العالم ، قد عاشوا هذه الفترة منكمشين على ذعرهم عاجزين عن النهوض باي عمل . اجل ، كل ما هنالك يحمل على الاعتقاد بان ارتقاب نهاية الازمنة ، في طبقات عريضة من المجتمع ، قد غدا ، بفعل التأمل المتواصل في كتاب الرؤيا ، اشد افضاضاً في اواخر الالف الاول من العهد المسيحي ، ولكن مما لا شك فيه ايضاً ان كبار المسؤولين في الكنيسة قد حاربوا هذه الاعتقادات وان سواد المؤمنين قد تغلبوا على مخاوفهم واستمروا في مسيرتهم قدماً الى الامام . ولا تبدو السنة ١٠٠٠ في الواقع ، كشفق حسير بل كفجر لامع : ففي ذلك التاريخ توطدت نهضة اوروبا ، في كافة الحقول ، بعد مرحلة اعداد طويلة الامد . أبعد خطر الغزو الذي تثاقلت وطأته منذ قرون وزال نهائياً ، واقام انضمام الشعوب البولونية والتشيكية والهنغارية الى المسيحية سوراً دفاعياً منيعاً ، في وجه الشعوب الرحل من سكان الفيافي ؛ وبينما كانت آثار الغزوات الاخيرة في طريق الزوال ، برزت حركة توسعية لن تعرف الوهن طيلة مائة وخمسين سنة ونيف .

بيد ان هذا النمو ، حتى منتصف القرن الثاني عشر ، قد سار سيراً مطرداً دون ان يدخل على الانظمة السياسية والاجتماعية التي قامت في اواخر الانحطاط الكارولنجي اي تبدل يذكر . فالاقطاعية - وهي الاسم الذي اطلقه التقليد على هذه الانظمة - قد توطدت ثم استفادت من التقدم الشامل لمحققت ، في آن واحد ، مزيداً من المرونة والاقدام .

١ - المجتمع الاقطاعي

لم يبق في اوروبا ، في القرن الحادي عشر ، من وجود لتلك السيطرات السياسية العظمى

التي يتوفق سيدها ، بواسطة وكلائه المحليين الامناء ، الى بسط النظام والامن على اقاليم واسعة الارجاء. فان آخر هذه الامبراطوريات ، تلك التي اسسها ملوك الدانمرك ، حوالي السنة ١٠٠٠، على شواطىء بحر الشمال وبحر البلطيك ، لم تلبث ان تفسخت . وفي جرمانيـــا نفسها ، التي حرصت على الاحتفاظ بالتقاليد السياسية الكارولنجية ، وحيث تحالفت العظمة الامبراطورية مع الملكية ورفعت من شأنها ، نرى السلطة الملكية تتفتت بسرعة بعد ان انهكها اتساع مهامها المتنوعة وتنازعتها وتقاسمتها روما والولايات السلافية المتاخمة ؛ فمنذ السنة ١٠٧٥ ، نرى هنا ، كما في فرنسا او ايطاليا قبل ١٠٠ سنة ، ان السيادة اخذت بالتجزؤ . ففي كل مكان ، نرى المناصب العليا والملكيات تفقد ، دون ان تزول ، كل سلطة فعلية ، ولا تلبث ان تصبح مجرد اساطير . امـــا الملك ، وهو المكرّس ، فيحتفظ في اعين الجميع باولوية تتميز بطابع خارق الطبيعة ، واحاطت مسيح الرب بهالة عجائبية مجموعة من الاساطير تكونت وانتشرت انذاك : فالزيت الذي يمسح به يوم التكريس يأتي مباشرة من السماء ؛ وهو يستطيع ، بمجرد لمسة من يديه ، شفاء بعض الامراض ؛ ومن حيث هو نصف كاهن ، ويحتل مرتبة دونهـا مراتب كافة البشر ، لا يستطيع احد ان يعتدي عليه بالضرب ؛ وهو اخيراً تجسيد للنظام الالهي . ولكن على الرغم من رأي العالم الاقطاعي هذا في الوظيفة الملكية ، فان الملوك قـــد فقدوا في الواقع حقيقة سلطتهم . ولم تعد سلطتهم الفضلى ملكية بل اقطاعية او عقارية : فالملك الذي ليس تابعاً لاحد موضوع احترام عظماء المملكة ؛ وهو ، الى ذلك ، شأن الاسياد الاخرين ، سيد اراضيه العائلية واملاكه الوراثية وحامي الفلاحين المباشر فيها . ولكنها في اغلب الاحيان سلطة هزيلة جداً . ويكفي هنا ان نقدم مثل ملك فرنسا لويس السادس الذي عَنيد ، في اوائل القرن الثاني عشر ، بمعاونة بعض التبعة المنزليين ، في اخضاع بعض صغـــار حكام الحصون في « جزيرة ــ فرنسا » *Ile - de - france* ، ووضع حد لتجاوزاتهم . والمضادة بين واقع ضعف الملك وبين الرسالة السامية الملقاة على عاتقه هي بالضبط احد مواضيع الاغاني الايمائية الفرنسية وتلك التي تعبر بامانة عن مشاعر كبار الارستوقراطيين العلمانيين من امثال « عربة نيم » او « تتويج لويس » .

بيد ان الشيء المهم ، اذا غدت الملكيات مناصب روحية غير ذات فعالية ، ان تؤمن مهمة الهية هي مهمة الامن والعدالة الضرورية للمحافظة على المجتمع المسيحي . فقد امنتها في الدرجة الاولى ، وبصورة عامة ، الكنيسة التي سارعت منذ العهد الكارولنجي الى الحلول محـــل الملوك المستضعفين ؛ كما امنتها بعد ذلـــك ، تحت اشد الاشكال اليومية حقارة ، القوى المحلية الخاصة واسياد الحصون .

السلطات الجديدة

في السنتين ٩٨٩ و ٩٩٠ ، روّج المسؤولون الكنسيون في مجمعي شارو وبوي ــ وكلاهما من اعمال الأكيتين ، تلك المقاطعة المسيحية التي بدا فيها الانحلال السياسي أقوى منه في سواها ــ حركة سلام الرب التي ما لبثت ان انتشرت في كافة أنحاء غاليا الجنوبية والشرقية وتسربت ، بموافقة الاسياد انفسهم ، الى مناطق شماليـــة ارسخ

تنظيماً كامارات متراصة . تستثنى من ذلك جرمانيا حيث ما زال الملـــك ينعم بقوة تسمح له بالدفاع عن السلام بنفسه – وفي هذا دلالة على حقيقة الغاية من هذه المحاولة : فالمقصود هو ان تستبدل ، حيث تصاب بالوهن ، جمعيات السلام المشكلة بصورة طبيعية بين الرجال الاحرار في اطار الممالك البربرية والموضوعة تحت اشراف الملوك ، بجمعية جديدة يكون الاحبـار رؤساءها وتكون وسائل العقوبة فيها العقوبات الكنسية ، أي الحرم والابسال . ويشترك في عضويتها كل الاسياد ، و « كل من أوتي سلطة من الله » ، وكل الاغنيـاء ، الذين تنحصر وظيفتهم في الحرب وقد يصبحون خمير سجس وبلبلة ، ويعقدون جمعية تليمية احتفالية ويقسمون يميناً جماعية تجدد كل جيل . ويتعهد الجميع بالامتناع عن القيام بأعمال العنف حيال الاشخاص الكنسيين والممتلكات الكنسية اولاً ، والفقراء الذين ليس من يدافع عنهم ثانياً ، ويمتنعون بالاضافة الى ذلـــك ، في علائقهم المتبادلة ، عن اللجوء الى السلاح خلال شطر من كل اسبوع وخلال بعض ايام الروزنامة الطقسية ، أي ايام « الهدنة الالهية » ؛ ويتكتلون جميعهم اخيراً ضد من قــد يخالف الميثاق المشترك . ان هذا التنظيم الذي ارتكز الى احدى أقوى العواطف الجماعيـة في طبقة المحاربين ، أعني بها احترام اليمين ، لم ينجح ، والحق يقال ، في الحؤول دون كل اضطراب ؛ بيد انه ، دونما ريب ، قد فاق الادارة الكارولنجية فاعلية ؛ وقـــد توصل طيلة قرن ونصف (لقد عقدت اجتماعات سلام الرب الاخيرة في فرنسا حوالي السنة ١١٥٠) ، بانتظار اعادة السلطة الملكية ، الى تأمين السلامة اللازمة . وبالفعل نفسه ، وسمت حركة السلام شقة الخلاف بـــين فئة رجال الحرب اعضاء الحلف السلمي ، وفئـة رجال الكنيسة الذين يؤلفون مجتمعاً خاصاً يخضع لنظام مستقل يصونه ، وبين جمهور الوضعاء من احرار وغيرهم . فقد فرضت على هؤلاء ، حيطة لما قد يقدمون عليه من اعمال عنف ، عقوبات أشدّ صرامة ؛ وبينما لم يتعرض الفلاحون الاحرار ، في الماضي ، وفي الظروف العادية ، الا للجزاء النقدي ، تعرضت جرائمهم ، في القرن الحادي عشر ، للعقوبات الجسدية ، وأسندت مجامع السلام تنفيذ هذا القانون الاستثنائي ، أعني به قضاء الدم ، الى ورثة قوة الملوك العسكرية ، أي حكام الحصون .

فان الحصن ، ذلك البرج المربع المؤلف من طبقتين او ثلاث ، الذي شُيِّد في السابق بالاخشاب واخذ يشيد آنذاك بالحجارة ، والذي يعلو مرتفعاً طبيعياً او صنعياً تحيط به أسوار من أوتاد خشبية ، قد بقي ، بعد زوال السيادات الاقليمية ، رمزاً ومركزاً للسلطة الفعّالة ، أي « للحكم » . اما هذه الابنية العسكرية ، وهي قليلة العدد نسبياً ، لأنها ، في أغلبيتها ، أبنية عامة قديمـــة (وعلى المغامر الذي تحدثه نفسه باقامة حصن جديد ان يحسب حساباً للصعوبات المادية ، ومقاومة الاهالي ، وغارات حكام الحصون المجاورة الذين يقفون صفاً واحداً في وجـــه الدخيل الذي يتطاول على حقوقهم) ، فهي في الدرجة الاولى ملاجىء يحتمى فيها ساعة الخطر ، ونقاط تتجمع فيها الفرق العسكرية المحليـــة . وان مهمة تأمين السلام – وبالفعل نفسه ، اصدار الاحكام الزجرية في القرى العشر او العشرين التي تحيط بالحصن وتقوم ، كما درج التعبير ، تحت حمايته ،

او تحت كابوسه ، او تحت سلطانه ، تعود بصورة طبيعية الى سيد الحصن ، أي الى ذاك الذي يبدو وكأنه السائد بالذات ، أعني به السيّد . ليس لهذا الاخير ، مبدئياً ، وفاقاً لتنظيم السلام الجديد ، أي حق على ما قد يوجد في اراضي الحصن من رجال الكنيسة وممتلكاتها ، فيتكوّن من ثم عدد مواز من الاقطاعات والحصانات الصغيرة . وينتظر هذا السيد ، من الاسياد الجاورين المساوين له ، ومن كافة العلمانيين الذين يتمتعون بقسط من الثروة يتيح لهم الاشتراك في الحرب على صهوة جيادهم والقيام خير قيام بوظيفتهم العسكرية ، احترام العهود التي قطعوها في جمعيات السلام على الاقل ، والصداقة وتأدية الخدمات الموعود بها ، مقابل مجاملات متبادلة ، حين تعديم الاحترام والدخول في طاعة السيد ، على الاكثر ؛ ولكنه لا يمارس حيالهم أية سلطة قسرية . اما كافة علمانيي الطبقات الدنيا المقيمين في نطاق الحصن فتحت سلطته المطلقة .

يتضح من ثم ان توزيع السلطات بعد انهيار السلطة الملكية قد فرض تنظيم المجتمع . توزع الناس في ذاك العهد ، وفاقاً لموقفهم من القوى الرادعة ، الى ثلاث « طبقات » . والمقصود بذلك فئات محدّدة ، ثابتة ، اوجدها الاله نفسه ، منذ الخليقة ، وباعتراف الجميع ، لتأمين انتظام العالم ، يقابل كل منها « حالة » خاصة او رسالة معينة . احل في الطبقة الاولى اولئك الذين يصلّون وتنحصر مهمتهم في التغني بمجد الرب وبالحصول على خلاص الجميع ؛ وجعل بعدهم اولئك الذين يحاربون ، وقد اسند اليهم امر الدفاع عن الضعفاء ونشر السلام الالهي ؛ واحل ، تحت هاتين النخبتين ، العمال الذين يتوجب عليهم ، وفاقاً لأحكام العناية الالهية ، الاسهام بعملهم في اعالة اختصاصيي الصلاة والحرب . ذاك هو المخطط الموجز الذي رسخ في اذهان الجماهير حوالي السنة ١٠٠٠ ، وعبّر عنه منذئذ في كل مكان ، في الابحاث التعليميه او المواعظ وفي تنظيم الاحتفالات العادية ، وانتقل من جيل الى جيل ، فأصبح طيلة قرون عده الهيكل الاساسي للمجتمع الغربي .

كانت اولى هذه الطبقات نفسها مؤلفة من فئتين : فئة الكهنة برئاسة الاساقفة ، وفئة الرهبان التي اعوزها التلاحم ، ولكن اصلاحات تدريجية ادخلت عليها مزيداً من الوحدة وجمعت عدداً من الاخويات الكبيرة في عدد مواز من « الجمعيات » الخاصة . وكانت هذه الطبقة قديمة العهد تؤلف وحدها جسماً حقيقياً له تقاليده واجهزته وقوانينه الخاصة . وتجدر الاشارة منذ الآن الى ان حركة تجديدية وتطهيرية بطيئة ، تنزع الى التمييز تمييزاً افضل بين الروحانيات والزمنيات ، كانت آخذة تدريجياً بطبعها بمزيد من الفردية وباحكام الفصل بين العلمانيين والاكليريكيين . ومن حيث ان هؤلاء الاخيرين مكرسون لخدمة الله ، فانهم يعتاشون من احسانات المؤمنين ، لا الاعشار التي تعود بمعظمها للاسياد العلمانيين الذين اسس اجدادهم الكنائس القروية ، بل التقادم الطقسية او الفصلية التي يستفيد منها خدام الخورنيات ، ولا سيما دخل الاراضي التي تقدم هبات تقوية للمؤسسات الدينية ؛ ولعل الاعتقاد بما للاحسانات من فعالية فدائية لم يكن يوماً اعمق منه في الفترة الممتدة من اواخر القرن العاشر حتى اوائل القرن الثاني عشر ، وقد ضمت خلال هذه المدّة نسبة مرتفعة من ممتلكات

العلمانيين المقدمة للإله وخدامه الارضيين الى ممتلكات الكنيسة . والطبقة الكنسية طبقة غير مغلقة: فكل انسان سيد نفسه يستطيع الدخول اليها بعد ان يتخلى عن اسلحته اذا كان من طبقة المحاربين ، ويجب عليه في الظروف العادية ان يقدم مهراً « للمبسه » ، ويتوقف المركز الذي سيحتله في سلم الوظائف الروحية ، بصورة عامة، على اهمية هذه التقدمة الاولى. فهنالك تفاوت ظاهر في فئة « المصلين » ، والمسافة القائمة بين مجالس الكهنة القانونيين في الكاتدرائيات، وكلهم ابناء اسياد يعيشون في بحبوحة كاسياد من محاصيل دخلهم القانوني ، وبين الاكليريكيين الوضعاء القائمين بالخدمة الروحية في الارياف ، وكلهم ابناء فلاحين يستفيدون من دخل عارض ضئيل وغالباً ما يضطرون الى ان يدفعوا المحراث بانفسهم في اراضي الخورنيات الضيقة ، هي بالضبط تلك التي تفصل بين الاغنياء والفقراء، وبين فئة المحاربين المحترفين وفئة العمال. وان هذا التمييز الاجتماعي الاخير هو في الواقع اعمق تمييز لان له انعكاسه داخل الكنيسة العلمانية نفسها ، وحتى في الاخويات الرهبانية : فقد اخذوا في القرن الثاني عشر ، يفصلون فصلا واضحاً في اديرة البندكتيين ، بين رهبان الترتيل ، اخوة الفرسان ، وبين الرهبان المساعدين ، اخوة الفلاحين . ونحن هنا امام تمييز حديث العهد يسدل الستار تدريجيا على التمييز القديم بين الانسان الحر وبين العبد ، ولكنه تمييز واضح جداً يعين حداً لا يمكن تخطيه في الظروف الطبيعية .

الفروسية

جمع في هاتين الفئتين الرئيسيتين اولئك الذين تطلق عليهم النصوص اللاتينية المعاصرة اسم « الجنود » بينما تطلق عليهم اكثر اللغات الشعبية الغربية اسم « الفرسان ». وبالفعل بات مفهوما المحارب والفارس مترادفين خلال القرن العاشر ، حين امسى دور المشاة ثانوياً في المعارك وتوقف المسؤولون عن اللجوء بصورة منتظمة الى استدعاء بعض الرجال الاحرار ، الذين لا يستطيعون تأمين عدة الفارس الكاملة بسبب فقرهم المدقع . فكان على كل جندي ، في الواقع ، ان يتسلح وفاقاً لثروته ، ولذلك كانت فئة المحاربين المحترفين ، في الدرجة الاولى ، طبقة اقتصادية ، وقد توجب ، حوالى السنة ١٠٠٠ ، للانتساب اليها ، اقتناء حصان وشتى الاسلحة الهجومية والدفاعية اولا ، والقدرة ، بعد ذلك ، على التمرن على مسايفة الفرسان الشاقة ، وتخصيص وقت كاف ، اخيراً ، لتلبية الدعوات الى الاجتماع والاشتراك في الحملات العسكرية . وكان لزاماً عليه بالتالي ان يكون لديه رأس مال هام (فقد كان ثمن الدرع وحده ، في القرن الحادي عشر ، يوازي ما يتطلبه مشروع استثمار زراعي على بعض الاهمية) ومتسع كاف من الوقت بنوع خاص . فامتهن الفروسية ، من ثم ، كبار الملاكين العقاريين ، اولئك الذين يحصلون دخل املاك واسعة يحرثها خدام كثيرون ولا يحتاجون الى ادارة استثمارها بانفسهم ، والاتاوات المفروضة على عددمن الاراضي التابعة لهم قد يبلغ العشرين . وبكلمة واحدة ، اولئك الذين يخدمهم عدد هام من العمال .

بيد ان طبقة الفرسان ، التي كانت في البدء مفتوحة الابواب لكافة الاغنياء ، ما عتمت ان انغلقت وامست طبقة وراثية ، وجاء هذا التطور طبيعياً جداً في زمن انحطاط اقتصادي

كانت فيه جميع الثروات عقارية وندر فيه ان يتوصل احد الناس ، بمساعيه الفردية ، الى رفع او تخفيض قيمة ارثه بصورة محسوسة . وكان تطوراً سريع الخطى في فرنسا الوسطى حيث اكتمل في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، بينما كان بطيئاً في غير مكان وبقي ناقصاً هنا وهناك . وحين بلغ حدّه ، لم يعد للثروة اي شأن ، بل للنسب وحده . فورث ابناء الفرسان منذئذ – وحدهم ، باستثناء حديثي النعمة من المغامرين او الفلاحين المثرين – صفة الفروسية ؛ وحق لهم دون غيرهم ، عندما يبلغون اشدّهم ، الانخراط في فئة اختصاصيي الحرب، بعد حفلة اشراك عائلية وبسيطة جداً يتسلمون خلالها اسلحتهم ، بعد امتحان اهليتهم العسكرية ، من ايدي احد متقدّمي عائلتهم سناً. فكانت هذه الطبقة ، والحالة هذه ، قليلة العدد نسبياً : ويبدو ان هنالك عائلة فرسان في كل قرية على وجه التقريب .

وكان بين اعضائها تفاوت ملموس في الثروة ، فالبعض يملكون حصناً ، ويتمتعون من ثم بحق توزيع الاوامر على الفلاحين ومعاقبتهم واستثمارهم؛ ولكن هؤلاء الاسياد الكبار يؤلفون نخبة محدودة العدد . ويعيش معظم الفرسان ، في بيت ريفي ، حياة نصف قروية ويشرفون بانفسهم على استثمار املاكهم الصغيرة حين لا يقومون بوظيفتهم الحربية ؛ وليس من النادر ان نرى فرساناً فقراء ، هم اخوة الابكار في بعض العائلات الكثيرة العدد ، يضيق بهم ارثهم ويتعذر عليهم تعهد اسلحتهم فيضطرون الى المغامرة وركوب الاخطار خوفاً من الانحدار الى طبقة الفلاحين. بيد ان الفرسان جميعهم، سواء كانوا اغنياء ام فقراء، يشتركون، اقله في بعض المراحل، في معيشة واحدة هي معيشة المحاربين المحترفين، ويكتسبون العقلية الملازمة لهذه المعيشة: اعتبار خاص للقوة الجسدية ؛ ميل الى المآثر الرياضية ، في الحرب نفسها او في التمارين العنيفة التي تقوم مقامها وتعدّ لها – كقنص الوحوش المفترسة الذي تحف به المخاطر ، والمبارزات التي تكاد لا تتميز عن المعركة نفسها والتي لم تكن لمدة طويلة مبارزات فردية في حلبة مقفلة ، بل تجابه فرقتين من الفرسان ، في ارض واسعة الاطراف ، يتعاقب فيه الكر والمطاردة والتقتيل والفدية – واخيراً تقاليد الشرف والايمان التي تستند الى قوانين الحرب . ويشكل هذا المجموع من العادات والشواعر التي تردّ الى التخصص العسكري في طبقة الفرسان ، اول عامل من عوامل الوحدة . اما العامل الثاني فامتياز يضاف الى الارث ويجعل من الفرسان ، منذ القرن الحادي عشر ، طبقة حقيقية من النبلاء ؛ فالفرسان جميعهم ، بسبب الخدمات المفروض عليهم ان يؤدوها للجماعة كلها ، يعفون من الفرائض والاعباء التي تنوء بثقلها على طبقة العمال ، ولا يؤدون واجباتهم التافهة ولا يعترفون بقاض يستطيع معاقبتهم ؛ ولا يتوجب عليهم سوى القيام ببعض الخدمات التي تعهدوا لسيد اقطاعتهم ، بملء ارادتهم ، القيام بها .

الاقطاع

ان طبقة الفرسان – وهذا ما يميزها ايضاً – محاطة كلها بالانظمة الاقطاعية . منذ نهاية العهد الكارولنجي ، اقدم معظم الرجال الاحرار المنتمون الى مرتبة عليا ، رغبة منهم في تأمين الحماية او فوائد اخرى مختلفة ، على تقدمة شخصهم الى وليّ نصير ؛

وهكذا فان الفرسان ، المقيمين في الاراضي التابعة للحصن والملزمين بالتجمع فيـــه عند اول طارىء ، قد غدوا اصحاب اخادات خاضعين لسيد الحصن ؛ ومنذ انهيار القوّة الملكية – اي منذ او خر القرن العاشر في غاليـــا ، ومنذ اوائل القرن الثاني عشر في جرمانيا – اصبحت هـذه الارتباطات الشخصية الروابط السياسية الوحيدة بين اعضاء الارستوقراطية . ولكن صفة هذا الخضوع ، في الوقت نفسه ، قـــد تبدلت بشكل محسوس ايضاً . فقد رسخ في كل مكان ، منذ السنة ١٠٠٠ ، ان خدمات التابع النبيل تستحق مكافأة قانونية ؛ فليس من واجب السيد، خلال الجمعيات التي تضم رجاله حواليه بصورة دورية ، ان يوزع عليهم الهدايا والاحصنة والاسلحة والنقود والحلي فحسب ؛ بل يجدر به ايضاً ، منـــذ تقديم خضوعهم له ، ان يكلفهم تعهد بعض الاراضي ، طيلة اخلاصهم له ، او يخصهم باي انعام آخر – سيادة كاملة على اقطاعة ، او جزء من الاعشار او الاتاوات ، او استثمار ارض بسيطة في اغلب الاحيان ، او ارض بتسلم الفلاحين – على ان يدر دخلاً منظماً يعوّض على الرجل شقاءه : وهذا الانعام هو الاقطاعة . في اوائل القرن الحادي عشر كان تسليم الاقطاعة يلي يمين الاخلاص مباشرة ، ثم درجت العادة على ان يدخل في احتفال تقديم الخضوع ؛ وقـــد اوجدت هذه الوحدة الوثيقة بين الاقطاعة والخضوع تحوّلا في الرابطة بين رجل ورجل . ومرد ذلك الى ان تعهد الارض ، وهو العنصر المادي الملموس المثمر ، قد غدا اعظم اهمية في نظر رجال الحرب هؤلاء الذين يكادون يعجزون عن التجريد ؛ وعكست اخيراً العلاقة الاصلية بين الهبة الاقطاعية والارتبـــاط الشخصي ، فاعتقدوا بان وفاء صاحب الاقطاعة وخدماته وحتى تقديم شخصه امر واجب بسبب الاقطاعة وان واجبات التابع تمثل بدل هذا الاستثمار . وقد تم هـــذا التحول في الاعتقاد في الربع الاخير من القرن الحادي عشر : فاصبح السيد وصاحب الاقطاعة مرتبطين بحقها المشترك على ارض واحدة اكثر من ارتباطها بوعد الصداقة . فما هو والحالة هذه موقف كل منهما ؟

ليس الفارس صاحب الاخاذة مطلق التصرف باقطاعته : فقد يفقدها اذا لم يحترم بنود عقد خضوعه ؛ ويحجز السيد الاستثمار حال ثبوت اخلال صاحب الاخاذة بواجبه امـــام جمعية كافة اصحاب الاخاذات . اما اذا برّ التابع النبيل بيمين ولائه فلا يمكن ان يكدره مكدر في تصرفه باقطاعته ؛ ويستطيع ان يتنازل عن بعض اجزائهـــا لاصحاب الاخاذات التابعين له ؛ وينزع طبيعياً الى اعتبارها كاحد املاكه الخاصة التي لا شيء يميزها عنها في الظروف العادية ؛ وقد اعترف له ، في اواخر القرن الحادي عشر ، بصورة عامة ، بحق بيعها او نقلها الى ورثته . اجل ان هنالك بعض الاستثناءات : فالاقطاعة ، من حيث هي وراثية ، لا تقبل التجزئة ، ولا مناص بالتالي من موافقة السيّد وتدخله حتى يستطيع متسلم الاقطاعة الجديد التمتع بحق الاستثمار ؛ وكثيراً مـــا يضطر هذا الاخير لدفع رسم الانتقال ويخضع لاحتفال تقديم شخصه . ولكن هذه الضمانات لحق السيادة لا تحول دون انتقال الاقطاعات من يد الى يد ، ولا دون قيام او زوال الولاء الذي تستلزمه . فادت سهولة الانتقال هذه الى تراخ اكيد في الروابط بين انسان وانسان . فلم ينتخب

السيد ، بعد ذلك ، اصحاب الاخاذات التابعين له ، بل غدت الوراثة والبيع يدخلان في خدمته اتباعاً جداً غالباً ما لا يصلحون « لخدمة » اقطاعتهم بسبب صغر سنهم او عجزهم الصحي ، او يكونون مجهولين منه ان لم يكونوا معادين له ؛ ومن حقنا الشك في حقيقة قيمة ايمان تقسمها الشفاه وحدها خلال احتفال لم يعد سوى معاملة شكلية تخضع لها علاقة عقارية بحتة. اضف الى ذلك ان وراثة الاقطاعة وحق بيعها رفعا عدد الفرسان الذين باتوا ، بعد تسلّمهم اقطاعات مختلفة بشتى الطرق ، خاضعين لعدّة اسياد : وهم قد وعدوا كلاً من هؤلاء بالاخلاص والخدمة؛ وجلي انه يصعب عليهم التفرغ كلياً لكل من اسيادهم في حال انهم ينزعون بالتفضيل الى التحجج بتعهداتهم الكثيرة حتى لا يقوموا باي منها . لذلك فان الارتباط الاقطاعي ، من حيث هو خاضع للاقطاعة ، ابعد من ان يكون ابداً ، شأنه في العهد الفرنجي ، خضوعاً كلياً من الانسان لحاميه لا يحل من موجباته سوى الموت .

يجب الا نعتقد مع هذا بان خضوع صاحب الاخاذة للسيد قد فقد كل قوته ؛ فهو قد بقي مرتكزا الى احد اخطر الافعال التي يمكن ان تصدر عن المسيحي ، اعني به القسم . ولكن قوته قد غدت اكثر تفاوتاً وتأثراً بالظروف . وهـا نحن نورد هنا ما جاء في رسالة وجهها فولبير اسقف شارتر ، حوالي السنة ١٠٢٠ ، الى دوق « أكيتين »، الذي استشاره في هذا الامر، حول مفهوم العلائق بين السيد وصاحب الاخاذة انذاك . هناك في الدرجة الاولى الاخلاص المتبادل من حيث ان المتعاقدَين يحتلان مستوى واحداً تقريبا ؛ فـ « على السيد ، في كل الامور ، ان يعامل تابعه بالمثل ، وان لم يفعل صح اتهامه بسوء النية ». واذا ما رددنا هذا التعهد الى حقيقة جوهره، بدا لنا انه وعد ذو طابع سلبي : فان كلا من الطرفين يمتنع عن القيام باي عمل قد يلحق الضرر بالآخر . وانما يستحسن انتكون الصداقة اشد حرارة وان تظهر بخدمات ايجابية: «اذا كان من العدل ان يمتنع التابع عن الحاق الضرر بسيده، فهو لا يستحق اقطاعته بهذه الطريقة؛ ولا يكفي الامتناع عن فعل الشر ، بل يجب فعل الخير ايضا ؛ ويتوجب من ثم على صاحب الاخاذة ان يقدم لسيّده المشورة والمساعدة باخلاص ، اذا اراد ان يكون جديراً بالاقطاعة ومنسجماً مع يمين الاخلاص التي اقسمها. و « المساعدة » تعني تقديم العون بكل الوسائل الممكنة والوسائل التي تفرضها الظروف ، وذلـك بتقديم المال ، واستخدام النفوذ ، في القضاء وغيره ، لدى خصوم « الصديق » ، وفي اغلب الاحيـان بالقوة والاسلحة ، كما يليق ذلك في مجتمع عسكري . واتضحت تدريجياً خـلال القرن الثاني عشر طبيعة ومدى المساعدة الاقطاعية ، وتحددت في الاعراف المحلية : وهكذا فقد بات من المعترف به في فرنسا ان من حق السيد ان يفرض على صاحب الاخاذة ، بالاضافة الى الدورات التدريبية في الحصن ، الخدمة العسكرية المجانية اربعين يوماً في السنة ؛ وان باستطاعته ايضاً مطالبة تابعه بمساهمة مالية ، حين يتوجب عليه دفع فدية او تسليح ابنه او مهر ابنته او حين يشترك في حملة صليبية . اما واجب المشورة فيجب ان ينظر اليه من زاوية عرف خاص بمجتمعات القرون الوسطى ، اعني به الشعور الراسخ بان رئيس الفرقة

لا يستطيع اتخاذ قرار خطير واصدار حكم والبت بمصير ممتلكاته ، دون عرض الامر على رجاله والاستئناس برأيهم ؛ فعلى صاحب الاخاذة ، والحالة هذه ، كلما طلب اليه ذلك ، التوجه الى سيده والاقامة في ديوانه ؛ وان هـذا الاجتماع ، من جهة ثانية ، ظرف يتيح للرجلين اعادة الاتصال بينهما وتوثيق رابطة قد يكون ارخاها البعاد . وغالباً ما تضاف الى هـذه الموجبات العامة خدمات متبادلة اكثر تلقائية واعمق انعكاسات ادبية : وهكذا فغالباً ما يحدث ان يرسل صاحب الاخاذة ابنه لتمضية حداثته وتعلّم مهنة الفروسية في كنف السيد وبرفقة اولاده ، لا سيا وانه سيدعى « لخدمتهم » فيرتبط بهم من ثم ارتباطاً اوثق . وليس من النادر اخيراً ان تكون العلاقة اشد وثوقاً ايضاً ، فلا يميز بين صاحب الاخاذة وبين اقرب اقرباء سيده ؛ اذ ان الرابطة الاقطاعية ، بحين تنميها مجاورة جسدية وروحية ، تبرز بكل قوتها وتمسي ، كالرابطة الدموية ، ملزمة وموجبة .

الاخلاص ، والقسم ، والنسب

ان العقد الاقطاعي ، كما رأينا ، اطار مرن جداً ؛ فقد يحدث ان يقيم بين رجلين قرابة حقيقية ، اعني بها تلك الاخوة الممتازة التي تصفها اغان ايمانية كثيرة ؛ ولكنه قد يؤول ايضاً الى مجرد ضمانة ضد الاعتداءات الممكنة حين يقوم بين قوتين غريبتين او متماديتين . ويبدو بصورة عامة ان قوة الاخلاص منوطة في جوهرها بقوة كل من التابع وسيده : فالفارس الصغير الفقير ، التابع لسيد عظيم ، مضطر لان يخدم ، بمزيد من الانقياد ، هذا السيد الذي يخشاه والذي يستطيع ان يقدم له مساعدة فعّالة . وهي تختلف باختلاف المقاطعات ايضاً : ففي المناطق المسيحية الجنوبية ، تبدو الموجبات الاقطاعية اكثر حصراً واقل وضوحاً . وقد تحوّرها اتفاقات خاصة ايضا : فان بعض الوعود بالخضوع والطاعة ، لا سيا حين تقطع بين عظام الاسياد ، معاهدات حقيقية تنطوي على شروط غالباً ما تدون في وثيقة خطية وتوضع خلال مقابلة تجري في ولاية متاخمة وتحدّد بالتفصيل كيفيات المساعدة

غير ان سؤالاً يرتسم امامنا هنا : اذا كانت النظم الاقطاعية ، المتفاوتة الفعالية ، تؤلف الاطار السياسي الوحيد لطبقة الفرسان ، فهل باستطاعتها ان تحافظ على النظام داخل هـذه الطبقة ؟ يمكننا الاعتقاد بانها تتوصل دائماً الى ايثاق ارتباط صغار الفرسان الريفيين بسيد الحصن المجاور ؛ فهي تجمع حوالى الحصن ، وهو المركز الرئيسي للنشاط العسكري ، جنود الجوار في وحدة متينة تزيد في تراصها اخوة السلاح وتجتمع دوريا ، اما في التمارين الحربية ، واما في البلاط الاقطاعي ، حول السيد المشترك ، الحكم الطبيعي للخلافات الداخلية . ومن الثابت من جهة ثانية ان شعور الخضوع ، في طبقات الفرسان العليا ، يشكّل حاجزاً فعالاً في وجه المشادات : فان اقل اصحاب الاخاذات اكتراثاً بوحي ضميرهم يتردد دائماً في مهاجمة سيده مهاجمة سافرة ، وقد اسهم هذا الاحجام في ايقاف كثير من المعارك ورفع الحصار عن كثير من الحصون . وعلى الرغم من ذلك لم يكن التنظيم الاقطاعي كافياً . فهو في الدرجة الاولى لم

يؤلف ، كما يسود الاعتقاد ، جهازاً متلاحماً يجمع في كتل متراصة ، حول كل ملك او كل امير عظيم ، كافة الموالين في الاقاليم ، بل تجزأ الى حمايات محلية كثيرة ، مستقلة عملياً بعضهـا عن بعض . ثم ان السيد ، وهذا هو الاهم ، ما كان ليستطيع مراقبة كافة تصرفات تابعه : فبامكانه ان يعاقبه بحجز اقطاعته اذا اساء الاخلاص المتوجب عليه ، ولكن حقوقه عليه تقف عند هذا الحـد ؛ وباستطاعة صاحب الاخاذة ان يرتكب ابشع الجرائم ، اذا ادى لاسياده المختلفين خدمات المساعدة والمشورة ، دون ان يتمكن هؤلاء من اتخاذ اي اجراء بحقه . وقد برز بكل جلاء نقص النظم الاقطاعية في الاجراءات القضائية المطبقة في كافة انحاء الغرب في القرن الحادي عشر والنصف الاول من القرن الثاني عشر .

عندما يتجشم احد الفرسان ضرراً يلحقه به احد افراد حاشيته ، ليس من محاكم نظاميـة تستطيع قبول شكواه واتخـاذ اجراء مباشر ضـد المتدي ، الا اذا كان الرجلان عضوين في جمعية اقطاعية واحدة . فيتوجب على الضحية والحالة هذه ان تحصل حقها بيدهـا ؛ فتقوم بمساعدة اصدقائها ، بعمل عسكري ضد الخصم وذويه : وتبتدىء بذلك حرب قد تدوم زمناً طويلاً جداً وقد تتسع تدريجياً بحسب المحالفات ، وهذا هو الثأر الخاص . فكل خلاف وكل نزاع حول الارض وكل اهانة وكل بادرة في غير محلها قـد تفضي من ثم الى نزاع مسلح يولد بدوره احقاداً اخرى وانتقامات اخرى . بيد ان الفريقين المتمادين يقبلان عموماً ، بوساطة الاصدقاء المشتركين ، وبعد مساومات طويلة ، بان يفصل في خلافهم مجلس مؤلف بالتساوي من انصار كل منهما . تعرض الضحية شكواها ، تدعمهـا في موقفها ايمان اقربائها واسيادها واتباعها ، ثم يتناقشون ويلتمسون غالبا حكم الاله اما بدعوة ابطال الفريقين الى المبارزة ، واما باخضاع المدعى عليه لامتحانات الماء والنار الطقسية ؛ ويضعون في النهـاية تسوية تقرر بالتخلي عن بعض الحقوق . واذا كان موضوع النزاع مالاً ، تقرر قسمته بصورة عامة ؛ امـا اذا كان جريمة او ضرراً جسدياً ، فيحدّد « ثمن الدم » الذي يتوجب على المتدي دفعه لجميع من الحق بهم ضرراً . وانما يتوجب على المتخاصمين ان يقبلوا كلهم بشروط الصلح ؛ فالقضاة ليسوا في الحقيقة سوى مصلحين ولا يأخذون على انفسهم فرض حكمهم بالقوة . فنحن من ثم امام قضاء بطيء وناقص وباهظ الاكلاف (بسبب الدفع للوسطاء والقضاة والشهود والابطال) وبالنتيجة غير ذي فعالية لانه لا يعيد الى الضحية حقها كاملاً ويشجع على اللجوء الى العنف . ومـا كان التنظيم الاقطاعي بمفرده ، من ثم ، ليكفي للحفاظ على النظام والسلم ، لو لم يكتمل اطار طبقة الفرسان بوسيلتين : الاكثار من ايمان الضمانة المتبادلة ، وتوثيق الروابط العائلية .

تقسم اليمين بوضع اليد على الذخائر المقدسة او على كتاب الاناجيل ، وتمني رهن النفس رهناً احتفالياً ؛ فليس من عمل آخر اكثر الزاماً لانسان يهتم لخلاصه الابدي ويخشى بالاضافة الى ذلك ، في اموره الزمنية ، نتائج الغضب الالهي . ويلفت النظر ان فارس القرن الحادي عشر مكبول على اقسام ايمان كثيرة يمتنع بموجبها عن استعمال القوة والحاق الاذى بالغير . فهنالك اليمين العامة

المقسمة جماعياً في جمعيات سلم الرب ، وايمان الخضوع التي تعددت بعد تزايد المشاركات الزراعية والايمان الخاصة اخيراً التي تفرض في ظروف عديدة فتصدّق كل اتفاق وصفقة ، ويقسمها ليس كل متعاقد فحسب، بل كل الاصدقاء الذين يرافقونه ايضاً والذين يصبحون ، بعهدهم هذا، شركاء له في عمله ويتعهدون بالحفاظ على السلم . فيدخل الفارس بهذه الطريقة في شبكة من الوعود التي تربطه نهائياً بكافة جيرانه تقريباً ، اي باولئك الذين يتاح له ظروف كثيرة يقابلهم فيها؛ فيضطر بالتالي الى كبح نزواته والركون الى الهدوء .

بالاضافة الى ذلك ينتسب الفارس الى وحدة ضيقة ، تحميه وتراقب اعماله ، اعني بها نسبه . فقد غدت العائلة ، بعد اختلال حبل الامن الذي عقب انهيار الملكيات ، الخلية الاساسية لمجتمع الفرسان، فامست في آن واحد اشدّ تلاحماً (ودرج استعمال اسم العائلة المشترك بين جميع الاعضاء، وهو رمز هذا التجمع ، في الطبقة الارستوقراطية منذ النصف الاول من القرن الحادي عشر). واعظم اتساعاً : فاحتفظت روابط الدم بكل قوتها طيلة اجيال عديدة جامعة ، حول الاكبر سناً ، الحفدة وابناء الاخوة وأبناء الاعمام . ولا يحدث البتة ان يعمل النبيل آنذاك مستقلا عن اقربائـــه ؛ وهو في الحرب واثناء المرافعة امام القضاء يحاط ابدا بـ « اصدقائه بالجسد » الذين يقدمون له المساعدة والذين يتوجب عليه مساعدتهم بالتفضيل على اعز اسياده ؛ وهو ، اذا حرم كل ثروة فردية ، حتى ولو كان متزوجاً ولم يرزق اولاداً ، يشترك معهم في تملك ارث الجدود الذي ينظم رئيس الجماعة استثماره بمشورة الجميع. وهذا التضامن الاقتصادي الذي يلزم بالتعاون الدائم هو العامل الملزم الاول بين عوامل الوحدة العائلية . وجدير بالذكر ان قوّة الموجبات النسبية تسهم اسهاماً كبيراً في الحفاظ على النظام . ومرد ذلك في الدرجة الاولى الى ان الفارس غالباً ما يثنيه انسباؤه عن تنفيذ نواياه الحربية خشية منهم من ان يجروا جرّاً الى عمل لا يوافقون عليه ؛ وفي الدرجة الثانية الى ان تأكدّ المعتدين من ان يناصبهم العداء كافة اقرباء ضحاياهم غالباً ما يحملهم على التراجع عند اعتداءاتهم المحتملة . ولذلك فان طبقة المحاربين، التي هي تجمّع ليس قوامه الافراد المنعزلين بل عدداً كبيراً من الجماعات المتشابكة نسباً وانتساباً اقطاعياً ، هي طبقة سجسة وعنيفة لعمري ، ولكنها ليست خارجة كليا على النظام .

الفلاحون

تختلف الظروف الاقتصادية في الطبقة الاخيرة من المجتمع اختلافهـــا في الطبقتين الاوليين . فبين العامليين الذين لا ينتسبون الى نخبة الفرسان، وبين العمال الذين يحصّلون من الارض بعرق جبينهم ما يلزم لاودهم واود غيرهم ، من لا يملكون شيئا ويستمطون خبزهم على ابواب الاديرة وينطلقون الى كل جهة سعيا وراء اي عمل ممكن ويتمنون ويشقون في املاك الاسياد الواسعة تحت امرة الخـــدام المنزليين . ولكن سواد هذه الطبقة من الفلاحين الاحرار في ان يستثمروا اراضيهم العائلية على هواهم ؛ انما يجب ان نميز ، في عداد متعاطي اعمال الزراعة هؤلاء، بين العمال الذين يستخدمون المحراث واولئك الذين يركشون ارضهم بالمعول.

وهناك اخيراً فئة من غير النبلاء الذين لهم شركاؤهم الخصوصيون، الخدّام، والذين يعيشون حياة بطالة ؛ فهؤلاء فلاحون ورثوا ارضا أحسن استثمارها ، او عملاء الاسياد وو كلاؤهم في ادارة خدمة منزلية او ادارة قطعة ارض ثانية كوفئوا بنصيب من الواردات التي يكلفون جمعها ؛ وهم من جهة ثانية على جانب كبير من اليسار ، يمتطون الجياد ويمتلكون الاقطاعـــات في غالب الاحيان وتتجاوز مواردهم موارد فرسان كثيرين، على انهم نادراً ما يدخلون (اقله في فرنسا) في طبقة النبلاء المقفلة اقفالا محكما في وجه حديثي النعمة .

بيد ان هؤلاء العمال ، بصرف النظر عن مقدار ثروتهم — وهذا ما يميز وضعهم — قد خضعوا خضوعا تاما لسيد لم يختاروه ، يحميهم ويقودهم ويعاقبهم ؛ والنظام المفروض عليهم نظام شديد يطبقه رئيس يتمتع بحق نفيهم . وينتسب عدد كبير منهم ، ممن دعوا بالفداديين في القرن الحادي عشر، وبالحرس الخاص في القرن الثاني عشر، الى رجال آخرين يزعمون ان لهم عليهم كل سلطة ؛ ويخضع الباقون منهم لسيطرة سيد الحصن في الارض التي يقيمون فيها . وسواء كانوا عمالاً في القرية او اتباعا شخصيين — وهم يتساوون في سوء المعاملة — فانهم مرغمون تجاه سيدهم بتأدية خدمات مختلفة يطلق عليها اسم « العادات » — لان مداها يحدّده العرف — او « الهدايا » احياناً ، لانهم اعتبروها تقادم تلقائية من الاتباع المحميين الى حامي السلام . فهنالك الالزامات العسكرية اولا : على الرعايا ان يؤمنوا حراسة القصر ، ويقيموا في التحصينات عند حدوث اي طارىء ، ويسيروا مشيا على الاقدام وراء الفرسان كي يؤدوا لهم بعض الخدمات ؛ وعليهم بنوع خاص الاسهام في بعض الاعمال التسخيرية كالترميم والنقل وتقديم القرطمان او الاغذية في سبيل تعهد الحصن وحاميته . وهنالك الخضوع القضائي ثانيا : فهم تابعون لسلطة محكمة السيد التي تجازيهم ، في حال الجرم ، بالاضافة الى التعويض على المعتدى عليه ، بغرامة مالية تتراوح بين ثلاث (٣) وستين (٦٠) لحاسة ، والتي ترفع قضيتهم الى السيّد نفسه اذا ارتكبوا زنى او سرقة خطيرة او جريمة قتل مقصودة . وهناك الخدمة المختلفة اخيراً : فجامعو واردات السيد الحاكم يستوفون الرسوم على الصفقات وانتقال المواد الغذائية واستخدام طاحون السيد وفرنه ومعصرته ؛ والعمال القرويون ملزمون في بعض الظروف باضافة السيد ورجاله او تقديم كمية من المواد الغذائية توازي ما تكلفه هذه الضيافة : وهذا ما يعرف بحق المأوى ؛ وهم ملزمون اخيراً « بمساعدة » حاميهم الذي يدعي لنفسه بحق مصادرة المال او المحاصيل الزراعية او كل ما ينقصه وما يريده ايضا في الغالب من منازلهم : وهذا ما يعرف بحق الاقتطاع .

ان هذه الحقوق السيدية ، المختلفة بين سيادة واخرى ، التي تنوء بثقلهـــا على كافة الرعايا بالتساوي ، سواء كانوا مالكين او مستثمرين ، وسواء كانوا احرار التصرف بشخصهم او غير احرار ، تمثل في القرن الثاني عشر ، بالنسبة للسيد ، دخلا اجـــل فائدة من كافة واردات الاملاك ؛ فاستغلال حق القيادة انما هو مـــا وفر لحكام الحصون وللجمعيات الرهبانية الكبرى اهم الموارد ورفعهم الى مرتبة دونهـــا مرتبة الفرسان العاديين الذين لم يستفيدوا الا من كراء

اراضيهم . وتشكل هذه الموجبات كذلك ، بالنسبة لمن تفرض عليهم ، عبئاً دونه الفرائض العقارية ، وينطوي بعضها على المزيد من الازعاج ، لا سيا فريضة الاقتطاع التي نظر اليهـا الكثيرون نظرتهم الى السرقة ، والتي ارغمت على التظاهر بالفقر وقضت على روح التوفير انما يجب الا ننسى ان هذه « العادات » هي ثمن الضمانة والسلامة ؛ فبفضل السيد يسود النظام داخل الجماعة ؛ كما ان كل تعكير للامن يقمع بصرامة يزيد في شدّتهـا ان السيد ، وهو الحريص على احقاق الحق ، لا ينتظر شكاوى الضحايا كي يطلب تدخل عملائه . فلهذا السبب ، ولان الفلاح الخاضع للسيد الحاكم غير مرغم على تأمين الدفاع عن نفسه ، كانت الروابط العائلية في الطبقات الدنيا اقل منها وثوقاً في طبقة الاشراف . بيد ان التجمع هنا ايضاً امر مرغوب فيه لانه يتيح دفاعاً افضل ضد المطالب السيدية : فقد وقف الفلاحون تدريجياً ضـد استخدام حق النفي ، خلال القرن الحادي عشر ، في اطـار القرية ، حول المعبد ومقبرته ، وهما مكانان يحميهما سلم الرب بصورة خاصة ، وباستطـاعة الفلاحين ان ينجوا فيهما من اشد اعمال العنف والمصادرات ازعاجاً — وحول الاخوية التي هي جمعية صلاة وتعـاون متبادل . وهكذا تكونت الخلية الاساسية في المجتمع الريفي ، اعني بها الجماعة القروية ، اي جمعية عمل يتمتع اعضاؤها بممتلكات وحقوق عرفية جماعية ويتفقون على تنظيم استثمار الارض وعلى جمع القطيع المشترك في الاراضي البائرة وعلى تنظيم الدورات الزراعية — وجمعية دفاع ايضاً تحافظ على « العادة » ، وتعارض استحداثات السيد ، وتتوصل احياناً ، في القرن الثاني عشر ، الى حمل هـذا الاخير على تخفيف نظام النفي .

هذا هو ، بخطوطه الكبرى ، نظام المجتمع الاقطاعي . اجل ، ان هذه اللوحة الاجمالية ، التي تنطبق على مملكة فرنسا ، قد لا تنطبق جملة على كل مجتمع اقطاعي ، لان اوروبا متنوعـة المناطق والسكان . فالانظمة الاقطاعية ، في المناطق الجنوبية مثلاً ، اقل رسوخاً الى حد بعيد ؛ وفي المانيا ، ابقى استمرار السلطة الملكية ، الى جانب نظـام الاقطاع « *Lehnrecht* » الذي ينظم العلائق الناجمة عن الاقطاعة ، على القانون البلدي العقاري « *Landrecht* » ، الذي يمكن تطبيقه على كافة الرجال الاحرار ، نبلاء كانوا ام فلاحين ؛ وقد جهلت بعض المناطق الاخرى ، كمنطقة الفريز ، مثلاً ، حكم السيد والاقطاع ؛ اضف الى ذلك اخيراً ان قيام العلائق السياسية والاجتماعية في البلدان الشمالية التي دخلتهـا النصرانية ، اي الجزر البريطانية وسكندينافيا والساكس ، لم يتحقق الا بتأخر زمني محسوس : وهكذا فقـد تألفت معظم فرق الفرسان الانكلو نورمندية ، حتى السنة ١١٠٠ ، من مغامرين فقراء لا يملكون فتراً من الارض ، دخلوا الخدمة جنوداً منزليين يعيشون على طاولة اسيادهم ، ولم تصبح ارستوقراطية اقطاعية الا ببطء وبعد مرور زمن طويل .

وعلى الرغم من ذلك فقد ارتكز التنظيم الاجتماعي ، بصورة عامة ، الى تحديد النشاطات : فهنالك نخبتان ، اسندت الى احداهما الوظائف الروحية والى الاخرى المهـام العسكرية ،

بتعهدهما عمل جمهور الفلاحين . لذلك كان مستوى حياة رجال الكنيسة والفرسان رهن انتاج العمل الريفي ؛ وما زال هذا الاخير ، في منتصف القرن العاشر ، انتاجاً هزيلاً يكاد لا يكفي لاعالة رجال الاكليروس والنبلاء ؛ فاذا مـــا ارتفع ، وزادت المحاصيل الزراعية ، استطاع المخصصون للصلاة والحرب الحصول على نصيب اوفر من الثروة والتصرف به لرفاهيتهم والنفقات البذخية ومشاريع الفتوحات النائية والابحـــاث الفنية والفكرية . ويلفت النظر ان يقظة النشاطات الريفية تبرز بالضبط حوالي السنة ١٠٠٠ التي كانت منطلقاً للحضارة الغربية .

٢ ـ النمو الاقتصادي

ان استئناف النشاط الاقتصادي الذي لاحت دلائله منذ العهد الكارولنجي قد برز بصورة حاسمة ، في اوروبا ، حوالي السنة ٩٥٠ ، بعد ان حالت دونه ، طيلة قرن ونيف ، الغزوات النورمندية والاسلامية والهنغارية . في هذه الفترة ، كما يبدو ، اي في العقود القليلة التي سبقت السنة ١٠٠٠ ، انتشرت بسرعة في الارياف المسيحية ، التي اعيد تعميرها ، عدّة اكتشافـــات تقنية ذات نتائج عظيمة جداً. اجل كانت هذه الاكتشافات قديمة العهد، ولكن تطبيقها في الغرب قد بقي محدوداً حتى ذاك التاريخ . يتعذر في الحقيقة تتبع هذا الانتشار لان الادلة المباشرة ، واعني بها آثار الادوات او رسومها ، نادرة جداً ويصعب تحديد تواريخها ، ولان النصوص لا تنطوي الا على القليل القليل من المعلومات . ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد بان الانطلاقة الكبرى في الغرب ترتبط آنذاك ارتباطاً وثيقاً بتبدل اساسي في الطرائق الزراعية ، اي بثورة حقيقية بطيئة اتاحت انتاج مزيد من المواد الغذائية بجهد اقل منه في السابق ، فقلبت ظروف الحياة الاقتصادية رأساً على عقب .

التحسينات التقنية

ان هذا التبدّل على جانب كبير من التعقيد ويتناول شتى عناصر الطرائق الزراعية ؛بيد انه يجدر بنا، في سبيل توضيحه، ان نعزل التحسينات المختلفة التي تترابط في الواقع ترابطاً وثيقاً وتتداخل تداخلاً مستقلاً . يقوم التحسين الاول في استخدام قوّة المياه الجارية استخداماً افضل : فيبدو ثابتاً، منذ القرن العاشر، ان مجاري المياه قد نظمت وحولت مياهها الى اقنية وخزانات وشلالات معدّة لتحريك مطاحن الحبوب ومعاصر الزيوت. فاغنت المطاحن المـائية عن الهواوين والمطاحن اليدوية ، ورفعت عن اليد العاملة المنزلية عبء تحضير الحبوب الذي كان عملاً شاقاً جداً ، واتاحت لهـــا الانصراف الى مهام اخرى اعظم انتاجاً. وفي الوقت الذي استخدم فيه الناس الطاقة المائية توصلوا الى استخدام قوة الجرّ الحيوانية استخداماً افضل ايضاً: فقد ظهر وانتشر في الوقت نفسه تحسين عظيم في اساليب قرن الحيوانات؛ فاستعيض بالطوق الصلب عن لبّب الحصان الرهل الذي كان يخنق الحيوان وينقص قوته انقاصاً

محسوساً ؛ اما نير الثور الذي احكم صنعه وفاقاً لقوى الحيوان الفاعلة ، فقد نقل من الكاثبة الى القرون. ويرتبط بهذه التقدمات الاولى تحسّن في الادوات : فقد استميض، في المذراة والمجرفة، عن الخشب بالحديد ، فغدت الاداة اعظم فائدة ؛ واخذ الناس يستخدمون المسلفة ؛ واستطاعوا بصورة خاصة ربط آلات زراعية اعظم طاقة الى دواب مقرونة ازدادت قوتهـا . فقد انتشر آنذاك في كافة مناطق اوروبا الشمالية، وفي كافة الاراضي الخصبة التي لا يخشى ان تتضرر بالحراثة العميقة ، استخدام المحراث الكبير الثقيل ذي العجلات والمقلب ؛ امـا المحراث الخشبي القديم ، الذي لا يقلب الا وجه الارض ، فقد خصص تدريجياً بالاراضي الخضحاضة الجافة .

قلبت الارض قلباً افضل وهوّيت تهوية احسن ، واستفادت ايضاً من تقدم طرق اخصابها ، واصلاحها بالسجّيل، وهي طريقة انتشرت في غربي فرنسا، وربّها الذي اعتمد على نطاق واسع في لومبارديا منذ اوائل القرن الثاني عشر ؛ فتحسن من ثم انتاج العمل الزراعي وحدثت اخيراً ثورة في تحديد مواعيد زرع الحبوب المختلفة ، فحلّت تدريجياً محل نظام الدورة الرومانية التي تتجدّد كل سنتين ، وتحل طرائق بدائية اقل انتاجاً ، كالزراعة المتنقلة او المؤقتة ، او زراعة الارض المحرقة ، الدورة التي تتجدد كل ثلاث سنوات ؛ اجل لقد جرى هذا التبدّل بكل بطء (اذ ان الطرائق الجديدة قد ادخلت ، كما يبدو ، في العهد الكارولنجي وفي الاراضي الملكية والرهبانية الواسعة) ولن يكون الا جزئياً ، ولكنه يشكل تقدماً حاسماً . فقد سمحت هذه التقنية بزراعة الارض سنتين من اصل ثلاث بدلاً من سنة من اصل سنتين وحققت زيادة في انتاج المواد الغذائية تعادل نصف الانتاج السابق على الاقل ، وانتشر مع الدورة الجديـــدة استعمال القرطمان الذي آثره الفلاحون على الشمير . فقد استخدم في اغلب الاحيـــان حساء لتغذية الانسان ؛ كما استخدم لتغذية الماشية جزئياً ايضاً فاسهم في رفع عددها وتحسين نوعها. وانتشرت بصورة خاصة تربية الخيول ؛ وكان لهذه الظاهرة الرئيسية ، التي غدت اساس تبـــدل كلي في اساليب الحرب ، ووجهت من ثم تطور الارستوقراطية الغربية ، صداهـــا البعيد في الاقتصاد الريفي : فمنذ اواخر القرن الحادي عشر اخذ الحصان يقوم مقام ثور الفلاحة لانه يفوقه سرعة في الحركة ويساعد ، بحراثة الارض مراراً متعددة ، على زيادة الانتاج ، مـــع ان تعهده اعظم اكلافاً . تلك هي الاستحداثات التقنية الهامة . ولنشر ايضاً الى انها استخدمت ببطء ايضاً ، في اهم المشاريـع الزراعية اولاً ، وان مركز انتشارها كان ، على ما يبدو، السهول الغرينية الكبرى في المقاطعات الفرنجية القديمة بين نهري اللوار والرين ، وانها لم تدخل فعلاً ، خلال القرون الوسطى ، سوى ارياف جنوبي انكلترا وفرنسا والمانيا الشمالية ؛ اما جنوبي فرنسا فقد حافظ، لاسباب مناخية بحتة ، على العادات القديمة ، اي على المحراث القديم وزراعة الارض دورياً كل سنتين .

الانتاج والسكان

احدثت هـــذه الثورة التقنية تجدداً كلـّياً في الحياة الريفية . فجاءت الحصائد ، في كافة المشاريع الزراعية ، وبالمجهود نفسه ، اهم منهـــا في

السابق الى حد بعيد . ولم يعد للسيد من حاجة ، بغية زراعة القطع الكبرى الصالحة للحراثة في اراضيه الاحتياطية ، لذاك الجيش اللجب من المسخرين : اذ ان بعض الافراد يكفون للقيام باعمالهم . فهو بالتالي لا يستدعي الآخرين بل يتفق معهم على ان يدفعوا له ، عوضاً عن هـذه الخدمة ، بعض المال او محصولات زراعية . وهكذا زالت تدريجياً معظم اعمال التسخير التي فرضت في املاك الاسياد خلال العهد الكارولنجي . ففي السنة ١١١٧ مثلاً ، ابدلت برسم نقدي ايام العمل الثلاثة المفروضة اسبوعياً للسيد على بعض مزارعي دير « مار موتيه » الالزاسي . الا ان هذا الطراز نفسه من الاعمال التسخيرية قد استمر حتى منتصف القرن الثالث عشر في بعض املاك الاسياد من المنطقة الباريسية . ومع ذلك فقد توقف شيئاً فشيئاً اسهام المشاريع الزراعية التابعة للسيد في استثمار الاراضي الاحتياطية ، باستثناء بعض الايام التي تحددها روزنامة الفلاح والتي توافق نبت المزروعات ، وخلال مرحلة الحراثة بنوع خاص . ثم ان ابدال الخدمات القديمة بالاتاوات ، وهو نتيجة مباشرة لتحسن التقنيات ، قد درّ على سيد الارض موارد اضافية : اتاوات عينية تؤمن له تموين بيته وتتيح له انقاص مساحة اراضيه الاحتياطية وتأجير قسم منها وزيادة عدد المزارعين ومن ثم زيادة الارباح ، واتاوات نقدية تتيح له شراء مزيد من الاراضي . فغدا السيد ، والحالة هذه ، اقل ارتباطاً بارضه ؛ واحتل الدخل الدائم في ايراداته مكاناً متزايد الاهمية ؛ واخذت مشاريع الاعمال الزراعية ، في املاك السيد ، تنفتح شيئاً فشيئاً على الخارج .

اما في الاراضي التي يستثمرها الفلاحون ، فقد اتاح تزايد انتاج ادوات العمل وتناقص اعمال التسخير التي استأثرت دوريا في الماضي بقسم من اليد العاملة المنزلية ، الحصول من الارض على حصائد اوفر . اجل ، لقد توجب عليهم تسليم او بيع بعض هذه الحصائد لتسديد الاتاوات التي تقوم مقام الخدمات القديمة او لتلبية مطالب السيد الجديدة . بيد انهم يحتفظون بفائض كاف لتأمين تغذية أفضل لعائلاتهم التي تنعم ببعض اليسار في ارض زاد جنيها دون ان تزيد مساحتها : فكان هذا دواء ناجعاً لمعالجة سوء التغذية المزمن ، الذي ثقلت وطأته منذ قرون على العالم الريفي ، ورفع نسبة الوفيات بين الاطفال وحال دون ازدياد عدد السكان . فغدت المجاعات نادرة بعد السنة ١٠٠٠ وانتهت الى الزوال ، بينما اخذ عدد سكان البلدان الغربية يزداد باطراد . يتعذر لعمري تحديد اهمية هذه الظاهرة بسبب افتقارنا الى الاحصاءات الدقيقة ، ولكننا نستطيع ، على الرغم من ذلك ، ملاحظة مداها الهام : فبحسب احد التقديرات المقبولة النادرة جداً ، ارتفع عدد سكان انكلترا من ١١٠٠٠٠٠ في السنة ١٠٨٦ الى ٣٧٠٠٠٠٠ في السنة ١٣٤٨ ؛ واذا ما اعتبرنا ان ارتفاع عدد السكان قد سبق العقود الاخيرة من القرن الحادي عشر بزمن بعيد ، جاز لنا القول بان عدد سكان اوروبا الغربية قد ازداد ، خلال القرون الثلاثة التي عقبت السنة ١٠٠٠ ، ثلاثة او اربعة اضعاف ما كان عليه قبل هذه السنة .

يتميز هذا الارتفاع ، في بدايته ، بارتفاع كثافة السكان في الاراضي الزراعية القديمة اولاً :

فالمساحة نفسها من هذه الاراضي قد تؤمن الغذاء ، دون جهد يذكر ، لعدد اكبر من الناس ؛ كما ان نصف او ربع الارض العائلية القديمة يكفي اليوم لتغذية عائلة من المزارعين ، لذلك فقد تقسمت الاراضي التي يستثمرها الفلاحون جزأين او اربعة اجزاء ، فارتفع ، بالفعل نفسه ، عدد المساكن والسكان في القرية . ولكن ارتفاع كثافة السكان قد رافقه بسرعة توسع الاراضي المزروعة على حساب المساحات المهملة ، لانها كانت ، بسبب وضع التقنية ، اما قليلة الانتاج واما صعبة المعاملة . وهناك ثلاثة وقائع متوافقة كانت منطلقاً لنهضة احياء الارض الكبرى التي ابتدأت ، وفاقاً لمناطق النصرانية ، ما بين السنتين ٩٥٠ و ١١٠٠ : استخدام وسائل جرّ وادوات حراثة اقوى من ذي قبل قادرة على استئصال الارومات العميقة وقلب الاراضي الكثيرة الاتربة التي برهن المحراث القديم حتى اليوم عن عدم جدواه فيها ، وفائض اليد العاملة التي حررها اعتماد الطرق الزراعية الفعالة ، وارتفاع عدد الولادات التي يقابلها نقصان الوفيات بين الاطفال .

احياء الاراضي

اسهم الفلاحون والاسياد العقاريون في هذه المشاريع المعدّة لتحويل الاحراج والمستنقعات ، شيئاً فشيئاً ، الى اراض منتجة . وغالبا ما سبق الفلاحون الاسياد الى النهوض بهذا العمل ، لان استثمار الاراضي القديمة الصالحة للزراعة يتطلب جهداً اقل منه في السابق : فبعد ان ينهي رب العائلة اعمال الحراثة يبقى امامه متسع من الوقت لاصلاح الاراضي البائرة المتاخمة لحقوله ، فيتاح له بذلك توسيع املاكه تدريجياً ، فيقوم في فصل الشتاء باحراق الاشجار الصغيرة وقطع الاشجار الكبيرة واستئصال الجذور ، وتصبح هذه الارض في الربيع مرجاً اخضر يمكن في السنة التالية حراثته وبذره ، وبعد ذلك غرس جفون الكرمة فيه ؛ واذا كانت الارض تعود لسيد يقظ ، فانه يفرض اتاوة على من اصلحها ، والا طالب الفلاح بضمها الى ارضه الوراثية . وهكذا ، بفضل هذا التقدم البطيء الذي أحرز على كافة تخوم المقاطعة ، اتسعت الارض المزروعة سنة بعد سنة . وما لبثت الحقول الجديدة ان باتت نائية عن القرية ، فاقام الذين اصلحوها مساكنهم فيها ، وهكذا برزت عند حدود المقاطعة مساكن متناثرة ، وغالبا ما وجد مصلحو الاراضي انفسهم وجهاً لوجه امام غيرهم ممن اتى من القرى المجاورة ، ففقدت الاراضي البائرة ، التي كانت ، فيما مضى ، تعزل القرى عزلاً تاماً ، رقعاً متشتتة مجدبة جداً . اضف الى ذلك ان ابناء الفلاحين ، حين يبلغون اشدّهم ، لا يتوفقون جميعهم الى العمل في املاك آبائهم ، فيضطر بعضهم الى البحث عن الثروة في غير مكان ، ويتوجه من لا يذهب منهم نحو المدن ، او من لا ينضم الى جمهور الاخوة المساعدين في الاديرة الجديدة ، الى الاسياد ذوي الاملاك الحرجية الواسعة حيث يقيمون مع بعض رفاقهم ويكوّنون في قلب الاحراج ارضاً زراعية جديدة ، بعد اعتماد الزراعة المؤقتة على الارض المحرقة : هؤلاء هم « الضيوف » ، وقد ثبت الدليل على وجودهم في كافة المساحات المهملة التي الفت كلها في العهد الكارولنجي جزراً مقفرة بين الواحات الآهلة بالسكان .

اما الاسياد العقاريون فقد حدث لهم ان وسعوا استثمارهم المباشر ، كما حدث لهم ، بغية الاستفادة الى اقصى حدود الاستفادة من عمالهم المنزليين الذين اصبح لديهم متسع من الوقت ، ومن اعمال تسخير المزارعين التي لم تستبدل بالاتاوات ، ان اقدموا على زراعة بعض اقسام اراضيهم الاحتياطية المتروكة مراعي او احراجاً . بيد ان معظم الاسياد سعوا في الدرجة الاولى وراء زيادة دخلهم الدائم والاكثار بالتالي من المشاركات الزراعية. فقدموا لطالبي الاراضي من الفتيان قطعاً بكراً وطلبوا اليهم استثمارها ، وغالبا ما امنوا لهم ، رغبة في استمالتهم ، الادوات وحيوانات الجر والمال اللازم لمباشرة العمل ، ورفعوا عنهم ، بصورة عامة ، الاتاوات المزعجة ، وتعهدوا لهم بعدم استيفاء ضريبة القطع التعسفية وبتحصيل الضرائب الاخرى بنسبة مقبولة : فكان على المزارع ، بعد ان يحصل على الضمانات التي تقيه مخاوف الخسارة في السنوات الاولى ، ان يقدم للسيد قسماً من حصائده يتراوح بحسب المناطق بين ١/٤ و ١/١٢ ، بالاضافة الى البدل الضئيل الذي يدفعه لقاء اقامته في البيت الذي يشغله . كانت هذه الشروط مغرية ، وقد اذيع خبر حسناتها في المناطق البعيدة احياناً فافضت الى تنقلات السكان مسافات بعيدة ، من المناطق المأهولة قديماً والكثيفة السكان الى القطاعات الزراعية المستحدثة ، كالتنقلات التي جرت في اوائل القرن الثاني عشر مثلاً وانتهت بسكان سنتونج ، الى مناطق مصب نهر الغارون، او بالفلمنك ، الى مستنقعات سواحل البحر الشمالي بين نهري الفيزير ، والإلب .

كانت نتيجة هذا الاستعمار الزراعي النشيط تبدلاً سريعاً في منظر الارياف الغربية . فتناقصت المساحات المجدبة المهملة في كافة الاراضي السيِّدية ؛ وقد بلغ من هذا التناقص احياناً ان اختل توازن الاقتصاد القروي ، حين لم يبق سوى القليل القليل من القطع المحرجة التي توفر، بالاضافة الى خشب التدفئة ومختلف الحصائد ، المادة الخام لمعظم المصنوعات القروية والبلوط لتغذية الخنازير ، وتؤلف احد العناصر الاساسية في النظام الزراعي — او من تلك المراعي والاراضي الهادرة التي لا مناص منها لتغذية المواشي بسبب ندرة المروج وفقدان زراعات الكلأ . وتجزأت الاحراج الكبرى التي تخللتها الفسح الجديدة ، وبرزت « الارياف » وقامت القرى الكبيرة ذات التخطيط المنتظم في « السهول » المفتوحة ، حين كان اصلاح الارض جماعياً، اما « الغابة الظليلة» فقد قسّمت غابات صغيرة قامت بينها المشاريع الزراعية التي انتثرت في وسط البراحات ، حين استثمر الاراضي السيدية مستعمرون منفردون. وكذلك نمت الزراعات اخيراً على جنبات السواحل الرسوبية وفي مستنقعات الوديان على ضفاف الانهار الكبرى ؛ فالحرب هنا لم تعلن على الشجرة بل على الماء ، وقد اوجب الفتح ، المستند الى شبكة من السدود ، تدبيراً جماعياً لتصريف المياه يكمله نظام جماعي شديد ، للعناية بجهاز الوقاية. فتزايدت في كل مكان الاراضي التي تنتج الحبوب ؛ وقد بلغت هذه الزيادة ذروتها في منتصف القرن الثاني عشر ؛ وجاءت اعمال احياء الارض ، التي انضمت نتائجها الى نتائج التقدم التقني ، تزيد في حجم المواد الغذائية وتتيح ارتفاع كثافة السكان .

انتقال الممتلكات والسكان

وكانت النتيجة المباشرة لهذا الازدياد في مواد الاستهلاك وعـدد السكان نمواً في حركة المقايضـات . في السنة ١٠٠٠ ، تمثلت طبقة « العمال » تمثلاً شبه حصري بفلاحين عندوا في الحصول ، من اعمالهم الزراعية ، على مـا يؤمن معيشتهم ويسد حاجـات الفرسان والاكليروس الضرورية ؛ وباستثناء حالات نادرة ، جرى انتقال الثروة ، عن طريق الاتاوات ، داخـل الاراضي الخاضعة للسيد التي هي شبه مقفلة . ولكن تحسن انتاج العمل الزراعي قد افضى شيئاً فشيئاً ، بفعـل تزايد المشاركات وارتفاع الارباح من الرسوم النسبية المفروضة على الحصائد ، وربما بفعل ارتفاع قيمة الاعشار الكنائسية بنوع خاص ، الى تزايد محسوس في موارد الاسياد : ممـا حدا باعضاء الطبقات العليا الى رفع مستواهم المعيشي وعـدم الاكتفاء بالمواد الغذائية الضرورية لاودهم . واتاحت الظاهرة نفسها ، لعدد متزايد الارتفاع من العمال ، الانصراف عن الارض الى نشاطات غير زراعية بالضرورة ، والقيام باعمـال جديدة ، كالصناعة اليدوية او التجارة ، تلبية لطلب الاغنياء . وقد تأمنت المواد الغذائية الضرورية لهؤلاء الاختصاصيين من فائض انتاج الاستثمارات الريفيـة ؛ الا انهم اضطروا لشرائها بمالهم ؛ فتعددت من ثم المقايضات خارج اطار الاراضي الخاضعة للاسياد ، واتصفت العلائق الاقتصادية بالانفتاح والمرونة ، وخضع انتقـال الثروات لحركة حثيثة . فكانت النتيجة الطبيعية ان النقد احتل مركزاً اعظم اهمية في الحياة اليومية ، ومست الحاجة للدراهم ؛ فاعيدت الى التداول تدريجياً المعادن الثمينة المجمدة في خزائن الصاغة ؛ ولكن ذلك لم يكن كافياً ، فضربت في مصانع النقد قطع اخف وزناً وعيـاراً ؛ فعمت النقود وفقدت في الوقت نفسه بعض قيمتها ولا سيما قيمتها الشرائية وغدت من ثم اسهل تداولاً وامكن استخدامها آنذاك لتأمين عمليات الشراء اليومية . وكانت النتيجة الاخيرة للتوسع الاقتصادي ارتفاعاً بطيئاً ومستمراً في الاسعار : وبامكاننا تقدير مدى هذا الارتفاع متى علمنا ان ثمن الحبوب ، في احدى مناطق فرنسا ، سيصبح في اواخر القرن الثالث عشر اعلى منه في السنة ١١٠٠ بعشرين ضعفاً .

وقد لفت انتباه المعاصرين ، بعيد السنة ١٠٠٠ ، بين كافة مظاهر النهضة العامة في العلائق بين السكان ، كثرة الاسفار وتعددها والحركة الناشطة المفاجئة على الطرقات . فقد سهل التنقلَ احيـاءُ الاراضي الذي قلل من العراقيل الطبيعية (الاحراج الواسعة ومستنقعات الوديان) واسهم من ثم في تقريب المسافات بين الجماعات البشرية . بيد ان تقنيات هذا التنقل مـا زالت بدائية : فليست العربات متوفرة بعد ، والانهار والبحر هما للجميع اسهل الطرقات والوسيلة الوحيدة لنقل الاحمال الثقيلة ؛ اما في البر فينقل المشاة والدواب ، في الاكياس او على الاجلال ، مواد غذائية خفيفة الوزن وغالية الثمن بكميات صغيرة جداً ، الا انهم يسلكون طرقاً مختصرة غير محددة قد تفرضها هنا وهناك بعض نقاط المرور الاضطراري كالمجاز او الجسر او المخاضة ، والاديرة وبيوت الرب المشيدة حديثاً التي تؤاوي الضيوف مجاناً .

على الرغم من بطء المسير ومشاق الطريق واخطارها ، كثيرون هم ، في القرون الاقطاعية ،

الذين يهجرون عائلتهم او جماعتهم ويقومون بالاسفار : رجال او نساء ، اكليروس او رهبان فرسان او اناس من الطبقات الدنيا . فالسفر هو اعظم لهو آنذاك، وافضل وسيلة لرجل الدرس والبحث كي يزيد معارفه ويطلع على كتب اخرى او يخالط معلمين آخرين ، ولغير الابكار من الابناء كي ينجوا من وصاية النسب الملة . ولعل المكوث في مكان واحد اقسى واجب يصعب على الرهبان احترامه . فكل حجة للتنقل مستحسنة ، وغالباً ما يكون الحج مناسبة للسفر . وتأتي حينذاك في رأس الممارسات التقوية زيارة بعض الاماكن المقدسة – وهي عادة وثيقة الارتباط بعبادة الذخائر : والمقصود هو الاقتراب بالجسد من بعض الحاجيات التي تشع بنعم فائقة الطبيعة منذ ان لامستها في الماضي اجسام القديسين . وغالبا ما تكون هذه الزيارة كفارة تطهر من الخطايا المميتة ، ووسيلة ايضاً للحصول على مساعدات فورية ، ولشفاء الجسد من الامراض ، ولاستمالة القوى الروحية . وهكذا فان الرجال يحتشدون في بعض التواريخ حول بعض المعابد العجائبية (وقد سبق ورأينا ان الحرص على اعداد الكنائس لاستقبال هذه الجماهير هو في الاساس من تحويرات التصميم والتجديدات الهندسية قبل القرن التاسع) ؛ ومنذ السنة ١٠٠٠ أتسعت حركة الحج الروحي هذه ، فاختار القسم الاكبر من الحجاج آنذاك ، هدفاً لزياراتهم ، اما روما ، واما اورشليم والاماكن المقدسة في فلسطين ، واما مدفن القديس يعقوب في كومبوستيل .

لم يكن هؤلاء المسافرون ، الذين يسيرون على مهل ، لينقلوا مؤنا غذائية تكفيهم طيلة سفرهم ؛ ولم يكن بمكنتهم كذلك الاعتماد ابداً على الضيافة المجانية في المؤسسات الخيرية ؛ فحملوا من ثم نقوداً كي يدفعوا في طريقهم اكلاف مأواهم وغذائهم وغذاء دوابهم ونقلهم بحراً . وسلموا هذه النقود لبائعي المحاصيل الزراعية ، واصحاب الفنادق المقيمين على جنبات الطرق ، واللحامين، والخبازين ، الذين اخذوا آنذاك يقيمون باعداد متزايدة في امكنة التوقف ويجمعون ثروات طائلة ، كما تؤيد ذلك المستندات . فانفتحت من ثم امام المستثمرين الزراعيين اسواق جديدة بفضل حركة التنقل المتزايدة : فغدا باستطاعة الفلاحين تصريف قسم من فائض حصائدهم، وانتشرت النقود في الاوساط الريفية .

بيد ان المزارعين الصغار لم يستفيدوا في الحقيقة استفادة كبرى من هذه الاموال ؛ فان القسم الاكبر من حصيلة مبيعاتهم قد عاد الى خزائن الاسياد الذين وفقوا قوانينهم الجبائية لاتساع حركة التداول النقدي ، باحلال الاتاوات النقدية او العينية محل الخدمات القديمة ، وبالاكثار من الموجبات ورسوم القطع . وانتهت النقود التي انتشرت بواسطة المسافرين الى الاسياد (الذين قاموا مباشرة احياناً بمقايضة فائض مواردهم ، ولا سيما موجودات اهراء جمع الاعشار القائمة على مقربة من الطرق الكبرى ، بالمواد الغذائية) فكان حكام الحصون وافراد المؤسسات الدينية، الذين يجبون رسوم القطع الهامة والغرامات القضائية الطائلة الارباح ، اول من استفاد من هذه

الحركة . فبات باستطاعة اعضاء الارستوقراطية الكنائسية والعلمانية ادخال زيادة محسوسة على نفقاتهم . واستخدم رجال الكنيسة بنوع خاص مواردهم النقدية الجديدة لتجميل المعابد : فشيدوا بدراهمهم ابنية جديدة واسسوا مصانع نقاشة واشتروا للواهف حللاً كهنوتية جديدة؛ وان هناك لصلة وثيقة بين الازدهار الفني في اواخر القرن التاسع ونمو صناعات التخصص ، ولا سيما صناعة النقاشة ، وبين نهضة الاقتصاد النقدي .

اما الفرسان فقد ضحوا بامكاناتهم المالية على مذبح رغبتهم في الظهور، وفي التألق في الجمعيات العالمية ، وهي من ملاذ النبلاء الاولى . فما عادوا يقنعون بنتاج املاكهم والصناعة المنزلية ، بل تعودوا البذخ : بذخ المائدة ، الذي حمل على تقديم الاصناف النادرة للضيوف، والنبيذ في المناطق الشمالية ، والتوابل في كل مكان ؛ وبذخ الزينة الذي حمل على اهمال المنسوجات المبتذلة واقتناء الفراء والاقمشة الاجنبية الثمينة والاجواخ ذات الالوان النادرة . اضف الى ذلك ان الميل الى المصنوعات المستوردة الجميلة ، الذي لم يخب في يوم من الايام والذي حافظ على حركة تجارة طويلة المسافات في عهود الانكماش الاقتصادي ، قد زاد بصورة مفاجئة واحدث توسعاً جديداً في تجارة المواد البذخية . وبينما تزايد شراء المصنوعات الشرقية الذي قابله تزايد في التصدير الى البلدان الاسلامية ، نشط ، داخل العالم الغربي ، انتاج ومقايضة بعض السلع الثمينة : تجارة الخمور بين مناطق السين والواز ، التي قامت فيها اقصى الكروم الشمالية ، وضفاف اللوار ، وسواحل الاطلسي ، وبين انكلترا وهولندا ؛ وانتشار الاجواخ الممتازة المنسوجة والمصبوغة في مدن مقاطعتي « الارتوا » وفلاندر ؛ فنشطت بذلك حركة انتقال البضائع في الوقت الذي نشطت فيه حركة تنقل الحجاج . ومن المستحدثات التي تثبت الاتساع المطرد في النقل التجاري ان حكام الحصون ، وقد اغرتهم المصنوعات الثمينة التي تمر تحت حمايتهم في الاراضي الخاضعة لسلطتهم ، فرضوا ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، رسوماً جديدة تناولت سلع الترانزيت ، واضيفت الى الرسوم القديمة المفروضة على عرض هذه السلع في الاسواق . وتألفت داخل طبقة العمال طبقة اقتصادية بلغ من اهمية عددها في اوائل القرن الحادي عشر انها كانت موضوع شروط خاصة في ايمان سلم الرب ، وقد نمت باطراد ضامة اولئك الذين يؤمنون لاعضاء الطبقات العليا المصنوعات البذخية التي يطلبونها : اعني بها طبقة التجار .

التجار

كان بين اختصاصيي التجارة بعض افراد الجماعات الاسرائيلية في المدن القديمة التي تخلفت في اوروبا ، خلال مرحلة التقهقر الاقتصادي ، مستعمرات التجار الشرقيين القدماء واسهمت ، كما هو طبيعي ، في اتساع حركة المقايضات . بيد ان المسيحيين الذين اخذوا يجنون الارباح من الاعمال التجارية قد ارتفع عددهم باطراد : الوكلاء الذين اسند اليهم سيدهم مهام تجارية فعقدوا في الوقت نفسه بعض الصفقات لحسابهم الخاص وانتهوا الى الاستعفاء من وظائفهم الاولى ؛ وبعض العاملين في الطرقات والانهار الذين وظفوا في التجارة الاموال الاولى

التي جنوها من خدمة المسافرين ؛ وبعض ابناء الفلاحين الذين اضطروا للنزوح عن املاك عائلية ضاقت بسكانها وآثروا المغامرة بتعاطي التجـارة الصغرى على العمل الشاق في احياء الاراضي . كل هؤلاء كانوا تجاراً متجولين . والمجال لم ينفسح بعد امامهم حتى يستطيعوا انتظـار الزبن في بيوتهم ويستحضروا البضائع من الاماكن النائية دون ان يكلفوا انفسهم مشقة الانتقال: فالبحث عن البضائع حيث تكون وافرة ومعتدلة الاسعار، ونقلها وعرضها على من يمكنه شراؤها باسعار مرتفعة ، والاسراع ، في مكان البيع ، الى شراء السلعة الموافقة التي يمكن بيعها في غير مكان ، والانتقال بعد ذلك الى مكان بعيد آخر، تلك كانت حال تاجر ذاك العهد، وهي شبيهة كل الشبه بحال البائع المتجوّل ؛ وطابعها المميز هو الحركة ، التي اشار اليها المعاصرون ، بحيث ان تسمية المحاكم الناظرة في الخلافات التجارية الصغرى بـ « محاكم الاقدام المغبرّة » قد استمرت في انكلترا النورمندية زمناً طويلاً بعد ذاك العهد .

كان هذا النشاط في الحقيقة جزيل الفائدة ، ويبدو ان عدد التجار الذين اثروا بسرعة كان كبيراً جدّاً، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الكراهية الدائمة التي استهدفت المهنة التجارية وسوء نية التجار الذين كانوا، في شيخوختهم ، يقدمون للكنائس والفقراء كميات ضخمة من الفضة والذهب كفارة عن الخطايا التي ارتكبوها ، بحكم تجارتهم ، ضد محبة القريب : فهذا « بنتلكون » ، احد سكان أمالفي ، الذي توفي في السنة ١٠٧١ ، قد وهب كنيسة القديس بولس القائمة خارج الاسوار في روما ابوابـاً برونزية طلبها من بيزنطية ، وشيّد كنيسة القديس ميخائيل في جبل غارغانو وجهّز وتعهد بعض المستشفيات في انطاكية واورشليم .

غير ان حياةالتاجر محفوفة بالاخطار ايضاً: اذ عليه الدفاع عن امواله في الاسفار، ومقاومة جباة رسوم الترانزيت الذين يحاولون ان يأخذوا منه كل ما لديه من اموال ، وتحصيل اثمان بضائعه من الزبن النبلاء ؛ وعليه ان يكون شجاعاً ويحتاط للخطر بحمل السلاح ؛ وغالباً مـا يتشاركالتجار وينظمون القوافل كي يواجهوا الاخطار بقوة. اضف الى ذلك ان للتكتل حسنات اخرى : فكل تاجر يستفيد من خبرة رفاقه، ويحدث ان توحد الرساميل احياناً ، فيتاح للتجار عقد صفقات اوفر كسباً .. في البدء كانت هذه الشركات ، التي حملت اسماء مختلفة ، مؤقتة ومؤسسة لرحلة واحدة ، ثم ضمت ، بصورة قانونية ، وفي جماعة دائمة ومنضبطة نظمت تنقلاتها في مواعيد معينة وحدد خطّ سيرها سلفاً ، كبارَ التجار في منطقة واحدة ، وناقلي البضائع في نهر واحد ، والمتوجهين الى مركز تجاري واحد . يلتقي التجـــار على اختلاف مناطقهم ، سواء كانوا منفردين او منخرطين في هذه التكتلات المهنية لمقايضة سلعهم في نقـــاط تقاطع طرقات التجارة الرئيسية، في اجتماعات تجارية كبرى؛ فان سوق العرض، وهي مركز سلمخاص في كنف سيد المنطقة الذي يعد لفترة من الزمن ، لقاء رسم طفيف ، بحرية المعاملات التجارية، وتوفير الحماية للجميع ، جهاز اساسي للتجارة المتجولة ؛ اما المدينة ، وهي مأوى الاستراحة بين مرحلة انتقال واخرى ، فجهاز اساسي آخر . فالحاجة ملحة الى مستودعات يقضي فيها التجار

اشهر فصل الامطار القاسية بانتظار فصل القوافل واسواق العرض. ولذلك فان حركة المقايضات التجارية وحركة التنقل على الطرقات قد احدثتا نهضة في الحياة المدنية في الغرب .

نهضة الحياة المدنية

ان المجموعات السكنية الجديدة، اي « الضيع الكبرى » – هذا هو الاسم الذي اطلق عليها آنذاك ، وغالباً ماوصفت بـ « الجديدة » للايضاح – نشأت ونمت في موقع مناسب للانتقال ، لأن المدينة مكان اتصال ، وللدفاع ايضاً ، لان في المدينة ثروات يجب الدفاع عنها . فقامت من ثم ، على وجه العموم ، في جوار مدينة رومانية روعيت في تأسيسها سهولات الاتصال ، واحيطت بالاسوار ، وضمّت بالاضافة الى ذلك مقر الاسقف والكهنة القانونيين ومركز عدة اديرة ومحل اقامة بعض العائلات النبيلة في اغلب الاحيان، وجمعت من ثم زبناً اثرياء دائمين .وقامت كذلك بعض الضيع الكبرى في جوار الحصون الهامة التي هي مراكز سلطات قضائية واسعة تقوم فيها حامية عسكرية كبرى يجب تموينها ؛ او في جوار الاديار ، تلك المراكز المحصنة ايضاً ، التي تجتذب المسافرين من حيث هي نقاط لاجتماعات دينية دورية . ولكن الحي الجديد يكاد يبقى متميزاً ابداً عن النواة السكنية القديمة التي اسهمت في تعيين مكانه : وتنحصر في هذه الاخيرة ، المنكمشة وراء اسوارها، المهام الدينية او العسكرية ، ولا يقيم فيها بصورة عامة سوى رجال الاكليروس والجنود ؛ اما الضيعة وهي في البدء مكان مفتوح قائم خارج الاسوار، فتنتظم حول المكان المخصّص للاعمال التجارية (المرفأ، الساحة العامة) ، وهو في الغالب فسيح جداً تقام فيه سوق اسبوعية ؛ وتستطيل شوارعه، التي تحيط بها الفنادق وفاقاً لاتجاهات السير الرئيسية ؛ ثم ان بيوتها نفسها ، التي يطل الدور الاول فيها ، بباب عريض ، على الشارع الذي يكثر فيه المارة ، تعبر عن الغاية التي من اجلها احدثت المجموعة السكنية : فهي وليدة الطريق ، وهي بالتالي مكان مرور وتجارة .

ينتسب الرجال الذين أسسوها وتجمعوا فيها الى اوساط مختلفة . فالبعض منهم ، وهم قليلون في الارجح ، « دون جنسية » ، يدخلون في عداد التجار الجوالين المجهولي المنشأ الذين توقفوا فيها يوما وأسسوا عائلة . وينتسب شطر هام من السكان الى المدينة القديمة او الحصن او جواره : كالوكلاء ، وخدام الاسقف او حاكم الحصن او الدير ، وبعض فلاحي الضواحي السابقين ، الذين استهوتهم مكاسب التجارة فتركوا استثمارهم الزراعي وجمعوا بعض المال ببيع عقارهم وأسسوا عملاً . وينتسب معظم سكان الضيعة اخيراً الى الارياف المجاورة . الا انهم ، مهما كان منشأهم ، اندمجوا في طبقة اجتماعية واحدة ، البورجوازية ، التي اتضحت صورتها في منتصف القرن الحادي عشر ، وتميزت ، قبل أي شيء آخر ، بدور اقتصادي خاص : فأعضاؤها متخصصون في التجارة والصناعة اليدوية ، حتى ولو لم يتجردوا تماماً عن الارض او ما زالوا يجمعون بعض الحنطة والنبيذ من القطع التي يحتفظون بها في جوار الضيعة وحتى داخل نطاقها ، او حصلوا على استخدام المراعي السيدية (نسبة الى السيد) المجاورة لمواشيهم .

لذلك ليست الارض، شأنها في غير مكان ، الثروة الرئيسية في المدينة ، بل احتياطي الفضة،

سبائك او نقوداً ، والبضائع الثمينة المخزونة . ولذلك ايضاً تجمع الثروات في المدينة وتنهار بسرعة ، كما ان الرابطة العائلية اضعف منها في المجتمع الريفي لان النشاط المهني هنا وطبيعة الاملاك لا يخضعان للموجبات النسبية .

اذا كان المناخ الاقتصادي والاجتماعي مناخاً خاصاً جداً في الضيعة الكبرى ، فان تنظيم السلطة فيها مماثل في الاصل لتنظيم السلطة في الارياف . فكثيرون بين سكان القرية ، ممن ينحدرون من فلاحين مهاجرين لم يبتعدوا كثيراً عن قريتهم الوالدية كي يتملصوا من كافة روابطهم ، كانوا فداديين واتباعاً شخصيين لاحد الاسياد ، وكثيراً ما ازعجتهم الخدمات ، التي الزموا بها نحو سيد شخصهم ، في ممارسة مهنتهم . اضف الى ذلك ان الضيعة الجديدة قد قامت في الارياف ، والارض التي ارتفعت عليها المساكن تؤلف على العموم جزءاً من اقطاعات ريفية قديمة ، واسياد الارض يطالبون شاغلي هذه القطع بالاتاوات السابقة نفسها ، وبتقادم المواد الزراعية ، وحتى خدمات الحراثة . وخضعت المدينة كلها اخيراً الى حكم سيّد او عدّة اسياد ، وفرض اسقف المدينة ورئيس الدير وحاكم الحصن ، الذين استوفوا الرسوم نفسها المستوفاة في الاحياء الريفية من ممتلكاتهم ، الخدمة العسكرية اثناء تنظيم الاسواق وجبوا ضريبة القطع ، وكادوا ينتزعون من التجار رؤوس اموالهم ، ومارسوا اخيراً بعض الحقوق التي عرقلت اعمال المقايضة ، كامتياز الشراء بالدين ، وحق ارهاق التجار الغرباء ، وفرض الرسوم على الصفقات وانتقال البضائع . لذلك فان النظام السياسي في المدن لم يناسب دورها الاقتصادي . ولذلك ايضاً سوف يحاول سكان المدن الحصول من اسيادهم على تعديل نظام الحكم هذا مستخدمين بعض الاسلحة : احتياطي المعادن الثمينة الذي كدسوه والذي قد يغري من بيدهم السلطة ، وعادات التضامن المكتسبة في الجمعيات التجارية ، وتدربهم على خوض المعارك بقوة ، وقد حققوه في تجولاتهم التجارية ، ومثّل الجمعيات السلمية القائمة بين اعضاء طبقة الفرسان .

حركة التكتل البورجوازي

وفي سبيل تثبيت اقدامهم امام سيد السلطة ، اتحدوا في أغلب الاحيان ، اتحاداً اشد وثوقاً ، في هيئة جماعة تضم كل الفئات وكافة رؤساء العائلات في القرية : اعني بها جمعية البورجوازيين . قامت هذه الجمعية ، شأن الجمعيات التي تألفت للدفاع عن سلم الرب ، على يمين متبادلة ، واستهدفت ، في الدرجة الاولى ، المحافظة على الوفاق بين المتحالفين ؛ فالذين يعتدون على « سلم المدينة » يقعون تحت طائلة عقوبات صارمة تنفذها الجماعة بحضور كافة اعضائها . ووحّدت هذه الهيئة كذلك كافة النشاطات الفردية بغية القيام بعمل جماعي ضد اعداء الجمهور . فكانت من ثم جمعية منضبطة يشرف على ادارتها ، كما هو طبيعي ، اوسع الاعضاء نفوذاً في اعظم الفئات قوة ، أي فئة التجار ، بوجه عام ، التي تتوفر لديها اعظم الوسائل المالية .

برزت مقاومة البورجوازيات اولاً في المقاطعات الغربية حيث ساعدت الحركة التجارية المتميزة بمزيد من النشاط على نمو المدن المبكر ، أي في المنطقتين اللتين تأثرتا منذ العهد الكارولنجي

بنمو حركة المقايضات : ايطاليا اللومباردية حيث بذلت ، منذ النصف الاول من القرن الحادي عشر جهود التجار الاولى (وهم هنا حلفاء طبقة الاشراف التي ألفت في المدن الجنوبيـة أقوى عنصر بين مجموع السكان) للافلات من قوة السيد ؛ وشمالي فرنسا حيث تألفت الجمعيـات البورجوازية في « المان » في السنة ١٠٧٠ وفي كمبريه في السنة ١٠٧٧ ، ثم في بوفيه وكانتان ؛ وامتدت المقاومة شيئاً فشيئاً الى المدن المختلفة ، الصغرى منها والكبرى ، وافضت قبل السنة ١١٥٠ ، في معظم المراكز التجارية ، الى التخفيف من وطأة اقتسارات الحكام المزعجة . فرضي الاسياد ، تحت ضغط التمرد احياناً – في السنة ١١١٥ ، اقدم بورجوازيو « لان » على قتـل اسقفهم الذي رفض تخفيف مطالبه – وتحت تأثير مبلغ كبير من المـال غالباً ، واقتناعاً منهم بفوائد الاتفاق الذي يساعد على نمو المدينة ويؤدي في النهاية الى ارتفـاع عدد رعاياهم ، بمنح الجمعية البورجوازية دستوراً ، أي عقـداً خطياً ومذيلاً بالاختام ، يضمن « الحرية » او « الاعفاءات » ، أي تخفيض الرسوم .

تضمنت بنود دساتير الحريات في الدرجة الاولى ، وبصورة عامة ، وعداً لكافة سكان المدينة ، وبعد انقضاء فترة من الزمن تحدّد عادة بسنة ويوم ، لكل من يقصدها للاقامة فيها ، بالاستقلال الشخصي : فحلـّت بذلك كافة روابط القنانة والاستئثار التي كان من شأنها اخضاعهم وراثياً ، في السابق ، لرجل آخر – وزالت بالفعل نفسه الواجبـات المفروضة على الاتباع ، كزواج القنادي خارج الاراضي السيدية ، وحرمانه من التصرف باملاكه اذا لم يرزق اولاداً ، وحظر التنقل عليه . اضف الى ذلك ان العادات السيدية ، ان لم تلغ بكليتها (اذ غالباً مـا يحتفظ السيد ببعض الامتيازات وبعض المكاسب) ، فقـد انقصت انقاصاً عظيماً : فالخدمة العسكرية ، المطاقة على مضض ، لانهـا تعرقل التنقلات التجارية وقد ترغم على استعمال القوّة ضد الزبن والعملاء ، قد الغيت احياناً وتحدّدت ابداً ، واقتصرت صلاحية السيد القضائية ، على معاقبة الجرائم الفظيعة اذا تقدمت الضحايا بالشكوى ، وفقدت ضرائب القطع طابعها التعسفي ، والغيت بصورة خاصة كافة امتيازات السيد التجارية ، وكافة العراقيل المقامة في طريق الانتقال والتجارة والتردد بحرية على المعارض والاسواق .

كانت الجمعية البورجوازية ، بعد تحقيق هذه النتيجة ، تنتهي الى الانحلال في معظم الاحيان. فتصبح المدينة حرة آنذاك . ولكن غالباً ما يحدث ان يستمر التكتل البورجوازي حتى بعد احراز النصر وان يعترف بوجود الجمعية في الدستور ويوافق عليه . فتحصل جمعية البورجوازيين بالتالي على الشخصية القانونية وترث قسطاً من حقوق السيد الحاكم القديمة وتمسي سيادة جماعية : سيادة عسكرية ، اذ ان البورجوازيين ملزمون بحمل السلاح ، لاجل خدمة المدينة لا السيد ، ولأجل الدفاع عن مصالحها التجارية ولتأمين نجاح الجميع ؛ وسيادة قضائية ، اذ ان الصلاحية الاستثنائية التي حصلت عليها خلال النضال من اجل الحرية والتي يمارسها مندوبو التكتل ، قد حلت الآن محل سلطات القمع القديمة التي اقصاهـا الدستور عن المدينة ؛ وسيادة مالية اخيراً ،

فتتصرف بأموالها وتفرض الرسوم على كافة اعضاء الجماعة سواء كانت هـذه الرسوم مساهمات اقرت في السابق تدعيماً لمناهضة السيد ام عادات اقطاعية قديمة استردت بالشراء من المستفيدين منها . ويشترك كافة البورجوازيين على السواء في هذه السلطة الجماعية ويعقدون جمعيات عمومية ويتخذون القرارات الهامة متضامنين . الا ان ادارة الشؤون العادية والشؤون القضائية وادارة الاموال العمومية تسند الى هيئة مختصرة منبثقة بصورة عـامة عن الاوليغارشية التجارية ، اطلق عليها اسم المشيخة في البورجوازيات الشمالية واسم القنصلية في البورجوازيات الجنوبية .

وهكذا تكونت ، بين السنة ١٠٠٠ ومنتصف القرن الثاني عشر ، ونتيجة لنهضة التجارة ، وفي وسط العالم الريفي والمجتمع الاقطاعي ، اجسام غريبة هي المدن . اجل انها لا تزال صغيرة جداً وتكاد لا تضم سوى بعض المئات ، ونادراً بعض الالوف ، من البورجوازيين غـير ان ظهورها قد احدث تبديلات عميقة في الوسط الجاور . فقد شجع نمو المدن ، في الدرجة الاولى ، تسرب الاقتصاد النقدي الى الارياف . كانت المدينة التجـارية ، في البدء ، مخزناً تعرض فيه بصورة دائمة سلع مغرية غريبة عن الانتاج المحلي ؛ وكان هذا العرض يحرك في الطبقات الريفية ، اي الفلاحين ، ولا سيا في الاشراف وكبار اعضاء الاكليروس، رغبة في الانفـاق ، فلتجمع المدينة في خزائنها دراهم هؤلاء الناس ، اي فائض الثروة الناجم عن انتاج زراعي افضل . الا ان الاموال المنقولة ، المكدسة في المدينة ، توزع بدورها بعد ذلك: بالدين ، لان التجار يسلفون الريفيين ، زبنهم ، المال الذي يفتقرون اليه ، فتتكاثر القروض بالفائدة التي يمارسها اليهود بنوع خاص ، لان الربى محظر مبدئياً على المسيحيين ، والقروض لقاء رهونات عقارية التي تضع تحت تصرف الدائن الارض ومحاصيلها حتى تسديد الدين ؛ وبالشراء من اهالي المدن ايضاً : اذ ان المدينة مركز استهلاك ثابت لمحاصيل الحقول والمواد الغذائية (فالبورجوازي ، ولو كان نصف فلاح ، لا ينتج كل ما يؤمن غذاءه) والمواد التي تستعملهـا الصناعة المدنية كالصوف والخشب والجلد . فساعد وجود المدينة على طبع حركة التداول النقدي بالسرعة واستعجـل التطور الداخلي للاقتصاد الريفي والاقدام تدريجياً على تأسيس المشاريع الزراعية .

اضف الى ذلك ان المحاولات البورجوازية للفوز بالاعفاءات قـد قلبت التوازن السياسي قلباً اعتبره المعاصرون مشيناً . فهـا قد برزت في قلب التنظيم الاقطاعي ، المبني على الاباء والتسلسل ، سيادات لا هي بالنبيلة ولا هي بالديلية ، واحلاف تربط المتساوين ؛ وهـا قد جاء تأليف فئة اجتماعية جديدة، الطبقة البورجوازية ، المتميزة بدورها الاقتصادي الخاص وبنظامها القانوني الممتاز ، اي الحرية الشخصية ، يدخل البلبلة في نظام « الطبقات » القديمة وفي التسلسل التقليدي في توزع الثروات ، اذ ان العمال قد نزعوا ، عن طريق التجارة ، الى ان يمسوا اعظم ثروة من الفرسان . وهكذا فسان المدينة — الحديثة ، التي كانت ملجأ للمستثمَرين الفارين من اسيادهم الذين ينضمون ، بعد مرور سنة ، الى الجماعة البورجوازية ، وعبرة لسكان القرى الذين بدأوا بدورهم ، بعـد سكان المدن بنصف قرن تقريباً ، يطالبون اسيادهم بتحديد العادات

الاقطاعية وتخفيفها ، قد غدت جرثومة تفكيك في قلب العالم الاقطاعي . بيد ان نهضة المدن والازدهار التجاري قد شكلا موقتاً ، وحتى اواخر القرن الثاني عشر ، عوامل توسع قوية كانت الطبقات المسيطرة ، اي الفرسان والاكليروس ، اول من افاد منها .

٣ ـ التوسع العسكري

أدى ارتفاع عدد سكان الارياف الفلاحين الى اتساع الاراضي الزراعية وانشاء قرى جديدة والى نمو المدن؛ وأدت الظاهرة نفسها الى تنمية روح المغامرة في الارستوقراطية. فاستهوت المشاريع العسكرية أبناء العائلات الشريفة ، الذين ارتفع عددهم ايضاً ، بتأثير من ميولهم والتربية التي خضعوا لها ، لا سيما وانهم كانوا يبحثون عن موارد اضافية ؛ ولما كانت نظم السلم والقانون الاقطاعي والروابط المختلفة التي تشدهم الى كافة جيرانهم تقصر على جوار مسكنهم ظروف ومكاسب الحرب، فقد قرروا القيام بحملات عسكرية بعيدة. وهكذا كان ارتفاع كثافة السكان منطلقاً لتوسع طبقة فرسان البر ، وبخاصة طبقة فرسان « الفرنجة » والارستوقراطية العلمانية في المقاطعة الكائنة بين نهري « اللوار » والرين . ولكن نجاح هذه المشاريع يفسره كذلك تحسن تقنيات الحرب المعتمدة لدى المحاربين المسيحيين .

تقنيات الحرب

يعود اهم هذه النجاحات الى استخدام الحصان في المعركة استخداماً متزايداً ؛ ويرتبط هذا النجاح من ثم بتحسين عدة الخيول ، ولا سيما باعتماد الركاب وتقدم تربية الجياد ، وبالتالي بتقدم التقنيات الزراعية وانتشار دورة استراحة الارض كل ثلاث سنوات وزراعة القرطمان . ومهما يكن من الامر ، فان المحارب الجدير بهذا الاسم ، في القرن الحادي عشر ، هو فارس كما نعلم . فنتج عن ذلك ، في الدرجة الاولى ، ان المحارب استطاع ، لانه فارس ، حمل اسلحة دفاعية اثقل وزناً ، وبالتالي اشد متانة وفعالية. وفي الواقع تحسنت الاسلحة تدريجياً منذ العهد الكارولنجي. وقد تألفت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، كما يمكننا مشاهدة ذلك في الرسوم المطرزة على « فروش » « بايو » التي تصف حملة غليوم الفاتح على انكلترا ، من عناصر ثلاثة : الخوذة المعدنية الطويلة التي تتمّمها الى الامام قطعة مسطحة (الانف) تقي مقدمة الوجه،والدرع الطويل الذي يقي الجسم من الذقن حتى الركبتين، وهو مصنوع من جلد تغطيه صفائح معدنية صغيرة ، او محبوك بكليته بالزرود المعدنية ، وهي طريقة اخذت بالانتشار تدريجياً، والترس الجلدي الكبير اخيرا ، وكان شكله اما مستديراً واما ثلاثي الزوايا . وكانت هذه الوقاية المتقنة باهظة الاكلاف (ولتحسن التسلح ، كما نرى ، علاقة مباشرة بتقدم صناعة الحديد وبزيادة الدخل السيدي الذي يتيح للنبيل تكريس مزيد من المال لعدته) ؛ الا انها تجعل الفارس ، عملياً ، بمأمن من اسلحة القذف ، أي الحراب وسهام القوس الصغيرة،التي لا يمكن ان تؤذي سوى رَكوبته. ولذلك فقد تبدلت أساليب خوض المعركة ايضاً.

ليس بعد اليوم من هجوم ينطلق من مسافة طويلة ؛ لقد ترك استعمال القذائف للمشاة الذين غدا دورهم ثانوياً ، فكلفوا مهمة تأخير اقتراب الاعداء فقط ؛ اما الجنود الحقيقيون ، فانهم يتبارون الآن بالمصارعة وجهاً لوجه . اجل قد يقوم الجنود بالهجوم راجلين احياناً ، — اذ ان الحصان ، الذي يستخدم للنقـــل فقط ، يُترك حين يصطدم المتصارعون — ولكن الاسلحة الهجومية ايضاً غدت آنذاك اثقل وزناً ، كي تتيح فري الخوذ وتمزيق الدروع : وهذه الاسلحة هي الفؤوس او الرماح الكبيرة التي تستعمل بالذراعين . الا ان التبدل الحاسم بنوع خاص كان ان المرحلة الفاصلة في المعركة غدت ، شيئاً فشيئاً ، تصادماً بين الفرسان . واعطت الركابُ الفارسَ مزيداً من التوازن واتاحت له نهج خطة هجومية جديدة : يمسك الترس باحدى يديه والرمح الطويل بالاخرى ويحمل على عدوّه بسرعة عدو حصانه ويحاول قلبه عن السرج . فيكفي ان يلقى على الارض بعنف فارسٌ متلبك بعدّة ثقيلة حتى يصبح مؤقتاً عاجزاً عن القتال ؛ لذلك ، وبسبب الضمانة الكبرى التي توفرها للمحارب اسباب وقايته المعدنية المعززة ، تبدل الهدف من الاصطدام تدريجياً : فلم يعد القصد قتل العدو بـــل اسره وقبض فديته . واكتمل التطور في السنوات الاولى من القرن الثاني عشر ، فقامت المعركة حينـذاك بسلسلة من الهجمات المتعاقبة يقوم بها فرسان ثقيلو العدّة ولا يمكن مقاومتها اذا لم يمارس الاعداء التقنيات نفسهـــا ويجهزوا باسباب الوقاية نفسها . وقد اضيفت الى تحسن الادوات والاساليب العسكرية تربية استهدفت، بكليتها ، تنمية الجسم واتقان فن الفروسية ، وطراز حياة كانت افضل تسلياته التمارين العنيفة والالعـــاب الحربية ، وذهنية تحل ، فوق كافة الفضائل ، الشجاعة الجسدية والغيرة على رفاق السلاح ، وذلـــك رغبة في توطيد تفوق الفارس الفرنجي ، انطلاقاً من السنة ١٠٠٠ ، على كافة المحاربين المتهنين الآخرين .

نورمنديو انكلترا وايطاليا

منذ اوائل القرن الحادي عشر انطلق المغامرون الاولون المسعودون من ضفاف السين في نورمنديا ، حيث استمرت تقاليد « الفيكنغ » الحربية ، وحيث ارغم النظـــام الدوقي الصارم معكري صفو الامن على الانتزاح عن بلادهم . وكان اهم احداث التوسع النورمندي نتيجة اقـــدام غليوم الفاتح في السنة ١٠٦٦ ، على رأس زمرة من المحاربين المحشودين من املاكه ، ومن بريطانيا وفلاندر ايضاً ، على الاستيلاء عـــلى مملكة انكلترا . فاقصيت المناطق الانكلوساكسونية ، منـــذ ذاك الحين ، عن النفوذ السكنديناڤي وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحضارة غاليا الشمالية . ولا ريب في ان عناصر الثقافة المحلية ، المنحدرة الى مستوى التقاليد الشعبية ، قـــد حافظت على نشاطها ، بينما ارسخت الطبقات المسيطرة لغة اليابسة وعاداتهـــا الاجتماعية وطرق تفكيرها . وانضمت العادات الاقطاعية المستوردة الى النظم الصارمة التي خضعت لها الجماعات الساكسونية لتجعل من ملك انكلترا اقوى اسياد اوروبا في عهده .

سبق لنورمنديين كثيرين ، في عهـــد الفتح الانكليزي ، ان ذهبوا يبحثون عن الثروة في

اقاصي التخوم الجنوبية للمسيحية اللاتينية . فاكرى القسم الاكبر منهم خدماتهم العسكرية ، في جنوبي شبه الجزيرة الايطالية حيث تجابهت سيطرات مختلفة ، وحيث كان اصحاب الدوقيات اللومباردية في الأبنين والحكام البيزنطيون في الساحل والمدن التجارية والعرب اخيراً الذين كانوا قد استولوا على صقليا يتصارعون باستمرار . فاستخدم هؤلاء الجنود الاقوياء بسهولة واستدعوا اخوتهم وابناء اعمامهم الذين كانوا يعيشون حياة حقيرة في قصور الاسياد العاجة بالاولاد . وهكذا فان احد هؤلاء المرتزقة المدعو روبير غيسكار ، وهو رئيس فرقة عسكرية تجمعها روابط النسب والاقطاعية ، قد انجز عملاً مدهشاً : اذ انه قد اقتطع بسيفه في كالابريا ، و « بُويّ » ، دولة عاد واستلمها اقطاعة من البابا في السنة ١٠٥٩ ، ثم سار قدماً في فتوحاته على باري ، في السنة ١٠٧١ وطرد الاغريق طرداً نهائياً من ايطاليا الجنوبية ، وانتزع ، في الوقت نفسه ، وبمساعدة اخيه روجيه ، صقليا من المسلمين قطعة قطعة ، وخضعت له باليرمو في السنة ١٠٨٢ ، وحين اصبح حماً لامبراطور القسطنطينية خطر له التوسع في إليريا ، فاحتل دورازو وكورفو .

احرز بذلك في نقطة تلاقي العوالم المتوسطية الثلاثة ، اللاتيني والبيزنطي والعربي ، اول تقدم حققته المسيحية الغربية ، وتأسست دولة جديدة اقطاعية الهيكل في اجهزتها العليا على غرار نورمنديا ، على ان ملكها ، كما في انكلترا ، قد تمتع بحقوق واسعة جداً على السكان الذين اخضعهم الفتح ، وافاد ، بالاضافة الى ذلك ، من موارد جبائية وافرة تضمن له خدمات عملاء مخلصين . فان صقليا ، وهي ملتقى لغات واديان وحضارات ، كانت ايضاً ميناء على الطرقات البحرية الكبرى تتمون فيه البواخر وسوق ذهب وتجارة كبرى . فمن هذه الزاوية الاخيرة ، كان احتلال الجزيرة من قبل المسيحيين وضمها الى ملكية ثابتة الاركان حدثاً ذا أهمية عظمى للغرب بأكمله ؛ وقد أفضى ذلك فعلاً الى الحد من نشاط القراصنة بصورة محسوسة ؛ وتوفرت كذلك محطة امينة للبواخر المسيحية التي استطاعت بلوغ مرافىء الشرق بمزيد من السهولة . ورفع الحصار عن حوض المتوسط الغربي ؛ فلم تعد البندقية والادرياتيك الطرق الهامة للتجارة مع الشرق ، واتيح للنشاط التجاري الامتداد الى شواطىء كاتالونيا ، ولنغدوك ، وبروفنسا ، وكلها قطاعات لا يزال قراصنة الباليار المسلمون يضايقونها – بينما احتلت بيزا ، وجنوى ، على شواطىء البحر التيريني الايطالية ، محل امالفي التي استطاعت بمفردها حتى ذاك العهد ، بموجب اتفاق مع عرب صقليا ، اجتياز مضيق مسينا ، والتوجه ببواخرها التجارية شطر الشرق .

الحرب الاستردادية والحروب الصليبية

امست شبه الجزيرة الايبيرية جبهة اخرى لاسترداد فتوحات غير المؤمنين ، فاستقبل رؤساء الدول المسيحية الصغيرة في الجبال الشمالية ، اي كاتالونيا والاراغون قشتالة ، بدورهم ، فرساناً من الفرنجة ، والنورمنديين ايضاً ، ولا سيا البورغونيين والشمبانيين . واستطاعوا بفضل هذه النجدات القيام بغزوات فصلية على مناطق الاحتلال الاسلامية المستضعفة : غارات نهب مفاجئة اولاً ، ثم

حملات فتح اكسبت المسيحية ، شيئاً فشيئاً ، طرائد فتحت امـــام الاستعمار الريفي والمدني وتكون في اسبانيا ، ابان هذه المعارك المثمرة ، شعور جديد هو تعبير عن القوة التوسعية الفتية لدى الفرسان الغربيين : فكرة الحرب المقدسة كعمل تقوي يؤمن الخلاص . اما هذا الشعور ، الذي ستعبر عنه وتنبئه الاغاني الايمائية ، فقـــد استغله ووجّهه المشرفون على ادارة الكنيسة . ففي السنة ١٠٦٣ ، اعدّت ، باتجـــاه وادي الايبر ، اولى الحملات العسكرية المنظمة على غير المؤمنين ، وقـــد حصل المشاركون فيها على ضمانة بسلامة ممتلكاتهم وعائلاتهم ونيل بعض الغفرانات والفوائد الروحية . وقد قابل بطء النجاحات البيريلية هذه — اذ ان ساراغوسا لن تسقط الا في السنة ١١١٨ — الانتصارات الصاعقة التي حققهـــا فردينان الاول ملك قشتاله : فهو قد دخل كوامبر منذ السنة ١٠٧٤ وفرض الجزية على معظم الامـــارات الاسلامية في شبه الجزيرة ؛ واحتل ابنه مدينة طليطلة في السنة ١٠٨٥ . ثم اضطر المسيحيون بعد ذلك لفترة من الزمن الى التراجع امام « المرابطين » الآتين من افريقيا ، ولكنهم مـــا لبثوا ان استعادوا الاراضي التي تخلوا عنها ، وغالبا ما حالف الحظ الصراع ضد غير المؤمنين ، وهو صراع لن يعرف بعد ذاك التاريخ توقفاً طويل الامد .

اختلفت الحرب الصليبية ، بمفهومها الحصري ، عن الحرب المقدسة التي خيضت ضد الاسلام ، بتفاصيل بسيطة : فالمحاربون المسيحيون تجندوا في مشروع اشترك الكرسي الرسولي في ادارته ، وتسلّموا شارة مميزة رمز الفداء نفسه ، وحصلوا على امتيازات واسعة ومحدّدة بدقة ، وعين لهم هدف اعظم تهويساً من استعادة هضاب قشتاله ، اعني به انقاذ قبر المسيح . منذ ان انتشرت ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، عادة القيام بالحج ، تزايد السفر الى الارض المقدسة لانه اعتبر اعظم الممارسات نفعاً للخلاص الابدي ، وقلمـــا ضايقه العرب ، الذين كانوا متساهلين جداً ، كما يبدو من جهة ثانية ان الغزو التركي لم يجعل الدخول الى معابد فلسطين اكثر صعوبة . الا ان فرسان الغرب ، وقد تمكنت منهم فكرة الحرب المقدسة ، اخذوا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، يؤدون فريضة الحج ، جماعات صغيرة مسلحة ؛ كما اخذوا بعد عودتهم ، يبسطون شعورهم بأن الفتح ليس امراً مستحيلاً ، ويصفون في الوقت نفسه ثروات الشرق الطائلة . وجاء الاندفاع التركي اخيراً يهدد بيزنطية آنذاك تهديداً جدياً خطيراً ، ففكر الغرب بوجوب وقاية المسيحية من جهة الشرق . استفاد البابا اوربانوس الثاني من هذا الجو الملائم ودعا كافة المسيحيين المتهيئين الخدمة العسكرية والحاملـــين شارة الصليب ، الى الذهاب بأسلحتهم الى القدس ؟ فصادفت دعوته ، في وقت قصير ، نجاحاً منقطع النظير قلب المخطط البابوي الذي كان متواضعاً في البداية . ففي كافة مناطق المسيحية اللاتينية ، لبى الفرسان هذه الدعوة بحماس . وهكذا ابتدأت عملية معدة لأن تدوم أكثر من قرنين سيساور الحنين اليهـــا عقول النبلاء حتى فجر العهد المعاصر . اعدت الحرب الصليبية الاولى على مهل وبالتفصيل : تنطلق اربعة طوابير مسلحة وتسلك طرقاً مختلفة وتلتقي امام القسطنطينية . ليس هنـــاك من ملوك ، لأن هؤلاء لم يتمتعوا آنذاك بسلطة

فعلية ؛ ولكن أكثر المحاربين عدداً وثباتاً ، اولئك الذين أفلحوا اخيراً في الاستيلاء على اورشليم في ١٥ تموز من السنة ١٠٩٩ ، انطلقوا من المناطق الفرنجية القديمة .

تنظم في الارض المقدسة بعد ذلك شبه مخفر امامي بعيد للاقطاعية الغربية . الا ان هذا الصرح السياسي كان في الواقع ركيكاً : اذ ان السيطرة « الفرنجية » لم تتخط سواحل الشرق قط ، ولأنها لم تبلغ قط في الشمال ، حيث حققت أقصى اتساعها بامتدادها حتى الرها بموازاة كيليكيا ، الصحراء التي كان من شأنها ان تكوّن لهذه السيطرة حدوداً داخلية على بعض القوة؛ فالاسلام ما زال راسخ القدم في دمشق وفي حلب ، وهو ينوء بثقل وزنه على هذه الطريدة الساحلية . وكان ركيكاً في تركيبه الداخلي ايضاً : فهي العادات الاقطاعية الغربية ، المنقولة الى الشرق نقلاً صنعياً ، ما استخدم هيكلاً اوحد لكيان سياسي لم يوجده رئيس زمرة — كما في الدولة الصقلية او المملكة الانكلو – نورمندية – بل حكام حصون وفرسان اتحدوا على قدم المساواة في جمعية مؤقتة لتأدية فريضة الحج وخوض غمار المعركة . اجل لقد قامت هناك مملكة كانت اجهزتها في البدء اعظم فعالية مما تبدو في الابحاث التي وضعها رجال القانون الاقطاعيون في القرن الثالث عشر : فملوك اورشليم هم الوحيدون ، مع ملوك انكلترا ، الذين استطاعوا ، في منتصف القرن الثاني عشر ، الحصول على الخدمة المباشرة من اصحاب اخاذات لا يرتبطون بهم مباشرة ، والوحيدون ايضاً الذين لم تكن الخدمة العسكرية ، بالنسبة لهم ، محددة في الزمان. ولكن هذه المملكة لم تمارس الرقابة على امارات الرها وانطاكية وطرابلس التي تأسست ، ابان تقدم الصليبيين ، بمبادهات مستقلة ، فلم يستطع الملك من ثم تحقيق وحدة القوى الضرورية للذود عن حدود تحيق بها الاخطار المداهمة . وكان ركيكاً ، بالاضافة الى ذلك ، لأن الصليبيين ، على نقيض المرتزقة في كالابريا ، او رفاق غليوم الفاتح ، لم يقصدوا اقتطاع سيادة وراء البحار والاستقرار فيها. فهم قد تعهدوا بانقاذ اورشليم بحراستها حراسة مستمرة ، وقد عاد معظمهم الى بيوتهم بعد بلوغ امنيتهم ونيل الغفرانات . ولهذا السبب لم تكن الدول الفرنجية في الشرق مستعمرات معدة للاسكان . اجل استقرت بعض عائلات الفرسان وبعض الشركات التجارية في بعض الحصون المتشتتة وبعض المراكز التجارية ؛ ولكن الغربيين بقوا أقلية ضئيلة في وسط سكان البلاد .

بيد ان المؤسسات اللاتينية في شواطىء المتوسط الشرقية قد طال بقاؤها . ويعود ذلك في الدرجة الاولى الى ان الاسلام كان مستضعفاً جداً ؛ ويعود ايضاً الى ان مشروع الحرب الصليبية ، خلال القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر – على نقيض ما تحملنا الارقام التسلسلية التي نسبها المؤرخون في الماضي الى اعظم الحملات اهمية على الاعتقاد به – هو في الواقع مشروع دائم : ففي كل سنة نذور جديدة ، وفي كل ربيع يتوجه شطر من الفرسان الاوروبيين الى ما وراء البحار ويقضون في الارض المقدسة بضعة اشهر ، وبضع سنوات احياناً ، فيوفرون لمنظمي الدفاع جنوداً قد يكونون اقل خبرة وتدريباً ولكنهم اشد همة وحماساً من جيش الاقطاعيين المحلّيين

يفسحون المجال بعد تأدية خدمتهم للمسيحية ، لافواج اخرى من المجندين ؛ فتكونت بذلك حركة دائمة ذهاباً واياباً. زد على ذلك ان جمعيات دينية جديدة قد تأسست وخصصت لهذ النوع الجديد من التقوى ، الذي هو الحرب المقدسة ؛ فقد كان في الوقت نفسه رهباناً وجنوداً فرسان المعبـــد الذين وضع قانونهم في السنة ١١٢٨ ، وفرسان مستشفى اورشليم ، والفرســان التوتونيون ، وقد اسندت اليهم مهمة استقبــال حجاج الارض المقدسة وحمايتهم ضد غـــير المؤمنين ؛ ولم تلبث فروع اخوياتهم ان انتشرت في كافة المناطق المسيحية وجندت صليبيين جدداً وجمعت الاحسانات ممن تعذر عليهم وفاء نذورهم فابدلوها بالمال واستخدموها للدفاع عن المؤسسات الصليبية في المشرق ؛ وان الحاميات الدائمة التي تعهدتها هذه الاخويات في الحصون الضخمة المجهزة خير تجهيز والقائمة عند تخوم العالم الاسلامي ، قد اسهمت اسهاماً فعالاً ، على الرغم من المنافسات التي قامت بين الجمعيات ، في اطالة وجود الامارات المسيحية . اجل لقد انكمشت هذه الامارات شيئاً فشيئاً : فقد فقدت الرها في السنة ١١٤٤ ؛ وسقطت اورشليم في السنة ١١٨٧ . ولكن المنطقة السـاحلية صمدت ، واذا كان الفرنجة قد انكفؤا امام الاسلام ، فانهم اخذوا ، في اواخر القرن الثاني عشر ، يستعيضون عن خسارتهم ببعض اراضي بيزنطية . فهم قد استفادوا من تفوقهم العسكري ، واغرتهم ثروات المدن اليونانية ، وغاب عن بصرهم الهدف الديني للحملات الاولى الى ما وراء البحار ، فاستولوا على قبرص في السنة ١١٩١ ، ودخلوا القسطنطينية ونهبوها في السنة ١٢٠٤ واسسوا فيهـــا امبراطورية سريعة الزوال ووطدوا اقدامهم لبعض الوقت في الموريه . وهكـــذا فان الروابط بالمتوسط الشرقي لم تحلّ قط ، بل اشتدت تدريجياً .

كان لهذه الاتصالات المتمادية اثرها الكبير في تطور الحضارة الاوروبية . فنادرة هي عائلات الفرسان في فرنسا او انكلترا او جنوبي المانيا التي لم يشترك عضو من اعضائها على الاقـــل في الاسفار الى اسبانيا او الارض المقدسة او اليونان ؛ وقد غدت الحرب الصليبية تقليداً في بعض العائلات الثرية ، يشترك فيها مداورة جميع الذكور الذين يحترفون الجندية ، وما ان يعودوا حتى يبحثوا عن سبب للسفر مرة اخرى . لذلك فن الحرب المقدسة والتنقلات البعيدة التي اوجبتها ، قد ادت ، في الدرجة الاولى ، الى تخفيف نتائج ارتفاع عدد السكان في الارستوقراطية العلمانية ، وحدّت من ظروف الفوضى والصعوبات الاقتصادية التي كان من المحتمل ان يحدثها ، لولا هـــذه الحروب ، تزايد سريع في عدد اعضاء طبقة المحاربين المحترفين .

اضف الى ذلك ان هذه المشاريع العسكرية قد ساعدت الى حد بعيد على اثراء الغرب مادياً وعلى انطلاقة تجارته البحرية . الا ان هذا القول لا يصح في الحملات الصليبية التي وقفت ، بمفهومها الحصري ، ولو بصورة متقطعة ، موقفاً عدائياً حيال غير المؤمنين فعرقلت بذلك بعض الاعمال التجارية ، كما يصح في الحملات الايبيرية ، ولا سيما في عمليات استعادة صقليا كما سبقت الاشارة الى ذلك . ومهما يكن من الامر ، فان مجرد الحاجة الى نقل طوابير الحجاج المتزايدين باطراد قد بعث ، في كافة موانىء المتوسط اللاتينية ، حركة بناء السفن ونشاطات الملاحة ، فدرت رسوم

المرور ارباحاً هامة على مجهزي السفن والبحارة الذين وظفوا رؤوس الاموال المجموعة في مشاريع تجارية وملأوا سفنهم الفارغة ، في موانىء التموين ، بالمنتوجات الشرقية ، كالتوابل ، وحجر الشب ، والمصنوعات البذخية التي يمكن بيعها بأسعار مرتفعة في اوروبا ، وقدموا احياناً ، على الرغم من التحريمات البابوية ، الارقاء والاسلحة المهربة للمسلمين . فازداد بسرعة كلية ، بفضل هذه التجارة المتواصلة احتياطي المعادن الثمينة في المدن البحرية ، ولا سيما في ايطاليا ، فعوّض تكديس الثروات المنقولة عن تخلف البلدان المسيحية المتوسطية في حقل الانتاج الزراعي . وكان ذلك نقطة انطلاق توسع التجارة الجنوبية التي كانت بوادرها أسرع ظهوراً منها في سواحل البحر الشمالي .

ان تجار البحر في برشلونا ومرسيليا ، وبخاصة في بيزا وجنوى والبندقية ، الذين مارسوا ، منذ الحملة الصليبية الاولى ، بعض اشكال الشراكة المالية ، كالشركات العائلية او شركات التوصية ، المؤسسة لسفرة واحدة او لسلسلة عمليات ، وفي ذلك دليل واضح على تقدم البورجوازيات الايطالية ، قد اسهموا اسهاماً ناشطاً في الحملات الحربية المشنونة على المسلمين والبيزنطيين ؛ فحصلوا بالمقابلة ، في افضل المواقع التجارية من البلدان المحتلة ، على امتيازات اقليمية ، «فنادق» هي مستعمرات تجارية صغيرة ومراكز اعمال ومضاربات اسهمت مكاسبها في اثراء القرى الغربية التي انتسب التجار اليها . وتذكّر احياء التجارة هذه ، القائمة في المدن الاجنبية ، تذكيراً غريباً بالمراكز التي شغلها التجار السوريون في مدن غاليا واسبانيا في اوائل القرون الوسطى ؛ فنرى والحالة هذه ان وضع المسيحية اللاتينية قد انقلب كلياً ، من الناحية الاقتصادية ، بالنسبة الى الشرق : فهم التجار الايطاليون والكاتالونيون والبروفنسيون من يستلم الآن زمام التجارة في سواحل المتوسط الآسيوية والافريقية ، ويجني الارباح .

افضت الحملات الصليبية بسرعة اخيراً ، باقامة الروابط المتينة مع البلدان المتقدمة ثقافياً ، الى تهذيب اخلاق الفرسان ، ونشر استعمال الطرائق والسلع الغريبة ، وادخال التقنيات الجديدة — وهكذا فان تقنيات التحصين التي نقلها الصليبيون الى الشرق تحسنت فيه خلال القرن الثاني عشر ، فافادت اوروبا ، بالمقابلة ، بعد ذلك ، من هذه التحسينات — واطلاع رجال الفكر على بعض مظاهر العلم والفلسفة والفن والادب في العالمين العربي واليوناني : فجاءت هذه الاشكال والمفاهيم والطرائق والعادات ، التي حصل عليها احياناً في امارات فلسطين وخصوصاً في ايطاليا الجنوبية او على جبهة القتال في شبه الجزيرة الايبيرية ، وانتشرت بفضل العائدين من الحج ، تنمي التراث الثقافي في اوروبا المسيحية . ودفع كل ذلك الى الامام بالنهضة الروحية ، التي مهد لها العهد الكارولنجي ، فتواصلت ببطء وعلى غير انتظام ، يساعدها آنذاك اليسار العام وازدياد الاتصالات وسرعة المقايضات على اختلاف انواعها .

٤ ـــ النهضة الروحية : تطهير الكنيسة

لما كانت الكنيسة قد احتفظت في الغرب ، حتى في القرن الحادي عشر ، بامتياز التعليم ، ارتبط تقدم الثقافة والنشاطات الفكرية ارتباطاً مباشراً بوضع الاجهزة الكنسية . اجـل لقد تحسنت هذه الحالة منـذ اوائل القرن العاشر ، ولكن النتائج الاولى تناولت الكنيسة النظامية اولاً ؛ واذا سارت الحيـاة الرهبانية ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، في طريق التطهير بتأثير انتشار العادات الكلونية ، بنوع خاص ، فان الكنيسة العلمانية ، على نقيض ذلك ، ما زالت تعاني من النقائص الخطيرة نفسها التي تألمت منهـا المؤسسات الرهبانية ، لا بل من نقائص اعمق تأصلا ، لان افراد اكليروسها اكثر اختلاطاً بالعالم واكثر تعرّضاً بالتالي لفساده .

فساد الاخلاق والاتجار بالقدسيات

اما هذه المعايب فهي ، على حدّ تعبير اولئك الذين اشهروها وشكوا منها آنذاك ، « النقولاوية » اي فساد الاخلاق — فقد عاش معظم الكهنة العلمانيين ، في كافة درجات التسلسل الكهنوتي ، عيشة العلمانيين ، وحملوا الاسلحة ولم يحترموا قانون التبتل — والسيمونية ، اي الاتجار بالقدسيات ، والمقصود بذلك ، بصورة عامة ، الرغبة في الربح ، وبالتحديد ، الاتجار بالاسرار المقدسة وبيع الوظائف الدينية بالمزاد . ولهذين العيبين سبب واحـد عميق : هو الدور الذي لعبه العلمانيون في توزيع المهام الكنسية . فالكنائس ، كل الكنائس ، هي في الواقع تحت سلطة العلمانيين . وكنائس الرعايا الريفية هي ملك العائلات الشريفة التي ورثت مؤسسي المعبد واعتبرت من حقهـا استثماره على غرار املاكها الاخرى والتي لم تستحلّ كافة مداخيل المذبح فحسب ، بل عينت خدامه من بين اتباعها واختارتهم بين اوضع الناس مرتبة حتى يكونوا اسلسهم انقياداً . اما الاساقفة ورؤساء الاديرة فقد عينهم الملوك او بعض الامراء الذين استأثروا بالصلاحيات الملكية . لذلك ، وبتأثير من المفاهيم الاقطاعية ، كانت الوظيفة الدينية ، والسلطات والمكاسب المرتبطة بها ، — لا سيما الانعام العقاري ، كالسيادة الاسقفية او الاقطاعة الكهنوتية ، وهو ملازم لكل خدمة دينية — في نظر المعاصرين ، بمثابة استثمار يعود للسيد العلماني الذي يسلمه لرجل الكنيسة بمعاملة تقليد رمزية ، ثم يؤول اليه ، على غرار الاقطاعة عنـد وفاة صاحبها ، حين يصبح المركز شاغراً . ليس من الصعب رؤية نتائج هذا الوضع : فمن جهة ، حمل التقارب الذي حصل في الاذهان بين الوظائف الكنسية والاستثمارات الاقطاعية ، على عدم التمييز بين اخلاص التابع الاقطاعي والعلاقة التي تربط خادم الكنيسة بسيدها ؛ وهـذا لعمري تمثيل خطر لانه قد يعني اخضاع السلطات الروحية الى السلطات الزمنية . ومن جهة ثانية ، ونحن هنا امام واقع خطير آخر ، لم ينظر الاسياد العلمانيون ، حين توجب عليهم الاختيار بين المرشحين لاحد المناصب الدينية ، الى صفاتهم الادبية ، نظرتهم الى الخدمات التي قد يؤديها المختار لهم ، وحتى الى الهدية التي سيقدمها لهم : وهكذا فان عدداً من ملوك القرن الحادي عشر ، من امثال فيليب الاول ملك فرنسا او

معاصره غليوم الاشقر ملك انكلترا ، وجدوا في الاتجـــار بالمناصب الاسقفية وسيلة لزيادة مواردهم النقدية القليلة زيادة مهمة جوهرية . فافضت هذه الطريقة الى فساد الاختيار : اقصي المرشحون المثقفون المشهورون بحياتهم المثالية ، وانتخب الدساسون ، ابناء العائلات النبيلة من طلاب الوظائف ، الذين فكروا قبل اي شيء آخر ، حين جمعوا كل كسب ممكن من وظيفتهم ، باستعادة ثمن انتخابهم ، والذين لم يهتموا اطلاقا للتوفيق بين اخلاقهم وموجبـــات رسالتهم الراعوية . ذاك هو الشر الاساسي الذي غدا استئصاله امراً واجباً . لقد سبق وواجه مصلحو الحياة الرهبانية ، في الماضي ، معضلة مماثلة : فحلت ، لا سيما في كلوني ، بمنع كل تدخل علماني في الشؤون الدينية ولا سيما في ملء المناصب الشاغرة . فتحت تأثير الرهبان الذين كانوا ، لا سيما في « اللورين » ، على علاقة مباشرة باكليروس الكنائس المركزية ، والذين توصـل بعضهم الى الوظائف الاسقفية ، قامت حركة لاجل حرية الانتخابات العلمانية وتسربت تدريجياً الى العالم الكنسي . سقطت الكنيسة ، منذ وفاة اوتون الثالث تحت سيطرة الارستوقراطية الرومانية . الا انها انقذت مرّة اخرى من الفساد المحلي ، بعد السنة ١٠٤٦ ، بفضـــل الامبراطور هنري الثالث الذي عين في الادارة البابوية العديد من الكهنة اللوتارنجيين ، المتحلين بقيم اخـــلاقية سامية ، والمتأثرين الى حد بعيد بالتيار الصوفي اللوريني ، والضليعين في دراسة الحق القانوني ، والعارفين بالعيوب التي تألمت منها الكنيسة . فانتهت الروح الاصلاحيـــة الى الكرسي الرسولي ، واتسمت فيه ،بواسطة بعض الرجال المتصلبين ، من امثال الكردينال «هومبيردي موياثموتيه» بطابع اشد تنظيماً . وانيط بروما ، منذ ذاك الوقت ، تنسيق الجهود المبذولة هنـــا وهناك لانقاذ الكنيسة العلمانية من التأثيرات الزمنية المفسدة ؛ فكان ذلك بداية تنظيم عـام سيتتابع طيلة نصف قرن ونيف ، وقـــد درج التقليد على تسميته بالاصلاح الغريغوري نسبة للبابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) ، احد أهم باعثيه .

الاصلاح الغريغوري

كانت نتيجته الاولى تعظيم مركز الكنيسة الرومانية . فان اولوية الكرسي الرسولي ، التي سبق واوضحت واثبتت في ايام الانحطـــاط الكارولنجي في المجموعات القانونية المعروفة خطأ بالايزودورية اعيد ايضاحها واعلنت بمزيد من القوة في منتصف القرن الحادي عشر . وفي الوقت نفسه (١٠٥٤) الذي انفصلت فيـــه الكنيسة الغربية انفصالاً نهائياً عن الكنيسة البيزنطية ، اخذت تظهر بمظهر هيئة تسيطر عليها ادارة البابوية المركزية التي غدت سلطة عليا ارتفعت فوق كافة سلطات هذا العالم . واعتمد في روما منذ السنة ١٠٥٨ ، وتحت ظل قصور ملك جرمانيا هنري الرابع ، مبدأ الانتخابات الحر المستقل ، بمعزل عن رقابة الاباطرة الالمانيين ودسائس الارستوقراطية المحلية معاً ، ثم ما لبث ان سُنّ قانوناً في مجمع السنة ١٠٥٩ : سوف ينتخب البابا بعد هـــذا التاريخ على يد اعضاء الاكليروس الروماني الكرادلة . بعد هـــذا الاصلاح الاول ، ارتقى اشد اعضاء الاكليروس حرصاً على عظمة مركز الكرسي الرسولي الى رتبة البابوية ، فاسهم ذلك ايضاً في اعـلاء نفوذ

خليفة القديس بطرس ادبياً . ولم يرَ الاكليروس والرهبان ، منذ ذاك الحين ، عظيم غضاضة في الخضوع لسلطة روما ، ليس في حقل العقيدة فحسب ، كما كانت الحال منذ زمن بعيد ، بل في حقل النظام والانضباط ايضاً . اما الاسس الضرورية للنظام الكنسي ، وفاقاً لمجموعة المراسيم التي اختيرت بنـــاء لامر غريغوريوس السابع ، والتي ليست سوى موجز لها ، فهي التالية : رئاسة مطلقة للبابا الذي لا يمكن ان يقاضيه احـــد ولا يمكن الاعتراض على احكامه ، ادارة الكنيسة الجامعة من قبل الكرسي الرسولي الذي يمثله قصّاد يجب ان ينحني امامهم اعلى الاحبار رتبة ، والذي يلم بكافة الاسباب الهامة ، وله وحده حق التشريع ، خضوع رؤساء الاساقفة والاساقفة خضوعاً تاماً للسلطة البابوية الحرة في تعديـــل حدود الابرشيات ونقل او اقالة الرعاة .

وفي الواقع ، تحقق هذا البرنامج بسرعة : فان مبادرات امثال « هوغ دي ديه » او «امات دولورون » ، مندوبي البابا غريغوريوس في غاليا ، وموقف البابا اوربانوس الثاني الذي لم يقذف في مجمع « كليرمون » المنعقد في السنة ١٠٩٥ ، بالمسيحية في الحرب الصليبية فحسب ، بـــل رسم باعطاء انظمة سلم الرب قيمة شاملة ، اثبتت النجاحات المستمرة التي حققتهـــا المركزية الحصرية . فغدت الكنيسة اللاتينية ، منذ بداية القرن الثاني عشر ، ملكية اوطد رسوخاً من كافة السلطات الزمنية في الغرب ؛ وقد فكر المثقفون في الكنيسة الرومانية ، في سبيـــل مصلحة البابا الذي حمـــل التاج والمعطف الارجواني ، باعادة المنصب الاعلى الذي يشرف على ادارة المسيحيين في الحقلين الزمني والروحي ، مقدمين بذلك على عمل جريء هو تحويـــل الاسطورة الامبراطورية الى شخص البابا .

مشادة التوليات

اضف الى ذلك ، في درجة ثانية ، ان تصلب البابوات ومساعديهم ، ان لم يقض نهائياً على تدخل الاسياد والعلمانيين في تعيين الاساقفة ، فقد حدّ منه حداً عظيماً على الاقل . في السنة ١٠٧٥ ، اوضح البابا غريغوريوس السابع علانية مغزى القرار السادس من مجمع السنة ١٠٥٩ ، الذي كان قد رسم بأن لا يدين الكاهن لعلماني بتولية كنسية ؛ وبذل جهده بصورة خاصة بغية تطبيق هذا المبدأ في وظائف الاساقفـــة ورؤساء الاديرة . فاصطدم بمقاومة عنيفة ابداها كافة المستفيدين من الاتجـــار بالقدسيات ، وذوو المناصب الذين اشتروا وظيفتهم وباتوا عرضة لان يمنعوا من ممارستها ؛ والامراء ايضاً الذين لم يقبلوا بالتخلي عن امتيازاتهم بسبب الارباح التي توفرها لهم ، ولا سيما بسبب الفوائـــد السياسية التي يوفرها لهم الاشراف على الكنائس الكبرى . فقام آنذاك بين باعثي الاصلاح والملوك ذلك الصراع الطويل المعروف بمشادة التوليات. وصدرت اعظم مقاومة عناداً عن الامبراطور لان الامارات الاسقفية في الملكية الجرمانية تمثل اضمن عضد للملك الذي حرص على مراقبتها عن كثب ؛ اما الخلاف ، فبعد تجابه طويل الامد طرحت خلاله على بساط البحث مسألة العلائق بين السلطتين الشاملتين — وقد رأينا غريغوريوس السابع يستند الى حق الربط والحل الممنوح للقديس بطرس ويدعي

بمراقبة اعمال الامراء ، يجيز لنفسه خلع الامبراطور – قد انتهى الى الهدوء، بعد تنازلات متبادلة.

في السنة ١١٢٢ ، تم الاتفاق في معاهدة « وورمس » على صيغة تسوية اعدّها في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر علماء القانون في دير « بيك » النورمندي ، ونقّحها الاسقف « ايف دي شارتر » ، واعتمدتها كل من فرنسا وانكلترا ، حيث لم تتسم معارضة الملوك بذلك الطابع من الشدة . ففُصِل ، في الوظيفة الاسقفية ، بين المهمة الروحية التي اقصر منحها ، عن طريق العكاز والخاتم ، على الكنيسة وحدها ، وبين امتيازاتها الزمنية ، من سيادات عقارية وقضائية ، التي ترك امر توليتها للسيد العلماني وفقاً للمراسم الاقطاعية . فليس بعد من خضوع حقيقي للأمير بل مجرد يمين اخلاص ، واذا توجب على الاسقف التوجه ابداً الى سيد كنيسته كي يستلم من يديه ، بشكل مادة رمزية ، خاصيات السلطة ، فما كان ذلك ليحدث الا بعد انتخابه الحر من قبل مجلس كهنة الكاتدرائية. اجل لم يعدم الملوك وسائل الاقناع لانجاح مرشحيهم؛ غير ان التعيين يعود الى رجال الكنيسة ، وفي ذلك ضمانة لاختيار بعيد عن الشبهة : فتحقق بذلك الهدف الاساسي .

الا ان نجاح المصلحين كان ، بالمقابلة ، محصوراً جداً في ما تعلق بالمناصب الدنيا. فقد احتفظ العلمانيون برعاية الكنائس الريفية ، وأقله بحق اقتراح تعيين « خادم النفوس » على الاسقف ، ان لم يكن بحق تعيينه بمعزل عنه ؛ ولهذا السبب بقي الاكليروس الوضيع عادي الصفات جداً . وعلى الرغم من ذلك فان الاصلاح الغريغوري لم يبق دونما نتيجة هنا ايضاً : ففي غضون القرن الحادي عشر حصلت مجالس الكهنة ولا سيما الاديرة على عدد كبير من كنائس الارياف قدمها اليها مالكوها تلقائياً بمثابة احسان وتصدق ؛ وحوالي السنة ١١٠٠ ، بعد ان انضم الخوف من عذابات الحياة الثانية الى مساعي رجال الكنيسة ، ازدادت هذه الحركة سرعة ، فأعاد العلمانيون معظم المعابد التي كان الاحبار قد اقطعوهم اياها استثمارات اقطاعية . وهكذا فان حق الرعاية ، في القرن الثاني عشر ، قد مارسته في الغالب جمعيات دينية انقادت للضمير وأحسنت اختيار خدام الكنائس ، على الرغم من انها طالبت لنفسها بالقسم الاكبر من مداخيل الكنيسة ، تاركة خدام الرعايا في حالة عوز واملاق. يضاف الى ذلك ان حسن اختيار الاساقفة الذين اهتموا، كل في ابرشيته، لدعوة هؤلاء الخدام لاجتماعات دورية ، ولمراقبة الاكليروس الريفي ، قد اسهم في تحسن الاجهزة الدنيا في الكنيسة العلمانية . بيد ان هذا التحسن كان بطيئاً في الحقيقة : فلن تخلو القرى ، لمدة طويلة ، من الكهنة المتزوجين والاميين والبؤساء ، او من الكهنة الجشعين الذين يستثمرون رعاياهم ويحاولون جني الارباح المادية من الخوف السحري الذي يبعثونه في النفوس .

بيد ان تقدماً محسوساً ، هو النتيجة الاخيرة لحركة الاصلاح ، قد بدا ، خلال القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر ، في سلوك العلمانيين الديني . فقد انجلى امامهم ، بصورة خاصة، مفهوم الخلاص : فلأجل خلاص النفس ، كان من الموافق ، في الدرجة الاولى ، التعويض عن الاخطاء المرتكبة ، بعد ارتكابها ، بالحسنات المتوالية ، التي نظر اليها كما الى غرامات قضائية

تدفع للاله لاستعادة راحة الضمير ؛ اما الآن فقد ساد الاعتقاد شيئاً فشيئاً بأن الاعمال وحدها هي ما يعتد به وبأن تطبيق تعاليم الانجيل في الحيـــاة امر مستحسن ، أقله تلك التي لا تتنافى كثيراً واخلاق الفرسان وضرورات الحياة اليومية. ويبدو من جهة ثانية – وهذا هو بنوع خاص الشعور الذي نخرج به حين ننظر الى تطور الايقونات المسيحية – ان الاله امسى اقرب الى البشر، فقد غدا منظره اقل ارعاباً ؛ وأخذ يظهر تحت اشكال الطفل يسوع الليّنة القلب ؛ واتسمت العذابات والمكافآت الموعود بها بعد الوفاة ، بطابع أكثر بعداً عن التجريد ؛ وانتشرت عبادة العذراء ، الوسيطة والمعزية ، لارتباطها في الارجح بدور متعاظم الاهمية لعبته المرأة ، نتيجة لتهذب الاخلاق ، في مجتمع ذاك العهـــد . ومهما يكن من الامر فان نفاذ المواقف والمشاعر المسيحية الى اقل حركة من حركات الحياة العلمانية ، الذي لن يتوقف طيلة القرن الثاني عشر ، هو النتيجة المباشرة لاصلاح المؤسسات الكنسية ولتعيين الاكليروس تدريجياً بمنأى عن التأثيرات الزمنية فغدا ، بفعل ذلك ، اشد تطلباً من نفسه ومن الغير .

الابتغاءات الدينية

ما ان سارت مسألة تنظيم الهيئـة الكنسية واستقلالها حيال العادات الاقطاعيـة في طريق الحل حتى طرحت تدريجياً مسألة اخرى اعظم اتساعاً وسمواً ، هي موقف رجال الكنيسة من ثروات هذا العالم . هـذه معضلة جديدة اثارها مباشرة تبـدل الظروف الاقتصادية ، ونمو حركة المقايضات والتداول النقدي، واثراء الغرب . فان حرمان الاسياد والعلمانيين من حق التوليـة لم يكن لعمري ، بالنسبة لافراد الاكليروس الواعين واجباتهم ، سوى خطوة اولى : اذ ان تحرير الكنيسة يجب ان يكون كاملاً ويتميز بعود الى « الحياة الرسولية » والى طرائق المعيشة في جماعات النصرانية الاولى . ولا يكفي من ثم ان يكون الاساقفة افضل اختياراً وعلماً واخلاقاً؛ فحتى يتمكنوا حقاً من تأدية رسالتهم الراعوية، يحسن ايضاً ان يتخلصوا ويخلصوا اعضاء إكليروسهم من كافـــة الاطماع الزمنية والسعي وراء السلطة ومحبة البذخ . اما الحياة الرهبانية فمن المستحسن ، بدون شك ، ان تكون أكثر انعزالاً عن التأثير العلماني وان تنظم تنظيماً أشد صرامة عن طريق التقيد بالقانون تقيداً صحيحاً ؛ ولكن هذا ليس بجوهر الامر : اذ يجب بنوع خاص ان تقود الى الزهد التام في الشؤون الدنيوية، لا سيما وان اناساً كثيرين اخذوا ينتقدون رغد عيش « الكلونيين » ؛ فقد تكونت في « كلوني » ارستوقراطية رهبانية ماشت البيئة الاقطاعية والتقسيم المجتمعي مماشاة تامة . ولكن الناس قـد تساءلوا عما اذا كان يحسن بالراهب ان يعيش حياة الاسياد ، في ابنية فخمة ، ويرتدي الملابس البذخية ، ويأكل افخر المأكولات ويتباهى ببحبوحته ويحرص على تأمينها . فنشأ من ثم ، في القرن الحادي عشر ، تيار تأصل في التيار الغريغوري ثم تجاوزه قوة ؛ واستهدف اصلاحاً اعمق جذوراً ليس في اجهزة الكنيسة فحسب ، بل في روح الكنيسة نفسها ايضاً .

برزت هذه النزعة في كل مكان ؛ وحتى عنـد العلمانيين انفسهم ، وبنوع خاص لدى طغام الناس في المدن ، السريعي التأثر ، بسبب نشاطاتهم المهنية ، بالمعاضل الاقتصادية ، والعارفين

خير معرفة بخطر الثروات ، والحذرين ايضاً من ثراء الاحبار الذين يستطيعون مشاهدتهم عن كثب والذين تقف ادعاءاتهم بالسلطة الزمنية وقوفاً مباشراً في وجه توقهم الى الحرية . وليس من النادر ، خلال صراع التكتلات البورجوازية ، انتقاد ثروة الكنيسة ؛ وهكذا فقد نمت في مدن لومبارديا ، عند اولئك الذين اطلق عليهم بسرعة اسم « الباتاران » ، حركة قوية غايتها تحقيق فقر الاكليروس ؛ واستوحى الشعور نفسه المهيج « ارنو دي بريشيا » الذي حرض بورجوازيي روما ، في منتصف القرن الثاني عشر ، على السلطة البابوية . الا ان كهنة كثيرين قد شعروا هذا الشعور ايضاً وتأملوا ملياً في هذه المعضلة وبحثوا عن حلول عملية لارضاء هذه الرغبات . فبرزت هنالك نزعتان : احداهما تعود الى الحياة النسكية ، أي الى حياة أكمل عزلة واعظم تقشفاً؛ بينما تقود الثانية الى الاملاق ، وليس المقصود بذلك « فقر » « كلوني » فحسب، الذي وفق بين الزهد الفردي والثراء الجماعي ، بل الفقر الحقيقي، أي فقر آباء الصحراء ، ايضاً.

الجمعيات الرهبانية الجديدة

بدأت مثل هذه المحاولات باكراً جداً ، أي بعيد السنة ١٠٠٠ ، في الكنيسة العلمانية ، ولا سيما في غاليا الجنوبية وايطاليا حيث كانت تكملة مباشرة للعمل الذي قام به القديس « روموالد » بغية تجديد الحياة الرهبانية : فقرر بعض الكهنة ، دون التخلي عن خدمتهم الروحية ، الابتعاد اكثر فأكثر عن العالم ، واتفقوا على التجمّع بغية سلوك حياة مشتركة في الفقر، كأولئك الذين تجمعوا في « سان - روف » (١٠٣٩) في أبرشية فالنسيا. فشجع هذه المبادرات خيرُ الاساقفة فضيلة، وساندها بطرس داميانوس احد عظام رسل الاصلاح ؛ وأكب الغريغوريون على استحداث مبادرات جديدة مماثلة . تعددت جمعيات الاكليروس شيئاً فشيئاً ، وعاد كهنة مجالس الكاتدرائيات ، على مثالهم ، الى النظام الذي كان قد فرضه عليهم ، في العهد الكارولنجي ، « بنوا دانيان » : فان هذه الجمعيات الارستوقراطية ، التي سلك افرادها ، وجميعهم ابناء اشراف يمتلك كل منهم قسماً وافراً من سيادة كنيستهم ، حياة حرة جداً في مسكنهم الخاص ، تحولت هنا وهناك الى جمعيات حقيقية تخضع لبعض التقشف . غير ان كهنة علمانيين آخرين قد تاقوا الى حياة اكثر املاقاً : فقد فرض « غليوم دي شامبو » والقديس «نوربير» على التلاميذ الذين تهافتوا عليهم في « سان - فكتور » في باريس ، وفي بريمونتريه ، في اوائل القرن الثاني عشر ، قانوناً صارماً جداً مستوحى من ثلاثة مؤلفات للقديس اوغسطينوس ، (وتبرز هنا ايضاً النزعة الخاصة بهذا العهد ، اعني بها التصميم على العودة ، من وراء العهد الكارولنجي الذي استقرت فيه الكنيسة في العالم استقراراً فيه الكثير من سعة العيش ، الى تقاليد المسيحية الاولى) . لم يكن «الفكتوريون» و«البريمونتريون» ملزمين بالفقر التام والحياة المشتركة فحسب ، بل بالسكوت ايضاً والعمل اليدوي والاحتفال الطقسي ، وسلوك حياة مادية فقيرة جداً ، فعاشوا من ثم في الواقع عيشة الرهبان ؛ ولم يتميزوا لا بفارق واحد: لم يلزم الكهنة القانونيون بالحياة الرهبانية على الرغم من انتمائهم الى الاكليروس؛

فان رسالتهم الاساسية ، التعليم والوعظ، هي في العالم ، ولذلك فانهم قد اسهموا بنشاط في نهضة الاكليروس العلماني والعلمانيين ادبياً .

تأثر العديد من الرهبان كذلك بقراءة آباء الصحراء – وكان النساك الايطاليون اول من بدأ هذه الحركة ايضاً في اواخر القرن العاشر – فرغبوا في سلوك حيـاة منعزلة والاهتداء الى الفقر الانجيلي . ونحن نرى في عدم ارتياحهم للتفسيرات التي تناولت قانون الرهبانية البندكتية منذ العهد الكارولنجي تعليلاً لنجاح المصلحين الذين اسسوا ، قبلة « كلوني » ، في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، جمعيات قوية جديدة . وتجدر الاشارة الى ان اتجاهاتها كانت مختلفة على كل حال : فهنا يبحثون عن الزهد التام بالعالم، كما هي حال جمعية « غرانمون » التي أسسها « اسطفان دي موريه » في السنة ١٠٧٤ والتي يتوجب على افرادها ان لا يقتنوا أية ثروة زمنية ، حتى ولا ارضاً للزراعة ، وان لا يمارسوا أي عمل ، فاضطروا بالتالي لأن يستعينوا بمساعدين يكونون رهباناً من الدرجة الثانية ويكلفون جمع الصدقات لتأمين معاشهم اليومي ؛ اما هناك فقد شدّدوا على فكرة العزلة ، كما هي الحـال في الجمعيات الكرتوزية التي أسسها القديس « برونو » وتلاميذه في الصحارى القائمة وسط الجبال والتي ضمت نساكاً يجتمعون بين وقت وآخر لحضور القداس ويقضون معظم حياتهم في السكوت والورع داخل قلّية فردية .

الا ان الجمعية الجديدة التي عرفت اكـبر نجاح والتي تأسس مركزها « سيتو » ، في السنة ١٠٩٩ ، على يد « روبير دي مولسم » ، قد اعتمدت عادات اعتبرتها مجرّد عودة الى قانون القديس بندكتوس وتقويماً للانحراف الكلوني ، فجمعت بين العزلة والفقر وحققت التوازن بين النزعتين . العزلة عن العالم اولاً : اقام السيسترسيون ، شأن الكرتوزيين ، بعيداً عن الاماكن المأهولة ، في قلب الغابات والوديان المستنقعة . الا انهم اعتقدوا بأن اضمن وسيلة للاهتداء الى الله هي الانصهار في جماعة ، فعاشوا حيـاة مشتركة صافية في خورس الدير ومائدته ومنامته . والاملاق التام ثانياً : فقد ألصق بالموجبات البندكتية مفهوم تقشفي جداً ؛ وكل رغد في المأكل والملبس قُبِل به في كلوني رفض هنا رفضاً باتاً؛ السيسترسي يحتقر جسده ويسيطر عليه. الا ان العائلة الرهبانية قد اقتنت ممتلكات عقارية لأن في ذلك ضمانة استقرارها واستقلالها . وانما حظر عليها ، بالمقابلة ، استيفاء الواردات على انواعها ، سواء كانت هذه الواردات محصول الاعشار ام اتاوات المستثمرين، ام خدمات الاتباع الشخصيين ؛ فللاخوة ان يستحصلوا من الارض بأنفسهم على غذائهم ؛ وجمع كل دير ، في وحدة عمل وثيقة ، رهبان الخورس ، المنتسبين الى الاكليروس او الارستوقراطية ، وهم اوسع ثقافة ومقيدون بتمارين روحية كثيرة ، والمساعدين ، أي افراد الطبقة الدنيا الميّالين الى الحياة الرهبانية الذين لا يقدمون سوى عملهم لخدمة الله ويؤلفون اليد العاملة القوية . ويفسر ارتفاع كثافة السكان من جهة ، ولا سيما ضرورة عزل حيـاة الروح عن عالم طغت عليه الرغبة في جني المكاسب طغياناً متزايداً ، غرابة تكاثر جمعيات الكهنة والرهبان الجديدة ، في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، ولا سيما السرعة الفائقة في امتداد الجمعيـة

السيسترسية بفضل صفات نادرة تحلى بها احد اعضائها، برناردوس ، رئيس دير «كليرفو» ، الذي كان صوفياً ورجل عمل معاً ، وواحداً من عظام ذاك العهد .

ولكن الجهود في سبيل تأسيس كنيسة اعمق حياة روحية قد امتدت الى ابعد من ذلك ايضاً . فقد انتهى بعضهم ، في صراعهم ضد الزمنيات ، أي المادة ، الى اعتبار هذه الاخيرة مبدأ يناقض الخير ، والى الالتقاء بالمفاهيم المانوية ، نذكر منهم في ذاك العهد «بيير دي برويس» و « هنري دي لوزان » اللذين استمالت تعاليمهما ، على الرغم من حكم السلطات الكنسية عليها ، اتباعاً مقتنعين ، لا سيما في فرنسا الجنوبية . فساد الشعور في كل الاوساط ، في الشعب كما في أكثر دوائر الاكليروس العالي ثقافة ، بأن المحاولات التقوية الحارة تتعرض لخطر الزيغان عند حدود الايمان القويم . فقد بدأ في الكنيسة الغربية زمن الهرطقات ، والصراع ضد ضلال العقل، والمجامع التي يضطر فيها المفكرون الجريئون الى التراجع عن اقوالهم ، وقد بلغ من القديس برناردوس الجهد في اعادة الوحدة الى جسم الكنيسة الذي مزقته الخلافات العقائدية الاولى . اما سبب هذا الاضطراب فهو ان الكنيسة لم تمس اسيرة نظام جماعي يفرض معتقداً مشتركاً ، وحريصة على العودة الى الحياة الرسولية والهرب من غواية الثروات فحسب ، بل اوسع علماً وأقوى حجة ايضاً. ان الاضطراب في اوائل القرن الثاني عشر لدليل نضج فكري لا مراء فيه.

٥ ـ النهضة الروحية : الحركة الفكرية

ان لانطلاقة النشاطات الفكرية والحياة الادبية ما يبررها : فالبحبوحة المتزايدة والتحرر التدريجي حيال المشاغل المادية والاطماع الزمنية أتاحا لرجال الكنيسة الانكباب بكليتهم على رسالتهم الخاصة ، اعني بها عمل الفكر . اضف الى ذلك ان امتداد نشاط الفروسية الغربية قد شجّع الاتصالات بحضارات الشرق ، فاستحضرت من سوريا وآسيا الصغرى مخطوطات عربية ويونانية ؛ وفي اسبانيا المستعادة ، ولا سيما في طليطلة ، وفي ايطاليا ، في بيزا ، وروما ، وصقليا ، ودير جبل كسّينو ، المركز الامامي للحضارة اللاتينية ، الذي اعيد تأسيس مكتبته في منتصف القرن الحادي عشر ، أكب المترجمون على وضع هذه المؤلفات في متناول الكهنة الناطقين باللغة اللاتينية .

المدارس

بتوفر هذين السببين تبدلت الاطارات المادية، أي المدارس، والاطارات الفكرية، أي برامج الدراسة ونظم الفكر ، التي اطبقت على الحياة الفكرية منذ النهضة الكارولنجية . كانت الاديرة حتى ذاك العهد اعظم المراكز نشاطاً ، وما زالت بعض المدارس الرهبانية ، في القرن الحادي عشر، على جانب كبير من النجاح، كمدارس الاديرة في «سواب» ومدرسة دير « بيك » في نورمنديا . وعلى الرغم من ذلك فان اعظم المراكز حياة آنذاك كانت علمانية وازدهرت في جوار مجالس كهنة الكاتدرائيات، في « لياج » و « تور » و«انجيه»

و « الماں » و « شارتر » التي لمعت مدرستها ، بعد ان احياها فولبير تلميذ روما ، حوالي السنة ١٠٠٠ ، طيلة القرن الحادي عشر ، وباريس اخيراً التي تخطت مدارسها حدود المدينـــة نحو منحدرات جبل القديسة جنفييف وغدت في اوائل القرن الثاني عشر مكان اجتماع خيرة علماء المنطق المسيحيين الغربيين . افضى انتقال المدارس هذا من الاديرة المنعزلة في الارياف نحو المدن الاسقفية ، وهو ظاهرة وثيقـــة الارتباط ايضاً بتوسع المدن وانتشار الاقتصاد النقدي ، الذي حرّر رجل الفكر من جمعيات الانتاج، أي من الاديرة الريفية، الى جعل مؤسسات التعليم أعظم انفتاحا وأكثر حرية ؛ فبات باستطاعة المعلمين تلقين دروسهم جنباً الى جنب دونما تقيد بنظـام مشترك؛ وغدا باستطاعة الطلاب الانتقال من معلم الى آخر ومن مدينة الى اخرى ـ وقد احصوا، مع الحجاج والتجار ، بين مستخدمي الطرق التي نمت حركة السير فيها ـ وكان هذا التنوع نفسه مثمراً مخصاباً .

اضف الى ذلك ان آفاقاً فكرية اعظم اتساعاً قد انفتحت امام المستمعين الذين يجلسون على الارض المغطاة بالموص ويصغون الى « الدروس » ، أي القراءات التي يشرحها المعلمون ، ويدونونها هم بايجاز . كان درس الفنون العقلية السبعة يؤلف جوهر العمل المدرسي الذي كان مجرد مخالطة سلبيـــة وسطحية لبعض النصوص المقدسة او غيرها وتأمل بطيء في « المراجع الكبرى » ؛ فلم يكن باستطاعة رجال الفكر ، بعد مثل هـــذه الثقافة ، وحين يضطرون للانتاج ، الا جمع ذكرياتهم الدراسية دون منطق واحكام . الا ان تقدماً مزدوجاً قد احرز منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر : فقد ُدرّست الفنون العقلية باعتماد طرق افضل ، ولم يعد لها ، خصوصاً ، بالنسبة للعقول النيّرة ، سوى دور تحضيري في حلقة الدروس .

تميز التقدم في المواد القديمة ، اللغة والبيان ، بتليّن ادوات التعبير . الا ان اللغة اللاتينية ، وهي لغة حية حقيقية لكافة رجال الكنيسة ، وقادرة على التعبير عن ادق الافكار، قد حافظت على نقاوتها كاملة لأنها امست ، ببعدها عن الالسن الشعبية ، بمنأى عن إعدائهم ، وخصوصاً لأن مطالعة كبار مؤلفي العهد الكلاسيكي انحصرت تدريجياً في حلقات ضيقة . فحدثت في أوائـل القرن الثاني عشر « نهضة » جديدة ، هي مجهود اختياريّ في سبيل العودة الى ثقافـــة العصور القديمة الكلاسيكية عن طريق دراسة خير مؤلفاتها الادبيـــة ؛ فتناول الشرح ، في المدارس العلمانية ، « فرجيل » و « اوفيد » و « لوكان » و « هوراس »، لا كأمثلة لغوية ممتازة فحسب، كما في السابق ، بل باعجاب وتعطف عميق. فتحرر المعلمون والتلاميذ تحرراً كاملاً من ذاك الحذر الذي ابداه معظم المفكرين المسيحيين بصدد المؤلفين الوثنيين ؛ وجعلوا منهم غـــذاء روحياً ، فاستندوا طوعاً ، مثلاً ، لحل المعاضل الاخلاقيـــة ، وحتى المعاضل التي واجهوها في علائقهم بالخالق، الى كتاب « الصداقة » لشيشرون والى رسائل «سينيكا». ورافق مخالطة الكلاسيكيين هذه تصنع في الانشاء ؛ ويلفت الانتباه انشغال رجال الكنيسة في القرن الثاني عشر بالمهـــارة الادبية ؛ فقد هذبوا الرسائل التي وجهوها الى أصدقائهم ، وألـّفوا مجموعات رسائل اخرى على

الطريقة الشيشرونية معــدّة للنشر ؛ ودرج رئيس دير « كلوني » ، « بطرس المحترم » ، على طلب الراحة من متاعب وظيفته بكتابة قصائد رقيقـة الصيغة والنظم برفقة اوسع مرؤوسيه ثقافة ؛ كما ان القديس برناردوس ، الزاهد ، الذي كان يؤكد مازحاً لأبنائه في دير « كليرفو » انه لا يعرف معلماً افضل من اشجار الغابات ، قد كتب عظاته وأبحاثه الصوفية في لغة مليئـة ببيان رفيع . الا ان هذا الميل الى التصنع قد رافقه تقدم محسوس في الثقافة الحقيقية ؛ واذا ما استندنا الى النتائج ، للحكم على أساليب تعليم الفنون العقلية كما طبقت في مدارس شارتر وباريس ، جاز القول بأنها حسنة ، وقادرة ، بتوجيهها الادبي ، على بعث الشغف بالادب والايغال في معرفة القلب البشري .

غير ان هذه الدروس قــد اعتبرت آنذاك مجرد اطلاع أوّلي وتحضير لاستكشاف حقول جديـــدة . فبدون ان نتكلم عن لهجة غدت اعظم ذاتية ، ومحاولة اقناع وفراسة بدت آنذاك في المؤلفات الادبية البحتة التي توغلت بعيداً ، ككتاب « أبيلار » « تاريخ مصائبي » او رسائله الى « ايلويز » ، في التحليــل السيكولوجي ، او حاولت درس الانظمة السياسية ، ككتاب « جان دي ساليزبوري » ، « الحاكم » ، نرى ، منذ اواخر القرن الحادي عشر ، تقدماً سريعاً في بعض المواد الدراسية التي لم تكن حتى ذاك العهد سوى ملاحق غير ذات شأن للفنون العقلية — بعض العلوم العملية التي لم يكن لها مكان في حلقـــة الدروس العادية للاعداد الكنسي البحت — كاللاهوت و « أمته » التي اخذت تتحرر شيئاً فشيئاً : اعني بها الفلسفة .

العلوم واللاهوت والفلسفة

ساعدت العلائق الودية بالعالم العربي على تحقيق التقدم في حقلين من حقول المعرفة : علم مجرد اولاً ، الرياضيات ، الذي درّسه جربير في كاتالونيا منذ اواخر القرن العاشر ، واندمج تدريجياً في برامج التعليم المعتمـــدة في « شارتر » و « لان » ، والذي ساند التعمق في دراسته جهود اصحاب النظريات الموسيقية وأتاح الاكتشافات الهندسية الرومانية ؛ وعلم تقني ثانياً ، الطب ، الذي اقتبست طرائقه عن مفسّري ابقراط من المسلمين ، وانتشرت بواسطة مدارس خاصة اسست على مقربة من الحدود الاسلامية ، كمدارس « سالبرن » التي اشتهرت منذ القرن العاشر ، ومدارس « مونبلييه » التي تأسست في اوائل القرن الثاني عشر . وهنالك ابحاث اخرى تخطت اطار الفنون العقلية السبعة ، اعني بها ابحاث الحقوقيين . فقد دفع اليها ، في آن واحد ، نمو المقايضات التجارية وتوسع المدن ، اللذان اوجدا صعوبات قانونية لم يكن العرف الاقطاعي ليستطيع حلها ، ومشادة التوليات التي أدت الى تصحيح المجموعات القانونية ووضع جدول عام بالمراسيم بغية تمكين الادعاءات البابوية . وهم الايطاليون بنوع خاص من قام بهذه الابحاث التي سارت في اتجاهين : نحو درس القانون الروماني بتفسير « المجموعة » ، الذي تواصل في « رومانيا » بنوع خاص ، في المقاطعة اللاتينية الـــتي خضعت لأطول سيطرة بيزنطية ، في « رافنّا » اولاً ، ثم في مدارس بولونيـا التي أشهرها ، في وائل القرن الثاني عشر ، إرنيريوس مفسّر النصوص المبهمـة ؛ ونحو وضع الحق القانوني نهائياً

بالتقريب بين المقترحات المختلفة الواردة في مجموعات المراسيم ، وهو محاولة توفيق افضت حوالي السنة ١١٤٠ الى « مرسوم » غراتيانوس .

بيد ان اعظم تقدم تحقق آنذاك في الحقل الفكري هو تقدم المنطق والبحث العقلي المطبق على المسائل اللاهوتية . ما زالت الفلسفة ، في القسم الاول من القرن الحادي عشر ، مجرد تمرين ثقافي تابع للجدل ومعدّ لترويض عقل الطلاب ؛ وهكذا يفسّر المعلمون امامهم ، في مدارس شارتر ، بعض النصوص التي تعكس المذهب الافلاطوني ، وبعض الصفحات من مؤلفات سينيكا ، وبعض ابحاث « بويس » و « جـان سكوت » ؛ ثم يثيرون النقاش بطرح المسألة التي استهوت مفكري ذاك العصر ، أعني بها مسألة حقيقة « المثل العامة » . ولكن هذه التمارين العقلية ما زالت بعيدة كل البعد عن المشاغل الدينية : فالمسيحي آنذاك يحاول الاقتراب من الخالق بواسطة المحبة لا بواسطة مجهود عقلي . الا ان الحاجة قد برزت حوالي السنة ١٠٧٠ ، بفعل نمو المعارف والرشاقة المتزايدة في القوى العقلية ، لا الى مناقشة مضمون الوحي ، بل الى التعمق فيه بالبرهان : فلم يعد الاله ، بالنسبة لكهنة الجيل الجديد ، محبة فحسب ، بل حقيقة ايضاً ، وانما على العقل بني تشابه الانسان به ؛ فشرعوا من ثم يدرسون العقيدة درساً عقلياً ؛ واخذ ايمانهم يبحث عن التفهم . اما هذه الكلمة « الايمان يبحث عن التفهم » فقد قالها السيد « انسلموس » (١٠٣٣ — ١١٠٩) رئيس دير « بيك » ، ثم رئيس اساقفة « كنتربري » ، وهو من شق الطريق امام اللاهوت العقلي ، الوثيق الارتباط بالفلسفة ، الذي تقوم مهمته بالتوفيق بـين الوحي والعقل . فطبقت طرائق الجدل على قراءة الكتب المقدسة ومؤلفات الآباء وبدّلت منها الطابع تدريجياً . وتعاظم رويداً رويداً دور التفكير الشخصي ؛ اجل ما زال القارىء يستند الى المراجـع التقليدية العظمى ، ولكنه تصرف حيالها بمزيد من الحرية ؛ وحل محـل الشرح الانتقادي والتفسير الحرفي بفضل « انسلموس دي لان » ، تلميـذ القديس انسلموس ، وأحد مشاهير المدرسين ، « الحكم » ، أي مجموعة مقاطع الكتاب المقدس والآباء المتعلقة بهذه النقطة الهامة او تلك من العقيدة . وعن الحكم صدرت « المسألة » : فاذا ما برز خلاف بين المراجع المتقابلة ، يعود الى المنطق امر التوفيق بينها ، فيلعب العقل آنذاك ، وهو ابداً في خدمة الايمان ، دوراً اساسياً في البحث عن الحقيقة . وهكذا تأسست الطريقة المدرسية (*Scolastique*) في غضون جيلين من الزمن .

لم تلبث اخطار تحرر القوى البشرية هذا ان ظهرت ، لا سيا في تعاليم بيير ابيلار في باريس وفي مجموعة المسائل الـتي وضعها تحت اسم « هكذا وكلا » . افليس احترام النصوص المقدسة والايمان نفسه مهددين الآن بجسارة بعض المعلمين العلمانيين الواثقين من حجتهم وطاقاتها؟ فارتسمت منذ ذاك الحين ردود الفعل الاولى ضد الجدل : لقد تصدى القديس « برناردوس » و « هوغ دي سان فكتور » — وهما « نظاميان » يمثلان خير تمثيل اولئك الذين يسعون وراء التواضع والفقر ويتوقون الى الاهتداء الى روحانية الكنيسة الاولى والعودة الى الحياة الرسولية ، ويستندون ، في سبيل ذلك ، الى العهد القديم والقديس اوغسطينوس والآباء اليونانيين — للاهوتيين العقليين ،

وقابلوهم بالطريقة الصوفية معتبرين ان المحبة هي السبيل الحقيقي الذي يقود الى الله ، وقد وجدوا ، في طريق التأمل هذه ، عوناً في التعبد للعذراء الوسيطة . وفي السنة ١١٤٠ توصل رئيس دير « كليرفو » ، في مجمع « سنس » ، الى استصدار حكم على بعض اقتراحات جسّارة تقدم بها ابيلار ، الذي خارت عزائمه فهجر العالم ؛ وفي مجمع « رمس » الذي انعقد في السنة ١١٤٨ توصل ، بعد نقاش طويل ، الى حمل المعلم الباريسي « جيلبير دي لا بوريه » على التراجع عن رأيه . ولكن هذه الانتصارات تحققها الروح الرهبانية ، وهذه العقوبات، وهذه الاذعانات، وهذه التضحيات يقدمها كبار المفكرين في سبيل وحدة الكنيسة ، لم تكن لتنتقص من نشاط الابحاث المنطقية . فما زال عدد الطلاب يتزايد باطراد في مدارس باريس حيث يجتمع اعظم الجدليين مهارة وحيث يكتمل بناء اول مذهب بين المذاهب الفلسفية الكبرى في الغرب .

الشعراء المتجولون والاغاني الايمائية

لم يبقَ نمو النشاط الفكري في الكنيسة دونما صدى في ارفع طبقات المجتمع العلماني التي وسعت آفاقها وهذبت أذواقها الحملات العسكرية النائية ؛ فقد نشأ وازدهر ادب مكتوب باللغة العامية معد لتسلية اولئك الذين لا يستطيعون الاطلاع مباشرة على المؤلفات اللاتينية . ثم جمعت في اواخر القرن الحادي عشر ، خدمة لأعضاء طبقة الفرسان ، وبمساعدة ادباء محترفين ، من الكهنة في الارجح ، او اقله من خريجي المدارس الكنسية ، قصائد وأناشيد تناقلها الناس شفهياً حتى ذاك العهد . وكان ثمة مركزان رئيسيان يقابلهما وحيان مختلفان. ففي الأكيتين ، انشدت ، في الاجتماعات الاقطاعية التي تختلف اليها السيدات الارستوقراطيات ايضاً ، قصائد قصيرة باللهجة الجنوبية من نظم بعض الأسياد في الغالب (اول هؤلاء الشعراء المتجولين النبلاء هو دوق اكيتين « غليوم التاسع دي بواتيه ») تدور حول موضوع أساسي هو العلاقة الحبية . ان هذه العاطفة ، وقد كانت في الاصل شهوانية جداً وموصوفة بوقاحة ، تخلت شيئاً فشيئاً عن شهوانيتها ، في النصف الاول من القرن الثاني عشر ، وتبدلت تحت تأثير العادات الاقطاعية والروحانية المسيحية ، وغدت تفانياً على بعض اللبس في سبيل السيدة المختارة ، « البعيدة » بالتفضيل وبصورة عامة . وفي الوقت نفسه ازدادت القواعد والاوزان الشعرية تعقيداً ودقة .

اما في شمالي فرنسا ، فان مجتمع الفرسان ، وهو اكثر ميلاً الى الحروب منه الى الحياة العالمية ، قد آثر الملحمة العسكرية ، اذ قد تأخر هنا ارتقاء المرأة في حياة المجتمع العالي الذي يعبر عنه الهام الشعراء الغنائيين الناطقين باللغة الشمالية ، واتساع العبادة المريمية ، او نشاط الصوفي « روبير داربريسيل » الذي أسس جمعية راهبات في « فونتفرو » في السنة ١١٠١ ؛ فأشيد بالفضائل النبيلة ، البسالة ، والامانة للسيح والانسباء ورفاق الحياة الاقطاعية ، في قصائد مسجعة متعاقبة طويلة يواجه ابطالها من الشخصيات التاريخية في العهد الفرنجي معاضل راهنة ، كالصراع ضد « الوثنيين » المسلمين او متناقضات الاخلاق الاقطاعية ؛ وقد جاءت بعض هذه الاغاني الايمائية ، ولا سيا اغنية « رولان » ، على جانب كبير من الجمال المنيف احياناً ، وهي

من نظم فنانين عظام انقادت لهم التقنيات الادبية . وفي الثلث الثاني من القرن الثاني عشر ، بينما توثقت الروابط ، بفعل اتساع حركة المقايضات الشامل ، بين المناطق الشمالية والمناطق الجنوبية ، وبينما اخذت العادات الجنوبية تدخل الى بلاطات شمالي « اللوار » بفعل زواج لويس السابع ، ملك فرنسا المقبل ، من « اليانور » ابنة دوق « الاكيتين » ، تسربت الى ادب فرنسا الخشن ، مواضيع الشعراء المتجولين الحبيبة التي توسع فيها وحسّنها بعض الكهنة المعجبين بـ « اوفيد » . وتكون في الوقت نفسه ، تحت تأثير النهضة الادبية والمقتبسات الشرقية ، لون جديد للقصة القديمة تشابكت فيه، تمشياً مع تطور الذوق، حول شخص الاسكندر او «اينيوس»، المغامرات الحربية والدسائس العاطفية .

٦ ـ النهضة الروحية : الازدهار الفني

ان محاولات مهندسي العمارة والرسامين والنقاشين ، التي لم يوقفها الانحطاط الكارولنجي ولا الغزوات ، قد افضت اخيراً ، في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، الى تكوين نمط عظيم. كما ان تسهيلات التنقل ، التي أتاحت سرعة انتشار التقنيات المهنية ومواضيع الالهام ، والتقاء الفنانين التقاء متكرراً ومقابلة نتائج اختباراتهم ، قد شجعت هذا الازدهار الحاسم الذي بعثه كذلك تقدم الدروس ، والمعارف الرياضية بنوع خاص ، واثراء المؤسسات الرهبانية الكبرى : فاستخدمت الاموال الناتجة عن بيع فائض الحصائد وحصيلة الاعشار والاتاوات على الاراضي المستثمرة ، لنقل مواد البناء وتعهد البنائين ، بينما أتاحت حركة التداول النقدي المتزايدة نهضة المصانع الفنية الاختصاصية . الا ان النشاط الفني قد بقي سائراً في الاتجاه نفسه : خدمة الله والاحتفاء بمجده عن طريق تجميل الكتاب المقدس ، ولا سيما المعبد . فلسنا نشاهد بعد ، كما هي الحال في الادب ، فنانين يلبون طلبات الزبن العلمانيين ؛ لذلك فقد بدت النهضة في تشييد وتزيين الابنية الدينية المختلفة الاحجام ، ابتداء من الكاتدرائيات حتى اوضع المعابد الريفية . بيد ان ارحب الابنية هي الابنية الرهبانية : ففي الاديرة البندكتية ، حيث استمر تقليد اوجده « بنوا دانيان » ، لا سيما فروع جمعية « كلوني » ، دفع الحرص على تحقيق « عمل الله » كاملاً ، بالرهبان ، الى تكريس معظم مواردهم النقدية لعظمة أماكن العبادة . فبعثت هذه المشاريع الكنسية فناً بنائياً هو الفن « الروماني » الذي يتميز في الهندسة بشمول استعمال العقود ، وفي التزيين بالعودة الى النقاشة الكبرى التمثيلية والبنائية .

هندسة العمارة « الرومانية »

ظهرت الدلائل الاولى لنهضة هندسة العمارة في السنة ١٠٠٠ في الوقت نفسه الذي حدث فيه تقدم الرياضيات ، وقد لاحظها المؤرخ « راوول له غلابر » ؛ وان تنويهه « بالمعطف الابيض من الكنائس الجديدة » الذي التحفته الارياف الغربية آنذاك لذو شهرة حلال. الا ان الابنية التي ارتفعت في السنوات الاولى

من القرن الحادي عشر بقيت بسيطة وعابسة وعارية ، ولم تتطور الطرائق المعتمدة في العهد الكارولنجي الا بكل بطء وتردد . فتصميم المعابد لم يتحول : اذ ان المستحدثات الرئيسية (اضافة الكنيسة السفلية والصحن المحيط بالخورس والنارتكس أي جناح الموعوظين) قد حققت في القرن الحادي عشر ، اشباعاً لحاجات الطقس الجديدة . اما المعضلة التي سعى الفنانون آنذاك لحلها فهي معضلة الغماء؛ فحاولوا نشر العقود فوق كافة اقسام الكنيسة ، ولا سيما الصحن الوسطي الكبير ، بعد ان كانت محصورة في الاقسام الضيقة المتينة من البناء ، كالسرداب ، والطابق الارضي من المدخل الذي يعلوه برج الاجراس ، وصدر الكنيسة فوق المذبح . وتوجب عليهم من ثم ايجاد طريقة تمكنهم من تحميل جدران الكنيسة حجارة وملاطاً اثقل وزناً الى حد بعيد من وزن الهيكل الخشبي المعتمد تقليدياً في الكنائس الكبرى . اجل لقد توفرت لهم بعض عناصر الحل : اذ ان المهندسين الكارولنجيين قد استعاضوا عن العمود بالركيزة واستعملوا الدعائم الخارجية للجدران . ولكن ما زال امامهم تطبيق هذه التدابير الجزئية على المساحات الكبيرة. فتميزت مراحل محاولاتهم بالفشل المتكرر وتطأطؤ عقود الصحن او انهيارها ، كما ورد في اليوميات الرهبانية . وقد ظهرت الصحون المعقودة اولاً ، على ما يبدو ، في كنائس الارياف الوضيعة الضيقة المظلمة المحفورة في الصخر ، في مناطق استوريا ، ثم في جبال البيرينيه الكاتالونية . وانتشر شيئاً فشيئاً استعمال الاقواس المتوازنة المتقاربة في العقود المستديرة التي ترسي معظم ثقلها على ركائز تساندها الدعائم من الخارج ؛ ثم استعمال العقود المستديرة المتقاطعة التي تحول ضغطها الى اركان الزوايا الاربع ؛ ثم استعمال القبة ، وقد امتدت على اقواس صغرى في الزوايا او على الاقواس الكبرى ، وقد اتاح ذلك اسناد غماء الكنيسة الوسطى الى الاقسام الضيقة الاربعة المحيطة بالوسط ؛ واكتشفت تدريجياً اخيراً كل الحلول المعدة لاسناد العقود بعضها الى بعض . ولنا على هذه المحاولات وهذه التجارب ، الموفقة او الفاشلة ، التي استغرقت القسم الاكبر من القرن الحادي عشر ، امثلة كثيرة في بعض الابنية المعقدة ، كدير « تورنوس » في بورغونيا . فكانت نتيجة هذه الجهود ، حوالي السنة ١٠٧٥ ، ظهور تحف رائعة كثيرة وابتداء عهد العمارة « الرومانية » العظيم .

جاءت هذه الهندسة متنوعة جداً ، فبذلت من ثم محاولات كثيرة لنسبة كنائس هذا العهد الى مدارس اقليمية مختلفة . اجل ان تصميم البناء الجديد الموفق ، الذي يعود فضل نجاحه الى فنان معين ، قد اقتبس تكراراً في عدد من الابنية الثانوية المجاورة ، ولا سيا في المعابد الريفية الصغيرة التي اعتمدت في تشييدها تصاميم هندسية اقل توفيقاً . بيد ان من شأن هذا التوزيع الجغرافي اغفال نشاط المقايضات الاقليمية ، وهو بالضبط الظاهرة التي تميز أواخر القرن الحادي عشر : فالواقع هو ان عناصر مشتركة تتجانب في الكنائس الكبرى المقامة على طريق معينة مطروقة ، كتلك الكنائس مثلاً التي تقع ، بين « تور » و « كومبوستيل » مروراً بـ « ليموج » و « تولوز » ، على احدى طرقات الحج الكبرى الى مزار القديس يعقوب . ونلاحظ كذلك

الالهام نفسه والمبتكرات المتماثلة في بعض الاديرة النائية عن بعضها والتي تجمعها روابط دينية الطابع . لذلك يجب ألا نسقط من حسابنا العلائق الشخصية التي قامت بين رؤساء الجمعيات الكنسية ، وانتقال فرق العمل من مكان الى آخر ، في تفسير هذه التأثيرات المتداخلة التي تبدو في بورغونيا مثلاً حيث ظهرت وتوازت نزعتان متباينتان نشأتا عن النجاحات الاولى المحققة في المنطقة البريونية (نسبة الى *Brionnais*) فأفضت اولاهما الى كنيسة كلوني الكبرى والاخرى الى كنيسة دير فيزلاي . ولكن الواقع الهام هو تنوع الحلول التي تناولت معاضل التوازن : وهكذا فقد تجاورت في « بواتو » الكنائس ذات الصحون الثلاثة المتساوية الارتفاع، والكنائس ذات الصحن الواحد، والصحون الجانبية ذات العقود المستديرة المتقاطعة والصحون الجانبية ذات العقود المستديرة المتوازية ، والصحون الكبرى ، اخيراً ، المسقوفة بالقباب المتلاصقة . وان في هذا التنوع لتعبيراً عن المحاولات الحثيثة والقوة الخلاقة العظمى التي اجتابت الحضارة الغربية كلها قبيل وبعيد السنة ١١٠٠ .

الزخرفة

خضعت تقنيات الزخرفة واساليبها لتطور أبطأ حركة . ففي النصف الاول من القرن الحادي عشر لم تستخدم سوى الطرائق والمواد المعروفة في العهد الكارولنجي تقريباً : فكان المزخرفون مصورين على الجدران ، او مصوري لوحات مصغرة ، او صاغة . وأنتجت اجمل الزخارف الملونة ، التي تجدد فيها الالهام بدخول المواضيع التصويرية المقتبسة عن الكنائس المسيحية الشرقية ، في معامل « تريف » و « اخترناخ » الجرمانيــة ، او في اسبانيا الشمالية والاكيتين المتأثرتين بفن النصارى من رعايا دولة الاندلس ، كتلك التي تزين مخطوطات بياتوس في تفسير كتاب « الرؤيا » ، ولعلها اجمل زخارف الكتب الغربية المصورة في القرون الوسطى . اما الفن المعدني فقد حقق اجمل مصنوعاته في المناطق التابعة للامبراطورية ، ولا سيما في وادي « الموز » ، حيث أكمل « رينييه دي هوي » في السنة ١١٠٨ جرن العماد البرونزي في كنيسة « القديس برتلماوس » في «لياج» . الا ان زخرفة الابنية التي تقدمت الابنية «الرومانية» المظيمة قد بقيت زمناً طويلاً في منتهى البساطة : وقد تمثلت في جوهرها ببعض تنضيدات بنائية في الجبهة ، كالطرائد اللومباردية المقتبسة عن الزخارف الخارجية في أبنيــة « رافنا » . اما الابتكارات الوثيقة الارتباط ببعضها والتي تحققت فجأة في السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر ، فهي التالية : تزيين البنـاء الديني بالاشكال الزخرفية المعتمدة على نطاق ضيق منذ زمن بعيد في الرق والعاج والبرونز ؛ وانطلاقة النقاشة على الحجر التي لم تندثر تقنياتها اندثاراً تاماً في غالبا منذ النواويس الاخيرة المزخرفة المنتجة في المصانع البيزنطية وتيجان الاعمدة الاولى المستعملة في كنيسة «جوار» المدفنية . انها لثورة فنية حدثت في آن واحد في « بورغونيا » حول «كلوني» — ربما تحت تأثير الصياغة الاسبانية وتحت تأثيرات فنية اخرى أكيدة ، لأن الدير الكبير كان آنذاك ، شأنه شأن روما ، قلب المسيحية النابض وأقوى مراكز الجاذبية — وفي « لنغدوك » ، في « تولوز » و « مواساك » ، بفضل الاتصال المباشر بالزخارف التصويرية والاشكال الحجرية

في اسبانيا المستردة . فارتبطت الزخرفة المنقوشة منذئذ ارتباطاً وثيقاً بنجاحات الهندسة « الرومانية » .

المواضيع التصويرية

انطوت هذه الزخرفة على فن تصويري اولاً : فاذا حافظت المواضيع الهندسية والنباتية في الزخرفة البربرية على حيويتها ، واذا تكاثرت وتجددت بفضل المصنوعات الشرقية المستوردة ، فقد غدا الموضوع الرئيسي ، مرة اخرى ، الشكل البشري ، وفي هذا التطور دليل على عودة الى المفاهيم القديمة ، أي نهضة اخرى ملازمة للنهضة الادبية . ولكنه فن مقدس ايضاً : فليس تمثيل الاشكال في نظر المصور « الروماني » سوى وسيلة لجعل القوى الفائقة الطبيعة محسوسة ، ولا سيما عظمة قدرة الله الذي يظهر ، في أبهى جلاله ، ديّاناً في الدينونة الاخيرة او في وسط رموز رؤيا القديس يوحنا. وفن تزييني في جوهره اخيراً ، مرتبط بالاطار الهندسي ، تتميز نجاحاته ، بالضبط ، في التوفيق توفيقاً مطرد الكمال بين الاشكال وهندسة البناء . ولم تزخرف في البناء سوى بعض عناصره فقط : تيجان الاعمدة ، ببعض التبسيطات النباتية اولاً ، وببعض مشاهد الحياة التي تملأ الاطارات المخصصة لها تماماً ايضاً، كما في كنائس منطقة «اوفيرنيه»، في كاتدرائية «سان — لازار» في اوتين وفي دير « فيزلاي »؛ والجبهة ايضاً، سواء كانت الزخرفة مجموعة عريضة من الافاريز والنقوش الناتئة التي يتوشح بها الجدار الغربي بكامله ، كما في « بواتو » ، ام تزييناً في الابواب فقط . الا ان الباب الضخم، وهو مجموعة معقدة تتداخل فيها المسطحات المزينّة والتقبيات وصفوف الاعمدة، الذي اخذ شكله النهائي، على ما يبدو، في « كلوني » اولاً، بعد محاولات عديدة في الكنائس البربونية الصغرى ، والذي نسج على منواله في « بروفنسا » بأشكال تستلهم العصور القديمة استلهاماً مباشراً ، كان ، دونما ريب ، اجمل ما حققه المزينون في اوائل القرن الثاني عشر .

حدّت انطلاقة النقاشة المفاجئة في تزيين المعبد من دور الرسم الذي بقي رئيسياً حتى اواخر القرن الحادي عشر. ومع ذلك ففي داخل الكنائس، وتحت العقود المستديرة وفوق المذبح وفي اقسام الجدران الواسعة التي تتخللها نوافذ ضيقة ونادرة، ما زالت العصور ترسم بالالوان الممزوجة بالماء والصمغ والآح ، يتمادى فيها المنحى الكارولنجي في الرسم على الجدران ، بحرية احياناً كما في « تافان » ، او بتبسيط وتعظيم على غرار الصور البيزنطية المصغرة .

ان في هذا الازهرار التزييني لأوضح دليل على ازدياد الثروات في الجمعيات الدينية . لذلك فقد تشكى الراغبون في احياء روح الفقر في الكنيسة من الميل الى الزخارف الزاهية : فانتقد القديس برناردوس بشدة النقاشة الكلونية؛ اما السيسترسيون الذين برهنوا في اول عهد جمعيتهم عن حرية رائعة ومهارة عظمى في زخرفة كتبهم ، فقد حظروا كل تزيين في كنيستهم حرصاً منهم على الاملاق التام. ولكن فنهم المجرد الذي استهدف توازن الكتل الحجرية العارية قد حقق مع ذلك اروع جمال ، كما في «فونتناي» او تورونيه؛ جمال صاف ومجرّد منبثق عن علم الاعداد

بفعل ذاك التوافق الموسيقي نفسه الذي رغب القديس « هوغ دي كلوني » في رؤيته ممثلاً ، بشكل رمزي ، على التيجان المنقوشة فوق اعمدة الخورس في « كنيسته الكبرى » .

بيد ان الفن « الروماني » جنوبي في جوهره ، عميق الجذور في المقاطعات التي تأثرت من قبل تأثراً قوياً بحضارة روما ؛ وصنّاعه الاولون هم المصورون الاستوريون والبناؤون اللومبارديون ؛ ازدهر في بروفنسا ولنغدوك وبواتو وبورغونيا ؛ ولم تختلف ركائز الكاتدرائية وأفاريزها، في اوتين وآرل ، عن الزخارف التي تزين الاطلال الرومانية القريبة. الا ان المانيا، في الوقت نفسه ، بقيت أمينة للتقاليد الفنية الكارولنجية ، كما ان الصحون المرتفعة في الكنائس النورمندية لم تسقف بالعقود . وعلى الرغم من ذلــك فقد جرت في اوائل القرن الثاني عشر محاولات هندسية جديدة في شمالي اللوار : فقد انتشر في « ايل دي فرانس » بين السنة ١١٢٠ والسنة ١١٣٠ استعمال الاقواس المتقاطعــة التي سبق واستعملت في السنة ١١٠٠ في خورس كاتدرائية « دورهام » ؛ وبرزت حسنات طريقة الغماء الجديدة في بناءين كبيرين ، كاتدرائيــة « سنس » وكاتدرائية « سان ـ دني » . اما باب هذه الكنيسة الاخيرة ، فقد نقشه ، بناء على اشارة « سوجر » رئيس الدير ، فنانون ربما جاؤوا من لنغدوك ؛ فهو ، بتماثيله ـ الاعمدة ، حاصل النقاشة « الرومانية » واولى آيات فن التمثيل القوطي .

كانت التبدلات الاقتصادية العميقة التي حدثت في السنة ١٠٠٠ اساساً لتقدم فائق السرعة تحقق ، بين السنة ١٠٧٥ والسنة ١١٥٠ ، في كافــة حقول النشاط البشري . حيوية نابضة ، اخصاب ، وتنوع ايضاً : كان عهد النمو هذا حافلاً بالمتناقضات في السجايا والميول والاذواق . وقد برزت المتناقضات، مثلاً، في اشخاص ثلاثة رجال قاموا بالوظائف نفسها، وظائف مديري الجمعيات الرهبانية ، وتعارفوا وتحابوا ومثلوا معاً وبالتساوي اوائــل القرن الثاني عشر : « سوجر دي سان ـ دني » ، وهو اداري ماهر ومستشار رشيد لملوك فرنسا ؛ وبيير المحترم رئيس دير كلوني ، وهو اديب رقيق ، متزن وعطوف ؛ وبرناردوس رئيس دير كليرفو ، وهو متقشف وصوفي ومرشد حازم وعنيف للنصرانية .

الا ان هذه التيارات الصاخبة المتباعدة اخذت تهدأ وتتقارب ، في منتصف القرن الثاني عشر ، بعد ان توارى هؤلاء الرجال الثلاثة . فانفتح عهــد جديد امام الغرب المسيحي ، عهد تنظيم وانضباط وتهدئة وكلاسيكية وأبنية كبيرة متوازنة .

الفصل الثاني

انكفاءات الاسلام وبيزنطية وصراعاتهما
(القرن الحادي عشر - القرن الثاني عشر)

ان اللوحة التي نستطيع رسمها للعالم الاسلامي في النصف الاولى من القرن الحادي عشر قد تتميز ، اذا ما قورنت بانطلاقة اوروبا المسيحية ، بالفوضى السياسية والانقسامات الدينية ، وحتى بالانحطاط الاقتصادي في مناطق واسعة من هذا العالم . وتاق المسلمون المتزايدون عدداً ، امام هذه المحن الخطيرة ، الى الوئام والوحدة ، لا سيما وان الحكومات الخارجة على السنة ، كحكومة الفاطميين في مصر مثلاً ، لم تحقق الآمال الموضوعة فيها . فقدر لبعض المغامرين ، الذين ضموا قوة السلاح الى الدعاوة الدينية فحققوا انتصار الدين القويم وأسسوا قوة سياسية جديدة لن تلبث وتثبت قدرتها ، أقلّه على اضعاف او ايقاف توسع المسيحية الغربية . وقد حدثت هذه النهضة ، في آن واحد تقريباً ، في طرفي العالم الاسلامي : في الولايات الغربية - المغرب واسبانيا - بفضل البربر ، وفي الشرق بفضل تدخل القوة التركية .

المرابطون والموحدون

عاشت بين الصحراء الكبرى والسودان قبائل من البربر الرحل اعتنقت الاسلام منذ عهد قريب . فكون منها بعض المبشرين ، في منتصف القرن الحادي عشر ، مجموعة من غلاة المتعصبين شنت على الاوثان من العبيد الحرب المقدسة التقليدية . اقام البربر في اديرة محصنة يدعى الواحد منها بالرباط الذي اشتق منه اسمهم « المرابطون » - « اهل الرباط » - . وأقنعوا ، دونما صعوبة ، بوجوب تنظيف المراكز التي صورها لهم فقهاء المغرب المالكيون كمراكز افساد الاخلاق : فاحتلوا في سنوات معدودات مراكش والنصف الغربي من الجزائر الحالية . ثم استدعاهم الى اسبانيا اولئك الذين أقلقهم ضعف الامراء المسلمين وتخلياتهم في وجه الفتح المسيحي ؛ وصادف ذلك من الجهة المسيحية ، فترة حلول تصلب فرسان ما وراء البيرينيه ، الذين سيقومون بالحملات الصليبية في الشرق ، محل روح التفاهم بين الاديان التي ما زال يمثلها (السيد) في فالنسا . فتوحد بين السنتين ١٠٨٦ و ١١١٠ على

ايدي المرابطين كل ما تبقى من اسبانيا الاسلامية، أي النصف الجنوبي من شبه الجزيرة بين مصبي التاج والايبر. وتوطدت بوجودهم الدكتاتورية المالكية المتمسكة بحرف القانون واللاهوت؛ كما تجددت في عهدهم الحرب المقدسة ضد المسيحيين وأصبح موقفهم من اهل الذمة في الداخل أشدّ تصلباً.

الا ان البربر الاشداء ما لبثوا ان ترفوا في الاندلس؛ اضف الى ذلك ان حاجات الجماهير الدينية ما كانت لتتقبل دكتاتورية الفقهاء زمناً طويلاً. فنشأت حركة جديدة اعظم قوة، وأعظم تميزاً ايضاً بسبب انتمائها الى البربر المراكشيين الحضريين، هي حركة الموحدين التي أسسها ابن تومرت ونظمها من بعده عبد المؤمن الذي ستملك سلالته منذ منتصف القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر. فنادى ابن تومرت، الذي تلقن في الشرق تعاليم الغزالي الصوفية، بالعودة الى مصادر الايمان المباشرة. ثم قرر تحطيم حكم الفقهاء المطلق، فأعلن نفسه مهدياً، بالمفهوم نفسه تقريباً الذي ألصقه الاسماعيليون بهذا الاسم. اجل، لم يفلح بعمله هذا في القضاء على نفوذ الفقهاء الذي ما زال عظيماً في المغرب حتى ايامنا هذه؛ ولكنه استطاع، كما حدث في الشرق، ان يدخل على الدين القويم في الغرب عاطفة صوفية عميقة ستتجسم ارتقاءاتها باكرام الأولياء الذي هو الصفة المميزة للورع الشعبي.

الحضارة الاندلسية

ان اسبانيا الموحّدة، بعد ان تحررت من ظلم المالكية، وعلى الرغم من استمرار تصلبها حيال المسيحيين، وحتى اليهود، شجعت انطلاقة الفكر الاسلامي الذي بلغ فيها اوجه آنذاك. انها، والحق يقال، لفترة هامة جداً: فقد حلّت الثقافة الاسبانية ـ الاسلامية محل الشرق في الحقول التي اخذ هذا الاخير في اهمالها، وفي الوقت الذي كان فيه الغرب المسيحي مستعداً لأن يتقبل، من ايدي المفكرين الاسبانيين، اصول الثقافة الاسلامية. حرية في البحث والفكر لعل ابن طفيل عبّر عنها خير تعبير في قصته الفلسفية «حي ابن يقظان» التي توصل فيها الى نوع من الديانة الطبيعية تتغلب فيها العاطفة على التمسك المفرط بالشكليات. ولكن الأثر الاكبر في فكر الغرب المسيحي سنتركه مؤلفات ابن رشد الذي وضع اوضح شرح منظم لمذهب ارسطو: فقد عرضت فيه تعاليم الفيلسوف القديم وكأنها تفترض توافق الايمان والعقل؛ ولكنه اجاز القول بتطور الفلسفة تطوراً مستقلاً، كما قال ابن باجه من قبل. وأكب العلم الاسباني، في الوقت نفسه، على الابحاث الطريفة، بعد ان اكتفى زمناً طويلاً بما يتوصل اليه الشرق: فقام مؤلفو الزيجات التي ما لبثت ان ترجمت الى اللاتينية، وعلماء النبات وعلماء تركيب الأدوية كابن البيطار، وعلماء الزراعة كابن العوام والاطباء اخيراً كابن زهر. وما زال التاريخ محافظاً على مستواه، فترك لنا الرحالتان ابن جبير وابو حميد الغرناطي وصفاً قيّماً جداً، الاول للشرق كله بما فيه بلاد الصليبيين، والثاني لروسيا. وقد حافظ الادب الصافي على مستواه ايضاً، فرفع الشاعر المتجول الفاجر، ابن كزمان، اللون الشعبي المعروف بالموشحات الى مرتبة الادب الرفيع.

ولم يكن الفن دون العلوم مرتبة مجيدة في عهد الموحدين ، في اسبانيا ومراكش على السواء ، حيث انصهرت تعاليم الشرق والتقاليد المحليـــة في تحقيق شخصي اصيل . فان حصن الرباط ، وجامع الكتبية في مراكش وقصر اشبيلية لا تزال توحي حتى اليوم بما انطوى عليه هذا الفن من متانة وأناقة ، على الرغم من بعض التحويرات اللاحقة .

امتدت هذه الثقافة الاسبانية الى ما وراء حدود السيطرة الاسلامية المنكمشة . ففي صقليا المخصصة للنورمنديين ، حيث عومل المسلمون المقيمون بتساهل قل نظيره ، تألق مركز اشعاع ثان ، دون اسبانيا شأناً على انه اعظم أهمية ، الى حد بعيد ، من الشرق اللاتيني ، انتقلت بواسطته الثقافة الاسلامية الى الغرب . وقد عمل فيها بعض المسلمين أنفسهم في خدمة الامراء المسيحيين : ففي منتصف القرن الثـــاني عشر وضع الادريسي ، المولود في سبته والمقيم في صقليا ، لروجيه الثاني ، المؤلف الجغرافي الوحيد المزين بالخرائط القيمة الذي ضمنه عربي معلومات وجيهة عن اوروبا بالاضافة الى ما سبقه اليه كبار الجغرافيين المسلمين .

وأتاحت الثقافة الاندلسية بدورها اخيراً انطلاقـــة الفكر اليهودي الذي كانت مستعمراته الاسبانية ، آنذاك ، اوسع مستعمرات اليهود المتشتتين ثقافة . لا بل ان الفتوحات المسيحية أولاً ومضايقات الموحدين ثانياً أهابت باليهود الى الانتشار في العالم كابن ميمون مثلاً الذي استقر نهائياً في الشرق بينما اتصل معظم اخوته في الدين ، المقيمين في اسبانيا المسيحية وفرنسا الجنوبية حيث أحسلت وفادتهم آنذاك ، بأبنـــاء ملتهم في ايطاليا ؛ فخلصوا هؤلاء من سيطرة نفوذ صقليا الاسلامية والقيروان ؛ وهكذا تكوّنت في مناطق الحدود بين الاسلام والمسيحية ثقافة يهودية ارسخت التقاليد اليهودية ــ الاسلامية القديمة حتى اوائل القرن الثالث عشر ، وعنيت باللغـــة العبرية والشعر الديني والدنيوي والتاريخ اليهودي والدروس العلمية والفلسفية والديلية . فروى بنيامين التوديلي ، على غرار معاصره ابن جبير ، رحلته الى الشرق . وليس من شك في ان المؤلفات الفلسفية والديلية ، التي تأثرت جزئياً بأبحاث المسلمين ، واطلع المفكرون المسيحيون عليها بدورهم ، هي أهم ما تحقق بالنسبة للتاريخ العام . تصارعت فيها نزعات الافلاطونية الحديثة ، التي يعكسها « يهوذا هلاوي » عكساً على الاقل ، ومذهبا الارسطوطاليسية والعقلية اللذان أشاد بهما ابن ميمون . فان هذا الاخير ، على غرار معاصره ابن رشد ، بالنسبة للاسلام ، لأكبر مفكري اليهود وأعظمهم جرأة في القرون الوسطى ، ولكنه آخر فلاسفة اليهود في هذه القرون . ومرد ذلك الى ان حياة الجماعات الفكرية ستتجه بعد ذاك التاريخ اتجاهات مختلفة : فان يهود البلدان المسيحية ، الذين لم يعدوا لتقبل مبادىء العلوم والفلسفة الشرقية ، وصادفوا صعوبة في الانسجام والبيئات الجديدة ، سينادون ، في الجو نفسه الذي انتشرت فيه الحركة « الألبية » ، بالنزعات الدينية والصوفية المعروفة باسم حركة « القبّال » السرية التي رأى كتابهـــا « زهر » النور في اسبانيا في القرن الثالث عشر . وظهرت بموازاة ذلـــك صوفية يهودية اخرى تعرف بالحاسدية اقل ارتباطاً بالتعاليم الفكرية الآتية من الشرق وأشد تأثراً ببعض مظاهر الحيـــاة

الرهبانية المسيحية ، في احياء اليهود في رينانيا التي كانت موضوع اضطهاد قاس بمناسبة الحملات الصليبية وبحجتها . فارتبطت الحياة اليهودية منذ ذاك الحين بثقافة البلدان المسيحية .

حقق النظام الموحّد اكمل عمل توحيدي كان باستطاعة الغرب الاسلامي ان يحققه عبر تاريخه الطويل ؛ او اقله اخصب وحدة بين بلاد البربر المراكشية واسبانيا الاسلامية . فالمغرب الشرقي نفسه ، الذي هدده خطر غارات نورمنديي صقليا ، قد التجأ الى امبراطورية الموحدين ، التي لم يبق خارج نفوذها ، من العالم الاسلامي الغربي بأكمله ، سوى بعض المغامرين المنتسبين الى سلالة المرابطين من بني « غانية » المتحصنين في جزر الباليار . قادت هذه الوحدة ، وهـــذا السلام النسبي الذي أمّنة في البحر آخر اسطول قوي ، الى انعاش الحياة الاقتصادية . اجل لقد كانت التجارة مع ايطاليا وفرنسا شبه محصورة في البيزيين والجنويين والمرسيليين ؛ ولكن مراقبـــة نشاطاتهم ما زالت امراً ممكناً في الموانيء التي حصلوا فيها على بعض الامتيازات ؛ اضف الى ذلك ان المحاصيل المحلية ، أي المواد الآتيـــة من السودان النيجيري الغني بالذهب والذي قامت العلائق بينه وبـــين اسبانيا منذ دخول المرابطين ، قد وجدت لها اسواق تصريف مثمرة نحو اوروبا المسيحية .

الا ان فترات التوازن والازدهار هـــذه لم تدم طويلاً . فمنذ السنة ١٢٠٠ تقريباً ، تجددت عمليات المسيحيين الحربية لاستعادة اسبانيا؛ وبرزت بوادر الشقاق بين السكان المغاربة والاندلسيين الذين لم يوحدوا كلمتهم؛ وغدا التجار الاوروبيون اشد تطلباً. فلم تمر خمسون سنة حتى انكمشت اسبانيا الاسلامية في مملكة غرناطة الصغرى ، بينما عاد المغرب الى انقسامه التقليدي . وكان كبار مفكري الاسلام ، كالصوفي ابن العربي ، قد شعروا بالجو يكفهر من حولهم في هـــذه الولاية المنعزلة في اقاصي العـــالم الاسلامي ، فغادروها وتوجهوا الى الشرق يقضون فيه ايامهم الاخيرة لأنهم ما زالوا يعتبرون الشرق ، على الرغم من محنه الخاصة ، مهداً لثقافتهم .

الغزوات التركية

هل ترد المحن التي مرّ بها الشرق الاسلامي الى قيـــام السيطرة التركية يا ترى ؟ ان الرأي، المتأثر في الارجح بما انتهت اليه الامبراطورية العثمانية في القرن الاخير من انحطاط وفقدان اعتبار ، لا يتورع عن التأكيد بأنهـــا خنقت الحضارة الاسلامية خنقاً. ولكن في ذلك اغفالاً لواقع راهن اذ ان الاتراك لم يحتلوا آسيا الاسلامية دون ان يُستدعوا لهذا العمل او يُساعدوا عليه ؛ وان الفن وبعض الالوان الادبية على الاقل قـــد تابعت انطلاقها بعد فتحهم ؛ وان الانحطاط اخـيراً لم يحدث الا في القرن السادس عشر ، أي بعد انقضاء خمسمائة سنة على فتحهم . وتوفق الاتراك في هذه الأثناء ، بعد ان بسطوا سيادتهم على الشرق الاسلامي بأكمله اولاً ، وعلى الامبراطورية البيزنطية كلها وجيرانها البلقانيين ثانياً ، الى تأسيس اسطول امبراطورية متوسطية عظيمة عهداً بين الامبراطوريات التي تأسست بعد انهيار السيطرة الرومانية . لذلك فان الواقع التركي ، بفعل نتائجه القريبة او البعيدة ، جدير بأن لا نمر

به مرور الكرام . فهو ابعد من ان يكون انحطاطاً ، لانه حدّد معظم الخطوط التي ميّزت الدول الاسلامية حتى ايامنا هذه .

نحن نعلم كيف ان الدول الاسلامية في الشرق الادنى انتهت منذ زمن بعيد الى تعبئة جيوشها من الارقاء الاتراك الذين وقعوا في الأسر او ابتيعوا فتياناً وأعدوا للخدمة العسكرية وأُدمجوا في المجتمع الاسلامي . الا ان الحركة التي نشاهدها الآن تختلف اختلافاً كلياً عما سبقها . لقد تم الاتصال بين دول الاتراك في آسيا الوسطى وبين الاسلام بواسطة بعض التجار وبعض المبشرين وحتى بواسطة الغزاة المتطوعين الذين غذّوا ، عند حدود الوثنية ، روح الحرب المقدسة القديمة . امام عظمة هذه الحضارة المتفوقة ، اقتفى عدد كبير من الاتراك ، في القرن العاشر ، بين «الفولغا» و « ألتاي » ، خطى بلغاريي الفولغا واعتنقوا دين الاسلام الذي كان قابلاً في نظر الجماهير للاتفاق وبعض التقاليد السامانية او لفتح ذراعيه لمعتقدات اخرى كثيرة ، والذي تلقى ، في نظر الرؤساء ، توجيهات فقهاء الدولة السامانية الحنفيين . زد على ذلك ان الاسلام هو دين الغزاة ايضاً فاستهوتهم نضاليته الاصيلة ؛ واذ كانوا قليلي الاهتمام لحذاقة اللاهوتيين ، وجدوا في الحرب المقدسة ، التي شنت اول ما شنت على الوثنيين من اخوانهم ، وسيلة لارضاء ميولهم التقليدية الى الغزو .

استحال بذلك على الامارات الايرانية جمع الارقاء من بين هؤلاء المسلمين الجدد. فانتهى الامر بها ، تأميناً لتعبئة الجيوش ، الى استدعاء وتوطين قبائل تركية كاملة تدخلت بالتالي في النزاعات بين الاحزاب او اسهمت في القضاء على الشيع السجسة . وهذا هو اصل مملكة القراخانيين التي ضمّت الى التركستان الصيني ، الحديث العهد في الاسلام ، منذ أواخر القرن العاشر ، المناطق المنتزعة من السامانيين . وأسس الجيش التركي التابع لهؤلاء الامراء ، في « غزنة » من اعمال افغانستان ، امارة اخرى ما لبثت ان امتدت الى خراسان ، آخر ممتلكات السامانيين .

جاءت الدولة الغزنوية مماثلة لامارات اخرى أسسها قواد الجيوش التركية ؛ الا انها اتسمت ببعض المميزات الجديدة : فقد اعلن زعماؤها ، وهم من السنيين المتصلبين ، عن تصميمهم على انتزاع الخلافة من الشيعيين ؛ وأدركوا بالاضافة الى ذلك انهم لن يستطيعوا السيطرة على جيشهم ، ولا دفع مرتباته بسخاء ، ولا احتباس نشاط الغزاة ، الا بتشجيعه على الفتح ، فنظموا بقيادة محمود الغزنوي حملات موفقة على وادي الهندوس . اجل ، لم يستهدفوا في البداية سوى غزو المعابد البراهمانية ؛ ولكن النتيجة الثابتة ، كما رأينا ، كانت نشر الاسلام في الهند الشمالية الغربية : وهذا واقع تاريخي تؤيده جغرافية باكستان الحالية .

وهم الغزنويون انفسهم من استقبلوا في اراضيهم السلجوقيين ، زعماء منطقة بحر آرال وقبيلة اوغوز التركية ، فتأثر رؤساء هذه الجماعات من الرحل ، ولا سيما طغري بك ، بتعاليم المبشرين السنيين ، وانتهوا الى الاعتقاد بأن الحرب المقدسة انما هي تحرير الاسلام من البدع التي مزّقته .

في السنة ١٠٤١ سحقوا الجيش الغزنوي الذي تأخر في العودة من الهند : ففتحت امامهم ابواب ايران على مصراعيها. وصادف ان الخليفة العباسي كان راغباً آنذاك في التحرر من حماية البويهيين الشيعيين ، وقد وضع القانوني الكبير ، الماوردي ، تلبية لرغبته ، بحثاً ضمّنه اصول الحكم القويم . ولكن القوى الدينية لم تكف لاصلاح الاسلام فاستدعى طغري بك الذي دخل بغداد دون قتال ومُنِح ، بالاضافـــة الى لقب ملك الشرق والغرب ولقب السلطان ، ملء السلطة السياسية ، واسندت اليه مهمة نصرة الدين القويم على البدع في الداخل وعلى الفاطميين في مصر . فضم خلفاء طغري بك ، الى ايران وبلاد ما بين النهرين ، سوريا التي انتزعوها من المصريين . قد يقال انهذا الحل جاء خطراً على الخليفة الذي استعاض عن سيد ضعيف بوصي كثير الطلبات. ولكنه جاء نصراً للدين الاسلامي القويم ايضاً : اذ ان الاسلام الملتف رسمياً حول راية العباسيين الخضراء سيتمكن، في كافة أنحاء الشرق الادنى، من اعادة تنظيم الدولة في كنف الجيش التركي.

غير ان للفتح التركي وجهاً آخر . فهؤلاء التركان الرحّل لم يهتموا لخلوص العقيدة اهتمامهم للغزو وكسب الغنائم من غـــير المؤمنين . فكان طبيعياً بعد ان استقر هؤلاء الغزاة في ايران الغربية ان يوجهوا نشاطهم ضد الامبراطورية البيزنطية . اضف الى ذلك انهم ألفوا اتحاداً مـــن جماعات قبلية غير متلاحمة واعتبروا السلطان قائداً حربياً مؤقتاً، فخضعوا بصعوبة لقوانين دولة منظمة اصبح سلطانهم رئيساً لها . أفليس مـــن الطبيعي ايضاً ، والحالة هذه ، في سبيل تحويل اعمالهم الفوضوية عن الدولة ، الحدو بهم ، وقيادتهم عند الحاجة ، الى غزو البيزنطيين ، لا سيما وان الجيش في الامبراطورية اليونانية في حالة يرثى لها من الفوضى ، والسكان لا تجمعهم وحدة ادبيـــة ؟ فعندما سحق السلطان الب ارسلان ، في السنة ١٠٧١ ، آخر جيش بيزنطي في « مانزيكرت » وأسر الامبراطور الروماني رومانوس ديوجينس ، انفتحت امامهم ابواب آسيا الصغرى . وكان العديد من بني عرقهم قـــد خدموا في الجيش اليوناني ، ولم يتردد المطالبون بالعرش ، في نزاعاتهم الداخلية ، في استخدامهم لبلوغ غاياتهم : فاستدعوهم الى أبعد من الهدف الذي حددوه لانفسهم وفتحوا لهم مدناً ما كانوا ليستطيعوا دخولها عنوة . ولم يدرك اليونانيون الا بعد فوات الاوان ان الشعب التركي، باستيطانه آسيا الصغرى، قد مزّق اطارات الامبراطورية، وان الارمن والسوريين اليعاقبة ، المعادين لبيزنطية ، قد ارتضوا بهؤلاء الأسياد الجدد ، وان يونانيي آسيا الذين انكفأوا تدريجياً نحو شواطىء بحر ايجه . وأنهكتهم الحروب الطويلة قـــد أعدموا وسائل الوقوف في وجه الاتراك . وهكذا تكون وطن تركي ، هو تركيا ، لن يلبث المسافرون ان يتحققوا من حقيقة واقعه ؛ وهكذا حقق الاسلام فتح بلاد جديدة .

الشرق الادنى السلجوقي

لم توفق الدولة السلجوقية في الحقيقة الى فرض رقابتها على التركان الذين توزعوا خارج حدودها ؛ ولكنها بقيت دكتاتورية عسكرية تركية يدير شؤونها الخراسانيون السنيون . فباستثناء اذربيجان حيث استوطن التركان جماعات كبيرة ، لم يطرأ تعديـــل يذكر على توزيع السكان في الشرق الادنى ، كما ان الانظمة الادارية

رالادارات نفسها الـتي خلـّفتها ايران والدولة الغزنوية لم تتغير قط ايضاً . كان السلاطين الاول الثلاثة – طغري بك والب ارسلان وملك شاه – رجال حرب نوابغ ، ولكنهم أدركوا عدم أهليتهم في الشؤون الادارية فتركوا للوزراء أمر ادارة الشعوب المحتلة . وقد عبّـر احد هؤلاء الوزراء ، نظام الملك ، وهو شخصية بارزة نادرة ، عن مفهومه للحكم في مجموعة آراء ونوادر . ولكن مجموعته لم تأت بجديد .

ليست الادارة اذن ما حوره السلجوقيون – وما الطغراء التي استعملت حتى السنة ١٩٢٢ لتصديق الفرمانات والشهادات العثمانية سوى طرفة فحسب – بـل توجيه الدولة نفسها . وفي الوحدة السياسية الكبرى التي حققوها ، كان الجيش ، وهو غريب تـماماً عن السكان ، المستفيد الوحيد من الفتح: فقد خصّص باقطاعات عظيمة من الاراضي ، على ان هذا التوزيـع ، على الرغم مما قيل فيه ، لم يفض الى اقامة النظام الاقطاعي ، لأن الدولة السلجوقية قد احتفظت حيـال قياداتها العسكرية برقابـة حازمة أتاحت لها السيطرة بقوة على المحاربين الذين كانت اقطاعاتهم وضيعة على العموم . اما السلاطين فهم رجال الحكم يقضون على سجس المدن في مهده ويراقبون حركات القبائل العربية او الكردية ويقتصون من المخلـّين بالأمن والنظام .

عادت هذه السلطة المستعادة بالخير ،في الدرجة الثانية ،على السنة وفقهائها . واذا كان الاضطهاد لم يتناول اتباع البدع الجديدة فردياً ، فقد هدمت مؤسساتهم ، وبذل مجهود مادي وأدبي ضخم لرفع شأن الدين القويم وحصر ادارة المجتمع الاسلامي باتباعه دون غيرهم . فأسس المـؤولون مدارس خاصة تأمنت فيها للمعلمين والطلاب سبل المعيشة والعمل ؛ لقـد ولـّى عهد المؤسسات نصف الخاصة التي تلقن شتى الدروس ، وجاء عهـد المدارس العامة المعدّة ، على غرار جامعة الازهر ، مركز الاسماعيلية في مصر ، لتوزيع ثقافة دينية قويمة رفيعة . سيتخرج من هـذه المدارس موظفو الادارة ، والقانونيون، مرشدوها، والقضاة ، دعامتها : تلك هي «المدارس» . يعود انشاء اقدمها عهداً ، وقد كانت في منتهى الوضاعة ، الى السامانيين الاخيرين والغزنويين من بعدهم . ثم ازدادت عدداً في كافة أنحاء العالم السلجوقي بناء على رغبة الحكومة اولاً ورغبـة كافة العظماء ثانياً . وأول من أعطى المثـل ، في قلب بغداد ، نظام الملك ، بتأسيسه المدرسة « النظامية الفخمة التي تولى التدريس فيها اوسع فقهاء العصر شهرة ، ولا سيما الاشعريون ، الذين اهتم الوزير الكبير لنجاحهم .

وفي الوقت نفسه قام السلجوقيون ، المولعون بالبناء ، بتشييد الجوامع العظيمة والمستشفيات والمدارس والخانات والجسور ، وكلها أبنية يدخلها التقليد في واجبات الملك الواعي لمسؤوليته الدينية . وخصت هذه المؤسسات بموارد متزايدة الاهمية : فالأوقاف التي كانت في معظمها خاصة ومحدودة غدت منذ ذاك الحين ذات أهمية عمومية واتسعت اتساعاً غريباً وزادت من أهمية المعتاشين منها ، رجال الجوامع والمدارس ، وكلهم دعائم أساسية للدين القويم الذي ينفق عليهم .

شاهدت الدولة السلجوقية اخيراً المصالحة التي جرت ، في ذهن المؤمنين وموقف الحكومة

على السواء ، بين الصوفية والدين القويم الذي أمسى الصوفيون حلفاءه ، بأعداد متزايدة ، لدى الشعب . وحين اكتشف المفكر الكبير الغزالي ، بعد خبرة طويلة في تدريس الفلسفة الكلامية، ان لا قوة للدين بدون رضى القلب ، وان العاطفة الدينية التي لا تستند الى ارشاد العقل غالباً ما تؤدي الى فقدان التوازن ، وان ما يدوم ، في الواقع ، هو اتحاد القلب والعقل معاً ، انما كان يعبر تعبيراً نافذاً وشخصياً عن نزعة عامة في اوساط الارستوقراطية الاسلامية . اضف الى ذلك ان الصوفيين قد انصرفوا تدريجياً ، في الوقت نفسه ، عن حياة العزلة وألفوا الجمعيات وخضعوا لقانون قربهم من الجمعيات الدينية المسيحية . فكان من المحتوم ، ابتداء من القرن الثاني عشر ، ان تفضي هذه العادات الجديدة ، التي اخذت تنتشر منذ اوائل العهد السلجوقي ، الى تأسيس جمعيات دينية حقيقية كانت اولاها جمعية القدرية التي اسسها عبد القادر الغيلاني . اجل لم يحل ذلك دون ابقاء الصوفيين على عادات غريبة عن العبادة المشتركة ، وزائفة جدا احياناً ؛ ولكن صفة منافاتها للديانـــة الرسمية واصطباغها بالبدعة قد زالت عنها . وها هم السلجوقيون انفسهم يسبغون عليهم الاوقاف ويؤسسون الاديرة في المناطق المحرومة منها . فجذبوهم من ثم اليهم واستغلوا النفوذ الادبي الذي كان لاوليائهم على الجماهير الشعبية .

لم يبق من ثم امام المارقين من الدين سوى المداهنة ، او اللجوء الى المناطق النائية ، او النشاط السري ايضاً ، وهكذا تاسست جمعية ارهابية توصل محركها حسن الصباح ، وهو مبشر اسماعيلي اغضب الفاطميين بسبب انتصاره لحركة نزار ، الى الاستيلاء ، عن طريق الخدعة او التهديد بالتشهير ، على حصون منيعة عديدة ، ولا سيما قلعة الموت في الجبال القزوينية . وليس المعتقد هو ما يميز هذه الشيعة بل سرها وتنظيمها المدهش واعتمادها الاغتيال السياسي كوسيلة عمل كانت اولى ضحاياه البارزة نظام الملك نفســـه . وكانوا يسكرون المبتدئين بشراب ممزوج بحشيشة الكيف يذيقهم لذة الافراح السماوية . ولكن الاغتيال الذي مارسه هؤلاء الحشاشون قد اعطى الكلمة « *Assassin* » مفهومها الفرنسي : ومرد ذلك الى ان هذه الشيعة لم تلبث ان انتشرت في سوريا حيث عرفها الصليبيون . وقد بقيت طوال اجيال عدة مثار رعب في كافة انحاء الشرق الادنى على الرغم من ضآلة عدد اتباعها الحقيقيين .

يجدر بنا ، في هذا الجو الديني الجديد ، ايضاح وضع اهل الذمة الحقيقي الذي شوهته دعاوة الحروب الصليبية . ليس من ريب في ان تركان آسيا الصغرى قد اذاقوا المسيحيين اليونانيين مرّ العذاب الوانا ؛ وفي المرحلة الاولى من غزواتهم الحقوا الضرر والاذى بالارمن واليعاقبة ايضا . ولكن وضع المسيحيين لم يتغير قط في الدول السلجوقية المنظمـــة ، ولا سيما في فلسطين . فان الحج الذي توقف عن طريق الاناضول قد نشط عن طريق البحر ، ولم تقم في طريق الحجاج اية عقبة حتى اورشليم . والواقع هو ان الغرب قد ارتكب خطأ ، ربما كان مقصوداً عند بعضهم ، بعدم التمييز بين عذابات يوناني آسيا الصغرى وحال مسيحيي فلسطين ، وهو خطأ وقعوا فيه تحت تأثير شعور الفرسان الفرنجة حيال المسلمين بعد اشتراكهم في حروب اسبانيا . ولكن

تساهل الاسلام التقليدي لم يتغير قط ، الا في اسبانيا بالذات ، بفعل التصلب المسيحي . اما في الشرق ، حيث لم تلصق بهم ، كما جرى في الأندلس ، تهمة التعاون مع الفرســـان اللاتين ، فلم يتأثر التساهل حتى بالحملات الصليبية نفسها .

تجزئة الاسلام التركي

لم تتمكن الدولة السلجوقية ، على الرغم من احيائها العالم الاسلامي ، من الابقاء على تلاحمها زمنا طويلا . فقـــد انفرط عقد السلالة المالكة غداة وفاة « ملك شاه » في السنة ١٠٩٢ : وافضى النزاع بين المطالبين بالعرش ، وتوزيع الاقطاعات والوفيات المبكرة ، والقصور الشرعي الضعيف ، الى تجزئة الامبراطورية التي استعجلها تعيين الاتابكة ، اوصياء على أبناء السلطان القصّر ، ووكلاء على اقطاعاتهم ، فرغبوا ، كما هو طبيعي ، في الحلول محلهم . فتوجب من ثم تخصيص افراد الجيش دونما حساب باقطاعات جديدة ما عتمت ان اصبحت سيادات وراثية . وتزايدت كذلك اسباب التنافر بين العرب والاتراك ، وبين التركمان والاكراد . كل هذا يفسر نجاحات الصليبيين وتقدم الجيورجيين واستمرار الخلافة الفاطمية . الا ان امارات مستقلة اقل عدداً واعظم قوة واطول عمراً ايضاً تأسست على انقاض الامبراطورية السلجوقية السريعة الزوال وابقت في الشرق الادنى على التقسيمات الجغرافية التي نشأت عن الغزوات التركية : العراق وسوريا وايران وآسيا الصغرى .

غدت العراق آنذاك مجرد ولاية في عالم اسلامي لم يعد ليعتبرها مركزه الرئيسي ، ولكنها استعادت ، بفضل الانحطاط السلجوقي ، بعض الاستقلال تحت ادارة الخلفاء الزمنية ، غير المترقبة حقاً . وقد حاول احد هؤلاء ، الناصر ، حوالى السنة ١٢٠٠ ، ان يعيد الى الخلافـــة سلطة دينية حقيقية تعلو سلطة الفقهاء ، فلم ينصرف ، في سبيل هذه الغاية ، عن مطاردة جمعيات الفتوة في بغداد فحسب ، بل جعل منها احدى وسائل حكمه ، ساعيا جهده لاصلاحهـــا من الداخل ، وتوحيد تنظيمها تحت كنفه ، وتشجيعها على تحقيق مثل روحي اعلى اوحته منذ امد بعيد بعض اشكال الصوفية الجماعية ، ثم حاول جمع الامراء والنبلاء في فتوة ارستوقراطية جعل منها نوعاً من جمعيات الفرسان ؛ واذا كانت هذه المحاولة الاخيرة قصيرة الامد ، فقد كتب للفتوة الشعبية ، التي اشرف على اصلاحها ، ان تلعب دوراً غير قصير في حياة البلدان التركية .

اما تاريخ سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا فقد سيطر عليه ، طوال القرن الثاني عشر ، الصراع ضد الصليبيين . كانت هذه المناطق حتى ذاك التاريخ ، امـــا تابعة للعراق تارة ولمصر اخرى ، واما مراكز لامارات هزيلة . ولكنها غدت آنذاك ، بفضل تقدمها على بغداد النائية استعداداً للقيام بهذه المهمة ، مركز تجمع لنهضة عسكرية وتجدد ادبي وثقافي . وقد حدث في اول القرن ان الارستوقراطية العربية ، ولا سيما في امارة دمشق التي لم يحدق بها خطر الفرسان الفرنجة كما احدق بحلب ، رضيت ، طوعاً او قسراً ، بالفتح اللاتيني كما جاء في المذكرات الطريفة التي وضعها آنذاك اسامة بن منقذ . ولكن تجاوزات بعض الفرنجة واستمرار تدفق الصليبيين

خلقت ، في سكان المدن السورية وبين علماء الدين ، حركة اعتراض على هذه اللامبالاة الاثيمة ، وعلى انقسامات المسلمين . فعرف بعض الامراء الاتراك كيف يستغلونها في سبيل بعث الكيانات السياسية الكبرى لمصلحتهم . وهذا ما حققه زنكي اولا وابنه نور الدين من بعده في منتصف القرن الثاني عشر : فقد ضما الى امارتهما في حلب ، وهي محور الحرب المقدسة ضد الفرنجة ، شطراً هاماً من بلاد ما بين النهرين العليا وسوريا باجمعها ، وجندا في جيوشهما اعداداً متساوية من الاكراد والاتراك . فاستطاعا رد الفرنجة شيئاً فشيئاً الى الساحل السوري على الرغم من النجدات البيزنطية او الغربية التي تلقوها . وهكذا جعلا من سوريا ، بتدابيرهما الجائرة ضد الشيعة وبتأسيسها العديد من المدارس والجمعيات الصوفية التي اسهم فيها بعض المهاجرين الايرانيين ، اوسع المراكز نشاطاً لصراع مزدوج ضد اعداء السنة في الخارج والداخل . اضف الى ذلك ان هذا التجمع سهلته زيادة الثروة المادية : فقد خسرت بغداد مركزها الاول في تجارة الشرق بعد ان احتفظت به مدة طويلة احتفاظاً صنمياً ؛ اما الموصل ، وهي مركز صناعي اقرب منها الى مناجم دجلة الاعلى ، وحلب ودمشق القريبتان من الموانىء السورية ومستعمرات الايطاليين التجارية ، فقد امست ، مع القاهرة والاسكندرية ، اوسع مراكز الحياة الاقتصادية نشاطاً ، لا بل تقدمت على القاهرة والاسكندرية ، وأمست مراكز الاسلام الفكرية والفنية ايضاً . ومرد ذلك الى ان مصر الفاطمية التي فتت شقاقات جيوشها وانقسامات الاسماعيلية وفقدان الثقة بها في عضدها ، لم تحافظ على استقلالها الا بفضل الحاجز المزدوج الذي يفصلها عن الاسلام التركي : الصحراء والدول الفرنجية . ولكن ما ان حاول الصليبيون الاستيلاء على موارد دلتا النيل الغنية حتى اضطر المصريون لطلب النجدة من نور الدين . فارسل سيد حلب بقيادة صلاح الدين الكردي ، جيشا فتح مصر ثم وضع حدا للخلافة الفاطمية في السنة ١١٧١ فوحد ، بعمله هذا ، الاسلام الشرقي كله بعد انشقاق دام قرنين كاملين .

افضى هذا الفتح بدوره الى قلب القوى الاسلامية قلبا مباشرا في الحقل السياسي ، وبطيئاً غير كامل في الحياة الروحية . فاستقوى صلاح الدين بتفوق مصر المادي واستغل ضعف خلفاء نور الدين ، فاستلم إرث هذا الامير العظيم . وهكذا وضعت موارد مصر وسوريا معا في خدمة جيش تركي ــ كردي تحمس لخوض الحرب ضد الفرنجة فاستعاد القدس من الصليبيين (١١٨٧) وردهم الى طريدة ساحلية ضيقة . الا ان الهجوم المعاكس العنيف الذي شنته الحملة الصليبية الثالثة اتاح للصليبيين الحفاظ على حصونهم الاخيرة ؛ لذلك اخذ خلفاء صلاح الدين ، الايوبيون ، وان صدوا عند الحاجة هجمات الحملات الصليبية الجديدة ، يؤثرون اقامة علائق تجارية طيبة مع التجار الايطاليين على اطالة الحرب المقدسة . لا بل ان احدهم ، الكامل ، عرف كيف يردّ على دبلوماسية فردريك الثاني الحكيمة بموقف كريم ايضاً . كان اثر ذلك ، في مصر ، وهي ملتقى تجارة الهند عن طريق البحر الاحمر والتجارة الايطالية في المتوسط ، ازدهاراً عظيماً متزايداً : ويؤيد هذا القول ان احدى الشركات التجارية الكبرى (شركة كارمي) حاولت آنذاك احتكار

استيراد الابازير ؛ وان الحماية الايوبية ، نتيجة لذلك ، قد ناءت بوطأتها على اليمن والمدن المقدسة . الا ان العهد الايوبي ، على الرغم من ان مصر المتجانسة والموحــدة السلطة لم تعرف القيادات الاقطاعية الكبرى والثورات والانفصالات الاقليمية ، قد خضع بدوره للجيش ايضاً . ومنذ منتصف القرن الثالث عشر ، اخــذ الجيش ، بعد ان عزّز لدفع خطر الهجوم الفرنجي والغزو المغولي ، يرفع رؤساءه الى السلطة ، وجلهم ينحدرون من اصل عبدي ؛ فأسس هؤلاء الجنود ، لقرون عدة ، عهد المماليك العسكري .

اما ايران فقد عرفت تاريخاً اعظم اضطراباً ، وغموضاً ايضاً ، لانها ما زالت تتأثر بحركات الشعوب التي كانت تقلق آسيا الوسطى . وسقطت المناطق الاسلامية الواقعة وراء الاوكسوس ، منذ الربع الثاني من القرن الثاني عشر ، تحت حماية « القراخيطاي » من غير المسلمين — فقد دان الكثير منهم بالنسطورية — الذين عاملوا الاسلام معاملة غــيره من الاديان غير مبالين بانتصار السنّة . وقد تكونت عند الفريقين ، على اثر الهزيمــة التي أنزلوها بسلطان ايران السلجوقي ، سنجر ، اسطورة الخوري يوحنا ، ذلك الملك الغامض الذي قالوا عن مملكته انها تقع في مكان ما وراء الدول الاسلامية وتكهنوا بأنه سيقضي على الكفرة . ولكن كل ما حققه «القراخيطاي» في الواقع هو الدفع بجماعات جديدة من الاشقياء التركمان نحو ايران الشرقية فعاثوا فيهــا فساداً دون ان يؤسسوا فيها حكماً دائماً . ولم يقاوم هذه الجماعات ، في المناطق الشمالية الغربية المتصمة بالصحراء ، سوى خوارزم التي ما لبثت ان بسطت سيادتها على ايران بكاملها . ولكن الخوارزميين لم يستطيعوا ضم بغداد اليها ، ولا فرض حمايتهم على الخليفة ، فافتقروا الى عضد الاسلام القويم ؛ ولما كانوا ، بالاضافة الى ذلك ، يجندون جيشهم من قبائل تركية لم تعتنق الاسلام بعد ، ويعيشون لأجل الحرب والسلب ، فانهم لم يلبثوا ان فقدوا كل شعبية . فلقم الغزو المغولي خوارزم لقمة واحدة ؛ وتدفق الجيش المهزوم على العالم الاسلامي في الشرق الادنى ، وعاث فيــه فساداً وخراباً . ولم تنج من هذه الغزوات سوى الهند الشمالية الغربية بفضل تحصنها وراء جبال منيعة ؛ وقد عاشت آنذاك في كنف امارات تركيــة انتسبت ، من قريب او بعيد ، الى الغزنويين ، وخضعت منذ اوائل القرن الثالث عشر لنظام عسكري شبيه بنظام المماليك في مصر .

اما آسيا الصغرى المحتلة منذ عهد قريب ، وهي آخر ممتلكات الاسلام التركي ، فقد كوّنت في البدء عالماً شبه مغلق . ولا يزال الغموض يكتنف هذه الفترة من تاريخها ، لأن الذين احتلوها كانوا تركاناً خشنين غرباء عن تقاليد الدول الاسلامية القديمة وعن العالم البيزنطي الذي حلوا محله ، ولأن مؤرخيها ، بالتالي ، لم يبرزوا الا في عهد متأخر . الا اننا نميز فيها ، على الرغم من ذلك ، قطاعين متقابلين : ففي الولايات المتاخمة للحدود اليونانية من جهة تركان غــير مستقرين تقريباً يشنون غزوات الحرب المقدسة باستمرار ، كاولئك الذين خضعوا لسلطة رئيس مثّل لقبُه — دانشمند — ، في الارجح ، صفة « الحكيم » ، لا اسم العائلة ؛ ومن جهة ثانية أسس احــد فروع السلالة السلجوقية ، بمساعدة بعض المواطنين الايرانيين ، ورغبة منه في التعايش السلمي مع

بيزنطية ، دولة قوية وحّدت آسيا الصغرى تدريجياً وضمت اليها أرمينيا الغربية نفسها . وفي اوائل القرن الثالث عشر بدت سلطنة « الروم » السلجوقية - أي تلك التي سيطرت على الولايات « الرومانية » القديمة - وكأنها دولة عظمى : فنهضت فيها المدن التي كان التركمان الرحل قد أخضعوها ؛ ونشطت التجارة مع آسيا الداخلية والقسطنطينية ، ومع مصر وروسيا ؛ وتدخلت الملكية اخيراً ، بفضل جيشها القوي ، في شؤون سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا . فالتجأ الايرانيون الهاربون من تعسف الخوارزميين ومن الغزو المغولي الى منطقة الاناضول التركية التي ورثت آنذاك حضارة ايران وأطالت بقاءها ؛ اما علاقتها بالعالم العربي ، حيث ألف الاتراك ارستوقراطية عسكرية فحسب ، فقد كانت مقطوعة تماماً .

أدى تقدم تركيا الجديدة نفسه وأخذها بالحضارة الايرانية تدريجياً الى ايجاد هوة بين سكانها وبين التركمان المتمسكين بعاداتهم . ولكن جماعات مشردة جديدة ، هاربة امام هجمات الشعوب الآسيوية ، ظلت تجتاز الحدود الاناضولية باستمرار طامعة بالمراعي ، ثائرة على كل تنظيم اداري . فاتخذ عداؤها للدولة السلجوقية طابع حركة اجتماعية ودينية ، يقودها المدعو « بابا اسحق » الذي لا نعرف عنه شيئاً يذكر . فاليه تعود ابوّة كافة النزعات ، المارقة من الدين في الغالب ، التي ارجفت دورياً ، حتى فجر العهد المعاصر ، التركمان المتضايقين في الممالك التي أسسوها بقوة سلاحهم . اجل لقد غلب بابا اسحق على امره ولكن الاضطرابات التي أثارها مهّدت الطريق امام نجاحات المغول الذين فرضوا حمايتهم ، في ١٢٤٣ ، على الدولة السلجوقية ، وقضوا نهائياً ، في الواقع ، على سلطتها .

ثبات الحضارة الاسلامية

نرى لزاماً علينا هنا القول مرة اخرى ان الشرق الاسلامي ، الذي تبدل تبدلاً عظيماً بفعل الغزوات التركية ، والذي تجزأ ، سياسياً او عنصرياً ، تجزؤاً لم يشاهده من قبل ، ما زال يعرف حضارة زاهية جداً ، بوجهيها الرئيسيين ، العربي والايراني. وانما انطفأت الحياة الفكرية تدريجياً في نطاق البرهان الحر فقط : فالغزالي كان آخر الفلاسفة الشرقيين ، بينما تحول العلم الى ترداد اقوال السابقين . اما التاريخ فقد أمسى اعظم الالوان الادبية حيوية في العالم العربي ، واسفر عن انتاج وفير : التواريخ العامة او المغفلة ، او الموسوعات الضخمة الموضوعة للقراء « العرفاء » ؛ مذكرات ابن القلانسي الدمشقية الى جانب مذكرات اسامة بن منقذ ؛ ترجمة صلاح الدين لعماد الدين الاصفهاني ، وهي بجملة جداً في نظرنا ، الى جانب التاريخ العام الذي وضعه ابن الاثير الواسع الاطلاع (اوائل القرن الثالث عشر) وضمنه معلومات وأخباراً صحيحة كثيرة جداً عرضت ببصيرة وألمعية ؛ تراجم العلماء والاطباء لابن القفطي وابن أبي أصيبعة ، وهي جليلة الفائدة لمؤرخي العلوم ، وقد جاورت ، في رفوف المكتبات ، القاموس الجغرافي الضخم لياقوت ، الذي يعود الى السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ايضاً . وكان الانتاج الادبي بالمقابلة اقل وفرة ؛ ولكنه بلغ ذرى المجد « بمقامات » الحريري الذي سار على خطى الهمذاني ، بينما تمثلت الصوفية خير تمثيل بالاسباني

ابن العربي الذي أمسى ، في ملجأه الشرقي ، اول عالم عربي باصول الصوفية الجديدة ، وبالمصري ابن الفارض الذي كان شاعراً كبيراً .

واستطاع الادب الايراني من جهته ، بعد ان تخلص من قيود كل ارستوقراطية مستعربة ، ان يتفتح بحريـة كاملة. واذا بقيت خوارزم مركزا لتدريس الثقافة العربية واشتهر فيها اللغوي الزمخشري وكثيرون غيره ، فان اللغة الفارسية قد تفوقت ، منذئذ ، على اللغة العربية كوسيلة للتعبير الادبي . وهو الشعر هنا ما سار في الطليعة وانتج اجمل روائعه : فعمر الخيام الذي عاصر كبار السلاطين السلجوقيين واشتهر خصوصا برباعياته ، الملأى بتشاؤم مستعذب ملحد ، كان رياضيا وفلكيا كبيرا ايضا ؛ وفي القرن التالي ، كتب النظامي ، الذي جاء من حدود اذربيجان الشمالية ، روايات شعرية طويلة تتميز بشعور رقيق واسلوب متقن السبك ؛ اما السعدي اخيراً ، الذي عمّر طويلا وانهى حياته في عهد المغول ، فهو بدون منازع اشهر الشعراء الفرس بديوانه « حديقة الورود » الذي ضمنه ، نثراً وشعراً ، امثالاً مختلفـة في الحقائق الاخلاقية . وانتج الادب الفارسي في الوقت نفسه مؤلفات صوفية أكثر عدداً واروع جمالاً منها في الادب العربي : ونذكر هنا على سبيل المثال السهروردي الناثر ، والشاعر « فريد الدين العطار » (اواخر القرن الثاني عشر) الذي اتجه نحو الادب التعليمي ولكنه اوجد لوناً سيبلغ منه الذروة ، ابان الفتح المغولي ، في منتصف القرن التالي ، جلالُ الدين الرومي الذي ولد في ما وراء النهر ، وقضى كل حياته ، كما يدل على ذلـك اسمه ، في آسيا الصغرى حيث اسس جمعية الدراويش المشهورين باسم الدّوارين .

بيد ان بعض الاوساط التركية ، حتى بين الذين لم يأخذوا بالحضارة الايرانيـة ، تأثرت بالثقافة الاسلامية . ويبدو ان الاتراك قـد نسوا كتابتهم الخاصة ؛ فاعتمدوا كتابة القرآن . فاستخدمت وسيلة التعبير هذه ، في آسيا الوسطى ، منذ القرن الحادي عشر ، في وضع ملخص الحكمة الاسلامية ، « كوداتكوبيليك » ، وفي نظم أشعار تركيـة لا تزال شعبية حتى أيامنا هذه . ادخل عليها « احمد يسفي » بعض المقتبسات الايرانية التي تتفق وشعور ابنـاء جلدته الاتراك من الناحية الدينية . وارتسم عند تركان آسيا الصغرى ايضاً ادب تناقلته الالسن اولاً ، ثم أنتج بعض نفثات الاقلام في عهد السيطرة المغولية .

اضف الى هذا ان العهد التركي – الذي امتد اجمـالاً من منتصف القرن الحادي عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر – كان ، بالنسبة للشرق الادنى الاسلامي ، فترة ازدهار فني عظيم . اجل ان من شأن اندراس الابنية السابقة اندراساً تاماً تقريباً ان يحملنا على المغالاة في الاهميـة النسبية للآثار البنائية التركية . ولكن الواقع هو ان السلجوقيين والزنكيين والايوبيين كانوا مولعين بالبناء وان نوع أبنيتهم ليس دون عددها اهمية وشأناً . ويبرز فيها الاثر الايراني ، او بالاحرى الخراساني ، بروزه في الادب ؛ ولكنه ربما تداخل فيها ببعض التقاليد التركية ؛ ومهما يكن من الامر ، فان فناني الاسلام الاتراك هم الذي دفعوا بهذه النهضة العظيمة الى الامام .

لم يبق من الابنية المدنية شيء يذكر ؛ ولكن هندسة العمارة العسكرية كانت اوفر حظاً في البقاء . رأينا من قبل ان حصوناً كثيرة شيدت في الشرق الادنى خلال القرنين العاشر والحادي عشر . اما في القرن الثاني عشر فقد ارتفعت بصورة خاصة القلاع والاسوار حول المدن : فقد اضاف صلاح الدين قلعة المقطم الى أسوار القاهرة التي بناها بدر الجمالي قبل السنة ١١٠٠ ، بينما شيّد ابنه الظافر في حلب ، القلعة المشهورة التي لا تزال قائمة حتى أيامنا هذه والتي بنيت بهذا الحجم ، كما يبدو ، حتى لا تكون دون الحصون الصليبية اهمية ؛ ولم يتوفق المؤرخون حتى يومنا هذا الى التمييز بين التأثيرات المتبادلة التي تفاعلت في الشعبين المتزاحمين في سوريا فادت الى تقدم سريع في هندسة العمارة العسكرية .

ترك نشاط الملوك الاتراك الديني وأعمالهم الخيرية ، آثاراً بنائية كثيرة . وقد درس العلماء درساً مستفيضاً جامع اصفهان العظيم المجهز بأربعة أواوين فخمة على جوانب فنائه ، وبكشك داخلي كبير مخصص للسلطان ، ومئذنـة مستديرة رشيقة لن يلبث طرازها ان ينتشر انتشاراً واسعاً ، وبشرفة منقوشة اخيراً يعتليها المؤذن للدعوة الى الصلاة . وراجت سوق القبور الفخمة كضريح سنجر في مرو الذي جاء اجمل وأكمل من القبور السامانية السابقة . اما المدرسة ، وهي طراز بنائي جديد بمساكنها وقاعات التدريس فيها ، فقد جاورها باطراد ، على غرار الجامع ، ضريح مؤسسها . وباستثناء سوريا ، اتاح استعمال القرميد للبنائين الاستفادة من تنضيد القراميد نفسه لزخرفة الابنية من الخارج ، بينما استمرت طرائق التزيين النقاشي او المتعدد الالوان في اعمال الزخرفة الداخلية . ونشأت عن ايصال القباب المستديرة بجدران القاعات المربعة ، وعن تزيين اقواس الابواب الكبرى ، المشاكي المدرجة ، « المقرنصات » ، التي درج استعمالها انطلاقاً من تركستان حتى المغرب . اما نمط الكتابة المدفنية الذي حافظ على دوره الزخرفي ، فقد اقترب تدريجياً من الخط العادي ، وغدا بالتالي أكثر اناقة ورشاقة . اضف الى ذلك ان فن الخطاط ملازم لفن المزوّق الذي تعود نماذجه المعروفة الاولى الى مصانع بلاد ما بين النهرين في اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثلث عشر . ويجب ألا ننسى اخيراً آيات الصناعة النحاسية في دمشق ولاسيما في الموصل ؛ فهي تفيض حياة بتمثيل المشاهد على سليقتها ، كتلك الممثلة على جرن العماد المنسوب الى القديس لويس ، الذي احضره هذا الملك من الارض المقدسة ليزين به « الكنيسة المقدسة » في باريس .

وفتح الاتراك في الاناضول نطاقاً جديداً للفن ، كما لدين الاسلام ايضاً ؛ فاكتست البلاد بالجوامع والمدارس والضرائح والخانات في قونيه وقيصرية وسيواس وديفريغي ؛ وقد تداخلت فيها التأثيرات الايرانية .بالتقاليد المحلية في بنـاء الحجر ، وبالتقنية الارمنية الخاصة بالنقوش البارزة . وليس بمستبعد ان تكون بعض التمثيلات الحيوانية ، وحتى البشرية ، مستوحاة من نماذج تركية قديمة اتقن صنعها في آسيا الوسطى . فلا مجال والحالة هذه ، امام هذا القدر الكبير من المنجزات المعقدة والمبتكرة ، للكلام عن طابع هدام ترتديه السيطرة التركية .

امام هـــذا الازدهار الادبي والفني ، تبدو نشاطات الطوائف المسيحية الشرقية هزيلة جداً وشبه رسوبية . وقد أعرب عنهـا منذ ذاك الحين، الا عند الارمن واليعاقبة، باللغة العربية وفي مؤلفات معدّة لجمهور محدود جداً. وانما تجدر الاشارة الى ان الاقباط ، الذين كانوا متخلفين عن مسيحيي آسيا ، قـد بذلوا مجهوداً كبيراً في سبيل نهضة روحية لا مناص منها لبقاء طائفتهم. فنتج عن ذلك وضع مجموعات قانونية أشرف عليها آل عسّال في القرن الثالث عشر، بينما برز بعض المؤرخين الاقباط ايضاً: وهكذا فان ابن العميد، الموظف لدى الايوبيين، قد اشتهر في عهد مبكر في اوروبا باسم *Elmacin* ، وان مؤلفاته لقنت « مستشرقينا » الأول مبادىء تاريخ البلدان الناطقة بالضاد . ويجب كذلك ان نخص بالذكر الطوائف اليعقوبية التي حدثت نهضتها الفكرية في العهد السلجوقي منطوية عـــلى مغالطة ظاهرية . ولكن لهـــا ما يفسرها فأسياد آسيا الصغرى الجدد ، الحذرين من العرب واليونانيين معاً ، قد آثروا اختيار موظفيهم المحليين بين مسيحيي الطقس السرياني ؛ ولما كان بعض هؤلاء يقيمون في بلاد تتكلم اليونانيـــة والبعض الآخر في بلاد تتكلم العربية ، آثر باعثو هذه النهضة الادبية العودة الى اللهجة السريانية القديمة، مع ان أبناء دينهم قد انقطعوا عن التكلم بها : بهذه اللغة العلمية ، الميتة ، وضع مفكر كبير ، هو البطريرك ميخائيل السوري ، في القرن الثاني عشر ، يوميات نقلت الى الارمنية وهو بعد على قيد الحياة ؛ وبلغت هـذه الحركة ذروتها في اوائل العهد المغولي بمؤلفات ابن العبري التاريخية والسياسية والدينية ؛ الا ان عدم انتشار هذا الادب قد جعل من هذا المؤلف آخر مؤلفيه المشهورين .

كانت الثقافة الارمنية آنذاك اعظم حيوية وأكثر تنوعاً . ما زال بعض الارمن يعيشون ، عند حدود الاناضول واذربيجان ، تحت سيطرة الامراء الاتراك ، وضم البعض الآخر منهم الى مملكة جيورجيا التي تأسست وتوسعت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فشجع هـــذا الانصهار في دولة مسيحية ، وان يونانية الطقس ، على نشأة اول مركز للثقافة الارمنية حول بعض الاديرة في حوض الاراكس الاعلى . اضف الى ذلك ان أرمناً آخرين قد فروا الى كيليكيا امام الفتح التركي لأواسط آسيا الصغرى . فتأسست هنا، خلال القرن الثاني عشر، دولة صغرى مستقلة ساعدتها بيزنطية وفرنجة سوريا تارة وضايقوها اخرى ، بلغت اوج عزها في اوائل القرن التالي مع أميرها ليون الكبير وفتحت أبوابها واسعة امام المقتبسات اليونانية او اللاتينية، محافظة في الوقت نفسه على قومية متحذرة . اما مركز الاراكس ، البعيد عن التأثيرات الغربية ، فقد أنتج خصوصاً مؤلفات تاريخية والمجموعة القانونية الهامة الـــتي وضعها مخيطار غوش . ولكن مركز كيليكيا والفرات يعنينا مباشرة، اذ ان «متى الرهاوي» هو احد المصادر الرئيسية لتاريخ الحملة الصليبية الاولى، وان للترجمة الارمنية لمجموعة القوانين الانطاكية الفضل في ايصال هـــذه الوثيقة الاساسية للقانون اللاتيني في الشرق .

ويعود لتأسيس دولة جيورجيا اخيراً بعث ادب هذا الشعب وفنه . فقد انضمت آنذاك الى

المؤلفات الدينية المستوحاة من اليونانيين المؤلفات التاريخيـــة ، والملحمة القومية التي وضعها « شوطا روستافيلي » والتي يـــبرز فيها الاثر الايراني . واستمرت الطوائف الارمنية في الوقت نفسه ، حتى تلك التي حرمت حتى تشييد الكنائس ، في وفائها لتزويق المخطوطات . ولكن اسهامها الاعظم في تاريخ الفن يقوم حتى تاريخه في الدروس التي لقنها الارمن والجيورجيون على السواء للفنانين الروس وفناني البلقان ايضاً في الارجح .

اما النتيجة فهي ان حياة هذه الطوائف في وسط الجماهير الاسلامية قد ازدادت انعزالاً يوماً بعد يوم ، وهذا ما يفسر ضعف انتشار ثقافتها ؛ وقد شعر رجال الفكر المستنيرون من أبنائهـا بمخاطر هذا الوضع . فما ان اتضح ، في القرن الثالث عشر ، فشل الحمـــلات الصليبية للغرب اللاتيني ، حتى جرت بعض الاتصالات بين المرسلين الآتين من روما وكهنوت الطوائف الشرقية ، ولكن على الرغم من الاوهام الساذجـــة التي غرر موفدو البابوية من فرنسيسكان او دومينيكان انفسهم بها ، فان الاختلافات قد بقيت اعظم من ان يمسي التقارب مثمراً ودائماً ؛ وكان من شأن هذا التقارب ، لو حصل ، ان يهدد بالخطر التساهل الذي أفادت منه الطوائف الشرقيـــة لدى المسلمين الذين ربما كانوا اعتبروه تحالفاً سياسياً مع اعداء الاسلام. اما الموارنة ، الذين ضموا كلهم الى سوريا الفرنجية فقد عادوا كلهم منذ القرن الثاني عشر الى الوحدة الكاثوليكية ، دون ان يضحوا بشيء من استقلالهم على كل حال ، ولكن لم ينح نحوهم ، من الكنائس الاخرى ، سوى بعض الفئات الارمنية في كيليكيا . ثم تجددت هذه الاتصالات بعد الفتح المغولي ، الا انهـــا ، على الرغم من فائدتها ، قد انتهت الى فشل ذريـع .

غسق بيزنطية

اذا ولّى انصار هذا التقارب وجههم شطر كنيسة روما ، دون كنيسة القسطنطينية ، فلأن الامبراطورية البيزنطية قد زالت عملياً من الوجود ، على الرغم من التماعتها الاخيرة في القرن الثاني عشر . فلا ريب في ان عيوبها الداخلية كانت مسؤولة الى حد بعيد عن الكارثة التي حلت بها من جراء الفتح التركي لآسيا الصغرى والتي اضيف اليها في السنوات الاخيرة من القرن الحادي‌عشر تقدم "بتشنيك في أعالي الدانوب وهجوم النورمنديين الايطاليين على ابيروس . ولكن البتشنيك محقوا ، والنورمنديين صدوا بعد زمن قصير . أما أتراك آسيا الصغرى الذين لاقوا صعوبات جمة في تنظيم فتوحاتهم ، فقـــد استطاع البيزنطيون – بفضل عضد الحملة الصليبية الاولى ايضاً – ايقافهم واقصاءهم عـــن مشارف النجد الاناضولي على البحر . فباتت بيزنطيـــة آنذاك سيدة المضائق وايجه واليونان وتراقيا وبلغاريا دون منازع ؛ ومن حيث هي حامية الصرب ، فان قوتهـا ، على هبوطها ، ما زالت تلعب دوراً هاماً في السياسة الدولية . وقد استطاع مانوئيل كومنينوس ، في الربع الثالث من القرن الثاني عشر فرض احترام رأيه في الشؤون الدانوبية والتدخـــل في الدسائس الايطالية ولعب دور هام في الشرق اللاتيني. اجل لقد ثقلت وطأة تأثير الارستوقراطية العلمانية في داخل الامبراطورية : فقد ازدادت « مداخيل الحيطة » وأمست وراثية ، وضم العظماء اليهـا موارد الاديرة التي قدمت لهم بمثابـــة مكاسب ؛ وكانت سلالة آل كومنينوس عوناً كبيراً لانتصار

الارستوقراطية التي انحدرت منها. ولكن خسارة آسيا الصغرى ، قد اضرت، في الوقت نفسه، اضراراً بالغاً بأعظم عائلات الامبراطورية ، فاستطاعت الدولة القاء الاهابة والخوف في قواها الهدامة . وهذا ما يفسر استقرار عهد هذه السلالة اذا ما قورن بالانقلابات المتعاقبة في القرن السابق : فقد خاضت بيزنطية آنذاك حروباً عديدة للذود عن حدودها ، ولكنها نعمت في الداخل ، على العموم ، بسلم نسبي .

بفضل هذا الاستقرار، سارت النشاطات الفكرية والفنية سيرها الطبيعي . فالتاريخ لا يزال حقلاً خصباً : فروت آنّا كومنينوس وقائع ملك ابيها ألكسيوس؛ وأكمل كيناموس روايتها حتى ملك مانوئيل ، وألف نيكيتاس خونياتوس بحثاً مفصلاً مستفيضاً في التاريخ البيزنطي منذ تولي يوحنا كومنينوس حتى بعيد الحملة الصليبية التي نظمت في السنة ١٢٠٤ ، بينما حظي موجز التاريخ العام الذي وضعه زوناراس ، بعد مرور زمن قصير على تأليفه ، بشهرة واسعة عظيمة . وكتب في الوقت نفسه ثيوفيلاكتوس الاوكريدي، المعاصر لالكسيوس، ثم ميخائيل خونياتوس واوستاخيوس التسالونيكي ، في اواخر القرن الثاني عشر ، وبلغة كلاسيكية وعلمية ، رسائل وخطباً ومؤلفات دينية ملأى بالمعلومات المفيدة . ووصلت الينا ، بالاضافة الى ذلك ، حاملة اسم ثيوذورس بروذروموس بنوع خاص ، مجموعات قصائد منظومة باللغة الشعبية تذكرنا بـ « فيّون » ، وان هذا اللون ، الجديد في بيزنطية ، سيكتب له البقاء . اما الابحاث الفلسفية فقد ضعفت بفعل حركة مماثلة لتلك التي عرفها الاسلام آنذاك : فان جارات يوحنا الايطالي ، احد تلاميذ « بسلّوس » قد أقلقت الارثوذكسيين ؛ واحترز الناس من المستوحيات الوثنية ، التي اخصبت ذاك الاخصاب العجيب في الاجيال السابقة ، واذعنوا كل الاذعان لتعاليم الدين .

اما الفن فلم يصب بالمقابلة بأي وهن . فان قصر بلاشيرن الذي شيّده آل كومنينوس في اقصى « القرن الذهبي » ، والذي تبقّى منه الجزء المعروف اليوم بـ « تكفور – سراي » ، قد اثار الاعجاب على غرار « القصر العظيم » الذي اهمل شيئاً فشيئاً. وما زال البيزنطيون يشيدون الكنائس في الاديرة والابرشيات ، ككنيسة « الضابط الكل » في القسطنطينية . ويلفت الانتباه بصورة خاصة ان اثر الفن البيزنطي ما زال يمتد الى ما وراء حدود الامبراطورية المنكمشة : فالبلدان السلافية التي اعتنقت الدين المسيحي حديثاً طلبت الى مهندسي العمارة اليونانيين تشييد كنائسها ؛ وفي ايطاليا الجنوبية وصقليا وضعت مواهب الفنانين المحافظين على التقليد البيزنطي في خدمة كبار البنائين من الامراء النورمنديين؛ واستوحت بعض أبنية الغرب اللاتيني نفسها كـ «سان ـ فروت في بريغو» بفعل تأثيرات غير واضحة ، بعض النماذج البنائية البيزنطية . واستغل مؤلفو وفنانو البلدان اللاتينية او السلافية ما تعلموه بحرية ، ولم يترددوا في البحث عن مصادر وحي اخرى في امكنة اخرى . وعلى الرغم من ذلك فقد حصل التوازن آنذاك بين بيزنطية التي ما زالت تنبض بالحياة ، وبين الغرب الذي اخذ يستيقظ من سباته .

ان التضاد لمدهش بين نشاطات الفكر هذه والانحطاط الاقتصادي الذي منيت به الامبراطورية اليونانية منذ اواخر القرن الحادي عشر . فلما كانت الفتوحات التركية قد حالت تقريباً دون الاستعانة ببحارة الولايات الآسيوية ، حين مسّت الحاجة الى اسطول للوقوف في وجه النورمنديين ، اضطر الكسيوس كومنينوس الى التحالف مع البندقية ، القوة البحرية الوحيدة في البحر المتوسط ، لقاء امتيازات وضعت في يدها عملياً احتكار تجارة الامبراطورية الخارجية (١٠٨٢) . ولم يجد خلفاء الكسيوس حلاً آخر لاضعاف نفوذ البندقية الا بموازنتها بامتيازات مماثلة يمنحونها الجنويين والبيزيين ويفيدون من المنافسات التي تقوم بين الطرفين. اما في الامبراطورية التي تناقصت مواردها الجبائية تدريجياً ، فقد تعاظم باطراد تأثير الجاليات الايطالية المقيمة في الاستانة ، وتعاظم معه تدخل اللاتين في السياسة البيزنطية : فدول الصليبيين التي لم تقم بعملية مفيدة ضد اتراك الاناضول ، قضت في الشرق على النفوذ اليوناني ؛ والجيش البيزنطي نفسه قد لجأ الى خدمات المرتزقة الغربيين الذين ازداد عددهم ازدياداً مطرداً ؛ وتعددت في العائلات المالكة كما في الارستوقراطية الزواجات المختلطة ، التي ادخلت على بلاط مانوئيل كومنينوس عادات نصف لاتينية. الا ان الشعب اليوناني لم ينجرف في هذا التيار، فأظهر اشمئزازه ، بتأثير من اكليروسه، من التدخل الغربي . فحاول مانوئيل اخيراً (١١٧١) ، بعد فوات الاوان ، التخلص من التجار الايطاليين ، مع انه لم يكن بغنى عنهم ؛ فجاءت محاولته بمثابة حرب معلنة في غير أوانها افضت، بعد وفاة الامبراطور ، الى تقتيل كافة لاتين القسطنطينية. وبذلك قطعت بيزنطية المستضعفة اتصالها بالغرب حين بدا رجحان كفة الغرب على كفتها في ميزان القوى .

جاءت النتيجة سريعة وغامضة ومسرحية. انتهج مانوئيل كومنينوس سياسة عظمة ارهقت رعاياه، دون ان تجدي فتيلاً على كل حال، اذ ان كارثة ميريوكيفالون في السنة ١١٧٦ قد أعطت البرهان القاطع على استحالة استعادة تركيا الآسيوية . فاستهدفت غضبة الشعب الارستوقراطية العسكرية واللاتين على السواء ؛ وعجز اندرونيكوس كومنينوس المغتصب ، وحكم سلالة « الملائكة » القصير ، من بعده ، عن تأسيس أي بناء دائم على الانقاض التي كدستها الحركة المعادية للاتين. فاستفاد النورمنديون والبلغاريون والصرب واتراك الاناضول من تصارع الاحزاب وقاموا في آن واحد بهجماتهم او بثوراتهم على الامبراطورية . واذا سعى « الملائكة » آنذاك للتعاون مع صلاح الدين على اللاتين، فقد فكرت فئات اخرى بالتعاون مع هؤلاء لاستلام الحكم. اجل نحن لا نعلم بالضبط مدى اطماع بعض قادة الحملة الصليبية الرابعة ، منذ مغادرتها الغرب ، ضد الامبراطورية البيزنطية . ولكن الواقع هو ان البندقيين وفرسان فرنسا الشمالية قد دخلوا القسطنطينية عنوة في اوائل السنة ١٢٠٤ وعملوا فيها نهباً واستلاباً وأقاموا على انقاض بيزنطية « امبراطورية لاتينية » ضعيفة .

قد يجوز ، لاعتبارات شتى ، التوقف بالتاريخ البيزنطي عند هذا التاريخ . ولا يعني ذلك قط ان اللاتين استطاعوا تدويخ كافة الاراضي اليونانية : فلا يزال منها ، خارج سيطرتهم ،

منطقة « طرابزون » ومنطقة ابيروس و « امبراطورية » نيقيه بصورة خاصة التي يرجح ان الأتراك رأوا من الخير ابقاءها على شواطىء آسيا الصغرى الغربية ، والتي توصل ملوكها ، بفضل جيش من الفلاحين ، الى توطيد هذا الملجأ الاخير لثقافة يونانية عرفت الازدهار آنذاك على يد « نيكيفوروس بلميدس » واضع دائرة المعارف . ولكن ما أوردنا ليس سوى بقاع متشتتة تسودها التفرقـة نفسها التي تسود امارات الامبراطورية اللاتينية . اما الذين سيستفيدون من هذه العملية فهم دول البلقان السلافية في الدرجة الاولى ثم الاتراك في اجل لاحق بعيد . لذلك لم تخدم حملة السنة ١٢٠٤ قضية التقارب اليوناني اللاتيني قط ، بـل اوجدت هوّة يستحيل اجتيازها بين فرسان الغرب والجماهير اليونانية المتكتلة حول كنيستها ؛ ويمكن القول بهذا الصدد ، ان الانشقاق الديني الذي لا يزال قائمـاً حتى أيامنا هذه انما يعود تاريخه الى السنة ١٢٠٤ لا الى السنة ١٠٥٤ .

روسيا قبيل الفتح المغولي

كان مقدراً للشعوب البلقانية ، بعد ان تحررت بسقوط بيزنطية ، ان تبلغ ذروة قوتها في القرن الرابع عشر . ولكن هذا القول لا يصح في روسيا التي توقف تاريخها بقسوة ، على غرار الاسلام ، منذ الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، بفعل الفتح المغولي . كان التصدع ، في هذه المساحات السلافية الشاسعة ، قد لحق بامارة « كييف » ؛ ولم يكن غريباً عن هذا التصدع نظام انتقال السلطة القاضي باعادة توزيـع الاراضي ، بحسب تسلسل معين ، كلما توفي احد امراء العائلة المالكة التي مارست سيادة متضامنة . الا ان انحطاط الدولة « الكييفية » يردّ ايضاً الى توسع الشعب الروسي الذي اتجهت تجارتـه ، آنذاك ، شطر المانيـا وقزوين بالتفضيل على القسطنطينية ؛ ويرد ايضاً وخصوصاً الى غارات سكان السهول البائرة من « كومان » او « بولوفتس » الذين طردوا سلافيي المناطق الجنوبيـة وأرغموهم على استعمار السهول القليلة السكان التي يرويها الدنيستر ، او منطقة الغابات شبه المقفرة ، في الشمال الغربي ، التي تمتد حتى اواسط الفولغا . فنشأت عن هـذا التشتيت شعوب مختلفة ، الاوكرانيون ، والروس البيض ، والروس الطوال . وتحررت آنـذاك منطقتان : نوفغورود وبسكوف ، في اقصى الشمال ، اللتان اعطتنا الجمعيات الاقليمية استقلالاً داخلياً وتنظمتا كجمهوريتين تجاريتين ما لبثت عامة الشعب فيها ان قاومت اوليغارشية رجـال الاعمال والحكام ؛ ونظّم « اندريه بوغوليوسكي » في الشمال الشرقي ، منذ منتصف القرن الثاني عشر ، في المنطقة الـتي ستنمو فيها موسكو قريباً ، امارة « سوزدال التي احدثت انقلاباً في تاريخ ماض تمركزت فيه روسيا حول الدنيبر .

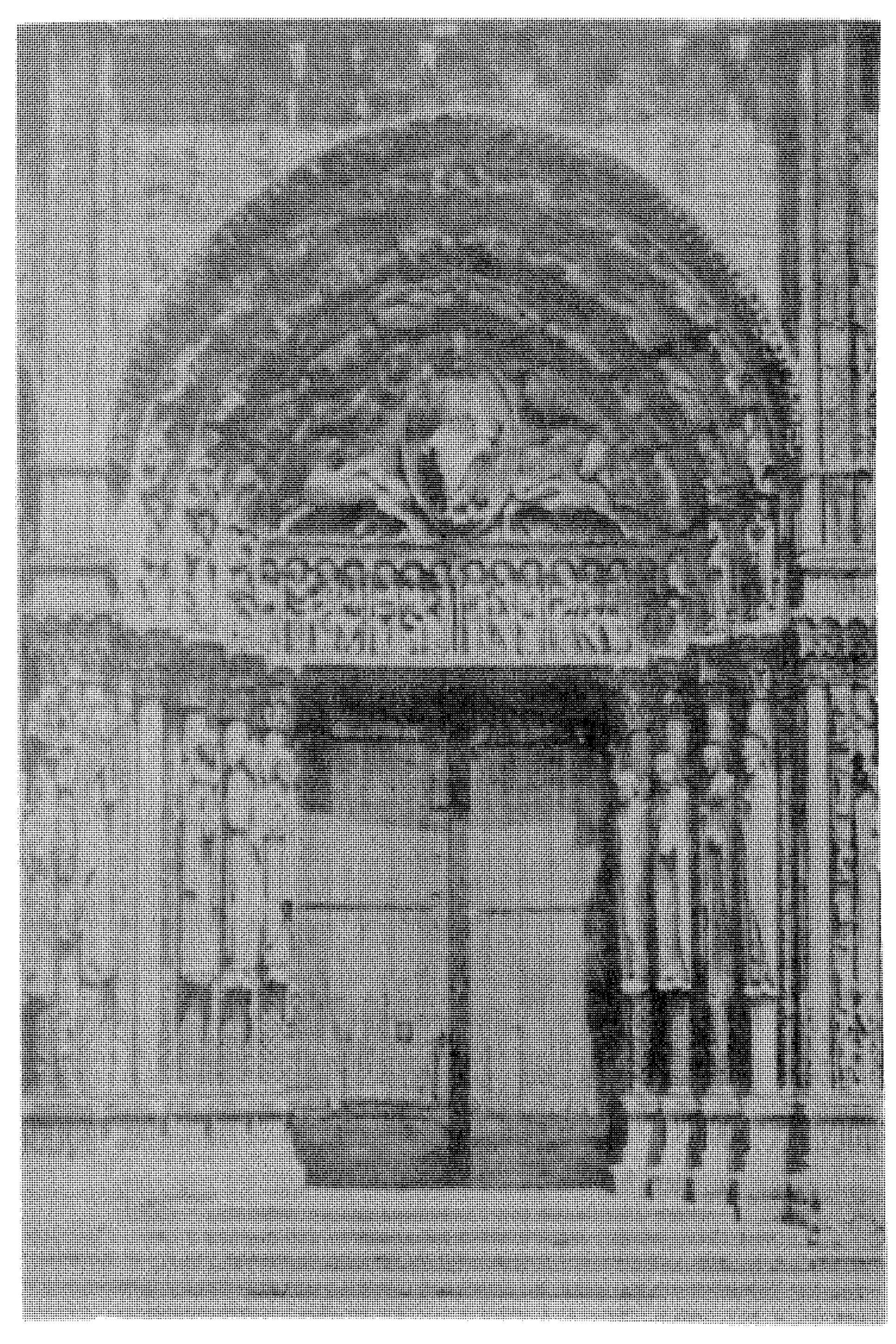
على الرغم من هذه التيارات المختلفة التي ترتسم بين الشعوب الروسية ، احتفظت « كييف » بمركزها الادبي : فانما وضعت في كييف نفسها ، في السنوات الاولى مـن القرن الثاني عشر ، الـ « روسكايا برافدا » أي مجموعة القوانين الروسية ، وظهرت اليوميات المنسوبة لنسطور التي تشيد بمآثر اسطورية او واقعية أتتها السلالة القديمة . وفي « كييف » ملك على التوالي قسطنطين

مونوماكوس الذي ستتجسم الحكة بخياله الشعبي، و « ايغور » ، بطل الحرب ضد «الكومان».
وان ما يلفت الانتباه في كلما بلغنا من الادب المكتوب في ذاك الوقت، او من التقاليد الشفهية، هو عمق التضامن والوطنية الروسيين. ولذلك لم يكتف الادب بالنقل عن اليونانية ، بل انطلق انطلاقة قادته الى الاستقلال. ففي هذا العهد اخذ بعض الشعراء يشيمون روايات نصف اسطورية تعبّر عن الحكمة الشعبية، استهوت الفلاحين الروس حتى فجر القرن العشرين, اجل ان تحريرها قد حدث في عهد متأخر جداً ، وهذا ما يحمل الشك مخيّماً على صحة رواية « حكمة ايغور » الشهيرة . ولكن اذا صحت نسبتها الى القرن الثاني عشر فانها ترينا روسيا الناهضة قادرة على وضع ملحمة خليقة ، من حيث قيمتها الادبية ، بأعظم حضارات العصر . وبدا الاستقلال نفسه والعبقرية نفسها في الفن : فلم تعد روسيا القرن الثاني عشر، على غرار الدولة الكييفية القديمة ، مجرّد ولاية من ولايات الفن البيزنطي . فقد عرف مهندسو أبنية نوفغورود وبسكوف كيف يوفقون بين التأثيرات اليونانية وتأثيرات المانيا البلطيكية، كما عرف ذلك ايضاً رسامو الإيقونات ومزوقو الكتب . ونشأت بصورة خاصة في المنطقة التي سيطلق عليها اسم موسكوفيا ، أي في سوزدال وفلاديمير ، هندسة عمـــارة حجرية ، جديدة كل الجدة بفنى زخرفتها المصورة ، يستحيل علينا ان لا نرى فيها تقليداً للنماذج الارمنية والجيورجيـــة . ويبدو في كل مكان ، بالاضافة الى ذلك ، ان فنانين روسيين كثيرين قد حلوا محل الفنانين الاجانب وطبقوا دروسهم بحرية متزايدة .

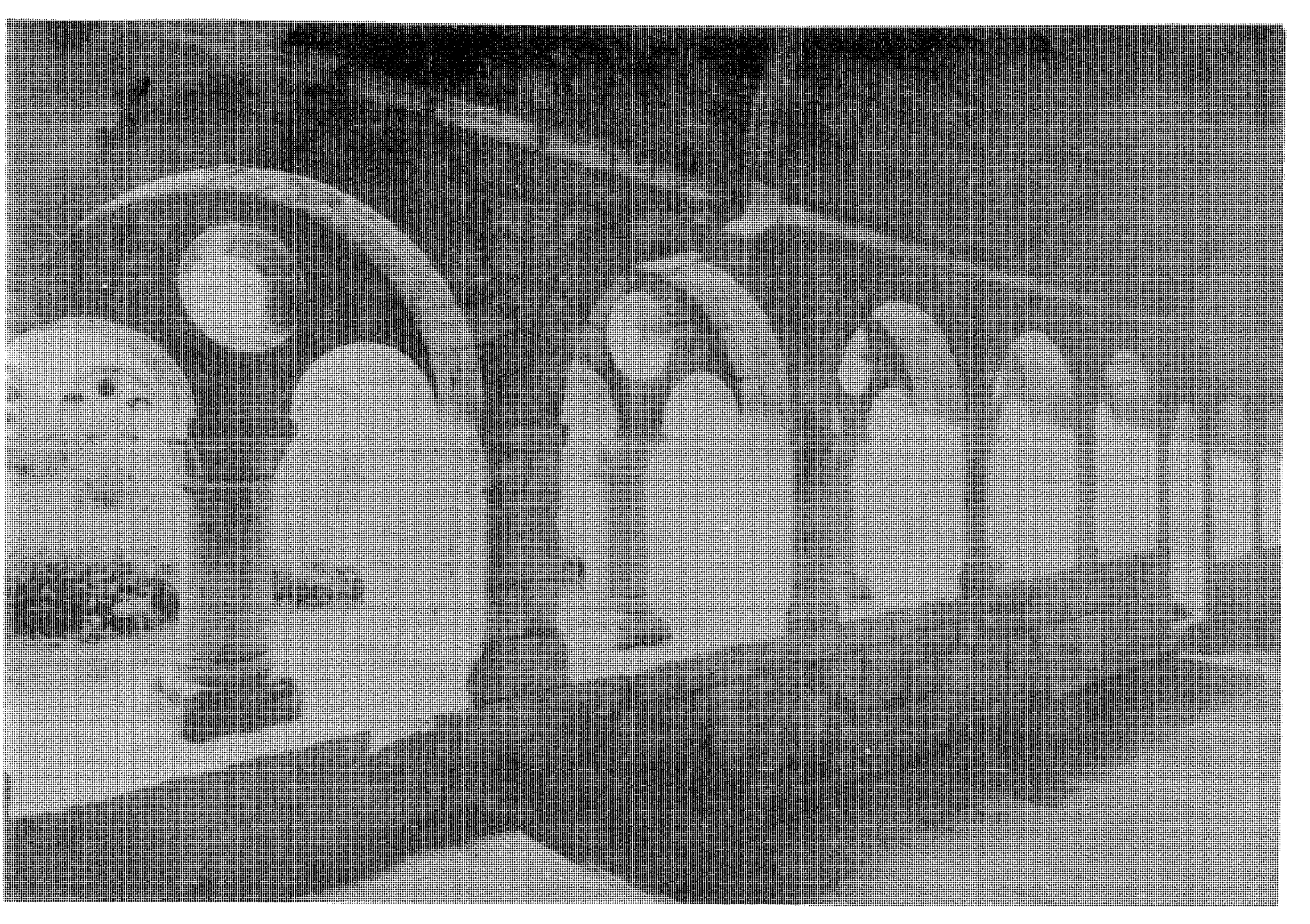
بيد ان روسيا التي بدت حضارتها على وشك التفتح، لن تنجو، شأن الاسلام التركي الذي بدا مستقراً ، من كارثة جديدة : فقد دقت ساعة الغزو المغولي .



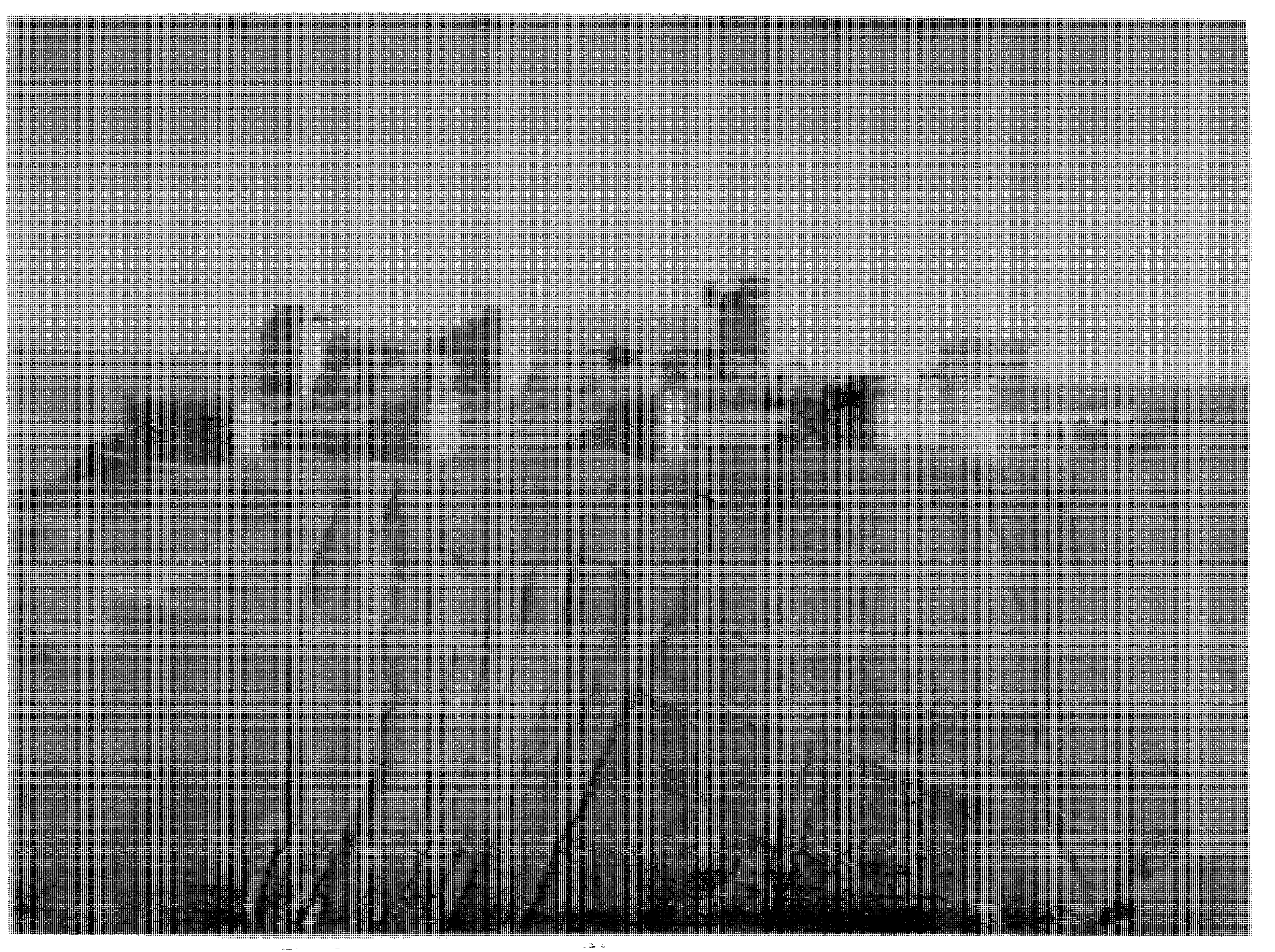
اللوحة ١٧ ـ المسيح في جلاله



اللوحة ١٨ – الباب الملكي في كاتدرائية شارتر (القرن الثاني عشر) .



اللوحة ١٩ – رواق دير تورونيه (القرن الثاني عشر) .

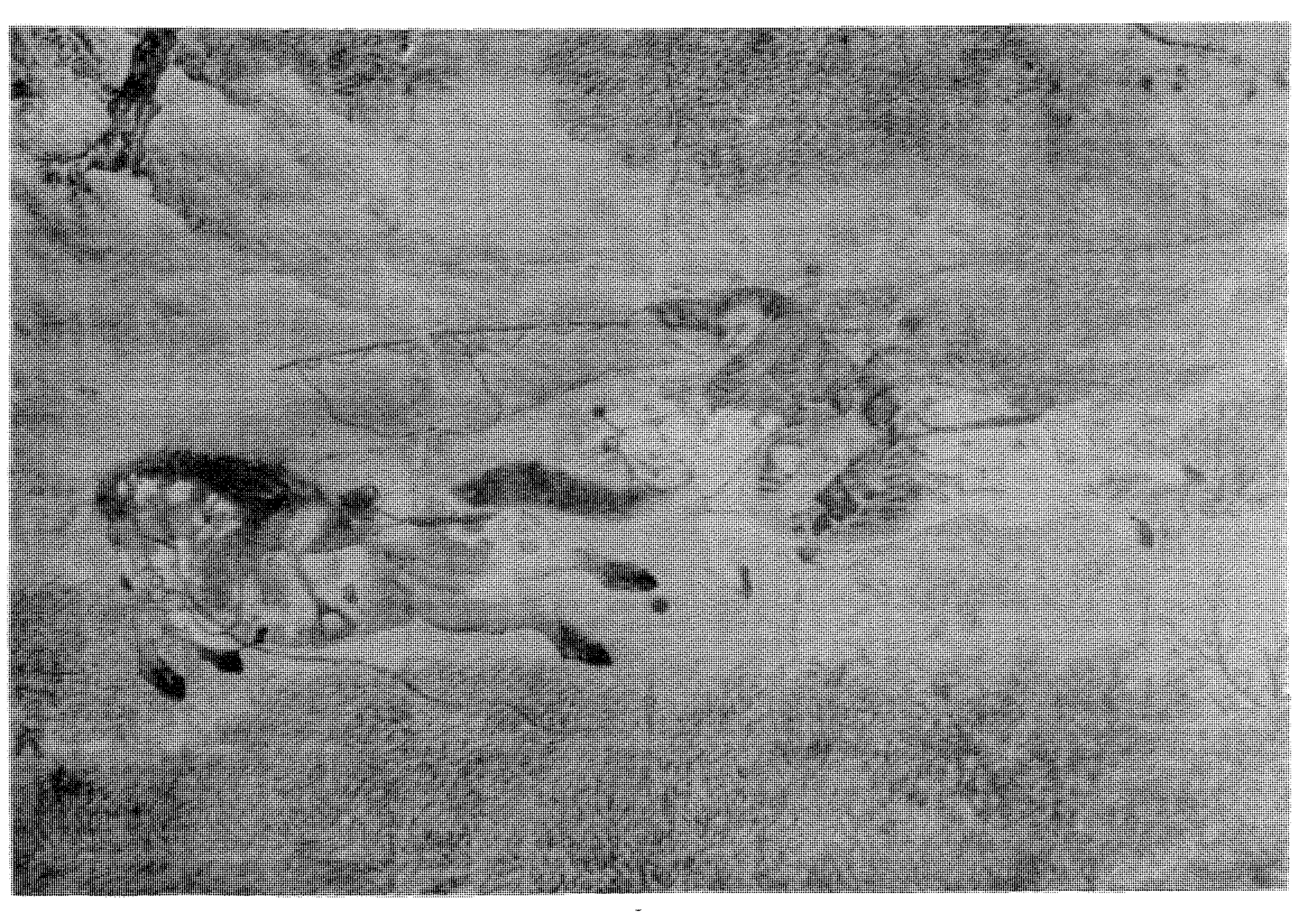


اللوحة ٢٠ – قلعة الفرسان (حصن الأكراد) ، قلعة صليبية في سوريا (القرن الثاني عشر) .

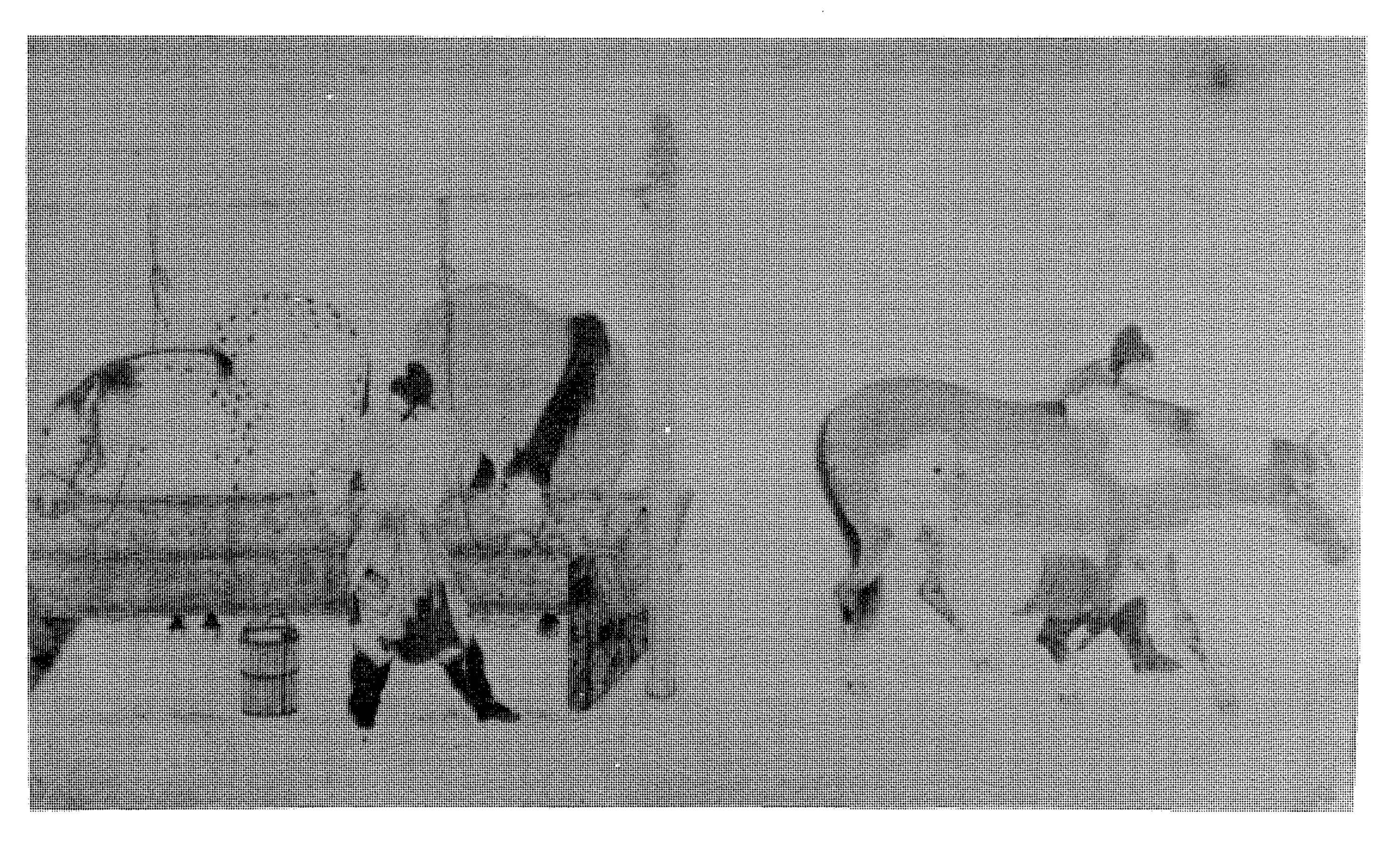
اللوحة ٢١ – قلعة حلب (سوريا) ، القرن الثاني عشر .



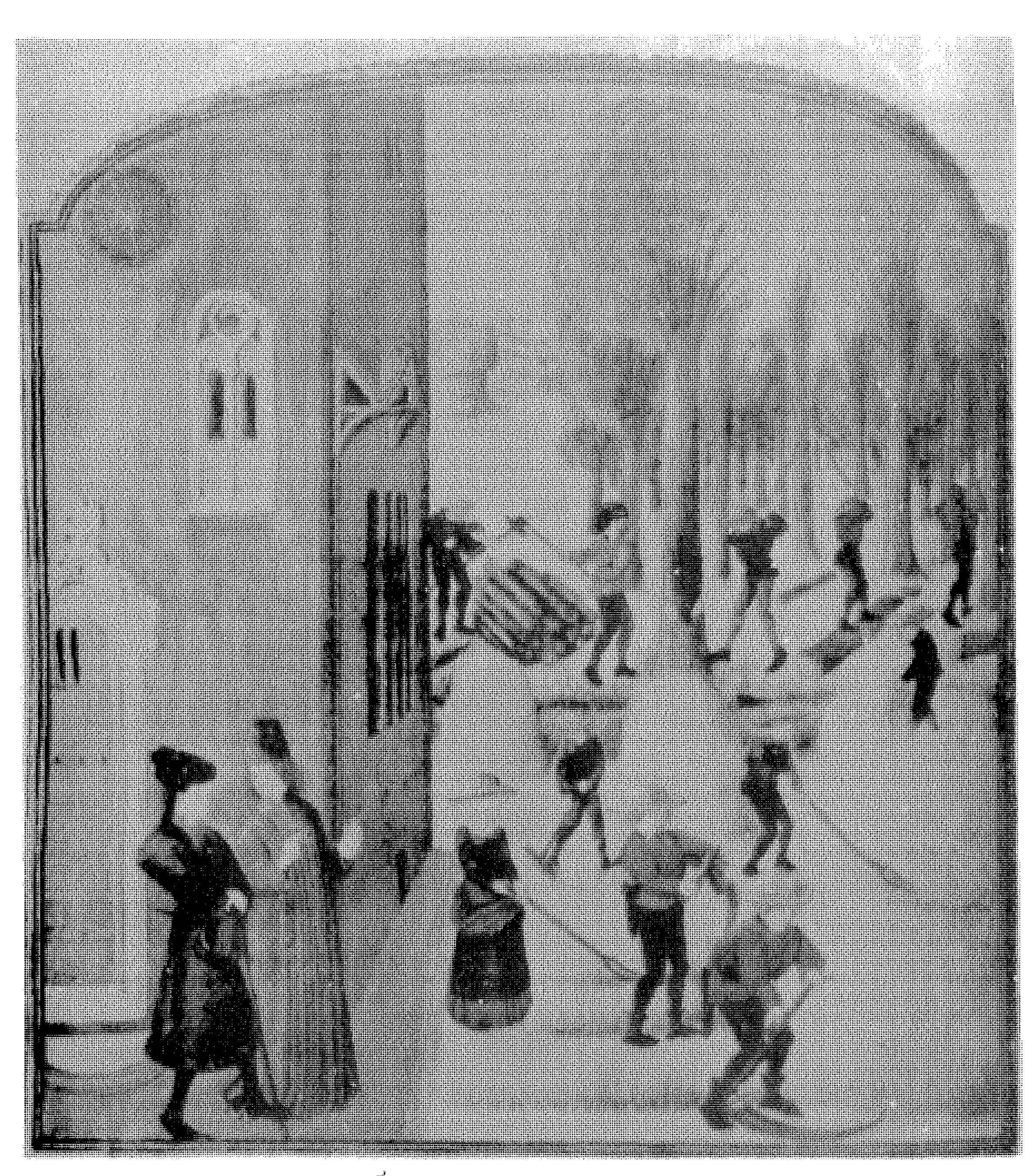
اللوحة ٢٢ — رأس بوذا خمري



اللوحة ٢٣ – فارس مغولي يلاحق حصاناً هارباً .



اللوحة ٢٤ – الاحصنة في المشرب

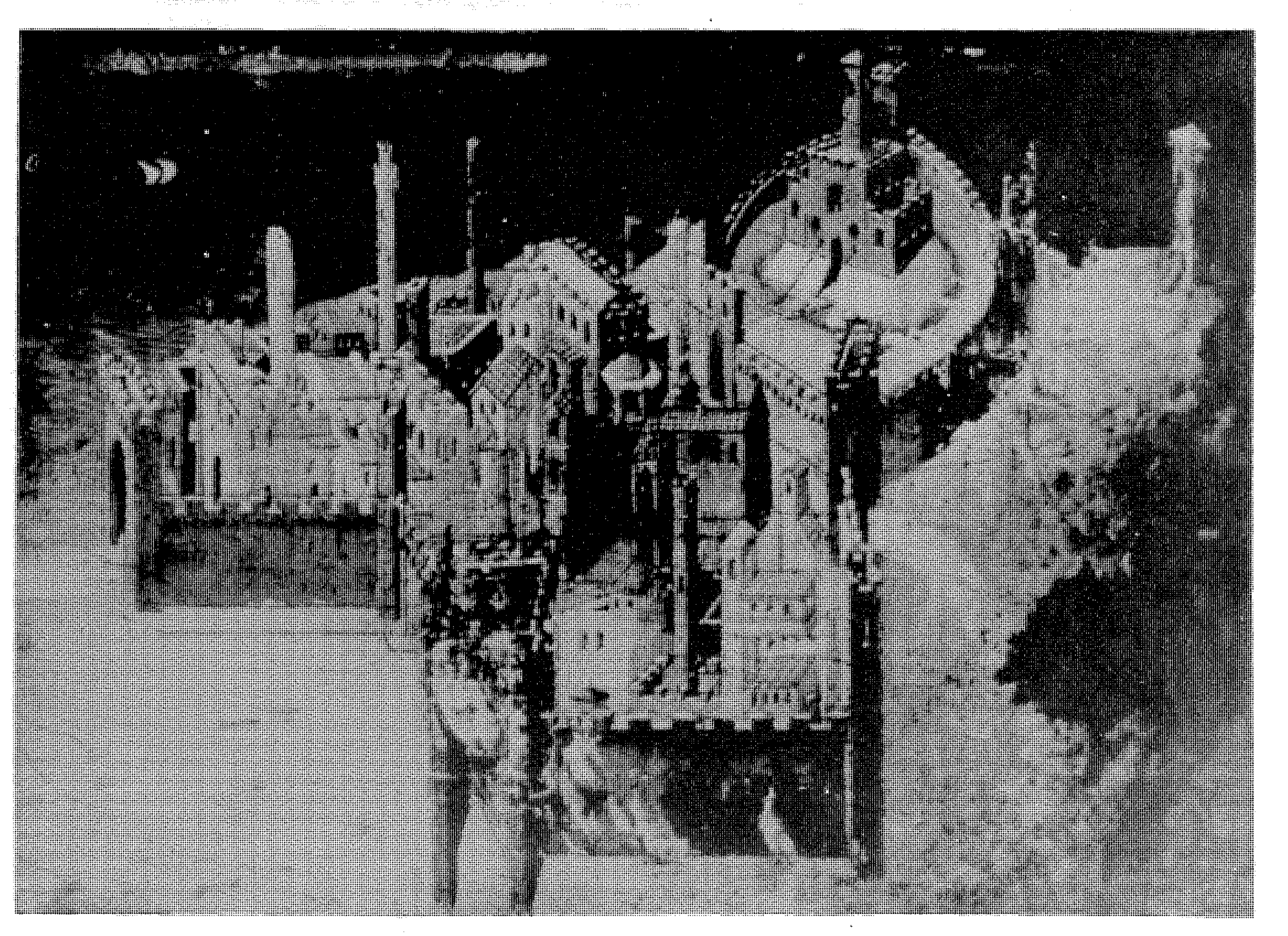


اللوحة ٢٥ ـ اعمال الحقول

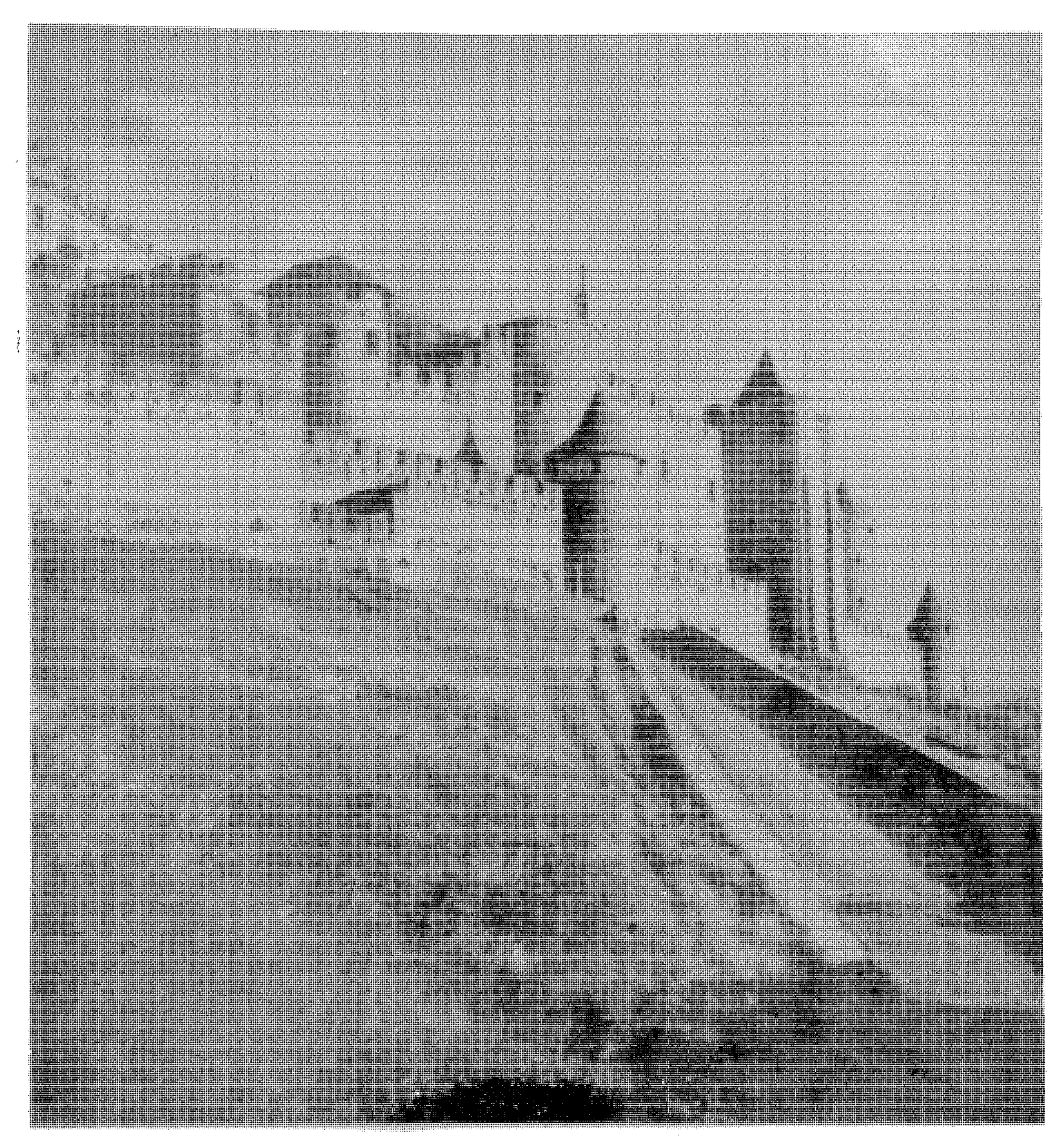


اللوحة ٢٩ – سوق لنديت

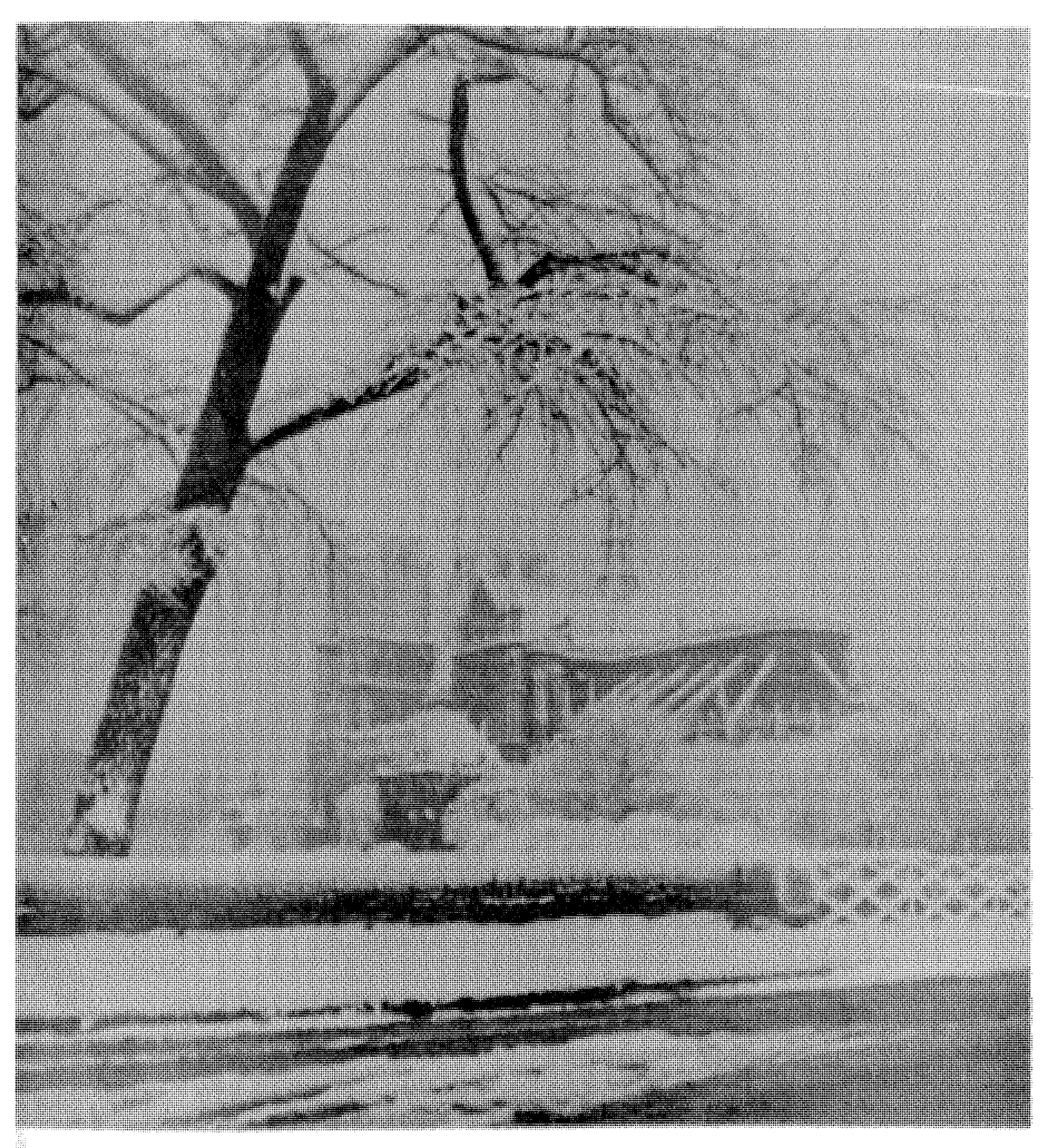
اللوحة ٢٧ – قبة بيزا وبرجها المنحني ، القرن الثاني عشر .



اللوحة ٢٨ – مدينة ايطالية في القرون الوسطى .



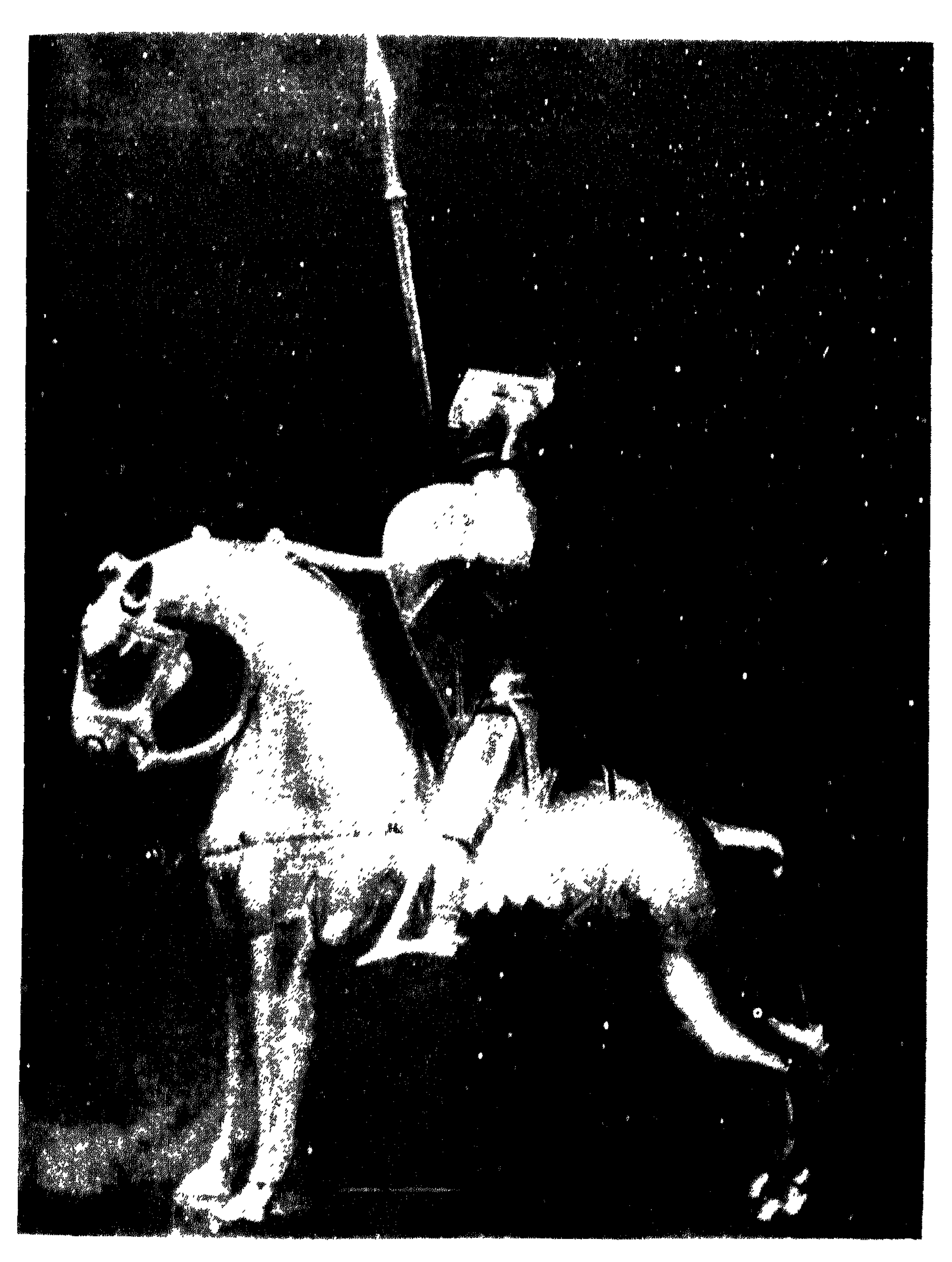
اللوحة ٢٩ ـ مدينة كركستون .



اللوحة ٣٠ – كنيسة نوتردام في باريس (القرنان الثاني عشر والثالث عشر) .



اللوحة ٣١ ملاك براتي .



اللوحة ٣٢ [illegible]

الفصل الثالث

آسيا المغولية
(القرن الثالث عشر والرابع عشر)

ان الواقع الجديد الذي يميز آسيا في القرن الثاني عشر والذي رأينا في فصل سابق تحيزه البطيء، هو ان الهند والصين قد فقدتا نفوذهما العريق في القدم على الدول الشرقية في هذه القارة الواسعة الاطراف. اجل كلتاهما تتيهان خيلاء، استناداً الى ماضيها التاريخي الطويل، بتحقيقاتها المدهشة في الحقل الفلسفي والديني وفي حقول الادب والموسيقى والفنون التصويرية. وكلتاهما لا تزالان الزعيمتين الروحيتين لبلدين احدث عهداً في آسيا الجنوبية الشرقية، أي كوريا واليابان، تساند مركزهما هذا تجارة لا تزال ناشطة. ولكنهما تشكوان كلتاهما من وهن داخلي هو النذير بانحطاط قريب.

آسيا قبيل التوسع المغولي

قسمت الهند عملياً الى شطرين بفعل الغزو الاسلامي الذي سار في اندفاعه نحو الشرق وبلغ البنغال التي أكمل فتحها في السنة ١٢٠٢. ولم تحل الحروب الداخلية التي مزقت الدول الاسلامية الحديثة العهد وأفضت الى هزيمة الغزنويين امام الافغانيين الغوريين، دون تقدم الفاتحين نحو الجنوب ايضاً. فانكفأت الممالك المحلية نحو «دكن»، وتقاسمت شبه الجزيرة وانتقلت السيطرة من هذه الى تلك بحسب محالفة الحظ لهذه او لتلك في المعارك. اجل كانت المقاومة ضارية في وجه الغزاة ولكنها تأثرت بهذا الانقسام وهذه الحروب بين الاخوة.

وتجزأت الصين بدورها ايضاً بعد ان اعرض السونغ نهائياً عن استعادة ارث «التانغ» وآثروا، في مدينتهم – المتحف «هانغ-تشيو»، الانصراف الى الفن وعلم الجمال وعلم المعقولات. فخضعت كافة مناطق البلاد الشمالية لل «كين»، «الجورتشتات» الاذكياء الذين قوّضوا مملكة ال «كيتات»، وحققوا السيطرة عليهم خلال القرن الثاني عشر، وبلغ منهم انهم هددوا عاصمة «السونغ» فترة من الزمن. وفي منتصف هـذا القرن، بلغ عدد العواصم في الاراضي الصينية

ستاً على الاقل : « تا ـ تنغ » في الشمال (جيهول) ؛ « لياوو ـ يانغ » في الشرق ؛ « تا ـ تونغ » في الغرب، بكين في الوسط؛ كي ـ فونغ (نانكين) جنوبي مملكة الكين ؛ وهانغ ـ تشيو اخيراً، عاصمة السونغ . وكان من شأن الصلح غير الثابت المعقود مع الكين، الذين نقضوه تكراراً ، ان أتاح لهؤلاء السيطرة على اراض شاسعة قاست الامَرّين من غزوات وحروب متتاليــــة دامت قروناً عديدة ؛ واذا انهمك بلاط السونغ بالمجادلات الادبية والفلسفية ، فان شعوب الشمال قــد اختبرت الحياة القاسية التي تعيشها بلدان خاضعة لحكام لا يزالون برابرة .

كانت النتيجة الاولى لهذا الانحطاط المزدوج تحرُّر الدول الآسيوية الاخرى عملياً ان لم يكن نظرياً ، من سيادة الصين والهند . فسطع نجم الامبراطورية الخميرية آنذاك في عهد ولاية الملك « شوريافارمان » الثاني الكبير (حوالي ١١١٢ - ١١٥٢) ؛ اجل انه اغتصب الملك اغتصاباً ، ولكنه كان محارباً شجاعاً وادارياً لامعاً ضم الـ « سيام » الوسطى (مملكة لوبوري) الى مملكته، وأرغم الـ « شمبا » على محالفته لمحاربة « داي كوفييّت » (انام) وشيّد معبد « انغكورفات » المدهش ، وهو افضل طراز للمعبد - الجبل ، المكرّس لـ « فيشنو » ، والمعدّ لأن يكون ضريحاً ملكياً : وفي كمال هذا البناء وجمال زخرفته العظيم ما يجعل منه رائعة من روائع الفن العالمي . ثم سطع كذلك ، بعد كسوف لجم عن هجوم الشمبا ، في ايام جاياقارمان السابع (أواخر القرن الثاني عشر) ، ولعله أشهر ملوك كمبوديا ، الذي جهز المملكة وعاصمتها بأفسح معابدها ، وأنجز العديد من الاعمال العمرانية ، وأسس المستشفيات وسما بالسلطة الامبراطورية حتى ذروتهـــا . وتناقصت بالمقابلة قوة الشمبا الــــتي أفضى اندفاع « انام » نحو الجنوب الى حصرها في الولايات الجنوبية من الهند الصينية ، فانكفأت التأثيرات الهندية ، بالفعل نفسه ، امام حضارة صينية الطابع . على الرغم من هذا الوضع اليائس الذي جعــــل الشمبا تواجه التقدم الانامي في الشمال والقوة الخميرية في الغرب والجنوب، نراها محافظة على نزعتها الى الحرب مستمرة في شن الغارات، براً وبحراً ، على كافة جيرانها . الا ان السيام قد بقيت مجزأة : فبينا توسع الـ « طاي » ، الآتون من الشمال، حتى اواسط البلاد الخاضعة آنذاك لسيطرة الخميريين ، استطاعت مملكة « هاريبونجايا » الابقاء على حضارتها المونية المتأثرة بالحضارة الهندية تأثراً عميقاً . وانطفأت في « بورما » سلالة الملوك العظام الذين دفعوا بلادهم الى الامام في القرن الثاني عشر ؛ ولكن التقاليد الثقافية ، على الرغم من الفوضى السياسية ، قد انصانت بفضل بوذية والباب الصغير » التي كانت بورما مركزها المفضل . وبقيت الجزر اخيراً مقسمة الى ثلاث ممالك : مملكة الشيلندرا اسياد « كريفيجايا » وأتباع الـ « شولا » اسياد الهند الجنوبية ؛ ومملكة « سورابايا » (جاوا الشرقية) التي لا نعلم عن تاريخها سوى النزر اليسير ؛ ومملكة « قاديري » ، وهي أقوى هذه الممالك وأعظمها نشاطاً ، التي نتبين ان ثقافتها الهندية تخضع تدريجياً للتقاليد المحلية .

اما اليابان، التي سبق ورأينا انها عاشت طوال قرون عديدة من المستوردات الصينية ، والتي كانت آخذة في العودة الى عبقريتها الخاصة في الحقل الفكري والفني ، فما زالت خاضعة لسيطرة

عائلة الـ « فوجيوارا » القوية . واذا ما سادها الاضطراب ، في القرن الثاني عشر ، بفعل منازعات العائلات الكبيرة الطامعة بالسلطة ، واذا ما طرأت على السلالة الامبراطورية تبدلات خطيرة ، واذا ما فرض نظام « الشوغونا » السياسي الجديد قوانين صارمة ، فان الانطلاقة لن تتوقف الا في السنوات الاخيرة من القرن الثاني عشر ، والاختلال الذي سببه هـذا التوقف سيحدث في الزمن حين يبرز خطر الغزو المغولي. الا ان هذه المرحلة هي ايضاً الفترة التي أخذت فيها الصوفية « زن » ، وهي في اول عهدها ، تطبع الثقافة اليابانية بطابعها الخاص المميز .

يتضح من ذلك ان البذور التي ألقتها الهند والصين في كافة البلدان الشرقية والجنوبية الشرقية قد أنبتت حضارات جديدة – الخيرية والجافانية واليابانية – وجعلت بعض الشعوب المتخلفة تعي حقيقتها وطاقتها . الا ان الهند والصين قد افتقرتا الى القوة اللازمة لبسط سيطرتها عـلى الشعوب المحيطة بها ؛ لا بل تعسّر عليها مقاومة ضغط امبراطورية اسلامية تحركها عصبية الحرب المقدسة وعالم بدو سائر في طريق التنظيم .

ماضي عالم البدو

منذ العصور القديمة ، جابت جماعات من البدو الرحل منطقة الاراضي البائرة الشاسعة التي تؤلف شطراً هاماً من اوراسيا . وقد انتسب هؤلاء بلهجاتهم الى الاسرة اللغوية الالتائيـــة أي التركية المغولية . ولكن مساكنهم نفسها فرضت عليهم ، منذ الوف السنين ، نمطاً حياتياً راعوياً اتسم بطابع بدائي غريب الى جانب الحضارات المستقرة التي عاصرتهم . استهوت قبائلهم منذ القدم الاراضي الزراعية المتاخمة لبوراتهم فتجمعت شيئاً فشيئاً واكتفت في فترة من الزمن بشن غارات صاعقة وحشية على جيرانها، ثم تكتل عدد كبير من هذه الجماعات بصورة مفاجئة وقام بغزوة رهيبة فرّ امامها السكان المزارعون الذين تحولت مزروعاتهم الى مراع على يد بدو رحل لا يهتمون الا لزواملهم ومواشيهم . بهذا المدّ والجزر وهذا الكر والفر قام تاريخ البلدان المتاخمة للبورات الاوراسية : البدو يوسعون البورات في الاراضي الزراعية ، والفلاحون يوسعون اراضيهم الزراعية عند حدود البورات . الا ان نوع حياة سكان الحدود ، وهو شبيه بحيـــاة البدو ، واختلاط القبائل في الاراضي التي سلكتها في تنقلاتها ، قد سهلا الاتصال بين البدو الرحل والسكان المقيمين . ومع ذلك فان سكان البورات ، الامناء لحياة الفرسان والرعاة القاسية ، قد استهوتهم ثروة الحضارات المتطورة وتفخلها . واذا هم عندوا في تقويضها ، فان بعضهم قد تأثروا بسحرها وتكيفوا احياناً بحضارة المقيمين: فتصيّن البعض ، كالمغول الكيتات ، الذين استولوا في القرن الحادي عشر على شطر من الصين الشمالية وجعلوا من بكين مقراً لهم ، وتأثر البعض الآخر بالحضارة الايرانية ، كالاتراك الـ « ويغور » ، الذين اعتنقوا المانوية وتعلموا اصول الادب فغدوا المربين الحقيقيين للدول التركية ـ المغوليـــة الاخرى ورفضوا العودة الى الحياة البدوية .

لقد برهنوا احياناً عن اخلاصهم في محالفة الدول الكبرى الـــتي ارتأت طلب مساعدتهم

او أرغمت على طلبها ، ولكنهم كانوا في الغالب تهديداً خطيراً ودائماً : فقد أتاحت لهم خيولهم الصغيرة القيام بهجمات صاعقة ، ودرجوا على ان لا يتركوا وراءهم الا الخراب والدمار ، فكانوا أعداء مرعبين . اجل لم يتوصلوا بعد الى توحيد جماعاتهم القبلية المتشتتة في البورات . ولكنهم توصلوا الى تأسيس امبراطوريات سريعة الزوال تعاقبت عليها تعاقباً مطرداً على مر الزمن الهيمنة التركية والهيمنة المغولية . وغالباً ما قوض فيها اقل الناس تحضراً الممالك التي توصل أكثر الناس تطوراً الى تأسيسها . لذلك بات لزاماً علينا هنا القاء نظرة سريعة على هذا التاريخ منذ غزوات القرن الرابع الكبرى التي بلغت امتداداتها اوروبا ، مع اتّيلا ، والهند ، مع ميهيراكولا . ومن شأن هذه العجالة ان تساعد على فهم نشأة عمل جنكيز خان وطابعه المميز .

في القرن السادس ، استقرت فيما بين الصين ومصاب الدون ثلاثة شعوب كبرى : الـ « جوان – جوان » في منغوليا ، من منشوريا حتى « طرفان » ، و « الهون الهفتاليون » ، من شمالي منطقة قراشهر الى مرو ومن الآرال الى البنجاب ، والهون الاوروبيون ، وهم من العرق التركي في الارجح ، حول بحر آزوف ومصب الدون . الا ان الجوان – جوان وهفتاليي تركستان ردّوا الى الوراء ، في السنة ٥٥٠ ، على يد الـ « تو – كيو » مؤسسي الامبراطورية البدوية الاولى التي عرفت تنظيماً على بعض الاستقرار . اجل لقد انقسم التو – كيو الى مملكتين توأمين امتدت أراضيها من منشوريا الى خراسان ، وكان هذا الانقسام ، بالاضافة الى فوضويتهم التقليدية مدعاة لضعفهم . وكان للمقيمين منهم في الغرب حدود مشتركة بينهم وبين بلاد فارس الساسانية التي التمست بيزنطية مساعدتهم عليها فحافظوا على استقلالهم حتى اليوم الذي استطاعت فيه سلالة « تانغ » الصينية القوية سحق اخوانهم في منغوليا ، فبسطت حينذاك سيطرتها عليهم . ثم حلّت محلهم امبراطورية تركية اخرى هي امبراطورية الويغور الذين اقاموا الى الجنوب من بحيرة « بَيقال » ، جاعلين من « قره بلغاسون » عاصمة لهم ، وسيطروا ، حول طرفان ، على شطر من تركستان . ثم غدا الويغور اهل قرار وضعفوا بفعل تحضرهم ، فانتزعت عاصمتهم منهم في السنة ٨٤٠ ، على يد « الكرغيز » وهم من الاتراك الهمجيين . كان الـ « آفار » ، في هذه الأثناء ، قد خلفوا الهون في البورات الروسية وأقاموا بين الدنيستر والدانوب ، بينما استفاد الـ « شا – تو » من الاتراك المتصينين العائشين حياة بدوية حول « ها – مي » عند طرف البورات الآخر ، من ضعف التانغ ليستولوا على شمالي غربي الصين (٨٠٨) . وعادت منغوليا ، في عهد «الكرغيز» وحتى السنة ٩٢٠ ، الى همجيتها الاولى ، بينما تمكن الويغور ، على الرغم من ضعفهم ، من تثبيت أقدامهم في تركستان .

في أوائل القرن العاشر طرد الكرغيز بدورهم وأبيدوا على أيدي برابرة آخرين من العرق المغولي ، هم «الكيتان» . كان هؤلاء قد حاولوا ، لثلاثة قرون خلت ، التسرب الى الاراضي الصينية ، ولكن التانغ ردوهم الى الوراء بضراوة ، فاستفادوا آنذاك من انهيار القوة الصينية ودخلوا بقيادة رئيس جريء وراء الجدار الكبير وأقاموا على العرش الامبراطوري قائداً صينياً

فرضوا حمايتهم عليه ، فكان ذلـــك مقدمة لاستيطان العديد من البرابرة في الصين التي ستتولى جماعاتهم فتحها. وقد دامت اقامة الكيتات زمناً طويلاً: فتصيّنوا وحملوا اسم « كين » (ذهب) الصيني ، وأغاروا تكراراً ، طيلة قرنين ، على حدود الصين الجنوبية دون ان يفقدوا شيئاً من طاقتهم الحربية . ولهذا فان تاريخهم يختلف بعض الشيء عن تاريخ معاصريهم « المجريّين » الذين سبق ورأينا انهـم وصلوا الى اوروبا الوسطى في اواخر القرن التاسع وشنوا غارات مدمّرة ، وان متفرقة ، على بعض ربوع الغرب المسيحي قبل ان يردوا نهائياً الى سهل الدانوب ويستقروا ويعتنقوا الدين المسيحي ويؤلفوا بعد ذلك سوراً منيعاً للمسيحية في وجه الموجات الاخـــيرة لغزوات البدو المتدفقين على اوروبا . وفي الواقـــع اقام برابرة آخرون ، في عهد متأخر ، بين الفولغا وقزوين: ففي هذه الرقعة من الارض التي يتلاقى فيها البيزنطيون والعرب من تجار الفراء، والتي لجأ اليها العديد من اليهود هرباً من اضطهادات الامبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس، يبدو ان الخزر اعتنقوا الدين اليهودي . فردوا الى الوراء في السنة ٩٦٥ على يد امير روسي من « كييف » ، ثم سحقوا في السنة ١٠١٦ على يد الامبراطور باسيليوس الثاني ، ولم يتلاشوا نهائياً الا في السنة ١٠٣٠ . في هذه الاثناء ، نجح الاتراك الغربيون ، او القراخانيون ، في اجتياز دولة السامانيين الاسلامية ـ وهؤلاء ايرانيون سبق ورأينا كيف سيطروا سيطرة واسعة ، سريعـة الزوال ، على البختيـــار ، ومنطقة ما وراء النهر ، وخوارزم وخراسان وسيستان ـ وانتزعوا منهم منطقة ما وراء النهر التي ضموا اليها قشغاريا فترّكوها بأن نشروا فيها الدين الاسلامي الذي كانوا قد اعتنقوه .

بعد تلاشي الخزر، احتفظ « الكيتات » والقراخانيون بمواقعهم طيلة القسم الاكبر من القرن الحادي عشر . ثم ادمج القراخانيون ، حوالي السنة ١٠٧١ ، في الامبراطورية السلجوقية الـتي كان مؤسسوها ، المنحدرون من الاوغوز المغمورين ، قد اعتنقوا الاسلام ديناً : فانفصل تاريخهم منذئذ، كما سبق ورأينا ، عن تاريخ عالم البدو ، مع ان ذهنيتهم التركانية المتأصلة ستبرز تكراراً في تصرفاتهم . وفي الوقت نفسه ، اقام شعب تيبتي في « الاوردوس » و « الآلاشان » ؛ فأخضع هؤلاء الرحـــل الآخرون ، الذين عرفوا باسم « سي ـ هيا » ، شمالي غربي الصين بينما احتفظ « الكيتات » بشماليها الشرقي .

خلال القرن الثاني عشر ايضاً ، جرت تنقلات الجماعات البدوية عند طرفي عالم البورات . ففي سهول روسيا الجنوبية ، حـــل محل « الخزر » « البتشنيك » الذين سبق وعلمنا أي خطر شكلوه على حدود الامبراطورية البيزنطية من جهة الدانوب ، الى ان قضى عليهم الامبراطور يوحنا كومنينوس (١١٢٢). ثم جاء « الاوغوز » الذين عاثوا فساداً بدورهم في البلقان وخلفوا الـ « كبشاك » . وأحدق الخطر من جهة ثانية بصين السونغ ايضاً ، اذ هدّدها « الكيتات » في الشمال الشرقي ، و « السي ـ هيا » في الشمال الغربي. فكان خطأ الامبراطور «هواي ـ تسونغ»، وهو شاعر افضل منه سياسي ، محاولة منه لاخراج الكيتات من بكين ، في الاستعانـــة

بال « جورشات » الذين تشدهم أواصر النسب الى المنشوريين الحاليين. فلم يكتف انتصاف البرابرة هؤلاء بمنغوليا الداخلية ومنشوريا اللتين عينهما لهم « هواي ـ تسونغ » . فبعد ان قوّضوا امبراطورية « الكيتانات » ، الذين كادوا قد ركنوا الى التمقل والهدوء بعد ان تعوّدوا الحياة الصينية ، بسطوا سيادتهم على كافة أنحاء الصين الشمالية مندفعين بحملاتهم حتى بلاد السونغ التي لم يصدوا فيها الا بصعوبة .

شملت سيطرة الجورشات ، من ثم ، عند فجر القرن الثالث عشر ، وقبيل مغامرة جنكيز خان العظيمة ، كافة نواحي منشوريا والصين الشمالية ، بينما احتفظ البسي ـ هيا بالمناطق الشمالية الغربية . واقام الويغور ، بعد ان باتوا اهل قرار ، في واحات تاريم وكوكا ، وطرفان ، التي يبدو ان ازدهارها قد تأخر بفعل تراكم الرمال . وعاش القراخيطاط ، المتصينون والمتنصرون ، عيشة البدو الرحل في الشطر الآخر من تركستان ، من « ها ـ مي » الى « الآرال » و « خوجند » باسطين حمايتهم على المنطقة القائمة بين أعالي نهر ينيسايي ونهر « آمو ـ داريا » . وحلّت ، وراء هذا النهر ، امارة الخوارزميين ، وهم اتراك اعتنقوا الاسلام ، محل السلجوقيين في منطقة واسعة الاطراف ضمت ، بالاضافة الى خوارزم نفسها ، خراسان ومنطقة « كابول » وغزنه وبلاد فارس كلها حتى جيورجيا . اما شمالي الهند اخيراً فقد احتله الغوريون الافغان الذين تغلبوا على الغزنويين . وشمل العالم التركي كافة أنحاء الشرق الادنى الاسلامي ؛ وتوسع الاتراك ـ المغوليون في روسيا والبلقان حتى سهول الدانوب .

هذه هي الفسيفساء الغريبة التي كوّنها السكان الرحل ـ وقد أمسى بعضهم اهل قرار ـ حين ظهر جنكيز خان : تنقلوا تنقلاً مستمراً منذ قرون ، دون ان يربط بينهم تلاحم حقيقي ، وأسسوا ممالك وامبراطوريات غير واضحة الحدود وسريعة الزوال نسبياً. لم تعوض وحدة اللغة عن تعدد المعتقدات والكيانات السياسية ؛ تأثروا بالحضارة الصينية تارة والحضارة الايرانية اخرى او بقوا امناء للتقاليد التركية ـ المغولية ، واهتدوا اتفاقاً ، بحسب تنقلاتهم المختلفة ، تارة الى البوذية او الكونفوشيوسية ، وطوراً الى المسيحية النسطورية او المانوية او الاسلام او اليهودية . كانت تحالفاتهم سريعة الزوال ، ولم يتأثروا بتقدم الحضارات بل حافظوا في الغالب على عاداتهم الهمجية .

تكون الامبراطورية المغولية

ان خضوع هذا العالم البدوي المتشوش لارادة جنكيز خان قد أعد ، والحق يقال ، منذ زمن بعيد . فمنذ القرن العاشر تحرّر المغول ، بفضل تغلب الخيطاط على الاتراك الكرغيز ، من الوصاية التركية التي فرضت عليهم منذ سقوط الجوان ـ جوان . اضف الى ذلك ان تأسيس امبراطورية القراخيطاط في الربع الاول من القرن الثاني عشر ، قد مثلت سلفاً ، على الرغم من ضعف رؤسائها ، موجة الغزوات البدوية الجديدة الظافرة قبل حصولها بمائة سنة : فهي الامبراطورية المغولية الاولى التي اقامت

بعيداً عن مناشئها الاصلية ، في منطقة هامة من الاراضي الخاضعة حتى ذاك العهد لجماعات من المقيمين .

ولكن قبائل مختلفة جداً ما زالت تتنازع البلدان المغولية حوالي منتصف القرن الثاني عشر : التتر ، والمغول بحصر المعنى ، والكونجيرات ، والاويرات ، والماركيت . وأقام ابعدَ الى الغرب ، في رقعة غير محددة تماماً ، الكرايت الذين عاشوا عيشة بدوية واهتدوا الى النسطورية منذ اوائل القرن السابق ، والنيمان ، ولعلهم من اصل تركي ، الذين اعتنق بعضهم النسطورية وبقي البعض الآخر أميناً للشامانية . واذا حقق الكرايت والنيمان ، كما يبـدو ، بعض مظاهر الحضارة السطحية ، فان مجموع البلدان المغولية قد استمر منذ سيطرة الكرغيز في حالة همجية ظاهرة . ليس هناك من مجموعات سكنية كبيرة ، ثابتة او متنقلة ، محاطة بالاوتاد ، على غرار « مدن » « الويغور » او « التو ـ كيو » ؛ بل دساكر حقيرة ومعسكرات تتجمع فيها بعض العائلات او تقيم فيها عائلة واحدة في اغلب الاحيان . فتفسخ المجتمع ، المبني على القبيلة وفروعها ، حتى عاد الى مستوى العائلة . ثم تفككت العائلة نفسها ايضاً بفعل الفوضى السائدة .

ارتسمت عند أكثر هؤلاء البدو الرحل تأخراً ، في منغوليا الداخليـة ، بعض محاولات التوحيد على ايدي جدود جنكيز خان أنفسهم . فقد جمع احدهم ، المدعو قايدو ، عملاً بطريقة اعتمدها الفاتح فيما بعد ، حول قبيلته الخاصة ، ـ البرجيين ـ العائلات التي طلبت حمايته فأسس بذلك « المملكة » المغولية الاولى وأسند ادارتها الى حفيده « كابول » الذي خلفه ابن عمـه « امباكاي » ، ثم ابن هـذا الاخير ، كوتولا . اشتد ساعد المغول شيئاً فشيئاً فأقاموا علائق صداقة « بالكيتات » ، أبنـاء جلدتهم المتصينين والمتحضرين . ودعي كابول الى بلاط بكين الامبراطوري فأدهش ضيوفـه ، الذين لم يشتهروا برقتهم ، بتصرفاته الفظة وقابليته النهمة . ولكنه ، على الرغم من الهدايا التي أسبغت عليه ، قد تحسَّب لكمين ينصب له ، وامر فيما بعد بتقتيل موفدي الامبراطور وانقلب على الكيتات الذين لم يقاوموه ، بسبب انشغالهم بمحاربـة السونغ ، الا مقاومة ضعيفة ، وتخلوا له اخيراً عن بعض المراكز المحصنة في شمالي النهر « سي ـ بنغ » وتعهدوا له بتقديم خرج سنوي من الابقـار والاغنام والحبوب (١١٤٧) . ثم تخاصم المغول وأشقاؤهم التـتر ، فتحالف التتر والكيتات وأحرزوا عليهم نصراً سريعاً ، فزالت « المملكة » المغولية في الصراع وعادت القبائل والاحزاب الى تجزئها الفوضوي .

في هذا التاريخ تقريباً (١١٦٧) ، أبصر جنكيز خان النور في سرادق العائلة المنصوب على ضفة نهر « الاونون » اليمنى . كان أبوه « ياسوغاي » ، وهو ابن شقيق الخان « كوتولا » ، رئيساً على فئة « الكيتات » في قبيلة البرجيين ، وكان قد اختطف زوجته من بلاد « الماركيت » . حارب التتر الى جانب عمه وقتل احد زعمائهم ، « تاموجين ـ اوغا » حوالي السنة ١١٥٥ ؛ ثم تدخل في خلافات الكرايت الداخلية وفاز بصداقة خانهم طغريل الذي ساعده على استعادة سلطته على شعبه .

أطلق على بكر أبنائه الاربعة اسم « تاموجين » تخليداً لذكرى انتصاره على الزعيم التتري. ولكن المنية قـــد أدركته ، على اثر سم دسه له التتر ، حين لم يتجاوز تاموجين سنه التاسعة. فانتزعت مواشيه من ارملته وأبنائه القصّر الذين آلت حالتهم الى البؤس والشقاء. اما تاموجين فقد التجأ ، بعـــد طفولة قاسية وغير مستقرة خلقت فيـه جلداً نادراً ، الى حليف ابيه ، خان الكرايبت الذي جعـــل منه صاحب اخاذة تابعاً له. واتاح له ذكاؤه العملي الفطري ودهاؤه وطموحه ومهارته جبر الشؤون العائلية ، ثم محاولة تجديد الملكيـــة المغولية لمصلحته ، وحمل لقب الخان ، الذي لم يحمله ابوه. هللت له القبائل التي جمعها حوله فاختار لنفسه (١١٩٦) اسم « شنكيز خان » الذي جعلنا منه جنكيز خان استمر في استغـــلال تحالفه المجدي مع طفريل ، فنظم حملة على التتر ، تلبية لطلب الكيتات ، مما اتاح له جني الالقاب الشرفية الصينية ، ثم اقتص من اعدائه الشخصيين ، واخضع العديد من القبائل المجاورة لسلطة الكرايبت . الا ان تعاظم قوة طفريل قد اثار بعض الانتفاضات ولا سيما ثورة بعض القبائـــل المتحالفة بقيادة رئيس نودي به امبراطوراً (غور – خان) على منغوليا . ولكن الغلبة تحققت في النهاية لجنكيز خان الذي سانده طفريل. فهزم واخضع، على التوالي، «التايشيوت» – الذين تشدهم اواصر نسب الى قبيلته – والتتر (١٢٠٢) ، والماركيت ، والعديد من جماعات اخرى دونهم شأناً . لمس حينذاك من نفسه القدرة على الانقلاب على الكرايبت ، الذين قبلوا بالخضوع له ، بعد ان قتل طفريل ، على الرغم من انتصارهم عليه في معركة ضارية . ثم جاء دور النيمان الذين استتبعت هزيمتهم خضوع « الاويرات » ، « والماركيت » المنشقين والكرغيز (١٢٠٧) وغيرهم.

بعد ان توحدت منغوليا كلها تحت سيطرته ، تولى جنكيز خان ، الذي نودي بهـــا خاناً اعظم (كاهان) ، تنظيم الدولة والجيش وباشر فتح الدول المتحضرة . بدأ بالصين الشماليـة ، مهاجماً السي – هيا (١٢٠٩) اولاً ، وشانـّاً بعد ذلك حرباً على الكيتات ستدوم خمساً وعشرين سنة . وقبل ان ينجز احتلال الصين الشمالية ، اندفع غربـــاً ضد القرا – خيطاط (١٢١٨) وخوارزم (١٢٢٠) ، ضامّاً الى سلطته كافة المناطق الخاضعة لرقابة هذه الامـــاره الاخيرة : مناطق ما وراء النهر ، وافغانـستان ، والقسم الاكبر من ايران . وارسل اثنين من خيرة قواده الى المناطق القزوينية ، فاجتاحا جيورجيا واذربيجان واحرقا مدينة همذان ، واصطدما «بالالين» شمالي القفقاس ، واخيراً هزما « الكبشاك » (١٢٢١) وامير « كييف » (١٢٢٢) .

اسس جنكيز خان ، في اقل من عشرين سنة – فهو قد مات في السنة ١٢٢٧ – امبراطورية شاسعة امتدت من بكين الى الفولغا . ثم جاء ابنه الثالث ، « اوغوداي » ، الذي كان قد عينه خلفاً له . وتابع بدوره توسيعها ، فانجز القضاء على الكيتات في مناطق الصين الشمالية الشرقية ، وفتح كوريا ، ودخل في حرب طويلة الامد ضد السونغ سيجني ثمارهـــا خلفه الثاني ، وتولى استعادة بلاد فارس الغربية التي كان قد انتزعها وريث الامبراطورية الخوارزمية . وبلغ بعض

قواده في اندفاعهم ، جيورجيا وأرمينيا ؛ وارسل غيرهم ضد اوروبا : فان بلغاريا وروسيا الجنوبية واوكرانيا وبولونيا ومورافيا وهنغاريا وكرواتيا ، وحتى شواطىء الادرياتيكي ، قد عرفت على التوالي ، بين السنة ١٢٣٦ والسنة ١٢٤٢ ، اعمالهم التخريبية وقساواتهم التي لا توصف . اجل ، لقد حملتهم وفاة اوغوداي والتنازع على خلافته على الارتداد الى الوراء حتى الفولغا ؛ ولكنهم كانوا قد وسموا الامبراطورية حتى ابواب اوروبا الوسطى .

وحالت مدة ولاية الخان غويوك القصيرة (١٢٤١ – ١٢٤٨) دون تحقيق فتح الدول المسيحية ، وهو مشروع قد راوده كما يبدو . ثم انصبت جهود الفتح المغولي من بعده على الشرق الاقصى . فتولى ابن عمه « مونكا » (١٢٥١–١٢٥٩) في الدرجة الاولى امر اصلاح ادارة الامبراطورية ؛ الا ان عمله لم يحل دون تفسخها بعد وفاته . وانهى اخوه « كوبيلاي » الحرب ضد السونغ ؛ وتخلى المغول هذه المرة عن الاساليب التدميرية العزيزة عليهم ونهجوا نهجاً جديداً نظموا بموجبه البلدان المحتلة تنظيماً منطقياً وحموا الزراعة ودرسوا المعاضل الادارية الاجتماعية . وبعد انهيار السونغ نهائياً في السنة ١٢٩٧ ، اسس كوبيلاي ، وهو اول اجنبي سيطر على امبراطورية عمرها ١٥٠٠ سنة ، سلالة « يوان » وتبنى سياسة اباطرة الصين التقليدية . فاوجب على اصحاب الاشاذات الذين كانوا خاضعين لهذه البلاد ان يخضعوا له ايضاً ،ووطد السيادة المغولية على كوريا ، وحاول تكراراً الاستيلاء على اليابان ، ولكنه اضطر للعدول عن مشروعه بعد ان افتنى احد الاعاصير افراد فرقه الغازية افناء تاماً . ولم يكن اوفر حظاً مع انام وشمبا اللتين فرض عليهما – وعلى بورما ايضاً – حماية غير ذات اثر تقريباً . وتوفق ملك « قاديري » بفضل الحملة التي وجهها على جاوا في السنة ١٢٩٣ الى الالقاء بالغزاة في البحر ، فتعاظمت قوته بعمل الانقاذ هذا واسس امبراطورية « ماجا باهيت » .

كان واضحاً من ثم ان الامبراطورية المغولية قد بلغت حدودها القصوى ؛ وكانت الحروب الاهلية ، من جهة ثانية ، قد اندلعت في منغوليا نفسها ، فاضطر كوبيلاي الى تأديب ابناء بولدته حتى يعيدهم الى النظام . وقد اصبحت بكين في عهده عاصمة امبراطورية شاسعة امتدت حتى الدانوب والفرات . اجل لقد بقيت هذه الامبراطورية تحت سلطة الخان الكبير المقيم في الصين ، ولكن الحكم المباشر في كل « ولاية » اسند الى خان ايضاً : فقد حكم بلاد فارس ، مثلاً ، هولاكو ، اخو كوبيلاي ، (١٢٥٦ – ١٢٦٥) وافراد ذريته من بعده .

مميزات الحضارة المغولية

لم تخضع اية حضارة ، على ما نعلم ، خضوع حضارة المغول للمستلزمات الجغرافية والاقليمية . فكانت اقامتهم في البورات الشاسعة عرضة لتبدلات قصوى في حالة الطقس : ربيع قصير ، وصيف شديد الحرارة والجفاف وشتاء شديد البرد ؛ وكسحت هذه المساحات ارياح عاصفة لا تصادف في طريقها ما يعيقها . فكان هذا المناخ القاسي قمينا بتقوية صحة الاقوياء ، وبالقضاء على الضعفاء في سن مبكرة . ولا عجب من ثم

اذا كان الشعب المغولي،سواء اقام في البورات ام في الغابات ، شعباً جليداً قوي الشكيمة . وكان طبيعياً ان تفضي حياة القناصين الشظفة ، في مداخل الغابات ، او الرعـــاة في قلب البورات ، الى تطوير الاجساد وفاقاً لمقتضيات البيئة : جذع ضخم وقفص صدري نام فوق سيقان قوّسها ركوب الخيل ؛ بصر حاد ، ورشاقة عظمى . يأكلون اللحوم ويستهلكون الالبان ويميلون الى احتساء المسكرات . يتميزون بالمرح والشجاعة ، وبوحشية لا توصف احياناً ، ويبرهنون في الغالب عن ذكاء ودهاء وحتى عن قابلية للتقيد بالقوانين .

تألفت معظم القبائل من الرعاة . اما القناصون ، الذين يحتقرون الرعاة ، مـع انهم دونهم تحضراً ، فلا يمتلكون ماشية وخيولاً ، بل يعيشون من القنص ومن بعض الصناعـات اليدوية ، كالنجارة والحدادة . يحتذون النعال الخشبية (شانا) شتاء ويتوكأون على عصي طويلة للسير او التزلج على الثلج ، ويحتـذي بعضهم نعالاً من العظم الصقيل تساعدهم على التزحلق على الجليـد واللحاق بالحيوانات . يبنون اكواخهم من اغصان الشجر ويغطونهـا بقشور شجرة تعرف بالبتولة ، ويستطيعون نقلها جاهزة على العربات .

اما القبائل الراعوية ، فرغمة ، بحسب تقلبات الطقس في البورات وحالة المراعي ، عـلى انتجاع الكلأ دورياً وعلى العيش عيشة بدويـة . في الشتاء ، تنزل القطعان الى البورات حيث المناخ اقل برداً وتبقى فيها طيلة اشهر الربيع لان اعشاب البورات آنذاك خير ما تأكله الماشية ؛ ثم تعود في الصيف الى منحدرات الجبال حيث المناخ اقل حرارة . ولاجل هذه الجولات الطويلة يصمم كل شيء في المساكن الوقتية من زاوية سهولة الانتقـال . تنضد العربات في دائرة فتؤلف سوراً . اما المظال ، التي غالباً ما تبقى جاهزة فوق العربات ، فعلى نوعين : بعضها (جير) مستدير ومصنوع من لبد ويركب على هيكل متحرك من قضبان والواح خشبية حول قضيب وسطي يعتبرونه مقدساً ؛ ويثبت في اللبد انبوب صغير للتهوية وتصريف الدخـان ؛ والبعض الآخر (ميخان) عريض وقليل الارتفاع ويغطى بالصوف ، بينما تمتاز مظلة الرئيس بلونهـا الابيض او المذهب .

تجهز العربات الخشبية بمحملين كي تنقل ، بالاضافة الى المؤن ، بعض الادوات البدائيـة كالاوعية الخشبية ، والقدور ، والدلاء الجلدية ، والقرب ، والمنافخ ، وتغطى بلبد اسود يمنع تسرب المياه ، ثم تجرها الثيران فتصر وترتج في سيرها على الطرقات . تتكدس فيها العائلات وصغار الحيوانات العاجزة عن قطع المسافات الطويلة سيراً على الاقدام . ثم تليها القطعان التي يحيط بها فرسان يمتطون جياداً صغيرة متشعثة الرؤوس مجهزة بسروج جلدية ليست دون ممتطيها حيـاة ونزقـا . ويختلط في القطعان ، التي تهيجها النعّر ، الاحصنـة والافراس والثيران والعجول والابقار والكباش الداجنة والاغنام والنعاج وحتى الابل احياناً .

لا يتقيد المغول بنظام معين في مآكلهم بل ينتقلون ، شأن كافة البدو الرحل ، من التقتير الى الافراط في تناول الطعام . فكل عيد وكل حدث سار مناسبة لاقامة الولائم . يتغذون من لحم

الحصان او الضأن مسلوقاً او مشوياً ، واللبن الخاثر (ترك) ، والثوم والبصل ، ونوعاً من الزبدة المضروبة في أوعية خشبية بواسطة عصا مجهزة جزئياً بقطعة من جلد ؛ اما اذا مسّت الحاجة ، فانهم يكتفون بالغبيراء والمنبيات البرية والجذور الصالحة للأكل . يثملون باحتساء لبن الفرس المختمر (كوميز) ، الذي يحرصون على التزود بـه اذا ما اضطروا الى السفر عدة أيام متوالية . تشعل نيران المعسكر بالزناد وتضرم بالمنافخ وتغذى بالاخثاء المجففة والاشواك والجذور . قبيل حلول فصل الشتاء ، تنحر الاغنام وتدخر لحوماً مبردة ، ويحفظ كذلك الحليب المجفف المسحوق . ولا يتوفر الطحين الا للقبائل التي تعيش حيـاة البدو الرحل على طرق القوافل ، كقبيلة « الماركيت » مثلاً .

ومن حيث هم رجال حرب وقناصون وصيادون ورعاة ، فقد اتقنوا استعمال القوس والسهام ، الموضوعة في حقيبة جلدية واحدة شبيهة بتلك التي اعتمدها الغز ، والسيف المعقوف ، والرمح الحديدي . يتعاولون منذ الطفولة على صنع الاقواس والسهام من خشب شجر الدراق او العرعر ويجهزونها برؤوس من العظم أو من خشب الشربين . ويجهزون بعض السهام برأس حديدي رهيب يحصلون عليه لدى حدادي قبائل الغابات ويطلونه بالسم احياناً . اما الطرائق التي يعتمدونها في القنص فهي التالية : اخراج الحيوانات من مخابئها ومحاصرتها قبل القضاء عليها ، الاستعانة بالبيزان والشواهين والصقور لقنص الطيور ، استخدام الوهق في قنص الحصان البري والحمار البري والكبش ، او اللجوء الى الجياد والاقواس في مطاردة الايائل والاوعال والظباء . يعرفون كيف يخرجون اليرابيع من الارض بواسطة اداة حديدية وينصبون الشراك للحيوانات ذات الفراء ، ويطردون الدببة من مآويها ، ويصطادون بالشباك اسماك البحيرات والانهـار ، وتساعدهم في القنص ، كما في الحرب ، كلاب مشهورة بشراستها . فوق المعسكر تحلّق أسراب من غربان الزرع ، وتطوف حوله ، ليلاً ، الذئاب والثعالب وحتى النمر .

بعد اقامة المعسكر لقضاء الليل ، ينظم العسس حول النيران ؛ يلعب العسيس بالكعاب او يصغون الى الروايات التي يتناقلها اهل البورات . ويتحول المعسكر ، في مكان الاقامة الفصلية ، الى « مدينة » ؛ فيتألف حينذاك من دوائر عربات عديدة ؛ تنصب المظال في الارض ؛ وتؤلف مظال الرئيس وحرمه ، على بعض المسافة من المظال الاخرى ، قصراً بدائياً يرتبط به ، بالاضافة الى الخدام والعبيد الكثيرين ، قطيع خاص ومراع خاصة . ينصرف المغول ، في اوقات فراغهم ، الى صنع اللبد والسيور والحبال والسروج وعُدد الخيل والجعاب والاسلحة والهياكل الخشبيـة للمظال والعربات ، ويعدون اخيراً الجلود والفراء .

يعترف تاريخ اليُوان السري « بان رائحة كريهة تنبعث من الملابس السوداوية اللون التي يرتديها المغول » ؛ ويرد ذلك الى انهم يغطون اجسامهم بالجلود والفراء والى ان الاغنياء بينهم يبطنون معاطفهم الشتوية بجلود السمامير والثعالب والقواقيم والسناجب ؛ فهم لن يرتدوا الحرير والمنسوجات المقصبة في فصل الصيف قبل ان يفتحوا بـلاد الصين . يرسل الفتيان والفتيات

شعورهم ويتركونها تتدلى على آذانهم . ويجز الرجال شعر رؤوسهم ما بين الاذنين ويحلقونه فوق الجبهة بعرض ثلاثة اصابع بين هدبين ، ويجدلون ما تبقى منه ويعقدونه وراء الاذن محتفظين بذؤابة تتدلى فوق الحاجبين . وتعتمر النساء المتزوجات قبعة غريبة الشكل مصنوعة من قشور الشجر يبلغ ارتفاعها قدمين صينيتين ، يغطينها احيانـــاً بقماش صوفي ، او حريري ، للدلالة على الثروة ؛ وتنتهي القبعة بذيل طويـــل شبهه « كيو تشانغ ـ تشوين » (١٢٢١) بالاوزة او ذكر البط .

كان هؤلاء المحاربون الجسورون الروّاغون في حالة تأهب دائم بغية الدفاع عن انفسهم ضد الحيوانات المفترسة او القبائل المجاورة وكانوا يترصدون مجيء العدو الذي يعلمون به اذا ما رأوا غمائم الغبار ترتفع في الافق او الصقوا آذانهم بالارض . ويجتمع هؤلاء الفرسان حول راية الحرب التي ترافقهم في كل المعارك والتي هي لهم موضوع عبادة . يعتمدون على مطايا ليست دونهم قوة ـ تكتفي باعشاب البورات ـ ويعرفون كيف يداورونها ، ويستطيعون الحصول منهـا على اكبر مجهود ممكن اذا ما استعملوا معها السياط : فالحصان رفيق الانسان ، وتضفي عليـه الروايات المغولية شخصية حقيقية . يتدرع المغول ، للاعمال الحربية ، بملابس وقساية من الجلد المسلوق ، وينقضون على الاعداد انقضاض الصاعقة ، ولا يترفقون بالحياة البشرية . وهم بالاضافة الى ذلك نبالون مجيدون ، بل « امهر النبالين المعروفين في العالم » كما يقول ماركو بولو . تتحلى جيوشهم ، المتعودة حياة الصحراء ، بقدرة نادرة على تحمل المشاق وتكتفي بلبن الفرس ، الذي يشربـــه الفرسان من القرب المعلقة بالسروج ، والمنبيات البرية ، والطرائد التي يقتنصونها في رحلاتهم . يسهرون وينامون على صهوات خيولهم ، ويقطعون مسافات طويلة دون توقف . ويستطيعـون اذا ما نفدت مؤنهم ، تأمين معيشتهم لمدة عشرة ايام ، بامتصاص دم جيادهم ، التي يفتحون اسعد عروقها ثم يشدونه بشاقـــة الحرير او الكتان ، او باذابة بعض الحليب المجفف في قليل من الماء .

يعتصمون ، اذا ما فوجئوا بهجوم ، وراء عرباتهم المغطاة بالدغال ، او يهربون ويرشقون مهاجميهم ، اثناء هربهم ، بالسهام ، لانهم يتقنون الالتفات نحو ردف جوادهم السائر بهم بسرعة : وقـــد اعتمد الغز والفارتيون هذه الطريقة المخيفة من قبلهم . يلجأون بسهولة الى خدمات الجواسيس والجنود المتحمقين بهم من الاعداء ، ولا يرون في الحرب سوى ظرف للتقتيل والسلب والنهب . يخضعون الاسرى لاعذبة وحشية ؛ ولا يستفيد من عقوبة الموت خنقاً ، بدون اراقة دمـــاء ، سوى اولئك الذين يكنون لهم بعض الاعتبار ، لانهم يعتقدون بأن الروح تقيم في الدم . ولما كانوا ، شأن كافة البدو الرحل ، لصوصاً ونهابين وقطاع طرق ، فانهم يأتون باستمرار اعمالاً ثأرية لا يكفر عنها ، مبيدين عائلة بكاملها دونما تبكيت ضمير ، مستولين على المواشي ، مخربين المواد والادوات ومضرمين النار في مراعي اطراف النزاع المغلوبة على امرها . وتوزع غنائم الحرب ، شأن الطرائد المقتنصة ، بين الرؤساء والقادة والمحاربين .

خضع المجتمع البدوي ، في هذا العالم المهدد بالاخطار ، خضوعاً مبدئياً على الاقل ، الى تسلسل سلطة منظمة جداً يؤلف التكتل داخل القبيلة عنصرها الاساسي ، وهو يضم العائلات المنحدرة من جدّ واحد التي يعتبر جميع اعضائها بان مـا يجمعهم هو صلة النسب الشرعي . يحظر من ثم اختيار الزوجة من التكتل نفسه ؛ ولما كانت صلة القربى من جهة الاب قد شملت ، بسبب المتفرعات العائلية ، عدة تكتلات مجـاورة ، توجب البحث عن الزوجات من التكتلات التي لا جد مشتركاً بينها وبينهم ، والتي غالباً ما تكون مع مواشيها في مراع نائية جداً ؛ وغالباً ما يبحث رجال تكتل معين عن الزوجات في التكتل نفسه الذي لا تشدهم اليه اواصر القربى . ولذلك فان العناية تبذل في نقل حقيقة روابط النسب ، شفهياً ، من جيل الى جيل . ويرافق هذا الزواج من الغريبات تعدد الزوجات ايضاً ، الا ان الزوجـة الاولى تعتبر ابدا الزوجة البكر او الزوجة الرئيسية . اختطاف الزوجات عادة دارجة غالباً ما تؤدي الى اعمال ثأرية . وقد يحدث ان يكون الزواج موضوع مفاوضات بين العائلات –ويكون اذ ذاك تكملة مفيدة للتحالف بين التكتلات – ، فاما يهب الآباء ابناءهم قبل سن البلوغ بزمن طويل ، فيذهب الخطيب في هذه الحالة ويعيش في عائلة عروسه ، واما يتفق اليافع مع اهـــل الفتاة فيبادلها الهدايا – عجل او جلود سمامير سوداء – ويدفع لها فدية ، في حين تقدم العروس ، بالاضافة الى مهرها وخدامها ، هدية تعدها والدتها لحياة ابنتها .

العائلات كبيرة ابداً ، وولادة الصبي حدث سار جداً ؛ يطلقون عـــلى المولود الجديد اسم اول شيء وقع عليه نظر امه بعد الوضع ؛ ثم يسبغون عليه بعض الهـــدايا : دثار ، وفراش من جلد السمامير ، وقمط مبطنة بالفرو . كل الاولاد ، حتى اولاد النساء الثانويات ، يعتبرون شرعيين ، ويعاملون معاملة الاخوة والاخوات ويربون معاً تربية واحـدة . يضاف اليهم اولاد بالتبني من الايتام ، والمخذولين ، والمفقودين ، وحتى من ابناء الزنى ؛ بيد ان ابناء الزنى الذين يشتبه بأنهم ينحدرون من اب غريب عن التكتل يحرمون من الاشتراك في الذبائح ؛ وطبيعي انهم يقصون عن التكتل ، فيرغمون في اغلب الاحيان ، على تأسيس تكتـل آخر . ولكن الاولاد المتبنين ، وان كانوا غرباء عن التكتل قانوناً ، يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بهـــا الاولاد الشرعيون .

يعيش الاولاد كلهم مع والديهم حتى زواجهم . الا ان الابن الثاني وحده ، حتى بعـــد زواجه ، يبقى في خباء ابيه ، لانه هو الذي يصبح ، بعد وفاة ابيـــه ، حارس الدار ، ويرث خباءه وزوجاته والادوات والمواد والمراعي العائدة له . ويتقاسم الآخرون ما تبقى من الاملاك ؛ اما المتبنون فلا يصيبهم سوى قنوة وضيعة ، ولكن البكر يحصل على حقوق خاصة تشده الى عبادة التكتل . وغني عن البيان ان كثيراً من البدو ، حتى في الطبقة الارستوقراطية ، يؤولون الى الاملاق ولا يستطيعون الحصول على نصيبهم من الارث اذا لم ينتزعوه بالقـــوة من انسبائهم الاغنياء الجشعين .

ان للنساء ، اللواتي تعود الاعمال المنزلية اليهن ، دوراً عظيماً جداً في هذا المجتمع :
فهن ينصبن ويفككن المظال ؛ ويقدن العربات ويحلبن المواشي ويضربن الزبدة ويمددن الحليب المجفف ويساعدن الرجال في اعداد الجلود وصنع الاحذية وجمع اللبد ويشترين بالمقايضة كل ما هو ضروري للمنزل . ويرافقن القادة احياناً في الحروب ويقمن ابان المعركة باعمال الرجال . ولذلك فان هؤلاء كثيراً ما يطلبون مشورتهن ؛ وقد حفظ التاريخ اسماء من كان لهن اثرهن في مقررات بعض القادة . يضاف الى ذلك ان الامرأة ، بعد ترملها ، تؤمن الوصاية على اولادها القصّر ، وتتصرف تصرفاً مطلقاً بممتلكات العائلة، وتتولى ادارة المعسكر وتقود المحاربين احياناً.

وقد تقوم اخيراً ، عن طريق اقسام اليمين ، بعض الاخوّات ، خارج نطاق العائلة ؛ فقد يحدث ان يعقد رجلان، ينتسبان على العموم الى تكتلات مختلفة، اتفاق صداقة يرطده بالضرورة تبادل الهدايا ويحتفل به بوليمة ورقصات طقسية ؛ وبعد ان يصبحا « اخوين حلفين » يلزمان بتبادل المساعدة في شتى الظروف .

النظام الاجتماعي قبل الامبراطورية

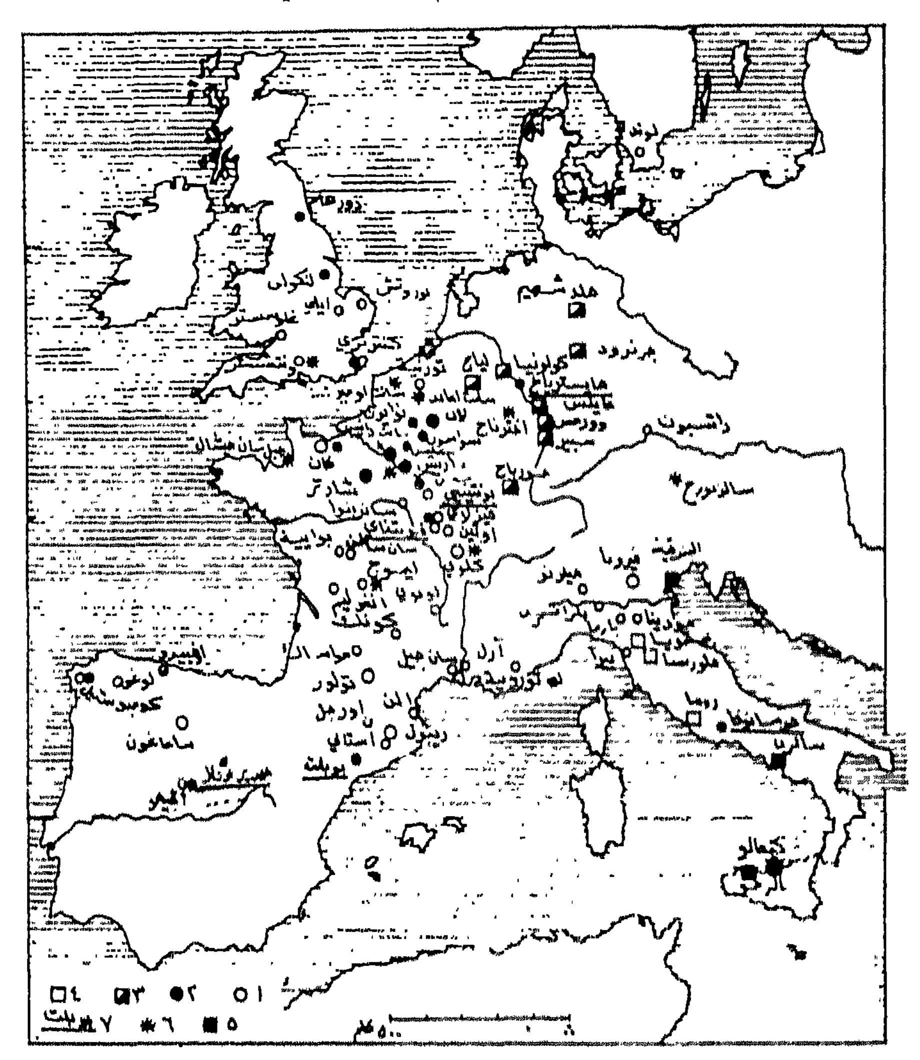
يتألف مجتمع المغول الرحل من اربع طبقات متميزة : الارستوقراطية الحاكمة ، والرجال الاحرار او المحاربون ، وعامة الشعب ، والعبيد الذين يشملون ، الى حد ما ، الخدام والصناعيين اليدويين .

يختطف العبيد من تكتلهم اثناء حرب خاسرة او غزوة يستلب فيها الفتيان والجياد على السواء ، وينضم الى صفوفهم بعض المساكين الذين يهبون انفسهم لتكتل غير تكتلهم ، او بعض ابناء عامة الشعب الذين يقدمهم آباؤهم لأحد القادة او احد المحاربين اعترافاً بخدمة مؤداة . يصبحون كلهم جزءاً من املاك العائلة التي تقتنيهم ، ويوزعون مع الاملاك او يدخلون في مهر الفتيات ويرافقونهن عند ازواجهن . عبوديتهم وراثية ولا تزول الا بالاعتاق . وقد يحدث ان تستعبد قبيلة كاملة اذا ما غلبت على امرها ، بينما تخضع قبائل اخرى، بملء ارادتها، الى قبائل اعظم شأناً . حياة العبيد قاسية ، ولكن عملهم لا يختلف قط عن عمل الخدام الذين ازداد عددهم بازدياد ثروة الارستوقراطية .

تتصرف عائلات عامة الشعب بممتلكات فردية ما عدا المراعي وربما القطعان فهذا مختلف عليه - المشتركة بينها في التكتل . ويرجح انها ملزمة بتقديم بعض الخدمات والاتاوات للقادة .

المحاربون او « الرفاق » ، وهم شبيهون بمتطوعي الجيوش الجرمانية ، يأتون عادة من تكتل غير التكتل الذي يدخلون في خدمته ، دون ان يفقدوا شيئاً من حريتهم . يمثلون بالطبقة الحاكمة في المجتمع المغولي ويرتبطون بزعيم التكتل او بالنبلاء المتمكنين باتباع كثيرين ، ولكن لهم الحرية في ترك خدمتهم والانتقال الى تكتل آخر دون ان يتهموا بالخيانة . يؤلفون حرس السيد الخاص وينفذون بهذه الصفة المهام الخطيرة المفاجئة ، فيختطفون اجمل نساء القبائل المجاورة ويستولون على الخيول ويسيرون بها نحو المعسكر ، ويشتركون في المعارك ؛ يعينون قادة على جيش التكتل الذي لا يجند الا في حالة الحرب . يستخدمون كذلك مندوبين

وسفراء وموظفين اداريين ، ويتحولون ، بعد اعـــادة السلم ، الى خدام ويدخلون في حاشية الزعيم الذي قد يغدون مستشاريه واصدقاءه الخلص والذي يتوجب عليه حمايتهم على كل حال : فهو ملزم باسكانهم واعالتهم واكسائهم وتسليحهم، ومضطر بالتالي الى شن المزيد من الغزوات.



الشكل (رقم ١١) ـ الفن في الغرب (١٠٧٥ ـ ١٢٠٠)
١ ـ الفن « الروماني » ٢ ـ الفن القوطي ٣ ـ التقليد الكارولنجي ٤ ـ التقليد الروماني
٥ ـ التأثير البيزنطي ٦ ـ مصانع تزويق المخطوطات ٧ ـ الابلية السيسترسية

وتضم الارستوقراطية اخيراً العائلات ، المتفاوتة الثروة ، التي توصل زعيمها ، بقوتــه او مهارته او بصيرته او ثروته ، الى فرض قبوله في فئة المقتدرين. تستطيع هذه العائلات ، بقيادة زعمائها ، التمتع بمزيد من النفوذ بارتفاع عدد مؤاكليها وزبنها ؛ فتنزع من ثم الى الاستقلال عن التكتل ، والانفصال عن الذين يضايقونها ، وجمع كل من قد يعود عليها بالفائدة حول زعيمها ،

مشعّبة بذلك تركيب القبيلة . فهي قد شعرت ، قبـــل ان يحقق جنكيز خان توحيدها تحت سلطته ، بضرورة الاتحاد تحت قيادة الزعماء الذين يختارهم مجلس القبيلة لفترات معينة ، كالحرب والصيد المثمر مثلاً ، والذين لا يمكن من ثم ان تصبح سلطتهم وراثية .

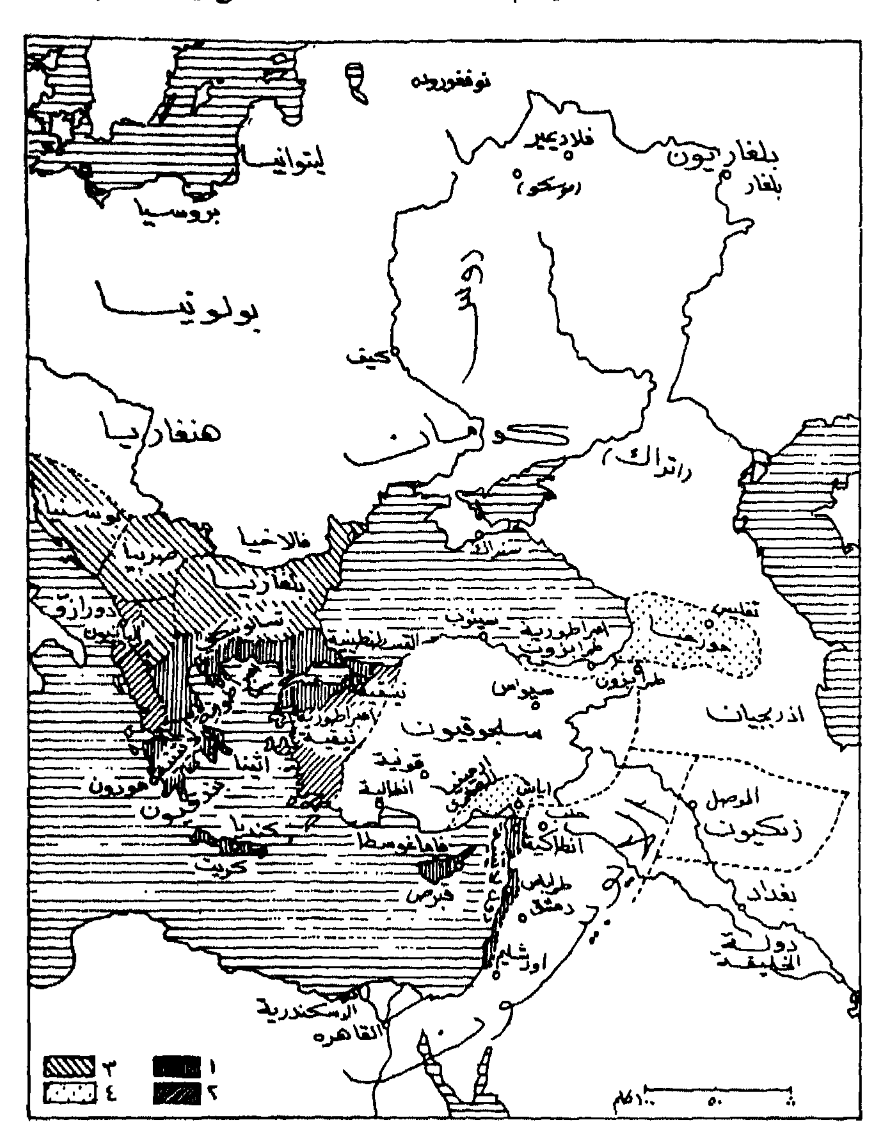
يؤلف مجموع التكتل ، من الزعيم حتى العبيد ، وحدة وثيقة العرى ، عرفت باسم «اولوس» الذي يعني على وجه التقريب « التراث » او « المُلك » . ويمتلك ارضا (يورت) تسرح فيهـــا قطعانه ويتقوت هو بما هو ضروري لحياته ، ولا يعرف من انواع التبادل سوى المقايضة البدائية . للزعيم يعود امر معرفة المراعي المخصصة للتكتل وحدود أراضيه ، وتحديد مواعيد التنقلات واقامة المعسكر ، وتعيين الطرقـــات الواجب سلوكها او تجنبها وادارة عمليات القنص لتوفير المواد الضرورية لأود التكتل .

النظام الاجتماعي في ظل الامبراطورية

منذ ان ارتقى جنكيز خان الى مقام الخان الأعظم ، توطد التسلسل الاجتماعي ، ولكنـه ارتدى في الوقت نفسه طابعاً اقطاعياً : غدت الامبراطورية « الاولوس » المغولي ، و « الشعب ـ الدولة » ، كما غدت تراث التكتل الامبراطوري. وغدا افراد هذا التكتل ، وكلهم أنسباء الامبراطور امراء امبراطوريين ؛ فمجلسهم هو الذي ينتخب الخان الأعظم ، ولا يحق لأحد سواهم ان يعين خليفة للامبراطور . يطمعون ايضاً في امتلاك « اولوس » خاص بهم ، ويصبحون بذلـــك اصحاب الأخاذات الكبرى في الامبراطورية ، ويخضعون ، حين التنصيب ، لواجب السجود تسع مرات على ان تمس جبهتهم الارض كل مرة . اجل للخان الحق في ان يسلخ كل او بعض تراثهم الذي هو عظيم جداً على العموم : جمهور كبير من السكان ، الاراضي الضرورية لتجولاتهم ، وخصوصاً المداخيل الضرورية لتعهد المنزل الاميري التي توفرها الأتاوات المفروضة على اهـــل القرار في البلدان المحتلة حديثاً . وتوزع هذه « الاقطاعات » من جهة ثانية دونما نظر الى التجمع الجغرافي لأن الامبراطورية ، بحسب ذهنية البدو ، واحدة لا تتجزأ .

توزع الاقطاعات ايضاً على خدام الامبراطور الأمناء ومرافقيه وعلى الارستوقراطيين والمحاربين الملتفـــين وراء الامراء الامبراطوريين الذين يحملون جميعهم اسم الزعيم (نوايان) : وتتألف الاقطاعات من بعض العائلات وما يعود اليها من مراع؛ وقد تصبح هذه الاقطاعات «اولوس» اذا ما امتدت وتوسعت . يقيم المستفيدون من هذه الانعامات في وسط أتباعهم ولكنهم يستمرون في خدمة زعيمهم مع المجندين الذين يخضعون لارادتهم ؛ واذا هم ألزموا بالاخراج وبوضع مجنديهم تحت تصرف الامير الامبراطوري وباحتفال التنصيب امام الامبراطور ، فان لهم ملء السلطة على مرؤوسيهم ، وينظرون في الدعاوى ، ويوزعون المراعي ، ويتولون ، بالوراثة ، قيـــادة الجيوش المقسمة ، بحسب أهميتها ، مئات والوفاً (حتى عشرة آلاف رجل) ، ويحتلون افضل مركز في عمليات القنص ، ويستأثرون بأحسن الطرائد المقتنصة ، ويفرضون اخيراً الأتاوات

وأعمال التسخير على عائلات اتباعهم. وباستطاعتهم تعيين مرؤوسيهم العسكريين ايضاً، فيكتفي الامبراطور اذ ذاك بالموافقة على اختيارهم ، وفرض حماية على بعض المواقع في اراضيهم يدفن فيها



الشكل (رقم ١٢) ـ الشرق الادنى واوروبا الشرقية في اوائل القرن الثالث عشر
١ ـ الدول اللاتينية ٢ ـ الدول اليونانية ٣ ـ دول البلقان السلافية ٤ ـ الدول الارمنية والجيورجية

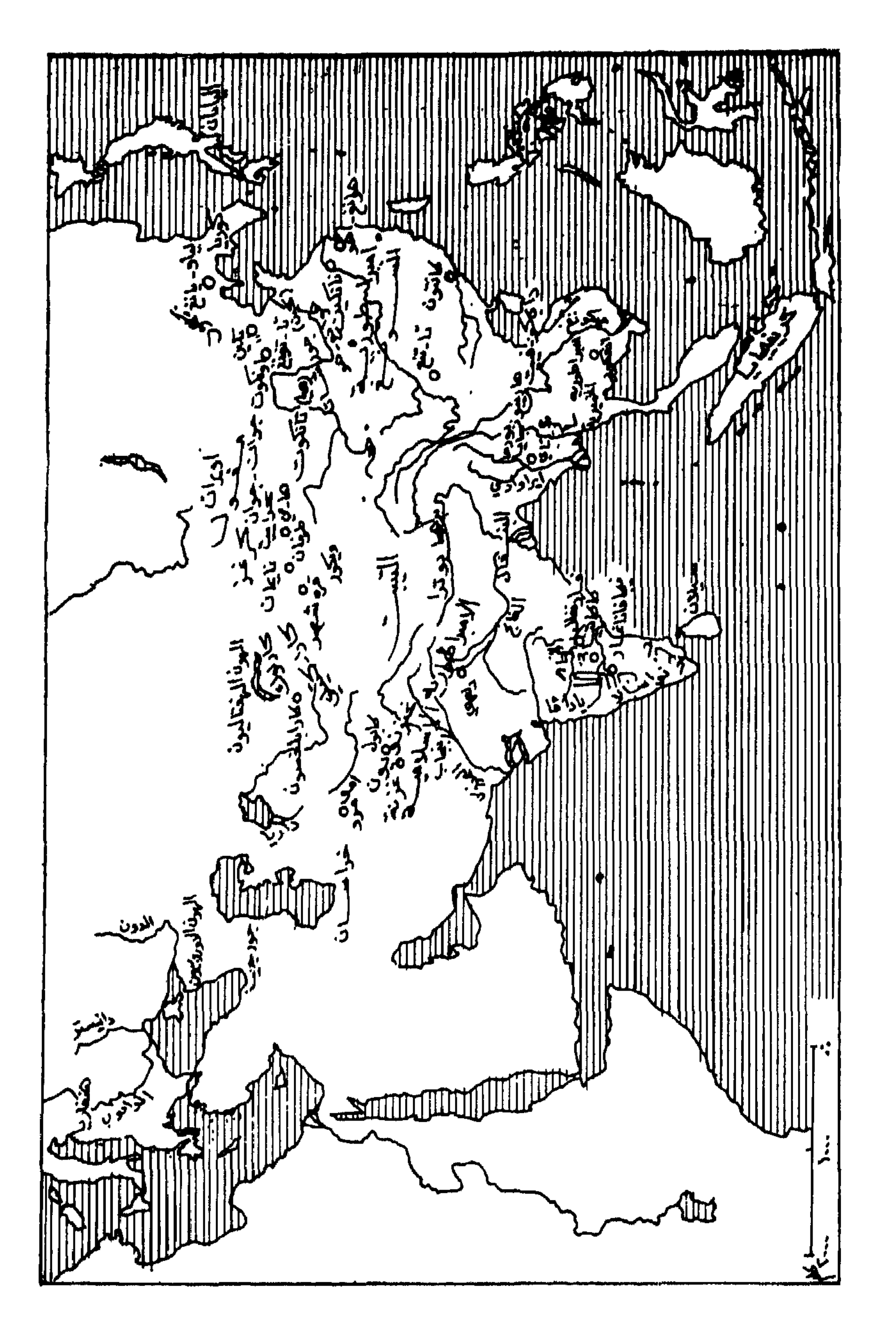
أعضاء التكتل الملكي او تخصص للقنص. الا انهم ، بالمقابلة ، يخضعون خضوعاً عميقاً للامبراطور ولسيد عهدتهم اللذين لا يمكنهم ترك خدمتها كما لا يمكنهم بيع اقطاعتهم ؛ اما سيدهم فيستطيع حرمانهم من هذه الاقطاعة وتسليمها لغيرهم ؛ كما يستطيع حرمانهم من قيادتهم العسكرية دون

ان يقبل بأية مراجعة او شفاعة . ولكن مركزهم يكرس رسمياً بكتاب توليــــة ، او ببعض الالقاب الشرفية - كلقب « حامل الكنانة » الذي منحه جنكيز خان - او بلوحات فسّر لنا « ماركو بولو » تسلسلها : فللسيادة التي تضم ١٠٠ رجل - أي تجند ١٠٠ جندي - الحق بلوحة ذهبية او فضية مذهبة ؛ واللوحة ذهبية ابداً ومزدانة برأس اسد للسيادة التي تضم ألف رجل . وتحمل اللوحة كتابة منقوشة تبارك الخان الاعظم وتلعن من يعصي أوامره . ولمالكي اللوحات جميعهم حق بالمظلة في تنقلاتهم، وبالعرش الفضي عند مقابلة الناس لهم . وباستطاعة أرفعهم مرتبة اقتناء جياد لنقل البريد دون اذن صريح من الامبراطور ، ويستفيدون كذلك من الانعامات الامبراطورية : الآنية الفضية ، و « السروج الجميلة » ، والجواهر والحجارة الكريمة ، والخيول أخيراً ، وهي خير ما يُهداه أبناء البورات هؤلاء بعد ان يجمعوا ثروة طائلة . وأضاف كوبيلاي الى هذه الانعامات انعاماً اخيراً يمنح مرة كل ثلاث سنوات : لباس ابهة ، وزنار ذهبي ، وأحذية من جلد الابل المطرز بالخيوط الفضية، وكان كل ذلك « مزداناً بالحجارة الكريمة والجواهر وأشياء اخرى غالية الثمن عظيمة القيمة » . ففي كل عيد ، يرتدي الامبراطور وأصحاب الاقطاعات الـ ١٢٠٠٠ الذين يشكلون حرسه الخاص ، ثياباً فاخرة كلها من لون واحد .

الخان الاعظم

ان اعتلاء جنكيز خان عرش الامبراطورية لم يغير في الظاهر شيئاً من الاصول المغولية القديمة التي اعتمدها مجلس التكتل في تعيين رئيس لا يتمتع بسلطة وراثية . فبعد ان اصبح تكتل الفاتح مجلساً امبراطورياً ، بات من حقه انتخاب الامبراطور الذي لا يمكن اختياره الا من بين أعضائه . الا ان الوراثة أمست في الواقع امراً واجباً ، بعد ان اتخذ الامبراطور يمين خلفه بموجب وصية ، - ابنه الثاني بحسب تقاليد المغول - وهو اختيار يوافق عليه المجلس بصورة عامة . وتدي جمعية التكتل ، في هـــذا الظرف ، مظهراً احتفالياً خاصاً استطاع الراهب الايطالي « جان دي بيان كاربينو » رؤيته والاعجاب به في السنة ١٢٤٦ ، حين جرى انتخاب « كويوك » : فبينما تـــدور المذاكرة في السرادق الامبراطوري ، يجتمع الفرسان وأهل المقامات داخل اسوار القصر ، وفي الخارج ينتظر الحدث حشد غفير بالاضافة الى الجيش الملتف حول اعلامه . وما ان يتم التعيين حتى يقوم اعضاء التكتل بالطقوس التقليدية التي ترافق كافة الاحتفالات المدنية او الدينيـــة ؛ يرفعون القبعة عن الرأس ، ويحلون الزنار الذي يلقونه على الأكتاف، ويُجلسون الملك على العرش المذهب الذي حل محل الطنفسة اللبدية القديمة، ويحيونه بلقبه الجديــــد . ثم يقدمون له الخضوع ساجدين أمامه تسع مرات بحيث يمس رأسهم الأرض ، فتحذو حذوهم جماهير المنتظرين في الخارج . وبعـــد اقسام الايمان الاحتفالية وتقديم الذبائح الحيوانية (فحول وحجور) ، يدشن الامبراطور عهـــده بتوزيع الالقاب والمراتب والدرجات الرفيعة على خدام الامبراطورية الممتازين .

حين بلغت السيطرة المغولية أقصى حدودها ، نظمت حياة الخان الاعظم ، مستقرة كانت ام نقالة ، تنظيماً دقيقاً جداً . فخلال أشهر الامطار الستة ، أي من ايلول الى شباط ، يقيم في



الشكل (رقم ١٣) ـ آسيا في عهد جنكيز خان

قصره في بكين ، حيث يحتفل ببدء السنة الجديدة في شهر شباط . ومن آذار الى نوار ، ينتقل المسكر الامبراطوري الزاهي الى القنص بواسطة الشواهين . بعد العودة ، لا يقيم الامبراطور في بكين سوى ثلاثة ايام يحتفـــل خلالها بأعياد كبرى ، ثم يذهب لقضاء فصل الحر في مقره الصيفي « شانغ – تو » ، في قصر من الخيزران . فالبون شاسع بين هذه الحياة المتفخلة وشظف العيش والاخطار في المعسكرات المغولية القديمة . يُقـــام الى جانب المعسكر الامبراطوري ، الذي يضم مظال لا تحصى لأهل المقامات وعائــلاتهم واخرى تجمع فيها الأسلحة والسروج والشواهين، معسكر آخر خاص بزوجات الملك، « الاوردوس » ، له خدامه ومراعيه الخاصة. وتقوم بجانب المظلة الامبراطورية الكبرى ، وهي أنفس المظال اطلاقاً ، مظلة اخرى يستخدمها الملك مسكناً له؛ يحرس مدخلها باستمرار ، وهو ابداً الى الجنوب ، اسياد من المراتب الرفيعة. تغطى بجلود الانمر وتفرش جميع اقسامها الداخلية ، بما فيها العوارض الخشبية ، بجلود القواقم والسمامير ، وتشد فيها حبــــال حريرية ، وتستخدم لاستقبال السفراء الأجانب - كغليوم دي روبروك في السنة ١٢٥٣ ؛ يجلس فيها الامبراطور على سرير مذهب يصعد اليه بثلاث درجات ، ترافقه زوجته الرئيسية ويحيط به كبار موظفيه الذين يجلسون بحسب مرتبتهم .

كل اجتماع هام وكل عيد مناسبة لوليمة . وقـــد وصف لنا تنظيمها ماركو بولو : يجلس الامبراطور باتجاه الجنوب امام الطاولة العليا ، وتجلس الى يساره امرأته الاولى (اليسار عنـد الصينيين هو المقام الاول) ؛ يجلس الامراء الامبراطوريون الى اليمين امام طاولات أدنى ارتفاعاً « بحيث لا يتجاوز رأسهم اقدام السيد الاكبر » ؛ ويجلس الأسياد الآخرون امام طاولات اقل ارتفاعاً ايضاً ؛ وتجلس الى اليسار ، وفاقاً للتدريج نفسه ، زوجات الأمراء والأسياد ، بحيث يستطيع الامبراطور رؤية جميع مدعويه . يوضع على طاولته اناء ذهبي كبير يغترف منه النبيذ بأكواب من اللك الصيني المذهب ويسكب في أكواب اصغر حجماً ، ملأى بالتوابل ، يغترف النبيذ من كل منها مدعوان . يؤمن خدمة الخان اسياد عظام يستر أفهم وفامم حجاب حريري مذهب، فيقدمون له اصناف المآكل والمشرب. ترن الآلات الموسيقية حين يهمّ بالشرب ؛ فيجثو كافة الحاضرين الى ان يشفي غلته .

لنذكر بين الأعياد البارزة في حيـــاة البلاط عيد الذكرى السنوية لجلوس الامبراطور الذي يرتدي، مع كبار موظفيه، الثياب المذهبة ويتقبل الضرائب والهدايا الميلية من رعاياه. ولنذكر خصوصاً عيد رأس السنة الجديدة الذي يحتفل به في شباط ؛ ترتدي البـــلاد كلها حلة بيضاء ، والبياض لون يتيمن به المغول – مع انه سيصبح لون الحداد عندما تتولى الحكم سلالة المنغ. يحاط الامبراطور في هذا العيد بأفراد عائلته ويستقبل صفوف اصحاب الاختاذات ابتداء من الامراء حتى المنجمين ومن كبار الاسياد حتى الاطباء والقناصة . تقدم له الهدايا التي يتبادلها الجميع في ذلك النهار ؛ وتقدم له كذلك ، في هذه المناسبة ، الجزى المفروضة على البلدان المحتلة : الاحصنة من تركستان ومنغوليا، والفيلة من الهند وشمبا والابل من خراسان، والآنية الذهبية والفضية.

كل فرد يقدم الخضوع بدوره للامبراطور ثم يبخر اللوحة الذهبية الحاملة اسمه والموضوعة على طاولة أشبه بالمذبح . وتلي المأدبة التقليدية ألعاب المشعوذين لتسلية الحضور .

يتلهى الامبراطور بلعبة الكرة الهوائية التي يشترك معه فيهـا كبار موظفيه ، وبمعاقرة المسكرات ساعات طويلة يتخللها عزف الموسيقى ؛ ولكن لهوه الاول هو القنص الذي يخضع لنظام دقيق ويشترك فيه الوف الضباط ويروض لاجله ٥٠٠ باز وصقر وشاهين ، بالاضافة الى الحيوانات السورية الصغيرة التي تروض لاجل قنص الطرائد الكبيرة ، والى اسراب كلاب الصيد التي يتعهدها بعض كبار الاسياد لخدمة الامبراطور. ويخضع لهذا النظام كذلك اطلاق الشواهين واسترجاع الطيور المفقودة والتعهد بالبحث عن الاشياء الضائعة . يسهم الامبراطور بالقنص من على ظهر فيله ، في محمل هو له بمثابة غرفة اثناء تنقلاته . وعلى كافة سكان المنطقة ، المسموح لهم باقتناص الطرائد ، باستثناء الايائل واليحامير ، طيلة الشهرين او الثلاثة اشهر التي يستغرقها القنص ، ان يقدموا للامبراطور حصيلة اقتناصهم .

اعدت المدافن الامبراطورية منذ جنكيز خان في منحدرات جبل «كنتاي» المقدس ؛ ينقل جثمان الخان الميت اليها في موكب جنائزي طويل يسير ببطء في المسالـك حتى قلب البلاد المغولية القديمة . وعلى غرار ما درج عليه الغز والصينيون ، يقتل جميـع المارة الذين يصادفهم الموكب . فهل نحن امام طقس من طقوس الذبائح طالما يرافقه ذبـح الخيول ايضاً ؟ ام اننا ، كما يزعم رشيد الدين ، امام تدبير احتياطي للمحافظة ، ما امكنت المحافظة ، على سر وفاة الملك؟ مهما يكن من الامر ، فان الجزرة التي اوردت ، كما يبدو ، بحياة ٢٠٠٠ ضحيـة اثناء جنازة « مونكا » تذكرنا تذكيراً غريباً بطقوس « مدافن العربات » في عهد اوئل التاريخ المعروف .

الجيش والحرب

قبل ان ينظم جنكيز خان جيشاً امبراطوريا ، قامت الحرب عند المغول على اكتاف السكان المسلحين والجنود المحترفين معاً. وقسّم رجال التكتلات ، برئاسة زعمائهم القبليين الى فرق محاربة وفرق مساعدة ، يضاف اليها ، حول الرئيس ، فرقـة مختارة قد تضم الف رجل. اما المحاربون المحترفون ، الى اي تكتل انتسبوا ، فيحيطون بالحرس القومي او يوضعون احياناً ، بحسب مقتضيات الظروف ، تحت امرة هذا القائد او ذاك .

احاط جنكيز خان نفسه ، في البدء ، بحراسة متواضعة – ٧٠ رجلا فقط – وتولى في الوقت نفسه القيادة العليا لكافة وحدات الجيش المغولي . ثم اضطره توسع الامبراطورية وتعدد حملات الفتح في المناطق النائية الى وضع تنظيم ثابت حازم . فوزع السكان الذكور ، اعداداً للتعبئة ، عشرات ومئات والوفاً ثم وحدات يضم كل منها عشرة آلاف رجل. ورفع الحرس الامبراطوري كذلك الى عشرة الاف رجل يجندون جميعهم من بين ابناء الاسيـاد والاحرار البواسل ؛ واختارهم الخـان نفسه ، بالاستناد الى صفاتهم الجسدية وشجاعتهم ، من بين المجندين المتطوعين – « لا يجوز لاحد الاحتفاظ بمن يريد الانضمام الى الحرس » – الذين يقدمهم اصحاب الاخاذات

وفاقاً للقاعدة التالية : « اخ » وعشرة رجال لقائد الالف ، اخ وخمسة رجال لقائد المائة ، اخ وثلاثة رجال لقائد العشرة ، على ان تؤمن كل من هذه الفئات ، بالاضافة الى ذلـــك ، احصنة مجنديها وعُددهم . على عاتق هذه الوحدة المختارة ، التي يشكل ١٠٠٠ من خيرة رجالها مقدمة الجيش ابان الحرب ، القيت واجبات دقيقة دائمة . فهي توزع على الشكل التالي : الف عاس والف « حامل كنانة » ، وحراس نهاريون وحراس مائدة وحراس مظلة وامراء اخـــور . يخدمون مناوبة طيلة ثلاثة نهارات وثلاثة ليال متواصلة. لا يستطيع احد دخول المظلة الامبراطورية اذا لم يرافقه رجال الحراسة ؛ ومن واجب هؤلاء ، منذ الغسق ، القاء القبض على كل من يحـاول الاقتراب منها ؛ ويعاقب افشاء عدد الحراس وموعد ابدالهم بغرامة عينية : ملابس وجـــواد مجهز بكامل عدته . وتتراوح العقوبات ، التي يحكم بها الامبراطـور نفسه ، بين الضرب المكرر بالعصا وقطع الرأس . اما التخلف عن الخدمة فيعاقب بثلاثين ضربـــة عصا في المرة الاولى ، وسبعين في المرة الثانية وبالنفي اخيراً في المرة الثالثة . ولكن الحراس استفادوا من امتيازات تعوض عن هذه العبوديات . فالحارس البسيط يقدّم على قائد الالف ؛ واذا ما تنازعا فالقائـد هو من يعاقب .

اهتم الحكام ، في هذه الدولة التي بقيت عسكرية بدوية ، بالجيش والحرب فـــوق اهتمامهم بالمسائل الاقتصادية والعقائد الدينية . لذلك فان المصادر الادبية الحافلة بالنصائـــح المسداة للجنود ترفع النقاب عن الاساليب الحربية الخاصة بالشعوب البدوية ؛ يشدد فيها عـــلى العناية بالطبول والرماح ، وحراسة الاعلام ، وسلامة العربات والمظال ؛ كما يشدد على ضرورة الاقتصاد في المؤن ابان المعارك وعلى حصر انتجاع الكلأ الضروري لتموين الجيوش ، وعلى عدم اصطحاب الاحصنة الهزيلة العاجزة عن تسلق الجبال او اجتياز الانهر ، واخيراً على تخفيف عدة الحصان بالاستغناء عن كل ما هو مزعج او ثقيل : يجب ان لا تضايق الاثغارُ الركوبـــةَ وان لا يترك الفارس الاعنة منسدلة .

والامبراطور هو الذي يقرر موعد الذهاب الى الحرب بالاستناد الى رأي منجميه، ويرسل، قبل هذا الموعد بيومين ، بضع مئات من الفرسان الكشافة . لا تزال القوة خفيفة ، اذ ان الجندي لا ينقل سوى قربتين ملأيين بلبن الفرس الرائب ، واناء خزفي لطهي الطرائد التي قد يقتنصها في الطريق ، ومظلة فردية صغيرة تقيه من المطر ، ويعلق كل ذلك بالسرج . فجميع الاحتياطات متخذة اذن لتأمين سهولة تحرك الجيش . وهذه السهولة هي ما جعل المغول يتفوقون على اعدائهم واحداث ثورة في فن الحرب شبيهة بتلك التي حدثت في القرون الوسطى واعطت الاولوية ، في الغرب والشرق الادنى على السواء ، لكتائب الفرسان الثقيلي التسلح . وهي ايضـــاً ما اوهم العدو ، الذي يهاجمه فجأة نبالون خفيفو الحركة ، بانه امام جيش لا يحصى له عد . اجل لقـد فاق عدد الجنود المغوليين ، وقد ضم شعوباً كاملة تحمل السلاح ، عدد الفرسان الغربيين، الموزعين وحدات صغيرة ، الذي لم يتجاوز ، الا في ظروف استثنائية نادرة ، عشرة آلاف محارب . ولكن

ما نعرفه عن الغارات الصاعقة التي شنها المغول على تركستان والشرق الادنى واوروبا يحملنا على الاعتقاد بان الذين اشتركوا فيها لم يتجاوزوا عشرين او ثلاثين الف رجل دفعة واحدة. وقد بلغ الجيش المعد للحرب ، حين وفاة جنكيز خان ، على ذمة رشيد الدين، ١٢٩٠٠٠ رجل خصص منهم ٢٨٠٠٠ لحراسة الامبراطورة والامراء الامبراطوريين ووزع الباقون ثلاث وحدات في الوسط والشرق والغرب . وحين يتكلم المؤلفون الشرقيون والرحالة الغربيون ، في عهد لاحق ، عن جيش مؤلف من ٥٠٠٠٠٠ رجل كوحدة غازية قليلة العدد ، وحين يشيرون الى ان الامبراطور يهمل قواد العشرات والمئات والالوف ولا يصدر اوامره المباشرة الا لقواد وحدات المائة الف ، فان هذه الاعداد غير جديرة بالتصديق اذا لم ندخل فيها فرق المجندين المعبئين في البلدان المخضعة للسيطرة المغولية ، وهي فرق لا قيمة لها ولا تنقل الى مسافات بعيدة. ونحن نعلم من جهة ثانيه ان وحدات الفرسان قد بقيت اهم وحدات الجيش ؛ فان سرعة تحركها وخدماتها الكشفية والجاسوسية الممتازة ، وتموينها عبر مساحات شاسعة شبه صحراوية قد فرضت الاكتفاء بمجندين اقل عدداً ـ واعظم تفوقاً ـ الى حد بعيد من كل ما استطاعت تعبئته آنذاك الامبراطوريات والملكيات المتحضرة .

يبدو ان المغول قد تعودوا أساليب اعدائهم الحربية ، وانهم قبلوا في الدرجة الاولى بالمعركة بين جيشين متقابلين . ولكننا لا نعلم الشيء الكثير عن تقنية المعركة نفسها . اذ ان مصادرنا لا تصف لنا سوى نوع من قانون مثالي يفرض الاقتراب « في الاعشاب الكثيفة » واعداد الجنود للمعركة « بشكل بحيرة » ، وشن الهجوم بغية اختراق صفوف الاعداء « كالمثقب » . يعتلي الخان مرتفعاً يراقب منه حركات الجيوش وينسم قواه ثلاث وحدات : أقلها عدداً يوضع تحت قيادته المباشرة ويتألف من اشد المحاربين مقاومة ويشكل الوسط ؛ وتنتشر الوحدتان الرئيسيتان على جانبي الوسط يميناً وشمالاً ، أي شرقاً وغرباً ، لأن المغول يتجهون أبداً الى الجنوب . قبل المعركة التي تعطى اشارتها بدق طبول الخان ، ينشد المحاربون « ويعزفون على آلة شجية ذات وترين » (ماركو بولو) . لا تدور المعركة الا في النهار ، وتتوقف في الليل ، ولكن ذلك لا يفيدنا شيئاً عن مراحلها الفنية. الا ان اعتماد الآلات الحربية الشبيهة بالغرف المستطيلة التي تصنع من الاخشاب وتنقلها الفيلة ، لا تخلو من الدلالة . يتباهى ماركو بولو ، بما عرف عنه من مخرقة ، بانه واعمامه قد علموا ضباط كوبيلاي ، استعمال المنجنيق الذي اتاح في السنه ١٢٧٣ دخول سيانغ ـ يانغ على الهان السفلى ، بعد حصار دام خمس سنوات . اما نحن فنرجح ان مثل آلات الحصار هذه قد احضرها مهندسون مسلمون آتون من بلاد ما بين النهرين .

التنظيم الداخلي

لم يتصور المغول ، شأن أمثالهم من البدو الرحل ، قانوناً غير قانون القبيلة وانتجاع الكلأ ، فاحتقروا اهل القرار ولم يفكروا الا بتدمير قراهم وتخريب حقولهم . الا ان فتوحاتهم جعلتهم يخالطون أناساً تفوقوا عليهم حضارة ، فأحسنوا صنعاً احياناً بالاصغاء اليهم . وهكذا فان جنكيز خان قد صادف ، في السنة ١٢٠٤ ، كاتباً تركياً في خدمة

زعيم « النيمان » يتكلم ويكتب لغة « الويغور » ؛ عندما وقع في الاسر حاملاً خاتم سيده — مما أثار دهشة الفاتحين البرابرة — استخدمه جنكيز خان، فحررت وثائقة الرسمية، منذ ذاك التاريخ، باللغة التركية الويغورية . ثم اسندت اليه مهمة تهذيب أبناء الامبراطور وتعليمهم الكتابة الويغورية، المشتقة من الكتابة السريانية، التي ستشتق منها الاحرف المغولية . ثم الحق به شخص آخر كرايتي الاصل « ويغوري » الثقافة ايضاً؛ فاسندت اليهما اعمال ديوان الامبراطورية الذي قسّم بفضلهم شيئاً فشيئاً الى دوائر ، وما لبث ان شمل « الدوائر الصينية » بغية ادارة امبراطورية واسعة الاطراف .

نمت هذه النواة الادارية وتجهزت في عهد اوغوداي ، لا سيا بفضل وزيره وصديقه الكيتاني « يي — ليو تشو — تساي »، وهو رجل عالي القدر لم يلبث ان اخذ بالحضارة الصينية. فأضيفت الى الدوائر المغولية والصينية مصالح اخرى تانغوتية وفارسية . فقسمت أراضي الامبراطورية أقساماً ادارية ، كالمقاطعات العشر في المنطقة المحتلة من الصين مثلاً . وبذلت المحاولات اخيراً لتحديد اراضي التجول والمراعي لكل قبيلة مغولية . وأقرت في الوقت نفسه ، على أسس نظامية، الميزانية التي قامت على نوعين من الواردات: عشر نقدي يدفعه فلاحو المناطق المتحضرة من اصل مواسمهم ، واقتطاع رأس من كل ١٠٠ رأس ماشية فرض على الرعاة . وفي سبيل تأمين الجباية بسرعة احدث جنكيز خان هيئة من المفوضين الامبراطوريين ، استطاعت استخدام البريد الامبراطوري ، ثم اعاد اوغوداي تنظيمها ، ولكنها لم تعش طويلاً .

في عهد كوبيلاي، الذي اصلح الطرقات وخانات القوافل وزرع الاشجار الظليلة على جوانب المسالك ، أثارت خدمة البريد هذه اعجاب ماركو بولو . ولما كان المؤرخون قد انخدعوا منذ ذاك التاريخ بمواهب المغول الادارية وعبقريتهم التنظيمية ، يجدر بنا هنا ان نصف هذه الخدمة وصفاً موجزاً : فالطرقات والمسالك تسمح للسعاة بنقل الاوامر بسرعة حتى أقاصي حدود الامبراطورية . تقوم على مسافات معينة — من ٢٥ الى ٤٥ ميلاً - محطات يوجد فيها على الدوام ساقة ، وهداة ، ورباطات ، وقطيع غنم ومخزن حبوب لتموين المسافرين ، بالاضافة الى مبيت مجهز خير تجهيز ، معدّ لكبار الموظفين من ناقلي الاوامر الامبراطورية . واذ كانت بعض المحطات الهامة تتسع لأربعمائة حصان ، أمكن القول بأن أكثر من ٣٠٠٠٠٠ حصان كانت من ثم موزعة على الطرقات ، يقدمها كلها ويتعهدها — الا في المناطق الصحراوية حيث يأخذها الخان على عاتقه — اسياد المناطق وملاكوها . وقامت بين المحطة والمحطة ، كل ثلاثة اميال ، قرى او مراكز سعاة ينقلون ، سعياً على الاقدام ، الرسائل والمواد الغذائية و «الأشياء الغريبة الاخرى» المبعوث بها الى الامبراطور؛ كان هؤلاء موظفين ذوي اجور معفين من الضرائب على غرار أغلبية الضباط الامبراطوريين ، يراقب تنقلاتهم كتبة مقيمون في كل مركز . اما السعاة الفرسان السرعان الذين يحملون ابداً اللوحة الامبراطورية التي تسمح لهم بمصادرة الركائب ، فكانوا ينقلون الاوامر العاجلة الى الاماكن البعيدة .

واذا نسبت الى اوغوداي ايضاً بعض اشغال المنفعة العامة ، كحفر الآبار في المناطق الصحراوية تسهيلاً لاجتيازها ، فان الادارة قد تنظمت تنظيماً نهائياً في عهد كوبيلاي . ولكن الخان كان آنذاك ، في الدرجة الاولى ، امبراطور الصين ؛ لذلك كانت طرائقه صينية وموظفوه الاداريون صينيين . وفي الواقع اسندت ادارة الامبراطورية ، المقسمة الى ٣٤ مقاطعة ، الى اثني عشر وزيراً صينياً من عظام الاسياد يقيمون في احد قصور بكين ويعنى كل منهم بنوع من الشؤون ، ويختارون بدورهم حكام المقاطعات ، ويؤلفون اخيراً محكمة عليا حيث يعاونهم قاض وعدد من الكتبة لكل مقاطعة ويتخذون قرارات مطلقة في الشؤون العسكرية ويحددون عدد الفرق الواجب تجنيدها ويصدرون، في الدعاوى الهامة ، احكاماً مبرمة، باستثناء الحالات الخطيرة التي تعرض على الامبراطور للفصل فيها .

اما تنظيم القضاء في المقاطعات فأكثر تعقيداً اذ ان ثمة محكمة اولية تسوّي الخلافات في كل معسكر ، بينما يمارس الاسياد سلطة قضائية في اقطاعاتهم ، وتلتئم في الاولوس محاكم خاصة يرئس كلاً منها قاض كبير . ويبدو ان السرقة أكثر الجرائم تكراراً في العالم المغولي . وهي تعاقب بحسب أهميتها اما بضربات العصي – من ٧ الى ١٠٧ – واما بإعدام تراق فيه الدماء ، الا اذا استطاع السارق دفع تسعة اضعاف قيمة المسروق .

امام صعوبات التموين في امبراطورية على مثل هذا الاتساع ، اضطرت حكومة كوبيلاي، أكثر من سابقاتها ، الى حصر جهودها في المشاغل الاقتصادية . فأحدثت أقنية كبرى بين بكين ويانغ – تشيو ؛ وطافت هيئة من المحققين على المقاطعات للاستعلام عن حاجاتها ؛ وأعفي ضحايا الاوبئة والكوارث الطبيعية مؤقتاً من الضرائب ؛ وأعيد نظام قروض الدولة الذي عرفته الصين في ايام السونغ ؛ ووزعت الادارة ، في السنوات القحيطة ، الحبوب والمواشي التي جمعتها في سنوات الاخصاب. ومن أدلة سياسة المساعدات هذه تأسيس المستشفيات والمياتم ومستوصفات العجّز ، وتوزيع الاطعمة والالبسة بالمجان ، و « حسانات اليومية في فناء القصر .

كانت الاتاوات والضرائب ، لفترة من الزمن ، كافية لتغذية الخزانة الامبراطورية . وكان للضرائب العينية أهمية عظيمة : الطرائد الصغيرة والكبيرة ، الاحصنة التي يقدمها الاسياد للبريد والحرس والجيش ؛ المواد الغذائية على أنواعها ، بما فيها البطيخ والعنب ، التي تقدمها البلدان المحتلة . يضاف الى ذلك الضريبة النقدية (فضة) المفروضة على المزارعين المتحضرين ، وضريبة اخرى خاصة (ذهباً) مفروضة على الملح، ورسوم اخرى على السكر والفحم الحجري المستخرج من جبال الصين الشمالية بكلفة اقل من كلفة الوقود . ويدخل الخزانة أيضاً قسم من الرسوم المفروضة على كافة السلع والجزى المتوجبة على البلدان الاجنبية او التابعة للامبراطورية. فبدت ثروة الامبراطورية وكأنها ممتنعة النفاد ؛ ولكنها تلاشت بالاكثار من النقد الورقي الذي كان ، كما سنرى ذلك ، احد الأسباب الرئيسية لانهيار « اليوان » .

فأين نحن اذن من اقتصاد بدائي ساد عالم المغول الذين لم يعرفوا، كما نرجح ، القطع النقدية واكتفوا بالمقايضة البدائية ؟ الا ان بعض تجار تركستان الصيني قــد ركبوا الأخطار منذ أوائل القرن الثالث عشر وتوغلوا في منغوليا بغية تبادل الاغنام والابل بجلود السمامير والسناجب. اضف الى ذلك ان قيام الامبراطورية الجنكيزخانية ، بتسهيله جمع الثروات الطائلة في المعسكر الامبراطوري ، قد سمح باعادة فتح طرق المقايضة القديمة المهجورة منذ قرون عديدة بسبب مخاطر المسير في البورات . ولكن منغوليا ليست من أفاد من ذلك ، اذ ان نقل العاصمة الى بكين قد حول التجارة شطر الصين الشمالية . وقد يكون جنكيز خان أدرك بسرعة أهميــة طرق الحرير الخاضعة آنذاك لسيطرة الويغور ؛ فنظم ، بالاتفاق مع هذا الشعب ، قافلة كبرى ، مؤلفة من ٥٠٠ جمل حمّلها من كافة ثروات آسيا ، وأعدها لاقامة العلائق التجارية مع خوارزم . فكان الهجوم على هــذه القافلة ونهبها ، اللذان نظمها احد الحكام الخوارزميين ، مصادفة مشؤومة وفاتحة حرب لا هوادة فيها استمرت عدة سنوات خرّب المغول خلالها تخريباً نهائياً المناطق الغنية التي كان الخان قد رغب في الاتجار معها . اضف الى ذلك ان الوزير يي ـ ليو تشو، حين جاء دور الصين ، لم يتوصل الا بكل صعوبة الى اقناع جنكيز خان بالعدول عن مشروع وضعه ، تحت تأثير ذهنيته البدوية ، لافناء السكان وتقويض المدن والاسواق واعادة المساحات المحتلــة الشاسعة الى بورات ومراع للمغول . ولكن فتح بلاد السي ـ هيا آنذاك (١٢٢٦) قد سمح بجعلها طريقاً رئيسية للقوافل بين الشرق الاقصى والغرب ، بينما كان لا مناص في السابق ، لبلوغ ايران والصين ، من سلوك طريق طويلة محفوفة بالاخطار تمر بمنغوليا العليا . فأتاحت الطريق المباشرة ، المارة بـ « سو ـ تشيو » و « توان ـ هوانغ » ، واعادة النظام مؤقتاً الى الربوع المغولية ، ظهور التجار الاجانب مرة اخرى في آسيا العليا وبلوغهم الصين .

كان استثمار السكان استثماراً منسقاً ينظم في هذه البلاد الأخيرة، كلما امتد الفتح المغولي، فكر الأسياد المغول ، الذين غدوا من كبار الملاكين في البــلاد المحتلة ، باقراض الصينيين ، بفوائد مفرطة ، الأموال التي انتزعوها منهم ، وذلــك بالاتفاق مع تجار جلهم من المسلمين ، أسسوا نقابات وشركات مصرفية، وقاموا بدور الوسطاء لاقناع الاسياد بالموافقة على القروض للصينيين. الا ان هذا النظام ، الذي جنى منه « تجار الاموال » المكاسب الرئيسية ، قد الغي رسمياً في السنة ١٢٩٨ : فان السكان الصينيين ، الذين عوملوا منذئذ معاملة المغول ، قد حصلوا عــلى ضمانات قانونية ضد الفوائد الجائرة التي تتقاضاها النقابات الاسلامية وضد مصادرة نساء المدنيين واولادهم . ولكن هذا التشريع لم يأت بالنتيجة المتوخاة ، فاقتضى اقرار تشريع جديــد في السنة ١٣٠١ والسنة ١٣٠٢ ضد استثمار استهدف الفلاحين والصناعيين اليدويين ، لم يحــل دون انطلاقة التجارة الكبرى: ويبدو ان نشاطات المقايضات هذه قد بلغت ذروتها في عهد كوبيلاي؛ او ان ما يجوز قوله فيها هو ان ماركو بولو قد افتتن آنذاك بمشاهدتها .

في الصين الوسطى مخرت السفن الشراعية نهر « اليانغ ـ تسو » وسار غيرهـــا في القناة الكبرى ، التي رممها واكملها كوبيلاي ، لتموين بكين بالارز والحرير الضروري لانتاج اقمشتها الموشاة بأشكال الزهور ومنسوجاتها التي تتخللها الخيوط الذهبية، ومنسوجاتها الحريرية الملساء؛ وقد صدرت تشنغ — تو ، في الغرب (سو — تشوان ،) الحرائر الصينية حتى اواسط آسيا . وانتثرت على السواحل البحرية مرافىء عجت بنشاط منقطع النظير، فكانت « يانغ ـ تشيو » ، سوق الارز الكبرى ، وكانت « هانغ ـ تشيو »، حيث عاشت النقابات عيشة الامراء ، مستودعاً للسكر وصدرت الحرائر الى الهند والعالم الاسلامي ؛ واتجرت فو — تشيو بالتوابل والحجارة الكريمة التي قامت اهم اسواقها في « تسيوان — تشيو » بينما اشتهرت منطقــة « فو ـ كيان » بصناعة الاواني الصينية . فتوافد التجار الاجانب على الصين من عرب ، وفرس ، ومسيحيين شرقيين وغربيين ، وهنود وماليزيين ، فاسسوا مستعمرات حقيقية وجمعوا ثروات طائـلة من بيع توابل جاوا والهند بارباح مرتفعة جداً. وبفضل المعاهدات التجارية التي عقدها كوبيلاي مع « راجوات » الهند الجنوبية ، ولا سيما راجوات ترافنكور وكرنات . وقصد التجار الصينيون بدورهم المناطق النائية كي يبيعوا فيها الحرير الخام والمنسوجات الحريرية ويستحضروا منهـــا التوابل والاقمشة الموصلية والمنسوجات القطنية والحجارة الكريمة .

نشطت العلائق التجارية ، براً وبحراً ، مع ايران ، حيث تولت الحكم آنذاك عائلة هولاكو المغولية ، التي صدرت الطنافس والسروج وآلات الوقاية المعدنية والادوات البرونزية والاواني المزدانة بالمينا . وما الاثر الصيني البارز في التزاويق الفارسية سوى نتيجة هذه العلائق .واخيراً اقيمت العلائق مع اوروبا ايضاً . فوصلت طرقات عدة بين مصب « الدون » وبكين مروراً بجانبية الكبشاك المغولية وشمالي تركستان الصيني ومنغوليا و« وقره كورم » . وانتهت الى هذه الطرقات طرقات اخرى تنطلق من ترابيزون والمتوسط الشرقي وتجتاز خانية فارس وتمر بتبريز وسمرقند وطشقند وواحات تركستان . واسست البندقية وجنوى اسواقـــاً تجارية في القرى ومستعمرات في بلاد فارس ، فقامت للمرة الاولى في تاريخ العالم الغربي، على طول هذه الطرقات، علائق مباشرة بينه وبين الشرق الاقصى : وهذه هي المخالطة في نتيجة فتوحات المغول المخربة.

ونشطت في الصين نفسها حركة الصفقات التجارية بفضل استعمال النقد الورقي ، الذي سبق للسونغ ان استعملوه ، والذي اقتبس اوغوداي مبدأه ، منـذ السنة ١٢٣٦ ، عن الكيتات في الصين الشمالية ، والذي استعمله كوبيلاي اخيراً استعمالاً منظمـــاً . صنعت الاوراق النقدية « السوداء » من قشور شجرة التوت ، وصدرت عن قصر النقود في بكين ، متفاوتة القياسات بحسب القيمة التي تمثلها ، وحاملة خاتم الامبراطور الذي يضمن شرعيتها . وقد فرض التداول بها ، تحت طائلة عقوبة الاعدام ، على كافة رعايا الامبراطورية . اجل لم يبد التجار استياءهم من هذا النقد لانهم استطاعوا بسهولة استبداله بمواد غذائية مفيدة للتصدير . الا ان كوبيلاي ، بالاكثار من هذه الاصدارات ، قد فتح الباب امام التضخم الذي سيفضي في القرن الرابع عشر الى انهيار الامبراطورية الصينية .

الشامانية

ادت اعادة العلائق الدولية واستتباب الامن على الطرقات ، بدورهما ، الى ازدياد عدد المبشرين المتوافدين على الشرق الاقصى من كل قطر ومصر. ولكن المسائل الدينية ليست شغل المغول الشاغل. فاذا اعتنقت بعض القبائل النسطورية او البوذية وحتى الاسلام ، فان اغلبية القبائل قد حافظت على مفاهيم البدو القديمة حيال تكوّن العالم ، وهي معتقدات بسيطة جداً قامت عليها الديانة الشامانية الخاصة بكافة الشعوب التركية - المغولية. العالم في نظرها مؤلف من طبقات متعاقبة؛ المنطقة السماوية ، وهي مملكة النور ومقر النفوس الفاضلة ، تضم ١٧ طبقة عليا ؛ العالم السفلي ، وهو مقر الظلمات والاشرار ، يقسم الى سبع او تسع طبقات ؛ وتقوم بين الاثنتين مساحة الارض حيث يعيش بنو الانسان. تخضع السماء والارض الى كائن اعظم يقيم في الطبقة العليا ، تانغري ، او السماء - المؤلهة. وبين الآلهة الآخرين ، تعنى الإلهة اوماي بالاطفال ، وتتمثل اتوغان أو إيتوغان ، الهة الارض ، بالهة الجبل ، اوتوكان ، في الارجح. ويقيم عفاريت لا يحصى لهم عد في الارض ، والمياه ، والجبال ، والينابيع ، وهي اماكن مقدسة احيطت بالاكرام منذ القدم. ويتمثل العفريت حارس القبيلة، «السولد» ، تمثلاً محسوساً ، بسارٍ تعلوه جدائل من سبيبة الفحول ، وهي في الارجح حيوانات مقدسة ، عنبية اللون وسوداوية الذنب والغفرة ؛ وينصب الساري في حظار يحيط به نطاق من شجر الصفصاف يقوم على حراسته متولو شؤون العبادة. ولكن العفريت يسكن علم القبيلة ايضاً (توك) الذي تقدم له ذبيحة قبل كل حملة عسكرية. ولكل انسان كذلك إله مصير يؤدي له واجب عبادة: فقد اكرم جنكيز خان اله مصيره، السماء - الزرقاء - الازلية، في كافة ظروف حياته العصيبة : وقد درج الفاتح على أن يتسلق جبلاً مقدساً ويرفع قبعته عن رأسه ويلقي زناره على كتفيه ، ويسجد تسع مرات مولياً وجهه شطر الجنوب.

ومن الجائز ايضاً ان يكون «السولد» قد استخدم كذلك نطاقاً لارواح الاجداد اذ ان المغول قد قدموا لها فيه لحوماً كان افراد القبيلة يلتهمونها بعد ذلك في مأدبة طقسية. واعتبر جنكيز خان بعد وفاته كعفريت حام ، فاديت له عبادة خاصة كادت تمثله باله حقيقي. ولكن الطقس الذي احتفلوا به اكراماً للجدود كان اهم الطقوس اطلاقاً ؛ وكان الاقصاء عنه بمثابة طرد من القبيلة.

كان لسجود «الكوميز» وسكب الخمر الطقسي صداهما حتى في العيد الكبير الذي امر كوبيلاي باحيائه في بكين في الثامن والعشرين من آب ؛ فقد سكب فيه على الارض ، لاخصابها، حليب الافراس الامبراطورية : قربان جماعي يقدم ، كما ذكر ماركو بولو ، للارض والسماء والارواح ، ومن شأنه ان يؤمن للشعب بكامله السعادة والخصب والازدهار.

فنحن اذن امام ديانة بدائية احيطت بعادات خرافية ، كالتامل في راسل خروف محموس بغية معرفة الحظ ؛ وباللعنات : فاذا ما قذفوا بالحجارة الى الماء ، استنزلوا على العدو عاصفة ثلج ومطر ؛ وبالدلالات الطبيعية المشؤومة ، كنباح الكلاب ؛ وبالايمان التي ترافقها الهدايا

والمآدب والرقصات الطقسية ؛ وربما بالوشم اخيراً : فان بعض تلميحات « التاريخ السري » تحمل على الاعتقاد بان الذئب والوعلة كانا رمزين لجدود القبيلة الجنكيز خانية بينما الصق ببعض المصنوعات ، كالمرآة ، طابع مقدس يحرم مسها او استخدامها .

ليس لهذه الديانة من كهنة سوى السحرة او الشامانيين المتسلحين بطبل شد عليه جلد ثور اسود. استخدم هؤلاء الرجال الخشنون الدهاة ، السلطة الفائقة الطبيعة ، المعترف لهم بها ، بغية لعب دور شعبي عام ، والاستئثار – لا سيما بين قبائل الغابات – بلقب الزعيم (باقي) وفرض انفسهم على ولاة الشعب . فلم يتردد جنكيز خان وخلفاؤه في اقصاء اكثرهم ازعاجاً وحتى في التخلص منهم اغتيالا . وعلى الرغم من ذلك كان وجود الشاماني ضرورياً للقيام ببعض الطقوس وتقديم بعض الذبائح وتفسير بعض الدلالات الطبيعية . وفي البلاط ، تقدم الشاماني الاعظم ، المتجلبب بالثياب البيضاء والمعتلي صهوة جواد أبيض ، على كافة اصحاب المقامات في حاشية الامبراطور ؛ وقد درج التقليد على التماس تنبؤاته قبل كل مشروع حربي .

الديانات الغريبة

لم يكن المغول ، على امانة سوادهم الاعظم للمعتقدات الشامانية القديمة ، مرتبطين باية عقيدة معينة . فبرهنوا من ثم عن تساهل متساو ، في كافة انحاء الامبراطورية ، حيال الديانات المتجانبة فيها : البوذية والطاوية والكونفوشيوسية والاسلام والمانوية واليهودية والمسيحية النسطورية او الكاثوليكية ، بالاضافة الى شتى الشيع المشاقة . فتمتعت كل كنيسة بنظام قانوني وصلاحيات قضائية عادلة ؛ لا بل حصل بعضها على اعفاءات من الضرائب لاتباعها . واشتهر المغول بفضولهم في سؤال الاجانب عن ديانتهم دون ان يعني ذلك ، بالضرورة ، اعتناقهم اية ديانة ؛ واذا ما اقدم بعضهم على ذلك ، فانهم كانوا يحتفظون بخرافات غليظة ادت بكثير من الديانات الغريبة الى الفساد والانحطاط .

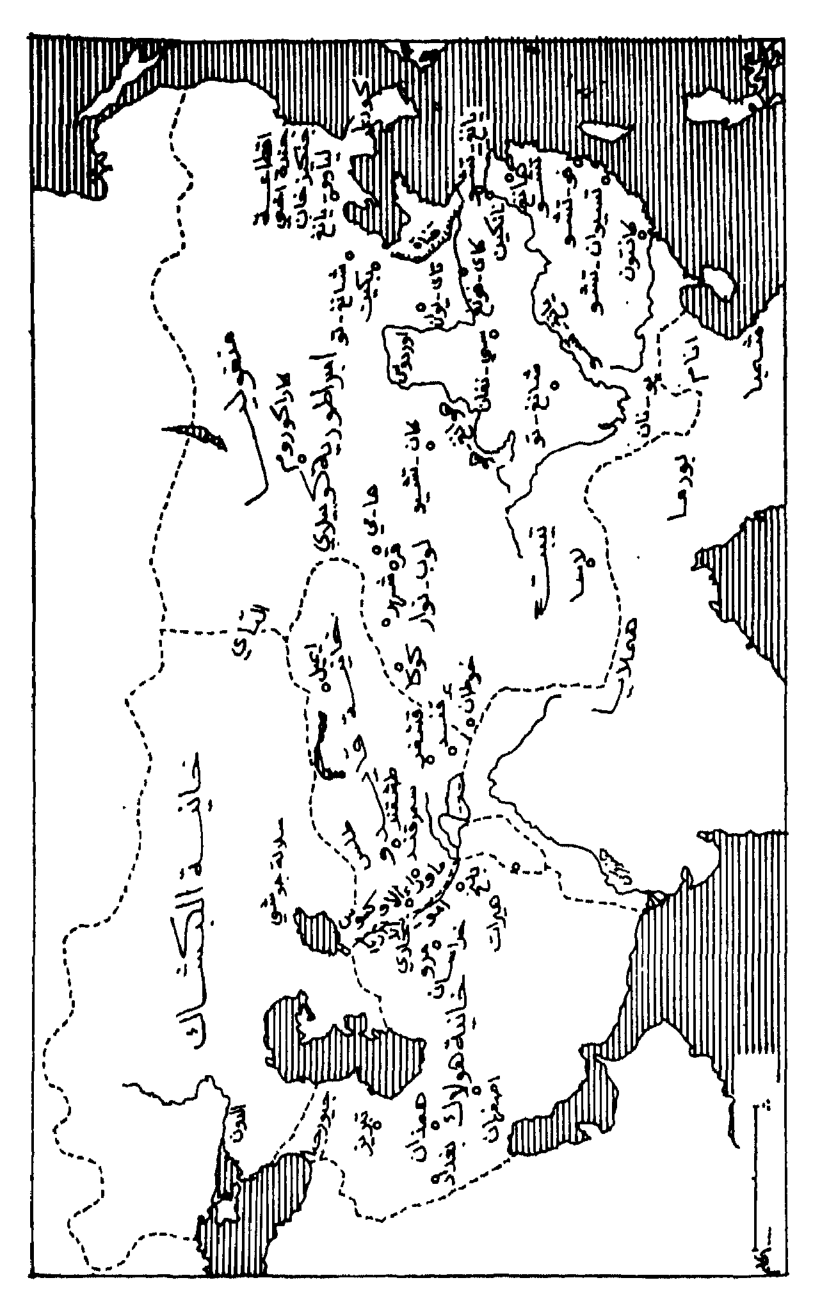
يبدو ان جنكيز خان قد اعار الطاوية في البداية اهتماماً خاصاً . ومرد ذلك في الارجح الى القوى الفائقة الطبيعية المعزوة الى كهانها ، والى انه نظر اليها نظرته الى شامانية فضلى . استدعى الى معسكره كاهناً مشهوراً من « هو – بي » ، يدعى « كيو تشانغ – تشوان » ، آملاً الحصول منه على العقار الذي يؤمن الخلود . ذهب الكاهن العجوز في شهر آذار من السنة ١٢٢١ واضطر الى سلوك طريق طويلة تفادياً للمخاطر ، فلم يبلغ الاوردوس الامبراطوري ، وهو آنذاك في البلاد الافغانية ، الا في الخامس عشر من نوار من السنة ١٢٢٢ ، ومكث فيه قرابة السنة . الا ان رواية مرافقه ، وهي مفيدة جداً لمعرفة البلدان التي اجتازاها ، لا تخفي اخفاق المهمة الدينية ؛ فخاب امل الفاتح لأنه لم يجد فيه ذلك العجائبي القادر على ان يؤمن له الخلود ، ولكنه أصغى بلطف الى الحكيم وتظاهر بالتأثر بتعاليمه واصدر أمراً ممهوراً بالخاتم الامبراطوري بإعفاء كافة رؤساء الطاوية من الضرائب ، على الرغم من انه لم يهتم اهتماماً خاصاً لفلسفة الطاو .

اما في بلاط خلفاء جنكيز خان فكانت المسيحية النسطورية اولى الديانات التي تمتعت بنفوذ

واسع. انتشرت النسطورية في آسيا العليا والصين منذ القرن الثامن بفضل كنائس ايران ، ولكن التانغ حرّموها في السنة ٨٤٥ ، فتلاشت بعد ذلك في الصين . بيد انها حافظت على حيويتها في تركستان فاستعادت نشاطها التبشيري في الشرق، ولا سيما في اوساط قبائل الكرايت والاونكوت والتانكوت المغولية . وفتح لها الاحتـــلال الجنكيزخاني ابواب الصين مرة اخرى ، فتمكن البطريرك النسطوري ، في السنة ١٢٧٥ ، من احداث أسقفية في بكين .

بيد ان النساطرة لم ينتظروا هذا الاعتراف الرسمي حتى يظهروا في البلاط المغولي ؛ فان النسطوري تشنكاي الكرايتي (١١٧١ — ١٢٥١) ، الذي جعل منه جنكيز خان مستشاره حتى قبل ان يبلغ ذروة قوّته ، قد احتفظ بمهامه في ولايتي اوغوداي وغويوك . ولم يفته ، كما نرجح ، بينما كان يشغل منصباً اسهم فيه اسهاماً كبيراً في تنظيم ادارة الامبراطورية ، ان يقدم كل مساعدة ممكنة لأبناء دينه، اذ ان رشيد الدين يشكو من عدائه للمسلمين الذي شاطره اياه نسطوري آخر هو كاداك ، ذو الثقافة الويغورية ايضاً ، والذي اسندت اليه مهمة تهذيب غويوك ثم أصبح رئيس وزرائه . الا ان الاثنين اعدما عندما آل الحكم الى مونكا الذي أتى بذلك عمـــلاً سياسياً لا اضطهاداً دينياً ، اذ ان هذا الامبراطور الجديد قد اختار نسطورياً آخر ليحل محل تشنكاي . اضف الى ذلك ان مونكا ، وهو ابن اميرة كرايتية نسطورية ومتزوج من امرأتين نسطوريتين ، قد شمل بتساهله كل الديانات لأنه رأى فيها خير اداة لتسيير دفة الحكم. ففي « اوردوسه » - كما ذكر روبردك — اشترك رجال الدين النسطوريون والمسلمون والبوذيون والطاويون ، بألبستهم الدينية الرسمية ، في اعيـــاد البلاط وباركوا كأس الخان الاعظم ؛ الا ان النسطوريين كانوا في مقدمة هذا الموكب المقدس. وقد حدث احياناً ان رافق مونكا زوجته الى القداديس النسطورية التي كان يحضرها على سرير مذهب موضوع قبالة المذبح . وقد اشتهرت والدته ، التي اعتلى ثلاثة من أبنائها العرش الامبراطوري ، ببصيرة سياسية وسلوك لا لومة فيه . وبعد مرور ٨٤ سنة على وفاتها ، أي في السنة ١٣٣٣ ، توجهت ادارة كنيسة الصليب ، وهي احدى الكنائس النسطورية الثلاث في كان - تشيو من اعمال كان - سو ، الى البلاط الامبراطوري بسؤال عن الاكرامات التي يستطيع مؤمنوها تأديتها لصورة الامبراطورة التي كانت قد وضعت في المعبد .

في عهد كوبيلاي رغب راهبان نسطوريان شرقيان في الحج الى اورشليم . وصلا الى بـــلاد ما بين النهرين في السنة ١٢٧٨ ولم يتمكن أي منهما بلوغ الاماكن المقدسة ، ولكن الاونكوتي مرقس (الذي توفي في السنة ١٣١٧) قد انتخب بطريركاً نسطورياً على بغداد بينما اصبح رفيقه « ربان صوما » ، الذي ينتسب الى « هو - بي » سفير خان فارس لدى ملوك الغرب ؛ فاستقبله « فيليب له بيل » في باريس ، ثم استقبله في « بوردو » ادوارد الاول ملك انكلترا ، واستقبله اخيراً في روما البابا الجديد نقولا الرابع (١٢٨٨) . اجل لم يتوفق الى حمل الغرب على محالفة سيده ضد المماليك ، ولكن زيارته قد اطلعت الكاثوليك الرومانيين على أهمية المسيحية المغولية التي كانت اعظم ازدهاراً في فارس منها في الصين على كل حال .



الشكل (رقم ١٤) ـ آسيا المغولية في عهد كوبيلاي

وحدث باتجاه معكوس ان عين كوبيلاي النسطوري السوري عيسى ، الذي كان قد دخل في خدمة غويوك ، مديراً لمكتب الابحاث الفلكية (١٢٦٣) . ويبدو ان هذا العالم والطبيب الذي ألمّ بلغات كثيرة قد أوحى قراراً صدر في السنة ١٢٧٩ قضى بحظر الدعاوة الاسلامية في الصين . وعُين بعد ذلك مفوضاً لشؤون العبادة المسيحية ، ثم وزيراً ، فعين كافة أبنائه ، وهم نسطوريون ايضاً ، في مناصب مرموقة .

يجب اخيراً ان نفرز مكاناً خاصاً ، في حاشية كوبيلاي النسطورية ، للأمير الاونكوني « كورغوز » الذي أطلق عليه الصينيون اسم « كوو - لي - كي - سو » والاوربيون اسم « الامير جورج » . كان ، لجهة والدته ، حفيداً للامبراطور ، ولم ينقطع ، بهذه الصفة ، عن استخدام نفوذه في البلاط لخير المسيحيين ، فأسس المدارس والكنائس النسطورية . اضف الى ذلك انه كان ذا ثقافة رفيعة واقتنى مكتبة قيمة ، واستهوته المباحثات حول الكلاسيكيين الصينيين والفلسفة والتنجيم والرياضيات . انضم في السنة ١٢٩٤ ، تحت تأثير المبشر « جان دي مونتيكورفينو » ، الى الكثلكة الرومانية ، وعمد ابنه باسم يوحنا (شو - غنان) اكراما للراهب الايطالي . وكان لارتداده صداه البعيد لأنه ادخل الكثلكة الى قلب العائلة الجنكيزخانية .

المغول والمسيحية الرومانية

أدى تقدم المغول الصاعق منذ نصف قرن قريباً ، الى اختلاطهم بالمسيحية اللاتينية في اوروبا الوسطى وفي سوريا الفرنجية على السواء . الا ان غزوهم ، على ما رافقه من تخريب وارهاب ، قد خلق في نفوس الحكام المسيحيين وهماً - غذاه استمرار اسطورة الخوري يوحنا - بأن هؤلاء الغزاة البرابرة قد يصبحون حلفاءهم على الاسلام . ومن واجبنا هنا ان نأتي على ذكر هذه المحاولات التي لا فضل لها ، بالنسبة للمؤرخ ، سوى انها أتاحت الظرف لروايات عديدة دوّنها المسافرون ، ما كنا لنعلم بدونها شيئاً يذكر عن العالم المغولي . كان البابا انوشنتيوس الرابع ، منذ افتتاح مجمع « ليون » ، قد أوفد الراهب الفرنسيسكاني « جان دي بيان كاربينو » الى الخان الاعظم ليدعوه الى ايقاف هجماته على المؤمنين والى اعتناق الدين المسيحي مع شعبه . فسار الرسول عن طريق المانيا وبولونيا وامارة كييف وبلاد الكبشاك وبلغ منطقة قره كوروم حين كان مجلس الامبراطورية ملتئماً لانتخاب غويوك (١٢٤٦) . قدّمه الوزراء النسطوريون الى الخان الاعظم - مع ان التفاهم لم يكن امراً سهلاً بين النساطرة الذين يحميهم المغول لأنهم يؤلفون جزءاً من شعوب آسيا العليا ، وبين الرومان الغرباء عن الامبراطورية والخارجين من ثم على سيطرتها - فتلقى جواباً خطيا (مقدمته تركيه ونصه فارسي) ينذر البابا ومؤمنيه بالخضوع الى من هو ، بنعمة السماء - الخالدة ، « الخان المحيطي لشعب المغول العظام » . بيد ان القديس لويس قد جدّد المحاولة خلال اقامته في الارض المقدسة في السنة ١٢٥٠ ؛ فأوفد الرهبان الدومينيكان الثلاثة « جان دي كاركاسون » و « اندريه دي لونجومو » وأخاه الذين ساروا عن طريق تبريز وطالاس وبلغوا المعسكر الامبراطوري في منطقة الايميل والقوبق ؛ فتقبلت ارملة غويوك هدايا ملك فرنسا ، ولكنها طالبته بخضوع صريح .

وانطلق رسول آخر ، هو الفرنسيسكاني غليوم دي روبروك ، من القسطنطينية في السنة ١٢٥٣ واجتاز بلاد الكبشاك حيث ادرك مدى اطلاع الاوساط النسطورية على شؤون الغرب ، ومرّ في « قياليغ » وهي مركز طائفة نسطورية وطائفة بوذية ، وقابل مونكا في جبال الالتاي . فصادف هناك اوربيين عدّة اختطفوا في هنغاريا واستخدموا في البلاط المغولي - لورينية من متز متزوجة من مهندس روسي ، وصائغ باريسي « يقيم أخوه على الجسر الكبير في باريس » متزوج مسلمة هنغارية ، وابن رجـــل انكليزي مولود في هنغاريا ايضا - وسمح له بالاحتفال بالخدمة الالهية ، يوم عيد الفصح ، في كنيسة قره كوروم النسطورية ، واستطاع ، امام ثلاثة محكّمين عيّنهم الخان ، الاشتراك في مجادلة دينية علنية وقف فيها ، على صعيد الايمان بإله واحد ، الى جانب الفقهاء المسلمين ضد الفلاسفة البوذيين . ولكنه على غرار سابقيه ، لم يحرز أي نجاح على الصعيد السياسي . « هذه هي وصية السماء - الأزلية : لا اله الا اله واحد في السماء ، ولا ملك الا ملك واحد على الارض هو جنكيز خان بن الله » . فطولب ملك فرنسا من ثم بتقديم خضوعه للخان الاعظم . وقابل روبروك ، في طريق العودة ، ملك ارمينيا (كيليكيا) هيثوم الاول الذي كان أكثر واقعية ولم يتردد في الاعتراف بسيادة الخان الاعظم ، فحصل منه بعد ذلك على صك حماية « يحرّر الكنائس في كل مكان » ، ويعد بمساعدة عسكرية .

تبدلت الامور بعض الشيء في أيام كوبيلاي بعد ان بلغ بعض التجار الايطاليين ، من جهة ، أسواق الشرق الاقصى ، وبعد ان اطلعت بعثة « رابان صوما » الغربيين ، من جهة ثانية ، على أهمية الطوائف المسيحية الآسيوية . وليس ، بين المسافرين الايطاليين ، أشهر من الأخوين البندقيين نيكولو ومافيو بولو اللذين حظيا ، أثناء اقامتهما الأولى في بكين (١٢٦٦) ، بمقابلة كوبيلاي الذي كلفهما رجاء البابا بأن ينتدب الى الصين مائة مثقف « متعمقين في الفنون السبعة » . وعندما عادا في السنة ١٢٧١ ، دون التمكن من تلبية طلب الخان ، اصطحبا ابن نيكولو ، ماركو بولو ، الذي تسمح لنا روايتـــه المشهورة بتتبع مغامراتهم . مرّوا بفارس وخراسان وقشغاريا ولوب نور ، وبلغوا الصين الغربية ؛ ثم اجتازوا بلاد الاونكوت التي أوهمهم معتقدها النسطوري بأنهـــا مملكة الخوري يوحنا ، وانتهوا في شهر نوار من السنة ١٢٧٥ الى « شانغ - تو » مقر كوبيلاي الصيفي . عين ماركو بولو في الادارة الامبراطورية - في مكاتب جباية الضريبة على الملح ، في الارجح - وأسندت اليه عدّة اعمال هامة ، فمكث في الصين أكثر من ١٥ سنة : ويغلب انه رافق بعض البعثات المغولية الى شمبا وسيلان . وغادر الصين بحراً في السنة ١٢٩١ عندما طلب اليه كوبيلاي مواكبة اميرة مغولية كان قد خطبها لحفيد أخيه ، خان فارس . ولم يعد بعد ذلك الى الشرق مع انه كان قد حمل رسائل موجهة الى البابا وملوك فرنسا وقشتالة وانكلترا . ولكن مغامرته ليست فريدة من نوعها ؛ فان ايطاليين آخرين قد أقاموا في الصين وجمعوا ثروات طائلة وأسندت اليهم مهام رسمية ، كـ « أندالو دي سافينيانو » الجنوي الذي عاد الى اوروبا في السنة ١٣٣٨ بصفة سفير لخان الصين .

في هذه الاثناء ، كان المبشرون الكاثوليك الأولون قد توجهوا الى الشرق الاقصى بايعاز من البابا نقولا الرابع . وحمل الراهب الفرنسيسكاني « جان دي مونتيكورفينو » رسائل بابوية الى خان فارس وكوبيلاي ، فأقام بعض الوقت في تبريز ، وذهب الى الهند مستهدياً تاجراً ايطالياً، ثم الى الصين حيث قابل حفيد الخان الاعظم وخليفته ، تيمور ، وسرّ بأنه حمله على « تقبيل الصليب بكل تقوى » . ولا ريب في ان اعتناق الامير جورج للايمان الروماني وتشييد كنيستين في بكين قد خلقا تياراً تنصّرياً : « أكثر من عشرة آلاف تتري » ، وهو عدد مبالغ فيه في الارجح ؛ ولكن النتائج كانت مرضية حقاً اذ ان البابا اكليمنضوس الخامس قد رقّى « مونتيكورفينو » ، في السنة ١٣٠٧ ، الى درجة رئيس أساقفة ، ثم ارسل اليه اساقفة آخرين ، قبل احداث الاسقفيات في القرم و « تسيوان ـ تشيو » . وتؤيد وجود هذه الجمعيات التبشيرية رواية « اودوريك دي بوردينون » ؛ فبين السنة ١٣١٤ والسنة ١٣٣٠ زار هذا الراهب الفرنسيسكاني بلاد فارس التي تعرّف الى كنائسها النسطورية ، والهند حيث أفضى التعصب الاسلامي ، قبيل زيارته ، الى تقتيل اربعة اشقاء قصّر ، وحيث ما زال للكنيسة النسطورية مؤمنوها في « القديس توما » (ميليابورا) وسيلان وجاوا وشمبا ، والصين اخيراً عن طريق كانتون ؛ وكان هنالك جمعيات فرنسيسكانية في تسيوان ـ تشيو ، وهانغ ـ تشيو ، وبكين حيث مكث ثلاث سنوات . وقد استفاد رئيس الاساقفة مونتيكورفينو الذي خصّ ، كغيره من المبشرين ، بمرتبات رسمية ، من « حماية بعض ذوي المقامات الرفيعة المعمّدين » ؛ وكان يتوجه الى الخان الاعظم بموكب احتفالي ويبخره ويقدم له الصليب كي يقبّله .

بعد وفاة مونتيكورفينو ، شغر مركزه زمناً طويلاً ؛ ثم عين بندكتوس الثاني عشر خلفاً له لم يقم في بكين سوى خمس سنوات ؛ وحين عينت البابوية ، في السنة ١٣٧٠ ، رئيس أساقفة جديداً ، كانت الصين قد آلت الى سلطة المنغ الذين حرّموا ممارسة الدين المسيحي في امبراطوريتهم بسبب ارتباطه الوثيق بالسيطرة المغولية . وباستطاعتنا التساؤل هنا عما اذا لم تكن الارساليات الكاثوليكية ، حتى بدون ردة الفعل القومية هذه ، صائرة الى فشل محتم . فهل يجب ان نعير أهمية كبرى لارتداد جمهور من الألين المسيحيين التابعين للطقس البيزنطي المنخرطين في الحرس الامبراطوري الذين جاء مندوبوهم يقدمون خضوعهم للسلطة الرومانية في السنة ١٣٣٨ ؟ ان الاباطرة المغول أنفسهم ، على الرغم من تساهلهم نحو كافة العبادات ، قد برهنوا ، منذ قبل كوبيلاي ، عن تفضيل ظاهر للديانات الآسيوية . فقد سبق لمونكا ان استدعى الى بلاطه طاويا ولاما تجردا فيه للمجادلات اللاهوتية ؛ وقد انعقد في قره كوروم في السنة ١٢٥٦ ما هو أشبه بمجمع بوذي اصدر حكماً صريحاً على الطاويين بسبب نشرهم كتابات مزيفة تحرّف تاريخ الاصول البوذية . فرجحت منذ ذاك التاريخ كفة البوذية . واذا أبقي على « مكاتب » العبادات المختلفة التي كانت وسائل مفيدة للحكم ، واذا تأيد تكراراً الاعفاء من الضرائب الذي استفاد منه كافة « الرهبان » ، نساطرة او طاويين ، مسلمين او بوذيين ، فان ذلك لم يمنع كوبيلاي من اتخاذ تدابير تمييزية تناولت المسلمين ، كالمرسوم الذي صدر في السنة ١٢٧٩ حول تنظيم ذبح المواشي

الممدة للقصابة بشكل يتنافى والطقوس الاسلامية – ولا سيا الطاويين : اذ قد صدرت الأوامر تكراراً بملاشاة مؤلفاتهم التي تمسخ الاصول البوذية . ولعل الخان ، كما يؤكد ماركو بولو ، قد تلقى بقايا جسد بوذا من ملك سيلان مستقبلاً اياها بأبهة عظيمة ؛ ومن الثابت انه استدعى الى بلاطه لاما تيبتياً ، مستهدفاً ، من وراء ذلك ، هدي المغول وضمان وفاء التيبت على السواء .

ازدادت هذه النزعات شدة في عهد خلفاء كوبيلاي الذين كانوا كلهم بوذيين نشاطاً، باستثناء الأمير أناندا الذي اعتنق الاسلام ثم اغتيل قبل ان يجلس على العرش . عرفت الصين من ثم غزوة حقيقية من الرهبان التيبتيين حاول الامبراطور يسون (١٣٢٣ – ١٣٢٨) في فترة من الزمن اخضاعها لقانون ، بينما كان بعض المثقفين الكونفوشيوسيين قد حصلوا من أسلافه على بعض الاصلاحات الوجلة التي لم تحدّ من تجاوزات الكهان البوذيين . فاستمدت القومية الصينية من عدائه للبوذية غذاء جديداً لمقاومة سلالة اليُوان .

تصدع آسيا وانحطاطها في أواخر القرون الوسطى

ان المغامرة المغولية المدهشة ، بافضائها الى تكوين امبراطورية آسيوية عظيمة ، قد حوت في نفسها جراثيم انحلالها . فما ان انتهى الفتح حتى مست الحاجة الى تنظيم وادارة . ولكن التفاوت كان عظيماً جداً بين البربرية المغولية وتفخل الشعوب المتحضرة التي شملتها وطمعت في حكمها . وقد برهن النظام الاقطاعي للمجتمع الجديد عن انه مجرّد مسكّن وقتي لكبح هذه البربرية وتدارك فوضى المغول العميقة التي غدت الآن خطراً سياسياً ؛ ومرد ذلك الى انها قد خلقت، بدورها ، في قلب الشعب المغولي ، هوة بين الأسياد والكبار المتشبعين عظمة وبذخاً ، وبين المحاربين البدو الذين ما زال بؤس البورات مخيماً عليهم . وكان من شأن سخط هؤلاء ، اذا تعذر اخضاعهم للنظام ، ان يهدد بالخطر وحدة الامبراطورية وازدهارها ؛ وكان من شأن تحضر اولئك ، من جهة ثانية ، ان يفقد العنصر المغولي الضائع في بحر الشعوب المحتلة طاقته الهجومية وشخصيته نفسها . اجل لقد احتفظ بمركز ممتاز لمسقط رأس الجدود ، منغوليا ؛ وأبقي على التقاليد والعادات والطقوس المغولية ؛ ولكن المغول ، في الأمور الجوهرية ، قد ذابوا في حضارة البلدان المتحضرة المتفخلة ؛ وقد زاد في ذوبانهم ان الادارة ، التي تعذر تنظيمها وفاقاً لطريقة البورات السريعة في تصريف الأمور ، قد اسندت بالضرورة الى موظفين بلديين . ولذلك فان كوبيلاي وحفيده تيمور (١٢٩٤ – ١٣٠٧) ، وهما الممثلان الحازمان الاخيران للسلالة الجنكيزخانية، كانا امبراطورين صينيين أكثر منهما خانين مغوليين. فما لبث سخط مغول منغوليا، المحرومين من مكاسب السلطة، ان عاد الى الظهور : فقد أسس «قايدو» في آسيا العليا، خانية انفصلت عملياً عن الامبراطورية. واذا لم يستطع هذا التكتل من قبائل البورات اعادة وحدة العالم المغولي لمصلحته، فانه قد شكّل حاجزاً بين الصين التي انحصرت فيها ، في الواقع ، سلطة الخان الاعظم ، وبين فارس التي ما زال حفدة هولاكو جالسين على عرشها . فكان هذا التكتل من ثم عاملاً أساسياً من عوامل التقسيم اللاحق .

سندرس في فصل آخر تأثر خانية فارس السريع بالحضارة الايرانية وسنبين كيف ان نفوذ العناصر التركية المتعاظم في المناطق الغربية من الامبراطورية الجنكيزخانية، قد لاشى ، خلال أجيال معدودة ، كل ما يميز الاسم المغولي ، ان لم يلاش هذا الاسم نفسه كلياً . ويكفينا هنا ان نذكّر بأسرع انهيار مفاجيء للسيطرة المغولية في الصين الذي سهّله ، في آن واحد ، ضعف الاباطرة الاخيرين ـ وقد كانوا منحطين يتحكم بهم أحباؤهم المفضلون او بعض المتطرفين في التقوى ـ ويقظة القومية الصينية .

ولدت هذه الحركة الاخيرة في أوساط جمعيات سرية سهّل نموها وانتشارها تساهل الجنكيزخانيين الديني الذي استفادت منه الشيع والديانات الرسمية على السواء . وكانت هذه الجمعيات قد انضمت في البدء الى النظام المغولي لأنها قد ذاقت الأمرّين في السابق من اضطهاد السونغ . استمدت شيعة النيلوفر الابيض ، وهي احدى اعظم هذه الجمعيات نشاطاً ، نفوذها القوي من ايمانها بمسيح بوذي ، ميتريا ، بشرت بمجيئه القريب . فانطلقت الحركة الثورية من منطقة كانتون في السنة ١٣٥٢ ، وتعاظمت قوتها بفعل الفوضى المتفاقمة ، وتجاوزت « اللامات » المسيطرين على البلاط ، والاضطراب المالي اخيراً الذي سببه التضخم المستمر في الورق النقدي، فما لبثت ان عمت كافة أنحاء الصين الجنوبية . الا ان الاضطراب قد سيطر عليها في البداية ، اذ ان العصاة المسلمين قد أتوا اعمالاً تخريبية فظيعة . ولكن احد رؤساء الفرق المسلحة ، الكاهن السابق « تشو يوان ـ تشانغ » ، وهو مغامر في الخامسة والعشرين ، ما لبث ان تميز ببعد نظره السياسي وبالنظام الشديد الذي فرضه على جنوده ، محظراً عليهم كل سلب ونهب ، واستلم قيادة حركة التحرير . وبعد ان بات سيد الصين الجنوبية كلها ، استولى على بكين بسهولة في السنة ١٣٦٨وقتّل، دونما شفقة، كافة المغول الذين لم يتبعوا امبراطورهم الاخير في فراره نحو البورات.

انه لحدث فريد من نوعه في تاريخ الصين التي طالما اخضعها الفاتحون الشماليون . فالثورة القومية قد حررت ، في الدرجة الاولى ، الصين الجنوبية من استعباد مغولي استمر أكثر من قرن ؛ ثم استعادت مناطق الشمال التي سيطر عليها منذ ٤٠٠ سنة ملوك وارستوقراطيات عسكرية من اصل اجنبي . كان عمل تشو يوان ـ تشانغ ، الذي أسس سلالة المنغ ، باسم « هونغ ـ وو » الامبراطوري ، حركة قومية في الدرجة الاولى ، استمدت قوتها الرئيسية من العودة الى التقاليد الصينية الصميمة . وقد أدعى هذا المؤسس نفسه ، بفعل غريزة استمرار غريبة ، الانتساب الى عائلة التانغ ، آخر سلالة قومية سيطرت على الصين بكليتها مع ان سقوطها يعود الى ٤٠٠ سنة . وسيستهدف كل عمله ، خلال ملك دام ثلاثين سنة ـ اذ انه لن يموت قبل السنة ١٣٩٨ ـ طمس خلّة السيطرة المغولية وربط الصين الجديدة بأبعد ماض قومي ، وذلك باعداد حضارة تراعي ، في جوهرها ، التقاليد الصينية : وقد ارسخ كل هذا على سلطة امبراطورية مطلقة توطدت تدريجياً ، واعادة منصب المندرين والالقاب الشرفية ، والاحتفال بالعبادة الكونفوشيوسية ، واحياء مجامع المثقفين العلمية . ولكن هونغ ـ وو الذي ما زال يذكر انه

عاش في احد الاديرة حياة كاهن صيني، لم يستجب كل الاستجابة ، في الحقل الديني فقط ، لرغبة الكونفوشيوسيين ، واستمر في حماية البوذية . اما في الحقول الاخرى ، فقد عبقت الصين بروح قومية وتخثرت في تقاليد ستعرف الديمومة حتى سقوط المنغ في القرن السابع عشر .

نترك اذن حضارات الشرق الاقصى ساعة جعلها تقسيم الامبراطورية المغولية تنكمش على نفسها وقطع كل علاقة بينها وبين الغرب . فلن يجدّد الاوروبيون هذه العلائق الا بعد مرور اجيال عديدة ، أي في اوائل القرن السادس عشر ، تاريخ اسفار البحارة البرتغاليين . اجل لم يبق من المغامرة المغولية العظمى سوى ذكريات شنّعتها الصين الجديدة ، ولكن متاحفنا تجملت بما بقي من رسوم مدهشة لفرسان وحيوانات جمعت بين الاناقة الصينية والواقعية المغولية . اما في آسيا الغربية فكان مقدرا لذكريات الملحمة الجنكيزخانية ان تعرف ديمومة اطول عهداً وتحاط بهالة من المجد . فطيلة قرون سيطلق اسم التتر على جماعات مختلفة الاجناس ، اعتنقت كلها الاسلام ، وعاشت حياة البدو الرحل في السهول الروسية . وعندما سيقرر التركماني تيمورلنك ، بعيد تولي المنغ السلطة في الصين ، ان يقذف بمواطنيه من وراء النهر لمهاجمة كافة انحاء الشرق الادنى ، سنراه يختبىء وراء الاسم المغولي ويزعم انه انما يكمل او يجدد عمل جنكيزخان وجاغاتاي : ولكنه انتساب خادع ، اذ ان النفوذ التركي قد حل منذ زمن طويل محل السيطرة المغولية في البلدان الممتدة من قشغاريا حتى مصاب الدانوب .

الفصل الرابع

تفتّح أوروبا الاقطاعية
(حوالي ١١٥٠ - ١٣٢٠)

يتوافق المؤرخون على اعتبار الحقبة الممتدة من منتصف القرن الثاني عشر حتى السنة ١٣٢٠ تقريبا بمثابة العهد الكلاسيكي للقرون الوسطى الغربية ، والفترة التي بلغت فيها حضارة القرون الوسطى ذروتها وحققت توازنها . لا ريب في ان الانطلاقة الصاخبة التي اتاحت مزيداً من التقدم منذ السنة ١٠٠٠ قد هدأت آنذاك وانتظمت . فان اطراد السهولة في اقامة العلائق ، واختصار المسافات ، وقيام المفارق الفكرية الكبرى - كجامعة باريس مثلا - حيث يلتقي رجال قادمون من كل البلدان المسيحية ، قد مهدت الطريق لزوال الفوارق الاقليمية وتلاشي العقليات المتباينة وانسجام الاكتشافات المتنافرة والتوق الى الوحدة. ان هذا العهد هو عهد التآليف الكبرى، عهد « المرايا » ، اي دوائر المعارف التي احصيت فيها المعارف الشاملة ونسقت تنسيقا منظما ؛ وعهد « المجموعات » حيث يجمع اللاهوتيون ويقارنون كافة الآراء العقائدية ويصرفون ذهنهم وفطنتهم في التوفيق بين البرهنة والوحي ؛ وعهد البحث عن الوحدة والتوازن اللذين تعبر عنهما ، عند مدخل الكاتدرائيات ، صور المسيح التي تجمع جمعاً يثير الاعجاب بين قسمات الاله وقسمات الانسان والتي هي اجمل تمثيل تصويري لسر التجسد المسيحي .

بيد ان هذه الوحدة وهذا التوازن لقصيان . فتحت الانسجام الظاهر اخذت القيم تنقلب انقلابا كلياً عميقاً . فقد اخذت تزداد ، ويوما بعد يوم ، اهمية النقد والتجارة في عالم كان مايزال شبه ريفي، فتخلخلت قواعد النظام الاجتماعي؛ كما ان رسوخ قدم الملكيات، التي اخذت تتجابه، ونشوء الروح العلمانية ونموها السريع ، قد هدد تلاحم المسيحية بالخطر ؛ فبدت من ثم في الافق دلائل الازمات الاقتصادية ، والخلافات السياسية ، وقلق الضمائر ، التي ستبرز بكل واقعها في القرون الاخيرة من القرون الوسطى .

١ ــ الاقتصاد الاوروبي

استقرار الاقتصاد الزراعي ـ

بعد السنة ١١٥٠ اخذت حركة الاستعمار الداخلي تسير ببطء في دول الغرب القديمة . اجل ما زلنا في القرن الثالث عشر نشاهد امتداد الاراضي الخصيبة في منطقة لنكولن وقيام قرى جديدة في حوض الفارون ؛ ولكن المساحة الزراعية ، بصورة عامة ، لم تتوسع قط . فقد امتد الاصلاح الى اقصى حدود الاراضي الصالحة للاستثمار وذلك نتيجة لتقنية زراعية لم تتحسن تحسنا محسوســاً منذ التجديدات التي ادخلت عليها في القرن الحادي عشر ؛ وقد كان يحدث احيانا ان بعض الحقول ، التي جوزف باستثمارها تحت تأثير الشعور بالرضى الذي يحدثه كسب مساحات جديدة من الاراضي المجدبة ، قد يتكشف إمحالها ، فاهملت بعد عدة مواسم مخيبــــة . وغالبا ما ضاقت مساحات الغابات الضرورية لتوازن الاقتصاد الريفي ، فاصطدم جامعو الاخشاب بمقاومـــة الإسياد والجمعيات القروية ، دفاعاً عن حقوقهم في الكلأ والاحتطاب . ونتيجة لاطراد نشاط الفلاحين ، بات نمو تربية المواشي ، لتموين المدن باللحوم وصناعات الاجواخ بالاصواف ، يتعارض وتوسع اعمال الحراثة : اذ ان ملاكي الاراضي البائرة ، الذين كانوا يحاولون استمالة واجتذاب الفلاحين لزيادة مداخيلهم ، في الماضي ، اصبحوا يرفضونهم لانهم باتوا يجنون مزيداً من الارباح من هذه الاراضي بتخصيصها مراعي للاغنام والابقار ؛ وفي ولايات كثيرة ـ خصوصاً في انكلترا حيث سمحت انظمة مورتون وانظمـــة ونشستر للاسياد ، في القرن الثالث عشر ، بضم الغابات الى المراعي العمومية ـ امست الزراعة محصورة في مساحات معينة بفعل توسع المراعي . ولمــا كان عدد السكان ما زال يرتفع باطراد ، على الرغم من توقف اصلاح الاراضي البائرة ، فقد حدث في اوائل القرن الرابع عشر ان اكتظت الارياف بالبشر وكادت الاراضي الزراعية لا تكفي لتغذية عائلات الفلاحين ؛ ولنذكر هنا مثل احدى الاقطاعات ، الى الشمال من حوض لندن ، حيث ارتفع عدد الشركاء الزراعيين بنسبة الثلث في النصف الثاني من القرن الثالث عشر دون ان تتبدل مساحة الاراضي الزراعية ، فكانت النتيجة ، بعد هذا الارتفاع ، ان ثلاثة ارباع العائلات لم تتمكن من تأمين اودها في الاراضي الضيقة التي استلمتها . وهكذا فقد ضعفت ، قبل ان تنقلب كلياً ، النزعة المؤاتية الكبرى التي بعثت في آن واحد ، منذ ٣٠٠ سنة ، انطلاقة الاقتصاد الريفي وتقدم الاسكان ، واعطت امتن اساس لتفتح الحضارة الرومانية . وما توازن منتصف القرن الثالث عشر ، الجزئي ، سوى نتيجة الركود الذي سيطر على انتاج معظم المواد الغذائية

ومع ذلك ، فعلى الرغم من ظهور اولى دلائل التقهقر في النشاط الزراعي في بلدان اوروبا الغربية ، توالى التقدم الاقتصادي في حقول ونطاقات اخرى . فقد برز اولا ، في مناطق الحدود الشمالية والشرقية للعالم المسيحي ، باعداد الحقول الزراعية وتأسيس القرى : ففي سكنديناڤيا تضاعف عدد المراكز القديمة المأهولة ، آنذاك ، بمراكز سكنية اخرى عرفت باسم (تورب) ؛

وحصل في السهول الشرقية الكبرى ، بنوع خاص ، حدث ذو اهمية رئيسية في تاريخ الغرب ، اعني به انتشار المزارعين الالمان .

الاستعمار الالماني في الشرق

حوالي السنة ١١٥٠ ، ما كان الجرمانيون ، الذين توسعوا بسرعة في المستنقعات المقفرة القائمة على شواطىء بحر الشمال وراء نهر الفيزير ، ليتخطوا ، شرقاً ، المنحدر الشرقي لغابات تورنج ، الا في حالات نادرة ، مما يثبت تراجعهم المحسوس تحت ضغط السلافيين منذ العهد الكارولنجي . اما هؤلاء ، فهم وان اقبلوا تدريجيا على التنصر وخضعوا شيئاً فشيئا لنظام الامارات ، قد استقروا في مستوى حضارة مادية غاية في التدني . فالفلاحون منهم ، الذين يعيشون جماعات في قرى صغيرة ومتنقلة ، قد خضعوا خضوعاً تاماً لطبقة الاشراف والكنيسة اللتين استغلتاهما بقساوة ؛ وقد تعاطوا بصورة خاصة تربية المواشي وزراعة الحبوب الثانوية والذرة البيضاء ، معتمدين ادوات بدائية جدا ، في اراض صالحة للزراعة ؛ لذلك خلت بلادهم من المدن وبار الشطر الاكبر منها .

الا ان الالمان ، الذين اهتموا في الدرجة الاولى لمقاومة غزواتهم ، توصلوا ، بفضل ارتفاع عددهم وتحسن اسلحتهم ، الى بسط سيطرتهم عليهم . وبينما كان بعض الرهبان الجرمانيين ، من سيسترسيين وبريمونتريه ، عاكفين ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، على تأسيس اديرة كثيرة بين نهري الالب والفستول ، ادخل الامراء المستقرون عند حدود الامبراطورية ، في طاعتهم ، الزعماء السلافيين المسيحيين في « شوارين » ومكلمبورغ وبوميرانيا وسيليزيا واقدموا على فتح اراض مازالت وثنية . وسار دوق ساكس ، « هنري الاسد » ، وافنى القبائل الفندية في «نوردالبنجيا» ؛ كما ان انسال « البير الدب » ، فاتح « براندنبورغ » ، وسعوا دولتهم على طول نهر السبريه بين الامارات السلافية المسيحية واجتازوا نهر الاودر في السنة ١٢٥٣ ، وضموا بوميرانيا في السنة ١٢٦٩ . والجز في القرن الثالث عشر عمل على جانب من الاهمية ، في مناطق نائية ، بغية فرض الايمان بالمسيح على الشعوب البلطيقية : الروس والفنلنديون والليتوانيون ، الذين كانوا آخر مجموعة وثنية هامة في اوروبا . وقد نهضت بهذا العمل جمعيات دينية وعسكرية من المتطوعين الجرمانيين : مثل جمعية الفرسان المعروفين باسم « حاملي السيوف » ، وقد أسست خصيصاً لنشر تعاليم الانجيل في « كورلاند » ؛ وجمعية الفرسان التوتونيين الذين نقلوا من فلسطين الى الجبهة التبشيرية في المانيا الشرقية . وقد استدعى هؤلاء دوق مازوفيا البولوني ، فتولوا فتح بروسيا فتحاً منظماً انطلاقاً من الفستول الادنى ؛ فجمعوا في حملات صليبية سنوية امراء وفرسان جرمانيا وبوهيميا وبولونيا ونظموا الاراضي المحتلة تدريجياً وأسسوا بين السنة ١٢٣٠ ومنتصف القرن الرابع عشر دولة رهبانية وعسكرية كبرى .

رافق هذا العمل السياسي استعمار زراعي واسع . فقد أقدم السيسترسيون والنوربرتيون ، رغبة منهم في توفير النجدة لرهبانهم المساعدين واستثمار ممتلكاتهم استثماراً افضل ، والفاتحون

الجرمانيون ، لأجل احكام السيطرة على البلاد المحتلة ولجني أعظم مكسب منها ، والامراء السلافيون المحميون ، لأجل تأمين رعايا اشد اخلاصاً من رعاياهم البلديين ، والتوتونيون اخيراً ، لاجل اعادة اعمار بروسيا بعد ثورة السنة ١٢٤٠ وعملية الافناء التي استهدفت البلديين بسببها ، على الاستعانة باليد العاملة الالمانية . وكان جمع المهاجرين ونقلهم الى مسافات بعيدة عملا شاقاً يستلزم اموالاً طائلة وجهازاً دعائياً ، فأسنده الأسياد الى ملتزمين ، عرفوا بـ « المستأجرين » ، من الفرسان ولا سيما البورجوازيين الذين حصلوا ، لقاء اتعابهم ، على مركز ممتاز في القرى الجديدة التي أسهموا في اعمارها ، وتقاضوا جزءاً من المداخيل السيدية. فاستمالت شروط المشاركة الزراعية (ضرائب خفيفة) فلاحي هولندا ورينانيا وتورنج فجاؤوا من ثم ونزلوا بأعداد كبيرة في المنطقة الواقعة بين الالب وبحر البلطيك والاودر والجبال المعدنية ؛ ونزل آخرون ابعد الى الشرق في بروسيا وبولونيا الصغرى وحتى في الاراضي المجاورة للبرغ ؛ ونزل غيرهم اخيراً في بعض البقاع المنعزلة مسن السهول الهنغارية وترانسيلفانيا . فكانت نتيجة هذه الهجرة الكبرى تزايداً سريعاً في عدد السكان: تأسست في سيليزيا وحدها أكثر من ١٢٠٠ قرية جديدة بين السنة ١٢٠٠ والسنة ١٣٥٠ . وكانت نتيجتها كذلك تبدلاً كلياً في منظر الارياف . ومرد ذلك الى ان المزارعين الالمان قد أدخلوا الى البلاد السلافية تقنيات زراعية أكمل اتقاناً الى حد بعيد : أدوات فضلى، والمطحنة المائية، والآلات ـ المحراث الكبير ذو الباسنة الحديدية وفأس الحطابين الثقيلة ـ التي أتاحت استثمار الاراضي التاربة والغابات الظليلة ؛ وزراعة الكرمة ، وزراعة الحنطة التي حلت محل الذرة البيضاء ؛ واراحة الارض سنة كل ثلاث سنوات ؛ والتخصص الزراعي الذي لم يترك للنشاط الراعوي سوى مركز ثانوي . وقامت في المساحات الكبرى المقفرة ، التي باعدت في ما مضى بين المراكز السكنية السلافية ، قرى كبيرة ذات نظام جماعي تأسست في وسط مقاطعة مقسمة الى اراض تزرع اصنافاً مختلفة متعاقبة .

لم يكن الاستعمار الالماني عسكرياً ورهبانياً وزراعياً فحسب . فقد جاء اختصاصيون آخرون ايضاً : معدنون فحصوا الاراضي في كافة بلدان اوروبا الوسطى واستثمروا عروقها المعدنية ، واهل تجارة خصوصاً ـ ولذلك تميز الوجود الالماني بظهور بعض المدن في مناطق لم تعرف المدن قط . فان المستعمرات الزراعية الجديدة ، التي قامت في اراض بكر خصيبة جداً ، واستندت الى انتاج الحبوب الثمينة السهلة التصريف ، واستثمرت على أيدي شركاء زراعيين فرضت عليهم أتاوات نقدية في الدرجة الاولى وأرغموا من ثم على العمل في سبيل البيع ، قد تهيأت بصورة طبيعية للاقتصاد التجاري . وقد توقفت قرى جديدة كثيرة، منذ تأسيسها ، الى احداث سوق ذات امتياز، وكانت كلها وثيقة الارتباط بمدينة قام دورها، بالضبط، بتأمين اتصال هذه القرى بالتيارات التجارية الكبرى . فانتثرت من ثم في مهاجر الفلاحين الالمان قرى كبيرة تكاد تكون محض جرمانية . بيد ان الاستعمار المدني قد تخطى هذه المنطقة تخطياً بعيداً : فقد قامت سلسلة من المدن التجارية على شواطىء البلطيك الجنوبية والشرقية ابتداء من لوبك (١١٤٣) حتى ريغا (١٢٠١) وريفال (١٢٧٠) ، كما أعمر التجار الالمان ، في القرن الثالث

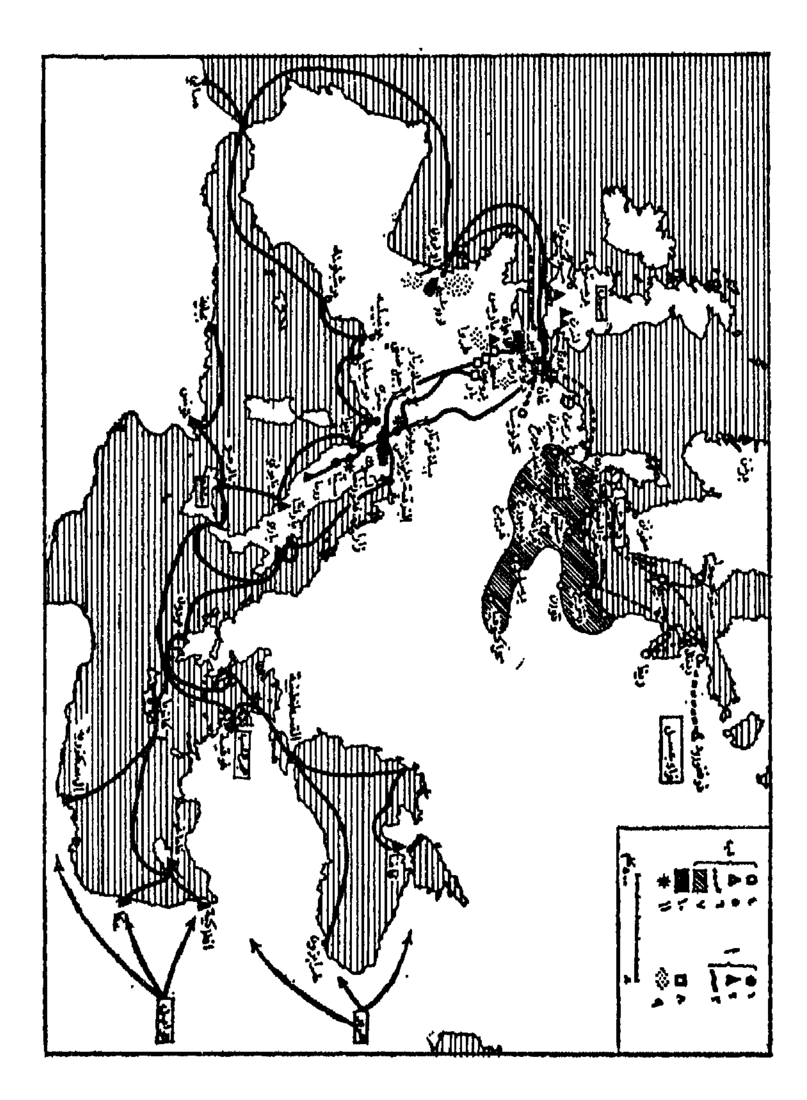
عشر أكثر الأحياء نشاطاً في المدن الجديدة التي قامت في بولونيا والدول الدانوبية وسكنديناقيا، ابتداء من « برغن » حتى ستوكهولم .

ان هذه الهجرة الجرمانية الكبرى ادخلت نظم الحضارة الغربية المثلى الى بلدان لا تزال بربرية ، وحتى حدود البورات الخاضعة آنذاك لسيطرة المغول ، وأعطت البلدان السلافية مقوماتها . فعوض هذا التوسع الجانبي ، باعداد اراض جديدة لزراعة الحنطة التي اتيح تصدير معظم مواسمها ، وبتنمية الصيد في بحر البلطيك الغني بأنواع الرنك ، وبتشجيع كافة انواع المقايضات ، عن الركود الزراعي التدريجي في البلدان الغربية، كما اسهم في انطلاقة التجارة الاوروبية الكبرى .

اجواخ « فلاندر »
والتجارة الداخلية المشتركة

ان النشاط التجاري الوثيق الارتباط بتقدم الصناعة وحركة تداول النقود قد تزايد باطراد في كافة انحاء اوروبا حتى اواخر القرن الثالث عشر . وانتظمت نهائياً حركة اقتصادية دائرية : مركزان رئيسيان هما شواطىء بحر الشمال وشبه الجزيرة الايطالية – وقد اشتهرا منذ اوائل القرون الوسطى ، بسبب موقعهما ، بنشاط التجارة – ومركز منظم هو اسواق شمبانيا الدورية .

كان المرتكز الرئيسي للازدهار المطرد في المركز الشمالي التقدم المستمر في صناعة الاجواخ . وكان هذا التقدم نفسه وثيق الارتباط بذيوع الميل ، في طبقات المجتمع العليا ، للمنسوجات الصوفية التي تفوق انتاج الانوال المنزلية اتقاناً وتنوعاً والواناً ؛ ووثيق الارتباط من ثم بتقدم الحياة الاجتماعية . وانتثرت اهم مراكز حياكة الاقمشة وصباغتها ، في القرن الثاني عشر ، غربي الواز والاسكو : سانت اومير وأرّاس وليل ودواي واميان وبوفيه وكمبريه وتورنيه . ولكن اكثر المصانع نشاطاً تجمعت شيئاً فشيئاً في الفلاندر التي حاول كونتيتها بشتى الوسائل ، منذ القرن التاسع ، بعث حياتها الاقتصادية . فأقيم معظمها في دواي اولاً ، ثم في ايبر وغنت اللتين انتهى نشاطهما ، في اواخر القرن الثالث عشر ، الى السيطرة سيطرة تامة على سوق الجوخ . لم تكن الصناعة ، في هذه المدن الصناعية الكبرى – وهي الاولى من نوعها التي عرفها الغرب والتي جاوز سكانها ، للمرة الاولى في ذاك العهد ، ٣٠٠٠٠ نسمة – متمركزة في مصانع كبرى ، بل موزعة على عدد كبير من المشاغل الصغرى المتخصص كل منها بمرحلة معينة من مراحل العمل ، والمشرف على ادارتها رب عمل هو ، بحسب المشاغل ، حائك او مقصّر ، حلاج او صباغ ، ينظم العمل كما يطيب له بمساعدة بعض الرفاق . الا ان الانتاج ، المعد جله للتصدير البعيد ، خضع بكليته لرقابة تجار مهرة ، اصحاب اموال طائلة ، وقادرين وحدهم على ابتياع الخامات في الاسواق النائية ، وتأمين تصريف المصنوعات . وكان هؤلاء التجار ، الذين غالباً ما اجّروا ادواتهم للصناعيين اليدويين ودفعوا لهم اتعابهم على اساس الوحدة المصنوعة ، يمارسون رقابة اقتصادية تامة على ارباب الحرف الصغرى الذين استغلوا بدورهم الرفاق ، وهم



الشكل (رقم ١٥) ـ الاقتصاد الاوروبي في اواخر القرن الثالث عشر

أ ـ الايطاليون : ١ ـ المراكز الاقتصادية الرئيسية . ٢ ـ الاسواق الرئيسية . ٣ ـ الطرق التجـارية الرئيسية .

ب ـ الهانسيون : ٤ ـ مدن الهانس الرئيسية . ٥ ـ الاسواق الرئيسية . ٦ ـ الطرق التجارية الرئيسية. ٧ ـ منطقة الاستعمار الزراعي الجرماني . ٨ ـ الاسواق الدورية الشمبانية . ٩ ـ أهم مناطق تصدير النبيذ . ١٠ ـ أهم مناطق تصدر المعظم . ١١ ـ أهم مراكز صناعـة الاجواخ .

عمال متضورون جوعاً يستخدمون اسبوعياً ولا ينعمون بأية حماية . فنجم عن مثـل هذا الوضع ، منذ الربع الاول من القرن الثالث عشر ، قلـق اجتماعي عبّرت عنه الاراجيف

والاضرابات عن العمل . وقد حدثت اولى الاضرابات ، بمفهومها الحاضر ، في السنـــة ١٢٥٠ . فاوجد هذا الصراع الخفي اخيراً بين اليد العاملة وكبار الملتزمين ، وقد استمر بفعل الخلافات السياسية والرسوم على المواد الغذائية التي فرضها شيوخ البلد النبلاء حتى لا يلزموا برفع الاجور، في السنوات الاولى من القرن الرابع عشر ، ازمة ّانتاج ، انحصرت في المـــدن الفلنكية على كل حال ، وعوّض عنها نمو صناعة الاجواخ في « برابان » « وهينو » وبيكارديا وشمبانيا .

كان انتاج الاجواخ صناعياً ، منذ فجر القرن الثاني عشر ، حافزاً لنشاط التجارة في المنطقة الفلنكية التي قامت فيها ، منذ ذاك التاريخ ، اسواق اقليمية دورية . فكان لا بـــد من تموين الانوال الناشطة المتزايدة ابداً بالاصواف الاجنبية التي ما لبثت انكلترا ان اصبحت سوقها الاولى؛ كما كان لا بد من الحصول ، في الارياف ، على المواد التلوينية ، الاسليخ ، والفوّة التي تزرع في نورمانديا بنوع خاص ، والوسمة ، او العظلم ، التي كانت منطقتا اونيس وبيكارديا اسواقهـــا الكبرى ؛ وكان لا بد ايضاً من استيراد حجر الشب ، وهو مادة خام اساسية تستعمل لتقصير الصنوف وتثبيت اللون وصقل الاقمشة ، من شواطىء البحر المتوسط الشرقيـــة . وكان لا بد اخيراً من ارسال المنسوجات الى المشترين المنتشرين في انحاء الغرب المسيحي ، وحتى في مناطق اخرى نائية . فجاءت هذه التيارات التجارية المتزايدة القوة تعزز التيارات التي تقاطعت تقليدياً في بحر الشمال ناقلة الملح والنبيذ من فرنسا ، والتوابل الشرقية نحو البلدان الشماليـــة . واستقر مركز كافة هذه المقايضات شيئاً فشيئاً في مرفأ بروج الذي جهز تدريجياً ، بفضل بناء ميناءيه الاماميين ، دامّ (١١٨٠) وايكلوز (اواخر القرن الثالث عشر) ، لاستقبال اكبر السفن حمولة .

ولكن بروج – وهذا ما يميز نشاطها عن نشاط المدن البحرية الايطالية – لم تكن سوى محطة او نقطة لقاء مفتوحة الابواب للتجار الغرباء ؛ فان سكانها ، الذين لم يتعاطوا الملاحـــة وتجهيز المراكب، لم ينصرفوا الى المهن البحرية ، فبقي زمام حركتها التجارية في ايدي الاجانب، اعضاء شركات التجارة الداخلية اولاً ، ثم الايطاليين في اوائل القرن الرابع عشر .

نشأت الشراكة التجارية بين المدن (الهانس) عن اقامة الالمان في شواطىء البلطيك وعن تأسيس المدن الحديثة – وهي المدن التي قامت على مصاب الانهار وخففت الضغط عن المناطق الزراعية الداخلية من شلسفيغ حتى لتّونيا . في النصف الثاني من القرن الثاني عشر اتحـد تجار هذه المدن في شراكة تجارية اقامت حوالي السنة ١١٦٠ سوقاً للبضائع المنقـــولة في فيسبي من اعمال جزيرة غوتلاند ، واستوردت من النروج التي مني اقتصادهـــا بالعجز ، حنطة اراضي المزارعين ، وضمنت رقابة صيادي الرنك الوفير في سكانيا ومونتهم بالملح ، واحدثت سوقاً دائمة في نوفغورود ، فاحتكرت من ثم كل التجارة في البلطيك . وفي اوائل القرن الثالث عشر ، افضت الرغبة في تأمين المزيد من الاسواق للمحاصيل الشمالية ، وللاسماك المجففة بنوع خاص ، والرغبة من ثم في تنظيم العلائق بين قطاع تجارة البلطيك وقطاع تجارة بحر الشمال ، عن طريق

اتصال بري بين نهري التراف والالب ، بكبار تجار لوبك الى عقد معاهدة صداقة مـــع تجار همبورغ؛ثم انضم الى هذا التحالف تجار مدن اخرى، في الشرق وفي الغرب على السواء، كـ« بريمن » في الساحل ، وكولونيا على الرين ؛ وبعد ان قامت هذه الشراكة بين التجار ، في البداية ، باتت ، في منتصف القرن الثالث عشر ، شراكة بين المدن بقيت لوبك والمدن الفندية قلبهـــا النابض . واسست فئة « الاسترلين » اسواقاً ثابتة ممتازة في « بروج » التي غدت محطتهم الرئيسية ، ثم في لندن حيث حصلت هذه الشراكة من الملوك الانكليز ، بين السنة ١٢٦٠ والسنة ١٣١١ ، على وضع موافق جداً . وتعاطى هؤلاء التجار المتشاركون تجارة المواد الثقيلة التي نقلوها وواكبوها في سفن مستديرة تتسع لحمولة كبيرة وتجهز بسطح يفصل طبقاتها . وقام نشاطهم خصوصاً ، في اواخر القرن الثالث عشر ، بامتيار محاصيل الشمال ، الفراء والعسل والرنك وقمـــح مناطق الاستعمار الجرماني (حوالي السنة ١٢٥٠ استهلك القمــح المستورد من براندبورغ في فلاندر وانكلترا) ؛ وامنوا كذلك نقل الصوف الانكليزي الى المدن التي قامت فيها معامل الجوخ ، وتجاوزوا بريطانيا واتجهوا نحـــو شاطىء فرنسا الاطلسي ، الى جون بورنوف ، واوليرون ولاروشيل، بغية نقل الملح الى مصايد الاسماك في سكانيا والنبيذ الذي يباع في فلاندر وانكلترا والمانيا . فغدا هذا الساحل الاطلسي نقطة تألب تجارة دولية ، كما غدت اعراف اوليرون ، التي دوّنت كتابة في اواخر القرن الثاني عشر ، قانوناً بحرياً دولياً لكافة الربابنة الشماليين . وكانت التجارة على هذا الساحل بسيطة لا تستلزم رؤوس اموال كبيرة بالنسبة للحمولة المنقولة واكتفت بالتقنيات التجارية والمالية البدائية . فاختلفت بذلك عن تجارة الايطاليين الذين زاحموا هؤلاء التجار ، في السنة ١٣٠٠ ، ادارةَ الاعمال التجارية في بروج ولندن .

رجال الاعمال الايطاليون

ان النشاط الاقتصادي في المركز الجنوبي ـ وهو قد تخطى ايطاليا على كل حال ومال الى دخول مركز بحر الشمال وضمه اليه ـ كان في الحقيقة اشد تعقداً الى حد بعيد . كان مرتكزه الرئيسي التجارة البحرية ايضا التي تمركزت تدريجياً في مرفأين : البندقية القديمة الشهرة ، وجنوى التي لم تخلف وراءها منذ منتصف القرن الثاني عشر ، مرسيليا وبرشلونة فحسب ، بل توصلت اخيراً الى التغلب على منافستها بيزا التي سقطت وافتقرت نهائياً بعد معركة « ميلوريا (١٢٨٤) . اجل كان من شأن الحملات الصليبية ان تعيق تجارة المدن البحرية الايطالية التي اتجهت في البدء نحو الشرق بنوع خاص ؛ ولكـــن التجار ، في الواقع ، استغلوا الحملات العسكرية المسيحية ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً فقدموا لها مساعدة اسطولهم لقاء اسواق وامتيازات اقتصادية : ولنا في عمل البندقيين الذين نكبوا بحملة السنة ١٢٠٤ عن طريقها ، خدمة لمصالحهم واعمالهم ، فقادوا فرسان الغرب الى فتح مدن مسيحية ، زارا اولا ثم القسطنطينية ، خير مثل عن هذا الاستغلال ؛ اضف الى ذلك ان روح الحرب المقدسة ، التي وهنت كثيراً منذ اواخر القرن الثاني عشر على كل حال ، لم تمنعهم ، من جهة ثانية ، من عقد اتفاقات تجارية مع الامراء المسلمين . لذلك ، وبفضل تقدم فن الملاحـــة

ايضاً ، واستخدام السفن الشراعية الكبيرة والمتينة ، ووضع الخرائط البحرية الاولى قبيل القرن الرابع عشر ، فقد اتسع حقل نشاطهم اتساعاً مستمراً .

فتحت لهم في اوائل القرن الثالث عشر ابواب البحر الاسود الذي كان وقفاً على التجارة البيزنطية . فاتجروا مع شعوب البورات في كافا من اعمال القرم ، وفي تانا في اقصى بحر ازوف. واستفادوا من ان المغول اسسوا دولة تضم آسيا بكليتها حتى شواطىء البحر الاسود ، فاخذوا يحاولون اقامة علائق مباشرة مع الشرق الاقصى : فتوصل بعض الجنويين والبندقيين ، كما رأينا، الى الهند وبحر الصين واندونيسيا. وتخطى الجنويون جبل طارق نحو الغرب وترددوا على «سالي» وساروا ابعد الى الجنوب بمحاذاة الشواطىء الافريقية وعرضوا انفسهم للمخاطر ، من الجهة الشمالية ، بالدوران حول شبه الجزيرة الايبيرية . وفي اواخر القرن الثالث عشر ، وصلت طرق الملاحة الايطالية ، المارة في الاراضي المسيحية والاسلامية على السواء ، (اذ ان سقوط عكا في السنة ١٢٩١ ، وفقدان المراكز اللاتينية الاخيرة في الارض المقدسة ، لم يعيقا التجارة قط) كافة انحاء العالم المتوسطي ، من كافا وطرابزون حتى بيرا ، ومن القاهرة ودمياط والاسكندرية حتى تونس وبوجي وسبته بواسطة مستعمرات ثابتة .

اما نشاطات الملاحين الجنويين والبندقيين الثانوية ، خلال هذه الحقبة فهي التالية : استيراد محاصيل الشرق من شب وتوابل ومصنوعات بذخية الى اوروبا ، وتصريف بعض انتاج الصناعة الاوروبية ، ولا سيما الجوخ ونسيج الكتان الى الشرق ، ومساحلة بين الموانىء الاسلامية ابتداء من آسيا الصغرى حتى مراكش وهي نشاطات وافرة المكاسب حقاً لانها تناولت بضائع ثمينة جداً ، ولان المبيعات ، في المرافىء المغربية الغنية بالمعدن الاصفر ، كانت تسدد ذهباً دونما صعوبة . ولكنها نشاطات خطرة ايضاً ، لانها تفرض المجازفة برؤوس اموال هامة تكون بالضرورة تحت رحمة البحر والقرصنة . لذلك فان التحسينات التقنية المدخلة ، منذ السنة ١١٥٠ حتى اوائل القرن الرابع عشر، على العمل التجاري والمالي، قد استهدفت اول ما استهدفت، بالاضافة الى تنظيم التصريف ، الحد من هذه الاخطار وتخفيف شدتها . ولكن مثل هذا التقدم لم يتحقق في البندقية اذ ان الجمهورية ، وهي شراكه مصالح واسعة خضعت بكليتها ، منذ الربع الاخير من القرن الثالث عشر ، لرقابة كبار التجار ، قد اخذت ابدا على عاتقها ومسؤوليتها كل الاخطار الكبرى واحتكرت بناء السفن ونظمت ، في مواعيد محددة ، قوافل تجارية جماعية تواكبها سفن الحماية . ولم يؤمن ضمان رؤوس الاموال الا بالاكثار من عقود الشراكة الفردية : وكانت الغاية من هذه العقود التوفيق بين رجل شاب ونشيط يكلف مواكبة البضاعة بحراً وادارة الاعمال في المناطق النائية ، وبين متمول في سن النضج يقدم القسم الاكبر من رأس المال ويوظف في كل رحلة عدة مبالغ مماثلة بغية موازنة الاخطار . اما جنوى ، وهي مدينة خضعت لنظام اكثر فردية ، فقد عرفت انواع شراكات اعظم كمالاً . فقد كان بناء السفن ، وهو الصناعة الرئيسية في كافة هذه المدن البحرية – لان السفينة ، في القرن الثاني عشر ، تخلق بسرعة ويجب ابدالها بعد مرور خمس او ست سنوات – منوطاً بشركات

يملك كل من اعضائها قسماً من السفينة ويبتون باكثرية الاصوات في امر استخدامها وينتخبون القبطان ويتقاسمون الارباح . وارتكز تمويل المشاريع التجارية بصورة خاصة الى عقود «طلب» لا تفرض على التاجر البحار اي اسهام في رأس المال بل تكلفه استثمار النقود التي يقدمها المتمول. وما لبثت هذه العقود ان تطورت فتركت للشريك العامل مزيداً من الحرية والمبادهة ، فقام في منتصف القرن الثالث عشر ، بين الاسواق الجنوية المختلفة وبين المدينـــة الأم ، نوع من نظام القروض البحرية المرتفعة الفائدة ، على ان لا تسدد الا اذا حالف التوفيق الرحلة، وهي الاشكال الاولى للضمان ضد الاخطار البحرية . فادت هذه التوظيفات المجزأة ، وهذا التعاون بين مقرضي الاموال ، المنحدرين بمعظمهم ، من ارستوقراطية ملاكي الاراضي ، وبين العملاء الضليعين بامور الملاحة والتجارة ، الى تقدم الاعمال تقدماً مستمراً في المرافىء الايطالية .

وتعاطى بورجوازيو المدن الايطالية الداخلية ، التي تأخرت في الاهتمام باقتصاد المقايضات ، تجارة المسافات الطويلة ايضاً ، باستخدام سفن المدن الساحلية ولا سيما سفـن جنوى . ولكنهم الفوا شراكات اطول بقاء من شركات « الطلب » وشركات العقود الفردية وجمعوا رؤوس اموال اعظم شأناً ، فتعاطوا ، الى جانب هذا النشاط ، الصناعة والعمل المصرفي : صناعـة الحرير في لوبك والصوف في ميلانو حيث الخامات الآتية من سردينيا وافريقيا الشماليـة وانكلترا ، وفي فلورنسا حيث حولت الاجواخ المحلية والفلمنكية الى مصنوعات بذخية من الطراز الاول، وعمل مصرفي في الاوساط اللومباردية والبيمونتية الصغرى ، استي ، وكييري ، ونوفارى التي سلك سكانها منذ القدم طرقات جبال الالب فانتشروا ، صرافين ودائنين وتجاراً ، في كافة انحاء فرنسا الشمالية حيث زاحموا سكان كاهور ، الاختصاصيين الاول في العمليات النقدية ، وفي سينا التي اخذ رجال الاعمال فيها على عاتقهم منذ عهد مبكر ، جمع مداخيل الكنيسة الرومانية ، وفي بليزانس التي تعاطت نقل البضاعة والصرافة والاقراض بالاتفاق التام مع جنوى والتي جاء منها ، في اواخر القرن الثالث عشر ، اكبر متمولي باريس . ثم ان فتح ايطاليا الجنوبية على يد « شارل دانجو » (١٢٦٦ – ١٢٦٨) ، وقد انفق عليه البورجوازيون التوسكانيون لقاء الحصول عـلى مركز اقتصادي ممتاز في مملكة صقليا، وانهزام السينيين واللوكيين بعد ذلك، جعلا الحظ يحالف الشركات الفلورنسية ، حوالي السنة ١٣٠٠ ، محالفة مدهشة .

تأسست هذه الشركات حول احدى العائلات بانضمام بعض الدائنين (ويتراوح عددهم بين ٥ و٢٠ على العموم) المتساوين قانوناً ، المنصرفين عن الاسهام في اي مشروع آخر ، المكرسين كل نشاطهم لخدمة الجماعة ، وكانت تتصرف برأس مال هام جداً قوامه مساهمـــة الشركاء ولا سيما الامانات الخاصة . وكان يعاونها عملاء مأجورون يوزع معظمهم على مختلف الفروع المؤسسة في شتى مراكز الاعمال الرئيسية في ايطاليا والشرق الادنى والغرب الاوروبي (في بروج ولندن وباريس ، وفي افينيون بعد ان امست مقراً للبلاط البابوي) . وزاولت هذه الشركات ، التي عنيت بصناعة الصوف وكافة الاعمال التجارية ، النشاطات المالية بنوع خاص ، اي نقل الاموال

من مكان الى آخر ، والاتجار بالذهب ، مسكوكات او سبائك ، ولا سيما الاقراض بفائدةتتراوح بحسب الاخطار ، بين ٧ و٣٣ ٪ . وما لبثت ان اضطرت، توطيداً لمركزها في البلدان الاجنبية ، وتلافيا لاخطار الابعاد والحجز المحدقة ابداً بالاجانب ، وسعياً وراء الحماية من عداء البلديين المستتر الدائم ، الى تسليف الأمراء اموالا طائلة جداً . ثم انتهى الأمر بها ، بسبب تفوقهـا التقني، واحتياطها النقدي الذي اتاح لها تقديم مبالغ طائلة، في قليل من الوقت، الى ادارة اموال بعض الدول . وهكذا فقد آل كل اقتصاد مملكة أنجو الايطالية ، في اوائل القرن الرابع عشر ، الى ايدي الصيارفة الفلورنسيين ؛ ولعب هؤلاء دوراً متزايد الاهمية في الآلة الجبائية ، المطردة التسلط، العاملة في خدمة البابوية؛ وبين السنة ١٢٨٠ والسنة ١٣١٠ سلفت شركة «فرسكوبالدي» ملك انكلترا اكثر من ١٢٢٠٠٠ ليرة استرلينية ، بينما كان اثنان من عملائها، بيش «وموش» مستشارين ماليين للملك « فيليب له بيل » . وجلي ان اعمالا تجارية على هذا الاتساع ، متوقفة على حسن نوايا الملوك ، ومهددة بالحروب والاضطرابات الشعبية وهبوط اسعار المعادن الثمينة ، لم تكن بمأمن من الاخطار ؛ وبما ان الامانات كانت متوجبة الدفع حين الطلب كان من شأن اقل ارتباك عابر ان يفضي الى انهيار الشركة كلها وافلاس الشركاء ، المسؤولين باجسادهم وممتلكاتهم دونما تحديد . ولذلك لم تكن الافلاسات امراً نادراً في فلورنسا . الا ان هذه الاعمال التي أدارها مركزيا تجار مقيمون في اماكن ثابتة اجمالا ، والتي قامت باطراد على الكتابة والمحاسبة الصحيحة (وهي ما زالت بدائية في الحقيقة على الرغم من استخدام الاعداد العربية والصفر منذ السنة ١٢٦٠ تقريباً)، لم تتوقف، في الربع الاخير من القرن الثالث عشر ، عن التوسع توسعاً مستمراً في كافة انحاء ايطاليا ، وانتهت تدريجياً الى تطويق الاقتصاد الاوروبي بكليته : واذا حافظت الشراكة الهانسية على استقلالها واستمرت في التحكم بتجـارة البلطيك كلها ، فهم التجار الايطاليون من سيطروا ، بعد السنة ١٣٠٠ ، على معظم تجارة الاصواف الانكليزية — حيث حلوا محل التجار الفلمنكيين — والذين كانت مؤسساتهم في بروج اعظم المؤسسات ازدهاراً .

اسواق شمبانيا الدورية

تم الاتصال ، حتى ذاك العهد، بين المركز الايطالي ومركز بحر الشمال بواسطة الطرقات البرية التي تجتاز جبـال الالب ومملكـة فرنسا . فقامت منذ القرن الثاني عشر ، في هضاب شمبانيا حيث تتقاطع هذه الطرقات ، اسواق تلاقى فيها التجار الاوروبيون . في القرن الثالث عشر ، غدت هذه الاجتماعات التجارية الستة (واحد في لانيي وآخر في بار — سور — اوب ، واثنان في بروفين ، واثنان في طروا) التي يدوم كل منها ستة اسابيع وتتعاقب في مدار السنـة ، المركز الحقيقي للتجارة الكبرى ، الذي لم يؤمه تجار الاجواخ في ارتوا وفلاندر، والايطاليون بائعو الشب والتوابل فحسب ، بل تجار بروفنسا وانكلترا والمانيا وكاتالونيا ايضاً . انطوت كل سوق على مرحلتين متواليتين ، خصصت الاولى منهما (دخول ومبيع) للصفقات التجارية ، والثانية (خروج) لتصفية الحسابات بين التجار وقد احكم فيها نقل الاموال من سوق الى سوق ، منذ اوائل القرن الثالث عشر ؛ ولما كانت

كبار رجال الاعمال في العالم المسيحي هم الذين يشاركون في هـــذه الاجتماعات شبه الدائمة ، اختيرت الاسواق الشمبانية تدريجياً مكاناً تدفع فيه معظم الديون وامست مركزاً لمعاملات كثيرة تستهدف التعويض عن الديون . وانتشر كذلك ، بواسطة هذه الاسواق وبفضل الايطاليين ، اللجوء الى الاقرار بالديون الذي اعتبر ، بشكل بدائي ، بمثابـة سندات دين تدفع في مكان وبعملة يعينان مسبقاً . فلعبت اسواق شمبانيا ، بفضل هذه « السفتجات » ، وعمليات التعويض بين التجار ، دوراً رئيسياً في توسيع التجارة الغربية الكبرى ، اذ انها ساندت اعمالا مطردة النمو على الرغم من الحاجة الى تغطية نقدية حقيقية .

بلغ نشاطها المتزايد ذروته حوالي السنة ١٢٩٦ . غير اننا نشاهـد في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر ، بروز ظواهر لن تلبث ان تحد من دورها . فهنالك في الدرجـــة الاولى استقرار التجار تدريجياً في مراكز ثابتة ، مما اتاح لهم ، بعد تعـــدد الشركات ذات الفروع واستخدام الوثائق التجارية المكتوبة ، التفاوض في امور الاعمال دون مواجهة الزبن ؛ واقامة الايطاليين في الامكنة الرئيسية من شمالي غربي اوروبا ؛ وانشاء شبكة طرقات جديدة تحايد شمبانيا . فان بناء جسر فوق نهر الروس قبـل السنة ١٢٣٧ قد فتح طريقاً جديـدة وصلت البندقية وميلانو بالفلاندر مروراً بسان غوتار . ثم اتاح تقدم التقنية البحرية ، في السنة ١٢٧٧ ، للسفينة الجنوية الاولى بلوغ بروج مباشرة ، ثم انكلترا في السنة التالية . وهكذا فقـد قامت منذ السنة ١٢٩٨ اتصالات بحرية منظمة ، واقيم في العقد الثاني من القرن الرابـع عشر خط بندقي بموازاة الخط الجنوي ، فتم بذلك تجهيز وسيلة نقل نحو الفلاندر افضل الى حد بعيد من النقل بواسطة العربات . وحدث اخيراً تبدل ذو طابع اعم اسهم في انحطـاط اسواق شمبانيا، اعني به تقدم الحياة المدنية المطرد . وقد ارتدى هذا التقدم اشكالا كثيرة ـ ففي القرن الثالث عشر اخذت المدن الصغرى تظهر في المناطق الدائرية من العالم المسيحي ، المانيـا وانكلترا وسكنديناڤيا، التي كادت تكون ريفية بكليتها قبل ذلك التاريخ ـ ولكنه تميز خصوصاً باحداث المراكز المدنية الكبرى ؛ فغدت هذه الاخيرة اسواقاً ناشطة واماكن دائمة لتصريف البضائع في مناطق مطردة الاتساع ، وقامت ، بالنسبة لكل منطقة ، بدور الاسواق نفسه : وهكـذا اتجه النشاط التجاري في فرنسا الشمالية الى التمركز في باريس ، المدينة العظيمة ، التي ربما بلغ سكانها ٨٠٠٠٠ نسمة في عهد « فيليب له بيل » . وجاء اخيراً التحول الداخلي في الشركات الايطالية الكبرى ، التي باتت اجهزة ذات فروع ، لتتفق والظروف الجديـدة الناشئة عن قيام هذه المدن .

النقد

ان التوسع التجاري ، الذي تحقق بسرعة لا سيما في العقود الاخيرة من القرن الثالث عشر ، قد احدث تغييراً في الوسط الاقتصادي واستلزم في الدرجة الاولى وضع نظام جديد للتداول النقدي . فقد ارتفعت كمية المعادن الثمينة المتداولة بفعل تجارة المحاصيل الفائضة التي زاولها الايطاليون في سواحل افريقيا الشمالية وانتاج المهاجرين الالمان الذين استثمروا مناجم فضية جديدة في اوروبا الوسطى ، لاسيما مناجم فريبرغ في ساكس التي اكتشفت حوالي السنـة

١١٧٠ . ولكن هذا الارتفاع في الكمية المعدنية بقي طفيفـاً ، ولم تتعادل نسبة وسائل الدفع ونسبة الصفقات الا بفضل تزايد تداول النقود الذهبية والفضية وتنظيم وسائل الدفع الاخرى والبيع ديناً . ومع ذلك فقـد طرأ تحسن ملموس على المسكوكات . ففي الدول التي توطدت سلطتها في كل مكان على السيادات الاقطاعية ، لم يترك اصدار الامراء للنقود الجيدة الثابتة القيمة - كالجنيهات السترلينية الانكليزية في اواخر القرن الثاني عشر اوكالهلتّر في سواب - سوى دور محلي للنقود الصغيرة السوداء غير القانونية ، التي كانت تسك في المصانع الخاصة . اضف الى ذلك ان مقتضيات التجارة الكبرى قد اوجبت ضرب قطع نقدية تفوق ، عياراً ووزناً ، تلك التي راجت اثناء حقبة الانكماش الاقتصادي. فهنالك اولا القطع الفضية «الكبيرة» التي تزن اكثر من غرامين وتعادل ١٢ درهماً ، اي انها تعادل القطعة القديمة المعروفة بـ Sou التي حصر استعمالها في حسابات بيع الجملة ؛ وقد ضرب القطع الفضية الاولى في البندقية في السنة ١١٩٢ ، فاعتمدتها على الفور المدن الايطالية الاخرى ؛ وفي السنـة ١٢٦٦ اصدر القديس لويس القطع التورية (نسبة الى مدينة تور) الكبيرة ثم القطع الباريسية الكبيرة (وهي اربعة اضعاف القطع التورية) التي انتشرت في هولندا ووادي الرين عن طريق اسواق شمبانيا الدورية ، وغدت اساسـاً لحسابات بيع الجملة في الامارات الفلمنكية . وفي منتصف ١٢٣١ اصدر فردريك الثاني في صقلية القطع الاوغسطية ولكنه لم يضربها الا طلباً للنفوذ وللاستهلاك المحلي فقط ؛ وفي السنة ١٢٥٢ ، اصدرت في جنوى وفلورنسا في آن واحد قطع نقدية ذهبية مرتفعة العيار تزن ٣ غرامات ونصفاً وتساوي عشرين قطعة فضية كبيرة (الجنوي ، الفلورين) وهي القطع التي اصبحت ضرورية لاقتصاد سريع التوسع آنذاك ما كانت النقود البيزنطية او العربية لتفي بحاجاته . ووضعت في التداول قطع مماثلة في ميلانو ، ثم في البندقية ، في السنة ١٢٨٤ . وفي فرنسا وانكلترا اصدر القديس لويس وفيليب له بيل وهنري الثالث ايضا بعض القطع الذهبية ولكن بكميات محدودة ؛ واذا راج المعدن الاصفر في هذه البلدان ، فقد راج بشكله الايطالي بنوع خاص. وان في النجاح الغريب الذي صادفه الفلورين الذهبي ، وهو اساس قوة الشركات المصرفية التوسكانية ، لاوضح رمز لاتساع النشاط الاقتصادي .

ان ارتفاع الاسعار الذي رافق ، منذ القرن الحادي عشر ، نمو المقايضات والتداول النقدي قد تواصل خلال هذه الحقبة : وهكذا ارتفعت الاسعار الزراعية في نورمنديا ، كما ارتفع بدل الارض ، نتيجة لذلك ، بنسبة ٥٠٪ بين السنة ١١٨٠ والسنة ١٢٦٠ . وتميزت هذه الحقبة ، كما سبق ورأينا ، بقيام المدن الكبيرة ، وان في تشييد الكاتدرائيات العظمى لدليلا على الرخاء الذي عم كافة هذه المدن المطردة النمو . وتنظمت آنذاك من جهة ثانية الحرف الصناعية : فالتف ارباب العمل والرفاق والعمال الاختصاصيون في عمل معين ، حول اخوية دينية خيرية ، والفوا شركات عرفت بـ « الحرف » «والفنون» ؛ وقد نظمت هذه التجمعات مزاولة المهنة وحاولت في الدرجة الاولى ، عن طريق رقابة مدة العمل وطرائقه ونوع الانتاج ، الحد من المزاحمة وتأمين المساواة بين ارباب العمل .

تكيف الاقتصاد الريفي

تسرب الاقتصادالتجاري في الوقت نفسه تسربا عميقـا الى الاوساط الريفية . فقد انفتحت امام المنتجين الريفيين اسواق متزايدة الاتساع دعتهم الى تخصيص قسم من محاصيلهم للبيع . ورافقت هذا الوضع الجديد ، الذي تشهد عليـــه بعض بنود الاتفاقات حول الاعفاءات ، والذي أجاز للفلاحين اقتناء العيارات وألغى العوائق المقامة في وجه التجارة والاحتكارات السيدية ، واحدث في القرى اسواقـــاً دائمة ومعارض موسمية للحيوانات ، تبدلات عميقـــة في نظام المشاريع الاستثمارية الريفية . فنمت زراعة الكرمة على جنبات طرقات التصدير ، وانتشرت من ثم كروم واسعة في مناطق فرنسا الاطلسية اتصلت اتصالاً مباشراً بمرافيء التصدير ، اوليرون ولاروشيل وبوردو . وانتشرت كذلك زراعة النباتات الصباغية في شمالي فرنسا وفي المنطقة التولوزية وفي سهل الدو . ونمت تربيـــة المواشي لتموين المدن الكبرى باللحوم ؛ فمنـــذ القرن الثالث عشر امن اللحامون الباريسيون حاجتهم من « بريا » ونورمنديا . وقلبت تجارة الصوف اقتصاد الارياف الانكليزية ظهراً على عقب ، اذ ان الفلاحين والاسياد اخذوا يسعون وراء اقتناء المزيد من المواشي لتلبيـــة طلب المصدرين . ويجب هنا ان نذكر واقعين يمتان بصلة الى هذا التبدل في ذهنية المنتجين الذين لم يهتموا آنذاك للعيش من ارضهم فحسب بل لتحسين انتاج استثمارهم ايضا رغبة منهم في الكسب التجاري . فهناك ، من جهة ، تعدد الاشكال الجديدة لاستئجار الاراضي ، الذي لم يعد دائما بل حدد باجل قد لا يتجاوز سنوات معدودات احيانا : فقد انتشرت عقود الضمان وعقود المزارعة انتشاراً سريعا في فرنسا وايطاليـــا ، مما اتاح سهولة استبدال المزارعين المهملين بالمزارعين الاكفاء ، والمطالبة باعتماد افضل الطرائق انتاجا ، والتوفيق دوريا بين دخل الارض وانتاجها الحقيقي . ومن جهة اخرى وضعت المؤلفات الزاعية ، كالبحث في « زراعة الكرمة وتربيتها » لـ « والتر دي هنلي » او بحث « بيير كريسنتيوس » البولوني (نسبة لـ *Bologne*) في الموضوع نفسه ، التي كان نجاحها ، في كافة انحاء اوروبا ، عظيما جدا وراهنا . يضاف الى ذلك ان انتشار الدين في الارياف ، حيث غالباً ما ينص العقد على ان الحبوب هي مادة قرض الاستهلاك حتى تفرض عليها فائدة مموهة (اذ ان اجل الوفاء يحدد في موعد ارتفاع الاسعار) ، وان عقود الطلب التي يسلم المتمول بموجبها مواشيه لاحد المربين بغية مقاسمته انتاج القطيع ، هما ايضاً من بوادر هذه الذهنية التجارية التي تسربت الى عالم الحقول .

وبلفت النظر ان أسياد الارض قد أفادوا احياناً اكثر من الفلاحين من هذا التوسع التدريجي في آفاق الاستثمار الزراعي ومن هذا الارتفاع في نسبة النقد المتداول ، وذلك بمضاعفة الجهود في الأعمال الزراعية وبفرض المزيد من الموجبات . فكانت هذه اولاً حال البورجوازيين الذين وظفوا اموالهم في السيادات العقارية بغية استثمارها كما تستثمر في الاعمال التجارية ؛ فقد طبقوا بشدة الصيغ الجديدة للاستئجار المؤقت ؛ وحدث بسرعة في ضواحي المدن التوسكانية ان ثقلت وطأة شروط المزارعة في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر لمصلحة سكان المدن . وفي الوقت نفسه ، تمـــيز تقدم المقايضات ، في الارياف الانكليزية ، بتعزز وضع السيد وبنمو

الاستثمار المباشر: فقد توسع باستمرار، وعلى حساب اراضي المزارعة ، احتياطي الارض السيدية التي اطرد تحسن استثمارها بفعل اتقان طريقة استراحة الاراضي سنة كل ثلاث سنوات وبزراعة القرنيات في الاراضي البائرة ايضاً؛ وقد ضوعفت في الوقت نفسه الخدمات المفروضة على المزارعين.

الا ان صغار المستثمرين كانوا ، احياناً اخرى ، المستفيدين الاول من الاتجاه الاقتصادي الجديد . فان نبلاء فرنسا بنوع خاص ، الذين اعتبروا الاهتمام للكسب متعارضاً وشرفهم واحتقروا كل نشاط تجاري ، قد استفادوا من انتشار الاقتصاد النقدي كي يتحرروا من استثمار أراضيهم استثماراً مباشراً . ودون ان يصبحوا يوماً اصحاب دخول من اراضيهم ، انقصوا مساحة احتياطيهم وأجّروا منه قطعاً كبرى رؤساءَ الأعمال القدماء في منزلهم ، وآثروا استيفاء الأتاوات قطعاً نقدية ، فاستبدلوا بالنقد الضرائب العينية القديمة ، وذلك بالاتفاق مع المزارعين الذين لمسوا الفائدة من تصريف فائض حصائدهم بأنفسهم في الأسواق المختلفة . وهكذا فان تصريف محاصيل الارض تجارياً قد تحقق ، في معظمه ، بفضل الفلاحين أنفسهم ولمصلحتهم ، ناهيك عن ان وضعهم في السيادة العقارية قد تحسن تحسناً مستمراً. فان انقاص الاحتياطي قد أدى بالسيد الى التخلي عن معظم اعمال التسخير التي ما زال يفرضها لقاء تعويضات مالية؛ ولم يطالب مزارعيه قط ، بعد ذلك ، الا بالدراهم ؛ ولكن الارتفاع المستمر في الاسعار قد خفض قيمة هذه القطع ، فخفض من ثم اعباء الفلاحين : فقد غدا كراء معظم الاراضي ، في اواخر القرن الثالث عشر زهيداً جداً نسبياً . واضطر أسياد كثيرون اخيراً ، للتعويض الى حين عن الهبوط التدريجي في قيمه مداخيلهم وللتخلص من ضائقة عابرة، الى ان يبيعوا من اتباعهم بعض الحقوق التي كانوا يمارسونها حيالهم : فحصلت الجمعيات القروية، المتزايدة باطراد، بموجب اتفاقية اعفاء، على الغاء أكثر الموجبات ازعاجاً .

التبدلات الاجتماعية

حوّر التطور الاقتصادي من ثم العلائق بين فئات المجتمع المختلفة التي كانت قد تحددت في مرحلة الانكماش على الارض. كانت هذه التبدلات الاجتماعية معقدة في الواقع، وكانت أجلى نتائجها ايجاد المزيد من الفوارق بين الطبقات وتبعيد المسافات – كما درج التعبير في ايطاليا آنذاك – بين الجسام والهزلى . وآلت على العموم ، كذلك ، الى ازالة التوازن بين الطبقات القانونية : فقد تحسن وضع العديد من غير النبلاء بينما ظهرت بوادر الانحطاط في طبقة الاشراف .

اما داخل طبقة الفلاحين ، حيث كانت الاوضاع الاجتماعية ، في اوائل القرن الثالث عشر، آخذة في التناسق والتشابه ، فقد ادخل انتشار الاقتصاد النقدي مزيداً من الفوارق . واجه بعض الريفيين حركة المقايضات المتزايدة على حين غرة ولم يُهيأوا للسعي وراء المكسب وأرغموا على مضاعفة الانفاق ، فتأخروا مادياً واضطروا ، لسد عجزهم ، الى الاستقراض ، ورهن قسم من ارضهم ، وبيع بعض دخول ملكهم ، وتحويل ملكهم الخاص احياناً ، لقاء مساعدة ما ،

الى ارض تابعة لاقطاعة ، والقبول ، في سبيل تأمين المعيشة ، بأوضاع متزايــدة الشدة . وما لبثت هذه الطبقة المنحطة المعرضة للاستثمار من قبل الاغنياء ، ان رأت بأم العين اقرار تدنيها، حين أقدم رجال القانون المحترفون ، خـــلال القرن الثالث عشر ، وبتأثير من معرفتهم للحق الروماني ، على تطبيق مفردات العبودية الواردة في هذا الحق على أفرادها ، باعثين حيالهم رقاً جديداً يختلف بعض الاختلاف عن الرق القديم ويتميز بأعباء نوعية وبالخضوع لتعسف السيد . كان هؤلاء الارقاء الفدّادون قليلي العدد في فرنسا ، ولكنهم ألفوا في انكلترا ، بفعل اشتداد النظام الاقطاعي ، سواد سكان الارياف . وانما يبدو بصورة عامة ، باستثناء الارياف الانكليزية وضواحي بعض المدن الايطاليــة الكبرى ، ان وضع جمهور الفلاحين قد تحسن تحسناً مادياً محسوساً ، وعرف في النصف الثــاني من القرن الثالث عشر ، على الرغم من زيادة الحقوق السيدية الاميرية وتكاثر ضرائب الاقتطاع والمساعدات النقدية التي غالباً ما فتحت الثغرات في ادخار الارقاء، فترة يسار استثنائية تمادت ذكراها لدى الجماهير وأسهمت في فرنسا، كما نرجح، في اعلاء نفوذ القديس لويس واطالة التحدث بملكه . وحدث اخيراً ان ارتقت نخبة ضئيلة من الريفيين سلّم الثروات . والدليل على هذا الارتقاء ، الذي اعتبره الفرسان مشيناً ، ان موضوع الفلاح الحديث النعمة ، الهزأة والغير الجدير بالثروة ، قد انتشر فجأة في ادب اوائل القرن الثالث عشر . فنادرة هي الحقيقة هي القرى التي لم يتوصل احد فلاحيها، بفضل مهارته في بيع انتاج عمله، الى ادخار رأس مال صغير وتحصيل بعض الدخول من اراضي جيرانه وابتياع بعض الاراضي من الفرسان المفتقرين ، وبالتالي الى تكوين سيادة صغرى ، وفرض سيطرة اقتصاديـة راجحة على القرية ، والعيش عيشة النبلاء دون عمل ؛ وتزوج العديد من هؤلاء الحديثي النعمة من بنات الاشراف الريفيين وتوفق البعض منهم ، بعد السنة ١٢٥٠ ، الى الفوز بلقب أشراف .

جلي" ان الارتقاء الاقتصادي كان أكثر تقدماً الى حد بعيد في المدن حيث يمكن كسب المال واستثماره بمزيد من السهولة . ولكنه لم يكن شاملاً هنا ايضاً ، وأدى التطور الى اخضاع شطر من سكان المدن للشطر الآخر . ولدينا الكثير من الامثلة ، في الاوساط التي مرّت بها الطرقات التجارية الرئيسية في منتصف القرن الثاني عشر، عن تجار جمعوا ثروات طائلة. وأخذ الكثيرون منهم منذ ذلك الوقت اموالهم المنقولة الى ممتلكات غير منقولة : فأعادوا بناء مسكنهم بالحجر واسترهنوا العقارات واشتروا الاعشار والدخول والسيادات في ضواحي المدن . فاستقرت من ثمّ الثروات وتكونت شيئاً فشيئاً في كافة المدن طبقة محدودة مسيطرة استمر افرادها في جمع الثروات عن طريق مزاولة الاعمال ، متسلحين ضد تقلبات التجارة بثروتهم العقارية . ولما كانوا يتعاطون المقادة والصيرفة ، فقد احتفظوا لانفسهم ، بفضل اموالهم النقدية ، باوفر النشاطات كسبا وبتجارة المسافات الطويلة والاتجار بالنقد . وقد سيطرت شركاتهم المهنية سيطرة كلية على « حرف » الصناعيين والسماسرة الصغيرة ؛ ولما كانت هـــذه التجمعات تؤلف هيكل مجتمع المدن وتقوم ، كما هو طبيعي ، بادارة الشؤون العامة ، فقد راقب اوسع البورجوازيين ثروة ،

بواسطة اقوى الشركات المهنية ، ادارة الشؤون البلدية ، وجمعوا مراكز القضاء الرئيسية في المدن الداخلية في نطاق تكتلهم . وهكذا فقد فرضت طبقة كبار تجار الجوخ الاشراف في مـدن فلاندر الصناعية ، لمصلحتها ، الانظمة على المهن الدنيا ، التي يزاولها عمال الصوف ؛ وهكذا ايضاً ادبرت شؤون التكتل في فلورنسا من قبل الفنون « الكبرى » الاثني عشر ، وقد احتل المركز الاول بينها كبار رجال الاعمال، «تجار كاليمالا» . فتوصلت فئة البورجوازيين الاثرياء، بقبضها على زمام المؤسسات المدنية ، الذي اتاح لها ان تنظم حياة المدينة الاقتصادية خير تنظيم لمصلحتها وتدير اموالها العامة ، الى ارساخ تفوقها ارساخا نهائيا ، فاتسعت الهوة التي تفصلها عن الطبقات المتوسطة . ومالت طبقة الاشراف طبعا الى ايصاد ابوابها في وجه حديثي النعمة ، وهذه ذهنية طبقية يعبر عنها اقفال المجلس البندقي الكبير في السنة ١٢٩٦ مثلا . وقد فاز بعض اعضائها بالنبل عن طريق الفروسية : ففي فلورنسا اختلطت الارستوقراطيـة المنحدرة من اصل غير نبيل ، خلال القرن الثالث عشر ، بانسال عائلات الفرسان العريقة ؛ ولم يكن ارتقاء النخبة البورجوازية هذا الى مرتبة الاشراف وقفاً على المدن الكبرى دون غيرها . ولكن اولئك الذين لم يتسلموا اسلحة الفرسان ، وامتلكوا مع ذلك الاراضي الواسعة والقصور ومارسوا حق التصرف وجمعوا بالاضافة الى ذلك كميات ضخمة من الذهب والفضة ، قد احتلوا في مجتمع اواخر القرن الثالث عشر مركزا ارفع مرتبة من مركز معظم الفرسان .

اذا ما استثنينا انكلترا حيث عرف الاسياد كيف يستثمرون اقطاعاتهم بحذاقة ، واراضي الاستعمار الزراعي في المانيا الشرقيـة حيث تألفت طبقة قوية هي طبقة الاشراف القرويين ، وايطاليا وبعض مدن فرنسا الجنوبية حيث اقام الاشراف برضاهم في المدينة واسهموا في النشاط التجاري ، رأينا ان التطور الاقتصادي قـد الحق الضرر بالاشراف العريقين . فقد تعددت مناسبات الانفاق امام الفارس ، الذي لا يأتي عملا ، والذي يعتبر التبذير فضيلة كبرى . ولم يعد في القرن الثالث عشر ليرتضي بمعيشة اجداده الريفية القانعة ؛ بل ثابر على التردد على الجمعيات والبلاطات ، ولم يكن جائزاً له ، من باب اللياقة ، الدخول اليها اذا لم يرتد ملابس « شريفة » الالوان يبتاعها من التجار ؛ وما زالت العـدة العسكرية تتعقد يوماً بعد يوم ، واذا هي أمست أكثر فعالية ، فقد أمست أكثر غلاء ايضاً . وتكامل كذلك فن التحصين ومهاجمة الحصون ؛ فتوجب تحويل البرج الخشبي والترابي القديم الى جهاز مركّب من الاسوار الحجرية ؛ وغالباً ما اضطر حكام الحصون آنذاك الى تجنيد المتطوعين المحترفين المأجورين – انتشر الارتزاق العسكري في الغرب في الثلث الاخير من القرن الثاني عشر ، وبعـد مرور مئة سنة غدت الجيوش كلها مأجورة – كما اخذ صغار الاشراف ايضاً يحفرون الخنادق حول مزارعهم ويشيدون بجانبهـا الحصون ويحولونها الى بيت محصّن . وجليّ ان كل ذلك تطلب مالا وفيراً ، لا سيما وان الأسعار كلها كانت آخذة بالارتفاع . وانتشر استعمال الدراهم من جهة ثانية في كل مكان ؛ وكفوا عـن اعطاء البنات نصيبهن من الارث العقاري مبدلينه ببائنة نقدية ؛ وأخذوا يهبون الكنائس قليلا

من الارض ومزيداً من النقد ؛ وطلبوا في وصياتهم احياء الاعيـــاد السنوية واقامة القداديس وتشييد الكنائس بفرضهم على املاكهم دخولاً نقدية دائمة تضخمت قيمتها جيلاً بعد جيل ورتبت أعباء ثقيلة على الورثة . اجل لقد ساعد امتلاك الاعشار والاستمرار في استثمار احتياطي ضيق استثماراً مباشراً على ايدي الخدام المنزليين على تأمين معيشة العائلة وتلافي النفقات الغذائيـــة ؛ ولكن الفارس يفتقر الى المال لكافة الحاجات الاخرى . فعلى الرغم من ان استبدال الأتاوات وأعمال التسخير بضرائب نقـــدية واتساع الحقوق الاميرية السيدية — فجميع الأشراف طالبوا أتباعهم آنذاك بالمساعدة المالية ، وأخضع الفدّادون الجدد في فرنسا للاقتطاع التعسفي — قد زادا موارد الاشراف النقدية ، فان هذه الموارد باتت غير كافية واختل باستمرار ، في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ، ميزان حسابات الفرسان . فالجيء الاشراف ، للمحافظـــة على مستوى معيشتهم ، الى الاستدانة ـ لا من انسبائهم واصدقائهم ، كما فعلت الاجيال السالفة ، وكلهم يتخبطون في الضائقة نفسها ـ بل من المؤسسات الدينية المزدهرة ، ومن البورجوازيين و « لومباردي » المدن والامراء . ثم اخذوا ، بعد استنزاف المال المستدان ، يبيعون اراضيهم قطعة قطعة : فكان هناك بيع الخضوع (لقاء مال مسلف او تسديداً لدين) وبيع الحقوق او الاراضي النبيلة التي كثيرا ما اشتراها فلاحون اثرياء او متمولون بورجوازيون يبحثون عن توظيف مضمون لاموالهم .

كان من شأن هذا الاضطراب الاقتصادي وهذا الافتقار التدريجي ـ الذي اعتبره الفرسان ضيقا عابراً لن يلبثوا ان يتغلبوا عليه ـ وهذا الهبوط الذي يسترعي الانتباه اليه ارتقاء بعض الطبقات من غير النبلاء ، ايجاد ردة فعل دفاعية في اوساط الاشراف . فتخلوا تدريجيا ، بغية حماية الاملاك العقارية ، عن العادة القديمة القاضيـــة باجراء قسمة متساوية بين ورثة من درجة واحدة ، ودرج العرف على ابقاء النصيب الاكبر للبكر ، او ادخال كافة اخوته الحياة الرهبانية . وتمسك الاشراف في الوقت نفسه بعد ان فقدوا تفوقهم عملياً ، بامتيازاتهم الشرفية وبالشارات الخارجية لتميزهم الطبيعي . واحتفظت لهم انظمة السلم الالمانية ، في اواخر القرن الثاني عشر وخلال القرن الثالث عشر ، ببعض الملبوسات وببعض الالوان المعينة ، وحظرت حمل الاسلحة على غير الاشراف ؛ وقد حاولت المجموعات الفرنسية ، التي تبحث في الاعراف ، اظهار استخدام المؤسسات الاقطاعية وكأنه وقف على الاشراف ، واعارت اعتبار النبلاء اهمية اعظم ـ على الاقل ـ من اعتبار العامة . اما نتيجة تفاقم الروح الطبقية هـــذه ، فهي ان الفرنسيين نظروا الى النبل في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر ، وكأنه صفة مميزة من صفات الرسالة العسكرية ، اي الفروسية ، ومن ثم الثروة ، تنتقل بالوراثة طبعا : فبرزت نعوت جديدة (« الفارس » في الشمال و « الشريف الشاب » في الجنوب) تظهر تفوق انسال الفرسان اجتماعيا الذين لم يتوفقوا الى حمل الاسلحة على الرغم من بلوغهم السن القانونية لذلك . اجل ان اثبات الطابع الوراثي للنبل قد حصره ضمن حدود معينة ، ولكنه لم يمنع الاثرياء الجدد من اجتيازها :

قلة اجتازتها بالكذب بعد ان عاش افرادها حياة الاشراف مدة طويلة كافية لانساء اصلهم ، وكثرة بالحصول من الامير على تعديل القانون لمصلحة افرادهـا والاجازة لهم بالانخراط في صفوف الفرسان المسلحين .

ان هذه التبدلات الاجتماعية كلها : اثراء النخبة من غير الاشراف الذين كانوا بحاجـة الى عضد السلطة لتثبيت ارتقائهم ، ولا سيا افتقار النبلاء الذي عرضهم لكل اذى وارغمهم عـلى بيع حقوقهم وخدماتهم من العظماء ، اتاحت لبعض الامراء ، الذين عرفوا ، بفضـل مركزهم المؤاتي، بالنسبة للتيارات النقدية كيف يستغلونها لمصلحتهم ، توسيع بسط سيطرتهم . وكانت هذه ، احياناً، حال بعض اصحاب القصور الذين تحكمت حصونهم بالطرقات الكبرى او بسوق تجارية أو بمدينة مزدهرة ، والذين جنوا مكاسب هامة من الضرائب التي فرضوهـا على مرور البضاعة وبيعها،واستطاعوا ارساء دعائم امارتهم الصغيرة. ولكن الحركة امنت الربح الوفير، في الدرجة الاولى ، للملوك ولورثة المناصب الكبرى في القرون الوسطى الأولى الذين مارسوا سلطتهم الجبائية على مناطق فسيحة وتمتعوا من جهة ثانية بوجاهة كافية ، واعتمدوا وسائل عمل ذات فعالية كافية أيضاً للحصول من المتمولين على قروض بشروط حسنة جداً .

٢ - رسوخ أركان الملكيات

يتضح من ثم ان انتشار الاقتصاد النقدي، يضاف اليه اطراد سهولة العلائق بين البشر وبروز الأفكار الجديدة التي بثها التعمق في دراسة الحق الروماني ، كان احد الاسباب الرئيسية للتبدل الذي نشاهده، بين منتصف القرن الثاني عشر واوائل القرن الرابع عشر، في نظام الغرب السياسي: فقد حلّت محل تلك الكتلة الواحدة الكبرى ، التي لم تتميز عن المسيحية اللاتينية ، والتي تألفت من خلايا صغيرة مستقلة كثيرة العدد ، هي السيادات ، ملكيات كبرى متمـيزة ، هي الصور الاولى لدول اوروبا المعاصرة . بيد ان هذا التبدل قـد ارتدى ، بحسب المناطق ، مظاهر على بعض التباين .

الملكية الفرنسية

ليس من ريب في ان تجمع السلطات قد تم بمزيد من الاعتدال والاستمرار في مملكة فرنسا على الرغم من انها قاست أكثر من غيرها من الانحلال الاقطاعي . فقد كان فيها للملكية مركز مرموق منذ منتصف القرن الثاني عشر. وحدث خلال ستة اجيال متعاقبة ان الملوك لم يرزقوا سوى ابن واحد ، فساعدت هذه المصادفة ، في الدرجة الاولى ، على ارساء مبدأ الوراثة في الملك تدريجياً ؛ وبفضل هذه المصادفة ايضاً ارتبطت الثروة العقارية العائدة للسلالة الكابيتية ارتباطاً يمتنع الانفصال بالتاج ، فأعطته مرتكزاً سيدياً ثابتاً ، على ما يتسم به من تواضع . فمنذ السنة ١٠٨٠ تقريباً ، توصل الملوك ، الذين أحاطوا هذه الاملاك بكل عنايتهم ، الى تخليتها سليمة ، وموسعة احياناً ، الى وريثهم ، وسعوا من جهة ثانيـة ،

داخل حدودها ، الى اخضاع الأسياد العلمانيين لسلطتهم . وحوالي السنة ١١٦٠ ، حين أخذت القوى الاقتصادية المتفاعلة تشجع ، في كافة أنحاء فرنسا، قيام سيادات اقليمية ليست دون املاك الكابيتين اتساعاً ووحدة ، صمم هؤلاء على تخطي حدود الـ «ايل دي فرانس» . فأخذت السلطة الملكية منذ ذاك الحين ، وطوال قرن ونيف ، تتمكن وتتقوى ، ولكنها لم تتغير في جوهرها ولم تفقد الطابع الخاص الذي طبعت به في ظل النظام الاقطاعي .

كان ملك فرنسا، شأن أي صاحب قصر آخر ، سيداً عقارياً وسيداً حاكماً مطلق التصرف. وقد ألفت هذه الامتيازات الخاصة المعقدة ، التي يستحيل حصرها في اطار واضح الحدود ، ما اطلق عليه بالضبط اسم « التراث » . فاستفاد لويس السابع وفيليب اوغست ولويس الثامن والقديس لويس من كل سانحة لتوسيع هذه السيادة : الفتح العسكري ، او الصفقات الحقيرة ، او التطاولات التي أضفى عليها العرف ، شيئاً فشيئاً ، صبغة قانونية ، او سياسة المصاهرات ، او حماية المؤسسات الدينية مقابل الاشتراك مناصفة في ممتلكاتها ؛ وحققوا هذا التوسع احياناً بضم مساحات كبرى الى تراثهم (كضم دوقيــة نورمنديا في السنة ١٢٠٤ ، وقد كانت أهم من الامارة الكابيتية الاولى) او بمكاسب صغيرة متعاقبة كثيرة ليست دون الضم فعالية ،وان حصلت في الخفاء او بتقدم تدريجي بطيء . وقد سعى الملوك في الحقيقة ، من وراء هذه المكاسب ، الى تجميع الكفاف من الاراضي لتأمين المال اللازم لانعاماتهم والاقطاعات لأبنائهم غير الابكار ، فلم يهتموا لاقتناء سيادة شخصية واسعة الاطراف اهتمامهم لمستقبل أنسالهم ولضمان اخلاص اصحاب الأنعامات ؛ وقد اعترفوا في قرارة أنفسهم بأن املاك الملــك ، المعدة لتأمين معيشة البلاط والحاطة بامارات تابعة ، لا يجب ان تسير في توسع لا نهاية له . ومع ذلك فان التراث الملكي ، بفضل المصادفات السلالية ومبادهات العملاء الملكيين الجادة ، قد شمل ، طوال السنة ١٢٧٥ ، القسم الاكبر من المملكة ، فغدا الناس لا يميزون بين املاك الملـك والسيادات العلمانية الصغيرة الداخلة فيها وممتلكات الكنائس الملكية ، ويعاملونها المعاملة نفسها . ولم ينج من التوسع الكابيتي آنذاك سوى أربع امارات قامت عند حدود المملكة وتوطدت دعائمها بعد تطور داخلي شبيه بذاك الذي أتاح توسع سيادة الملك وألفت كيانات ذات طابع خاص تميزت عن فرنسا الملكية بلغتها احياناً وبأعرافها وذهنيتها ابداً : فلاندر ، غويان ، بورغونيا ، بريتانيا .

وكان ملك فرنسا من جهة ثانية ، شأن أي صاحب قصر آخر ، سيداً اقطاعياً ، وقد أعطاه مجموع الاراضي الخاضعة له حق الاستفادة من خدمات شخصية يؤديهـــا له بعض اصحاب الاقطاعات . فسعى الكابيتيون كذلــك وراء استغلال هذا الوضع ، واستخدام التفاني الذي يفرضه الاقطاع — والذي اعتبر في ولايـــة القديس لويس نفسها خير وسيلة مضمونة لاستمالة الاشراف — وتنظيم العلائق الاقطاعية داخل المملكة بحيث يتألف منها شبه هرم يكون التاج رأسه الوحيد ، على ان يشمل كل الاراضي النبيلة التي لم تدخل بعد في الاراضي الملكية . ولعـل هذا الهدف تراءى لهم بمزيد من الوضوح بعد ضم نورمنديا التي ارتدت الانظمة الاقطاعية فيهـا

طابعاً خاصاً من التنظيم والوحدة . اجل ، لم يتوفقوا قط الى تحقيق هدفهم تحقيقاً كاملاً . ولكن فرنسا ، حيث كانت معظم اراضي الفرسان أملاكاً خاصة بحتة ، وحيث الف الاتباع جماعات محلية صغيرة غير وثيقة الارتباط ، قد سارعت ، بفعل عملهم وعمل اسياد الامارات الاقليمية الموازي له ، الى اتباع النظام الاقطاعي، فخضعت الطبقة العليا كلها لنظام من العلائق الشخصية والعقارية بات متلاحماً ومتجهاً بكليته نحو شخص الملك . فأقرّ في الدرجة الاولى المبدأ القائل بأن الملك لا يقدم خضوعه لأحد ؛ ثم حصل الملك تدريجياً ، اما عنوة ، بعد حملة تأديبية ضد سيد سجس ألحق الضرر بكنيسة يحميها الملك ، واما بشراء امتيازات احد الاشراف المدنيين في هذا القصر من قصوره او تلك الارض من اراضيه ، على خضوع كافة الاشخاص البارزين في المملكة الذين لم يخضعوا له بعد. وقد سعى بصورة خاصة الى ان يدخل في تراثه الحصون وأعظم الحقوق مرتبة وأوفرها كسباً ، ودعا مرؤوسيه المباشرين من رجال الاقطاع الى ان يستميلوا اليهم بهذه الطريقة اشراف الجوار من المرتبة الثانية. وحرص الملك وعملاؤه اخيراً على الاستفادة من تفوق السيادة ؛ ولما كانت هذه الاقطاعات جديرة بأن « تخدم » ، فقد غدت الموجبات الاقطاعية آنذاك موضوعية وملزمة مع انها لم تزل ، في معظم المقاطعات، مستبهمة ومتقلبة : خدمة السلاح وخدمة البلاط ، والمساعدة المالية ايضاً ، وقد اوضحها العرف في بعض الظروف ،ايضاحاً تاماً ؛ وحق الاقطاع المجدد ، كلما حمل اللقب شخص جديد ؛ وخصوصاً قدرة مساعدي الملك على التدخل في السيادات المستقلة ، واستخدام الحصون « المنتجة » ، والنظر في دعاوى الدرجة الثانية والتلاعب بروح العرف الاقطاعي لاكتداد صاحب الاقطاعة . فأثبت النظام الاقطاعي ، يطبقه امير يقوي مركزه استمرار توسع املاكه ، بينما اضعفت الصعوبات المالية العدد الاكبر من الاشراف ، انه اداة ذات فعالية نادرة . وقد استخدمه فيليب اوغست حتى ينتزع من « جان سان تير » تابعه خير ممتلكاته في فرنسا ؛ وحين ضحى القديس لويس بشطر من فتوحاته الحديثة ، بغية حمل هنري الثالث ملك انكلترا على الاعتراف به سيداً عليه بالنظر لممتلكاته في اليابسة ، كان مقتنعاً بأنه انما يقوم بصفقة رابحة ؛ وان في المصير الذي انتهت اليه دوقية غويان في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، التي انكمشت رقعتها باستمرار بفعل مصادرات متعاقبة تليها ردود ناقصة ، انه كان مصيباً في اعتقاده .

أفضى توسع سلطة ملك فرنسا الخاصة ، السيدية والاقطاعية ، الى توسع اجهزة الادارة . كانت هذه الاخيرة ، في القرن الثاني عشر ، بدائية جداً : فالملك ، شأن أي صاحب قصر آخر، يلجأ، لمساعدته على ادارة ثروته العقارية واعمال حكمه، الى اهل بيته او « نزله » ، أي انسبائه وخدامه وبطانته ؛ وان هذا الجمهور الصغير ، الذي انضم اليه ، بين حين وآخر ، اصحاب الاقطاعات الآتون لتأدية واجب المشورة، هو ما الف « بلاط » الملك . واستخدم الملك اخيراً، بغية المحافظة على مركزه في السيادات التي تؤلف تراثه وممارسة حقوقه فيها وجمع دخوله منها ، مأمورين من اصل وضيع ، هم الممثلون ، الذين يلتزمون وظيفتهم التزاماً بغية تبسيط عملية جمع

المال . وعندما توسع التراث في اوائل القرن الثالث عشر ، بات لزاماً على الملك تعيين ممثلين اضافيين أكثر امانة وارفع نسباً ، هم القضاة الذين اختار العدد الاكبر منهم بين صغار فرسان حاشيته . وتميزت في الوقت نفسه اجهزة الادارة المركزية . فبينما تنظمت شتى ادارات «نزل» الملك ، شيئاً فشيئاً ، وفي تواريخ يصعب تحديدها لأن قيامها كان تلقائياً دون ان تقره قوانين نظامية قبل القرن الرابع عشر ، تفرعت عن البلاط ادارات ذات اختصاص ما لبثت ، تدريجياً ، ان أصبحت مستقلة ودائمة : ادارة أسندت اليها شؤون القضاء وعرفت بـ « محكمة البرلمان » ، وأخرى انيطت بها رقابة الأموال الملكية ، وعرفت بـ « غرفة الحسابات » . غير ان الموظفين ، الذين دخلوا في خدمة الكابيتيين ، قد حفظوا من اصلهم الوضيع الخاص ميزتين أساسيتين . فهناك اولاً وحدة ذهنيتهم وثقافتهم : فلم يقم قط أي تميز او تعارض بين «النزل» ، منبت الخدام ، والبلاط ، وبين حاشية الملك واجهزة الحكومة . وهنالك خصوصاً الانقياد : فبعد هجوع مصالح البلاط الكبرى منذ اوائل القرن الثالث عشر ، بات كل رجال الملك وضيعي الاصل واستمدوا قوتهم من قوة الملك وحدها وبرهنوا عن انصياع تام وعن تفان كلي في الدفاع عن الامتيازات الكابيتية . وهكذا فان سيطرة ملك فرنسا تعززت تعززاً عظيماً حوالي السنة ١٢٧٥ بفعل حركة يعود الفضل الاكبر في بعثها الى هؤلاء المساعدين . اجل ربما تعاظمت هذه السلطة بفضل المركز الفكري الذي احتلته باريس ، مدينة المدارس ، وقد غدت عاصمة الكابيتيين الحقيقية الدائمة ، ولكنها تعززت من جهة اخرى بالاشعاع الروحي القوي المنبثق عن الملك السابق ، القديس لويس ، الذي اهتم اكثر من اسلافه بالعدل ، اي بالفضيلة الملكية بالذات ، والذي كان اول ملك في سلالته وضع انظمة تشمل المملكة كلها في المجال الاخلاقي الصرف . وعلى الرغم من ذلك فما زالت سيطرة سيد اقطاعي توسعت سلطته الخاصة حتى شملت معظم انحاء المملكة .

الا ان السلطة الملكية ، التي ما زالت تتوطد باستمرار ، اخذت في الربع الاول من القرن الثالث عشر ، تتطور في جوهرها ، وذلك بفعل تأثير مزدوج . هناك اولا تأثير فكرة السلطة العامة التي بعثت حية في اعقاب الدراسات التي تناولت الحق الروماني منذ اوائل القرن . فان هذا المفهوم الجديد للسيادة ، الوثيق الصلة بالاقتناع بأن السلطان ، المستخدم « للخير العام » ، لا يمكن ان يكون ملكاً خاصاً ، قد انتشر خصوصاً بفضل « قانونيي » القسم الجنوبي من الاملاك الملكية الذين تلقوا علومهم في مدارس «مونبلييه » . وهنالك كذلك تأثير اهل البطانة أنفسهم الذين ارتفع عددهم ارتفاعاً عظيماً بفضل تعقد الادارة المتزايد واطراد استخدام الكتابة : فقد نشأت طبقة جديدة آنذاك ، هي طبقة ممثلي السلطة واهل القانون والقلم . ولما كان هؤلاء قد عمموا مفهوم السلطة العامة ، مؤكدين ، بصيغ واضحة ، ان الملك وحده ، في حدود مملكته ، يتمتع بالسلطة الملكية ، بات لمجرد وجودهم اثره الهام ايضاً . فان هيئة الموظفين الحاكمين ، المؤمنة جماعياً على سلطة اعتبرت آنذاك مثالية ومغفلة ، والباعثة الحياة في آلة ادارية امست

قادرة على السير بمجرد حركتها ، اخذت في تلك الايام تتفوق على شخص الملك نفسه : ولعل «فيليب له بيل» هو اول ملك فرنسي تدنى تأثيره على تسيير الشؤون العامة . وبينما اخذ الاحتفال بتكريس الملك يفقد الكثير من اهميته اخذت السلطة الملكية ترتدي طابعاً اشد تجرداً وابهاماً

ان هذا المظهر الجديد للسلطة المطلقة ، المتفوقة على كل سلطة اخرى والمختلفة في جوهرها عن سلطة الاسياد ، ساعد التأثير الملكي على احراز تقدم جديد . فقد تهيأ الناس شيئاً فشيئاً للأقرار بان للملك ، الذي يعمل بعد اليوم للخير العام ، ويعبر عن ارادة المجموع بحسب المبادىء التي استقتها الفلسفة الكلامية من مؤلفات ارسطو السياسية ، ويدعو احياناً ممثلي الطبقات المهيمنة في المملكة كي يعرض عليهم الاسباب الموجبة لقراراته ـ ذاك كان الهدف من استشارات السنوات ١٣٠٢ و١٣٠٨ و١٣١٤ ـ الحق في ان يوجب على رعاياه ، خارج نطاق املاكه او نطاق العلائق الاقطاعية ، الخدمة العسكرية او ضرائب نقدية تقوم مقامها . غير ان التقدم ، بصدد هذه النقطة الاخيرة ، كان في الحقيقة بطيئاً : فان الرأي القائل بان للملك الحق في فرض الضرائب ، بالاضافة الى دخول سيادته العادية ، لم يكن غالباً قط في اوائل القرن الرابع عشر . ومرد ذلك الى ان الاجهزة المالية في الملكية ما زالت ابتدائية في عالم لعب المال فيه دوراً متعاظم الاهمية وفي الوقت الذي انتشر فيه دفع المرتبات في الجيش الملكي وأُحلّ الارتزاق المأجور محل الخدمات الاقطاعية .

انكلترا

في كثير من الامارات ، كفلاندر ، وبورغونيا ، والفويان في داخل مملكة فرنسا ، وبروفنسا او هينو عند حدودها ، تعززت السلطة بالطريقة وبالسرعة نفسها تقريباً ، اي بتوسع الاملاك وتعدد اجهزة الادارة وتوطيد السيادة بفضل القانونيين . ولكن التطور لم يتم دائماً في زمن واحد . فهو قد تأخر في مناطق اسبانيا المسيحية التي نجت من خطر العرب منذ اوائل القرن الثالث عشر وسارت في طريق التوحد حول تاجي قشتالة واراغون لأن السلطة الملكية فيها كبحتها ارستوقراطية «وستها معارك استعادة البلاد وحدّت منها قوة الامتيازات المحلية وخضعت لرقابة جمعيات الممثلين القانونية . ولكنه كان مبكراً وحثيثاً في مملكة صقلية حيث استطاع « فردريك الثاني دي هوهنستوفن » ، في الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، وفي بيئة تميزت بانقيادها وطواعيتها ، تنظيم سلطة ملكية واسعة الصلاحيات ترتكز الى ادارة تسلسلية مخلصة جداً ، وتسيطر على الكنيسة نفسها حيث تتصرف بموارد جبائية وافرة . واتجه التطور اخيراً ، في انكلترا والامبراطورية ، اتجاهاً آخر مختلفاً تماماً .

افضى الفتح في المملكة الانكليزية الصغيرة الى اقامة نظام تبعية اقطاعية ومشاركات زراعية على الطريقة النورمندية يخدم مصلحة الملك ولا يتساهل ، باستثناء الحدود العسكرية في الشمال والغرب ، بقيام امارات اقطاعية متراصة . بعد ان كبح الفاتح جماح الارستوقراطية الانكلو-نورمندية ، حاولت هذه الاخيرة الاستفادة من المنازعات السلالية التي عقبت موت هنري الاول (١١٣٥) ، بغية الحصول ، على غرار ارستوقراطيات اليابسة ، على استقلال حرمت منه :

فاستولت على شطر هام من الاملاك الملكية واستأثرت بالقصور وشيدت حصوناً جديدة واوجدت سلطات اقليمية اعظم تلاحما. ولكن هذه الحركة كانت سريعة الزوال. بيد ان اصلاح الملكية، الذي مهد له هنري الثاني بلانتاجنيه في السنة ١١٥٤، قد تم بمزيد من السهولة، لا سيما وقد ابقي على معظم انظمة العهد السكسوني الاساسية التي جمعت الشعب كله، بفعل جمعيات الكونتية والمئات المحلية، في ظل «قانون مشترك»، هو قانون الملك، يؤمن لهذا الاخير، في احوال الغزو، وبحسب الكيفيات التي نصت عليها اتفاقية الاسلحة في السنة ١١٨١، الخدمة العسكرية المفروضة على كافة الرجال الاحرار الذين ينضم اليهم، عند الحاجة، الاتباع الخاضعون لتجنيد الزامي ايضاً. لهذه الاسباب، وعلى الرغم من ان الملك المفتقر الى املاك واسعة والحريص ايضاً على الاستفادة من حق المأوى، لم يقم اقامة دائمة في عاصمة واحدة، اتيح للسلطة الملكية فيها ان تنطلق دون ان يعيقها عائق. والدليل على انطلاقها المبكر أن أجهزتها الرئيسية توطدت منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر: ممثلون محليون، مأمورو أحكام مدنية، يعملون بسلطة الملك، وقضاة يقومون بجولات دورية، واداة رقابة مالية، هي رقعة الشطرنج، ومحكمة قضائية مركزية ما لبثت ان تجزأت محكمتين، احداهما ثابتة (المحكمة المشتركة) والثانية متجولة ترافق الملك (محكمة الملك)، فاعطى كل ذلك المملكة هيكلا متيناً. وكان هنري الثاني وريكاردوس قلب الاسد اعظم ملوك عهدهما اطلاقاً، واستطاعا وحدهما منذ ذاك العهد الاعتماد على تفاني وغيرة موظفين محترمين، «كتبة الملك»؛ وكانا اوسع ملوك عهدهما ثروة ايضاً لانهما استثمرا، الى اقصى حدود الاستثمار، حقوقهما الاقطاعية ومكاسبهما القضائية. ولكن شدة هذه الاعباء نفسها، التي ناءت بثقلها على اسياد عقاريين عززت نزعتهم الاقتصادية مركزهم - بينما هي قد اذلت الاشراف في فرنسا - جعلت السلطة الملكية، على نقيض سلطة الكابيتيين، تميل الى الانكماش والحصر. وحدث مرتين خلال القرن الثالث عشر ان ارغم اوسع اتباع الملك ثروة، البارونات، تساندهم الكنيسة، على الحد من ادعاءاته؛ لا بل حدث مرة في السنة ١٢٦٤، انهم اخذوا على عاتقهم ادارة شؤون المملكة طيلة اشهر عدة. ووضعت وثائق خطية، كميثاق السنة ١٢١٥ الذي تأيد تكراراً، اظهرت بجلاء الحدود النظرية لتحكم ملكي استحالت ممارسته دون رضى علية الاشراف ومساعدتهم. اضف الى ذلك اخيراً ان القوة الجديدة التي استمدتها جمعيات الكونتيات من اثراء الفرسان، تلك الطبقة العسكرية التي بات افرادها اعياناً ميسورين وولاة محليين، جاءت بدورها تزيد الطين بلة في الحد من بطانة الملك وممثليه، باحتفاظها للمأمورين الذين تنتخبهم هذه الجمعيات، اي لجماعة من الفرسان المحلفين، بادارة العديد من الشؤون، ولا سيما المحافظة على النظام. بيد ان ما يجدر لفت النظر اليه هو ان تضامن البارونات والجماعات المحلية في ممارسة السلطة قد حققت، بين الامة والملك، وحدة لا مثيل لصفاوتها في اي مكان آخر. واذا كان الملك حاذقاً وشعبياً، توفرت له وسائل عمل قوية.

كانت هذه حال ادوارد الاول في الربع الاخير من القرن الثالث عشر. فقد كان اول ملك

انكليزي الاسم منذ الفتح ، ان لم يكن انكليزي النزعة ، وملكا ظافر توصل بفضل ضم بلاد الويلز وحملاته العسكرية في سكتلندا ، الى الحد من دور وتأثير عظام البارونات في اطراف المملكة ، فقام باستقصاءات واسعة للحفاظ على الحقوق الملكية أو استعادتها ، في اطار العلائق الاقطاعية ؛ واستفاد في الحكم من خدمات قصره المتميزة بالسرعة والمرونة ووسع بصورة خاصة اجهزة « الصوان » المالية . واستفاد كذلك من انطلاق التجارة ، فوجد موارد وافرة في استثمار الجمارك ولا سيما الرسوم المستوفاة على استيراد الخمور وتصدير الاصواف والجلود ، وعقد قروضاً ضخمة لدى رجال الأعمال المقيمين في لندن . فاستطاع بذلك ، الا في بعض فترات الشدّة ، تمويل سياسته دون أن يثقل بالاعباء مملكة تفتقر الى الثروات الكبرى . وغالباً ما أمر أخيراً ، رغبة منه في ابراز الجلالة الملكية بكل سناها ، باجتماع مجالس الممثلين ومجالس البارونات ، وجمعيات اصحاب الاخاذات المكلفة مساعدة الملك على توزيع العدل ، « والمجلس المشترك » الذي يقر الاعتمادات التي يطلبها الملك، وفرسان الكونتيات وبورجوازيي المدن الناشئة . وباستطاعتنا القول ، بعد كل اعتبار ، ان الملكية الانكليزية ، وان مرت في فترات عاكست مصالحها واضطرت الى تراجعات غير ذات نتيجة ، لم تكن في اوائل القرن الرابع عشر دون ملكية فرنسا متانة ورسوخاً .

مناطق الامبراطورية

اما السلطة الملكية فقد اذلت اذلالا تاماً في الامبراطورية آنذاك . ومع ذلك فان احياء الحق الروماني والعلائق الوثيقة ببيزنطية وشخصية فردريك بربروس نفسها قد عززت المفهوم الامبراطوري تعزيزاً قوياً . اجل لقد تلابست آنذاك الامبراطورية والملكية الالمانية بحيث كاد مسح الامبراطور من قبل البابا يعتبر بجرد اجراء طقسي واخذ امراء جرمانيا يعتقدون بانهم هم الذين ينتخبون الامبراطور فعلا ، وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتقليد الكارولنجي ، كما ابرز ذلك اعلان قداسة شارلمان في السنة ١١٦٥،واختارت « إيكس لا شابيل »والمناطق الرينانية مركزاً لنشاطها؛ولكن الامبراطورية، مع ذلك ، بدت وكأنها امتداد مباشر لامبراطورية الرومانيين التي مجد قانونيو بولونيا عظمتها الفريدة وطابعها المقدس . وفي الوقت نفسه الذي اعلن فيه الامبراطور اوغسطوس ، في ممالك جرمانيا وايطاليا وبروفنسا ، عن حقه في الامتيازات المطلقة ، كان يستخدم الانظمة الاقطاعية لتوسيع سلطته . وقد طالب اخيراً ، على غرار اسلافه ، بالسيادة على العالم ، اي بادارة كافة الدول المسيحية ، وبمراقبة البابوية على الطريقة الكارولنجية ، وبالسلطة الادبية على ملوك الغرب الآخرين المعتبرين تابعين للامبراطورية . وسعى هنري السادس ، في الواقع، الى بلوغ هذه السلطة بواسطة العلائق الاقطاعية ، فظفر بخضوع ملوك قبرص وانكلترا ، وحاول الظفر بخضوع فيليب اوغست .

غير ان هذا البناء الساحر ما عتم ان انهار لانه لم يقم على اسس متينة . فالملكية الالمانية التي كانت بمثابة ركيزة للامبراطورية قد افتقرت الى الاستقرار والعزيمة : ومرد ذلك الى انها

كانت ملكية غير وراثية تضعفها ، بمناسبة كل خلافة ، ألتنازلات التي يضطر الملك المنتخب الى القبول بها لمصلحة العظماء كي ينتخبوه ، وملكية دون املاك ، هائمة ، منتشرة في كل مكان وغير ثابتة الاركان في اي مكان . فكان متعذراً عليها والحالة هذه الاحتفاظ بنفوذها على المملكتين الاخريين. فالى الغرب من جبال جورا والالب، لم تكن السلطة الامبراطورية آنذاك سوى كلمة لادلالة لها ، وقد امسى تأثيرها السياسي دون التأثير الفرنسي بمراحل . وكان لزاماً لاحكام سيادتها على ايطاليا ، الجموحة ، الوافرة المدن ، اهمال الارياف الجرمانية ، وتخلى الاباطرة الالمان كذلك عن ادارة عملية التوسع نحو الشرق التي تمت بدونهم لمصلحة امراء الحدود. ثم اتجهت الامبراطورية تدريجياً شطر الجنوب: فقد رغب هنري السادس، سيد صقلية، في السيطرة على المتوسط، كما صمم ابنه فردريك الثاني على تشييد سلطته في روما. اضف الى ذلك ان مطالبات ملك المانيا ببسط سلطته على كافة الدول المسيحية اثارت معارضات ضارية قضت في ايطاليا وجرمانيا على ما تبقى له من سلطة حقيقية . فقامت معارضة الممالك الغربية حيث اخذت تنضج الفكرة القائلة بان الملوك ، وهم اباطرة في ممالكهم ، لا يمكن ان يرتضوا باية وصاية : وهكذا فان فردريك الثاني ، الذي سبق له وتخلى عن كل حق حماية مراعاة منه لشعور غيره قد فشل فشلاً ذريعاً عندما دعا ملوك الغرب لتأليف ما يشبه وحدة روحية تكون بمثابة حلف يقاوم الهرطقة وادعاءات الكنيسة الزمنية في آن واحد . وقامت معارضة اشد نضالية نهضت بها البابوية المتمسكة تمسكاً متزايداً بأولويتها الروحية .

زالت الامبراطورية اذن ، كنظام ، في منتصف القرن الثالث عشر ، حين عجزت عن التغلب على هذه العقبات الكثيرة ، ولم يعرف الديمومة ، كحلم وحدة وسلام ، سوى المثل الامبراطوري الذي أحياه تيار فكري مسيحي غذّته مؤلفات الكاهن الايطالي « يواكيم دي فلور »، وقوّته في الآونة الاخيرة أبحاث عقائدية وضعت بايعاز من فردريك الثاني أثناء صراعه مع البابا . وقضى هذا الانهيار على الوحدة التي ربطت ايطاليا بالمانيا وأحدث في المناطق التي كانت خاضعة خضوعاً مباشراً للامبراطور تقهقراً سياسياً عميقاً ، اذ انه ، على نقيض ما حدث في الممالك الاوروبية الغربية المتلاحمة ، أدى بها الى التجزئة والمنافسات . ففي المانيا عرفت السلطة الملكية الذلّ والهوان خلال فترة شغور العرش التي عقبت موت فردريك الثاني وتجاوزت عشرين سنة وتميزت بأعمال العنف والحروب الأهلية واستباحة السلب في املاك الملك وامتيازاته وتوطّد السلطات المحلية في ظل الفوضى الشاملة . فباتت هذه الدولة من ثم مجموعة امارات مستقلة استأثرت بكافة الامتيازات الملكية اما اغتصاباً واما بفضل الامتيازات الخاصة التي منحها فردريك الثاني والمطالبون بالعرش من بعده . وكانت هذه الامارات في الشرق متراصة وواسعة الرقعة بينما هي كانت في الغرب مشتتة ومتناثرة جداً ، لا سيما في وادي الرين ؛ وقد أفسحت مكاناً للمدن الحرة الداخلة في اتحادات تستهدف الدفاع السياسي ، كما أفسحت احياناً ، في جبال الالب ، مكاناً لطوائف مستقلة من الجبليين اخذت في سويسرا تؤلف الاتحادات .

وعرفت ايطاليا الامبراطورية تجزؤاً أعظم في السلطات التي توزعت على بعض الامارات الاقطاعية وراء الالب ، ولا سيا على المدن . ولكن التكتل البورجوازي ، الذي ما زال قوياً في توسكانا ، والذي اخذ – وهذه ظاهرة من ظواهر شمول انتصار المبدأ الملكي – يتوارى في لومبارديا امام قوة « مستبد » يتولى « السيادة » هو الذي عاد اليه السلطان وكافة الحقوق التي أحيتها دراسة التشريع الروماني ، وخضعت له الارياف المجاورة . ولكن خلافات دائمة قامت بين هذه المدن المتنافسة تجارياً، وحتى بين جماعات المدينة الواحدة احياناً حيث تباينت مصالح الاشراف والأثرياء وصغار الصناعيين فتجمعوا فئات متخاصمة متزاحمة . في هذه البيئة المضطربة بالذات، وبين المبعدين الذين تاقوا في منفاهم الى وطنهم السليب، استمر الامل الوطيد بالامبراطورية، أي امبراطورية رومانية حقاً متملصة من التأثير الجرماني .

وهناك اخيراً ادعاءات البابوية بادارة العالم السياسية ، وقد تعاظمت بفعل انهيار السلطة الامبراطورية نفسه . فقد رسخت عقيدة الأولوية البابوية في مقاومتها فرض الامبراطور سيطرته على العالم المسيحي وعلى الكنيسة ؛ وقد وجدت عضداً لها في الانظمة الاقطاعية وفي المفهوم الجديد للسلطان كما جاء في مجموعة القوانين *Corpus Juris* . وفي القرن الثالث عشر اعتمر البابا تاجاً ثانياً دلالة على تفوقه . ثم قام انوشنتيوس الثالث بمشروع يقابل مشروع الامبراطور هنري السادس، فبذل الجهد كي يؤلف حول الكرسي الرسولي شبكة واسعة من التبعيات الاقطاعية كان من شأنها ان تجمع وراء الكنيسة الرومانية كافة ملوك العالم المسيحي ؛ وقد امست أراغون ، وبلغاريا ، وسيادة سيمون دي مونفور في لنغدوك، ثم مملكة انكلترا ، اقطاعات تابعة للكنيسة وبرهنت عن خضوعها بدفع فريضة سنوية . وقر الرأي شيئاً فشيئاً على ان الامبراطور نفسه صاحب اقطاعة خاضع للبابا ؛ واستند البابا بونيفاسيوس الثامن ، في ابهة يوبيل السنة ١٣٠٠ ، الى اطروحات جيل الرومي وجاك الفيتربي التي بنيا فيها مذهباً متراصاً من آراء القانونيين حول السلطة البابوية ، فاحتفل بسلطة اسقف روما، المرشد الوحيد للشعب المسيحي زمنياً وروحياً.

الا ان هذه الادعاءات جاءت متأخرة في الواقع . فلم يكن باستطاعة البابا ، كما لم يكن باستطاعة الامبراطور، ان يفرض حمايته على الدول التي تقاسمت اوروبا آنذاك . وكان من شأن هذه التأكيدات إثارة عدد متزايد من اولئك الذين تأثروا بتحذير المؤلفين السابقين ، ابتداء من القديس برناردوس ، للحبر الاعظم ، من مغريات السلطة ، واعتبروا ، بفعل الدعاوة العنيفة التي يشنها المناضلون في خدمة فردريك الثاني ، ان البابا انما يتنكر لرسالته الحقيقية بسعيه وراء السيطرة الزمنية . فالعالم المسيحي الذي توحد في العهد الاقطاعي وفي الحملات الصليبية الاولى قد تجزأ في الواقع نهائياً . وقد احدث هذا التجزؤ نفسه ، وتعزز السلطات العلمانية من جهة ، والتطور الاقتصادي من جهة اخرى ، وتعاظم قوة المال وما انتهى اليه من تحوّل في الاخلاق، منذ منتصف القرن الثاني عشر ، قلقاً متزايداً داخل الكنيسة .

٣ ـ تعرض وحدة الكنيسة للاخطار

بيد ان السلطة الملكية قد تعززت باستمرار في الكنيسة ، كما تعززت في الممالك الغربية وامارات المانيا الشرقية والسيادات المدنية في ايطاليا الشمالية ، بفضل الصراع نفسه الذي جعلها تبدي تلك المقاومة الطويلة في وجه السلطات العلمانية بمناسبة التوليات اولا ، و « السيطرة على العالم » ثانياً . فقد جعل توسع الحق القانوني من اسقف روما ، الذي نظمت المقررات المجمعية انتخابه تدريجياً ، المشترع الاعظم في العالم المسيحي ؛ ومعصوماً عن الخطأ ، لان « حكم البابا وحكم الاله حكم واحد » ، كما اعلن ذلك في اوائل القرن الرابع عشر مؤلف وضع بحثاً حول الاولوية البابوية . وكما ان الاجهزة المركزية في الملكيات الزمنية قد تميزت وفُرّق بينها تدريجياً ، كذلك توزعت الشؤون الكنسية على لجان مختصة من الكرادلة الذين تعاظم شأنهم تعاظما مطرداً ، والذين استلموا في منتصف القرن الثالث عشر شارة مميزة هي القبعة الحمراء . وقد تزايدت هذه الشؤون في الواقع تزايداً مطرداً ايضاً : التدخلات المتعددة في تعيين الاساقفة ، والدعاوى القضائية المتكاثرة المقامة امام محكمة روما . وتوسعت اخيراً ، خلال القرن الثالث عشر ، الاجهزة المالية التابعة لهذه السلطة المتعاظمة : فبينما طولب بشدّة آنذاك باعفاء رجال الاكليروس من الموجبات الجبائيـــة الزمنية فرضت رسوم على الكنائس والمستفيدين من الارباح وفرت موارد نقدية شعرت البابوية ، على غرار السلطات العلمانية ، بالحاجه اليها . فساعدت هذه المركزية وهذا التقدم في الجهاز الاداري على غرار ما حدث في الدول الاخرى ، على تلاحم الكنيسة ووحدتها .

القوى المعادية

الا ان هذه المركزية اصطدمت بنزعات معاكسة قوية جداً حرّكت جمهور الشعب المسيحي نفسه . فبصرف النظر عن التطور السياسي العامل على خلق الحواجز والمهيب بالامراء وسكان المدن ، الغيارى على امتيازاتهم ، الى مقاومة الحصانات الكنسية ومقاضاة رجال الاكليروس واخضاعهم واستغلالهم اسوة بغيرهم من الرعايا – وان في موقف الملك حيال رجال الكنيسة ، منذ القرن الثاني عشر ، في انكلترا ، حيث بلغت السلطة الملكية مرحلة النضج قبل غيرها ، لمغزى عظيما في هذا المجال – قامت حوالى السنة ١١٥٠ ، بتأثير من تقدم الحضارة نفسه ، ثـــلاث حركات تناهض النظام الادبي والفكري والروحي الذي فرضته الكنيسة الرومانية بوسائل اعظم قوة .

فهنالك ، في الدرجة الاولى ، تزايد التهافت على ملذات العالم ، وهو نتيجة مباشرة لتحسن ظروف المعيشة ونموّ العلائق بين الناس . فان ميل الفرسان الى الاجتماعات العالمية ، الذي ظهر منذ اواخر القرن الحادي عشر في فرنسا الجنوبية وفي بروفنسا وتسرب تدريجياً الى كافة انحاء اوروبا خلال القرن الثاني عشر ، وارتقاء الامرأة في مجتمع الاشراف ، وانتشار تلك الآراء واللياقات التي اطلق عليها اسم « الأنس » ، واستهدفت المحبة قبل اي شيء آخر وخدمة السيدة المختارة ، خارج الظلمة

الزواج المسيحي ، واطراد التفخل في الملذات على انواعها ، كل ذلك صرف افراد الطبقة العليا تدريجياً عن المفاهيم والموجبات التي فرضتها الكنيسة وافضت رويداً رويداً الى نوع من التبدل في القيم الاخلاقية . فنشأت من ثم في هذه الاوساط محبة للعالم ظهرت اولا في القصائد الغنائية للفرسان الفرنسيين في اواخر القرن الثاني عشر وفي الاطراء البريء للبهجة الدنيوية وادّت اخيراً الى الخشية من الموت الذي لم يعد ينظر اليه كنهاية السفر وبداية الافراح الصافية ، بـل كانتزاع وحرمان ، ومما يؤيد هذه الخشية ، في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر ، التغيير الذي طرأ على المواضيع التصويرية . اضف الى ذلك ان الرغبة في الكسب ، في اوساط التجارة — وغالباً ما رافقها عند البورجوازيين انحطاط كبير في الاخلاق — والحرص على جني الارباح من البيع والاقراض ، لم يأتلفا تماماً مع ممارسة الهبة . وهكذا فقد افضى التقدم المادي ، عند رجال الاكليروس وعند العلمانيين على السواء ، الى التنكر الصريح للتعاليم المسيحية .

وهنالك، في الدرجة الثانية، تقدم العلوم العقلية النظرية. فان الاداة الجدلية التي استنبطت في النصف الاول من القرن الثاني عشر استخدمت بعد ذلك بحماس في عالم رجال الفكر وانتهت الى توجيه تفكيرهم توجيهاً كلياً . ولعل الحضارة الغربية لم تعرف حقبة أشد اهتماماً بالمنطق والبرهنة والنقاش والتبويب والتجريد من القرن الثالث عشر . وتفسر حمى هـذه الابحاث النظرية اهتمام المفكرين المسيحيين وشغفهم بمؤلفات ارسطو التي نقلت تباعاً من العربية الى اللاتينية في اسبانيـا وايطاليا منذ القرن الثاني عشر . وكان من شأن اعادة العلائق الثقافية ببيزنطية ، وهو حدث رئيسي في تاريخ ذاك العهد يسّره فتح القسطنطينية وتأسيس الامبراطورية اللاتينية في الشرق ، مع انه مدين في الدرجة الاولى لتقدم المواصلات بوجه عام ولتقلص المسافات — انمـا ادخلت مزيداً من الخلوص على مخالطة المذاهب الفلسفية السابقة للعهد الميلادي . ولقد اعطت المخطوطات اليونانية بنوع خاص دروساً اعظم صراحة عن مؤلفات الستاجيري (ارسطو) بعـد ان نزع عنها غشاء المفسرين المسلمين المشوه، ومبنى اعظم سحراً ايضاً. واخذ اساتذة المدارس الباريسية حوالي السنة ١٢٢٥ ، يحذون حذو غليوم دوفارنيه في تطبيق اساليب الفلسفة العقلية على بحث المسائل اللاهوتية ، وهو اتجاه حاسم لعمري اذ ان العقل ليس سوى حرية الانسان واقفة امام « المراجع » وجرثومة استقلال في وجه الاقتسارات الفكرية. وقد زاد من اقلاق هذا الموقف ان الاساتذة والطلاب ، وكلهم من الاكليروس، لم يجدوا بواسطته آنذاك منجاة من نظم الكنيسة القائمة . فمنذ اوائل القرن الثاني عشر اخذ رجال الفكر يقصدون بعض المراكز الكبرى حيث يجتمع خيرة الاساتذة وتتوفر افضل الكتب ؛ وهكـذا تكونت ندوات الباحثين الاولى ، في بولونيا لدراسة القانون الروماني، وفي باريس لتعليم الفنون العقلية والاستقصاء اللاهوتي. فراحت هذه المدارس ، المتميزة بمزيد من الحرية ، مدرسة الاكليروس المحلي ؛ ولم يعد باستطاعة الاسقف ورئيس ديوانه ، على الرغم من احتفاظهما بامتياز منح « اجازة التعليم » لاساتذة المعد ، مراقبة التعليم والفكر مراقبة فعالة .

وهنالك اخيراً نزعة اعم انتشاراً ورسوخاً في الطبقات الشعبية وعلى جانب كبير من القوة ، كما يبدو ، في عامة سكان المدن ، برزت اشد خطراً على الانظمة الكنسية ، مع انها كانت ، على نقيض النزعتين الاخريين ، عامل اثراء وتجديد للروحانية المسيحية . وقوامها تحـول عميق في الموقف الديني وممارسة التقوى يؤيده استمرار تلطيف المواضيع التصويرية الدينية وتفهمها وانتشار عبادة العذراء التي باتت آنذاك ، للعديد من النفوس ، محور الحياة الدينية ، والرواج الغريب الذي عرفته الروايات المزيفة المعطفة المنسوجة حول النصوص الانجيلية ، وازدهار المأساة الطقسية التي كانت نقطة الانطلاق للمسرح الديني باللغة العامية . وقد سعت هذه الحركة الصوفية الطابع وراء التأثيرات العاطفية القادرة على ادخال مزيد من الحرارة على مجموع الطقوس التي تفرضها الكنيسة ، ووراء كل ما من شأنه ان يؤثر مباشرة على الحواس ويتيح للبسطاء من الناس الاتحاد ، بدون مداورة فكرية ، باله عطوف ومعزّ ، فمالت من ثم طبعاً الى الحد من دور الكنيسة القائمة . والكنيسة القائمة هي بالضبط موضوع اللوم والتعيير بسبب تعلقها المفرط بالماديات ، اذ ان تطور العاطفة الدينية هذا كان في الواقع امتداداً مباشراً للجهود المبذولة منذ منتصف القرن الحادي عشر ، اي منذ حدوث النهضة الحاسمة في الاقتصاد النقدي ، بغية احياء الفقر الانجيلي ضد رغبة الرؤساء الروحيين .

استهدف هذا التوق الاتحاد العاطفي المباشر بالمسيح ، باحتقار وساطة الاكليروس الغاطس في الزمنيات والمشغول بالشؤون الادارية ، واصلاح اجهزة المجتمع الديني اصلاحاً جذرياً . وقد افضى ، في اشكاله القصوى ، الى قيام نخبة مختارة من « الصالحين » المنحدرين من المجتمع العلماني مباشرة ، « الانقياء » ، حقاً اي فقراء واطهار ، المكلفين ايصال الروح القدس ، بطقوس غاية في البساطة ، الى جمهور الشعب واقتياد هذا الجمهور نحو الخلاص بقراءة العهد الجديد عليه بلغته الخاصة . عرفت هذه الحركة انتشاراً واسعاً وافضت في بعض النقاط ، خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، الى هرطقات شهيرة . نذكر منها « هرطقة الاطهار » التي سببت اضراراً بالغة في جنوبي مملكة فرنسا ؛ ونحن لا نعرف الشيء الكثير عن تعاليمها ، وليس القول بثنوية مانوية ، تقيم اله الخير في وجه اله الشر ، سوى احد اشكالها المتطرفة في الارجح الذي زاده تطرفاً التائبون من اتباعها ؛ وهي قد جاءت متأخرة على كل حال وافسحت المجال لاقتباسات كثيرة ودخلت غربي اوروبا بفعل الاتصالات التي جرت حوالي السنة ١١٦٧ مع بعض الاحبار البوغوميليين في البلقان . وهي مدينة بنجاحها — الذي تجلى باهراً لدى الفرسان الجنوبيين المنجرفين وراء الملذات الارضية — لتقشف رؤسائها المسؤولين الذين تحملوا وحدهم ، على نقيض الاكليروس الكاثوليكي الفاسد، اعباء الموجبات الاخلاقية القاسية وسمحوا لجمهور المؤمنين بالاشتراك بسلام في افراح العالم . ونذكر هرطقة اخرى هي « الفالدية » التي كانت في البدء شيعة فقراء اقتفوا خطى احد بورجوازيي ليون وحرموا انفسهم من ممتلكاتهم بغية التوفيق بين حياتهم وحياة المسيح ؛ اصطدمت هذه الحركة الانجيلية المصدر بمعارضة الرؤساء

الروحيين حين اراد اتباعها العلمانيون، حوالي السنة ١١٨٠ ، الاستغناء عن الكهنة وادّعوا حق تفسير نص العهد الجديد بعد ان أمنوا ترجمته ، وطالبوا كذلـــك بحق الوعظ ؛ ولكنها في الارجح حركة استجابت لرغبات عميقة اذ انها ، على الرغم من معارضة الكنيسة ، ما لبثت ان انتشرت انتشاراً سريعاً جداً غربي وشرقي جبال الالب .

رد الفعـــل البابوي

كانت الكنيسة من ثم مهددة بخطر فقدان الاخلاق ، ورقابة الفكر ، ورسالتها نفسها،أي دورها كوسيطة بين البشر والاله. ولكن مقاومة هذه التيارات الثلاثة جاءت قوية تحت ادارة الكرسي الرسولي المتوطدة وبفضل كافة الموارد التي أمّنها تنظيم الكنيسة الجديد . فبغية استمادة تأثير الكنيسة على سلوك النبلاء مع النساء ، استمر في الدرجة الاولى المجهود الذي بذله رجال الاكليروس منذ منتصف القرن الحادي عشر لطبع طقوس وذهنية الفرسان بالطابع المسيحي ولجعل هذه الطبقة العسكرية « جمعية » بالمفهوم الديني لهذا التعبير تكون اشبه بالاخويات ، وذلك بالصلاة على الاسلحـــة اولاً ، ثم بادخال بعض الممارسات الطقسية على الاحتفال بتسليم الفارس اسلحته ، كالاغتسال المطهر وحراسة الاسلحة ليلاً والمناولة سلفاً ، وباليمين المفروضة على المبتدئين بالسلوك بحسب بعض القواعد الاخلاقيـــة . ويجب الاعتراف هنا بان المثل الاعلى الذي وضع نصب اعين الفرسان كان قيّما ، بالشكل الذي ارتداه ، في اوائل القرن الثاني عشر ، في اسطورة « غرال » ، بارضاء النزعة الصوفيـــة ، التي جعلت الفرسان اللنغدوكيين سريعي التأثر بهرطقة الاطهار .

الا ان ردّ الفعل الاول للكنيسة ضد الانحرافات في الاخلاق والفكر وممارسة التقوى كان على العموم عنيفاً وزجرياً . فهي قد أقدمت ، بغية استئصال عادات التجار الخالفة للمحبة ، على اعلان تحريم الربى . وأصدرت حكمها على أدهى الابحاث خطراً في مؤلّف (ارسطو الجديد) ؛ وفي السنة ١٢١٠ ، منعت في باريس تفسير كتابي « ما وراء الطبيعة » و « الطبيعيات » ؛ وفي السنة ١٢٢٨ دعا البابا اللاهوتيين الى الكف عن الاستعانة بمبادىء الفلسفة الوثنيـــة في براهينهم لاثبات الحقيقة . وطورد الفالديون من قبل السلطة الاسقفية . وشنت في السنة ١٢٠٨ ، للمرة الاولى ، حملة صليبية على مسيحيين ثبتت هرطقتهم ، أعني بهم « اطهار » اللنغدوك ؛ نظمت في البدء كوسيلة ضغط على الامراء المحليين لحملهم على الاسهام في عمليـــة القمع ، ولكنها انتهت الى عزلهم والى انتقال ممتلكاتهم الى الصليبيين الآتين من « ايل دي فرانس » . اما استقصاء وقمـــع الانحرافات العقيدة ، اللذان تركا لمبادهة الاساقفة حتى ذاك التاريخ ، فقد نظما ونسّقا خصوصاً على يد بعض الامراء اولاً . وضع فردريك الثاني ، ما بين السنة ١٢٢٠ والسنة ١٢٢٨ ، أول تشريع متلاحم في هذا الحقل فرضت بموجبه عقوبة النار على الهراطقة ثم على يد البابوات الذين تسلموا ، ابتداء من السنة ١٢٣١ ، ادارة التحقيق ، او « التفتيش » . ولكن هذه التدابير الزجرية ، التي لم تأت بالنتيجة المتوخاة منها على كل حال ، تكاملت في النصف الاول من القرن الثالث عشر بما بذلته الكنيسة من جهد واع . ويعود الفضل في ذلك الى انوشنتيوس الثالث

الذي تمثل حبريته اوج السلطة الرسولية – لماشاة التيارات الجديدة وجني أكبر فائدة منها .

جمعيات التسول

فقد بات لزاماً على الكنيسة ان تضم اليها الحركة القوية الداعية الى الفقر والى ممارسات دينية اسهل منالاً على الوضعاء . وضع انوشنسيوس الثالث تحت حمايته جماعات العلمانيين المنقطعين للعمل المشترك والزاهدين في الثروات الذين أطلق عليهم اسم « المتواضعين » في ميلانو ، واستمال اليه بعض جماهير الفالديين الذين رجعوا الى الرأي القويم باسم « الكاثوليك الفقراء » . وشجّع البابوات بصورة خاصة تاليف وانتشار فرقتين ديليتين داخل الكنيسة ، تجيش فيهما الروح الجديدة ، أعني بهما جمعيتي التسول ، الدومينيكان والفرنسيسكان . تأسست الاولى أبان الحملة على « الاطهار » : فقد جاء اتفاقاً الى لنغدوك في السنة ١٢٠٦ كاهن اسباني قانوني يدعى دومينيك (عبد الاحد) ، واستقر في تولوز ، وحاول، مع عدد صغير من رفاقه ، اقناع الهراطقة ، بكلامه ولا سيما بسلوكه الذي لم يكن دون سلوك « الصالحين » تقشفاً وزهداً؛ واعتمد في رسالته الجديدة قانون القديس اوغسطينوس الرهباني، فتخلى عن كل ثروة زمنية وصمم على العيش من التسول وكرّس نفسه بالكلية للوعظ والتبشير . اما منشأ الفرنسيسكانية فقد كان شبيهاً بمنشأ الحركة الفالدية : تأثر فرنسيس ، ابن احد التجار الاسيزيين الأثرياء، بالارشادات الانجيلية فوزع في السنة ١٢٠٦ كافة ممتلكاته على الفقراء وسلك حياة زهد تام وفرح كامل في خدمة « السيدة الفاقة » ، وأسس في السنة ١٢٠٩ ، مع بعض الشبان المتأثرين بمثله ، أولى الأسَر الأخوية . وقدّر لنوع حياة هؤلاء العلمانيين – وهو تقشف غنائي في اتحاد صوفي مع المسيح بلغ من خلوصه انه انتهى عند فرنسيس بظهور آثار جروح المسيح في جسمه – الذين درجوا، دون ازعاج أنفسهم بالموجبات الطقسية الكثيرة ، على التنقل والتبشير بالاخلاق الانجيليـة ، مستعطين خبزهم ، او طالبين عملاً لكسبه بشغلهم اليومي في المشاريع الزراعية الكبرى ، ان يعرف لدى سكان مدن ايطاليا الوسطى نجاحاً شبيهاً بذاك الذي أحرزه الفالديون .

ان هاتين الرسالتين ، المتباينتين أهدافاً وطابعاً روحانياً ، الهادفتين الى الاتصال المباشر بالاله عن طريق الفقر ، نشأتا تلقائياً على غرار العديد من الهرطقات . ولكنهما بقيتا على اتصال وثيق بروما . فقد احسن انوشنتيوس الثالث الالتفات الى دومينيك وفرنسيس . وعرف خلفاؤه كيف ينظمون هاتين الجمعيتين ويستخدمونهما: في السنة ١٢١٧ استقر دومينيك في روما نفسها، وما لبثت جمعية الوعاظ (الدومينيكان) ان عرفت ازدهاراً مفاجئاً ؛ فان أديرتها ، التي تم تنظيمها الداخلي آنذاك ، انتشرت من ثم انتشاراً سريعاً في كافة أنحاء العالم المسيحي ؛ وتجاوز عددها الـ ٣٠٠ في السنة ١٢٣٥ . وسبق للقديس فرنسيس ان أوفد بعض رفاقه الى فرنسا واسبانيا ؛ ثم ان الكردينال هوغولين الذي فوّض اليه البابا ، في السنة ١٢١٩ ، حماية ورقابة الاخوة « الصغار » (الفرنسيسكان) ، اصبح بدوره حبراً اعظم باسم غريغوريوس التاسع في السنة ١٢٢٧ ، أي بعد مرور سنة على وفاة فرنسيس ، فباتت الجمعية من ثم تخضع خضوعاً تاماً

لادارة الكنيسة الرومانية. باستقبال هاتين العائلتين الدينيتين، المتميزتين عن الجمعيات الرهبانية، استعادت الكنيسة نشاطها ووضعت تحت تصرفها قوى ذات قيمة كبرى؛ فقد وفرت لها جمعيات التسوّل وسيلة بزت بها شيع الهراطقة، واستجابت لنزعات التدين الشعبي الجديدة التي لم تؤمن لها الكثلكة، حتى ذاك العهد، ما تصبو اليه. وقد عرف الدومينيكان و «الاخوة الرماديون»، في الواقع، نجاحاً منقطع النظير، لأنهم مثلوا، على غرار الأخويات التي ترعرعت فيما مضى، قريبة من الهرطقة، عقيدة مسيحية صوفية زاهدة بالخيرات الزمنية، ناشطة وعاملة في الخارج، متأصلة في قلب المدن بين الجماهير القلقة، مشركة العلمانيين، بواسطة العوام الخاضعين للقانون الرهباني، في اصلاح الاخلاق والتطهير الجماعي؛ وعقيدة مسيحية تبشيرية، لا طقسية فحسب، تؤمن بالوعظ الحر، الملقى بلغة عامية، معرفة الانجيل معرفة مباشرة؛ وبهذا الاتجاه الجديد ترتبط التعديلات المدخلة على المعابد المشيدة بجانب أديرة الدومينيكان والفرنسيسكان التي غدت أسواقاً فسيحة تلقى فيها المواعظ وتفتح لجماهير المدن الغفيرة. ولم يلبث «الوعاظ» و «الصغار» – ولهذا السبب أصبحت هذه الجمعية العلمانية الاخيرة، في عهد مبكر، وبدافع من البابا، أخوية كهنة – ان حلّوا محل الاكليروس العلماني العاجز عن القيام برسالته.

الجامعات

حاولت البابوية كذلك استعادة الاشراف على الحركة الفكرية في المدارس. وهم باباوات النصف الاول من القرن الثالث عشر، أي انوشنتيوس الثالث اولاً، ثم خلفاؤه، من انتصروا لأساتذة ومستمعي المدارس الجديدة على مجالس كهنة الكاتدرائيات والسلطات العلمانية وساعدوهم على تأسيس شركات مهنية متلاحمة، هي الجامعات – أي نقابات المعلمين والطلبة المحلفين – وعلى تحقيق امتيازاتهم واستقلالهم الاداري. واذا استمرت الجامعات الفقهية في ايطاليا الشمالية، أي جامعة بولونيا، التي تأسست في عهد مبكر وحظيت بحماية الأباطرة، وجامعات بادوا ومودينا وفيتشنسا، في تردها على التأثير البابوي، فان هيئة المعلمين والطلبة الباريسيين قد سعت، ما بين السنة ١٢١٢ والسنة ١٢٤٦، وراء نصرة الكرسي الرسولي على ممثل ملك فرنسا ومستشار مجلس كهنة الكاتدرائية؛ وقد أوجدت البابوية في ايطاليا جامعات روما وسينّا وبليزانس ووضعت تحت حمايتها مدارس مونبيلييه، وأسست في السنة ١٢٢٩ جامعة تولوز لنشر العقيدة القويمة في بيئة أفسدتها هرطقة الاطهار، وعطفت أخيراً على انطلاقة اوكسفورد حيث ادخل بعض المعلمين الانكليز بنجاح باهر أساليب التعلم الباريسية. بفضل هذه المساندة، وبينما كان المحسنون الجوّادون يؤسسون المدارس والنزول بغية رعاية وايواء الطلبة الذين لا مورد لهم، انتظمت هذه الجمعيات التعليمية وتفرعت الى كليات أعدّت احداها، كلية الفنون، للتربية التحضيرية ووجهت الاخرى شطر ابحاث التخصص، كاللاهوت او القانون او الطب. اما في باريس فكان طلاب الفن، أكثر الطلاب عدداً على الاطلاق لأن درس الفنون العقلية كان يستغرق بين سبع وتسع سنوات اجمالاً ويجمع قرابة مئة معلم وأكثر من ألف طالب في الارجح. وقد توزع هؤلاء بدورهم، وفاقاً للغاتهم، الى أربع « امم » يوجه كلاً

منها وكيل منتخب؛ وما لبث الرئيس الذي عينه الوكلاء رئيساً عليهم ان أصبح مع الزمن رئيس الجامعة كلها والناطق الرسمي باسمها .

ولكن السلطة الرسولية أصرت على رقابة هذه المؤسسات المتحررة، وقد استخدمت جمعيات التسوّل لبلوغ هذه الغاية دون عناء . اجل لقد تنكر القديس فرنسيس أساساً لنشر العلم بين افراد الأخوية التكفيرية التي أسسها والتي كان عليها ، في رأيه ، ان تستميل النفوس بمثلهم الصالح في ممارسة المحبة والفقر والتواضع ؛ ولكن الكهنة الذين ارتفع عددهم تدريجياً في صفوف « الصغار » ، لا سيما بعد مماته ، وجهوا الرسالة الفرنسيسية شطر الوعظ العلمي ، ناهجين من ثم نهج الدومينيكان ، وقد شجعهم البابوات في ذلك . اما الدومينيكان المنقطعون لمناقشة الهراطقة فكانوا منذ تأسيسهم رجال فكر حريصين على تلقي دروسهم في أشهر المدارس ؛ انتشرت جمعيتهم في البداية ، انطلاقاً من باريس وبولونيا ، في المدن الجامعية الكبرى ؛ اضف الى ذلك انها تقيدت بقانون صارم بادارة رؤسائها العامين ، فقدمت بذلك خير ضمانة لمعتقدها القويم أسند البابوات الى هؤلاء واولئك النهوض بشؤون التفتيش اولاً ثم وجهوهم شطر التعليم ، فدخل « المتسولون » من ثم الى الجامعات. وقد حدث ذلك اما عرضاً ، باهتداء بعض المعلمين العلمانيين، كالاستاذين الباريسيين الانكليزي التابعيــة ، ايمون دي فافرشام والكسندر دي هيلز اللذين ارتديا ثوب القديس فرنسيس في السنة ١٢٢٤ والسنة ١٢٣١ ؛ اما مباشرة : ففي السنة ١٢٢٩ ، حين أعلنت جامعة باريس الاضراب ضد الاسقف ، أسند هـذا الاخير تعليم اللاهوت الى دير الدومينيكان القائم في شارع سان - جاك. ومنذ السنة ١٢٤٠ ، تولت الجمعيات الجديدة ، العاملة باشراف الكرسي الرسولي المباشر ، ادارة الدروس اللاهوتية ، وتصدت للمسألة الكبرى الناشئة منذ سنوات عن انتشار الفكر اليوناني . فحاولت التوفيق بين فلسفة ارسطو - التي انتشرت في المدة الأخيرة بعض أبحاثها: «السياسة» ، و « البيان » ، و «الاقتصاد» - والوحي ، والاحتراز بذلك من خطر القطيعة المتزايد بين النشاط الفكري والتعليم الكنسي فنجحت بالفعل في تحقيق هذا التأليف العسير : واذا مال الفرنسيسكاني بونافنتورا، الذي لم يثق بالمنطق العقلي، الى المثالية الافلاطونية ، وهي في الواقع امتداد للاختبار الصوفي الذي قالت به مدرسة سان - فكتور ، فقد توصل استاذان من الدومينيكان في جامعة باريس ، هما البير الكولوني وتوما الاكويني ، الى التوفيق بين لباب فلسفة ارسطو والعقيدة المسيحية . وكانت ثمرة الجهود المبذولة منذ قرنين لتكييف الاداة الجدلية المؤلفين اللاهوتيين غير المنجزين اللذين وضعهما توما واللذين يؤلفان اول مذهب لاهوتي كامل قام في العالم المسيحي الغربي .

بيد ان الكنيسة، على الرغم من هذه النجاحات الثابتة وهذا التجدد الذي دانت به للروحانية الفرنسيسة والفكر الدومينيكاني، لم تتوصل الى استعادة وتوطيد مركزها الذي أحرجته التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعاطفية . ويمكن القول ان المسافة قد ازدادت اتساعاً ، في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر، بين حاجات المؤمنين الروحية والنظام الكنسي السائر سيراً مطرداً نحو التصلب والقوة .

فقد برز الخلاف اولا بين العلمانيين ورجال الاكليروس . نما عند هؤلاء المسيحيين الذين ارهف حسهم والذين بحثوا آنذاك عن غذاء روحهم في قراءة العهد الجديد – وتلبية لهذه الرغبة أنجز حوالي السنة ١٢٥٠ في جامعة باريس نقل نص « الترجمة العامية » نثراً بعد اعادة النظر فيه – شعور عميــق بالسخرية والحذر وحتى بالعداء الصريح نحو رجال الكنيسة . ولكن لا تخدعنّ بهذه الظواهر : فان هذا الانطباع ناجم جزئياً عن ان العلمانيين ، وقد استطاعوا التعبير عن مشاعرهم ، بفضل تقدّم العلم ، لم يعودوا بحاجة لقلم رجال الاكليروس لافراغها في قالب الكتابة الدينية . ومهما يكن من الأمر ، فان هذا الموقف العدائي من رجال الاكليروس ، الذي ربما زاده تصلباً وعظ الاخوة المتسولين أنفسهم ، وقــد ثاروا في مواعظهم على امتيازات الكهنـــة العلمانيين ، فباتوا من أشدّ المنافسين لهم في أغلب الاحيان ، قد كان في جوهره موجهاً ضد وضع الكنسيين الزمني . أي انه استهدف هذا الوّضع في المقاطعات الايطالية والفلمنكية حيث طمع رجال الاكليروس بأن يعفوا من الفرائض المالية ؛ وفي مملكة انكلترا ، اقطاعة الكرسي الرسولي ، حيث عينت الادارة الرومانية عدداً كبيراً من الاجانب في مناصب الكنيسة العليا ، فاستثمرت الادارة البابوية هذه الكنيسة أيما استثمار ؛ وفي فرنسا ايضاً حيث رأى الفرسان المفتقرون أملاكهم العائلية القديمه ، التي تبرع بها اجدادهم احساناً ، املاكاً كنسية مزدهرة جـــداً ، وحيث تحالف البارونات للدفاع عن امتيازاتهم القضائية ضد تجاوزات المحـاكم الكنسية وطالبوا القديس لويس ، في السنة ١٢٤٥ ، بأن « يعاد رجال الاكليروس ، الذين اثروا بافقارهم ، الى وضع الكنيسة الاولى ، ويعيشوا حياة تأملية ... ويحيوا المعجزات التي حرم منها العالم منذ زمن بعيد » ، وحيث ثار « روتبوف » بشدة ، يؤيده الجميع ، على اثراء الفرنسيسكان ، الذين تخلوا آنذاك ، في أديرتهم المعدة للدروس ، عن زهدهم الأول ، وكشف الستار عن نزعتهم الخفية الخطرة الى المذهب الصوفي القائل بمحبـــة الله وجمود النفس .

الا ان الانتقادات ، التي حركتها حملة فردريك الثاني العنيفة ضد روما ، قد تخطت هـذه التفاصيل وتصدت بالقدح لكيان الكنيسة نفسها ، ولا سيما للملكية البابوية التي تميزت في أواخر القرن الثالث عشر بايطاليتها وتعاطيها السياسة واندفاعها وراء المادة . وقد وجدت هـــذه الانتقادات لها ، في بعض أفراد الجمعية الفرنسيسية ، مناصرين نشيطين جداً ، بعد وفاة بونافنتورا (١٢٧٤) الذي كان قد أفلح في الحفاظ على وحدة الأخوية التي أصبح هو رئيسها العام . فقد اعتبر بعض « الاخوة الصغار » تلطيف مبدأ الفقر ، أي حق امتلاك العقارات وقبول الاوقاف وتعهد الخدام ، الذي شجعه البابوات لتقوية عمل الجمعية والسماح لها بالقيام بوظيفتها الدراسية والدعائية قياماً افضل ، بمثابة خيانة كبرى لروح القديس فرنسيس . وهكذا فان أقليـــة « الروحيين » الضئيلة ، التي حركها في ايطاليا خصوم السياسة البابوية وأفسدتها من جهة ثانية نزعات صوفية تتنافى كلياً والعقيدة القويمة ، ولا سيما النظرية اليواكيمية القائلة بارتقاب مجيء المسيح ثانيــة ،

قـــد وقفت بعنف في وجه « الديريين » المثقفين الساعين وراء سعة العيش ، وقاومت السلطة الرومانية . وفي مستهل القرن الرابع عشر زلت بها القدم خارج الكنيسة فالتحقت بالفالديين ، ورثة هرطقة « الاطهار » في رينانيا والاخويات التقوية العلمانية العديدة وراحت تضخّم التيار الصوفي ، الهرطقي او القريب من الهرطقة ، الذي لم ينضب معينه في يوم من الايام .

في الوقت نفسه أقامت ادعاءات بونيفاسيوس الثامن الثيوقراطية في وجه الكرسي الرسولي كافة المدافعين عن الملكيات العلمانية ولا سيما القانونيين العاملين في خدمة « فيليب له بيل » : فكان للشتائم التي أطلقها جاكوبوني دي تودي باسم «الروحيين» الفرنسيسيين صداها في هجمات « غليوم دي نوغاريه » المنيفة. فجاء الحكم الصادر باشارة من ملك فرنسا على جمعية الهيكليين ـ التي استفادت من توزع فروعها في كافة أنحاء العالم المسيحي وتعودت جمع الاحسانات للحملات الصليبية ، فلعبت ، قبل الشركات الايطالية ، دور مصرف الايداع والتحويل ، والتي أدى بها فقدان المؤسسات اللاتينية في الارض المقدسة الى هذا الدور المالي – انتصاراً للسلطة العلمانية ، وزاد من النقمة على رجال الاكليروس بتشديده على اندفاع الكنيسة وراء الزمنيات . وحين أقامت الادارة البابوية ، بعد السنة ١٣٠٥ ، في جنوبي فرنسا ، قبل ان تستقر في افينيون ، هرباً من جوّ روما الفاسد وسجسها ، على مقربة من المملكة الكابيتية او تحت كنفها تقريباً ، كانت قـــد فقدت الكثير من قوتها الروحية . فتسرب الى العالم المسيحي قلق واضطراب لم يكونا عميقين جداً – ويجدر بنا ، الى جانب مظاهر العداء للاكليروس هذه التي اتسم معظمها بطابع المرح ، ان نشير هنا الى قوة وبساطة ايمان أكثرية المسيحيين الساحقة – الا ان خطرهما كان في تفاقم مستمر .

العلم والعقيدة

ان الجهود التأليفية التي بذلها القديس توما الاكويني لم تسفر آنذاك عـن اية نتيجة ، فحصلت القطيعة بين العلم والبحث العقلي ودراسة العالم والانسان من جهة ، وبين حقيقة الايمان التي تخضع لرقابة الكنيسة من جهة اخرى . فالجامعات لم تنقـد انقياداً سلساً للنظام الفكري الذي رغبت روما في فرضه عليها . وقد حدثت في باريس ، مـا بين السنة ١٢٣٣ والسنة ١٢٥٧ ، ازمة عنيفة اقامت في وجه السلطة البابوية الاساتذه العلمانيين الراغبين في تخفيض عدد منابر التعليم المسندة الى الدومينيكان والفرنسيسكان لانهم شكّوا في تضامنهم معهم واخذوا عليهم خضوعهم الاعمى لسلطة غريبة عن سلطة النقابة . وكان مقدراً لهذا الصراع ان يتجدد جيلاً بعد جيل ويعم مدارس انكلترا نفسها. وقد تعرضوا كذلك ، في الجامعة ، لنواح فكرية انطوى التعرض لهـــا على المزيد من المغامرة ، ضاربين بانذارات الكرسي الرسولي والاساقفة عرض الحائط . وقد رافق انتشار مؤلف « ارسطو الجديـــد » انتشار فلسفة ابن رشد بواسطة اطباء مدرسة ساليرن بصورة خاصـــة ، فتغلغلت في المدارس الباريسية ؛ اجل انها كانت مستوحاة من ارسطو ، ولكنها اقل منه استساغة مسيحية الى حد بعيد . ان هذه التعاليم الخطرة التي ابرزت استقلال البحث العقلي حيال العقيـدة ، عرضت للخطر ،

منذ السنة ١٢٧٠ ، محاولات القديس توما للتوفيق بين العقل والايمان ، فصرفت ابعد المفكرين المسيحيين بصيرة، ولا سيما الاساتذة الفرنسيين، عن الابحاث الفلسفية ووجهتهم نحو الافلاطونية الصوفية ؛ واعدت الطريق للتأليف الجديد الذي اقترحه « جون دونز » السكوتلندي ، في مستهل القرن الرابع عشر، ليحله محل تأليف القديس توما، المستخف به آنذاك ؛ فهو قد تخلى ، بتأثير من تشربه تعاليم القديس اوغسطينوس ، عن التوفيق بين الفلسفة واللاهوت وبين العقل والايمان ، وفتح امام هذه الابحاث طرقاً متباعدة: « ان الله لم يوح للانسان الحقائق التي يستطيع العقل بلوغها ؛ كما ان العقل لا يبلغ الحقائق الموحاة من الله » ، ويستنتج من ذلك ان كل ما ليس منزلا يمكن مناقشته بحرية . اما الاساتذة الباريسيون المشهورون بجرأتهم، وعلى رأسهم «سيجر دي برابان » ، فقد استمروا في تفسير ارسطو وابن رشد على الرغم من الاحكام التي استهدفتهم في السنة ١٢٧٠ والسنة ١٢٧٧ ؛ فميزوا هم ايضاً بين امور الايمان – التي يُسلم بها بدون مناقشة – وامور العلم التي يمكن ان يتناولها العقل بكل حرية .

فتحت هذه الآراء امام البحث ، باستخفافها بالمراجع وبمناداتها باولوية الاختبار ، الذي اعتبر بمثابة مصدر لكل معرفة ، حقلاً متحرراً من كل وصاية كنسية . وبينما اخذت اسفار المبشرين والتجار تعطي صورة اكمل ، ان لم تكن اصح ، عن مساحة العالم وتنوع الطبيعة ، وبينما اخذ ينتشر استخدام اللغات الاجنبية ، اليونانية والعربية والعبرية ، التي فكر الراهب الكاتالوني « رامون لول » بتلقينها المبشرين في فترة اعدادهم لرسالتهم ، بات ممكناً ، منذ ذاك التاريخ، اخضاع اخلاق الكنيسة وسياستها وحتى كيانها للبرهان العقلي، خارج نطاق الايمان فتبدل المناخ الفكري تبدلا اساسياً حتى بالنسبة لاولئك الذين لم يتأثروا مباشرة بفلسفة ابن رشد . ففي جامعة اكسفورد ، انقطع الكاهن العلماني « روبير غروستات » ثم « الاخوان الصغيران » « جون بيكشام » و« روجيه بيكون » وهم اقل اهتماماً بالمنطق منهم بالعلوم الطبيعية والرياضيات ، لملاحظة الاشياء ، اي للطريقة التي كان بيكون اول من وصفها بالاختبارية . واذا لم تقترن هذه الابحاث آنذاك بنتائج حاسمة ، فقد تأيدت مع ذلك ، في اوائل القرن الرابع عشر ، بحصر نطاق الوحي حصراً دقيقاً ، حرية البحث الشخصي وعلمنة العلم التي تقدمت علمنة المجتمع في الارجح .

٤ ـ اشعاع الحضارة الفرنسية

تقدم التدريس

كان لتطورات العقلية في طبقات المجتمع العليا، خلال هذه الحقبة التي تداعت فيها انظمة الاقتصاد الريفي والعالم الاقطاعي والعالم المسيحي ، انعكاسها الطبيعي في تطور التعبير الادبي . فنحن نلاحظ فيه توسعاً مماثلا ، اذ منذ منتصف القرن الثاني عشر تجملت المواضيع الغربية بتأثير سير القديسين والطقس البيزنطي وادب القصة العربي

والعادات المحلية الكلتية ، كما اننا نرى ميلاً متزايداً الى الجدل الحر وملاحظة الانسان والطبيعة ملاحظة مباشرة ، وتحرراً متهائلا ، اخيراً ، حيال الانظمة الكنسية .

ان الحدث الرئيسي في هذه الحقبة هو انتشار الثقافة الادبية التي تمت بصلة الى تحسن ظروف الحياة المادية. لقد تطلب توسع الاعمال من البورجوازيين دراسة مهنية منسقة؛ وبات لزاماً عليهم ان يعرفوا القراءة والكتابة والحساب وفهم اللغة الفرنسية التي كانت آنذاك لغـــة التجارة الكبرى . فتأسست لاجلهم ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ، في المدن الايطالية والفلمنكية مدارس عامة لا تخضع لسيطرة الاكليروس وتلقى الدروس فيها باللغه العامية ، وقـــد ساعد ذلك على رسوخ هذه اللغة . وانتشر التعليم كذلك في طبقة الفرسان من قبيـــل اللياقة العالمية اولا، خلال القرن الثالث عشر ، فتباهى فرسان كافة البلاطات الاوروبية وسيداتها ، على غرار نبلاء الأكيتين ، بانهم يعرفون القراءة ؛ ومن قبيل الحاجة التقنية ايضاً ، لأن استخدام الكتابة في المعاملات القانونية ، وكان محدوداً جداً في السنة ١١٠٠ بسبب ارتكاز العقود والحقـــوق المتبادلة الى الحركة الطقسية او الذاكرة او الشهادة الشفهية، قد تقدم تقدماً سريعاً منذ منتصف القرن الثاني عشر : فقد حررت الوثائق، ونظمت السجلات وجمعت العادات المحليـــة في كتب. توجب من ثم على الفرسان أن يعرفوا القراءة لتصريف شؤونهم الخاصة، ولا سيما اذا اسندت اليهم وظيفة ادارية في خدمة الامير . وادى تنظيم الدول وتوسع اجهزتهـــا السياسية ، في القرن الثالث عشر ، الى تكوين فئة متزايدة العدد من الكتبة ومسجلي العقود ومقيـــدي الدعاوى وماسكي الدفاتر الذين حصّلوا من العلم مبادئه على الاقل . وبات الكتاب اقل ندرة اخيراً . فمنذ القرن الثاني عشر اخذ بعض الخطاطين المحترفين، في الاوساط الجامعية الكبرى، يستنسخون المؤلفات استنساخاً سريعاً ويعرضونها للبيع ، تلبية للطلبات المتعددة .

الادب

افضى انتشار الثقافة الادبية في الاوساط العلمانية الى تقلص الأدب اللاتيني . اجل لقد وضعت باللغة اللاتينية ، حتى في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، مؤلفات هامة كيوميات الحبر الالماني « اوتون دي فريسنغ » ، و « الانتيكلوديانوس » ، وهو بحث فلسفي رمزي كبير للاستاذ الباريسي « ألان دي ليل » ، والاناشيد الكنسية الرائعـــة التي ألفها « آدم دي سان ـ فكتور » ؛ ولكن اللغة اللاتينية ليست بعد السنة ١٢٣٠ ـ اقله في فرنسا ـ سوى لغة التعليم العالي واللغة الطقسية فحسب ، مما ادّى الى فصل النشاط العلمي عن المشاغل الجمالية بعد ان كانت هذه المشاغل وهذا النشاط وثيقة الارتباط في الحضارة الغربية منذ النهضة الكارولنجية . فارتفعت بالنسبة نفسها منزلة اللغات الشعبية التي انبثقت منها لغتان ادبيتان جديدان اضيفتا الى اللهجات المحلية ، لغة الاوك من جهة ، التي استخدمهـــا الشعراء الغنائيون في كافة المناطق الجنوبية من العالم المسيحي اللاتيني، ولهجة ايل ـ دي ـ فرانس ، من جهة ثانية، التي تبسطت في اوساط شمبانيا وبيكارديا الادبية والتي كان انتشارها شاملا. ومرد ذلك ـ اذ ان الصفة الاخيرة هي ما يميز هذا العهد ـ الى ان فرنسا احرزت في حقل الادب اولوية مطلقة يفسرها عظم المملكة بالذات ، وهي المتقدمة على كل مملكة غيرها في اوروبا من

حيث عدد السكان ، وازدهارها ، والدور الذي لعبته في الاقتصاد الغربي الاسواق الدورية الشمبانية ، وتوسعها العسكري في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الذي احل نخبة فرنسية اللغة في انكلترا والارض المقدسة وقبرص وموريا ، وبث الفرسان الفرنسيين في اسبانيا المسيحية وايطاليا الجنوبية ، وقيام اهم مركز فكري في باريس اخيراً . ومهما يكن من الامر فان الادب الفرنسي هو ما يجب ان نتتبع فيه التيارات المختلفة التي استجابت على التوالي لاذواق الجمهور .

حوالي السنة ١١٥٠ ، اخذت العادات الجنوبية تنتشر في فرنسا الشمالية ؛ ويغلب ان نقل بلاط بواتيه الى « ايل دي فرانس » ، في اعقاب زواج لويس السابع من « اليانور داكيتين » في السنة ١١٣٧ ، واقامة بنات اليانور ، أليس في « بلوا » ، وماري في شمبانيا ، قد ساعدا مساعدة كبرى على هذا الانتشار. وفي المناطق المحيطة بالأملاك الكابيتية ، درج أسياد الامارات الاقطاعية الآخذة في التثبت والتوطد ، وكونتية فلاندر وشمبانيا ، والبلانتاجنيه ، على ان يضموا حولهم ، في الثلث الثاني من القرن الثاني عشر ، جمعيات زاهية زاهرة، ويرعوا الأدباء في منازلهم. ثم خفت نصرة الأمراء هذه للأدباء قبيل القرن الثالث عشر حين آلت نجاحات السلطة الملكية الحاسمة الى اكفهرار سنى الدول الدائرية . الا ان تذوق الشؤون الفكرية كان ، في ذاك الحين، قد شمل أوساطاً اعمق رسوخاً في المجتمع، فبلغ أهل القصور انفسهم : ففي السنة ١٢٠٠، أخذ الكونت « دي غين » نفسه ، الذي كان محاطاً بالمشعوذين ، يتعود نظم الشعر . وأفضى انتشار هذا الادب البلاطي ، الجنوبي المنشأ ، في البداية ، الى تغيير الشكل الخارجي للمؤلفات الشعرية التي لم تعد معدّة للانشاد، على غرار الملاحم العسكرية الاولى ، بل للقراءة بصوت عالٍ، ولذلك بات الشعر مقفّى . وحدث في الوقت نفسه ، تحت تأثير لغة « الاوك » ، ان انتشرت وتبسطت عواطف العشاق المتدللين وعاداتهم. لذلك فقدت الاغاني الايمائية ، بعد السنة ١١٥٠، ميزاتها الاولى وتشربت روحاً أعظم رقة، ارستوقراطية الطابع، واهتمت بالتحليل السيكولوجي وتناولت المواضيع الغرامية في جو لا يخلو من كل مدهش وعجيب . الا ان لوناً أدبياً اكثر انسجاماً مع المشاغل الجديدة ، هو القصة المتدللة ، قد ازدهر آنذاك مديناً بشهرته لـ « ماري دي فرانس » و « غوتيه داراس » وخصوصاً لِـ « كريتيان دي طروا » الذي أعطى هذا اللون رائعته بكتاب « ايفين » (حوالي ١١٧٢ — ١١٧٥) . وقد تحولت فيه الملحمة الحربية ، تحت تأثير « اوفيد » وبعض الملاحم القديمة ، وربما القصص البيزنطية ، وخصوصاً تحت تأثير التقاليد الاسطورية الكلتية التي وفرت حوالي السنة ١١٧٠ ثلاثة مواضيع روائية كبرى هي مواضيع « تريستان » و « دي غرال » و « ارثور » ، الى سلسلة من المغامرات المدهشة و « التسولات » التي تتخللها دسائس عاطفية تناولها وصف دقيق . فجاءت القصة من ثم منسجمة مع تهذب الاخلاق وتسرب عادات التدلل الى طبقة الاشراف التي أشاد هذا اللون بقيمها الرئيسية : « الفروسية » ، أي الشجاعة والاناقة ؛ و « العلم » ، أي الثقافة والعدالة .

في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر، طرأ تطور محسوس على هذه النزعة الارستوقراطية التي يختلط فيها الواقع بالخيال . فقد تقلص الشعر امام النثر اولاً بفعل تقدم المطالعة الفردية . ثم جعـــل ازدهار الطبقة البورجوازية من المدن مراكز رئيسية للحياة الأدبية ، كان أشهرها ، بالاضافة الى باريس ، آراس ، مدينة صناعة الاجواخ والاعمال المصرفية الكبرى ، ومقر مجمع اشبه بمجمع ادبي عرف باسم (*le Puy*) أسسته جمعية مهنية ودينية من المشعوذين ؛ ونحن نعرف أكثر من ١٨٠ كاتباً عملوا فيه خلال القرن الثالث عشر. ثم اصيب ادب التدلل بالنهكة ، ولم يعد يلبي رغبات المجتمع العالمي فأبدى مزيداً من الاهتمام للواقع المحسوس وتأثر كذلـــك بالمفهوم المسيحي للفروسية وأساليب الفلسفة الكلامية وتطور الفكر الشامل نحو الرقة والسرية ، فانتهى مع مؤلفـــات لانسلو (١٢٢٠ – ١٢٣٥) و « قصة الوردة » « لغليوم دي لوريس » ١ حوالي ١٢٣٦) الى رمزية غالباً ما تتكلف تهذيب الاخلاق . وانتشر بالمقابلة ادب المناسبات المعاصرة ، بشكل روايات عن الحملات الصليبية – فقد ألف « روبير دي كلاري » و « فيلوهردوين » ، بمناسبة حملة القسطنطينية ، التاريخين الاولين اللذين وضعا نثراً باللغة الفرنسية – وبرزت الرغبة في رصف التفاصيل الواقعية والمزاح البذيء التي لبتها الحكايات القصيرة وطابقتها كذلك الاوصاف الدقيقة التي طلع بها جان رينار في القصة الغزلية ؛ كما برزت اخيراً السخرية الرشيقة المرحة التي استهدفت النساء والاكليروس وتعرضت للتدلل والاخلاق الارستوقراطية ، كما يتضح ذلك في قصة « اوكاسين ونيكوليت » .

ان هذه النزعة الى الواقعية والهجاء ، التي أظهرت تفوق العقل على العاطفة ، وهو موقف جديد ينم عن بصيرة وذكاء ، قد توطدت نهائياً بعـــد السنة ١٢٤٠ بينما اهتمت الجماهير اهتماماً متزايداً المؤلفات الهادفة الى جعل العلوم في متناول الجميع . كما ان المكتبات الخاصة ، الـــتي اخذت تتكون في منتصف القرن الثالث عشر ، قد عبرت عن الاتجاه المزدوج ، المتزايد تباعداً ، نحو الورع الشخصي والصوفي من جهة ، ونحو معرفة الانسان والعالم معرفة عقلية طليقة مـــن جهة ثانية ، واشتملت بصورة خاصة على الكتب التالية : المؤلفات التعليمية ، كدوائر المعارف ، « الكنوز » ، و « صور العالم » ، المستوحاة من مؤلفات « فنسان دي بوفيه » (حوالي ١٢٥٤) ، ومؤلفات تقوية كتراجم القديسين ونصوص الكتاب المقدس او « مدائح العذراء » . لذلك فان الميزة التي تتسم بها المؤلفات الادبية الكبرى حوالي السنة ١٢٧٥ ، أي في الوقت نفسه الذي اخفق فيه مشروع توما الاكويني ، هي عودة ، لا تخلو من الجفاء ، الى الحقيقـــة والبساطة والملاحظة المتحررة من كل اقتسار صريح او معنوي . وفي نـــدوة آراس بشّرت ألعاب آدم دي لاهال الموسيقية (١٢٦٢ – ١٢٨٠ تقريباً) بمسرح متحرر من اصوله الطقسية منقطع لتصوير المجتمع ؛ وازدهر ، بفضل الباريسي روتبوف ، شعر بسيط صادق يعكس مشاعر عامة البورجوازيين ويشدّد بالمقابلة على انحطاط فضائل الفرسان . اضف الى ذلك ان جان دي مونغ وهو خير ممثل للروح الجديدة ، قد هاجم بقحة ، في « قصة الوردة » التي وضعها حوالي السنة ١٢٧٥ في باريس ،

كافة الآراء الاجتماعية المسلّم بها وكافة العواطف المصطنعة والمعقدة؛ فهدم اسس الاخلاق التدللية وسخر من عبادة المرأة وانكر تفوق شرف النسب ؛ وان في المركز الاولي الذي يحـــلّ فيه الطبيعة والعقل لاجلالاً مباشراً لمفاهيم فلسفة ابن رشد . فانتهى بهذا العمل الهدام عهد عظيم من عهود الادب الفرنسي .

الا ان هذا الادب قد استمر ، حتى وفاة القديس لويس ، ادباً دولياً تتذوقه النخبة في كل مكان ، فأوحى من ثم ، في مظاهره المتعاقبة، كافة الانتاجات الموضوعة باللغة العامية في اوروبا الغربية . ففي كاتالونيا ، ولا سيما في البرتغال ، سار الشعراء منذ اواخر القرن الثاني عشر عـلى خطى شعراء جنوبي فرنسا المتجولين، وكان للأغاني الايمائية في فرنسا الشمالية تأثيرها على ملحمة « السيد » القشتالية في الارجح . وفي أثناء الرحلة التي قام بها فردريك بربروس الى آرل كي يتوّج فيها ملكاً على بروفنسا، تعرف المشعوذون الالمان الى الشعر الغنائي الجنوبي واقتبسوا عنه مقومات ادب التدلل . فنقلوها الى المنطقة الرينانية حيث اعطت النور للأغاني الايمائية الالمانية؛ وبعـــد السنة ١١٧٠ ترجم « وولفرام فون اشنباخ » ومنافسوه القصص الفرنسية الجديدة . وغزا الشعر البروفنسي المدن الايطالية ، ولا سيما جنوى ، وحتى البندقية ، فأكبّ عليه بلاط فردريك الثاني في صقليا اكباباً مثابراً . وآثر الفلورنسي « برونتّو لاتيني » ، حتى ما بـــين السنة ١٢٦٢ و ١٢٦٨ ، ان يضع بالفرنسية كتابه «الكنز» الذي كان قد ألّفه لتعليم حكام المدن الايطالية ، لأنه اعتبرها « اعذب اللغات وأعظمها شمولاً » .

الفن القوطي

لعلّ اشعاع فرنسا هذا يبرز بمزيد من القوة ايضاً في المظاهر الفنية لحضارة القرن الثالث عشر . في الموسيقى اولاً : فمنذ حوالي السنة ١٢٠٠ حتى منتصف ولاية القديس لويس، توسع الفنانان الباريسيان ليونين وبيروتين في أبحاثهما حول الموسيقى المتعددة الاصوات ووضعا الاسس النهائية لبعض الالوان الجديدة التي ازدهرت من بعدهما . وفي الفنون التصويرية خصوصاً : ففي فرنسا الشمالية تكون اعظم فنون القرون الوسطى أي الفن القوطي ، قبل ان ينتشر في كافة انحاء اوروبا باسم «الفن الفرنسي». وهو فن مقدس شأن الفن «الروماني»، ولكنه اعظم منه انسانية وواقعية ، فاستجاب من ثم للتطور الفكري العام ؛ وهو فن المدن ايضاً يعبر عن ارتقاء البورجوازيات واشعاع كنائس المدن واحتجاب الأديرة الريفية بفعل تأثرها بصعوبات الاقتصاد في السيادة .

تحرر النمط القوطي من الاشكال « الرومانية » في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ولكن هذا التحرر كان بطيئاً . فقد ادخل الفنانون السيسترسيون ، منذ السنة ١١٤٨ في ستيو، ومنذ السنة ١١٥٠ في بونتينيي، الأقواس المتقاطعة الجارية بين الزوايا المتقابلة في سقوف كنائسهم النسقية العارية ؛ وقد استعملت أساليب التسقيف الجديدة كذلك في انجو وبواتو ، ولكن دون ان يفضي هـــذا الاستعمال الى تعديلات هامة في هندسة الأبنية التي ما زالت ربعة متراصة .

وتحققت النجاحات الحاسمة في الاراضي الملكية بتأثير من الهندسة البنائية في « سان ـ دني » . وحاول مهندسو العمارة ، في كاتدرائيات نوّيون وسنليس ولان وباريس وسواسون الـتي شرع بتشييدها ما بين السنة ١١٤٥ والسنة ١١٨٠ ، مختلفة كل الاختلاف عن بعضها شأن الكنائس « الرومانية » ، وقريبة كلها ، في تصميمها العام ، من الفن « الروماني » في نورمنديا ، استثمار كافة الامكانات التي يوفرها تقاطع الاقواس والتسنيد بالزوافر ، فتوفقوا في « لان » الى جبهـة تتألف من ثلاثة مداخل عميقة مسقوفة يعلوها موضوع هندسي تجميلي وردي الشكل ، بـين برجين ، وتوصلوا في باريس الى رفع القباب الى أكثر من ٣٠ متراً . اما الرسامون والنقاشون المكلّفون تزيين الاغلاق ، فقد حوّلوا النقاشة « الرومانية » شيئاً فشيئاً باضفاء مزيد من الاناقة والعذوبة على التماثيل — الاعمدة والاشكال ، وخصوصاً بطرق مواضيع حياة العذراء في سنليس اولاً ، ثم في لان ، واخيراً في باريس حوالي السنة ١٢٢٠ .

ادت هذه المحاولات ، بين السنة ١٢٠٠ والسنة ١٢٥٠ في فرنسا الكابيتية هذه بالذات ، الى خلق علم الجمال القوطي الذي نجد أمثلته النموذجية في شارتر ، وقد شيدت بـين السنة ١١٩٤ والسنة ١٢٢٠ ، وفي « رمس » التي بوشر بتشييدها في السنة ١٢١٢ ، وفي اميان التي ابتدأ العمل فيها حوالي السنة ١٢٢٠ . فجاء هذا العلم نمطاً استبدادياً سيطر على الابنية كلها فحدّ من تنوعها ، وتميز هندسياً بتشامخ تدريجي نحو العلاء . في هذه الكنائس التي احتل فيها الخورس مكاناً متزايد الاتساع ، والتي قامت بحذاء صحنيها المنخفضين كنائس جانبية — هي اوقاف عائلية خاصة تنم عن ثروة بعض الفئات الاجتماعية وبروز بعض المظاهر التقوية المتميزة — تحققت الوثبة العمودية بارتفاع القباب ، وتحول القسم العلوي من ابراج الاجراس ، والانسجام بين الزوافر الخفيفة وبين دعائمها ، وايقاف الركائز الكثيرة المتحررة من التيجان حتى لا يعيق صعودها عائق . وقد بلغ هذا الشموخ حدّه في أبنية « بوفيه » القصيمة التي ارتفع خورسها ، قبل انهيارها ، الى قرابة ٥٠ متراً وابراجها الى أكثر من ١٥٠ متراً . وفي الوقت نفسه تجوفت الجدران وكادت الأبنية تصبح مجرّد هيكل يقوم على الركائز والاقواس ؛ فاتسعت الأبواب واستطالت النوافذ العلوية باتجـاه أقسامها السفلى بحيث زالت تدريجياً المسافة الوسيطة الفاصلة بينها وبين اقواس صحن الكنيسة ؛ وباتت من الاتساع بحيث توجب تقويتها ببعض عناصر التقوية الداخلية . وتمثل كنيسة « سانت شابيل » الشاهقة في باريس ، التي ليست سوى هيكل زجاجي ، اكتمال هذه التهوية التدريجية .

تتميز الطريقة القوطية اساساً ، في النقاشة ، باستعداد روحي آخر حيال مواضيع الصور المقدسة . اجل لم تزل هذه المواضيع مقدسة ، ولكن الفنانين لم يحاولوا اذ ذاك ، تحت تأثـير التبدلات التي طرأت على الشعور الديني ، تمثيل قوة الاشخاص الفائقي الطبيعة ، بل ما يمكن ان يحملهم اعظم عاطفة اخوية نحو الانسان . ولا يعبر هذا الفن عن عظمة الاله بقدر تعبيره عـن محبته . لذلك فاننا نشاهد في الحركات والوجوه حنواً ورقة ، وفي الابتسامة تصنعاً ، وفي العيون تغضناً وفي الجفن تثاقـلاً يطبعان النظر بلطف بشري يناقضه التحديق الساهي في الوجوه

« الرومانية » . وكانت المخلوقات ، في الوقت نفسه ، موضوع اهتمام خاص . فبات للكائنات ، من نبات وحيوان، ولأعمال الانسان، مكانها في النقاشة التزيينية التي رتبت ووجهت بكل اتقان. وقد أفضى هذا الترتيب الجديد ، الذي لا تزال تنعكس فيه نزعتا النفس الرئيسيتان في القرن الثالث عشر – البحث الآني عن العطف الالهي وملاحظة الأشياء بتبصر – في الحقل التصويري ، الى اهمال المواضيع الخيالية (اذ ان المزينين لم يستوحوا الرؤى الجليانية آنذاك ، بل المواضيع الواقعية وسير المسيح والعذراء والقديسين) ، واتقان تقليد النماذج النباتية التي عم استخدامها في التزيين وانتشرت في كل مكان ، ومراعاة القياسات والتناسق في الشكل البشري . فبرزت النقاشة شيئاً فشيئاً في الجدار وغدت تمثالاً (فالصحناء ، بعد تاج العمود ، سائرة نحو الزوال)، وانتهت ، بفعل قبلتها الانسانية ، الى الاقتراب اقتراباً غريباً من فن صناعة التماثيل القديمة : فان اشخاص مشهد الزيارة في رمس لا تختلف بوجوهها وملابسها عن التماثيل اليونانية .

وأدى تجوّف الجدران اخيراً ، بحؤوله دون النقوش والرسوم التزيينية ، الى ازدهار تقنية الزجاج التي اعتمدت في الغرب منذ القرن العاشر على الاقل يحدّ منها ، حتى ذاك التاريخ ، ضيق النوافذ «الرومانية» . فانتشر استعمال ذاك الزجاج المقطع بواسطة مصانع الزجاج الكبرى التي قامت على التوالي في سان – دني في منتصف القرن الثاني عشر ، ثم في شارتر ، وأخيراً في سانت – شابيل، وسيطر على كافة الطرائق التصويرية الاخرى، وفرض على تزاويق المخطوطات نفسها ، التي أنتج أجملها في المصانع الباريسية ، اسلوبه الخاص : الاصباغ المتماثلة التي تفصل بينها دوائر سوداء تقوم مقام الفواصل الرصاصية بين القطع الزجاجية ، والخطوط المنكسرة ، والتبسيط الكلي .

تكوّن هذا النمط في الحوض الباريسي ثم انتشر في كافة أنحاء اوروبا . ويرد هذا الانتشار الى الاسباب التالية : تعاظم الدولة الكابيتية ونفوذ القديس لويس في العالم المسيحي ، والمنشأ الفرنسي لبعض التيارات الدينية ولا سيما للجمعية السيسترسية التي انتشرت اديرتها في كل مكان ، وشهرة المراكز الفكرية في « ايل دي فرانس » – فقليلون جداً هم ذوو المقامات الكنسية الذين لم يترددوا على جامعة باريس في القرن الثالث عشر والذين لم يستطيعوا من ثم نقل قبس من الطرائق الفنية الفرنسية الى الكنائس التي اسندت اليهم ادارتها في عهد لاحق –، وتأثير المصنوعات الصغيرة ، كالتماثيل العاجية الباريسية او المذاخر الليموسينية النحاسية المزدانة بالمينا ، التي قلّدت اشكال الفنون الكبرى خير تقليد وصدرت الى كل مكان .

تميز هذا الانتشار بعمقه وشموله في الارض المقدسة بصورة خاصة ، وفي البلدان الجرمانية بعد السنة ١٢٠٠ على الرغم من أمانتها الطويلة للتقاليد الكارولنجية . ادخل السيسترسيون اولاً استعمال الاقواس المتقاطعة في مناطق المانيا المختلفة وحتى في اسوج؛ ثم استوحى بناؤو كاتدرائيات بمبرغ ومغدبورغ ولمبورغ منجزات لان وسواسون ، كما استوحى بناؤو ستراسبورغ وكولونيا الكاتدرائيات الفرنسية الكبرى التي يعود تاريخها الى اوائل القرن الثالث عشر ؛ وعلى شواطيء

البلطيك سقفت الكنائس الكبرى المبنية بالقرميد ، في كل مدينة من مدن الشراكة الهانسية ، وفاقاً للطرائق القوطية . وتم التقليد نفسه في النقاشة حيث انتشر النمط الجديد ، في الغالب ، كما في ستراسبورغ مثلاً ، بفضل الفنانين الآتين من فرنسا ؛ ولكنه تقليد مكثار : اذ ان تماثيل نومبورغ وبمبرغ الجميلة هي ، خارج فرنسا ، التماثيل القوطية الوحيدة التي يمكن مقارنتها بتماثيل شارتر او رمس .

اما في البلدان الجنوبية، وهي مهد النمط « الروماني » وأرضه المختارة ، فلم يكن لفن « ايل دي فرانس » هذا الأثر الكبير . فحتى أواخر القرن الثاني عشر بقيت غاليا الجنوبية أمينة كل الامانة للطرائق التقليدية : والى هذا التاريخ يعود ازدهار النقاشة الرومانية في بروفنسا وتحقيق النقوش في فيك وفي كاتدرائية « بوي » . ولم يدخل الفن الشمالي الا بدخول الجمعية السيسترسية وبسط السيطرة الكابيتية ، أي بعد حروب الالبيين في لنغدوك ، ومع سلالة انجو في بروفنسا ــ وبصورة سطحية جداً ــ أي بعد السنة ١٢٥٠ . ثم انتقلت تقنية الاقواس المتقاطعة عبر طرق الحج ، فظهرت في السنة ١١٦٨ في سان ــ جاك دي كومبوستيل ، ولكن كاتدرائيات لوغو وسيغوفيا ، العائدة الى اواخر القرن الثاني عشر ، ما زالت آنذاك رومانية ، على غرار النقاشة الكبرى في كتالونيا وروسيون التي تمادى عهدها زمناً طويلاً بعد ذلك العهد ؛ ولم يشع علم الجمال الفرنسي حقاً ، بعد ان نشره السيسترسيون في بوبليه ايضاً ، الا في اوائل القرن الثاني عشر ، اذ فرض نفسه ، في طليطلة وبورغوس وليون ، على مهندسي الكنائس الجديدة. وهنالك اخيراً بلدان ، هما ايطاليا وانكلترا ، لم يتأثرا بالنمط الجديد الا تأثراً جزئياً .

ففي انكلترا ، التي بلغ من تشربها الثقافة الفرنسية وانقيادها ، في حقل التصوير ، للتقنيات الفرنسية المصدر ، اننا لا نستطيع التمييز ، في القرن الثالث عشر ، بين النقوش الباريسية ونقوش ونشستر المزوقة ، واصلت الطرائق القوطية ، التي اختبرت فيها قبل سواها ، تطوراً مستقلاً منذ عشية الفتح الكابيتي لنورمنديا ، واستغرق تحررها من طرائق النمط « الروماني » النورمندي مزيداً من الوقت . فحتى حوالي السنة ١٢٥٠ ، نرى ان كنائس « الفن الانكليزي البكور » ، وأشهرها كنيسة سالسبوري ، تتألف من اجزاء متجمعة متلاحمة وتنمّ عن ايثار فنانيها ــ الذي سنشاهده في العهود اللاحقة ــ لانبساط الاجزاء القائمة وراء المذبح ، ولا تزال محتفظة بأبواب وضيعة . اما النمط « المزخرف » الذي عقبه ، وهو يتميز ببروز خطوط طفيلية ، فقد تحرر تدريجياً من التأثير الفرنسي . وسواء غطت النقاشة الجبهة كلها بالتماثيل ، كما في كاتدرائية «ولز» ، او اعتمدت في الابنية المدفنية لتمثيل الموتى تحيط بهم مواكب النواحين مذرفي الدموع ، فانها على مزيد من التميز والتفرد ايضاً . اما في ايطاليا ، حيث لم يرسخ النمط « الروماني » نفسه في يوم من الايام ، فان المستوردات السيسترسية الى فوسانوفا وسان غالغانو ، ثم استخدام الاقواس المتقاطعة في الكنائس الدومينيكية والفرنسيسية الكبرى ، الذي انحصر هنا في السقف ولم يفض الى العمودية ولا الى تجوّف الجدران ، لم تتوصل الى تغيير اتجاهاتها الفنية الاصلية الخاضعة اما

التأثير البيزنطي واما التقاليد القديمة .

ضعف التأثير الفرنسي

اضف الى ذلك ان الفن الفرنسي قد اصيب حوالي السنة ١٢٧٥ بنهكة شبيهة بتلك التي اصيب بها الانتاج الادبي . فقد نضبت القريحة الخلاقة ؛ حلّت المسائل التقنية كلهـا ، ولم تتجدد المفاهيم قط ، وافرط الفنانون في التدقيق والرقة ، دون ان يتجرأوا بعد ، كما في انكلترا ، على نهج تزيين مستهجن . ساروا في النقاشة شطر التصنع والتفه . وليس هـذا سوى مظهر من مظاهر الانحطاط التدريجي في الحضارة الفرنسية : فالمملكة الكابيتية قد فقدت آنـذاك المركز الرئيسي الذي احتلته في تطور الثقافة الغربيـة . ويردّ هـذا التواري الى اسباب عديدة نذكر منها في الدرجة الاولى التغييرات التي طرأت في اواخر القرن الثالث عشر على الاقتصاد الاوروبي . استفادت فرنسا في ما سبق ، أكثر من أية دولة اخرى ، من التوسع الزراعي ؛ ولكن هـذا التوسع قد توقف خلال القرن الثالث عشر ، فأدى توقفه ، بفعل فقدان التوازن بين السكان المتزايدين عدداً والانتاج الذي انتهى الى الاستقرار ، الى أزمة كانت مجاعة السنة ١٣١٦ ــ ١٣١٧ الخطيرة اوضح دليل على واقعهـا . واتضحت في الفترة نفسها مظاهر انحطاط الاسواق الدورية في شمبانيا ؛ وغدا الاقتصاد الفرنسي المزدهر ، بعد نمو التجارة الكبرى المطرد ، وتوسع الأعمال المصرفية ، وانتشار النقود الذهبية ، خاضعاً لسيطرة رجال الاعمال الايطاليين ، كما يبدو ذلك بوضوح في باريس نفسها .

الى هذا العامل الاول من عوامل التراجع انضم تقهقر السيطرة الفرنجية في الشرق الادنى : ففي السنة ١٢٦١ استعاد اليونانيون القسطنطينية وحصروا اللاتين في بعض السيادات في شبه جزيرة موريا حيث لم يلبثوا ان تطلينوا ، وفي السنة ١٢٩١ سقطت عكا آخر معقل مسيحي في سوريا : واذا لم يؤثر هذا التقهقر بشيء على التجارة الايطالية ، فانه قد حدّ من نفوذ الثقافة الفرنسية . ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار كذلك توسع الدول الدائرية : المانيا التي امتدت نحو الشرق وقامت فيها المدن الكثيرة وازدهرت اقتصادياً بفضل الطرقات التجارية الجديدة المنحدرة اليها من جبال الالب ، وانكلترا التي احيت بعض تقاليدها المحلية بعد ان فقد الملك والارستوقراطية ممتلكاتها في اليابسة الاوروبية ، وقشتالة التي توصلت الى حصر العرب المغاربة حول غرناطة ، واراغون التي نمت تجارتها في المتوسط والتي انتزعت ، منذ السنة ١٢٨٢ ، صقليا من أيدي امراء انجو الذين انحصروا في ما خضع من شبه الجزيرة الايطالية لمملكة نابولي . ففرنسا ليست وحدها بعد اليوم ، وبمكنتنا تكوين صورة عن هذا التنافس في تاريخ جامعة باريس الداخلي : لا تزال المدارس الباريسية ، في منتصف القرن الثالث عشر ، تحتل مركزاً اولياً معترفاً به ، ولكن المفكرين العاملين فيها والاساتذة الذين يوزعون التعليم على طلابها ينتسبون بأعداد كبيرة لبلدان أجنبية ، كـ « البير الكولوني » و « توما الاكويني » والقديس « بونافنتورا » . واحتلت مدرسة اوكسفورد ، التي ما زالت تتقدم باستمرار ، مركز الصدارة في بعض حقول البحث . وأفضت

النزاعات التي قامت في مستهل القرن الرابع عشر بين البابا وملك فرنسا الى هجرة بعض الاساتذة والطلاب ـ وهي هجرة اولى . اضف الى ذلك ان تجزئة العالم المسيحي الى دول مستقلة متميزة قد حدّت من مكانة المراكز الفكرية الكبرى ، كجامعة باريس مثلاً : وهذا ما حدث في السنة ١٣٠٢ حين نفى فيليب له بيل جون دونس، المعروف بدونس سكوت، بسبب مناصرته لروما.

لهذه الاسباب جميعها ، تدنى شأن النفوذ الفرنسي . فبينما لم يبق من أثر لانتشار اللغة الكابيتية الواسع في الشرق الا في قبرص وموريا ، ازدهر في البورتغال واسبانيا شعر غنائي بلغة الشعب . اجل لا يزال افراد الطبقة العليا في انكلترا يتكلمون اللغة الفرنسية ، ولكنها لغة فرنسية مشوهة باطراد ، وبقوا امناء لقصص الفروسية التي تؤلف بهذه اللغة ، ولكن اللغة الانكليزية ، وهي لغة الارياف ، اخذت تنتشر في المدن وتستعمل في الكتابة مرة اخرى . وتخلى الشعر كذلك عن اللغة الفرنسية في ايطاليا الشمالية ثم في ايطاليا الجنوبية بعد تقهقر « شارل دانجو ». وفي الواقع انتقلت ادارة الثقافة من فرنسا الى ايطاليا في هذه الحقبة الممتدة من السنة ١٢٧٠ الى السنة ١٣٢٠ التي هي بمثابة مرحلة نضج نهائي بالنسبة للملكيات الغربية اشتدت فيها الانتقادات الموجهة الى البابوية ، وقد افضى الحكم فيها على ارسطو الى الحكم على فلسفة توما الاكويني ، ومرحلة توسع التجارة الكبرى توسعاً عظيماً ، ونهضة البندقية وجنوى البحرية والعمليات المصرفية الفلورنسية الكبرى .

تباشير النهضة الايطالية

ان ايطاليا هذه ، التي خيّم عليها الانحطاط حتى ذاك العهد وخضعت خضوعاً متمادياً للغزوات والحمايات الاجنبية، والتي تأثرت أكثر من أية دولة اخرى ، منذ القديس فرنسيس الاسيزي ، بالرسالة الوحيدة القادرة على تجديد مسيحية القرون الوسطى ، قد استعادت بفضل التجارة التي أحياها البحر ، استقلالها الروحي وقوتها الخلاقة . فقامت في مدنها ، حيث تكدست اعظم الثروات المنقولة في الغرب ، ثقافة خاصة متميزة أغنتها العلائق بالشرق ورواسب الثقافة الرومانية التي اخذت تستعيد نشاطها . فهي ايطاليا اذن التي تسلمت إرث فرنسا الادبي ونفخت حياة جديدة في الألوان التي وهنت فيها بعد ان ازدهرت في ما وراء الجبال : ان تقليد قصص الفروسية الذي تلاشى ، داخل المملكة الكابيتية ، في اكثار معقد لا رونق له ، قد وجد له موطناً ، في اوائل القرن الرابع عشر ، في بلاطات حكام لومبارديا المستبدين ؛ كما ان الشعر الصقلي اولاً ، والشعر التوسكاني والبولوني ثانياً ، قد اقتبسا وجدّدا شعر الشعراء المتجولين في فرنسا في « النمط العذب الجديد » . اضف الى ذلك أخيراً ان ثقافة القرون الوسطى الكلاسيكية ، المدرسية والصوفية على السواء ، قد حققت آنذاك ، في « المهزلة الالهية » ، التي تجمع بين الايمان العميق وانتقاد الملكية البابوية بمرارة والاعجاب بفرجيل وارسطو ومعرفة ابن رشد وتمجيد محبة التدلل، منتهى كمالها وأعظم منتجاتها .

وأدت ايطاليا للفنون قسطاً اعظم تميزاً ايضاً . وهذا القسط هو بعث تدريجي للأشكال

القديمة نهضت به ايطاليا الوسطى بصورة خاصة ، في تلك المقاطعات ، الملاجىء ، التي لم تتأثر شأن غيرها بسيطرة المفاهيم الجمالية الاجنبية . فلم ينقطع السكان قط في هذه المناطق عن تشييد الكنائس ذات الاعمدة الداخلية والجدران العارية المغطاة بالاخشاب وفاقاً لنمط الكنائس الملكية الصافي : فان كاتدرائية اورفياتو التي بوشر بتشييدها في السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر ، أشبه بكنيسة ملكية قسطنطينية ، على غرار كنيسة «سانت ماري دي ترانستفير» التي شيدت قبل ذلك التاريخ بقرن ونصف ؛ وبرزت مثل هذه الامانة للطرائق القديمة في التزيين ايضاً سواء في الجبهات حيث تتعاقب القطع الرخامية بأشكال هندسية ، كجبهة «سان ميناتو» في فلورنسا ، ام في اشكال التبليط بالفسيفساء التي رسمها آل «كوزماتي» اليونانيو المنشأ للكنائس الرومانية. اما النقاشة التي تأثرت تأثراً اطول عهداً بالطرائق المستوردة من الخارج ، فقد رجعت بدورها الى الماضي الروماني ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ، في «بارم» حيث تتميز الاشكال الرومانية التي حققها « بندتّو انتلامي » بتوازن وجلال رشيق لا يتميزان عنها في النقوش الناتئة . وفي الربع الثاني من القرن الثالث عشر ، غدت صقليا ، التي أعدّها فردريك الثاني ، في تفكيره ، لأن تصبح مركز الامبراطورية بعد تجديدها ، مركزاً لنهضة صناعة التماثيل القديمة التي أنتجت ، في الفترة نفسها التي أنتج فيها « الاله الجميل » في اميان ، التماثيل النصفية العظيمة المتسمة بطابع روماني عميق التي حققهـــا ازميل « نيكولو دي فوجيا » . واقتبس جمهور من فناني توسكانا اخيراً ، ابتداء من نقولا البيزي وانتهاء بـ « تينو كايينو » مواضيع النقوش المقدسة المستوردة من فرنسا مستوحين في عملهم نقوش النواويس استيحاءً مباشراً. وفي اواخر القرن الثالث عشر شملت هذه الحركة التصوير ايضاً . ولما كان هذا الاخير مستقلا عن فن التزيين الزجاجي الذي لم يجد له مكاناً في كنائس ايطاليا المعتمة ، فقد تأثر تأثراً عميقاً بالفن البيزنطي الذي كان مزدهراً جداً في اواخر عهد النهضة المقدونية ، فجاء التزيين الفسيفسائي الذي انجز في بيت العماد في فلورنسا ، بين السنة ١٢٢٥ والسنة ١٢٨٠ ، تقليداً خالصاً للنماذج الشرقية . ولم يهتم « شيمابوى » (١٢٤٠ – ١٣٠٢) الا لاضفاء الحنان الفرنسيسي على الصور البيزنطية ، وقد واصل محاولاته في سينّا ، دوشيو و « سيمون دي مرتيني » . اما في روما فقد انصرف الفسيفسائي توريتي في كنيسة « سانت ماري » الكبرى (١٢٩٦) ، والمصور الجدراني كافاليني في كنيسة « سانت – سيسيل » ، عن تقليد صور الشرق اليوناني الجامدة المستوية واهتدوا الى حياة الصور القديمة ودقة قياساتها . فكانا كمن مهّد الطريق لـ « جيوتو » الذي ادخل العاطفة القوطية على الاشكال « الرومانية » فأحياها في صور جدران كنيسة « اسيز » العليا (١٢٩٦ – ١٣٠٤) وفي ارينا دي بادوا .

ولكن الفترة (١٣١٧ – ١٣١٨) التي صور فيها جيوتو ، تلبية لطلب آل « باردي » ، وهم من كبار صيارفة فلورنسا ، مشاهد حياة القديس فرنسيس على جدران كنيستهم الخاصة المعروفة باسم كنيسة « الصليب المقدس » ، تصادف في الغرب فترة عقبت مجاعة كبرى انهارت فيهـــا الاسعار الزراعية وأفضى القلق الاقتصادي وتوسع السلطة الملكية في فرنسا الى قيام التكتلات

الاقطاعية ، بينما بدأت اعمال حربية شبه مستمرة مع انكلترا عند حدود غويان ؛ وتصادف ، كذلك الفترة التي اختارها البابا يوحنا الثاني والعشرون لتوسيع القصر الاسقفي في افينيون وللدخول في نزاع معلن ضد « الروحيين » ؛ كما تصادف اخيراً الفترة التي وضع فيها دانتي ، في كتابه « الملكية » ، نظرية امبراطورية لم يعد لها من وجود ، ومجّد ، في كتابيه « المطهر » و « الفردوس » ، العظمة الايطاليــة . فقضي آنذاك نهائياً على التوازن بين العناصر السياسية والاقتصادية والدينية والفكرية لحضارة القرون الوسطى الذي قدّر له ، قبل خمسين سنة ، في عهد القديس لويس ، ان يتحقق بصورة عابرة في « ايل دي فرانس » . فاعترض العالم الغربي ، الذي ما زالت قوته الخلاقة شبه سليمة ، قلق فكري وصعوبات مادية ما كان ليرتقب مدى ديمومتها .

القسم الثالث

الأيام العصيبة

(القرنان الرابع عشر والخامس عشر)

الفصل الأول

وعي مصاعب أوروبا

بعد ان اختل نهائياً ، في الربع الاول من القرن الرابع عشر ، توازن العالم المسيحي السريع الزوال ، دخلت اوروبا الغربية مرحلة طويلة من الاضطرابات تمخضت بتحول عميق في الدول والانظمة الاجتماعية والاقتصادية ، والعقليات . وليست بلايا حرب المئـــة سنة ، والكوارث البشرية ، وتراجع العالم المسيحي امام الغزو العثماني ، واضطرابات الكنيسة الرومانيـــة ، سوى المظاهر السلبية لهذه الولادة الشاقة . اجل لقد قوّت هذه المظاهر المنافسات بين القوى الملكية؛ واستعجلت تحرر الدول حيال السلطة الكنسية ؛ وأظهرت عدم التناسب بـين موارد الامراء المالية والعسكرية وبين وسائل ولايتهم على مجتمع زالت فيه زوالاً نهائياً روابط التعلق الشخصي والعقاري في النظام الاقطاعي . وبدا النظام الاجتماعي وكأنه يتفكك في شقاء الارياف ، وفي انقسامات الاوساط المدنية حيث انفجر حقد الوضعاء على اشراف متشبثين بامتيازاتهم المهنيـــة والبلدية . فبرزت في كل مكان عواقب انكماش الاقتصاد المتمادي : نقص في الانتـــاج وتنافس صناعي وتدن في النقد المتداول وفوضى في الاسعار .

الا ان هذه الايام العصيبة لا تعني قط ، كما يميل الناس غالباً الى الاعتقاد ، تشوشاً كلياً في الافكار وفساداً في الاخلاق او نهكة في القوى الخلاقة . فان الناس آنذاك ، وان عاشوا عيشة جائرة كانت نهاية الحياة فيها قريبة جداً من منبعها احياناً ، لم يبيتوا على اليأس قاعدةً ولا على الدوار نظاماً . وان القرن الرابع عشر الحافل بالمضادات والمتناقضات — التي هي سمات الحياة بالذات — لا يستحق ، في حقل نتاج الفكر والفن ، الازدراء الذي درج الناس على قذفه به .

فيجدر بنا في الدرجة الاولى ان نلم بالابعاد الحقيقية والانسانية لهذه الحضارة التي أرادت ان تكون شاملة مع تشبثها بتنوعها والتي حددت الدولة تجردها في اجوائها .

١ ـ أبعاد الحضارة الغربية

الرقعة الجغرافية

ما برحت رقعة العالم المسيحي الروماني، منذ منتصف القرن الثالث عشر، تنكمش انكماشاً مطرداً . فقد أقصرت ، امام الامبراطورية اليونانيـــة

المجدّدة ، وامام الاسلام ، على الجزر – قبرص وردوس وكريت والارخبيـل – وعلى بعض مقاطعات موريا والآتيك ، ولكنها قواعد انطلاق ضعيفة للنهوض بهجوم معاكس . ولم يكن لهذه المراكز المتقدمة ، القليلة السكان، المتزعزعة بفعل غارات المغامرين الكاتالونيين والنافاريين، سوى قيمةعسكرية هزيلة؛ ناهيك عن ان مشاغل جنوى والبندقية وبرشلونا التجارية كانت كافية للحيلولة دون تنفيذ مشاريع الحملات الصليبية لو ان هذه المشاريع كانت أشد عزماً ولم تقتصر على احلام تغذيها البلاطات الاميرية دون ان يكون لها أي صدى في الجماهير . لذلـك تضاءلت العلائق بين الغرب والشرق في المتوسط الشرقي بعد ان عاث فيه القراصنة الاتراك فساداً. يضاف الى ذلك ان تدخل السلطة العثمانية قد ارغم الحضارة المسيحية على الانكفاء براً ايضاً. فقبل نهاية القرن الرابع عشر تراجعت حدود العالم الغربي حتى شرقي كرواتيا وهنغاريا وبولونيا التي باتت كلها ، منذ ذاك الحين ، ولقرون عدة ، مواقع تهددها الاخطار امام الاسلام التركي. وهو تراجع لم يكن ليعوض عنه الفتح المسيحي للتوانيا عند الحدود الشمالية لهذا العالم .

ولم تعد الممالك الايبيرية كذلك من القوة بحيث تستطيع ، في القرن الرابع عشر ، مواصلة الانتصارات الصاعقة التي أتاحت لها الاستيلاء على كثير من المواقع الاسلامية في الغرب؛ وسيقدر لامارة غرناطة ، في ارض شبه الجزيرة نفسها ، ان تدوم حتى اواخر القرن الخامس عشر . فقشتالة غدت مسرحاً للنزاعات السلالية ولاضطرابات الحروب الاهلية التي تحالف اطراف النزاع فيها مع المسلمين احياناً ؛ وعندما حاولت شن الهجوم على هؤلاء اخفقت امام غرناطة في السنة ١٣١٩ ، وعلى بعض المسافة من « الجزيرة » *Algéciras* في السنة ١٣٤٣ . اجـل لقد برهنت اراغون وحدها عن طاقة توسعية ؛ولكنها،بعد ان استعادت من العرب المغاربة القطاع الفالنسي والجزائري الذي يعود اليها،اقتطعت لها امبراطورية متوسطية في العالم المسيحي نفسه : فالسيطرة الكاتالونية ، وهي آخر سيطرة اشتركت في التسابق البحري ، لم تتخط اليونان حيث أسست بعض الدوقيات السريعة الزوال ؛ ثم اضطرت ، منذ اوائل القرن الخامس عشر ، الى العودة الى حوض المتوسط الغربي : صقليا ، سردينيا ، كورسكا ، الباليار .

كانت النتيجة انتقـال مركز ثقل العالم المسيحي نحو الغرب . ولعل روما نفسها اعتُبرت عاصمة لا تليق بأن تكون هـذا المركز بسبب دنوها من الحدود الجديدة وتعرضها للأخطار . ويمكن القول ، من هذا القبيل ، ان اقامة البابوية في افينيون قد جاءت نتيجة اختيار حصيف ؛ فان افينيون ، وهي ارض بروفنسية ضمن اراضي الكنيسة ابتيعت في السنة ١٣٤٨ من «جان» ملكة نابولي ، كانت عاصمة موافقة يستطيع المندوبون والقصاد وناقلو البريد والرسل الانتقـال منها الى اهم مدن الغرب في آجال متساوية تقريباً : باريس في خمسة او ستة ايام ، لندن في ثمانية او عشرة ايام ، بروج في ثمانية ايام ، البندقية في ثلاثة عشر او اربعة عشر يوماً ، فالنس في ثمانية ايام .

في هذا الغرب الذي تحددت آفاقه ازداد وعي التجار والعلماء والحكام لتقاربهم المتبادل .

وقد شجعتهم على ذلك بعض النجاحات التقنية والنزعات الفكرية الجديدة التي جعلت التحليل والدقة في المرتبة الاولى من مشاغل الفكر . فسوف يتيح قياس الزمن ، بفضل اكتشاف الساعة الدقاقة المتقنة ، حساب دوائر الطول ؛ كما ان تقدم رصد الاجرام قد شق الطريق امام تحديد دوائر العرض بمزيد من الدقة . وبات بمكنة المسافرين ، بفضل قدرتهم على تعيين الاماكن بنقطة تحدد باحداثياتها وعلى وضع الخرائط ، اختصار المسافات وتوفير الوقت . وتحسنت كذلك وسائل النقل على الطرقات البرية والبحرية التي غدا التغلب على مشقاتها امراً اوفر سهولة . ومنذ أواخر القرن الثالث عشر أفضى دخول البواخر المرتفعة والسفن الحربية العاملة بين المتوسط والاطلسي والمانش وبحر الشمال ، ودخول القوارب الشراعية المسطحة والمراكب الطويلة الضيقة والخفيفة العاملة بين الاطلسي والبحر المتوسط ، والتعامل في بروج وعلى سواحل ملاحات بواتو مع بواخر الشحن الشمالية الثقيلة ، الى اعتماد هياكل متشابهة في بناء السفن . ويشير المؤرخ « فيلاني » ، في كلامه عن انتشار المراكب الطويلة الضيقة والخفيفة ، الى شمول استعمال الدفة المحورية . وقد أمنوا للسفينة استقرارها فوق المياه بزيادة عدد الصواري واضافة الشراع اللاتيني الى الشراع المربع ومضاعفة صفوف الجذافين في السفينة الحربية وتقوية الهيكل بتجهيز مقدّمها بطرف قوي . ونبهت « الانوار » الى مداخل المرافىء والشواطىء القريبة من الطرقات البحرية ، وعم استعمال البوصلة . فادت الطمأنينة والسرعة الى اختصار المسافات . ومع ذلك فان السفر من البندقية الى بروج كان يستغرق في القرن الرابع عشر ثلاثة اشهر ، بما فيها رسو السفن في بعض المرافىء للتمون ؛ اما نقل البريد براً بين هاتين المدينتين فكان يستغرق خمسة عشر يوماً في الظروف العادية، بينما كان يكفيه في الظروف الطارئة اسبوع من الاحضار المتواصل .

اما سبب هذا التباين فهو ان الطريق البرية تفضل الطريق المائية ، النهرية او البحرية ، من حيث السرعة : اذ ان المسافة بين مراحلها لا تتعدى ٤٠ او ٥٠ كيلومتراً اجمالاً . واتسعت العربات الكبيرة والثقيلة ، التي تجرها الخيول المقرونة ، لأكثر من ستة عشر شخصاً . الا ان العربة ذات العجلة والحصان والبغل ما زالت ، في الارجح ، الوسائل المفضلة لنقل التجار المبادرين والمسافرين الذين لا ينقلون أمتعة كثيرة ؛ وهي وحدها ما يوافق الطرق الصعبة ، ولا سيما معابر الالب التي أصبحت سالكة بفضل اعمال فنية جريئة فاختصرت المسافات بين المتوسط وبحر الشمال . وهكذا تحولت لمصلحة الرين الطريق التي كانت تؤدي في السابق الى اسواق شمبانيا الدورية ؛ فانحدر المسافرون عن طريق البرينر والسبتيمر والسان – غوتار – الذي تأكيد قيام « جسره المزبد » في السنة ١٣٧٠ – و « السان برنار » الكبير والصغير ، نحو جنيف واسواق المانيا الجنوبية ؛ وأثارت اقامة البابوية على ضفاف الرون ، لمجاز « مون – سني » ، منافسة حركة نقل متزايدة في مجازي لارش و « مون – جنيفر » . ولذلك لم تقس المسافات ، بالنسبة لأناس يواجهون اخطار البحر والجبل ، بقياسات الطول المألوفة ، بل قدّرت بالايام التي يستغرقها قطعها . وقد ذكر المنادي الحربي « برّي » ان « جيل له بوفيه » حدد ابعاد فرنسا في منتصف القرن

الخامس عشر كما يلي : « اثنان وعشرون يوماً طولا وستة عشر يوماً عرضاً » . وهكذا فان ابعاد الغرب في القرون الوسطى ما زالت تقاس بمقياس الانسان .

عدد السكان

هل باستطاعتنا اقامة مقابلة بين انكفاء العالم الغربي وتوقف حركة الارتفاع في كثافة سكانه يا ترى ؟ ان معلوماتنا اولية ومتقطعة وغير متلاحمة : بعض الاحصاءات المدنية في الامبراطورية وايطاليا وهولندا ؛ وفي فرنسا ، احصاء عام للعائلات وسجلات تقديرية ومطارح ضرائب ؛ وفي انكلترا جدولان بالضرائب الشخصية . فهل يمثل مفهوم العائلة ثلاثة اشخاص او خمسة اشخاص ؟ ان السؤال موضوع جدل . ولكن المؤرخين يجمعون على النظر الى القرن الرابع عشر والشطر الاكبر من القرن الخامس عشر نظرهم الى حقبة طويلة تتميز بهبوط كثافة السكان .

اجل لقد أدى ارتفاع هذه الكثافة في القرون السابقة الى اكتظاظ المناطق الخصبة بالسكان، ولكن هذا الارتفاع يجب ان يقاس بالنسبة لوسائل الانتاج لا بأرقام مطلقة . وليس محتملاً ان تكون فرنسا قد بلغت الـ ١٥ مليون نسمة التي توصل اليها «ف. لوت» انطلاقاً من جدول العائلات العائد الى السنة ١٣٢٨ ، بينما ما زال سكان انكلترا في الوقت نفسه دون الاربعة ملايين . فان مساحات جدباء واسعة قد بقيت ، بسبب الافتقار الى التقدم التقني ، شبه خالية من السكان : كالجبال التي لا يعيش سكانها الا من تربية المواشي (الالب، والبيرينيه، وجبال السييرا الاسبانية، والابنين، والجبال القديمة في اوروبا الوسطى) ؛ والتلال البائرة او البراحات في اسكتلندا وبلاد الويلز ؛ ومستنقعات المانيا الشمالية التي لم ينجز صرف مياهها ؛ وسهول المتوسط الساحلية التي انتشرت فيها الملاريا . فلا عجب من ثم اذا تفاوت توزع السكان في الارياف : ففي سهول زراعة الحنطة على مقربة من باريس ، في هضبة فرنسا ، عشرون عائلة تقريباً في الكيلومتر المربع ؛ بينما ليس في تلال « هوربوا » الحرجة سوى ثلث هذه النسبة ؛ وعاش كذلك نصف فلاحي انكلترا في بعض كونتيات الجنوب والشرق .

اضف الى ذلك ان هؤلاء السكان، الذين تفاوت توزعهم وبات عددهم مرتفعاً جداً بالنسبة لحالة الانتاج الغذائي ، قد عانوا الامرين، في بعض المناطق ، من اضرار الحروب . فقد اقفرت بفعل مثل هذه الاضرار بعض مناطق ولاية « بوردو » التي سيهاجر اليها الـ « غافاش » في وقت لاحق. كما ان نورمنديا التي بلغ عدد سكانها، حوالي السنة ١٣٠٠، أكثر من مليون نسمة ونصف المليون ، كانت قد فقدت ، في السنة ١٤٥٠ ، ثلثي سكانها ، فأثار خراب أريافها مراثي « توما بازين » أسقف ليزيو . ولكن هذا النقص في السكان يلاحظ في كافة انحاء اوروبا : ومرد ذلك الى ان نتائج سوء التغذية والانحطاط الاقتصادي كانت اخطر وأعم من كرّ الجيوش الغازية وفرّها .

وقد سبق انقلاب الوضع هذا ما يمكن اعتباره تمهيداً ومقدمة له . فمجاعة السنة ١٣١٦ قد

أفنت عشر الاهالي في مدن صناعة الاجواخ في فلاندر الكثيفة السكان . كما ان الطاعون الاسود، الذي نقله من حيفا الى مسينا احد المراكب التجارية ، قد انتشر ، خلال اشهر معدودة ، حتى في انكلترا وسكندينافيا . اما اضراره ، التي جسّمها المؤرخون المعاصرون ، كما نرجح ، فقد تجاوزت مع ذلك كل تصور ممكن ؛ فتراوحت نسبة الوفيات ، بحسب المناطق المبتلاة ، بين ثمن وثلث مجموع السكان . وقد دوّن سجل خورنية جيفري في بورغونيا ، وهو الوثيقة الوحيدة من نوعها التي وصلت الينا من هذا العهد ، ٦٤٩ حادثة وفاة من اصل ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ نسمة ، في السنة ١٣٤٨ وحدها ؛ اضف الى ذلك ان اديرة المقاطعات المتوسطية قد اقفلت عملياً : فلم يبق في مونبلييه سوى سبعة اخوة من اصل ١٤٠ راهباً دومينيكانياً ؛ وفقدت توسكانا ثلاثة ارباع او اربعة اخماس سكان مدنها ، في الارجح .

كان الطاعون بلاء شاملا تجدد تكراراً حتى أواخر القرن الرابع عشر ، ثم فتك بسكان بعض المناطق بصورة خاصة ، فطبع هبطة كثافة السكان بطابع خطير جداً . وان هذا النقص الكبير في عدد السكان – منتجين ومستهلكين – هو الظاهرة الاساسية التي تفسر تقهقراً اقتصادياً طويل الامد . ومهما كان من امر التقديرات العددية ، فانها توحي لنا مع ذلك بمدى حركة لا نظير لها من قبل: فان عدد سكان انكلترا قد هبط، على ما يبدو ، الى ما دون المليونين والنصف في السنة ١٣٧٧ . اضف الى ذلك ان ندرة اليد العاملة آنذاك واقع أكيد في كافة أنحاء اوروبا : في المدن المزدهرة كبرشلونة وفالنس واشبيلية ،كما في ارياف قشتالة التي لم تكن كثيفة السكان في يوم من الايام – وليس توقف حرب استعادة اسبانيا بغريب عن هذه الحاجة الى السواعد في الارجح ؛ وفي انكلترا كما في فرنسا حيث انكمشت مساحة الاراضي المستثمرة انكماشاً عظيماً ؛ وفي سهول ايطاليا الجنوبية ، وحتى في المانيا التي تأخر العمل في استعمارها الداخلي مع انها لم تصب بالطاعون بنسبة غيرها .

لم يكن الضرر الذي نزل بالمدن أخف منه في الارياف . الا ان المدن ، في اعظم المناطق تحضراً ، ما زالت آنذاك وضيعة جداً: فربما قاربت فلورنسا الـ ٠٠٠ ٤٥ نسمة ، قبل الطاعون؛ وربما بلغت ميلانو ضعف هذا العدد ؛ وتراوح عدد السكان في معظم المدن الداخلية – كمودينا وسيينا وبادوا مثلاً – بين ٠٠٠ ١٠ و ٠٠٠ ١٥ نسمة . اجل لم تعرف مدن اوروبا كلها نسبة النقص نفسها في عدد السكان . فالى جانب هويسكا في اراغون التي فقدت ٥٠ ٪ من سكانها ، ضمت برشلونة ، في منتصف القرن الخامس عشر، ٠٠٠ ٧ عائلة تقريباً ؛ وعلى بعض المسافة من البي التي هبط سكانها من ٠٠٠ ١٠ الى ٠٠٠ ٥ نسمة ، بينما تجدد أكثر من نصف العائلات التي تألفت منها ، لم يهبط سكان تولوز ، بفضل تقاطر الفلاحين الهاربين من حقولهم المتضررة ، بالنسبة نفسها: فقد انخفض عددهم من ٠٠٠ ٣٠ حوالي السنة ١٣٣٥ الى اقل من ٠٠٠ ٢٠ حوالي السنة ١٤٥٠ . ويشاهد هذا التفاوت نفسه في مدن صناعة الجوخ في هولندا التي لم يسجل بعضها أي هبوط قط – فقد استقر عدد سكان غنت حوالي ٠٠٠ ٥٠ – في حال ان بعضها الآخر قد

انهار انهياراً بكل ما في الكلمة من معنى . ويلفت النظر ايضاً البطء الذي رافق ، على الطرق الجديدة للتجارية الدولية، تقدم المدن في مثل هذا الظرف العسير : فجنيف لم تضم سوى ١٣٠٠ عائلة في السنة ١٤٠٤؛ وفي الوقت نفسه تقريباً، كان سكان زوريخ دون عددهم عشية الطاعون، وفي منتصف القرن الخامس عشر لم تبلغ نورمبرغ الـ ٢٠٠٠٠ نسمة قط ، متجاوزة بذلك الى حد بعيد سكان فرنكفورت - على المين - بينما لم يبلغ سكان لوبك ، وهي محور تجارة المدن الهانسية ، سوى ٢٠٠٠٠ او ٢٥٠٠٠ نسمة . وماذا عسانا نقول عن انكلترا الريفية حيث لم تبلغ أية مدينة ، باستثناء لندن ، أكثر من ١٠٠٠٠ نسمة في السنة ١٣٧٧ ؟

في كافة هذه المدن ، وحتى في باريس ، أكبر مدينة في اوروبا - ١٠٠٠٠٠ وربما ١٥٠٠٠٠ نسمة - برز الطابع النصف الريفي الذي لم تفقده كلياً في يوم من الايام . فسواء أفضى الازدهار في القرن الثالث عشر الى ايهام الناس بتقدم مستمر ، ام دفعهم الخوف من الحصار الى ابقاء مصادر التموين قريبة منهم ، فان المساكن المجموعة ، المتقاربة جداً في بعض الاماكن ، قد تباعدت ضمن اسوار انبسطت داخلها اراض واسعة غير مأهولة : حدائق وكروم ومراع وحقول . ويعود ذلك ، بعد ان ندرت اسباب العيش ، الى ان الناس لم يكونوا ليبتغوا اكثار النسل الا في الفترات التي تعقب الاوبئة ، اذ نلاحظ عند الباقين على قيد الحياة ارتفاعاً كبيراً في نسبة الزواج. وقد لاحظ « بيرين » ، في هولندا التي لم تصب شأن غيرها بالطاعون، أصابتها بأزمة الصناعة ، اقبال ابناء النبلاء على الحياة الكهنوتية والفلاحين على جيوش المرتزقة ، بينما كرست الفتيات بتوليتهن لله في سكون حدائق أديرة المدن. وراح الصناعيون الفلمنكيون والبرابانيون يطلبون عملاً في مصانع سينا وفلورنسا المفتقرة الى امثالهم، بينما اختار الكاتالونيون والنابوليون المجازفة والمغامرات .

ربما حدثت آنذاك مهاجرات هامة لم تستهدف ، كما سنرى ذلك في اواخر القرن الخامس عشر ، اعادة استثمار المناطق المتضررة، بل كانت دلائل اختلاف توازن بين نسبة السكان والموارد. لقد انتقل السكان في هولندا من المدن التي عمتها البطالة الى الارياف ، وفي الاماكن الاخرى من الارياف التي سيطر عليها الخوف من مجندي الحروب الى المدن المقفلة . وحيثما استطعنا استشفاف وضع السكان لاحظنا نسبة كبيرة من العازبين ونسبة ضعيفة من الاولاد في العائلات، وفي الوقت نفسه انخفاضاً كبيراً في معدّل الاعمار . واذا ما استندنا الى بعض الحسابات التي اجريت بالنسبة لانكلترا ، فان معدل الحياة ، الذي قدر بـ ٣٤ سنة حوالي السنة ١٣٠٠ ، قد هبط الى ١٧ سنة ابان انتشار الطاعون ، ثم ارتفع الى ٣٢ سنة في الربع الاول من القرن الخامس عشر . وقد بلغ من قصر الحياة آنذاك ان « كومين » نفسه قد نظر الى انسان في الثامنة والخمسين نظرته الى انسان « مسن جداً » . ولم يعجب احد من ان يحكم الامير شارل فرنسا في السابعة عشرة من عمره ويموت في الثانية والاربعين متحلياً بحكمة الشيوخ ؛ في حال ان معاصره ادوارد الثالث ، الذي قضى في الخامسة والستين ، بدا لأبناء جلدته ، في السنوات

الاخيرة من حياته ، وكأنه فضولي ينتمي الى جيل غير جيلهم. وقد اسهم اقتراب الموت بدوره في تضييق آفاق اوروبا التي سبق ورأينا انكماش حدودها .

ولادة الامم

اضمحلت في الوقت نفسه بعض الخطوط التي أعطت ، أثناء اشعاع الحضارة الفرنسية ، ظاهر الوحدة للعالم المسيحي. فان تعاظم سلطة الملوك او الامراء، بعد ان علم الناس كيف ينظرون الى أبعد من الحدود التقليدية للسيادة أو لضواحي المدينة ، قد صلّب الاطارات القومية التي انكمشت داخلها آنذاك روابط الفئات الاجتماعية . اجل ليست ظروف الاحتكاك بين عقليات شعوب الغرب المتباينة ما اعوز الاجيال السابقة : مشاجرات الفرنسيين والاسبانيين على الطرقات المؤدية الى « سان ـ جاك »؛ منافسات البحارة النورمنديين، رعايا ملك فرنسا ، والبحارة الغاسكونيين رعايا ملك انكلترا ؛ تزاحم الايطاليين والفرنسيين والكاتالونيين في اساكل البحر المتوسط الخاضعة للسيطرة العثمانية ؛ تصادم السلافيين والالمان في سهول الشرق ، وتصادم الالمان والسكندينافيين في البحار الشمالية . ولكن التضاد خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر قد ازداد شدة بازدياد وعي الشعوب لفرديتها تحت تأثير الحياة المشتركة في كنف أمير واحد وتأثير المصالح المشتركة وتشابه الاخلاق والمشاعر . وفي الوقت نفسه الذي تفاقمت فيه المزاحمة الاقتصادية، اخذت المنازعات الدينية والمنافسات السياسية وتعابير « الوطن » و « الامة » ترتدي، في كافة اللغات، طابعاً حاداً جداً ، لأن كل شعب اخذ ينصرف الى تحديد نفسه ضد جيرانه في الدرجة الاولى .

نشأت الامة الانكليزية قبل غيرها بفضل قلة عددها وتلاحمها في جزيرتها . فقد تكون ، في القرن الثالث عشر ، ضد المطالب البابوية والتعسف الملكي ، شعور جماعي بـ « وحدة المملكة » بلغ درجة كبرى من القوة في مناطق الحدود حيث اصطدم بالقومية السكتلندية او بتشبث سكان منطقة الويلز بعاداتهم الخاصة . واهتز سكان ما وراء المانش لكارثة بانوكبورن (١٣١٤) ولمعاهدة نورثمبتون المذلة ، وبغضوا السكتلنديين وسكان منطقة الويلز الذين دفعهم « مكر » الفرنسيين ضدهم ، فوحدوا جهودهم وحددوا شعورهم القومي ، بينما نشأ في الالم الشعور نفسه عند الفرنسيين : وكان العامل الحاسم في الحالين حقداً مشتركاً واحداً كما يشهد بذلك مؤرخو المعسكرين : فرواسّار، جان له بيل ، مق دسكوشي ، توما بازين ، او جون دي ريدنغ وتوما ولسنكهام . وقد تباهى كل من المنادي الحربي الفرنسي والمنادي الحربي الانكليزي، في «نقاش» شهير تميز بالحدة ، بتفوق وطنه وتفوق العادات السائدة فيه . واعترف « جيل له بوفيه » ، في «وصف البلدان»، بما لكل من الشعبين من مميزات وعادات، ولكنه لم يخف تفضيله لأمته الخاصة : « ان شعوب هذه المملكة اناس بسطاء ولا يرون الحرب شأن الآخرين » . وقبل مئة سنة ، أي منذ ولاية « جان له بون » اعتبر انصار سلالة « الفالوا » انهم وحدهم « الفرنسيون الصالحون » ، بينما مثلوا بالاعداء الانكليز كافة الجنود الغزاة الذين يجوبون البلاد ؛ وقد وجّه بورجوازيو باريس اللوم « لاسطفان مرسيل » رئيس التجار وقتلوه (١٣٥٨) لأنه حالف عصابات هؤلاء

الجنود ، بينما صرخ قضاة «كاهور» البلديون ، الذين أرغمتهم معاهدة كاليه على الاعتراف بادوارد الثالث (١٣٦٠) : « واعذاباه ، ما اصعب التخلي عـــن السيد الطبيعي والقبول بسيد اجنبي مجهول ! » وهو هذا الشعور القومي نفسه ما اثار الحماس ، في عهـــد شارل السابع ، في قلوب اهالي « تورنيه » وليون المخلصين ، وبعث حرب الانصار في الارياف النورمندية ضد « الفرنسيين المنكرين » المواطئين على الاحتلال الانكليزي والمستفيدين منه .

وتصلبت بفعل الحركة نفسها ، في الطرف الثاني من اوروبا ، مقاومة البلدان السلافية للسيطرة الجرمانية او للفتح التركي . اجل ان الامبراطورية الصربية التي أسسها اسطفان دوسان ، والتي كانت ردة فعل استقلالية ضد الحماية البيزنطية ، قد زالت من الوجود بعد هزيمة كوسوفو الاولى (١٣٨٩) ، ولكن مآثر الجبليين البلقانيين قد عرفت فترات مجيدة بفضل هونيادي واسكندر بك : كانوا ، والحق يقال ، اعداء للاسلام ، ولكنهم لم يتشبهوا بصليبيي القرن الثاني عشر ، بل بالبولونيين ، الذين انتصروا على الفرسان التوتونيين في تاننبرغ (١٤١٠) او بالمحاربين الهوسيين القساة الذين لم تنل منهم حملات عسكرية استمرت عشرين سنة ولا التدابير الامبراطورية القمعية الوحشية ، ولا التنازلات الكنسية التي أقرت في مجمع « بال » . وقد جاء في المرسوم التنظيمي لجامعة براغ الذي أعلن تحت تأثـــير « جان هوس » : « يجب ان يكون البوهيميون الأول في مملكة بوهيميا ، اسوة بالفرنسيين في مملكة فرنسا او الالمان في المانيا .

وعرفت مناطق اخرى ايضاً لم تبتل كغيرها بالحروب والاضطهادات ، يقظة التضامن القومي : فقد كتب محرر العقود اللياجي «همريكور» ، حوالي السنة ١٤٠٠ : «البلاد آخذة في الاتحاد» ؛ وليست البلاد في نظره ارضاً فحسب ، بل مجموع الارادات التي تمثلها وتتحد للذود عن استقلالها ضد السيطرة البورغونية وعن لغتها ضد الثقافة الجرمانية ؛ ونحن هنا امام طليعة امة صغيرة ترمز اليها درجات الساحة العامة في لياج . وليست بأقل فائدة ، من هذا القبيل ، مع انها أكثر تأخراً في الزمن ، ولادة شعور قومي بورغوني في امارات هولندا التي وحدتهـــا منذ السنة ١٣٨٤ ، السلالة المتفرعة عن سلالة الفالوا . وقد اضاف الحاح الضرورات السياسية والاقتصادية والنقدية والانضواء تحت سلطة امير واحد ، ووحدة المصالح ، الى النزعات المحليـــة الخاصة المتأصلة ، صوفية مشتركة لم يكن الأسياد ، في اجتماعات « الجزة الذهبية » ، الوحيدين الذين أخـــذوا بجاذبيتها . فحتى السنة ١٤٣٥ ، استطاع « فيليب له بون » ، الامير الفرنسي ، تعليل النفس باعتلاء عرش فرنسا الذي كان هو اول صاحب احاذة فيها ؛ اما ابنه شارل « المتهور » فقـــد أعلن نفسه برتغالياً ، حتى لا يقول انكليزياً ، بسبب امه المنتسبة الى آل « لنكستر » . وحدث في الوقت نفسه ان كلمة « بورغونيون » التي أطلقت اساساً على انصار خاصموا انصاراً آخرين هم «الارمنياك» اصبحت نقيضاً لكلمة « فرنسيون » . وقد اسف « شستلّين » مؤرخ الحوليات نفسه للنزاع بين « هاتين الامتين المختلفتين ، الفرنسيين والبورغونيين » ؛ ولكن « اوليفيه دي لامارش » و « جان مولينيه » من بعده قد بغضا فرنسا ، وعبر الهتاف « لتعش بورغونيا » ،

في آخر القرن الخامس عشر ، عن يقظة وعي شعب مختلف تماماً ، هو شعب هولندا ، الذي ما زال يتلمس طريقه .

اجل ان اوروبا لم تشترك اشتراكاً متساوياً في هذه التطورات . فليس هناك من وعي قوي حقيقي في المانيا مثلاً ، على الرغم من انها حاولت جمع شتات أبنائها . كما ان الدول التي كانت تؤلف مملكتي آرل وبورغونيا القديمتين توصلت الى التخلص نهائياً من القبضة الامبراطورية ودخلت الواحدة تلو الاخرى في التبعية الفرنسية او في تبعية دوقية بورغونيا أسياد هولندا ، ولم تعد الهجمات الامبراطورية ، بعد منتصف القرن الرابع عشر ، لتهيج الانصار الجرمانيين في ايطاليا الشمالية . ولم تع « الامة » الالمانية حقيقتها ، بسبب حرمانها من عناصرها الغريبة ، الا في ظروف نادرة ، كاحتكاكها بالقومية التشيكية مثلاً ، اذ لم تبرز في أماكن اخرى سوى نزعة عاطفية غامضة لا تتراءى الا في التوريات الادبية .

اما في شبه الجزيرة الايبيرية فيجب علينا ان نتكلم عن القوميات في صيغة الجمع . فالكاتالونيون والاراغونيون والقشتاليون والنافاريون يشعرون ويعلمون انهم يتميزون عن بعضهم ، كما تشهد على ذلك الحروب الأهلية الفظيعة التي قامت بينهم باستمرار . وسبق للبرتغاليين كذلك ، في معركة « الجوباروتا » (١٣٨٥) ، ان أعربوا عن تصميمهم على العيش منفصلين عن مملكة قشتالة .

على الرغم من تألق ايطاليا آنذاك في حقل الفنون والادب ، فانها قد تأخرت ، أكثر من أية دولة اخرى ، عن ركب القوى القومية هذا . وعبثاً نادى دانتي ، في مستهل القرن الرابع عشر ، بمثاله المسكوني المبني على الامبراطورية الشاملة والمسيحية الرومانية ؛ فكان الجواب الوحيد الذي تلقاه أنانية اقليمية غاية في القذارة . وما زال الوطن ، بعد مرور مئة سنة ، كما تتضح في محاكمة « اوران فالا » ، سوى خليط من الافراد لا يجوز ان يكون أي منهم أعز عليه من نفسه : « فهل يجوز ان ارغم على الموت من اجل وطن هو حصيلة هؤلاء ؟ » وليس باستطاعتنا الاستشهاد ، امام هذه الانكارات ، الا ببيترارك الذي تمكن لعمري من تذوق عذوبة الحياة في ارض بروفنسا ، ولكنه شنّع على افينيون ، منفاه في الديار « الاجنبية » وراء الجبال وعبّر عن خلفة الشعبين في « دفاعه » ؛ او بكاترين دي سينّا ، التي تدين لها سلطة الكنيسة ، سواء لمصلحة العالم المسيحي اجمع ام بموجب رسالة قومية ، بالاقامة في روما والبقاء في أيد ايطالية ، « بين سكان روما او ايطاليا » .

اللغات القومية

ان قومية القرن الرابع عشر ، من حيث هي مجرّد عاطفة تفاوت وعيها ولم تجش بعد الا بجمبا بدائية ، وجدت اوثق روابطها في وحدة لغة تعبر فيها ، بالكلمات نفسها ، طرائق الشعور والتفكير نفسها . فقد اهتدى شعب فرنسا ، في ازدهار النثر الذي بات وحده موافقاً آنذاك للأخبار المحلية والقصة والمسرح الشعبي وفي « يوميات »

فرواسار ، وتتمة « قصة الوردة » ، وملاحق « قصة الثعلب » ، وفي التحويرات الكثيرة التي أدخلت على قصص الفروسية والأسرار والمزحيات ، الى مميزات سجيته التي عبر عنها بلسان واحد انكفأت امامه اللهجات الاقليمية . اجل ما زالت فرنسا الجنوبية « وطن لغة الارك » ولكن لغة باريس ، التي ازداد استعمالها باطراد في وثائق الديوان الملكي وفي وضع صيغة القوانين اخذت ، حتى في هذا الوطن ، تنتشر يوماً بعد يوم ، اذ ان « اللغة الام » هي ما كان يعتمد عليه في الصكوك الرسمية . ولذلك فقد دهش المنادي الحربي « بري » من ان سكان بريطانيا ، على الرغم من انهم رعايا الملك ، « يتكلمون لغة لا يفهمها احد غيرهم اذا لم يتعلمها » ، في حال ان سكان كونتلية بورغونيا وسافوا يتكلمون اللغة الفرنسية « بسهولة » .

اما ايطاليا والمانيا ، الامتان اللتان تتلمسان طريقهما ، فما زالتا متمسكتين بلغتيهما الخاصتين. فقد بلغت اللغة الايطالية كمالها دراكاً مع دانتي ؛ وعبرت اللغة الالمانية ، لا سيما في المدن التجارية ، عن التصنع الرمزي والعاطفي ، بينما الاحت مؤلفات « اكهارت » للنثر ان يغدو التعبير عن الفكر الجرماني بالذات . الا ان الحركة القومية لم تجد لها في لغة أية بلاد مرتكزاً اقوى منه في لغة بوهيميا . فقد انتصرت هنا اللغة التشيكية مع شارل الرابع الذي أوصى ، في رقيمه الذهبي ، باستخدامها وتعليمها . وقد أثبتت انها جديرة بمعالجة اصعب المواضيع ، أي القانون والطب والفلسفة واللاهوت ؛ فكانت لغة المصلحين والوعاظ ومترجمي التوراة ، وقد هتف توما دي ستيني قائلاً : « ليست محبة الرب للتشيكية اقل منها للاتينية » . وحين حاربها سيجيسمون دي لوكسمبورغ والبارونات الالمان ، استخدمت للتعبير عن الغضبة والالم القوميين ، على غرار الشعر الغنائي الصربي الذي مجّد لعازر ، المغلوب على نفسه في كوسوفو ، « تاج صربيا الذهبي » .

وليست النهضة الادبية والاجتماعية التي حققتها اللغة الانكليزية اقل ما يميز هذا العهد. كانت الرطانة الانكلو-نورمندية لغة الادارة والمحاكم وأوساط البورجوازيين الأثرياء والارستوقراطية ، فبلغ من بُعدها عن هذه الطبقات الاجتماعية في اواخر القرن الرابع ، انه بات لزاماً فتح المدارس لتعليمها وان المناقشات ، رغماً عن انف رجال القانون ، اصبحت تجري باللغة الانكليزية في البلاطات الملكية . وحين تجاسر هنري دي لنكستر على التقدم بحججه باللغة الانكليزية ، امام مجلس السنة ١٣٩٩ ، لاقالة ريشار الثاني الموالي للفرنسيين ، كان الشاعران « لنغلاند » و « شوسر » وناقلو التوراة نثراً (بايعاز من ويكليف) قد توفقوا منذ ربع قرن الى التعبير الادبي عن رغباتهم الاجتماعية وانتقادهم للأخلاق ومثلهم الديني الاعلى .

السلالات والكنائس القومية

كان مقدراً لهذه القومية الناشئة ان تنحدر شيئاً فشيئاً من هذا المستوى العاطفي والادبي الى المعترك السياسي بشكل تعلق بالسلالات القومية في وجه كل منافس اجنبي مهما كان من امر حقوقه الوراثية . فلقد هدّد السكتلنديون ، المشهورون بولائهم الراسخ لسلالة البروس ، باقالة ملكهم داوود ، حين فكر هذا

الاخير ، وهو في الاسر ، بالتخلي عن مملكته لادوارد الثالث ، « مفضلين تقديم جميع ممتلكاتهم فدية له » (١٣٦٢) . وفي السنة ١٣٢٨ فضل البارونات الفرنسيون فيليب له فالوا على ادوارد الثالث نفسه مع ان هذا الاخير حفيد فيليب له بيل من جهة امه ، لأن فيليب له فالوا من «مواليد المملكة » . وكان لتهمة موالاة فرنسا اثرها الكبير في تخلي الانكليز عن ريشار الثاني وحملهم على القبول بابن عمه هنري دي لنكستر ملكاً عليهم ، كما ان البرتغاليين هللوا لابن زنى مغتصب ، هو جان الاول مؤسس سلالة الآفيز ١٣٨٥ ، رغبة منهم في الحيلولة دون اتحاد سلالي مع قشتالة. وحدث على نقيض ذلك ، كما نرى في اوروبا الوسطى ، ان السلالات الاجنبية تجنست في وطنها الجديد : فقد خلف جان دي لوكسمبورغ الذي تزوج من آخر اميرة من اميرات البريميسليين في بوهيميا (١٣٠٦) ، ابنه شارل الرابع الذي سبق ورأينا ما فعله في سبيل الثقافة التشيكية ؛ وبعد ان استقرت سلالة انجو في هنغاريا بفضل مصاهراتها للاربادين ، دان لها تاج القديس اسطفان بكثير من امجاده وحتى ببسط السيطرة على بولونيا التي عادت وأقامت فيها بعد ذلـــك سلالة سلافية جديـــدة بزواج الملكة هدفيج من الامير اللتواني لادسلاس جاجلون (١٣٨٢) . اما دوقية بورغونيا الذين ارسخوا اقدامهم في هولندا بسلسلة من محالفات المصاهرة فقد بلغ من قوة مركزهم انهم لم يتخلوا عنه قط ؛ ومنذ الجيل الثاني كان « جان سان بور » يتكلم لغة الفلاندر الشعبية ؛ وفي اواخر القرن الخامس عشر وقف الشعب بكليته في وجه مكسيمليان دي هبسبورغ لأنه لم يكن « سيده الطبيعي » .

وبرزت في الغرب اخيراً ، خلال القرن الرابع عشر ، قوميات كنسية حقيقية . ألم يقـــل الكثير خطأً والقليل صواباً عن اقامة البابا في افينيون منذ ان اتهمه بيترارك « بتزويج البابوية من مملكة فرنسا » ؟ اذا كان البابوات « الليموسيون » قد قبلوا في غالب الاحيان بأخذ سياسة الملوك الكابيتيين والفالوا تحت حمايتهم ، فان مهمة دوق انجو الكبرى لدى غريغوريوس السادس في السنة ١٣٧٦ لم تستهدف سوى محاولة ابقائه على ضفاف الرون . ولكن ردة فعل الرأي العام الانكليزي ضد الفرنسيين المستأثرين بالكرسي الرسولي كانت اعنف منهـا ضد دسائس البابوية الايطالية . فقد كان حكم التشريع البرلماني قاسياً جداً على منح الاجانب براءات التولية الرسولية وتهريب الموارد الكنسية وفوائد الحقوق الاميرية البابوية والاكثار من تقديم الدعاوى الى محكمة روما : فقد اضيف في السنة ١٣٦٥ الى انظمة « التولية » (١٣٥١) و « التحذير » (١٣٥٣) ، منع دفع الضريبة الاقطاعية التي توجبت على ملك انكلترا منذ خضوع « جان سان تير » للبابا انوشنتيوس الثالث . واذا كانت المملكة البحرية ، عند حدوث الانشقاق ، بين الممالك الاولى التي جمعت شمل الخاضعين لبابا روما ، فانما كان ذلك ، كما كتب آنذاك اسقف «غالواي» السكتلندي ، « انتقاماً من الفرنسيين ، لا محبة بالحقيقة » .

وتجدر الاشارة هنا ، على كل حال ، الى ان موقف الدول المختلفة من البابويين المتنافسين قد أملته النفسية الاقليمية الخاصة عينها ، فكانت الحكومة الفرنسية ، بدافع من الجامعيين ورجال

الشرع الذين كانوا جدّ سعداء في مراقبة جمع المكاسب الكنسية والمحاكم الروحية ، اول من قام بالاختبار الغلّيكاني ، طيلة سنوات عـــدة ، بتحظيرها الخضوع للبابا (١٣٩٨) . او ليس في التوزيع غير المألوف ، بحسب القوميات ، الذي اخضع له اعضاء مجمع كونستانس المعدّ للحكم على الهرطقة التشيكية – وهي كنيسة اخرى قومية تماماً – الدلالة كل الدلالة ايضاً على تطور مفهوم « الامة » بالذات ، المخصص حتى ذاك العهد بالفئات الجامعية ، وعلى الانظمة الدينيـة الجديدة ؟ فقد طالب الامراء – ويشهد على ذلـــك في فرنسا الامر الصادر عن سلطتي الملك والمجلس في السنة ١٤٣٩ – بأن يديروا عـــلى هواهم شؤون الاكليروس في الامم المختلفة ، كلما استحال الاتفاق مع البابا على الاشتراك في هذه الادارة : وهكذا فان القومية اقامت الحواجز حتى في حقل الكثلكة المسكوني مبدئياً .

الحدود البرية والبحرية

وقد قوّى هـــذه الحواجز التقسيم التدريجي الذي تناول الامارات والممالك . الا ان مفهوم الحدود ما زال ، بفعل الحاجة الى الخرائط الطوبوغرافية الدقيقة ، مجرد مجاز قانوني لأن الحدود غير معروفة تماماً حيث يجب ان تقوم في الارض . وقد رافق الرغبة في الحيلولة دون توضيح حدود الاراضي التابعة للاقطاعات ، رغبة خفية في عدم تعيين حدود التوسعات المفيدة التي قد تحققها السلطة . لذلك غالباً ما كان الفاصل بين الممالك منطقة دفاعية : كالولايات المتاخمة للحدود الشرقية الخاضعة لرقابة الكتائب الجرمانية ، ومقاطعات الحدود بين سكتلندا والويلز حيث فصلت انكلترا عن سكتلندا ، كما يقول المنادي الحربي برّي ، « ثلاثة ايام من البلاد الصحراوية » ، ومقاطعات الحدود الاسبانية المتاخمـــة للعالم الاسلامي . وكان الهدف من الحصون التي شيدت عند تخوم الويلز وقشتالة والاكيتين رسم الحدود رسماً تقريبياً حيث لم تؤلف الجبال او الاحراج « سياجاً » تقليدياً ملائماً : ونحن هنا امام معنى جديد لكلمة « الحدود » التي اقتبست اساساً من جبهة الحرب ، فحلت في اوائل القرن الرابـع عشر محل كلمة « ولاية متاخمة » . ويبدو ان الملك لويس العاشر قد استعمل كلمة « حدود » في السنة ١٣١٥ للمرة الاولى في كلامه عن الحاميات التي تدافع عن المملكة في منطقة الفلاندر ، ثم استعملت ، في وقت لاحق ، في الكلام عن الجبهة الاكيتينية ، وعن كل منطقة تتنازع حدودها الجيوش المتقابلة . فسعى المسؤولون حينذاك ، رغبة منهم في التدقيق والضبط ، الى تعيـــين الحدود بالصلبان والانصاب والاشجار ؛ وقد درجوا على تنظيم الاحتفالات الدورية احياء لهذه الذكرى ، كذاك الذي كان يقيمه اهالي باريتوس ورونكال منذ السنة ١٣٧٥ ، ويتبادلون فيه التعهدات والجزى على نصب مجاز « بييرسان ـ مارتين » الفاصل بين أوديتهم البيرينية . وقد كان لوضع علامات الحدود بين الامبراطورية وجيرانها ، وهو اعظم سهولة على جوانب الانهر – فربان الزورق في الرون يعرف ان الضفة اليمنى هي المملكة واليسرى هي الامبراطورية – دوره في تدريب لجان التحقيق ، وان رافقه الاخفاق احياناً ، على التبصر والفطانة ، كما لوحظ ذلك ، في السنة ١٣٥٥ – ١٣٥٦ ، في منطقة اللورين والبار والكونتية . ولكن الحدود ، على صعوبـــة

رسمها في الاراضي ، موجودة في الاذهان ، وهذا هو الاهم .

واعتبرت حدوداً ايضاً ، في نظر اقوام القرن الرابع عشر ، التخوم البحرية، مع ان الحرب لم تتقيد آنذاك بأي قانون وان الشعب الانكليزي ادعى الملك على المانش ، الذي اطلق عليه اسم « البحر البريطاني » في الخرائط الاولى . وامتـد مفهوم البحر الاقليمي – الذي ظهر في المتوسط – الى الشواطىء الاطلسية ، ولا سيا شواطىء هولندا التي تمخضت آنذاك بمبادىء مخصابة في حقل الحق الدولي العام. وادعت البندقية الملك على البحر الادرياتيكي بكامله، وجنوى على البحر الليغوري ؛ وقد قدّر القانوني برتولو دي ساسوفراتو (١٣١٣ – ١٣٥٦) بـ ١٠٠ ميل روماني – ١٥٠ كلم تقريباً – نطاق المياه الاقليمية المطلقة . ودرج التقليد السكندينافي في بحار الشمال على تحديد المياه الاقليمية بخط يقسمها مناصفة ؛ على انهم، باستثناء الانكليز، قد اعتبروا البحر نطاقاً حراً بصورة عامة . ومع ذلك فان الفلاندر ، حرصاً منها على الامن والسلامة ، اعلنت سيادتها المطلقة على طريدة من المياه الساحلية يبلغ عرضها ٢٠ كيلومتراً تقريباً وتوازي المسافة القصوى التي يمكن رؤيتها من الشاطىء ، وقد عرفت باسم « ستروم » الفلمنكي ؛ واعترف الفرنسيون والانكليز والمدن التجارية الهانسية، مداورة ، بهذا الستروم بين السنة ١٣٧٠ والسنة ١٤١٤ . والدليل على هذا الحرص توسع صلاحيات المحاكم البحرية، على غرار ما حدث في الدول المتوسطية والايبيرية؛ وقد احدثت هذه المحاكم براسيم في انكلترا (١٣٦٠) وفي فرنسا (١٣٧٣) وشملت صلاحياتها البحارة والملاحين على الشواطىء وفي المراكب وفي المياه الاقليمية .

غدا من ثم لزاماً ، لاجتياز هذه الحواجز الجديدة، الحصول على اجازات مرور مؤقتة وقابلة الابطال. فأضيفت آنذاك الى الضرائب على عرض البضائع ومرورها دوائر الجمارك التي أحدثت في كافة دول اوروبا . غير ان فكرة هذه الدوائر ارتسمت في انكلترا قبل نهاية القرن الثالث عشر « بالرسم القديم » الذي استوفي منذ السنة ١٢٧٥ على تصدير الاصواف والجلود ، والذي اضيف اليه الرسم على الاجواخ والخمور المستوردة « والرسم الصغير » على الصادرات المختلفة والرسم على الحمولة الذي استوفي بنسبة المشحونات ، فبرهنت منذ ذاك الحين انها حاجز جمركي قمين بحماية المملكة البحرية . اما في فرنسا فان الضرائب على البضائع ، التي اضيفت الى الحقوق القديمة وتناولت معظم المواد الغذائية ، قـد تنظمت منذ السنة ١٣٥٨ تحت اشراف « رئيس مرافىء المملكة ومعابرها » . واستجابت الرسوم المماثلة في هولندا واسبانيا والبرتغال للحاجات نفسها ، بينما عقد اتفاق في كولونيا ، في السنة ١٣٦٧ ، فرض في كافة المدن التجارية الهانسية رسماً نسبياً لقيمة البضائع المستورة من المناطق الاخرى او المصدرة اليها .

فتنظمت بالتالي اقتصادات اقليمية هي امتداد لروح تقليد القرون الوسطى حـول حماية الصناعة في المدن ، ولكن اطارها أمسى قومياً آنذاك . وطالب المواطنون ، في وجه الاجنبي الذي حسدوه وارتابوا منه، بالاستفادة من نظام يفضّلهم عليه، ان لم يكن من احتكار النشاطات التجارية . فالى السنة ١٣٨١ ، يعود المرسوم الاول حول الملاحـة الذي أعلن حصر التجارة في

مرافىء ما وراء المانش بالسفن الانكليزية ، دون ان يستطيع الى ذلــك سبيلاً على كل حال ؛ ولكن المصدرين الاجانب اضطروا الى دفع رسوم اضافية لأجل التخلص من محطة الاصواف التي تديرها شركة واسعة الامتيازات من التجار الانكليز ، والتي تنقلهــا من مكان الى آخر في البر الاوروبي ، جاعلة منها وسيلة للضغط السياسي : وفي ذلــك دليل على توسع استخدام السوق الممتازة. تأثر وضع الاجانب في كل مكان بهذه القومية الاقتصادية؛ فاذا هم تمتعوا ببعض الامتيازات فانهم في الغالب يخضعون لحق الملك بوراثتهم؛ اضف الى ذلك ان المجموعات القومية التي يؤلفونها تعيش بمعزل عن البلديين، على الرغم من تمتعها باستقلال داخلي: كالمستعمرات (*Loges*) البندقية والفلورنسية والكاتالونية في بلدان المتوسط ، والمستعمرات البرتغاليــة والقشتالية في هارفلور حيث منحها « فيليب دي فالوا » بعض الامتيازات ، وأسواق تجار المدن الهانسية في لندن وبروج ، ولا سيما « الملل » الاسبانية والايطالية في هذه المدينة الاخيرة .

وجلي ان الاجنبي المنعزل ، الذي كان موضوع حذر ، لم يطمئن قط لمصيره . فقد تكررت بعد السنة ١٣٨٠ فورات غضب الشعب اللندني ضد تجار المدن الهانسية والصناعيين الفلمنكيين بتأثير من كرهه للأجانب . وكذلك فان المسلمين الذين خضعوا للنير المسيحي وعوملوا بتساهل في قشتالة واراغون ، قــد عوملوا معاملة قاسية في ماجورك والبرتغال حيث بقيت للرق شوكته . كما ان اليهود ، وهم كثر في اسبانيا والمناطق الالمانية ، قد ذاقوا الامرين حين اعتبرهم الشعب مسؤولين عن الكوارث الطبيعية ولا سيما عن الطاعون الاسود : فقد انفجرت الحركات المعادية للأحياء اليهودية في نورمبرغ وفرنكفورت (١٣٤٩) وبروكسيل (١٣٧٠) . وان التشريع العام ، المستوحى من الحق الروماني ، قد غدا حيالهم قاسياً جداً .

اضطر الاجنبي ، رغبة منه في التخلص من هذه المعاملة القاسية ، الى طلب التجنس ، الذي قد حصل عليه احياناً : وفي هــذا برهان جديد على ان الجنسية كانت سائرة في التطور نحو مفهوم قانوني معين . ففي فرنسا مثلاً ، سن مجلس باريس ، في منتصف القرن الخامس عشر ، قانوناً يعلن ، باسم التضامن القومي ، حق السلطة المدنية في منع الزواج من الاجانب .

فقدان السلطة المنظمة

جاء مفهوم الأمة في الوقت المعين ليساند مبدأ السيادة الروماني الذي حاول الملوك والامراء الغربيون ارساء سلطتهم عليه . وقــد ركّنه تقليد قبول اعضاء المجلس الاعــلى في فرنسا و « وحدة المملكة » في انكلترا ، ففدا هنا « السيادة والقوة » ، وهناك « السلطة المطلقة » ، التي تحدد كلها السلطة الملكية . واعترف الملك في اقسامه اليمين للرب ، وللرعايا امام الرب ، بأنــه ليس سوى حارس شعبه . وفي فرنسا نفسها ، كتب مؤلف « حلم الروضة » ، بايعــاز من شارل الخامس ، « ان الملك يقام ... بارادة الشعب وحكمه ». وبحث الملوك في كل مكان عن نقطة يرتكزون اليها في الاستشارات القومية: جمعيات مجالس الطبقات ، البرلمانات ، المجامع ، ومجالس المندوبين ، التي يطلبون اليها ابرام او

رفض المعاهدات ويعتصمون بآرائها ، وكأنها آراء رجال القانون ، لتبرير اخطر المقررات في حقل السياسة الدولية . وباستطاعتنا القول ، في هذا الصدد ، ان الامة ، التي يرمز اليها اتفاق الامير وممثلي الجماعات ، كانت مدعوة طبعاً لان تصبح مرتكز السيادة بالذات . واذا ما نظرنا من هذه الزاوية الى الصراع الفرنسي الانكليزي الطويل ، الاقطاعي في ظواهره والسلالي في أسبابه المعلنة، لرأينا انه ملكي وقومي معاً في جوهره، لأنه استعجل انهيار الانظمة الاقطاعية وبرهن في الوقت نفسه عن انه محاولة لتحديد النطاق الاقليمي والبشري حيث يستطيع كل امير ، بل يتوجب عليه ، ممارسة السيادة كاملة .

لا ريب في ان فاعلية النزعات التي أدّت الى تجزئة العالم المسيحي وحدات ملكية وقومية قد اختلفت باختلاف درجة تطور الدول والشعوب على الصعيد السياسي او الاجتماعي او الاقتصادي او الفكري . ولكنها قد صادفت في كل مكان حقلا خصباً بفضل فقدان السلطة المنظمة ، منذ ان تزعزعت القوى الثلاث التي تركز عليها الامل بتهدئة العالم الغربي وتنظيمه وادارته . فالامبراطورية قد تحطمت منذ انهيار فردريك الثاني ولم تستعد قط ، على الرغم من محاولات هنري الرابع و « لويس دي بافيير » ، النفوذ والقوة اللذين كان من شأنهما دعم مطالبتها بادارة الامراء. وبعد ان بات التاج يباع بالمزاد العلني، وبعد ان سلخت عنها الاقاليم الفرنسية والايطالية وجاورتها الممالك السلافية وعمتها الفوضى الداخلية، لم تعد الامبراطورية سوى حلم لا طائل فيه .

اما البابوية ، التي غدت على الصعيد الزمني أعظم ملكية مركزية منظمة ، فلم ينازعها احد قط دورها العقائدي ورسالتها الاخلاقية . ولكن أنى لها بعث مزاعمها الثيوقراطية البالية حين تبدو ، في ملجأها الافينيوني ، وكأنها خاضعة لرغبات ملك فرنسا ، وحين تمزقها ، ابان الانشقاق ، المصالح القومية المتباينة ؟ فلم تفقد دورها في ادارة السياسة فحسب ، بل اخذت تفقد دورها التحكيمي ايضاً : اذ ان محاولاتها الكثيرة في سبيل التوفيق بين فرنسا وانكلترا قد ذهبت ادراج الرياح . فاضطرت من ثم ، في القرن الخامس عشر ، امام ازدياد مطالب الملوك ، الى ان تسلم للدول بشكل جديد من التسوية : اتفاق التخلي .

اما مملكة فرنسا ، وهي القوية بنفوذها التاريخي، فقد بدت لرجال القانون المحيطين بفيليب له بيل ، قادرة على الحلول في ادارة سياسة العالم المسيحي محل الامبراطورية والبابوية اللتين برهنتا عن عجزهما. وقد سبق ورأينا كيف ان هذه الاحلام وغيرها لم تستند الا الى الذكرى. ففي الوقت الذي تكونت فيه ، كان نفوذ فرنسا ، مادياً وروحياً ، قد مال الى الهبوط . ثم جاءت الحرب واستعجلت هذا الهبوط فكذبت الوقائع اقوال العلماء النظريين .

لذلك فان مفكرين كثيرين اعتصموا بالصمت والانتظار بعد ان أعياهم ادراك مصير تجزئة العالم المسيحي وخلافاته . وقد اتخذ موقف الانتظار هذا، في النقاط الحساسة من النزاع الفرنسي الانكليزي ، أي في بريطانيا ومنطقة الباسك ، ولا سيما في هولندا ، شكل الحياد وحتى اسمه الجديد . وعجزت الممالك الاسبانية عن تحديد موقفها على الصعيد الديني ، فاعتصمت طيلة

سنوات ، بعد قيام الانشقاق ، في « اللامبالاة » ؛ وان شق عصا الطاعة ، الذي رغب فيه الجامعيون الباريسيون في اواخر القرن ، كان هو ايضاً ، من بعض الاوجه ، ما اطلق عليه اسم « الطريق الوسط » في الانتظار التي زاد في مغزاها ان الذين نادوا بها هم انفسهم الذين تلبّكوا بدقة قياساتهم وادعوا مع ذلك قول كل شيء ومعرفة كل شيء . فقابل تواري السلطة الروحية عجز في السلطة الفكرية .

٢ — هبوط السلطة الروحية

ان القرن الرابع عشر ، الذي هو « قرن الانشقاقات » ، قد نقل مضاداته ومناقضاته الى صعيد الفكر نفسه . لقد اهملت تأليفات القرن السابق الجريئة ، بسبب سخافاتها ، ولكنها ، على الرغم من ذلك ، قد فتحت آفاقاً بلغ من بعدها ان الناس توغلوا آنذاك في مسالكها المتباعدة . فسواء كانت الطريق فلسفة تبتغي الاستقلال عن اللاهوت وتستطيع ان تذهب بسالكها بعيداً في مجاهل الارتيابية ؛ او روحاً علمية تخطو ، بسلطة المنطق ، خطواتها الاولى نحو التدقيق والوضوح ؛ او ايماناً يتمغر احياناً امام الظلم الاجتماعي والكوارث المتعددة ، ويختلط غالباً بالمحبة الالهية والخوف المقض من الموت ، ويفضي الى تفتح شتى انواع الصوفية وتحريك العواطف ؛ فاننا نلاحظ في كل مكان ، وحتى في قصر الحياة الذي يقرّب بين الرذيلة والفضيلة ولا يميز بينهما ، التباعدات نفسها والاختلاف عينه في السلوك والتصرف . ولم يكن من العسير فضح التباسات القرن وغباواته والفراطاته والحرافاته ، ولم يتأخر مهذبو الاخلاق عن ذلك في حينه . بيد ان الجهد الفكري هذا في سبيل اغناء المعارف الخاصة وانطلاقة الروح هذه نحو ايمان مسيحي حي قد كانا اختباراً خصاباً ودليلاً على حيوية في الحضارة الغربية يزيد من أهميتها ان سلطة البابوية الروحية وسلطة الجامعات الفكرية نفسيها لم تتوصلا بعد ذلك الى مراقبتها ، كما لم تتمكنا ، بأولى حجة ، من توجيه مظاهرها المتعددة نحو هدف مشترك .

الانتقادات الموجهة الى البابوية

أقيمت الدعوى على بونيفاسيوس الثامن عشية يوبيل السنة ١٣٠٠ الذي بدا وكأنه أرغم جمهور المؤمنين المسيحيين على ان يخروا سجّداً على اقدام الثيوقراطية الظافرة ، وقد تابعها مستشار فيليب له بيل بكل عناد طوال عشر سنوات تقريباً ، فكانت الظاهرة الاولى من ظواهر مأساة الضمائر المسيحية امام زوال نفوذ أعلى سلطة مسؤولة عن مصائرهم . وقد شعر الملك الورع شارل الخامس نفسه ، في منتصف الطريق التي سلكها هذا الهبوط السريع ، بالحاجة الى استشهاد الله على حسن نيته في مناصرة البابا الافينيوني : ولكن المؤمنين لم ينتظروا انفجار الانشقاق المعثر حتى يشكّوا في خليفة بطرس .

بيّنّا اعلاه الاسباب البعيدة التي أدت الى هذا الهبوط : فان النصر المبين على الامبراطورية ،

بعد سقوط فردريك الثاني ، قد ألقى على البابوية وحدها عبء ادارة شؤون العالم المسيحي الزمنية ؛ فكان هذا العبء اثقل من ان تنهض به وسائلها الراهنة ؛ واخطر تهديداً ايضاً من ان لا يثير ردود فعل السلطة العلمانية التي سارع قانونيو فيليب له بيل الى مساعدتها واهتدوا في الحق الروماني الى ما يؤيد مطالبة سيدهم بالامبراطورية الشاملة . انه انتقام السلطة الزمنية من السلطة الروحية ، وقد زاد من مخاتلته انه تناول ، اول ما تناول ، شخص البابا بالذات ، الذي غالباً ما نعت « بالمسيح الدجال » ، وان حدّته لن تخف في المستقبل أياً كانت سيئات البابوات او حسناتهم .

وما ان خطيت الخطوة الأولى حتى تناول انتقاد التجني حاشية البـــابا وشخصه وحتى سلطته . ولم يحظ بالاحترام العام ، بين بابوات القرن الرابـــع عشر جميعهم ، سوى اوربانوس الخامس وحده ، ذلك الرجل القديس الذي انحنى أمامه بترارك . امـا الآخرون فان الأحكام التي اصدرها معاصروهم عليهم كثيراً ما تحولت الى الثرثرة ، كروايات فيلاني الخبيثة او احقاد بترارك الجائرة ، وكان هذا الأخير أول من يستفيد من الانعامات البابوية وأول من ينتقدها اذا منحت سواه . اجل لقد افسحت محبة اكليمنضوس الخامس ويوحنا الثاني والعشرين المفرطة لاولاد اخوتهما وتبذيرات اكليمنضوس السادس مجالاً للانتقادات الشرعية ، ولكن يوحنا الثاني والعشرين اتهم بالبخل تجنيـــاً ايضاً . وكان بندكتوس الثاني عشر ، وهو السسترسي المتقشف والمرجع اللاهوتي الذي نعلم ، هدفاً بعد موته لحملات بترارك والامبراطوريـين والمتسولين الذين حاول اصلاحهم . وان في عنف هذه الحملات ، التي لا توحي الثقة اجمالاً ، لدليلاً على وقاحـة متزايدة : فالمعروف عن « ماتيو فيسكونتي » ، الذي اتهـم بمحاولة السيطرة على يوحنا الثاني والعشرين ، انه كان يصرح علناً ان « البابا بعيـد عن البابوية بعدي عن الالوهية » . والحقيقة ، على كل حال ، هي ان ترددات هذا البابا في موضوع مشاهدة الله في السماء وتهوراتـــه العقائدية ورجوعه عن اقواله قبيل اسلامه الروح لم تكن لتوحي ثقة عمياء في شخصه .

وقد بلغ السيل الزبى عند حدوث الانشقاق حين تراشق الحرم باباوان متنافسان . فتبنت جامعة باريس ، دون ان تقصد ذلك ، جسارات ويكليف الذي حـكم على البابا وين منـــذ السنة ١٣٨٣ ودعا المسيحيين للاتحاد ضدهما : وبلغ منها حوالي السنة ١٤٠٧ ، بعـــد فشل « طريق التخلي » ، ان نعتت بندكتوس الثالث عشر بـ « المنشق المتصلب » و « الهرطوقي الحقيقي » ، وغريغوريوس الثاني عشر بـ « مخرب الكنيسة » ؛ ثم اتهمهما مجمع كنستانس بالرقي والسحر بعد ان اطلق على الاول تهكـماً اسم *Beneficius* (المستغل) والثاني اسم *Errorius* (الضال) ؛ ولن يلبث آباء مجمع كنستانس ان يعزلوا يوحنا الثالث والعشرين لانه « خطر وغير نافع » .

يغلب على ظننا ان اباحية الكلام هذه انما كانت في تقاليد القرون الوسطى ؛ اذ ان بترارك الذي اصدر احكاماً سيئة المقصد على البابوات، لم يكن قط ليقصد تحقير المركز البابوي لانه كان محافظاً ويعتبر البابوية مصدراً لكل سلطة . بيد ان انتقاد الاشخاص لم يكن من جهـــة اخرى

ليعزز هذا المركز الذي ادركه ايضاً رشاش الانتقادات اللاذعة التي وجهت الى مجمع الكرادلة . فمركزية الحكومة البابوية المتعاظمة قد اولت الكرادلة في الواقع شأناً عظيماً . كانوا مستشاري البابا حين يدعوهم الى الاجتماع وقاموا الى جانب ذلك بالاشراف على شؤون الديوان والمحاكم والمجلس الرسولي والقصادات وادارة دول الكنيسة . وتمكن بعضهم احياناً من اتباع سياسة شخصية او اقله خدمة صوالح الأمير الذي يدينون له بارتقائهم الى مقام الكردينالية . وقد توفرت لامراء الكنيسة وسائل الحفاظ على مرتبتهم : حشم وخدم منزليون ، مساكن عظيمة ، ثياب رسمية ، نصيب من موارد الكنيسة العادية (الخدمات المشتركة) ، انعامات استثنائية خاصة ، موارد الرتب الكنسية الكثيرة على الرغم من مساعي يوحنا الثاني والعشرين للحدّ من سوء استعمالها . وامتلأت مصالح الادارة البابوية بازلامهم الذين كان الكثيرون منهم يتخبطون في حالة عوز شديد ويبحثون عن رتب كنسية شاغرة . وتذكرنا لهجة الانتقادات ضد هذه التجاوزات بلهجة القديس برناردوس معنفاً احبار عصره . فبعد وصف بترارك لهؤلاء الرجال « الذين اعمتهم قطعة جوخ حمراء صغيرة تتألف منها قبعتهم » ، اعتبر جرسون *Gerson* ان « الذين يجمعون ٢٠٠ وحتى ٣٠٠ رتبة كنسية » خليقون بان يعرضوا في معرض جثث المجرمين ، وتكلّم نقولا دي كلامانج » في « دراسته عن خراب الكنيسة » عن « لجنة جشعهم القاتمة المرعبة ». واغتمت بريجيت السويدية ، وكاترين السيئية من بذخهم اغتمام الروحيين الذين تعرضوا لاضطهاد مؤسف في الوقت نفسه الذي توسعت فيه الحقوق الاميرية البابوية . ولكن هل كان لكرادلة افينيون ابناء اخوة ومحبون اكثر من اسلافهم كرادلة روما يا ترى ؟ وما هي قيمة كلام المخادع الذي لم يثبته بالدليل قط لا بترارك ولا فيلاني ولا مارسيل البادواني . فقد استطاع جوفروا الباريسي بدوره ان يتهم الرومانيين بانهم لا يحبون البابا الا لغاية مادية .

الا ان الشكوى الحقيقية لاعداء البابوية ، وهي ابعد هوى وبغياً ، فغير هذا كلّه : فالمآخذ على باباوات افينيون انهم كانوا فرنسيين ، وملأوا مجمع الكرادلة بغاسكونيين وكرسينيين وليموسيين يضمنون اخلاصهم ، وانتظروا تهدئة دولتهم الايطالية حتى ينتقلوا الى بلاد لا تكرم الضيف ، وايدوا اخيراً وجهة نظر ملك فرنسا ضد انكلترا على الصعيدين المالي والدبلوماسي . ومهما بلغ من غلو بعض هذه التهم ، فانها قد اسهمت مع ذلك ، في حينه ، في احراج مركز السلطة الروحية في معترك المنافسات السياسية واضعاف ثقة الناس بها اضعافاً ملحوظاً .

النظريات الامبراطورية الجديدة

استفاد في الدرجة الاولى من هذا الضعف اصحاب النظريات السياسية وانصار الروح العلمانية والتواقون الى الحلم الامبراطوري الذين رغبوا في تحقيق انتقام الدولة من ادعاءات ثيوقراطية ما زالت متأصلة حتى بعد ما الحقه بها القانونيون الفرنسيون من استذلال واخزاء . ففي السنة ١٣١٢ بالذات ، اعلن اكليمنضوس الخامس في رسالته « العناية الراعوية » ، كمال السلطة البابوية ، كما اعلن يوحنا الثاني والعشرون ، في السنة ١٣١٦ ، حقه في الرئاسة في السماء وعلى الارض . فوجد الكرسي الرسولي

آنذاك مرّة اخرى اشد مناوئيه عناداً في المطالبين بالتاج الامبراطوري الذين تمكنوا من ابقاء ايطاليا تحت رحمتهم. اجل قضى الموت على طموح هنري السابع عشية تتويجه في روما (١٣١٣)، ولكن لويس دي بافيير قد توفق الى حمل التاج ، رغم انف البابا ، في المدينة الازلية ، في السنة ١٣٢٨ . انه لنجاح سريع الزوال في الحقيقة ، ونجاح ظاهري اكثر منه واقعي: اذ ان كردينالاً واحداً لم يتخل عن يوحنا الثاني والعشرين ؛ ولم ينظر احد نظرة جدّية الى البابا المزيف « بيير دي كوربارا » وادارته الوهمية ، فاضطر الدخيل بسرعة الى الخضوخ وانهى ايامه في قصر افينيون حيث فرضت عليه اقامة هنيئة مغمورة . ولم تحضر الجماهير البيزية تمثيلية اذلال الشخص الخشبي الذي يمثل يوحنا الثاني والعشرين الا مكرهة وبناء على امر امبراطوري . اما الامبراطور فقد اضطر الى الهرب من ميلانو تخلّصاً من سخرية الخفراء . ولكن اذا اثبتت هذه الهجمات الامبراطورية عدم جدواها ، فان الصراع المرير الذي اوجدته بين الامبراطورية والبابوية قد اتاح للروح العلمانية التي سيرت أصحاب النظريات ان تطلع بجسارات لم تخطر على بال بشر من قبل .

فحوالي السنة ١٣٠٨ ، لم يجتريء الستر سي انجلبرت دادمون ، في نقاش قريب العهد ، على تمييز من تعود اليه السلطة الواحدة الضرورية للعالم المسيحي . وبعد مرور خمس سنوات ، وبوحي من بعض نظريات ابن رشد في الارجح ، اشاد دانتي بدوره بـ « الشمسين » المتساويتين بالتطابق . اجل لقد كان من المنادين بالوحدة المسيحية ولكنه انبأ بانفصال محتوم بين السلطة العلمانية والسلطة الدينية ، فقوض من حيث لا يقصد احد الاسس التقليدية لهذه الأخيرة، برغبته في الدفاع عن قميص الجسم السري التي لما تخط بعد : وان دحضه الجدلي لـِ « هبة قسطنطين » قد مهد الطريق ، قبل قرن كامل ، لانتقاد لوران فالا . وألف مارسيل البادوائي، أحد انصار لويس دي بافيير ، في السنة ١٣٢٤ ، كتاب « نصير السلام » الذي اعلن تفوق الدولة التي يعود اليها وحدها أمر الاشراف على المصير الزمني للجنس البشري. فليست من ثم سلطة البابا الزمنية ، والبابا مجرد معتمد للمجمع او للامبراطور ، سوى حصيلة سلسلة من الاغتصابات ؛ وليس بالتالي للسلطة الكنسية من وجود الا في الدولة وبواسطة الدولة : هذه هي النتائج القصوى التي استخلصها مارسيل من مفهوم الخير العام في فلسفة ارسطو . اضف الى ذلك ان مصدر السلطة الدينية ، الذي هو جمهور المؤمنين ، علمانيين وكهنة ، قد جعل من نظام المراتب امراً نافلاً ؛ وان الكهنة ، المتساوين جميعهم ، يرشدون رعاياهم الى خلاصهم بانوار الوحي دون غيرها . فلا عجب من ثم اذا ما حيّا مشايعو « الانجيل الازلي » ، من روحيين واخوة صغار ، في لويس دي بافيير ، المنتقم للحكم على ميشال سيزينا ، الذي يجسد الفقر الفرنسيسي الملزم ؛ واذا ما اقدم سكان روما على المناداة بالامبراطور في الكابيتول . وهكذا فان القحمة الامبراطورية ، التي هتف لها اليواكيميون ، قد تلوّنت بالذكريات الماضية والابتغاءات القومية ايضاً .

لهذه النزعات نفسها استجابت ، بعد مرور عشرين سنة ، مغامرة « كولا دي رينزو »

الغريبة في روما : تولّي السلطة يوم أحـــد العنصرة من السنة ١٣٤٧ ؛ استحمام رمزي في بيت العماد القسطنطيني في اللاتران، عقبه تسليم الاسلحة في أول آب المصادف ذكرى حمل اوكتافيوس للقب اوغسطوس ؛ بعد مرور اسبوعين ، حمل الحامي عن حقوق الشعب ستة تيجان كمقدمة لتسلّم السلطة الامبراطورية . فحدث آنذاك هذا التناقض الغريب : روما امبراطورية بدون امبراطور وبابوية بدون بابا : وكان على شعب روما وعلى المدن المتحالفة معه ان تستعيد السيطرة على العالم وحق منح الشارات الامبراطورية . اجل كانت المغامرة قصيرة الامد وانتهت بشكل محزن ومضحك معاً . ولكن في مجرد حدوثهـا لمغزى بعيد الدلالة على عجز الكرسي الرسولي عن ادارة شؤون العالم المسيحي الزمنية .

ففي منتصف القرن الرابع عشر هذا لم يعد تعبيرا « الشعب الروماني » و « الامبراطورية» ليشملا كافة الشعب المسيحي ولا كافة العالم المسيحي . اطلق التعبير الاول آنذاك على سكان مدينة روما دون غيرهم ، كما اطلق التعبير الثاني على المملكة الجرمانية دون غيرها . ولم تكن مطالبات لويس دي بافيير الشاملة لتخدع بلاط افينيون : فقد درج احد الكرادلة على ان يقول للبابا : « ايها الأب الأقدس ، احذر الغضبة التوتونية » . والشيء الوحيد المهم في نظر البافييري كان مملكته الجرمانية وسيطرة عائلته على الامراء الألمان ، وهو قد اكره على الدخول في صراع لا مخرج منه ، لان التاج الامبراطوري كان ضرورياً لتحقيق ما يصبو اليه . وأدرك خلفه شارل الرابع ان تتويجه في روما (١٣٥٥) احتفال لا اهمية له ؛ وحين حصرت « البراءة الذهبية » ، في السنة ١٣٥٦ ، حق انتخاب الامبراطور بسبعة ناخبين من الألمان ، لم يدهش أحد من اغفال ادعاءات البلاط الروماني ، لان تحرر الامبراطورية من الوصاية البابوية كان أمراً مفروغاً منه .

الكنائس القومية

وبينما كانت الامبراطورية تحقق هذا التحرر ، وروابط التبعية الاقطاعية بين الكرسي الرسولي والتيجان الخاضعة له تسترخي أو تنحـــل ، لم تعد المبادهات والآراء البابوية لتلقى اذناً صاغية لدى الحكومات الا بمقدار تأمين صوالح هذه الأخيرة . لقد كثر الكلام ، طوال القرن الرابع عشر ، عن حملة صليبية شاملة ، ولكن الصوالح الخاصة جعلت الامراء يتصامّون في كل مكان حيـال نداءات الدبلوماسية الافينيونية في سبيل التهدئة : فلم تتحقق بالتالي وحدة الممالك ضد القائلين بغير الدين المسيحي . وبرزت بحدة آنذاك بسبب تعاظم المركزية في حكومـــة الكنيسة ، مشكلة تقليديّة هي مشكلة العلائق بـــين السلطتين . فقد تعارض منح بعض الرتب وصوالح المانحين العاديين ؛ كما ان تعيين الاجانب خيب آمال خريجي الجامعـــات واصطدم بالشعور القومي لا سيما في انكلترا ابان الحرب الفرنسية . وكان من شأن استئناف الأحـكام أمام « محكمة روما » احتمال اعـــادة النظر في الدعاوى التي فصلت فيها المحاكم الملكية ؛ كما ان جمع الغرفة الرسولية للاعشار والضرائب والرسوم المختلفة قد حرم الحكومة الانكليزيـة من بعض الموارد الاميرية . لذلك كانت انكلترا أول من عارض هذا الوضع ، وزاد في معارضتها له انهـا اتهمت البابوية بالتحيز لعدوهـــا . وليس مردّ اهمية

الشكاوى البرلمانية المتكررة من تجاوزات الكرسي الروماني الحقيقية او الوهمية ، بما فيها حملات البرلمان الصالح على «مدينة افينيون الخاطئة»، واهمية الانظمة المعادية للبابا التي اعلنت في السنة ١٣٥١ والسنة ١٣٥٣ وجدّدت او اكملت في السنوات ١٣٦٥ و١٣٩١ و١٣٩٣ ، الى فعاليتها — فقد بقيت حرفاً ميتاً — بل الى المبادىء التي تستخلص منها . فلما كان الملك هو الولي الأخير لكافة الرتب في انكلترا بوصفه سيداً على حفدة واقفيها ، ادعى لنفسه بحق الحلول محل الأولياء المقصرين كي « يعيد حرية الانتخابات » ؛ وما ذلك في الواقع الا ليراقب مراقبة مباشرة كل تعيين في المناصب الكنسية الهامة ويفرض على الاكليروس اكبر اسهام ممكن في نفقات الدولة ويدير بنفسه كنيسة قومية لا يكون البابا سوى مرشدها الروحي البعيد . ومنذ السنة ١٣٧١ اقترح اخوان اوغسطينيان على البرلمان حجز ممتلكات الكنيسة كي تسدّد بواسطتها ، للخير العام ، النفقات الباهظة التي تقتضيها حرب مشؤومة ، فسبقا بذلك النظريات الويكليفية . ولم يخطىء الأساقفة الانكليز في تخوفهم من هذا الاقتراح : فقد كانوا يخشون الوصاية الملكية الثقيلة فوق خشيتهم المطالب البابوية . الا ان الملك ما زال يؤثر الاتفاق مع الكرسي الرسولي ومقاسمته اسلاب كنيسة انكلترا على السير حتى النهاية في تنفيذ المقررات البرلمانية المتطرفة .

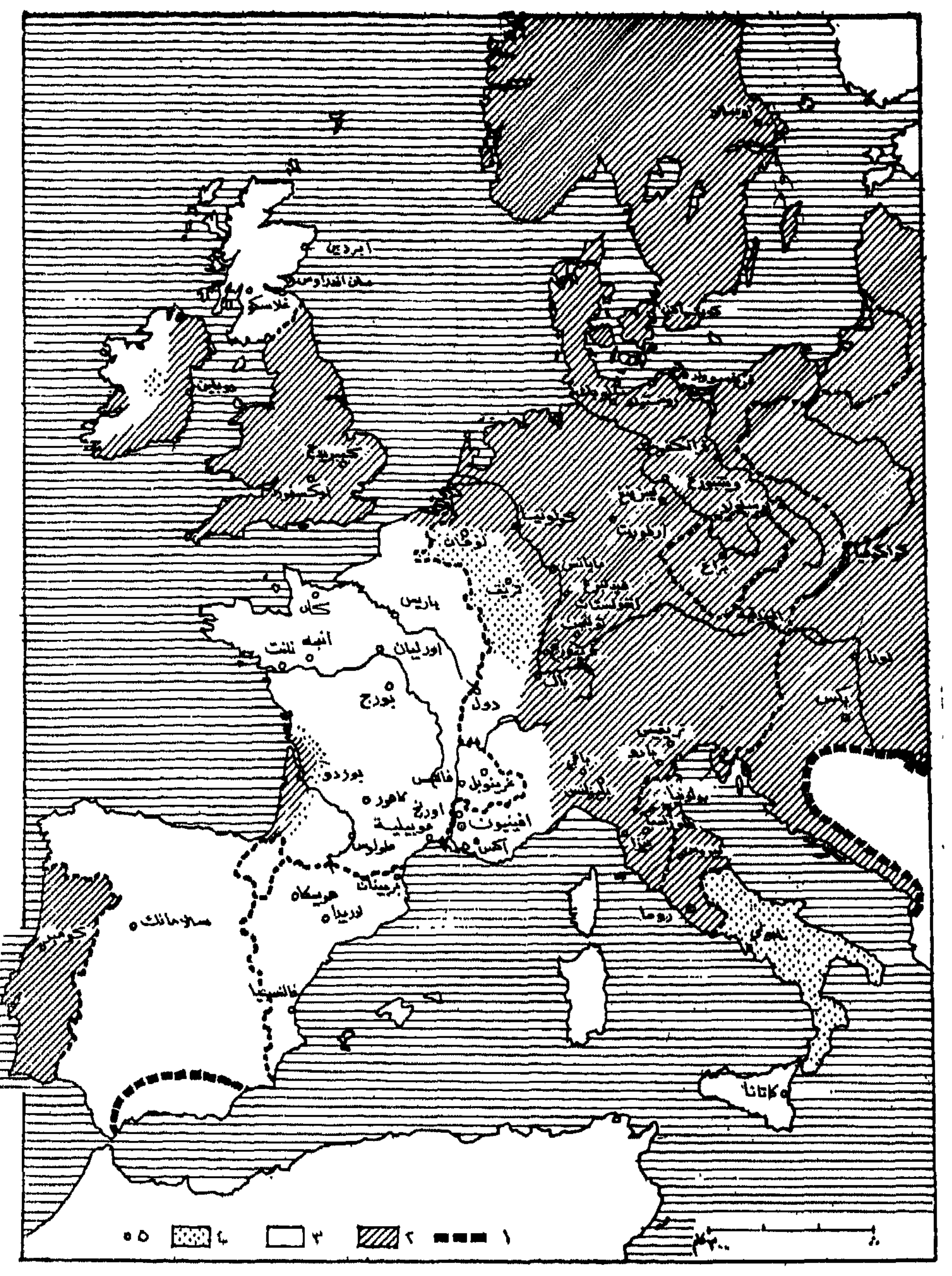
ولم ينقض جيل على ما حدث في انكلترا حتى نظمت فرنسا بدورها ، اثناء اضطرابات الانشقاق ، كنيسة قومية خاضعة للسلطة العلمانية . وطيلة بقاء البابوية فرنسية ، اقتصرت الاصطدامات بين السلطتين على المنافسة المثيرة بين المحاكم المدنية والمحاكم الكنسية التي حاولت جمعية فنسيان ، في السنة ١٣٢٩ ، التمييز بين صلاحياتها الخاصة ، والتي اصدر شارل الخامس في معرضها مرسوماً حدّ من صلاحيات المحاكم الاسقفية ، الا ان الموقف الملاطف الذي وقفه بلاط افينيون قد ساعد كثيراً على تذليل الصعوبات النادرة التي اثارتها براءات التولية الرسولية وحق الاسلاب او عدم اقامة ذوي الرتب من الأجانب . ولم يحدث في الحقيقة اي امر هام حتى اليوم الذي اقدمت فيه الحكومة الملكية ، بعد مرور عشرين سنة على الانشقاق ، على تبني قضية « الوحدة » ، ودعت الأمراء ، رغبة منها في اكراه البابوات المتصلبين على الاستقالة ، لان يحرموهم حق رقابة الكهنة الوطنين واسباب المعيشة معاً . وان حركة شق عصا الطاعة في السنة ١٣٩٨ ، التي اعدّتها كلّية اللاهوت في باريس ، وهي أول من طلع بالغليكانية الجامعية ، والتي حظرت مؤقتاً استئناف الأحكام أمام الكرسي الرسولي، قد أولت البرلمان صلاحية مطلقة في قضايا الرتب الكنسية التي تمنح أصحابها دخلاً معيناً والدعاوى الخاصة بحياة الاسقفيات والخورنيات وجمعيات التسول . وحين تقررت في السنة ١٤٠٣ العودة الى الطاعة ، لم تتخلّ صحابة الملك عن هذه الغليكانية البرلمانية» التي خولتهم حقوا لاطلاع على الشؤون الروحية . فقد فرضت مراسيم السنة ١٤٠٧ على الكرسي الرسولي اختيار أصحاب الرتب الكنسية من بين عدد من الكهنة تقرره لجنة جامعية . فسارت فرنسا بذلك على الطريق المؤدية الى الأمر الذي صدر عن الملك والمجلس في بورج حول الشؤون الكنسية وأتاح تحديداً واضحاً « للحريات الغليكانية».

فكان هنالك أولاً حق كنيسة فرنسا في ان تدير شؤونها بموجب « القوانين المقدسة » ، أي مقررات المجامع الأولى والأحبار الأولين ، وهي كل لا يمس ولا يمكن ان يحوّر بارادة البابا التي لم يعد لها على المملكة سوى « سلطة معتدلة » . وكان هنالك ثانياً ، في حقل الرتب الكنسية أو الحقل الجبائي ، سيطرة صحابة الملك سيطرة فعلية على الشؤون الكنسية : اذ ان الانشقاق المعثر الذي تقاسم المسيحيين حول باباوين أولا ، ثم حول ثلاثة باباوات ، قد حمل اللاهوتيين على ان يسندوا ، ولو مؤقتاً ، ادارة كنيسة فرنسا الى « ابن الكنيسة البكر » وقضاته . وكي لا تتألم من هذه السيطرة العلمانية الجديدة ، لن تجد بابوية القرن الخامس عشر وسيلة أفضل من قسمة الصلاحيات عن طريق اتفاقات التخلي .

المذهب المجمعي

اضطرت البابوية ، قبل ان ينتهي بها الأمر الى هذا الحل ، الى مواجهة خطر آخر مصدره الكنيسة نفسها استهدف اذلال سلطتها اذلالاً نهائياً. فحق حدوث الانشقاق الكبير ، كانت الأسباب المتذرع بها أبداً، لعزل أحد البابوات وانتخاب بابا آخر يقاومه ، عدم الاهلية أو جريمة الهرطقة. وبحجة الهرطقة هذه ادعى لويس دي بافيير عزل يوحنا الثاني والعشرين ، كما سبق لفيليب له بيل ان عزم على استصدار الحكم على بونيفاسيوس الثامن . ولكن باباوين تحليا اثناء الانشقاق بأهلية شخصية متساوية وتقاسما الشعب المسيحي ، فازهرت القداسة في كلا الجانبين : كاترين السيئنية ، وكاترين الاسوجية وجيرار كروت بين مناصري اوربانوس الرابع ، والرسول العظيم فنسان فرييه بين مناصري اكليمنضوس السابع . فأين هي الحقيقة يا ترى ؟ ان تهمة الهرطقة تلصق بدون تبصر ، ما زالت في نظر اللاهوتيين أضعف من ان تحل مسألة جديدة . فدوت حينذاك ، كما لم تدو يوماً من قبل ، الدعوة لعقد المجامع ، ونضجت النظرية المجمعية .

اذا كان الاحتكام الى المجمع ، بصدد مقررات اصدرها بابا ظالم أو غير واقف على الحقيقة ، قد بات أمراً عادياً منذ قرابة قرن ، فمرد ذلك الى انه استجاب لبعض نزعات الفكر المسيحي التي لا تخلو من خطر كبير على كل حال . استخلص بعضهم ، من تحديد الكنيسة كما نقحه كونراد دي جلنهوسن (جماعة المسيحيين المؤمنين في العالم بأسره) في السنة ١٣٨٠ ، النتائج القصوى ، مقلّلين من دور نظام المراتب أو ملاشينه تماماً . وعلى نقيض ذلك ، حمل بعض الاساقفة ، للدلالة على خضوعهم للكرسي الروماني ، هذا اللقب : « الاسقف بنعمة الله والكرسي الرسولي » ، وتناول التأديب الكنسي جان دي بوبي في السنة ١٣٢١ لانه علّم في باريس ، ان سلطة الاساقفة وحتى الكهنة تنبثق مباشرة من الله دون ان تمر بالبابا : فكان ذلك بمثابة عودة الى أحلام « الروحيين » بصدد كنيسة يتنازل فيها الكهنوت الرسمي عن مكانه لحياة رهبانية ينزل عليها الوحي ، وانباءٍ بتهجمات أمثال ويكليف وهوس على نظام المراتب ، وتشجيعٍ للجمعيات الدينية والرهبانية على مقاومة محاولات الاصلاح التي قام بها يوحنا الثاني والعشرون وبندكتوس الثاني عشر وانوشنتيوس السادس .



الشكل (رقم ١٦) العالم المسيحي الغربي في عهد الانشقاق الكبير

١ – حدود العالم المسيحي اللاتيني . ٢ – العالم المسيحي الخاضع لاوربانوس حوالي السنة ١٣٩٠ .
٣ . العالم المسيحي الخاضع لاكليمنضوس حوالي السنة ١٣٩٠ . ٤ – مناطق التنافس بين هذا وذاك .
٥ – مدن جامعية و « مكاتب » في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

اضف الى ذلك ان النظرية الجمعية قد نضجت في القرن نفسه الذي شاهد توسع نظام الجمعيات التمثيلية في كافة الممالك . واعتقد مجلس الكرادلة بامكانية الاستفادة من مثالها فحاول بعد السنة ١٣٥٢ فرض وصاية الكرادلة على الأحبار الجدد . الا ان انتقاد القانونيين والمفكرين قد تخطى هذه الرغبات الاوليغارشية . فقد انتهت آراء مارسيل البادواني في السياسة الى حملة عنيفة على نظام المراتب : اذ انها قالت بمساواة كافة الكهنة وعينت لادارة الكنيسة العليا الجمع العام الذي ليس البابا سوى ممثله فحسب . وعلى غراره مجد « غليوم دوكهام » ، في « حواره » ، دور الجمع ، وقد اتاحت له حذاقته الجدلية التأكيد بأن وحدة الكنيسة لا تتنافى وتعدد البابوات .

بيد ان معاصري الانشقاق ، على الرغم من تأثرهم بالآراء الجديدة ، لم يقبلوا كلهم بواقع انقسام الكنيسة وزوال نفوذ البابوية . فان مؤلفات « جان بتي » و « ونقولا دي كلامانج » ولا سيما « جرسون » و « بيير دايي » تنم عن توقهم الى وحدة العالم المسيحي . وقد اشتهر جرسون في حكمه على وسائل العنف بقوله : ليست الحرب او اراقة الدماء ما يحل معضلة الانشقاق » . ولكن تصلب البابوات ولامبالاة الحكومات قد اديا الى فشل الحلين الاولين بين الحلول الثلاثة التي اقترحها دايي في السنة ١٣٨١ : التسوية والتخلي . فلم يبق غير الحل الثالث ، أي الجمع العام ، الذي يلحق ضرراً كبيراً بسلطة خليفة بطرس . وقد سبق لجامعة باريس في السنة ١٣٩٤ ان اخضعت ، بما يشبه الاستفتاء ، لحكم ١٠٠٠٠ شخص تقريباً ، آراءها في حكومة الكنيسة ؛ الا ان ترددات البابوات المتعاقبين وتراجعاتهم ومماطلاتهم ورفضهم لكل مصالحة ولكل تنازل قد جعلت اللجوء الى الجمع أمراً لا مناص منه . وتجدر الاشارة هنا الى ان فعالية الجمع لم تبد ، في البداية ، اعظم من قدرة البابوات على الدفاع عن شرف مقامهم : اذ ان كرادلة الجبهتين تخلفوا عن حضور الجامع المزعومة التي دعا اليها البابوان المتزاحمان واجتمعوا في بيزا في السنة ١٤٠٩ ؛ فوضع الجمع نصب عينيه تخليص الكنيسة من صراع بابوين دونما كرادلة ضد كرادلة دون بابا ، واهمل نصائح جرسون الحكيمة ، وسارع الى انتخاب منافس ثالث « للعجوزين المشؤومين » ، مما زاد بالطين بلة .

في جو البلبلة هذا طلبت النفوس الخيرة المتدينة ، بادعيتها ، بحكم جمع مسكوني حقيقي، وكان الظرف من الخطورة بحيث توجب الاعتراف له بحق الاجتماع دون دعوة بابوية وبانضمام ملافنة الجامعات الكبرى اليه للاستشارة . ورأى الامبراطور سيجيسموند من واجبه أخذ الجمع تحت حمايته والترحيب بانعقاده في كونستانس (١٤١٤) . فانبأ اختيار العقول وايضاح الفكرة الجمعية في مذهب فلسفي باصلاح حكومة الكنيسة اصلاحاً ينطوي على مزيد من الديموقراطية . اكد الجمع انه يستمد سلطته مباشرة من الله وان له ملء الحق في الاجتماع كل عشر سنوات ؛ وحددت مراسيم أخرى صلاحيات الحبر الأعظم في ما يتعلق بالحكم والرتب الكنسية والقضاء والشؤون المالية وحق بالنظام الكنسي ؛ وفرضت عليه العمل بمقررات الجمع

تحت طائلة التأديب والعزل . وكان في النتيجة ان اصلاح الكنيسة « في رأسها واعضائها » لم يترك للبابا سوى سلطة رمزية : وهكذا فان البابوية ، التي اكتفت السلطة المدنية بمناقشتها ، قد اتضعت أمام ملافنة الجامعة ورأي المؤمنين العاديين . ولم يقتض لاعادة سنى السلطة البابوية قبل منتصف القرن الخامس عشر سوى عناد مارتينوس الخامس وخلفائه ، وقد ساعده على النجاح فقدان ثقة المؤمنين في مجمع « بال » بسبب تجاوزاته وعجزه .

٣ — وهن السلطة الفكرية

ادعى الجامعيون ، في الوقت الذي هيمنوا فيه على الكنيسة ، حق اصلاح المجتمع العلماني ايضاً . فاعتقدوا ، بفضل القانون الكابوشي في باريس ، وفضل جان هوس في براغ ، وويكليف وتلاميذه في اوكسفورد ، بانهم مدعوّون لان يُدخلوا على الحكم مبادىء منطقهم الصارم أو يميدوا المجتمع الى بساطة المساواة الانجيلية . واذا كذّب الواقع ادعاءاتهم ، فمرد ذلك الى ان المدرسة ، التي غالباً ما تكون سبّاقة في الحقل النظري ، كثيراً ما تكون متأخرة في الحقل العملي . فان اولئك الذين توجهوا بانظارهم الى « نور الامم » في محنة الايمان ، لم يلبثوا ان شعروا بأن الجامعة ، بعد ان فقدت وحدة تعليمها الصافية وشمول ثقافتها ، قد تباعدت عن السلطة السياسية ، وان طرائقها الجافة لم تسفر عن أي شيء من شأنه ارضاء العقول المجدّدة والنفوس الصوفية .

تعدد الجامعات

بدت الحياة الجامعية ، اقله في الظاهر ، وكأنها تتقدم تقدماً عظيماً . فان « المكاتب » ، وقد تكاثرت في البلدان التي ازدهرت فيها المدارس منذ زمن بعيد ، قد انتشرت ، في اقل من سنتين ، في كافة انحاء اوروبا الجرمانية والسلافية ، وبلغت شاطىء البلطيك وحتى ضباب ايرلندا وسكتلندا .

نظمت هذه الجامعات الجديدة كلها تقريباً على غرار جامعة باريس او جامعة بولونيا . واذا ما استثنينا اوكسفورد حيث انصهرت « امة الشمال » و « وامة الجنوب » في السنة ١٣١٣ ، توزع الطلبة « امماً » امنّن مفوّضوها ادارة الجامعة بالاشتراك مع عمد الكليات والرئيس . وعرفت المدارس الثانوية كذلك تقدماً كبيراً ايضاً . وهكذا ازدهرت في باريس مدارس السوربون ونافار وكليرمون ومونتيغو وليزيو ولموان و « سانت — بارب » ؛ وفي اوكسفورد ، مدارس اوريل وكوينز ونيو كولدج وماجدولين و « اول سولز » التي أسست تخليداً لذكرى ابطال « ازنكور » ؛ وفي كمبردج ، كلية الملك ؛ وفي براغ ، كوليجيوم كارولينوم ؛ وفي ايطاليا ، التي لم تتأثر بنسبة غيرها بهذه الحركة ، عرفت بولونيا حيوية الكلية الاسبانية التي أسسها الكردينال البورنوز والكلية الغريغورية التي أسسها غريغوريوس الحادي عشر . وتحقق كذلك

بعض التقدم في تنظيم العمــل وحتى في تخصيصه : ففي السنة ١٣٧٩ ، دشنت نيو كولدج في اوكسفورد نظام « الاوصياء »؛ وبعد مرور عشرين سنة انبأ توزيع المهام على الاساتذة باحداث المنابر العصرية . وأخـذت كليات الطب ، التي ترتدي بالضرورة طابعــاً تقنياً ، تشرح الجسم البشري ، مستعينة في ذلك بجثث المحكومين بالاعدام ؛ وصدرت المبادهة في هـذا الشأن عن البابا الذي امر بتشريح جثث ضحايا الطاعون في افينيون ومدن أخرى كثيرة في ايطاليـا . فغدا التشريح ودراسة الاعشاب الطبية مواد دراسية مستقلة . واهملت كلية الطب في باريس ، في السنة ١٤٧٠ ، حُزم العلف التي كانت لها ، في شارع فوار ، بمثابة المقاعد ، وانتقلت الى بناء خاص في شارع لابوشري اودعته المكتبة التخصصية التي تجمعت لديها منــذ قرن ، على غرار مكتبة المؤلفات القانونية في اورليان . وتكوّنت خارج ايطاليا ، حيث تعددت المكتبات ، مكتبات أخرى في افينيون وانجيه و « كان » ونانت وبواتييه وكمبردج ؛ وكانت عطايا دوق غلوستر القِوام الاساسي لما سيصبح « المكتبة البودلية » .

اذا سطع نجم كبريات الجامعات في بعض حقول المعرفـة – الفنون واللاهوت في باريس ، واللاهوت في سلمنكا واوكسفورد وكولونيا ، والطب في مونبلييه ، والحقوق في بولونيا – فلانها قد سعت كلّها لتأمين تعليم كامل ، دون ان تتوفر دائماً لديها الكليات الخمس التي جهزت بها جامعة كان . فان البابوية ، السخية في توزيع الامتيازات ، لا سيا في عهـد اكليمنضوس السادس واوربانوس الخامس ، قد ترددت احياناً في الموافقة على انشاء مراكز الدراســات اللاهوتية : واذا حصلت جامعة براغ على هذه الموافقة منـذ تأسيسها في السنة ١٣٤٧ ، فان جامعتي فينّا وكراكوفيا لم تنشئا هذه المراكز الا اثناء الانشقاق الكبير ، الاولى بعد مرور ٢١ سنة على تأسيسها (١٣٨٥) والثانية بعد مرور ٣٨ سـنة على تأسيسها ايضاً (١٤٠٠) . ومرد ذلك الى ان كل كلية سعت آنذاك للاستعانة باكبر عدد من الملافنة اللامعين كما تشهد بذلك براءات تأسيس جامعات هيدلبرغ (١٣٨٦) وكولونيا (١٣٨٨) وارفورت (١٣٨٩) .

كانت الجامعات ، على غرار امها الباريسية ، مدارس اسقفية سابقة في اغلب الاحيان ، فبقيت من ثم خاضعـــة للسلطة الكنسية . وخضعت فوق ذلك الى نصراء الآداب والفنون والامراء الذين انعموا عليها بهباتهم . فغنى الوقوف الجامعية – لا سيا في لوبك وغريفسوولد – هو احدى ميزات نصرة الآداب والفنون آنذاك . وكان المهم في نظر الملوك ارساخ اســتقلال الدولة فكرياً وابقاء الطلبة الوطنيين فيها واجتذاب الاجانب اليها واخـــيراً اعلاء اسمهم بين الناس . وحين غدت الحياة الجامعية سلّماً للمجد واداة للحكم ، ارتدت طابعاً قومياً صرفـاً ، فكان ذلك سبباً أولاً من اسباب ضعفها .

قابل تعدّد الجامعات ، في الواقع ، تقدم الدول القومية وتجزئة نطاق الصلاحيات الدينية . فان جامعة براغ التي اسسها الامبراطور شارل الرابــع في السنة ١٣٤٧ وتألفت من « امتين » جرمانيتين (بافاريين وسكسون) و « امتين » سلافيتين (بوهيميين وبولونيين) كانت معـدّة

لجمع الشعوب في ثقافة مشتركة وبث تعاليم اللاهوت في الامصار السلافية . فسارع الامـــراء المجاورون ، بدافع التنافس ، الى تأسيس جامعات زاهرة مماثلة : ارشدوق النمسا في فينّا ، وكازيميـر الكبير في كراكوفيـــا . وسار مارسيل « دنجن » على خطى البير دي ساكس ، الرئيس الأول لجامعة فينا ، فادخـل الفكر الباريسي الى جامعة هيدلبرغ التي جعل منهـــا الكونت البلاطي روبرخت الأول دي ويتلسباخ مركز دعاوة « عمرانية » تمتد دائرة اشعاعه الى مناطق الرين الاوسط والاسفل .

يفسر ازدهار الجامعات الايطالية وطنية البلديات ونصرة الامراء للآداب والفنون والتنافس في حقل الثقافة . فان شهرة جامعة « المعرفة » في روما ، التي خبا نورهـــا في السنة ١٣٧٠ بعد لمعان دام ٦٧ سنة ، قد استعيدت في السنة ١٤٠٦، ثم في السنة ١٤٣١، بفضل اوجانيوس الرابع ؛ ودانت كذلك جامعة بادوا لاسرة كرارا بتأسيس كلياتها ؛ وفي السنة ١٣٤٢ والسنة ١٣٤٩، اي خلال سبع سنوات، اضافت بيزا وفلورنسا الى اسباب تزاحمها، تنافس جامعتيها ؛ ويصح القول نفسه عن بافيا وفراري وبليزانس في السهل الباداني . وكذلك اتفق بورجوازيو روستوك (١٤١٩)، بمساعدة المدن الهانسية، على تعليم اولادهم في مدينتهم، ثم اسست جامعتهم فرعاً لها في غريفسوولد (١٤٥٦) . ثم حذي حذوهم على التوالي في تريف ومايئس وتوبنجن وفريبورغ (بريسكو) وبال والمجولستات وليبزيغ . وانتقل التنافس الى الممالك الجنوبيـــة فتولت سلالة اراغون وحدها تأسيس جامعات بربنيان وهويسكا ولريدا وفالنس . ويرد ذلك الى تعاظم الاثرة الاقليمية خلال القرن الخامس عشر : فهدف فيليب له بون الى تحرير دوله من وصاية باريس بتأسيس جامعة « دول » في السنة ١٤٣٢ (وقـد نقلت الى بيزنسون في السنة ١٤٨١) وجامعة لوفان في السنة ١٤٢٥ ؛ واكره « رينـــه دانجو » رعاياه البروفنسيين على الاختلاف الى آكس التي تأسست مدرستها في السنة ١٤٠٩ ؛ وفي السنة ١٤٦١ تأسست مدرسة في نانت عاصمة دوقية بريطانيا . وكان جواب الانكليز على تأسيس حكومة ولي العهد لجامعـة بواتييه (١٤٢١) احداث جامعة في بوردو (١٤٤١) ؛ وكان الهدف من تأسيس جامعة كان (١٤٣٧) الحيلولة دون اختلاف النورمنديين، وهم لا يزالون خاضعين لملك انكلترا ، الى باريس التي استعادها شارل السابـــع . وفي ما وراء المانش كذلك ، كان طرد الارلنديين من اوكسفورد باعثاً لقيام « مكتب » « دوبلن » ، كما كان طرد السكتلنديين ، اثناء الانشقاق ، باعثاً لاحداث جامعة « سانت اندروز » وجامعتي غلاسكو (١٤٥٠) وابردين (١٤٩٥) من بعدها. وتوقف السكندينافيون انفسهم عن الاختـــلاف الى كولونيا وباريس حين توفر لهم التعليم في اوبسال (١٤٧٧) وكوبنهاغن (١٤٧٨)، لا بل ان الملك كريستيان الرابع سيعمد بعد ذلك الى منع رعاياه من التعلّم في الجامعات الاجنبية .

تأخر الدروس

بات عدد هذه المؤسسات مرتفعاً جداً : فتأخر بعضها او اقفل نهائياً . فاضطرت جامعتا بيزا وفلورنسا، في منتصف القرن الخامس عشر لان

لان تنصهرا في جامعة واحدة ، وانحطّ مستوى جامعات نابولي وافينيون وغرينوبل وبربنيان وغلاسكو ؛ وانضمت جامعة كاهور الى جامعة تولوز . وكان للظلامة التي رفعها الملافنة الباريسيون الى البابا في السنة ١٤٢٣ ما يبررها : « ان ما بقي منا مهدّد بالزوال النهائي بسبب احداث « المكاتب » الجديدة . واذا تارجح عدد الطلاب في المراكز الكبرى – باريس وبولونيا وسلمنكا – حول ٥٠٠٠ طالب ، فان طلاب اوكسفورد لم يتجاوزوا ال ٣٠٠٠ ، وربما لم يبلغ طلاب تولوز وفينّا وليبزيغ الـ ٢٠٠٠ ، ولم يختلف الى القسم الأكبر من الجامعات الاخرى سوى بعض المئات فقط . فأخذ العالم الجامعي يفقد حيويته بذوبانه تدريجياً .

اضف الى ذلك ان الاساتذة والطلاب ، باهمالهم المبدأين الاساسيين اللذين سلكوا بموجبهما حتى ذاك التاريخ ، اعني بهما دولية شؤون الفكر والاستقلال حيال السلطة السياسية ، قد عرضوا مستقبلهم لخطر كبير . فلم يكتف الامراء بابقاء جامعاتهم تحت وصايتهم المالية واكراه رعاياهم على الاختلاف اليها ، بل ادعوا اكثر من مرّة حق تعيين الاساتذة ومراقبة تصرفاتهم . فالحركة الويكليفية ، على الرغم من انها قمعت بسرعة ، قد اتاحت للملك انكلترا وضع اوكسفورد مرّة اخرى تحت السلطة الاسقفية ، وقد عين فيها هنري الرابع اول « استاذ ملكي » . وفي فرنسا نفسها ، وطن الحريات الجامعية ، باتت الاضرابات المدرسية دون جدوى . وكادت جامعة اورليان تقفل ابوابها في السنة ١٤٠٥ ، حين فقدت سندها الزمني . وما لبث البرلمان ، الذي لم ينقطع عن التدخل في شؤون المدارس ، ان اصبح في السنة ١٤٦١ مرجعها الرسمي الأعلى .

اضف الى ذلك ايضاً ان الجامعات ، التي تأثرت بالخلافات الدينية والتحاسد القومي وتدخلت في الامور السياسية ، كانت بذلك كمن يسعى لموته بنفسه . فبعد ان سادتها الاهواء الجماعية وحياة العصر ، باتت لسان حال الرأي العام ، كما تشهد بذلك امثلة براغ وباريس بنوع خاص . ففي براغ عجزت « اتفاقات الامم » ، التي اعلنت اكثر من مرّة دون جدوى ، عن وضع حدّ للمشاجرات بين الطلاب الالمان والطلاب السلافيين الذين أدّت بهم النوايا السيئة والمنافسات العنصرية واللغوية والاخلاقية الى التنافر والتعادي . وحين اعلن جان هوس ان الامة البوهيمية (بمعناها الجامعي) يجب ان تحكم الامم الاخرى ، توصل الى فوز التشيكيين ، في الجمعيات ، بثلاثة اصوات مقابل صوت واحد للالمان ، في حال ان اربعة اخماس الاساتذة كانوا من الالمان . فكان ذلك سبباً لرحيل هؤلاء الى ارفورت وهيدلبرغ ولا سيما الى ليبزيغ . وكان اختيار الافكار هذا مؤاتياً لتقبل آراء ويكليف ، وهو يفسر كيف ان المنازعة الهوسية نقلت جامعة براغ من الصعيد اللاهوتي الى المعترك السياسي .

اما النفوذ السريع الزوال الذي استعادته جامعة باريس في عهد شارل الخامس والدور الرئيسي الذي لعبته في حل عقدة الانشقاق ، فلا يخفيان الضرر العظيم الذي الحقته بها مناجزاتها في النطاق السياسي . فإن انتصارها لاكليمنضوس السابع كان سبباً لنزوح العديد من الاساتذة

والطلاب الاجانب الذين استهوتهم مراكز الدروس الجديدة في المنطقة « العمرانية » : كالبير دي ساكس ومارسيل دنجن كما سبق ورأينا . ثم ان مظاهر الانشقاق السياسية قد ارغمت الملكية على تحديد موقفها من الشؤون الانكليزية او الايطالية ومن المسألة الكنسية على السواء . وكان من سوء طالعها اخيراً ان الحرب الاهلية جاءت تجهز على ما تبقى من سمعتها . فلم يفلح « جان بتي » في اعلاء نفوذها بتطوعه للدفاع عن قاتل « لويس دورليان » دفاعاً لم يغتفره له جرسون قط ولم ينثن عن لومه عليه أمام الكلية وأمام مجمع كونستانس ايضاً . بيد ان الجامعة ، باكثريتها ، قد ساندت القضية البورغونية لانها رأت فيها نصرة لاصلاح الدولة ، ذلك الاصلاح الذي اعتقدت ان باستطاعتها فرضه في السنة ١٤١٣ بواسطة خطب « اوستاش دي بافيي » و « بنوا جنتيان » وبوضع القانون الكابوشي. اضف الى ذلك ان علائقها بالتمرد وقبولها بمعاهدة طروا وتخليها عن ولي العهد قد انتهت في داخلها الى ردود فعل متعاقبة وعمليات تطهير متوالية ففقدت اعتبارها، في المرحلة الاخيرة من مراحل حرب المئة سنة ، بالموقف الذي وقفه اعضاؤها وبهبوط مستوى التعليم فيها .

جمود المناهج

وعت جامعة باريس هذا الهبوط وعزته الى سوء الحظ ومنافسة شقيقاتها الصغرى ولها . وقد ادعت منذ زمن بعيد ايضاً ان الكهنة انما هجروها لان الكرسي الرسولي لم يحتفظ لهم برتبهم الكنسية التي تدر عليهم دخلاً . غير ان الهبوط مردّه في الواقع الى أسباب ابعد خطورة واعظم شمولاً : فالازمة الجامعية قد عمت الغرب باجمعه بسبب انحطاط المنهج والعقيدة والفكر .

ولم تكن جامعة اوكسفورد آخر جامعة تأثرت بهذا الهبوط . فقد فقدت في القرن الرابع عشر التقدم الذي حققته منذ روجيه بيكون في دراسة الطبيعة دراسة صحيحة ، مؤثرة العدول عنها بحكة الى المنطق السديد والدوران في حلقة من السفسطة العقيمة . وكان ويكليف على صواب في تهكمه من زملائه الذين يبتكرون ، كما يقول ، مذهباً منطقياً جديداً كل عشرين سنة . اجل لقد استهدف علم الصرف والنحو النظري غاية حميدة هي تعبير دقيق عن مداليل واضحة: ولكن التمسك بالشكليات قد جفف التعبير واستنزف المداليل . ثم انتقل الداء الى جامعات البر الاوروبي التي تأثرت قبل ذلك بالاضطرابات البلدية في ايطاليا ، والحروب الاهلية في اسبانيا والمانيا وبوهيميا ، والحرب ضد الاجنبي والتنافس بين الاحزاب في فرنسا ، والخلافات الدينية في كل مكان . اخذ بيترارك على « مكتب » كولونيا جمود فلسفته المقلدة ، ولكنه شكا كذلك من ان بولونيا « تبدو وكأنها لم تعد بولونيا » ، وقيل بالاضافة الى ذلك انها كانت في السنة ١٤١٦ ، على شفير « انحلالها التام » . وكتب « انكا سيلفيو » في كلامه عن جامعة فينا ، في منتصف القرن الخامس عشر ، « ان البيان والشعر شبه مجهولين تقريباً » . ولم تكن جامعة باريس افضل حالاً : فقد اعوزتها الكتب شأن الجامعات الاخرى ؛ وعمت الشكوى فيها من المشاجرات وعدم انتظام الدروس واهمال الاساتذة وتعطيل الطلاب ؛ اجل لم يكن كل هؤلاء

« فرنسوا فيون » ، ولكن الكسالى كانوا كثراً : فقد كتب شاهد عيان في القرن الرابع عشر « ان الذين ينسخون مادة دروسهم لا يتجاوزون العشرة بالمئة ؛ وان صفوتهم اولئك الذين لا يستفيدون من اية منحة ، والذين يتأخرون في دروسهم حالما يتحسن وضعهم المالي » . ولكن لا تسل عن الحجج حين تطرح امثلة لا طائل تحتها كهذه : « لماذا يكون الرهبان اكثر سمنة من باقي الناس » او « لماذا يصاب اليهود بالنزيف اكثر من المسيحيين » ؟

ان الاصلاح الذي نهض به الكردينال « دستوتفيل » لم يستطع ، على الرغم من فضله ، استئصال جذور داء عضال . فقد تعود الناس الشنشنة ورضوا بها، وبدت الجامعات الفرنسية ، ولا سيا جامعة باريس ، على الرغم من احداث المنابر الجديدة فيها ، وكأنها مصابة بالشلل . ضمت كلية الفنون علماء واسعي الاطلاع ، ولكنها افتقرت ، منذ وفاة نقولا دي كلامنج في السنة ١٤٣٧ ، الى مفكرين مبتدعين ، وكانت كلية اللاهوت ابعد تأخراً ايضاً بعد ان فقدت اعلامها في عمليات التطهير — لا سيا عملية ابعاد الاوكهاميين في ايام الاحتلال الانكليزي — فباتت توزع علماً مهنياً نفعياً تقليدياً . ولم تهتم هذه الكلية وتلك للبحث العلمي بل تنكرتا لعلم اللغات والأدب القديم اللذين كانا بمثابة خشبة الخلاص « للمكاتب » الايطالية . فما عادت هذه الجامعة « ذات الراسين» كما درج روبير « غاغين » على تسميتها، لترضي العقول المتميزة والنفوس التواقة الى التقدم . فبحث جان جرسون وبيير دايي وامثالهما ، خارج انظمة المدرسة ، عن تفتح شخصياتهم . اضف الى ذلك ان المدارس الثانوية نفسها ، وكانت المبادهات في معظمها اقل تقييداً ، لم تنفتح قط على آفاق الفكر الجديدة . فلم تجهل مدرستا مونتيجو والسوربون علم اللغات فحسب ، بل الأدب والشعر والعلم الروحاني ايضاً . وقد بلغ من حياة الجامعات على هامش العالم المعاصر ان استطاع احدهم ، في معرض الكلام عنها ، كتابة ما يلي : « ان فقدان الانسجام بين عمل الجامعات التقليدي وتزايد نشاط العالم الخارجي يترك انطباعاً بان هنالك تناقضاً وصراعاً . ففي الوقت الذي تخمرت فيه العقول ، وتساءلت القلوب في عالم مضطرب عن معنى الحياة ، لم يكن لدى الجامعة من جواب سوى قياساتها المنطقية » .

٤ — اختمار الافكار والقلق الديني

ما هي الحقيقة ؟ ومن هما العالم والانسان ؟ لقد واجه القرنان الرابع عشر والخامس عشر هذه الاسئلة الازلية بقلق خاص . لقد تزاحمت فيها وتشابكت آراء جديدة ، هي مصادر الفكر المعاصر ، وخيال خلاق ، وكافة مظاهر الفكر العابس .

نزعات العصر

ان في قصة « الخواتم الثلاثة » التي كتبها بوكاس لوصفاً موجزاً للقلق الذي ساد ذاك العصر : ترك احد الآباء ، لابنائه الثلاثة ، ثلاثة خواتم متشابهة دون ان يعلن عن الاصلي الصحيح بينها ، فاعتقد كل من ابنائه بانه هو من يمتلك هذا

الخاتم الاصلي ؛ وهذه هي حال الديانات الثلاث، المسيحية واليهودية والاسلامية ؛ فالاب السماوي يعرف الفضلى بينها ، بينما يعتقد كل واحد بانه يمارس الديانة الحقيقية . يتضح من ذلك ان بعض العقول انحرفت عن التآليف الجامعية الكبرى وانتهت الى التسليم بحقيقة متعددة. ثم ان كراهية بيترارك لدانتي والسرور الذي شعر به في معارضته يكشفان القناع عن المضادة بين الجيلين . استطاع مؤلف « المهزلة الالهية » ان يوفق بين مذهب العقليين والمذهب الاوغسطيني وان يتصور امكانية وحدة العالم المسيحي في توزيع السلطات توزيعاً متعادلاً ، فسلك ، في موضوع رؤية الثالوث ، طريقاً كانت مراحلها الشعر والمحبة – التي تنقل النعمة – والاختطاف ؛ وكان مرشدوه في هذه الطريق فرجيل وبياتريس والقديس برناردوس . فهل كان ذلك منه انتحالاً لفلسفة القديس توما ام حكمة بشرية صرفة ومفهوماً علمانياً للمدينة ؟ لا بل ان فكر دانتي المرتكز الى اليقين بان العصور القديمة تكوّن جزءاً من مخطط العناية الالهية قد استمد كال الانسان والتاريخ البشري السائر في طريقه نحو مصيره الواضح المعالم . اما قلق بيترارك ، وهو خاص بالقرون الوسطى دون منازع ، فيتصل بالتقليد الاوغسطيني : فالثقة المعقولة افسحت المجال لاقضاض الوجود الذي لم يكن ليرضى بالتآليفات الكبرى . وكان الوقت قد فات حين الغت كلية اللاهوت الباريسية الرقابة المفروضة على فلسفة القديس توما . ومرد ذلك الى ان العلم الفرنسيسي الموجه نحو اعادة النظر في المبادىء والمناهج والنتائج قد حال دون كل رجوع الى الوراء .

ان الفكر في القرن الرابع عشر قد اخذ يتطور في الواقع انطلاقاً من دونس سكوت لا من القديس توما . كان دونس خصماً للروحيين وابناً حقيقياً للقديس فرنسيس راغباً في اقصاء الفطرسة الوثنية عن الفكر ، فمال طبعاً من ثم الى ابعاد المذهب العقلي عن مفهومه للاله والعالم ؛ فاراه وحي الكتاب الهاً هو ارادة خلاقة وحرّة أكثر منه منظم عقلي للخليقة . لذلك فبينما لا يستطيع العقل الوضيع بلوغ الحقيقة الا عن طريق القياس المنطقي الامينة ، يجب ان يكون البحث عن الله اندفاعاً ترشده المحبة . فمن جهة اذن بشّر ايثار المفاهيم الصريحة المتميزة بالتقدم العلمي والسعي وراء الدقة ؛ ومن جهة ثانية ، مهدت موجبات المحبة الطريق لازدهار صوفي يثير الاعجاب . ومهما يكن من الأمر ، فان انكار الاتفاق بين الايمان والعقل قد اعاد وضع كل الامور على بساط البحث – أسس المعرفة ونظام العالم ومفهوم الانسان والحياة – وفتح طرقاً متباعدة؛ فأرسى البعض فلسفتهم على العقل وحده واستشف البعض الآخر مقتضيات الاختبار العلمي بينما اهتدى بعضهم ، من غير الصوفيين ، الى سر لاهوت أدبي في الفكر القديم . اجل تفاوتت هذه الطرق اخصاباً وفعالية ولكن الانسان التوّاق الى ادراك جوهره ومصيره قد سلكها كلها .

ان أتباع ابن رشد ، باهمالهم العمل العلمي الذي نهض به معاصروهم قد أوصدوا امامهم طريق المستقبل . فقد اضاع « جان دي جاندين » وقته في الدفاع عن « سيجر دي برابان » ، « خليفة ارسطو الممجّد » واكتفى بعلم الطبيعة الذي وضعه « الستاجري » . اجل ان كتاب

« المدافع عن السلام » ، الذي اسهم فيه ، يحمل في متنه مبدأ اولوية المصلحة العليا التي سيصبح ميكافللي داعية لها . كما ان سخرية جاندين التي تخلو من الاحترام وانتقادات مارسيل البادواني اللاذعة تكاد لا تحجب الحاداً عميقاً ارغمتهم الاعراف الاجتماعية على اخفائه في بلاط افينيون نفسه حيث كان لهم بعض الاصدقاء . ولكن اللامبالاة الدينية في ايطاليا واسبانيا قد تخطتهم بتسترها وراء العلوم العربية ، مما أتاح للغرب الاهتداء الى نواح جديدة من المعارف القديمة .

اوكهام والنشاط العلمي

التقى جان دي جاندين ومارسيل البادواني ، في بلاط لويس دي بافيير ، بغليوم اوكهام الذي كان له ولتلامذته الفضل الاول في انطلاقة التقدم العلمي. فكان لنجاح آرائهم في منتصف القرن الرابع عشر أثره الكبير في نكوص فلسفة القديس توما التي انكفأت عن باريس ووجدت لها في كولونيا مكاناً تلتجىء اليه . ان اوكهام، الذي أبصر النور حوالي السنة ١٢٨٠، تلقى تعاليم دونس سكوت في الارجح ودرّس، على غراره ، في اوكسفورد وباريس . وقد انسجم فكرياً ، في هذا « المكتب » الاخير ، مع دومينيكاني متحرر من فلسفة القديس توما هو دوران دي سان بورسين ، ومع فرنسيسي مثله هو بيير اوريول . وكان الجدال قد تجدد آنذاك بين مذهب الواقعية ومذهب الاسمية . فكان ان الفكرة ، التي ليست في نظر اوكهام ، ووريث الاوكسونيين ، سوى مراس في حقل الاختبار ، او سوى انضاج العقل للتأثيرات التي تتلقاها الحواس او « هوى من أهواء النفس » ، قد لعبت في البرهنة دور تمثيل الأشياء التي تعبر عنها الكلمات . هذا هو سبب نسبية معرفتنا للواقع ؛ وهذا هو ايضاً سبب عجز علم ما وراء المادة واللاهوت العقلي. ويتضح من ثم ان بمكنة اللاهوت الموحى به وحده ان يرسم لنا مفهوم صفات الله ومفهوم الروح اللامادية ومفهوم السنّة الادبية . ولكن فن احكام البرهان ، بالمقابلة ، هو الشرط الواجب لكل نشاط عقلي .

على الرغم من حكم كلية باريس على المذهب الاوكهامي في السنتين ١٣٣٧ و ١٣٥٠ ، فانه قد احتل فيها مركزاً ممتازاً كان منطلقاً لاشعاعه . فقبل ان يتولى البير دي ساكس ومارسيل دنجن الاشراف على مصائر جامعتي فينّا وهيدلبرغ الفتيتين، تغذيا في باريس بأفكار «البادىء الكريم» الى جانب جان بوريدان و « نقولا اورسم » . وتكونت في اجتماعات الاوكهاميين السرية ، التي أشهرتها الكلية ، تقنية جديدة للمنطق غالباً ما انتهت الى طريق غير نافذة ، حين باتت الاسمية غاية بحد ذاتها ؛ فكانت النتيجة انزلاقاً فكرياً هو السبب الأساسي للأزمة الجامعية . ولكن الاوكهامية قد اتجهت شطر درس الظواهر الحسية ايضاً : اعتمدت الاسمية نهجاً واستندت الى الملاحظة والاختبار ، ففدت بذلك حافزاً مخصباً للتقدم العلمي . فعرفت الرياضيات والهندسة وعلم الآليات ، وعلم طبيعة الكرة الارضية والعلوم الطبيعية الاخرى ، آنذاك ، تعابيرها العصرية الاولى، بينما أتاحت جهود الاسمية تعبيراً اوضح لمفاهيم أساسية هي مفاهيم العدد والمسافة والوقت : فكانت النتيجة تقدماً في علم الحاسبة والجغرافيا وصناعة الساعات .

ان اوكهام ، بزعزعته اركان مملكة ارسطو ، قد أثار التساؤل حول نظريته في العالم ايضاً . فلم تعد مركزية الارض عقيدة ايمانية ، واستُشِفت امكانية تعدد العوالم الذي سينادي بـه « نقولا دي كو » في الجيل التالي ، واكتشف بوريدان مبدأ سنة الجماد ، وأوضح اورسم سنّة النسبية بين سرعة سقوط الاجسام والوقت ، فكان ذلك مقدمة لأبحاث « نقولا دي كو » النظرية ولاكتشاف كوبرنيك . وانتشرت من جهة ثانية تعاليم ارخميدس بفضل نقـل نصوص ترجمتها العربية المعروفة في القرن الثالث عشر الى اللغة اللاتينية على يد جيرار دي كريمون ، فتأمن بذلك ، وبواسطة ألبرتي و «نقولا دي كو» ، اتصال تقليدها بـ « ليونار » . وعلى تحقيقات القرن الرابع عشر ايضاً ، لا سيا في نظرية البير دي ساكس حول انتقال مكان مركز الثقـل الارضي بفعل قرض القشرة الارضية وفقدان التوازن بين اليابسة ومياه البحار ، بنيت نظريات ليونار في الجيولوجيا والاحاثة . ودفع الاهتـداء الى بطليموس بالجغرافيا وعلم وضع الخرائط الى الامام ، في جنوى وبالما (في ماجورك) وفالنس ، كما تشهد بذلك مجموعة الخرائط المعروفة بالكاتالونية في « مكتبة » شارل الخامس . كان نقولا اورسم مستشاراً مسموع الكلمة لدى هذا الملك ، وعالماً يشار اليه بالبنان ، وغدا في فرنسا ، الى جانب بيير دايي ، احد واضعي اصول الجغرافيا الاولين : اجل ما زالت الجغرافيا آنذاك علماً اختبارياً ، بانتظار تحسين آلات الرصد الفلكي والخرائط الطوبوغرافية الموروثة عن العصور القديمة والعرب . الا ان بعض النجاحات التقنية الاخرى تنم عن الرغبة في الدقـة لدى رجال العلم في ذاك العهد ، على الرغم من ان اضطرابات القرن الرابع عشر لم تكن لتشجع على الاكتشاف . فقـد ظهرت الساعات العامة الاولى في كان وبيزا وباريس في الوقت الذي ظهرت فيه ساعة « برج القصر » الشهيرة ، وقد حلقت المانيا في هذا المضار . وعرفت الهندسة المائيـة السدود ذات الابواب في الفلاندر ومستنقعات بواتو وسهل ميلانو منذ اواخر القرن الرابع عشر ، وصنعت مجارف الرمل الاولى في زيلندا بعد مرور ثلاثين سنة تقريباً ، وما لبث اكتشاف المنافخ المائية للأفران ان أعدّ وثبة الصناعة المعدنية الالمانية . وكان اختراع ذراع الدافعة ومقبض ادارة الآلة اخيراً ، في أوائل القرن الخامس عشر ، مقدمة لتحويل او اختراع عدد من الآلات : كدولاب المغزل والمضخة والمخرطة .

وجاءت النظرية في الوقت نفسه تدعم تقدم الاختبارية ؛ فمنذ أواخر القرن الرابع عشر تعددت الأبحاث ، التي ترجمت عن المؤلفات القديمة او المعاصرة ، في ايطاليا الشمالية والمانيـا الرينانية والجنوبية ، حاملة أسماء قيصر *Kyeser* وفونتانا وسنّيني وماريانو وألبرتي . وهكذا حُضّر عصر ليونار الذي «لم يكن» ، كما كتب عنه بحق ، ذلك الجن الخفيف والناقص المتميز عن عصره» . فبعد نقولا دي كو ، دخلت جذور تعاليمـه في قلب القرن الرابع عشر ، وما كان في الارجح ليفتح تلك الآفاق الغريبة امام العلم المعاصر لو لم ينتقل الفكر الغربي ، قبله بزمن طويل ، مـن

محاولة فهم جوهر العالم الى محاولة فهم ظواهره . ولعل ذلك اخصب ما حققته وأسهمت بـــه الاوكهامية .

أما مظهرها الاخير ، ولعله الأهم في نظر اهل زمانه – اسلوبه الجدلي – فلم يؤدّ الا لسفسطة عقيمة . وخيبت الاسمية الاوكهامية الآمال في النهاية، فكان مصير « الطريقة الجديدة » الاهمال في أواخر القرن الرابع عشر . فعاد « القدماء » ، من أتباع توما وسكوت ، الى الهجوم، لا سيما وان العقول والافئدة ، التي لم ترتض بالاسمية الجافة ، قد بحثت ، امام قسارة ذاك العصر ، عن موجب الحياة والامل اما في دراسة الادب القديم واما في الصوفية . وقد اقترن احتقار الواقع المعاصر ، في كلا الحالين ، باحساس مرهف جداً .

دراسة الادب القديم الاولى

كانت دراسة الادب القديم في البدء مجهوداً يستهدف الوصول الى مذهب أسمى من الواقعية الموضوعية المسيطرة آنذاك . اجـــل ليس فرنسسكو دي بترار كو – بيترارك – من يتقيد بمذهب معـــين : اذ ان ابن محرر المقود الفلورنسي هذا قد نفر من الدروس الشرعية. استفاد من رتب كنسية وأكثر من التنقل ، فتجول بين مدينة واخرى مؤمناً معيشته بعطايا نصرائه المتعاقبين ؛ انتقل من توسكانا الى هولندا مروراً بباريس ، ومن اكس–لا–شابيل الى نابولي ، ومن رومـــا الى مونبلييه وافينيون ، واختـار فوكلوز خلوة مفضلة . رافق القرن بكامله تقريباً (١٣٠٢ – ١٣٧٤) ، فحركه هوى : الادب اللاتيني ؛ وتسلط على عقله حلم: احياء القيصرية البابوية المسيحية وحطمته خيبة امل : المحبة التي لم تشاركه اياها لور. بيد ان الاكرام الذي كان موضوعه في الكابيتول (١٣٤١) والتملق الذي أحاطه به الجميع لم يسكتنا عذاب نفس شاعر متقلب المزاج . واذا هو تجنب الجدل وسفسطات أتباع ابن رشد، فان التأمل الباطني دون سواه كان له مدرسة حكمة، كما ان الادبار كان له خشبة الخلاص الوحيدة امام التشاؤم: فالفرح والألم لا شيء كلاهما . وقد عبرت مؤلفاته عن قلق رجل شاهد أثر الطاعون الكبير في فلورنسا . وحين لم يجد مؤلف « حياة العزلة » التهدئة المنشودة في عاطفة مسيحية على بعض الغموض ، التجأ الى القدماء . الا انه مقت ارسطو ، معلم اتبـــاع ابن رشد؛ ولم يستخلص مثاليته الدينية من فلسفة افلاطون الا من خلال مؤلفات شيشرون او الاباء، وقد أعوزت مثاليته هذه الاسس الفلسفية والعلمية ؛ وقد بحث عن التعزية في العاطفة الـــتي يتكلفها شيشرون وسينيكا . وكانت هذه كلها آفاقاً مقفلة بالنسبة لمعاصريه ، كما نرجح ، اذ ان تلاميذه قد شعروا بالقلق نفسه . فان بوكاس ، على الرغم من انـــه ندم على كتابة « الايام العشرة » ، لم يتمكن ، في مؤلفاته الاخرى ، وعلى الرغم من ايمانه الكاثوليكي الصادق ، من ان يقدم لمعاصريه سوى علم اخلاقي وثني متحرر من كل مفهوم فائق الطبيعـــة . لذلك لم تكن واقعيته مرشداً يفضل العلم الاخـــلاقي الموضوعي الذي اقترحه جان دي مونغ على قراء الجزء الثاني من « قصة الوردة » .

على ان فرنسا ، على غرار ايطاليـــا ، حظيت بمشاهدة ازدهار الادب الشيشروني الاول في

بلاط شارل السادس ، بفضل لوران دي بريميفكت وجان دي مونتروي وغوتييه كول ونقولا دي كلامنج. وكان مقدراً للجيل التالي، بفضل معرفة القدماء معرفة افضل، ان يوسعوا الطريق التي شقها بيترارك وان يتوصلوا ، في السنة ١٤٠٠ ، الى تحقيق ما تاقت اليه نفسه تحقيقاً عظيماً. ولكن هذا الاتجاه ، التفاؤلي والواثق من النجاح ، يعبر عن الارتجافات الاولى للنهضة ويختص بايطاليا في الدرجة الاولى .

الصوفية

استمرت الاوغسطينية ، على الرغم من فقدان حظوتها مؤقتاً في الجامعات ، في تغذية تيار صوفي ليس حنين بيترارك اليها سوى انعكاس شاحب له ، بينما تآلف المذهب السكوتي معها تآلفاً تاماً اذ انه اراد ارساء خير ما في النشاط البشري على سعي الارادة، بفعل المحبة ، للامتثال للأوامر الالهيـــة . وتوصل معاصر سكوت ، الكاتالوني رامون لول ، المعروف « بالملفان الملهم » ، عن طريق مذهب عقلي خاص مبني على احد أشكال الادب القديم ومعرفة اللغات الشرقية والبرهان الحسابي ، الى السمو بالتـأمل الفرنسيسي نحو الذرى نفسها . فقليلة جداً هي المؤلفات التقويـــة التي اقبل القراء على مطالعتها اقبالهم على قراءة « الاسطورة الذهبية » للدومينيكاني يعقوب دي فوراجين او قصائد جاكوبوني دي تودي، وعرفت «زهيرات» القديس فرنسيس رواجاً قل نظيره منذ اوائل القرن الرابع عشر . وكان مقدراً للصوفيـة ان تغذّي تياراً مزدوجاً ، في الجماهير – وهـــذا ما يفسر انحرافات ايمان قليل الاستنارة – وفي الاوساط المثقفة – وهذا ما يفسر غمّ النفوس المتشددة في ممارسة الفضائل الانجيلية .

وعرفت البقـــاء طيلة القرن الرابع عشر فلول شيع القرون السابقة : هرطقة الاطهار في لنغدوك وكورسيكا وبييمون وبوسنيا؛ وعاش الفالديون جماعات منعزلة في كل مكان تقريباً ، ولا سيما في اراغون ودوفينـــه وبييمون وحتى في بوهيميا حيث تم الاتصال بينهم وبين الهوسية ، ولكنهم برهنوا عن تصلب لم ينجح التفتيش ولا الحملات التأديبية في التغلب عليه . وبلغت حركة الروحيين منتهى نشاطها في عهد البابوات الثلاثة الاول في افينيون ؛ فقد ناهضوا الديريين دفاعاً عن مثل الفقر المطلق ، وكلفوا بالآفاق الجليانية الـــتي وسعها مفسرو « يواكيم دي فلورا » ، وتأثروا بتحريضات جمعية « الاخوة الصغار » المنشقة، فتناولوا بالانتقاد السلطة الكنسية والبابا الذي نعتوه « بالمسيح الدجّال » والبلاط الروماني الذي شُبه « ببابل » . وقـد حدث ما هو أسوأ من ذلك، اذ ان الوكيل العام للجمعية الفرنسيسية ، ميشال دي سيزينا ، كاد يجرّ الديريين أنفسهم الى حركة بيير دي كوربارا (١٣٢٨ – ١٣٣٠) الانشقاقية لانــــه عارض البابوية في المشادة حول فقر المسيح . ولكن « القانون » الفرنسيسي ، وهو أشد الزاماً من قانون الديريين مع انه يضارعه في احترام السلطة ، كان آخذاً في تجديد حرارة الاخوة الذي اصبح، في النصف الاول من القرن الخامس عشر ، رسالة برناردين دي سيان وجان دي كابيستران . وقد بلغ من قوة الاندفاع نحو الزهد انه اخذ يزهر في كل الاتجاهات .

كانت رينانيا وهولندا ، الى جانب المناطق الجنوبية ، اعظم مراكز الصوفية حيوية فان جاذب الاختلاء والتقشف قد وجّه الدعوات نحو الجمعيات التي حافظت على حرارتها النسكية والتكفيرية او استعادتها . فلم يعرف البندكتيون والمتسولون ، بعد ذلك ، النجاح الذي عرفته أشد الجمعيات صرامة أعني بها جمعية الشارتريين : فالى الـ ٣٧ والـ ٣٤ فرعاً التي أسسها هؤلاء في هولندا خلال القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر ، اضيف في القرنين التاليين ١١٠ و ٤٥ فرعاً جديداً . ويفسر جاذب الفقر النجاحات التي أحرزها القانون الفرنسيسي ، ونجاح ريمون دي كابو في المحافظة على وحدة الاخوة الوعاظ عن طريق اصلاحهم ، واصلاح جمعية القديسة كلير على يد كوليت دي كوربي في اوائل القرن الخامس عشر . ولم تكن حياة العزلة اقل جاذباً ، كما يشهد بذلك تكاثر النساك والمنعزلين عن الناس : فليس من دير او مدينة دون زاهد ناسك مختلٍ في صومعة قريبة من كنيسة او مقبرة . هكذا عاش في السنة ١٤٢٩ ، في مستودع عظام الابرياء في باريس ، الاخ ريشار الذي لم يظهر الا في الساعات الخطيرة ، حاثاً المؤمنين المشدوهين على التوبة منذ الفجر حتى المساء . وهكذا عاشت ايضاً السيدة جوليان النورويشية التي اشركت في الحياة الصوفية ، حوالي السنة ١٤١٣ ، احدى سيدات لنْ ، مارجري كمب ، واضعة اغرب مؤلف انتجه الادب الانكليزي بما تضمنه من تنبؤات ومناجيات صوفية .

افضت الاخوة الدينية الى قيام جمعيات وجماعات كثيرة صعب على الكنيسة ان تلمس فيها دلائل العقيدة القويمة . هذه كانت حال الرجال المتسولين والنساء المائشات في الاديرة : فقد اتهمت بعض جماعاتهم بالهرطقة الالبية ؛ وقد اطلق ، في عهد لاحق ، لقب « لولار » (كاهن فاجر) على بعض المتجولين من هؤلاء المتسولين ، قبل ان يطلق على اتباع الويلكيفية . الا ان هؤلاء الرجال وهؤلاء النسوة الذين الزموا ، في حياتهم المشتركة ، بممارسة الفضائل المسيحية ، لم يكونوا متمتهين كلهم . فقد كان لزاما على كل امرأة من هؤلاء النسوة ان تقضي سنة ابتداء وتمضي ست سنوات في الحياة المشتركة وتبلغ الثلاثين قبل ان تعيش في احد المساكن الفردية التي تميز هذه الحركة ؛ وكانت تخضع في حياتها الاخيرة هذه لرئيسة عامة هي « السيدة الكبرى » . اضف الى ذلك ان هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء خضعوا تدريجياً لنظام متشابه ، اعني به نظام العالمين الخاضعين للقانون الرهباني او نظام القديس اوغسطينوس . فيجب من ثم ان نميز بينهم وبين « الجالدين » الذين اتوا غرائب لم يتعرف اليها طقس او قانون او كهنوت .

آوت مناطق بال وستراسبورغ ، على صعيد يختلف كل الاختلاف عما ذكرنا ، ندوات من المثقفين ، « العلمانيين الاتقياء » ، والكهنة والرهبان المنعزلين الذين اجتمعوا طوعاً هادفين الى تحقيق تقدم روحي جماعي . عاش « اصدقاء الرب » هؤلاء ، الذين اشتهرت بهم المقاطعات الرينانية ، في ظل بعض الرجال البالغين في الطريق الصوفية شأوا بعيداً . نذكر بين هؤلاء راهباً دومينيكانياً مشهوراً هو المعلم جان اكهارت الذي انهى في السنة ١٣٢٧ ، في « مكتب » كولونيا ، العمل الذي بدأه في باريس ؛ توفي قبل ان يرغم على تقديم خضوعه ، المضمون سلفاً ، واقترح

صوفية ميتافيزيقية ، ولكن الاتحاد بالله الذي صبت اليه نفسه اصطبغ بمذهب الوهية الكون . وبين تلاميذه ، برهن جان تولر (المتوفى في السنة ١٣٦١) عن انـــه غير بعيد ، ولو بمزيد من التحفظ ، عن تفكير معلمه ؛ وارتدت الصوفية ، مع هنري سوز (المتوفى في السنة ١٣٦٦) ، طابع الجيل الشخصي والعاطفي حيث تحتل العذراء ، عنـــد اقدام الصليب ، المكان الرئيسي وحيث يشع كال النفس ، التي توصلت في الالم الى الاتحاد الالهي ، باعمال البر والمحبة .

وقد سعى وراء هذا الاتحاد بالله ، عن طريق الزهد ، اناس كثيرون في هولندا ، ارض التصوف المختارة : جيرار غروت و « دي دفنتر » في غنت ، وجان رويسبروك في بروكسل . بفضل غيرة الاول تأسست جمعية اخوة واخوات الحياة المشتركة التي مارس اعضاؤها، على الرغم من حياتهم الجماعية ، العمل الرسولي ونشر الكتب التقوية ؛ ويجب ان نعزو لهذه الجمعية النجاح المنقطع النظير الذي عرفه كتاب « الاقتداء بالمسيح » المنسوب الى تومادي كمبن . وحارب رويسبروك من جهته ، وهو مؤلف « الاعراس الروحية » ، نزعة الاكهارتية التجرّدية وعاد الى القول باسهام الروح اسهاماً ناشطاً في تلبيتها دعوة النعمة الالهية .

وتوصل بيير دايي الى رأي آخر ، منبثق عن ريشار دي سان فكتور والقديس برناردوس ، مؤداه ان التأمل وحده قمين بأن يسدّ مسدّ الحدود العقلية في مذهب اوكهام ويطلع النفس على أسرار الوحي. وسلك تلميذه جرسون السبيل الذي يؤدي من « الطريقة العصرية » الى « التقوى العصرية » . كان عميد « سان ـ دوناسيان » في بروج وعرف الصوفيـين الفلمنكيين الذي شغلوا منه الفكر في البداية ؛ ولكنه بحث ، بوصفه جامعياً وعالماً بالآداب القديمة وطرفاً في مناقشات زمانه، عن طريق مشتركة للحياة الروحية يوفق بها بين النظرية والصوفية ويتجنب الاخطار التي ركبها اكهارت والجسارات التي عابها على رويسبروك . فقال بزهد يناوب عن العقل المجرد ويلقن النفس سرّ الوجود الالهي فتستسلم للاختطاف بقوة النعمة . ومن بعده وصف راهبان شارتريّان، هما لودولف ودنيس ، درجات نعمة الصلاة : فتأمن من ثم ، عن طريق القرن الخامس عشر ، الاتصال بكبار متصوفي القرن السادس عشر .

التقوى

آل « الهيام بالصليب » الى السمو بالصوفيين نحو رفعة الكمال قبل القديسة تريزيا والقديس جان دي لاكروا بقرنين كاملين . احتفظ جرسون طيلة حياته باحدى ذكريات طفولته : ابوه يسند ظهره الى الحائط شابكاً يديه بشكل صليب وقائلاً له : « هكذا، يا بني صلب الاله الذي خلقك وخلصك » . واشركت كاترين دي سيان بآلام المسيح قربان آلام صحتها المنهارة ؛ وشعرت كوليت دي كوربي يومياً ، في ساعة آلام المسيح ، بآلام جسدية حادة جداً . واحتل آنذاك المركز الاول في الممارسات التقوية التعبد للدم المقدس والجراح المقدسة وكلمات يسوع السبع على الصليب ؛ وكانت « ساعة الآلام » تستهل « درب الصليب » الذي لم يحدّد عدد مراحله بعد . وقـــد آثروا آنذاك إحكام التأمل في يسوع مسيحاً متألماً على احكام

التأمل فيه قائماً من بين الاموات ظافراً . ولا ريب في ان التعبد القرباني ، الذي أقرّ في القرن الثالث عشر ، باقامة عيد خاص للقربان المقدس ، قد انتشر انتشاراً مطرداً ؛ ومهما يكن من جهلنا للطقس الديني الذي رافق تناول القربان ، فيبدو ان هذا التناول قد بات اقل ندرة : فقد نصح الى َراهبات مستشفى المخلص في ليل في اواخر القرن الرابع عشر بتناول القربان اربعين مرة بعد ان كان عدد التناولات المفروضة ستة فقط بحكم قانونهن . ولكن عبادة القربان المقدم للمؤمنين في مِعْرض مشع كالشمس قد أعاد الى الكثيرين منهم ذكرى السهرة في بستان الزيتون بالتفضيل على ذكرى التجلي في جبل طابور . وبحركة اجماعية ، اضافت النفوس القلقة ، الى تكريم العذراء الام التي عبّر مثّالو القرن الرابع عشر عن نضارتها الطاهرة بتأثير عقيدة نشرها دونس سكوت في فرنسا ، الشعور مع عذراء الآلام التي توصلوا الى رفع عددها الى مئة وخمسين قبل ان يحددوه بسبعة . وام الآلام هذه ، التي اوحت موضوع تمثال « التقوى » ، هي الوسيطة الطبيعية للانسان : فانتشر استعمال المسبحة الوردية في القرن الخامس عشر بفضل الدومينيكاني البريطاني الين دي لاروش .

وبرز الموت اخيراً ، وهو ما اقض مضاجع الناس في تلك الايام المضطربة ، بمظهر الفساد الذي يرافقه . فان « التمثال المرتعد » الذي نصب للكردينال « دي لاغرانج » على قبره في كنيسة السيدة في افينيون يمثل الميت « جثة عارية من اللحم ، شعثة الراس ، غائرة العينين ، بارزة الحرقدة »، وتستخلص منها الكتابة المحفورة على القبر هذا الدرس : « انما نحن هباء وجثة نتنة وغذام وطعام للديدان . وانت سوف تصبح مثلنا هباء » . وتبارى الوعاظ ، رغبة منهم في الحث على التوبة ، في تحليل تفاصيل آلام المسيح ، اذ ان موهبة الدموع ، بمجرد التفكير بالخطيئة ، لم تكن وقفاً على الصوفيين: فقد توجب على هؤلاء ، اذا ما استندنا الى النصائح المعطاة لأخوة الحياة المشتركة او الى دنيس الشارتري ، ان يمارسوا تمارينهم التقوية في الخفاء ، بينما حذر جرسون هواة التأثر والصوم والاماتة بتذكيرهم ان الغلو في التوبة هو فخ من فخاخ ابليس .

لم تكن الحاجة الى ابليس في الواقع اقل منها الى القديسيين في الديانة الشعبية ، ولذلك فهو قد احتل في تعبد الجماهير مكاناً متعاظم الاهمية . ولما كان كهنة الخورنيات أنفسهم متميزين في الغالب بجهلهم المطبق ، على الرغم من ارتفاع نسبة خريجي الجامعات بينهم ، ومسؤولين عن عائلات كبيرة ، وكثيرين جداً على كل حال ، فقد برهنوا عن عجزهم عن وضع حد لهذه الغرابات ، هذا حين لم يسهموا فيها بأنفسهم . وتظهر لنا الانظمة المجمعية وسجلات الزيارات ان الوضع المادي في طبقات الكهنوت الدنيا لم يتحسن قط بل سار من سيء الى أسوأ بفعل مصائب العصر ؛ وفي ما كتبه نقولا دي كلامنج عن انهيار الكنيسة الدليل الصادق على ما أثاره فيه هذا الوضع من سخط ووجوم . واذا اتاح تقدم التعليم في الطبقات الوسطى ، حوالي اواخر القرن الرابع عشر ، انتشاراً اعظم اتساعاً للمؤلفات التقوية (كتب الساعات ، وكتب التعليم المسيحي ، وكتب تفسير القداس وكتب الصلاة) ، فان جمهور المؤمنين لم يستفد من هذا الانتشار . ومهما

يكن من الامر ، فان تسلّط فكرة الشيطان هو دونما ريب احدى ميزات ذاك العهد واطولها بقاء لانها ، على الرغم من الاصلاح، ستستمر حتى القرن السابع عشر نفسه. فقد اعتقد الناس كلهم آنذاك بالسحر وشراب العشق والرقية ومقاسمة الشيطان ، اما رغبة منهم في تعاطيها واما سعياً وراء فضح من يتعاطونها ومطاردتهم ؛ وليس اسهل ، في سبيل النيل من عدو ، من اتهامه بالرقية والسحر .

ليس من عجب، في مثل هذه الظروف ، اذا ما ضلت الجماعات طريق التقوى الحقيقية. ولنا على ذلك شواهد كثيرة ذات اهمية . فقد ازدادت حدة الحقد على اليهودي مدنس القربان بازدياد عدد « المعجزات القربانية » التي ظهرت اولاها في باريس في السنة ١٢٩٠ ، ثم انتشرت في فرنسا الشمالية وهولندا، ودامت حتى الثورة التي استهدفت افناء اليهود في بروكسل في السنة ١٣٧٠ . وقد سبق لنا وذكرنا تجاوزات الحركة المعادية للعنصر السامي التي دفع اليها انتشار وباء الطاعون في السنة ١٣٤٨ والتي لم ينج منها اليهود المطاردون بكراهية الا بالالتجاء الى الاراضي البابوية . واجتابت المانيا الغربية والجنوبية في آن واحد زمر « الجـــلدين » ، العراة حتى الزنار الذين يؤلفون دائرة ويقومون بحركاتهم الاحتفالية التي تتعاقب فيها ، تعاقبـــاً مطرداً ، السجدات والابتهالات والجلدات المتبادلة بواسطة سيور جلدية مثقلة بالحديد . وكان من شأن التبشير الشعبي ، الذي مارسه حكماء قديسون من امثال « فنسان فريبه » ومصلحون اجتماعيون او كهنة ضالون على السواء ، ان يفضي الى كل حركة مفاجئة : فلنفكر هنا بـ « جون بول » كاهن كَنْت المعتوه ، الذي اثار ، في السنة ١٣٨١ ، فلاحي انكلترا على اسيادهم، او بجماهير المناطق الشمالية التي طاردت ، في السنة ١٤٢٨ ، سيدات طبقة الاشراف كبغايا ، تلبية لنداء المدعو توما كونكت : « الى الطنطور ! الى الطنطور ! » .

المرطقات الجديدة

ولكن شتان بين هذه الحركات الفوضوية وبين الهرطقات التي انتشرت، في آن واحد تقريباً ، في انكلترا وبوهيميا والتي كانت في البدء تيارات فكرية جامعية قبل ان تنتهي الى الشعب بصورة مبسطة تتشابك فيها نزعات قومية واجتماعيـة أحياناً . فالنقد العقلي للعقائد ، سواء في الويكليفية او الهوسية، قد رافقته الرغبة في تجديـــد الكنيسة اخلاقياً والعودة الى الصراحة الانجيلية ، وأدى الى رفض السلطات الكنسية وبعض الطقوس — أسرار وعبادات — التي كانت في نظرهم عيب كنيسة غارقة في الزمنيات وطامعـة بالخيرات المادية .

دأب جون ويكليف ، في كليات اوكسفورد التي أقصت الاوغسطينية الفرنسيسية عنهـــا الاسمية الاوكهامية ، كما في مجلس الملـك الذي استخدمه منذ السنة ١٣٧٤ حتى السنة ١٣٧٨ خبيراً في خلافاته مع البابوية او الاساقفة ، على تحديد السلطة المدنية والكنسية على السواء؛ ولم يلبث منطقه الحاقد ان قاده الى انتقاد السلطات الكنسية ، والى حدود حرية الارادة نفسها . فنجم عن تساوي السلطتين ، اللتين لا يسمح بممارستها الا لمن هم في حال النعمة ، حق الامراء في ان

ينتزعوا من رجال الدين الممتلكات التي حوّلها فساد الكنيسة عن غاية تخصيصها الاولى . اقيمت عليه دعوى كنسية اوقفت مرتين وانتهت ، غداة الانشقاق الكبير ، بتوبيخ أسقفي بسيط لا بالحكم الذي تمناه غريغوريوس الحادي عشر . ثم أقصي عن اوكسفورد حين دب الخلاف بينه وبين المتسولين حول سر القربان ، وشجعه مشهد الشقاق فبلغ منه ان قال بكنيسة روحية فحسب ، لا باباً ولا كرادلة ولا أساقفة فيها ، تقتصر سلطة كهنتها ، المتساوين صلاحية وفقراً ، على التبشير والوعظ فقط . وأرسى الحياة الدينية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً حرفياً ، وقد طلب ، تمهيداً لذلك ، نقله الى اللغة الانكليزية . فلا فائدة بالتالي من التضرع الى العذراء والقديسين والحج الى الأماكن المقدسة واللجوء الى الغفرانات ، وحتى الى الاعتراف بالخطايا : فوثبات الضمير المستقيم هي التي تحل الخاطىء من خطاياه ، والمسيح يستطيع ، بفضل علم سابق يقارب القضاء السابق منذ الازل ، التعرف الى خاصته . وأنكر تحول الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه في سر القربان ونظر الى الاسرار نظرته الى مجرد رموز .

استؤصلت الهرطقة الويكليفية بسرعة من الاوساط الجامعية ، وحتى قبل موت ويكليف نفسه (١٣٨٤) ، ولكنها انتشرت بظاهر تقوي ، معاد للسلطات الكنسية والطقوس ، في أوساط محدودة من الفلاحين او الصناعيين المدنيين الذين كانوا في بعض الظروف عوناً للأشراف الريفيين على رجال الدين. اجل لقد أتاح تضامن الاساقفة والحكومة الملكية حصر هذا الانتشار. ولكن مجمع كونستانس ، الذي صدّق الحكم على الويكليفية ، قد أمر بابعاد فلول الهراطقة الى خارج الاراضي المسيحية : فقد علق آباء المجمع الآمال ، بتسوية الشقاق ، على تنظيف حقلين من حقول العالم المسيحي نبت فيهما الزؤان حديثاً .

ساعد الوضع الاجتماعي ، والاحتكاكات العنصرية واللغوية ، وتجاوزات الكنيسة القائمة ، كذلك ، على انتشار الهرطقة في بوهيميا ايضاً. كان تأثير ميلك دي كرومريز ولا سيما توما دي ستيتني قد اوصل تلميذهما جان هوس الى تخوم الايمان القويم ، ولكن سعيه وراء صوفية قادرة على ان تعيض من عبوس الاسمية ، قد أعده لأن يتقبل من اوكسفورد ، قبيل السنة ١٤٠٠ ، وبواسطة جيروم دي براغ ، تعاليم ويكليف الجديدة . لم يكترث المعلم البراغي عندئذ بالاحكام الأسقفية والامبراطورية والبابوية ، بل جاهر بآرائه وانتقاداته . وفي هذه الأثناء اضطر أسقف براغ ، زبينك التشيكي ، الذي ساند هوس ، الى الاستقالة من منصبه ، فزاد بذلك انتشار الهرطقة : ونقل الكتاب المقدس الى اللغة التشيكية ؛ وللدلالة على الاستقلال ، عاد المؤمنون الى تناول جسد الرب تحت اعراض الخبز والخمر معاً ، ودرج هوس على القول انه يستأنف دعواه، على البابا يوحنا الثالث والعشرين[1] الذي حكم عليه، الى رئيس الكنيسة الاوحد، يسوع . حوكم امام المجمع وحكم عليه دونما التفات الى الفسح الامبراطوري ، فأذل وأحرق مع جيروم دي براغ في كونستانس في السنة ١٤١٥ . انه لحكم قاس أدى الى الثورة الهوسية التي

---

(١) اقيل هذا البابا واعتبر غير شرعي . وهذا ما يفسر ورود اسم البابا يوحنا الثالث والعشرين في عصرنا هذا .
« هيئة الترجمة »

يصعب مع تشابك بواعثها الاجتماعية والاقتصادية والقومية تحديد خطوطها الدينية البحتة . الا انها افضت ، بما أتاه « الطابوريون » من اعمال بطولة عنيفة انتصروا فيها تكراراً على « الحملات الصليبية » الامبراطورية والبابوية الموجهة ضدهم، الى نظام جمهوري دان بالتساوي بين الفلاحين، الجنود، الخاضعين لسلطة فرسان تشيكيين متحمسين، الذين جمع بينهم كلهم حرص على الصراحة التقوية ينبىء ببعض مظاهر « الصعاليك » في القرن السادس عشر او « الرؤوس المدورة » في القرن السابع عشر .

٥ ـ التصنع في التعبير الادبي والجمالي

قلق الوجود والتوق الى حياة فضلى : ان كافة الارتيابات والمتناقضات التي تميز الفكر الفلسفي والحياة الدينية، تبرز ، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، في التعبير عن الحياة الاجتماعية وفي مظاهر الفن على السواء . فقد اثير نقاش بين المحسوسات والمعقولات ، وبين البداهة والتصنع ، وبين الفظاظة والشعور الرقيق ، لم تسمح اية نزعة باستشفاف جواب جازم بصدده .

متناقضات الحياة الادبية

ليس عسيراً علينا ان نرسم ، بواسطة المحفوظات القضائية ومؤلفات مهذبي الاخلاق المغتمّين — في وقت ازدهر فيه لون «الاحلام» و « المراثي » — لوحة قاتمة السواد لاخلاق المجتمع المسيحي في عهد الطاعون والحرب اللذين طال امرهما في هذه البلاد او تلك . فهل نحن امام مجتمع « مختل التوازن » ، فقد كل رزانة في التظاهر بالرذيلة والبهيمية، وقارب الجنون في اغلب الاحيان، وانتقل، دون تحول، من الجريمة الوقحة الى دموع التوبة ، وتباهى احياناً بقبائحه واستنشق بلذة رائحة الجثث النتنة ؟ ان خطوطاً كثيرة في هذه الصورة الخيالية المفجعة حينا والبطولية حيناً آخر ، ترد الى الوهم الذي يولده فينا النظر الى الاشياء البعيدة. فان نجاحات الروح العلمانية والطبقة البورجوازية من جهة قد انمت ، كما سبق واشرنا الى ذلك ، الميل الى الهجو الاجتماعي وحرية كبرى في التعبير وواقعية لا تعقدها الاصطلاحات ، واشتدت المضادة من جهة ثانية بين الاخلاق التي لم تزل فظة والتفخل المتزايد لدى الطبقات العليا ، فبرزت من ثم المتناقضات الاخلاقية بمزيد من القوة .

لم يكن الناس في القرن الرابع عشر ليهتموا لسماجات حياتهم القصيرة وغير المستقرة اجمالا او ليحترموها عند الآخرين. فهل في تدشين اول مستشفى للمجانين في همبورغ، في السنة ١٣٧٥ ، دليل على تفاقم الامراض العقلية يا ترى ؟ مهما يكن من الامر ، فان بلاطاً واحداً لم يخل من مجانينه واقزامه ؛ وليس من عيد شعبي الا وكان لهم فيه الدور الاول ، وقد احصاهم الناس في عداد الوحوش الغريبة . ولم يستطع الملوك والعظماء، شأنهم في ذلك شأن اسلافهم منذ قرون، الاعتدال في ميولهم الفظة :فان سورات الغضب الشديد عند جان له بون الابي او ادوارد الثالث

البشوس ، وعوارض الهيجان عند فيليب له بون الذي كان يسكّنها بالسير على الحصان حتى النهكة في غابة « سواني »، ونوبات « السويداء » عند « الجسور » ، تتجدّد عند كل من لم تدفعه حياته ، الحربية حينا والمتفخلة حيناً آخر ، الى مراقبة اهوائه . وقد اعترف فرواسار ، على الرغم من اعجابه الاعمى بطبقة الفرسان ، بان « اكابر الامراء واكابر الاسياد . . . ما كانوا ليتميزا عن البهائم لولا وجود الاكليروس » . وان في جاذب علوم السحر والتنجيم التي اسهم في نشرها رجال الدين انفسهم بسبب ميلهم الطبيعي الى التشكي من داء لمسوه في كل مكان ، لدليلا على ان الناس قد حاولوا في الاوقات العصيبة استمالة كافة القوى الفائقة الطبيعة او الجهنمية اليهم : فهنري دي ترنستمار لم يقدم على عمل شيء دون استشارة ساحره الطليطلي الذي ادعى استحضار الموتى ؛ وروي عن غاستون ـ فيبوس ، كونت فوا، ان روحاً مؤالفة كانت تشعره بالاحداث ساعة حصولها بالضبط . وان في استصواب رجل متزن كجرسون وضع دراسة لتحويل شقيقاته عن تعاسات الحياة الزوجية لصدىً للتقليد الرهباني القديم الذي استرذل الفعل الجنسي واحتجاجاً على الفجور والضلال اللذين شاهدهما بأم عينه . واستند مهذبو الاخلاق الى هذه الافراطات في اصدار حكم مطلق على العصر بكامله ، ابتداء من القصة الهجائية التي اتهمت كافة المعاصرين بتمضية وقتهم في تمسيح فوفيل — الحمار الاحمر الذي كان يرمز الى مجموع الرذائل كلها — حتى الشاعر اوستاش ديشان الذي لعن

« زمنه الكلي الرجاجسة والبهتان
وعصره المليء بالكذب والغطرسة والحسد »

وقد زادت في تشاؤمهم رؤيتهم للأهواء الجماعية التي كانت الجماهير المدنية سريعة التأثر بها، فتذرف الدموع سخية عند سماع المواعظ وتقبل على تناول الاسرار بحرارة وتطرد بنات الهوى تلبية لدعوة مبشر — وقد تتساهل معهن في اليوم التالي — او تقوم « باهتزازات » دامية تشرك فيها الكائنات السماوية اشراكاً غريباً : ففي أثناء مذابح الحرب الاهلية ، في السنتين ١٤١٣ و ١٤١٨ ، وضع المهيّجون الباريسيون القبعة البورغونية الصغيرة على رأس تماثيل قديسيهم . اضف الى ذلك ان اللهو الشعبي غالباً ما تميز بفظاظة مثيرة كمشهد تنفيذ الاحكام بالموت الذي كانوا يستطيبون التمادي فيه ، وكالمبارزة التي جرت في باريس نفسها بين عميان تضاربوا بالعصي حتى الموت . وكان لكل مدينة لصوصها الذين يسيطرون على الشوارع المظلمة ليلا : فقد ألّف هؤلاء اللصوص ، في باريس نفسها ايضا، « مملكة الصعاليك » التي اطلق فيها اسم « الصعاليك الاحرار » على من يرفض منهم الاسهام في تحمل الاعباء المشتركة . ثم جاءت الحرب فأخرجت زمر اللصوص وقطاع الطرق والقتلة هذه من اغواطها ؛ وبلغ من « صعاليك » القرن الخامس عشر ان حملوا شارة حجاج سان ـ جاك نفسها .

اذا كانت الاهواء عنيفة واذا شجعت مصاعب الحياة القلقة على جمع الثروة بأسرع السبل ـ كان جباة الضرائب والصيارفة والتجار اول المبادرين الى هذا الجمع وقد اتهموا بالغش وسرقة

أموال الدولة عموماً – فهل يجيز لنا ذلك تجاهل « البورجوازي الشريف » و «الفلاح المسكين» الذين لا نعلم بوجودهما الا حين يأتيان عملاً يؤاخذان عليه فيلتمسان، بذرف الدموع ، براءات الغفران ؟ هنالك طريقتان امام الانسان للحكم على عصره : اما الحكم عليه حكماً مبرماً كما يفعل مهذبو الاخلاق والمجاوزون ، واما الارتضاء به بسلامة قلب ، دون تجاهل علاته ، واتباع اخلاق منتصفة ترفض كل تجاوز وافراط وتفسح للذة والمنفعة مكانهما . تتمثل الطريقة الاولى ، في انكلترا، بنقد لنغلاند الاجتماعي الذي استوحى المواعظ الشعبية في رؤيا « بيرس بلومن ». وتتمثل الثانية بسخرية شوسر الباسمة في كتابه « قصص من كنتربري » الذي ينم عن ذوق شامل واحترام للأعراف الاجتماعية .

الفروسية وأدب المجاملة

لا ريب في ان مثل الفروسية أرسخ هذه الاعراف تأصلاً في طبقة النبلاء مع انتجدد العائلة المنتمية اليها أسرع حصولاً منه في السابق. وهو ما زال مرتكزاً الى الفضيلة الرجولية التي تقاس بتمجيد الاقدام والنجاح الشخصيين؛وليس نصيب الفارس منها ، في سعيه وراء البطولات ، دون نصيب البورجوازي في صراعه لجمع الثروة . وان في ما اطلقت عليه ايطاليا اسم الفضيلة (*Virtù*) محاولة لتعظيم الحزم وطول الاناة والسيطرة على النفس : وانما هي زهد بشري أكثر منه مسيحي فيه تتمادى خشونة القرون الوسطى ، وتتراءى أناقة النهضة ، ويبحث الرجل الشريف والرجل الصالح احدهما عن الآخر دون ان يتلاقيا بعد .

الا ان من واجبنا القول بأن الفروسية والمجاملة ، بفرض الزاماتها فرضاً مطرد الشدة ، قد برهنتا عن عجزهما عن عكس أنظمة المجتمع الجديـــدة ؛ فكانتا من ثم مثلاً مصطنعاً اصطبغ بالتكلف الادبي وتخثر في الخيال الوهمي ، حتى بالنسبة لاولئك الذين لم يرضوا بتشويه فضائل الفروسية وطالبوا باحترام دستورها .

ما فتئت المرأة ، وفقاً لمثل المجاملة ، تملي التصرفات الشريفة ، ولكن هذه التصرفات قد ارتدت طابعاً آخر . فاذا كانت لور ، بالنسبة لبترارك ، « سيدة روحانيته » ، فان الفارس ينهل وحي بطولاته من « سيدة أفكاره » . فقد قال والد « جاك دي لالين » لابنه : « قليلون هم النبلاء الذين بلغوا فضيلة البطولة السامية دون ان يلهجوا بسيدة او آنسة » . من اجلها تقسم الايمان الصعبة او الغريبـة احياناً ؛ فقد أقسم مرافقو ادوارد الثالث من الجنود لسيداتهم ، في السنة ١٣٣٧ ، بأنهم سيحجبون احدى عينيهم بقطعة نسيج سوداء الى ان يأتوا مأثرة كبرى . والفارس التائه انما ينتظر من « سيدته » ، في البلاط نفسه او أثناء الخدمة العسكرية ، مكافأة بطولاته البعيدة الكثيرة ، عند انتهاء مصائبه ومحنه . ولم ينتقد انطوان دي لاسال هذه العادات قط في كتابه « جهان دي سانتري الصغير » الذي ألفه لابن الملك « رنيه » ، بل بقي أميناً « للعصر السالف النبيل » ؛ وعلى غرار جهان ، تذكر « جاك دي لالين » ، الذي كان مثلاً حياً في تشرده البطولي ، دروس « سيدة بنات الاعمام الحسناوات » ؛ فقـــد تمكن من استمالة قلوب

الاميرات بهداياه واستطاع في أحـــد الايام دخول ميدان المعركة حاملاً في أعلى خوذته خماراً مطرزاً بالجواهر ، وفي معصمه اسولراً ، كانا كلاهما شهادة باعجاب المعجبات بـــه . وغدت الالوان والشعائر رموزاً متفقاً عليها للأمانة المثالية ، ما زال يتوخاها ، في خدمة الصليب دون غيرها وفي احترام المرأة ، الفرسان الملتفون حول فيليب دي ميزيير وبوسيكو في جمعيتي « آلام المسيح » و « الترس الاخضر المزدان بالسيدة البيضاء » . بيد ان الكثيرين من اعضاء الجمعيات الجديدة - جمعيتـــا « النجمة » و « رباط الساق » في القرن الرابع عشر ، وجمعيتا « الجزة الذهبية » و « القديس ميخائيل » في القرن الخامس عشر - قد اضافوا المشاغل العالميـــة الى ابتغاءات الفرسان البطولية في الايام السالفة ، لا بل اقاموها مقامها احياناً .

اذا المرأة احتلت مركزاً رئيسياً دون منازع في « بلاطات المحبة » التي ابتكرها الامراء البورغونيون ، فهل بقيت ذاك الموضوع الخالص لمحبة حلال؟ ثارت كريستين دي بيزان ، في نقاش حاد ، على الاخـــلاق المتراخية في « قصة الوردة » ؛ فبين « جان دي مونغ » وظهور كتاب « مئة قصة جديدة » ، مروراً بـ « الزوج الباريسي » و « أفراح الزواج الخمسة عشر » ، انتشرت اخلاق عالمية أخفت ظواهرُها المجامِلة احتقاراً متفاوت الوقاحة للمرأة قوامه ازدراء الرجل لكائن ضعيف ولاداة لذة . وما أسعد المرأة التي تحترم من اجل كثرة اولادها ؛ فقـــد كتب مؤلف لاتيني ما يلي : « لا يقاس جمال المرأة ، في نظري ، بطلاوة وملاحة محياها بـــل بجسمها العامر المعدّ لأن ينجب لك بنين حساناً جداً » . وأبنـــاء الزنى كثر في كل العائلات ، وليس من يفكر باخفائهم او حرمانهم من الارث ؛ والمحبة خارج الزواج تعظم وكأنها منتهى التنعم ، وتتصف ألفاظ الرجال ، من محاربين وغيرهم ، بحرية مفرطة : فاذا لم يجد السيد « دي لاتور لاندري » افضل من أماليح لمفراد الحرس لتربية بناته ، فان مجتمع المدن الايطاليـــة ، وبلاط بورغونيا من بعده ، قد خصّا السيدات ، بصورة طبيعية جداً ، بكل مجانة مستهجنة يمجها الذوق اللطيف . ولا يرى احد غضاضة في اشراك الديانة في هـــذه المظاهر الاباحيـــة : فان لويس دورليان ، الذي أرخى لشهواته العنان ، كان يرتدي المسح ايضاً ؛ وقد مثّل ابنــه شارل ، الشاعر ، تأوهات « عشاق العفاف » بآلام ابناء القديس فرنسيس السرية .

أنى لمثل الفروسية المتأخر هذا ، من جهة ثانية ، تدميث اخلاق الجندي المتعود اعمال القوة والعنف؟ لقد قضت مبادئه بأن تتعادل قوى الخصمين ، في الحرب والمبارزة على السواء ، وبأن يكون النصر حليف أعظمهما شجاعة : ولكن ذلك لم يحل ، في ساحة المعركة او أثنـــاء الجولة على صهوات الجياد ، دون معاملة المشاة الاوباش وسكان الاكواخ بمنتهى القسوة والفظاظة . « قسوة واستلاب واغتصاب » ، ذاك كان شعار فرسان كثيرين روى فرواسار فظاعاتهم بكل رضى ، لأنها غدت جزءاً لا يتجزأ من الاخلاق العامة وباتت ، في نظره ، هفوات تافهة لا يطالب بهـــا رجل شريف ، بينما هي تصبح جرائم اذا صدرت عن القروي او البورجوازي او رجل الدين ، اذ ان القسوة ، المعتبرة فضيلة عسكرية ، كانت وقفاً على النبلاء . « هل تعرف ان تكون قاسياً

ومتغطرساً ؟ ، طرح ٤٠٠ السؤال على البورجوازي « فيليب فان ارتفلد » حين استلم قيــادة الثورة في غنت . وكانت المبارزة بين بورجوازيــين أمراً مشيناً ممقراً ، لأن الارستوقراطية استأثرت بحق سماع « صراخ الدم » والدفاع عن شرف « الروابط الزوجية » . وقد اعتبرت الكين ، في مثل هذه الحالات ، تصرفاً منكراً ، ولكن صليبي « نيكوبوليس » التقي قــد أسند الى احدهم مهمة اغتيال ابن عمه في احد الشوارع الباريسية المظلمة . لذلك كان شر عقاب يعاقب به الفارس نعتــه بالقروي الخشن ؛ وحين حكم على السيد « جياك » لاقدامه على قتل زوجته ، اغرق في كيس مخيط كما لو كان حيواناً مضراً : وهذه ميتة لا تليق بالفارس .

البذخ والذوق

لا ريب في ان الاخلاق الفظة ترد الى اعتبارات الشرف ، ولكنها ترد قبــل ذلك الى الحرص المفرط على المال ايضاً . ففي وقت انهارت فيه المداخيــل السيدية ، بينما زاد انتشار البذخ بين الطبقات الميسورة ، وفرض حب التظاهر سخاوات وقفية كبيرة ، وما زال السخاء فضيلة الرجل الشريف الاساسية ، كانت المحافظة على المستوى الاجتماعي ضرورة ملحة . وكان الحسد والبخل ، على غرار السخاء ، « سيدين وملكين » . وكل خدمة يدفع ثمنها ، ولا سيما الخدمة العسكرية . وقد كتب فرواسار : « الجنود لا يعيشون قط مــن المغفرانات » . ولما كانوا ، من جهة ثانية ، ينتظرون الغنائم والفدى من الحرب ، فكان طبيعياً ان يصبح الفارس سلاّباً . فاذا توصل اوستاش دوبرشيكو ، الذي اعجب فرواسار بمآثره البطولية ، الى ان يستولي عن طريق الخدعة على احد الحصون اكراماً لسيدته ، فان ثري الحرب كروكار ، قد ارتفع من مرتبة الغلمان الى مرتبة الاسياد .

في طبقة النبلاء هذه ، التي كثر فيها حديثو النعمة ، شغل الشبان بالهم بالبذخ الذي سخر منه الهجو البورجوازي في « تقليد رينار » :

« المعاشرات السيئة تتسلط على العقل
هذا يلعب بالكعاب وذاك يحيي الحفلات
هذا يجادل وذاك يحارب
كلهم كرماء وذوو مال وفير
ولا يعلمون من أين تأتيهم الاموال » .

وليست غرائب الذوق والرغبة المستجدة في اقتناء الاقمشة الثمينة كالحرائر والفراء وقفاً على طبقة ذات مزايا معينة . فبعيد الطاعون الكبير ، كما قال فيلاني الفلورنسي ، « ارتدت اوضع النسوة الملابس الجميلة التي ارتدتهــا من قبلهن سيدات ارستوقراطيات أدركتهن المنية » . وفي انكلترا ، عبثاً حاولت بعض القوانين تقييد النفقات المفرطة بتدريج البذخ في الملابس بحسب مرتبة الافراد وثروتهم . ويرد ذلك الى ان الذكور استمدوا ، منذ اوائل القرن الرابع عشر ، الزي « الجزئي » الذي اختلفت ألوان الملابس والاحذية والقبعة فيه بين الجهة اليمنى والجهــة

اليسرى . واضيف اليه، حوالي السنة ١٣٤٠ ، زي الملابس القصيرة الضيقة ، بينما حافظ المجدّون وحدهم ، أي رجـــال الدين والقضاة والاساتذة والاطباء ، على الثوب التقليدي الطويل . وفي النصف الثاني من القرن، حلت القميص القطنية محل القميص الصوفية الناعمة ، واستعملت الفراء النادرة لصنع القبعات وتزيين الملابس ، المصنوعة من الاجواخ الخفيفة ذات الالوان الزاهيـــة المتنوعة ، القادرة على التعبير عن الفوارق الاصطلاحية بين مختلف العواطف. وزاد الشكل العام غرابة : فاذا أرجعت المرأة شعرها الى الوراء حتى لا يظهر منه شيء على جبهتها ، فانها كست رأسها بالطنطور او بقبعة المنجّم المقرّنة المزدانة بخمار طويل متسدل ؛ وقد انتقد السيد « دي لاتور ـ لاندري » زي كشف أعلى الصدر والكتفين والذيول السابغة التي يجب رفعها والقاؤها على الاذرع ، والخصر المشدود حتى اضاقة النفس . اما زي الرجال وهو أشد غرابة ايضاً بأكتافه المستعارة المحشّاة وضيق زنار ثوبه الخصر المنحدر الى الركبتين ، فقد اظهر نصف الجسم الاعلى بشكل مربع منحرف يعلو ساقين نحيلتين محشورتين في سروال ضيق ملتصق بهما تنتعلان حذاءين أشبه بطرف مقدم السفينة ـ كأظفار الحيوانات المسيخة ، كما يقول اوستانش ديشان . ويتكامل كل ذلك بقبعات عالية او مستديرة من الجوخ او من الفرو . واختفت اللحية في أواخر القرن بعد ان درج زي ارخائها وتقسيمها الى قرنين « مغناجين » ؛ اما الشعر ، الذي كان في البدء طويلاً ومتموجاً ، فقد قص بعد ذلك بشكل كمة قروية . وهو هذا اللباس الغريب الذي سخر منه « جان دي كونديه » في قصة جاءت تسميتها « القرد » في محلها

سبق لبيترارك وشنّر على هـــذه الأزياء المشينة ، وعبثاً حرّم اوربانوس الخامس وشارل الخامس الاحذية الملسّنة . الا ان القرن الخامس عشر قـــد زاد في الطين بلة فكدس الجواهر والاقمشة الثمينة ، ولا سيما الحرائر والملابس المزينة بالصفائح الذهبيـة والفضية . فأفضى بذخ الملابس الى ابراز المضادة بين الثروات وبؤس الجماهير، مع انه استجاب لسعي الناس آنذاك وراء حياة افضل ووراء شكل جمالي معين يمثل الادب والفن ، لا غرائب الأزياء ، مظاهره الحقيقية .

مصائر الفن القوطي

استطاع القرن الرابع عشر ، في كل شكل من اشكال التعبير الجمالي ، ان يطبع بطابعه تنوع محاولاته وحتى جسارتها احياناً . كان لزاماً عليه ان يتحرر من الوصاية الجائرة التي كان الفن القوطي العظيم قد فرضها على كافة انحاء اوروبا، دونما تنكر لمبادئها ؛ ولم يكن باستطاعة الاجيال اللاحقة ، امام إرث القرن الثالث عشر ، اي امام تنسيق النسب الهندسية ، وحقيقة النقاشة الممحّصة بالمثالية ، والميل الى الاضواء والالوان، وتناسق الاصوات المتعددة في الغناء ، واللغة الادبية ـ الفرنسية ـ المسلم بها لغة شاملة ، سوى ان تستنزف صيغه المفرطة الكمال التي مالبثت ان استقرت استقراراً نهائيـــا ، او ان تحاول الابتعاد عنها بالبحث عن تزيين اعظم اخصابا واقل تبعية ، او عن ضرب من ضروب « فن غريب » ينجيها من الجمود والانحطاط . وكان مقدراً ان تنجم عن هذه الابحاث صيغ جديدة تأتلف فيها التقاليد المقبولة والطرائق المتحنة مع نزعات جريئة ومخصابة . فلسنا بصدد حيال

الكلاسيكية التي شهد القرن الثالث عشر ازدهارها، حتى ولا حيال فن « عظيم » جداً في أكثر الاحيان : اذ ان كل نظرية جمالية يجب ان تدرس مجردة ، أي بمعزل عن القوانـــين المدرسية ؛ والنظرية ، او بالاحرى النظريات التي أبصرت النور في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لا تستحق الاستخفاف الذي استهدفها بسهولة

اذا ما استثنينا ايطاليا التي اتجهت آنذاك نحو طرق مختلفة ، وأينـــا ان كل دولة من دول اوروبا ، على الرغم من فوارقها القومية او الفردية ، حاولت تجديد طريقة تعبيرها الجمالي بتلدين الصيغ القوطية . وقد ادت النزعة العامة الى الاختبارية والفلسفة الكلامية ، عند بعض هذه الدول، ـ وكان لفرنسا قصب السبق في هذا المضمار ايضـاً ـ الى اعطاء المركبات العضوية شكلاً نهائياً يكاد لا يختلف بجموده عن جمود الخطوط الاولى في التصاميم . وجدّت الاختبـــارية في الوقت نفسه في معرفة الخصوصيات وساعدت على تميز الالوان وانماء مظاهر الذوق المختلفة ، بينما اوجبت الفلسفة الكلامية على العقول وضوح التعبير وكمال الشكل . فنشأت من ثم ، في منتصف القرن الرابع عشر ، مطابقـــة بين النزعات الفكرية والادبيـــة والفنية وطرائق التعبير عنها .

الميل الى الوضوح : تلك هي حال الاناقة المجرّدة والمتميزة ببعض الفتور في هندسة العمارة . فان في ارتفاع العقود ، وفي صلابة الركائز التي آلت فيها التيجان ، حين لم تضمحل نهائياً ، الى مجرّد طريدة من اوراق الشجر ، وفي دقة النقوش الناتئـة ، وفي توسيع النوافذ المفرط ، وفي تفضيل الاشكال الهندسية المشعة، لمعظمة اشبه بمظمة اللوحة الكبيرة المنجزة. ولكن البناء يتميز بمزيد من التنسيق وتتميز انارته بمزيد من الرّوق والمساواة في التوزيع . وتطورت تقنية زجاج الكنائس ، فقد اعتمد اللون الرمادي بالتفضيـــل على غيره في الخلفيات ؛ وانتشرت الالوان الاخرى المختلفة ، التي اضيف اليها اللون الاصفر الممزوج باللون الفضي ، في صفائح زجاجية مزدوجة عريضة ، ما زالت تلون في داخلها ، ندرت فيها الفواصل الرصاصية . وان مـا دشنه القرن الثالث عشر المشرف على الانتهاء ، في كنيسة القديس اوربانوس في « طروا » قد تفتح في كنيسة سانتوان في روان ، وفي كاتدرائيـــات متز وستراسبورغ ، وفي كركسون ، وفي البي ـ حيث المجز معبد محصن بالقرميد ـ وانتشر في ما وراء الرين وحتى وراء الجبال ايضاً . اما ايطاليا فقد تأخرت عن الركب ، ولن يلفت الانتباه فيهـا ، طوال القرن الرابع عشر ، سوى مثل كاتدرائية اورفياتو . ولكن الامر يختلف كل الاختلاف في شبه الجزيرة الايبيرية حيث تأثرت برشلونة وبالما وجيرونا وبمبلونا وطليطلة بالنمط المشع في فرنسا الجنوبية الذي نشاهده حتى في « بطلها » من اعمال البرتغال . وانتشر هذا النمط المشع الانيق الفاتر دراكاً في المانيا حيث انهى احد الفنانين الفرنسيين ، في السنة ١٣٢٢ ، خورس كاتدرائية كولونيا : والى القرن الرابع عشر تعود ، في اقسامها الهامة، تحقيقات هولندا البنائية القوطية الكبرى في غنت وبروكسل ولياج . وابتكرت انكلترا اخيراً علماً جمالياً خاصاً : فبعد ان رضيت ، طوال جيل كامل ،

عن التزيين المثقل بالخطوط المنحنية المتقابلة والزهيرات اللحيمة والاقسام الناتئة السمجة ، سارعت الى اعتماد الخط المستقيم الجاف ، في اطار مستطيل اقصيت عنه القناطر عملياً ، وهوّيت فيه العقود المتقاطعة دونما هدف ، التي انتهت الى رسم مراوح غريبة . فارتقمت الروائع الاولى التي تمثل هذا الفن « العمودي » في بريستول وغلوسستر حوالي السنة ١٣٣٠ ؛ وهو قد بلغ ذروته في اواخر القرن في خورس يورك ، وخورس كنتربري الذي انهاه هنري يفيل في السنة ١٤١١ .

اما الفنون التصويرية ، التي لازمت هندسة العمارة حتى ذاك العهد ، فقد اتجهت نحو الاستقلال. فادى مثل الاقتداء الجمالي ، الامين لتقليد واقعيـة القرون الوسطى ، بالنقاشة والتصوير ، الى البحث الدقيق عن صحة الاحكام والكمال التقني ، وقد اعتبرا منفصلين عن بعضهما ولم يكترث للتوفيق بينهما وبين الاطار الذي انزلا فيه . ولم تعد نقاشة التماثيل في الابنية ، وقد الجئت الى ملاحظة التفاصيل وتمثيل جسم الانسان تمثيلاً صادقاً ، سوى تكملة ضرورية للبناء ؛ كما لم تعد التماثيل المرتفعة جزءاً لا يتجزأ من البناء ، فبرز كل منها تحت مظلة ضخمة ، واخذت مشاهد القباب والاساكف والصفائح الخشبية في اسفل الجدران تفسح المكان للصورة الفردية : ذاك هو زمن انتشار صور العذراء حاملة ابنهـا التي تتميز ببعض التكلف في تراخي الوركين ، ولكن النقاش قد رسم على ثغرها الابتسامة الحقيقيـة التي تبتسمها النسوة الشابات . وبرز فن الصورة الفردية عند نقاشي ورسامي المدافن ايضاً ؛ فقد اهملوا النقوش والرسوم المقدسة التي اعتمدت في المدافن الملكية او الاسقفية خلال القرن الثالث عشر وشغفوا بتمثيل الموتى تمثيلاً معبراً مألوفاً . هكذا تظهر لنا « العذارى المرحات » في ارفورت ، وشارل الخامس في اللوفر ، ومدافن سان دني وافينيون . وهذه ايضاً هي النزعة التي اتفقت وتقليد العصور القديمـة في المنابر التي نقشها نقولا بيزانو ، والتي اشعت ، من خلال مدرسته ، على اسبانيا وايطاليا ايضاً .

وفي فرنسا ايضاً كما في ايطاليا – في سينا وفلورنسا – ارسخ التصوير استقلاله ومميزاتـه الجديدة . فها هي من جهة ، عنـد منعطف القرن ، واقعية جيوتو المنتصفة – تآلف كما سبق ورأينا ، بين العاطفة القوطية ، والاشكال القديمة – التي يعبر فيها عن محبة الفرنسيين للطبيعة في مشاهد معتادة ، مستعارة من « الاسطورة الذهبية » في صور « بادوا » الجدرانية . وهذه هي من جهة ثانية ، مدرسة دوتشيو ومارتيني في سينّا ، التي قـد تكون دون الاولى روحانية ، ولكنها تتميز بواقعية مؤثرة وجليلة الفائدة ، بما تعرضه من ذكريات الشرق الكثيرة في مشاهـد الحدائق والقنص الزاهية التي ملأت بها جدران قصر البابوات في افينيون . وبسلوك هذه السبل ، قطعت شوطاً كبيراً ، في مجالات التقدم ، المدارس الفرنسية ، اي مدرستـا افينيون وباريس ، اللتان بحثتا كلتاهما عن طرائق جديدة للتعبير التصويري ؛ فان الصورة التي لم يبق لها من مكان في كنائس غدت معرضاً للزجاج سوى المثلثات القائمـة بين اقواس العقود ، والتي اقصيت عن المساكن الخاصة بفعل انتشار التنجيد والفرش ، وكلاهما اوفر دفـأً وافضل تأثيثاً ، قد رسمت

آنذاك على اللوحة الخشبية في الرافدة المركزة وراء المذبح او في صفحة كاملة من مخطوط مزوق. اجل لقد فقدت بذلك طابعها البنائي العظيم ؛ ولكنها استعاضت عن هذا الفقدان بموهبة امثال جيرار دورليان مصور جان لوبون ، والواقعية الشديدة التعبير في « نسيج مذبح ناربونا المهدب » وتزويقات « جان بوسيل » : فهنا قد سيطر الاهتمام بتصوير التفاصيل الدقيقة ، دونما علاقة مباشرة بالنص المقصود تزيينه بالصور ، حتى ان الفنان قد نسي المؤلف العام الذي اعدّ تصاويره له .

الالوان والتعابير الادبية

ان الحركة العلمية السائرة قدماً بفضل الاختبارية ، قد فرضت على النثر العامي ما لم تفرضه مباشرة على هندسة العمارة والفنون التصويرية من ضبط في تأدية الفكر . فكانت ترجمة مؤلفات القدماء ، الى اللغة الفرنسية بنوع خاص ، مدرسة تعلم المرونة والدقة ، فاتاحت خلال القرن الرابع عشر تحسين اداة التعبير عن الفكر تحسيناً مستمراً : تراجم فيجيس وفيتروف ، وترجمة نقولا اورسم لمؤلفات ارسطو . وبدأ انتشار الروح القانونية بانتشار مجموعات المنتخبات والتفسيرات ؛ وبينا كان الايطالي برتولو مستمراً ، في بيزا وبادوا ، في وضع متعارفاته باللغة اللاتينية ، وسع جان ده ماره وجاك دابليج وجان بوتيليه في فرنسا الطريق التي شقها « بومانوار » من قبلهم ، فظهرت حينذاك « عادات » بريطانيا وفرنسا ، و « طراز حصن باريس » ، و « المجموعة الريفية » ، وكلها روائع عصر من رجال الاختصاص .

وباستطاعتنا ان نذكر التاريخ ايضاً ، مع انه لم يبلغ بعد درجة الفن . فهو بعد جان لو بيل ، قد اشتهر ، بفضل فرواسار ، بالوان لم يتوصل اليها جوانفيل في مذكراته . فان فرواسار الذي تقصى الاخبار برصانة وصدق لم يعترف له بها احياناً ، وكان قادراً على الاحاطة باحداث الغرب كلها ، وشغف بمعرفة مجتمع عصره وحرص على تفسير ما رأى ، قد حدّد مهنته خير تحديد : « لو قلت : حدث كذا وكذا في ذاك العصر ، دون ان اكتشف السرّ او القي الاضواء عليه ، لكنت دونت مذكرات لا تاريخاً » . فالشغل الشاغل الجديد انما هو الوقوف على اسرار البلاطات والقلوب والبحث عن دوافع الاعمال عند عظماء هذا العالم . اجل لم يكن ذلك وقفاً على فرواسار ، ولكن اوروبا لم تعرف له نظيراً ، لا في اسبانيا ولا في انكلترا ، ولا في هولندا نفسها حيث يجب ان نذكر اسمي برابانتش وييستن الشهيرين .

ليس المجال بعيداً بين التاريخ ، وهو سرد بطولي او ازدرائي للاحداث ، وبين الرواية الخيالية والقصة البطولية والخبر والنقد الاخلاقي . فقد تمثلت في كافة انحاء اوروبا جميع هذه الالوان باشكالها التقليدية او الجديدة الجريئة . واستمرت فرنسا في طرق مواضيع الاغاني الايمائية ، اذ ان القصة البطولية والمجاملة ، نثراً او شعراً ، قد احتفظت بمكانتها ورواجها ؛ وولع الاجانب بدورهم بالمختارات « على طريقة فرنسا » . فظهرت في ايطاليا « القصص الملكية

الفرنسية » وفي المانيا « كتاب المغامرات » وفي اسبانيا « الفتح العظيم مـا وراء البحر » ، بينما اوحى برسفال ، في انكلترا ، « السيد غوابن والفارس غرين » ، وعرف تريستان ترجمة تشيكية ، واقتبس اوزياس مارش عن اللغة الكاتالونية نغمات شعر المجاملة . ولكن بودوان دي سيبورك ، على الرغم من انه ما زال يتميز بنفحة ملحمية ، قد عرف ، في السنة ١٣٢٥ ، الحميا التي جعلت في القرن نفسه من « تاريخ فارس الآلهة » القصة البطولية الاولى . وفي الواقع ، برز الميل اكثر فاكثر الى القصة ؛ ففي « قصص من كنتربري » لشوسر ، التي تنم عن اعجـاب المؤلف ببوكاس وتقليده له ، والتي تمتاز ببساطة سيكولوجيتها وظرافة نقدها الاجتماعي ، وفي « كونده لوكانور » لجوان مانويل بلغت القصة الذرى ، بينما كان « جان دي كونده » يقفّي في اللغـة الفرنسية حكايات منظومة جميلة . وهكذا كان الهجاء والواقعية على موعد في الادب . فحارب تجاوزاتها الصادرة كلها عن جان دي مونغ ، كل من غليوم دي دينيوفيل وجون بونيان بروح مسيحية .
بيد ان « حج الحياة البشرية » و « تقدم الحاج » لم يحولا كلاهما دون دخول النفحة الداعرة الى اسبانيا مع « كتاب المحبة » لجان رويز ، كما لم تمنعا كاهن طروا ، خالع الثوب الرهبـاني ، من تقليد رينار باستهزاء وقحة . ونافسه كثيرون في هـــذا المضمار لا سيما الاسباني « بيرو لوبيز دي ايالا » الذي برهن عن عنف لاذع في « ريمـادودي بالاسيو » ، والفلمنكي «جان فان بوندال» . وكان الادب بالاضافة الى ذلك علمياً ، وقد جمع بين الروح النقدية والثقافـــة واعتمد في التعبير التقنية المدرسية الرائجة آنذاك ، اعني بها الرمزية .

ليس من فن اكثر تصنعاً من علم البيان : وعلم البيان هو الاسم الذي اطلق على الشعر آنذاك. فتجسيمُ المثل المجردة والتعبير عن الافكار بالوان ثابتة (القصيدة الاسطورية ، القصيدة القصيرة ذات الادوار ، النشيد الملكي) كانا مليئين بالاخطـار وعرّضا الابتكار والوحي للجفـــاف . ولكن هذه الاشكال الثابتة كانت مطابقة لهوس الرمزية العام ، القريبة الى الفهم نسبياً في الفنون التمثيلية ، والمعياة كل التعمية في البحث الادبي . ولولا عبقرية غليوم دي مـاشو لانتهى الامر بالشعر الى هوة التكلف والابتذال . اما فضل هذا الكاهن القانوني الرمسي" الاصل ففي تجميل اشكال فنّه الجامدة — القصيدة القصيرة ذات الادوار ، ولا سيما القصيدة الاسطورية — بتعبـير موسيقي مجدّد : « الفن الجديد » الذي هو مجهود تقني لتنويع اساليب التعبير ووضوحها . واباح تجميل الكتابة الموسيقية بقيم جديدة ، وقد رسمت خطوطه الكبرى منذ القرن الثـاني عشر ، تصور كل الاوزان الممكنة. فبات بمكنة الايقاع ان يصبح اشد تعقيداً وبمكنة الآلات الموسيقية ، ولا سيما الارغن ، ان تبلغ فرديتها . فاطلّ ايقاع الاصوات المتعددة ، بالفعل نفسه ، على الواقعية . وعلى الرغم من افراطات على بعض الجفاف احياناً ، فان خصب التقنية الجديدة يقـــاس بمدى انتاج متقن . فالى جانب « البصر يقول » و « يقال عن الحديقة » ، انبأ « نشيد القبرة » بموهبة جانكين الوصفية ، كما ان « قداس السيدة » — المعروف بقداس مسح شارل الخامس — هو اول قداس متعدد الاصوات في التاريخ الكنسي فرضت فيه المدرسة الفرنسية ، بفضـــل ماشو ، مفاهيمها على الغرب .

اما اوستاش ديشان الذي عاصر ماشو دون ان يرتفع الى مستواه ، فقد خلف انتاجـاً ضخماً – ٨٠٠٠٠ بيت من الشعر تقريباً – نهج فيه نهجا واحداً لم يتـح له بلوغ السهولة الممتنعة والرشاقة . وجعل منه « فن الاملاء » معلم القواعد النظرية الشعرية لاجيال من المربين ، اذ انه وضع القواعد النهائية « لمهنة » ليس الموسيقيون وعلماء البيان بعد سوى عمالها المأجورين . ففي كل مكان ، في المهارات الكلامية او تنضيد القوافي ، في التصنع او العالميـات ، طفت الرمزية وباتت طريقة التعبير عن فوارق علم الاخلاق وابتغاءات النفوس . فهاهي الوردة مثلا : بسطت في زجاج الكاتدرائيات فمثلت تنسيق الفكر حول حقيقة بديهية عامة ؛ وقدمت للمجلين في احدى المباريات ، فرمزت الى عبق التعبير الرقيق ؛ تنثر في الوردية ، اكراماً للعذراء ، اوراق « الوردة التي صار الكلمة فيها جسداً » كما يقول دانتي . وتفرض فكرة النثر هذه فكرة تقدم تدريجي وتوق الى الجمال والخير ؛ وفي ذلك زهد عالمي وديني بدا في تصرفات العاشق عند جان دي مونغ كما في رؤى فلاح وضيع في « بيرز بلومن » ،وفي مآثر « جهان دي سنتري » الصغير كما في المراحل الصوفية في « الاعراس الروحية » . وهكذا حافظ الاحساس على حقوقه في هـذا الفن العابس الصنعي الذي كان في الغالب جدلياً وتعليمياً ؛ وهو سيفرضها منـذ اواخر القرن الرابع عشر .

الفن اللهبي

انه لتطور بطيء ومعقد افزعته ، في كلا مظهري الحنو العالمي الكاذب وتحريك العواطف الصادق ، الاشكال العمارية والهندسية . ولكن خشيته هـذه ليست شبيهة بذاك الدوار المفاجىء الذي يعتري اناساً يفقدون ، عندما تعم الفوضى ، كل معـاني الاعتدال . واذا حدث لهم ، بردة فعـل منهم ضد جفاف الاشكال ، ان يخلطوا بين الحشو والتزيين وان ينظروا الى التكلف كما الى الذوق اللطيف ، والى تحريك العواطف كما الى الهوى ، واذا بدا الميل الى الاخراج ميلا شاملا ، فيجب ان نعترف بان الفن اللهبي انمـا يملك فيضاً من « الغرابة » ويخفي في الوقت نفسه الثروة الحقيقية .

ان الشارع التجاري القديم الذي يصل في روان ، عاصمة الفن القوطي المشرف على الزوال ، بين « سانتوان » و « سان ماكلو » ،يجمع بين مفهومين للفن والحياة : فهناك الفن المشع في تناسقه المرتفع والمنطقي ؛ اما هنا فالعقد اعظم انخفاضاً ، ولكنه في منتهى المتانة ، تتنضد فيه الخطوط المنحنية والخطوط المنحنية المتقابلة اشكالاً اهليلجية ومثلثات ، الا ان سهم العقد ، على الرغم من تسنينه الجميل ، لا يضاهي صفاء عظمة « البرج » المتوج . تنـاول التزيين آنذاك كل اقسام البناء ، بما فيها الهيكل الهندسي نفسه – الاعمدة ودعائم الجدران والزوافر . انـه لعلم جمالي جديد قد يكون اقتبس عن انكلترا بعض الاشكال التزيينية المنحنية الخطوط التي ظهرت في اوكسفورد (كلية مرتون) واكستير (الكاتدرائية) منذ السنة ١٣١٠ والسنة ١٣٢٧ – واهملت بعد ذلك في ما وراء المانش ـ ولكنه من الانسجام مع تطور الفن الفرنسي بحيث لن

يلبث ان يعم المناطق نفسها التي سيطر عليها الفن المشع . لنترك من ثم ايطاليـا جانباً : اذ ان تشييد « الرائعة المزيفة »، التي هي كاتدرائية ميلانو ، لدليل جديد على ان شبه الجزيرة حرم لا يدخله اي نوع من انواع الفن القوطي ؛ وانكلترا ايضاً التي استثمرت ، على نمط واحد تقريباً ، موارد الطريقة العمودية ، والتي حققت رائعة تلفت الانتباه هي « كليـة الملك » في كمبردج . يبقى امامنا فرنسا التي انتشر فيها الفن الجديد بسرعة ، وهولندا ، والدول الجرمانيـة ، من كولونيا حتى فيينـا ، واسبانيا والبرتغال حيث اقترن نمط الاقواس المتقاطعـة الكثيرة بعظمة الفن الاسلامي الشرقي في اسبانيا ، حتى كرس بذخ الفن البرتغالي ، في تومار وبليم ، الجمع بين الرومنطيقية القوطية وعظمة المـال الظافرة ، وهو جمع بين العالم القديم والعـالم الجديد . وكان مقدراً للفن اللهبي ، وهو اشد اعتدالا في الكنائس القروية ، ان يملأ اريافنا ، حتى ما بعد القرن السادس عشر ، بابنية تمتاز بالمتانة والرشاقة . وقد اعتمد كذلك في هندسة العمارة المدنية ووافق رغبة العظماء في الرفاهية : القصور البندقية ودور البـلديات وابراج الاجراس في الشمال ، ومقر جاك كور في بورج ، ومسكن رئيس الرهبنة الكلونية في باريس – وكلها من التشابـه بحيث يكاد يستحيل الاعتقاد بان الفارق الزمني بينها هو قرابة قرن كامل – والحصون اخيراً ابتـداء من « بيير فون » حتى نانت ، كل هذه الابنية تشهد بما لا يترك مجالا للشك ، بقيام مفهوم للحياة يعرف الانسان بموجبه كيف ينظم ، كما يطيب له التنظيم ، الانفاق على الزخرف .

تحريك العواطف والواقعية

وهي المنـاطق الفرنسية ايضاً التي عبرت خير تعبير ، في نطـاق الفنون التصويرية ، عن الحنو المعقد ، الصوفي والشهواني معاً ، في اواخر عهد الفن القوطي . ولسنا الآن ، كما في السابق ، امام مدارس اقليمية ، بل امام جماعات من الفنانين استمالتهم عطايا احدى اسر الامراء : انجو ، وبري ، وبورغونيـا بنوع خاص ، اذ ان ازدهار بورغونيا وهولندا قد جعل من امرائها اوسع زبن الفنون ثروة . وقـد جمعت روائعهم بين عاطفة اعظم تهذيباً وواقع شديد التاثير جداً ؛ فالعذراء المرضعة في التزاويق هي امل الحياة البشرية ، ولكن هذه الحياة ترزح تحت الالم في تمثيل « التقوى » في فيلنوف – ليزا ـ فينيون » ؛ وتتجلى الانسانية كذلك في المسيح منتظراً العذاب » في فنيزي (ايون) ، كما في « الصلب » في « غابة بروتات » الشهيرة ؛ كما ان تمثيلات « الانزال الى القبر » التي حققتهـا المدارس الشمبانية والبورغونية ، لا توحي اضطراب المأساة بقدر ما تفرض السكوت والتأمـل . ولم يكن النحاتون والنقاشون والمصورون معتوهين حين جعلوا من الميت الرفيـق الدائم للانسان الحي ، وحين اكثروا من «رقصات الاموات» ، وحين رتب كلوس سلوتر وتلاميذه الواقعيون ، حول الميت المضطجع على المدافن البورغونية ، موكب « الباكين » ؛ وفي صفاء الصوفيـة ، اوحى ظفر المختارين ، الى الاشقاء «فان ايك» ، موضوع « تمجيد الحمل » الرائع ، كما ان رؤيا يوحنا ستقدم ، حتى « دورر » ، مواضيعها للنحاتين والمزوقين ولعمال التطريز والتدبيج في انجيه .

لم يقض تحريك العواطف اذن على واقعية القرن الخامس عشر . فاذا هي ما زالت عابسة ،

في الامبراطورية ، مع كونراد ويتز ، فانها قد تلدنت في المناطق الاخرى تحت التأثير الايطالي وبفضل الالوان الساطعة التي تقدمت تقنياً وجلى فيها مصورو المناطق الشمالية . وحققت ، مع روجيه دي لاباستور ، عظمة قوّية وهادئة في آن واحد ؛ فنور الاخوة « فان ايك » الساطع ، مثلا ، يجتاس بدقة مناظر الريف اللياجي تحت اقواس « العذراء » المنسوبة للمستشار رولين ، معيداً الى الذاكرة المزوقين والمشاهد الريفية في « ساعات » شانتيي ومناظر منطقة « تور » التي جلى « فوكيه » في رسمها . ولا عجب اذا ما ضم هذا الفن الفرنسي الالماني ، بالعديــد من خطوطه ، تأثيره الى تأثير الفن الايطالي على الفنانين الكاتالونيين (جايم هوغيه) او البرتغاليين (نونيو غونسالفس) .

ففي التصوير اذن ، كما في الصياغة ، وكما في تحقيقات التدبيج والتطريز في اراس وتورنيه وبروكسل ، اقترنت واقعية الملاحظة وكمال التقنية برقة القرن الخامس عشر . اما الفن الادبي الذي طغى عليه تصنع علماء البيان، فلم يعرف قط هذا التجدد؛ وليس لمجالس البيان وللندوات الادبية من فضل الا في اشاعة الميل الى الشؤون الفكرية وتهذيب اللغة تهذيباً بلغ درجة التكلف. فهل فيه ما يستوقف القارىء يا ترى ؟ هنـاك بعض القصائد النضرة القصيرة ذات الادوار من تأليف كريستين دي بيزان وشارل دورليان ، كما ان هنالك بعض القصائد العميقة التي تتميز ، على ما فيهـا من حشو ، بالقلق والثقة معاً ، في تحريكها الصـادق للعواطف ، والتي يجب ان نبحث فيها عن عبقرية « فرنسوا فيّون » . الا ان المحاولات كانت اعظم تجـديداً في الموسيقى مع ان التمرنات الصوتية والتلحينات المعقدة في الانغام المتعددة الاصوات قد ايدت كلياً المخاوف التي كانت ابدتها ، على غير جدوى ، حيال هذه التجديدات ، البراءة الحكيمة ، التي اصدرهـا يوحنا الثاني والعشرون في السنة ١٣٢٢ . وانما انتشر الاتباع آنذاك ، وهو ابتـكار فرنسي انكليزي ؛ وواصلت الموسيقى غير الدينية ، في ايطاليا كما في اسبانيا ، اختباراتها ومحاولاتها: فسمت مقاطعة هينو بفن الطباق نحو الكمال بفضل دوفاي واوبرخت و« وجوسكين ده بريه » و « اوكجيم» . آنذاك تتلمذت المانيا وايطاليا نفسها لـ « معلمي الشمال » .

غير ان تمثيلية « السرّ » الدينية ، وهي خير تعبير نموذجي للقرن الخـامس عشر ، تخطت الى حد بعيد ، بشموها وبديهيتها ، كافة اشكال المسرح العالمي المتنوعة من تمثيليات اخلاقية وتمثيليات مضحكة وتمثيليات يتكلف ابطالها الجنون ، على الرغم ممـا « للمعلم باتلين » من حسنات وفضـل . وتوسع المسرح الديني في « المدائح » الايطالية والتمثيليات الكلتية لسير القدسين واللوحات الانكليزية الحيـة ، فاثبت مرّة اخرى منشأه الشعبي في مواكب العربات الرمزية في اشبيلية وبروج . الا انه لم يبلغ ، في اي مكان ، الرونق الذي بلغـه في فرنسا : فان « المعجزات » التي غدت طقساً شعبياً ومثلت او رقصت احياناً في المعبـد ، اصبحت تستغرق اياماً عدّة بتمثيل حدث انجيلي متتابع ، وغزت فناء الكنيسة الذي يتسع لمشاهدها الكثيرة ، وجندت اخويات كاملة للقيام بادوار الممثلين . وبات هذا الطقس الشعبي حدثاً اجتماعياً اعيد فيه

باستمرار تمثيل « سرّ السيدة » او « سر الآلام » . واتقن خير اتقان بفضل ارنو غريبان فحرّك عواطف الجماهير واسال دموعها . اجل لم يخل من الابتذال ولا من الخشونة ؛ ولكن الاستاز المبرقشة والموسيقى والغناء الفريفوري والاغاني الشعبية وتعدّد الاصوات والآلات قد اسرت الحواس كلها ، كما ان اطالة النص لم تترك اي مجال للراحة . ولعل في ذلك خير شاهد على شمول انتشار مفهوم جمالي عميق التأثير .

هكذا تبدو لنا ، معقدة وغنية ، على ما تثيره من حيرة في اغلب الاحيان ، روح الاجيال الاربعة او الخمسة التي عاشت في اوروبا الغربية والجنوبية منذ حوالي السنة ١٣٢٠ حتى السنة ١٤٧٠ تقريباً . وسيتاح لنا ، بعد استفاضة درسنا لمتناقضاتها ، ووقوفنا عن كثب على خطوط ابتغاءاتها ، ادراك ردود فعل هذه الاجيال امام الصعوبات المادية التي هاجتها بقوة والانقلابات السياسية التي كانت هي ابطالها وضحاياها في آن واحد .

الفصل الثاني

متاعب أوروبا المادية

يعود الى أواخر القرون الوسطى ادخال هذه الطلبة الجديدة في صلوات الربيع: « من الجوع والحرب والطاعون، خلصنا يا رب ». الجوع والحرب والطاعون، تلك هي الأخطار التي هددت الانسان في كل برهة ؛ وتلك هي الضربات الثلاث التي ورد ذكرها في الاغنيـة التقوية – لا فرق اذا كانت اصطلاحية او صادقة – التي نظمها الشاعر البريطاني جان مسكينو :

« بئس الحياة حياتنا المحزنة
التي تستبد بها ، ليلاً نهاراً ،
الحرب والموت والجوع والبرد والحر » .

١ ـ الحرب

ان اسم « حرب المئة سنة » الذي ابتكره المؤرخون المعاصرون يتنافى والحقيقة في نواح كثيرة، ولكن له الفضل في انه يعيد الى الذاكرة ديمومة الضربة العظمى. ان هذا النزاع الفرنسي – الانكليزي ، الذي نشأ حوالي السنة ١٣٣٦ عن المعضلة الاكيتينية المزمنة ، لم يتوقف الا في السنة ١٤٧٥ ؛ وقد تتابعت حوادثه المتكاملة طيلة قرن ونيف؛ وجرت في فترات انقطاع أعماله العسكرية منازعات على نطاق أضيق في بريطانيا واسبانيا وهولندا . اضف الى ذلك ، في كل من الممالك المتحاربة ، الصراعات بين الاحزاب التي غالباً ما انتهت الى حروب أهلية ، والثورات ومؤامرات الامراء ومغامرات الاسياد الذين استغلوا الظروف لاشباع رغباتهم، وثورات الفلاحين والفتن في المدن ، ناهيك عن الغارات الفجائية التي قامت بهـا ، براً وبحراً ، العصابات المسلحة والقراصنة وقطاع الطرق : وان الكلمة المشهورة التي قالها كاهن كاهور القانوني في أواخر القرن الرابع عشر لا تفقد شيئاً من صحتها لو قالها أبوه وأبناء اخوته ايضاً : « طيلة حيـــاتي لم أرَ سوى الحرب » .

اضف الى ذلك ايضاً ان تكرر النزاعات المسلحة ، ان لم يكن ديومتها ، واقع يشمل الغرب المسيحي بأجمعه . فلننوه هنا بانقسامات الممالك الايبيرية ، وبحملاتهـا على المسلمين في غرناطة ومراكش حين أتاحت لها خلافاتها متسعاً من الوقت لذلك ؛ وبالمنافسات بين الممالك في سكنديناڤيا؛ وبالمزاحمة، المسلحة غالباً ، بين مدن الشراكة الهانسية وبين الدانمارك او انكلترا؛ ولننوه كذلك بأن المنظمة التوتونية قد واصلت ، عند الحدود الشرقية للعالم المسيحي اللاتيني ، معركتها الكبرى ضد السلافيين وسعت الى سحق انطلاقة بولونيا ؛ بينما فتحت الغزوة العثمانية ، في الجنوب الشرقي ، جبهة حرب جديدة دائمة . وبصرف النظر عن الامبراطورية ، التي عجزت كل قواها عن وضع حد لسجس الـ « ريتر » — ولنزاعات أعظم اتساعاً بين الامراء احياناً — ، فان ايطاليا كانت مسرحاً لمشادات معقدة وطويلة الامد لم تكن حرب استعادة اراضي الكنيسة على يد الكردينال البورنوز ، بين السنة ١٣٥٣ والسنة ١٣٦٤ ، التي كان ثمنها خسارة فادحة في الارواح ، سوى حادث واحد من حوادثها الكثيرة ؛ فمن الشمال الى الجنوب، بقيت شبه الجزيرة الايطالية ، حتى الصلح السريع الزوال الذي عقد في لودي في السنة ١٤٥٤، لا بل حتى التدخل الفرنسي في السنة ١٤٩٤، ميداناً مقفلاً تقابلت فيه ميلانو والبندقية، سينا وفلورنسا ، فلورنسا وبيزا، وتنازعت اسرتا انجو واراغون نابولي وصقلية، ناهيك عن مخاصمات اقل شأناً واضطرابات داخلية وسياسية واجتماعية في كل اخاذة .

عجز الدبلوماسية

فما هي القوة التي كانت قادرة على منع اراقة الدماء بين الملوك والامراء؟ لم يتوفر للدبلوماسية، التي اخذت تفكر ببعض مبادىء واعراف الحق الدولي ، سوى وسائل غير ثابتـة . اجل كان مندوبو الكرسي الرسولي يجوبون الغرب بصورة متواصلة لتسوية الخلافات بين الامراء المسيحيين . فمنـذ بندكتوس الثاني عشر حتى اوجانيوس الرابع،أي منذ السنة ١٣٣٥ حتى مجمع أراس في السنة ١٤٣٥ ، ليس من حبر روماني ـ باستثناء فاصل الانشقاق المؤسف ـ الا وبذل جهداً كبيراً لوضع حد للنزاع الفرنسي الانكليزي ، وذلك بفرض هدنات ، و « ايام » بين المتفاوضين ، ومؤتمرات صلح ؛ ولكن جهودهم لم تمط قط سوى نتائج سريعة الزوال جاءت في اعقاب مساومات استغرقت وقتاً طويلاً جداً ، كما خبر ذلـك المندوبون الذين بدأوا مساعيهم في السنة ١٣٧٢ وتوصلوا بعد جهود سنوات ثلاث ، الى عقـد هدنات قصيرة ، ولكنهم اخفقوا اخـيراً في التوصل الى شروط صلح مقبولة ، فاضطروا ، في السنة ١٣٧٧ ، الى التسليم بتجدد الاعمال الحربية .

قضت العادة ، في سبيل تسوية الخلافات ، باضافة التسوية الحبية او التفاوض المباشر بـين الملوك الىالتحكيم البابوي او وساطة شخص ثالث. ونشأت عن تقليد « المحاكم المتنقلة » المؤتمرات بين الفريقين المتحاربين التي حاولت، منذ اجتماع مونتروي في السنة ١٣٠٦ حتى اجتماع شالون ـ سور ـ سون في السنة ١٤٤٤ ، تسوية قضايا الاضرار الملحقة بمناطق الحدود والقطع البحرية . الا ان الحاجة مسّت باستمرار الى تجديد الجهود — التي كانت ثمرتها مبادىء قانونية مخصبة على كل

حال – بسبب تجدد اعمال العنف بصورة دائمة . ومع ذلك فقد أكثروا ، في كل هدنـــة ، من الضمانات والتأكيدات ، وأسندوا صلاحية النظر في الخلافات المحتملة الى « محافظي الهدنات » . غير ان الحدود غير الواضحة ومبادهات الضباط والجنود في المعسكرين وتصفية الفدى المتوجبة كانت منطلقاً لمنازعات غالباً ما تشعل نار الحرب . وقد حدث ايضاً ان الامراء الذين هالتهم فكرة النزاع الدامي وتشبثوا تشبثاً صبيانياً بشرف الفروسية ، فكروا جدياً بتسوية نزاعاتهم في معركة فردية : فادوارد الثالث وفيليب السادس في السنة ١٣٤٠ ، ولويس دورليان وهنري دي لنكستر في السنة ١٤٠٢ ، قد فكروا بالاستغناء عن اصطدام الجيوش بمبارزة جميلة .

يضاف الى ذلك ، على الرغم من الحصانة المعترف بها للسفراء ، انهم احترزوا من الممثلين الاجانب ، الذين ما كانوا ليحصلوا على وثائق الامان الا بعد وقت طويل ، والذين يهتك سر مراسلاتهم احياناً : فهم يتهمون « باستكشاف اسرار البلاد » . لذلك فان البابوية والبندقية ، اللتين كانتا اول من لجأ الى الاتصالات الدبلوماسية الكتابية ، قـــد ابتكرتا كذلك لغة المفاتيح والشيفرة ايضاً . واذا اضفنا ان هذه البعثات كانت محدودة الصلاحية ، والاخبار تنقل ببطء ، والاشاعات الكاذبة تنتشر بكثرة ، وان اقل حادث – كمقتل « جان سان بور » على جسر مونترو في السنة ١٤١٩ مثلاً – قد يفضي الى فشل كل المساعي ، اتضح لنا هزال « الانقطاع عن الحرب » .

أدلاء الطرق وفرق المرتزقة

ما لبثت الحرب ان اصبحت مهنة آنذاك بفعل التقاليد الاجتماعية والظروف السياسية والضرورات الاقتصادية والمقتضيات التقنية. اجل ما زالت تحتفظ خلال القرن الرابع عشر بخطوط كثيرة من وجهها في القرون الوسطى . فهناك في الدرجة الاولى أعرافها المستوحاة من آداب الفروسية : كتب التحدي ، طلب المبارزة ، المعارك الفردية ، الهدنات المحلية ؛ ثم تكوين الجيوش المبني على تفوق الفرسان والنبلاء ؛ وذهنية المحارب اخيراً . وقد اجمل جان دي بوي ، في بحثـــه العسكري ، الآراء السائدة بصددها : « الحرب ، في الحقيقة ، دفاع عن الحق » ؛ و « ما أكثر ما أدى التمرن الطويل عليها الى انسكاب الدموع عند التفكير بالذهاب للموت او للعيش مع صديق عزيز » ؛ « السلاح يشرف الانسان أياً كان » ؛ والحرب امتحان شرف ومدرسة صداقة ، و « شيء مفرح » اجمالا . ولكن إعداد ضابط شاب هو ، في المانيا ، دخول احد المغامرين في خدمة عائلة تبتغي ثأراً او في خدمـــة مدينة ؛ وفي فرنسا ، غارة ليلية مفاجئة للاستيلاء على ماعز وأحصنة احدى حاميات الاعداء ، وسرقة ملابسها « المنشورة » .

ثم ان الاندفاع وراء الاخطار والمكاسب والبطولة وارتفاع عدد الولادات بالنسبة لمداخيل العائلات الشريفة المتدنية ، لا سيا في المناطق الآهلة بالسكان ، قد حملا اخوة الابكار على طلب المغامرة . يضاف الى ذلك ان الوحدات الاقطاعية ، المؤقتة ، لم تعـــد لتفي بحاجات الحرب المستمرة ، كما ان نظام قيادتها قد حال دون تأليف وحدات مرنة ومتجانسة . ولئن ، منذ أواخر

القرن الثالث عشر ، في « مستأجَري » فيليب لو بيل »، والاتفاقيات المعقودة بين ملك انكلترا او الفرق الفسكونية ، وحاملي الاقواس الفولاذية العاملين في خدمة فيليب دي فالوا والزمر المسلحة العاملة في خدمة ملوك اراغون وقشتالة دليل على اضطرار الامراء للجوء الى المرتزقة . وقد طبع هؤلاء الجنود المحترفون حروب القرن الرابع عشر بطابعهم الخاص. وقد قصد بعضهم مناطق نائية جداً بحثاً عن المغامرات : « فالفرقة الكاتالونية » قد حاربت في آسيا الصغرى وتوفقت الى احتلال الآتيك في السنة ١٣٠٩ ؛ وبعد ذلك ، تركت « الفرقة النافارية » في موريا ذكرى مرورها في محلة « نافارين » التي حملت اسمها (حوالي ١٣٧٥ — ١٤٠٠). ولكن حروب فرنسا وايطاليا هي التي جعلت من « الفرقة » منظمة دائمة ومن « دليل الطرق » مثالاً اجتماعياً .

لم يتميز دليل الطرق خلال الاعمال الحربية عن مجندي الملك . الا انه اختلف عنهم أثناء فترات المهادنة . فهو حينذاك رجل غريب عن بيئته وعاطل عن العمل يستحيل ارغامه على العيش في مجتمع منظم . وما ان عقد صلح بريتنيي (١٣٦٠)، كما يقول فرواسار، الذي عرف العديد من أمثاله ، « حتى اجتمع رفاق مساكين كثيرون ممن مارسوا مهنة السلاح وتشاوروا فيما بينهم وقر رأيهم على ان عليهم ، وان قرّر الملوك الهدنة ، ان يؤمنوا سبل معيشتهم ». وبعد مرور ثمانين سنة ، كان صلح أراس (١٤٣٥) وهدنة تور (١٤٤٤) فاتحة لطغيان « السلاخين الذين لم يتقاضوا منا أي اجر »، كما ورد في كتاب صفح منحه شارل السابع لأحدهم، فاضطروا بسبب ذلك الى الاعتصام بالارياف وتأمين « معيشتهم على حساب اعدائنا ورعايانا بسلب ونهب ممتلكات كل من يصادفون » .

وفيما يلي موجز لتاريخ « نفل موليون » الذي روى لفرواسار تفاصيل مغامرته : استلم أسلحته كفارس في بواتييه وانضم الى « الفرقة الكبرى » ؛ وهي مؤلفة من ١٢٠٠٠ رجل (كما يقول فرواسار) من الاشراف الفقراء او اولاد الزنى ، المغامرين المنتمين الى بلدان كثيرة ، الجامعين بين الجشع الفسكوني ، والشهوانية الفلمنكية ، والحدة الاسبانية ، والتقلب الايطالي ، والخشونة البريطانية ، والفظاظة البيكاردية ، والقساوة الالمانية ، وغطرسة الانكليزي « الذي لا يحترم سوى امته » . لكل زمرة كهنتها وصندوقها وشرطتها وعجلاتها وخيولها وخدامها وصناعيوها وبغاياها ؛ وقد رافق هؤلاء المؤمنين ، الذين أرادوا ان يجعلوا منهم صليبيين، مع ان بعضهم ، من امثال جون دي هرلستون ، ما كانوا ليتأخروا عن احياء الاعياد والولائم بشبه كأس مسروقة ، كهنة مرشدون يخدمونهم باقامة القداديس . وعلى الرغم من خضوع هذه الزمر لنظام حديدي وتشاركها دونما دمج ، فانها قد أكملت ، « متأخرة » ، نهب القصور والمدن والقرى في وادي الرون ، واستولت على « جسر الروح القدس » وألزمت البابا بدفع الفدية وجالت وصالت في أنحاء اللنغدوك وايطاليا الشمالية . اسهم النفل معها في هزيمة الجيوش الملكية في برينييه (١٣٦٢) ، ثم حارب في سانسير واوراي بقيادة هوغ كلفرلي الذي رافقه

حتى بلاد قشتالة وانتقل بعد ذلك الى خدمة « بيير الطاغية » والتقى برفاقه القدماء الملتحقين بـ « دوغكلين » . ثم استدعي أدلاء المعسكرين عند تجدد النزاع الفرنسي الانكليزي ، ولكن النغل قد خاض المعارك لمنفعته الخاصة في الدرجة الاولى .

وفي عهد السلاّخين ، لم يكن رودريغ دي فيلندراندو وفرنسوا دي سوريان وبرّينه غرسار وكثيرون غيرهم ، ممن استبسلوا في معية جان دارك احياناً ، دون ضباط الفرقة الكبرى شجاعة وبأساً . وقد حصل غرسار من شارل السابع على مكافأة كبرى لمحافظته على حصن « شاريته سور لوار » بحؤوله دون استيلاء جان دارك عليه . اما فيلبراندو ، فعلى الرغم من اخلاصه للقضية الملكية ، فقد سيطر على جنوبي فرنسا على رأس زمرة بلغت من التنظيم درجة قل نظيرها . وحين عجز شارل السابع عن القضاء على السلاّخين ، اسند الى ابنه لويس مهمة ايجاد عمل لهم ، دون افنائهم ، في اراضي الامبراطورية وعلى نفقة الامبراطورية .

كان تجنيد الفرق زمن الحرب وتخصيصها بتعويض بطالة عند اعلان الهدنة تدابير ظرفية ؛ الا ان الفرق ، في الواقع ، قد حوّلت الوحدة الاقطاعية القديمة الى جيش محترف. كان الانتقال غير محسوس بين صاحب الاخاذة المأجور في أواخر القرن الثالث عشر والضابط الذي يستخدمه الملك وحده محدداً عدد المجندين ومدة الاستخدام وسلّم الاجور ، على غرار ما درجت عليه انكلترا منذ السنة ١٣٥٠ . وجاء الاصلاح الفرنسي في السنة ١٤٤٥ ، الذي شمل المناطق الجنوبية في السنة التالية ، يبقي في الخدمة ، في ايام الهدنة ، على عشرين فرقة من ١٠٠ حربة ، أي ٨٠٠٠ فارس محارب ، اذ ان الحربة وحدة ثابتة تضم ستة فرسان: فارس كامل السلاح ، نبالان ، حاملا خناجر وخادمان . الى هذه الفرق ، المعروفة « بفرق النظام الكبير » ، تضاف ، عند الاقتضاء ، فرق النظام الصغير او الاجر المحدود ، التي كان باستطاعة الملك « كسرها » على هواه . اما الاجر فمنتظم ، وتموله الضريبة الدائمة ؛ حصص من اللحم والخضار والعلف ؛ تعويض اضاءة ؛ مسكن يؤمنه الاهالي : وهكذا فان الاصلاح قد نظم ، في خدمة الملك ، مهنة المحارب. اما ما حدث في السنة ١٤٤٨ من تعيين ٨٠٠٠ نبال معفين من الضرائب قدمتهم القرى بنسبة « قوتها » بالرجال والثروة ، فلم يكن له من قيمة عسكرية بقدر ما كان له من مغزى : أعني به الدور الذي ترك للمشاة في المعارك . وقد سارت فرنسا ، في هذه التطورات ، على خطى الايطاليين الذين استخدم شارل السابع ثلاث فرق منهم في السنة ١٤٢٤ ، والسويسريين الذين استوحى لويس الحادي عشر نظامهم عندما شكل « زمره » البيكاردية ، اسلاف فيالقنا المعاصرة .

الفرقة الايطالية *Condotta*

منذ قرابة قرن ، داست ايطاليا جماعات من المحاربين المحترفين ، أعني بهم في الدرجة الاولى فرقاً من الطراز المألوف أشبه بالدول العسكرية الراحلة بقيادة بعض الاجانب كالاخ موريالي وهو شريف بروفنسي و «اخ

صفير » سابق ، الذي غدا فارساً من فرسان رودوس ثم رئيس زمرة ثم قطع رأسه كالاشقياء في روما ، بعد « كولا دي رنيزو » ، والدوق « ورنر دارسلنجن ، « عـــدو الله والشفقة والرحمة » ؛ والانكليزي « جون هوكوود » و « فرقته المقدسة » ؛ وبريطانيو « سيلفستربود » الذي افتخر بنهب « شيزينا » . ثم سئمت الدول من الاجانب ، فاتجهت بأبصارها الى الايطاليين: فكان ذلك عهد الفرقة الايطالية الذي دام حتى الربع الثاني من القرن السادس عشر . فالفرقة التي يجند افرادها من منطقة معينـــة في شبه الجزيرة تتسم بطابع « قومي » صرف ، تدين بنشأتها الى شخصية رئيسها الذي يعطيها حتى اسمه ؛ ولما كان طامعاً بنبل المنشأ ، فانه يختار رجاله بين زبنه ويكافئهم كمأجورين لا كشركاء . ويحرص على انتاج دائم ، فيؤثر الاستغلال على التدمير ، ويبقي جماعته من ثم في وضع يتيح لهم القيام بالخدمة ويناقش مخدومه عقـد الاتفاق الذي يحدد الواجبات المتبادلة ؛ فانما هو ملتزم يبحث عن افضل السبل نفعاً .

تتألف « الحربة » الايصالية من ثلاثـــة رجال فقط – ليس بينهم سوى محارب واحد – ولكن تشكيل الوحدات يخضع لنظام واضح : ·مس حربات تؤلف مركزاً ، وعشر حربات علماً ، وخمس وعشرون وحدة تؤلف لواء ؛ عدد المشاة يقارب عدد الفرسان . وقـــد بلغ من تدريب هؤلاء واولئك ومن صفات ضباطهم وقادتهم ان شهرة المنتمين الى الفرقة الايطالية، على الرغم من تلون ضربت به الامثال ، قد طبقت آفاق الغرب ، ابتداء من جيوفاني دلى اوبالديني (القرن الرابع عشر) حتى برتولوميو كوليوني وفرنسسكو سفورزا (القرن الخامس عشر)، مروراً بـ « مالاتستا وكرمنيولا وبيتشينينو . فحين عنّ « لشارل الجسور » ، ولعله اعلم امير بين امراء قالوا بالشؤون العسكرية،ان يعيد تنظيم قواه، استشار الايطالي « كمبوباسو » واستند الى النظم السائدة في ايطاليا وفرنسا ووضع مبادىء تنظيمه العظيم الذي يعود الى السنة ١٤٧٣ . ولكنه مع ذلك كان متأخراً : اذ ان السويسريين ، الذين أحيوا الكتيبة القديمة باعتماد مربع يجمع ١٦ حربة في كل جهة من جهاته ، قد أنبأوا بذلك انهم سيمسون جنود المستقبل . ومهما يكن من الامر ، فان الجندية لم تعد ارتجالاً ، واذا سلـّمنا بأن النسب قد يوفر الاعداد لها ، فانه لا يوفر لها الجدارة اللازمة : فهي مهنة ، ويجب ان تلقن كمهنة .

الفن العسكري

اكتسب الفن العسكري ، بالمقابلة ، مميزات جديدة : ازدياد قوة النـار ، وتعاظم دور فرق المشاة ، والميل الى تحقيق التعاون بـين « الاسلحة » المختلفة ، وتنسيق حركات الجنود ابان الاعمال الحربية . فمنذ ان توصل الغرب ، في القرن الثالث عشر ، الى تمحيص النطرون ومزجه ، بالنسب الملائمة له ، بالكبريت والفحم ، استطاع اسماع صوت البارود . فحققت الفلاندر ذلك منذ السنة ١٣١٤، ثم استعيض تدريجياً عن الفخاخ بالقطع النارية الخفيفة وبالمدافع القصيرة الضخمة ذات الفعالية في مهاجمة المراكز المحصنة . اجل لم تسفر القنابل القليلة التي أطلقتها مدافع الانكليز في كريسي في السنة ١٣٤٦ الا عن اثارة دهشة الفرنسيين ، ولكن ميلانو ، في السنة ١٤٤٧ ، استسلمت لفرنسسكو سفورزا بعــد

قصفها بالمدافع ؛ وقد تم مصنع ترميم المدافع الذي أحدثه بسونو و « بور » و « جيريبو » في احراز النصر الذي حققـه الفرنسيون في « كستيون » (١٤٥٣) ؛ ونظم لويس الحادي عشر وشارل الجسور « زمر » مدفعيتهم، وظهرت في السنة ١٤٦٧، في معركة « مولينا شيلا » مدافع الجبال الخفيفة . الا ان كلفة السلاح الجديد الذي ارتبط انتاجه بتوسع استثمار المناجم، وصعوبة تحريكه ونقله قبل اختراع مسنده في اواخر القرن الخامس عشر ، قد حالتا دون انتشاره . اضف الى ذلك ان رجال الحرب لم يؤمنوا على العموم بمستقبله ، شأنهم في ذلك شأن « جان دي بوي » ، ولا سيما ماكيافلي الذي اعتبره مضراً أكثر منه مفيداً .

وأهمل هؤلاء الرجال أنفسهم، زمناً طويلاً ، دور فرق المشاة . الا ان ملك انكلترا ادوارد الاول قد برهن عن براعته اذ جعل قوة الرماية ومجالها ثلاثة اضعاف ما كانت عليه باحلاله، محل القوس القديم والقوس الفولاذي ذي المقبض ، « القوس الطويل » « الغالي » البالغ مترين ارتفاعاً، وباللجوء قبل سواه الى خطة انزال الفرسان عن جيادهم . كان الفرسان ، وفاقاً لهـذه الخطة ، بمأمن من الضربات أثناء قيام النبالين في بدء المعركة بعملهم الذي يحطم قوة العدو الهجوميـة ؛ وبعد تحقيق هـــذه النتيجة يمتطون صهوات جيادهم لتفكيك وحدة جيش الاعداء . ولا تفسر هزائم الفرنسيين ، في كريسي وفرنوي والمعارك الاخرى التي تخللتها ، بفارق الشجاعة او العدد، بل بتفوق النبالين الانكليز من جهة ، ومن جهة الفرنسيين بسوء توزيع الجنود قبل المعركة وباعتماد انزال الفرسان عن خيولهم دون هدف معين . اضف الى ذلـك ان المشاة الانكليز ، في فرنوي ، قـــد تحركوا وهاجموا الفرنسيين جانبياً ، بينما ما زال « جان دي بوي » ومنافسوه يعارضون كل مناورة تصدر عن المشاة. ولكن التجديد لم يتجاوز هذا الحد؛ فقد تأخر الانكليز في استخدام الفرسان لأعمال المشاة ، دون ان يتحلوا بمرونتهم على كل حال ، فذاقوا الامرين، في فورمينيي ، من جرأة مناورات الكونت الشاب دي كليرمون .

اما سر هذا الفن العسكري الجديد فهو حذاقة القائد وسرعته ومهارته . فان العقليـــة اللاتينية، التي تحلت بالتعاليم الموروثة عن فيجيس، قد جعلت من الجندي في الفرقة الايطالية رجل حرب كامل الصفات . وان تفسيراً حرفياً لاحدى أهاجي مكيافلي قد يحمل على الاعتقاد بأن التظاهر بغير الحقيقة والمفاجأة والكمين والحيلة والمساومة ليست سوى « مداعبات » ؛ ولكن الواقع هو ان الضباط ، قد حافظوا على الجنود الذين يستثمرون خدماتهم ، وآثروا ارغام العدو على المناورة والجاءه الى وضع يائس على انهاكه وانهـــاك انفسهم في معارك متعاقبة تكلف ثمناً باهظاً .

احتل المشاة ، وفاقاً لهذا الفن ، وسط الجيش ، وأحاط بهم الخيالة عند الجناحين والفرسان في المؤخرة . ولكن الايطاليين لم يقاتلوا سوى الايطاليين ، دون اتصال بالخارج ، وبسلاح كان قد أكل الدهر عليه وشرب حوالي السنة ١٤٧٠ ، فأتاحوا للسويسريين فرصة الاستفادة من دور المشاة الهام . سُلّح الطابور السويسري بحربة اطول من رمح الخيـــال وناور بحركة عسكرية

سريعة ابان احتدام المعركة . فزعم جان دي بوي ان ذلك خطأ ونسب اليه هزيمة السويسريين في « سان ـ جاك » في السنة ١٤٤٤ . ولكن غرانسون ومورا سيفندان مزاعم المخطط الحربي التقليدي . وهكذا فقد احتلت كافة مقومات الجيش العصري مكانها قبيل الحروب الايطالية .

الحرب البحرية

اذا صح ان الحرب البرية قد غدت مهنة واتجهت لأن تصبح تقنية قائمة بذاتها ، فان ذلك يصح بأولى حجة عن الحرب البحرية . ومرد ذلك الى ان نوع حياة اهل البحر وذهنيتهم يجعلان منهم وسطاً اجتماعياً خاصاً ، والى ان الفن البحري ، وهو لا يزال اختبارياً جداً ، يقتضي دأباً طويلاً وجولات توجبها المهنة ؛ والى ان المعركة البحرية ربما تتطلب جرأة وسرعة لا تتطلبها المعركة البرية . ومرد ذلك بصورة خاصة الى ان الملوك ، الذين ما عادوا ليكتفوا بمصادرة مراكب التجارة والصيد في زمن الحرب ، أرادوا ان يقتنوا نواة اسطول حربي على الاقل تكون ملكاً خاصاً بهم . ففي وقت واحد ، وفي كافة المناطق البحرية ، تنظمت ، باسم « امارات البحر » ، قيادات بحرية تمتعت بسلطات قضائية ايضاً : امير قشتالة وامير اراغون وامير البرتغال ؛ وكان لكل من فرنسا وانكلترا اميران : امير بونان في المتوسط وامير فرنسا في المانش ، للاولى ، وامير الشمال وامير الغرب للثانية ، ويفصل بين قيادتيها مصب التاميز . وكان لدوقية بريطانيا وكونتية الفلاندر ودوقية غويان امراؤها ايضاً .

لم يستطع ملك انكلترا سدّ حاجته بالبواخر التي قدمتها له « المرافىء الخمسة » تقليدياً ، فبنى منها بماله في « سوثمبتون » ؛ وكان لملك فرنسا دار صناعة في روان ، هي « دار السفن » وقاعدتان رئيسيتان هما هارفلور ولاروشيل . اما معدل عدد البواخر ، وهو يختلف باختلاف العهود ، فربما بلغ الخمسين قطعة في كلا البلدين ومعظمها من القوارب الشراعية المسطحة والقوارب الشراعيـة ذات المجاذيف . ودون ان يهمل الخصمان مساعدة حلفائها البحرية ، أي الاسطول القشتالي والجنوي للاول والاسطول البرتغالي والاراغوني للثاني ، فقد درجا على طلب مساعدة مراكب مأجورة ، ايطالية بنوع خاص . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الحاجة ماسة ، في كل البلدان ، لمنح قباطنة السفن التجارية اجارة بالتسلح في رحلاتهم وبمهاجمة قطع الاعداء : وهـذا شكل من أشكال مهنة الحرب يماثل ، في البحر ، ما كانت تعتمده فرق المرتزقة في البر . كان القرصان عوناً على الاعداء، ولكنه في زمن السلم يلحق الاذى بالحلفاء ايضاً ، شأنه شأن المحارب المحترف الذي كان يتحول ، بحسب الظروف ، من اجير امين الى قاطع طرق ومن قاطع طرق الى اجير امين . وفي كلا الحالين كانت المكاسب عظيمة .

مكاسب الحرب

الاجر والغنيمة والفدى ، تلك هي مكاسب الحرب « الدسمة » ومرتزق المحترفين الذين يرغبون في ان تطول الحرب . فقد كان جواب « جون هوكورد » لبعض الرهبان الذين تمنوا له السلام : « أتريدون ان يميتني الله جوعاً ؟ فأنا اعيش من الحرب كما تعيشون انتم من الصدقات » . اما معاصره « ايمريغو مارشيه » فقد عبر لفرواسار عن

سفه لانقطاعه باكراً عن « عمل الخير » أي « عن السلب والنهب » . : « آه كم كنا سعداء حين كنا نسير ممتطين خيولنا ونجد في الارياف كاهناً غنياً او على الطرقات تاجراً ثرياً ... كنا اذن نفرض الفدية على هوانا . وكنا كل يوم نكسب مالاً جديـــداً » . وخلص الى القول : « كانت حياتنا شيقة كيفما نظرنا اليها » .

« نظر الجنود الى اجورهم نظرهم الى كسب تجاري » كما تحقق من ذلـك « ايليا سيلفيو » . وسبب ذلك ان الحرب كانت صفقة تجارية يجريها مستثمرون يحملون اسم الادلاء او السلاخين او القراصنة ؛ واسم « *Compagnis* » (فرقة – شركة) مشتركاً بينهم وبين التجار . والشركاء (الرفاق) انما يعملون معاً ، متكافلين متضامنين في الربح والخسارة . اجل هنالـك مناطق أوفر كسباً من غيرها ؛ ولكن ليس ما يعادل الطرق الكبرى التي يسلكها المسافرون ، وليس من دولة نظير فرنسا « ارضها عذبة ، يطيب العمل فيها ، وتملأها القرى الكبيرة والمناطق الجميلة والمروج الغناء والخمور اللذيذة الضرورية لتغذية الجنود وانعاشهم » . ولذلك فان أفراد الفرقـة الكبرى ما لبثوا ان نفروا من العيش في بورات اراغون .

تأسست جمعيات القراصنة « لتجمع الغنائم ، الواحدة من الاخرى » ونهجت عادات مماثلة لعادات التجار . وان العرف ، الذي كرسته العقود واجتهادات محاكم وحدات الفرسان او امارات البحر ، قد نظم بدقة توزيع الغنيمة . ولم يختلف سوى في نقاط تفصيلية بين البندقيـة وجنوى ومرسيليا وبرشلونة والمرافىء البريطانيـة والنورمندية والانكليزية ومياه بحر الشمال البعيدة . فبالاضافة الى الحصص التي يصيبها ربح نسبي ، كان مجرد الاشتراك الفعلي في العمـــل يعطي حقاً في المكسب يختلف باختلاف مرتبة المشترك . وقد حدث ان طالب بالمكسب بحارة شاهدوا من بعيد عملية استيلاء على احدى السفن ؛ وحدث احياناً ان استصحب كل قرصان ما استولى عليه ، اما ما كان يحدث في الغالب فهو القسمة .

وغالباً ما كانت هذه المكاسب مرتفعة جداً . فليس من يجهل عمليات الجنويين والكاتالونيين الرابحة في المتوسط ؛ ولم يكن المانش طيلة حرب المئة سنة ، وبحر الشمال ابان نزاعات المدن الهانسية ، اقل مورداً للارباح . اما في البر فان رجال « الامير الاسود » العائدين ، في السنة ١٣٥٥ ، من منطقة تولوز ، « وهي من أغنى مناطق العالم ، ولا يزال سكانهـا يجهلون ما هي الحرب » ، قد نقلوا من الغنائم « ما جعل أحصنتهم لا تقوى على التقدم » . وما كان « الدليل » « سيجين دي باديفول » لينتقل من مكان الى آخر الا مصطحباً عربته ذات العجلات الاربع كي ينقل عليها مغانمه . ودامت الحال معه على هذا المنوال حتى أوعز ملك نافار بسمّه ووضع يده على ثروته . ولكن بئس المصير مصير المدن التي لم تفد نفسها بالمال ، كليون او افينيون مثلا ، تجنباً للسلب والنهب ، او لم تجند فرقاً تدافع عنها كاكون ومتز ، او لم يعدّ اميرها مسبقاً ، كما أهمل ذلك هنري دي تراستمار في السنة ١٣٦٥ ، محطات مرتزقته وتموينهم ؛ اذ ان الذعر نفسه قد أوحاه الجنود النظاميون والادلاء على السواء . ودرجت العادة احياناً ، قبل الهجوم ، على

أجلاء منلا يقوون على المقاومة من نساء واطفال ، « محافظة على شرف الكياسة » : كما حدث لسكان روان او بونتواز حين نزحوا عن مدينتهم والتجأوا الى باريس في السنوات ١٤١٨ – ١٤١٩ . وكان الاستيلاء على مدينة ما يعني اباحة سلبها ونهبها سلباً ونهباً كاملين. فكانت الحرب من ثم غذاء للحرب .

كانت الفدى ما يعوّل عليه في المغانم وما يسعى اليه الساعون وراء المكاسب : فقد خشي هنري الخامس ان يفسد انتصاره في ازنكور اذا ما اتاح لرجاله الوقت الكافي لجمع الاسرى ، فأصدر من ثم امره بتقتيلهم ولم يستثن من هذا التدبير سوى ارفعهم مكانة . وهنالك بعض الفدى المشهورة : فدية الملك جان، وفدى دوغكلين ، وفدية الكونت دي دينيا ، وفدية شارل دورليان . وقد حددت اجتهادات كثيرة مصير أسرى البحر او البر : الاسير ملك آسره ويجب ان يعاد اليه اذا ما فر وقبض عليه شخص ثالث ؛ وتحدد قيمة الفديــة بالمناقشة بين الأسير و « سيده » ، وفاقاً لتسعير متعارف . واذا قضى شرف المالك ومصلحته باحسان معاملة أسيره وبفرض فدية عليه تتلاءم وامكاناته ،فان هذا الاخير يعتبر « مرذولاً وحانثاً اليمين » اذا لم يسع جهده للدفع ؛ وغالباً ما ينعم عليه بحرية مؤقتة كي يجمع القيمة اللازمة . وانما ما أكثر الذين لاذوا بالفرار دون ان يدفعوا فديتهم ! الا ان الاسير كان مادة دين وقد أمكن بهــذه الصفة الاتجار به : ملك جاك كور ، بالاشتراك مع دونوا ، اسيرين انكليزيين عاليي الشأن ، قدم احدهما لجان دي بوي الذي لم يجر عليه ذلك سوى نفقات معيشته . ولم تدر الفدى كلها ما درته فدية الملك جانالتي لم يسدد الا نصفها فحسنت مع ذلك وضع الخزينة الانكليزية طيلة سنوات. اما فدية السيد « دي شاتوفيلين » ، التي حددت بـ ٢٠٠٠٠ قطعة ذهبية ، فلم تدر على الدائنين سوى دعويين طال عهدهما وانتهت بعائلة الاسير الى الافلاس . وبلغ من افتقار أسير آخر انــه عجز عن تسديد ديونه واضطر الى التخلي عن قصره لجاك كور . فكانت الحرب من ثم صفقة رابحة شريطة الحصول على مغانم وافرة وعدم الوقوع في الاسر .

٢ ـ البلايا العامة الكبرى

ان الحرب ، وهي عمل الانسان ، قد زادت في قلق حياة هددتها باستمرار ضربات عميــاء كالتها طبيعة لم تقهر بعد . اجل لقد كان للمسافر الحامل اجازة مرور قانونيــة بريق امل في تجنب التوقيف والفدية على شواطىء وطرق فرنسا أثنــاء الحرب ، وفي معابر « الجورا » و « الالب » ، وفي مياه المتوسط وبحر الشمال . وحدّت كذلك عادة الثأر وتدابير الانتقام ، بعض الشيء ، من خطر القراصنة ، ومخاوف الوقوع في العبودية في البلاد الاسلامية . ولكن عبثاً انيرت الرؤوس والمرافىء، اذ ان غرق السفن لم يكن شيئاً نادراً : فان سفناً كثيرة كانت تغرق ، عند رأس « الراس »، في كل شهر من أشهر الشتاء ، وكان سكان الشواطىء يستفيدون من حطامها . وكان إخطاء الطريق ، في البحر كما في الجبال ، ايذاناً بقضاء محتوم .

اضف الى ذلك ان اخطار الماء والنار واخطار المرضى والجوع كانت تحدق بالانسان في عقر داره . فان كتاب « يوميات بورجوازي باريسي » عاصر معاهدة طروا واعمـــال جان دارك البطولية ليس سرداً لما اتُّفق على تسميته بالاحداث التاريخية،بل ذكريات ابن مدينة اقضت منه المضجع تقلبات الطقس وحالته الصحية وهاجس التموين . واتت الحرائق ، في مـــدن انكلترا وفرنسا والمانيا وفي كل مكان ، على احياء كاملة ، وساعدها على ذلك مواد بناء قابـــلة الحريق وتكدس المنازل فوق بعضها وهزال وسائل مكافحة النار . وعرفت تولوز نفسها ثلاثة حرائق في النصف الاول من القرن الخامس عشر مع ان القرميد كان آخذاً في الحلول فيها محـل الخشب والسياع. ولكن الحرائق الكبرى اخذت تندر تدريجياً،حتى في مدينة خشبية كلها، كـ «روان» مثلاً ، بفضل انتشار الاغمية الآجرّية والاردوازية : اثنـــان في القرن الرابع عشر وثلاثـــة في القرن الخامس عشر مقابل ثلاثة عشر في القرن الثالث عشر. وكلت كل مدينة لبعض ابنائها (شيوخ البلد) امر مكافحة النار ، كما حرص في كل مكان على العناية بعيون الماء والاكثار منها. غير انهم قد اتقوا بصعوبة اضرار الماء ، اي اضرار المطر الذي يتلف المحاصيل ويفيض الانهار ويغمر بالمياه دورياً الاحياء المنخفضة في تولوز وبوردو وليون وباريس وروان ولندن غنت وانفرس، وينتزع الجسور والطرقات على طول السيول المتوسطية . ولم تكن مياه البحر اقل ضرراً ، فهي قـــد غمرت مناطق « الفنس » الانكليزية الخصبة في السنة ١٣١٤ – ١٣١٥ وخربت ، تسع مرات على الأقل بين السنة ١٤٠٤ والسنة ١٤٥١ ، سدود « الفريز » في الفـــلاندر ، فارجعت بذلك الشاطىء الى الوراء وسببت من الخسائر الفادحة ما ارغم « جان سان بور » على ان يتولى بنفسه ، في السنة ١٤١٠ ، مراقبة اعمال الترميم . وقد غمرت آنذاك بعض القرى غمراً نهائياً .

ولكن شر الضربات ، بامتداده الجغرافي كما بنتائجه ، كان الاوبئة . فقد عجزت التدابـــير الصحية واعمال الوقاية وحتى الطب الذي نميل الى الاعتقـــاد بتقدمه ، لا سيما في زمن الحرب والانحطاط الاقتصادي ، عن حصر اضرارها او عن تحرير الجماهير من هاجس « الفناء » . وقـــد اخفت هذه الكلمة الاخيرة امراضاً متنوعة جداً ، ولكن الطاعون الذي نقلته السفن الجنوبية من الشرق في السنة ١٣٤٧ قد اجمل كافة الاهوال . لقد تكلمنا في السابق عن اتساع نتائجه التي شملت اوروبا جمعاء والتي نجمت عن انواعه الثلاثة : الجلدي والرئوي والمعوي . وعاش البـــاقون على قيد الحياة من الشبان والفتيان في قلق مُقض دائم بسبب ارتعادهم فرقاً من ذكره ، وقـــد كتب احدهم : « اكتب وانا انتظر الموت بين الاموات » . ويعود ذلك الى ان الطاعون الاسود قد نم في الدرجة الاولى عن حالة صحية سيئة قد تزداد سوداً بين ساعة واخرى، واظهر في الدرجة الثانية عجز وسائل الوقاية .

سبق لاوروبا ان عرفت قبله ، بالاضافة الى العداوى المحلية ، اوبئة اخرى شاملة كالزحار ، وضروباً اخرى من العداوى ، في بلدان الشمال ، بين اسوج واللوار، حوالي السنة ١٣١٥ . وبعد الوباء الكبير الذي انتشر في السنة ١٣٤٨، شاهد الباقون على قيد الحياة تجدد البلية في السنوات

١٣٥٨ – ١٣٦٠ ، و١٣٧٣ – ١٣٧٥ ، وانتشارها انتشاراً اوسع بين السنة ١٣٨٠ والسنة ١٤٠٠ ؛ ففي السنة ١٣٩٩ ، كانت عمليات الدفن دائمة في باريس ، وحظر على المنادين اعلان اخبارها . وفي السنة ١٤١٤ والسنة ١٤٢٧ حجب السعال الديكي صوت الوعاظ اثناء القداديس . وفي السنة ١٤٣١ فتك الطاعون نفسه بالوف الضحايا من الشبان ثم عاد وانتشر انتشاراً شاملاً ، مع الجدري ، في السنة ١٤٣٨ . وبعد مرور ثلاثين سنة ، لم يبق من محل لقبر واحد ، اثناء « فناء » آخر ، في مقبرة الابرياء في باريس . وقد توصل بعضهم الى تقدير ضحايا الطاعون وحده ، في انكلترا ، بين السنة ١٣٤٩ والسنة ١٥١٧ ، بثلث مجموع الوفيات . ولما كان الطاعون قد شمل اسبانيا وايطاليا والمانيا والبلدان السكندينافية ، فلا غرابة والحالة هذه اذا ما استمر الانخفاض في كثافة السكان حتى القرن السادس عشر .

بيد ان الحكومات والشعوب قد حاولت كافحة الامراض بوسائلها الهزيلة . كان الاطباء قليلي العدد : ففي السنوات الاولى من القرن الرابع عشر ، ما كان « الحلفون المرموقون » الثلاثون في باريس ليرضوا بالاهتمام بالجراحة ، ولو امن لهم ذلك ثروة طائلة ، لا سيما وانهم كانوا يتقاضون « مرتباً كبيراً » يتناسب « ومنصبهم الكبير » ؛ وتخلى الجراحون – الحجّامون بدورهم عن عمليات صعبة كاستخراج الحصى وحزّ القروح « لحزازين » ليس ما يعادل جسارتهم سوى جهلهم . وعلى الرغم من التقدم الذي نجم عن اعتماد التشريح في الجامعات ، فقد تدنى مستوى الطب بعمل المتهنين غير القانونيين . وقد لوحق منهم ثلاثة وعشرون دفعة واحدة امام المحاكم في باريس في السنة ١٣٣٢ . وارتفعت الشكوى في القرن الخامس عشر من القوابل اللواتي مارسن مهنتهن دونما تفويض بذلك من القاضي .

على الرغم من علم امثال « غي دي شولياك » طبيب اكليمنضوس السادس ، او « جنتيلي دا فوليني » ، او علماء كلية الطب الفرنسية ، مرتدي القلانس المربعة ، الذين استشارهم الملك ، في السنة ١٣٤٨ والسنة ١٣٧٣ ، حول الطاعون ، فان حياة السكان – حتى العظماء منهم الذين كانوا يموتون في سن مبكرة على العموم – لم تكن قط في ايد جديرة بالثقة . اكتفى الطب بالتعليم القديم ، الذي شوهه جدل متكلف ، وببعض الاختبار ؛ ولم يجرؤ احد ، الا في اسبانيا وايطاليا ، على الاستعانة صراحة بالتعليم اليهودي والعربي . وقد فسروا ظهور الطاعون ، بتصادم الكواكب وسوء سمعة المريخ . اما المداواة المعتمدة فكانت اما مضرّة ، كتجنب كل تهوية ، وأما غير ذات فعالية ، كالمطهرات العطرية ، واما داخلة في التدابير الصحية العادية البسيطة ، او الوقائية الخفيفة ، او العلاجية العديمة التأثير .

غير ان التدابير الصحية العادية كانت افضل من الطب ، والتدابير الصحية الخاصة افضل من التدابير الصحية العمومية : وكان لزاما ان تكون الحياة منظمة جداً كي تقاوم الطاعون والاطباء . كانت الملابس ، من صوف وفراء ، جيدة وكافية ، ولكن التدفئة ما زالت غير كافية لا سيما في الأرياف . والبيوت اعوزها النور ؛ واستخدم الورق المطلي بالزيت بدلاً من

الزجاج الذي ما زال مادة بذخية حتى في المدن . وما كانت المساكن الريفية لتتلقى نورالشمس الا بواسطة الباب في اغلب الاحيان ؛ واضطر الصناعيون اليديون ، في المدن ، الى العمل على مقربة من الشوارع التي تفتقر هي نفسها الى النور بسبب تجهيزات الوقاية من المطر والحرارة فوق المداخل . وكانت الحمامات العامة مؤمنة نسبيا حتى في مدن من المرتبة الثانية ، ولكن المساكن الخشبية آوت الى جانب الآدميين جرذاً هي أخطر ما ينقل الطاعون ، وكثيراً من البراغيث التي يرشد « المقتصد الباريسي » الى طريقة لافنائها يعتبرها واجباً يومياً . وليس من ريب في ان التدابير الصحية العامة قد افادت من دروس الطاعون الكبير : فمنذ السنة ١٣٥٠ حظّر تجول الخنازير في شوارع باريس ؛ وبعد مرور ست سنوات ، نظم فيها القاضي « هوغ اوبريو » اول بلاعة (مجرور) تحت الارض ؛ وانما توجب ،حتى القرن السادس عشر ، اصدار اوامر متكررة بارغام السكان على نقل اقذارهم الى المطامير العامة بدلا من الالقاء بها في الشارع او في نهر السين ؛ « ومن العجب العجاب ، كما قال احدهم بسذاجة في السنة ١٤٠٤ ، ان تشرب منه الاجسام البشرية دون ان تتعرض للموت او للامراض المستعصية» .

اما الواقع فهو سوء التغذية ، قبل جوّ المدينة التي اتسعت لمروج وحقول فسيحة ، وقبل وخامة المساكن التي اثبتت بعض الحُسبان كفاية الهواء فيها ، ما سهل انتقال العدوى الوبائية ، لان الارياف نفسها لم تنج منها . عادات غير صحية : فلا ملعقة فردية ولا صحيفة فردية . ونظام غذائي غير معتدل : كثير من المقددات والنشويات والمرقيات والدهنيات والتوابل ؛ وقليل من المآكل الطازجة المغذية . ونقص في الاغذية بنوع خاص ؛ اذ ان انتشار الاوبئة قد صادف ، في الزمن ، المحول والمجاعات .

ان ما نعرفه عن تاريخ المحول يفوق ما نعرفه عن وطأتها وامتدادها . فهي ، سواء كانت محلية او شاملة ، قد نجمت على العموم عن عدم اعتدال الفصول وغالباً ما اشتدت بفعل اضرار الحروب . فلنقصر الكلام هنا على مجاعتي القرن الرابع عشر الكبيرتين : هطلت في السنتين ١٣١٤ و ١٣١٥ امطار طوفانية عاقت زرع الارض في فصل الخريف وحالت دون نمو الحبوب ونضجها ، بينما قضى فصل الصيف البارد على الامل بجمع الملح وقطف العنب . فحين نضبت كافة الموارد بين روسيا وجبال البيرنيه ، ارتفعت الاسعار وبلغت معدّلات غير اعتيادية ، وانتشرت المجاعة مسببة اوبئة خطيرة . وبعد مرور ستين سنة ، جاء دور اوروبا الجنوبية : اصابة الكروم بالصرّ في السنتين ١٣٦٥ — ١٣٦٦ ، حصاد سيء في السنة ١٣٦٨ ؛ وفي السنوات ١٣٦٩ و١٣٧٠ و ١٣٧١ ، جفاف وحصائد سيئة وموتان ؛ وفي السنة ١٣٧٤ ، قضى الجفاف ، و « الامطار والعواصف » من بعده على كل شيء : فظهر الطاعون مرّة اخرى ، وزادت الظروف السياسية والعسكرية في خطورة الفاقة وارتفاع الاسعار ؛ في اللنغدوك صودرت المواد الغذائية لاجل الجيوش ؛ وفي ايطاليا اتخذت الادارة البابوية من تصدير الحبوب الى الدول الاخرى في شبه الجزيرة سلاحاً دبلوماسياً . وفي كل مكان استفاد المضاربون من هذا الوضع السيء ، امام عجز

السلطات العامة ، السيئة التنظيم ، المفسدة بالرشوة والمسؤولة ، فوق كل ذلك ، عن نظام جبائي جائر . اجل لم تخل تدابير ممثلي غريغوريوس الحادي عشر من الجرأة : فهم قد حاولوا منع المضاربة واوجبوا ، تحت طائلة الغرامة ، تقديم تصريح بالمخزونات ، وارادوا ، بعد احصاء الموارد والحاجات ، تنظيم توزيع اسباب العيش واخضاعها لتسعير محدّد . ولكن صرامة طريقتهم قد اخفقت امام عدم ادراك مرؤوسيهم وتصلب الانانيات الاقليمية .

تفاقمت في كل مكان روح الاثرة المحلية ،وزاد في حدّتها قلق مقض من نقصان المواد الغذائية . فازداد مثلاً التنافس التقليدي بين باريس وروان في تجارة الحبوب طيلة ايام المحول : خلال زمهرير السنة ١٤٠٨ – ١٤٠٩ الذي جمّد مياه الانهر في كافة انحاء فرنسا الشمالية ، وقد رافقته المجاعة والطاعون ، او حين تجدّدت الحرب الانكليزية فزادت في هشاشة اسعار المواد الغذائية ، او اثناء البؤس الذي طال امره منذ السنة ١٤٣٧ حتى السنة ١٤٣٩ والذي يجدر قراءة وصفه في ما تركه بورجوازي باريس والمؤرخون البورغونيون .

تعرضت الحياة اذن لازمات دورية كبرى تخللتها ، في تعاقب مطرد ، فترات هدوء نسبي ومراحل صعوبات محلية . وكان الانسان تحت رحمة المحاربين والاطباء والمضاربين وبلايا الطبيعة . فاذا لم يكن خبزه مؤمناً ، هل كان باستطاعته شراؤه يا ترى ؟ بهذا السؤال ننتقل الى فقدان التوازن الاقتصادي .

٣ – فقدان التوازن الاقتصادي

انه لاسهل علينا ان نتكلم عن فترات ازدهار اقتصاد القرنين الرابع عشر والخامس عشر وفترات انحطاطه وانخفاضه ، وتقلباته القصيرة الامد ، من ان نضع خطوط بيانية تبين اتجاهاته العامة .

اتجاهات الاقتصاد

ان انكلترا ، الغنية بوثائقها المالية ، تبسط امام اعيننا حركة صادرات صوفها الخام واجواخها وحركة اموال خزانتها الملكية . وقد حاول بعضهم وضع بيان بالاسعار فيها ، كما حاولوا ذلك في هولندا وممالك راغون وقشتالة ونافار . فنحن نعرف حجم النبيذ الغسكوني المصدّر في بوردو والمستورد في انكلترا . وقدرت – تقديراً خاطئاً احياناً – اهمية انتاج الجوخ في ايبر استناداً الى وزن الرصاص المستخدم لوسم الاجواخ . ويعرف العلماء اسعار الحبوب والاجواخ والعظم في تولوز والقمح في صقلية والجاودار في كونغسبرغ خلال القرن الخامس عشر ، ونصيب تجارة المدن الهانسية في انكلترا وحجم صيد الرنك والتجارة البحرية في « دياب » . ورفعت المصادر الجبائية النقاب ، بصورة غير مباشرة ، وفي فترات يتفاوت مداها ، عن نشاط مرسيليا وجنوى وبرشلونة ولوبك ولا سيما همبورغ . واتاحت سجلات بعض الصيارفة البروجيين وتجار النغدوك ورجال الاعمال الايطاليين تتبع

تقلبات فوائدهم بينما اخذت بعض حسابات السيادات العلمانية والكنسية ترفع النقاب ، في كل مكان تقريباً عن ترجرج قيمة موارد الاراضي . فاستخلصت من كافة هذه الارقام، وكلهاجزئي وناقص ، حقيقة انحطاط بعيد المدى باستطاعتنا كشف اعراضه وتشخيص طبيعته . ان هذا الانحطاط الذي نهضت منه ايطاليا بسرعة وتسرب الى انكلترا ببطء وكان اطول بقاء وربما ابعد عمقاً في فرنسا التي خربتها الحرب ، قد ارتدى مظاهر اقليمية متنوعة جداً ، وتفاوت ايضاً بين شكل وآخر من اشكال النشاط الاقتصادي واصاب الاوساط الاجتماعية المختلفة اصابات مختلفة جداً ايضاً . اما النتيجة الرئيسية للازمات التي تجددت تكراراً فكانت ، كل مرة ، بعض الهبوط في الاتجاه الاقتصادي كما يثبت ذلك شمول اتفاق الخطوط البيانية المختلفة ومشابهتها في الرسم الاسنان المنشار واتجاهها العام نحو الانخفاض ، لا سيما في القرن الرابع عشر .

والحقيقة هي ان وحدة عوامل الانحطاط وترابط المجتمعات الغربية ، قبل استئثار الاقاليم باقتصاداتها الخاصة ، قد فرضا تعميم الازمات دون ان يفقداها فوارقها المحلية . افلا يتوجب علينا والحالة هذه البحث عن السبب الاول لانقلاب الوضع في فقدان التوازن ، الذي لاحت بوادره منذ قبل نهاية القرن الثالث عشر ، بين السكان والانتاج الزراعي ؟ فواقع الارتفاع النسبي في كثافة السكان ظاهرة كان ايقاف اصلاح الاراضي ، وجمود التقنية الزراعية العاجزة عن تحسين الانتاج ، وخمود حركة التعمير ، دلائلها ونتيجتها في آن واحد . واذا كان الطاعون الكبير قد ابعد ، بما فتك به من ضحايا ، شبح تكاثف السكان طيلة اربعة قرون كاملة ، فان التوافق بين العرض والطلب ، الذي كان من شأنه – ولعله حقق ذلك في بعض البلدان – ادخال تحسين مؤقت على الوضع الاقتصادي ، لم يلبث ان فقد ، لا بفعل حالة حرب شاملة ودائمة فحسب ، بل خصوصاً بفعل ما طرأ على الاوضاع النقدية من اضطرابات لم يعرف لها نظير من قبل .

لم يحفظ التاريخ من هذه « الانقلابات » سوى ما بلغ منها منتهى الشدة : اعني بها فترات انهيار بعض النقود – في فرنسا بين السنة ١٣٣٦ والسنة ١٣٤٣ ، وبين السنة ١٣٥٠ والسنة ١٣٦٠ ، وبين السنة ١٤١٦ و ١٤٣٠ – التي كان لها صداها وراء الحدود في معظم الانظمة النقدية ، والتي عقبتها اصلاحات جزئية افضت الى استقرار الاوضاع ، وقد حاول تفسيرها : بحاجات الحكومات العسكرية ، والسياسية التي كان هبوط النقد لها بمثابة افلاس جزئي مموّه ؛ وبالتسهيلات المقدمة لتجارة التصدير التي يمكن ان تباع موادها الغذائية بسعر اوفق؛ وبضرورة اجتذاب النقود الاجنبية ، الذهبية والفضية منها ، الى مصانع السك والمحافظة على مكاسب الاسياد . ويرد غموض المسألة الى تعقيد الانظمة النقدية التي قام فيها النقد، المعترف به قانوناً في التعامل ، على قطعة الفلس الصغيرة التي خفضت باستمرار واستند الى قيمتها في تسعير النقد الفضي او الذهبي الخالص تقريباً ، الذي كان اداة الصفقات الحقيقية . اما اذا نظرنا من فوق الى التطور النقدي خلال القرنين الاخيرين من القرون الوسطى ، فاننا نرى في الواقع اتجاهاً

مشتركاً الى تخفيف وزن القطع النقدية تخفيفاً تدريجياً يختلف باختلاف البلدان : فان القطعـــة الكبرى في الفلاندر مثلاً قد فقدت ، بين السنة ١٣٣٠ والسنه ١٣٨٠، ٨٠٪ من قيمتها الاصلية ؛ وفقدت القطعة الفرنسية المعروفـة « بتورنوا » ، خـلال قرنين لا تدخل فيهما عهود الفوضى النقدية ، ٧٥ ٪ من هذه القيمة ، بينما لم تفقد السترليـة الانكليزية سوى ٤٧ ٪ فقط . ولكن المعدل السنوي لهذا الفقدان ، وهو ضئيل في الواقع ، لم يخفف « المجاعة النقدية » التي كان هذا النقد « الذائب » خير دليل على حقيقتها

حاول بعضهم وجود صلة بين هذا النقص في المخزون النقدي والتبدلات التي طرأت ، في منتصف القرن الرابع عشر ، على العلائق بين الشرق والغرب : اذ يبـدو ، حتى السنة ١٣٤٠ تقريباً ، ان الفضة قد صدرت من الغرب لدفع رصيد تجارته مع الامبراطورية المغولية ؛ وان الذهب الشرقي قد تدفق ، عن طريق بيزنطية بنوع خاص ، – حيث لم يبق ، مع ذلك ، في التداول ، سوى قطعة « الهيبربير » الذهبية الخفيفة العيار جداً – على الغرب ، الذي استطـاع آنذاك الاكثار من سك النقود الذهبية . ثم ما لبثت قيمة الفضـة ان ارتفعت ، لان النفقات العسكرية قد زادت في طلبها لدفع مرتبات الجنود ولان اقفال طرق آسيا الصغرى قد حول تجار الغرب نحو مصر حيث احتلت الفضة مركزاً يفضل مركز الذهب . الا ان هذه الوقائع لا تفسر في الحقيقة سوى فقدان النسبة بين المعدنين والفوارق العظيمة احيـــاناً التي قامت بين سعرهما القانوني وسعرهما التجاري ؛ فهي لا تعطي سوى فكرة غامضـة عن الاسباب العميقة « لمجاعة نقدية » كانت حافزاً لبحث مطرد النشاط عن منـاجم الفضة في الغرب . وليس مرد هذا البحث الى تزايد حجم الصفقات،بل هو دليل شبع الاسواق الذي يولد الثروات ويفضي الى تقويم المال . وهذا هو سبب الواجب المتناقض الذي واجهته الحكومات وقضى بالمحافظـة على استقرار النقد الذي هو شرط لا بد منه لسلامـة الصفقات ، كما يقول نقولا اورسم ، وبتخفيض قيمته الذاتية دورياً لمكافحة جمع الثروات والتخفيف من وطأة استقرار يؤول الى ازالة تضخم النقد الورقي .

النقود والاسعار والاجور

يحدد مستوى يسار البشر او بؤسهم بقياس العـــلاقة بين اعبائهم ومواردهم ، ويعبر عنه بالاسعار . ولكن الاستفادة من هذه الاسعار على الرغم من ضخامة حجم المعطيات الحسابية والتنويهات المتفرقة ، لاتزال في نقطة انطلاقها لذلك فان تفسيرها سينطوي على صعوبات كبرى ؛ فـآثرنا من ثم التعبير عنها ، على ما بينها من فروق ، بالنقود الرائجة التي كان لها معناها في نظر المعاصرين على تحويلها ، كما درجت العادة في السابق ، الى غرامات ذهبيـة : فالذهب والفضة كانا كلاهما سلعاً موضوع مضاربة تجارية ، وهما تشكلان بهذه الصفة عيارين قابلين التبدل .

ان بين الوقائع التي تبدو وكأنها تهيمن على اقتصاد القرنين الرابع عشر والخامس عشر استمرار

هبوط الاسعار الزراعية ، ولا سيما اسعار الحبوب . وهو اتجاه عام يبرز حتى في اسواق البلطيك التوتونية ، وحتى في شبه الجزيرة الايبيرية وان حدث ذلك في عهد متأخر : ففي نافار تضاعفت الاسعار بين السنة ١٣٥٠ والسنة ١٣٩٠ ، وربما حدث الشيء نفسه في اراغون ايضاً ؛ وبدأ الهبوط في مملكة فالنس في اوائل القرن الخامس عشر ، وانتقل الى اراغون ثم الى نافار ، الى ان شمل كافة المناطق في السنة ١٤٤٥ . وفي انكلترا طرأ على الاسعار ارتفاع واحد استمر في الصعود منذ السنة ١٣٥٥ حتى السنة ١٣٧٥ ؛ الا ان الخبز قد سقط منذ السنة ١٣٧٧ الى ادنى سعر عرفه منذ ثلاثين سنة . ونجد الارتفاع الذي عقب الطاعون الكبير ، في كافة انحاء الامبراطورية ، كما نجده ، في اثناء مجاعة السنتين ١٣٧٤ و ١٣٧٥ ، في الدول المتوسطية . اما في هولندا ، التي تستهلك كثيراً من الخبز ، فقد ارتفع سعر القمح منذ السنة ١٣٤٠ وبلغ القمة في السنة ١٣٨٠ ثم انخفض بعد ذلك ولم يعد الى الارتفاع الا خلال عشرين سنة فقط (١٤٢٠ — ١٤٤٠) . وقد اهملت في هذه الاسعار التغيرات الموسمية ، وهي ابعد التغيرات اثراً في المعاصرين ، لان اقل تبدّل في الحصائد واقل تقلّب في حجم الطلب يفقدان الاسعار توازنها ، ويخففان كذلك من وطأة الاضطرابات النقدية المفاجئة ؛ وقد امكن ، في بوردو وتولوز ، وجود صلة بين ارتفاع وهبوط اسعار الحبوب ، المتعاقبين تعاقباً مطرداً ، وبين حوادث التقلبات النقدية ؛ وكذلك فان « اشتعال الاسعار » في اعقاب انهيار النقود ، في باريس كما في روان ، قد جعل من السنة ١٤٢٠ — ١٤٢١ » اقسى سنة مرّت على فرنسا ونورمنديا » .

اما ما نعرفه عن الاسعار الزراعية الاخرى ـ نبيذ ، منتوجات تربية المواشي ، صوف ، نباتات صباغية — والاسعار الصناعية — مواد البناء والملابس مثلاً — لمصنوعات تؤلف الاجور في اكلاف تحضيرها حجماً لا يقبل الانقاص ، فينم عن مزيد من الاستقرار : الاسعار تستقيم هنا او تميل احياناً الى الارتفاع . الا ان هذا الارتفاع ، والحق يقال ، لم يثبت بالدليل الا في انكلترا وهولندا : فان تصاعد الاسعار ، في صناعة النسيج الفلمنكية ، قد عُدّل جزئياً ، في القرن الرابع عشر ، بتخفيض اسعار الجملة تخفيضاً منظماً ، ولكن الوضع تغير في القرن الخامس عشر ، حين اعتمد دوقية اسرة فالوا و « فيليب لو بون » بنوع خاص سياسة استقرار تحول دون تضخم النقد الورقي ، لا سيما منذ اصلاح السنة ١٤٣٣ ، فثقلت آنذاك وطأة الاسعار على الاقتصاد ، بينما تناول الارتفاع المنسوجات الانكليزية بدورها حوالي السنة ١٤٤٠ .

لقد تفاوت تأثر المنتج بهذا « الاختلاف » في الاسعار (هبوط في الحبوب ، وارتفاع في المنتوجات الاخرى) . فكانت النتيجة في الارياف انحصاراً في امكانات الكسب لا مخرج منه الا بالاكثار من زراعة الحنطة لعرض مزيد من الحبوب ، باسعار متدنية في الاسواق — ولكن ذلك يزيد في الهبوط — او بالاقلاع عن زراعة الحبوب وممارسة نشاطات اوفر كسباً : كزراعة الكرمة وتربية المواشي . اما في المدن فلم يكن من تناسب بين ارتفاع

اسعار المنتوجات الصناعية وبين انحصار الطلب وتخمة الاسواق ، ولا يجد التجـــار من يشتري البضائع الا باسعار متدنية يتحملون وحدهم نتائجها .

وكان اثر هذا الوضع في المداخيل اشد منه في الاجور . وسبب ذلك ان سوق العمل قد افاد ، منذ منتصف القرن الرابع عشر ، من نقص كبير في اليد العاملة ندرك مداه بعيـــد الطاعون الكبير . فكما ان الأرض التي هبطت قيمتها تدريجياً لم تجد سواعد كافية تنهض بمـــا تستلزمه من اعمال ، كذلك احتاجت المصانع الى صناعيين . ومنذ السنة ١٣٤٩ تقاضى احـــد فلاحي « تدنغتون » احد عشر فلساً بَدَلَ عمل دفع له اجره ستة فلوس في السنة ١٣٣٦ . وفي السنة ١٣٤٩ ايضاً ، و « نظراً لغلاء المعيشة وسوء حال اليد العاملة » ، استفاد عمـــال صناعة الاجواخ في « سانتومير » من ثلاث زيادات متوالية على الاجور : فقد مكنتهم الحاجة الى اليد العاملة من التصلب في تطلبهم . فاقرت السلطات العامة في كل مكان ، للحدّ من ارتفاع الاجور تدابير آنية لفتت الانظار كما لفتها هول انتشار الوباء من قبل . وصدر في انكلترا ، منـــذ السنة ١٣٤٩ ، قانون تكامل بعد مرور سنتين « بنظام الفلاحين » ، يحظر ، تحت طائـــلة العقوبات ، على ارباب العمل ، منح اجور تفوق اجور السنة ١٣٤٨ ، وعلى العمال طلب مثل هذا المنح . واصدر ملك فرنسا قانوناً مماثلاً في السنة ١٣٥١ وحدّدت جمعيات اراغون التمثيلية في السنة ١٣٥٠ ، وجمعيات قشتالة في السنة ١٣٥١ ، الحد الاعـــلى للاسعار ، واسندت امر تطبيقها الى البلديات . وكان قد سبق لبلدية برشلونة ان حدّت من المطالبات الرامية الى الحصول على اجور توازي اربعة او خمسة اضعاف الاجور القديمة . كما سبق لفلورنسا ان قررت نقـــل العمال من مصنع الى آخر لسدّ الثلمات ، التي اوجدها ارتفاع نسبة الوفيات ، سداً متساوياً . وعمدت بلديات اخرى ، كبلدية تولوز او متز مثلاً ، الى تسعير الاجور او تنظيم الاستخـــدام وشروط العمل .

الا ان هذا التدخل الشامل من قبل الدولة ، حتى في بلدان كانكلترا أحدثت فيهـــا اجهزة قسرية ، لم يحقق استقرار الاجور ولا الحد من ارتفاعها . اجل ، ربما لم يطرأ في النهـــاية تطور يذكر على الاجور في فلورنسا والفلاندر – وكانت هذه الاخيرة اقل اصابة بالوباء – وربما بقي وضع عمال حيّ « سان جرمان » في باريس شبيهاً به في العهد السابق ؛ وهو استقرار شبه شامل في فرنسا . ولعله يرد الى تداع ابعد عمقاً في الاقتصاد ، بفعل هبوط الانتاج قبل انخفاض كثافة السكان ، وبفعل استمرار توافر العمل في المصانع . ولكن الاجور قد ارتفعت في كافة البلدان الاخرى : ففي اراغون ونافار اطرد الارتفاع طيلة القرن الخامس عشر ؛ وفي انكلترا ارتفعت قيمة الاجور الشرائية ، في اواخر القرن الخامس عشر ، الى اكثر من ضعفيها في منتصف القرن الرابع عشر .

يجب هنا الا نحاول معرفة اهمية الارباح والاجور وقيمتها الشرائية ، اللتين هما الشرطان الحقيقيان للحياة : فنحن لا نعلم قيمة الارباح الاسمية وصلتهـــا بالاسعار ، ولا حاجات البشر

الحقيقية التي تتغير بتغير العادات والاذواق . لماذا تمثل نقداً تلك العادات التي غالبا ما اعطيت عيناً ، كالاحذية والملابس والغذاء ، وحتى المسكن احيـــاناً ؟ اضف الى ذلك ان الاجور قد اختلفت بين مهنة واخرى ، ومدينة واخرى ، وفصل وآخر ؛ وان الصفات المهنية لم تكن اقل تنوعاً ايضاً . فلا ريب مثلاً ، بصورة عامة قبل منتصف القرن الرابع عشر ، وحتى في السنة ١٣٨٠ ، في غنت وفلورنسة ، في واقع وجود طبقة كادحة عملت في مصـانع النسيج وتقاضت اجوراً متدنية غير كافية . وفي حالات اخرى كثيرة ، استطاع الصناعي ، العامل في خدمـة رب مهنة صغيرة ، ان يؤمن معيشة متوسطة ، كما ان الفلاح ، للذي كان يوصي بممتلكاته لاحـد ابنائه او لتأمين معيشة ارملته ، لم يكن بالضرورة بائساً. وتبدو الفوارق الاجتماعية اوضح تحديداً من المستويات المعيشية : فأن الأجر اليومي لعامـــل ليوني" ، في اوائل القرن الخامس عشر ، وهو يقدر بفلس « تورنوا » ، كان يساوي ، اذا ما اخذنا ايام العطلة بعين الاعتبار ، ٢٥ فلساً في الشهر و ١٥ ليرة في السنة ؛ وكان ثمن لبرة الخبز درهماً ونصف الدرهم ؛ وتراوح دخل الحريف والبناء والمسقّف بين ٢٥ و ٦٠ ليرة في السنة ، كما تراوح دخل التاجر وصانع الفراء وصانع الجوخ والنجار بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فلس . فيتضح ، مع حفظ النسبة ، ان الارباح لم تكن مرتفعة قط ، وفي ذلك دليل على عسر الايام : ففي اوائل القرن الرابع عشر ، لم تتوصل اوسع الشركات الايطاليـة ثروة ، الا بفضل ادارة دقيقة جداً ، الى تحقيق ارباح تتراوح بـين ٧ و ١٥ ٪ ، بينما حققت في السابق ارباحاً تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ ٪ . الا ان المشاريع التجارية والمضاربات الزراعيـــة وتأجير العقارات المستأجرة ، بعد تجزئتها ، ربما درّت مزيـــداً من الارباح . ففي تولوز ، قاربت نسبة الارباح ٢٥ ٪ في القرن الخامس عشر واستقر الدخل العقـــاري حوالي ١٠ ٪ ، وبلغت ارباح التجارة البحرية ، في روان ومرسيليا ، حتى ٣٠ ٪ احيـاناً . ولكن هشاشة المشاريع جعلت ارباحها غير اكيدة .

بيد ان الضرر قد ادرك دخول الاخاذات وشتى الدخول العقـــارية بصورة خاصة بسبب استحالة التوفيق بينها وبين مختلف ظروف الاضطراب الاقتصادي. فبات من ثم لزاماً علينا ، في الدرجة الاولى ، ان نحاول تقدير نتائج انحطاط طويل الامد على الارض ومالكيها .

مصير الاراضي

ان الطاعون الكبير ، ببلبلته اليد العامـــلة ، قد استعجل انهيار الاراضي التقليدي . فالتطور كان قديماً وشاملاً على الرغم من بعض الفوارق الزمنية . وليس سوى الامبراطورية ، في مناطقها الشرقية — الاراضي المستعمرة وراء الإلب — ما عرف تجدّد الاملاك الواسعة . اما في البلدان الاخرى فقد استرخت روابط التبعية الشخصية نهائيـاً وتفككت عرى التجمع القديم حول هذه الاملاك ، بينما كانت الاراضي آخذة في الانتقـــال من مالك الى آخر. وفي انكلترا ومنطقة تولوز ومنطقة بوردو ونورمنديا وبورغونيا والمانيـا الغربية استطاع الفلاح ان يستفيد من صعوبات مالكي الاراضي . فقد تضافرت نفقات الحروب الدائمة ، والفدى الواجبة الدفـــع ، وتخفيضات اسعار النقد التي اذابت الدخول الثابتة كما يذوب الثلج

بفعل حرارة الشمس ، وواجب المحافظة على مستوى المعيشة ، وانتهت باسياد كثيرين الى ضيق شديد اشبه بحالة اليأس . كما ان الاستمرار في قسمة الارث انصبة متساوية، والافراط في توزيع الاراضي بموجب الوصيات ، قد اسهما كذلك في انقاص مساحات هذه الاراضي انقاصاً عظيماً . وهنالك ما هو شر من ذلك : فمنذ الربع الاول من القرن الرابع عشر ، انقص هبوط الاسعار الزراعية دخول الاراضي السيدية الاحتياطية . ثم جاءت ازمة اليد العاملة ، فوق كل ذلك ، تسبب ارتفاعاً في الاجور ، وبالتالي زيادة في اكلاف الاستثمار .

بيد ان فقدان التوازن بين حجم الانتاج ومستوى الاسعار ، وبين ندرة اليد العاملة وانتقاص الطلب ، لم يكن سوى وجه واحد من تقهقر ابعد عمقاً واطول مدى . فلما كانت اسعار الحبوب قد عادت الى الهبوط منذ الربع الاخير من القرن الرابع عشر ، ولما كانت اكلاف الاستثمار — ولا سيما الاجور — قد حافظت على ارتفاعها ، استمر نظام الاراضي الواسعة في التداعي والتخلخل واستحال ايقاف التطور القديم نحو استثمار الارض استثماراً فردياً .

زد على ذلك ان السيد ، الذي اعوزه المال ، قد ارغم على التنازلات كي يبقي في الارض اليد العاملة النادرة ، حرّة كانت ام عبدية . فاسهم اعتاق البعض وتخفيف اعباء البعض الآخر ، اللذان تما كلاهما عن طريق المساومات والمزايدات ، في حل اواصر تعلق الفلاحين باسيادهم . كما ان الفداديين الذين لم يعتقهم القرن الثالث عشر قد حصلوا على الحرية بالتراضي او بالفدية او بالتهديد بالفرار . وكان الاعتاق فردياً او جماعياً ، وافادت منه العيلة او القرية احياناً ؛ كما كان كاملا او محدوداً ، مشروطاً بانتفاء ضريبة الاقتطاع ومنع انتقال ارث المعتق : ففي فرنسا مثلا عرفت مقاطعات شمبانيا وايل دي فرانس وبري وغيرها ، وكلها مناطق فدادية شخصية او عينية ، شتى ضروب الاعتاق . واعيد النظر كذلك في الاعباء ، عبدية كانت ام حرة ، عيناً ام خدمات: فحددت هنا ، وخفضت في غير مكان الى ما دون قيمتها السابقة ؛ وامكن التخلص منها احياناً بدفع اقساط دورية ، كما امكن ابدالها ، عندما تكون تسخيراً ، بمبلغ معين ثابت سرعان ما تخف قيمته في هميان الجابي السيّدي . فمنذ عهد الطاعون ابدل حوالي ٥٠ ٪ من من التسخيرات بمبالغ نقدية في ٨١ اقطاعة موزعة على ٢١ كونتية ؛ وبعد مرور ثلاثين سنة تجاوزت النسبة ٦٠ ٪ .

وغدت المشاركات الزراعية في الاراضي التابعة للاقطاعات اعظم مرونة ، فبرز الميل الى ابدال عقود المزارعة بعقود التزام تترك للمستثمر ، بفضل استئجارات متوسطة الاجل، الاستفادة من فائض الحصائد . وهكذا فان نسبة حصة كهنة سان ــ سورين في بوردو ، قد هبطت من ٦٩ ٪ الى ٥٣ ٪ في الثلثين الاولين من القرن الخامس عشر ، بينما حلّت المشاركات القاضية بدفع ضريبة خفيفة ، في اراضي زراعة الحبوب في الفوريز ، محل المشاركات القاضية بتقديم انصبة من الاثمار . وقد اشتهر في انكلترا مثل اسياد بركلي الذين حوّلوا استثمارات اراضيهم التقليدية الى

استثمارات حرّة ؛ وبصورة عامة ارتفع ، في الاراضي التابعة للاقطاعة ، عدد المستثمرين « الاختياريين » والمتعاقدين ارتفاعاً عظيماً طيلة القرن .

اذا لم تسمح كل هذه التضحيات باستثمار كافة الاراضي التابعة للاقطاعة فالاستثمار المباشر ، باولى حجة ، قد اثبت يوماً بعد يوم انه اقل دخلا ، اذ ان العمل المأجور ، وهو انجح من التسخير الذي ولى عهده ، قد اثبت انه باهظ النفقات . وفي المناخات المؤاتية لتربية المواشي ، كمناخ انكلترا مثلا ، حول السيد قسماً من اراضيه الصالحة للزراعة الى مروج ، رغبة منه في ان لا تنتهي الى البوار . وغالباً ما اجر قطعاً هامة بشروط توافق المستأجر : انتفاء الالتزامات المالية ، كراء خفيف ، مدّة تعاقد كافية لحمل المستأجر على تحسين العقار . وفي منطقة تولوز تخلى اصحاب الاقطاعات للمستثمرين عن بعض الاراضي البائرة لمدة طويلة نسبياً دون ان يفرضوا عليهم اية اتاوة . وفي نورمنديا سلم الاسياد الاراضي باجور منخفضة ولكنهم اشترطوا على المستأجرين اصلاح الارض بالسجيل وزرعها بشجر التفاح واحياء قطعان المواشي . اجل ان هذه الجهود اشبه ما تكون بعمل (بنلوب) في تلك الارياف المعرضة لخراب دائم . ولكنها تضحيات تنم عن بصيرة المرتضين بها ، نشاهدها في المانيا الغربية والجنوبية ايضاً ، حافظت على ثروة السيد العقارية كاملة سالمة .

الا ان هذه الثروة تعرضت لمزيد من الخطر حين نضبت موارد الاسياد فاضطروا الى بيع الحقوق والاراضي : اما عن طريق الاستقراض المتفاوت مواربة ، تخلصا من العقوبات الكنسية المفروضة على المراباة ، والمكفول برهن الاتاوات او الدخول او الاراضي ؛ واما عن طريق البيع « الوفائي » الذي اعتبر موافقاً جداً بفضل ما ينطوي عليه من امكانات تاجيل وتسويف؛ واما عن طريق تعيين الدخول العقارية بنوع خاص . وقد كُفلت هذه الاخيرة برهن الضريبة المفروضة على المزارعين او الحصص الزراعية او الاقطاعة بكاملها ، او بمجموع ثروة البائع احياناً. وقضت بالتخلي مؤقتاً عن حق او ملك يحل بموجبها محل « السيد الطبيعي » « سيد » او عدة « اسياد » لم يعرفهم الفلاح من ذي قبل . وغالباً ما حدث ، بعد تراكم الدخول المتوجبة على الارض ، ان بيعت الارض بيعاً نهائياً . وما اسعد السيد الذي لم يرهن احتياطي املاكه ولم يضطر ، في النهاية ، الى بيع اقطاعته الى مالك جديد ! زد على ذلك ان الارث الوالدي نفسه ، وهو مجزّأ في جوهره وموزع على اصحاب حقوق معينين ، قد ابتلع بدوره احياناً .

كان المستفيدون من عملية قطع الاسياد صلاتهم المباشرة بالارض والفلاحين وتحولهم الى اصحاب ايرادات ثابتة من عائدات الارض السنوية المستثمرين الفلاحين من جهة ، ومن جهة ثانية اولئك الذين توفر لديهم المال فوجدوا في محاصيل الارض فرصة لتوظيفه :اعني بهم البورجوازيين. وان التطور الذي ثقلت وطأته على الاشراف الفرنسيين بنوع خاص ، لم يرفق كذلك بالاشراف الالمان والايطاليين ولا سيما بالاكليروس . وقد شاهد هذا الاخير ، لا سيما في ايطاليا ، ذوبان املاكه الشاسعة بين ايدي موقعي العقود الزراعية المعروفة بـ «المزعومة»، المؤقتة مبدئياً والدائمة

في الواقع . اما الارستوقراطية الانكليزية، التي تعودت استثمار اراضيها استثماراً سلبياً، فقد تمكنت من الوقوف في وجه التطور ، لا سيا في املاكها الرهبانية التي غالباً مـا ضرب المثل بحسن ادارتها ، وفي اقطاعات عائلاتها الكبرى . بيد ان آل بركلي اضطروا ، في اواخر القرن الرابع عشر ، الى التحول بدورهم الى اصحاب ايرادات ثابتة من عائدات الارض السنوية ؛ وتـلاحظ هبطة الاقطاعة كذلك في الشمال كما في الجنوب وفي بلاد الويلز ، في امـلاك آل « برسي » و « مورتمر » و « كلار » و « بوهن » .

ان عزو هذه الهبطة العامة في الحياة الزراعية الى عجز اقتصاد القرون الوسطى عـن زيادة وسائل الانتاج بتحسين التقنية ، انما هو تفسير عصري لوقائع ما كان المعاصرون ليعوهـا في الارجح . فهل يسعنا ، قبل الجزم ببؤس مالكي الاراضي نهائياً ، التأكد مـن ان الخسائر التي منوا بها لم يعوّض عنها بموارد اخرى غير زراعية ، « كالارباح الوافرة » في الحروب، وجعالات الـ « الاتباع » الانكليز ، والوظائف الجزيلة الكسب التي اسندت للامراء ورجـال الكنيسة ؟ والواقع هو ان عائلات كثيرة من طبقة الاشراف القديمة قد استطاعت الابقاء او الحصول على وضع اقتصادي دونه وضع جدودها قبل حرب المئة سنة .

بيد ان كل ذلك لم يمنع طبقة متوسطة من الفلاحين الميسورين من الاستفادة من انهيار نظام الاملاك الواسعة ؛ فقد حصل بعض « حديثي النعمة » من اصحاب الاملاك عـلى حقوق وحتى على اراضي الاسياد . ومنذ منتصف القرن الرابع عشر ، توصل ثلاثة مستثمرين في « ويدون بك » الى جمع معظم الاراضي الشاغرة في ايديهم، بينما هبطت نسبة صغار المستثمرين الى ٥٠ ٪ . وهذا ما حدث لمستثمري اراضي الكنيسة في نورمنديا ولفلاحي المانيا الغربية والجنوبية ايضاً، الذين توصلوا ، خلال القرن الخامس عشر ، الى الارتفاع فوق مستوى امثالهم ؛ كما حدث ذلك لفلاحي منطقة « جوزا » الى الجنوب من باريس، حوالي منتصف القرن الخامس عشر، ولِـ ٤٠٠ رب عائلة ميسورين سجل التاريخ اسماءهم في منطقة بوردو بعد السنة ١٤١٤ ، ولآل «برّوت » الذين كونوا لانفسهم ثروة عقارية طائلة في نورمنديا بين السنة ١٣٨٠ والسنة ١٤٦٠ .

وآثر البورجوازيون توظيف ارباح تجارتهم في الممتلكات والعـائدات العقارية : اذ ان الاراضي، التي هي اضمن من الاعمال لتوظيف الاموال، دليل تقدم في السلّم الاجتماعي . ويحتل آل « البرتي دل جيوديشي » مركز الصدارة بين عائلات التجار الايطاليين الاثرياء التي جمعت ثروات عقارية طائلة في منتصف القرن الرابع عشر : فحول « بيت السيد » ، الذي تجـدّد فيه الميل الى « السكينة » الريفية ، امتدت الحقول المستثمرة التي سترسل محاصيلها، بعد اقتطاع مؤونة السيد منها ، الى الاسواق التجارية . وسار على هـذه الخطة نفسها ، حول المدن ، بورجوازيو اوغزبورغ واولم ونورمبرغ في المانيا الجنوبية وبورجوازيو بورغوس وبرشلونة في اسبانيا . وسيطر « مدنيو » متز على الارياف المجاورة . وفي القرن الرابع عشر كان لتجـار « بوردو » كرومهم الخـاصة في « ميدوك » ، كما ان مجهزي السفن في روان استعاضوا عن

مخاطر البحر بمحاصيل الارض . ويجدر التنويه هنا بالاقطاعات الكبرى التي حصل عليها « جاك كور » من الاشراف المفتقرين في مناطق بوربونيه وبري وفوريز ، بينما ارتفع حفدة « كليمان باستون » ، الذي لم يملك وراء المانش سوى مطحنة وبعض الاراضي ، الى المصف الاول بين تجار الصوف .

وظف البورجوازي أمواله في أراضيه واعتمد في استثمارها على مهارته في الكسب ، فأدخل الى ايطاليا و « مسين » ومنطقة تولوز عادات الاقراض والدين . أقرض الكرّام ، واشترى المحاصيل قبل جمعها ، وأسس الشركات مع مربي المواشي وضارب في جمع الاعشار وبرهن عن خبرته في معرفة الاراضي الخصبة التي تدر خمسة اضعاف البذار . وفي هولندا ، وفر له انطلاق صناعة النسيج ، عن طريق زراعة الكتان ، تعويضاً عن الصعوبات الزراعية . وذهب تاجر الصوف الانكليزي ، من مرعى ، الى مرعى يختار الجزز ويبتاعها. وتنقل تاجر الحبوب او النبيذ في باريس او روان، بين الحقول والكروم، وزار اهراء الحبوب وسقائف الخمر واشترى المحاصيل التي تغذي تجارته ، قبل جمعها احياناً . فلم تكن الارض في نظره فرصة توظيف مثمر يرفعه الى مرتبة الاسياد فحسب ، بل وفرت له المواد الخام وسلع التجارة .

صناعة النسيج

فهل باستطاعتنا ، انطلاقاً من هذا الاتصال بين المدن والارياف، الاستنتاج ان هبطة موازية في الصناعة والمقايضات قد رافقت بالضرورة الهبطة الزراعية الطويلة الامد ؟ ام ، على نقيض ذلك، ان ارباح السلع التجارية – وهي قطاع اقتصادي اقل جموداً – قد عوضت عن نقص ارباح الارض ؟ يبدو جلياً ان الانحطاط الاقتصادي كان شاملا حيث كانت الازمة الزراعية ابعد عمقاً؛ ففي انكلترا مثلاً لم تعوض طاقة السوق الداخلية على الاستهلاك وتصدير الاجواخ المتزايد عن النقص في تصدير الصوف ؛ وقابل تقدم صناعة الاجواخ تأخر في تربية المواشي . ولكن اذا كانت بعض اسواق الانتاج والاستهلاك قد تأخرت تأخراً ملحوظاً ، فان أسواقاً اخرى قد برزت وتقدمت ، وانتقل غيرها تدريجياً الى جوانب الطرقات الجديدة؛ ولا ينكر ان صعوبات اشتداد التنافس الاقتصادي كانت حافزاً كبيراً للتقدم التقني والمبادهات الخلاقة . الا ان اللوحة تتميز هنا بكثير من الفوارق .

سنتأكد من كل هذه المتناقضات الظاهرة في درس خامات صناعة النسيج ومنتوجاتها . اجل لقد ولى واقع احتكار الصوف الانكليزي وصناعة الاجواخ الفلمنكية التي لاءمت نسائجها الثقيلة فصول الشتاء الشمالية الطويلة والبرد المسائي القارس في المناطق الجنوبية ؛ وولى كذلك زمن اللقاءات ، في اسواق شمبانيا الدورية ، بين الصناعي الفلمنكي والشاري الايطالي الذي كان يصبغ الجوخ وفاقاً لأذواق الزبن الجنوبيين او الشرقيين. ولكن المقصود ليس ازمة صناعة الجوخ فحسب بل تعدد المنافسات وأسواق الخامات بصوورة خاصة .

فهناك منافسة محلية ، في هولندا ، بين صناعة الاجواخ الريفية وبين صناعة الاجواخ المدنية

التي تأخرت في « أراس » ودواي وسانتومر وبروج وغنت وايبر ، بينما استجابت مراكز الصناعة الريفية لرغبة زبن اقل ثروة في اقتناء الاجواخ الخفيفة . وان في انطلاقة قرية هندشوت الفلمنكية لرمزا لتفوق الحرير على الجوخ القديم الثقيل . وهناك منافسة ايضاً بين الفلاندر وبين هينو وبرابان ومنطقة لياج وهولندا التي تعددت مراكز صناعاتها ، لا سيا في الشمال ، على حساب العواصم الاقليمية القديمة : فتقدمت لوفان وبروكسل ومالين و « بوا — له — دوك » ومايسترخت وليدن على سانتومر ودواي اللتين سقطتا نهائياً ، وعلى أراس التي وجدت في الوشي البذخي وسيلة وقتية تؤخر بها سقوطها . فيتضح من ثم على العموم ان صناعة هولندا قد حافظت على مركزها او عوّضت عن خسائرها . ولكن المنافسة الاجنبية لم تكن بأقل شدة ، فتأثرت الفلاندر والامارات المجاورة بالحرب الفرنسية الانكليزية التي حالت دون انتظام وصول الصوف من وراء المانش وسبّبت ازمات بطالة ورفعت كلفة المصنوعات الصوفية : وقد سبق ورأينا ان سياسة الاجور المتدنية والتخفيضات النقدية لم تكف للقضاء على المنافسة الاجنبية ولا للحيلولة دون هجرة العاطلين الى الخارج .

اما في اسواق المنسوجات فقد تحسن مركز الاجواخ الانكليزية تحسناً مفاجئاً في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، فيما انحدر تصدير الصوف الخام ، المحصور في أيدي شركة انكليزية ذات امتياز استقرت نهائياً في كاليه ، من قرابة ٣٥٠٠٠ كيس سنوياً في السنة ١٣٥٠ الى ٥٠٠٠ كيس فقط في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . فان صناعة الاجواخ الانكليزية ، التي تقدمت بفضل المهاجرين الفلمنكيين هنا وبفضل الصناعيين المحليين في غير مكان ، وكانت الى جانب ذلك أساس ثروة « المغامرين التجار » ، وانتشرت ، انطلاقاً من انكلترا الشرقية ، في المناطق الجنوبية والغربية وحتى في « يوركشاير » ، نحو الشمال ، قد وطدت ، خلال القرن الخامس عشر ، شهرة نسائجها الخفيفة المختلفة توطيداً كان كافياً لأن تعرف نجاحا كبيراً حال تصديرها من لندن وسوثمبتون وبريستول : فقد عثر حتى في روسيا على الاشمرة الرصاصية الموضوعة على النسائج المصدرة من لندن بواسطة تجار المدن الهانسية . واحتل الجوخ الانكليزي في تولوز ، منذ السنة ١٤٥٠ ، مركز الصدارة الذي كانت الاجواخ الفلمنكية والبرابانية لا تزال تحتله ، بنسبة ٩٠ ٪ ، في السنة ١٣٩٨ . ولم تتوان « الامة » الانكليزية الناشطة ، في انفرس نفسها ، عن مغالبة الانتاج المحلي وخزن نسائجها المعدة لمزاحمة اجواخ هولندا في الاسواق الالمانية .

زد على ذلك ان مصانع جديدة قد أسست في كل مكان تقريباً وحاولت تموين الاسواق الاقليمية . فان صوف الامبراطورية ، الذي كان يصدر في السابق الى لومبارديا ، قد جمع الآن في فريبورغ التي عاش ثلثا سكانها من صناعته في منتصف القرن الخامس عشر . وتقدمت في فرنسا صناعة الاجواخ الشمبانية والنورمندية والبرية واللنغدوكية . وظهرت في اسبانيا ، حيث أدخل المرينوس حوالي السنة ١٣٤٠ ، الاجواخ الاراغونية والكاتالونية . وفي الفترة المتراوحة

بين السنة ۱۳۳۰ والسنة ١٣٤٠ ، كان هنالــك في فلورنسا ، اذا صدقت رواية فيلاني ، ۲۰۰ حانوت تنتج بين ٧٠ و ٨٠ ألف قطعة سنوياً ؛ وحين تغلبت مصانع « فن الصوف » بعد ذلك على الازمة التي تعرضت لها في أواسط القرن الرابع عشر ، استعانت بالمهاجرين الفلمنكيين على أثر الشغب الذي سببته جماعة « الشيومبي » ؛ وهكذا فان صناعة الاجواخ الفلورنسية ، التي لم تتأثر بنسبة ما قيل عنها، قد حافظت، على الرغم من ارتفاع أسعارها ، وحتى في الشرق نفسه، على زبن لا يرضون عن مصنوعاتها الممتازة بديلاً . وهي قد استوردت الصوف الانكليزي من سوثمبتون حيث ألّف الايطاليون مستعمرة صغيرة . اما الآن فهو الصوف الاسباني ما استخدم لمصنوعات الاستهلاك الرائج .

انتشر استخدام الصوف الاسباني ، بعد ايطاليا ، في مدينة بروج ، في أواخر القرن الرابع عشر : فقد قام قبالة كاليه ، مركز التجار الانكليز ، احتكار تجار بورغوس للسوق البروجية ، كما ان انطلاقة « الامم » الاسبانية في الفلاندر قد أفادت من رواج صوف المرينوس . فان هـذا الاخير ، وان كان أقصر من الصوف الانكليزي ودونـــه جودة ، قد وافق متطلبات السوق الجديدة : اذ انه بات وسيلة بقاء لصناعة هولندا التي غذت به صناعة الاجواخ الجديدة وصدرته بعد ذلك لا الى اسبانيا فحسب – التي عاد اليها صوفها – بل الى المانيا العليا وبروسيا ايضاً ، مما عوّض عن اقفال السوق الفرنسية .

نمت في الوقت نفسه كذلك صناعة النسائج القطنية والكتانيـة والقنبية . فاستقرت صناعة نسيج القطن الجديدة، التي مونتها البندقية بقطن الشرق، في ايطاليا الشمالية اولاً، أي في كريمونا حيث جمع آل افتّادي ثروتهم الطائلة ، ثم اجتازت البرنّر : وان « اندريا بونسنيوري » الذي انتقل الى خدمة « جورج فوجر » ، قد جسّد الشاحن الايطالي العامل لمصلحة الملتزمين في مدن المانيا العليا . وكذلك فان صناعة نسيج الكتان التي حصرت في « هينو » حول « آتْ » وفي الفلاندر حول « كونتريه » وفي برابان حول نيفيل قد بلغت من التقدم شأواً جعلها تغذي ، في الاسواق الالمانية وحتى الانكليزية ، حركة تصدير زاحمت النسائج اللورينية والشمبانية . امـا صناعة نسيج القنب، فقد أنتجت في نورمنديا، بحسب ما نعلمه عن تاريخ النسيج الفرنسي، مقداراً من نسيج الاشرعة الغليظ أتاح بيعـــه للانكليز ، بينما توفقت بريطانيا (فيتريه وبولدافيد ولوكرونان) وبواتو الى تأمين زبن دائمين في اسبانيا والبرتغال .

وحدثت تبدلات مماثلة في توزيع مواد التلوين . فان حجر الشب ، الضروري لتثبيت ألوان النسـائج وألوان الجلد على السواء ، قـــد أمنته ، حتى منتصف القرن الخامس عشر ، المناجم الجنوية في فوجيا من اعمال آسيا الصغرى . الا ان الصناعيين قد آثروا على الاصباغ الشرقية ، النادرة والباهظـــة الثمن – القرمز والبقم – اصباغ الفوّة والعظلم والزعفران الغربية المنشأ . فبيع زعفران جنوبي فرنسا والاوفرني ، وهو من الصنف الممتـاز المكلف ، حتى في أسواق القسطنطينية ؛ الا انه استبدل اخيراً بزعفران كاتالونيا وخصوصاً بزعفران أكيلا ، في جبـــال

« الابروز »، الذي كان يصدّر الى مراكز صناعة النسيج في المانيا العليا . وتقدمت على بيكارديا ونورمنديا وتوسكانا ، وهي الاسواق التقليدية لأكثر الاصباغ استعمالاً ، أي العظلم ، وكلها قريب من مراكز النسيج الكبرى ، مناطق امتازت بظروفها الطبيعية او الاقتصادية : الأكيتين وسهل البو . فقد وجدت الاولى، حول البي وتولوز ، منذ اواخر القرن الرابع عشر، كاوجدالثاني ، حول الاسكندرية، حتى اواخر القرن الخامس عشر، في صادراتها من العظلم ، مادة لمضاربات مثمرة.

تجارة المواد الغذائية

ان تلبية رغبة الزبون الذي يفضل الجوخ الخفيف على الجوخ الثقيل والكتان على الصوف، واحلال الصوف الاسباني محل الصوف الانكليزي، والاستعاضة عن الدوس البطيء بالاقدام باستخدام المطحنة الريفية السريعة ، واستعمال الشب الايطالي بدلاً من الشب الآسيوي والعظلم اللومباردي او الاكيتيني بدلاً من العظلم البيكاردي ، والتوفق في فلورنسا الى عمل لا يتوفر في غنت ، والتعويض عن فقدان السوق الفرنسية بفتح أسواق شمالية ، كلها أدلة على طاقة التاجر على تخفيف وطأة الانحطاط الاقتصادي . وان في بعض القطاعات الهامة من التجارة الدولية لأدلة لا تقل عنها شأناً ، ولا سيا في قطاع الخمور . فكيف استطاعت التجارة الغسكونية ان تعيش بعد انفصال الاكيتين عن التاج الانكليزي يا ترى ؟ بدا الهبوط ، الذي ظهرت بوادره منذ امد بعيد، وكأنه لا دواء له : ١٠٢٧٢٤ برميلاً في السنة ١٣٠٨ – ١٣٠٩ ، ٧٨٤٢ في السنوات ١٣٧٩ – ١٣٨١ ، ٦٠٠٠ في السنة ١٤٥٠ – ١٤٥١ ، و ٣٠٠٠ اخيراً عشية استعادة فرنسا للاكيتين . اعترف لويس الحادي عشر نفسه بوجوب الحفاظ على ثروة بوردو ومنطقتها ، فاستعادت التجارة نشاطها ولو ببعض الصعوبة . وزاحمت كذلك بعض الخمور في اوروبا الشمالية الجمة التي تزايد صنعها واستهلاكها : خمور « لاروشيل » وبواتو ، وخمور « فرنسا » ، وخمور اوكسير و « بون » ، وقد نقلت كلها ، بواسطة الانهار والطرقات والبحر نحو هولندا والمانش ، فجمعت أراس «دام» من بيعها وفرض الرسوم على عرضها ، منذ الربع الاخير من القرن الرابع عشر ، نصيباً كبيراً من عائداتها . ولم تتمكن خمور الرين والموزيل ، التي جنى منها السيسينيون بعض الارباح ، من مزاحمة هذه الخمور بسهولة ، بينما لم يستورد الشمال ، من الجنوب الذي شكلت فيه تجارة الخمور قطاعاً ناشطاً جداً، سوى بعض الخمور الحلوة ، كخمور « رومينيا » و « ملفوازيا » ، مستخدماً السفن الايطالية لنقلها .

لم تنج هذه البقعة او تلك يوماً من المحول ، فسادت في كل مكان فطرة دفاعية للحفاظ على الحنطة ، ولكن المضاربين تحدوا الرأي العام والحواجز الجمركية . فكانت المعضلة ، في البلدان المتوسطية ، معضلة دائمة ؛ واذا ما صدقت المؤلفات التجارية – « ممارسة التجارة » لبيغولوتي او بحث دا اوزانو – فان السهول الايطالية واللنغدوك وافريقيا الشمالية ، ولا سيا صقليا ، قد صدرت فائض حبوبها الى المناطق المفتقرة الى القمح او الرازحة تحت وطأة الجوع . وغدت اسبانيا والبرتغال من كبار أكّالي الخبز منذ أواخر القرن الخامس عشر ، فأخذتا تنظران ،

منذ ذاك الحين ، الى السهول المراكشية ، واستوردتا في الوقت نفسه الحنطة الفرنسية وحنطة هولندا التي لم تعد المانيا الشرقية بحاجة اليها بعد ان اقفرت قراها او كادت . فقد ولّى من ثم زمن بلغت فيه مدن الشراكة الهانسية اوج ازدهارها وغذت انكلترا وفرنسا الشمالية (القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر) .

أتى اهل الشمال بالرنك مع الجاودار وعادوا بالملح مع الخمور. فقد غذى «جون بورغنوف»، وشأنه في ذلك شأن بريطانيا وسانتونج ، تجارة « أساطيل الملح » السنوية ، ومونّ كذلك انكلترا وهولندا التي عجز انتاج ملاحاتها الباهظ الاكلاف عن سد كافة حاجات صيد الرنك ، فيما اخذ السمك يهاجر شواطىء « سكانيا » نحو مياه بحر الشمال .

أسواق التجارة وطرقاتها

ان حاجة التجار الملحّة الى تخفيض نفقاتهم الخارجية قد دفعت بهم الى التشارك وتحوير طرقاتهم واستبدال أماكن لقائهم والبحث عن أسواق جديدة . وهكذا فان فتح « السوند » للسفن الثقيلة الحمولة ، في منتصف القرن الخامس عشر ، قد أتاح انقاص اجور المراكب بابطال المرور في المضيق الدانمركي . ولما كانت شراكة المدن الهانسية ردة فعل دفاعية أكثر منها مظهراً من مظاهر قوة تسير في معارج التقدم، فقد ناضلت كي تفرض على الدانمركيين حرية التجول في مياهها وكي تحافظ على أسواقها في لندن وبروج وبرغن ونوفغورود. غير ان الاتحاد لم يوفر على مدن المانيا الشمالية نتائج الهبطة الاقتصادية الشاملة ؛ فان لوبك ، على الرغم من مركزها الممتاز قد تأخرت عن ركب شريكاتها ومنافساتها في بروسيا ؛ كما ان بعض مدن المنطقة الغربية ، ولا سيما كولونيا ، قد صممت على الدفاع عن مصالحها الخاصة؛ زد على ذلك ان هذه المدن كلها قد تضررت بفعل المزاحمة الانكليزية والنيرلندية حتى في البلطيك . فتقهقرت من ثم الشراكة الهانسية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، لا سيما حينما سقطت سوق نوفغورود في أيدي « ايفان » الثاني في السنة ١٤٧٨

وعلى غرار أسواق مدن الشراكة الهانسية ، كانت «المؤسسة الالمانية» في البندقية و «الامم» الايطالية والاسبانية والانكليزية في بروج ، ثم في انفرس ، اجهزة دفاعية ايضاً : فان الاسواق التي يديرها ويمثلها لدى السلطات المحلية مجلس وأمين سر ، و «الامم» التي قام على رأسها قنصل، قد أمنت لأعضائها الاقامة في منزل واستخدام مخازن مشتركة واخوّة جمعية دينية ، وضمان المساعدات المتبادلة، والاستفادة من سلطة قضائية خاصة، وفوائد نظام جبائي خاص، وامتيازات تجارية خاصة . وقد بررت شتى ضروب المخاطر نمو مثل هذه التجمعات .

تحولت خطوط المواصلات أكثر من مرة بين قطبي اقتصاد القرون الوسطى ، هولندا وايطاليا : الخطوط البحرية التي سارت عليها منذ السنوات ١٣٢٠ – ١٣٤٠ ، بأعداد متزايدة ، السفن الجنوية والبندقية المسطحة ، نحو بروج ، بينما أدخلت « هياكل سفن » خليج غسكونيا، الى برشلونة وجنوى والبندقية، طرازاً لمركب اسهل قيادة، مجهز بدفة من طراز جديد، وجامع

بين الشراع المربع والشراع اللاتيني . فأدى من ثم انطلاق برشلونة الى مزاحمة المدن الايطالية .
وسارت على طريقي السمبلون والغوتار البريتين معظم وسائل النقل ؛ فأمنت اولاهما المواصلات الى سوق « شالون ـ سور ـ سون » الدورية الحديثة العهد ، واتجهت من ثم ، على طريق اللورين ، نحو الشمال ، واستوفي رسم المرور عليها في « جوغ » من أعمال الجورا ؛ أما الثانية فقد انحدرت في وادي الرين عن طريق بال . وعرفت فرنسا الداخلية ، التي لم تمر فيهـا هاتان الطريقان ، تحولات مماثلة ، على نطاق اضيق ، في خطوط المواصلات التجارية . ولنا في الطرقات الاكيتينية خير مثل على ذلك : فان سائقي العجلات البيارنيين ، رغبة منهم في تجنب مخاطر الحرب ومراكز استيفاء رسوم المرور السبعة والعشرين على الفارون ، شقوا ، في اواخر القرن الرابع عشر ، طريقاً مباشرة تصل تولوز ببايون لأجل نقل الجوخ والعظلم المستوردين من انكلترا او المصدرين اليها .
ويتضح من ذلك ان ما أملى على التجار اختيارهم هو تجنب المخاطر قبل تباين أسعار النقل النهري والبري . وخلال حرب المئة سنة تقاسم السين والواز والطريق البرية والبحر المواصلات بـين باريس وهولندا . وحدث الشيء نفسه بين الانهار الكبرى وطرقات السهول الالمانية والبولونية.

وارتبط مصير أماكن المعاملات التجارية بتحولات الطرقات ايضاً ؛ الا ان هـذا الارتباط في المرافىء البحرية التي حددت الطبيعة مواقعها اقل منه في مراكز الاسواق الدورية الدوليـة الكبرى . فقد لوحظ في هذه الاخيرة اتجاه الى الانتقال شرقاً والاقتراب من الطرقات المارة في المجازات الالبيـة . فقد خلفت اسواق شمبانيا اسواقُ شالون وجنيف وفرنكفورت ، ثم اسواق ليبزيغ ؛ وفي عهد لاحق ، أي بعد السنة ١٤٥٠ حاولت اسواق ليون الحلول محل جنيف ، بينما دافعت ميلانو من جهة ، وبروج وانفرس و « برغ ـ اوب ـ زوم » من جهة ثانية ، عن أسواقها الخاصة . الا ان عهد الاسواق الذهبي كان في الحقيقة مائلاً الى الهبوط ؛ ومرد ذلك الى ان طابع التواتر فيها ما عاد ليتفق وعادات التجار المقيمين المستقرين وعُرف اجراء الصفقات التجارية والمالية المباشرة في مراكز الاعمال نفسها بواسطة العملاء او بالمراسلة احياناً .

تقنية الاعمال

استمدت عناصر تحسين تقنية الاعمال من خبرة التجار الجنوبيين ، اسبانيين او ايطاليين ، ومسّت الحاجة اليـها امام واجب الدفاع عن النفس في الظروف الصعبة . فقد توجب ، في آن واحد ، استدراك مخاطر المشاريع التجارية وحصرها ، والتعويض جهد المستطاع عن نقص الادوات النقدية ؛ وهـذا ما أفضى الى مظهري الطرائق التجارية : الشركات ، بالنسبة لنظامها ، والمحاسبة والدين ، بالنسبة لسيرها . وتلقى التـاجر الايطالي ، بفضل دراسة « الطاولة الحسابية » والتمرين العملي ، ثقافة تفوّق بهـا على منافسيه الشماليين ، من انكليز وغيرهم ؛ الا ان الصيرفي البروجي ما لبث ان اصبح قادراً ، على غراره ، على تحسين مسك الدفاتر التجارية منذ منتصف القرن الرابع عشر : فغدا السجل اليومي وسجل الصندوق و « ورقة النقد » أشياء عادية . ولما كانت الارقام العربية ، التي ظهرت في ايطاليـا منذ القرن الثالث عشر ، لم تنتشر فعلاً الا اعتباراً من القرن الخامس عشر ، فقد درج الناس زمناً

طويلاً على الحساب بواسطة قطع معدنية تمثل قيماً نقدية مختلفة . ولكن طريقة مسك الدفاتر المزدوجة ، التي استعملت في اليونان منذ قبل السنة ١٣٤٠ ، قد انتشرت شيئاً فشيئاً . فنجمت عن معاملات الصيارفة تدريجياً المعاملات المصرفية العصرية : الودائع ، والحسابات الجارية والتحويلات الداخلية والخارجية . اما التحويلات الخطية ، المعروفة « بالبوليصات » ، التي يرتقي اقدم نماذجها ، وقد اكتشف في بيزا ، الى منتصف القرن الرابع عشر ، فقد اشتق منها « الشك » الحالي . ومن عقد المقايضة ، الذي اتفق عليه في البدء امام مسجل العقود ، للاقرار خطياً بدين يدفع بنقد آخر وفي مكان آخر ، اشتقت السفتجة التي تستلزم ، بموجب تحديدها ، عملية مقايضة دون نقل المال فعلاً ، وعملية دين . ثم تأسست اجهزة عامة اتخذت ، بعد مصارف ساحة ريالتو في البندقية ، شكل المصارف الحكومية في جنوى (دار القديس جرجس ، في السنة ١٤٠٨) ، وبرشلونة (١٤٠١) وفالنس (١٤٠٧) . واتجهت عمليات فتح الاعتمادات الى التمركز في اوساط الاعمال الكبرى وانحصرت في أيدي الايطاليين او كادت : في سيِنّا والبندقية وفلورنسا وجنوى وبروج وافينيون ولندن وبرشلونة ومونبلييه ، خلال القرن الرابع عشر . وبعد استلاب المؤسسات الايطالية على يد البورغونيين في السنة ١٤١٨ ، تخلت باريس عن مركزها لجنيف التي انتقلت منها الاعمال الى ليون حوالي السنة ١٤٦٠ . ونشطت حركة هذه المراكز جميعها بفضل انتشار ممثلي الشركات الكبرى .

لم تتجانس أنظمة الشركات الايطالية : فقد غلبت سيطرة الدولة في البندقية ، والمشاريع العائلية في فلورنسا ، والروح الفردية في جنوى . وسايرت الشراكة الفلورنسية الظروف ، فانتقلت في القرن الخامس عشر ، من نظام الشُعب المتعددة الى نظام الفروع . فقد جمعت الاولى ، وهي شركات ذات اسم جماعي ، حتى ٢٥ مساهماً احياناً ، وعدداً كبيراً من العملاء الموزعين على الشُعب : وان في هذا ، لعمري ، حصرية جعلتها سريعة العطب ، كما خبرت ذلك عائلات « فرسكوبلدي » والبرتي و « اتشياولي » و « بروتسي » و « باردي » . اما الثانية ، التي يقدم لنا آل « مديتشي » افضل مثل عنها ، فقد اعتمدت نظاماً حصرياً في ادارتها وأموالها ، دون ان تعتمده في ادارة كل فرع ؛ ففي حزمة هذه الجمعيات المتوازية على غير جمع واتصال ، لم يكن عجز جمعية عن وفاء الدين ليجر وراءه بالضرورة عجز الجمعيات الاخرى . وقد مارست كافة شركات النظام الاول والنظام الثاني ، في آن واحد ، الصناعة والتجارة والاعمال المصرفية ؛ وحقق بعضها احتكارات افقية وعمودية : كآل زكريا ودرابيريو في جنوى ، وقد اشتهروا في تجارة حجر الشب ، وكالبندقيين « اندريا بربريغو » و « جياكومو بادوير » او اللوكي « رابوندي » الذي كان صيرفي البلاطات الفرنسية ، او « آل داتيني دي براتو » الى جانب الفلورنسيين . فقد تتلمذ على هؤلاء احد تجار رافنسبورغ ، على مقربة من كونستانس ، ويدعى « جوزف هومبيس » ، وأسس ، في اواخر القرن الرابع عشر ، « مصرف رافنسبورغ الكبير » الذي كان المثال الاصلي للمشاريع العظمى المماثلة التي أنشأتها المانيا العليا بعد مرور قرن على تأسيسه . وأهم المثل « جاك كور » ايضاً الذي تذكرنا مشاريعه المتنوعة بالمثال المديتشي .

لم تكن فطنة رجال الاعمال الايطاليين شيئاً باطلا ، لأن الافلاس ، على الرغم من ضآلة عدد القادرين على تقليدهم في طرائقهم ومشاريعهم ، كان بالمرصاد لأعظم ممارسي الاعمال التجارية : فبعد انهيار آل « فرسكو بلدي » في السنة ١٣١٢ ، جاء دور آل « سكالي » في السنة ١٣٢٧ وآل « بوناكورسي » وآل « اوساني » وآل « كورسيني » في السنة ١٣٤١ وآل « اتشياولي » وآل « بيروزي » في السنة ١٣٤٣ ، وآل « باردي » في السنة ١٣٤٦ . ولم يحــل التضامن العائلي واتحاد الشركات دون منافسة شديدة تنازعوا بتأثير منها، في ما تنازعوا، الفوائد الادبية والمادية لاستثمار الاموال البابوية : فقد انفصل آل البرتي « الجدد » عن آل البرتي « القدماء » ، وآل « تشركي » « البيض » عن آل تشركي « السود » ، وارغم آل البرتي « القدماء » آل « غواردي » على اعلان الافلاس (١٣٧٠) ، قبل ان يصيروا انفسهم الى الانهيــار امام آل « البيزي » وآل « ريتشي » .

يجب ان نفسر هشاشة المشاريع هذه بمرض التعاظم والعجز عن مواجهة طلبات الدائنــين بسبب الافتقار الى الاموال النقدية، لا بعجز ادوارد الثالث مثلاً عن وفاء آل باردي وآل بيروزي حقوقهم، او مطاليب « شارل الجسور » من آل « مديشي » . وهكذا فقد انهارت فروع شركة آل مديشي في لندن وبروج وليون في اقل من ثلاثين سنة (١٤٦٦ — ١٤٩٤) . ولعل الدعوى المقــامة على جاك كور اوقفت نشاطه في منحدر مماثل ايضاً . وحوالي السنة ١٤٤٠ ، عانت برشلونة الامرين من أزمة الثقة . ونرانا، على مستوى دون هذا المستوى، مدينين لتصفية حسابات صيارفة بروجيين كثيرين ولحجز سجلاتهم ، بكشف النقاب عن طرائقهم .

ليس قدم الاساليب التجارية والمصرفية دون عدد الافلاسات تأييداً لشعور الركود الاقتصادي الذي سيطر حتى الربع الاخير من القرن الخامس عشر . ففي مرسيليا وبرشلونــة وفالنس واشبيلية وحتى في ليشبونة حيث كانت رؤوس الاموال الجنوية ترتقب فرصة قريبــة لمكاسب جديدة ، ما زالت المشاريع التجارية تعتمد شكل شركة التوصية الذي احتفظ بطابع شخصي وعائلي . اما الشركات المساهمة الكبيرة التي استثمرت مطاحن تولوز منذ القرن الرابع عشر فتبدو وكأنها شذوذ عن القاعدة . واذا ما استثنينا الشركات الايطالية ، لم يُشاهد قط ، قبل السنة ١٤٥٠، عملاء يمثلون أولياءهم تمثيلاً دائماً في المدن الاجنبية . ولم تعرف السفتجة في مرسيليا قبل السنة ١٣٦٠ ، وفي تولوز قبل أواخر القرن ، وفي روان قبل اوائل القرن التالي ، وقــد أقصرها التجار الذين استخدموها على اعمال تجارية صرفــة لم تتطور تطوراً يذكر . وفي بروج نفسها استلزمت تقنية الدفع التعهدات والاعترافات الخطية بالدين ، وتحديد المواعيد ، وكلها وسائل تقليدية . ويجوز القول نفسه في التأمين البحري الذي اعتمد في بروج منذ السنة ١٤٩٥ وادخل بعد خمسين سنة الى المرافىء الاطلسية ، مع انه قديم العهد في المتوسط .

وجملة القول ، اذا تقدمت تقنية الاعمال بفضل تحول الاسواق والطرقات التجارية ، واذا آلت الى تخفيف وطأة الهبطة الاقتصادية، فانها قد توقفت بفعل هذه الهبطة نفسها كما توقفت بفعل

التسبق المطرد . ولم تكن فوائد الطرائق الجديدة الا في متناول ابعد التجار همة وأوفرهم ثروة. فكان من ثم محتوماً ان ينتقل القلق الناجم عن ظروف طالت معاكستها الى النطاق الاجتماعي ايضاً .

٤ ـ الاضطرابات الاجتماعية

التفسخات الاجتماعية

كان مهنيو تورنيه، في السنة ١٣٠٢،يفكرون باليوم «الذي سيتساوى فيه الجميع في الثروة» . وبعد مرور ثمانين سنة أذكى جون بول بدوره، في اغنية شهيرة، احقاد الفلاحين الانكليز الثائرين على أسيادهم وعلى مأموري الجباية . وكان «الشعب الصغير» يصرخ آنذاك في فلورنسا : «ليحيا الشعب !». والى هذه الاقوال المعادية للسلطة، انضمت، خلال قرن من البؤس، دعوة الروحيين الى تحقيق المساواة . فمنذ العشرين سنة الاخيرة من القرن الثالث عشر، كانت مدن هولندا قد دقت ناقوس الخطر وكان لانذارها رجع صدى في الارياف . فعرفت الارياف، التي لم تتماش أنظمتها تماماً ودور المال المتزايد، والمدن التي سيطر عليها القابضون الحريصون على اسباب الثروة الجديدة، تفسخاتها واضطراباتها الاجتماعية معاً . وتجدر الاشارة الى ان هذه الصراعات، التي سبقت انقلاب الوضع الاقتصادي بزمن بعيد، قد تفاقمت بفعل الازمة، لان الذين كانوا ينتجون او يبيعون شيئاً ما، ويحددون الاجور، ويستفيدون من حركة العرض والطلب ويتمكنون من ابقاء أرباحهم في مستوى الاسعار والنقد، هم وحدهم من استطاعوا الارتقاء والبقاء فوق المستوى العادي العام . وتوصلا الى هذه الغاية،دفع المنطق الاناني بالمستفيدين الى ان يقفلوا وراءهم الابواب التي فتحت امامهم سبل الثروة .

لا يزال الغموض يكتنف عدم السياق الظاهر في تعاقب الاضطرابات الاجتماعية في آخر القرون الوسطى . ولكن هذه الاضطرابات، على الرغم من ذلك، تؤلف بما لا يترك مجالاً للشك، مجموعاً من ردود الفعل المتماثلة، المتشابهة والآنية احياناً، لوضع اقتصادي واجتماعي واحد أقله في وسائله الفاعلة العميقة . وينهض المهنيون والفلاحون، في هذا المجموع، بالأدوار الرئيسية، بينما يمثل الاشراف والاسياد ادوار الضحايا : تباين في الاوضاع حقاً، وتباين في النسب العددية ايضاً .

الاضطرابات في المدن

كان «فيليب دي بومانوار»، في أواخر القرن الثالث عشر،قد أدرك المعضلة خير ادراك : «نرى مدناً كثيرة لا يسهم البورجوازيون الفقراء والمتوسطون فيها بادارة المدينة، التي هي وقف على الأثرياء، لان المواطنين يخشونهم بسبب ثروتهم او بسبب نسبهم . ويحدث ان يكون بعضهم حكاماً او محلفين او جباة وان ينقلوا في

السنة التالية ، وظيفتهم ... الى الاقارب من أنسبائهم ... يتفق الأثرياء على ابعاد كل رقابة عن حساباتهم ، فيصبح من العبث اتهامهم بالسرقة والغش مهما كانت مستندات الاتهام . لذلك لم يستطع الفقراء احتمالهم ، ولكنهم لم يعرفوا سبيلاً للمطالبة بحقهم افضل من الثورة عليهم » .

تشابهت معطيات المعضلة في كل مكان تقريباً. ارتفع سكان المدن ارتفاعاً مدهشاً خلال القرن الثالث عشر ، ولكن امتيازات البورجوازية بقيت وقفاً على اشراف قليلي العدد . فكم كان عدد « العظماء » بين سكان غنت البالغين ٥٠٠٠٠ نسمة ، وسكان بروج البالغين ٢٥٠٠٠ ، وسكان أراس او سينا البالغين ٢٠٠٠٠ ، وسكان فلورنسا البالغين ٤٥٠٠٠ يا ترى ؟ ربما جزء من ثلاثين او اربعين في غنت ؛ وعشر عائلات تقريباً في ليل ؛ وأقل من اربعين في لياج ؛ و ٢٥٠٠ « عظيم » تقريباً في فلورنسا . هؤلاء جمعوا كافة الثروات بين أيديهم. كانوا ذوي املاك ريفية ، ولا سيا في ايطاليا ، فراقبوا بهذه الصفة ، شؤون التموين وحددوا الاسعار . وجمعوا رؤوس الاموال، فتصرفوا، بهذه الصفة ، بمصير الثروات الخاصة والاموال العمومية . وسيطروا بالاضافة الى ذلك على العمل، ابتداء من المادة الخام حتى بيع الانتاج المصنوع، فأشرفوا بهذه الصفة على النقابات في مدن الشمال وعلى الفنون الكبرى في المدن الايطالية . وأمن لهم النظام السائد في كل مكان تقريباً ، والقاضي بأن تنتخب كل جمعية أعضاءها ، الاحتكار العملي للوظائف البلدية : فأنيطت بهم دون غيرهم اعمال الادارة والقضاء والشؤون المالية . لهم القصور ؛ ولهم التعليم . ولما كانت يدا الشريف الفلمنكي غير جاستين وأظافره غير « زرقاء » ، فانه « يشرب النبيذ كل يوم » ؛ يمتطي الحصان ويستسمي نفسه « السيد » ؛ يدفن في الكنيسة . صناعي غنت يدعوه « عاطلاً » . وخلال فترة طويلة ، اقام تضامن النسب حول الشريف حاجز دفاع اعتبره منيعاً .

ليس مجرد اتفاق من ثم اذا انفجرت النقمة الاجتماعية في اوساط صناعة الجوخ بنوع خاص ، وهي منذ القديم طليعة الحركة الادبية والاجتماعية . وقد سبق لبيير فالدو وفرنسيس الاسيزي والمتواضعين والروحيين ان وجدوا في اوساطهم صدى تقريظهم للفقر والتواضع . ويرد هذا الواقع الى ان تعدد عمليات صناعة الجوخ والفرق في الاجور قد احلا الصناعيين ، ولا سيا الحلاجين والقصارين ، في وضع متدن ابرز منه في اية مهنة اخرى . ولكن يجب الا يخدعنا هذا الواقع : اذ ان المهنيين غالباً ما انقسموا وتعادوا في مصالحهم ؛ ولذلك فان الانظمة المفيدة التي توصلوا الى تحقيقها منذ اواخر القرن الثالث عشر قد خدمت تنافسهم ووقوفهم في وجه الاشراف على السواء .

افتقر الشعب الى العلم والتلاحم ، ولم يكن من ثم قادراً الا على القيام باضطرابات لا طائل تحتها ، لو لم يجد قادة يجسدون شواعره ويعربون عن رغائبه . فنقم تارة على الاشراف بسبب الاجور والادارة البلدية ، كما حدث ذلك في هولندا طيلة القرن الرابع عشر، وفي ستراسبورغ في السنة ١٣٣٢، وفي متز في السنة ١٣٤٦، وفي سينا في السنة ١٣٥٥، وفي فلورنسا في السنة ١٣٧٨، وفي برشلونة في عهد لاحق ؛ وهاجم تارة اخرى رجال المال ، اليهود في المانيا زمن الطاعون

الكبير ، والاجانب في انكلترا : فبين السنة ١٣٦٠ والسنة ١٤٦٠ ، عرفت المملكة الانكليزية سلسلة من الحركات المعادية للاجانب استهدفت ، في لندن وسوثمبتون ، الفلمنكيين اولاً ، ثم تجار المدن الهانسية والايطاليين بنوع خاص . وغالباً ما استهدفت الثورة الشعبية مأموري الجباية والسلطات العامة والسلطة الملكية ايضاً : وهذا ما حدث بمناسبة النقود في باريس (١٣١٣) ؛ وبمناسبة الضرائب في باريس ايضاً (١٣٥٨ و ١٣٨٠) . ولم يخضع مثيرو الشغب لمذهب عقائدي؛ . بل لنزعات الى مساواة غير واضحة المعالم ، ما لم يتول امر التمرد احد الطماعين او الفوضويين او العقائديين سعياً وراء بلوغ هدف شخصي او تحقيق نزعات بيئتهم .

اذا ما استثنينا « بيير دي كوننك » في الفلاندر (١٣٠١) و « كولادي رينز » في رومـا و « ميشال دي لاندو » ، العامل الحلاج ، في فلورنسا ، لم ينتم خطيب شعبي قط الى عامـة الشعب ، بل الى طبقة الاشراف او الى اسمى المهن مقامـاً ، كالجواخين في القرن الرابع عشر والجزارين في القرن الخامس عشر ؛ وكلنا يعلم العـلائق التي قامت بين سيلفستر دي مديشي وميشال دي لاندو . وقد استفاد الليبجيون ابداً من عون البورجوازيين الاثرياء على اساقفتهم او على آل « داتين » ، ارباب المصاهر الاولى في البلاد . وهو مارينو فاليارو ، احـد عظام الاشراف ايضاً ، من نقل المعركة الاجتماعية الى البندقية حين ركدت الاضطرابات الشعبية ؛ وفي اوساط الاشراف ايضاً بحثت جنوى عن قادة احزابها . وكما في هولندا ، كذلك في بال وماينس وكولونيا ، تحالف الاشراف الستراسبورغيون مع ارباب المصانع لانتزاع السلطة من النبلاء ، ثم مع النبلاء لانتزاعها من ارباب المصـانع . وفي متز ، وفر الاشراف ، المنقسمون على انفسهم ، القادة لعمال المصانع ايضاً . وما كان ارباب المهن ، لولا هذه المحالفات ، ليستطيعوا الاشتراك في الحكومات المدنية .

الاضطرابات الريفية

اتسمت الاضطرابات الريفيـة بمزيد من العنف ، ولكنها كانت دون الاضطرابات المدنية تلاحماً ونجاحاً . وهي انفجارات بؤس وغضب اكثر منها نتيجة تصميم واضح الاهداف . فان ثورة الفلاندر البحرية قد استهدفت النظـام الاجتماعي برمته ؛ وثورة فلاحي « ايل دي فرانس » لم تستهدف بلوغ غاية معينة؛ وانصار « وات تيلر »، بعد الاستيلاء على لندن ، قد تفرقوا حالما قطع لهم ريشارد الثاني عهده الاول ؛ ولم يكن لثوار اللنغدوك « التوشين » لا برنامج ولا قيادة ؛ وثورة جاك كاد في مقاطعـة « كنت » ، لم تسفر عن اية نتيجة على الرغم من الاستياء الشامل . واذا احرز ثوار كاتالونيـا ، في الوقت نفسه ، مزيداً من النجاح ، فمرد ذلك الى ان مثلهم الاعلى في التحرر الزراعي قد وجد وحـدته في مساندة البورجوازيين الكاتالونيين .

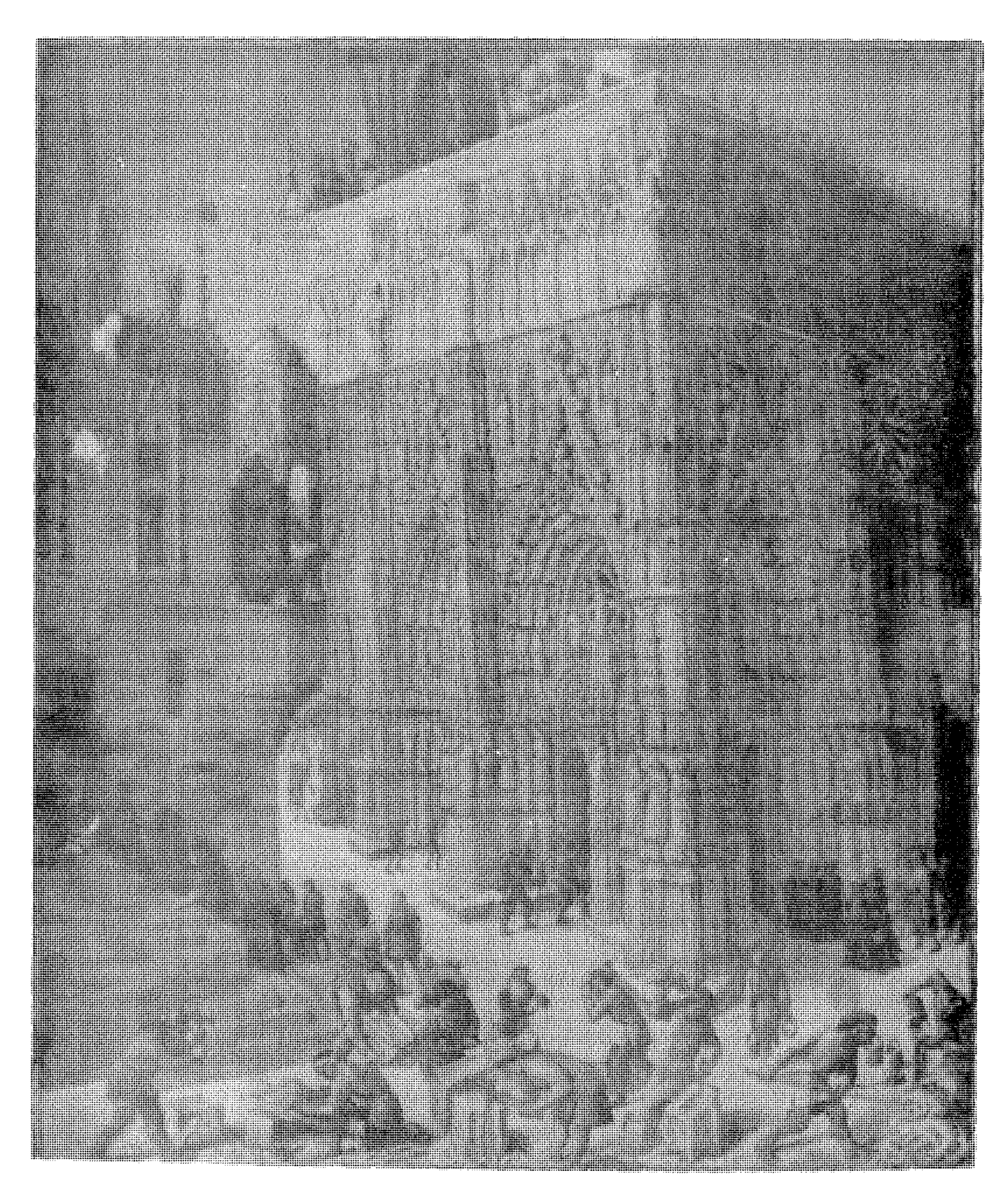
ان هذا الصراع المزدوج في سبيل تحرر الفلاحين ، ولا سيما في سبيل توصل اهل المهن الى منافع ومسؤوليات الثروة البورجوازية ، قد افضى في النهاية الى فشل مزدوج . ففي مرحلته

الاولى ، اي حتى السنة ١٣٨٠ تقريباً ، عرف الفلاحون واهل المهن ، هنا وهناك ، نجاحات عابرة . وقد حدث لهم ايضاً ، بتأثير من صعوبة الايام ، وبحافز من بؤسهم في الارجح ، ان شعروا بواقع التفسخ الاجتماعي وصمموا على اكمال التحسينات التي حققوها بالنسبة لمصيرهم . وكان اول من نهض بالحركة المدن الفلمنكية ، وهي اعظم تطوراً من المدن الاخرى ، وليياج المشهورة بنضاليتها. اجل كانت الاعترافات بالمهن كمؤسسات قد حدث من دور النسب والدم . وهي هذه الاعترافات نفسها التي ساعدت حينذاك ، على الرغم من مقاومة دائمة – عداء سلطة الكونتية في الفلاندر الذي سانده تاج فرنسا – على تجديد وتثبيت انتصار المهن : في غنت ، في السنة ١٣٦٠ ، بعد منافسة عنيفة دامت ١٥ سنة بين القصارين والحاكة ؛ وفي لياج حيث كانت الغلبة للمهن في السنة ١٣٨٤ . وحدث الشيء نفسه في العالم الزراعي حيث تحققت ، على الرغم من المثل الذي اعطته الفلاندر مرة اخرى ، النجاحات المحرزة بعيد الطاعون التي جعلت الفلاحين ينظرون بفارغ الصبر الى الانعتاق من تبعية تحرروا منها جزئياً . وان مـــا طالبوا به ريشارد الثاني ، في سهل ميل اند ، في السنة ١٣٨١ ، هو زوال ما بقي من الارتفاقات الاقطاعيـــة القديمة .

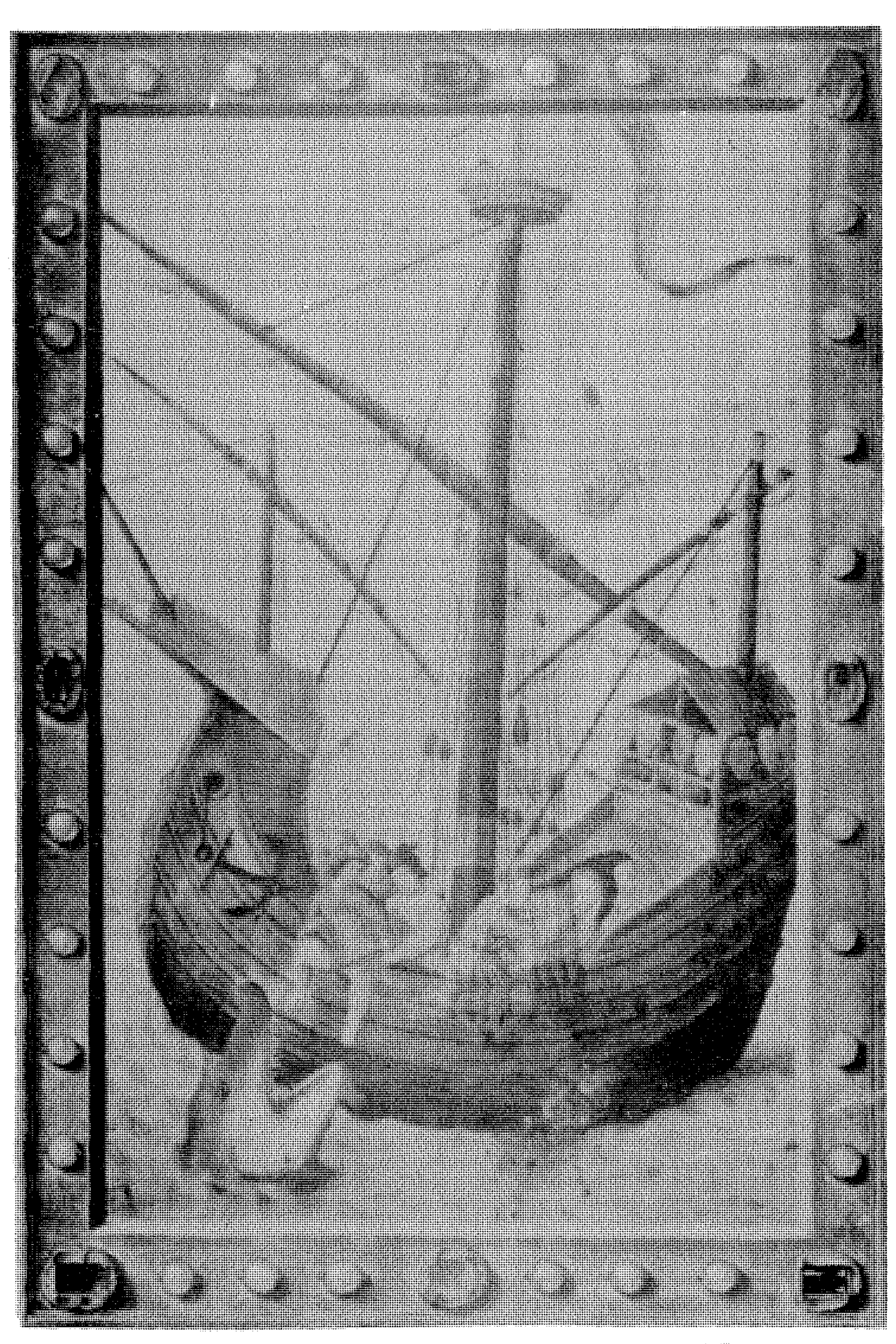
ان الاضطرابات التي انفجرت في آن واحد ، حوالي السنة ١٣٨٠ ، وان على غير ترابط ، في انكلترا وهولندا ومدن فرنسا والمانيا الغربية وفي ارياف اللنغدوك وفي برشلونة وفلورنسة، كانت في الارجح بادرة ازمة بلغت آنذاك ذروتها . اختلفت في اهدافهـــا ، كما اختلفت في وسائلها ايضاً : فهنا فتن مدنية ، وهناك ثورات شاملة على نطاق اقليمي ؛ وتحولات في الفلاندر الى حرب اقطاعية ودولية . ولكن معناها الحقيقي اجتماعي في الدرجة الاولى : وهكذا فقد توقفت كلها الى تجنب ويلاتها بالتخفيف وقتياً من طابع الذل ، الذي اتسم به النظام البلدي ، لمصلحة عامة الشعب .

الا ان المهن ، التي توصلت الى السلطة حين اخذت قوة المدن بالتقهقر ، قـــد عجزت عن تحسين وضعها الاقتصادي تحسيناً محسوساً . زد على ذلك ان طبقة جديدة من الاشراف قـــد قامت على انقاض الطبقة القديمة . ولم يجد احد من دواء للتغلب على الصعوبات المادية المتعاظمة سوى تصلب الانظمة التعاونية واقفال ابواب المهن في وجه طلاب العمل ، وبالاختصار جمود الاوضاع الاجتماعية . فغدت المنازعات والمنافسات مادة يذخية وجب الاحتياط لها بالالتجاء الى حام وحكم يكون ملكاً او اميراً. فكانت القوة السياسية وحدها في النهايـــة من استفاد من العملية .

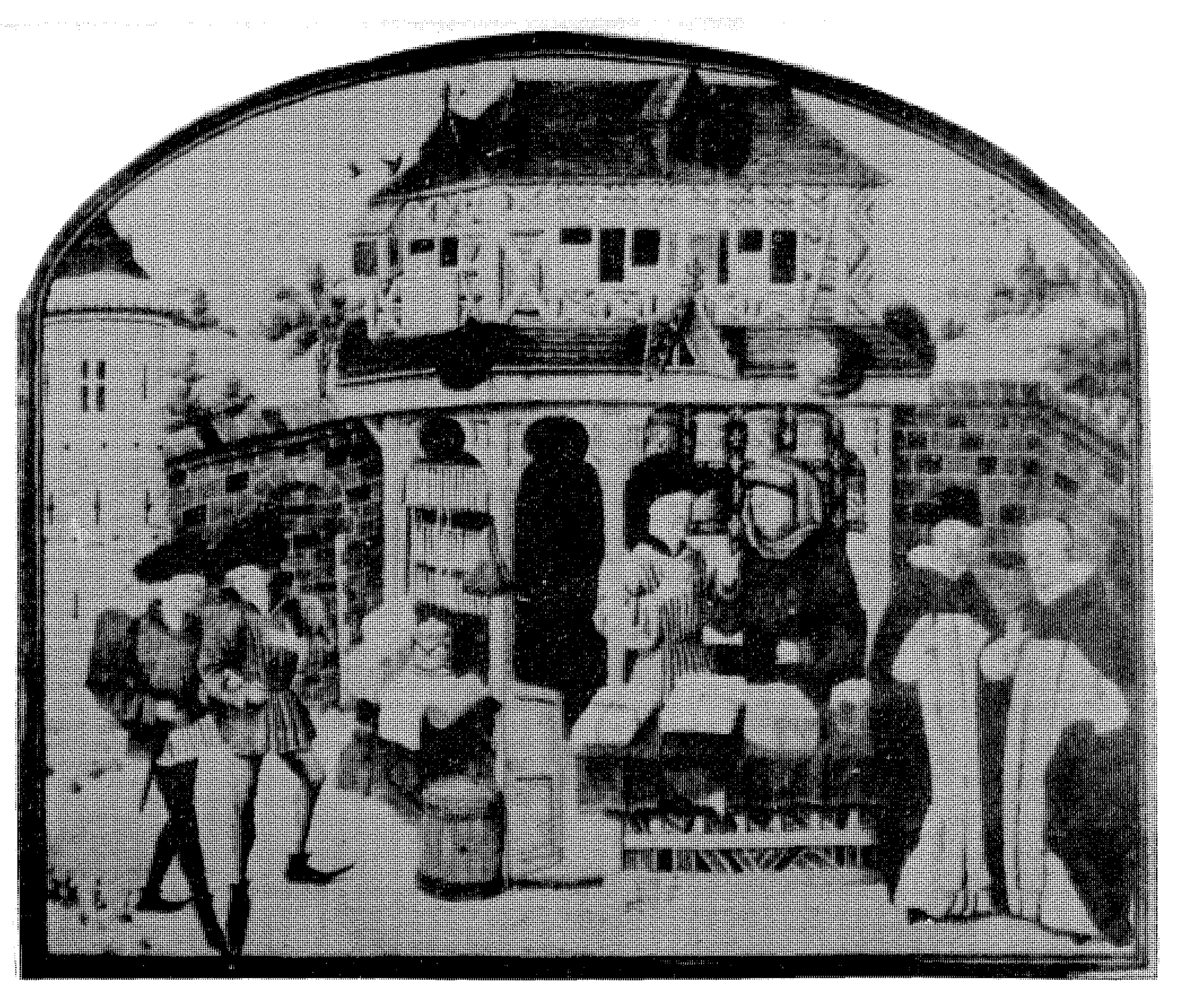
اللوحة ٣٣ – مباراة عسكرية



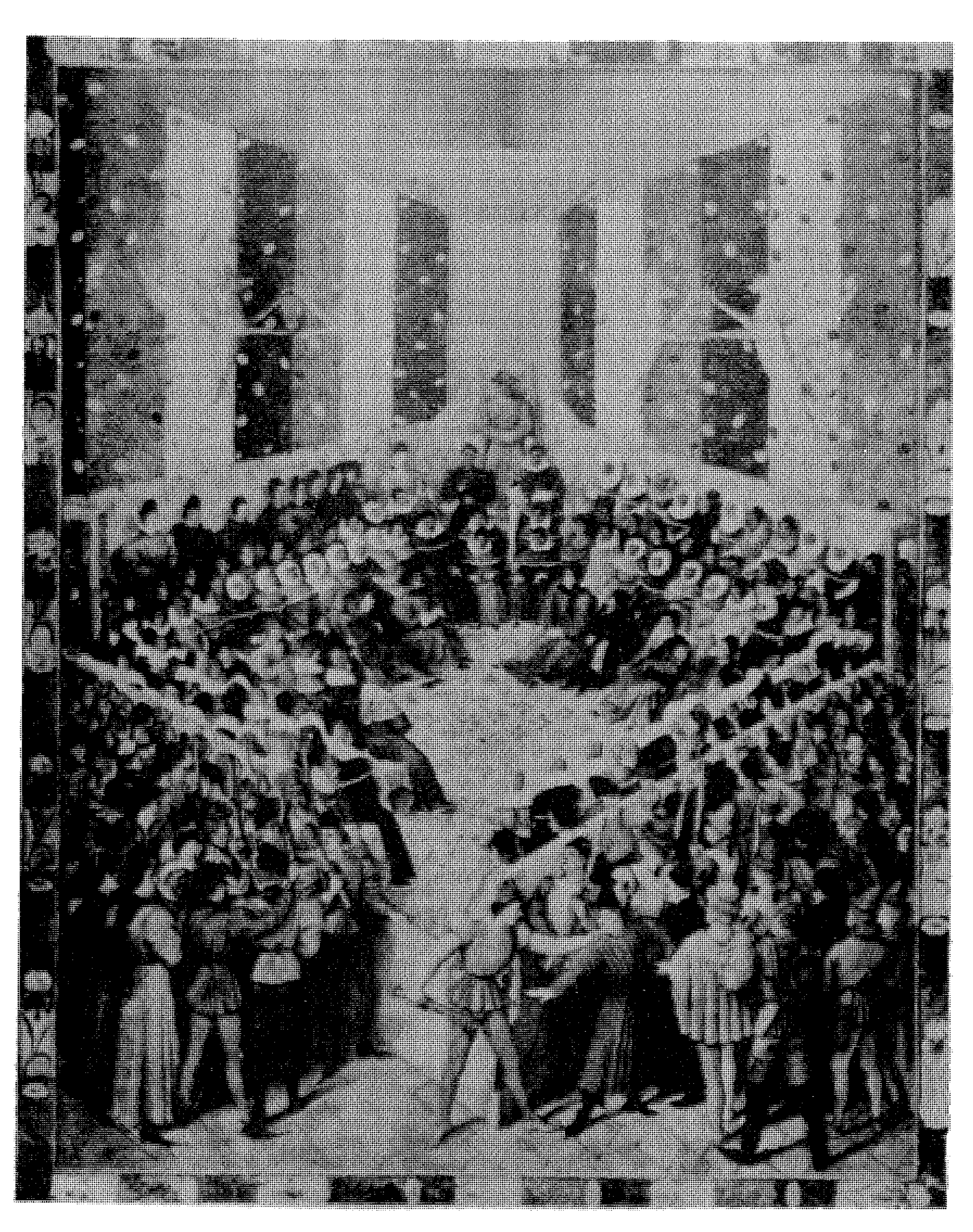
اللوحة ٣٤ – تشييد كاتدرائية (كاتدرائية بورج) .



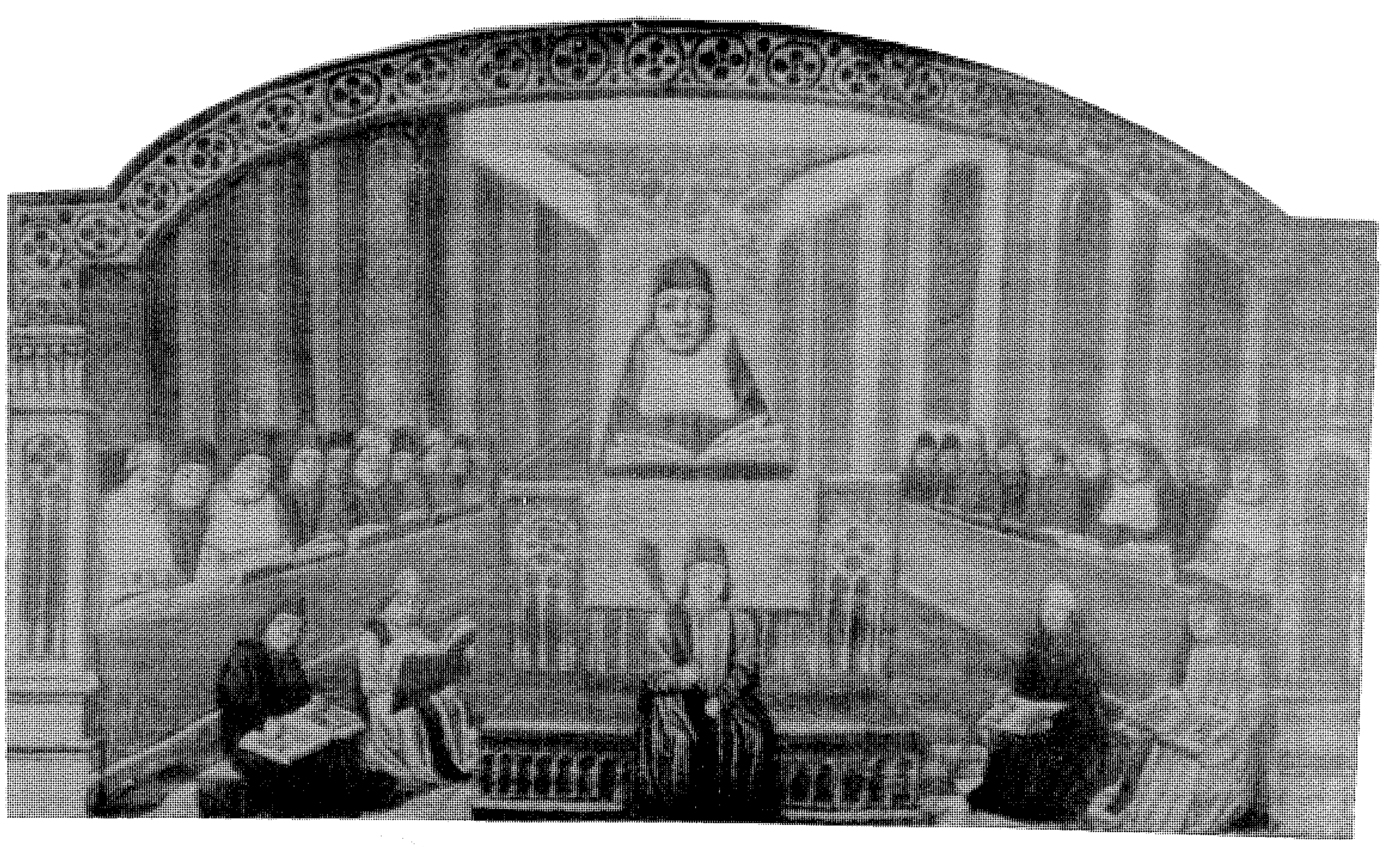
اللوحة ٣٥ – سفينة (يونان يبتلعه الحوت) .



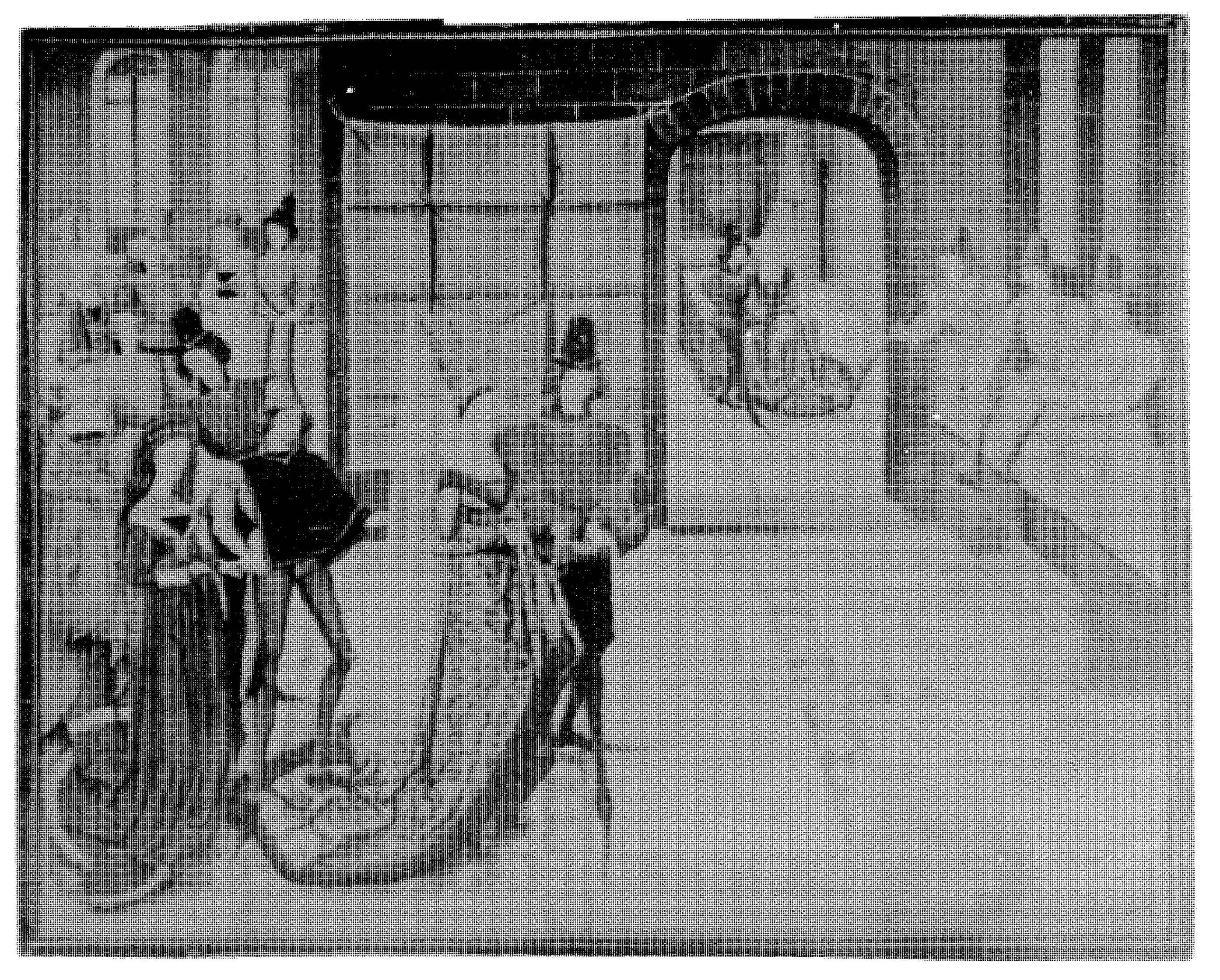
اللوحة ٣٦ - تجار وزن



اللوحة ٣٧ – دعوى دوق آلانسون



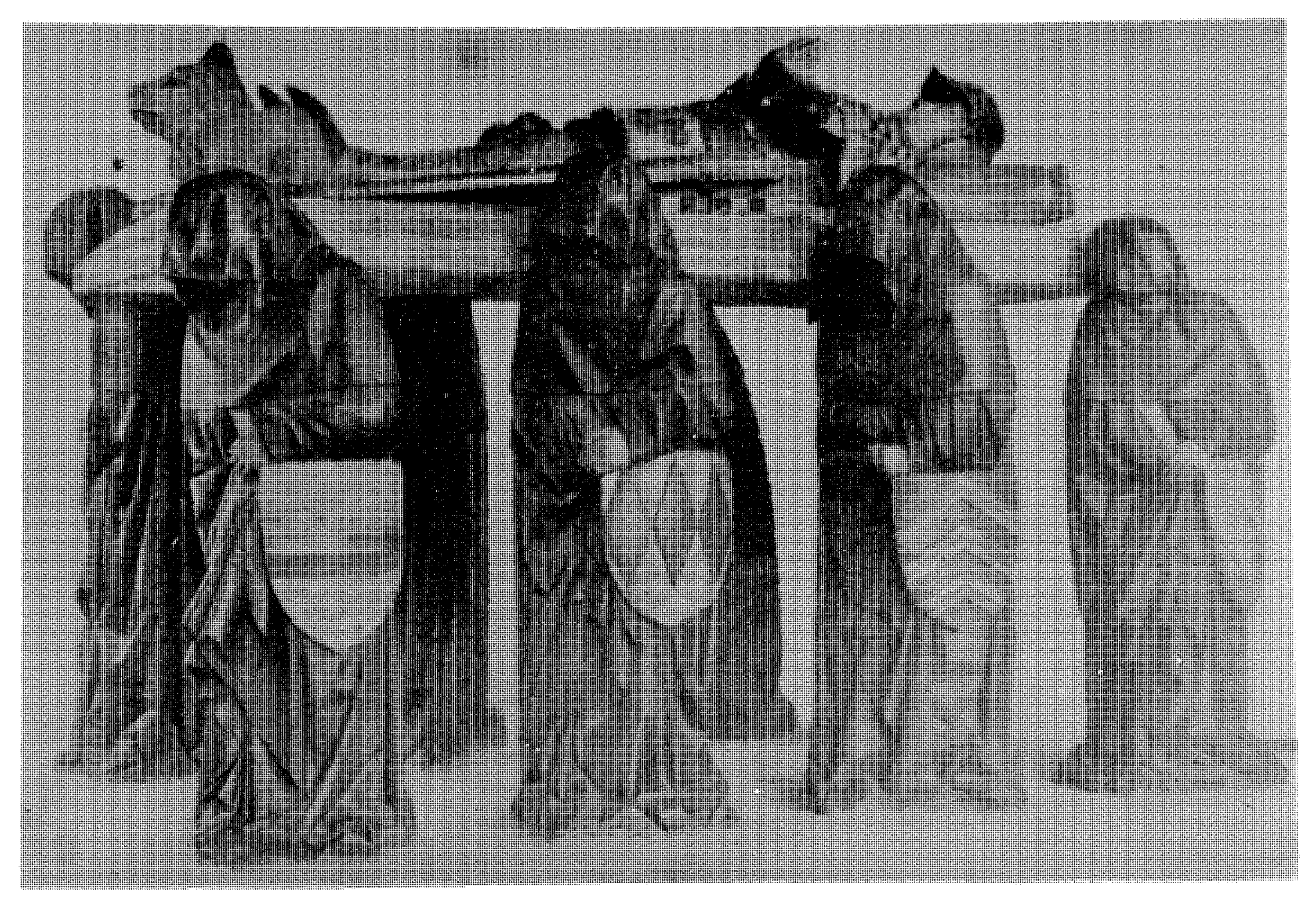
اللوحة ٣٨ — درس لاهوت في السوربون .



اللوحة ٣٩ – مشهد عرس (زواج رينو دي دوردون من كلاريس الغاسكونية) يزين مخطوطة



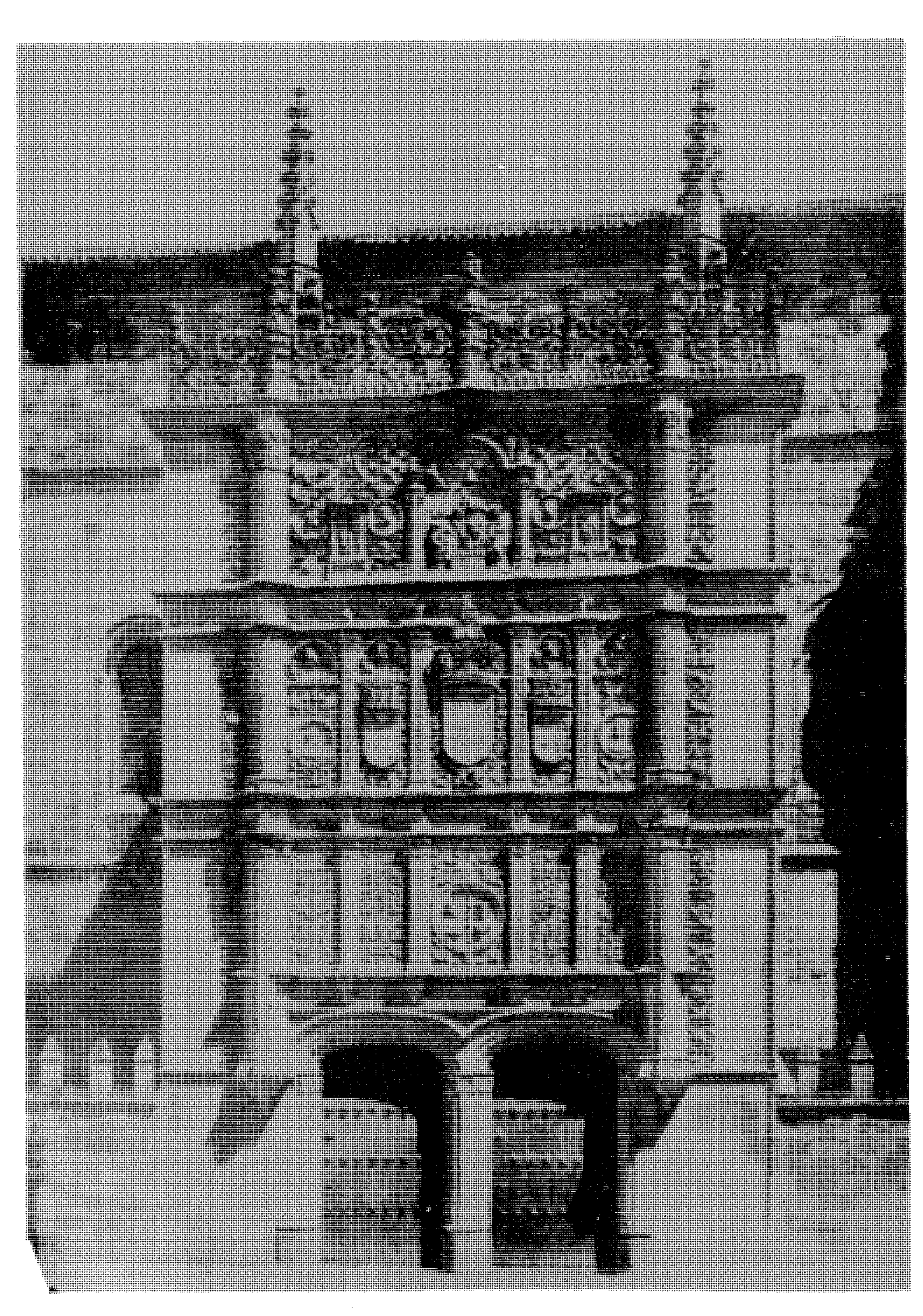
اللوحة ٤٠ – القصر القديم في فلورنسا (القرن الرابع عشر) .



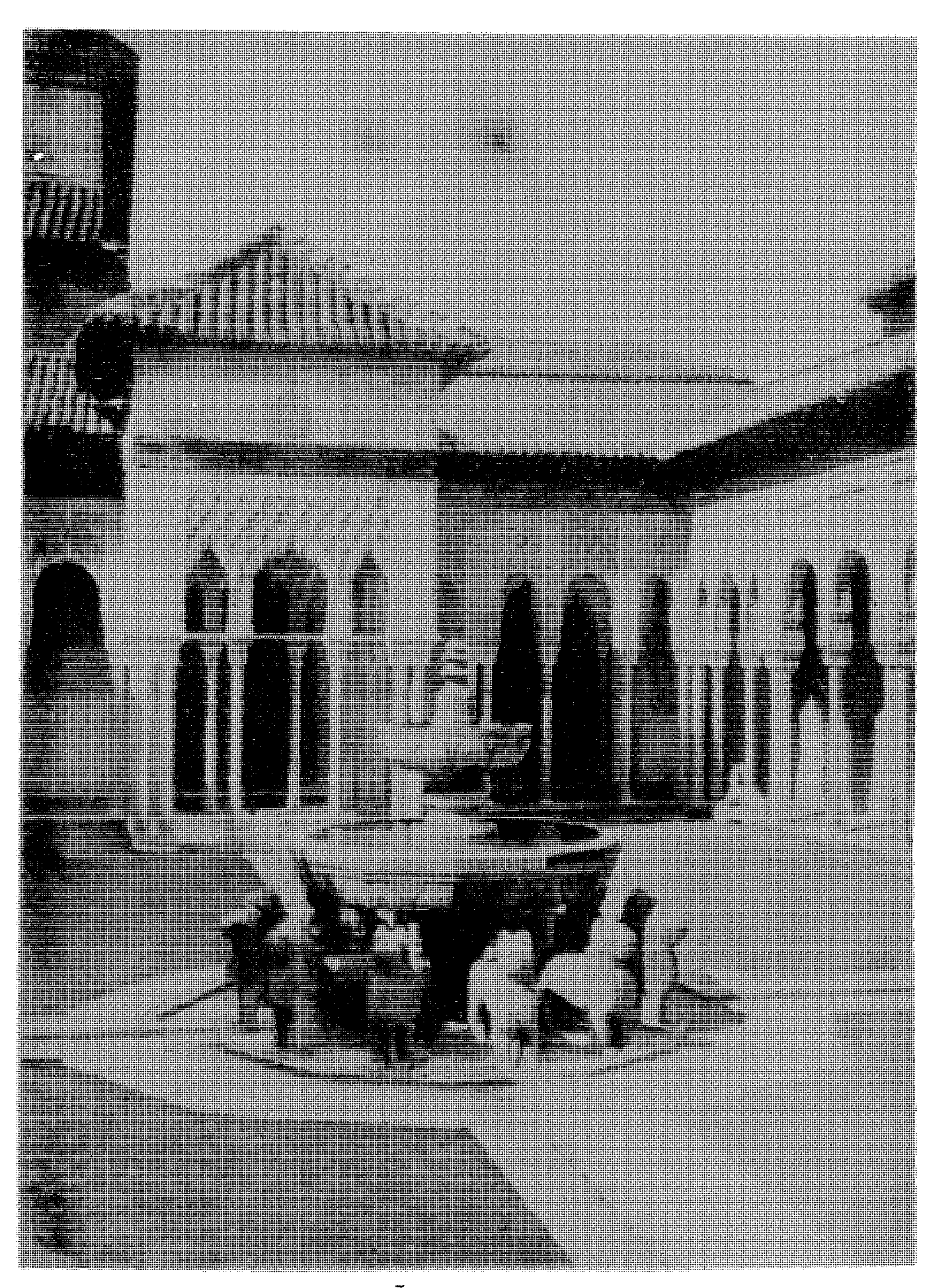
اللوحة ٤١ – ضريح فيليب بوت وزير العدالة في بورغونيا (القرن الخامس عشر) .



اللوحة ٤٢ – قصر رؤساء الجمهورية في البندقية . (القرن الخامس عشر) .



اللوحة ٤٣ – الباب الضخم لجامعة سلمنكا (اسبانيا) ، أوائل القرن السادس عشر .



اللوحة ٤٤ – الحمراء في غرناطة (اسبانيا)



اللوحة ٤٥ – ابو زيد والحارث يزوران مزرعة



اللوحة ٤٦ – الأمير هماي والأميرة همايون في حدائق امبراطور الصين

اللوحة ٤٧ — القبة والبرج في فلورنسا .



اللوحة ٤٨ — مطبعة

الفصل الثالث

فقدان التوازن السياسي في أوروبا

لقد شدّد التاريخ التقليدي على بعض الخطوط الكبرى للمنازعات السياسية التي أقامت بعض دول الغرب على بعضها الآخر او افقدتها توازنها الداخلي : فكأن القرن الرابع عشر ، بحسب هذا التاريخ ، قد شاهد في كل مكان زوال العالم الاقطاعي ، بينما كانت الملكيات تتلمس طريقها مترددة وتكد في امتحانها العسير لابتداع الانظمة والمؤسسات التي ستفضي الى الدولة العصرية الا ان هذا التبسيط غير مقبول اذا رأينا فيه صراعاً واعياً ودائماً بين مبدأين متناقضين ، احدهما ملك الماضي – الاقطاع – والثاني ملك المستقبل – الملكية . فان تحول الانظمة الاجتماعية كان بطيئاً وناقصاً ولم يشعر به المعاصرون ؛ وقد اكتفي زمناً طويلا بالاطارات القديمة التي لم تطابق مقتضيات الحياة الجديدة كل المطابقة ؛ واذا ما زالت الدولة الناهضة تبحث عن مبادئها ودعائمها ووسائل عملها ، فلم تجد في النهاية مرتكزها وسلطتها الا في عياء الشعوب التائقة الى السلام . ولعل ابرز دليل على فقدان التوازن هذا ، الذي تفاقم بفعل مصاعب الحياة المادية ، هو تعدد الازمات السلالية التي افسح لها التاريخ محلا مختاراً والتي تحدّد مراحل حياة الامم كما تزيد في عنف اهوائها السياسية .

مغزى المعاضل السلالية

علينا مع ذلك تجنب البحث بأي ثمن عن التوافق بين المنازعات السلالية ووقائع النظام الاجتماعي . فاوروبا مختلفة الاجزاء ؛ ومختلفة من ثم اسباب نزاعاتها . بيد اننا نستطيع البحث عن بعض العلائق في ردود الفعل المتعاقبة التي عينت ، في فرنسا ، ثم في انكلترا والممالك الاسبانية ، المراحل الرئيسية لحرب المئة سنة . كان النزاع الفرنسي الانكليزي العظيم سلاليا في ما تذرع به من اسباب وفي مرتكزه القانوني ، ولم يتماد في الزمن الا بعد ثبوت استحالة حل الروابط التي اخضع لها العالم الاقطاعي تعايش امتين وقفت احداهما الآن في وجه الاخرى وانتهت الى مساندة الملكيات بعد ان وعتا شيئاً فشيئاً انهما امتان . وما كانت مبادهة البارونات الفرنسيين ، الذين نزعوا عن البنات ، في السنة ١٣١٦ والسنة ١٣٢٤ ، الحق في وراثة العرش ، ثم آثروا ، في السنة ١٣٢٨ ، فيليب دي فالوا ، الامير « المولود في المملكة » ، على « ادوار الثالث » الشاب ، مع انه كان حفيداً ، لجهة امه ايزابيل ،

للملك « فيليب لوبيل » ، واقرب وريث ذكر للتاج ، لتؤدي وحدهـــا الى نشوب النزاع . وما كانت مغامرات ادوارد الثالث ، على مانعتقد ، لتعرف نجاحاً راهناً ، لو لم تقدم لها ، في داخل مملكة فرنسا ، بعض فئات اقطاعية عيـــل صبرها من سلطة ملكية اساءت التصرف احياناً – بعض النبلاء النورمنديين وبعض ذوي الاخاذات البريطانيين ، و « الحزب النافاري » الذي ساند سلالة افرو ، والنبلاء الغسكونيون النشاط المتقلبون – مساندة اسلحتها ونجدتها : ففي بواتيه مثلا (١٣٥٦) ، تقرر مصير المعركة عسكرياً على يد رؤساء الزمر الغسكونيين. اضف الى ذلك ان اختبار قيام امارة اكيتينية واسعة ، منفصلة تماماً عن مملكة فرنسا وخاضعة مباشرة للتاج الانكليزي ، لم يدم عشر سنوات . فان شارل الخامس قد تذرع ، بدوره ، بمعارضة النبلاء الغسكونيين لنقض الاتفاق واستند اليها لاستعادة سيطرته على الامارة كلها تقريبـــاً . ثم حين تجدّد النزاع بدافع من سلالة لنكستر ، في مستهل القرن الخامس عشر ، وحين ضربت معاهدة « طروا » عرض الحائط بمقررات السنة ١٣٢٨ وجعلت هنري الخامس ، في السنة ١٤٢٠ ، يتوقع صيرورة التاج اليه دونما التفات الى حقوق ولي العهد شارل ، لم يبد هذا الحـــل للنزاع السلالي مقبولاً ممن انضموا اليه الا لان تمادي شغور السلطة الملكية وحدّة الحرب الاهلية قد جعـــلاهم يأملون في اعادة النظام على يد ملك حازم عادل بلغ سن الرشد. ولكن هذه المحاولة قد اخفقت بدورها ايضاً : اذ ان هنري الخامس واخاه « بدفورد » اللذين اضطرا لمواصلة الحرب ضـد ولي العهد ، ونظرا اليه نظرهما الى رئيس حزب ، قد عجزا عن اعادة النظام الى نصابه في بلاد عمها الخراب . وهو ولي العهد ، الذي امسى شارل السابع ، من استفاد في النهاية من ابتغاءات السلام والوحدة التي عبّرت عن واقع قومي .

اما الثورات الانكليزية التي تصادمت فيها قوى اجتماعية مختلفة بعض الاختـــلاف ، فانها تنطوي مع ذلك على اوجه تشابه اكيدة مع الاضطرابات الفرنسية . فـان الانقلاب الذي خلع به ادوارد الثالث ، في سن الثامنة عشرة ، نير وصاية امه عليه وقتل عشيقها مورتيمر (١٣٣٠) ، قد استند في الارجح الى بارونات معادين لكل عشيق ولتعسف اداري ربمـــا رغبوا في مقاسمته فوائده ؛ ولكنه عكس كذلك ردّ الفعل القومي على التخليات المسلم بها في سكوتلندا وأكيتين وفرنسا ، وكلها املاك واسعة سيوجه الملك الشاب اليها النشاط العسكري الذي تميز به هؤلاء النبلاء الوثابون . وهي هزائم الحرب الاولى ، التي عقبتها مرحلة طويلة الامد من الهدن ، ما سمح لهؤلاء النبلاء انفسهم ، بعد مرور اربعين سنة ، بالانشغال مرّة اخرى بصراع الاحزاب انشغالا جعلهم يسلمون ، في السنة ١٣٩٩ ، باغتصاب هنري دي لنكستر ، وهو ملك دون حق وراثي ولكنه رمز البارونات الثائرين على « استبداد » ريشارد الثاني الذي اخذوا عليه ، بالاضافة الى ذلك ، تسليم برست وشربورغ الى الفرنسيين والسعي لانهاء النزاع الطويل العهـــد والتزوج مرة ثانية من ايزابيل دي فرانس . ولكن السلالة قد فقدت كل نفوذ وسلطة بعد زوال ولاية هنري الخامس القصيرة ، فاتيح للاحزاب ان تتمادى في عنفها وتتمادى في سخطها ، ولا من حافز يحركها سوى

طموح رؤسائها – ريشارد دي يورك وابنه ادوارد – ومن ملاط يجمعها سوى التضـامن بين العائلات وتكتل الزبن الاتباع . اما حرب الورود ، وقد كانت اضطراباً سطحياً، فقد تذرعت باعذار سلالية : زواج هنري الرابع من فرنسية ، وتأخر ولادة وريثه ، وبلادة الملك،والخشية من وصول سـلالة « بوفور النغيلة » الى العرش . وسيان عند « صانعي الملوك» آنذاك كان مرشحهم فارساً لامعـاً او مجنوناً حقيراً . اما الطبقات الاجتماعية الاخرى ، من بورجوازيين ودعاء ، وفلاحين وجلين ، وملاكين ريفيين حكماء ، فما كانت لتنتظر سوى قيام سلطة حقيقية ونهاية الاضطرابات ، على غرار ما انتظرته مثيلاتها في فرنسا قبل زمن قصير .

ان الابناء الثائرين وابناء الزنى المغتصبين والاشقياء الاعـداد ملأوا تاريخ الممالك الايبرية آنذاك باحقادهم واحسادهم وجرائمهم .ومرد ذلك الى الخلافات بين الاحزاب في بعض الحالات ؛ والى انتفاضة قومية ضد سلالة اجنبية ، في حالات اخرى ؛ وفي غالب الاحيان ، كما جرى في بريطانيـا وفي فرنسا نفسها ، الى تأثير النزاع الفرنسي – الانكليزي الكبير . فان البراز بين « بيير الطاغية » وبين اخيه من ابيه « هنري دي ترنستمار » ، الذي فصل فيه لمصلحة الثاني عن طريق مأساة « مونتيال » (١٣٦٩) ، قد اثبت ان على قشتالة ان تبقى حليفة فرنسا ؛ واذا ساعد بورجوازيو ليشبونا ، تساندهم كافة الطبقات الشعبية وطبقة صغـار النبلاء ، على تغلب « جان دافيز » ، الامير النغل، على المطالب القشتالي بالعرش (١٣٨٥) ، فقـد بدا هذا النصر لانكلترا وكأنه وسيلة لضمان حليف جديد في شبه الجزيرة . اما اراغون ، فعـلى الرغم من مرورها في مرحلة توسع مزدهرة ، لم تخل من الاضطرابات السلالية ؛ كما ان « نافار » الصغرى قد عرفت مثل هذه الاضطرابات بعد انقراض سلالة « افرو » (١٤٢٥) . وقد ارتدت تسوية « كاسب » (١٤١٢) ، التي اعطت اراغون لفرديناند قشتالة ، ثم زواج ابن هـذا الاخير ، جان الثاني ، من « بلانش دي نافار » ، طابع الهشاشة نفسه الذي تتميز به التسويات السلالية. فقد جاء الواقع يناقضها : لان صهر اراغون وقشتالة ونافار في دولة واحـدة كان سابقاً لاوانه . ولكن ما يلفت الانتباه ، في هذه المآسي ، حدث مميز هو موقف كاتالونيا من جان الثاني ما بين السنة ١٤٦٠ والسنة ١٤٧٢ : فان المطالبين بالعرش الذين استدعتهم ، سواء انتسبوا الى اراغون او انجو او البرتغال ، كانوا انصار صوالح ومشاعر السكان الكاتالونيين الثـائرين لانتزاع استقلالهم ، قبل ان يكونوا انصار قضية سلالية .

ممالك الشمال والشرق

بين الدانوب والبحار السكندينافية ، لم تخـل مملكة واحدة من الاضطرابات السلالية التي ارتسمت من خلالها احياناً مداخلات شعبية قليلة الاهمية . لقد سيطرت الفوضى الشاملة ، في اوائل القرن الرابع عشر،على البلدان الشمالية. فبينما اخضعت نروج واسوج بوحشية ، في اعقـاب جريمة قتل مرعب ، لسيادة ملك فرد ، انحدرت الدانمرك ، في عهد خريستوف الثاني وفلدمار الثالث ، الى احط عهود تاريخها : وقد ردّد احد الكهنة الدانمركيين مراراً آنذاك : « ايه داسيا الحزينة » ؛ وقد انتهى ملك فلدمار

الرابع المصلح نفسه (١٣٤٠ – ١٣٧٥) ، بسقوط كوبنهاغن على ايدي جيوش المدن الهانسية وبصلح « سترالسوند » (١٣٧٠) المذل . وعلى الرغم من ذلك ، فان زواج ابنته الوحيدة « مرغريت » من هاكون النروجي ، وهزيمة مغتصب تاج اسوج المكلمبورغي (١٣٨٩) ، قد افضيا الى اتحاد الممالك الثلاث الذي وطدته جمعية « كلمار » وتتويج اريك (١٣٩٧) . ولكن هذا الاتحاد قد زال ، بعد انقضاء اربعين سنة ، باقالة اريك نفسه . فاتخذت الروح الحزبية في اسوج آنذاك شكلا قومياً وقدمت لها المنازعات السلالية غذاء حسياً .

يصعب علينا ان نكتشف معنى ابعد عمقاً للتسويات التي قام بها ملوك اوروبا الوسطى ، ولاسيما « لويس الاكبر » ملك هنغاريا الانجوي الاصل ، الذي افضت محالفاته الزواجية مع آل هبسبورغ وآل لوكسمبورغ « والبياست » الاخير في بولونيا ، عن طريق مجموعة من الوراثات ، الى ايجاد اتحاد مؤقت بين المقاطعات القائمة بين سهل الدانوب والفستول الاسفل . ثم تجددت المحاولة ، وتحققت جزئياً ، في القرن التالي ، على يد سلالة جاجلون البولونية الليتوانية . ولكن زواج وريثة عرش هنغاريا من سيجيسموندي لوكسمبورغ ، في هذه الاثناء ، قد اجاز التفكير باطماع مماثلة لسلالة بوهيميا . فلا ريب ان هذه الاخيرة ، التي كان مؤسسها الحقيقي « شارل الرابع دي لوكسمبورغ » ، قد وعت كل الوعي دورها في اوروبا الوسطى . واذا ما حدث لهذا الملك ان ضحى بمصالح الامبراطورية لبوهيميا واهمل التقاليد الامبراطورية في ايطاليا وجعل من براغ عاصمة ومركزاً لجامعة جرمانية – سلافية ، فربما فعل ما فعل لانه نظر الى ابعد من حدود الامبراطورية : وقد اظهرت قصور خلفائه وثورة بوهيميا الدينية تداعي مشاريع واهية في الارجح .

ايطاليا

وفي نطاق اضيق الى حدّ بعيد ، تتميز ايطاليا بتعقيدات اكثر تشابكاً ايضاً لا يسعنا ان نستخلص منها سوى بعض الخطوط البسيطة . ففي الجنوب لا توجز مآسي جانّ الاولى دي نابولي البيتية اضطرابات مملكة نابولي ، التي سبق وانتزعت منها صقليا ، والتي تتشابك فيها اطماع بلقانية عادمة السياق يجشع جموح نبلاء نصف نابوليين ونصف بروفنسيين . اضف الى ذلك ان التنافس الشديد بين سلالتي انجو واراغون ، وانتصار هذه الاخيرة في السنة ١٤٣٥ ، لم يكونا مجرد منازعات بين الاشخاص او السلالات ؛ فبالنسبة لتاج اراغون ، بصورة خاصة ، كان امتلاك شبه الجزيرة الايطالية تلبية لسيطرة بحرية حقيقية تؤلف التجارة الكاتالونية مرتكزها الاقوى ؛ وان في اقامة جيوش اراغونية في كورسكا الجنوبية ، وسلب مرسيليا (١٤٢٢) اقتصاصاً من هذا المرفأ الكبير لانضمامه الى الانجويين ، لدليلاً على وحدة نادرة آنذاك في اوروبا بين الاطماع السياسية والمصالح التجارية .

وكانت ايطاليا الشمالية والوسطى اشد تعقيداً ايضاً ؛ فقد تعاقبت فيها ، على غير ظاهر منطقي ، المنافسات بين العائلات وبين الاحزاب ، والحروب والاغتيالات . بيد اننا ندرك

المصير الجلي الذي استدفته الجمهورية البندقية ، تلك الدلة الاوليغارشية المركزية التي استعاضت عن خسائرها في رومانيا على ايدي الاتراك بمواقع انكفاءعلىشواطىء الادرياتيكيوعلى اليابسة : فان حرب فراري (١٣٠٨ - ١٣١٣) كانت الدليل الاول على سياسة اقليمية ستتوسع توسعاً مطرداً في الاجيال اللاحقة . الا ان فلورنسا ، في مستهل القرن الخامس عشر ، قد اروت غليل احقادها على بيزا ، وغدت من ثم الدولة الوحيدة الهامة في توسكانا، فوطدت ثروتها . وهكذا فان اطماع سياسة الدوجية والسيادة قد جعلت للمدينة التجارية ابعاد دولة اقليمية ، بينما اعدت اطماع المستبدين الجامحة ، في لومبارديا ورومانيا ، حصراً مماثلا للسلطات . فأخذ عهد الامراء شيئاً فشيئاً يخلف عهد التكتلات البلدية . ولنا عن الأولين مثل كلاسيكي فيميلانو ايام آل فسكونتي ، ولكنه مثل فقط ؛ فقد واصل « جيانغا لياتزو » (١٣٧٨ - ١٤٠٢) عمل « ماتيو » و « برنابو » واستطاع ان يترك لابنائه السيطرة على قرابة نصف ايطاليا الشمالية ، بين الالب والابنين ، بالاضافة الى اللقب الدوقي؛ اما الوسائل التي امنت له ذلك فهي المصاهرات والمشتريات والوراثات التي تركت له او استولى عليها بالحيلة ، والسجن ، والاغتيال ، ودس السم ؛ ويبلغ من رسوخ ومتانة هذه التقاليد الميلانية ان آل سفورزا ، في منتصف القرن الخامس عشر ، قد ساروا على خطى اسلافهم آل فسكونتي . اما مصير جنوى فكان اشد اضطراباً بفعل شدة ما نالها من ظهور العثمانيين المفاجىء ، في المضائق وبحر ايجه ، وانقسام احزابها وطمع الميلانيين بها . ولكنها اعطت المثل ، الذي سيقتدى به ، باستنجادها بالاجنبي ، اذ انها وضعت نفسها مرتين تحت كنف ملك فرنسا ، منذ السنة ١٣٩٦ حتى السنة ١٤٠٩ ، ومنذ السنة ١٤٥٨ حتى السنة ١٤٦١ . وهكذا ارتسم خيال « امير » ماكيافلي بشكل المستبدين ، كما ان اندفاع هؤلاء وراء الفتح والسيطرة قد مال الى تبسيط خريطة ايطاليا السياسية على غرار ممارسة السلطة . الا ان شبه الجزيرة ما زالت غارقة في الفوضى . ولعل الحياة فيها كانت اسهل من ان تشعر المدن ، على غرار المدن الالمانية او المقاطعات السويسرية، بالحاجة للجوء الى حسنات رابطة اتحادية .

في ظل اختلاف الاوضاع المحلية المدهش ، تزاحمت الممالك والامارات والمدن في كافة انحاء اوروبابغية توسيع اراضيها . فوُجدت الدولة من ثم امام اعباء جديدة املاها عليها في الوقت نفسه اصحاب النظريات السياسية ؛ ولا يخلو من المغزى ، في قرن « مارسيل دي بادوا» وغليوم اوكهام ونقولا اورسم ، ان تتمثل سلالة آل فالوا وسلالة آل لوكسمبورغ ، وهما ارفع سلالات اوروبا قدراً ، « بملكين مكتبيين » ، شارل الخامس وشارل الرابع، اللذين اندرجت ولايتهما بين ولايات اشد الامراء نزعة فروسية وهمية في ذلك العهد من امثال « جان له بون » و « شارل السادس » و « جان الاعمى » وسيجيسموند . ان في ذلك لرمزاً الى مجتمع لـمـا يتعود مفاهيم الدولة الجديدة ، ورمزاً ايضاً الى التفاوت بين ضخامة الاعباء الجديدة الملقاة على عاتق الملوك وهزال وسائلهم التقليدية .

نقص موارد الدولة

يرد شمول ديمومة الاضطرابات والحروب ، في الدرجة الاولى ، الى عجز السلطة او حزب من الاحزاب عن احراز الغلبة وفرض السيطرة . فان

ملوك فرنسا وانكلترا انفسهم لم يجدوا آنذاك في موارد المناطق التابعة لهم الادوات اللازمة لتوسيع نشاطهم ، ولا سيا لمشاريعهم العسكرية . لقد سبق وتكلمنا عن ضعف القوى التي استخدمها اعظم الملوك قوة آنذاك ، كما سبق وتكلمنا عن الجهود التي بذلت في انكلترا اولاً ، ثم في فرنسا ، لرفع القوى العسكرية والبحرية الى مستوى المهام المسندة اليها ولتدريبها على فنون الحرب الجديدة . ولكنها جهود غير كفية لانها قامت على تنظيم اجتماعي ولى زمانه . فقد اسندت الخدمة الاقطاعية ، حتى المأجورة منها – وهذا ما تحقق منذ اواخر القرن الثالث عشر – الى تسلسل الاخاذات العقارية ، ولم تسمح من ثم بتجنيد جيوش هامة ولا بالانضباط الضروري في النزاعات الطويلة الامد . وعلى الرغم من ذلك ، وحتى خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر ، فقد عند الملوك والامراء في شراء خضوع الاسياد الوراثيين ، والحؤول دون تجزئة الاقطاعات او انتقالها الى البورجوازيين ورجال الدين ، وحتى في فرض الفروسية على كافة المستفيدين من دخل عقاري يتجاوز العشرين ليرة ، كما جرت محاولة ذلك في انكلترا . فالمجتمع العسكري ، في نظرهم ، لا يزال مرتكزاً الى تسلسل السيادة على الاراضي والى روابط التبعية الاقطاعية . ولكنهم ، بعد ان امست الحرب مهنة ، سمحوا بان تقوم حولهم روابط تبعية اخرى مبنية على المال لم يروا بعد بجلاء كل ما تنطوي عليه من محاذير : وهذا ما حدث للبارونات الانكليز الذين اضطروا ، في سبيل تقديم جنود مأجورين سيقودونهم الى اليابسة تلبية لكل مصادرة يطلبها ادوارد الثالث ، الى تعهد « فرقة » مأجورة يجندونها بالتعاقد ، تتقدم مهمتها على الواجبات الاقطاعية او تتعارض معها احياناً . ولكن افراد هذه الفرقة ، الذين يلتحقون بمن يؤمن لهم الاجر الافضل ، ينتقلون من معسكر الى آخر بمثل سهولة انتقال فرق ادلاء الطرق او زمر المرتزقة الايطاليين . ومع ذلك ، لم يكن هناك من وسيلة ، لتفادي تشوش النظام الاجتماعي ، سوى اللجوء الى المرتزقة ، بسبب عدم وجود الجيوش الدائمة ؛ ومن هنا صعوبة الجمع بين الجنود المأجورين وبين الفرق الاقطاعية التي اشتهرت باحتقارها « للمشاة الادنياء » ؛ ومن هنا ، بالتالي ، انعدام تلاحم الجيوش . ومهما كان من الامر ، فقد توجب الانفاق لمكافأة الخدمات ولتجهيز المرتزقة بالاقواس العادية والاقواس الفولاذية ، وتعزيز الحصون ، وبناء السفن وتموينها . ولكن عملية واحدة ، حتى ولو كانت محددة في المكان وخلوا من الكوارث ، وحتى من المعارك ، كحملة ادوارد الثالث على هولندا في السنوات ١٣٣٨ – ١٣٤٠ ، كانت كافية لاستنزاف اموال خزينة . كما ان مجرّد تعهد حامية مؤلفة من ١١٠٠ جندي في « تخوم » كاليه قد ابتلع ، في السنة ١٣٧١ ، خمس الدخول العادية للملكية الانكليزية . فكانت كل حملة ، من ثم ، تجدّد معضلة صارخة كبرى : اذ ان مصير النزاعات كان يتوقف الى حدّ بعيد ، على توفر الاموال او فقدانها .

ان ما نعلمه عن المداخيل العمومية بواسطة ما وصل الينا من محفوظات فرنسا المالية ، . وبواسطة المستندات الاسبانية الكثيرة ، وان لم تدرس بعد دراسة كافية ، وبواسطة الحسابات

العائدة لانكلترا والدول البورغونية والمتصلة الوقائع اتصالاً نادراً ، تظهر بوضوح ان مداخيل الاملاك التقليدية قد باتت غير كافية في كل مكان . فقبل حدوث كوارث الحرب الانكليزية الباهظة التكاليف ، تثبت حسابات خزينة « فيليب له بيل » عجز الملك عن « العيش بما لديه »؛ ولا تحتاج صعوبات « جان له بون » او صعوبات ملك بورج المفجعة الى أدلة حسابية ، مفقودة لسوء الحظ . اما حركة اموال الخزينة الانكليزية ، حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار الحيل الحسابية التي تشوّه واقع التفاوت السنوي بين هبوطها وارتفاعها ، فتظهر ، ابتداء من السنة ١٣٣٦ ، مزيداً من التضخم في الحاجات ارتفعت معه الواردات ، التي لم تتجاوز ٣٠٠٠٠ ليرة حتى ذاك العهد، فبلغت ٢٥٠٠٠٠ ليرة احياناً، دون ان تقل قط، طيلة ما تبقى من القرن، عن ١٠٠٠٠٠ . ونعلم اخيراً ان الدوقين البورغونيين الاولين من سلالة فالوا قد اعتمدا على خزانة فرنسا لسد عجز دائم ، بينما عرف فيليب له بون ، على الرغم من وضع افضل ، سنوات صعبة جداً ايضاً .

لعله يجدر بنا اظهار فروق الوقائع ونميز ما لم يميزه اهل ذاك العصر الذين تعيشوا كلهم بالكد اليومي بين مصاعب صندوق المال وبين عجز الموازنة . فان الاموال العمومية ، مهما بلغ من سوء ادارتها ، قد بقيت قادرة على تحمل نفقات مشاريع عظيمة : جهود انكلترا في اوروبا التي تجددت طوال خمسة اجيال ؛ توسع أراغون في المتوسط ؛ تمكن ملك فرنسا ، بعد كريسي ، من شراء مقاطعة « دوفينه » ، ودفع فدية الملك جان بعد بواتيه، واعادة تنظيم الجيوش بعد شارل الخامس، وبذل مجهود مماثل في ايام شارل السابع ؛ وتمكنه كذلك من سدّ حاجات سلالة بورغونيا ؛ وقيام سلالة لوكسمبورغ اخيراً بعملية اعادة جمع الاملاك على نطاق واسع . ويبدو ان الممالك السكندينافية نفسها ، على الرغم من قلة مواردها البشرية والمالية ، قد استطاعت ، في حروبها الدائمة ، ان تعيش من املاكها مدة اطول من ممالك الغرب . ولكن ما لا ريب فيه هو ان المشاريع الكبرى ، سواء أسفرت عن نتائج دائمة او فشلت فشلاً ذريعاً ، قد ارهقت أبداً اموال القائمين بها . فان الموارد العادية ، حتى ولو احسن استثمارها ، أعجز من ان تفي بحاجاتها .

تألفت املاك الملك ، في بلدان اوروبا المختلفة ، من عناصر مماثلة : أراضي استثمار زراعي ، احراج ، مناجم ، ملاحات ، رسوم مفروضة على اليهود (الذين اقصوا تدريجياً عن ممالك الغرب) ، عائدات الاسواق الدائمة والاسواق الدورية ، رسوم المرور ورسوم الجمارك ، النقود، غرامات القضاء ، نصيب الملك من واردات الوظائف الكنسية . وكانت مداخيل الارض ذات أهمية رئيسية ، فأديرت من ثم خير ادارة ؛ وكان لها شأن كبير في المانيا وفرنسا حيث الاملاك الملكية اعظم اتساعاً منها في البلدان الاخرى. ثم ان ادارة الاحراج ، التي أعارها ملوك انكلترا انتباههم منذ زمن بعيد ، قد كانت في فرنسا، خلال القرن الرابع عشر ، موضوع اهتمام متزايد حدّده بدقة ، في السنة ١٣٧٦ ، اول تنظيم على نطاق واسع تناول المياه والاحراج . وكانت مناجم الفضة موارد كسب للعديد من الامراء الالمان وللملك بوهيميا ؛ ووفرت الملاحات لدوقية

بريطانيا وبورغونيا ، وللملوك الاسبان ايضاً ، واردات عظيمة . وأمنت الجمارك في انكلترا مكاسب دائمة تفوق الى حد بعيد مداخيل الاملاك العقارية . وتفسر أهمية مداخيل سك النقود ، وهي عظيمة في فرنسا وهولندا وايطاليا واسبانيا والامبراطورية ، وأقل شأناً في انكلترا حيث عرفت النقود الذهبية والفضية مزيداً من الاستقرار ، تأثير هبوط الحركة الاقتصادية وارتفاعها على السياسة .

لم تخضع طرائق ادارة الاموال ، في تطورها ، لحركة واحدة في كل مكان . الا ان كافة الملوك قد وجدوا أنفسهم امام واجب مشترك قضى عليهم بالحصول على المزيد من المال دونما رقابة . استفادت انكلترا من رصيد تقاليد متأصلة اشتهرت بها في ادارة مالية أثبتت التجارب حسناتها؛ ولكن هذه الادارة تخثرت في نسقها المطرد المتردد ، وحال ضيق الاملاك العقارية وعادة تلزيم مداخيلها ، ببدل ثابت ، لمأموري الاحكام المدنية ، دون استثمار الحقوق الملكية استثماراً مجدياً . فوجب انتظار ولاية سلالة لنكستر ، الذين ملكوا دون ان يحكموا ، حتى تلعب الاملاك الملكية ، وقد اتسعت بأملاكهم الخاصة ، دوراً اولياً مؤقتاً في تقويم اموالهم .

كانت الممالك الاخرى امام مهمة جديدة . فان الملكية القشتالية ، بعد ان بدّدت قسماً من أملاكها، لم تقم لنفسها ادارة تشبه ادارة اراغون التي كانت أشد حرصاً على ان لا تفقد شيئاً من مداخيلها ؛ وما اعظم التباين بين صلاحيات غامضة اعطيت المشرفين على الاملاك في قشتالة ودور محدد جداً اسند الىالمشرفين على الملاحات الاراغونية، وبينالبلبلة التي سادت زمناً طويلاً، هنا ، رقابة الاموال ونظارة دار الملك ، وتخصص بعض رجال قصر الملك هناك ، منذ أوائل القرن الرابع عشر ، في ادارة واردات ونفقات الممالك الثلاث التي تؤلف تاجه . اما في فرنسا ، فان القضاة ، يعاونهم الجباة وضباط الاحراج والجمارك ، ويخضعون أنفسهم لرقابة غيرهم ، فقد كانوا رجال الملك حقاً . وقد تقدم عليهم صندوق الخزينة وديوان المحاسبة اللذان حددا تدريجياً مهامها المركزية . اجل ان ادارة المداخيل العادية ، التي حددتها أنظمة شارل الخامس والـ « مرموزيه » ، قد قاست ما قاست ، في عهد لاحق ، مما اقدمت عليه الاحزاب من تبذير . ولكن اموالها ، على اهميتها ، لم تعد ، منذ زمن بعيد ، لتقارن بالواردات « غير الاعتيادية » .

والسبب في ذلك هو ان الامراء ، الذين حاولوا في كل مكان استثمار املاكهم الى أقصى حدود الاستثمار ، قد عملوا ، في كل مكان ايضاً ، في سبيل دثور هذه الاملاك نفسها . فقد انخذوا ، في معالجتهم بعض الحالات المستعجلة ، امام التماسات ذوي الحظوة ومطالب العظماء فتخلوا احياناً عن اجزاء هامة من هذه الثروة العقارية التيما زالت تعتبر تراثاً خاصاً بهم. وليس المقصود هنا معاشات او اعطيات طارئة ، بل التخلي نهائياً عن مداخيل الارض ان لم يكن عن الارض نفسها احياناً. وبات الرهن آنذاك آفة ثروات الامراء. فبسببه تقطعت اوصال الاملاك القشتالية وصار اشراف الامبراطورية الى الافلاس ؛ وهكذا فلم يبق لأمير براندبورغ ، في السنة ١٣٧٥ ، من حقوق قضائية ، الا في ٣١ قرية من اصل ٤٦٧ اشتملت عليها املاكه الواقعة

بين الالب والاودر . حاول الامبراطور شارل الرابع القضاء على هذه العادات السيئة رغبة منه في جمع ثروة آل لوكسمبورغ مرة اخرى ، ولكن الداء نفسه قد أضعف الممالك السكندينافية وممالك اوروبا الوسطى ايضاً . وكانت الصراعات الحزبية بين ارمانياك وبورغونيين في فرنسا فرصة لتبدلات خطيرة في امتلاك الاراضي حاول واضعو النظام الكابوشي ايقاف تيارها . ولم تنج املاك سلالة لنكستر من هذه الآفة ايضاً في عهد هنري السادس . اما دوافع هـــذه الآفة المستعصية فجشع الافراد الذي ساعدته المصاعب المالية الدائمة التي تخبطت فيهـا الحكومات . ولكن المستفيدين كانوا اولئك بالذات الذين وجب اللجوء اليهم لسد عجز الخزينة . وقد بلغ من ضعف مداخيل الاملاك ان الدولة قد اضطرت ، لتأمين موارد جديدة ، الى الاستعطاء والالحاح في التسوّل ، وبلغ من تكرر حاجاتها الاستثنائية ان مواردها غير الاعتيادية اصبحت في النهاية عادية واتجهت نحو الاستمرار ، وتجاوزت الى حد بعيد موارد الاملاك الطبيعية .

الموارد الجديدة

كان من الجدير بنا ان نتوسع في دراسة القروض التي طالما اعتبرت شرّ الحيل المالية ، مع ان امراء ذاك العهد قد اعتمدوها في معيشتهم اليومية بسبب اضطرارهم الى استباق موارد الاملاك او الموارد الجبائية التي لاتجمع الافي موعد متأخر . اما المقصود بهـذه القروض فقروض قصيرة الاجل – ان اقرار الدخول ، مدى حياة أمير او أكثر ، بواسطة المدن او مجالس الدول ، لم يطبق الا في امارات هولندا – ترتفع فوائدهـــا بارتفاع ديون الامــير ، اذ ان المقرضين ، حتى المرغمين منهم ، يفرضون آنذاك فوائد باهظة ، ورهونات منقولة ، والتخلي عن بعض المداخيل. وتشكل هذه القروض ديوناً غير ثابتة هامة جداً احياناً ، وهذا هو وجه الخطر فيها ، على ان الادارات المالية تجهل قيمتها الصحيحة . ولكن سواء كان الدائنون رجال اموال ايطاليين استهوتهم هذه المضاربات الرابحة على ما تنطوي عليه من اخطار ، او دائنين لم تدفـــع لهم حقوقهم ، او مقرضين مرغمين ، او مدناً ملزمة باقراض أموال يزول دخلها بزوال صاحبها ، او ملتزمي املاك يسلّفون فوائد جبايتهم ، فلم يكن بدّ منهم للملوك كما لم يكن أثقل منهم على ادارة الخزانة ادارة حسنة . فمست الحاجـة الى موارد ثابتة تأمنت في كل البلدان بتنمية المساعدة الاقطاعية : مساعدة واقتطاع في فرنسا ، مدد نقدي في انكلترا ، « خدمة » في قشتالة .

لقد سبق ورأينا كيف ان الملكية الفرنسية حذت حذو الملكية الانكليزية ، في منعطف القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وتوصلت الى ان تفرض على مجموع رعاياها ، في الظروف الهامة ، وخارج نطاق الاملاك او العلائق الاقطاعية ، مساعدات نقدية يستعيضون بها عن الخدمة العسكرية . اما ان يكون كل فرد قد ألزم آنذاك ، حين دعت الحاجـة ، بأن يسهم مالياً في الدفاع عن الدولة ، فهذه قاعدة قانونية جديدة عادت الى القرن الرابع عشر مهمة حمل الرأي العام الحرون على القبول بها . فألفت العقول تدريجياً ، ولو ببعض الصعوبة ، مبدأ شمول الضريبة ان لم يكن مبدأ استمرارها . ومنذ أوائل القرن الرابع عشر يبدو ان الدانمارك قـــد عرفت

استمرار فدية الخدمة البحرية المطلوبة من غــير الاشراف . اما الجديد الذي أتت به الاجيال اللاحقة ، فهو جعل « غير الاعتيادي » اعتيادياً، ليس في مبدئه فحسب بل في مطرحه وجبايته ايضاً . وقد استند في فرض الضريبة ، على الرغم من كيفيات مختلفة ، الى الثروة المنقولة بوجه عام : المواشي ، الحبوب ، المزروعات ، الاحتيــاطي النقدي ، الديون . اما محاولات فرض الضريبة الشخصية التي جبيت ثلاث مرات في انكلترا بين السنة ١٣٧٧ والسنة ١٣٨١ ، فلم تسفر الا عن فشل وخيبــة امل . وفي غالب الاحيان ، فرضت الضرائب على العائلات بالاستناد الى مقدار مواردها ، ولكن سرعان ما تحولت ضريبة الكمية النسبية الى ضريبة توزيــع متساو ؛ وحدث احياناً في انكلترا وفرنسا مثلاً ، ان معدل الضريبة كان في المدن أعلى منه في الارياف ، لان تقدير ثروة سكان المدينة كان اصعب منالاً ؛ واستندت الضريبة في بـــلدان اخرى ، كما في أراغون مثلاً ، الى دلالة ظاهرة من دلائل الثروة كزوج ثيران مثلاً . وفي كل مكان ايضاً ، كان الطرح والجباية من واجب ممثلي المكلفين انفسهم . ولكن الذين سبق لهم وقبلوا بتقديم مدد مالي قد طالبوا احياناً بالجباية والادارة والرقابة : فقد عين البرلمان الانكليزي تكراراً ، لا سيا في أيام هنري الرابع دي لنكستر ، « خزنة حروب » واخضع حساباتهم لرقابته ؛ وقام مجالس الطبقات الفرنسية ، في السنة ١٣٥٥ ، بمحاولة مماثلة ، وسريعة الزوال ايضاً ؛ ولكن محاولة الممثلين القشتاليين، ثم محاولة الامارات الالمانية وامارات البلدان البورغونية ، في القرن الخامس عشر ، كانت اطول بقاء . وهذا ما يفسر قيام ثنوية شبه شاملة في الادارات المـــالية : فرع للاملاك وآخر للمداخيل غير الاعتيادية . وعرفت فرنسا هذه الثنوية ايضاً ؛ فان نظام المختارين و « قادة » المساعدات ، الذي اقرته مجالس الطبقات في السنة ١٣٥٥ ، قد دام حتى العهـــد المعاصر ؛ ولكنها تسمية خاطئة لان المقصود بهؤلاء الموظفين ، منـــذ ولاية شارل الخامس ، ضباط ملكيون تعينهم السلطة ، ليس لمجالس الطبقات اي دور في اختيارهم . واذا كان شارل الخامس نفسه قد تأثر بتشكك ضميره وهومشرف على الموت فالغى « الاقتطاع » في السنة ١٣٨٠، واذا كان جان سان بور ، رغبة منه في استمالة الشعب ، قد الغى المساعدات ، فقد استطاع شارل السادس ، بدون استشارة المجالس ، ثم شارل السابع من بعده ، بموافقة هذه المجالس ، اعـــادة « الاقتطاع » والمساعدات ؛ فجمعت الملكية الفرنسية آنذاك ، بصورة منتظمة ، ثلاث فئات من الضرائب « غير الاعتيادية » : الضريبة على الملح التي امست شاملة منذ ولاية « فيليب دي فالوا » ، والمساعدات على البضائع ، والاقتطاع . ولم يكن ملك انكلترا قد توصل ، في الوقت نفسه ، الا الى توطيد رسوم الجمارك ، بينما بقيت المساعدات النقدية رهن استعداد المجالس .

كان ، بالنسبة للحكومات ، ارتفاقاً حقيقياً ان تدين بوسائلهـــا النقدية لحسن استعداد المكلفين . الا ان ادعاءات هؤلاء لم تكن ثورية على وجه التأكيـــد اذ ان العرف الاقطاعي قد ترك للامير ولاتباعه او رعاياه مهمة الاتفاق فيما بينهم على معدل المساعدة . اما الجدة فهي الميل الى الخروج من دور المعاونين والمستشارين لاجل مراقبـــة الامير . ولكن متاعب الحكومات

السياسية والمالية لا تفسر وحدها محاولات فرض الوصاية هذه : فان تقلبات دول القرون الوسطى ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ترد الى تطورها الاجتماعي قبل اي شيء آخر .

القوى الاجتماعية الجديدة : الامراء

ان السيادة التقليدية ، التي تشوشت رويداً رويداً تحت ضغط الاحداث الاقتصادية ، قد امست مرتكزاً غير كاف للنظام الاجتماعي فطبقة الاشراف المقاريين التي افتقرت وحرمت حق القيادة بفعل تقدم الدولة ، فقدت حتى استقلالها الشخصي. والروابط الاقطاعية التي قامت على امتلاك اقطاعة واقسام اليمين للسيد ، استبدلت تدريجياً بروابط جديدة تعاقدية ، على اساس مالي ، افاد منها العظماء . اجل لقد كان تأسيس منظمات الفرسان ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ردّة فعل دفاعية تلبي الحاجة الى تشديد وفاءات مترددة وتركين اخلاصات تتعرض للفقدان . ولكنها ردة فعل باطلة ؛ فان ظاهرة مركزية سياسية واقتصادية قد حدّت من عدد الاسياد العظماء وجعلتهم اوفر قوة ، اي اشد خطراً . ولدينا امثلة لا تحصى عن ابتلاع السيادات الكبرى للسيادات الصغرى وعن تسلط كبار اصحاب الاخاذات على صغارهم . فان الاقطاعيين الالمان قد خضعوا تدريجياً لسيطرة طبقة عظماء الاشراف ؛ وقد برز هذا التطور في ولاية براندبورغ بصورة خاصة ؛ ولكننا نجد الواقع نفسه في امارتي فرنسا الجنوبية ، « فوا » « وارمانياك » ، حيث انتقل ذاك السيد الغسكوني من سيادة الملك المباشرة عليه الى سيادة الكونت ، ثم اعوزه المال فلم يبق له سوى حق تملك اراضيه ما دام حياً بانتظار فقدان هذا الحق نهائياً . وهو المال ، في اطار الخضوع الاقطاعي الذي ابقي عليه هنا ، ما يربط البشر بعضهم ببعض منذ اليوم : فان الشريف ، المدين لامير يتقبل منه الخدمات اللطيفة والاعطيات والمداخيل ، كان اشد تبعية له منه في الانظمة القديمة . وقد شكل مجموع هؤلاء الزبن فرق العظماء وازلامهم ، او « محافظيهم » كما كان يقال في انكلترا ، لان الزبون كان ملزماً بـ «المحافظة» على صوالح حاميه .

سار الامراء اخيراً على نهج الملوك بان احدثوا في دولهم مؤسسات ادارية مماثلة لمؤسساتهم اختلفت اشكالها باختلاف الاخلاق القومية ووضع البلاد السياسي ودرجة الكمال التي بلغتها المثل الملكية المستوحاة . فكان هذا الشكل قليل الوضوح في اسبانيا مثلاً حيث لم يجد « الرجال الاغنياء » في قشتالة واراغون ، فوقهم ، مثل الملكيات المركزية . بينما كان اعظم بروزاً في السيادات الالمانية الكثيرة – وقد تجاوز عددها الـ ٣٠٠ آنذاك – التي كان لامرائها ، على نهجهم النهج البطريركي القديم ، الى جانب مجلس الامارة الذي يضم فيه الفرسان آراءهم الى آراء ذوي المناصب التقليدية الكبرى في كل بلاط ، ادارة محلية تضم حكام الحصون والقضاة والجباة . اما انكلترا حيث كان النظام السيدي اقل تجمعاً اقليمياً ، فلم تر تحرر العائلات الكبرى ، الا بعد

احداث اقطاعات القرن الرابع عشر ، ولم تر ازدهارها الا خلال النزاعات الحزبية في القرن الخامس عشر . ولكن لعل مثل دوقية لوكسمبورغ اوضح مثل على الاطلاق : فان هذه الامارة قد جهزت منذ السنة ١٣٦٢ بديوان وبكافة الاجهزة اللازمـــة لادارة دولة ، كما تشهد بذلك محفوظاتها النفيسة جداً .

وربما كانت مملكة فرنسا المملكة التي ذهبت فيها الامارات الى ابعد حد في تقليد المؤسسات الملكية . فمنذ اوائل القرن الرابـع عشر كان لكونتية من المرتبة الثانية ، ككونتية فوريز ، ديوانها وديوان محاسبتها ، وكان المجلس الكونتي يعقد جلسات قضائية على غرار « مجلس الملك » . ويمكن القول نفسه تقريباً عن الاقطاعات الكبرى كبريتانيا وبورغونيا وارمانياك وفوا ولا سيما فلاندر التي حرصت اكثر من ايـة مقاطعة اخرى ، بفعل مركزها الجغرافي البعيد عـــن المركز ، على اسناد سياستها الخاصة الى استقلال وسائل عملها والتخلص جهد الامكان من صلاحية البرلمان . وجاء التقليد ، كما هو طبيعي ، اكثر مطابقة وكمالا ايضا في الاقطاعات التي سلخت آنذاك عن الاملاك العامة لمصلحة اشقاء وليّ العهد الملكيين .

بدت اقامة هذه الاقطاعات وكأنها تتنافى واتجاه الدولة نحو المركزية ، وغدت في الواقع خطراً كبيراً على الملكيات ، لا سيا في القرن الخامس عشر . خلّفها الماضي ، اي المفهوم البطريركي والاقطاعي الذي استندت اليه التيجان في القرن الثالث عشر . وكانت الغاية من العهد بها الى اشقاء اولياء العهد ارساخ نفوذ الاسرة المالكة ، التي كان اقطاع املاكها ممكناً ، على الرغم من انها ممتنعة البيع أو الهبة مبدئياً ؛ وكانوا ينتظرون من هذه الفروع اخلاصاً اعظم ثباتاً مـــن اخلاص ذوي الاقطاعات الكبرى الآخرين لانه قائم على روابط النسب . اما الجدّة في القرن الرابع عشر فهي مدى هذه الانعامات التي كانت المضادة في فرنسا ، مثلا ، كبيرة بينها وبين الاقطاعات الوضيعة التي أمنها القديس لويس وخلفـــاؤه الى اشقائهم : ارتوا ، افرو ، كليرمون ، برش . وفي ذاك العهد ايضا ، تقرر في فرنسا كذلك قانون عودة هذه الاقطاعات الى التاج في حال انقراض نسل الذكور في احد هذه الفروع . اضف الى ذلك ان هذا النظام قد شمل كافة انحاء اوروبا ؛ فمنذ النصف الاول من القرن الرابع عشر انعم لويس دي بافيير على ابنه لويس باقطاعة مزدوجة في « تيرول » و « براندبورغ » . وفي فرنسا انعم جان له بون بنورمنديا على ابنه البكر ، المنعم عليه بمقاطعة الدوفينه من قبل ، ثم على لويس بانجو و « ماين » وعلى جان ببري وبواتو واوفيرنيه ، بينما انعم شارل الخامس على ما عرف به من بصيرة وتحذر ، ببورغونيا على ابنه الثاني . وفي الوقت نفسه جعل ادوارد الثالث من ابنه البكر امير ويلز واكيتين ، ومن ابنه الثاني دوق لنكستر ، ومن الثالث دوق كلارنس ، بانتظار ان يجعل من ابنيه الصغيرين دوق يورك ودوق غلوسستر . وفي الوقت نفسه تقريباً ، جعل شارل الرابع ايضاً ، بعد ان امن خلافته لابنه البكر فنسسلاس ، من ممتلكاته في براندبورغ وسيليزيا اقطاعات لابنائه الثلاثـــة الآخرين . وقد نهجت هذا النهج بولونيا النائية نفسها ، اذ ان لادسلاس الاول جاجلون قد استصوب ،

ارضاء لاتجاه ليتوانيا الخاص ولطموح ابن عمه فيتولد ، اقطاعه هذه البلاد .

ولكن صاحب الاقطاعة ، في هذه الاراضي الشاسعة المسلوخة عن الاملاك العامة ، التي غالباً ما اضيفت اليها وراثات اخرى واقتناءات خاصة – ولنعد بالذاكرة هنا الى توسع سلالة بورغونيا المدهش – كان يحل محل الملك ويشرف وحده على الادارة المحلية ويحدث ، رغبة منه في مراقبتها وفي التملص من الرقابة الملكية ، اجهزة مركزية : مجلس وديوان وديوان محاسبة ، ومحاكم عليا احيانا . ثم جاء تخلي بعض الملوك الضعفاء عما تبقى من حقوق ملكية ، كالنظر في الدعاوى الاستئنافية ، او مداخيل الضرائب ، يكرس استقلال الامراء ويتيح لهم وضع يدهم على موارد التاج : هذا ما توصلت اليه ، في فرنسا ، فروع بورغونيا وبوربون وبري واورليان، وفي انكلترا ، فروع بوفور وغلوسستر ويورك . وسبب ذلك ان اصحاب هذه الاقطاعات ، لا يزالون ، بفعل نسبهم ، قادرين على اعتلاء العرش احتمالا ، وعلى ارشاد الحكومة وتوجيهها في اغلب الاحيان . وقد شهد ذاك العهد، لا سيا في فرنسا وانكلترا ، تعاظم دور ممثلي هذه الفروع في فترات قصور الملوك الشرعي سنا او عقلا . وقد ظهرت الوكالة العامة في فرنسا في عهد الملوك الاخيرين من سلالة « كابيت »، ثم في اثناء اسر الملك جان، وفي السنوات الاخيرة من ولاية شارل السادس ؛ وهو احد امراء العائلة المالكة ، من اصحاب الاقطاعات ، مـــن مارس في أغلب الاحيان وكالة مجدية ومستقلة في مجالس اللنغدوك ؛ وحدث اتفاقاً ان تولى الحكم في آن واحد خلال قصور شارل السادس وريشار الثاني عم كل من هذين الملكين ، فكان ذلك مقدمـــة للخصومات التي قامت بين فيليب الجسور وجان سان بور وبين لويس دورليان في بلاط شارل السادس ، وبين بوفور وغلوسستر في بلاط هنري السادس الذي اضطر ، بعد عشرين سنة ، الى القبول بحماية ريشارد دي يورك . وكان هذا العهد عهداً مباركاً للامراء الذين لم يميزوا بين مصلحة التاج ومصلحتهم الخاصة فتحولوا في آن واحد الى مدافعين عن « الملك العـــام » والى رؤساء احزاب . وهذا ما يفسر ، في فرنسا ، دكتاتورية آل ارمانياك، وفوضى حكم جان سان بور، وثورة سنة ١٤٤٠ التي انضم اليها ولي العهد لويس نفسه ، وقيام حزب « الملك العام » بعد ذلك، و « الحرب الحمقاء » ؛ وفي انكلترا ، تزاحم اعمام هنري السادس وحرب الورود . وهكذا فقد انفق الامراء ، بلقاء منطقي لم يدر في خلد الملوك المقطعين ، وكبار الاسياد وادعـــوا بفرض وصايتهم على الملوك ، وهكذا آل انهيار النظام الاقطاعي الى قيام احزاب بقيادة النبلاء .

دور البورجوازية السياسي : شكلت البورجوازية قوة اخرى وجب على مستلمي زمام السلطة ان يدخلوها في حسابهم ، لان دورها قـــد تعاظم باطراد في مجتمع لم يتمكن من تقدير نموها واستدراكه . فهي وحدها من امتلك المال بوفرة ، ذلك المال النقدي الذي عز تداوله والذي كانت الحكومات بحاجة ماسة اليه لتحمل الاعباء المتزايـــدة الملقاة على عواتقها . ولكن البورجوازيين قد جمعوا ، اكثر فأكثر ، الى خبرتهم التجارية ، قيمة فكرية اكيدة ؛ فان المدن ، التي كانت مراكز حياة ادبية ومجهزة بمدارس مستقلة ، قد وزعت

المعارف القانونية بوفور . وضم اشراف المدن الذين سبق الكلام عن اتجاهاتهم الاوليغارشية ، احتكار الوظائف البلدية الى احتكار المال والمعرفة . والفت العقول تدريجياً مفهوم النظام التمثيلي في الجمعيات والمجالس التي تناقص عدد اعضائها تناقصاً متزايداً وفي مناصب القضاء التي تمـلأ بالانتخاب كل سنة من بين الاختصاصيين في أغلب الاحيان ، والتي اخذ تعيين الاعضاء فيها من قبل زملائهم انفسهم يحل تدريجياً محل نظام انتخاب معقد على عدة درجات ؛ وكان من شأن الاشتراك في الجمعيات ، كما كان من شأن ممارسة اعمال القضاء ، ان يمتق نخبـة اتقنت ادارة الشؤون العامة والاشراف على الأموال العمومية . وقد حدت موارد البورجوازيين الخاصة واهمية مركزهم المادي الجماعي وخبرتهم الطويلة ، بالامراء ، منذ أمد بعيد ، الى ضمان مساعدتهم والى الدفع بهم أحياناً الى اعلى مراتب مجتمع كانت الحواجز فيه بين الطبقات اشد هشاشة مما يعتقد الناس : فان ميشال دي لابول ، حفيد احد بورجوازيي هلّ ، قد ارتقى الى اعلى درجات السلم الاجتماعي وامسى كونت سوفولك في السنة ١٣٨٦ ؛ كما ان كبريات العائلات البرلمانية في القرن الرابع عشر ، كعائلة « اورجون » وعائلة « دورمن » ، وقد انتسبت كلها الى البورجوازية ، كانت حلقة اتصال بين طبقة التجار والارستوقراطية التي جمعتها بها روابط الزواج والمصاهرة . لذلك لم يقف الملوك عند حد الاستدانة من البورجوازيين ، بل اسندوا اليهم وظائف ماليـة وقضائية ، وما كان احد ليدهش من ان يرى هؤلاء الموظفين الكبار في مجلس الملوك .

ألفت البورجوازية ، والحالة هذه ، بيئة ورأياً عاماً كان من الضروري اخذهما بعين الاعتبار ابداً واللجوء اليهما او خشية معارضتهما احياناً . اجل لم يتساو دور المجتمعات المدنية سياسيا في بلدان الغرب المختلفة . فاذا استطاعت مدن ايطاليا تحقيق نظام خليق بدولة حقيقية سياسيا واقليمياً ، واذا تحلت مدن هولندا بذهنية وحيوية اقتصادية استطاعت بواسطتها ، منفردة احياناً ، مقاومة اميرها ، ففي بلدان كثيرة وجدت المدن وسيلة دفاعها في التكتل : تكتل المدن الاسبانية ، وتكتل المدن « السوابية » ، وتكتل المدن التجارية ، مثلا . اما في البلدان الاخرى فقد اسمعت صوتها بفضل اشتراكها في جمعيات الدول .

جمعيات الدول

ان دخول البورجوازيات الحياة السياسية لم يرتد ، والحق يقال ، طابعاً انقلابياً دونه طابع دخول الاشراف ، ومن الخطل في الرأي ان نرى في نمو جمعيات الدول ، الذي يتميز به القرن الرابع عشر ، تجديداً لا سوابق له . فالعرف الاقطاعي قد جعل من « المشورة » خدمة كان من حق السيد ان يطلبها ومن واجب التابع ان يؤديها . وكان من المألوف ، من جهة ثانية ، ان يستطيع الامير دعوة من يتوسم فائدة في استشارته الى مجلسه . كانت جمعيات القرن الرابع عشر اجتماعات تضم البارونات والاحبار اولا ، ولم تقر حضور البورجوازيين الا في عهد لاحق : ولما كان معظم هؤلاء خلائق الملك ، فان دورهم الطبيعي كان استشارياً او قضائياً محصوراً في قضية واحدة او عدة قضايا غالباً ما يكون موضوعها مالياً ؛ وكان الامير يجمعهما حين يطيب له ذلك . وهو فقدان السلطة هنا وخطورة

الظروف هناك والاندفاع وراء شخصية فذة احياناً ما جعل بعض الجمعيات تخرج عن احترامها وتزنها الاولين . ويمكننا بصورة عامة ان نميز مرحلة تجديد وتردد ، مسرحيين احياناً ، دامت حتى منتصف القرن الرابع عشر ؛ ثم فترة أقل نشاطاً تردّ في الارجح الى استقرار السلطة العامة بعض الاستقرار ؛ وكانت الصعوبات المادية والسياسية اخيراً ، في النصف الاول من القرن الخامس عشر ، فرصة ثبتت فيه معظم الجمعيات اقدامها ؛ وفي الوقت الذي اخذت فيه النظرية الجمعية تتكون في الكنيسة ، كانت الروح السياسية قد تطورت تطوراً كافياً لان تدرك شكل الدولة التمثيلي .

يلاحظ في الواقع تطور تدريجي في نظام هذه الجمعيات الاجتماعي ونطاق نفوذها الجغرافي ، والدور المسند اليها . ففي مملكة واسعة الاطراف كفرنسا ، لم تعرف سوى جمعيات جزئية مختلفة حتى قيام « مجالس الطبقات » الاولى في السنة ١٤٨٤ ؛ ويمكن القول نفسه في هولندا البورغونية حيث تألفت مجالس الطبقات بارادة الامير ، فارتسمت في مخيلة فيليب له بون وحيّزها شارل الجسور . ولم يجمع ملك اراغون يوماً مجالس تمثل مقاطعاته الاربع. اضف الى ذلك ان اشتراك « العامة » لم يحدث الا تدريجياً في كافة البلدان، وكان في البدء محدوداً ومتقطعاً تمليه الظروف ودور المدن . فان ايطاليا ، حيث بلغت الحياة المدنية نموها الا كمل ، لم تعرف عملياً جمعيات الدولة الا في الامارات ذات التقاليد الملكية : البييمون المتأثرةتأثراً بعيداًبالعادات الفرنسية ؛ ونابولي وسردينيا حيث افضى الوجود الاراغوني الى قيام جمعيات على مثال « الكورتيس » .ويرد هذا التنوع ايضاً الى الترددات التي ادت الى الجمعيات : فلم يخف مستشارو فيليب له بيل ارتباكهم في تنظيم الاستفتاءات القومية الاولى ، ويبدو ان تعيين الجمعيات الرسمية الاولى ، في عهد اولاده ، قد تميز بجو من الفوضى الشاملة ؛ وحتى اواسط القرن الرابع عشر، ترك ملك انكلترا لأموري الاحكام المدنية امر تعيين المدن الواجب استدعاؤها الى المجالس . فحدث في فرنسا ، اثناء الاضطرابات ، ان عبر النبلاء ، بعد وفاة « فليب له بيل » ، ثم البورجوازيون ، عشية هزيمة بواتييه ، عن تصميمهم على اسماع صوتهم . وجرت الامور بصورة مماثلة في اسبانيا والامبراطورية وبولونيا والبلدان السكندينافية . وكان قد سبق لانكلترا ان عرفت هذه التخلجات في القرن السابق ؛ ولكن قدم خبرتها التمثيلية قد ساعدها على ان تحدد تدريجياً طبيعة برلمانها ودوره : فجاء مثالاً « لمجلس الملك » يتميز بالعظمة ، ينضم فيه البارونات العلمانيون والكنسيون الى المستشارين الاعتياديين ، ولكن يدعى اليه عادةً ممثلواشراف، الكونتيات والبورجوازية المدنية ايضاً ؛ فتحدد بذلك قبل آخر القرن الرابع عشر واقع وصلاحية مجلسي اللوردات والعموم . الا ان الجمعيات لم تلتئم في اي بلد التئاماً دورياً ، اذ كان للامير دون غيره حق الحكم في ملاءمة اجتماعها .

ان طبيعة المعاضل التي بررت هذه الاستفتاءات تتيح تبين طابع الاهمية التدريجية الذي ارتدته الجمعيات التمثيلية . فقد قضى تقليد خدمة « المشورة » بان لا ينحصر بحث المسائل

الخطيرة في اطار المجلس الملكي المحدود نسبياً ، والخلافة في الملك من اهمها خطورة . وان اقالة ادوارد الثاني ملك انكلترا في السنة ١٣٢٧ ، الذي اقرّه حزب البارونات الثائرين ، قد اعتبر وكأنه عمل « ارفع البارونات مقاماً ومستشاري المدن الطيبة » : فقد اعلن احد الاساقفة آنذاك ان « صوت الشعب انما هو صوت الله » . وهي جمعية بارونات ايضاً مـا وافقت في فرنسا على اعتلاء فيليب الخامس العرش في السنة ١٣١٦ ، وجمعية اخرى ما اعلنت حق فيليب السادس في استلام التاج ؛ وهو برلمان ما وافق في السنة ١٣٩٩ على اقالة ريشار الثاني واغتصاب هنري الرابع ؛ وبرلمان آخر ما التفحول ادوارد الرابع في السنة ١٤٦١ . وانما طلب ولي العهد شارل الى جمعية تمثل الاقاليم ، في السنة ١٣٥٩ ، نقض معاهدة لندن التي اقرها والده الاسير ، كما طالب الى الهيئات الكبرى التي تعتبر ممثلة للرأي العام – البرلمان ، الجامعـات ، المدن الطيبة – ابرام معاهدة طروا في السنة ١٤٢٠ . وكذلك فان كبار الاسياد الاسبانيين الذين نادوا بالملوك خلال الحروب الاهلية ، لم يقـدموا قط على ذلك بمفردهم ؛ فان الممثلين (الكورتيس) الذين درج الملك على دعوة ممثلي المدن الى اجتماعاتهم ، قد اقروا ، نزولا عند رغبة ألفونس العـاشر ، سقوط حق اشقاء ولي العهد في الملك في قشتالة . وهم الكورتيس ، في اراغون وكاتالونيا ، من ابرموا ، في السنة ١٤١٢ ، تسوية « كاسب » واستعانوا بعد ذلك على جان الثاني ، في برشلونة ، حيث كانت الكلمة الفصل لكبار التجار ، بمنافسين متعاقبين عديدين . وكان لكل من امارات الامبراطورية الـ ٣٥٠ جمعيتها التي تبدي رأيها اثناء ازمات خلافـة الملك . والتأمت كذلك الجمعيات الهنغارية والبولونية حين قرّر زواج بنات لويس دانجو مصير البلاد . ودون ان نشدّد اخيراً على دور الجمعيات الاسوجية الذي كان على جانب كبير من الاهمية في القرن الثالث عشر ، هل من حاجة بنا الى التذكير بان وحدة الممالك السكندينافية الثلاث قـد تمت بقرار اتخذه في كالمار ، في السنة ١٣٩٧ ، مندوبو المدن والاكليروس والاشراف مجتمعين ؟

وغالباً ايضاً ما سنحت الفرصة للبورجوازيين باسماع صوتهم في معرض المعاضل المالية ؛ فهذه كانت المبرر الاساسي لدعوة الجمعيات ولتدخل اعضائها المطرد في الشؤون الادارية والسياسية . ومتماثلة هي الطريقة التي حملت الدول تدريجياً الى اناطة اقرار الضرائب بحق مراقبة توزيعهـا وجبايتها ووجهة استعمالها ، ثم الى فرض الاصلاحات الادارية ، واحيانـاً الى مراقبة مجلس الامير ، واخيراً الى سن الشرائع في موضوع تنظيم الدولة نفسه . وقـد أثار موقف البرلمانات الانكليزية مشكلة دائمة للبلاط ، حتى في عهد اشد الملوك حزماً : فقد اضطر ادوارد الثالث في السنة ١٣٤٠ والسنة ١٣٧١ ، في سبيل الحصول على مساعدات نقدية ، الى التضحية بوزرائـه والرضوخ في السنة ١٣٧٦ لمطالب « البرلمان الطيب » ، الا انه لم يبر بعد ذلك باي وعـد من وعوده ، او انه حمل جمعية اسلس انقياداً الى ابطالها كلياً . وحين حصل ريشار الثاني المستبد ، في السنة ١٣٩٧ ، على مساعدات نقدية لمدّة ثلاث سنوات ، لم يفت البعض ان يذكروه بمبـدأ القبول بالضريبة وبتخصيصها الحصري للنفقات العسكرية . وصـادف هنري الخامس الصعوبات

نفسها في تمويل فتوحاته في فرنسا وآثر الاستغناء عن البرلمان منذ ان استطاع الى ذلك سبيلا، ما بين السنة ١٤١٧ والسنة ١٤٢٠ ؛ وقد حاول هؤلاء الملوك جميعهم ، توصلا الى اطلاق حريتهم في العمل ، الاستحصال على المساعدات بموافقة « مجالس لوردات كبرى » كانت استمالتها اقرب منالا . وهو البرلمان الذي كان الحكم بين الامراء المنقسمين على انفسهم في فترة قصور هنري السادس الشرعي ، مستقويا في موقفه بحاجاتهم الدائمة الى المال . وتحدث الشيء نفسه ، باولى حجة ، في ايام ولاية هنري السادس الشخصية .

اما في فرنسا فهي خطورة الهزائم العسكرية ما نقلت المجالس من الصعيد المالي الى الصعيد السياسي : وان في فشلها الاخير ، من جهة ثانية ، برهاناً ساطعاً على رسوخ التقاليد الملكية . فبعد كريسي خاطبت المجالس ملك فرنسا كما لم يسمح احد لنفسه بمخاطبته من قبل : « بئس المشورة التي افقدتك كل شيء دون ان تكسبك شيئاً ... ان هذه المشورات قد اذلتك » اجل لقد حال الاخلاص للملك دون رفض المساعدة ، ولكن المساعدة خضعت لشروط . ففي السنة ١٣٥٥ ، نظمت المجالس الجباية بنفسها ، فاحدثت جهاز « المختارين » وفرضت عقد جلسات منتظمة لتصفية الحسابات . وحدث ما هو اسوأ من ذلك بعد بواتييه ، اذ ان رأس المملكة آنذاك لم يكن سوى ولي عهد شاب في سن الثامنة عشرة لم تمتحن قوته بعد ولم يكن حوله سوى مستشارين عيب عليهم « استهتارهم واضاعتهم للوقت » . وعرفت فرنسا آنذاك ، في الوقت نفسه تقريباً الذي عرفت فيه روما « كولا دي رينزو » ، خطباء سياسيين قادرين على تهييج الجماهير : من امثال « روبير له كوك » اسقف لان ، وشارل «له موفيه» ملك نافار . وان « النظام الكبير »، الذي اقرّ في اذار من السنة ١٣٥٧ والذي املته مجالس اللنغدوك، لم يستهدف تقويم التجاوزات الادارية فحسب ، بل فرض مجلس وصاية على ولي العهد وعقد جلسات دورية على المجالس . اجل ان الحركة التي استندت الى حماس فئة من البورجوازية الباريسية فقط، فشلت امام ارادة ولي العهد الحازمة ، واسدل الستار عليها بمقتل اتيان مارسيل . ولكن التجربة ستتكرر عند اول بادرة ضعف تصدر عن السلطة . فاضطر « اسياد زهور الزنبق » الى اراقة الدماء في قمع اضطرابات السنة ١٣٨٢ ، وكانت الحرب الاهلية ، بعد مرور ثلاثين سنة ، حافزاً للحركة « الكابوشية » . انضمت هذه المرّة ، الى نقابة الجزارين الباريسيين القوية، الجامعة التي لم يقتصر نشاطها الاصلاحي على الكنيسة ، والتي ترقبت الخلاص من تقرب « جان سان بور » الى الشعب . ولكن البرنامج الذي تضمنه التنظيم الكابوشي قد اقتصر على اصلاح الادارة دونما تدخل المجالس في الشؤون السياسية : ويستلزم هذا الاصلاح احداث هرم من مجالس تنتخب اعضاءها ، وتبسيط وسائل العمل ، وتقويم الوضع المالي ، فتتحقق بذلك ادارة سليمة للمصالح العامة ؛ واعتقد المصلحون بجمهورية من كبار الموظفين تنظم تنظيما منطقيا برئاسة الملك . وهذا ما سيتيح للملكية ، في نهاية المطاف ، اصلاح نفسها بنفسها دون التسليم باية رقابة .

اشتد كذلك ، على نطاق اضيق ، في البلدان الاخرى، دور الجمعيات السياسي . فان الممثلين القشتاليين قد طلبوا من الملك ، في السنة ١٣١٥ ، بياناً بموارده ، دون ان يظهروا له عداءهم ؛ ثم ادعوا ، في السنة ١٣١٧ والسنة ١٣٢٢ ، امام تكرر طلب المساعدات ، بمراقبة جباية « الخدمات » . كما ان الجمعيات ، في اراغون وكاتالونيا وفالنسيا ، وهي اعظم تطوراً منها في قشتالة ، قد درجت على تبيان وتدوين مطالبها الادارية والسياسية الخاصة قبل اي بحث في طلبات المساعدة النقدية ؛ وكان على الامير ، في كاتالونيا ، ان يقسم باحترام التدابير المقررة ؛ ولولا التباين بين نزعات مقاطعات اراغون المختلفة ، لما تبقى لملك اراغون سوى امكانات ضئيلة للمناورة .

لم تكن مطالب جمعيات المقاطعات بينة الاختلاف عن مطالب الصناعيين الذين سبق ورأينا ان هيجانهم قد عكر بين آن وآخر مدن ايطاليا وهولندا . اجل ان الهيجان العمالي ، وهو اجتماعي اكثر منه سياسي ، قد استهدف في الدرجة الاولى القضاء على استئثار الاشراف بادارة الشؤون البلدية . الا ان اتجاهه العميق كان مشتركاً مع اتجاه المجالس : فهو قد استهدف توسيع النظام التمثيلي وخدمة مصلحة الناهضين به . وان في مثل لياج ومثل برابان ، من هذا القبيل ، لدلالة كبرى على ما نقدم ، اذا اننا نرى فيها ، في آن واحد ، الحرف ترغم الاشراف على اشراكها في الشؤون البلدية ، و « البلاد » او الجمعيات تفرض على الامير الحدّ من سلطته ؛ ويتراءى في الحالين حرص ، يتميز به هذا العهد ، على اعطاء الدولة شكلاً محدّداً .

عرفت مدن الامبراطورية وسياداتها تطوراً مماثلاً ، في القرن الخامس عشر . فقد توصلت المجالس هنا ، وهي شبيهة من حيث تكوينها بمجالس فرنسا ، ليس الى ادارة الضرائب التي تقرها فحسب ، بل الى اقامة رقابة على مستشاري المدن والامير والموظفين المحليين . واتضح في الممالك الشرقية كذلك مفهوم تمثيل البلاد كلها . ومن الغريب ان يقال في بولونيا بمبدأ ، ولى زمانه في الظاهر ، ولكنه ينطبق اجمالاً على نزعات العهد ، اعني به مبدأ الشخصية القومية بالاضافة الى فكرة التمثيل وفكرة رقابة السلطة : ففي مجمع كونستانس دافع رئيس جامعة كراكوفيا ، « ضد التوتون » ، عن حق الشعوب ، حتى الوثنية منها ، في استقلالها الاقليمي . وهكذا تم اللقاء بين الاراء الجديدة حول نظام الدولة وبين القوميات الناشئة .

الدولة تبحث عن نظام

تزعزعت اركان الدولة بتفكك الاطارات الاجتماعية التقليدية فاخذت تبحث عن قواعد جديدة ؛ وتوجب عليها ان تتنظم بغية توسيع رقعتها والقيام بالاعباء العديدة التي لم تكن هي مهيأة لها . وكانت العقبات كثيرة في طريقها : عقبات تقنية – هزال الوسائل الادارية والعسكرية ونقصان الموارد – ؛ واجتماعية – المنافسة بين مصالح الاكليروس والمدن والنبلاء والامراء – واقتصادية وعسكرية . ففي سبيل تذليلها ، انبرى رجالات القرن الرابع عشر ، في هذا النطاق كما في نطاقات اخرى كثيرة ، يجزئون كي يتمكنوا من التحديد ، ويحللون الناحية الخاصة كي يتمكنوا من اعداد العدّة للمستقبل .

سار الاتجاه العام نحو جمع الاراضي ومركزية السلطة بخطوات تدريجية متعاقبة ، فحدّ ولا من عدد الاقطاعات التي استبدلت بدول صغيرة اقل عدداً : الامارات الاقطاعية المنشأ في هولندا والمانيا ، واقطاعات امراء العائلة المالكة في فرنسا وانكلترا ، وديمومة قيام الممالك الايبيرية والشرقية ، وسيادات الامراء او المدن في ايطاليا ، والمقاطعات السويسرية . ويبدو انهم لم يتصوروا سوى دولة وضيعة الابعاد تتلاءم ووسائل المواصلات والعمل التي كان من شأنها آنذاك تأمين وحدة قيادة قوية . فكانت الدولة القشتالية او البرتغالية ، والامارات النيبرلندية على تنوعها ، والدوائر الانتخابية الالمانية تمثل خير وحدة سياسية يسهل حكمها. والى هذا يرد في الارجح ان مملكة اراغون حافظت على هيكلها الرباعي وان ميلانو والبندقية ودول الكنيسة ونابولي قد اعتدلت ، وان قيام اقطاعات امراء العائلة المالكة في فرنسا ربما كان اكثر مطابقة لاقتصاد لا يزال اقليمياً . ولكن الاتجاه الى المركزية ، في فرنسا وانكلترا على السواء ، مالبث ان تغلب على هذه الاتجاهات المختلفة ، فيما بحثت الدول الاخرى عن تلاحمها بوسائل قريبة جداً من النظام الاتحادي : كمحاولات الوحدة الشخصية بين ممالك اوروبا الوسطى التي سبقت الاشارة اليها ؛ ووحدة السكندينافيين التي عرفت البقاء ، وتبسيط الامارات الايطالية ، وتكتلات المدن والمقاطعات .

ورافق الميل الى التبسيط ميل الى التحديد : فبينما كان رجال القانون يجمعون العادات والاعراف ، كان رجال السياسة يشترعون القوانين والانظمة ويضعون الدساتير ، ويجيز لنا استمرار عملهم ان نرى فيه واقعاً شاملاً . لم ير القرنان الرابع عشر والخامس عشر اتضاح الاطارات والاعراف الادارية في الملكية البابوية والملكيات الفرنسية والانكليزية والاسبانية وبعض الامارات العظمى كبورغونيا ، فحسب . ولم يحققا فقط عملاً تشريعياً ينطوي على كثير من الاعادات على كل حال : قوانين ملوك فرنسا ونظم ملك انكلترا التي اقرها البرلمان . فان مبادهات جزئية او شاملة منبثقة من مطالب الجمعيات التمثيلية او من حسن استعداد الامراء قد اخذت تجهز الدولة بنصوص نظامية . لقد سبق وتكلمنا عن فشل « النظام الكبير »(١٣٥٧) او النظام الكابوشي (١٤١٣) في فرنسا ، ولكن مؤلف « حلم البستان » قد حاول ان يحدّد ، خدمة لشارل الخامس ، دور الملكية في الدفاع عن « الخير العام » ، بينما تغنت « طريقة انعقاد المجلس » (التي تعود الى اواخر القرن الرابع عشر) ثم « محاسن شرائع انكلترا » و « حكم انكلترا» للسر « جون فورتسكيو » بملكية انكلترا القوية التي تلطفها المؤسسة البرلمانية والحق العام . اما كتاب « الاحزاب السبعة » حيث قدم الفكر السياسي القشتالي برنامجاً استبدادياً ابوياً ، فقد اكمله « البحث في مجالس الكورتيس » حيث وصف « جيم كاليس » ملكية مطلقة تعتمد على جمعية ايضاً . اجل لقد تخطت مجالس كورتيس القرن الخامس عشر الكاتالونية فكر مؤلف القرن الرابع عشر ، وقد بحث المثل «الاتفاقي » ، الذي طلع به الاشراف البرشلونيون ، في اختبار القوة ، عن التوازن بين سلطة الامير وتدخل البورجوازية . ولكن انظمة كازيير

الكبير (١٣٣٣ - ١٣٧٠) قد حدّدت القواعد الادارية والسياسية لمملكة بولونيا ، في الطرف الثاني من اوروبا .

لمثل هذا الانشغال باستقرار السلطة استجاب اعلان « البراءة الذهبية » في السنة ١٣٥٦ . لا ريب في انها كرّست عجز الامبراطور ، ولكن فضلها يقوم في انها حـــددت بجلاء القوانين المرعية الاجراء . فقد عرف ، انطلاقاً منها ، من ينتخب ملك الرومـــان الذي يمارس وكالة الامبراطور في حال شغور مركزه ، واين ومتى وكيف يجري هذا الانتخاب . وعلى الرغم من ان ذلك لم يصبح تقليداً ، فقد عينت البراءة ايضـاً للمنتخبين واجب تقديم المشورة للامبراطور في جمعية سنوية . اجل لقد كان الجهود محدوداً ولكنه نم عن رغبة واضحة في تحديد الادوار . اما نص البراءة ، الذي وضعه امير مسبتنير هو شارل الرابع وفقد وضع بالاتفاق مع الجمعية .

ان الدساتير الاولى ، الخليقة بهذا الاسم ، قد تحققت في الواقع ، منذ القرن الرابع عشر ، في هولندا ، وطن كل مبتدع بجديد . وتخفي اسماؤهـــا المختلفة ، مع بعض الفوارق ، وقائع متشابهة . ويبدو ان هذه البلاد قد نهضت ، بمدنها التي تميزت بروح بورجوازية متطورة جداً ، وبإماراتها الاقطاعية التقليدية ، برسالة ايجاد حل لمعضلة توزيع السلطة . كان هـذا الحلّ ، في جوهره ، اعترافاً ، يتعهد به الامير عند توليته ، بامتيازات جمعيـــات المقاطعات في الحقلين السياسي والمالي ؛ وكان في الدرجة الثانية قبولا برقابة الجمعية عـلى المجلس والادارة . فان « دستور كورتنبرغ » (١٣١٢) و « المدخل البهيج » (١٣٥٦) في برابان ، و « اتفـــاق فكس » (١٣١٦) و « اتفاق انجلور » (١٣٤٣) في لياج ، هي اقدم النصوص واوفرها طابعاً مميزاً واطولهـــا بقاء ايضاً ، حققها مجتمع متطور ، وبرهنت ، لا سيا في منطقة لياج ، عن وعي قومي بارز جدّاً . وان هذه النتائج التي احرزت في رقعة جغرافية ضيقة جـــداً ، تقع في مفترق اتجاهات متنوعة جداً ، تشرّف الفكر السياسي في ذلك العصر . اجـــل لقد تمكنت السلطة ، في البلدان الكبرى ، من التملص من القيود التي حاولوا تقييدهـــا بها . ولكنها قد ارغمت في النتيجة على ان تثبت فيها دورها ووسائلها . انها لمرحلة هامة في تاريخ اوروبا تلك التي بحثت فيها الدولة ، في آخر القرون الوسطى ، على الرغم من العقبات ، وربما بسببها ، عن تحديد واقعها مرّة اخرى .

الفصل الرابع

نشـأة الدولـة العثمانيـة

كان الغزو المغولي ، والفتح الداوي الساحق الذي ادى اليه ، فجوة في كل من تاريخ الشرق الاسلامي وتاريخ شعوب الروسيا،بدونه لا نستطيع ان نفهم فهماً صحيحاً التطور الذي اخذت به هذه البلدان ، بعد ان ارتفع عنها كابوس الفتح وانحسرت الغمة التي نزلت بها ، إن لم نتبين جلياً الرصيد الكامل لهذه العملية الضخمة . وقد جاء هذا الانقطاع منطقيـاً اتفق مع الحركة التجديدية والنهضة الاصلاحية التي قامت بها اليونان ، اذ ذاك ، تجاه اللاتين ، وازدهـار الدول البلقانية ، في هذه العطفة بالذات من تاريخ اوروبا الجنوبية الشرقية . انهـا لفجوة تضطرنا للعودة ، قليلاً ، الى الوراء ، لان مدنيات الاجيال الوسطى المتعاظلة والمتراكبة بعضـاً فوق البعض ، لم تعرف هذا التوافق الذي طبع الاحداث « العالمية » .

١ ـ الاسلام في عهد المغول

الفتح المغولي

رأينا باية سهولة استجاب العالم الاسلامي واليسر الذي استقبل به الغزو المغولي فاستسلم له بكليته . ويمكن ان نجـد سر هذا ، في الهلع الذي استحوذ على السكان ، والخور الذي وقع فيه واستسلم له اسياد العالم الاسلامي عندما اطلت عليهم جحافل الغزاة . فما من شيء مشترك بين هذا الفتح والفتح الذي قام به الترك من قبل ، وهم اقوام اعتنقوا الاسلام ، وسبق للعالم الاسلامي ان عرفهم عن كثب ، واستعملهم مرتزقـة في جيوشه . وراح بعض المؤرخين المحدثين ينزلون باللائمة على الشعوب اللاتينية ، لانها لم تحسن الاستفادة من تحالفها مع المغول ان لم يكن لمحق الاسلام ، فاقله لتقليم اظافره . وقد جهلوا او تجاهلوا ان المغول انمـا عنوا،في نظر معاصريهم، فناء وإفناءكل حضارة او مدنية وقعت في طريقهم،وانهم في الوقت الذي راحوا فيه يستعملون نصارى الغرب للقضاء على الدول الاسلامية كانوا هم يقومون بمذابح اجماعية

هائلة بين شعوب اوروبا الوسطى . فلندع جانباً هذه الاماني الخرقاء ، ولنحاول جهدنا ان نفهم جيداً ما الذي عناه في الشرق الادنى إقامة النظام الجديد .

كوّنت البلاد الايرانية والعراق وآسيا الصغرى وما التحق بها من ولايات مسيحية توابع : امثال كيليكيا وجيورجيا ، منذ اواسط القرن الثالث عشر ، تحت إشراف الخان الكبير ، في الصين ، الدولة الايلخانية المغولية التي سيطرت على الربوع الخصبة الواقعة الى الغرب الشمالي من ايران . فالكلل الذي استحوذ على الغزاة بعد الفتح ، والانشقاقات التي شجرت بينهم ، والمد الشاسع الذي بلغته موجة الغزو ، كل هذا وما اليه ، اتاح للجيش الذي انكفأ الى مصر ان يتنفس الصعداء وان يعيد تنظيمه ليسترد الشام . والحدود التي قامت بين العالم الاسلامي والعالم المغولي ، انطلاقاً من كيليكيا الارمنية ، كانت تتقاطع عند منتصفها مع الطرقات المؤدية الى الهلال الخصيب ، عند اعالي دجلة ونهر الفرات الاوسط . وكان من شدة الصدمة وعنفها ان اصيبت جميع بلدان الشرق الادنى الواقعة من كلا طرفي هذه التخوم ، بهزة زعزعت منها الاركان وصدعتها . وهكذا طلعت فجوة قامت سداً منيعاً بين العالم الايراني او العالم الواقع تحت النفوذ الايراني (آسيا الصغرى) والعالم العربي . فالمزاق العربي الصميم الذي دخل ضمن الامبراطورية المغولية ، اصبح ، منذ ذلك الحين ، فلاة باعدت بين قطبي العالم الاسلامي اذ ذاك : تبريز والقاهرة. وقد حمل الغزاة الفاتحون معهم الخراب ونشروا الدمار واسالوا انهراً من الدماء اينا مرّوا ، بحيث كان « السلام المغولي » اعجز من ان يزيل معالم هذا الدمار الشامل . كم من الرعاة الرّحل حلوا محل الفلاحين المزارعين . وقد قضى الفتح تماماً على فرقة الحشاشين التي كان نفوذها اخذ يميل الى الزوال ، كما أدّى الى القضاء على الخلافة الاسلامية التي كانت بالرغم مما حملته في اردانها الفضفاضة من ابهة وجلال ، ترمز الى الوحدة الاسلامية . فلم يرَ احد اية اهمية لتحولها ، ولو صورياً ، الى اسياد مصر، ولم يولِ احد هذا الامر اي اهتمام او اكتراث . كذلك ادى الى تحطيم قسم كبير من الارستوقراطية العسكرية واضطر القسم الآخر للهرب والنجاة بنفسه . كل هذا جاء حافزاً على تشجيع الاخذ بالنظام الاقطاعي في البلدان الواقعة تحت السيطرة المغولية ، هذا النظام الاجتماعي الذي اخذت بوادره تبرز للعيان في القرون السابقة .

حكم المماليك في مصر

من مفارقات التاريخ العجيبة في هذا العصر ، هو ان مصر التي صار الامر فيها لحكام وسلاطين من انصاف البرابرة يجيء بهم من اسواق النخاسة والرق القائمة في الاقطار المجاورة للبحر الاسود ، اصبحت الآن مناط الأمل ، والملاذ المرتجى ، والقبلة التي شخصت اليها العيون والابصار ، وقطب الدائرة في العالم العربي . فقد اقام فيها المماليك حكماً عسكرياً دكتاتورياً ، كثيراً ما تعرض للتمزق والإحن من جراء المشاحنات الداخلية بين الاحزاب المتطاحنة على السلطة ، تستثمر الى اقصى حدود الاستثمار سكان البلاد وترهقهم بالابتزاز والاعتصار . وهي دكتاتورية صانت وحدة مصر ووحدة الشام ، وامدت الحكم بادارة حازمة ، وبالقوة والنظام مما افتقر الى مثله او الى بعضه ، الكثير من

البلدان المجاورة . ونقرأ خبر هذا كله بالتفصيل في هذه الموسوعات التي وضعها بعض علماء العصر وكتابه ، معظمهم من موظفي ديوان الانشاء كالقلقشندي الذي اعطانا في كتابه : « صبح الاعشى » وصفاً دقيقاً وصورة صادقة لهذا الوضع . فالجيش يعيش على الإقطاع يجبي رسومه وتجمع لصالح الجيش ، دون ان يقابلها ارض او املاك يستغلها لحسابه الخاص ، ودون ان يتسرب اي ضعف او وهن في اشراف الدولة عليه ، فقد كان الجيش صارماً على نفسه كما كان لا يعرف الشفقة او الرحمة مع الغير ، يسير على نظام دقيق آسر . ففي هذا العراك الذي اخذت مصر بتلابيبه مع الخطر المغولي ، لم تحتمل على ابوابها احداً من هؤلاء المسيحيين الذين تركهم الايوبيون وشأنهم . فقد استأصلت شأفة الفرنجة من البلاد ، منذ القرن الثالث عشر ، وشأن الارمن من كيليكيا ، في القرن الرابع عشر ، ولم يبق صامداً في وجهها غير قبرص ، هذا الحصن البحري المنيع الذي هزىء بهجمات المسلمين عليه،والذي كتب له ان يبقى شوكة في جنبهم حتى القرن السادس عشر .

فاذا ما استطاعت دولة المماليك والنظام الذي اقامته في مصر ان تعمر وتعيش اكثر من ثلاثة قرون ، فبفضل الموارد الوفيرة التي امنتها التجارة الدولية للبلاد . ففي الوقت الذي ازدهرت فيه التجارة الايطالية في الشرق الادنى ، عادت مصر تلعب ، بالرغم من الاخطار التي تعرضت لها من جراء الحروب الصليبية ، ومزاحمة الطرق التجارية الواقعة تحت رحمة المغول او اشرافهم عليها ، دوراً هاماً . صحيح انه كان من الصعب عليها جداً المحافظة على المقايضات التجارية مع الغرب . غير ان تحكمها المطلق بالحركة التجارية في البحر الاحمر والمحيط الهندي ، جعل من التجار المصريين ، سماسرة الرياء ، أمنوا لدائرة المكوس ارباحاً طائلة ملأت خزينة الدولة بالمال وساعدت على ازدهار اسواق القاهرة ازدهاراً كبيراً وبعثت فيها نشاطاً بقي خبره حيناً في خواطر الناس يتذكرونه ابد الدهر . وليس المماليك بمسؤولين وحدهم عن استنفاذ موارد الذهب لديهم ، وانتقال ذهب السودان الى الايطاليين ، عن طريق المغرب ، فيبقى في اسواق مصر ، نقد من النحاس الاحمر راح يفقد قيمته ويخسر من قوته الشرائية ، يوماً بعد يوم . وليس من غلطتهم وحدهم ولا هم وحدهم بمسؤولين عن هذا الخراب والدمار الذي نشره تيمورلنك ، في سوريا ، في منعطف القرن الرابع عشر والخامس عشر ، وهذه الحروب المضنية التي شنوها ضده فارزحت مالية الدولة والمدحتها بحيث راح السلطان برسباي يفرض احتكار الدولة لتجارة البلاد الخارجية ، ثم اضطر في نهاية الامر الى ان يتراجع عن تدابيره التعسفية هذه امام احتجاجات التجار الصارخة . وليس من غلطتهم وحدهم اخيراً ، قيام جسر ، في اواخر القرن الخامس عشر ، للاتصالات المباشرة ، بين البرتغال من جهة ، والهند من جهة اخرى ، كان في اقامته ضربة قاصمة للاقتصاد المصري ، فجعل مصر هدفاً لاطماع الاتراك العثمانيين . ومع ان الفوضى فعلت فيهم فعلتها ، واتسمت ادارتهم بالخلل في رواج كثير ، فنظام المماليك لم يكن اسوأ من غيره من هذه الانظمة او الحكومات التي قامت اذ ذاك . لقد اضمحل وانهار

امام قوى فاقت اضعافاً ماتم له منها . واذ وجد نفسه وجهاً لوجه مع الدول الاوروبيـــة التي كانت يومئذٍ في ابان تطورها وتكاملها ، وامام القوة العثمانية القاصمة النامية ، فأسقِط في ايدي سلاطينه ولم يعرفوا كما لم يستطيعوا ان يجددوا من احوالهم واوضاعهم .

ومع ذلك ، فقد جعلوا من مصر مباءة للفنون والعلوم ، ومشعلاً عالياً للادب . فالاسلام السني في مظهريه الفلسفي والفقهي يسيطر بلا منازع على البلاد، والنظام الذي اعلنه الفقيه الحنبلي ابن تيْمِيَّة والذي واءم فيه بين الجندي وبين « الكاتب » والذي تمثل على اتمه في هذا التطور الذي خضع له الوقف، زاد من تعصب المسلمين ضد الاقباط وغيرهم من الاقليات المسيحية واثار الكراهية والبغض ضد التجار الاجانب ، مع اشتداد حاجتهم اليهم ، الذين كانوا يتصرفون احيانـــاً كالقرصان . وقد عمّ النشاط الفكر في مجالات عديدة اخرى ، وهو نشاط تبلور عـن ظهور مؤلفات موسوعية ، تعليمية ، اكثر منها خَلقاً او تجديـداً ، اتجهت ، على الاكثر ، من جمهور القراء العطاش للمعرفة . وانصرف اذ ذاك ، علماء اللغة واصحاب المعاجم الى وضع عـــدد من القواميس العربية الواسعة المستفيضة ، لا تزال المعوّل عليها حتى يومنـا هذا ، بينما نشط العمل في تصنيف المؤلفات التاريخية ، حول التاريخ القديم والمعاصر، من الذهبي (القرن الرابع عشر) ، الى ابن إياس (مطلع القرن السادس عشر) ، الذي يوجد شبه كبير بين عمله هذا واليوميات التي وضعها معاصرون له من اهل البندقية . وبلغ هذا النشاط الذروة مع المقريزي ١٣٦٤ – ١٤٤٢ في كتابه « الخطط » الذي ذكر فيه ما يتعلق من الاخبار بمصر واحوالها المدنية والاجتماعية ، وقد برهن عن علم واسع ونشاط جم ، وحب اطلاع شامل تناول معه الكشف عن آثار البلاد وخطط القاهرة ، ومبانيها ، ووصف النقود المستعملة ، والاوبئة والاقليات الدينية ، هذا اذا ما ضربنا صفحاً عن اصحاب الموسوعات ، كالنويري (القرن الرابع عشر) وجـــلال الدين السيوطي (القرن الخامس عشر) واميرحماه المؤرخ والجغرافي أبو الفداء (القرن الرابع عشر) . وفي مصر وُضِعت نهائياً في شكلها الحاضر القصص الشعبية المستمدة مادتها من جميـع البلدان الاسلامية ولا سيما كتاب الف ليلة وليلة منها ، الذي ترجع منابعه الاولى ، الى بلاد فارس قبل الاسلام ، ثم زيدت عليه اضافات جديدة في بغداد .

ايران المغولية

برهن الاســـلام ، في البلدان التي وقعت تحت الفتح المغولي بوجوه شتى ، عن نشاطات وحيويات متنوعة ، لم تقل قط عما تم له منهـا في دولة المماليك في مصر . فهؤلاء المغول الغزاة الذين سايروا جميع الاديان ، في بدء امرهم ، اخـــذوا منذ اواخر القرن الثالث عشر ، يعتنقون الاسلام ، بتأثير مزدوج من النسبة العـالية للسكان المسلمين الذين خضعوا لهم ، وبدافع من التركمان الذين تمازجت معهم وانصهرت بينهم ، اولى القبائـل المغولية التي دخلت ايران . فقد برهنوا عن تساهل عظيم امـــام جميع الاديان والمعتقدات ، دون ان يفرقوا عند اعتناقهم الاسلام، بين الشيعة والسنة . ولم يخل هذا الوضع بالذات ، من بعض الاثر

على الاسلام ، اذ فقد شيئاً كان يجعله في اعين الآخرين ، الدين المميز او المفضل . وهكذا عظم شأن الشيعة وكبر وتطور ، بحيث اضبح التشيع ، بعـد ذلك بقرنين ، المذهب الرسمي في ايران .

وعلى عكس الغزو التركي ، لم يتسبب غزو المغول عن اي تغيير يذكر في البلاد التي اخضعها لسيطرته ، من الوجهة الاثنوغرافية . فاذا ما حصل شيء من هذا ، فقد جاء من قبيـل هذه المفارقات الغريبة لصالح الاتراك انفسهم . فقد دفع المغول امامهم ، عدداً من الاقوام والشعوب التركانية لم يلبث ان ألف معظمها وحدات تمازجت بالجحافل المغولية الغازية ، التي غطت بمدهـا العرم ، آسيا الصغرى وارجاء الروسيا الجنوبيـة ، فأمدتها بموجة جديدة من العنصر التركي وصبت فيها دماً جديداً . وبالنظر لنظام العيش الواحد ، استطاع التركان ، اكثر من اية قومية من هذه القوميات التي وقعت تحت الفتح المغولي ، ان يؤثروا على المغول تأثيراً اكبر من اية تأثير تم لاي عنصر اثنوغرافي آخر ، وراحوا يمتصونهم ، ولم يبق على نقاء وصفاء عنصرهم ، بمعزل عن عملية التتريك هذه ، سوى بعض الجوالي المنعزلة . انه وايم الحق ، لمصير غريب تنتهي اليه هذه العملية الجبارة. وقد عُرف هؤلاء الاقوام ، في جنوبي روسيا ، باسم التتر او التتار ، وهو اسم عنى اذ ذاك وأريد به المغول ، بينما هم بالفعل قوم من الترك لغة وعرقاً ، ولهجة .

وليس من شك قط ان "تنصُل" ، في مجالات الحكم والادارة ، بعض الخصائص والمميزات التي حملها المغول معهم من مواطنهم الاولى ، بينما تركت غيرها أثرها البارز حتى في مصر احياناً خلال عهد المماليك . علينا ان نتورع قبل أن ننسب او نرد لنظام المغول ، اي فضـل في انشاء هذه الاتصالات البريدية ، ومصلحة المباحث والجاسوسية التي انشأوها . لم يكن في وسع هؤلاء الغزاة الضالعين الى ما فوق انوفهم في الهمجية والبربرية ، ان يقيموا مثل هذه المصالح . وهكذا لا نستطيع الى يومنا هذا ، ان نميز جيداً ،في النظام الذي وضعته الدولة الايلخانية ، ما هو من اصل ايراني ، وما هو من اصل مغولي او صيني ، وما هو من ابداع أصيل . وجل ما نستطيعه بهذا الشأن هو ان نتبين ، بعض ما استحدثوه ، في النظم القضائية والمالية .

فالادارة العامة بقيت في ايدي الوزراء وكلهم من سكان البلاد الاصليين ، ومن كل المذاهب كرشيد الدين الخطيب ، وهو يهودي اعتنق الاسلام ، وفيلسوف تعاطى الحكمة وتولى الصدارة العظمى للالحان غازان ، عام ١٣٠٠ .اما السلطان فقد احتفظ لنفسه بقيادة الجيش،وبالقرارات السياسية الملزمة ، مستعيناً في عمـله ، بارشادات المجلس الاعلى للمغـول ، وسار على قانون جنكيز خان . وقد لفت انظار الناس الى بعض الاشياء الخارجية التي استحدثها كالفرمـان (يارلغ) والانواط المعدنية التي انعم بها على بعض القادة ، والخاتم الذي تُمهر به اوراق الديوان (الطرّة) والذي يشبه شبهاً كبيراً الطغراء عند السلجوقيين . وبعد ان رَسُخ النظام واستقرت أسسه ، كان على الدولة ان تسير وفقاً لمقتضيات الوضع الراهن . فالغرض الذي رمت اليه في الدرجة الاولى ، كان استغلالها للبلاد بالسيف والبطش والارهاب ، حتى اذا ما حلّ الرعب في

قلوب السكان بعد ان اقفرت البلاد وجف منها الضرع وصوّح الزرع ، اخذت الحكومة المغولية بعد الانتهاء من عملية الفتح ، تتبع نهجاً ادارياً اكثر انتظاماً من قبل . وقد وفرت الفتوحات للدولة الايلخانية على قدر ما سمحت به التقاليد المرعية ، املاكاً واسعة وعوائد عينية وافرة . فاذا لم تجر الدولة تغييرات جذرية تقلب الاسس التي سارت عليها جباية الضرائب منذ عهد سحيق ، فالاصلاحات التي قامت بها، وكلها مستوحاة من مغول الصين، اي من المناهج الصينية ساعدت على وضع نظام مالي مبسط وفرت لها محصولاً اطيب من الواردات، كل هذا لم يمنع قط الدولة الايلخانية من ان تجد نفسها ، في اواخر القرن الثالث عشر ، عرضة للمصاعب ذاتها التي تعرضت لها الحكومات السابقة ، بعد ان زادت فداحة الدمار الذي اصاب جانباً كبيراً من البلاد ، وتكالب الحكام والقواد العسكريون ، على ابتزاز السكان واغتصابهم باسوأ الاساليب . فامام تدهور النقد ، والعجز الذي مُنيت به الدولة ، فمنعها عن تأمين مرتبات الجند ، راحوا يروجون في العالم الاسلامي ، العملة الورقية التي نجح استعمالها في الصين ، وهي محاولة كتب لها الفشل ومنيت بالخيبة لقلة دربة القوم وعدم خبرتهم وعدم تهيئة الناس لها بصورة مرضية . وعمد السلطان محمود الغزنوي اذ ذاك الى ضرب عملة سليمة . ولكي يشجع الجند على استثمار الاراضي، قرر ان يُقطع الواحد منهم اراضي واسعة . وهكذا عاد العمل بالاقطاع من جديد . ومع ذلك لم يستطيعوا ان يحولوا دون تدهور النظام . وقد قام الى جانب الاراضي التي وقعت مباشرة تحت ادارة الدولة ، امارات عدة اعترفت لها بالولاء والتبعية ، ومع ذلك لم تطبق هذه الاصلاحات تطبيقاً كاملاً .

من الفوائد التي ادّت اليها الوحدة المغولية ، إقامة علاقات اقتصادية مباشرة مع جميع ارجاء آسيا . والتسامح الديني والسياسي الذي عُرفت به هذه الدولة ، مكن لعدد من المرسلين من رهبانيات الدومنيكيين والفرنسيسكان ان يتوغلوا بعيداً في اواسط آسيا وان يقيموا لهم مراكز للتبشير وابراشيات ، تناثرت حباتها من شطآن البحر الاسود حتى مشارف بحر الصين ، حتى ان قوافل من التجار الايطاليين ، انضموا ، لاول مرة في التاريخ الى القوافل الآسيوية التي كانت تجوب اقطار الهند والصين ، وتم تبادل الممثلين السياسين ، بين بلاط المغول والدول المسيحية في الغرب . وقد نتج عن هذا ، بنوع خاص اتساع الافق امام الاتصالات البشرية ، كما وضع كثيرون من الرّحالة الغربيين ، اوصافاً مثيرة لهذه البلدان الجديدة التي وطأتها ارجلهم لاول مرة ، والتي كانوا يجهلون عنها كل شيء ، فظهرت لاول مرة في التاريخ كتب وصفية منها كتاب « جامع التواريخ » لرشيد الدين ، وهو كتاب أرخ فيه للمغل وملوكهم ، من جنكيز خان الى غازان ، وللفرس والخلفاء وللملوك الصين وملوك الفرنجة .

لا بد من التنويه هنا الى ان هذه التجربة لم تعمر طويلاً . فلم يمر ثلاثة ارباع القرن حتى عادت آسيا الى الانقسام ، وأوصدت ابوابها في وجه الغربيين . ففي عهد الوحدة لم تكن طرقها مأمونة المسالك، اذ ان الحروب التي قامت بين الممالك المغولية جعلت سالكيها في خطر .

كذلك من الصعب ان يكوّن المرء له فكرة ، ولو تقريبية ، عن الحركة التجارية التي ساهم بها بعض التجار الايطاليين . ومما لا شك فيه ان الدولة الايلخانية شهدت هي نفسها حركة تجارية اقوى على الطرق التجارية القديمة الا انها عجزت عن ان تعيد الى نشاطها السابق ، الحركة التجارية في المحيط الهندي بعد ان اخذت مصر تسيطر عليها اكثر فاكثر . وقد استقر رأيها يوماً على ان تهاجم الاسطول المصري العامل من قواعده ، في المحيط الهندي ، وهي خطة لم تر النور ، وان كانت استخدمت لها بحّارة إيطاليين من مدينة جنوى . وعــادوا الى استعمال الطرق التجارية التقليدية : فالى جانب مرفأ طرابزون ، نشأ الآن على شاطىء البحر المتوسط،مرفأ أياس *ayas* الواقع في ارمينيا الصغرى الخاضعة اذ ذاك للمغول . ومن بين الطرق التي فتحت ابوابها للتجارة جديداً ، مع انها سبق لها واستعملت بين حدود الصين ونهر الفولغا ، هذا الطريق الذي يصل بعد ان يجتاز شمالي بحر قزوين والتركستان ، بين البحر الاسود والصين ، ماراً بالاقطار الخاضعة للقبيلة الذهبية .وكانت المنافسة بين هذه الطرق على اشدها ، كما كانت على مثل هذا الوضع ، بين الممالك المغولية نفسها التي تسيطر عليها . وهذه المنافسة حالت دون حصول المماليك على ما يرغبون فيه من الرق ، من اسواق القوقاز . ولذا راحوا يحاولون الاتصال مباشرةً بالبحر الاسود وما يقع حواليه من الاقطار ، عن طريق المضايق ، بالاتفاق مع بيزنطية ، وعلى اساس من التعاون والتفاهم مع الجوالي الايطالية المقيمة في جزيرة القرم .

فالغزو المغولي لم يُلحق مع ذلك ، اي خطر يذكر بالحركة الادبية . فالشاعر سعدي انهى حياته المديدة في ظل ملوك شيراز الذين كانوا خاضعين للمغول . فاللغة العربيـة لم تبق اللغة الدارجة او المستعملة للتفاهم ، والمؤلفون،كما في مصر ، كتبوا في كل شيء ، كنصير الدين الطوسي احد علماء الشيعة الاعلام ، في القرن الثالث عشر (١٢٠١ - ١٢٧٤) الذي اسس مرصداً فلكياً في مراغا بامر هولاكو ، وحمد الله المستوفي ، من رجال القرن الرابع عشر . وقد اثر اتساع افق العلوم الجغرافية تأثيراً بالغاً على المؤرخين . فقبل رشيد الدين ، رأينا علاء الدين عطاء الجويني ، وهو مؤرخ ووال من ولاة الفرس من اصحاب الثقافات العالية ، يضع تاريخاً موضوعياً لطائفة الحشاشين ، والمطران السرياني ابن العبري،الذي عرف ان يوفّق في مؤلفاته ، بين التقاليد المسيحية والاسلامية ، وبين العربية والفارسية . وامام نوائب هذا الزمن والمحن التي نزلت في الناس ، نرى الحياة الدينية ، تميل لدى السنة والشيعة ، على السواء ، نحو التصوف ليس على طريقة كبار المفكرين ، بل بالاحرى ، عن طريق تكاثر رجال الله والاولياء الذين راحت التقاليد والاساطير الشعبية ، تنسب اليهم المعجزات والخوارق ، اوعن طريق حلقات الدراويش الذين حاولوا ، باعمالهم وحركاتهم ، ان يتصلوا بالالوهية مباشرة . وقد كان هؤلاء الدراويش على جانب كبير من الجهل فيحاولون ، عن طريق الاستجداء او بوصفهم اعضاء في جمعيات الاولياء ان يستغلوا شعائر الطبقات الشعبية البسيطة ، فجمعوا كثيراً من الوقوفات والاعطيات . يجب الا نغفل هنا عن ذكر الجهود التي قام بها الفرس لنشر الاسلام في قلب آسيا ، بعد ان اعتنقه عدد كبير من المغول والصينيين ، ولا تزال ذراريهم على هذه العقيدة ، حتى يومنا هذا .

والتقاليد الفنية التي عُرفت في عهد السلجوقيين ؛ زادت غنى ؛ إثر الاقتباسات التي اخذتها عن طريق الاتصال بالمماليك والمغول . الا ان هذه الاقتباسات قلما نراها تبرز ، في هذه المباني الهندسية الجميلة التي تم انشاؤهـــا اذ ذاك كمدفن الايلخان اولجيتو في عاصمة سلطنته ، في اذربيجان ، وفي مسجد فيرامين الى الجنوب من طهران ، او مسجـد يزد الذي شيدته احدى الامـــارات المحلية ، ورسوم الزينة والزركشة والتحلية التي اكثرت من استعمال الفن المقرنص على شكل نخاريب النحل ، او القاشاني الازرق ، الذي استعمل بلاطاً لفرش الجدران بما عليه من رسوم نباتية ، بعد ان جوّد صنعه عمال مدينة قاشان في ايران الوسطى . اما التجـديد ، فقد تناول على الاخص ، فن تزويق المخطوطات ، وذلك بفضل ما تم من اتصال بالفن الصيني . وقد عرف الفنانون الايرانيون ان يتفننوا كثيراً في هذه الصنعة فاكثروا من استعمال المناظر الطبيعية والصور البشرية على تنوع بديع في الألوان وتناسق جميـل ، بحيث بز الايرانيون بهذا الفن مـــا عُرف من مذاهب التزويق ليس في العالم الاسلامي فحسب ، بل ايضاً جميع ما بلغ اليه هذا الفن في الغرب خلال هذه الحقبة بالذات .

وكغيرها من الدول المغولية الاخرى – باستثناء القبيلة الذهبية التي عمّرت وقتاً اطول ، فلم تتجاوز الدولة الايلخانية ، القرن الرابع عشر . فالى جـــانب الانقسامات الداخلية التي وقعت في قلب هذه الدولة فعطلت كل نشاط فيها وشلت كل حركة ، عجزت عن صهر القبائل المغولية في بوتقة واحدة ، بعد ان قلّ عددها ، فعادت الى حياة البداوة القديمة . ولم يعد داع الفتح يدعوهم للاتحاد مع عناصر السكان الاخرى. وقد حال الرجوع الى حياة البداوة ، في بعض الولايات ، دون الابقاء على ادارة مالية صحيحة تؤمن جبـاية الضرائب والرسوم المفروضة على مرافق الزراعة ، واكسبت القبائل التركمانية والمغولية والكردية نفوذاً فاق بكثير النفوذ الذي تمتع به « الجيش النظامي » . فاينما جاء المغول اقل نسبة عددية ، برزت المطـــالب القومية في الولايات ، وقام يغذيها فريق من ذوي الأطماع . وهكذا لم تلبث الدولة الايلخانية ان توزعت الى دويلات وامارات ، صار قسم منها الى ابناء البلاد ، كما صار القسم الآخر الى امراء التركمان او المغول . فقد سيطر التركمان في الولايات الغربية ، واصبح شمالي العراق واذربيجان وارمينيا طوال قرن واكثر ، مسرحاً لمنافسات دامية بين الاتحادين المتخاصمين هما : « الخروف الاسود والخروف الابيض » ، فكان احدهما على المذهب الشيعي ، كما كان الآخر على المـذهب السني – وهي منافسة احتدمت واستطالت ، فأثرت من بعض النواحي ، على تكوين الدولة العثمانية ، وعلى إنشاء ايران الحديثة . اما ما تبقى من ايران ، فقد بقي سائراً وفقاً للتقاليد التي عُمـل بها من قبل ، ولم يخرج عن الصدد الذي رسمته له الدولة الايلخانيـــة الا في التقسيم السياسي الذي اصاب البلاد اذ ذاك .

الدول المغولية الاسلامية الاخرى

كان الاسلام قد سيطر على دول اسلامية اخرى ، تقع الى مـا وراء تخوم الدولة الايلخانية ، امثـــال دولة جاغاتاي في

التركستان ، ودولة كتشاك او القبيلة الذهبية في روسيا ، ولكن ليس كما هي الحال في ايران تحت تأثير سكان البلاد الاصليين الاكثر عدداً نسبياً ، ولا تحت تأثير الاتصال بالاتراك الرُحّل ، اذ ان قبائل التركان التي استوطنت هذه المناطق ، كان اعتناقها للاسلام لم يزل جزئياً ، وطري العود . ان انتشار الاسلام بين البدو الرحل في هذه الفلوات ، الذي كان ابتدأ منذ عهد بعيد استمر بعد الغزو المغولي ، واشتد على الاخص بين المغول ، إذ رأوا في هذا التضامن الديني الملاط الذي يؤلف الوحدة العضوية التي اتاحت لهم ان يتحكموا في روسيا ، وباقوام الروس الوطنيين ، الذين كان اعتناقهم للمسيحية سطحياً . ومها يكن ، فان اعتناق سكان هذه القبائل للاسلام ، سجل في عهد المغول ، خطوات حاسمة لا تزال آثارها بادية لليوم ، في هذه المقاطعات الواقعة ضمن الاتحاد السوفياتي اليوم. فلم يتسبب عن هذا الارتداد ظهور مراكز قومية للثقافة الاسلامية ، ووحدة العقيدة ، لم تفد شيئاً في حفظ الوحدة السياسية . ان مغول القبيلة الذهبية ، الذين اتخذوا عاصمة لهم مدينة سراي الواقعة على نهر الفولغا السفلى ، دانوا ببقائهم الى القرن السادس عشر ، لعدم قيام خصم قوي في وجههم . اما مملكة جاغاتاي ، فقد دُكت معالمها واستحالت رماداً منذ اواسط القرن الرابع عشر .

الهند الاسلامية

ترك الفتح المغولي أبرز آثاره وأعمقها على الاطلاق، ولو بصورة غير مباشرة، في بعض البلدان الواقعة وراء حدوده ، ولا سيا في الهند وآسيا الصغرى . استطاع خلفاء الدولة الغزنوية الذين دوّخوا المقاطعات الواقعة الى الشمال الغربي من الهند ، ان يضيفوا الى هذه الولايات، تباعاً ، منذ أواخر القرن الثاني عشر حتى مطلع القرن الرابع عشر، حوض نهر الغانج والبنغال والقسم الاكبر من الدكن ، فكادوا يحققون بذلك وحدة الهند التي مزقتها المشاحنات الداخلية وعرضتها للانقسام . وهكذا ففي الوقت الذي توقف فيه الاسلام عن التوغل عمودياً ، راح يتسع افقياً بفتوحات جديدة . رأينا رد الفعل الذي قام به سكان البلاد الوطنيون، امام هذا التوغل الديني البطيء، وكيف انهم انكفأوا على أنفسهم، واستمسكوا بضراوة ، بحضاراتهم القديمة المتحجرة . وقد فرض الاسلام على هذه الجماعات التي كانت أقل تطوراً سياسياً في أوضاعها ، ما كان له من تنظيم أسمى ، ونظامه العسكري القوي ، ومذاهبه الضرائبية التي كان اقتبسها من العالم الاسلامي ، في الغرب . وقد تمكن أتباعه في الهند ، بعد ان استقرت أوضاعهم ، ان ينشئوا مركزاً للاشعاع الحضاري ، لم يبق بدون تأثير على الهنود الذين ما لبثوا مستمسكين ، بحبل دينهم ، كما هو شأن من كان منهم في وادي الغانج او السواد الاعظم من سكان الدكن . فغزو المغول شجع هذه الحركة وبذلك نجت الهند نهائياً من كابوس الفتح وان لم تنج من غزواتهم ، وأصبحت ملاذاً للايرانيين وملجأ لهم . ولذا جاءت الثقافة الاسلامية في الهند ثقافة فارسية الطابع ، ايرانية السمة ، على مذهب السنة ، اذ ان المغول في ايران كانوا حماة الشيعة . وقد طلعت علينا في هذا العهد مؤلفات مهمة ، منها تاريخ الدول الايرانية والاسلامية في الهند ، الذي وضعه الجوزجاني ، في القرن الثالث عشر ، والقصائد التي وصلت الينا من نظم

أمير خسرو . وعلى عكس ذلـــك فالفنانون الوطنيون الذين كانوا في خدمة سلاطين دهلي ، لم يقتبسوا من ايران سوى رسوم تزيينية ثانوية ، والمدافن والمساجد التي أنشأها جاءت كلها على طراز هندي .

آسيا الصغرى

قد كان للفتح المغولي ، تأثير بالغ على آسيا الصغرى ، اذ هيأ لها — ولو مـــن بعيد — الظروف المساعدة لبروز الدولة العثمانية وتطورها. فبعد ان نال المغول من سلجوقيي بلاد الروم ، لم يعمدوا قط للقضاء على حكومتهم وتشكيلاتهم الادارية ، بـــل فرضوا عليهم الولاء والتابعية ، وألزموهم بتحمل القسم الادنى من أوَد جيشهم. وقد ساعد هذا النوع من الحماية التي أقاموها ، على شد أواصر العلاقات ، بين السلجوقيين وبين ايران ، كما ساعد، من جهة ثانية ، على نشر الاشعاع الثقافي الايراني في ديارهم بعد ان اخذت بوادر هـــذا الاشعاع تبدو للعيان في أواخر عهد الدولة السلجوقية. وهكذا استطاع جلال الدين الرومي ، في القصائد الصوفية التي وضعها ، وهي من أروع ما عرف الادب الفارسي من نظم ، ان ينشر عن طريق فرق المولوية ، النزعات الصوفية التي حملها معه من خراسان ، قبـــل ان يحقق المغول فتوحاتهم الداوية . وهكذا افترشت ارض آسيا الصغرى بالكثير من المساجد والمدارس التي شجع عـــلى بنائها وتشييدها الوزير فخر الدين علي ، فازدانت بهـــا معالم كل من قونيه وسيواس واماسيا ، ضاربين صفحاً هنا ، عن ذكر الاضرحة والخانات العديدة . وقد أفادت بلاد الاناضول ، ولا سيما مدينة سيواس التي قامت على مفترق الطرق التجارية ، من هذه الحركة التجارية التي نشطت في المرافىء التي أفضت الى الدولة الايلخانيه .

ومع ذلك ، فالمغول مسؤولون ، الى حد بعيد ، عن زوال تركيا الاولى ، من مسرح التاريخ. فالاندحار الذي لحق بهم ، والمشاحنات الداخلية التي قامت فيما بينهم ، والذهاب كعادتهم ، الى تبريز ، للظهور في بلاط سلاطينها ، كل ذلك بالغ في انهاك السلطنة وايهانها ، فقضى عليها وأزالها من الوجود ، في مستهل القرن الرابع عشر ، دونما ضجة او ضجيج . صحيح ان المغول حكموا البـــلاد حتى عام ١٢٧٧ ، بواسطة سلجوقي ارستوقراطي هو البرفانة الذي حاول ، بجميع الوسائل ، ان يحافظ على التقاليد التي سار عليها الحكم السابق . الا ان مقتضيات الدولـــة الايلخانية ومتطلباتها الضرائبية ، حرمت هذه السلطة من وسائـل العمل ، ولا سيما من جيشها الذي لم تقدّم بديلاً عنه الا عندما كان الامر يتعلق بمصلحتها مباشرة . ولم يلبث البرفانـــة فخر الدين علي وغيره ان راحوا يقتسمون الولايات التي تألفت منها المملكة قديماً ، فيما بينهم . وممـا أنكى من هـــذا كله وأهم هو ان التفسخ الذي صارت اليه السلطة ، أفادت منه المدن ومنظمات الفتوة التي بلغ من نفوذها في بعض مدن اناضوليا ، في القرن الرابع عشر ، ظهور منظمات ، شابهت من بعض الوجوه ، المنظمات التي قامت في الغرب تحت اسم *Communes* او بلديات ، والذي استفاد بالاكثر من هذا الوضع هم التركمان الذين كان أصبح من الصعب ردعهم وكبح جماحهم في أواخر عهد الدولة السلجوقية . ففي الوقت الذي أمكن فيه السيطرة عليهم والحد مـــن

شكيمتهم في الولايات القلبية او الوسطى ، تمكنوا من التحرر في الولايات الدائرية ، حيث كانوا بمعزل عن كل رقابة في جبالهم الوعرة المسالك والصعبة المنال، او كانوا يلوذون باللجوء الى داخل الاراضي البيزنطية . من بين هذه الامارات الاولى التي طلعت علينا هي امارة كرمان التي استمرت قائمة قرنين كاملين في جبال الطوروس . وقد قام التركمان بثورة عامة استطاعوا معها الاستيلاء على قونية ، اتّهم البرنامة بتدبيرها فحكم عليه بالموت حالاً فاحدثت ردة فعل لدى المغول الذين تسلموا الادارة وأدخلوا على البلاد بعض نظمهم الخاصة. الا انهم لم يأخذوا اجراءات جذرية ضد التركمان القاطنين في الولايات الدائرية . وقبل غروب شمس القرن الرابع عشر ، قام عدد من الامارات الاخرى ، بعضها على الحدود البيزنطية، أسس احداها الامير عثمان، المؤسس الحقيقيّ لدولة الاتراك العثمانيين .

ان تحرر التركمان واستقلالهم أدى الى نتائج مهمة جداً ، سواءاً في داخل آسيا الصغرى او في خارجها . فالنزعات الاجتماعية والصوفية التي برزت في الأوساط التركمانية ، ساعدت كثيراً على ظهور طرائق دينية لاقت رواجاً اكثر مما لاقته المولوية ، منها مثلاً البكتاشية ، وهي طريقة لعبت دوراً بارزاً في التاريخ العثماني. لم يكترث أسياد اناضوليا الجدد كثيراً للثقافة الايرانية التي لم تكن في نظرهم لتعني شيئاً كبيراً ، مع العلم ان هذه الثقافة الفارسية بقيت ذات تأثير عميق في البلاد مدة عدة اجيال . وهكذا لم تلبث ان اصبحت اللهجة التركية هي اللغة التي استعملت في هذه القصائد الصوفية او في روايات البطولة التي راحت تمجد انتصارات التركمان . وهكذا كانت فترة الاحتضار الطويل التي مرّت بها تركيا الاولى ، الفرصة المؤاتية للشعب التركي ليعي فيها نفسه ويستفيق فيه الشعور القومي ، ويتعرف الى ذاته ، ويفقه حقيقته ، وهي يقظة شعورية كانت لها أهمية كبرى .

وفي الوقت ذاته ، بعث تحرر الامارات التركمانية ، النشاط في قلب « الغزاة » وحملهم على الوقوف موقفاً خشناً من المسيحية البيزنطية . فأمام التخوم والحدود الخالية من كل دفاع يحميها ويقيها شر الغزوات، راحت هذه الامارات الدائرية تقضم شيئاً فشيئاً من جنبات الامبراطورية البيزنطية ، يشد من ازرها عناصر تخلت عن مراكزها في قلب الاناضول الواقعة تحت سلطان المغول ، وأخذت تتجمع وتتراص، ضامة بين صفوفها أنشط الوحدات التركية وأكثرها حيوية. وعندما انهارت الدولة الايلخانية، لم يكن يوجد،في المنطقة الواقعة بين الخروف الاسود وبين شواطىء بحر ايجيه ، سوى جماعات تركمانية ، خشنة ، كانت في سبيل انشاء كيان يختلف كلياً عما كانت عليه الدولة السلجوقية .

الدولة التيمورية

قبل ان تميل شمس القرن الرابع عشر الى المغيب ، تعرض الشرق الاوسط لهزات جديدة عنيفة زعزعت أقطاره وتركتها خراباً يباباً . فمن مملكة جاغاتاي التي فقدت كل سماتها المغولية وأصبحت تعبيراً عن هذه اللهجات التركية المحلية في أواسط آسيا، لم يبق سوى معالم دمار متراكم بعضاً فوق بعض. وهذه المدن الايرانية التي كانت،

فيما مضى ، فخر البلاد ومنارها. عانت اذ ذاك، من الاحن والمحن ما لم تتعرض لبعضه من قبل. ومقاطعة خراسان التي بلغت شأواً عالياً من الازدهار، فيما مضى ، اصبحت اليوم قفراً بلقعاً بعد ان خربت فيها شبكات الاقنية الزراعية . والسكان بعد ان حصدهم الفنـــاء بالعشرات لشدة ما تعرضوا له من ضربات وويلات رزحوا تحت نير ثقيل من الاستثمار البشع والاستعمار الجشع ، على يد ارستوقراطية عسكرية تركية انشطرت شطرين متعارضين ، استمسك الاول بأعراف البدواة وتقاليدها ، كما حبّذ الآخر الأخذ بأسباب حياة الحضر . ومن هذه التربة، طلع المغولي التركي تيمورلنك او تيمور الاعرج ، هـذا الغول الختول الاكول ، المتعطش دوماً للدماء والحالم بالحرية والاستقلال ، الخشن الملمس والوحشي الطباع ، الا انـــه من أنبغ من أطلعهم التاريخ من رجال الحرب ، والذي عرف ان يجمع بين تقاليد جنكيزخان وفضائـل الاسلام ، فجمع حوله جيشاً لجباً،عرف ان يثير حماسه ويلهب خياله ، وراح على رأس هذا الجيش الجرار يزرع ، في اواخر القرن الرابع عشر ، هذه الرقعة من الارض الممتدة من أواسط الروسيا الى شمال الهند ، ومن أقاصي حدود الصين حتى آسيا الصغرى والشام ، بالخراب والدمار ويسقيها بالدماء الحارة . وقد شعر هذا الفاتح المتبدّي انه لن يتم له انشاء امبراطورية راسخة الاركان وطيدة الاسس والبنيان ، ما لم يقمها على قواعد مدنية متينة ، وما لم يرتفع فيها للعلم والفكر والفن حرمة وقباب عاليات وسلطان ، فعاشت عاصمته سمرقند عهداً من الازدهار والاشعاع الفكري، لم تعرف مثله من قبل ولا من بعد. وراح يدافع عن الدين الحنيف ويرسخ اركانه واتخذ منه 'تكأة' ليتابع فتوحاته ، واعتمد في اعماله الحربية على نظام النقشبندية ، فادهش العـــالم وخبله بصواعق انتصاراته الساحقة وفتوحاته المدوية ، فالذين ترجموا له من الايرانيين ، اشادوا بذكره كما اشادوا بالمآسي العظام والفتوحـــات العراض ، التي دوح فيها العـالم كما ذكره بالتفصيل ، ابن خلدون الذي قابله بدمشق ، والكاتب الاسباني المسيحي كلافيخو وهذا الرجل الذي هزم امام انقرة ، "من لم 'يهزم ، وأرغم في التراب انف السلطان العثماني بيازيد ، كان اعجز من ان يأتي عملاً يصح مقارنته بالعمل الذي قام به جنكيز خان . فقد انهك دولة الاتراك العثمانيين كما انهك دولة المماليك ودولة دهلي في الهند . حتى في ايران نفسهـا حيث استطاع خلفاؤه ان يقيموا لهم دولة ومثلها في التركستان، لم يستطع هو ان يقيم سلطة سياسية جديدة . وقد إستعجم التيموريون بعد موته بقليل (١٤٠٥) وعجزوا عن ان يجددوا اياً من المؤسسات التي 'عمـل بها في الشرق الاوسط ، من قبل . وقـــد شاءت الصدف في الوقت الذي كادوا فيه يفقدون كل ممتلكاتهم ، ان تساعد احد خلفائهم على ان يؤسس في الهند ، خـــلال القرن السادس عشر ، الامبراطورية الموحدة التي عرفت بالمغول الكبير .

وقد اظهر تيمورلنك وخلفاؤه من بعده ، بذخاً كبيراً ، ، كما رعوا الآداب ، والفنون ، واتاحوا للفن الايراني ان يتطور ويتكامل ، وان يكمل الانجازات التي كان اخذ بها من قبل ، كهذه الابنية التي شيدت في سمرقند تخليـداً لذكرى تيمور ، ولا سيما ضريحه : « غوري مير »

الذي تظله قبة ضخمة زرقاء . وهذه البلاطات الزاهرة ، التي غصت بالفنانين والعلماء يقيمها شاه رخ ، وحسين بيكره في هراة ، وأولغ بك في التركستان . وازدانت مـدن ايران الكبرى : كتبريز وشيراز ، بالمساجد والضرائح الضخمة ، ومسجد مشهد ، وهـذه القصور والصروح الفخمة ـ اذا ما اردنا ان نأخذ باقوال الرحالة – التي شُيِّدت في هـذه العواصم التي اصبحت مثوى لحركة تجارية ناشطة . قامت هذه المباني وفقـاً للطراز التقليدي وفرشت باحسن زينة تعلوها القباب ، وهي من مستحدثات العهد . وجدير بالذكر هنا مـا بلغه من زخرفة الكتب وتحليتها بالنقوش والرسوم . وقد اشتهرت مدرسة هراة الفنية في القرن الخامس عشر التي اطلعت الفنان بهزاد (١٤٥٠ – ١٥٣٦) الذي عُرف بالرسوم والصور التوضيحية الدقيقة التفاصيـل . ومن المخطوطات التي زينها بريشته : « تيمورنامة » و « البستان » لسعدي . وقـد عاصر عصر البعث الايطالي . وارتفع رسم المناظر والمشاهد والصور الشخصية ، الى الاوج . وقـد ازدهر الادب الفارسي بالروائع التي ظهرت في هذا العهد، في التاريخ مير خاوند (١٤٤٣ – ١٤٩٨) الذي وضع : « روضة الصفاء » وهو تاريخ عام ، ونور الدين جامي (١٤١٤ – ١٤٩٢) وهو شاعر وفقيه اسلامي . وهذه الجداول والزيج الفلكية التي وضعهـا اولغ بك (او ألغ بك) تشهد عالياً على استمرار روح المعرفة . والجدير بالذكر هنا لدلالته هو ان الادب التركي اخـذ في انطلاقة وثابة في مقاطعة جاغاتاي ، ولا يزال علي شيرنفاي ، يعتبر لليوم شاعراً وطنياً كبيراً ، في نظر تركان التركستان . وهي حيوية مدهشة برهنت دوماً عنها هـذه الدولة الاسلامية التي عرفت ، على مدار التاريخ ، ان تجدد من شبابها ، بعد كل داهية دهماء تُلمّ بها ، او تقوم بفتح جديد مظفر . غير ان هذه الظاهرة كانت في التركستان كأنما هي بيضة الديك . فزوال الدولة التيمورية ، في اواخر القرن السادس عشر ، كان نذيراً بتغلب روح البداوة من جديد ، على تلك البلاد ، في الوقت الذي اقفرت فيه طرق التجـارة ومسالكها في هذه المنطقة ، واصبحت لا شأن لها بعد تلك الاكتشافات الجغرافية الكبرى التي جاءت في اخريات القرن الخامس عشر ، الامر الذي حمل معه نهاية المدن والحضارة التي كانت ازدهرت في هذه البقعة النائية على القارة الآسيوية .

الغرب الاسلامي

وهذا الغرب الاسلامي الذي كادت تنقطع عـلاقاته مع مصر وبلدان الشرق الادنى ، كان يعيش منكفئاً على نفسه ، مستمسكاً بعرى حضارة بقيت مزدهرة ، مشرقة ، في كثير من جنباتها ، بالرغم مما تناوب عليها من المحن والإحن وتراكم عليها من الخراب والدمار فأفل نجمها وخبا ضوؤها ، ولو جزئياً . فمنذ هـذا العهد حتى الفتح العثماني في القرن السادس عشر، نرى المغرب الاقصى منقسما على نفسه ، الى ثلاث دول او ممالك: هي مملكة تلمسان ، في المغرب الاوسط ، التي صار الامر فيها الى قبائل بدوية رحّل ، ضاربة في منطقـة جبلية ؛ والدولة الحفصية (تونس وقسطنطينة) ، المستعربة ؛ والدولة المرينية (المغرب) قوامها البربر ، التي عرفت استقراراً اثبت وارسخ ، وبنيت لهـا حضارة جمعت بين طباع الريف والمدينة . اما مملكة غرناطة التي عرفت ان تحافظ على كيانها وقوامها حتى اواخر

القرن الخامس عشر (١٤٩٢) ، فقد اقامت لها علائق وطيدة مع دول افريقية اضفت عليها جميعاً ، كثيراً من التشابه والتجانس ، وكلها على المذهب المالكي الذي كان يدرّس في المدارس القائمة في تلك البلدان . وقد ازدهرت في هذه الممالك جمعيات دينية ، صوفيـة حظيت بنفوذ عظيم بين السكان ، بعضها من اصل شرقي ، كانت تلتف حول زاويتها .. وقد ازدهرت التجارة في جميع ربوعها ، عمادها القوافل السودانية التي كانت تحمل معها الذهب . كما كانت تعتمد على التجارة البحرية التي كان معظمها بيد الاوروبيين ، فتتعرض من وقت لآخر لقراصنة الجزائريين والكتلونيين لها . وفي مثل هذا الوضع ظهرت بعض هذه الآثار الفنية تشهد عالياً على ما كانت عليه الحضارة الاسلامية في الاندلس .

في الطليعة من هذه الآثار ، يأتي قصر الحمراء ، في غرناطة ، عاصمة الدولة النصرية (القرن الرابع عشر) ، وقد فاق هذا القصر بجمال هندسته وزخرفه ، مـا شابهه من المباني الهندسية الاخرى. وهو من هذه الآثار المعمارية النادرة التي وصلت الينا كاملة ، محفوظة ، تتمثل فيه ، الى جانب بعض العناصر الفنية المسيحية ، التقاليد الهندسية الاسلامية ، في ازوع مـا بلغته من التناغي والتناسق والدقة ، ممثلة على اتمها في بهو الاُسود. ويذكرنا هذا الاثر المجيد بهذه الانشاءات الهندسية المستوحاة من الفن الاسباني ، التي تمت على يـد سلاطين الدولة المرينية ، في المغرب ، منها مثلاً المسجد الكبير ومدرسة العطارين ، في فاس. فبالقاشاني ذات اللمعان والبريق المعدني وبهذه المهارة الصناعية المستمدة من الفن الايراني ، وبهذه الاسلحـة المشهورة ، ولا سيا سيوف بوعبديل ، وبهذه الجلود ، استطاع الفن الاسباني المغربي ، ان يبرز في هذه الحقبة مع انه اقـل تنوعاً من الفن الشرقي، انما من ذوق ارفع وارسخ ، وان يبقى ويخلد بعد استعادة الاسبان لبلادهم . وقد راح فنانون مسلمون يعملون لحساب ملوك اسبانيا ، بينهم هذا الفريق الذي شارك في بناء « القصر » في اشبيلية وهذه الاساليب الفنية الاندلسية التي بقيت مرعية الاستعمال لدى المهندسين المسلمين ، بعد الفتح الاسباني ، عُمل بها حتى نهاية القرن السادس عشر ، واستعملوها جنباً الى جنب مع الفن الغوطي او عصر الانبعاث ، وازداد شأنها . فالفن الاندلسي هو من هذه الآثار الخالدة التي طلعت بها العبقرية الانسانية والتي لا تزال اسبانيا تباهي بها لليوم .

بالرغم من ان النشاط الفكري جاء ، نوعاً ما ، اضعف بقليل من النشاط الفني ، فقد عرف الادب ، في القرن الرابع عشر ازدهاراً عظيما ، تمثـل في مملكة غرناطة بشخص لسان الدين الخطيب ، احد مشاهير ادباء الاندلس قبل خروج المسلمين منها ، وبابن بطوطة وابن خلدون ، في المغرب . رأى ابن بطوطة النور في مدينة طنجة ، وهو احدث عهداً من ماركو بولو . فقد قام برحلة امتدت اقاصيها من تمبكتو ، في السودان ، الى مدينة كنتون في الصين ، وترك لنا وصفاً في تنقلاته هذه لا يقل شأناً ولذة عما نجده عند زميله ورصيفه البندقي . اما ابن خلدون ، فهو من عائلة عربية هاجر اهله من اسبانيا واستقروا في تونس ، وتوفي في القاهرة بعد حياة مديدة. مثل دوراً بارزاً في شتى الممالك الاسلامية ، في المغرب : وكتابه : تاريخ البربر ، الذي جـاء ضمن

موسوعته التاريخية الكبرى، ينم عن دقة متناهية ، وقوة ملاحظة شديدة ، وحصافة في الرأي. الا ان المعلومات الثمينة التي تضمنها هي ادنى منزلة عن « المقدمة » التي وطأ فيهـا لتاريخه المشهور . ولأول مرة في التاريخ ، يطلع علينا مفكر بدراسة عميقـة ، محللة ، ناخلة ، للمجتمع البشري ، وهي دراسة يستأنس بها ، ويعول عليها علماء الاجتماع المحدثون ، اليوم . فجـاءت دراسته هذه بحثاً علمياً موضوعياً لاسس المجتمع ولنواميس تطوره . وقد امـده هذا المجتمع المغربي الذي يعرفه معرفة اليقين ، بنظريات دقيقة حول طبيعة حياة الحضر والمدر او البدو ، كما جاءنا بنظريات صائبة حول العصبية القبلية او القومية التي بدونها لا يمكن ان تقوم قائمـة لدولة تتطلع الى الاستقرار وتنشده . وهذا الاثر الادبي الذي تناسى الناس شأنه بعـد وفاة صاحبه يُعَد اليوم احدى القمم التي بلغها الفكر الانساني في الاجيال الوسطى ، فـاق كثيراً بسموه ، من وجوه عدة ، قوة التفكير التي برهن عنها توما الاكويني .

ازداد المغرب الاسلامي تقهقراً ، خلال القرن الخامس عشر فراحت اسبانيا المسيحية تهاجم بعنف ، مملكة غرناطة محاولة الاستيلاء عليها فتم لها ذلك عام ١٤٩٢ كما راحت من بعد تهاجم شمالي افريقية الذي طالما امدّ بالنجدة واردف بالمعونة ، مسلمي الجزيرة الاندلسية ، واتخذ منه القراصنة المسلمون في المغرب قاعدة لهم وملاذاً ينكفئون اليه لدى الاقتضاء فاحتلت عدداً من مرافئه التي طالما اتخذها هؤلاء القرصنة قواعد لهم ، بينما راح البرتغاليون يحتلون بعض المواقع على ساحل المغرب ، استخدموها مراكز لهم في محاولاتهم الالتفاف حول القارة الافريقية . وامام هذا الخطر الاجنبي الذي لم يكن في مقدور امراء المغرب وسادته دفعه ومنهم من مالأوه وساندوه وتعاونوا معه و انكفأ الشعب على نفسه وراح يلتف حول بعض الاولياء في زواياهم بانتظار ان تسعف الظروف التي تهيأت في القرن السادس عشر في بروز الامبراطورية الشريفية في المغرب وظهور امارات وطنية في ما تبقى من اجزائه الاخرى ، كانت ملاذاً للقراصنة لم تلبث ان اعترفت بولائها للامبراطورية العثمانية . وهؤلاء المسلمون واليهود الذين اخرجوا من اسبانيا أفادوا المغرب افادة كبيرة بما تم لهم من تجربة وخبرة واسعة كسبوها من خلال مدنية كانت اسمى بكثير من مدنية البلاد التي لجأوا اليها . ففي الوقت الذي كان فيه الاسلام ينكفىء في البلدان الواقعة على سواحل البحر الابيض المتوسط كان يعطي برهاناً جديداً على مـا فيه من قوة حيوية دافقة ، في هذا الانتشار والتوسع السريع الذي حققه بين سكان افريقيا السوداء الاقل تطوراً .

وهذه الامبراطورية السوداء– امبراطورية غانا – التي قامت وانتشرت عند اعالي نهر النيجر والتي كان زعماؤها الأُول من البيض ، قضى عليها سلاطين دولة المرابطين في القرن الحادي عشر . ولم يلبث السودان النيجيري ان حقق ، هو الآخر استقلاله السياسي وساعد دخول الاسلام اليه، على يد المرابطين وتوغل في ارجائه بواسطة المبادلات التجارية عبر الصحراء التي دارت على اساس مقايضة الذهب بالملح . كذلك هيّأ الظروف لتشكيل منظمات سياسية ، ساعد الاسلام على تكوينها بقيادة زعمائهم المحليين. وقام بين السكان الملونين حيث بقي جانب منهم على الشرك وعبادة

الاوثان ، امبراطوريات اساسها المقاومة الوطنية ،تولى الامر فيها زعماء من الزنوج المسلمين ،منها في القرن الرابع عشر ، امبراطورية مالي التي امتدت رقعتها من غابات افريقيا البكر الى هذه الواحات الواقعة الى الجنوب من الجزائر جاعلة من تمبكتو ، المركز التجاري الكبير فيهـــا قاعدة للاشعاع ، حيث راح مهندسون اندلسيو الاصل ، ينشئون فناً هندسياً سودانياً بعد ان عرفوا ان يوائموا بين تقاليدهم وبين الاعراف الوطنية . من هذه الامبراطوريات التي قامت في القرن الخامس عشر امبراطورية غوا التي أخذت بعد انحاز محورها نحو الشرق ،تحيي على حسابها امبراطورية مالي ، من الوجهتين الادارية والاقتصادية بمساهمة جهود اسبانيا والدعوة الدينيـة التي نهض بها مرشدون مغاربة . والاسلام الذي وصل الى هذه المنطقة عن طريق مصر وغوا ، بلغ منطقة بحيرة تشاد ، والتقى في نيجيريا بحضارة زنجية قديمة ، جديرة بكل تقدير واحترام بما حققته من انجازات في حقل الفن ،هذا الفن الذي يمكن رد اصوله الاولى ،الى مؤثرات جاءت من بلدن البحر المتوسط ، لم تعتم ان تغلغلت بين القوم هناك ، فاقبلوا عليها يستلهمونها . وبعـد زمن قصير توقفت حركة التطور في البلدان على اثر العبث الذريع الذي احدثه في تلك الارجاء تجار النخاسة والرق من الاوروبيين ، هذه الحركة التطورية التي بعثها الاسلام في تلك البلاد ، قبل ان تطأها اقدام البرتغاليين ، بزمن طويل .

٢ ـــ أفول نجم الدول المسيحية في البلقان

اليونان واللاتين وجهاً لوجه في البلقان

على الحدود الغربية للعالم الاسلامي ، في هذا المركب الغريب من الدول المسيحية المتناثرة على شواطىء البحر الابيض المتوسط الشرقيـة وعلى بحر ايجيه والتي يتألف من مجموعها ما يعرف بالبلقان ، توارت عن الانظار بسرعة ، وزالت من الوجود ، هـــذه الامبراطورية اللاتينية ، التي قامت في القسطنطينية (١٢٠٤ – ١٢٦١) .
فالضعف الذي كانت عليه في الداخل ، وهذه اللامبالاة التي بدا عليهـــا كبار الاقطاعيين من امرائها اللاتين واستهانتهم بكل شيء ، واستمرار الوجود اليوناني ممثلاً في دولة اليونان في آسيا الصغرى ، وكره السكان المكبوت لهذه الكنيسة الغربية التي حاولت بسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية الوطنية ، وامتداد المد التركي العثماني واستفحال شأنه ، كل هذا ألف عوامل قوية كان باستطاعتها ان تقضي عليها باسرع مما قضت ،لو عرفت ان توقف معاً هجومها على هذه الدولة التي عمرت نحواً من ستين سنة . وهذه المنافسة الشديدة التي مزقت صفوف اللاتين ، اتاحت اخيراً للامبراطور ميخائيـــل الثامن ، في نيقية ، والمؤسس الحقيقي للاسرة الامبراطورية بليولوغ ، ان يسترجع القسطنطينية ويعيد اليها كرسي الامبراطورية ، عام ١٢٦١ ولكي يقضي تمامـــاً على سيطرة البندقية واللاتين وليسد اشرافهم على المضايق ، راح يستميل الى جانبه جمهورية جنوى ،منافسة البندقية ومزاحمتها الخطرة على الاسواق التجارية في هـــذا الحوض الشرقي من البحر المتوسط ، فشدت من ازره ، وساندته في انجاح عمليته هذه ، وتحقيق اهدافه منها .

وهذه « الامبراطورية البيزنطية » الجديدة، لم يكن بينها وبين سابقتها بالفعل ، شيء مشترك وهي الامبراطورية التي تولى الامر فيها سلالة آل كومنان ، فاعطتها ستة اباطرة من افرادها. ولم يكن بين سكانها عناصر غريبة كثيرة باستثناء بعض الجوالي اللاتينية ، ونوازل التجار المقيمين في القسطنطينية . وكانت ابعد من ان تضم تحت جناحيها ، كل المقاطعات اليونانية : فقد خرج من تحت سيطرتها وولائها ، المقاطعات التي كان اقتطعها العرب والبلغار ، بينما تقاسمت امـارات الفرنج ، شبه جزيرة اليونان وجزر الارخبيل . وقد تم فتح بيزنطية واستعادتها ، بعـد القضاء على المقاومة ، على ايدي القوى المحلية ، بينما بعض المقاطعات الاخرى كأبيروس وتسالونيكي وبعد ذلك الموره التي تم استخلاصها من يد الفرنج ، وطرابزون الواقعة في الزاوية الشرقية من البحر الاسود ، كل هذه الامارات كانت تنعم باستقلالها الاداري ، وتنصرف لمناهضة بعضهـا البعض. وهذه الفسيفساء من الدويلات اليونانية ، لم يكن لهـا اي حظ قوي بالعيش الكريم ، وكلها تواجه اعداء وخصوماً ينظرون اليها شزراً ويتمنون الايقاع بها ، ويتمثلون على الاخص بهؤلاء اللاتين والسلافيين ، ولا سيما الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى . غير ان اللاتين والسلافيين لم يكونوا هم ايضاً ليقلوا انقساماً ، عنهم في الداخل بحيث اصبح من العسير ، لا بل من المستحيـل على المؤرخ ، ان يتتبع هذه الاحلاف والمعاهدات التي تعقد من فوق الحدود والتخوم لتنحل باسرع مما تُعقد ، فاتحة المجال امام تعديلات وتغييرات في الحدود الفاصلة لا تنقطع . وهذه الكيانات السياسية ما كادت تقوم لتتوارى بسرعة ، وفي هذا ما فيه من تعبير صريح ودلالة واضحـة على هذه الخصومة العنيفة والعداء الازرق الذي باعد بين الشرق اللاتيني والشرق البيزنطي.

والطابع المميز لهذه الدول البحرية ، سواءٌ كانت لاتينية او يونانية ، ولا سيما لامبراطورية آل بليولوغ ، هو اشتداد قبضة الاجنبي ، سيان جمهورية البندقية ام جمهورية جنوى ، على مرافق التجارة في هذه البلدان ، والتحكم باسواقها . وكان من بعض نتائج الفتح المغولي والعاصفة الهوجاء التي سببها، ان اتاح للايطاليين ان يستخلصوا، من ايدي اليونان البقية الباقية من نشاطهم التجاري في المضايق وبحر ايجيه ، وان يسيطروا كلياً ، على الحركة التجارية والملاحة في البحر الاسود . وبدلاً من ان تتخذ الامبراطورية البيزنطية الجديدة ، بدأ من هذه المنافسة الشديدة التي اشتد أوارها ، اذ ذاك ، بين جنوى والبندقية ، فقد رأت نفسها تتورط في اشتباكات خرجت دوماً منها خاسرة : فقد حاولت عبثاً ، ان تسيطر على حي (او حارة) البنادقة القائم على مقربة من القسطنطينية القديمة ، وعلى الشاطىء الآخر للقرن الذهبي ، في المدينة الحديثـة ، حيث يقوم مرفأ بيرا غـلاطة ، وهو المعقل الحصين الذي يسيطر عليه تجار جنوى .وكانت كل المكاسب والمغانم التجارية ، تروّج لهذه او لتلك من الدولتين المتنافستين ، دون ان تفيد دار المكس في القسطنطينية منها شيئاً على الاطلاق ، في وقت وظرف كان فيه فقـدان الامبراطورية لبعض مقاطعاتها ، وتطور النظام الاقطاعي فيها ، يجعل للرسوم والعائدات التجارية ، اهمية متزايدة ، بالنسبة لدخل الدولة من الاراضي . صحيح ان مدينة القسطنطينية بالذات حققت بعض الفوائد

والمنافع من وجود هذه الوكالات التجارية على ارضها . ولكن كبار رجال المال والاعمال ، كانوا في هذه الحقبة بالذات ، كلهم من الاجانب ، كما كان هذا الوضع بالفعل وضع كل الاسكلة البحرية في الشرق الادنى ، بحيث نزلت الارستوقراطية الوطنية الى اسفل الدرك من البؤس والشقاء ، بينما كان على الانتاج الصناعي نفسه ان يراعي ، في الاكثر ، مطالب الزُبُن الاجانب . وهو وضع لم ينفض بعد للآن ، كل نتائجه الكامنة .

وقد رافق هذا التطور ، حركة شديدة من الاخذ بالنظم الاقطاعية والتطبع بطابعها ، لفتّت المجتمع والكيان السياسي نفسه بتلابيبها . وقد ساعد على هذا ، الوضع الاجتماعي الذي كان عليه اللاتين اذ ذاك ، اما بنشرهم لهذا النظام والترسيخ لاعرافه في بلاد اليونان اي في مثل هذا المجتمع المعقد التركيب ؛ اوباستبدالهم الارستوقراطية اليونانية بارستوقراطية إقطاعية ، واما لوجود الدويلات اليونانية نفسها مرغمة على التنازل لعظماء الدولة ولعلية القوم فيها ، عن قسم كبير من املاكها وما تبقى لها من حقوق باقيات ، لتتمكن من الاستمرار في محاربة اللاتين ، مع العلم ان توزيع الاراضي وتجزئتها على هذا النحو ، زاد من صعوبة الاحتفاظ بادارة مركزية . وهكذا وجدت البلاد نفسها في حلقة مفرغة ، لم يكن منها مخرج ، اذ ان تناقص الخراج وتدني رسوم الضرائب ، اجبر الدولة على مكافأة الخدمات التي تحصل عليها ، بتوزيع جديد للاراضي التي تملكها فتخسر بذلك ريعها ، وقد تولى الامر في الدولة ، اباطرة لم يكن ليستطيعوا تصور الامور على وجه آخر ليتمكنوا من المحافظة على وحدة سريعة العطب والزوال ، لهذه الاراضي التي لا تزال تسيطر عليها ، عن طريق توزيعها إقطاعات على شاكلة ما كان يجري في ممالك الغرب .

فليس من عجب ان ينجم عن مثل هذا الوضع الذي كانت عليه الدول اليونانية والامارات اللاتينية المجاورة لها ، قوة عسكرية ضعيفة الجانب ، قليلة العدد والعُدد تمثلت في هذا الجيش الذي أمكن انشاؤه في مثل هذا النظام الاقطاعي ، وهو جيش لم يكن ليوحي جانبه باية ثقة ولا يبعث اية طمأنينة فاضطرت هذه الدويلات للاستعانة بوحدات من المرتزقة . وقد سبق ونوهنا من قبل ، بالحوادث التي سببتها الفرقة الكتلانية التي أرسلت لمحاربة الاتراك . ولما لم تُدفع لافرادها مرتباتهم ، واذ رأت نفسها غير قادرة ان تعيش في مقاطعة جرى نهبها وسلبها من كل شيء ، راحت تعيث فساداً في الولايات البلقانية وتنهبها ، وانتهى بها المطاف نهائياً ، الى اغتصاب دوقية اثينا من امراء الفرنج الذين كانوا يسيطرون عليها . وكثيراً ما رأى اباطرة آل بليولوغ انفسهم محرومين من كل قوة ، فراحوا يخطبون ود بعض الامراء ممن لا تزال انفسهم تنبض لذكرى الامجاد القديمة ، او تتحمس لمصير رروما الجديدة ، ويطلبون مؤازرتهم ، امثال الامبراطور حنا الخامس مانويل ، كما راح غيره يستنجد بامراء الغرب ويستعطفهم مؤازرتهم .

كذلك كان من نتائج هذا الوضع ان ادّى التطور الاقطاعي والمولوي في البلدان اليونانية واللاتينية الى القضاء قضاءً تاماً ، على طبقة الفلاحين الاحرار ، ففي الحين الذي حققت فيه

الطبقات الريفية في الغرب تحررها ، وقعت هـذه الطبقات نفسها ، في الشرق ، ولفترة امتدت بضعة قرون، فريسة وضع لم يختلف كثيراً عن وضع الرق والاستعباد. وقد اصبح في شبه المستحيل ان يؤخذ من هذه الطبقات اية قوة عسكرية للدفاع عن البلاد ؛ كما لم يبق بينها اي اهتمام بالحفاظ على نظام سياسي ووضع اجتماعي لا يعود عليهم باي نفع قط .

وقد عاد انهيار السلطة المركزية بالتالي وانحلالها ، بالفائدة على الارستوقراطية العقارية وعلى كبار الملاكين ، ومن ثم على المدن . ففي الوقت الذي قضت فيه البيروقراطية البيزنطية على كل استقلال داخلي للبلديات ، اخذنا اليوم نشاهد ظهور ادارات بلدية تنشىء لها حكومة كما فعلت مدينة تسالونيكي ، مثلاً التي يمكن اعتبارها خير نموذج ، على ذلك ، فشابهت الى حـد بعيد ، المدن الايطالية في هذه الحقبة التاريخية. فعندما قامت السلطة البلدية ، في المدن الايطالية الآخذ شأنها بالازدياد كانت هذه المدن مرتبطة بسلطة الطبقة البورجوازية التي كان لهـــا نفوذ تجاري بعيد المدى . لم يتم شيء من هذا تقريباً لمدينة تسالونكي ، اذ كانت الحركة التجارية فيهـــا بيد الاجانب ، بينما اصحاب المال والاعمال من ابناء البلاد ، كانوا قلة لا يُعتدّ بها. فالمدينة الحكومة يتولى الامر فيها الارستوقراطية العقارية ، وهي تقيم في المدينة نفسها ، وهو الوضع الذي كانت عليه ايطاليا عند طلوع نظام الـ *Communes*) فهي التي تستفيد ، قبـــل غيرها ، من النشاط التجاري الذي يقوم على محاصيل الارض ، وغلالها ، والانتـــاج الصناعي المحلي الذي كان في مقدورها وحدها ، ان تنظمه على الوجه المفيد ، وان توجهه الوجهة المطلوبة . وفي وجه هذه الارستوقراطية العقارية تقوم معارضة البروليتاريا ، البائسة ، وهي معارضة تتجلى في هذه الفتن والاضطرابات التي تعمل على تنظيمها ، والتي يتفق حدوثها مع هذه القلاقل يقوم بها العمال الفلمنك او العمال العاملون في مرافق الصناعة في فلورنسا . والنجاح الموقوت ، العابر، الذي حققه هؤلاء العمال ، هم مدينون فيه لمؤازرة بعض العنـاصر الارستوقراطية لهم ، اذ ان البليولوغ وقفوا الى جانب « الروافض » في تسالونيكي ، ضدالفريق الارستوقراطي الآخر الذي ناصر مزاحمهم على العرش : جان كنتكوزين، حوالي عام ١٣٤٠ ، ومثلهم أبيدوا واندرسوا فزالوا ، عندما اتخذو ضدهم اجراءات جذرية كمصادرة املاكهم ، الامر الذي افضى الى الغاء هذا التحالف العارض .

وهكذا قامت في البلدان البلقانية ، بصورة تتفاوت وضوحاً وشعوراً ، اضطرابات اجتماعية وقومية . صحيح ان الحماسة الشعبية في القسطنطينية قد تكون اتجهت شطر العائلة المالكة التي عرفت ان تسيطر على القلوب بما حققت من امجاد، او قد تكون آزرت، في مقاطعتي الابيروس والمورة ، هذا او ذاك من القادة والزعماء المحليين . ولكن كان من الصعب جداً ، على الجماهير الشعبية ، ان ترى شيئاً « قومياً » في مسلك وتصرف هذه الاسر المالكة التي كانت تحاول عن طريق ألاعيبها السياسية والمصاهرات ، ان تنعم : تارة بمؤازرة اللاتين وطوراً بمناصرة السلافيين ، وآونة بعطف الاتراك انفسهم ، مع ان هذه المواقف السياسية التي طالما وقفوها ، في ذبذبة موصولة، وتأرجح لم يقم على وزن وقسطاس لم تؤدِ يوماً ، الى اي تحسين في اوضاع رعاياهم . والذي كان اكثر

ما يهتم له هذا الشعب، في الوقت الذي فتحت فيه على مصراعيها قضية الخلافة في الامبراطورية البيزنطية ، هو استمرار هذا النمط من العيش الذي ألفوه واستكانوا اليه ، وبقـــاء هذه القيم الحضارية والثقافية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذا النمط ،اكثر من اهتمامهم لاستمرار وضع سياسي او كيان سياسي بعينه . ففي الوقت الذي اخذت تطل فيه علينـــا – في اليونان – بوادر روح قومية لا يشدها شيء الى بيزنطية البعيدة الشعوبية ، واجه الشعب احتمال سقوط الامبراطورية وزوالها باهتمام كلي ، بعد ان عرف خصومها كيف يستثمرون الى الحـد الاقصى ، الوهن الذي كانت تتسكع فيه ، والضعف الذي تهاوت اليه .

ولا يقل الدور المخلخل ، المحلل للعالم الإيجي ، الذي لعبه اللاتين هنا ، عن الدور الذي مثلته الامارات اليونانية في هذا المجال . فالمدن التجارية لم تكن تؤازر سوى الامـــارات التي كانت تشغل في نظرها ، مركزاً هاماً، في المجال الاقتصادي ، او انها تتمتع بمركز ستراتيجي لا تخفى اهميته ، بينما راحت تترك الاخرى وشأنها ، تعـــالج مشاكلها كما ترغب وتشاء او بالتي هي احسن ، وهذا الموقف بالذات ساعد اليونان على انشاء امارة مستقلة لهم في شبه جزيرة المورة . فحيث لم ينعم التجار الايطاليون بالنفوذ السياسي ، فقد كان عندهم سواء ان يكون صـــاحب الشأن او الامر لاتينياً او يونانياً ، سلافياً او تركياً ، اذا كان يضمن لهم ويحافظ على ما ينعمون به من امتيازات ولعفاءات ، او يساعدهم على منافسيهم ومزاحميهم . فالجنويون والبنادقة كانوا يتزاحمون على كسب رضى صاحب السلطان في هذه الدولة التركية الناشئة ، على امل ان لا يقيم العراقيل ، والا يثير الصعاب في وجه تجارتهم ، وهم لا يجهلون قط ان حرباً حامية يعلنونها ضدها تكلفهم غالياً .

والذين افادوا من هذه الاضطرابات هم السلافيون ، في الدرجة الاولى ، ثم الاتراك العثمانيون في الدرجة الثانية . فسقوط بيزنطية ارتبط الى حد بعيد ، بصعود هذه الشعوب وبروزهـا الى المعترك الدولي .

الممالك السلافية في البلقان

اتاحت أزمة الامبراطورية البيزنطية للبلغار ، منذ اواخر القرن الثاني عشر ، ان يستعيدوا بمناصرة الفلاخ *Valaques* اوالرومانيين – وهم شعب جديد أطل على التاريخ – استقلالهم برئاسة ملوكهم من الاسرة الارسانية ، كما اتاحت ، لجيرانهم من الصرب ، بعد ان بقوا طويلا تحت تابعيتهم ، ان يوسعوا من الرقعة التي يحتلونها تحت الشمس بحيث امتد سلطانهم من الدانوب شمالا حتى سواحل البحر الادرياتيكي جنوباً ، فحققوا بذلك استقلالهم الناجز . وقد ساعد الضعف الذي عانت منه الامبراطورية اللاتينية ، هـــاتين الدولتين على ترسيخ السلطة فيها واقامتها على اصول وطيدة ، كما ان البابوية رعت منهما الجانب ، املا منها بتحقيق الوحدة الكنسية معها . والدولة البلغارية التي كانت ، في الداخـــل ، مثاراً للفتن ، وتعرضت ، منذ عام ١٢٦١ ، لنقمة البيزنطيين اكثر من تعرضها لهجمات مغول روسيا ،

تحالف على سياستها ، حتى القرن الرابع عشر ، هزات كثيرة بين رفع ودفع وخفض وطلوع ونزول . اما مملكة الصرب التي سارت في تطورها على خطى ابطأ واكثر انتظاماً ، فقد بلغت الأوج ؛ في منتصف القرن الرابع عشر ، في عهد مليكها اسطفانس دوزان. والعنصر السلافي في كلا الدولتين يؤلف غالبية الشعب ، مع العلم ان دخول اقوام الكومان الى بلغاريا – وهم من العرق التركي جاؤوا من جنوبي روسيا هرباً من الغزو المغولي – ووجود اقوام الفلاخ من كلا جانبي الدانوب الاسفل،عقّد التركيب الاثنوغرافي لهذه البلادوجعله كثير التخالط والامتزاج. وعلى اثر ضم كلتا الدولتين عندما اشتد منهما الساعد، اراضي جديدة ومقاطعات معظم سكانها من الاغريق ، اتسم تنظيمها ، من جهة اخرى ، بميسم خاص وارتدى طابعاً مختلطاً نصفه سلافي والنصف الثاني بيزنطي .

والملكية، هذا النظام المتوارث في الحكم الذي عرفه البلغار وساروا عليه طويلا من قبل ، بينما برز لاول مرة لدى الصرب،فقد قامت،في كلا البلدين على اسس متشابهة. فالملك حمل عندهما لقب « قيصر » ، وحذا في سمته وبلاطه ومراسم حياته الخاصة ، حذو الامبراطور في بيزنطية واخذ ، في اوقات سعوده عندما كان يبسم له القدر ، يتشوّف الى خلافته والحلول محله . وقد نقل عن بيزنطية الاساليب الادارية التي سارت عليها ، والتنظيم المالي والضرائبي الذي ارتضته سبيلا ، وقانون الحق العام الذي تمشت عليه ، وسلطة الدولة على رئاسة الكنيسة الوطنية المستقلة ، مع بقائها مرتبطة اشد الارتباط بالبطريركية ، المسكونية في القسطنطينية . وهذا الارتباط ساعد النفوذ البيزنطي والثقافة البيزنطية على التغلغل عمقياً الى مكامن الحياة العامة لدى البلغار .

اما الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، فقد تلبس ، على عكس ذلك تماما ، طابعاً ريفياً ، زراعياً ورعويا . فالمدن التي قامت على سواحل البحر الادرياتيكي كان معظمها بمنأى من سيطرة الصرب ، بينما المدن الوحيدة من بين مدن دوزان والبلغار التي كانت فعلاً خليقة بهذه التسمية ، فكانت تلك المدن اليونانية التي تم ضمها الى جسم البلاد دون ان تندمج فيها دمجاً . صحيح ان فتح مناجم للتعدين ، في صربيا على الاخص وفي ترانسلفانيا ، استعين له بمهندسين فنيين من السكسون لادارتها ، ساعد على بعث حركة تجارية ضعيفة ، غير ان تجارة الرق ، ساعدت كثيراً هي الاخرى ، على انشاء سوق تجارية راجت كل الرواج في مقاطعة بوسنه ، حيث جرت العادة على اتخاذ الارقاء من بين افراد القبائل البوغوميل والباتارين والبابون بعد ان تعذر العيش والوصول الى صلح معها . ومع ذلك فقد لبثت الثروة العقارية هي الثروة الحقيقية ، في البلاد . فالملكية التي كانت من قبل بيد الاسر القروية الكبيرة ، اصبحت الآن تابعة للعرش او لطبقة النبلاء ، ذات النفوذ الواسع ، التي حاول الملك ان يخفف من غلوائها بخلق طبقة مماثلة منافسة لها معظمها من كبار رجال الدولة والموظفين ، والاتباع ، تكون من حيث طبيعة تركيبها ، اكثر استسلاماً له ، وامتثالاً لأوامره ونواهيه . وبدون ان يستقر الملك في مقر معين

يتخذ منه داراً له ، كالكارولنجيين ، اعتاد الملك عندهم ان يجمع ، من وقت الى آخر ،وجوه البلاد وعظماء الدولة ، في هيئة عامة تقدم له النصح في كل ما يتصل بادارة البـلاد توجيه الحكم فيها. واذ كان الملك يحرص دوماً على تقليم اظافر النبـلاء والخفض من شكيمتهم ، والغض من شأنهم فكثيراً ما عمد ، تلطيفاً منه لشرهم وخطرهم ، الى توزيع الامارات والايالات التي تعود اليه بالفتح اقطاعات على المتنفذين بينهم . ويأتي بعد هذه النخبة الصاخبة التي كثيراً ما بعثت السجس وزرعت القلاقل، في البلاد سواد الشعب القروي الذي لم يكن وضعه ليختلف كثيراً عن وضع الارقاء ، او الفلاحين المشدودين الى الارض ، في بيزنطية .

والكنيسة التي تمتعت بسلطة ونفوذ واسعين من جراء ما كانت عليه من ثروة عقارية ضخمـة وغنى ، لعبت أديارها الوافرة العدد ، دوراً أساسياً في حياة الريف وتطويره . وبالرغم مـن الطابع اليوناني الاصيل لثقافتها والتي تمثلت أحسن تمثيل في هذه المؤلفات التي وُضِع معظمها في اديار جبل آثوس ، فقد نقلت الى اللغة القومية ، مؤلفات دينية او تاريخية . وراحت الكنيسة الوطنية تحافظ على طابعها القومي ، وعلى استقلالها الذاتي ، عن طريق تطوير لهجتها السلافونية في طقوسها الليتورجية، وهي اللهجة ذاتها التي استعملت في وضع التواريخ البلغارية وترجمة حياة القديس سافا الصربي ، كما تشددت في معارضتها العنيفة للنفوذ اللاتيني الذي وجد موطئاً له على شواطىء دلماثيا والبانيا ، والذي بقيت له السيطرة في مقاطعة كرواتيا ، منذ ان ضُمّت هـذه المقاطعة للمجر . كذلك نجد مجموعات من الاناشيد والاقاصيص الشعبية ، تعود في الصيغة الـتي وصلتنا بهـا ، الى العهد التركي ، وهي أناشيد تتغنى وأقاصيص تروي لنا امجاد الابطال الذين ساعدوا ، بالبطولات التي أتوها ، على تكوين صربيا ، كما تتغنى بأمجـاد وبطولات مستمدة من هذه الملاحم الموضوعة حتى ذلك العهد ، في الشرق والغرب ، على السواء .

أوسمى من هذا الادب الذي لا يزال ، مع ذلـك ، في القمط ، الفن الذي يتنزّى بالعناصر والمؤثرات الاجنبية التي تفاعل بها . ففي هذه المعاثر الدينية التي ارتفعت في صربيا ، نرى جنباً الى جنب ، الموحيات البيزنطية ، وهذه المؤثرات الارمنية الكرجية ، وقد انضمت اليها عناصر غربية جاءتها من ايطاليا والمجر . وهذه الرسوم الجدارية التي تُرى في مدينة بوايانا من اعمـال بلغاريا ، وفي فيزوكي دتشاني من اعمال صربيا ، عرفت جيداً ان توائم بين الموضوعات التقليدية التي عالجتها الايقونوغرافيا اليونانية ، في تصويرها رسوم الاشخاص التاريخية ، وبين هذه المشاهد الحية ، الواقعية ، تحت تأثير نماذج غربية ، واخرى وطنية اصيلة .

وهكذا نرى بصورة قاطعة ، في القرن الرابع عشر ، ظهور امة بلغارية واخرى صربية ، بكل ما في كلمة امة من فحوى ومدلول . ولكن بما ان الوحدة التي حققتها هذه الامة لم تتعدّ بعد ، الطور الاقطاعي ، فالوحدة التي حققتها هاتان الدولتان ، تبقى سريعـة العطب . « فامبراطورية » دوزان الكبيرة هذه التي لم تعمّر طويلاً بعد مؤسسها ، كانت حلاً حلواً في

الخاطر يدغدغ الخيال أكثر منها حقيقة واقعية متحيزة ، طالما ألهبت خيال القومية الصربيـة وألهمتها ، كما كانت فيما بعد ، بمثابة الملاط الذي شد بنيان الدولة السياسي . ومثل هـذا الوضع يصح مقارنته ، ولو بصورة تحكمية ، بالدور الذي مثلتـه التقاليد والاساطير الكارولنجية في اوروبا الاقطاعية . ومهما يكن من الامر ، فالامة الصربية بقيت واقعاً قائماً ، متحيزاً ، حتى بعد انهيارها السياسي ، اثر الضربات التي انهالت عليها من الاتراك في ساحة الوغى ، ولا سيما في تلك الكارثة القاصمة التي حلت بها في معركة كوسوفو ، عام ١٣٨٩ .

فهذا التاريخ هو بدء يقظة وتفتح على الحياة ، عند الدول التي قامت على مقربـة منها . الالبانيون (الارناؤوط) ، احد . وع الشعب الايلليري التي طمس التاريخ ذكرها واسمها الى لك الحين ، استطاعوا ان يحافظوا على استقلالهم ، وان يصونوا شخصيتهم المميزة بالرغم مـن الاصطدامات التي قامت بين الايطاليين والسلافيين ، او اليونان ، انتصروا فيها للفريق الاول ، بطلبهم المساعدة من الكنيسة اللاتينية . وهؤلاء السكان الجبليون الذين تدربوا على اعمـال الحرب ، في خدمة البنادقه او الانجفيين (سكان مقاطعة الانجو) والصرب او في خدمة طغـاة الابيروس او تسالونيكي ، سيصبحون ، في القرن الخامس عشر ، أعدى اعـداء العثمانيين ، وأبطشهم . اما الرومانيون الذين جهلهم التاريخ لأكثر مـن عشرة قرون ، وتضاربت الآراء حول اصلهم وفصلهم ونشأتهم ، فراح من ردهم الى ذراري الداسيين الرومانيين الذين وقعوا في لجج أمواج الغزوات التي تألبت عليهم دون ان تقتلعهم او ان تجتثهم ، كما رأى غيرهم فيهم ، اقواماً من قبائل الفلاخ استطاع بعض من تربطهم بهم وشائج الدم والقربى ، ان يحافظوا على كيانهم في وسط الغمر الصقلبي والمحيط السلافي ، فراحوا يشغلون من جديد ويستثمرون السهول المترامية على جانبي مجرى الدانوب الاسفل ، فأطلوا ، من جديد ، في القرن الثالث عشر ، على التاريخ ، باحتلالهم سهول مولدافيا وفلاخيا القليلة السكان ، عندما لبوا نداء بعض الأمراء الذين استنجدوا بهم وطلبوا مساعدتهم ، في وقت لاحق لاحتلالهم مقاطعتي ترانسلفانيا والكرباث . وعندما اخذ الناس يشعرون بوجودهم ، نراهم موزعين بين هنغاريا على سفوح ومنحدرات جبال الكرباث الغربية ، وأحياناً ، وفقاً للصروف والظروف المتحكمة بمصائر الناس ، بـين بلغاريا وبولونيا وغيرهم من الامراء الذين سيطروا على السهل الروسي ، حتى بـين المستعمرات التي أنشأتها لها جنوى ، على سواحل البحر الاسود الغربية . ولذا ، نرى هذه المنطقة تتجاذبهـا عوامل نفوذ عديدة : هنا اللغة والابجدية السلافية ، بينما استخدمت الكنيسة الوطنية التي كانت على الارثوذكسية ، اللغة السلافونية في طقوسها الليتورجية . والمؤثرات الغربية التي تفاعلت بها وانفعلت ، كانت ترشح اليها عبر الرواق البلغاري السلافي ، فتمازج بالمفاعلات البيزنطية ، كما يبدو ذلك واضحاً من الكنائس الاولى التي ارتفعت هنالك ، حيث ارتدت الافاريز الخارجية حجماً خرج على المألوف . فهذه الاقطار الرومانية لم تنعم الى هذا التاريخ ، يوماً بالوحدة ، ولا عرفت تجانساً عرقياً ، الى الوقت الذي لاحت لهم ناهزة مؤاتية ، تمثلت في حالة الضعف والوهن

التي آلت اليها ، الدول السلافية ، من جراء الزحف العثماني المتتابع ، فقامت فيها ، ابان القرن الخامس عشر ، امارات واسعة تمتعت ، على اقدار متفاوتة ، باستقلالها الذاتي . واهم هـذه الامارات طراً واحدثها جميعاً ، هي الامارة التي قامت في مولدافيا والتي غمرتها ولو بصورة سطحية ، أقله في الشمال ، الموجة العثمانية .

مصير الثقافة البيزنطية

امام هذه الخطوط الكبرى والصوى البارزة لهـذا الشتات الذي ابتليت به دول البلقـان : ففرق ديارها بدداً وسكانها شيعاً ، هل بامكاننا التحدث هنا ، بعد الذي رأينا ، عن كنيسة واحدة وثقافة بلقانية واحدة ؟ فقد بلغ من شدة حيوية هذه الكنيسة والثقافة المشتركة تجاه هذا الانحلال السياسي الذي صارت اليه هـذه البلدان ، ان كدنا نتبين عندهما ، معالم انبعاث ، فعلي ، ادبي وفني على السواء ، وهو انبعـاث جاء وفاقاً لما هيأت له ظروف الحياة الجديدة ، التي جددت من مصادر الوحي والالهام ، وحملت الناس على البحث عن وسائل جديدة للتعبير عن خلجات النفس البشرية . الا ان كتاب العصر ومؤلفيه وفنانيه من اليونان لم يعودوا يعملون او ينتجون ، لأسياد وأرباب بيزنطيين لا غير . فالقسطنطينية لم تكن اذ ذاك ، قطب كل شيء ، ومحور كل شيء . فالمؤثرات اللاتينية كان لهـا اغراؤها هي الاخرى ، حتى على البلدان اليونانية ، ووضاعة الوسائل المادية التي كانت تحت التصرف خفضت كثيراً من قيمة الانجازات الادبية والفنية .

فالترجمة للاباطرة من اسرة بليولوغ ، في القرن الرابع عشر هي اهم المواضيع التي يحوم حولها مؤرخو العصر ، امثال : باخيمروس ، ونيقوفورس غريغوراس ، بينما راح حنـا كنتاكوزين ، هذا المغتصب للعرش الامبراطوري ، يضع اثر انزوائه في الدير وانقطاعه للعزلة ، غب تنازله عن العرش ، مذكراته المشهورة . وهذه النظريات الصوفية التي جاء بها هزيكازمس التي حاكت من قريب ، تعاليم متصوفة الاسلام في ايران واناضوليا ، كانت لها قيمة رفيعة عند مؤرخي الاخلاق ؛ وكذلك هذه المؤلفات في العلوم الفقهية التي كان لها تأثير عميق على علم الحقوق الذي أطل على الدول الصقلبية ، وهذا الشعر الحكمي والعلمي الذي وصل الينا من هذه الحقبة ، كل هذا الانتاج الفكري جاء وفاقاً للتقاليد المتوارثة . والروح الجديد الذي طلعت به علوم البلاغة ، وهذه الرغبة الزاخرة المقرونة بالنظرة المحللة ، الناقدة ، تبدو على أتمّهـا في دراسة الآثار الكلاسيكية ، نشطت حركة احياء الآداب البيزنطية القديمة ، فراح يتولاها بتدبير : تيوذورس متوكيتيس ، وهي حركة تشبه من بعيد ، حركة احياء الآداب التي كانت اذ ذاك ، في ابان ازدهارها في ايطاليا . فالحركتان تتضافران وتتكافآن وتتلاقحان ، اذ يقدم الى ايطاليا بعض اساتذة اليونان ، بدعوة من هـذا الفريق الذي تخرج على ايديهم ، ليلقنوا الايطاليين ، بعض العلوم الهلينية التي يتعطشون جداً الى تلقفهـا . وهكذا نشاهد الفيلسوف الافلاطوني الكبير : جيمثس بلايثون ، يصل ، بعد ان درّس الفلسفة في مسترا ، الى ايطاليا ، ولم يلبث ان

اصبح فيها ، ابان القرن الخامس عشر ، من اشهر الداعين الى تجديد الفلسفة الافلاطونية ، ومن ابرز رواد هذا البحث الفلسفي . والجديد ، حقاً ، في هذه الحركة الاحيائية ، وفي هذا التعاون الثقافي العلمي بين اليونان واللاتين ، هو هذه المساهمة الجديدة يقدمهـا الغرب في الدراسات البيزنطية فتجلّت على وجه صحيح ، في هذا الجدل الديني ، وفي مشروع اتحـاد الكنائس ، فاتاحت لكتاب ومؤلفين امثال ديمتريوس سيدونيس ، وبلانود ، الفرصة للتعرف الى الترجمات اليونانية التي وضعت لمؤلفات القديس اوغسطينس وللقديس تومـا الاكويني . فقد ترجم الى اليونانية ، في شبه جزيرة الموره ، تاريخ لاتيني روعي في سرد حوادثـه التتابع الزمني . والقصائد الشعبية اليونانية ، تستوحي بدورها ، ابطال القصص والمسرحيات الدينية الفرنسية في الاجيال الوسطى ، بينما راح المؤرخ اليوناني مكاريوس ، يضع تاريخاً لقبرص ، يطري فيه اللاتين ، والكاتب اللاتيني جورج بسترس يؤلف ، هو الآخر باليونانية ، بينما راح الكاتب اليوناني سترامبا لدي ، يؤلف بدوره بالايطالية . وليس بغريب قط ولا بمستبعد ان يكون الانتاج العلمي اليوناني ، في الطب والفلك ، قد تداخـله شيء من علوم العرب ، عن طريق الغرب ، الا ان يكون جاء هذا الاتصال عن طريق طرابزون ، حيث قامت «اكادمية» أمنت للاغريق الشرقيين ، تجلياً علمياً بزّ ما تم من امثاله لزملائهم ورصفائهم في البلقان الذين كانوا يحفلون ، بالاكثر ، بالآداب .

اما الفن البيزنطي ، فقد صمد في وجه المؤثرات الغربية . فباستثناء قبرص حيث قـامت كنائس على الطراز الغوطي ، لم يترك الصليبيون لنا ، في هذه المباني الهامة التي اقاموهـا غير القلاع والحصون التي شيدوها . وقد حلا للبعض ان يرى في بعض الافاريز التي قامت في الاقطار اليونانية والسلافية خيوطاً دقيقة من الوشائج تشدها الى هؤلاء « البدائيين » الايطـاليين ، ولكن من يقدر ان يؤكد بان هذا الالتقاء هو من باب الصدفة الطارئة ومهما يكن ، وباستثناء كاريا جامي في القسطنطينية وهو مـن انشاءات ثيوذوروس ميتوكيتس ، لم تلبث الفسيفساء الباهظة التكاليف ، ان استبدلت واستعيض عنها بالرسوم والتصاوير الجدارية ، حيث نرى صور رجال الدنيا بادية الى جانب المشاهد الدينية وفي مظاهر الحياة الواقعية ، حيث يمكن ان نتبين اشياء تذكرنا بمشاهد ومركبات اسكندرانية . فتحلية المخطوطات وتزيينها وزخرفتها وصناعة الحلي من الجوهرات وانسجة الديباج الجميلة تمدنا بالكثير من غرر الفن ودرره ، وبالكثير من الاعلاق الغوالي التي اسعدنا الحظ في الاحتفاظ بالكثير منها ، بينما بخل علينا بالنزر النزير من متقدماتها . ومن المحتمل كثيراً ان يكون فن التلوين اعطى اذ ذاك ، اجمل معطياته ، واحسن انجازاته على الاطلاق ، بعد ان عملت مدارس اقليمية عديدة ، على نشر هذا الفن في البلدان الصقلبية ، وجبـل آثوس ، ومسترا ، وجزيرة كريت وطرابزون . وهذا الانتشار الواسع ، مكن الفن البيزنطي من ان ينقل ، دونمـا انقطاع ، نظرياته ومبادئه وتعاليمه الفنية لمن توارثوها ، سواءاً اكانوا تحت سيطرة الاتراك العثمانيين ام خارجها .

والكنيسة البيزنطية ، ظهرت عليها ، هي الاخرى ، بعض اعراض التطور ، فازدادت مكانة ،

وسمت مرتبة ، في قلب الدولة . ففي هذا الاستقرار الذي نعمت به بينما التيجان من حولها تتدحرج تدحرج الأكر وفي هذا الغنى الذي ترفل فيه وتنعم ، بينما الملوك من حولها يهوون من عليائهم لينزلوا الى احط دركات الفقر الغم والعوز يستعطفون ويستمطون لم تبلغ هذه الكنيسة يوماً ما بلغته ، اذ ذاك ، من قوة وشأن ، ولم تـُظهر يوماً من اللامبالاة ما اظهرت من إعراض عن هذه الأسر الملكية التي تناوبت الحكم وتعاورته تباعاً . فهي متماسكة ، متضامّة ، بالرغم من وجود هذه الكنائس المستقلة داخلياً ، تبسط نفوذهـا على العديد من هذه الممالك اليونانية والدول الصقلبية ، دون ان تدافع عن هذه ضد تلك ، دوماً على اتم استعداد لتقبل النصح من اي جهة جاء : من موسكو او من القسطنطينية . ففي مواجهتها للعظماء من رجال الدنيا وللامراء الدائرين في دوامة المحالفات السياسية ، حشدت حولها كل الشعوب ، وجل رجال الاكليروس ، للوقوف بعنف وكرامة ، بوجه النفوذ الروماني ، مدفوعة الى ذلك بمسلك هؤلاء الاباطرة الذين كانوا ، لاغراض دنيوية ، يثيرون باستمرار قضية اتحاد الكنائس ويلوحون بها ، لقاء حصولهم ، من الغرب المسيحي ، على نجدة تنصرهم على الاتراك العثمانيين. وقد ادّت هذه المفاوضات التي اداروها ، الى الفشل التام ، امام إعراض الغرب وعدم مبالاته ، هذا الغرب الذي لم يقطع ، الا ما ندر ، عهداً بالمبادرة للمساعدة المرجوة ، لم يتعهد معـه قاطعوه ، بسوى قوة حربية ضئيلة العدد والعُدد ، بينما كانت جماهير الشعوب اليونانية والسلافية ، تشجب ، بشدة ، الاتفاقات التي يتوصل الاباطرة ، احياناً الى عقدها . فاثر العامل اللاتيني على الآداب اليونانية ، كالتشابك السياسي لهذه الكيانات الدولية ، يجب الا يخدع احداً. فقد قامت ، اذ ذاك ، هوة الانفصال الديني التي لم يشعروا كثيراً بوطأتها ، في بدء الأمر ، الا انها اصبحت عقبة مستعصية الحل . وقلاع الفرنجة وحصونهم ، مهما قالوا فيها ، لم تكن لتوحي الثقة ولا لتبعث التفاهم بين الشعوب وهكذا انكفأ الشعور القومي وراء الكنيسة اكثر منه وراء مبادئها . وهذه اللامبالاة تفسر لنا جيداً السهولة واليسر الذي تم فيـه الفتح الاجنبي . اجنبية بالطبع ، في نظر اليونان ، دولة الاتراك وسيادتهم . يجب الا يغرب عن البال قط ، ان اول بطريرك يوناني للاستانة التركية : سكولاريوس جنّاديوس هو من اشهر رجـال القرن وحملة الثقافة البيزنطية في هذا العصر ، وانه كان في البلاد السلافية عدد كبير من اليونان ، ومثل هذا العدد واكثر ، كانوا تحت الحكم العثماني ، في تركيا قبل ١٤٥٣ سنة سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين ، وكلهم تابعون لرئاسة الكنيسة الارثوذكسية ويخضعون لها ، ويحفظون لهـا الولاء ويعيشون ايمانهم بسلام وطمأنينة ، بالرغم من بعض التضييقات المفروضة عليهم . فبين الخطر التركي الذي يهدد الجسم دون الروح ، وبين الاستسلام للاتين والخضوع لكنيستهم وما يمثله هذا الخضوع من خطر على النفوس دون الاجسام ، رأوا من الافيد لهم ومن المصلحة عندهم ، ان كان لا بد لهم من الاختيار ، ان يقبلوا بالسيطرة التركية بالرغم مما فيها من خطر وما لها من كره . ففي هذا الوضع ما فيه من تعليل لتفهم المصير الغاشم الذي آلت اليه الامبراطورية بسقوط عاصمتهـا القسطنطينية .

٣ ـ الامبراطورية العثمانية

ظهور العثمانيين

حان الوقت لنتطلع شطر الاتراك العثمانيين ولنتفرس فيهم ملياً ، بعد ان كتب لهم ان يصبحوا ورَثة بيزنطية الشرعيين .

مرّ معنا كيف تكونت ، في اواخر القرن الثالث عشر ، على تخوم بيزنطية الشرقية ، في آسيا الصغرى ، أشكال من امارات تركمانية لم يستطع السلجوقيون كبح جماحها والحد من نزواتها . ففي الوقت الذي راح فيه روح المدوان يستفحل في صدر الاتراك ويلشوفون للتوسع ، اضطرت موجبات الدفاع عن اوروبا ، اصحاب الامر والشأن في بيزنطية ، لالغاء الاعفاءات المالية التي تمتعت بها وحدات الجنود المعمرين التي بواسطتها استطاعت امبراطورية نيقية ان تحافظ على بقائها وكيانها ، وبذلك دخل الخلل وتسربت اسباب التشويش الى نظام الدفاع عن بيزنطية من الشرق . ولذا فلم تعتم كل المقاطعات الآسيوية تقريباً التي كانت يونانية بالامس ، ان اصبحت ، حوالي عام ١٣٠٠ ، تحت سيطرة زعماء التركان ، باستثناء طرابزون منها ، بالرغم من استمرار مقاومة بعض القلاع والمواقع الحصينة ، وبالرغم من رضوخ القرويين والفلاحين وتسليمهم بالامر الواقع . وقد تمكنت بعض الجماعات التركية من نشر سيطرتها على بعض الولايات اليونانية البحرية الواقعة على شواطىء بحر ايجيه ، وعرفت ان تستخدم مهارات بعض سكان البلاد الاصليين ، او نهجت نهجهم في الحياة ، فراحت تهاجم جزر الارخبيل وتحتل القريبة منها الى الشاطىء وتبسط سيطرتها عليها وعلى سواحل المقاطعات اليونانية ، ممثلة بامارة عايدين الواقعة على مقربة من ازمير ، او بامارة منتشيه مقابل جزيرة رودوس . فاضطربت خواطر الغربيين جداً ، في مطلع القرن الرابع عشر ، فتحركت بعض فرقهم وتمكنت الفرقة الكتلونية من ان ترد هؤلاء الغزاة موقتاً ، على اعقابهم .

اما الفئة التركية التي كان يرئسها المدعو عثمان ، فقد كانت من ضِعة الشأن ما لم يكن احد يتوقع لها مثل هذا المصير الباهر الذي قيّض لها ان تصير اليه . ولم يكن فيها ما يميزها عن تلك الفئات سوى ان الاقدار موزعة الحظوظ هيأت للأمير عثمان ولخلفائه مباشرة ان يكونوا من الطراز الاول من قادة هذه الفئة او القبيلة الذين تولوا الامر باسمها . لا سيما وقد اسعفه الحظ فاقتطع مقاطعة تحتل جانباً من ساحل بحر مرمرة . وبفضل هذا الموقع الجغرافي الممتاز ، كثيراً ما سنحت له المناسبات للتدخل بين الاحزاب البيزنطية وتلبية نداء الاستغاثة الصادر عن اللاتين للتدخل في هذه الحروب التي نشبت بين آل بَلَيولوغ ويوحنا كنتكوزين . واذ كان البحر عقبة تحد من رغبة الامارات الواقعة على سواحل بحر ايجيه في التوسع ، فهذه الامتار القليلة من مياه البحر التي كانت تفصل العثمانيين عن سواحل اوروبا ، كانت تكمن وراءها مجالات واسعة للفتح والتبسط والامتداد .

ليس في هذه المقدمات البسيطة ما يدل او يشير الى ان هذه الفئة ستطلع على العـــالم بامبراطورية ، ستضم ، عند اكتمال بدرها، كل العالم العربي تقريباً ، والبلدان السلافية والبيزنطية، من مشارف مدينة فيينا غرباً، الى اقاصي حدود البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والخليج الفارسي شرقاً،والتي،بالرغم مما تضرّست به ،خلال تاريخها المديد،من صروف الدهر وصريفه ، لم تنهزم ولم تسقط الا في القرن العشرين . فلم يكن لها عند الانطلاق ، وهذا شيء يجب التشديد عليه ، سوى قوة بسيطة من بضعة آلاف من الجند كان في مقدور عدو مساو لهم من المحاربـين ان يسمّروهم مكانهم ويكبحوا من جماحهم .

وقد سارت هذه الامبراطورية في تطورها وتكاملها المطرد على نهج سوي واصول من النظام والتنظيم ، ما عدا فترة وجيزة افل فيها نجم سعودها امام غزرة تيمورلنك الصاعقة الماحقـة . ومن المؤسف حقاً ان الذين عاصروا نشأة هذه الدولة لم يكن في مقدورهم ان يتوقعوا لها مثـل هذا المستقبل المجيد البسّام ، فلم يذكروا لنا شيئاً ، ولو طفيفاً ، عن عهد هذه الجماعة الاولى ، المتواضع ، بحيث لم يبق امامنا سوى التعويل على تحليل بعض القصص والمقولات التي طلعت او حيكت حول نشأتهم فيما بعد،وامعان النظر ملياًفي هذه المرويات لعل فيها ما يكشف لنا سر هذا الدور العظيم الذي ُقدّر لهم ان يلعبوه في حَلَبَة البحر الابيض المتوسط والشرق الادنى. ويحلو لنا ان نرى في هذه المرويات ونتبين العزم الصادق والحزم العديد على تنظيم ما يقع اليهم بالفتح ، فلا يقومون بفتح جديد ما لم يحسنوا تنظيم السابق،وما لم يوحدوا من الفريق التركماني ورصفه كالبنيان المرصوص بجعله عصبة متلاحمة متماسكة ، قوية ، فيضيفوا الى وحــــداتهم العسكرية ما امكن اضافته من وحدات اسلامية ، وغير اسلامية ، من أبناء البلاد الاصليين ، فيخضعون هــــذه العناصر كلهـــا لتدريب عسكري آسر رصين ، تصبح معه قوة متراصة ، متماسكة الحلقات ، متآزرة . فرسالة على هذا الشكل ، هي لعمري رسالة سامية ، حرية بكل تقدير، لقي تحقيقها من الاحكام وعناية التصميم والتنفيذ ما يتفق وسمو المطلب .

فالى أي حد كانت هذه الوحدات التركمانية البدائية ومعظمها مـن الرعاة وقطاع السبل ، تتألف من قبائل متراصة يتولى الامر فيها فرسان غزاة !. لا يزال الامر يثير الجدل والنقاش بين المحققين من رجال التاريخ ، وليس من المستبعد ان يكون ُعمِـــل فيها بالنظامين معاً في وقت واحد. ولما كان النجاح يدعو للنجاح ويهيء الاسباب للمزيد منه ، فقد راحت الامارات القريبة من الاتراك العثمانيين ، والاقل تحصيناً تقع تباعاً فريسة باردة في ايدي السلطان عثمان . وقـد سبق هذه الحقبة،عهد انضمت فيه الى هؤلاء الغزاة الفرسان،الاحرار الذين اتخذوا من الحرب مهنة لهم في الحيـاة وحرفة يعتاشون منها، عناصر اخرى من مشاة ونبالين ورماة القسي ، اضيف اليها ،فيما بعد حرس عسكري (العسكر الجديد) انكشارية،اتخذت مادته الاولى،واولى وحداته من اسرى الحرب الذين وقعوا بين يدي السلطان فيها وقع من موارد تم الاستيلاء عليها . وهو حرس،شبيه من جميع الوجوه بالحرس الذي كان يسهر على سلامة السلاطين في الدول الاسلامية .

والى جانب هذه الوحدات المعدّة للحرب ، والمدربة عليها احسن تدريب ، كان لا بد من تشويق عناصر اخرى من السكان وحملها على مناصرة الدولة التي هي في سبيل التنظيم . فقد قام بهذه المهمة ، خير قيام ، علماء الدين ولا سيا فرقة الدراويش ، فراحوا يختلطون بافراد الجيش ويدعون لرصف صفوفه وتمتين منشآته ، بحيث لم نر قط ، في اي بلد من البلدان الاسلامية ، مثل هذا التعاون بين الجمعيات والهيئات الدينية وبين السلطات السياسية لشد الاواصر بين مختلف طبقات الشعب والحكومة . ولعل ما هو ابعد من ذلك اثراً واقوى هو المدن الاسلامية ، حتى المسيحية منها ، التي دخلتها جاليات اسلامية بعد ان تم فتحها ، جاءت من اواسط اناضوليا ، قد خضعت لهذه الدعاية تقوم بها المنظمات الدينية ، فادّى ذلك الى تشكيل هيئات اجتماعية حمل اعضاؤها اسم « اخ » . ولما كان الفاتحون العثمانيون هم ملوك مسلمون ، قبل كل شيء ، فقد راحوا يكثرون من بناء المساجد ، وانشاء المدارس والاسواق والخانات . ومما هو جدير بالذكر والتنويه ، مع انه قد لا يكون مستغرباً ان يكون ظهر شيء منه في عهد السلجوقيين ، هو هذا النقص في الثقافة الدينية بين الطبقات الشعبية التركية ، وهذه المذاهب المتباينة التي ذهبت كل مذهب في تفسير المعتقدات الدينية ؛ كل ذلك حمل المنظمات والهيئات النصف الدينية ، على ان تقبل على السواء التعاليم والطقوس السنية والشيعية والمسيحية والوثنية ، دون ان يقوم بينها من اختلاف مما يمزق شملها ويفرقها شيعاً . ففي القرن الرابع عشر ، في غمرة هذه الروح الحماسية التي قابل بها الناس الغزو المدوّي ، نرى النظام والوفاق والسلام يسود الشعب التركي ، بينما راحت الدول الاسلامية الاخرى تعاني الامرّين من هذه الانقسامات والانشقاقات التي شجرت فيما بينها ، فلم تتسلح السلطة العثمانية بدكتاتورية متعصبة تأخذ الناس بالشدة ، كما هي الحال في عهد المماليك مثلاً ، اذ ذاك .

وليس من شك قط في ان السلاطين العثمانيين الأوّل عرفوا ان يضمنوا تعاون بعض العناصر الوطنية من ابناء البلاد الاصليين فيؤمنوا حياة الجميع . وليس بمستبعد قط ان تكون انظمة الحكم والقوانين التي عمل بها بعد الانتهاء من عملية الفتح ، اقل اعتباطاً وكيفاً من التدابير غير المسؤولة التي عُمل بها في بيزنطية والامارات اللاتينية التي كانت الفوضى ضاربة اطنابها فيها . فالنظام الرتيب الذي ساد في الداخل مكن الناس من الانصراف للاعمال الزراعية ، كما اتاح لرجال الصناعة متابعة الانتاج وتقويته اشباعاً لمتطلبات ، وتلبية لرغائب زُبُنٍ جدد حلوا محل الزبن القدامى . كذلك ساعد الامن المسيطر على البلاد في تنشيط التجارة ، وحسن معاملة التجار الذين كانوا يعملون على تصريف وتنفيق الفائض من انتاج البلاد ومحاصيلها من حجر الشب والانسجة وغير ذلك من الأقمشة . ولم تقتصر الافادة على المسلمين وحدهم من هذا النظام ومن الامن الذي ساد البلاد . وككل مكان آخر في العالم الاسلامي ، ولربما اكثر من اي بلد آخر استقرت فيه الاوضاع وانتظمت الامور ، اصبح المسيحيون الخاضعون لسلطة الدولة الجديدة ، « محميين » . والكنيسة الارثوذكسية نفسها كانت ابعد من ان تتضرّس بهذه التغييرات وبهذا

الوضع الجديد الذي أطل عليها ، فاستطاعت ان تفيد كثيراً فيا بعد ، من انبساط رقعة الفتح العثماني وامتداده فرحب بالتالي نفوذها ، واتسع سلطانها بحيث دخل تحت سلطتها الدينية ،عدد كبير من السلافيين واللاتين. واذا كان من الغلو الظن بان كل الذين اشتركوا بادارة الدولة الجديدة وتنظيماتها ، كانوا من ابناء البلاد الاصليين ـ بعض كبار الموظفين في الادارة العـــامة اعتنقوا الاسلام ، بينما بقي البعض الآخر منهم على دينهم المسيحي – فمن الثابت الذي لا يناله الشك قط ان السكان في المناطق الواقعة على الحدود ، آثروا الاستسلام للعثمانيين والخضوع لهم ، بعـد ان انقطع عندهم كل امل بوصول اي مدد او مساعدة مجدية عللوا النفس بها ،من الدولةالبيزنطية . وبالفعل ، فالميزة التي طبعت الفتح العثماني ، تبدو لنا ، على الاخص ، في هذا العدد الصغير من النـــاس الذين راحوا ضحية الفتح ،كما تبدو جلية واضحة بهذه النسبة الصغيرة من اعمال السلب والنهب التي تعرضت لها المدن المفتوحة ومن فيها من السكان . كل هذا يفسر لنـا جيداً كيف ان الفتح العثماني سار سيرته الرتيبة الرضية .

فتح وتنظيم

لنستعرض بايجاز ، المراحـــل التي تمت في هذا المجال . فقد تألفت الامارة العثمانية،في النصف الاول من القرن الرابع عشر، من هذه المقاطعات والولايات الواقعة على سواحل بحر مرمرا الجنوبية ، بما فيها : نيقية ، ونيقوميـديا ، وبروسة التي كانت عاصمة الامارة ، والتي اصبحت ، منذ ذلك الحين ، مدينة مقدسة في نظر الامبراطورية العثمانية . وقد تم عبور مضيق الدردنيل ، عنـد منتصف القرن المذكور ، بالتواطؤ مع اليونانيين انفسهم ومعاونتهم ، وهكذا تمكن الاتراك العثمانيون من اتخاذ موطىء قدم لهم في غاليبولي ، ومنها انطلقت غزواتهم في اتجاه تراقية التي لم تمتم ان تم فتحها ودخلت في حوزة السلطنة . وفي سنة ١٣٦٦ ، نقل السلطان مراد ، عاصمة ملكه الى مدينة أدرنة ، معبراً بذلك عن رغبته الشديدة في ان يكون ملكاً من ملوك اوروبا . صحيح ان الوضع الذي كان عليه التسلح اذ ذاك من حيث الكم والنوع ، كان لا يسمح للاساطيل المسيحية بعبور مضايق الدردنيل وبفك الحصار الذي ضربه العثمانيون على القسطنطينية اذ لم يكن من الوسائل البحرية ما توفر منها لسادة الامارات الواقعة على سواحل بحر مرمرا . وهكذا اخذت الحلقة تضيق تدريجياً حول القسطنطينية . فاصبحت أرباضها وضواحيها القريبة عرضةً للغزو والسلب من قبل الكتائب العثمانية كما ان الطرق الموصلة اليها اصبحت غير مأمونة للنجدات التي كانت تحاول الوصول اليها ، واصبحت بالتالي وحدة الامبراطورية في خطر ماحق ، ومواردها عرضة للانقطاع والتوقف . فاذا لم تسقط القسطنطينية في قبضة العثمانيين ، فلان سقوطها واستيلاء الاتراك عليها لم يكن دخل بعد في خطتهم العامة . ومثل هذا الامر لم يكن فيه اذ ذاك كبير فائدة لدولة جيشها دوماً في ساحة الحرب ، فلا مصلحة آنية لهم في احتلالها ولا في السيطرة عليها . وعملية فرض الحصار عليها انما كانت عملية شاقة ، طويلة النَّفس والأمد لمناعة حصون القسطنطينية ، من جهة ، ولكثرة سكانها ، ولسهولة تموينها بحراً ، وقد يؤدي ، من جهة ثانية ، الى تحالف بين اليونان واللاتين ، والى احداث رد فعل قوي في الغرب ، وكلها امور تؤذي في الصميم خطـة دولة ناشئة ، طرية

العود بعد . وعلى عكس ذلك ، فكل شيء كان يساعد الاتراك على توسيع دائرة فتوحاتهم في البلقان ، حيث كان من الصعب على حواضر البلاد وقواعدها الكبرى ان تختزن حاجتها من الميرة والعتاد فتضطر للاستسلام بسرعة وتقع فريسة بيد الغزاة الذين كانوا سينعمون بما ييسر لهم الفتح من ارزاق ومغانم وافرة ، بدلا من ان يضربوا حولها حصاراً قد يمتد طويلا لمناعة حصونها ومتانة قلاعها . فتجاه هؤلاء الزعماء السلافيين المنقسمين على انفسهم ، الذين حاولوا متأخرين ، ان يؤلفوا فيما بينهم احلافاً هزيلة الجانب تتصدى للزحف التركي ، تابع الاتراك العثمانيون زحفهم عبر تراقية ومقدونيةالبيزنطيتين ، فاستباحوا بلغاريا وصربيا ، وبذلك قضوا على ما تمثله هاتان الامارتان من رأس جسر متقدم يتمتع، اسماً ، بشيء من المهابة والسؤدد. ففي هذه المعركة الفاصلة التي وقعت في سهول كوسوفو ، عام ١٣٨٩ ، لقي السلطان مراد حتفه ، الا ان ابنه وخليفته السلطان بيازيد ، عرف ان يجمع شمل جيشه وتمكن من اسر الملك لعازر وقتله . وعلى اثر انهيار استقلال بلغاريا ، انهارت مملكة الصرب ، ففقدت حريتها لاكثر من اربعة قرون كاملة . ومع ذلك ، فقد ترك الاتراك الظافرون ، الامراء والعظماء ، في هذه الدول المغلوبة على امرها ، في وظائفهم ومناصبهم ، بعد ان اخذوا عليهم المواثيق بالولاء والتابعية لهم ، فراحوا يديرون شؤون ولاياتهم واقضيتهم ، وفاقاً للتقاليد المرعية. ونال بعضهم عطف اسيادهم الاتراك ومناصرتهم،عندما راحوا يصفون،مع بعضهم البعض،حساباتهم الدامية ، ويثأروا لانفسهم ، دونما رحمة من منافسيهم . صحيح انه حدث ، دونما شك في ذلك ، نقل بعض الاقوام من ديارهم ، واستبدالهم في المقاطعات الستراتيجية،بوحدات من الاتراك ، تركت لافرادها حرية التصرف بالاملاك التي جرت مصادرتها او اغتصابها من ايدي سكان البلاد الاصليين ، كما جرى نقل بعض الجماعات اليونانية والسلافية الى آسيا الصغرى وهذه المناقلات بالجملة ، وحركة تبادل السكان ، كانت اموراً عادية اذ ذاك عرف التاريخ من امثالها الشيء الكثير ، فلم تكن لتلحق كبير اذى بالمنقولين ، اذ كانوا يحصلون من الاراضي الجديدة ما يوازي بقيمته ويساوي ما تركوه وراءهم من الاراضي ، فيعملون تحت ادارة زعيم سلافي جديد في منطقة اناضولية . وهذه المناقلات السكانية جاءت بالطبع على نطاق ضيق، باستثناء مقاطعة تراقية ، ولم تؤد قط الى تتريك البلاد وطبعها بالطابع التركي الصرف .

ومهما بدت عملية استباحة البلقان عملية ناعمة هينة ، فقد اقتضى لها ، مع ذلك ، نقل عدد كاف من جنود الترك والسكان المسلمين ليساعدوا على سد حاجة الدولة ، من الأطر والملاكات العسكرية والادارية . وبالرغم من توافد عدد كبير من المتطوعة ، فلم يبق ما يفي من الرجال بحاجة المقاطعة الاناضولية ، التي كانت التربة التي اطلعت الاتراك العثمانيين . ولذا كان لابد من تأمين شيء من التوازن بين ممتلكات العثمانيين في اوروبا وممتلكاتهم في آسيا الصغرى . وبعبارة اخرى، فكلما السفت هذه ، وُسّعت تلك بالنسبة ذاتها . ولم تكن المهمة لتبدو يسيرة سهلة في آسيا ، بل على عكس ذلك ، فقد كانت عويصة واشق مما كانت عليه في اوروبا . فقد كانت الجماعات التركمانية مستمسكة باستقلالها لا ترضى عنه بديلاً ، ولم

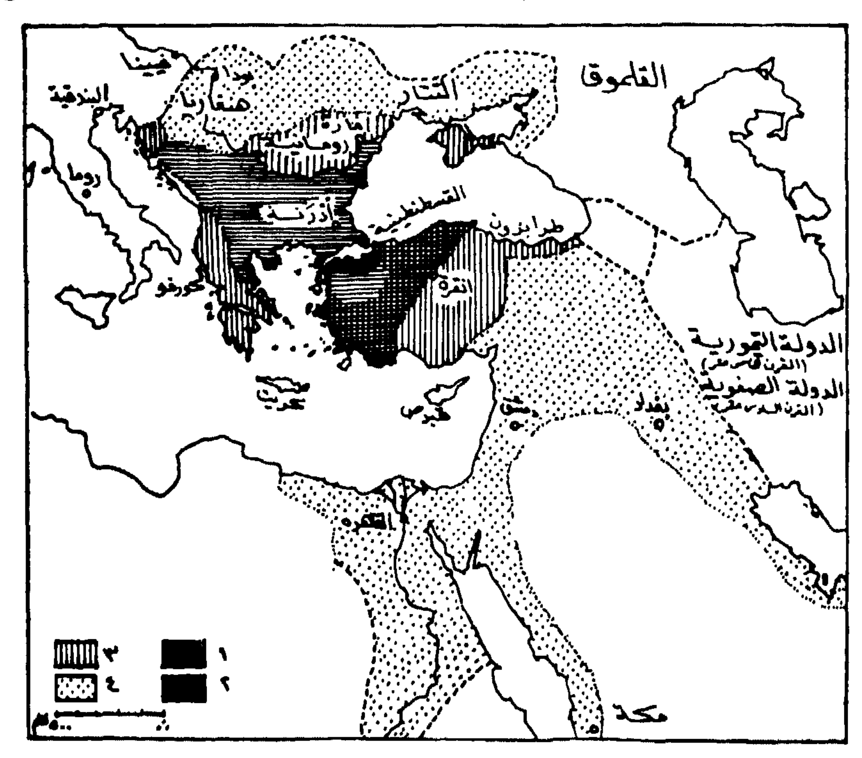
تكن لترغب او لتقبـــل بالذوبان ضمن دولة نشأت على غير ايديهم ، رأوا في توسعها وانتشار رقعتها واستبطار شأنها خطراً على تقاليدهم . ان تحالفاً يتكون من اماراتهم المختلفة ، يستطيع، لدى الاقتضاء، الأعتماد على مؤازرة المماليك في مصر، ومدّهم له بالرجال والمال، من شأنه ان يكوّن خطراً على العثمانيين اذ يصبح في مكنته ان ينزل الى ساحة الحرب جيشاً يفوق بعدده وعدته ما للاتراك من جيوش . فاذا ما استطاع الاتراك العثمانيون ان يخضعوا النصف الغربي من اناضوليـا لسلطانهم قبل غروب شمس القرن الرابع عشر ، فالفضل كل الفضل في ذلك انما يعود للسلطان بيازيد ، وذلك للفتوحات العظيمة المدوية التي حققها في اوروبا : فراحت الدول البلقانية الموالية لهم تمدّهم ، حتى الامبراطورية البيزنطية نفسها ، بوحدات من الجيش، وهي تحسب ان بعملها هذا انما تبعد الخطر عن القسطنطينية ، وبفك الحصار المضروب حولها . وقد تألفت هذه الوحدات من اسرى الحرب ، ومن العبيد الارقاء الذين اتى بهم من اسواق النخاسة في البلقان ، فتضاعفت بهم فرقة الانكشارية المدربة افرادها على القتال المضمونة الولاء لهم والتي كانت تتقن فن الحصار على القلاع المستعصية . وهكذا ففي الحين الذي فتح فيه الاتراك البلقـــان لحساب العثمانيين ، راح البلقانيون ، بدورهم ، يساعدون العثمانيين على فتح تركيا آسيا واستخلاصهـــا من التركمان . فكل حركة اهتزاز ، يسرة او يمنة ، بين اوروبا وآسيا ، كانت تعود على العثمانيين بفتح جديد .

محنة الدولة العثمانية واعادة تنظيمها

وفي هذا الوقت بالذات ، وقع المقـــدور وحُمّ القضاء وهوى السيف المصلّت ممثلا بغزوة تيمورلنك الماحقة، حاملة معها القضاء الغاشم والموت الزؤام لكل دولة وقعت امام سيلها الجارف . اما العثمانيون فلم تحمل اليهم هـــذه النازلة في مطاويها ، سوى عاصفة ألوتهم دون ان تعصف بهم أو تقتلعهم . فقد غلب بيازيد شر غلبة ، في معركة انقرة (١٤٠٢) وسُحق جيشه ، واقتيد هو اسيراً ومات في الاسر . وللحال، أخذ التركمان في آسيا الصغرى ، بعد ان آزر عدد كبير منهم الغازي الفاتح ، يعيدون تنظيم اماراتهم بعد زوالها وتواريها . وهذه الوحدة التي ميزت الامبراطورية العثمانية ضاقت حلقتها بعد التفسخ الذي اصيبت به السلطنة النـــاشئة وباتت في مهب الريح عندما راح اولاد السلطان بيازيد ، يتجاذبون بعنف وبقوة السلاح ، اطراف خلافة والدهم ، كل لنفسه ، واعلنت ولاياتها في اوروبا القطيعة والانفصال عن شقيقاتها في آسيا . فلو كان هذا الوهن تصاب به الدولة ، أدى الى ردّة فعل من قبل المسيحيين ، لـكان اصبح مصير السلطنة العثمانية ، بعد معركة انقره على كف عفريت .

شيء من هذا لم يحدث قط ، اذ ان موت تيمورلنك المفاجيء والغباوة التي اتسم بها خلفاؤه من بعده ، تركا الامارات التركمانية ، في آسيا الصغرى وشأنها ، تتخبط في مصيرها المجهول . وتمكن العثمانيون من التعويض عما ألمّ بهم من خسائر باتجاههم شطر مقاطعة قبادوقية ويتهيأون ، بتؤدة ، لاسترجاع فتوحات حققها بيازيد من قبل على عَجل . ومما هو حري بالذكر والتنويه هنا ، هو ان مقاطعات البلقان لم تحرك ساكناً ، واوروبا المسيحية نفسها اخذت تهلل عاليـــاً

وتصفق بحراوة لاخبار انقرة ، متوهمة ان الـكابوس ارتفع الى الابد عن صدرها وانها تستطيع ان تتنفس الصعداء . ولم يخطر في بال أحد ان يقف في وجه استعادة الاتراك العثمانيين لوحدتهم، عن طريق تغذية الانشقاقات والاضطرابات وزرع التفرقة التي ذرّ قرنها ، بين خلفـــاء بيازيد من ابنائه المتخاصمين . وموجز الكلام . ان جمود الصرب والبلغار واليونانيين ، والرضـــوخ



(الشكل ١٧) تكوين الامبراطورية العثمانية

١ ـ في الربع الثاني من القرن الرابع عشر . ـ ٢ في النصف الثاني من القرن الرابع عشر . ـ ٣ في القرن الخامس عشر . ـ ٤ في اوائل القرن السادس عشر .

لما قُسِمَ لهم واستسلامهم لحالة الضعف التي ألمت بهم فعجزوا عن زحزحة النير الثقيـــل الذي رزحوا تحته ، كل ذلك افاد كثيراً في انقاذ الاتراك من الوضع الخطر الذي احاط بهم . فالازمة لم يتضرّس بها ولم يكتو بنارها سوى اقوام التركمان، في آسيا الصغرى الذين سارعوا الى التخرر ولا سيما من كان منهم في هذه الحاميات القائمة على الحدود التركية .

فسياسة السلام التي اضطر خلفاء السلطان بيازيد الى انتهاجها مع جيرانهم مـــن الدول المسيحية ، وضعت فجأة افراد جيش الغزاة الذين حُرموا من اسلاب الحرب ومكاسبها ، وجهاً لوجه مع موجبات التزاماتهم المالية والضرائبية التي كانت تتعارض وعاداتهم المألوفة ، فثاروا وتمرّدوا واخذت حركة العصيان التي قاموا بها طابعاً خطراً ، اذ راح الشيخ بـــدر الدين ابن قاضي سيمونا يضفي عليها من تعاليمه التي دعا فيها الى شيوعية انسانية عرفت الاجيال الوسطى

دعوات كثيرة شبيهة بها ، حبذ فيها قيام اخوة بين كل من عضهم البؤس والشقاء بنابه ، من مسلمين ومسيحيين . وقد امكن قمع هـذه الحركة بالدم والنار بفضل التعاون الذي قام بين النبلاء والموالين . وقد اقنعت هـذه الحركة السلطان محمد الاول ، اكثر اولاد السلطان بيازيد تفهماً للامور ، وانشطهم على الاطلاق ، انه لاعادة الوحدة الى السلطنة العثمانية وللحفاظ على هذه الوحدة التي كانت تقوم أصلا ، على سيطرة العنصر التركي ، لا بد من الرجوع ، باي ثمن ، ومهما كانت الاخطار ، الى سياسة الشدة والفتح التي كانت منظمة الغزاة تقول بها وتدعو اليها . ولذا راح يتخذ سياسة جديدة حيال اتراك آسيا الصغرى حاول معها ان يحملهم على السير في مساقه ، بدلا من محاولته القضاء على الامارات التي بعثت من جديد . ومن جهة اخرى عرف ان يؤمن التفاف سكان البلقان حول النظام الجديد . ومن هذه الناحية يجب النظر ، لنفهم على الوجه الصحيح، طلوع هذه المنظمة الجديدة التي طلعت علينا باسم « داشرمه » او تجنيد الاولاد. فاعتمدت الانكشارية اساساً في نظامها على الاسرى والايتام الذين يؤخذون في الحروب ، او على المسيحيين من سكان البلاد الاصليين ، فينشّأون على مبادىء الدين الاسلامي ، ويُدرّبون تدريباً عسكرياً شديداً ، فينقطعون للجندية في معسكرات خاصة ، فيُرسلون للخدمة عبيداً ارقاء في حاشية السلطان وبلاطه او يُلحقون بوظائف الجيش فيصبحون مادته الاولى وذخيرته المثلى .

يا لها من فظاظة بربرية ووحشية ،وأحطّ معاملة واشقاها على الاطلاق تنزل بأقوام المسيحيين المستعبدين !. هذا هو الحكم يصدره على هذا الوضع ،هؤلاء المؤرخون الاوروبيون،الذين ارّخوا اول من ارّخ ، للسلطنة العثمانية ، وهو حكم صدر، ولا شك ، عن ردّة الفعل التي طلعت عقب أجيال طويلة ، عندما راحت الشعوب البلقانية يستيقظ فيها الشعور القومي،في ظل هذا النظام الهرم ، المهلهل الذي آلت اليه الدولة العثمانية فيما بعـد ، فراحوا يشعرون بألم ممض ، لتجنيد اولادهم ، باعداد متزايدة . وقد راح بعض رجال الدين من الاجانب يشجبون بشدة منذ القرن الخامس عشر ، فرض اعتناق الدين الاسلامي بالقوة ، لاعتباره امراً لا يمكن تحمله ولا الصبر عليه . اما سواد السكان فقد اختلفت نظرتهم اليها كل الاختلاف . فقد راح عـدد كبير من سكان البلاد الاصليين ، بدافع من شعورهم الاجتماعي ضد الاكليروس المسيحي ، يعتنقون الاسلام زرافات ووحدانا ، كقبائل البوغوميل ، في البوسنة ، وبعض الالبانيين من سكان البانيا ، كما راحت جماعات بكاملها من المسيحيين الخاضعين للكنيسة اللاتينية ، التي لم تكن في نظرهم كنيسة وطنية، يعتنقون الاسلام بالجملة هم ايضاً . ومع هذا فالبلدان السلافية كانت كلها تتعاطى تجارة الرق والنخاسة . والحال فالفتيان والاحداث الذين كان يقع عليهم اختيار العثمانيين ، كان يؤتى بهم من جميع الاوساط والمجتمعات ، شريطة ان تتوفر فيهم المؤهـلات الصحية والبنية القوية ، فيعملون عبيداً في خدمة السلطان، فيتخذون لهم ، من حياة الجندية ، مهنة اسمى بكثير وارفع بمكان مما كان عليه وضع هؤلاء الفلاحين« الاحرار » ، المشدودين دوماً الى الارض . فالانحطاط

الذي كانت تتسكع فيه الطبقات الريفية ، قبل الفتح العثماني ، ساعد كثيراً على ترويج هـذه العادة والترسيخ لاصولها بين مشاعر القوم . ومع ذلك ، فهؤلاء الارقاء الذين كانوا يربون في حجر الاسلام ، ويعملون في خدمة الامبراطورية العثمانية ، لم يكونوا يفقدون ، لهذه الاسباب ، كل اتصال او علاقة لهم بذويهم ، اذ كثيراً ما عرفت الأسر التي ينتمون اليها ، ان تفيد كثيراً من بروز ابنائها وتجليهم في ساحة الوغى او في خدمة الادارة .

وقد ادى هذا الامر الى احداث تغييرات جذرية في تشكيل الحكومة العثمانيـــة اذ كانت تعول في ادارتها ، حتى آنذاك، على ابناء الارستوقراطية الاسلامية في آسيا الصغرى، ولاسيما على اسرة جندرلي التركية التي طالما احتفظت بمنصب الوزارة والصدور العظام ، طوال القرن الرابع عشر حتى مطلع القرن الخامس عشر ، رأسها جنـدرلي قرة خليل المعروف بخير الدين باشا. وكان اعتماد الدولة على خدمات رجالات هذه الاسرة من اصحاب الاعمـــال الكثيرة ، فرموا لاجلها بالشعوبية ـ وهي تهمة طالمـــا رجموهم بها ـ لم يكن ليرضى السلطان ولا جماهير الشعب التركي عنهـا ، فجرى استبدالهم بموظفين اداريين من طبقات اجتماعية متواضعة ، اكثر انقياداً للسلطان ، واكثر تهيؤا للوظائف والمهمات الموكولة اليهم ، فيتمتعون برضى اكبر ، لدى الشعب ، اقله في الدور الاول الذي تولوا فيه مهام الادارة . ومثل هذا الاستبدال تمّ في كثير من العهود ، خلال الاجيال الغابرة ولدى كل الشعوب ، وقد جاء عند الاتراك العثمانيين في اثر التطور النموذجي الذي عرفه الرق : فقد اصبحت الحكومة ، في مجموعها ، اذ ذاك ، ورشة ضخمـــة من الحشم والخدم في خدمة السلطان . انه لشرف عظيم ولمركز سام ان يكون المرء عبداً عندالسلطان. ولعل اكبر واثمن صفـــة لهم ، انهم صورة مصغرة لسلطة السلطان ، في نظر اشد الاحرار بطشاً وارفعهم شأناً . ولا يسع المرء الا ان يتساءل كيف نهج الاتراك العثمانيون مثـل هذا النهج ، وهم المسلمون الذين كانوا يتباهون بالاستمساك باهداب الدين الحنيف ، طالمـا ان الدين الاسلامي لم يكن ليسمح قط باستعباد المسيحيين ، وباخضـــاعهم بصورة منهجية للرق . فالجدل لا يزال قائماً حول الموضوع . وبقيت منظمة الداشرمة امراً واقعياً ، معمولاً به الى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فلم يثر هذا النظام ، لدى المسيحيين ولا عند المسلمين، اي احتجــــاج او اعتراض .

وبعد ان أعيد تشكيل الامبراطورية وتم تدعيمها على مثل هذا النحو الذي وصفنا انصرفت الى تحقيق المزيد من الفتوحات الجديدة في اوروبا زادت رقعتهـــا اتساعاً . فاحتلت مقاطعة البوسنة وفلاخيا ، وسحقت تحالفاً جاء متأخراً جداً ، تألف من بولونيا والمجر وفلاخيـــا ، واوقفت عند مدينة فارنا ، على ساحل البحر الاسود الغربي ، هجوماً قام به الحلف المذكور ، عام ١٤٤٤ ، وتوّجت هذه المآتي باستيلائها عام ١٤٥٣ ، على القسطنطينية . وهكذا ، بعـــد مضي ثمانمائة سنة على اولى هجمات العرب المسلمين ضد هذه المدينة ، قُيّض للعاهـل العثماني ، وريث الدعوة للجهاد ، والناهض بالحرب المقدسة ، ان تتم على يده هذه المعجزة الممثلة باحتلال

بيزنطية. فكان هذا الاحتلال رمزاً لهذه الوحدة التي جمعت اوروبا وآسيا معاً ، فطبعت بطابعها المميز انبعاث امبراطورية « الروم » الجديدة ، الذي جاء لصالح الاسلام ، هذه الامبراطورية التي سبق وحلم بانشائها وبعثها من جديد ، السلطان بيازيد ، عندما تقدم من الخليفة العباسي في القاهرة، بطلب الاعتراف له بحمل لقب : « سلطان الروم » . فقد تم له من قوة جيشه ما اتاح له تحقيق هذا العمل العظيم ، بعد ان انشأ له فنيون مسيحيون ، مهرة ، اقوى مدفعية تم صنعها حتى ذاك . وبعد دفاع مستميت قـــام به السكان ذوداً عن حياضهم ، واستماتة الامبراطور قسطنطين الحادي عشر في رفع الحصار ودفع المقدور ، سقطت المدينة في يدي محمد « الفاتح » عام ١٤٥٣ ، فاسلمها للنهب والسلب واستباحها مدة ثلاثة ايام بلياليهـــا . ولم يحتج لاكثر من بضع سنين حتى تهاوت بلاد اليونان كلهـا بقبضته ، باستثناء جزيرة رودس ، حيث استطاع الرهبان «فرسان الهيكل» ان يستقلوا بالامر فيها حتى مطلع القرن السادس عشر، وباستثناء جزيرتي كريت وقبرص اللتين كانت اولاهما واستمرت تحت سيطرة البندقية ، حتى القرن السابع عشر، بينما لم تسقط قبرص الا في النصف الثاني من القرن السادس عشر . وبسقوط طرابزون بدورها زالت من الوجود آخر امـــارة يونانيـة ، كما زالت وتوارت عن الوجود ايضاً ، الامارات السلافية الواقعة الى الجنوب من نهر الدانوب . والبانيا نفسها التي خلد اسمها بمآتي بطلها الوطني جورج كستريوتا المعروف باسكندر بك ، لم تستطع الاستمرار بالمقاومة لاكثر من بضع سنوات ، وبذلك اصبحت الامبراطورية العثمانية في اوروبا ، وحدة متجانسة ، لا ثغرة فيها ولا مغمز .

وهذه الدويلات اللاتينية التي حاول اسيادها عبثاً تفادي الخطر المداهم المحيق بها ، بما حاكوا في هذا السبيل من دسائس ، ونصبوا من عراقيـل ، وأتوا من صنوف الزلفى والوان الدلس ، لم تلبث ان حملها السيل الجارف وابتلعتها الموجة المزمجرة وغطاها اليم . فزالت من الوجود السياسي شبه الجزيرة اليونانية ، وجزر الارخبيل ، وهذه الوكالات التجـــارية التي اقامها الجنويون في غلاطة ، ومستعمرة « كفا » القائمة بعيداً ، على سواحل البحر الاسود ، بعـد ان كانت وقعت ضمن نطاق التجارة الروسية ، منذ زوال الامبراطورية المغولية ، والتي جرى تدميرهـا بمؤازرة « التتار» المحليين ، بعد ان ساروا في المدار العثماني . وفي تلك الاثنـــاء كان الحرس من الجنود العثمانيين يقومون بالسهر على حراسة شواطىء البحر الادرياتيكي ، وعنـد أقاصي حدود هذه المنطقة من دلماتيا التابعة للبندقية ، ويقفون تجـــاه الجزر الايونية . كذلك حاولت الاحزاب السياسية القائمة في ايطاليا الافادة من خدمات الجند العثماني في سبيل تنفيذ سياستها الصغيرة . وفي سنة ١٤٨٠ ،رأينا العثمانيين ينزلون الى البر، امام اوترانت. ولقيت فتوحاتهم ، في اتجاه اوروبا الوسطى، السهولة ذاتها . فالاستقلال الداخلي الذي تمتعت به الامارات السلافية التي كانت ملعباً لدسائس المجر ولألاعيبهم ، قد الغته الدولة الجديدة ، عندما تهيأت لها اسباب تأمين الادارة بنفسها مباشرة ، محترمة ما امكن التقاليد والاعراف الوطنية الخاصة التي سار عليها سكان البلاد ، الامر الذي جعل الشعب يأنس لحكمهم ويركن لادارتهم . وعلى هـــذا النحو ، استطاع

العثمانيون ، خلال القرن السادس عشر ، ان يصفّوا نهائياً وضع هنغاريا ، وان يدفعوا بجيوشهم وجحافلهم الى الامام،حتى بلغوا بها اسوار فيينا ، بصفتهم حلفاء الملك المسيحي البار فرنسوا الاول ، خصم شارل الخامس . وفي الوقت ذاته ، اصبح البحر الاسود بحيرة عثمانية ، بعد ان خضع التتار ، في جنوبي روسيا ، والرومانيون من سكان رومانيا ، لسيادة امتازت بالمرونة ، وكانت اكثر السلطات التي قامت ، للآن ، احتراماً للاستقلالات الداخلية التي تمتع بها الاهلون .

اما جبهة آسيا ، فقد كانت تثير ، اذ ذاك ، من المتاعب والمشاكل الشائكة ما اثارته في وجه الاتراك العثمانيين من امثالها ، في القرن الماضي . صحيح انه لم يكن ثمة أية امارة بين الامارات التركمانية تستطيع ، مها اشتد منها الساعد ، ان تقف في وجه العثمانيين ، حتى سلطنة الخروف الابيض منها في ارمينا ، التي حاولت البندقية ان تؤازر سلطانها حسن الطويل وتقف الى جانبة ضد محمد الثاني . فقد سبق لتركمان آسيا ان اظهروا ولاءهم ، ووقفوا الى جانب دولة نشأت بعيداً عنهم ، حيث لم يكن لهم مايطمعون او يحلمون بامتلاكه . فقد كان بامكانهم ان يجدوا عوناً ، ويلقوا سنداً في هذه الحركة الواسعة التي كان يتمخض بها هذا القسم الغربي من ايران ، حيث كان تركمان هذه المقاطعة ، ومعظمهم من جماعة الشيعة ، على سوء تفاهم وتنابذ مع ملوك الدولة التيمورية ، ومع سلاطين دولة الخروف الابيض السنيين . وقد نعم بنفوذ كبير بين سكان هذه المنطقة ، عدد كبير من الجمعيات والهيآت الدينية ولا سيا الصوفية منهـا . وقام في مدينة أردبيل من اعمال اذربيجان ، دولة من المولوية ، وهي دولة شيعية ، وراثية عرفت ان تجمع حولها ، خلال القرن الخامس عشر ، وحدات عسكرية معظم تشكيلاتها وكراديسها من من التركمان المتحمسين ، وجهتهم وجهة الجهاد المقدس ، ضد الكرج من غير المسلمين ، ثم ضد الخوارج في الداخل . والخوارج هنا كلمة عنت كل من ليسوا على المذهب الشيعي ، بعد ان عرفت الدولة الصفوية ان تنفخ في رعاياها، المتوزعين مللا ونحلا ومذاهب مختلفة ، ميلا شديداً ونزعة ملؤها الحماسة نحو الشيعة . وعرف اولو الامر فيها عن طريق دعاية ناشطة ، واعية ان يكسبوا لهم عدداً كبيراً من الانصار بين تركمان آسيا الصغرى الذين راحوا ، تمييزاً لهم عن الآخرين ، يعتمرون قبعات حمراء، فعرفوا لهذا باسم كزلباخ (اي الرأس الاحمر)، وهي فرقة لا تزال قائمة لليوم بين الاكراد وذلك تمييزاً لهم عن انصار العثمانيين الذين اعتمدوا اللون الابيض في قبعتهم . وقد توصل هؤلاء التركمان الى ان يؤسسوا لهم ، في ايران ، دولة موحدة ، هي الدولة الصفوية التي اضطلعت بالامر لمدة قرنين ، يمكن اعتبارها ، بالرغم من اصل مؤسسيها ، اول دولة وطنية تقوم في ايران ، دخل تحت حكمها كل الولايات الفارسية الاصل . اما الدولة التي قامت لهم في آسيا الصغرى ، فكان لا بد لها من الاصطدام بالعثمانيين لانها كانت تهدد رعاياهم بالذات . ففي الحين الذي راحت فيه الدولة العثمانية تتخذ تدابير زجرية دينية، شديدة ، جعلت الحكم ، اكثر من اي وقت مضى ، يتسم بصلابة العقيدة والتمسك باهداب السنة ، قاموا بتجريدات عسكرية ضد الدولة الصفوية انتهت بضم العثمانيين ، لارمينيا الصغرى ، الى املاكهم

ثم راحوا يدفعون خصومهم شرقاً ، الى الوراء ، فتمكنوا في مستهل القرن السادس عشر ، ان يحتلوا العراق ،مع انه لم يخطر لهم على البال يوماً ، ان يتوسعوا على حساب العرب لما يعرفون من صعوبة تمثلهم وأستمرائهم لهم .

ومع ذلك ، فقد توصلوا ، في بضع سنوات ، لاحتلال الجانب الاكبر من الاقطار العربية ، مبتدئين بمصر المماليك حيث كان التركمان يتمتعون بعطف ظاهر بعد ان اعلنوا ولاءهم للمماليك . فالضعف الذي كان عليه المماليك ، اذ ذاك ، وافتقار جيشهم للمدفعية ، اتاح للعثمانيين ، احتلال سوريا ومصر ، ببضعة اسابيع ، باعثين في قلوب التجار ورجال الدين معاً ، الامل بان يتمكن اسياد البلاد الجدد ، من وضع حد لسيطرة البرتغاليين : على مرافق التجارة، في البحر الهندي . وفي الوقت ذاته وقعت المدن المقدسة ، لدى الاسلام، تحت سيطرة العثمانيين وحمايتهم .وعندما حمل العثمانيون معهم اسيراً من مصر آخر خليفة عباسي ونقلاوه الى الاستانة، راح الشعب يلقب السلطان سليم الأول بلقب امير المؤمنين ، وهو لقب حمله خلفاؤه من بعد ، حتى سنة ١٩٢٤ . وبعد ذلك بقليل تولى فريق من القراصنة يعملون في خدمة الدولة العثمانية مباشرة ، فتح اقطار شمالي افريقيا ، واضمين هذه البلدان البعيدة تحت سيادة الشرق ، وسيطرته ، هذه السيطرة التي سبق لهم وتحرروا منها،منذ سبعمائة سنة او ثمانمائة سنة.حملنا السير بسرد قصة الفتوح العثمانية على ان نتجاوز قليلا،نطاق الحدود المتعارف عليها للاجيال الوسطى،فنتتبع تاريخ الفتوحات العثمانية ، التي لا تلين ولا ترضخ للتقاسيم الكيفية المتفق عليها للازمنة التاريخية،حتى سنة ١٥٣٠ – ١٥٤٠ . وهذه الامبراطورية الجديدة ، التي لم يبق لها سوى ان تمكن في الارض وترسل جذورها عميقا فيها ، قد حققت وحدة الشرق الادنى ، هذه الوحدة التي اذهبتها وعبثت بها ، منذ اكثر من الف سنة ، هذه الدول التي دالت مع الماجريات السياسية التي عرفتها هذه البقعة من الارض . وفي هذا يصح ان تعتبر ذاتها الخليفة الشرعي والوريث القانوني لروما .

النظم العثمانية

فرغت السلطنة الجديـــدة من وضع تنظيماتها الجديدة خلال القرن السادس عشر . وللقارىء الكريم اهم ما تميزت به الادارة التركية منذ القرن الخامس عشر .

زعم الزاعمون انه لم يتم للعثمانيين اية فكرة صحيحة عن الدولة والتنظيمات التي يجب ان تقوم عليها ، اذ ان الاشخاص الذين اعتمدت عليهم في تحقيق هذا الامر انمـــا كانوا من سكان البلاد الاصليين ، ورثة التقاليد البيزنطية . وفي مثل هذا الزعم ، لأكثر من دليل وشاهد على فقدان الذاكرة عند من يرددونه ، اذ ينسون او يتناسون ويغيم عن ابصارهم وبصـــائرهم ، الانحطاط الذي آلت اليه النظم التي عُمل بها في الدولة البيزنطية ، كما جهلوا وتجاهلوا واقعاً تاريخياً هو ان الامبراطورية العثمانية تم انشاؤها على يد اتراك مسلمين ، وفدوا من غربي آسيا الصغرى . فاذا ما دخل الادارة موظفون من اصل بلقاني اعتنقوا الاسلام ودانوا به منذ عهد قريب ، وساهموا فيها على نطاق واسع ، وبلغوا معها مراتب عالية تتناسب وعددهم المتفوّق ، فقد قاموا بذلك ،

بعد ان عملوا في نطـاق ملاكات وتدربوا على أيـــد ماهرة ، وفقاً للتقاليد الادارية التركية البحتة . فلو لم يجر الامر على هذا النحو ، لمـــا امكن لهذه النظم والمؤسسات والأطر الادارية البالية التي اتّهموهم باقتباسها، ان تبقى صالحة للعمل وتستمر فعّالة ، والا لكانت زالت من الوجود وبطل العمل بها. والذي نعرفه معرفة اليقين ان النظم التركية، بقيت مرعية الاجراء ما بقيت الامبراطورية العثمانية نفسها .

والعثمانيون كغيرهم من الغزاة الفاتحين الذين طلعوا علينا في الاجيال الوسطى ، لم يفكروا يوماً ان يهدموا او ينسخوا العادات والاعراف التي سار عليها سكان البلادالاصليون مما لايتعارض العمل به مع سلطتهم وسلطانهم ، فكيف بالتي تؤيد هذه السلطة وتمكّن لهـــا في الارض ، وترسخ لهيبتها في القلوب . كذلك من المحالُ معاً ان تفرض دولة ما على رعاياها ، حقاً عـــاماً لاتشدّه اية آصرة او رابطة ، الى مختلف الطوائف والملل القائمة فيها. فالامور الادارية المحلية او الاقليمية الجاري الاخذ بها ، ولاسيما ما تعلّق منها بالاعراف المالية ، لم يكن ليصح ادخال اي تشويش او اضطراب عليها الا بنسبة التطور الذي قطعته الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، في البلاد ، وهو شيء لا يجري ، اذا ما حدث ، الا بتؤدة وتمهل . ولماذا لا يستعمل او لا يقتبس العثمانيون السجلات العقارية التي وضعها البيزنطيون اوالسلافيون ، من قبل . ولماذا نريدهم اعجز من ان يقيموا او يضعوا نظماً مماثلة ، حيث تبدو الحاجةالى ذلك ؟

والحقيقة التي لا يمارى فيها هي انه، هنا كما في كل الدول الاخرى ، يجب التمييز او التفريق ، بين المؤسسات المركزية ، او القلبية ، التي وضعها الفاتحون من انفسهم ، وبين المؤسسات والنظم الاساسية الاخرى التي جاءت استمراراً واستدامة للتقاليد الوطنية في البلاد . فالامبراطورية العثمانية ، هي قبل كل شيء دولة اسلامية . ولما قُيّض لها ان تشيل الاسلام وتنهض بمنائره على المشركين ، فقد سارت في ذلك ، وفقاً للشريعة الاسلامية . وكغيرها من الدول الاسلامية ابقت سدنة المساجد ومعلمي المدارس حتى والقضاة الذين تجري لهم الاوقـــاف والأعطيات والمرتبات لقاء تطبيقهم احكام الشريعة الاسلامية وفرائضها ، بمنأى عن كل مراقبة حكومية ، ومن هنا تبرز في دولة كل من فيها جيش محارب مجاهد ،اهمية قاضي الجيش . ومن ثم راحوا يعولون على الفقهاء ويستفتونهم بعد ان جرى تنظيمهم بشكل جسم او هيئة يرأسها مفتي كبير ، تألف من مجموعهم اشبه بمجلس اعلى ، يتولى الاشراف على تطبيق القانون .

كذلك ، اسوة بالدول الاسلامية الاخرى ، كان على الحكومة العثمانية ان تتخذ اجراءات سياسية وادارية تمت بصلةللشريعة الاسلامية ان لم تخالفها في بعض الاحيان. واعتمدت في تطبيق هذه القوانين ، هيأة من الموظفين ، من مدنيين وعسكريين كانوا عملاءها المباشرين ، لا يتمتعون حيالها بالاستقلال الذي تم لرجـــال الدين والشريعة . فبينما نرى السواد الاكبر من الموظفين السياسيين والعسكريين ، في الدول الاخرى ، يأتون من طبقة العبيد والارقاء ، طلع موظفو

الادارة المدنية ، بعكس ذلك ، من الطبقة الثرية بين سكان البلاد الاصليين . اما في الامبراطورية العثمانية ، فقد انصهرت هذه الفئات معاً بسرعة كلية ، بنسبة مـا امدت منظمة الداشرمة ، الجيش ببعض وحداته ، والادارة بمعظم الموظفين الذين تحتـاج اليهم ، وبهذا العدد الكبير من الموظفين الذين كانوا يعملون في بطانة السلطان وحاشيته . فقد كانت هذه المنظمة عبارة عن ورشة ضخمة لتخريج ما يلزم من خدم وحشم للقطاع الرسمي، خضعوا في مجموعهم ، قبـل مباشرتهم العمل، لتدريب مسلكي خاص، ولُقنوا احسن تلقين للقيام بواجباتهم ومسؤولياتهم نحو السلطان والدين الاسلامي ،بعد ان يتلقوا دروساً وتربية صالحة،وفقاً لمنهاج خاص كان يوضع لهم باشراف البلاط نفسه . وهكذا ، فقد كان الانكشارية ، منذ عهد السلطـان محمد الثاني ، فرقة عسكرية ، كما كانوا ، من جهة اخرى ، نوعاً من رهينة دينية محاربة على شاكلة فرسان الهيكل عند الصليبيين ، يعملون تحت امرة ضباط من منظمة البكتاشية كانوا يشرفون عليهم من الوجهة الخلقية والادبية .

ان ضخامة المسؤوليات الادارية واتساعها في هذه البلدان التي جرى فتحها وضمها الى السلطنة جعلت للقانون المدني ، في نظام الحكم العثماني ، اهمية فاقت كثيراً ما كان من امثالها في الدول التي تشكلت من قبل . فلأول مرة اصبح للقانون الذي ينظم الحياة الاقتصادية والمالية في البلاد هذا الشأن العظيم الذي تمّ له ، وهو قانون ساهمت في وضعه وصياغته وتكوينه ، عنـاصر اقتبست من القوانين البيزنطية ، واخرى استنبطها العثمانيون وجاؤوا بها من عندياتهم . وهذا القانون الخاص بالنظام العثماني يقوم على مبدأ اعتبار الدولة كلها ، مُلكاً خاصاً للسلطان وخلافاً لكثير من الانظمة التي عرفتها الاجيال الوسطى التي وقعت في الوهم ذاتـه ، فانزلت المصلحة العامة منزلة المصلحة الخاصة ، نرى على عكس ذلك تماماً ، المصلحة الخـاصة ، في الدولة العثمانية ، تتضخم وتتسع بحيث تصبح دولة واسعة . وبالفعل ان سعود الحروب التي قام بها العثمانيون وما رافقها من توفيق في النتائج التي ادت اليها،وهذه السياسة الصارمة التي ساروا عليها والتي رمت الى مصادرة كل الاملاك الخاصة ، جعلت املاك الدولة (الميري) تشمل كل الاملاك الخاصة، فتتولى الدولة ادارتها رأساً او تؤجرها وفقاً لانظمة خاصة سنذكرها بالتفصيل بعد حين . وهذه التغييرات التي بدت سيان لدى الفلاح لانها لم تُدخل اي تعديل في الرسوم والضرائب المترتبة عليه ، وفّرت للدولة موارد طائلة ومرنة في آن واحد ، اذ اولتها على الناس ولا سيما على اصحاب الطبقة الارستوقراطية ، سلطة لم ترَ حكومـة من الحكومات السالفة ، تمتعت بشيء منها .

ومع ذلك، قام من ينعت النظام العقاري او التملكي الذي عُمل به في الامبراطورية العثمانية، بنظام « اقطاعي » . فاذا كانت فرقة الانكشارية التي ازدادت اهمية حربية بازدياد الاسلحة النارية الجديدة ، بقيت تكاليفها على حساب السلطان الخاص ، فلم يكن الامر ، على مثل هـذا النحو، مع فرقة الخيالة او فرقة السباهيين التي حلّت محل فرقة «الغزاة»،اذ كان الفارس الخيال

يتناول لقاء خدمته « تياراً ». ويتميز التيمار او الاقطاع الحربي بأن تمنح الدولة او السلطان ، احداً من رعاياها إقطاعاً من الارض يوازي بقيمته خراج قرية لا يدفع عنه ضرائب ، في نظير التزام صاحب التيمار «الاقطاع» بتجنيد نفسه او ابنائه او اتباعه للخدمة في الجيش او البحرية ، اذا ما دخلت الدولة في الحرب . ويكون عدد المجندين مناسباً لدخل التيمار . والكلمة فارسية الاشتقاق والاصل ، وهي ترادف كلمة *Pronoïa* البيزنطية ، وتشبه من حيث مدلولها مدلول الاقطاع ، كما عرفه الاسلام ، وكما عُمل به في مصر المماليك . وللدولة ان ترجع عن هذه المنحة اذا مـا عجز صاحب التيمار عن القيام بالالتزامات المفروضة عليه . ولذا قلما انتقل التيمار الى الابناء والورثة . فصاحب التيمار يخضع لمراقبة الحكومة التي يمثلها في المقاطعة والٍ او حاكم عام قابل للعزل والرفت . وكان يتعين على اصحاب التيمارات من كبار ضباط الجيش ، ان يدربوا ، بالاكثر ، ٢٠ فارساً ويدربوهم على استعمال السلاح . وهكذا بدت السلطنة العثمانية اكثر دول الاجيال الوسطى أخذاً بالسلطة المركزية. وهذا الوضع هو بالفعل الوضع الذي سارت عليه الامبراطورية البيزنطية في عهد يوستنيانوس ، والدول العباسية نفسها في ابان مجدها .

وكغيرها من الدول صاحبة الشأن التي سبقتها ، اعتمدت السلطنة العثمانية في ادارتها على طبقة الموظفين . والسلطان ، كغيره من الملوك الذين سيطروا وسادوا ، بدا وكأنه سوبرمان ، من عجينة فوق البشر ، يعيش منزوياً عن الناس ، الا في ايام الحرب ، في قلب سراياه التي تؤلف لوحدها ، مدينة في قلب المدينة العاصمة ، يبلغ اليها بعد الكثير من المراسم والتشريفات . وقد عرفت الاسرة المالكة في الدولة العثمانية ان تصون العرش وتحـافظ على التاج من كل عبث الطامعين اليه ، بطريقة مختصرة مبسطة للغاية ، وذلك بالقضاء على اخـوة الوريث الشرعي ، بطرق ملتوية ، مشبوهة . وكان السلطان يتزوج ، في الاساس ، من اميرات تركيات او مسيحيات. ومنذ القرن الخامس عشر لم يعد عنده زوجة شرعية ، وما اولاده وبنوه الا ابناء بعض السراري والمحظيات اللواتي لا يحصى لهن عدد ، ممن يهدين الى دار الحريم . ولم تكن البلاد بلغت بعد العهد الذي كان فيه السلطان لا يبارح دار الحريم قط ، ليصبح دمية بيد سراريه . فالفاتح والقائد المظفر الذي كانه محمد الثاني ، لم يعرف عنه مغامرات عاطفية .

وهذه الفظاظة ، وهذا الخداع الماكر ، وغيره مما قذفوا به هؤلاء السلاطين ، في عداد مـا وجهوا اليهم من تهم وتشنيع ، هل اختلف ذلك كله عما عُرف به معاصروهم من امراء ايطاليـا في عهد مكيافلي مثلاً ؟ فهـذا العدد العديـد من المسيحيين الذين أتيح لهم الاقتراب من هؤلاء السلاطين ومخالطتهم دونما حسيب او رقيب ، لم يستطيعوا ان يتفادوا قط الوقوع تحت ما لهم من مهابة ووقار . فهم ابناء عصر واحد وزمن واحد . ومما لا بد من التنويه به عالياً ان هؤلاء السلاطين لم يظهروا اي تحرّج او تعصب تجاه المسيحيين ، في وقت وزمان كان فيه ديوان التفتيش يبطش بالناس بطشاً وينزل بهم الهلع باعتباره محكمة رسمية ، وقضاءً عالياً من اقضية الدولة ، وفي عهد كان اليهود والمسلمون يطردون دونما رحمة او شفقة ، من اسبانيا . فاذا ما رسفت الكنيسة الارثوذكسية ، في آسيا ، والارمن ، وهم اكثر عدداً ، منذ عهد بعيد ، في الذل والمهانة ،

فالبطريرك المسكوني كان اظهر ولاءه دونها مواربة ، للعثمانيين الذين لقي عندهم كل رعاية وحماية ، فصانوه من تعديات اللاتين ومداخلاتهم ، كما ان تقربه من اولي الامر ، زاده نفوذاً اكبر لدى الكنائس السلافية التي كانت فقدت ، اذ ذاك ، الشيء الكثير من الاستقلال الداخلي الذي تمتعت به من قبل. وبالرغم من نظام الداشرما ،واسكان عدد كبير من الجاليات الاسلامية في البلقان ، واعتناق بعض الجماعات البلقانية الاسلام ، فلم يأت العثمانيون شيئاً مهماً ليمنعوا السواد الاكبر من سكان البلاد البلقانية من الاحتفاظ بنصرانيتهم . وعلى نقيض ما حدث عند استفحال الفتح وبلوغ مده الزبى فالفتح السياسي العثماني لم يزدوج بفتح ديني .

معالم المدنية العثمانية

فبعد ان أغلظ الاتراك العثمانيون معاملة الامارات اللاتينية وقلموا اظافرها بالحد من الامتيازات التي تمتعت بها ، تساهلوا كثيراً مع هؤلاء التجار غير المسلمين الذين انصرفوا لاعمالهم التجارية فيما بينهم ، بعد ان اخضعوا نشاطهم لمراقبة شديدة ، وفرضوا عليهم رسوماً وضرائب مقيتة. ولم يلبث رعايا فلورنسا ان استغلوا ما يتمتعون به من امتيازات واعفاءات ، بخلاف البندقية وجنوى اللتين سبق لهما ونهجتا سياسة عدائية ، نحو العثمانيين . وقد استطاع رعايا البندقية فيما بعد ، ان يسترجعوا جانباً مما خسروه في هذا المجال من نفوذ ومكانة وشأن. وهكذا يتضح لنا ان النشاط التجاري لم تخب جذوته في الامبراطورية العثمانية . وبفضل توافد المديد من الجوالي السلافية والاسلامية ، بانتظار وصول اليهود المطرودين من اسبانيا ، والأرمن القادمين من الشرق ، اصبحت العاصمة الاستانة وسراي الدولة ، اكبر زبائن لتجارة الكماليات ، فبزّت ، في هذا المضمار ، ما كانه البلاط البيزنطي في أوج عزه وازدهاره . ويتبين لنا من وصف الرحالة الغربيين والمسافرين ان الاستانة كانت تمور بالحركة وتموج بالنشاط ، بعد ان اخذت النقابات البيزنطية تستحيل ، دونما ضغط او اكراه ، نقابات اسلامية .

وبعد ان تناسى العثمانيون أصلهم البعيد ونشأتهم الخشنة الأولى ، راحوا يطلقون العنان ، لهذه الحضارات التي عرفوها في البلدان التي فتحوها ، فزهت تحت كنفهم وازدهرت . فقد أنس بليثن للعيش في القسطنطينية . واذا ما راح فرونتزيس ، ودوقاس ، وشاكوكونديلس يمارسون ويكتبون في المقاطعات التي هاجروا اليها مما يقع تحت سيطرة اللاتين: كجزيرة لسبوس وكورفو وكريت قصة صيرورة الامبراطورية « الرومانية » ، امبراطورية « الروم » ، فلم يتردد المؤرخ كريستوبولس ان يرفع الى السلطان محمد الثاني ، السيرة التي وضعها عن حياته . وقد رأينا فنانين ايطاليين يعملون في خدمة السلطان ،امثال جنتلي بلّيني ،يرسمون لنا صور الكثير من الناس والاشياء في القسطنطينية الجديدة .

فها نحن امام مدنية عثمانية تحاول جهدها ان تفرغ في حضارة واحدة ، شق المدنيات التي ازدهرت في امارة الكرمانيين ، اسياد العاصمة القديمة قونية ، في عهد السلجوقيين ، وامارة

قسطموني الى الشمال من انقرة ، وامارة الخروف الابيض. فهذه الحضارات لا تزال تحمل الكثير من معالم الثقافة العربية والايرانية . ففي الوقت الذي راح فيه الفقهاء ورجال الدين يتابعون الكتابة بلغة القرآن ، ورجال التصوف والشعراء والكتاب من كل صنف ولون ، يستعملون كثيراً اللغة الفارسية ، اذ بالاتراك يقتصر معظم ادبائهم ، اذ ذاك، على الترجمة والنقل . ويتناول هذا اللون من الادب مواضيع صوفية او بعض قصص البطولة الموضوعة بالايرانية ، وأحياناً بالعربية ، بحيث اخذ الادباء الذين ينقطعون لهذا الادب يفكرون بالايرانية ، ما يكتبونه بالعربية ، وان جهل السواد الاعظم من مواطنيهم اللغة التي يكتبون . فالادب التركي في هذه الحقبة ، حيران ، متردد ، يحاول شق طريقه ، مقتفياً اثر الآداب القريبة منه التي ازدهرت في آسيا الوسطى. وباستثناء هذه الترجمات والنقول العلمية العالية ، نرى معظم المؤلفات الشعرية ، بالعربية والتركية ، تلاقي ، منذ القرن الخامس عشر ، انتشاراً واسعاً ، وتحت تناول الشعب ، ان شئنا ان نضرب صفحاً عن ذكر الامراء الذين يحسنون التركية اكثر من احسانهم للفارسية .
والى جانب الشاعرين الكبيرين: نظيمي واحمدي،اللذين لمعا في القرن الرابع عشر،يجب ان ننوه هنا بما بلغه الاهتمام بالتاريخ التركي ، في القرن الخامس عشر ، وذلك عن طريق هذه الترجمات لتاريخ إيران القديم ، ووضع تاريخ مفصل للعثمانيين بالتركية، وهذه القصص الشعبية الوطنية وهذه الروايات الشعبية التي تشيد بامجاد الأوغوز والتي كان ينشدها الشعراء ويتغنون بها ، منذ عهد بعيد . ولم يلبث مسرح خيال الظل الذي تضافرت على تكوينه عناصر جاءت من بلدان مختلفة بين بلدان الشرق،مسيحية واسلامية على السواء،ان ظهر بين الاتراك وبرز بشخصية كراكوز المثيرة للضحك .

كان الاتراك العثمانيون من كبار بناة المساجد والمدارس ، ومثلوا دوراً بارزاً في مضمار الهندسة ، اذ عملوا على تطوير المذهب الفني الذي ساد عهد السلجوقيين والمغول . فمنذ القرن الخامس عشر ، رفعوا للفن منارة كبرى تمثلت بهذا المسجد المسمى بالمسجد الاخضر في بروسة ، للون القاشاني الاخضر الذي يزينه من الداخل . فالخزف هو من هذه العناصر التي ميزت فنهم الناشىء ، بينما راح كثيرون من رعاياهم ، بين يونانيين وارمن ، واتراك وعجم ، يضعون لهم الطنافس ويحيكون السجاد على انواعه واشكاله ، لا يتعدى اقدم المحفوظ لدينا منها ، القرن الخامس عشر .

وبعد سقوط القسطنطينية ، اخذت الارادات الحسنة ووسائل التنفيذ تلتقي وتقوى ، والمؤثرات الاسيوية راحت تتمازج وتختلط بالتقاليد والاساليب الفنية التي اشتهر بها الفنانون من ابناء البلاد . فاليوناني كريستوبولس وضع نفسه بخدمة السلاطين واصبح الرائد الأول الذي اقتفى سنان ، اشهر مهندسي الاتراك في القرن التالي على الاطلاق ، أثره وسار على منواله . بل ايضاً راح السلطان محمد الثاني وخلفاؤه من بعده وكبار الموظفين التابعين لهم ، يتنافسون بحماسة ونشاط ، ليجملوا من الاستانة ، عاصمة تكسف ، بما بلغته من زهو وزينة وجمال ، امجاد

القسطنطينية في أوج عزها البيزنطي . فلم يكفهم ان حولوا كنيسة آجيا صوفيا الى مسجد كبير وغطوا فسيفساءها الجدارية بالملاط، فقد بنوا مساجد اخرى كبيرة، تحاكيها من حيث الاتساع والضخامة ، معطين بذلك الدليل على ان عهد القباب لم يغب بعد عن دنيا الفن ، فتذهب المآذن رافعة رؤوسها نحو السماء ، متحدين برشاقتها وبزخرفها هذه الكنائس المتواضعة المظهر ، القائمة بعد ، في اقطار الشرق . وهكذا فجامع الفاتح يمهد الطريق لهذه الابنية الهندسية الضخمة التي تبدو من هذه الغلالة الندية التي تلف المدينة في الصباح الباكر ، فتبهر بحجمها هؤلاء المسافرين الذين ترسو سفنهم على مقربة من رصيف القرن الذهبي . ان عدم استجابة النفس التركية للفن ، وأخذها بالنظرية الاسلامية التي تتشدد بتحريم التصوير والرسم، وهي تعاليم راجت في بعض الاقطار الاسلامية – مع انها لم تلق رواجا في ايران – جعل التصوير في حكم العدم ، في الفن العثماني، كما لم نر العلم يغزو بعد الروح التركية . ومع ذلك ،فالاوروبيون الاوائل الذين تمكنوا في مستهل عصر الانبعاث من الدخول الى السلطنةالعثمانية ، لم يشعروا قط انهم وطئوا عالما يختلف عن العالم الذي قدموا منه .

فالمؤرخون الغربيون الذين ألفت انظارهم رؤية هذا الانحطاط الذي تسكعت فيه الامبراطورية العثمانية ، طويلا في عهدها الاخير ، قلما قالوا كلمة حق في هذه الانجازات المجيدة التي حققتها الامبراطورية العثمانية ، في عهودها الاولى. فهذا الانحطاط الذي اخذت معالمه تظهر للعيان في جميع الدول الاسلامية منذ القرن السادس عشر ،واي نظام ليس بمسؤول عن عوامل الانحطاط التي تدب اليه – لا يُطلب منا هنا ان نبين منها الاسباب . ومع هذا ، فالامر يتعلق بالاحرى ، بالعجز عن اللحاق بركب التقدم والتطور المدهش الذي قطعه الغرب، اكثر منه بالسير القهقرى الى الوراء. وهذا الركود والجمود، يمكن رده ، من جهة، لتحول طرق المواصلات التجارية ، اثر الاكتشافات الجغرافية العظيمة والعثور على طريق جديد في المحيط الاطلسي ، ومن جهة اخرى ، لهذا الخراب يتراكم في هذه القارة الاوروبية التي اخذت المبادرة للهجوم ، ولهذا اليأس والقنوط يسببهما هذا الهجوم بالذات ؛ وبعبارة اخرى ، لا شيء مما يحق لنا اعتبار العثمانيين مسؤولين عنه في الدرجة الاولى .

٤ – نشأة روسيا المسكوبية

في هذا الشرق الارثوذكسي كله لم تبق ، في اواخر القرن الخامس عشر ، دولة واحدة لم يغمرها المد العثماني، باستثناء روسيا المسكوبية التي رافق ظهور نشأتها سعود من اليمن تبشر بمستقبل زاه مشرق .

وهذه الطامة المغولية الكبرى التي نزلت بروسيا فهزتها بعنف ارتج له كل من على الارض وما فيها ، اعاقت التطور الذي كانت هذه البلاد اخذت باسبابه من قبل ، ووجهته وجهة اخرى . فقد جلبت معها نهاية روسيا الاوكرانية وعاصمتها كييف . ففي الوقت الذي راحت فيه المقاطعات الغربية من البلاد ، مثلا بولونيا وليتوانيا ، تدور في فلك الدول الكاثوليكية،

او تدخل المجال التجاري الاقتصادي الذي سيطر عليه الحلف الاقتصادي المعروف بالهانز،الذي شمل معظم مدن اوروبا الشمالية والوسطى ، اتجهت انظار معظم سكان البلاد الى المقاطعات التي تغشاها الغابات في قلب روسيا ، بعد ان كانت اخذت باحيائها واستعمارها ، وتطلعت بابصارها الى مناطق الفولغا السفلى وآسيا اكثر مما رنت به الى بيزنطية ، التي انقطع معها كل اتصال مباشر .

ومع ان المغول فرضوا الجزية على البلاد ، فلم يكونوا ليتدخلوا بامورها الداخلية الا في حال نشوب ثورات وقيام حركات تمرد وفتن ، بعد ان يتخذ العصاة والثائرون ، ملاذاً لهم ولاعمالهم الغابات الشاسعة ومستنقعاتها الوخيمة التي كانت تختلف اختلافاً بينا عن مواطنهم . وهكذا نعمت الامارات الروسية بشيء من الاستقلال الداخلي دون ان يتنكر حكامها لماضيهم او يقاطعوا تقاليدهم الغابرة ، بخلاف ما وقع للمقاطعات الواقعة الى الجنوب والجنوب الغربي . وقد شبت بين هذه الامارات المختلفة منافسات حادة ، وشقاق اقامها بعضاً على بعض ، حمل بعضها على التماس النجدة : تارة من المغول ، وطوراً من البولونيين ، والليتوانيين. غير ان المغول ، خروجاً ، ولو لمرة واحدة على خطتهم السياسية ، لم يشجعوا قط حركة الانقسام هذه ، فرأوا ، تبسيطاً للامور ، ان يقيموا من بين هذه الامارات واحدة تتولى فيها الصدارة وتمارس عليها السيطرة فتنعم بعطفهم ومؤازرتهم ، ويعهدون اليها بجباية الضرائب والرسوم المفروضة وتحصيل الجزية ، شريطة ان تصدق لهم الولاء ، لقاء الحماية التي يضمنونها لها . وقد أوتي امراء موسكو من اللباقة وحسن التصرف والسياسة والمهارة في السلوك والادارة ، ما اكسبهم عطف المغول فكانوا ممثليهم ، مع ان امارتهم لم تكن اكبر هذه الامارات ، ولا اقواها على الاطلاق ، حتى اذا ما اختل ميزان القوى وأنسوا في نصرائهم بادرة ضعف او مكن وهن . . سارعوا لمناجزتهم ومحاربتهم بوسائل وموارد هي من بعض عوارفهم وافضالهم ، وهكذا تمت تدريجياً حركة تجمع الاراضي الروسية ، وتكتلها ، وهي حركة شابهت ، الى حد بعيد ، الحركة التي تمت في فرنسا ، خلال عهد الدولة الكابتية ، وهذا مثل جديد يضاف الى العديد من امثاله نرى معه كيف ان السيطرة الاجنبية على الروس حملتهم على خلق وحدتهم السياسية القومية ، هذه الوحدة التي كانوا يفتقرون اليها جداً فتمت لصالح حكومة روسية هي حكومة امراء موسكو .

وراحت روسيا ، كغيرها من بلدان اوروبا الشرقية ، تتطور وتتكامل باتجاه نظام إقطاعي واقتصادي يقوم على رأسه ابناء الطبقة . الارستوقراطية وبدلاً من ان يسير هذا التطور في خط معاكس لتكامل السلطة المركزية ، نراه يأتي ملازماً لها ، عاطفاً عليها ، ولذا كان خليقاً بهذه الحركة ان نتوقف هنيهة حيالها ، ونتبين طبيعتها .

كان المجتمع الريفي قد اخذ منذ عهد بعيد ، بالتفتت والتفسخ عن طريق استملاك الاراضي وطلوع طبقة من كبار الملاكين ، من رجال الدين والدنيا . وقد ساعد إحياء الاراضي الجديدة

وتعميرها للزراعة،وهي عملية لم تكن لتتم على ايدي افراد من الرواد، على تكوين النظام الضرائبي الذي عمل به المغول وتقويته . واخذ الفلاحون ، ببطء كلي انما باستمرار ، يقعون ، بدافع من توصياتهم او من انتقال الملكية ، تارة طوعاً واختياراً ، وطوراً غضباً وقسراً ، تحت سيطرة الاشراف او رؤساء الكنيسة . وراحت املاكهم تشغّل وتستثمر،وفقاً لنظام حياتي لا يختلف كثيراً ، من حيث جوهره ، عن النظام الذي عُمل به في عهد الاسرة الكارولنجية . فالحركة التجارية والحياة في المدن في روسيا القلبية ، كانت متأخرة جداً عما كان عليه مستوى الحياة في اقليم كييف ، اذ كانت الاراضي المملوكة تكادلا تعطي منـــا يكفي بأود العيش . فتجارة الملح وحدها كانت تثير اهتمام سواد السكان الذين لم يكونوا ليستفيدوا منها شيئاً كبيراً اذ ان الضريبة التي كان المترتب عليهم دفعها للمغول ، وهذه الفراء التي كانوا يبيعونها من التجار الاجانب ، كل هذا كانت فائدته تعود لكبار الملاكين . اما المدن فلم يكن يتألف معظمها الا من بعض اسواق ريفية او من بعض مواقع سياسية وستراتيجية باستثناء مدينة نوفغورود التي كان لها بعض الشأن والتي لم يكن نفوذها التجاري ، في البحر البلطيقي مـــع مدن حلف الهانز ، ليقل بشيء عن النفوذ الذي كان لمدينة كفتا على البحر الاسود. فاذا ما بعثت هذه الحركة التجارية بعض النشاط في الصناعات والحرف المهنية ، ولا سيما في مجال التمـدين في منطقة نوفغورود ، واثارت بعض المشاكل الاجتماعية التي ثار مثلها في المدن الاخرى ، في الغرب ، فقد رأينا انفسنا وجهاً لوجه مع مدنية غريبة شاذة ، صار الجانب الاكبر من نشاطها التجاري الى ايدي تجار المدن ، بينما لم نكن نرى لدى سكان البلاد الاصليين ، اي اثر لبورجوازية تجارية . فاذا ما قامت في مدينة نوفغورود حركات تمرد بين الصناع والعمال ، فقد اتجهت هذه الحركات بالاكثر ضد كبار الملاكين اكثر منهم ضد النبلاء . فالروسيا ، كغيرها من البلدان الصقلبية عانت كثيراً من هذا التأخر في تطورهـــا الذي جعل الحركة التجارية في البلاد تقع بين ايدي تجار من الغرب سيطروا عليها سيطرة تامة بينما هنالك بورجوازية من ابناء البلاد ، لا تزال بعد في المهد .

وبالاعتماد على هذا النظام الاقتصادي الذي كان كل قوامه الملكية العقارية ، راحت الملكية الموسكوبية تنشيء حولها مجتمعا روسياً نعتوه بالاقطاعي . وبفضـــل الاستملاكات العقارية الضخمة التي حققها النظام، فقد اخذ يخضع لسلطته امارات تمتعت بالامس باستقلالها الاداري . وتشبهاً ، من جهة اخرى ، بالتيار العثماني وهو اقرب الانظمة ، في الزمان والمكان الذي راح الروس يحتذون حذوه،اخذ امير موسكو يوزع على اتباعه وعماله، حصصاً من املاكه الواسعة ، عُرفت عندهم باسم *Promiestie* أولت مالكها اعفاءات خاصة وحقوقاً ملكية حكومية،وهي اقطاعات يمكن الغاؤها ، ولا يصح نقلها بالوراثة لذويهم ،كما ان حكام المدن الذين يتولون الامر فيها ويتمتعون بصلاحيات واسعة وبسلطات واسعة على السكان ، هم عملاء يبقون دوماً تحت سيطرته واشرافه . فالاتساع الذي بلغته املاكهم ، ومساندة المغول لهم ، أقله في البدء ، وهذا التضامن والتكتل الذي ميز هذه الحروب التي اخذ امراء موسكو يشنونها ضدهم،في القرن الخامس عشر،

وضد كبار الملاكين في نوفغورود الموالين البولونيين ، ومساندة الشعب لهم ووقوفه الى جانبهم. كل هذا وما اليه ، يفسر لنا كيف ان النظام الملكي في موسكو ، اخذ يشكل ، من الموظفين والعملاء التابعين له ، طبقة ارستوقراطية ، تستطيع بما تم لها من نفوذ ، الحد من نفوذ كبار الملاكين ، بل لم تلبث ان نافستها وتغلبت عليها .

من هذه التغييرات والتعديلات والتطورات التي اخذت بها البلاد، لم يفد الفلاح الروسي شيئاً يذكر ، اذ لم يكن الإقطاع الذي كان النظام الملكي في موسكو يُقطعه ، ليختلف شيئاً كبيراً عن الاقطاع يُقطعه كبار الملاكين . فامام افتقار البلاد للسكان وقلة عددهم ، كان هم السيد ، اياً كان ، ان يؤمن حاجته من اليد العاملة وتسهيل بقائها حيث هي . وبالرغم من هذه الرابطة ، التي كانت تشد المزارع اكثر فاكثر الى سيد الارض ، فقد احتفظ الفلاح ، مع ذلك ، بوجه قانوني او بصورة عملية ، بامكان انتقاله للعمل في ارض غير ارض سيده الاول . ومنذ ذلك الحين اخذ ارباب الارض يتضامنون فيما بينهم ليحرموا الفلاح من هذا الحق ويمنعوه من الإنتقال للعمل في ارض اخرى . ثم ان اشتداد الروح المركزية وازدياد السلطة الملكية شأناً ورسوخاً ، ساعد كثيراً على شد الفلاح وربطه بالارض . وهذا المصير لم يبلغ تمامه الا في القرن السابع عشر ، مع ان الاجراءات الاولى التي اتخذت بهذا الشأن ، تعود لاواخر القرن الخامس عشر . وهكذا اخذ النظام السيادي او المولوي في روسيا ، يزداد متانة ورسوخاً كما ازداد التاج سلطة ونفوذاً ، فراح يظاهر سيطرة طبقة اجتماعية سهلة الانقياد تعترف له بالولاء . والشبه قوي هنا بما كان يعمل به في النظام العثماني ، مع ان الدولة الروسية لم تكن اذ ذاك ، بلغت من القوة ، ما يساعدها على فرض مثل هذه المراقبة الشديدة. وهكذا فالحقوق التي تمتع بها صاحب اقطاع اميري في روسيا كانت اوسع بكثير من تلك التي اعترف بها لصاحب التيمار في تركيا العثمانية . وقد فرضت بيزنطية ، هي الاخرى ، شيئاً شبيهاً بمثل هذا النظام الـ *Pronoia* ، الا ان الضعف الذي نزل بالدولة ، والوهن الذي حلّ بها ، اساء الى هذا النظام كثيراً وافسده .

وقد وجد الدوق ايفان الثالث ، النشيط والمرهوب الجانب ، بعد الانتصارات التي حققها في اواسط القرن الخامس عشر ، على المغول والليتوانيين ، نفسه على رأس مملكة قوية البأس والشكيمة . فالى جانب الامير الذي يحمل لقب : امير الروس قاطبة ، قام في موسكو ، منذ القرن الرابع عشر ، بطريرك ، لم يعد للقسطنطينية عملياً اي سبيل او مشاركة في تعيينه ، والذي حرص كلما سنحت له بارقة او نهزت ناهزة ، ان يبرز « ارثوذكسياً حسن العبادة » ، كلما راحت الكنيسة البيزنطية ، لاسباب سياسية ، تدخل في مفاوضات مع الكنيسة اللاتينية ، ترمي للوحدة . واخذت دوقية موسكو تحاول انشاء علاقات لها مع العالم الخارجي ، بعد ان اناخت عليها سيطرة المغول بكلكلها الثقيل فارزحتها طويلاً وهوت بها الى البؤس والشقاء ، وحدّت كل رغبة فيها للتجلي والبروز ، باستثناء بعض كتابات دينية وبعض قصص تاريخية او

حماسية ، اقتصر عليها النشاط الفكري في البلاد ، اوحتها الامجاد التي عرفت البلاد ان تحققها ، مما ساعد على توعية الشعور الوطني في الناس وتحسسهم بحب الوطن والتمسك باهدابه . ومنـــذ ذلك الحين اخذ رحالة روس يقومون برحلات في اتجاهات مختلفة : نحو الهند (رحلة نيكيتين) ونحو القسطنطينية وايطاليا . فقد رغب ايفان الثالث في ان يجعل عاصمته مدينة خليقة بقوته الناشئة . فاستقدم من ايطاليا الشمالية التي اخذت انجازاتها الفنية تنتشر ويعلو ذكرها في كل من بولونيا والمجر وشبه جزيرة القرم ، عدداً من مهرة المهندسين المعماريين ، وعهد اليهم بالاشراف على بناء ثلاث كنائس ضخمة ، وتشييد بلاطه الملكي الذي حصنه بقلعة الكرملين . وقد اوجب على هؤلاء الفنانين ان يراعوا في اعمالهم ، التقاليد المتوارثة ، محلية كانت ام بيزنطية ، مما لم يزل معمولاً به الى ذلك العهد ومرعي الجانب،في البلاد ، كما ان الاعراف والتقاليد الوطنية اخذت تزدهر وتبرز على وجههـــا الصحيح في فن التصوير ورسم الايقونات المقدسة ، كما برز فن تحلية المخطوطات الكنسية والعلمانية وتزيينها بالنقوش الرائعة . كذلك برز في هذا الوقت بالذات الذي راح فيه فريق من علماء النهضـــة الفنية ، من يونان وايطاليين يعنون بنقد النصوص بين بعض رجال الاكليروس ، ميل شديد لاعادة النظر في الترجمات القديمة للكتب المسيحية الى اللغة السلافية ، وتصحيحها . وبالرغم من الضجة التي احدثتها هذه الحركة ، فقد لقيت ، مع ذلك ، تشجيع الدوق ايفان الثالث ، وكتب لها ان تتم على الوجه الاكمل ، وان تؤتي اكلهـــا الرطب ، في القرن السادس عشر .

وقد تبدّى للكردينال بساريون ، اذ ذاك ، الدور المجيد العظيم الذي باستطاعة روسيا ان تلعبه ، بوصفها نصيرة المسيحية والمدافعة عنها ضد السلطنة العثمانية ، عندمـــا راح يسعى لعقد قران « امير الروس قاطبة » وزواجه من وريثة اسرة بليولوغ ، اي من بيزنطية التي كان يطمح ايفان الثالث الى تركتها الادبية ويطمع في تراثها الأثيل . فبعد ان سقطت روما الثانية اخذت روما ثالثة تطلع مشرقة وتلتمع ممثلة بموسكو. ولكي لا نتـتّهم بمحاولة ابتسار سير التاريخ،علينا ان نشير هنا انه لا بدّ من مرور قرنين بكاملهما، قبل ان تصبح روسيا بالفعل، دولة اوروبية كبرى . الا انها تمكنت منذ عهد ايفان الثالث، ان تهيء الاسباب والعوامل التي تؤمن لها العظمة والسؤدد اللذين يخبئهما لها المستقبل البسام الطالع .

ففي غرّة ما اصطلح المؤرخون على تسميته « بالتـاريخ الحديث » نرى المسيحية الشرقية ، وقد سمت زمناً طويلا فوق المدنيات الغربية ، تنهار أطرها السياسية وتنحل ، كما نرى شقيقتها الغربية تسبقها وتتقدمها بمراحل في جميع المجالات . ان مولد روسيا ونشأتها التي لا يساعدها تنظيمها الاجتماعي البالي على المضي في هذه النجاحات التي حققتها ، لا يمكن اتخاذه بديـــلا او اعتباره عوضاً عن هذا الانهيار تصاب به الكنائس الشرقية . فالعالم الاسلامي يبدو لنا، اذ ذاك على وضـــع كثير التعقيد . فبينما هو يسير القهقرى في الغرب ، نراه يحقق في روسيا الشرقية ،

انتصارات مدوية . وفي الوقت الذي نرى فيه الثقافة تصاب باعراض الوهن والكلال نرى مع ذلك الاسلام يزداد انتشاراً في هذه البلدان التي هي في مستوى حضاري متدن . فقد مضى وانقضى الوقت الذي تقتبس فيه اوروبا العلم عن الاسلام ، ولم تدق الساعة بعد مشيرة الى العهد الذى سيعتمد فيه الاسلام على اوروبا لتجديد شبابه ونشاطه . وهكذا قام بين هذين العالمين شيء من التوازن والتعادل كان من المتوقع له ان يفضي الى علاقات مثمرة وتبادل فكري خيّر بين الطرفين . ولم يطل بنا الامر لندرك على ضوء انوار المستقبل ، ان انقطاع هذا التوازن ، قبل اوانه، أخر لعدة اجيال ، قيام هذه الاتصالات المرجوة .

الفصل الخامس

أوروبا وتشكيلاتها السياسيّة الجديدة

يبدو ان القوم في اوروبا ، في أواخر القرون الوسطى ، وجدوا اخيراً الاجوبة التي طالما بحثوا عنها خلال الازمنة الصعبة التي تمرّسوا بها وتضرسوا بويلاتها. ففي العقود الاخيرة من القرن الخامس عشر ، نرى المدنية على اقوى ما تكون من التضامّ والوحدة والتماسك ، فتعين لكل عنصر من عناصرها المقوّمة ، المحل المحدد له ، وتنفذ بثاقب بصرها الى هذه الآفاق الرحبة من الثروة والازدهار اللذين ستبلغ اليها . وهذه الدولة التي ترسخت اصولها ، وتوطدت أركانها ، اخذت تعي رسالتها ، والمجتمع البشري جدد أطره السياسية ، والحياة الاقتصادية نشطت وزخرت بعد ان انتظمت مرافقها واستقر الامن في جميع ارجاء البلاد ورَحُبَت آفاق الاسواق التجارية . واختراع الطباعة زود البشر الذين كانوا يبحثون عن وسائل اتصال جديدة، بامكانات وطاقات لا حد لها ولا حصر ، وبوسائل للاعلام لم يكن ليحلموا بها او بمثلها . فبعد حقبة مديدة من القلق والاضطراب ، عمرت النفوس كما عمرت المجتمعات في الغرب بالثقة ، وبهذا الايمان القوي الواثق من فعالية الوسائل وأهلية الادوات التي استنبطها العقل البشري لتنطلق بمضاء العزيمة ، نحو آفاق جديدة من الجمال والخير والحق .

فمن الطبيعي والمعقول معاً ألا تكون جميع بلدان اوروبا ، شعرت بنسبة واحدة ، وبدرجة سواء ، بهذه الازمنة الصعبة والازمات التي ابتليت بها ، كما ان شمس الحرية لم تبزغ على هذه البلدان معاً في وقت واحد . فاذا لم يخامرنا أي شك بطلوع عهد الانبعاث الايطالي في وقت مبكر ، فليس من ينكر ، مع ذلك ، النهضة السريعة التي حققتها فرنسا بعد ان تخلصت من عقابيل حرب المائة سنة ونتائجها الوبيلة، يتبعها من قريب، في هذا المضمار : انكلترا في عهد الملك ادوارد الرابع ، اول ملك من اسرة تيودور يتولى العرش في بريطانيا، واسبانيا في عهد ملوكها الكاثوليك ، بينما بلدان اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية تصل بتمهل كلي وببطء الى الاستقرار والتوازن ، بعد ان وجدت نفسها مهددة بالتوسع العثماني . ففي كل مكان ، تطل المشكلات الواحدة ، والصعوبات ذاتها ، فتتلبس الحضارة في الغرب السمات ذاتها والمظاهر ذاتها . وهذه المسيحية المتقادمة العهد تتسرب الى اوروبا الحديثة كلها ، وتغوص في ثناياها. فسواء مطّ البعض

نهاية الاجيال الوسطى الى الثلث الاول من القرن السادس عشر ، او جعل البعض الآخر بدء العصر الحديث عند الربع الاخير من القرن الخامس عشر ، يبقى ، مع ذلك شيء واحد ثابتاً هو ان كيانات ومجتمعات عصر الانبعاث وما فيها من نظم ومؤسسات ، كانت قائمة قبل اكتشاف العالم الجديد .

١ - ظهور الدولة الحديثة

خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، تتميز الدوله الملكية من بين نُظم العالم السيادي ، بالتغلب على الصعوبات الرئاسية الثلاث التي كانت تُقعِدها فتزرح بها الى الحضيض وتعيق سيرها الى الامام وتطورها الصاعد نحو الرقي ، ألا وهي : انقطاع او الغاء رابطة التبعية التقليدية ، وانقسام المسيحية وتوزعها شيعاً ، ومواجهة المسؤوليات الجديدة المتعددة بوسائل وأساليب معينة . ففي نطاق تنازع الدول البقاء وتنافسها على التجلي ، تنصرف الدولة لتوسيع وحدتها . فاذا كان عليها ان تجمع في قبضة يدها مِقود الادارة واستعمال القوة ، فهي تنصرف بكليتها لتحشد بين يديها او لتستنبط الوسائل والذرائع التي تؤمن لها ملء السلطة وجماعها . فهي تجد ، بعد هذا ، في الانحلال السياسي والاقتصادي ينزل بالأطر والملاكات الاجتماعية القديمة ، وفي مؤازرة البورجوازيات وطبقة النبلاء الجديدتين ، الوسائل التي تساعدها على ترويض اجهزة البنيان الاجتماعي واخضاعها لطاعتها فتجعل منها عوامل تمتثل لأوامرها ولنواهيها .

المركزية الادارية

فهذه النزعة القوية نحو الوحدة التي طالما استترت وراء المنافسات السلالية ، أتت اكلها وأعطت أطيب نتائجها عندما هدأت هذه المنازعات العاصفة وركد ريحها . ومهما كانت الشوائب التي اعتورتها ولازمتها ، فقد أمكن الوصول بهذه الوحدة الى ما يشبه هذا الاستقرار الذي رست قواعده على مثل هذا التوازن الايطالي الذي تم بعقد صلح لودي، عام ١٤٥٤، فأدى الى انشاء الحلف الايطالي *Ligue Italique* الذي قام في السنة التالية ، أي عام ١٤٥٥ ؛ وذلك التوازن الذي تم على حساب ، الامارات الايطالية الصغرى ، كان من نتائجه ان وطّد ، من جهة كيان دوقية ميلانو وجمهورية البندقية الكلية الاحترام ، كما وطد ، من جهة اخرى ، مملكة نابولي ، وذلك باقامته نطاقاً حول جمهورية فلورنسا وجمهورية سيانا ودولة الكرسي الرسولي. وقد تألف من هذا كله حلف غير متماسك وغير مستقر ، لا رأس له ولا رئيس ، قام واستمر بقوة الامر الواقع أكثر من قوة ارادة الناس ، أتاح في الداخل ، لكل دولة تركب منها ، ولا سيما للدولتين الاوليين ، السير نحو الاستقلال الذاتي ، والوقوف حيناً وجهاً لوجه ضد الدولة المجاورة لها ، وحيناً في صفها ومساندتها . من ذلك مثلاً العون المالي الذي قدمته فلورنسا لكتلة آل سفورذا العسكرية. من الشواهد على هذا الوضع، الكتاب الذي وضعه بين ١٤٤٨ – ١٤٥٣، فلافيو بيوندو بعنوان:

« ايطاليا المصورة » الذي يعطينا لأول مرة ، صورة عن الوضـــع الجغرافي في شبه الجزيرة الايطالية بكاملها .

فهذه الوحدة الجغرافية المتماسكة التي افتقرت اليها ايطاليا كل افتقـــار والتي حاول شارل الجسور عبثاً إقامتها وتحييزها بين نهري السوم والرين ، بتوسيع دوقيته الى حدود نهر الجلدر وذلك بضم كولونيا والقسم الاعلى من الالزاس ، او محاولته ضم المقاطعات الواقعة « من هذا الجانب » الى المقاطعات الواقعة « من الجانب الآخر » من ولاية اللورين ، مثل هذه الوحدة توصلت الى تحقيقها كل من فرنسا واسبانيا وانكلترا ، وذلك بعد ان تمكنت كل منها من ترسيخ ، دعائم النظام الملكي فيها ، عن طريق اتفاقات شخصية او مصاهرات أمنت لها ضم اقطاعات قديمة الى ممتلكاتهم العائلية ، بحيث اصبحت الاملاك الاميرية والدولة شيئاً واحداً ، او كلمتين مترادفتين . ان زواج ايزابيل ده قشتالة من فردينان داراغون ، اقام رباطاً شخصياً بين المملكتين الرئيسيتين في شبه شبه الجزيرة الايبيرية ، كما ادى ، من جهة اخرى ، الى الاخلال بالتوازن القائم فيها لصـــالح قشتالة . فعندما صارت الاملاك الواسعة التي كانت ملكاً للمنظمات العسكرية في مدن شنتياغو وكالاترافا والقنطرة ، الى العرش الاسباني ، حقق بذلك السيطرة على املاك شاسعة . وعندما عرف هذا العرش ان يستغل حالة الضعف التي آلت اليها مملكة كتالونيا ، تمكن من وضع الاسس الركنية لوحدة مملكة قشتالة التي تمّ تكوينها نهائياً بالاستيلاء على مملكة غرناطة عام ١٤٩٢ .

وفي هذا الوقت بالذات ، كانت بريطانيا وجدت القاعدة التي ركّزت عليها السلطة الملكية . ان وصول هنري تيودور الى كرسي الملك وضع حداً لهذه الانقسامات السياسية ولهذه المشاحنات الداخلية الدامية التي كانت مزّقت البلاد خلال حرب الوردتين (١٤٥٥ – ١٤٨٥) ، وبذلك هيأ حلاً للمشكلة الغاليّة ، كما هيأ الاسباب لقرار الاتحاد الذي صدر عام ١٥٣٥ ، ومهّد السبل لضم المقاطعات المعروفة بالمقاطعات البلاتينية كمقاطعة دور هام مثلاً ، فتمت بذلك القوة للمملكة .

وهذه المقارنة المتوازية تبدو على اتمها في هذا الاتحاد الشخصي الذي وقع بين دوقية بريتانية وصاحب العرش في فرنسا ، وذلك عن طريق زواج الدوقة حنة من الملك شارل الثامن (١٤٩١) ممهداً بذلك السبيل امام قرار الاتحاد الذي اتخذ عام ١٥٣٤ فاذا ما تخلى الملك قبل مبـاشرته تجريداته العسكرية على ايطاليا ، عن مقاطعات الارتوى ، وفرانش كونتيه والروسيون فلا يضير تنازله هذا بشيء ولم يمنع من ان تكون مملكته ، اذ ذاك ، الدولة الوحيدة الكبرى الخليقة بهذه التسمية ، فبين الاقطاعات التي تنعم بالاستقلال لم يبق سوى الاقطاع الخاص بآل بوربون ، وهو لعمري إقطاع له شأن كبير ، وإقطاعي : اورليان وأنغوليم القريبين جداً من ممتلكات التاج ، بحيث لم تمر عشرون سنة حتى جرت تصفيتها وضما الى املاك العرش .

المركزية السياسية : فعلى درجات تباينت تباين البلدان واختلاف الممالك القائمة ، نرى السلطة الملكية اكثر ثقة بالنفس واكثر وعياً لمسؤولياتها ، فهي تعتمد كل الاعتماد

على نظم اشد تماسكاً وانسجاماً ، وتمارس سلطتها من اعلى الى اسفل ، بواسطة اداة ادة ادارية اكفأ ، تتشعب وتتضخم اكثر مع الوقت استجابة للظروف العارضة . ففي وقوفها بوجه القوى والعوامل التي تحاول ايهانها وتفتيتها وتجريدها من وسائل العمل،رأينا الدولة تنشىءلها الادوات التي تساعدها على العمل المجدي واقعادها على اصول راسخة . وهنا ايضاً نرى فرنسا واسبانيا وانكلترا ترسم الطريق وتمهد السبل. فالاعتقاد الشائع ان سلطة الملكهي من حق الهي ، اضفى على ملوك فرنسا، منذ تكريس الملك شارل السابع وتتويجه ،شيئاً من الوقار والهيبة زادهما ابهة وجلالاًحفلة التكريس التي اضفت بدورهامسحة منالقدسيةعلىالدولة، بينما اسم روما كان يذكر دوماً بامجاد الامراء من نصراء العلم والادب.ففي كلدولةلعبالمجلسالاستشاري للملكدوراًكبيراً ازداد اهمية مع الزمن،اذ ساعدعلىتأمينالسدادوالرشد فياعمالالحكومة وجعلمجال العملواسعاً كلما اخذت الدولة بالامتداد وانشاء المصالح المتخصصة لتتمكن من القيام بالاعباء المترتبة عليها ، على الوجه الامثل . وهذا المجلس الاستشاري الذي كان يضم نحواً من ٥٠ شخصاً ، في فرنسا ، استحال في اواخر القرن الى المجلس الاعلى الوحيد المكلف النظر في هذا العدد العديد من القضايا التي تحال الى محكمة الملك الخاصة . والملك ادوارد السابع ، في انكلترا ، اضطر لأن يضاعف هو الآخر عدد اعضاء مجلسه الاستشاري ، اذ كان بعض اعضائه يرافقون الملك دوماً في حله وترحاله ، بينما يستمر الآخرون في الجلوس للقضاء،في«القاعة ذات الانجم»،من قصر وستمنستر. وعلى هذا النحو كان الامر في اسبانيا ، ولا سيما في قشتالة ، فالمرسوم الملكي الذي صدر عام ١٤٨٠ بعنوان *Ordenamiento Del Consejo Real* يوضح تماماً اختصاص هذا المجلس وصلاحياته ، فحدد عقد جلساته في خمس قاعات خاصة ، وفقاً لطبيعة القضايا التي هي قيد النظر . وديوان الاختتام يستحيل محكمة عليا تحمل اسم مجلس الملك ، وهو مجلس قام مثله في مقاطعة فلاندر . والادارة في حكومة بورغونيا تنحو هي الاخرى ، هذا النحو الذي سارت عليه الدول الكبرى ، بارادة سنية من شارل الجسور . ففي كل مكان نرى تصريف شؤون الدولة يسير على الوتيرة ذاتهاويتلبّس السمات ذاتها . فموظفو السر لدى ملك فرنسا، وموظفو ديوان الاختتام الملكي في انكلترا ، هم موظفون يجري انتقاؤهم بكل دقة . وملوك اسبانيا الكاثوليك كانوا يعولون على مثل هؤلاء الموظفين تعويلهم على الوزراء انفسهم .

مر معنا كيف ان موجبات الحرب ومقتضياتها حملت كلاً من شارل السابع وشارل الجسور على انشاء جيش ملكي . ونهج لويس الحادي عشر النهج ذاته معززاً جيشه بفرقة من المدفعية . والجيش الاسباني الذي تم على يده فتح عرناطة ، اقتبس تشكيلاتهو استمد تنظيماته من نظام التعبئة في الجيش الفرنسي الى الشمال من جبال البرانيس . وفي الوقت ذاته اخذت الدولة تعتمد، في الملمات الصعبة ،على الوسائل غير العادية ، فذهبت هذه عادة في القوم . وراحت الدولة تستثمر الى اقصى حد ، امكانات الاملاك الاميرية التابعة لها . فقد اعيد ، مثلاً تنظيم املاك التاج، في انكلترا ، بعد الانتهاء من الحروب الاهلية (حرب الوردتين) . كذلك خضعت املاك

العرش في اسبانيا لاصلاح جذري ارتفع معه الفيء العام من ٨٨٥،٠٠٠ مرافيديس عام ١٤٧٤، الى ١٢،٧١١،٠٠٠ مرافيديس بعد ذلك بثماني سنوات، اي في عام ١٤٨٢. اما في فرنسا حيث كان التاج ينعم باملاك واسعة، وحيث كان مدراء بيت المال في الولايات والاقضية ملزمين بان يقدموا، في كل سنة، كشفاً لبيت المال، بالتقديرات المالية العامة، وآخر بالواردات المحصلة، مع العلم ان املاك التاج لم تكن لتعطي سنة ١٤٦١، مثلاً سوى ١/٣٦ تقريباً من مجموع واردات الدولة. فقد كانت فرنسا اول دولة ملكية أقعدت نظامها الضرائبي على قواعد ثابتة بعد ان اخذت ترعى مواردها المالية بيد قوية. فقد كان ديوان المحاسبة ومجلس ممثلي الشعب يحددان كل سنة، ميزانية الدولة، وبالاستناد الى هذا التحديد كان يجري توزيع الضرائب، وفقاً لابواب الواردات الاربعة فتوزع على الاقضية والنواحي والاحياء والمكلفين. اما ضريبة الملح فقد كانت في الوقت ذاته ضريبة غير مباشرة، وضريبة نسبية يراعى في تحديدها وضع المكلف المالي، اذ ان سعر البيع تحدده السلطة، وعلى كل مكلف ان يشتري منه اقله الحد الادنى. كذلك هنالك رسوم اخرى تفرض على عمليات البيع وشراء البضائع ونقلها وهي رسوم عُرفت عندهم عادة باسم « ضرائب *Aides*. ومن هذه كلها كانت تتألف اهم موارد الدولة، مع العلم ان ضريبة الاعناق كانت تعطي ثلاثة ارباع الموازنة. وكانت هذه الرسوم والضرائب، على اختلافها، يجبى، في كل من فرنسا واسبانيا، بطريقة التلزيم، وتخضع لتفتيش دقيق من قبل مراقبين يعينهم الملك. وفي هذا الوقت برزت صلاحيات مجلس الضرائب الذي قام منه هيئة في كل من العاصمة باريس، وروان ومونبلييه، كما برزت صلاحيات مجلس الخزينة، الذي كان يُعنى على الاخص، باملاك الدولة. وكان مدققو الحسابات في ديوان المحاسبة يطلبون من كل الجباة ومديري بيت المال حساباً دقيقاً. وهكذا فان اختلفت طرق تحديد الضرائب والرسوم والجباية، واذا كان النظام المالي الذي سارت عليه ولاية اللانفدوق يختلف عنه في ولاية بروفانس مثلاً، وهذه عن ولاية الدوفينيه، فالكل كانوا يدفعون كما كان الكل يخضع للتفتيش المالي. وكان الناس، اينما وُجدوا، يشعرون بقبضة الدولة الشديدة، ولاسيما في المناطق القريبة من باريس حيث كانت المراقبة المالية في الاقضية والنواحي تخضع لتفتيش أشد من قبل مأموري العرش.

ويد الدولة هي ايضاً يد العدالة. فمداخلات ممثلي الملك تبرز في كل مكان، واكثر فاكثر، وان لم تؤد الى تغييرات محسوسة. وفي سبيل ايصال العدالة الى المتقاضين، نرى القضاة يعقدون باستمرار جلساتهم للمحاكمة، ولكي تبسط الاعمال امامهم، راحت الدولة توحد من التشريعات المعمول بها والاجراءات الرسمية. فهنري السابع لم يجدد شيئاً في انكلترا، بل جرب ان ينفض عن النظم المعمول بها ما تراكم عليها من غبار النسيان. اما في فرنسا، فالقانون الذي صدر عام ١٤٥٤، اي بعد انتهاء حرب المائة سنة، بعام واحد وهو القانون المعروف بـ *Montilz-lès-Tours* والذي يعتبر بحق، اول اجراء او اول بناء في التنظيم العصري للقضاء، كان في وقت واحد: قانوناً ادارياً وقانوناً للموجبات. وبعد ذلك اخذوا بتحرير ما يعرف بـ: « عادات واعراف بورغونيا ١٤٥٩ » ثم راحوا يحررون الاعراف المعمول بها محلياً، وتوسيع نطاق الاعراف

التقليدية المتبعة في باريس . وبذلك رسموا ، من بعيد صورة لتوحيد القضاء الذي طالما راود خيال الملك لويس الحادي عشر. وقد انبثق عن مجلس باريس التمثيلي الذي انبثق بدوره عن المجلس الخاص للملك هذه المجالس التمثيلية التي تشكلت من عهد قريب في كل من مدن : تولوز ، وغرينوبل وبوردو ، وديجون ، مع استمرار ديوان محاسبة روان وأكس . كل ذلك أكمل النظام المحكم الذي اقامته الدولة للتسييج حول رعاياها . وسلكت الطريق ذاته اسبانيا ، في عهد ملوكها الكاثوليك وذلك بانشائها محكمة فالادوليد واولتها صلاحيات تعلو على صلاحيات القضاة المحليين كما انشأت الدولة محكمة اخرى عليا في المناطق الجنوبية مركزها *Ciudad Read*. وبعد انشاء ديوان التفتيش في البلاد ، بين ١٤٧٨ – ١٤٨٧ اصبح في البلاد شيء من وحدة القضاء ، بحيث اخذت الدولة تعد منذ عام ١٤٨٠ قانوناً موحداً وباشرت باصداره تباعاً .

الدولة والبنيان الاجتماعي

وهكذا استطاعت الدولة فرض سيطرتها وهيبتها على كل طبقات المجتمع وارغامها على قبولها والرضوخ لها. وهذه السيطرة فرضتها ، قبل كل شيء ، على طبقة النبلاء الاقطاعيين القديمة ، فسمرت خوفها في قلوب الاشراف بعد ان أخنى عليهم الدهر من جراء العوامل الاقتصادية الجديدة التي طلعت على البلاد. فحرب الوردتين ، في انكلترا ، أودت بالنبلاء الى الخراب والاضمحلال . اما في فرنسا ، فالعدالة نزلت دونما رحمة ودون اي اعتبار ما للمرتبة الاجتماعية ، بدوق دالنسون ، عام ١٤٥٥ ، وبكونت أرمنياك ، سنة ١٤٦٠ ، وبكونت سان بول ، عام ١٤٧٥ . فبين التنازلات التي اضطر لويس الحادي عشر للتسليم بها ، عام ١٤٦٥ ، بعد اتفاقات وضعها وفقاً للاصول المرعية ، لصالح « عصبة المصلحة العامة » ، وانفراط ما يعرف بالحرب الجنونية ، بعد ذلك بنحو عشرين سنة ، سجلت السلطة الملكية تقدماً ظاهراً . اما في اسبانيا ، فقد انصرفت جهود الملوك الكاثوليك فيها بسرعة كلية الى كبح جماح نبلاء اسبانيا المشاغبين ، وارغمتهم على خفض جانبهم واصواتهم ، وذلك عن طريق اسناد بعض الوظائف في القصر ، الى فريق منهم . وشعوراً منهم بالسلطة الملكية التي كانوا ينعمون برعايتها ، راح الموظفون الملكيون انفسهم يعملون جاهدين ، على اخضاع النبلاء وترويضهم . فقد عرف ممثلو الملك ان يقفوا بنجاح ، بوجه الامراء المشاغبين الذين كانوا احياناً يلوّحون بانهم : « امراء بنعمة الله » مدللين بذلك ، على حسبهم ونسبهم ومحتدهم المجيد ، كما عرفوا كيف يدخلون الى قطاعات هؤلاء الامراء ويقيمون فيها حدود الملك والعرش . ونائب الملك العام الذي امر بوضع الحجز على املاك كبير رجال المال والاعمال ، اذ ذاك ، جاك كور ومصادرتها فيما بعد ، عرف ان يقف عند الاقتضاء ، في وجه دوق ده بوربون ، وفي وجه الملك رينيه ، وهو السيد المطلق في مقاطعة بروفانس . وبعد عهد الملك الفونس الخامس الذي تميز بالاضطراب والقلاقل ، شعرت طبقة النبلاء في البرتغال ، بوطأة الملك يوحنا الثاني ، اذ القى القبض على دوق براجانس ونفذ فيه حكم الاعدام ، بعد ان احتل جنود الملك قصره وعبثوا به وبمن فيه . وفي اجتماع ممثلي الشعب في ايفورا (١٤٨١) شجع سكان المدن ، الملك على اعادة النظر في شرعية الالقاب التي يحملها النبلاء ، وانزال جنوده في املاك الامراء .

والاكليروس نفسه بعد ان تم إخضاعه وترويضه ، اصبح اداة بيد الملك في ترسيخ سلطته .. فالملك يوحنا الثاني تدخل بين البابا واحباره . والملوك الكاثوليك ، لم يقتصروا ، في اسبانيا على جعل ديوان التفتيش الجديد ، اداة سياسية بيدهم ، بل استطاعوا حمل البابا التسليم لهم بحق تعيين الاساقفة وترشيحهم للمراتب الكنيسة . فقد كان سبقهم الى هذا ابن الكنيسة البكر (اي ملك فرنسا) . فمع استمرار اعضاء مجلس باريس التمثيلي (بارلمان) على القول بان المبادىء الغاليكانية التي نصت عليها معاهدة بورج ، هي احد الاسس التي يقوم عليهـا النظام الملكي في فرنسا ، واستمرار الكرسي الرسولي ، من جهة اخرى ، على شجب نصوص هذه المعاهدة والتنكر لها فقد سلم البابا سلتسوس الرابع ، للملك لويس الحادي عشر ، سنة ١٤٧٢ بحق ترشيح بعض رجال الكنيسة ، لبعض المراكز الكنسية العليا . ففي خلال وصاية الملكة حنة ده بوجو ، اثناء انعقاد مجمع سانس ، عام ١٤٨٥ ، اخذ الملك بيده ، قضية القيام باصلاح شامل في كنيسة فرنسا . وفي الوقت ذاته ، تابع مساعيه لتعيين سفير للبابا يكون بالفعل بمثابة ، نائب للبـابا يخضع للسلطة الزمنية . ان رجلاً كالكردينال بالو سولت له النفس ، عام ١٤٨٣ ، ان يكون له من النفوذ في فرنسا ، ما كان للكردينال خيمنس سيسنروس ، في اسبانيا .

لم يكن بامكان السلطة الملكية ان تحقق ما حققت من نجاحات سريعة ، لو لم تعرف كيف تفرض هيبتها على المدن ذات الامتيازات والاعفاءات ولو لم تقم عليها وصايتها بمؤازرة الطبقـة البورجوازية فيها . فحركة اضمحلال هـذه الاستقلالات الادارية التي نعمت به بعض المدن ، لم تبلغ يوماً من الظهور ما بلغته في البلاد الواطية التابعة لبورغونيا . فبعد الحوادث الداميـة التي طبعت ، في مدينة لياج ، عهد فيليب الصالح وفيليب الجسور ، قام مكسيمليان عاهل النمسا والوصي على ورثتهم وخليفتهم فيليب الجميل ، يحطم بعنف ، عن طريق صلح كادزنت (١٤٩٢) الحركات الثورية والفتن التي نشبت في مدينتي غانت وبروج ، والاشراف الدقيق على الامور الادارية منها . والملوك الكاثوليك في اسبانيا لم يكونوا أقل غلظة تجاه المدن الاسبانية حتى مـا كان منها غيوراً على امتيازاتها ، متحمساً لحرياتها ، حريصاً على حياتها ، والحفاظ عليها ، كمدينة برشلونة مثلاً ، اذ راح ممثلو الملك فيها *Corregidores* يشددون على مراقبة الامور المالية في البلديات ويجرون عليها تفتيشاً صارماً ، كما كانوا يوجهون لها الارشاد والنصح في تعيين القضـاة المحليين . والبورجوازية المحلية ، اذ قدّرت راضية مرضية ، الانعامات التي نالتها مهما غـلا منها الثمن ، والجهود التي بذلتها السلطة الملكية في الحفاظ على النظام ، والسهر على الامن في البـلاد تركت الامور تجري على اعنتها . فمن صفوف هذه البورجوازية ، استمد الملوك اكثر عملائهم ولاءً واوفرهم طاعة وامتثالاً . فقد وجـد الملك ادوار الرابع خير نصرائه بين ما يعرف عندهم بـ *Merchant Adventurers* . والملك فردينـان الكاثوليكي لم يبخس قط مؤازرة البورجوازية الكتلانية حقها وفضلها عليه . وملك فرنسا ، كان بامكانه ان يعتمد الاعتماد كله على خدمات رجال المال والاعمال له ، في المنطقة المفضلة لديه : وادي نهر اللوار ، انطلاقاً من جاك كور ،

وغليوم فاري ومروراً بآل تورانجو وانتهاء في اواخر القرن ، بآل توستن وبوهيه ، وآل بون وآل بريسونيه الذين بلغوا الذروة. فمجلس شورى الملك شارل السابع ،عام ١٤٥٥ ، تألف ثلثا اعضائه من رجال الاكليروس ، ومن ممثلي البورجوازية . وبعد ذلك بنحو ثلاثين سنة ، اي في سنة ١٤٨٤ ، عند التئام اول اجتماع عام لممثلي البلاد في مدينة بلوى، لعب ممثلو المدن ونوابها الى الاجتماع المذكور ، دوراً بارزاً .

وعلى اساس من هذا الاتفاق العام الذي شد النظم الملكية الى البورجوازية ، قام التوازن بين السلطة وبين المنظمات الاجتماعية التي ظهرت حديثاً .. فقد امكن لانكلترا ، كما يزعم فورتسكيو ، احد رجال الفقه والقانون اذ ذاك ، في كتابه الموسوم : « حكومة انكلترا » ان الاتحاد بين السلطة والحرية ، تحقق تماماً عن طريق ضم السلطة السياسية الى السلطة الملكية ، هذه السلطة التي راحت ، كما لاح له ان تشيل وتستبد في فرنسا. ان سلطة ملك فرنسا اذ ذاك كانت ولا شك اكثر السلطات سيطرة وسيادة واكثرها فعالية ونفوذاً ، وتمتعت بحرية تصرف اكثر مما تم للسلطة الملكية في انكلترا . ومع هذا كله ، فقد كانت تحتاج للكثير ، لتصبح ، في فرنسا كما في اسبانيا ، مستبدة ، مطلقة . فقد كانت سلطة الملك ، في القارة ، تبرز للعيان بما له من هيبة ووقار ، وباعتراف الجميع لسلطانه وسيادته اكثر مما كانت تبرز عن طريق الاكراه والقسر والضغط . والاصوات التي كانت ترتفع اثناء اجتماع ممثلي الامة في تور منادية بمبادىء شبيهة بتلك التي نادى بها ميرابو عالياً ، فيما بعد ، حول السيادة ، سبقت بقليل الاماديح والتقاريظ التي رفعت الى الملك لويس الثاني عشر جاعلة منه : « ابا الشعب » و « ابا الملكية الفرنسية الكبرى » . ومن جهة اخرى ، فالملك فردينان داراغون الذي احترم التقليد المشروع الذي خلفه يوحنا الثاني ، لم يظهر : لا في مدينة سرغسطة ولا في مدينة فالنس او برشلونة ، الملك المطلق الذي يحلو لبعضهم احياناً ان يصفوه به . اما في ايطاليا ، « فالطاغية » هو الذي كان الشعب ، على طريقة القدامى ، يعيشه ويحييه وينادي به عالياً ، بعد ان يكون عرف كيف يحقق مطالب هذا الشعب ويلبي امانيه . فالحكم المطلق الحديث لم تكن الاحداث نقشت بعد ، اسمه على الشفاه ، وكان على « الامير » ان يراوغ ويخاتل ويناور ، قبل ان يأتي مكيافيلي ويرسم لنا الصورة التي رسمها عنه .

٢ ـــ انعكاس الاوضاع وانقلاب الاحوال

اذ كان من الخطل بمكان ان نطلق على عهد يفتقر الافتقار كله ، الى المصادر الاحصائية الخاصة ، الالفاظ التي يجري اليوم استعمالها على لسان علماء الاقتصاد المحدثين ، فلا بد من التسليم مع ذلك ، من ان اوروبا دخلت بمجموعها ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، عهداً من التطور الديموغرافي والنمو الاقتصادي والتحول الاجتماعي ، يختلف كل الاختلاف ويتميز كلياً عن الركود او الجمود الذي طبع الاجيال الماضية .

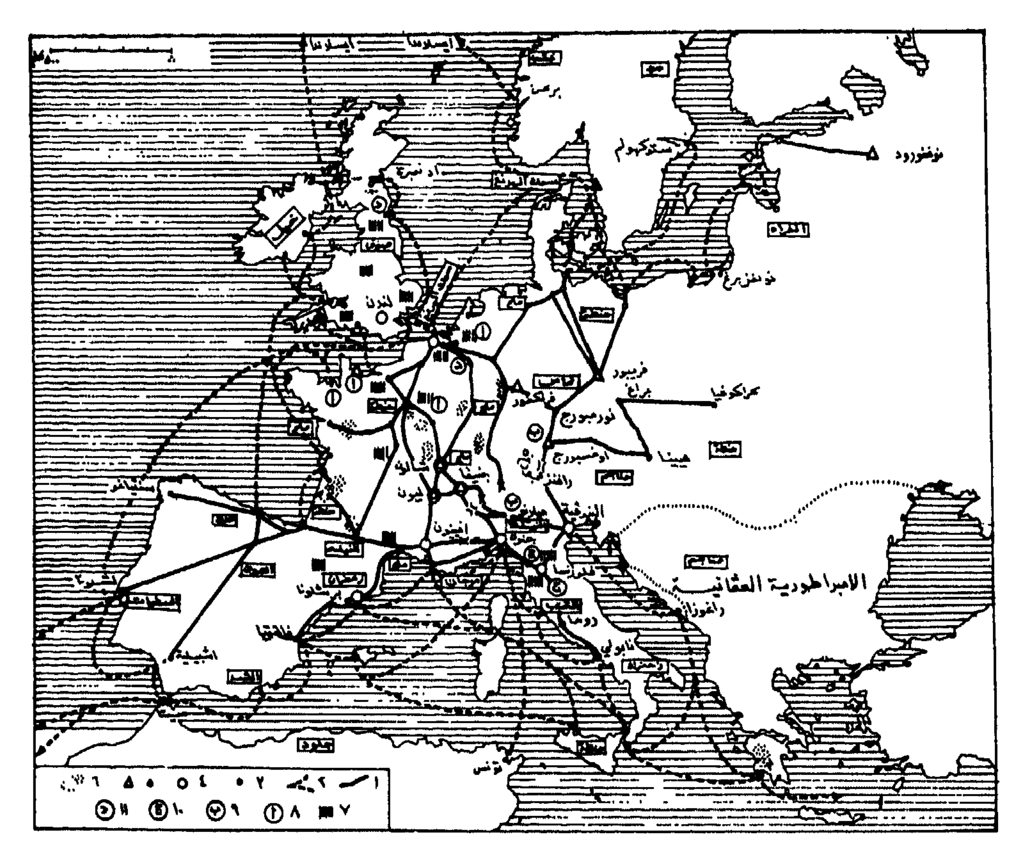
وعلى نسبة ما نستطيع ان نتبين الاشياء ، ونبدي فيها رأياً معللاً ، نرى عدد السكان آخذاً بالازدياد والنمو باستمرار ، اذ ان نتائج هذا التكاثر لم تصبح ملموسة والتحقق منها ممكناً الا في اواخر القرن المذكور . ويؤكد كلود سايسل في عهد الملك لويس الثاني عشر ان : « منذ نحو ٣٠ سنة تقريباً ،هنالك مقاطعات فرنسية عديدة ، كانت من قبل بوراً واراضيها مواتاً اصبحت « الآن عامرة ، مزروعة تقوم عليها الدساكر والمنازل » وان المدن تفتقر للامـــاكن التي تصلح للبناء ، « وان عدد السكان قد ازداد على العموم بفضل السلام الطويل الذي ينعم الجميع بظله ». هذا الكلام لعمري فيه الكثير ولا شك من الزلفى والتدليس ، الا انه لا يخلو من بعض الحقيقة . ان الاتساع الذي بلغه توزيع التركات عن طريق الارث ، يشير هو الآخر ، الى ازدياد عـــدد المواليد ، وهذه الموجات الجديدة من النازحين عن مقـــاطعات بريتانية وبيكارديا،ومن ايطاليا تحاول سد الفراغ في كل من مقاطعات نورماندي والاكيتان وبروفانس ، هذا الفراغ الذي سببته الازمنة الصعبة . فقد كانت فرنسا ، في اواخر ذلك القرن ، تعتبر اكثر دول اوروبا الغربيـــة سكاناً .

وهل من المعقول بشيء ان تستطيع كل من اسبانيـــا والبرتغال الاستمرار في حركة التوسع والتمدد والانتشار التي استمرت فيها اكثر من قرن ، والتي لم نر لها مثيلاً ولا شبيهاً من قبل،لو لم ينعما اصلاً بمثل هذا النمو والازدياد الديموغرافي؟ ومهما يكن ، فها هي ايطاليا الشمالية والوسطى تشهد في القرن الخامس عشر ، مثل هذا النمو ، بين سكان الريف الذين نراهم ينتقلون الى القرى الجديدة التي تطلع في ارجائها . والذي نعرفه من اطراد النمو الديموغرافي ، في كل من سويسرا والمقاطعات الالمانية يجعلنا نشعر جيداً بهذا التوسع الديموغرافي فيها ، والتي تميز باقبال ظاهر من المراهقين على الزواج وبتطور محسوس في المدن .

اما الاراضي الواطية ، فالوضع اختلف فيها بعض الشيء : فسكان الريف يزداد عددهم ببطء ان لم يتناقص لصالح مدن الشمال ، كمدينة امستردام مثلاً . اما في الجنوب فالمدن الصناعية القديمة الواقعة في الداخل كانت تعاني اعراض الشيخوخة ، اذا ما قارناها بهذه المراكز الجديدة امثال هندشوت ، والمراكز المتوسطة امثال كورتريه التي اخذت تتقهقر امـام الموانىء الجديدة التي تطلع كمدينة بروج مثلاً وهي ستبرز بعد عام ١٤٨٠. اما في انكلترا ، فالتطور الديموغرافي بدأ ببطء كلي خلال الاضطرابات التي عمت البلاد ثم اخذت الحركة تنشط وتشتد بعد ان وضعت الحرب (حرب الوردتين) أوزارها ، وانقطع بالتالي دابر الاضطرابات ، ليزداد بسرعة عندما خيم السلام على البلاد . وهكذا نرى ازدياداً مطرداً بين العمال والمستهلكين على السواء .

ومع ازدياد عدد السكان ، «ازدادت ، كما يؤكد كلود سايس،مقتنياتهم وامتعتهم كما ازدادوا دخلا وغنى وثروة » . وبين الخصائص التي ميزت الوضع الاقتصادي ، في القرن السادس عشر، ازدياد الانتاج ، واتساع حركة المقايضات ، وهذه النزعة الجديدة نحو الاقتصاد القومي ، التي يشوبها ـ وهو شيء من غريب المفارقات ـ ميل للتوسع في الاسواق الخارجية . فاذا ما اعاق عدم كفاء

النقد والقدرة على التسليف ، سير التطور ، فالاقتصاد الذي التزم حتى ذلك التـــاريخ الحدود الاقليمية والمكانية الخاصة ، اخذ نطاقه بالاتساع والانفراج تدريجياً، والضغط المرزح الذي تمثل في هذه الاحداث السياسية العارضة ، اخذ يطبع انشاء الوحدة الاوروبية بعد ان سيطرت عليه وتحكمت به العوامل الاقتصادية .



(الشكل ١٨) الاقتصاد الاوروبي ، في اواخر القرن الخامس عشر

١ الطرق البرية ٢ - الطرق البحرية - ٣ مراكز التجارة ٤ - المراكز المالية ٥ - مراكز الاسواق الموسمية ٦ - زراعة الكرمة ٧ - صناعة الاجواخ ٨ - صناعة الاقمشة ٩ - صناعة النسيج ١٠ - صناعة الحرائر ١١ - مناجم الفحم

فان لم نستطع الاخذ بتأكيدات سايس حرفياً ، عندمـا يقول ان ثلث مساحة الارض في فرنسا تم احياؤها واخذوا بتشغيلها واستثمارها ، في الربع الاخـير من القرن الخامس عشر ، فلا بد من ان نلاحظ مع ذلك الشوط الذي قطعته عملية احياء الارض وعزقها، وتجديد عقود فرق بينها اكتراء الاراضي الزراعية، مع زيادة رسوم الايجارات وارتفاع اسعار الارض الزراعية ورجحان

الطلب على العرض والتحسين الذي طرأ على مردود الارض ، وازدياد محصول الضرائب والزيادة في الانتاج يرافقها عادة زيادة في جودة الصنع والصنف ،فاستبدلت زراعة الجادور بزراعة القمح في الاراضي الكلسية التربة التي تألفت منها سهول مقاطعة البري ومرد ذلك الى ان كثيراً ماكان اصحاب الاراضي ومالكوها من اغنياء التجار ، فقد همهم جداً ان يحسنوا من وضع اراضيهم ويزيدوا من غلالها ومدخولهـا ، فراحوا يشرفون على استثمارها بكل دراية وعناية . فهؤلاء البورجوازيون في كل من باريس وروان ، وتور وليون وتولوز، ليسوا بالوحيدين الذي يحسنون الافادة من املاكهم الى الحد الاقصى. ويجري الامر على هذا الشكل ايضاً في سهول لومبارديا واميليا وتوسكانا ، بينما تجار الاصواف يشجعون تربية الاغنام ويفضلونها على زراعة الحبوب . كل هـذا يتم دون تسجيل اي تطور محسوس في الاساليب التقنية ، باستثناء وسائـل وادوات استثمار الارض لدى اكثرهم تطوراً من السكان في ضاحية باريس ، بفضل ازدهار صناعة الحديد، وبفضل استعمال المحاريث « المتخذة كلها من الحديد » .

والرغبة في البيع والتنفيق في الاسواق ، نشّط التقدم التقني مما ادى بالتـالي الى تطوير الانتاج الصناعي بشكل ابرع ، كما ان اقبال الناس على الانسجة الناعمة ، السهلة الصنع والقليلة الكلفة ، ضمن النجاح لمعامل انشئت في الاوساط الريفية ، تقع في السهل الفلامنكي ، وكانت عاملا ادى الى ازدهار مصانع الانسجة والحياكة في المانيا ، وبذلك تهيأ السبيل امام تكديس البضائع وتوفير رؤوس الاموال ، عماد الحركة التجارية الكبرى التي ستنشط عبر المحيط الاطلسي .

والطريف المدهش ، بعد هذا كله ، هو الازدهار غير المتوقع الذي عرفته صناعة التعدين ، منذ عام ١٤٦٠ ، ولا سيما في اوروبا الوسطى . فقد بلغ التقدم التقني ، درجة العلم بفن واصول، كما ان اكتشاف احسن السبل وامثل الاساليب الصناعية لحفر الارض وتصريف المياه ، وتأمين وسائل التهوية، كل ذلك ساعد على استثمار المناجم الغنية في كل من سكسونيا وبوهيميا وهنغاريا والنزول الى عمق ٦٠٠ قدم في بطن الارض. والتمويل اكثر فاكثر ، على القوى المائية المحركة زاد في طاقة المنتج كما اعطى المطارق قدرات اكبر بحيث امكن نقل معـامل صهر الحديد وتحويلها من المناطق الجبلية نحو المنخفضات. ان انشاء مصاهر للحديد بعلو عشرة اقدام ضاعف ثلاث مرات القدرة على الطاقة الانتاجية في معامل صهرها . وليس من المستبعد قط ان يكون انتاج المعادن قد بلغ في اوروبا الوسطى، بين الفترة الواقعة بين ١٤٦٠ — ١٥٣٠ ، خمسة اضعاف ما كان عليه من قبل . واكثر ماسعوا الى توفيره وتأمين المزيد منه ، معدن الفضة الذي كان المعوّل الاول عليه لدى الحكومات كما كان عماد الاقتصاد وقوامه اذ ذاك ، وهو معدن حاول جاك كور ، ان يكتشف بعض عروقه في مقاطعة ليون . وكان يخالط معدن الفضة، الزئبق ، الا انهم كانوا توصلوا في مقاطعة السكس، حوالي عام ١٤٥٠ الى اكتشاف طريقة لفصل الواحد عن الآخر . واخذت انكلترا تنشّط استخراج الفحم الحجري، من هذه المنطقة الواقعـة على مقربة من نيوكاسل وتصدر منه مقادير مهمة الى القارة . واشتد في كل مكان الطلب على

الحديد بعد ان كثرت وجوه استعماله ولا سيما في اعداد اعتدة الجيش ومهامه الحربية . فلا عجب من ان تصبح مقاطعة ستيريا في النمسا ومقاطعة كنتبريا ، في اسبانيا من المناطق التي اشتدت فيها ونشطت صناعة التعدين .

والى القطاع الاقتصادي يجب ان نضيف استثمار معادن الشب الغنية في مدينة تولفا الواقعة في ممتلكات الكرسي الرسولي ، فجاء اكتشافها في الوقت المناسب ، عندما فقد الجنويون سيطرتهم على مناجم الشب التي كانوا يستثمرونها ، في آسيا الصغرى ، فوقعت تحت سيطرة الاتراك العثمانيين . وقد حاول الكرسي الرسولي ان يقيم ،مناصفة مع آل مديشي، نظام احتكار، لتجارة الشب المستخرج من ممتلكاته ، في اوروبا كلها . وهذا الحادث بعينه يبرز لنا المحاولة المتزايدة، يشترك بها كل من الدولة ورأس المال للسيطرة على استثمار هذا المرفق الجديد من مرافق الاقتصاد في اوروبا . ففي كل دولة يحاول الملك اثبات حقوقه الملكية على المناجم فيصدر بشأنها التشريعات التي تؤيد هذه الحقوق ، كما حدث ذلك بالفعل في الامارات الالمانية ، وفي مناجم القصدير ، في انكلترا ، وفي دولة الكرسي الرسولي ، وفي فرنسا حيث نشر لويس الحادي عشر اول مرسوم يتعلق باستثمار المعادن ، عام ١٤٧١ . فان لم ترتسم ، حتى ذاك العهد ، للدولة ، سياسة واضحة في المجال الاقتصادي ، فقد اخذت أقله تشعر بوضوح ، بما يمثله العامل الاقتصادي في البلاد من قوة وما يوفره لها من غنى . وخير مثل على ذلك ، امارة فلورنسا الضيقة الرقعة ،في عهد آل مديشي ، وعلى نطاق اكبر، مملكة انكلترا التي عولت في معايشها ، الى حد بعيد ، على الرسوم التي اخذت تستوفيها دوائر المكس عن هذه المادة . ولويس الحادي عشر الذي تتلمذ ، ولو من بعيد على نيقولا اورسم بين ١٣٣٠ — ١٣٨٢ (اسقف ليزيو ورئيس كلية نافار ، واحد كبار العلماء في الاجيال الوسطى المتأخرة) . والرائد الذي اخذ عنه بدوره كولبير ، اصدر عدداً من القوانين والتشريعات التي حاول فيها تنظيم صناعة نسيج الاصواف واستثمار المعادن ، فجعل من هذا كله اداة طيعة لبسط سيطرته . ويبدو انه حاول في الدرجه الاولى ، تحرير المملكة من الروابط الاقتصادية والتجارية التي شدتها الى الخارج ، ولا سيما عندما ادخل صناعة الحرير الى البلاد . وقد كان المبدأ الذي عمل به اذ ذاك ، هو ان غنى دولة ما يقاس بنسبة ما لها من نقد. وبعبارة اخرى فاي مجتمع يفتقر للذهب ترى الحكومة نفسها عرضة معه للتنافس المالي وتحت وطأة المنظمات المالية .

وسياسة الاصلاح المالي التي دشنها في فرنسا الملك شارل السابع بلغ منها الذروة عندما اصدر الملك لويس الحادي عشر ، عملة ذهبية قوية ، تتمثل بالريال الذهب ذي الشمس المشرقة (١٤٧٥) الذي يمكن مقارنته بالعملات القوية الانكليزية. ففي الوقت الذي حافظت فيه العملات الذهبية في ايطاليا ، على سعرها العالي،راح الملوك الكاثوليك ،في اسبانيا،يوجهون دولهم عن طريق سلسلة من التدابير التمهيدية،لوحدة النقد،فسكوا عام ١٤٩٧ ،النقد المعروف باسم *Excelente de Cranada* .
وبعد حقبة طويلة من التضخم المالي مرت بها اوروبا خلال الازمة الاقتصادية التي عرفتها، وقبيل

اكتشافها المعادن الثمينة في اميركا صحبت الازدهار الاقتصادي بالتخفيف من مسؤولية النقد في التداول ، مما جعل الحاجة اشد الى اعمال التسليف .

وهكذا اخذ رأس المال يغزو الانتاج الزراعي ، عن طريق المضاربات بالمحاصيل الزراعية التي يمكن الاتجار بها على نطاق واسع ، كالحبوب على اختلافها والخمور ، ومواد الرسم والتلوين والصوف والزعفران . وقد برزت هذه الحركة على اشدها في الصناعات النسيجية ، ولا سيا في صناعة الحرير والخامات الاولى الضرورية لها كالشب ، واخيراً في صناعة التعدين . ان كلفة العتاد الميكانيكي ، واهمية الاعداد والتوضيبات اللازمة ، وتخصص اليد العاملة ، واكتساب المهارات ، كل ذلك كان يقتضي له رؤوس اموال جسيمة ، لا يستطيع مواجهتها والمجازفة بتوفيرها وتقديمها سوى كبار الاثرياء من اصحاب رؤوس الاموال الضخمة او الشركات الكبرى ذات المشاريع الجبارة الجريئة التي قام بها جاك كور ، في فرنسا ، وهذه الشركة الضخمة التي جرى انشاؤها وتنظيمها تحت رعاية فرنسيسكو درابيرو من سكان جنوى، لتتولى استثمار مناجم الشب في فوجيا وتصريفه ، والمحافظة على مستوى اسعاره ، والمساعي التي قام بها آل مديشي فأدت بالتالي الى تأسيس وكالة تولفا الاستشارية التي تحكمت بالاسعار وحددتها كما تريد مخلّفة وراءها مستثمري مناجم ايشيا التي كانت دون الاولى اهمية بكثير .

ومؤسسة آل مديشي التجارية التي بلغت القدح المعلى ، حوالي عام ١٤٦٠ يمكن اعتبارها مثالاً لا نظير له ولا كفاء ، لهذه الرأسمالية المتحكمة الطاغية السابقة لاوانها . وقد نوهنا ، فيما مضى الى تنظيمها وتكوينها، وكيف انها تألفت اصلاً، من شركات مستقلة اداريا، يملك آل مديشي في كل منها ٥١ ٪ من اسهمها. فكانت بذلك سابقة احتذتها وسارت على منوالها الشركة المعروفة بـ *Holding Company* ، اذ كانت تتعاطى اعمال الصرافة ، وصناعة الحرير والاجواخ والاصناف العامة التي لا بد فيها من استعمال الشب . وقامت لها فروع شبيهة بفروع شركاتنا الحديثة اليوم ، في كل من ميلانو ، وروما والبندقية وأفنيون وجنوى ، ثم ليون ، واخيراً بروج ولندن . وقد استمر البنادقة يسلكون الطرقات الألبية التي كانت تفضي بهم عبر مرتفعات المانيا ، الى اسواق فرانكفورت ، بينما راح الجنويون يستثمرون ويشغلون الكثير من اموالهم في اعمال ومتاجر لهم في لشبونة واشبيلية .

وهذه المضاربات المالية والتجارية الدولية التي اضطلع الايطاليون القيام بها منذ عهد بعيد ، عرفت ان تجتذب اليها عدداً متزايداً من رجال المال والاعمال في البلدان الاخرى. فمن قطر الى قطر، ومن محيط آخر ارتبطت المصالح الخاصة بالمصالح الوطنية او باواصر الدم والقربى واخذت تقنية الاعمال تفرض طرائقها الفنية وتنشر مناهجها ، وتنشىء لها جماعة خاصة تشبه الى حد بعيد ، الجماعة التي تشكلت على صعيد الفكر والثقافة ، فشدت علماء النهضة بعضاً الى بعض، اذ كثيراً ما كان هؤلاء واولئك من اسرة واحدة. وبفضل هذا التقدم التقني الذي عرفته السفانة اوهندسة السفن، والتطور الذي طرأ على شكل السفن وحجومها، وزيادة حجم الشحن والوسق، والتغيير

الذي طرأ على صواري السفن وانتشار القلوع الكبيرة ، اخذت السفن تمخر عباب اليم ، متنقلة من مرافىء البحر المتوسط الى مرافىء بروج ولندن في شمال الاطلسي ، في رحلات موسمية . وما كادت شمس القرن الخامس عشر تميـــل نحو المغيب ، حتى رأينا الانكليز والاسبانيين ، يصبحون سادة البحار . ومنذ ذلك الحين ، اخذت الخطوط البحرية تتسع وتتمدد وترحب ، فراح رجال البحر العاملون في المحيط الاطلسي يجسرون على تجاوز ومضايق الدانمارك ومعابر البحر البلطيقي ، او يعبرون مضيق جبل طارق نحو اسكلة الشرق الادنى ، هازئين بما كان ينتظرهم او يتوقعون من تعديات قرصان الاتراك . وهكذا دخل المحيط الاطلسي في سباق مع البحر الابيض المتوسط محاولاً انتزاع الاولية في التجـارة البحرية الدولية ، هذه الاولية التي لم تعرف بحراً استطاع حتى الآن ان ينازع البحر الابيض المتوسط عليها .

وعلى هذه الطرقات القارّية او البرية التي حرصت الدول أشد الحرص على صيانتها والمحافظة عليها ، اخذت تتسابق الآن قوافل لا تنتهي من عربات النقل ، تابعة لجنسيات وقوميات وبلدان مختلفة ، وهي تنافس بسرعتها بريد الملوك والتجار . فالخبر الطارىء الجديد اصبح له في المجـال التجاري كما له في المجـــال السياسي ، من يهتم له ويشمر اكثر فاكثر باهميته ونتائجه وصداه . وعلى هذه الطرقات نفسها ، انتقلت بين مدينة واخرى ، ومن سوق مـــالية الى اخرى اوراق اعتماد ، وسفاتج واستحقاقات واسهم مالية تقيم دنيا الاعمال وتقعدها . فاذا بمعاملات التجيير تبرز للوجود قبل عام ١٥١٩ . فالتعامل بالعقود الكتابية والصكوك المكتوبة اخذ يحل محـل سيولة النقد بين الناس . كذلك اخذ التأمين البحري يعم المرافىء والموانىء الواقعة على شواطىء البحر المتوسط لينتقل سريعاً الى الغرب ويصل الى مدينة بروج حيث يعمل ممثلون ووكلاء للدول المتوسطية بعد ان تبين لهم اهمية مثل هذا التدبير . واخذت ادارة الاعمال التجارية ، تنتظم وتتنسق وتتوحد دون ان تصدم مع ذلك ، بعنف ، العادات الجاري العمل بها من قبل كما اخذت تنتظم الشعور بالتضامن والمسؤولية في هذه المقاطعات والمعاملات التجارية والمصالح المشتركة . وما عتم ان قام في الغرب اقتصـاد اوروبي واحد تعالى فوق الروح الاقتصادية القومية وارتفع الى ما فوق الحدود السياسية الضيقة ، كما اخذ هذا الغرب يتحسس عميقـاً طلوع مدنية جديدة .

٣ ـــ بين الرغائب والاماني

في شرحه لسفر التكوين والتعليق عليه ، يضع بيك دو لاميراندول ، في خاتمة بحثه المكدود حول قهر المرء نفسه ، هذه العبارة على لسان الله سبحان وتعالى يخاطب بها آدم : « أقمتك عند محور الارض لترى بعينيك ما يقع عليها . فانت لست بالهي ولا بأرضي ، كما لست بمائت ولا بخالد ، بحيث تستطيع ، على شاكلة الله الذي برأك وابدعـك ، ان تكوّن نفسك كما تشاء . باستطاعتك ان

تهوي الى ادنى دركات البهيمية، وان تسمو الى مصاف الالهيين حسبما تفتي في الامر انت بنفسك».
وهل ابلغ من هذا الكلام للتعبير عن هذه الحقيقة الخالدة، وهي ان الانسان هو المعيار الصحيح والمقياس الاساسي للحضارة البشرية، لانه وجد في مطلبه المثلث الامثل: الجمال والخير والحق، ما فيه قناعته وسر عطائه.

بهجة العين وحلية العيش: الهندسة

وهذه التطورات السيكولوجية التي يُعبر عنها جزئياً هذا التجديد المادي في مباهج الحياة: السعي الموصول وراء السكن الرفيه، وتذوق ما فيه قوام الحلية والزينة، والبنيان الحضاري او التمدين تنم كلها عن التمتع بلذة العيش. ففي ايطاليا، تظهر قبل غيرها من بلاد الناس، لذة الاستمتاع بالفراغ. فمنذ القرن الخامس عشر، عرف اسلاف ليون باتستا البرتي (١٤٧٢) ان يستمتعوا بمباهج صروحهم المنيعة تحيط بها الرياض التوسكانية، بينما يروح حفيدهم فيصف لنا في كتابه: «الاسرة» المنزل الافضل والامثل في المدينة. فالقصر الفلورنسي تخلص نهائياً، من هذه الابراج الشامخة الكثيفة الظل، التي كانت تعلو مشمخرة، قصر تريشسنتو بعد ان عرف ان يحافظ على مظهره الارستوقراطي والريفي معاً، ويجعل منه طوداً لا اثر فيه لاي نشاط مهني، يخفي عن أعين الناس، وراء جدرانه العاتية وشعريات الطابق السفلي، هذا الهدوء المخيم على غرفه الرحبة في الداخل. اما هناك وراء الجبال الشاهقة في فرنسا، بعد ان هدأ منها الروع، وفي هذه المدن الثرية من المانيا الجبلية والبلاد الواطية فقد اخذ المنزل العائلي في المدينة، ينعم بالمزيد من الرفاه، كما راح الصرح في الريف يتخفف تدريجياً من مناظره الحربية التي طالما سمرت الخوف في سويداء القلوب.

وارتفعت في فلورنسا صروح وقصور لآل مديشي وألبرتي، وربتشلاي وبيتي وستروزي. وفي البندقية قصر *Ca D'Oro*، وفي روما، الى جانب قصر البندقية قصور دوريا وكبرانيكا تنطق عالياً بالجديد المستطرف والمستظرف من المساكن والمنازل البديعة التي اطلت علينا في القرن الخامس عشر. وينطق قصر آل سفورزا، في ميلانو عالياً باستعلاء القوة العسكرية في المدينة واستبطارها. وتزدان نورمبرج واوغسبورج بهذه المنازل الثرية يملكها جماعة من سراة القوم وتجارهم الاغنياء. اما في مدن: غنت وبروج وبروكسيل ولوفان. وانفرس، فالمنازل والمساكن ازدادت ترفاً وطرافة بينما امتدت من مدينة ميهون سور يافر حتى مدينة نانت، سلسلة متصلة الحلقات من هذه القصور الملكية او الاميرية وقد افترت نوافذ جدرانها عن بسمة رضى وارتياح انعكست على هذه الصالات والابهاء والقاعات الرحاب تضفي عليها غلالات من الظلال الوارفة، وقد استحال بعضها شرفات ضاحكة يفيض بشراً وحبوراً، وتطل على حدائق غناء وقد تحلق في زواياها زمَر تطفو على شفاهم بسمة العيش الرضي، بينما راح الناس في كل مدن باريس وروان، وتور وليون و طروى يستبدلون منازلهم الخشبية باخرى من الحجر المقصوب او القرميد الاحمر، وقد اكثروا، في الداخل من قاعات الاستقبال، حلوها بالكريم من النقوش والزخارف. وهكذا، اخذ يستبد بالناس طراز جديد من العيش الهادي الرخي، الناعم.

وهذا الحلم من العيش الرفيه ، لم يراود بعد جمهرة الشعب الذي لم يزل مستمسكاً بعاداته الشعبية قانعاً بأزقته الضيقة وبساحاته المعزولة . والأخذ بتجميل المدن *Urbanisme* ، سياسة لا تزال بعد في القمط حتى في روما نفسها ، حيث اخذ البابا نيقولا الخامس وسيكتس الرابع يشرفان على مشاريع تجميل المدينة الخالدة ، وضعها رواد في التجـــديد الهندسي ، استهدفت تجديد الكنائس الكبرى فيها ، وإصلاح الفاتيكان وتوسيعه بانشاء الكنيسة السكستينية ، وديوان الاختام وقصر الامناء . وقد استلهموا في هذه الترميات والاصلاحات المبادىء الهندسية الجديدة التي قال بها فيتروف ، وراح ألبرتي في كتابه : « فن البناء » الذي جاء في عشرة اجزاء ، يكشف لنا عن اسرار التاريخ القديم في هذا المجال . وكان لا بد من الانتظار والتريث زهاء نصف قرن ، وتعديل الخطط القديمة ، ليأخذوا ببناء كنيسة القديس بطرس على مثل هذه الضخامة والفخامة التي نراها عليها اليوم . فالنفوس في الاجيال الوسطى ، في تطلعها الى حياة افضل ، قبعت راضية مرضية بما استقر في خلدها من صور خيالية لهذه المباني التي تاقت الى تحييزها كما قنعت بهذه المرئيات الصورية التي استبدت باذهان القوم حتى ذلك العهد . صحيح ان التصميم الجرىء الذي وضعه فيليب برونسلي (١٣٧٧–١٤٤٦) ، لبناء قبة كنيسة سنتا ماريا دايي فيوري ، التي تم عن تمخض هندسي جديد ، يبشر بطلوع التصاميم الهندسية الفخمة في المستقبل القريب . الا انه كان يترتب على المهندس ، قبل كل شيء آخر ان يحل مشكلة فنية عارضة ، ولم يكن هنالك ما يشير من قريب او بعيد الى ان الحل الذي وقفوا عنده كان من شأنه ان يجر تطورات لم تخطر قط على بال المهندس ، ولا على بال من يأتي بعده . فقد قيل بهذا الصدد ان المهندسين ساروا هنا على ما سار عليه الرسامون الذين عرفوا كيف يحيزون خصائص المدينة المثلى .

فن التصوير الابطالي

فبينما كان المهندس برونلـّشي يحاول صادقاً ان يضفي ، اكثر فأكثر ، على حياة الانسان اليومية إطاراً وفقاً لمقاييسه هو ، فقد انجز بعد اقامته قبة فلورنسا ، كنيسة بازّي . وفي الوقت ذاته راح مهندسو الفن الغوطي المطفطف ينزلون فن البناء الى مقاييس اكثر انسانية ، كما عرف المصورون والرسامون ان يمازجوا بنجاح بين الصورة الذهنية والواقع المحيز ويعطوها مقاييس الانسان ذاته . ان مراعاة نسبة الابعاد والمسافات ، والتقيد بالمذهب الطبيعي في الفن ، واكتشاف وسائل تقنية جديدة في التلوين روعي فيها القدرة القصوى على التعبير والافصاح ، كل هذا وما اليه ، هو من هذه الخصائص التي تحدد ، على احسن وجه ، الانسانية الفنية في الحركة الاحيائية العلمية في ايطاليا .

والرسام فرا انجليكو الذي توفي عام ١٤٥٥ ، بعد ان نقل الى منتصف القرن الخامس عشر التقاليد الرمزية التي تميز النهضة الايطاليــة ، نراه يهتم ، اكثر فأكثر ، بالواقع المتحيز ، كما يبدو لنا ذلك من صورته المشهورة « انزال جسد السيد المسيح عن الصليب » المحفوظة في متحف القديس مرقس ، في البندقية ، وفي الصورة الاخرى التي وضعها عن حياة القديس اسطفانس

وحياة القديس لورنتيوس الموجودتين ، في الفاتيكان ، اللتين تتميزان بما فيهما من حيوية عارمة ، وبطبيعية الوقفة والمنظر . فقد كتب للمدرسة الفلورنسية ان تجدد ، بعد ان تنوسيت الاساليب الفنية التي كان عليها المعوّل في عهد الرسام جيوتو . وقد توصل مازاتشيو ، بعد حياة قصيرة انما خصبة ، وذلك في الصورة التي وضعها : « ضريبة مار بطرس » الى تحييز الحجوم ، وجعل المواقف اكثر طبيعية ، واتقان التعبير عن مظاهر الحياة ، فمهد بذلك السبيل امام قوة الملاحظة وفن توزيع الاحجام والرغبة في جعل موضوع الصورة محور الفن ، بعد درس المبادىء التي يقوم عليها علم المناظر والاصح الرئاية ، والحركة ، كل ذلك جعل المعارك التي رسمها لنا باولو اوتشللو (١٣٩٧ - ١٤٧٥) روائع فنية ، تمور بالعلم والفن والحياة . وعندما توفي غيبرتي في السنة نفسها التي قضى فيها فرا انجليكو (+١٤٥٥) كان انجز وانتهى من النقوش التي تزدان بها صورة « باب الفردوس » في جرن العماد ، في فلورنسا كاشفاً لنا عن عجيج الحياة في الرسم الوهمي للفضاء . وبعد ذلك ، تمكن النقاش دوناتلو من الكشف عما اوتي من علم ومعرفة لطبيعة الجسم البشري الذي استطاع لأول مرة في تاريخ الفن ، ان يصوّره عارياً في الصورة التي وضعها لداود الملك . وفن التصوير كفن النقش ، اتجه هو الآخر ، نحو رسم الاشخاص . فالنقاش لوقا دلاّ روبيا (١٤٠٠ - ١٤٨٢) قدّ من المرمر ، صورة الاسقف فيدريجي كما رسم صورة اولاده في رسمه المعروف كونتوريا ؛ والفنان فيروكيو الذي جمع بين الرسم والنقش ، جعل في التمثال الذي وضعه للقائد برتو لوميو كوليونيه ، ممتطياً صهوة جواده ، تبرز على اتمها ، شخصية هذا الزعيم ، كما انه برهن عن علم ومعرفة كاملين لنواميس الحركة ، كما يبدو ذلك في الصورة التي وضعها لجيرلانداخو والمواقف الصحيحة والتعبير الصادق عن القيم الادبية أضفت على الافاريز التي نقشها في كنيسة سنتا ماريا الجديدة كأنها ستائر من اللون الذي يبرز في صورة « الشيخ والولد » الموجودة في متحف اللوفر ، حيث استطاع ان يصور لنا الدمامة مع بساطة القلب . وهكذا نرى كيف ان الفنان اخذ يهتم بالانسان بصفته انساناً .

فاذا كانت مقدرة القصّاص التي تمت لبنزّو غزّولي سارت باتجاه التكنيك الذي ترّسمه فن التزويق ، في الاجيال الوسطى ، فقد استطاعت المدرسة الأومبرية ان تجدد شبابها بعد ان جرى تلقيحها بالعلم والنشاط ودقة التعبير وغير ذلك من الصفات التي ميزت بييرو دلاّ فرنسيسكا ، استاذ علم المناظر كما كان استاذ الاضواء والظلال بعد ان عرف كيف يتلاعب بها فيكيفها كيفما شاء في صورته : « حلم قسطنطين » وذلك بمقدرة تكاد تداني فن ليونارد دي فنشي في الـ *Sfumato* فبعد ان تم تبسيط فلسفة علم المناظر والابعاد على ضوء الواقع ، اكتسب فن التصوير الايطالي بالفعل في النصف الثاني من عصر الانبعاث القدرة على التلاعب بالالوان . واخذ الفن من ذلك الحين يتلبس صفات الفردية بعد ان رسخت اصول رسم الصور الشخصية ، فقد راحوا يعولون على القماش في التصوير ، وسعوا وراء الاطار المستدير ، والاساليب التقنية لفن الرسم الزيتي مما ساعد على تأثير فعل اللون .

هذا الفن الذي ازدهر فوق شبه الجزيرة الايطالية والذي اخذوا في الخارج ينشدونه ويحتذون حذوة استوحى ما في الانسانية من مثل ، نعم برعاية نصراء الادب من الاغنياء. فاذا استطاعت الوثنية القديمة ان تجدد منه الرموز ، فقد هدف هو ، الى تمجيد نصيره وراعي حماه او الشخص الممسك بيده . فالواهب الجواد ، بعد ان تخلى عن الموقف المحتشم الخاشع الذي وقفه ، كما يبدو من خلال الرسوم التي خلفتها لنا الاجيال الوسطى ، نراه اليوم يبرز بحلله الفاخرة ، ويحتل في هذه الرسوم محل اولياء الله وقديسيه . فقد صرف بنوزّو غزّولي همه وفنه في تمجيد آل مديتشي ، وراح بنتو رتشيو يشيد بمآثر شخصية اينيا سلفيو اكثر من شخصية البابا بيوس الثاني الذي حمل هذا الاسم قبل ان ارتقى الى السدة الرسولية ، وذلك في رسومه الجدرانية الموجودة في مدينة سينّا ، وصورة « المسيح المائت » وهي بريشة مونتانيا تبعث في النفس هزة وشعوراً يتمطى الضلوع امام ما نتبينه فيها من تناسب وتناغم بين اعضاء الجسم البشري. ومع أنطونلو المسيني ، وصورة جنتيلي بليني وهذه الروائع الغوالي التي هي من ريشته في البندقية ، يحتل الانسان فيها محور الفكرة ، والنقطة من الدائرة ، في زهو الالوان وما لها من مدلول تعبيري . والى فلورنسا يجب ان نعود بالفكر لنجد اشهر الفنانين لمعت اسماؤهم وبعدت شهرتهم في اواخر الاجيال الوسطى . فقد عرف بوتيشلي بما حقق من تناغم الالوان وانسجام الخطوط ان يعبر في رسومه عن العزم وتناسق قسمات الشكل في ادق معانيه . أوليست صورة بريما فيرا التي رسمها ، رمزاً لهذا الانبعاث الفني الايطالي ؟ ونابغة الفن ليوناردو ده فنشي ذو النبوغ الخلاق والمواهب الموسوعية ، تتم للفنان والعالم والمهندس الكبير الذي كانه في وقت واحد ، فجمع في شخصيته الفذة : الثقافة الحضارية لعصره ، فكان في تجواله وتنقلاته واقامته في فرنسا صورة صحيحة لهذا الاشعاع الايطالي. لقد كانت الصورة عنده ، تعبيراً صادقاً عن دواخل النفس البشرية ، ولذا كانت ظلاله وانواره غلالات تمور بالرمزية .

الفن الفرنسي الفلمنكي

فاذا ما استطاعت ايطاليا ، بفضل ما لها من مزاج خاص ، ومن تراث قديم مهيب ، ورعاية نصراء العلم فيها للفن والفنانين ، ان تعبر عن هذا الجمال الصوري بمثل هذه اللباقة والمقدرة والكفاءة ، وتحمل الى الشعوب المجاورة لها اسرار هذا الفن ، فقد عرف هؤلاء بدورهم ان يقابلوا النعمة باختها ، ويعيدوا الفضل الى ذويه ، وان يغنوا المؤثرات التي تفاعلوا بها ، بما في تقاليدهم القومية الخاصة من ثراء فني ، عندما دب في جنباتهم رسيس الرعشة الفنية الايطالية . فقد كانت العلاقات ابداً على اوثق ما يمكن ان تكون بين ايطاليا وفرنسا والبلاد الواطئة ، بفضل عطف نصراء العلم وحدبهم على الفن ورعايتهم لرجاله والعمل على ترسيخ اسبابه ونشرها بين الملأ . صحيح ان الهندسة المعمارية لم تتأثر كثيراً قبل القرن السادس عشر في شعائرها الزخرفية ، بنفوذ شبه الجزيرة الايطالية ، بينما كانت ، قبلة رجال الرسم والنقش ومثواهم الافضل ومحط رحالهم . فقد عرف جان فوكيه ايطاليا

عن كثب . والفنانون الذين اشتهروا بفن الحفر والنقش، في وادي اللوار ،والذين ورثوا المدرسة الواقعية عن الاجيال الوسطى ، عرفوا ان يضيفوا ، في اواخر القرن ، مع ميشال كولمب ، عنصر الحركة التي كانت استبدت ، منذ عهد بعيد ، بالمدرسة المعروفة بالمدرسة البورغونية ، هذه المدرسة التي خلفها وراءه كلوس سلوتر (١٤٠٥). اما الفلمنكيون الذين كانوا على علاقة متصلة مع الايطاليين بعد ان أَلِف اغنياؤهم وسراتهم زيارتهم والاقامة بين ظهرانيهم ، فقد رأيناهم يتنقلون ويجوبون أرجاء شبه الجزيرة الايطالية بكل سهولة ، دون ان يفقدوا شيئاً من شخصيتهم . على يد من يا ترى ، وكيف تم استعمال الزيت في التصوير ؟ نسب بعضهم هذا الفن للاخوة فان أيك . والذي يبدو لنا ان هؤلاء الاخوة توصلوا للكشف عن اسرار مزج الازرق السمنجوني بزيت النفط المستورد من الشرق . ومهما يكن ، فقد اتجهت كل المدارس الفنية الاتجاه ذاته دون ان تتجاوز او تتخالط . وما مثل جوست ده غنت الذي تليتن وتطبع بطباع الايطاليين في خدمة دوق اوربين تحت تأثير بييرو دلا فرنسيسكو و ملوزو ده فورلي. وكان لا بد من انتظار الجيل التالي وامثال :مملنغ وجيرارد دافيد، وكونتن متزي، لنرى كيف تغلغل الاثر الايطالي في تلك البلاد . ومع ذلك ، فعلم المناظر والابعاد ، والواقعية في تصوير الطبيعة ، وفن مزج الألوان وخلطها والمكانة التي احتلها الفرد في التصوير والرسم كل هذه العناصر المتميزة تتوفر على اتمها في رسوم فان أيك ، بينما التعبير الديني يبدو على واقعيته تحت ريشة روجيه ده لا بستور .

طلع هذا الرسام من مقاطعة الهينو ، وهو مواطن لهذا الفريق من الموسيقيين الذي سبق لنا ونوهنا بفضلهم ، والذين استمروا في عملهم الفني في الوقت الذي كانت فيه الموسيقى المتعددة الانغام الايطالية آخذة بالهبوط بحيث لم نعد نرى سوى موسيقيين هولنديين في كل كنائس اوروبا . كذلك خليق بنا ان نلاحظ هنا،بالمقابل،اي حد بلغته عملية وتنقية الموسيقى المتعددة الانغام من الزيادة التي لحقتها على يد الهولنديين ، بعد ان تأثرت بالموسيقى الايطالية . وها نحن نرى تبرز عند جوسكين دو بريه نزعة قوية ، لتأمين التناغم والانسجام بين النوطة والكلمات،والعواطف والمشاعر،بحيث تطل علينا الحقيقة، كما هي ، وكغيرها من الفنون الاخرى ، نرى الموسيقى تستوحي رؤى اكثر حساسية واوفر انسانية ، من ذي قبل .

الاحياء الثقافي الايطالي

في نظر رجال عصر الاحياء في ايطاليا ، كان الجمال الامثل يتجلى في هذا الانسجام في التعبير عن الحساسية والحقيقة،فقياس سطو الجمال ليس فقط ما يستطيع الانسان تحسسه ، بل ايضاً ما يستطيع تفهمه . فشعور الانسان وفهمه هما الحدان اللذان يقف عندهما مسلك الانسان . وبهذا المفهوم وجدت تصرفات الانسان السوابق والمبررات التي اعتمدها في التاريخ القديم ، والتي اليها اتجهت الانظار والابصار . فقد راحت منذ الآن فصاعداً تفسح مجالاً اكبر فاكبر ، للعقل والنقد .

فبعد ان تجاوز القرن الخامس عشر بمراحل ، المفهوم الادبي للحركة الاحيائية هذه وتعدى

هواية الغرر الفنية التي ميزت الأجيال السابقة ، اتجه للنقد الذاتي والخارجي للنصوص ، مظهراً الاهتمام ذاته بتحول نظريات القدامى وتعاليمهم ومحاولا التعبير عنها تعبيراً جميلا . فعسى ان يتمكن من اجراء التأليف والتوفيق بين الفكر القديم والفكر المسيحي . ولذا راح نيقولا ده كوس (١٤٠١ — ١٤٦٤) ، اشهر رجال الحركة الاحيائية والنهضة الفكرية في المانيا يلاحظ قائلاً : « اننا تطلعنا وجدنا اذهان الناس وخواطرهم تنصرف اكثر فاكثر ، لدراسة الفنون الجميلة ، وتتجه بشيء من التوق لا بل من النهم ، نحو التاريخ الكلاسيكي القديم الذي فيه الشبع كل الشبع ، فكأننا على ابواب انقلاب عارم قريب » .

وقد عرفت ايطاليا ان تحافظ ، في هذا المجـــال ايضاً على سبق الآخرين والسير منهم في الطليعة ، دون ان تأخذ ، مع ذلك ، جامعاتها المبادرة بهذا الحقل . فاذا مـا خرجت جـامعة بادوا ده كوس ، واذا ما خضعت جامعة الحكمة (*Sapiens*) في روما ، وهي التي كانت تدرّس اليونانية وآدابها منذ عام ١٤٠٦ ، لاصلاح شامل في عهد البابا يوجين الرابع ، عـــام ١٤٣١ ، عرفت جامعة بولونيا بدورها ، عهداً من الانحطاط لازمها الى ان قام بساريون باصلاح جذري فيها ، عام ١٤٥٠ . وعلى مثل هذا الوضع كانت جامعتا بيزا وفلورنسا . فمواطن هذه النهضة الاحيائية ومشاعلها الكبرى ، كانت بالاحرى في جوار حماة العلم ونصراء الفن ، وفي الندوات الادبية . حري بنا ان نلاحظ هنا ظهور الاكاديمية الرومانية في وقت واحد تقريباً ، اي بين ١٤٦٣ — ١٤٦٤ ، وفيها قام بمبونيو ليتو الذي لقب بكبير الاحبار يحيي ، بشيء من الغرور والادعاء الفارغ ، المناهج والاساليب الوثنية والاكاديمية الافلاطونية ، التي قامت في دارة كاريجي التي كان يملكها لورنتيوس العظيم ، والذي لم يستخفّ قط بالاسهام بنشاطاتها ، وتأسيس المكتبة الفاتيكانية على يد البابا نيقولا الخامس وجعلها في متناول العامة ، في عهد البابا سيكستوس الرابع ؛ واخيراً هذه الاتصالات التي تمت بين بعض كبار حملة الثقافة من رجال الكنيسة اليونانية ، بفضل الاتحاد الذي تم في فلورنسا ، والهجرة البيزنطية بعد سقوط القسطنطينية بين ايدي الاتراك العثمانيين ، وكان من جراء ذلك ان اصبح بساريون كردينال الكنيسة الرومانية فأسس في مدينة البندقية المكتبة المرقسية .

ان بعث الادب القديم من سباته ، وانحطاط التربية السكولستيكية ساعدا كثيراً على رواج اساليب النقد . فقد كان لورنتوس فالاّ رائداً في هذا المجال بزّ فيه جميع معاصريه امثال فيلالفو وبوجيو . فلم يُرضه قط ان يقضى قضاءاً مبرماً على الدعوة القائلة بـ « هبة قسطنطين » او وقفيته التي تقول بان املاك الكرسي الرسولي قامت أصلا على هبة أقطعها البابا املاكاً اصبحت فيما بعد نواة للمملكة البابوية وهو ادعاء باطل . فقد كان المؤسس الأول لعلم الفيلولوجيا الحديث كما كان الواضع الاول لعلم التفسير الاحيائي او الانساني ، ولعلم النقد التاريخي . فكتابه : الأجرومية ، وكتابه الآخر في الإنشاء العالي بعنوان : « منتقيات اللغة اللاتينية » اصبح المرشد لفن الانشاء ودليل الكتابة العالية في عهد ايراسموس . فدرس دراسة شارح مدقق النصوص الاولى المتعلقة

بنشأة المسيحية ، وراح بعد ان هام بعملية التأليف ينتقد مجرّحاً كل المذاهب محاولا استبدالها بمذهبه الخاص . وهكذا حمل ابناء عصره على اعادة النظر بما كانوا عليه من مواقف معينة . ومذهبه التشكك هذا يتصل اتصالا وثيقاً بالروح النقدية ، الذي امتاز به اوكهام الا انه فوق اوكهام دقة علمية،واكثر منه سخرية لاذعة وتهكماً . ومع انه عمل سكرتيراً للإدارة الرومانية فقد عُرف بروحه الماجنة وبدعوته للتحلل الخلقي في كثير من كتبه ومؤلفاته الجريئة ، ودعى للاستمتاع بمباهج الحياة ولذائذها واطايبها ، وراح يستعرض في بعضها : « الحياة الرهبانية » ، وفي كتابه الآخر « حول اللذة » امكانية التوصل الى التوفيق بين المسيحية والرواقية .

وعملت الاكاديمية الرومانية في الاتجاه الذي اختطه لها فالاّ ، حتى ان احدهم هو بمبونازي اشتط كثيراً وذهب بعيداً عن التقاليد المعمول بها في كتابه الموسوم : « حول خلود النفس » حيث وقع في مقالة العقليين ومذهبهم . وراح بعض المفكرين في فلورنسا المدينشية يحاول الوصول الى شيء من التأليف . فها هو مارسل فتشين ، يحاول،بالرغم من الاحترام العميق الذي كنه للعقيدة المسيحية، ان يضع مذهباً خاصاًقوامهالفلسفةاليونانية وتعاليمالحكمة ،ويوحي بديانة طبيعية متحررة من كابوس الخطيئة ، تولي النفس الطمأنينة وتجعل محلا ضيقاً لعملية الفداء . ثم نرى نابغة العصر وصناجته : بيك ده لا ميراندول ،يندفع بكل ما أوتي من عزم الشباب وزخم المزية وثقافة موسوعية باحثاً عن امكانية التوفيق بين المسيحية والمذاهب الدينية الاخرى ، بين يهودية ووثنية ، مما ظهر قبل النصرانية . انها لمغامرات جريئة ، متناقضة ، حملت البابا اينوشنتيوس الثاني على القول : « هذا شاب يتوق لنهاية شريرة . فهو يرغب بان يصير امره يوماً الى الحريق » . فبعد ان بلغ الذروة في حياة داخلية شخصية ، سوّل له الغرور ان باستطاعته ان يشيد عليها ديانة فردية . ولم يلبث ان توارى مبكراً عن المسرح واستسلم لحياة نسكية تقشفية . انها لمحاولة حرية بكل اعجاب ، هذه التي رمت الى تمجيد الشخصية الانسانية والارتفاع بها الى السمت ، فجاءت تعبيراً صحيحاً عن هذه النزعات الروحية التي اضطرمت بها نفوس ذلك العصر ، ادت بتجربته التأليفية هذه الى الفشل الذريع .

علماء عصر الانبعاث من فرنسيين والمان

وفكرة التأليف الديني هذه التي طلع بها رجال القرن الخامس عشر لم يقتصر رواجهاعلى ايطاليا وحدها.فالمحاولات الهادفة لتحقيق الطمأنينة للنفوس ، التي قام بها ليوناردو ده فنشي والتي كانت تبتسر النتائج التي ستفضي اليها معظم العلوم في المستقبل ، جاءت خاتمة حسنة لعصر جاش ابناؤه بروح موسوعية ونفوس طُلَعة ظمأى للمعرفة . لا بد هنا من التنويه عالياًباسم ليون باتيستاألبرتي،(١٤٧٢)وبهذا النابغة الجبار الذي كان من اكبر رجال هذا العصر عقلا وثقافة وعلماً ، نقولاده كوس (١٤٠١ — ١٤٦٤) ، والذي بفضله امكن ، الى حد ما ، تحقيق هذه المحاولات الايطالية للتأليف . فقد عاصر البابا بيوس الثاني ، وشدته اليه وشائج من الود الخالص (عاشا معاً الى عام ١٤٦٤) ، فلم يفته شيء من علوم العصر . لا من العلوم الكتابية ، ولا من تاريخ الاقدمين ، او من تاريخ آباء

الكنيسة الاولين ، ولا من متصوفة الاجيال الوسطى ومذاهبهم،حتى ولا من محاولة الاتصال بالارواح والدخول في مخاطبتها . وقد زين له علمه المستبحر ان باستطاعته إفراغ جميع العقائد وصبها معاً في بوتقة واحدة في انسجام وتناغم كلي ، وتوحيد الجهود التي بذلت في هذا الامر ، خلال القرن الرابع عشر . فقد رذل القول بان الارض محور الكون ، ونقطة الثقل فيه ، وبنى نظره على التجربة والاختبار،وعلى معطيات علم الهيئة الحديث،هذا العلم الذي ينهض به الى الأوج: تلميذه وخدينه ريجيومونتانوس .

ومع ان مواقفه العدائية من توما الاكويني معروفة فقد وقف في وجه اوكهام وعارض بشدة مذهبه وتعـــاليمه. ومع ذلك فلم يستطع ان يتفادى الدوار الذي يصيب رأس من ينظر في هذه المهاوي السحيقة ، ولا سيا من يتعوض لمذهبي اللأدرية والحلولية . الا انه بنى على العلوم الرياضية نظاماً للكون توفرت له الوحدة وتوصـــل الى معرفة الله معرفة صوفية ، راسمـــاً بالقياس العلمي الطريق الذي يفضي من اللامتناهي الرياضي الى اللامتناهي الميتـــافيزيقي ، فالى اشراق النعمة وتجليها .

وعلى هذه الخطى والصوى سارت حركة الاحياء الالمانية التي تميزت اكثر من غيرهـــا من حركات الانبعاث هذه ، بالطابع العلمي. فقد عرفت المدن الجنوبية في المانيا كمدينةاوغسبورغ ونورمبرغ ان تجتذب اليها رهطاً جليلاً من العلماء ، وذلك بفضل هذا الفريق من رجال الاعمال والتجارة ممن اخذوا بنصرة العلم والادب ، كما كانت الثانية من هـــذه المدن ، قد اصبحت ، مع ريجيو مونتانوس ومارتين بهايم ، مركزاً علمياً ازدهر فيه علم الهيئة الذي مثـــله احسن تمثيل بوتنجر ، كما ازدهر فيه علم الجغرافيا . ولا بد من التنويه هنا بفضل اللغويين : جان ده تريتنهايم وجان روتشلن ، وردولف هوسمان احد تلاميذ ده كوس الذي تأثر ، الى حد بعيد بتعاليم فالا ونظرياته ، والمدرسة الهولندية ، وبتعاليم «اخوة الحيـــاة المشتركة » الذين تخرّج عليهم ايراسموس بين سنة ١٤٧٥ – ١٤٨٥ .

وحركة الاحياء العلمية في فرنسا ، كان لهـــا جذور اعمق واقدم ، طالما رأينا بترارك (١٣٠٧ – ١٣٧٤) يقف في وجه المطالب الفرنسية التي رغبت في نقل مركز العلم الى افنيون بعد ان انتقل اليها ، في عهده ، مركز البابوية . وفي اواسط القرن الخامس عشر تمركزت هـــذه الحركة في كلية الآداب اكثر منها في كلية اللاهوت او في جامعة السوربون القديمة . وقد وجدت هذه الحركة خير من يمثلها ، بين اوساط الجامعيين المتخرجين من كلية نافار وكلية الكردينـــال لوموان ، بينهم غليوم فيشه ، وروبرت غاكن . وكلما اقتربنا من نهـاية القرن ، اشتدت الحركة وتفاقم امرها. والبلاط الملكي الذي وجهه لويس الحادي عشروجهةامور الفكر والمعرفة، انشأ له مكتبات على السواء في كل من بلوى وفي فونتنبلو. ورحلات الفرنسيين الى ايطاليـــا كانت تجري باستمرار ؛ فقد سافر اليها فيشه ، عام ١٤٧٠ ، والتقى فيها بالكردينال بساريون .

كذلك تواترت رحلات الايطاليين الى فرنسا ، منهم بيروالدو ، عام ١٤٧٥ ، وبالبي عام ١٤٩١ ، كما قام بين الفترتين ، اي في عام ١٤٨٥ – ١٤٨٦ ، بيك ده لاميراندول ، برحلة الى باريس ، وراح بعض من قصد منهم الى انكلترا يزرع حب الدراسات الكلاسيكية في جامعات انكلترا القديمة ؛ وعن طريق هذه الرحلات حقق الفرنسيون بعض الكشوف ، وان لم تكن بالفعل جديدة . فقد كان لبترارك ، منذ اواخر القرن الرابع عشر ، نفوذ عظيم في فرنسا ، وخيل للبعض انهم سيجدون عنده جواباً لبعض المشكلات التي لم يكن من الممكن ان يجد هو لها حلاً . وبسبب ما وضع له بترارك في مقدمات الترجمات الفرنسية ، لكتابه الموسوم : « حول الحياة النسكية » التي تمت اولاها عام ١٤٧٨ ، والثانية عام ١٥٠٣ ، فنعتوه : « بالكاتب النحرير المعلم » في الترجمة الاولى ، و « بالشاعر المفلق اللبق » في الترجمة الثانية ، يمكن ان نستخلص ان النظرة اليه اختلفت جداً في الفترة الواقعة بين تاريخ الترجمتين ، كما انتقل تقدير الناس له من المؤلف الاخلاقي الذي كانه الى الاديب الذي استقر عليه رأيهم . ومهما يكن بالفعل تقدير القوم للمسيحي الحقيقي الذي كانه بترارك ، وللاثر والنفوذ البعيدين اللذين امتدا حتى منتصف القرن الخامس عشر ، فالاذهان والخواطر كانت تبحث عن مطالب اخرى . فالوقوف على الآداب اليونانية والفلسفة الافلاطونية كان آخذاً بالانتشار في الوقت الذي كان فيه لوفيفرديتابل يتلقى تحصيله في كلية لوموان. ولما كانت كتب النصوص المستعملة اذ ذاك ، والبرامج المعتمدة لا تسمح كثيراً بتقدير المؤلفين الكلاسيكيين التقدير الكافي ، ولا تمكن لهذا الامر أيضاً المؤلفات التي وضعها المؤلفون الايطاليون المحدثون ، فلم تتوفر للدارسين الاصول اللازمة والادوات المطلوبة لدراسة النصوص القديمة ، وفقاً لمتطلبات النقد الصحيح . ولذا فقد كان هم فيشه ان يوفر للجامعيين في باريس وان تؤمن لهم المطابع العدد الكافي من النسخ للكتاب الذي كان سبق لفالا فوضعه بعنوان : « منتقيات اللغة اللاتينية ». وهكذا بعد ان كانت الحركة الاحيائية في ايطاليا مشجعاً لمثل هذه الحركة في فرنسا ، اذ بها تمد الحركة الادبية الفرنسية بمنهجية جديدة في الفيلولوجيا وفن الانشاء العالي . ومنذ ذلك الحين تابع الفرنسيون سيرهم دون اي مساعدة من الجانب الايطالي ، عملاً بتقاليدهم في القرون الوسطى ، دون ان يسلوا الى متعتهم الادبية ، وذلك في مجالات التفسير الكتابي والدراسات اللاهوتية .

الدين والتصوف

لا يمكن ان تستقيم فينا صورة صحيحة ، دقيقة لهذه الحركة الاحيائية التي قامت في كل من ايطاليا وفرنسا والمانيا ما لم نعطف هنا بكلمة عابرة حول ما كان الناس يشعرون به من هواجس ووساوس ، وهموم وقلق في امور الدين. فبعد ان طووا اجيالا من القلق والاضطراب النفسي يتأكل جوارح النفس راحوا يبحثون عن الدوافع التي سببت بمثل هذه التغييرات الجذرية في جسم العالم ، كما تاق الجميع ورغبوا بشوق شديد لو ان يتم اخيراً هذا الاصلاح الذي طالما لوّحوا به والذي كان يتأجل وقوعه ويسوّفون به باستمرار . وسواء اجاء هذا الشوق للاصلاح استجابة فيهم لمطلب الحقيقة التي يبحثون عنها او للخير الذي يطمعون فيه ،

فجل ما همهم من هذا كله رجوع النظام الى الكنيسة وسيطرته على الافكار والمجتمع .

وهذا البطء المميت الذي استوجبه القضاء على الانفصال الذي طال امده وذلك بفضل مجمع كونستانس عام ١٤١٧ ، وزوال الانفصال الآخر الذي نجم عن مجمع بال ، وذلك باستقالة البابا الدخيل فليكس الخامس ، عام ١٤٤٩ ، لا يختلف كثيراً عن هذه الرغبة الشديدة في اصلاح الكنيسة ، في رأسها وأعضائهاوهي رغبة جاشت في صدور الناس في كل مكان. اما البطء فمرده كما هو معروف ، الى هذا الوهن الذي دب الى سلطة الكنيسة التعليمية ، هذه السلطة التي نازعها اياها وانكرها عليها القائلون بسلطة المجمع المسكوني الذي له وحده في نظرهم الحق بالتشريع وبادارة الكنيسة ، كما يعود الى مداخلات الدولة ومطالبها الملحة بعد ان مكنت اصولها ورسخت اركانها بحيث اضطرت السلطة الدينية للمصانعة والدخول معها في مفاوضات ، والوصول الى اتفاقات عن طريق عهود ومواثيق توصّل الى عقدها بين الطرفين ، للبت بامور الامتيازات والاعفاءات والرسوم التي كانت الكنيسة تتمتع بها وتجبيها ، كذلك هذه الظروف السيكولوجية العامة التي ادت اليها الحركة الاحيائية ، وهي ظروف عملت على الحد من كل الجهود المبذولة في هذا السبيل ، حتى ومن المساعي التي قام بها البابوات الذين جندوا انفسهم لهذه الحركة امثال نيقولا الخامس وبيوس الثاني وسيكتس الرابع . صحيح ان وجود بابا على شاكلة اسكندر السادس بورجيا على رأس الكنيسة في اواخر القرن الخامس عشر لم يكن من شأنه ان يشجع الاخذ بهذا الاصلاح . وهكذا ، فالرغبة التي جاشت بها النفوس والالحاف الذي رافق المطالبة بالاخذ بهذا الاصلاح ، هي احدى النزعات العميقة التي استبدت بالنفوس في هذا القرن ، وهي رغبة ليس انها لم تتعارض مع روح الحركة الاحيائية العامة فحسب بل توافقت معها وانسجمت بها الى أقصى حد ، فتعددت وجوه المطالبة بها بتعدد الاتجاهات الدينية في العصور الغابرة .

فمن قبيل مثل واحد نضربه هنا هو ان الحاجة الى التأليف والتوفيق التي شعر بها نيقولا ده كوس ، اتفقت مع الرغبة في اعادة الوحدة التي ذهب بها النقد المخلخل الذي قام به اوكهام . فقد اضاف الى اهتماماته كمقاصد رسولي عهد اليه الكرسي الرسولي القيام في كل من المانيا والبلاد الواطية بما قام به من عمل اصلاحي ، في فرنسا ، الكردينال دستونفيل وفي اوروبا الوسطى ، جان دي كابستران (١٣٨٥ - ١٤٦٥) ، وفي ايطاليا علم من اعلام هذه الحركة الشاملة ، هو الكردينال بساريون . والى هذا عندما راح ده كوس والبابا بيوس الثاني ، الذي لا يزال يذكر عنه انه كان عمل بوصفه إينيا سلفيو ، سكرتيراً للامبراطور ، يعملان معاً على اتحاد الملوك المسيحيين ، وبذلك جمعا بين الحلم المعسول الذي تبدى لدانتي ، والوحدة التقليدية التي عرفتها الكنيسة المسيحية ، في الاجيال الوسطى ، الى المثل العليا التي وضعتها الحركة الاحيائية نصب اعينها . واخيراً لما افضى ده كوس وبعده بكثير ، بيك ده لاميراندول ، بشكل آخر بابحاثهم النظرية وتجريداتهم اللاهوتية ، الى ما افضوا اليه من المطالب الصوفية ، فقد عبرا عن الرغائب التي جاش

بها كثيرون من ابناء عصرهم . والقلق الذي استحوز على بيك،بعد ان أخذ بمواعظ سافونا رولا اللاهبة ، شعر به بوتيتشلي نفسه .

ففي هذه النزعة الصوفية القوية التي تملكت النفوس ، يجب ان نبحث عـــن المحرك الاول والمؤثر الاكبر والدافع الاقوى للاصلاح الديني في القرن الخامس عشر ، كما انه يجب الا نهمل ، من جهة اخرى ، الجهود التي بذلها الاكليروس العلماني ولا المحاولات التي قامت بها السلطات المدنية ، في كل من فرنسا ، في عهد شارلمان الثاني ، وفي اسبانيا في عهد ملوكها الكاثوليك ، والمشروع الاصلاحي الذي وضع خطوطه الكبرى المجلس العام لممثلي الشعب ، سنة ١٤٨٤ ، ومجمع سانس عام ١٤٨٥ ، واللجنة الكنسية التي التأمت ، في تور ، عام ١٤٩٨ ، وكلها خطوات ومساع مهدت السبيل امام العمل الذي تولى ادارته رسمياً ممثل البابا الكردينال جورج دامبواز . وقد قامت الرهبانيات باكبر جهد ونصيب في هذا المضمار ، ولا سيما تلك التي تنقطع منها للتأمل والتجريد ، والرهبانيات المستعطية، والرهبانيات و الاديار البندكتية كدير برسفيلد الواقع ضمن الامبراطورية ، ودير القديسة جوستين ، في ايطاليا ، وديركلوني برئاسة الاب ده بوربون ، ودير شيزال ـ بنوا برئاسة الاب دوماس ، والرهبانيات الحبيس او المنعزلة : كدير فونتفرولت . كل هذه الرهبانيات والاديار كانت مراكز مثالية للانضباط الرهباني والتقيد بالفرائض الرهبانية. ونرى مثل هذهالحركة تقوم ايضاً في اديار الكرمل التي راح رئيسها العام الاب جان سوريت النورمندي الاصل ، يؤسس فرعاً نسائياً لهذه الرهبنة هو دير الكرمليات، وهي اديار اجتذبت اليها النفوس الكبيرة المعطشى الى طمأنينة النفس والتأمل . فاذا ما تخلى الكرسي الرسولي عن مشروعه الرامي لتوحيد مختلف فروع الرهبانيات التي تنتسب للقديس فرنسيس الاسيزي ، فقد عرف هؤلاء ، مع ذلك ان يؤمنوا، بنجاح اكبر وحظ اوفر،الانسجام في عملهم الاجتماعي وان يلائموا ، اكثر فاكثر ، بين المبادىء التي اوصى بها كتاب « التقوى العصرية » الذي لاقت تعاليمه نجاحاً كبيراً كما كانت معيناً لا ينضب من الخشوع.وفي تلك الحقبة اسس فرنسيس دي بول رهبنة « المينيم » او المنسحقين (١٤٦٠) وقد عادتالرهبنة الدومنيكية بعد طول جهد وجهاد الى ما عُرفت به من التمسك بالقانون والتقيد بالفرائض الرهبانية، لا سيا في البلاد الواطية الجنوبية ، حيث اسس جان فان ويتنهوف ، عام ١٤٦٤ ، الرهبنة الهولندية ، التي انشأت لها فروعاً في بريطانيا ومقاطعة سافوى .

هذه الارض « المختارة » ، وهو النعت الذي اطلق على البلاد الواطية ، عرفت دوماً ان تشع وترسل بانوارها بعيداً . فمن تربتها الخيرة طلع ستاندوك ، هذا الرئيس المتشدد في زهده ، الذي تولى رئاسة كلية مونتايغو ، في باريس ، فكان له فضل عميم في نشر هذه الصوفية التي عمل على ترويجها والدعوة لها واسعاً بين الناس : « اخوة الحياة المشتركة » ، وسعوا لنشرها على الاخص بين الاوساط العلمية والادبية التي اخذت بحركة الاحياء ، والتي بلغ من شدة مغالاتها

ما فضح هذا التراخي الذي عم الجميع ، فاثارت تهكم وسخرية مواطنه : إيراسموس . ان التقاء هذين الاسمين بازاء المفارقات التي ميزت فلورنسا في عهد سافونا رولا يثير هذا التنوع وهذا التباين في عصر عُرف بالروحانيات كما فاض باعمال الفكر . هل نحن امام نوعين من الناس قام الواحد تجاه الآخر ؟ هل يمثل ستاندوك الماضي وايراسموس المستقبل الطالع ؟ وهذا الانسان الحديث هل يختلف الى مثل هذا الحد عن الانسان القديم ؟ ففي هذا القلق الداخلي الذي اعترى الناس في الازمنة الصعبة ، لم يُقِيم الاول منهما على تواضع النفس وحده وعلى تطلعه نحو المسيح المتألم والعذراء مريم ام الاوجاع والآلام . وباستثناء هؤلاء المتصوفة المخلصين، فقد بنى لذته على الاسترسال في إنعام النظر في ما انتابه من قلق . وهذه الذاتية المركزية كانت بالفعل صورة من صور هذه الحركة الاحيائية . وهكذا اخذ يتجه نحو الانسانية الاخرى الحقة ، انسانية الانسان الفرد ، هذا البطل الذي خرج منتصراً على الازمة بمجرد ارادته. فسواءٌ اكان مستبحراً في العلم او عالماً عادياً او زعيم حزب او اميراً او تاجراً ، او متمولا او لاهوتياً ، فالرجل الحديث يعتقد من الصميم انه عن طريق ابراز شخصيته وتجليها يستطيع الوصول الى ما يرغب فيه . « فالمجاهدة تغلب الحظ » هذه العبارة التي جاءت على لسان البرتي فذهبت مثلاً واصبحت منهجاً سارت عليه الاجيال الطالعة التي اخذت تشعر انها تستطيع بعزم صادق ان تحقق كل رغائبها وتفوز بالمنى . فقــــد تفتحت امكانات جديدة وتفتقت طاقات جديدة لنشر الفكر والعمل الاجتماعي امام الرسل والعلماء ورجال السياسة والمغامرين ، ورجال المال والاعمال ؛ فآفاق جديدة أطلت عليهم لا حد لها ولا حصر ، وانفرجت امامهم مجالات رحاب للمغامرات والفتح والكسب .

٤ ـ انتشار الفكر والمعرفة في العالم

جاء اختراع الطباعة كغيره من هذه الكشوف التقنية التي حققها الانسان تنفيساً عن حاجة ملحة للمدنية ، وتحقيقاً لرغائب وآمال طالما تمطت بين ضلوع الانسان ، ونهاية مطاف مكدود بجهيد .

اختراع الطباعة

فازدياد عدد الجامعات ، ونزعة الانسان للكتاب وجمعه وخزنه وحرصه الشديد على الاحتفاظ به ، ومطلب النقد العلمي عند الانسانيين كل هذا وما اليه زاد كثيراً ، في منتصف القرن الخامس من شدة إقبال الانسان على الكتاب وطلبه له اينما وجد او توفر . والثابت ان الكتاب المخطوط يكلف غالياً بالنظر لمادته الاولى ، والبطء الذي تتم معه كتابة الكتب او استنساخها على شيء من الزينة والتحلية ، وامتلاكه ترف ولو بعدد ضئيل . ان ثمن بضعة عشرين كتاباً تألفت من مجموعها مكتبة احد اطباء مدينة بافي ، في اواخر القرن الرابع عشر ، كان يكفي لأود عيش رجل من عامة الشعب . اباستطاعة الطلاب

الحصول على ما يحتاجون اليه منها او يرغبون فيه وهم على ماهم عليه من ظروف معايشية وضيعة. اما الاغنياء ولا سيما رجال الاعمال منهم ، فجمعهم للكتاب المخطوط كان ، اذ ذاك ضرباً من ضروب الاستثمار والاستغلال ، بينه وبين الحرص على جميع الجوهرات والحلى والصحاف الكريمة اكثر من شبه . فلا عجب لو رأينا كثيراً من المخطوطات تذكر في قوائم البيع والجرد .

وبدا للمعنيين بهذا الامر ، حوالي ١٤٤٠ ، ان يستعملوا في تضعيف الكتب وتكثيرها ، طريقة نقش امهات الحروف على الحجر ، بعد ان كانت ظهرت ، من عهد قريب ، الطباعة الخشبية *Xilographie* . فقد تبدى لبعضهم ، منذ اواخر القرن الخامس عشر ، ان ينقشوا حروفاً بارزة في مكعبات من الخشب والحصول منها بعد تحبيرها والكبس عليها ، على عدد من النسخ . وقد جاء هذا الاختراع تقريباً في الوقت الذي اكتشف فيه ورق اللعب ، بعد انقضاء نحو قرن على استعمال ورق النقد الصيني في الغرب .

وهذا الكشف الذي تم في الغرب ، لم تبد قيمته للعين الا في اليوم الذي استطاع معه الانسان ان يزيل بطء العمل وان يتلافى العطل السريع الذي يلحق بادوات الطباعة لسرعة عطبها . وقد جاء التوفيق يوطد النجاح ويقضي على الامرين معاً : اذ توصل الانسان الى اختراع احرف معدنية متداخلة وصحائف نقالة هي الاخرى تتيح طبع الصفحة على الوجهين معاً . فبعد ان استعملوا في بادىء الامر ، حروفاً بارزة ، توصلوا الى حفرها في امهات يصبون عليها مركباً من الرصاص والاثمد . وهكذا جاء اختراع الطباعة حلقة في سلسلة تطوير الاختراعات المعدنية .

لا يهمنا كثيراً هنا ، ان نعرف من هو صاحب الفضل الاول في هذا الاختراع العجيب ، بعد ان تضاربت الآراء حول الموضوع وذهب المؤرخون فيه مذاهب شتى . ويكفي ان نعرف هنا ان اسم لوران كوستر من مدينة هارلم يأتي في طليعة من يعزى اليهم هذا الفضل في اختراع الحروف النقالة ، كما يعزونه ايضاً الى يوحنا غوتنبرغ الذي مع مساعده ومعاونه بيير شيفر ، تلقى علومه في مدينة ستراسبورغ ؛ واستطاع ان يطبع في مدينة ماينس ، اول كتاب كامل اخرجته المطابع ، سنة ١٤٥٥ ، كان من اليمن وحسن الطالع ان يكون التوراة ، الصفحة منه بحجم قطع ورقة كاملة *In - folio* وهي التوراة المعروفة بذات الـ ٤٢ سطراً للصفحة الواحدة ، او التوراة المازرينية وذلك لامتلاك الكردينال مازرين نسخة منها .

وقد جاء انتشار الاختراع التقني الجديد يشبع الى حد بعيد ، حاجات المجتمع ، بحيث انه ما كاد يمضي ١٥ سنة على ظهور اول كتاب مطبوع حتى راح احد سكان روما يصرح عالياً : « ان الكتاب الذي كان ثمنه من قبل ١٠٠ دوكة او ١٠٠ ريال ، تستطيع شراءه اليوم بعشرين وبذلك اصبح في مقدور ادنى الناس وضعاً اجتماعياً ومالياً ان يكون له مكتبة . فثمن الكتاب اليوم هو اقل من كلفة تجليده من قبل ٢٠ سنة ، وبالفعل ، فبأقل من ٣٠ سنة ، انتشر فن الطباعة الناشىء حديثاً الى كل ارجاء اوروبا . فامتد من ماينس الى ستراسبورغ ، ومنها انتقل فن الطباعة الى مدينة بال في سويسرا ، والى نورمبرغ في المانيا ليبلغ ايطاليا ويدخل مدينة سوبياكو عام ١٤٦٤

وروما عام ١٤٧٠ ، ثم فلورنسا والبندقية،وتمت لباريس مطابعها عام ١٤٧٠ ، ثم راحت مدينة ليون في فرنسا تبرز في الطليعة بنشاطها الطباعي،ثم جاءت روان وتولوز،ومعظم المدن الجامعية في فرنسا . وكانت مدينـــة فالنس وسرغسطة اولى المدن الاسبانية التي دخلها فن الطباعة . وتم للندن مطابعها قبل نهاية القرن .

استعمل غوتنبرغ ، اول من استعمل في الطبـاعة ، الحرف الغـوطي الجاري استعماله في المخطوطات الليتورجية . وفي عام ١٤٦١ ، حـــاول بفيستر ان يقلد المخطوطات المنمنمة ، باستبدال التزاويق ، في عملية طباعية قام بهـا في بامبرج ، برسوم منقوشة على الخشب . وبهـذا التقليد تحرر الكتاب اذ اتخذ في الطباعة حرفاً خاصاً هو الحرف « الرومـاني » المطبوع الذي عُرف بالحرف القديم *Littera Antiqua* الذي ظهر في سوبياكو ، عام ١٤٦٤ ، ثم أضيف الى هذه الطريقة ، عام ١٥٠١ ، في البندقية نوع من الحرف الايطالي *Italique* . وكان العاملون في الطباعة قد توصلوا ، اذ ذاك ، الى افراغ قوالب للابجدية اليونانية ، استعملت في مدينة ماينس عام ١٤٦٥ ، واستعملت عام ١٤٧٦ في طبع كتاب يوناني بكامله. واذ كانت فلورنسا مركز الحركة الاحيائية الهلينية ، فقد احتلت ، قبل البندقية وليون، الاولوية في الطباعة اليونانية . وهكذا صاغت الطباعة ادواتها وعدتها الخاصة وتفننت باستنباطهـــا الاشكال التعبيرية ، في الوقت الذي كانت فيه وسائل التعبير بالذات تتحرر من القيود المعيقة لها . واقبل الانسانيون *Humanistes* يستعملون الحرف الطباعي المعروف بالحرف الكارلوني *Caroline* للآداب القديمة وهو الحرف الذي تطور فيما بعد الى الحرف «الروماني» المعروف اليوم، بينما راحت اشكال الحروف الاخرى تتطور الى ما عرف بالحرف الدارج *Gourantes* ، مؤيدة فردية المرء وحريته .

وقد رحّبت الكنيسة ترحيباً حاراً باختراع الطباعة واعتبرته عربوناً للتحرر الفكري . فاسمع ما كتبه بهذا الصدد ، اسقف اوغسبورغ ، اذ يقول ، عام ١٤٨٧ ، « كانت الطبـــاعة نوراً لهذا العصر . فالكنيسة مدينة لها الى اقصى حد ، اذ امدتها بعدد من الكتب تفيض بالعلم الالهي » . وينطق عالياً بهذه المنة السابغة ما نرى من انتشار الكتاب المقدس بعدد كبير من اللغات اما بنصه الكامل المعروف او بالشكل المسمى : توراة الفقراء *La Bible des Pauvres* وانتشار كتب العبادة او الكتب التقوية العديدة التي عنوا بطبعها ونشرها اكثر مما عنوا بنشر النصوص القديمة ، وذيوع قصص الابطال الفرسان التي بقي اهتمام الناس بها والاقبال عليها على اشده، ولا سيما نشر كتاب « الاقتداء بالمسيح » وكتاب « *Ars Moriendi* » . الا ان مساوىء هذا الفن العديدة لم تلبث ان ظهرت للناس . ومنذ سنة ١٤٨٧ ، اهتم البابا اينوشنتيوس الثاني بمراقبة ثمار الطباعة . وفي ١٥٠١ ، قرر البابا اسكندر السادس وجوب اخضـــاع كل كتاب يتعرض لامور الدين بمراقبته فيعطى اذناً بطبعه *Imprimatur* ان لم يأتِ فيه مـــا يعارض التعاليم الدينية . وقد رأى احد الالمان من رجال هذا العصر في الطباعة « سلاحاً ذا حدين

يسير على قدر واحد في ركاب الحقيقة والكذب » . وهكذا أطلّ على الناس سلاح حاد طالما استعمله رجال الاصلاح الديني وخصومهم على السواء .

الاكتشافات الجغرافية

ساعدت الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية التي توفرت اسبابها ، اذ ذاك ، على ترحيب وتوسيع آفاق المعلومات الجغرافية لدى الانسان . فقد شعر العالم الغربي بحاجة ملحة للتوسع والامتداد ، وعرف ان يهيء لهذا الامر ، في الوقت المناسب ، الاسباب ويعد له المدة الكفيلة بتحقيقه بعد ان صقلت منه الاذواق واستهواه الوقوف على مكنونات الكون وعجائب المخلوقات ، وشغف بالدقة العلمية والكشف التجريبي بالمشاهدة العينية وتحرك فيه الفضول العلمي وجاش فيه حب المغامرة. وهذه الروح الجديدة التي استأثرت بمشكلات العصر واخذت تحاول الوصول الى حلها ، ليس ما يمثلها خير تمثيل غير الأمير هنري ده بورتغال الذي لقب جزافاً واعتباطاً : بالملاح او البحري ، اذ لم يُعرف عنه انه ركب البحر في سبيل الكشف الجغرافي.

وهذه الاسفار البحرية في المحيط الاطلسي التي غامروا بها ، في مطلع القرن الرابع عشر ، باءت كلها بالفشل التام لأنها لم تقترن بالوسائل التي تؤمن لها النجاح . فبعد السفينتين التابعتين للاخوة فيفالدي ، والتي استأجرها جاكوبو دوريا ، احد رجال الاعمال من سكان جنوى راح بحارون يقومون بمغامرات بحرية محاولين الايغال ، اكثر فأكثر ، باتجاه الغرب ، عبر مضيق جبل طارق ، وذلك بين ١٣١٠ - ١٣٣٠ ، واستطاع احد البحارة الجنويين هو : لانزرتو مالوشالو من الوصول الى الجزر الخالدات . وفي سنة ١٣٣١ عادت بعثة جديدة الى لشبونة بعد ان بلغت بعمارتها جزيرة ماديرا والجزر الخالدات . وبعد ذلك بخمس سنوات ، راح جيمي فرايرِ،يتوغل بحراً بعد ان غادر مرفأ برشلونة ، بحثاً عن « نهرا الذهب » ويحاول الوصول اليه . ثم انقطعت اخبار هذه المغامرات البحرية وخيم السمت على كل نشاط من هذا القبيل ، اذ لا يستطيع المرء ان يأخذ بهذه الاقاويل التي حملت البحارة النورمنديين الى مشارق الغينيه حوالي عام ١٣٧٠ ؛ كذلك لا يمكن الاخذ ، لضعفها ، بالرواية التي تقول بوصول المغامر التولوزي إيسلِغيَه ، الى السودان ، في اواخر القرن المذكور . ومع ذلك نعرف معرفة اليقين ان قبل هذا التاريخ ، وصل احد الرواد المغامرين من جنوى الى مدينة سجلماسة الواقعة الى الجنوب من الغرب الاقصى ، عند اطراف الصحراء ، وان الرحالة ابن بطوطة المغربي الاصل قام بين ١٣٥٣ - ١٣٥٤ برحلة استكشاف بلغ فيها بعض مجاهل نهر النيجر ان بقي خبر ذلك مجهولاً تماماً في الغرب . وكان في نية هؤلاء الرواد ومعظمهم من الجنويين،الوصول الى ذهب السودان . وهكذا برزت الحاجة القوية للمعادن الثمينة التي شعرت بها اوروبا المسيحية ، ورغبة المدن الايطالية الكشف عن اسواق جديدة لها في افريقيا ، بعد ان سُدت في وجهها طرق آسيا الوسطى التجارية منذ منتصف القرن الرابع عشر . ومع ان هذه المغامرات لم تستمر ، فقد

ساعدت مع ذلك على تطوير فن رسم الخرائط الجغرافية لا سيا في مركزين عرفا بهذا الفن هما مدينــة جنوى ويوركا في جزر البليــار. فالخريطة البحرية *Portulan* التي وضعت عــام ١٣٥١ ، احتفظت بها المكتبة اللورنتية . وقد جاء الاطلس « الكتلاني » المعروف باطلس شارل الخامس (١٣٧٥) دليلاً ساطعاً على التقدم والتطور الذي طرأ على العلوم الجغرافيــة ، والعلوم الكونية بحيث فاقت كثيراً وتجاوزت بعيداً ما عُرف منها في الاجيال السابقة .

واول رحلة بحرية طلعت علينا اعتباطاً في مطلع القرن الخامس عشر جاءت في اعقاب هذه الاسفار التي لا يزال شيء من خبرها يتردد في الخاطر. ففي سنة ١٤٠٢ قام النورمندي جان ده بتنكور الذي قام بصحبة غاديفر ده لاسال من مقاطعة سانتونج ، يحاول استثمار الجزر الخالدات وهي محاولة غريبة جاءت نذيراً بما سيقوم به ، بعــد ذلك بقرنين ، معمرون نورمنديون في اصقــاع كندا حيث حملوا اليها النظم والعادات والادوات الزراعية التي كانت قيد الاستعمال في الوطن الام ، وقد انتهت محاولاتهم هذه بالفشل التام : فتخلى بتنكور عن حقوق استثماره لملك قشتالة . وهكذا اصبح من حق مـلوك شبه الجزيرة الايبيرية ان يأخـذوا تحت رعايتهم الاشراف على هذه الرحلات البحرية الكبيرة عندما امكن توفير اسباب التطور التقني وتفهم أصح لهذه المشكلات المعقدة التي تواجهها الملاحة في المحيط الاطلسي .

فالازدهار الذي نعمت به الموانىء البحرية الواقعة على ساحل المحيط الاطلسي لم يكن قط وليد الصدفة والارتجال . فقد عرفت هذه الموانىء الواناً من النشاطات البحرية طيلة بضعة اجيال كانت بمثابة اعداد نفساني لسكان المرافىء الواقعة على خليج بسكاي وغيبوزكو الواقع بين البرتغال والاندلس هيأهم للقيام والاسهام بهذه الرحلات البحرية البعيدة المدى. وكانت سواحل كنتبريا مجالاً لنشاط عارم تجلى باعمال الصيد والمبادلات التجارية ، التي اخذت تزداد ، اكثر فاكثر ، مع سكان اوروبا الشمالية الغربية . اما اسبانيا التي كانت قليلة السكان نسبياً بينهم عدد من المسلمين ، فلم تتمخض ، قبل القرن السادس عشر ، باية حاجة لاختزان الحبوب بقصــد التموين . اما في البرتغال، فالوضع كان على عكس ذلك تماماً اذ لم يكن يتوفر للسكان هنالك اي اختيار بين امكانيات عارضة متنوعة ، فوجدوا انفسهم خاضعين لاجتــذاب البحر وسحره . وامام حاجة الاهلين للقمح،راحوا يتلمسون الحصول عليه في المغرب وجزر مديرا، كما ان حاجة سكان لشبونه للسكر اضطرتهم للعناية بزراعة قصب السكر في مقاطعة الفارف احــدى المقاطعات الجنوبية في البرتغال ، كما حاولوا ادخــال زراعته ، خلال هذا القرن في بعض ارخبيلات الاطلسي . ثم ان حراجة الوضع النقدي ارغمت البعض ، ولا سيما الاشراف ، على اقتناء عقارات واملاك لهم في اجواء اخرى ، كما ارغمت فريقاً اخر معظمهم من التجار على تأمين موارد اوفر واوسع من مادة الذهب . ويجب الا نغفل هنا عن ذكر اسبــاب اخرى اعتادوا الاتيــان على ذكرها ، اثرت كثيراً على عقلية سكان لشبونة . ان انتشار البرتغاليين عبرالبحار وضربهم في آفاقها البعيدة كان يعوض عليهم ما كانت عليه بلادهم من ضعف المساحة

وارضهم من خسة الرزق وضنانة العطاء ، اذا ما قيست بمملكة قشتالة ؛ والفتح عندهم كان مقروناً بفكرة صليبية ، ولذا راودت اذهان هؤلاء القوم دوماً احلام بالفتوحـــات . فلكي يقوموا بحركة التفاف حول الدولة المغربية ، وتأميناً لاتصالهم بمملكة الراهب يوحنا الاسطورية اخذوا بتحقيق الرحلة حول افريقيا . وبالاضافة الى هذا كله ، شجع ، ان لم نقل نظم امراء اسرة افيز المالكة ، امثال الامير هنري الملاح واخيه بيير ، الوصي على العرش ، البرتغاليين على القيام بهذه الاسفار . والبرتغال الذي اخذ منذ عام ١٤١٨ بحركة الاكتشافات الجغرافية هو ابداً مدين لهذين الأخين ، بهذا النشاط العارم الذي تجلى على اتمه منذ عام ١٤٣٢ .

وبدون خطة واضحة سابقة راحوا يهيئون ، على شيء من التنظيم ، الاجهزة اللازمـــة ويتبينون الخطى والصوى التي كان عليهم ان يسيروا عليها . ان احتلال البرتغاليين لمدينة سبتا المقابلة لجبل طارق على الشاطىء الافريقي ، عام ١٤١٥ حملهم على السكنى في مجمل المدن الساحلية الواقعة على ساحل الاوقيانوس الاطلسي . وفي الوقت ذاته اخذوا يترددون على الجزر الخالدات في الحين الذي كان يختلف اليها القشتــــاليون ، ثم استقرّوا في بورتوسانتو وفي جزيرة مديرا ، حوالي عام ١٤٢٠ ، واستكشفوا جزر الازور ، عام ١٤٢٧ وتقدموا من بحر سَرّغاس ، وتابعوا استكشافهم للساحل الاطلسي فوصـــلوا الى بوغادور عام ١٤٣٤ ، والى الرأس الاخضر ، عام ١٢٤٤ ، واستقر البرتغاليون في نهاية الامر في جون أرغين ، عام ١٤٤٣ حيث كانت تنتهـــي مرحلة القوافل التي تصل الى تمبكتو في اربعة او ستة اسابيع .

وقد كان لهذا الحادث وقع كبير كما ظهر بعد ذلك بقليل . فقد كانت مدينة تمبكتو آنذاك مركزاً هاماً للحركة التجارية في افريقية ، اذ كانت سوقاً لمقايضة ملح الصحراء مع العبيد وذهب السودان ، الذي كان يصل منذ عدة اجيال عن طريق القوافل التجـــارية الى مرافىء الغرب ، ومنها ينتشر في كل مرافىء البحر المتوسط . وقد راح البرتغاليون يحاولون تحويل هذا التيـــار التجاري نحو بلادهم . والجنويون الذين كانوا يموّلون مشـــاريع البرتغاليين واسفارهم البحرية ، لم يهملوا قط الاهتمام بالطرق التقليدية للتجارة في افريقية . وهكذا سافر احـدهم هو انطونيو مالفانته ، من سجلماسة ، عام ١٤٤٧ واتجه نحو مقاطعة التوات ، متتبعاً مسالك الصحراء ، وتمكن من جمع معلومات وفوائد دقيقة عنها شبيهة بتلك التي جمعها عنها ابن بطوطة ، قبل ذلك بنحو قرن من الزمن ، وهي معلومات تتعلق بالدول الاسلامية القائمة بين بحيرة تشاد وبين المحيط الاطلسي . وبعد ذلك بنحو ٢٠ سنة ، اي في عام ١٤٧٠ ، ادعـــى احدهم هو بنديتو ذاي الفلورنتي يعمل في خدمة اسرة بورتيناري انه بلغ مدينة تمبكتو بواسطة الطرقات البرية . ومهما يكن ، فقد عرف البرتغاليون ان يفيدوا كثيراً من هذا السبق الذي حققوه . فبعد ان بلغوا مشارف نهر غمبيا وجزر الرأس الاخضر ، حوالي عام ١٤٥٥ ، كما يشهد على ذلك قصة رحالة من البندقية ، اسمه سادا موستو ، عرفوا ان ينالوا بواسطة مرسوم بابوي ، ليس الاراضي الواقعة في عرض البحر من سواحل افريقية التي سبق واعترف بحقهم عليها البابا يوجين الرابع

فحسب ، بل ايضاً الأراضي التي سيكتشفونها في طريقهم الى الهند .وبعد ذلك بخمس سنوات، نراهم على شواطىء خليج الغينه ، في هـــذا الموضع بالذات الذي انشأوا لهم فيه ، عام ١٤٨٢ ، وكالة تجارية وحصنهم المعروف بحصن سان جورج ده مينا .

وهذا التوسع الجغرافي لم يستطيعوا تحقيقه الا بفضل التطورات العلمية والتقـدم التقني الذي ساعد على النهوض به وتحقيقه على مثل هذا الوجه ، عوامل فكرية وظروف اقتصـادية مؤاتية للغاية . فالاثر الحاسم الذي تركه ، في هذا المجال الامير هنري لم يكن قط اثر بحاثة عالم بالمعنى الحديث لهذه الكلمة . فالنشاط العلمي البرتغالي الذي كان بالاحرى نشاطاً ذا طابـع عمـــلي ، تجريبي ، بقي بعض الشيء معزولاً او غريباً لا يتصل بسبب متين ، بنشاط مدرسة نورمبرج التي اتسمت بالكثير من صفات العلم وامتازت بالنظريات العلمية الدقيقة . فقبـل وفاة الامير هنري بكثير ، كان تم وضع خرائط جغرافية دقيقة على الطريقة المتبعة في مـايوركا ، كما كانوا حسنوا كثيراً من فعالية دائرة الارياح *Rose des Vents* . وكل شيء يدل على انهم استفادوا كثيراً من الاسطرلاب ومن ربع محيط الدائرة ، لتحقيق هذه الاسفار الجغرافيـــة البحرية التي ادت الى اكتشاف جزر مديرا ، كما ان الارصاد الفلكية تمت بدقة اكبر ، اذ ان البرتغـالين ، تبينوا ، بشهادة ساداموستو، برج صليب الجنوب ، في حزيران ١٤٥٥ ، عند مضب نهر الغمبي ، وعنـد الدرجة ١٣ من خط العرض الشمالي . ولا تقل اهمية عن هذا الحادث ، التطورات التي طرأت على الوسائل العلمية في هذه الرحلات التي تجاوزت رأس بوغادور بحيث استطاعوا بناء سفينة جديدة باسم الكرافيل كانت اكثر مرونة واسرع سيراً ولها قلوع اكبر واكثر فعالية .

وهذه الاختبارات والتجارب الفعلية الجديدة لعبت الدور الاكبر في هـــذه التطورات المستمرة التي ساعدت ، من رحلة الى اخرى ، على معرفة مهـاب الارياح والتعرف الى مسالك المحيط الاطلسي. وهكذا لم يلبثوا ان تبينوا ان السفر البحري باتجاه الجنوب كان ايسر بكثير من السير بحراً على مقربة من السواحل الافريقية او بازائها ، اذ كان المسافر يتعرض وهو في طريق عودته ، للارياح المضادة وللتيارات المعاكسة . ولذا توجب عليهم الابتعاد عن القارة السوداء حتى جزر الازور لمصادفة ارياح مؤاتية .

واذ ذاك فقط امكن الجمع بين الخبرة القائمة على التجربة والعلم التجريدي او النظري . ففي عام ١٤٥٩ جرت ، على ما يقال ، بين السفير البرتغالي وتوسكانلي مقابلة اثناء مؤتمر منتوا ، تخلله حديث طويل . وكان على هذا الاخير ان يرسل ، عام ١٤٧٥ ، الى كاهن برتغالي رسالة مهمة يحدثه فيها عن طريق يؤدي نحو الغرب ، قـد يمكن للمؤرخ ان يحسب لهذا الحديث حساباً في ظهور هذه الفكرة عند كولمبوس وتجليها له بوضوح. فاذا كان الملك الفونس الخامس لزم جانب المتحفظ تجاه هذه الفكرة لعدم توفر المال لديه ، فقد عرف خلفه الملك يوحنـا الثاني المشهور ،

كما يؤكد الرحالة جيروم مونزر ، بطلبه للعلم وحرصه على جمعه له ، كما عُرف بمقدرته على البحث وامعان النظر في امور الرصد الجوي ساعات بطوالها فجمع حوله مجلساً من العلماء ودعـــا اليه مارتين بيهايم الذي حمل معه من مدينة نورمبرغ المعلومـــات العلمية المتوفرة لديها ، ولا سيما الازياج التي وضعها ريجيومونتانوس لسير السفن . وبواسطة عمليات حسابية سهلة الاخـذ نسبياً تساعد على تحديد ارتفاع الشمس في السمت عند الظهيرة ، جعلت من الامور الميسورة ، التجول في البحار الجنوبية . واذ ذاك فقط ، امكن اجتياز المراحل الحاسمة . وبعـد ان تجاوزوا نقطة الخطر عام ١٤٧١ كما يرجحون ، قام هذا الفريق من البحارة : جان ده سنتاريم وبيير اسكوبار ودياغو كام يذرعون معاً سواحل القارة الافريقية ، تاركين اينما مروا معالم ظاهرة تشير الى تقدم البرتغاليين التدريجي في هذه الارجاء القصية . وفي سنة ١٤٨٥ حمل كام معه من خط العرض ٢٢ الى الجنوب، بعض ابناء البـــلاد الاصليين الذين بعد ان يتم تنصيرهم وتعليمهم امور الديانة المسيحية كانوا سيرسلون مبشرين في بلادهم الاصلية . ولم يمض عـــلى ذلك ثلاث سنوات حتى استطاع برتلمي دياز ، بعد ان عرف كيف يستفيد من المعلومات والفوائد العلمية السابقة ، ان يجتاز رأس « العواصف » ممهداً السبيل امامه نحو الهند . فمنذ نحو ٣٠ سنة والغربيون يبحثون عن طريق لهم تفضي بهم الى بلاد الافاويه وبالتالي تمكن من الاستدارة حول القارة الافريقية .

وحوالي ١٤٩٠ راح بيير ده كوفلهام يتجه على بركة الرحمن نحو الدروب المؤدية الى الحبشة التي بقيت صورتها دوماً تراود خيال البرتغاليين ، فبرهن لخير ملكهم ومنفعته ان الطريق التي اتبعها دياز انما كانت بالفعل خير هذه الطرق واسلمها وآمنها . فليس من عجب بعد هذا ، ان يصموا في لشبونة الآذان لعروض وخطط يتعهد بتحقيقها بحـــار جنوي ، لا خبرة شخصية له ، ولا تجربة بحرية او مغامرة له في المحيط الاطلسي، بالبحث عن طريق غربي لم يعد احد يشعر الآن ، بحاجة اليه بعد ان تم اكتشاف الطريق الشرقي الى الهند. وبعد صدمة الخيبة التي لقيها في البرتغال وجد هذا المغامر ترحيباً حاراً لدى بلاط اشبيلية التي لم تكن مشاريعهـــا وخططها للكشف البحري بلغت بعد التوسع الذي تم للبرتغال . فقد حمل معه المعلومات التي جمعها من البحارة البرتغـــاليين . والذهب الجنوي الذي كان يلعب دوراً بارزاً في المرافىء الاسبانية والذي كان متيقظاً يبحث دوماً عن ظروف مؤاتية للمغامرات البحرية ، تدخل فجأة في الامر وساعد على انجاح الخطة المعروضة . والسفن الثلاث التي اقلعت كاملة العدة والتجهيز ، من مرفأ بالوس في ٣٠ آب ١٤٩٢ بقيادة خريستوف كولمبوس، كانت خاتمة المطاف في سلسلة هذه المغامرات التي ادت اليها مجموعة من التجارب العملية كانت بالفعل نتيجة هذه اليقظة وهذا التفتح على الكون تخطى جيلاً كاملاً من هذه البشرية المتطلعة الى الانتشار والتوسع كما كان الأطار الذي راح فيه النشاط الاوروبي يندفع بزخم . فمع كولمبوس شمرت المدنية الغربية عن ساعديها لفتح العـــالم وبسط سيادتها وسيطرتها عليه .

المـــراجع

ان المراجع التي نشير اليهـا فيما يلي لا تعطي سوى فكرة موجزة عن الانتاج الادبي الضخم الذي تناول موضوع حضارات القرون الوسطى . وقد اخترناها بالتفضيل بين المؤلفات الموضوعة باللغة الفرنسية (المراجع العربية من اعداد هيئة الترجمة) .

١ ـ المؤلفات العامة

J. CALMETTE, **Le monde féodal,** t. IV de la collection «Clio» (Paris, P.U.E. 1951).

J. CALMETTE, **L'élaboration du monde moderne,** t. V. de la collection «Clio» (Paris, P.U.F., 1949, 3e éd.).

Collection « **Peuples et Civilisations, Histoire générale**», fondée par L. HALPHEN et Ph. SAGNAC (Paris, P.U.F.)

— t. V, L. HALPHEN, **Les barbares, des grandes invasions aux conquêtes turques du XIe siècle** (5e éd., 1948).

— t. VI, L. HALPHEN, **L'essor de l'Europe, XIe-XIIIe siècle** (3e éd., 1948).

— t. VII, H. PIRENNE, A. RENAUDET, E. PERROY, M. HANDELSMAN et L. HALPHEN, **La fin du Moyen Age** (2 vol. 1931).

Collection « **Histoire Générale** », fondée par G. GLOTZ, dont **l'Histoire du Moyen Age** en 10 tomes (Paris, P.U.F.) demeure inachevée :

— t. I, F. LOT, CHR. PFISTER et F.L. GANSHOF, **Les destinées de l'Empire en Occident de 395 à 888** (2 vol., 2e éd., 1941).

— t. II, A. FLICHE, **L'Europe Occidentale de 888 à 1125** (1930).

— t. III, CH. DIEHL et G. MARÇAIS, **Le monde oriental de 396 à 1081** (1936).

— t. IV, 1, E. JORDAN, **L'Allemagne et l'Italie aux XIIe et XIIIe siècles** (1939).

— t. IV, 2, CH. PETIT-DUTAILLIS ET P. GUINARD, **l'Essor des Etats d'Occident : France, Angleterre et Péninsule Ibérique** (1937).

— t. VI, R. FAWTIER et A. COVILLE, **l'Europe Occidentale de 1270 à 1380** (2 vol. 1940-1941).

— t. VII, J. CALMETTE et E. DÉPREZ, **L'Europe Occidentale de la fin du XIVe siècle aux guerres d'Italie** (2 vol. 1937-1939).

— t. VIII, H. PIRENNE, G. COHEN et H. FOCILLON, **La civilisation occidentale au Moyen Age du XIe au milieu du XVe siècle** (1933).

— t. IX, 1, CH. DIEHL, L. ŒCONOMOS, R. GUILLAND et R. GROUSSET, **L'Europe Orientale de 1081 à 1453** (1945).

— t. X, 1, R. GROUSSET, J. AUBOYER et J. BUHOT, **L'Asie Orientale des origines au XVe siècle : les Empires** (1941).

Histoire de l'Eglise depuis les origines jusqu'à nos jours, fondée par A. FLICHE et V. MARTIN (Paris, Bloud et Gay), encore incomplète pour le Moyen Age.

— t. IV, P. DE LABRIOLLE, G. BARDY, L. BRÉHIER et G. DE PLINVAL, **De la mort de Théodose à l'élection de Grégoire le Grand** (1937).
— t. V, L. BRÉHIER et R. ALGRAIN, **Grégoire le Grand, les Etats barbares et la conquête arabe (590-757)** (1937).
— t. VI, E. AMANN, **L'époque carolingienne** (1937).
— t. VII, E. AMANN et A. DUMAS, **L'Eglise au pouvoir des laïques (888-1057)** (1940).
— t. IX, A. FLICHE, **La réforme grégorienne et la conquête chrétienne (1057-1125)** (1940).
— t. IX, A. FLICHE, R. FOREVILLE et J. ROUSSET, **Du premier concile de Latran à l'avènement d'Innocent III** (2 vol., 1944-1945).
— t. X, A. FLICHE, **La chrétienté romaine, 1198-1274** (1950).
— t. XIII, A. FOREST, F. VANSTEBERGEN et M. de GANDILLAC, **Le mouvement doctrinal du XI[e] au XIV[e] siècle** (1951).
— t. XV, R. AUBENAS et R. RICARD, **L'Eglise et la Renaissance (1449-1517)** (1951).

Histoire des relations internationales, publiée sous la direction de P. RENOUVIN (Paris, Hachette).
— t. I, F. L. GANSHOF, **Le Moyen Age** (1953).

H. HEATON, **Histoire économique de l'Europe,** trad. franç. t., I. (Paris, Colin, 1951).

The Cambridge Economic History of Europe, fondée par J. CLAPHAM et E. POWER (Cambridge, University Press).
— t. I, **The Agrarian Life of the Middle Ages** (2[e] éd., 1953).
— t. II, **Trade and Industry in the Middle Ages** (1952).

٢ ـ الغرب

L. GENICOT, **Les lignes de faîte du Moyen Age** (Tournai et Paris, Casterman, 1951).

F. VAN DER MEER, **Atlas de la civilisation occidentale** (Bruxelles et Amsterdam, Elsevier, 1952).

P. ZUNTHOR, **Histoire littéraire de la France médiévale, VI[e] - XIV[e] siècles** (Paris, P.U.F. 1954).

J. CHAILLEY, **Histoire musicale du Moyen Age** (Paris, P.U.F., 1950).

R. GRAND et R. DELATOUCHE, **L'Agriculture au Moyen Age de la fin de l'Empire romain au XVI[e] siècle** (Paris, E. de Boccard, 1950).

L. HALPHEN et R. DOUCET, **Histoire de la société française,** t. I (Paris, Nathan, 1953).

CHR. DAWSON, **Les origines de l'Europe et de la civilisation européenne,** trad. franç. (Paris, Rieder, 1934).

F. LOT, **La fin du monde antique et le début du Moyen-Age** (Paris, A. Michel, 1949).

H. PIRENNE, **Mahomet et Charlemagne** (Paris, Alcan, et Bruxelles, Nouv. Soc. d'Editions, 1937).

R. LATOUCHE, **Les grandes invasions et la crise de l'Occident au V[e] siècle** (Paris, Aubier, 1947).

P. COURCELLE, **Histoire littéraire des grandes invasions** (Paris, Hachette, 1948).

E. SALIN, **La civilisation mérovingienne,** t. I et II seuls parus (Paris, Picard, 1950-1952).

CHR. COURTOIS, **Les Vandales et l'Afrique** (Paris, Arts et Métiers graphiques, 1955).

F. M. STENTON, **Anglo-Saxon England** (Oxford, Clarendon Press, 1943).

J. DHONDT, **Etude sur la naissance des principautés territoriales en France (IV[e] -**

X° siècle (Bruges, de Tempel, 1948).

J. HUBERT, **L'art préroman en France du V° au X° siècle** (Paris, Editions d'art et d'histoire, 2° éd., 1939).

R. LANTIER et J. HUBERT, **Les origines de l'art français des temps préhistoriques à l'époque carolingienne** (Paris, G. Le Prat, 1947).

M. BLOCH, **Les caractères originaux de l'histoire rurale française** (Paris, Colin, 2° éd., 1952).

M. BLOCH, **La société féodale** (Paris, A. Michel, 2 vol., 1939-1940).

F.L. GANSHOF, **Qu'est-ce que la féodalité ?** (Bruxelles, Office de Publicité, et Neuchâtel, La Baconnière, 2° éd., 1947).

L. VERRIEST, **Institution médiévales,** t. I seul paru (Mons et Frameries, Union des Imprimeries, 1947).

D. M. STENTON, **English Society in the Early Middle Ages, 1066-1307** (Harmondsworth, Penguin Books, 1952).

A. DÉLÉAGE, **La vie rurale en Bourgogne jusqu'au début du XI° siècle** (Mâcon, Protat, 2 vol., 1941).

CH.-E. PERRIN, **Recherches sur la seigneurie rurale en Lorraine d'après les plus anciens censiers, IX° - XII° siècles** (Paris, Les Belles-Lettres, 1935).

G. DUBY, **La société aux XI° et XII° siècles dans la région mâconnaise** (Paris, Colin, 1953).

R. DOEHAERD, **L'expansion économique rurales en Bavière depuis la fin de l'époque carolingienne jusqu'au milieu du XIII° siècle** (Paris, Les Belles-Lettres, 1949).

H. PIRENNE, **Les villes et les institutions urbaines** (Paris, Alcan, et Bruxelles, Nouvelle Société d'Editions, 2 vol., 1939).

F. L. GANSHOF, **Etude sur le développement des villes entre Loire et Rhin au Moyen Age** (Paris, P.U.F., et Bruxelles, Librairie encyclopédique, 1943).

R. DOECHAERD, **L'expansion économique belge au Moyen Age** (Bruxelles, Renaissance du Livre, 1946).

Y. RENOUARD, **Les hommes d'affaires italiens au Moyen Age** (Paris, Colin, 1949).

Y. LESTOCQUOY, **Les villes de Flandre et d'Italie sous le gouvernement des patriciens (XI° - XV° siècles)** (Paris, P.U.F., 1952).

Recueils de la Société JEAN BODIN (Bruxelles, Librairie encyclopédique).

- t. II, **Le servage** (1937).
- t. III **La tenure** (1938).
- t. IV, **Le domaine** (1949).
- t. V, **La foire** (1953).
- t. VI, 1, **Les Villes** (1954)

CH. PETIT-DUTAILLIS, **La monarchie féodale en France et en Angleterre, X° - XIII° siècles** (Paris, A. Michel, 1933).

CH. PETIT-DUTAILLIS, **Les communes françaises, caractère et évolution des origines au XVIII° siècle** (Paris, A. Michel, 1947).

R. FOLZ, **L'idée d'Empire en Occident du V° au XIV° siècle** (Paris, Aubier, 1953).

J. E. A. JOLLIFFE, **Angevin Kingship** (Londres, A. et Ch. Black, 1955).

R. FAWTIER, **Les Capétiens et la France, leur rôle dans sa construction** (Paris, P.U.F., 1942).

F. OLIVIER-MARTIN, **Précis d'histoire du droit français** (Paris, Dalloz, 4° éd., 1945)

A. FLICHE, **La querelle des investitures** (Paris, Aubier, 1946).

E. GILSON, **La philosophie du Moyen Age** (Paris, Payot, 1945).

G. PARÉ, A. BRUNET et P. TREMBLAY, **La Renaissance du XII° siècle. Les écoles et l'enseignement.** (Paris, Vrin, 1933).

J. DUPONT et C. GNUDI, **La peinture gotyen Age** (Paris, P.U.E., 1950).

G. DE LAGARDE, **La naissance de l'esprit laïque au déclin du Moyen Age** (Saint-- Paul — Trois — Châteaux, Editions Béatrice, et Paris, E. Droz, 6 vol., 1933-1946).

R. REY, **L'Art roman et ses origines. Archéologie préromane et romane** (Toulouse, Privat, et Paris, Didier, 1945).

É. MALE, **L'art religieux du XII° siècle en France. Etude sur l'origine de l'iconographie du Moyen Age** (Paris, Colin, 5° éd., 1947).

É. MALE, **L'art religieux du XIII° siècle en France. Etude sur l'iconographie du Moyen Age et ses sources d'inspiration** (Paris, Colin, 3° éd., 1910).

E. BERTHAT (E. LAMBERT), **Le style gothique** (Paris, Larousse, 1943).

P. DESCHAMPS et M. THIBOUT, **La peinture murale en France. Le haut Moyen Age et l'époque romane** (Paris, Plon, 1951).

M. AUBERT, **La sculpture française au Moyen Age** (Paris, Flammarion, 1946).

L. RÉAU, **L'art religieux du Moyen Age. La sculpture** (Paris, Nathan, 1946).

J. DUPONT et C. ANNDI, **La peinture gothique** (Paris, Skira, 1954).

T. S. R. BOASE, **English Art, 1100-1216** (Oxford, Clarendon Press, 1953).

E. PERROY, **La guerre de Cent ans** (Paris, Gallinard, 1945).

A. R. MYERS, **England in the Late Middle Ages** (Harmondsworth, Penguin Books, 1952).

H. PIRENNE, **Histoire de Belgique** (Bruxelles, Lamertin), les t. I (5° éd., 1932) et II (3° éd., 1932).

P. BONENFANT, **Philippe le Bon** (Bruxelles, Renaissance du Livre, 2° éd., 1955).

J. BARTIER, **Charles le Téméraire** (Bruxelles, Dessart, 1944).

P. CHAMPION, LOUIS XI, t. II, **Le roi** (Paris, E. Champion, 2 vol., 1927).

H. HEIMPEL, **Deutschland in spateren Mittelalter** (Potsdam, 1940).

L. MUSSET, **Les peuples scandinaves au Moyen Age** (Paris, P.U.E., 1951).

F. SOLDEVILLA, **Historia de Espana**, t. I et II (Barcelone, Ed. Ariel, 1953).

H. DA GAMA - BARROS, **Historia de administraçao publica em Portugal** (Lisbonne, Sâ da Costa, 2° éd., 1945).

N. VALERI, **L'Italia nell'età dei principati dal 1343 al 1516** (Vérone, Mondalori, 1949).

E. G. LEONARD, **Les Angevins de Naples** (Paris, P.U.F., 1954).

G. MOLLAT, **Les papes d'Avignon** (Paris, Letouzey, 9° éd., 1949).

V. MARTIN, **Les origines du gallicanisme** (Paris, Bloud et Gay, 2 vol. 1939).

N. VALOIS, **La France et le grand schisme d'Occiden** (Paris, A. Picard, 4 vol., 1896-1902).

E. PERROY, **L'Angleterre et le grand schisme d'Occident** (Paris, J. Monnier, 1933).

K. B. Mc FARLANE, **John Wicliffe and the beginnings of English Nonconformity** (Londres, English Universities Press, 1952).

N. VALOIS, **La crise religieuse du XV° siècle. Le Pape et le concile, 1418-1450** (Paris, A. Picard, 2 vol., 1909).

P. IMBART DE LA TOUR, **Les origines de la Réforme** (Paris, Librairies d'Argences), les t. I et II (2° éd., 1946-1948).

A. RENAUDET, **Préréforme et humanisme à Paris pendant les premières guerres d'Italie, 1494-1507** (Paris, Libr. d'Argences, 2° éd., 1953).

J. HUIZINGA, **Le déclin du Moyen Age,** trad. franç. (Paris, Payot, 2° éd. 1948).

M. DEFOURNEAUX, **La vie quotidienne en France au temps de Jeanne d'Arc** (Paris, Hachette, 1953).

A. TENNENTI, **La vie et la mort à travers l'art du XV° siècle** (Paris, Colin, 1952).

R. DION, **Les frontières de la France** (Paris, Hachette, 1947).

J. LEJEUNE, **Liège et son pays. Naissance d'une patrie** (Liège, Faculté de Philosophie et Lettres, 1948).

C. CIPOLLA, J. DHONDT, M. M. POSTAN et PH. WOLF, **Démographie, Moyen**

Age, dans IX° Congrès international des Sciences historiques. Rapports (Paris, Colin, 1950).

J. C. RUSSELL, **British Medieval Population** (Albuquerque, University of New Mexico Press, 1948).

R. BOUTRUCHE, **La crise d'une société. Seigneurs et paysans du Bordelais à la fin de la guerre de Cent ans** (Paris,, Les Belles Lettres, 1947).

E. POWER, **The Wool-Trade in English Medieval History** (Oxford, University Press, 1941).

E. CARUS-WILSON, **Medieval Merchant Venturers** (Londres, Methuen, 1955).

J. SCHNEIDER, **La ville de Metz aux XIII° et XIV° siècles** (Nancy, Impr. Georges Thomas, 1950).

H. VAN WERVEKE, **Bruges et Anvers, huit siècles de commerce flamand** (Bruxelles, Librairie encyclopédique 1944).

M. MOLLAT, **Le commerce maritime normand à la fin du Moyen AZe** (Paris, Plon, 1952).

PH. WOLF(**Commerces et marchand de Toulouse, vers 1350 — vers 1450** (Paris, Plon, 1954).

E. BARATIER et F. REYNAUD, t. II de « **Histoire du commerce de Marseille** », de 1291 à 1480 (Paris, Plon, 1951).

S. L. THRUPP, **The Merchant Class of Medieval London, 1300-1500** (Chicago, University Press, 1948).

R. PAGEL, **Die Hanse** (Oldenburg, 1942).

CH. DIEHL, **Une république patricienne, Venise** (Paris, Flammarion, 4° éd. 1938).

A. SAPORI, **Le marchand italien au Moyen Age, conférences et bibliographie** (Paris, Colin, 1952).

Y. RENOUARD, **Les relations des papes d'Avignon et les compagnies commerciales et bancaires de 1316 à 1378**(Paris, E. de Boccard, 1941).

R. DE ROOVER, **Money Banking and Credit in Medieval Bruges. Italian Merchant-Bankers, Lombards and Money-Changers, a study in the Origins of Banking** (Cambridge, Mass., The Medieval Academy of America, 1948).

R. DE ROOVER, **The Medici Bank, its organisation, management, operations and decline** (New-York, Business History-Series, 1948).

R. DE ROOVER, **L'évolution de la lettre de change, XIV° - XVIII° siècles** (Paris Colin, 1953).

S. d'IRSAY, **Histoire des Universités françaises et étrangères**, t. I, **Moyen Age et Renaissance** (Paris, A. Picard, 1933).

L. FEBVRE et collaborateurs, **Leonard de Vinci et l'expérience scientifique au XVI° siècle** (Paris, P.U.F., 1953).

Commandant LEFEBVRE DES NOETTES, **De la marine antique à la marine moderne. La révolution du gouvernail** (Paris, Masson, 1935).

J. SOTTAS, **Les messageries maritimes à Venise aux XIV° et XV° siècles** (Paris, Société d'Editions géographiques, 1938).

F. LOT, **L'art militaire et les armées au Moyen Age** (Paris, Payot, 2 vol., 1946).

P. PIÉRI, **Il Rinascimento et la crisi militare italiana** (Turin, Einaudi, 1952).

J. ALAZARD, **L'art italien**, t. II, **le Quattrocento** (Paris, Laurens, 1951).

F. ANTAL, **Florentine Painting and its social Background. The Bourgeois Republic before Cosimo de Medici's advent to power, XIV and early XV centuries** (Londres, Kegan Paul, 1948).

G. PAPARELLI, **Enea Silvio Piccolomini (Pio II)** (Bari, Laterza, 1950).

PH. MONNIER, **Le Quattrocento, essai sur l'histoire littéraire du XV° siècle italien** (Paris, Perrin, 2 vol., 1901).

E. GARIN, **Il Rinascimento, Significato e limiti** (Florence, 1953).
A. CHASTEL, **L'art florentin et l'humanisme platonicien** (Paris, E. Droz, 1954)
A. RENAUDET, **Laurent le Magnifique**, dans **Hommes d'Etat, t.** II (Paris, Desclée de Brouwer, 1936).
P. FIERENS, **Histoire de la peinture flamande** (Paris, Van Oest, 3 vol., 1927-1930).
O. CARTELLIERI, **La cour des ducs de Bourgogne, trad. franç.** (Paris, Payot, 1946).
C. R. BEAZLEY, **The Dawn of Modern Geography. A History of Exploration and Geographical Science** (New York, Murray, 2e éd., 3 vol., 1949).
L.R. NOUGIER, J. BEAUJEU et M. MOLLAT, **Histoire universelle des explorations,** t. I, **De la préhistoire à la fin du Moyen Age** (Paris, Nouvelle Librairie de France, 1955).
CH. DE LA RONCIERE, **La découverte de l'Afrique au Moyen Age. Cartographes et explorateurs** (Le Caire, Société royale de Géographie d'Egypte, 2 vol. 1925-1927).

٣ ـ الشرق الادنى

Histoire Générale des religions, publiée sous la direction de M. GORCE et R. MORTIER (Paris, Quillet, 5 vol., 1944-1951).
Histoire générale des arts (Paris, Quillet, 2 vol., 1950).
A. R. LEWIS, **Naval Power and Trade in the Mediterranean, A.D. 500-1100** (Oxford, University Press, 1951).
R. GHIRSHMAN, **L'Iran des origines à l'Islam** (Paris, Payot, 1951).
A. CHRISTENSEN, **L'Iran sous les Sassânides** (Paris, Geuthner, 2e éd., 1944).
E. STEIN, **Histoire du Bas-Empire,** t. II, **De la disparition de l'Empire d'Occident à la mort de Justinien,** trad. franç. (Paris, et Bruxelles, Desclée de Brouwer, 1940).
L. BRÉHIER, **Le monde byzantin** (Paris, A. Michel, 3 vol., 1947-1950).
G. OSTROGORSKY, **Geschichte des byzantinischen Staates** (Munich, Beck, 2e ed. 1952).
A. A. VASILIEV, **Histoire de l'Empire byzantin,** trad. franç. (Paris, A. Picard, 2 vol., 1932).
G. BRATIANU, **Etudes byzantines d'histoire économique et sociale** (Paris, Geuthner, 1938).
G. OSTROGORSKY, **Pour l'histoire de la féodalité byzantine,** trad. franç. (Bruxelles, Institut de Philologie et d'histoire orientales et slaves, 1954).
G. ROUILLARD, **La vie rurale dans l'Empire byzantin** (Paris, A. Maisounenne, 1953).
S. RUNCIMAN, **La civilisation byzantine, 330-1453,** trad. franç. (Paris Payot, 1934).
S. RUNCIMAN, **Le manichéisme médiéval,**trad. franç. (Paris, Payot, 1949).
CH. DIEHL, **Manuel d'art byzantin** (Paris, A. Picard, 2e éd., 1925). **L'Histoire de l'art byzantin,** publiée sous la direction de CH. DIEHL :
— t. I, CH. DIEHL, **La peinture byzantine** (Paris, Edition d'art et d'histoire, 1933).
— t. II, CH. EBERSOLT, **Monuments d'architecture byzantine** (1943).
— t. III, L. BRÉHIER, **La sculpture et les arts mineurs byzantins** (1936).
P. LEMERLE, **Le style byzantin** (Paris, Larousse, 1943).
A. GRABAR, **La peinture byzantine. Etude historique et critique** (Genève Skira, 1953).
A. BON, **Le Péloponèse byzantins jusqu'en 1204** (Paris, P.U.F., 1951).
O. TAFRALI, **Thessalonique au XIVe siècle** (Paris, Geuthner, 1913).
R. GROUSSET, **Histoire de l'Arménie jusqu'en 1071** (Paris, Payot, 1947)
H. PASDERMADJIAN, **Histoire de l'Arménie depuis les origines jusqu'au traité de Lausanne** (Paris, H. Samuelian, 1949).

S. DER NERCESSIAN, **Armenia and the Byzantine Empire, A brief study of Armenian art and civilisation** (Cambridge, Mass., Harvard University Press, 1947).

J. BALTRUSAITIS, **Etudes sur l'art médiéval en Géorgie et en Arménie** (Paris, E. Leroux, 1929).

A. MANVALISHVILI, **Histoire de Géorgie** (Paris, Toison d'Or, 1951).

J. LASSUS, **Sanctuaires chrétiens de Syrie. Essai sur la genèse, la forme et l'usage liturgique des édifices du culte chrétien en Syrie du IIIe siècle à la conquête musulmane** (Paris Geuthner, 1944).

A. KAMMERER, **La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquite. Essai d'histoire et de géographie historique** (Le Caire, Société royale de Géographie d'Egypte, 2 vol., 1935).

J. M. COUBLEAUX, **Histoire politique et religieuse de l'Abyssinie depuis les temps les plus reculés jusqu'à l'avènement de Ménélik II** (Paris, Geuthner, 1929).

C. ROTH, **Histoire du peuple juif,** trad. franç. (Paris Payot, 1948).

G. VAJDA, **Introduction à la pensée juive du Moyen Age** (Paris, Vrins, 1947).

G. G. SCHOLEM, **Les grands courants de la mystique juive : la Merkeba, la Gnose, la Kabbale, le Zohar, le Sabbatianisme, le Hassidisme,** trad. franç. (Paris, Payot, 1950).

L. NIEDERLÉ, **Manuel de l'Antiquité Slave** (Paris, Champion, 2 vol., 1923-1926).

F. DVORNICK, **Les Slaves, Byzance et Rome au IXe siècle** (Paris, Champion, 1926).

J. JIRICECK, **La civilisation serbe au Moyen Age,** trad. franç., (Paris Bossard, 1920).

S. RUNCIMAN, **A History of the first Bulgarian Empire** (Londres, Bell, 1930).

A. GRABAR, **Recherches sur les influences orientales dans l'art balkanique** (Paris, Les Belles-Lettres, 1928).

R. GROUSSET, **Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem** (Paris, Plon, 3 vol., 1934-1936).

S. RUNCIMAN, **A History of the Crusades** (Cambridge, University Press, 3 vol., 1951-1954).

J. RICHARD, **Le royaume latin de Jérusalem** (Paris, P.U.F., 1953).

J. LONGNON, **L'Empire latin de Constantinople et la principauté de Morée** (Paris, Payot, 1949).

P. MILIOUKOV, CH. SEIGNOBOS et L. EISENMANN, **Histoire de Russie,** t. I (Paris, É. Leroux, 1935).

C. STAHLIN, **La Russie des origines à la naissance de Pierre le Grand,** trad. franç. (Paris, Payot, 1946).

G. VERNADSKY et M. KARPOVICH, **A History of Russia**(3 vol. parus (Oxford, University Press, 1946-1953).

P. L. LYASCHENKO, **History of the National Economy of Russia to the 1917 Revolution** (New York, Macmillan, 1949).

A. ECK, **Le Moyen Age russe** (Paris, Maison du Livre étranger, 1933).

L. RÉAU, **L'art russe, t. I. Des origines à Pierre le Grand** (Paris, Laurens, 1921).

G. HARDY, **Vue générale de l'histoire d'Afrique** (Paris, Colin, 5e éd., 1948).

L. FROBENIUS, **Histoire de la civilisation africaine,** trad. franç., (Paris, Gallimard, 1952).

٤ ـ الاسلام

J. SAUVAGET, **Introduction à l'histoire de l'Orient musulman, éléments de bibliographie** (Paris, Maisonneuve, 2e éd., 1946).

M. GAUDEFROY-DEMOMBYNES et S. PLATONOV, **Le monde musulman et by-**

zantin jusqu'aux Croisades (Paris, É. de Boccard, 1931).
C. BROCKELMANN, **Histoire des peuples et des Etats islamiques depuis les origines jusqu'à nos jours,** trad. franç. (Paris, Payot, 1949).
PH. K. HITTI, **History of the Arabs** (Londres, Macmillan, 4° éd., 1949).
Encyclopédie de l'Islam (Leyde, Brill, et Paris, Picard, 4 vol. et 1 supplément, .1913-1935 ; 2° éd., 4 fasc. parus (lettre A), 1954-1955).
G. RYCKMANS, **Les religions arabes préislamiques** (Louvain, Publications Universitaires, 1951).
H. LAMMENS, **L'Arabie occidentale avant l'Hégire,** t. I seul paru (Rome, Institut biblique, 1914).
TOR ANDRAE, **Mahomet, sa vie et sa doctrine,** trad. franç. (Paris, Maisonneuve, 1945).
É. DERMINGEM, **La vie de Mahomet** (Paris, Plon, 6° éd., 1950).
R. BLACHÈRE, **Le problème de Mahomet** (Paris, P.U.F., 1952).
A. WIET, **L'Egypte arabe. De la conquête arabe à la conquête ottomane, 642-1517 de l'ère chrétienne,** formant, le t. IV de **l'Histoire de la nation égyptienne** dirigée par G. HANOTAUX (Paris, Plon, 1937).
H. LAMMENS, **La Syrie, précis historique** (Beyrouth, Imprimerie Catholique, 2 vol., 1921).
PH. K. HITTI, **History of Syria, including Lebanon and Palestine** (Londres, Macmillan, 1951).
M. CANARD, **Histoire de la dynastie des H'amdanides de Jazirâ et de Syrie,** t. I seul paru (Alger, la Typo-Litho, 1951).
G. MARÇAIS, **La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age** (Paris, Aubier, 1946).
CH.-A. JULIEN, **Histoire de l'Afrique du Nord,** t. II, 2° éd. revue par R. LE TOURNEAU (Paris, Payot, 1951).
H. TERRASSE, **Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français** (Casablanca, Editions Atlantides, 2 vol., 1949-1950).
R. BRUNSCHVIG, **La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XV° siècle** (Paris, Maisonneuve, 2 vol., 1940-1947).
E. LÉVI-PROVENÇAL, **Histoire de l'Espagne musulmane** (Paris, Maisonneuve, 3 vol. parus, 1944-1953).
A. GONZALEZ -PALENCIA, **Historia de la Espana musulmana** (Barcelone, éd. Labor, 3° éd., 1932).
B. SPULER, **Iran in früh — islamischer Zeit. Politik, Kultur, Verwaltung, und offentliches Leben zwischen der arabischen und der seldschukischen Eroberung** (Wisebaden, Steiner, 1952).
Du même, **Die Mongolen in Iran** (Leipzig, Heinrichs, 1939).
W. BARTHOLD, **Turkestan down to the Mongol Invasion,** trad. anglaise (Oxford, University Press, 2° éd., 1928).
Du même, **Histoire des Turcs d'Asie centrale,** trad. franç. (Paris, Maisonneuve, 1945).
L. BOUVAT, **L'Empire mongol, 2° phase,** formant le t. VIII, 3, de **l'Histoire du monde** dirigée par E. CAVAIGNAC (Paris, A. de Boccard, 1927).
F. KOPRULU, **Les origines de l'Empire Ottoman,** vol. 3 des **Etudes orientales** publ. par l'Institut français d'archéologie de Stamboul (Paris, É. de Boccard, 1935).
F. BABINGER, **Mahomet II le Conquérant et son temps,** trad franç. (Paris, Payot, 1954).
A. MEZ, **Die Renaissance der Islam** (Heidelberg, 1922).
M. GAUDEFROY-DEMOMBYNES, **Les institutions musulmanes** (Paris, Flammarion, 5° éd., 1950).
J. SCHACHT, **Esquisse d'une histoire du droit musuman** (Paris, 1952).
L. GARDET, **La cité musulmane, vie sociale et politique** (Paris, Vrin, 1954).

ALI MAHAZERI, **La vie quotidienne des Musulmans au Moyen Age** (Paris, Hachette, 1950).

J. SAUVAGET, **Alep, essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX° siècle** (Paris, Geuthner, 1941).

R. LE TOURNEAU, **Fès avant le protectorat, étude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman** (Rabat, Institut des Hautes Etudes marocaines, 1949).

E. S. TRITTON, **The Caliphs and their non-muslim subjects** (Oxford, University Press, 1930).

MOHSEN AZIZI, **La domination arabe et l'épanouissement du sentiment national en Iran** (Paris, Presses modernes, 1938).

A. LAMBTON, **Landlord and Peasant in Persia, a study of land tenure and land revenue administration** (Oxford University Press, 1953).

H. MASSÉ, **L'Islam** (Paris, Colin, 2° éd., 1948).

L. GOLDZIHER, **Le dogme et la loi de l'Islam,** trad. franç. (Paris, 1921).

Du même, **Etudes sur la tradition islamique,** trad. franç. (Paris, Maisonneuve, 1952).

L. GARDET et ANAWATI, **Introduction à la théologie musulmane, essai de théologie comparée** (Paris, Vrin, 1948).

A. J. ARBERRY, **Le soufisme, introduction à la mystique musulmane** (Paris, Cahiers du Sud, 1952).

T. W. ARNOLD, **The Preaching of Islam** (Oxford, University Press, 1951).

A. MIELI, **La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale** (Leyde, E. J. Brill, 1938).

DE LACY O'HEARY, **How Greek Science passed to the Arabs** (Oxford, University Press, 1951).

G. QUADRI, **La philosophie arabe daus l'Europe médiévale des origines à Averroès,** trad. franç. (Paris, Payot, 1947).

R. BLACHÈRE, **Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XV° siècle,** t. I seul paru (Paris, Maisonneuve, 1952).

C. NALLINO, **La littérature arabe des origines à l'époque de la dynastie Umayyade** (Paris, Maisonneuve, 1950).

J. M. ABD EL-JALIL, **Brève histoire de la littérature arabe** (Paris, Maisonneuve, 1943)

H. PERES, **La poésie andalouse en arabe classique au XI° siècle, ses aspects généraux et sa valeur documentaire** (Paris, Maisonneuve, 2° éd., 1953).

G. MARÇAIS, **L'architecture musulmane d'Occident : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile** (Paris, Arts et Métiers graphiques, 1954).

CRESWELL, **Early Muslim Architecture** (Oxford, University Press, 2 vol., 1932-1940).

Du même, **Muslim Architecture of Egypt** (Oxford, University Press, 1952).

L. HAUTECŒUR et G. WIET, **Les mosquées du Caire** (Paris, Leroux, 2 vol. 1932).

H. TERRASSE, **L'art hispano-mauresque des origines au XIII° siècle** (Paris, Van Oest, 1932).

A. U. POPE, **A Survey of Persian Art from préhishoric times to the present** (Oxford, University Press, 7 vol. 1938-1939).

A. GABRIEL, **Monuments turcs d'Anatolie** (Paris, 2 vol., 1931-1934).

٥ ـ آسيا الشرقية

G. FERRAND, **Relations de voyages et textes géographiques arabes, persans et turks** (Paris, Leroux, 1913).

R. GROUSSET, **Sur les traces de Bouddha** (Paris, Plon, 1929).

WATTERS, **On Yuan-Chwang's Travels in India,** 2 vol. (Londres, 1904-1905).

Y. TAKAKUSU, **A Record of the Buddhist Religion as practised in India and Malay** Archipelgo by I-tsing (Oxford 1896).

I - TSING, **Mémoire composé à l'époque de la grande dynastie des T'ang sur les religieux éminents qui allèrent chercher la loi dans les pays d'Occident,** trad. ED. CHAVANNES (Paris, Leroux, 1894).

L. RENDU, J. FILLIOZAT, P. MEILE, A.-M. ESNOUL et L. SILBURN, **L'Inde classique,** t. I. (Paris, Payot, 1947-49).

L. RENDU et Y. FILLIOZAT, **L'Inde classique,** t. II (Paris-Hanoi, 1953).

L. De LA VALLÉE-POUSSIN, **Dynasties ethistoire de l'Inde depuis Kanushka jusqu'aux invasions musulmanes,** t. VI, 2, **de l'Histoire du monde,** dir. CAVAIGNAC (Paris, E. de Boccard, 1935).

R. MOOKERJI, **Harsha** (Calcutta-Oxford, 1925-1926).

J. PRASAD, **L'Inde du VII^e au XVI^e siècle,** t. VIII de **l'Histoire du monde,** dir. CAVAIGNAC (Paris, E. de Boccard, 1930).

L. RENDU, **La civilisation de l'Inde ancienne** (Paris, Flammarion, 1950).

J. CHANDRA JAIN, **Life in Ancient India as depicted in the Jain Canons** (Bombay, 1947).

B. S. UPADHYAYA, **India in Kâlidâsa** (Allahabad, 1947).

P. SENGUPTA, **Everyday Life in Ancient India** (Oxford, Univ. Press, 1950).

P. MASSON-OURSEL, **Esquisse d'une histoire de la philosophie indienne** (Paris, Geuthner, 1932).

R. GROUSSET, **Les philosophies indiennes, Les systèmes,** 2 vol., (Paris, Desclée de Brouwer, 1931).

VASUBANDHU, **Abhidharma,** trad. L. DE LA VALLÉE-POUSSIN (Paris, Geuthner, 1931).

L. DE LA VALLÉE-POUSSIN, **Vasubandhu et Yaçomitra** (Londres, 1914-1918).

S. LÉVI, **Le théâtre indien** (Paris, É. Bouillon, 1890).

S. HARI CHAND, **Kâlidâsa et l'art poétique de l'Inde** (Paris, Champion, 1917).

A. COOMARASWAMY, **A History of Indian and Indonesian Art,** 2e éd., (Londres 1950).

J. AUBOYER, **Arts et Styles de l'Inde** (Paris, Larousse, 1951).

S. KRAMRISCH, **The Hindu Temple,** 2 vol. (Univ. de Calcutta, 1946).

R. D. BAUERJI, **Eastern Indian School of Mediaeval Sculpture** (Delhi, 1933).

H. MASPERO, **Etudes historiques** (Paris S.A.E.P., 1950).

R. WILHELM, **Histoire de la civilisation chinoise** (Paris, Payot, 1931).

W. BINGHAM, **The Founding of the T'ang Dynasty** (Baltimore, 1942).

C. P. FITZGERALD, **Li Che-min** (Paris, Payot, 1935).

R. DES ROTOURS, **Traité des Examens** (Nouvelle histoire des T'ang) Paris, Leroux, 1932).

Du même, **Traité des fonctionnaires et Traité de l'armée** (Nouvelle histoire des T'ang) (Leyde, Brill, 1947-48).

TCHÉOU HOAN, **Le prêt sur récolte et Wang Ngan-che** (Paris, 1930).

H. MASPERO, **Les religions chinoises** (Paris, S.A.E.P., 1950).

Du même, **Le Taoïsme** (Paris, S.A.E.P., 1950).

MARGOULIES, **Le Kou-win** (Paris, Geuthner, 1926).

Du même, **Anthologie raisonnée de la littérature chinoise** (Paris, Payot, 1948).

R. GROUSSET, **La Chine et son art** (Paris, Plon, 1951).

M. PAUL-DAVID, **Arts et styles de la Chine** (Paris, Larousse, 1951).

P. PELLIOT, **La Haute Asie** (s.l.n.d., 1931).

A. FOUCHER, **La vieille route de l'Inde; De Bactres à Taxila,** 2 vol. (Paris, Ed. d'Art et d'Hist. 1942-47).

A. GODARD, Y. GODARD et J. HACKIN, **Les antiquités boudhiques de Bâmiyân** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1925).
MURDOCH, **History of Japan,** 3 vol. (Londres 1925-26)
J. HACKIN et J. CARL, **Nouvelle recherches archéologiques à Bamyân** (Paris, Van Oest, 1933).
MURDOCH, **History of Japan** 3 vol. (Londres, 1925-26).
G. B. SANSOM, **Le Japon** (Paris, Payot, 1938).
R. K. REISCHAUER, **Early Japanese History (ca B.C. 40 — A.D. 1167),** (Princeton, Univ. Press, 1937).
R. TSUNADA et L. CARRINGTON GOODRICH, **Japan in the Chinese Dynastic Histories** (South Pasadena, 1951).
W. G. ASTON, **Littérature Japonaise,** trad. H.-D. DAVRAY (Pàris, Colin, 1902).
J. BUHOT, **Histoire des arts du Japon,** t. I (Paris, Van Oest, 1949).
A. ECKARDT, **A History of Korean Art** (Londres-Leipzig, 1929).
G. GOEDES, **Les Etats hindonisés d'Indochine et d'Indonésie,** t. VIII, 2 de **l'Histoire du monde,** dir. CAVAIGNAC (Paris, E. de Boccard).
G. GROSLIER, **Recherches sur les Cambodgiens** (Paris, 1921).
G. COEDES, **Pour mieux comprendre Angkor** (Paris, Maisonneuve 1947).
G. DE CORAL REMUSAT, **L'art Khmer, Les grandes étapes de son évolution** (Paris, Ed. d'Art et d'Hist., 1940).
G. MASPERO, **Le royaume de Champa** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).
PH. STERN, **L'art du Champa et son évolution** (Toulouse, Douladoure, 1942).
R. S. LE MAY, **Buddhist in Siam** (Cambridge Univ. Press, 1938).
R. GROUSSET, **L'Empire des steppes** (Paris, Payot, 1939).
Du même, **L'Empire mongol (Première phase),** t. VIII, 3, de **l'Histoire du monde,** dir. CAVAIGNAC (Paris, E. de Boccard, 1941).
W. BARTHOLD, **Turkestan down to the Mongol Invasion** (Oxford University Press, 1928).
B. VLADIMIRTSOV, **Le régime social des Mongols,** trad. M. CARSOW, (Paris, A. Maisonneuve, 1948).
L. HAMBIS, Les fiefs attribués aux membres de la famille impériale... (Leyde, Brill, 1954).
F. GRENARD, **Gengis-Khan** (Paris, 1935).
B. VLADIMIRTSOV, **Gengis Khan,** trad. M. CARSOW (Paris, A. Maisonneuve, 1948).
Recueil de voyages et mémoires de la Société de Géographie de Paris, éd. d'Avezac (1838-39).
SIR HENRY YULE et H. CORDIER, **Cathay and the Way thither,** 4 vol. (Londres, 1915-16).
Des mêmes, **Description of the World,** 2 vol. (Londres, 1938).
L. HAMBIS, **Marco Polo, La description du monde, texte intégral,** (Paris, Klincksieck 1955).
W. W. ROCKHILL, **The Journey of William of Rubruch** (Londres, 1900).
Les voyages en Asie au XIV" siècle du Bienheureux Frère Odoric de Pordenone, éd. H. CORDIER (Paris, Leroux, 1891).
A. C. MOULE, **Christians in China before the Year 1550** (Londres, 1930).

مـراجع عربيـة

استكمالاً لجريدة المصادر الفرنجية ، وتتمة للبحث ، رأت « دار منشورات عويدات » في بيروت ، هنا أيضاً ، تكليف الاستاذ يوسف اسعد داغر ، الاختصاصي بفن المكتبات والخبير العالمي بالببليوغرافيا الشرقية من عربيـة واسلامية ، واحد المترجين لهذه الموسوعة التاريخية اعداد قائمة ببليوغرافية بالمراجع والمصادر التاريخية العربية التي تتعلق باهم مواد هذا الجزء الخاص بتاريخ القرون الوسطى . وقد لبى الاستاذ داغر رجاءنا ونزل عند رغبتنا فاعد هذه القائمة ، خدمة منه للبحث العلمي وتيسيراً لأسبابه وللباحثين في عالم الضاد ممن يهتمون بالدراسات التاريخية في هذا العهد من تاريخ البشرية الذي يمتد من أواخر القرن الرابع للميلاد ، في نظر البعض ، او من عام ٤٧٦ : تاريخ سقوط روما في يد ادواسر ، ملك الهيرول، في نظر البعض الآخر ، الى عام ١٤٥٣ تاريخ سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين في رأي بعض المؤرخين ، او الى عام ١٤٩٢ تاريخ اكتشاف العالم الجديد وسقوط غرناطة بيد الاسبان ، في رأي فريق آخر . فعسى ان يجـد الباحثون في هذه القوائم المختارة ما يغني بعض الشيء عن جهد التقصي والتقميش .

الشرق الاوسط

اولاً ـ الروم

اسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، جزآن بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ .

حبيب الزيات : الروم الملكيون في الاسلام ـ حريصا ، لبنان ، المطبعة البولسية ١٩٥٣ جزء ١

محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراتـه السياسية ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ص ١١٤ .

عمر فروخ : العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط ـ بيروت ، المكتب التجاري ١٩٥٩ ص ٢٠٦ .

ثانياً ـ الدولة الساسانية

ارثر كريستنسن : ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ صفحة ١ ـ ط + ٥٩١ .

استارجيان ، ل : تاريخ الامة الارمنية . وقائع من الشرقين الادنى والاوسط في ادوار الامبراطوريات الرومانية والبيزنطية والفارسية والعربية والعثمانية والروسية ، من القرن السابع قبل الميلاد الى نهاية الربع الاول من القرن العشرين من الميلاد ـ الموصل ، مطبعة الاتحاد الجديد ، ١٩٥١ ص ٤٠٤ .

الهند ـ المغول

احمد محمد الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم . جزآن . القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٥٩ .

رشيد الدين فضل الله الهمذاني : جامع التواريخ. المجلد الثاني . الجزء الاول ـ تاريخ المغول الايلخانيين، تاريخ هولاكو، مع مقدمة رشيد الدين . ترجمة محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد . القاهرة ، عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٠ ، صفحة ١ - س + ٣٨٣ .

فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ : من جنكيز خان الى هولاكو خان ـ القاهرة، دار القلم ، ١٩٦٠ ، صفحة ١ - س + ٢٧٩ .

عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام في الهند ـ القاهرة ، مكتبة دار العروبة ١٩٦٠ ، صفحة ١ - ل + ٤٨١ .

الرمزي ، م . م : تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ـ الطبعة الاولى ، اورنبورغ ، المطبعة الكريمية ١٩٠٨ ، جزآن .

محمد سعيد اسماعيل : بلاد الامام البخاري (تركستان) ماضيها وحاضرها ـ القاهرة، دار الزيني للطباعة والنشر ١٩٥٨ ص ١١٢ .

العصور الوسطى

كوبلاند ، ج. و وفينو جرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى في غربي اوروبا ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، طبعة ٣ ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨، ص ١ - ع + ١٤٠ .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح : اوروبا العصور الوسطى، ج ١ التاريخ السياسي ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ ص ١ ح ٦٩٩ ؛ و ج ٢ النظم والحضارة ، ١٩٥٨ ص ٣١٦ .

ديفيز ، هـ. و: اوروبا في العصور الوسطى،ترجمة عبد الحميد حمدي محمود ـ الاسكندرية، منشأة المعارف ، ١٩٥٨ ص ٢٨٤ .

فيشر ، هـ. ا. ل : تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ، جزآن، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني وابرهيم احمد العدوي ، طبعة ٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ص ٢٦٤ و ٢٦٧ - ٥٠٦ .

طرخان ـ ابرهيم علي : دولة القوط الغربيين ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨، ص ١ - هـ ١٨٩ ، خرائط .

عاشور ، سعيد عبد الفتاح ومحمد انيس: النهضات الاوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ ص ٢٩٢ ، طبعة ٢ ، ١٩٦٠ ص ٤٠٤ .

شكري ، محمد فؤاد : الصراع بين البورجوازية والاقطــاع ، جزآن ـ القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٨ .
خدوري ، مجيد : الصلات الديبلوماسية بين هارون الرشيد وشارلمان ـ بغداد ، مطبعة التفيض الاهلية ، ١٩٣٩ ، ص ٦١ .
محمود خليفة : اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شارلمان ـ بُولاق ، ١٢٦ ، ٣ أجزاء .

الجزيرة العربية

الدباغ ، مصطفى : جزيرة العرب ، موطن العرب ومهد الاسلام ـ بيروت ، دار الطليعــة ١٩٦٣ ج ٢ .
عزام ، عبد الوهاب : مهد العرب ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٦ ص ١٣٧ .
العقيلي ، محمد بن احمد : المخلاف السليماني او الجنوب العربي في التاريخ ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٠ ، ج ٢ ـ صور وخرائط .
وهبه ، حافظ : خمسون عاماً في جزيرة العرب ـ القاهرة ، البابي ١٩٦٠ ص ٣٠٧ .
حمزة ، فؤاد : قلب حزيرة العرب ـ القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٩٣٣ ص ٤٦٣ .
الريحاني ، امين : ملوك العرب او رحلة في البلاد العربية تشتمل على مقدمة وثمانية اقسام مزينة بالخرائط والرسوم ـ طبعة ثانية ـ بيروت المطبعة العلمية ١٩٢٩ جزآن .
كحالة ، عمر رضا : جغرافية شبه جزيرة العرب ـ دمشق ، مطبعة الترقي ١٩٤٥ ص ٥٩٧ .
الهمداني ابو محمد الحسن : صفة جزيرة العرب ـ ليدن ، بريل ١٨٨٤ ـ ١٨٩١ جزآن في ١ .

العرب قبل الاسلام

الالوسي ، السيد محمود : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ٣ أجزاء ، شرح محمــد بهجة الاثري ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ١٩٥٩ .
صلاح البكري : تاريخ حضرموت السياسي ، طبعة ٢ ـ القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٦ ص ١٤٨ .
نيلسن ، دتليف وفرتزهومل وغيرهما : التاريخ العربي القديم ، ترجمـه واستكمله فؤاد حسنين علي ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، ص ٣٦٩ .
تقي الدين ، محمد بن احمد بن علي الحافظ : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جزآن ـ القاهرة ، مكتبة النهضة الحديثة ١٩٥٧ .
محمد عبد الغني حسن : صراع العرب خلال العصور ـ القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثـة ، ١٩٦٠ ، ص ١٢٧ .

رينه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد الدوافلي ـ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٩ ص ٦٠ ؟ .
جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ، مراجعة وتعليق حسين مؤنس ـ القاهرة ، دار الهلال ١٩٥٨ ص ٢٨٦ .
جورج فضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ ص ١ ـ ح ٤١٥ .
علي مظهر : العصبية عند العرب في الجاهلية والاسلام حتى زوال دولة بني امية من المشرق القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٢٣ ص ٨٣ .
الجميل ، مكي : البداوة والبدو في البلاد العربية . دراسة لأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية ووسائل توطينهم ـ سرس الليان ، مركز تنمية المجتمع ، ١٩٦١ ص ٨٣ .

تاريخ الحضارة الاسلامية

هنري ماسيه : الاسلام ، ترجمة بهيج شعبان ـ منشورات عويدات بيروت ١٩٦٠ ص ٢٨٨ .
الفرد جيوم : الاسلام ، ترجمة محمد مصطفى هدارة وشوقي اليماني السكري ـ القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ ص ١ ١٩٥ .
حامد عبد القادر : الاسلام : ظهوره وانتشاره في العالم ـ القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٦ ص ٣٢٢ .
جمال الدين الرمادي : الاسلام في المشارق والمغارب ـ القاهرة ، مطابع الشعب ، ١٩٦٠ ص ١٢٠
محمد عبد الغني حسن : ابو مسلم الخراساني ـ القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٨ ص ٨٥ .
محمد احمد حسونة : اثر العوامل الجغرافية في الفتوح الاسلامية ـ القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠ ص ١٠٧ .
الدينوري ، ابو حنيفة احمد بن داود : الاخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ـ القاهرة ، عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٠ ، ص ١ ـ ذ ٤٦٧ .
الدينوري : الامامة والسياسة ـ القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٧ ، ص ١ ك ٢٢٠ و ٢٩٠ .
س . ا . ف . حسيني : الادارة العربية ، ترجمة ابرهيم احمد العدوي ـ القاهرة ، مكتبة الآداب ١٩٥٩ ، ص ١ ـ غ ٤٧٥ .
حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، ص ١ ـ هـ ٤٨٩ .
محمد خلف احمد : الاسلام والحضارة ـ القاهرة ، وزارة الارشاد القومي ، ١٩٥٦ ص ١٤٩ .
فتحي عثمان : اضواء على التاريخ الاسلامي ـ القاهرة ، دار العروبة ، ١٩٥٦ صفحة ٢٠٣ .

حسن ابرهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الافريقية وغربيها ـ القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٧ ، ص ١٧٩ .
حسن ابرهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي
ج ١ – الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والاندلس ـ القاهرة ، مكتبة النهضة ١٩٥٩ ص ١ – ل ٥٨١
ج ٢ – العصر العباسي الاول في الشرق ومصر والمغرب والاندلس – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ، صفحة ١ – ي ٤٩١ .
ج – ٣ العصر العباسي الثاني في الشرق ومصر والمغرب والاندلس – طبعة ٤ – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ١ – ع ٤٩٧ .
احمد شلبي – التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، جزآن – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ص ١ – ل ٢٧٦ و ٢٧٢ (عن الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية خلالها) .
جرجي زيدان – تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ١ – ٥ ، مراجعة حسين مؤنس – القاهرة ، دار الهلال ١٩٥٧ .
ف . بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، طبعة ٣ – القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٨ ص ١٥٨ .
يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية – ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة – القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨ . صفحة ١ – ط ٥٩٦ .
عبد المنعم ماجد – التاريخ السياسي للدولة العربية : عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٦ ، ص ٢٧٢ .
محمد لطفي جمعة : ثورة الاسلام وبطل الانبياء – القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص١٠٧٠
غوستاف جرونبوم : حضارة الاسلام ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة مكتبة مصر ١٩٥٦ ، ص ٥٠٩ .
غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ـ عيسى البابي الحلبي طبعة ٣ ، ٩٥٧ ص ٦٥٦ .
ي. جل : الحضارة العربية ، ترجمة ابراهيم احمد العدوي – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠ . صفحة ١ – ل ٣ ١٥٧ .
عبد المجيد ابراهيم هندي: حكومة عمر المثالية – القاهرة، مكتبة العالم العربي ١٩٥٨ ص١٤٢
محمد جمال الدين سرور – الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الاول والثاني بعد الهجرة – القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٠ ، ص ٣٧٠ .

محمد ضياء الدين الريس : الخراج في الدولة الاسلاميـــة حتى منتصف القرن الثالث الهجري او « التاريخ المالي للدولة الاسلامية » مع مقدمة عن دولتي الروم والفرس – القــاهرة مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٧ ، ص ٥٠٨ .

محمد شيت خطاب : قادة فتح العراق والجزيرة – القاهرة ، دار العلم ، ١٩٦٤ ص ٥٠٠

يوليوس فلهوزن : الخوارج والشيعة ، احزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الاسلام، ترجمة عبد الرحمن بدوي – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، صفحة ١ ل ٢٧٨ .

توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام . بحث في تاريخ نشر العقيــدة الاسلامية ، ترجمة وتعليق حسن ابراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ ص ٥١٥ .

احمد عطية الله : طارق بن زياد – القاهرة ، مكتبة دار التأليف ، ١٩٦٠ ص ٣١ .

عبد الخبير الخولي : طارق بن زياد – القاهرة ، دار التأليف ، ١٩٥٦ ص ٥٦ .

احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ – ٣ – القــاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ (الجزء الثالث يبحث في الفرق الدينية من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج) .

ظهر الاسلام ٤ اجزاء – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، الجزء الثالث يبحث في الحياة العقلية في الاندلس من فتح العرب لها الى خروجهم منها ويتكلم في الحركات الدينيـــة ، واللغوية والنحوية والادبية والفلسفية والتاريخية، والفنية – القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩، صفحة ١ – د ٣٣٥ .

فجر الاسلام : القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، عدة طبعات ، صفحة ١ – ع ٣٣٢ .

يوم الاسلام : القاهرة ، مؤسسة الخانجي ، ١٩٥٨ ص ٢٤٦ .

احسان عباس : العرب في صقلية : دراسة في التاريخ والادب – القــاهرة ، دار المعارف ١٩٥٩ ص ٣٣١ .

رو ، جون بول : الاسلام في الغرب . ترجمة نجدة هـــاجر وسعيد الغز – بيروت ، المكتب التجاري ، ١٩٦٠ ص ٣٢١ .

طه حسين : علي وبنوه – القــاهرة ، دار المعارف ١٩٥٦ ، ص ٣٠٢ .

طه حسين : الفتنة الكبرى ، ج ١ – عثمان – القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ، ٢٢٩ .

طه حسين : مرآة الاسلام – القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ص ٣١١ .

احمد عز الدين عبد الله خلف الله : غزوة أحد – طنطا ، المكتبة التجارية الاسلامية ، ١٩٥٩ صفحة ٢٢٢ .

محمد حميد الله الحيدر آبادي : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، طبعة ٢ – القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨ ، صفحة ٥٤٩ .

محمد احمد برانف : محمد واليهود – القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤٢ .

السيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠ ص ١٠٧ .
محمد عبد الغني حسن : موسى بن نصير ، فاتح الاندلس ـ القاهرة ، دار المارف ١٩٥٧ ص ٨٤ .
محمد عبد الغني حسن وعلى ابرهيم حسن : النظم الاسلامية ، طبعة ٢ ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ص أ ـ ن ٢٩٤ .
البيهقي ، ابو الفضل : تاريخ البيهقي ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٧ ، صفحة ٨١٢ .
عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٤ صفحة ٧٥ .
علي محمد راضي : عصر الاسلام الذهبي : المأمون العباسي ـ القاهرة ، الدار القومية ١٩٦٤ صفحة ١٥٤ .
محمد حلمي محمود : ابو بكر والوحدة ـ القاهرة ، الدار القومية ١٩٦٤ صفحة ٩٤ .
محمد طه محمود : دروس في التاريخ الاسلامي ومجمل شؤون الدولة العربية ـ القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٤ .

ج ١ ـ سيرة الرسول ، صفحة ٩٦ .
ج ٢ ـ تاريخ الخلفاء الراشدين ، صفحة ١٢٢ .
ج ٣ ـ تاريخ دولة بني امية ، صفحة ١٢٨ .
ج ٤ ـ تاريخ العباسيين صفحة ٢٠٨ .

الخلفاء

ابن الطقطقي ، محمد بن علي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ـ القاهرة ، مكتبة العرب ١٣٣٩ صفحة ٢٥١ .
ابن حزم ، ابو محمد علي بن احمد : جوامع السيرة وخمس رسائل اخرى ، تحقيق احسان عباس وناصر الدين الاسد ـ القاهرة ، دار المعارف ٤٧٢ صفحة .
ابن دحية ، ابو الخطاب : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، صححه وعلق عليه عباس العزاوي ، بغداد ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر ١٩٤٦ صفحة ج ـ ت ٣٠٥ .
الخضري ، محمد : اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ـ طبعة ٧ ـ القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٦٠ صفحة ٣٦٢ .
الذهبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد : دول الاسلام ـ حيدر آباد الدكن ، مطبعة دائرة المعارف النظامية ١٣٣٧ ، جزآن .

الروحي ، ابو الحسن : بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء ـ القاهرة ، صالح شكري ١٩٠٩ صفحة ٨٦ .

السيوطي ، جلال الدين : تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين الفائحين بأمر الامة من عهـــد ابي بكر الصديق الى عهد المؤلف سنة ٩١١ ـ القاهرة ، ١٣٥١ صفحة ٣٥١ .

السيد ، احمد : مفتاح الذهب ، تاريخ ملوك الاسلام وخلفاء العرب ـ القاهرة ، مطبعة المعارف ١٩١٠ صفحة ج - ح ١٣٥ .

الفيضي ، ابو البركات احمد فخر الدين : ارشاد العباد الى الغزو والجهاد - القاهرة ، المطبعـــة العامرة ١٣٣٦ صفحة ٢٥٠ .

الكلاعي ، ابو الربيع سليمان : الاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء ، اعتنى بتصحيحه هنري ماسيه ـ الجزائر ، كربونل ١٩٣١ .

النبهاني ، تقي الدين : الخلافة ، ابحاث من كتاب الشخصية الاسلامية لحزب التحرير . لا . ت. صفحة ١٧٢ .

١ ـ الخلفاء الراشدون

ابن العربي ، ابو بكر محمد : العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ... حققه وعلق حواشيه محب الدين الخطيب ـ القاهرة ، لجنة الشباب المسلم ١٣٧١ ص ٢٩٥ .

ابن قتيبة : تاريخ الخلفاء الراشدين ودولة بني امية المعروف بالامامة والسياسة ـ القاهرة مكتبة التجارية الكبرى ، جزآن في مجلد واحد .

بخيث ، عبد الحميد : عصر الخلفاء الراشدين ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣ ص ٣٢٤.

بخيث ، عبد الحميد : عصر الراشدين ـ القسم الاول ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٤، ص ٣٣٥ .

الصعيدي ، عبد المتعال : السياسة الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين ـ القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٦٢ ص ٣٧٤ .

العظم ، رفيق : اشهر مشاهير الاسلام في الحروب السياسية ـ طبعة ٢ ـ القاهرة ، مطبعـة هندية ١٩٠٥ جزآن .

النجار ، عبد الوهاب: الخلفاء الراشدون ـ القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٤٨ ص ٥٠٤.

الاربلي ، عبد الرحمن سنبط : خلاصة الذهب المسبوك ، مختصر من سير الملوك ـ طبعة اولى ـ بيروت ، مطبعة القديس جوارجيوس ١٨٨٥ ص ٢٣٨ ـ طبعة ثانيـــة ، بغداد ، مكتبة المثنى ١٩٦٤ صفحة ٣٢٣ .

الأمويون

ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم : الامامة والسياسة ـ القاهرة ، مطبعة الفتوح الادبية . ١٣٣١ هـ جزآن في مجلد واحد .

ابن قتيبة : تاريخ الخلفاء الراشدين ودولة بني امية المعروف بالامامة والسياسة ـ القاهرة، المكتبة التجارية ، جزآن في مجلد واحد .

ابو النصر ، عمر : الايام الاخيرة للدولة الاموية ـ بيروت المكتبة الاهلية ١٩٦٢ .

جعفر ، نوري : الصراع بين الامويين ومبادىء الاسلام ـ بغداد ، مطبعة الزهراء ، ١٩٥٦ صفحة ١٦٣ .

الخربوطلي : تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ، السياسى ، الاجتماعي ، الاقتصادي ـ القاهرة دار المعارف ، ١٩٥٩ صفحة ٤٤٩ .

المقريزي، ابو العباس احمد: النزاع والتخاصم فيما بين امية وهاشم ـ ليدن ، بريل ١٨٨٨ص٧٢.

المهايني ، رفيق ـ تاريخ الخلافة الاموية والعباسية والدول الاسلامية والعصور الوسطى في آوروبا ـ دمشق ، دار اليقظة العربية ، ١٩٤٦ صفحة ٣٥١ – خرائط .

النصولي ، انيس زكريا : الدولة الاموية في الشام – بغداد ، مطبعة دار السلام ١٩٢٧ ص ٣٦٠ .

صايغ ، انيس : الاسطول الاموي في البحر الابيض المتوسط – بيروت ، ١٩٥٦ ص ١٤٦ .

العدوي ، ابراهيم احمد: الامويون والبيزنطيون،البحر الابيض المتوسط بحيرة اسلامية – القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٣ صفحة ٢٨٤ – خرائط .

عبد السلام رستم : نظرات في التاريخ الاموي – القاهرة ، الدار القومية ، ١٩٦٤ ص ٩٠ .

العباسيون

اسحق ، رفائل بابو : احوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية – بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٦٠ صفحة ٢٨٣ .

الجومرد ، عبد الجبار : داهية العرب ابو جعفر المنصور ، مؤسس دولة بني العباس – بيروت دار الطليعة ١٩٦٣ صفحة ٤٦٢ .

الدوري ، عبد العزيز : دراسات في العصور العباسية المتأخرة – بغداد، شركة الرابطة ، ١٩٤٥ ص ٣٠٦ .

الدوري ، عبد العزيز : العصر العباسي الاول . دراسة في التاريخ السياسي والاداري والمالي بغداد ، مطبعة التفيض الاهلية ١٩٤٥ ص ٣٠٤ .

الشبيبي ، محمد رضا : مؤرخ العراق ابن الفوطي. بحث في ادوار التاريخ العراقي من مستهل العصر العباسي الى أواخر العصر المغولي – بغداد ، مطبعة التفيض ١٩٥٠ – ١٩٥٨ (١٣٧٠ –

١٣٧٨) جزآن .
الصولي ، ابو بكر محمد : اخبـــار الراضي المتقي بالله او تاريخ الدولة العباسية من ٣٢٢ – ٣٢٣ من كتاب الاوراق. عني بنشرة هيورت دن ـ القاهرة ، مطبعة الصاوي ١٩٣٥ من ٣٠٨.
مصطفى ، شاكر : في التاريخ العباسي – دمشق ، مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧ ج ١ .
الجومرد ، عبد الجبار : الاصمعي – حياته وآثاره – بيروت ، دار الكشاف ١٩٥٥ ص ٣٥٢ .
الجومرد ، عبد الجبار : عزة العرب من شيبان بن يزيد بن مزيد القائد الاعلى لدولة هارون الرشيد ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦١ ص ٣٤٦ – خريطة .
الجومرد ، عبد الجبار : هارون الرشيد – دراسة تاريخية اجتماعيــة سياسية – بيروت المكتبة العمومية ١٩٥٦ ، جزآن ٦٢٨ ص .
الرفاعي احمد فريد : عصر المأمون ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧ ، ٣ أجزاء .

الدولة الفاطمية

حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، طبعة ٢ – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ، ص ١ – ص ٧٤١ .
محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية – القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، طبعة ٢ ، ١٩٥٩ ص ٤٢٢ .
حسن سليمان محمود الجهمي : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن – القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٤٠٢ .
جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية (وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة) القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥٨ ، صفحة ٤٩٢
محمد جمـــال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ، صفحة ١ – م ٢٥١ .
يوسف بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – ١٢ جزء – القاهرة ، دار الكتب المصرية .
محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة – القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٧ ص ١٦٠ .
علي ابراهيم حسن: تاريخ جوهر الصقلي ، قائـــد المعز لدين الله الفاطمي ، طبعة ٢ – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٤ ص ١٥٢ .

الاندلس

ابن الخطيب ، لسان الدين : الاحاطة في اخبار غرناطة ، حققه وقدم له محمد عبد الله عنان –

القاهرة دار المعارف (١٩٥٥ – ذخائر العرب ١٤) .
ابن الخطيب ، لسان الدين : اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، صححه ووضع فهارسه ناشره محب الدين الخطيب – القاهرة المطبعة السلفية ١٣٤٧ ص ١٥٢ – مع صور وخريطة مطوية.
ابن الخطيب ، لسان الدين : تاريخ اسبانيا الاسلامية او كتاب اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال ـ الطبعة الثانية ـ بيروت، دار المكشوف ١٩٥٦ ص ١ – ل – ٣٧٠ .
ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس – مصر ، مطبعة التوفيق .
ابن عذاري المراكشي ، ابو عبد الله : البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب – نشر وتحقيق ج. س كولان وليفي – بروفنسال ، ليدن ، بريل ١٩٤٨ – ١٩٥١ ، ٣ أجزاء .
ارسلان ، الامير شكيب : الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية – طبعة اولى – المطبعة الرحمانية ١٩٣٦ ، جزآن .
البرقوقي : حضارة العرب في الاندلس – القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٢٣ ص ٢٠٠ .
حمودة علي محمد: تاريخ الاندلس السياسي والعمراني والاجتماعي – القاهرة ، دار الكتاب العربي ١٩٥٧ ص ٣٢٢ .
دوزي ، راينهارت: ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام ، ترجمة كامل كيلاني ـ القاهرة، البابي ، ١٩٣٣ ص ٤٤٦ .
العبادي، عبد الحميد: المجمل في تاريخ الاندلس – القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ٢١٦.
عبد البديع ، لطفي : الاسلام في اسبانيا – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ٣٠٧ .
عنان ، محمد عبد الله : دولة الاسلام في الاندلس – القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣ – ١٩٦٠ ، ٤ اجزاء في ٥ مجلدات .
كرد علي ، محمد : غابر الاندلس وحاضرها – مصر ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٣٣ ص ١٩٠
لين بول ، ستانلي : قصة العرب في اسبانيا ، ترجمة علي جارم – القاهرة ، مطبعة المعارف ومكتبتها ١٩٤٤ ص ٢٢٣ .
ماك كيب ، جوزيف : مدنية العرب في الاندلس ، ترجمة تقي الدين الهلالي – بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٥٠ ص ٨٢ ، مع صور .
المراكشي ، ابو محمد عبد الواحد : المعجب في تلخيص اخبار المغرب من لدن فتح الاندلس الى آخر عصر الموحدين ، مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من اخبار الشعراء ، صححه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العالمي – القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٤٩ ص ٤٢٠ .
مؤنس ، حسين : فجر الاندلس . دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامي الى قيام الدولة الاموية (٧١١ – ٧٥٦ هـ) القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ ص٧٣٦ .
النصولي ، انيس : الدولة الاموية في قرطبة – بغداد ، المطبعة العصرية ١٩٢٦ ج ١ .
ادهم ، علي : صقر قريش. دراسة لحياة الامير عبد الرحمن الاول الملقب بالداخل ، مؤسس الدولة

الاموية بالاندلس – القاهرة ، مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٣٨ ص ١٣٠ .
اشباخ ، يوسف : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة عبد الله عنان – القاهرة الخانجي ١٩٥٨ ص ٥٢٢
ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط – بيروت ، دار مكتبة الحياة ، لا . ت . ١٤٥ ص .
ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس . ترجمة عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حمدي – القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦ .
ليفي بروفنسال : الشرق الاسلامي والحضارة العربية في الاندلس – تطوان ، دار الطباعة المغربية ١٩٥١ ص ٣٩ .
ابراهيم انيس: المنصور الاندلسي – صفحات مجيدة من تاريخ اجدادنا العرب الامجاد ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ ص ٩ .
العدوي، ابرهيم احمد: الاسلام في غرب البحر المتوسط ـ القاهرة، دار المعرفة، ١٩٦٠ ص٣١١.

الشيعة

آل ابراهيم، حبيب : الحقائق في الجوامع والفوارق. كتاب يؤلف بين الشيعة والسنة على اساس التفاهم وضوء الدليل – صيدا ، مطبعة العرفان ١٩٣٨/٩٣٩ جزآن في واحد .
آل كاشف الغطاء ، محمد الحسني : اصل الشيعة واصولها ، الطبعة الثامنة – النجف ، المطبعة الحيدرية ١٩٥٥ ص ١٥١ .
الآملي ، السيد حيدر بن علي : الكشكول فيما جرى على آل الرسول – النجف ، المطبعة الحيدرية ١٣٧٢ ص ٢٠٢ .
احمد امين : المهدي والمهدية – مصر ، دار المعارف ١٩٥١ صفحة ١٢٦ (سلسلة اقرأ) .
الحر ، محمد بن الحسن : وسائل الشيعة ومستدركاتها ، وهو الجامع لكتاب وسائل الشيعة في احكام الشريعة – القاهرة ، مطبعة النجاح ١٩٥٧/٩٦١ ، ٥ اجزاء .
حسن ، سعد محمد ، المهدية في الاسلام منذ اقدم العصور حتى اليوم : دراسة وافية لتاريخها العقائدي والسياسي والادبي – القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٩٥٢ صفحة ٣٠٤ .
الحسني ، عبد الرزاق : تعريف الشيعة ـ صيدا ، مطبعة العرفان ، ١٩٣٣ صفحة ٨٠ .
الحسني، هاشم معروف: المبادىء العامة للفقه الجعفري ـ بيروت، دار النشر للجامعيين ص٤٢٤.
الحسيني ، هبة الدين : نهضة الحسين ـ النجف ، مطبعة النعمان ١٩٥٨ ص ١٤٣ .
الحلي ، ابو القاسم جعفر : شرائع الاسلام في الفقه الجعفري، تحقيق محمد جواد مغنية، بيروت، دار مكتبة الحياة . لا . ت. جزء واحد .
حميد ، عبد الحسيب طه : ادب الشيعة الى نهاية القرن الثاني الهجري ـ القاهرة ، مطبعة

السعادة ، ١٩٥٦ صفحة ٣٦٨ .
الخنيزي ، ابو الحسن علي : الدعوة الاسلامية الى وحدة اهل السنة والامامية ـ بيروت ، دار الفكر ١٩٥٦ .
دو نلدسن ، دوايت : عقيدة الشيعة وهو كتاب عن تاريخ الاسلام في ايران والعراق تعريب ع. م ـ القاهرة ، مكتبة الخانجي ١٩٤٦ ص ٣٩٨
السبيتي ، عبد الله : تحت راية الحق . في الرد على الجزء الاول من فجر الاسلام ـ طهران ١٩٤٥ ص ١٦٦ .
شبر ، عبد الله : حق اليقين في معرفة اصول الدين ـ النجف ، المطبعة الحيدرية ١٩٥٦ جزآن .
شرف الدين ، عبد الحسين : الى المجمع العلمي العربي بدمشق ـ صيدا ، مطبعة العرفان ١٩٥٠ ص ١٢٨ .
شرف الدين ، عبد الحسين : الفصول المهمة في تأليف الامة . ويليها الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء ـ طبعة ٣ النجف ، مكتبة النجاح ١٣٧٥ ص ٢٥٤ .
شرف الدين ، عبد الحسين : المراجعات ـ بغداد ، مكتبة الجامعة ١٩٤٦ ص ٣٧٣ .
الشيبي ، كامل مصطفى : الصلة بين التصوف والتشيع (رسالة جامعية) ـ بغداد مطبعة الزهراء ١٩٦٣/١٩٦٤ ، جزآن ص ٢٤١ و ٢٦٥ .
الطبري ، ابو جعفر محمد : بشارة المصطفى لشيعة المرتضى ـ النجف ، المطبعة الحيدرية ١٣٦٩ هـ ص ٣٦٩ .
الطوسي ، ابو جعفر محمد : امالي شيخ الطائفة ورئيس الفرقة الناجية ـ محمد بن الحسن الطويل جزآن في واحد .
الطويل ، محمد امين : تاريخ العلويين ـ اللاذقية ، مطبعة الترقي ١٩٢٤ ص ٤٧٨ .
عبد العال ، محمد جابر : حركات الشيعة المتطرفين واثرهم في الحياة الاجتماعية والادبية لمدن العراق ابان العصر العباسي الاول ـ القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٤ ص ٣٧١ .
فلهاوزن ، يوليوس : احزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الاسلام : الخوارج والشيعة . ترجمه عن الالمانية عبد الرحمن بدوي ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ٢٧٦ .
فلوتن ، غيرلوف ، فان : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم ـ القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٣٤ ص ١٦٧ .
المظفر ، محمد الحسين : تاريخ الشيعة ـ النجف ، مطبعة الزهراء ١٣٥٢ ص ٢٧٩ .
المظفر ، محمد الحسين : الشيعة والامامة ـ الطبعة ٢ النجف ، المطبعة الحيدرية ١٩٥١ ص ٧١ .
المظفر ، محمد الحسين : عقائد الشيعة ـ النجف ، المطبعة الحيدرية ١٩٥٤ ص ١١٩ .
مغنية ، محمد جواد : اهل البيت : منزلتهم ومبادؤهم ـ بيروت ، مكتبة الاندلس ١٩٥٦ ص ١٧٥ .
مغنية ، محمد جواد : الشيعة والحاكمون ـ بيروت ، المكتبة الاهلية ١٩٦١ ص ٢٢٣ .

مغنية ، محمد جواد : فضائل الامام علي : علمه ، جوده ، شجاعته ، صلاته ، بلاغته ، حروبه وغير ذلك ـ بيروت ، دار مكتبة الحياة ١٩٦٢ ص ٢٥٥ .
مغنية ، محمد جواد : مع بطلة كربلاء ـ بيروت ، المكتبة الاهلية ١٩٦٢ ص ١٥٠ .
مهدي ، محمود احمد : ما الفوارق بين السنة والشيعة ـ بيروت ، حمد ١٩٦٣ ص ٢٨٦ .
نعمة ، عبد الله : فلاسفة الشيعة : حياتهم ، آراؤهم ـ بيروت ، دار مكتبة الحيـــاة ، لا. ت ص ٦٣١ .
محفوظ ، حسين علي : تاريخ الشيعة ـ بغداد ، النجاح ١٩٥٨ ص ٩٢ .

الخوارج

ابو النصر ، عمر : الخوارج في الاسلام ـ بيروت ، مكتبة المعارف ١٩٤٦ ص ١٢٦ .
سليم ، محمد شريف : ملخص تاريخ الخوارج منذ ظهورهم الى ان شتت المهلب شملهم ـ القاهرة ، دار التقدم ١٩٢٤ ص ٢٧٩ .
عباس ، حسن رشيد : شعر الخوارج ـ بيروت ، دار الثقافة ١٩٦٢ ص ٢١٨ .
القلماوي ، سهير : ادب الخوارج في الشعر الاموي ـ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمـة والنشر ١٩٤٥ صفحة ١٥٢ .
تامر ، عارف : القرامطة : اصلهم ، نشأتهم ، تاريخهم ، حروبهم ـ بيروت ، دار الكاتب العربي صفحة ٢٩٢ .
الهاشمي ، الخطيب علي بن الحسين : وقعـــة النهروان والخوارج ـ طهران ، مطبعة الحيدري ١٣٧٢ صفحة ٢٠٦ .
ابن ابي الفضائل ، محمد : كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة . تقديم محمد زاهـــد الكوثري . نشره عزت البيطار ـ القاهرة ، مكتب نشر الثقافة الاسلامية ١٩٣٩ ص ٤٤ .

الحروب الصليبية

دار الكتب المصرية : نشرة بمراجع عن الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع ومعركة المنصورة ـ دار الكتب القاهرة ، ١٩٦٠ صفحة ١٥ ١٧ .
حسن حبشي ، مترجم : اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ـ القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٨ صفحة ١٣٣ .
حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ، طبعة ٢ ـ دار الفكر العربي ١٩٥٨ ، صفحة ٢٣٠ .
باركر ، ارنست : الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ صفحة ١ ـ ي ٢٨٠ .

ادوين جون ديفيز : فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، ترجمة زكي شنورة ـ القاهرة ، حلمي مراد ١٩٥٧ ص ٦٢ .
يوسف ، جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الاوسط ١٢٥٠ – ١٢٥٤ قضية فلسطين في عصر الحروب الصليبية ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٦ ص ٤١٢ .
شيس، عبد المنعم: معركة المنصورة (٦٤٧ – ٦٤٨ هـ – ١٢٤٩ – ١٢٥٠ م) ـ القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٠ ص ٤٠ .
عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية ـ الاسكندرية، مطبعة رويال ١٩٥٨ ص ١ ذ ٢٢١.
يوسف ، جوزيف نسيم : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ـ القاهرة ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٦٠ ص ١٢٧ .
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحروب الصليبية : صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ج ١ – ٢ ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ ص ٥٩٢ و ٨٣٠ .
السيد الباز العريني : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ج ١ ـ القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٤ ص ١٠٤٨ .

الحمدانيون

كيالي ، سامي : سيف الدولة وعصر الحمدانيين ـ حلب ، المطبعة الحديثة ١٩٣٩ ص ٢٣٥ .
الجندي، درويش: الشعر في ظل سيف الدولة ـ القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ص٣٣٦.
الشكعة ، مصطفى محمد : فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٨ ص ٥٦٢ .

الطولونية ، الدولة

حسن احمد محمود : حضارة مصر الاسلامية : العصر الطولوني ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ص ١ – و ٢٧٦ .
سيدة اسماعيل كاشف : مصر في عصر الولاة من الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونية القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ ، ص ٢٦١ .

الاخشيديون

كاشف ، سيدة اسماعيل : مصر في عصر الاخشيديين ـ القاهرة ، جامعة فؤاد الاول ، كلية الآداب ١٩٥٠ ص ٤١٨ .

كاشف ، سيدة اسماعيل : مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠ ، صفحة ٣٠٦ .

السلجوقية

ابن البيبي ، ناصر الدين يحيى : تواريخ آل سلجوق ـ ليدن ١٩٠٢ صفحة ٣٥٨ .
ابن النظام ، محمد بن محمد : العراضة في الحكاية السلجوقية ـ ليدن ، بريل ١٩٠٩ صفحة ١٧٨ (بالفارسية) .
حسنين ، عبد النعيم محمد : سلاجقة ايران والعراق ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ صفحة ٢١٦ .

الدولة الايوبية

نظير حسان سعداوي : جيش مصر في ايام صلاح الدين ـ القاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ صفحة ١٢١ .
ابو الشامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل شهاب الدين : الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق محمد حلمي احمد ـ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ صفحة ٣٢٦ .
السيد الباز العريني : مصر في عصر الايوبيين ـ القاهرة ، مطبعة الكيلاني الصغير ١٩٦٠ ، ص ١ ـ ج ٢٩٥ .
محمد سامي الدهان : الناصر صلاح الدين الايوبي ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ ص ١٥١ .
محمد عبد العزيز مرزوق : العصر اليوناني والروماني والعصر الاسلامي ، ج ٨ ، مج ٢ : الحياة الفنية في مصر الاسلامية من الفتح العربي الى الفتح التركي ـ القاهرة ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤ صفحة ٨٠ .
محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الاسلامي في العصر الايوبي ـ القاهرة ، دار القلم .

دولة المماليك

ابن اياس ، محمد بن احمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق وتقدمة وفهرسة محمد مصطفى ـ القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٠ صفحة ١٢ + ٤٩٢ .
فوزي جرجس : دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي ـ القاهرة ، الدار المصرية للكتب ١٩٥٨ ، صفحة ٣٧٠ .

محمد رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ٣ اجزاء في ٥ مجلدات ـ القاهرة ، مكتبة الآداب ١٩٥٦ .
سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ، صفحة ٢٤٧ .
ابراهيم علي طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢ - ١٥١٧) - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ صفحة ١ - ع ٣٧٥ .

الاتراك

عبد المنعم محمد حسنين : سلاجقة ايران والعراق ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ صفحة ٢١٦
بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ترجمة السعيد سليمان ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ صفحة ٢٦٤ .
سالم الرشيدي ، محمد الفاتح : القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٦ صفحة ٣٠٧ .
محمد انيس : الدولة العثمانيـــة والشرق العربي ١٥١٤ - ١٩١٤ ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ صفحة ٢٠٤ .

جدول زمني مقارن

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٣٧٩ — ٣٨٥		
٣٨٦		
٣٩٦ — ٣٩٨		
٣٩٨	مرسوم هونوريوس واركاديوس	حول الضيافة
٣٩٩		
٤٠٤ — ٤٢٤		
٤٠٥		
٤٠٦	الفندال والسويف يجتازون الرين	
٤٠٧ ؟	الحاميات الرومانية تجلو عن بريتانيا	
٤١٠	سقوط روما في أيدي « الاريك »	
٤١٢ — ٤٢٦	القديس اوغسطينوس يؤلف « مدينة الله » .	
٤١٤		
٤٢٠		
٤٢٤ — ٤٥٣		
٤٢٩	الفندال ينتقلون الى افريقيا الشمالية	
٤٣١		
٤٣٤		
حوالي ٤٣٥	تبشير ايرلندا بالانجيل	
٤٣٩		قانون ثيوضوسيوس
٤٤٥		
٤٤٥ — ٥١٠		
٤٤٦		

آسيا الشرقية	التواريخ
الهند : ولاية شاندراكوبتا الثاني . انطلاقة الادب (قاليداسا) . فتوحات اقليمية: كوجورات، كاليارار	٣٧٩ — ٣٨٥
اليابان : فتح كوريا الجنوبية.	٣٨٦
الصين الشمالية : الاتراك الطابغاتش او طو ـ با يؤسسون مملكة « وت »	٣٩٦ — ٣٩٨
	٣٩٨
سفر الحاج البوذي « فا ـ هيان » الى الهند	٣٩٩
رحلة الحاج « لشي ـ مونغ » .	٤٠٤ — ٤٢٤
اليابان : كاتب كوري يعلم الاحرف الصينية في البلاط	٤٠٥
	٤٠٦
الصين الشمالية : وفاة « فو ـ كيان »	٤٠٧ ؟
الصين : « التسن » يحققون فتوحات سريعة الزوال في منغوليا	٤١٠
	٤١٢ — ٤٢٦
الصين : عودة الحاج فا ـ هيان . تأسيس المعابد البوذية الاولى في يون ـ قانغ . ـ الهند : ولاية قوماراكوبتا الاول	٤١٤
الصين : تأسيس مملكة السونغ الاولين . بوذابهادرا ينقل الى الصينية نصوصاً هندية .	٤٢٠
رحلة الحاج « طا ـ يو » .	٤٢٤ — ٤٥٣
	٤٢٩
نهب « جنان » على ايدي « الشام »	٤٣١
فو ـ نان : ولاية قوندينيا الاول	٤٣٤
	حوالي ٤٣٥
	٤٣٩
الطو ـ با يستولون على لوب ـ نور	٤٤٥
دكن : الملوك فاكاتاكا يجهزون المغاور في اجانتا	٤٤٥ — ٥١٠
نهب عاصمة « الشام » على أيدي الصينيين .	٤٤٦

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
حوالي ٤٥٠		
٤٥١	غارة الهون على غاليا	مجمع خلقيدونيا يصدر حكمه على القائلين بالطبيعة الواحدة
٤٥٣	موت « أتيلا »	
٤٥٥		
٤٥٥ — ٤٨٤		الهون الهفتاليون في مرو وهيرات
٤٦٧ — ٤٦٩		
٤٧٠		
٤٧٥ — ٥٠٠		
٤٧٦	نهاية الامبراطورية الرومانية الغربية	
٤٧٨		
٤٧٩		
٤٨٠		
٤٨٤		
٤٨٦	كلوفيس يهزم سياغريوس ويقتله في سواسون	
حوالي ٤٩٠		
٤٩٣	تيودوريك ، ملك الاوستروقوط ، سيد ايطاليا	
٤٩٤		
٤٩٥ — ٥٠٦	تنصر كوفيس	
حوالي ٥٠٠		حركة مزدية في ايران
٥٠٢ — ٥٣٠		
٥٠٦	نشر مجموعة قوانين الاريك	
٥٠٧	كلوفيس يسحق الفيزيقوط في « فوية »	

آسيا الشرقية	التواريخ
اليابان : اعتماد أبجدية مستوحاة من الصين، يقظة فكرية ـ اليو ـ تشي في كابول وبختيار وبشاور. امبراطور الطو ـ با يحميّ البوذية ويعتنقها . اجمل مفاوو يون ـ قانغ .	حوالي ٤٥٠
	٤٥١
	٤٥٣
الهند : ولاية سكندا كوبتا الذي يصد الهون الهفتاليين .	٤٥٥
	٤٥٥ — ٤٨٤
الهند : تأسيس مدينة نالندا السلالية والجامعية . ولاية تومارا كوبتا الثاني .	٤٦٧ — ٤٦٩
الهند : تجزئة الامبراطورية الكوبتية .	٤٧٠
طورامانا الهوني، المقيم في غندهارا ، يضطهد البوذية ـ الفيداريون ينكمشون نحو بامير (جلجيت)	٤٧٥ — ٥٠٠
	٤٧٦
فونان : الملك فونديفيا (جايا فرمان) يدفع الجزية للصين ـ « تهنيد » البلاد	٤٧٨
الصين الجنوبية : سقوط السونغ الاولين ؛ ولاية التسي .	٤٧٩
لن ـ يي : سيطرة العبادة الشيفاوية . فو ـ نان : الراهب ناغاسينا يصل الى البلاط .	٤٨٠
فو ـ نان : جايا فرمان يستقبل ناغاسينا ويوفده الى كانتون .	٤٨٤
	٤٨٦
الهند : تأسيس مملكة فالابهي (فاتياوار وسوراشترا)	حوالي ٤٩٠
	٤٩٣
الصين : امبراطور الطو ـ با يؤسس (؟) لونغ ـ من .	٤٩٤
	٤٩٥ — ٥٠٦
الهون الهفتاليون في افغانستان والهند ؛ هدم الاديرة والابنية . ـ الهند : الشاتوكيا	حوالي ٥٠٠
شامبا : وفود الى الصين . ـ الهند : الهوني الهفتالي ميهيراكولا يتقدم حتى حوض الغانج . ـ الصين : سلالة ليانغ ؛ ولاية ليانغ ور تي .	٥٠٢ — ٥٣٠
فو ـ نان : ليانغ وو ـ تي يستدعي الراهب سنغابالا لترجمة الكتب المقدسة البوذية	٥٠٦
	٥٠٧

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٥١٠		
٥١١	مجمع اورليان ـ وفاة كلوفيس	
٥١٤		
٥١٥ — ٥٢٨		
٥١٦		
٥١٨ — ٥٢٢		
٥٢٣		
٥٢٤	تيودوريك يعدم « بويس »	
حوالي ٥٢٥	تأسيس الجمعية البندكتية في جبل كسينو	
٥٢٦	وفاة تيودوريك ـ تشييد كنيسة القديس فيتال في رافنا (حتى ٥٤٦)	
٥٢٧		ولاية جوستيليانوس
٥٢٩ — ٥٣٣		جمع قانون جوستينيانوس والمجموعة
٥٣٠		
٥٣٠ — ٥٣٧	الفرنجة يستولون على بروفنسا والتورنج والمملكة البورغندية	
٥٣٢		تمرد نيكا في القسطنطينية
٥٣٣		جيوش جوستيليانوس تستعيد افريقيا
٥٣٤		
٥٣٥		البيزنطيون يباشرون استعادة ايطاليا
٥٤٠		
٥٤٧	وفاة القديس بندكتوس	
٥٤٨		
٥٥٠		
٥٥٢		

آسيا الشرقية	التواريخ
الهند : تشييد معابد وأديرة في باداني ، اجانتا ، الخ . تأييد « الساتي في « أران »	٥١٠
	٥١١
فو ـ نان : وفاة جايافرمان . ولاية رودرا فرمان	٥١٤
الصين الشمالية : الامبراطورة « هو » تحمي البوذية وتزين لونغ ـ من	٥١٥ — ٥٢٨
اليابان تهاجم كوريا دون جدوى	٥١٦
الامبراطورة « هو » توفد الحاج سونغ ين » الى الهند	٥١٨ — ٥٢٢
الصين : تشييد معبد « سونغ ـ يو ـ سو » في هو ـ نان	٥٢٣
	٥٢٤
	حوالي ٥٢٥
	٥٢٦
	٥٢٧
	٥٢٩ — ٥٣٣
شامبا : الملك يتقبل التولية من الصين	٥٣٠
	٥٣٠ — ٥٣٧
	٥٣٢
	٥٣٣
الصين الشمالية : انقسام الـ « فاي » . ـ الهند : ميهيراكولا ينسحب الى كشمير بعد ان هزمه ملك « مالفا »	٥٣٤
الصين الشمالية : تجهيز المغارة الوسطى في لونغ ـ من	٥٣٥
كوريا تهزم اليابان مرة ثانية	٥٤٠
	٥٤٧
الراهب الهندي بارمارتا يأتي الى نانكين لترجمة نصوص هندية	٤٤٨
الصين الشمالية : سقوط « الفاي » في هو ـ نان (باي ـ تسي) . ـ الـ « تو ـ كيو » يصدرون الجوان ـ جوان وهزن تركستان الهفتاليين	٥٥٠
بعثة كورية تنقل تمثالاً لبوذا الى اليابان	٥٥٢

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٥٥٦		
٥٥٨		
٥٦٥		وفاة جوستينيانوس
٥٦٨ — ٥٧٢	اقامة اللمبارديين في ايطاليا	
حوالي ٥٧٠		اقامة « الآفار » في بانونيا
٥٧٣ — ٥٩٣	غريغوريوس اسقف تور	
٥٧٤		
٥٨١		
حوالي ٥٨٥		
٥٨٩	ملك الفيزيقوط ، بيكاريد يترك الاريوسية	
٥٩٠	ولاية غريغوريوس الكبير . ـ ظهور الرهبان الايرلنديين في غاليا	
٥٩٣		
٥٩٦	مهمة اوغسطينوس في بريطانيا العظمى	
٥٩٨		
آخر القرن السادس		
حوالي ٦٠٠		
٦٠٠ — ٦٥٠		اقامة البلغار والسلاف في البلقان
٦٠٥ — ٦١٨		
٦٠٦		
٦٠٧		
٦٠٩		
٦١٠	القديس كولمبانوس يؤسس دير « لوكسوي »	ولاية هيراكليوس
٦١٤		الساسانيون يستولون على اورشليم

آسيا الشرقية	التواريخ
الصين الجنوبية : سقوط الليانغ وولاية التشن	٥٥٦
الصين الشمالية : سقوط الناي في شن ـ سي (باي تشيو)	٥٥٨
	٥٦٥
	٥٦٨ – ٥٧٢
	حوالي ٥٧٠
	٥٧٣ – ٥٩٣
الصين : اضطهاد البوذية	٥٧٤
الصين : يانغ كيان يؤسس سلالة السوي في سي ـ نغان ـ فو	٥٨١
الهند : وفاة آخر كوبتا . ـ الفاردهانا يدافعون عن الحدود ضد الهون	حوالي ٥٨٥
	٥٨٩
الصين : السوي يعيدون الوحدة السياسية . نهاية عهد السلالات	٥٩٠
اليابان : ولاية الامبراطورة سويكو ؛ عظمة السوغا ؛ حكومة شوتوكو ـ تايشي	٥٩٣
	٥٩٦
فو ـ نان وتشن ـ لا تتحدان تحت سلطة الملك بهافافرمان	٥٩٨
الهند : تجهيز مغارة الفنتا	آخر القرن السادس
الهند : سلالة فاردهانا في تانشفار تحارب الهون	حوالي ٦٠٠
	٦٠٠ – ٦٥٠
الصين : ولاية يانغ ـ تي (سوي) . ـ رحلة الحاج واي ـ تسي . ـ تجميل لو ـ يانغ . ـ انشاء القناة الكبرى بين يانغ ـ تشيو ولو ـ يانغ	٦٠٥ – ٦١٨
الهند : ولاية هارشا . توسع مملكة البالافا في الجنوب ؛ تشييد مافاليبورام	٦٠٦
اليابان : تأسيس دير هوروجي . انطلاق العلوم والفنون الصينية	٦٠٧
دكن : ولاية بولاكشين الثاني ، مؤسس الامبراطورية الشالوكيا	٦٠٩
الصين : جرد انجاز الكتب المقدسة	٦١٠
	٦١٤

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٦١٦		
٦١٨		
٦٢٢		
٦٢٦		الهجرة
٦٢٧	تنصر « ادوين » ملك نورثمبريا	
٦٢٩	ولاية داغوبير	
٦٣٠		
٦٣٠ — ٦٨٢		
٦٣٢		وفاة محمد
٦٣٤ — ٦٥٠		استيلاء العرب على سوريا ومصر وما بين النهرين وايران
٦٣٥		
٦٣٦	وفاة ايزيديروس الاشبيلي	
٦٤٣		
٦٤٧		غزوات العرب الاولى في افريقيا الشمالية
٦٥٠		
٦٥٣	تنصر اللمبارديين	
٦٦٠		بداية الخلافة الاموية
٦٦٥		
٦٦٨		
٦٦٩	ثيودوروس ، اسقف كنتربري	
٦٧٥ — ٦٨٥		
٦٧٧ — ٦٨١		
٦٨٠	بيبين دي هرستال يصبح وزيراً في اوستراسيا	
٦٨٠ — ٧٠٠		العرب يحتلون بلاد البربر
٦٨٤		
٦٩٠ — ٧٣٤	ويليبرورد يبشر بلاد الفريز بالانجيل	
٧٠٧ — ٧٨١		
٧١١ — ٧١٣		العرب والبربر يحتلون اسبانيا
٧١٢		
٧١٣	لويتبراند ، ملك اللمبارديين	

التواريخ	آسيا الشرقية
٦١٦	تشن ـ لا : وفد الى الصين
٦١٨	الصين : ولاية التانغ . ضم الممالك الهندو ـ اوروبية في آسيا الوسطى
٦٢٢	
٦٢٦	الصين : ولاية تاي ـ تسونغ . توسع اقليمي
٦٢٧	تشن ـ لا : ولاية ايشانا فرمان
٦٢٩	
٦٣٠	ضم منغوليا الى صين التانغ . بدء رحلة الحاج هيوان ـ تسانغ
٦٣٠ — ٦٨٢	الصين تطرد الاتراك الى منغوليا وتخضعهم
٦٣٢	
٦٣٤ — ٦٥٠	
٦٣٥	كاهن نسطوري ايراني يشيد كنيسة في تشانغ ـ نغان . الاتراك الشاهيون المقيمون في قابيشا وغندهارا يحمون البوذية
٦٣٦	
٦٤٣	تاي ـ تسونغ يرسل وفداً الى هارشا
٦٤٧	
٦٥٠	التيبت : ولاية « سرونغ ـ بتسان ـ سغام ـ بو » وهو زوج امبرةملكية صينية واميرة نيبالية. الصين : تجهيز مغاور عديدة في لونغ ـ من
٦٥٣	
٦٦٠	
٦٦٥	صراع الصين ضد التيبت واتراك آسيا
٦٦٨	الصين تحتل كوريا
٦٦٩	
٦٧٥ — ٦٨٥	رحلة يي ـ تسنغ
٦٧٧ — ٦٨١	توحيد كوريا تحت ادارة مملكة سيلا
٦٨٠	
٦٨٠ — ٧٠٠	
٦٨٤	الصين : تجهيز مغاور عديدة في تيان لونغ ـ شان
٦٩٠ — ٧٣٤	
٧٠٧ — ٧٨١	اليابان : عهد نارا . انطلاقة الآداب والفنون
٧١١ — ٧١٣	
٧١٢	الصين : ولاية هيوان ـ تسونغ . عصر الآداب الذهبي : انطلاقة تشانغ ـ نغان
٧١٣	

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٧١٤ — ٧١٩	شارل مارتل يستولي على السلطة في شمالي غاليا	
٧١٧ — ٧١٨		العرب يحاصرون القسطنطينية مرة اخرى
٧١٩	بونيفاسيوس يبشر منطقتي هيس وتورنج بالانجيل	
٧٢٠		المسلمون يجتاحون الهند
٧٢١		
٧٢٢	بونيفاسيوس اسقف جرمانيا	
٧٢٤	تأسيس دير ريشنان	
٧٢٦		بروز مشادة الايقونات
٧٢٩		
٧٣٠		
٧٣٢	شارل مارتل يصد غارة اسلامية في بواتو	
٧٣٣		
٧٣٥	وفاة « بيد » المحترم	
٧٣٧		
٧٤١	وفاة شارل مارتل	
٧٤٢	بونيفاسيوس يتولى اصلاح الكنيسة الفرنسية	
٧٤٤		
٧٤٦		
٧٤٧	« بيبين له بريف » وزير اوحد	
٧٥٠		ولاية العباسيين
٧٥١	« بيبين له بريف » ملك الفرنجة في سواسون	رافنا تسقط في ايدي اللمبارديين
٧٥٤	بيبين ، الذي كرسه اسطفانوس الثاني ، يقود حملة على اللمبارديين في ايطاليا وفاة القديس بونيفاسيوس	
٧٥٧	ولاية « اوفا » ملك مرسيا (توفي ٧٩٦)	
٧٦٠		
٧٦٢		تأسيس بغداد
٧٦٤ — ٧٧٠		
حوالي ٧٦٥ — ٧٧٠		
٧٦٨	وفاة « بيبين له بريف »	
٧٧٠		
٧٧١	شارلمان ملك الفرنجة	

آسيا الشرقية	التواريخ
	٧١٤ — ٨١٩
	٧١٧ — ٧١٨
	٧١٩
تولية ملوك كشمير وكابيشا تأتيهم من الصين	٧٢٠
الصين تعقد الصلح مع الاتراك وتفرض حمايتها على آسيا الوسطى	٧٢١
	٧٢٢
	٧٢٤
	٧٢٦
الصينيون يصطدمون بالعرب في بخارى وسمرقند	٧٢٩
الهند : آل « برتيهارا » يعيدون انشاء امبراطورية « قانوج »	٧٣٠
	٧٣٢
الصين تنتصر لكشمير على العرب	٧٣٣
	٧٣٥
الصين : الانتصار الاول على التيبت	٧٣٧
	٧٤١
	٧٤٢
تأسيس امبراطورية الديكور (اتراك) في آسيا العليا	٧٤٤
الصين : الانتصار الثاني على التيبت	٧٤٦
	٧٤٧
الصين : بداية انحطاط التانغ. الهند : امبراطورية راشتراكوتا. تشييد « كلاسا الورا » في عهد كريشنا الارل (٧٥٨ - ٧٧٢؟). طرد التيبتيين من بامير . جاوا الوسطى : تشييد بارابودور	٧٥٠
العرب ، حلفاء التيبتيين يسحقون الصينين ؛ آسيا الوسطى كلها في قبضة المسلمين. آل« لو-لو »	٧٥١
في نان - تشاو يسحقون الصينيين	٧٥٤
	٧٥٧
جاوا الوسطى : ثبوت عبادة ال « لنغا » الملكية . الصين : انتصارات على البرابرة	٧٦٠
الصين : اعادة سلطة التانغ . التخلي عن التوسع الاقليمي . وفاة الشاعر « لي تاي - بو »	٧٦٢
اليابان : طبع النصوص البوذية	٧٦٤ — ٧٧٠
الهند : ولاية آل « بالا » . البنغال تغدو ملجأ البوذية	حوالي ٧٦٥ — ٧٧٠
	٧٦٨
الصين : وفاة الشاعر « توفو »	٧٧٠
	٧٧١

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٧٧٣ — ٨١٩		
٧٧٤	شارلمان ملك اللمبارديين	
٧٧٥ — ٨٠٩		العرب يستولون على كابيشا
٧٧٨	هزيمة رونسفو	
٧٨١		
٧٨٢	الكوينتوس في غاليا	
٧٨٣ — ٧٨٥	شارلمان يفتح الساكس	
٧٩٣	الغارات السكنديناڤية الاولى على انكلترا	
٧٩٤	الحكم على هرطقة التبني في مجمع فرنكفورت	
٧٩٦	شارلمان يخضع الافار	
٧٩٦ — ٨٠٥	تشييد كنيسة اكس	
٨٠٠	شارلمان يتوج امبراطوراً في روما	تنظيم الامارة الاغلبية في افريقيا ادريس الثاني يؤسس فاس
٨٠١	الفرنجة يستولون على برشلونة	
٨٠٢		
٨٠٦		غارة الاسماعيليين على كورسكا
٨٠٨		
٨٠٩		وفاة هارون الرشيد
حوالي ٨١٢		
٨١٣		انتصار البلغار على بيزنطية
٨١٤	وفاة شارلمان	
حوالي ٨٢٠	الغارات النورماندية على غاليا	وفاة الشافعي
حوالي ٨٢١	اجنهارد يضع « حياة شارل »	
٨٢٢		
٨٣٠ — ٨٣١		العرب يستولون على بالرمو
٨٣٣	اقالة « لويس التقي »	
٨٣٦ — ٨٤٠		
٨٤٠	وفاة « لويس التقي »	العرب يستولون « على « باري »
٨٤٣	مقاسمات فردان	العودة نهائياً الى تكريم الأيقونات في بيزنطة
٨٤٥	هنكمار اسقف « رمس »	
٨٤٦		هجوم اسماعيلي مفاجىء على روما

آسيا الشرقية	التواريخ
الصين : الكاتب لياو تسانغ ـ يوان	٧٧٣ — ٨١٩
	٧٧٤
	٧٧٥ — ٨٠٩
جاوا الوسطى : تكريس الشندي « كالاسان »	٧٧٨
اليابان : عهد ال « هلان » الاول (حتى ٩٦٧) . نفوذ ال « فوجيوارا » ، تقدم فكري وفني في كيوتو	٧٨١
	٧٨٢
	٧٨٣ — ٧٨٥
	٧٩٣
	٧٩٤
	٧٩٦
	٧٩٦ — ٨٠٥
	٨٠٠
	٨٠١
كمبوديا : جايا فرمان يؤسس الامبراطورية الخيرية وعبادة الاله الملك . تشييد معبد «كولن »	٨٠٢
	٨٠٦
الصين : استيلاء الاتراك ال « شا ـ تو » على الشمال الغربي	٨٠٨
	٨٠٩
الهند : سقوط ال « بلافا »	حوالي ٨١٢
	٨١٣
	٨١٤
	حوالي ٨٢٠
	حوالي ٨٢١
الصين تعقد الصلح مع التيبت	٨٢٢
	٨٣٠ — ٨٣١
	٨٣٣
الصين : نصوص الكلاسيكيين الكونفوشيوسيين تحفر على الحجر	٨٣٦ — ٨٤٠
آسيا العليا : الاتراك ال «كرغيز» يستولون على عاصمة الويكور قربلغاسوم ويملكوم في منغوليا	٨٤٠
	٨٤٣
الصين : اضطهاد البوذية والنسطورية	٨٤٥
	٨٤٦

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
حوالي ٨٥٠		ذروة حركة المعتزلة ـ تأسيس امارة كييف
٨٥٨	ولاية نقولا الاول	
٨٦٤		بدء كرازة كيرللس ومتوديوس في مورافيا تنصر البلغار
٨٦٧	السكندينافيون يستقرون في يورك	انشقاق فوتيوس ـ اوائل السلالة المقدونية
٨٦٨		وفاة الجاحظ. اوائل عهد الطولونيين في مصر
٨٧١	انكلترا : ولاية الفرد الكبير	
حوالي ٨٧٤		ايران : اوائل عهد السامانيين
٨٧٥		
٨٧٧		العراق : اندلاع ثورة الزنج
٨٧٨	تنصر ملوك الدانمرك	
٨٨٠		
٨٨٢		
٨٨٤		
٨٨٥	النورمنديون يحاصرون باريس . الفرد يحرر لندن	جيورجيا : اعلان الملكية البغراطية
٨٨٧	اقالة « شارل البدين »	
٨٨٨ — ٨٩٠		
٨٩٠		اندلاع ثورة القرامطة
٨٩٣		ولاية القيصر البلغاري سمعان
٩٠٠	غارات هنغارية على بافاريا	استيطان الهنغاريين في بانونيا. الاسماعيليون يستقرون في بروفنسا
٩٠٢ — ٩٦٥		
٩٠٧		
٩٠٨		عهد الامراء في بغداد
٩٠٩		الفاطميون يفتحون افريقيا الشمالية
٩١٠	تأسيس دير كلوني	
٩١١	معاهدة سان سير (على نهر الابت) تعترف بتوطن النورمنديين في حوض السين الاسفل	
حوالي ٩٢٠		
٩٢٣		وفاة الطبري . اعدام الحلاج
٩٢٩		اعلان خلافة قرطبة

آسيا الشرقية	التواريخ
	حوالي ٨٥٠
	٨٥٨
	٨٦٤
	٨٦٧
الصين : طبع مؤلف بوذي	٨٦٨
	٨٧١
	حوالي ٨٧٤
الصين : ثورة فلاحي هوانغ تشاو	٨٧٥
	٨٧٧
	٨٧٨
الصين : هوانغ تشاو يستولي على لو ـ يانغ	٨٨٠
الصينيون يستنجدن بالاتراك	٨٨٢
الصين : انتحار هوانغ تشاو	٨٨٤
	٨٨٥
	٨٨٧
الهند : الشولا يجهزون على البلافا. الامبراطورية الخميرية : ولاية ياشوفرمان. تأسيس مدينة انغكور	٨٨٨ — ٨٩٠
	٨٩٠
	٨٩٣
	٩٠٠
تجزئة الصين : السلالات الخمس	٩٠٢ — ٩٦٥
الصين : زوال نفوذ التانغ . الهند : ولاية سلالة راجبوت في مالفا . الشولا يهزمون البانديا	٩٠٧
	٩٠٨
	٩٠٩
	٩١٠
	٩١١
الصين : الكيتات المغوليون يحلون محل الكرغيز الاتراك في الشمال	حوالي ٩٢٠
	٩٢٢
	٩٢٩

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
٩٣٢		
٩٣٥		وفاة الاشعري
٩٣٦	ولاية اوتون الكبير	
٩٣٧	غارات هنغارية على « بري » وروما	
٩٤٥		اقامة النظام البويهي في بغداد
٩٤٧		
٩٤٨	همبورغ « عاصمة » البلدان السكندينافية	
٩٥٥	اوتون الكبير ينتصر على الهنغاريين في بافاريا	
٩٦٠		
٩٦٢	اوتون الكبير يتوج امبراطوراً . احداث مركز اساقفة في مغدنبورغ	
٩٦٧		
٩٦٩		فتح الفاطميين لمصر . تأسيس القاهرة
٩٧٢	اوائل تعليم جربير في « رمس » . تأسيس اسقفية براغ	طرد الاسماعليين من بروفنا
٩٧٢ — ١٠٠٨	ازدهار مدرسة لياج الاسقفية في عهد الاسقف نوتجر	
٩٧٣	وفاة اوتون الكبير	
٩٧٤		
حوالي ٩٧٥	تزيين كنيسة الاولد في وستمنستر	اندلاع الحروب الكبرى الاولى بين البيزنطيين والحمدانيين
٩٧٦		ولاية باسيليوس الثاني
٩٧٩		
٩٨٥	تنصير اسطفانوس ملك هنغاريا	
٩٨٧	انتخاب هوغ كابت ملكاً على فرنسا	
٩٨٩	اوائل حركة سلم الرب في الاكيتين	اهتداء فلادمير، امير كييف، الى المسيحية
٩٩١	غزوة الدانمركيين الكبرى لانكلترا	
٩٩٩	انتخاب جربر حبر اعظم (سيلفستروس الثاني) . اوتون الثالث يختار روما عاصمة له	
١٠٠٢		اسبانيا : وفاة ابن ابي عامر المنصور
١٠٠٥		
١٠٠٦ — ١٠١٩	تشييد نارتكس كنيسة سان فيليبير في تورنوس	
١٠٠٨ — ١٠٢١		
١٠٠٩	بدء نشاط المغامرين النورمنديين في ايطاليا الجنوبية	

التواريخ	آسيا الشرقية
٩٣٢	الصين : طبع المؤلفات الكلاسيكية الكونفوشيوسية
٩٣٥	
٩٣٦	الكيتات يستولون على بكين
٩٣٧	
٩٤٥	
٩٤٧	الصين : تجزئة اقليميـــة
٩٤٨	
٩٥٥	
٩٦٠	الصين : ولاية السونغ . استعادة الاراضي السليبة . انطلاقة الفنون والآداب . توسع الطباعة
٩٦٢	
٩٦٧	اليابان : عهد هيلان الثاني (حتى ١١٦٧) . افول شمس ال « فوجيوارا »
٩٦٩	
٩٧٢	
٩٧٢ — ١٠٠٨	
٩٧٣	الهند : آل « شالوكيا » (كاليانى) يحلون محل آل « راشتراكوتا » في مهاراشترا
٩٧٤	الهند : ولاية آل « سولانكي » (سلالة هندية) في قاتياوار
حوالي ٩٧٥	الهند : تجزئة امبراطورية كانوج
٩٧٦	
٩٧٩	الصين : امبراطورية السونغ (باستثناء بكين) تبلغ الذروة
٩٨٥	الهند : الامبراطورية الشولية تبلغ الذروة
٩٨٧	
٩٨٩	
٩٩١	الهند : سقوط بشاور في ايدي الاتراك الغزنويين
٩٩٩	
١٠٠٢	الامبراطورية الخميرية : سوريافرمان الاول . توسع اقليمي في « سيام »
١٠٠٥	تحالف امبراطورية كريفيجايا (سوماطرا وجاوا) والهند الجنوبية
١٠٠٦ — ١٠١٩	
١٠٠٨ — ١٠٢١	الهند : فتوحات محمود الغزنوي في الشمال
١٠٠٩	

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٠١٠		ايران : الفردوسي ينجز الشاهنامة
١٠١٢ – ١٠١٧		
١٠١٤ – ١٠١٨		باسيليوس الثاني يفتح بلغاريا
١٠١٥ – ١٠٣٥	امبراطورية كنوت الكبير الدانمركية	
١٠١٨ – ١٠٣٢	تشييد دير ريبولي	
١٠٢١		
قبل ١٠٢٥		بيزنطية تضم ارمينيا اليها
١٠٢٥ – ١٠٣٠		
١٠٢٧ – ١٠٢٨		
١٠٣٠	البوادر الاولى لحركة التكتل القروي في ايطاليا	
١٠٣٣	تكريس كنيسة سان ميشال في هيلدشيم	
حوالي ١٠٣٣ – ١٠٤٢		
١٠٣٦ – ١٠٦٨		
١٠٣٧		موت ابن سينا
١٠٤٠		انتصار السلجوقيين في دندخان
حوالي ١٠٤٢		
١٠٤٤		
١٠٤٤ – ١٠٧٧		
١٠٥١		غزوة هلالية في افريقيا الشمالية
١٠٥٤		انشقاق ميخائيل كيرولاريوس
١٠٥٥		دخول طغرل بك الى بغداد
١٠٥٩	اقرار حرية انتخاب البابا بمرسوم	
١٠٦٠	روبير جيسكار يبدأ فتح صقليا	
١٠٦٢ – ١٠٦٦	تشييد دير السيدات في كان	
١٠٦٣	حملة عسكرية مسيحية الى وادي الايبر	
١٠٦٤ – ١٠٦٥	غارات فردينان الاول على كوامبر وفاللس	
حوالي ١٠٦٥ – ١١٠٠	« انشودة رولان »	
١٠٦٦	غليوم النورمندي يفتح انكلترا	
١٠٦٨		

آسيا الشرقية	التواريخ
	١٠١٠
الهند : امبراطور شولا ، راجندرا ، يحتل سيلان ويهزم آل « كايلندرا » (جافا) في مضيق مالاكا وفي سومطرا	١٠١٢ – ١٠١٧
	١٠١٤ – ١٠١٨
	١٠١٥ – ١٠٣٥
	١٠١٨ – ١٠٣٢
الصين : صراع المثقفين	١٠٢١
	قبل ١٠٢٥
جاوا : خوض الحرب ضد الشولا	١٠٢٥ – ١٠٣٠
اليابان : وفاة فوجيوارا ميشيناغا ، حامي البوذية . نشوب الصراع بين آل « ميناموتو » وآل « فوجيوارا	١٠٢٧ – ١٠٢٨
شمبا : تحالف والامبراطورية الخيرية	١٠٣٠
امبراطور الشولا يرسل وفداً الى بلاد الصين	١٠٣٣
جاوا : ولاية لنغا « البالي » الاصل . توحيد جاوا الشرقية . نمو البراهمانية	حوالي ١٠٣٣ – ١٠٤٢
اليابان : صدور الاوامر تكراراً بمنع احداث « شوون جديدة »	١٠٣٦ – ١٠٦٨
	١٠٣٧
	١٠٤٠
جاوا : تقسيم جاوا الشرقية بين قاديري وسورابايا	حوالي ١٠٤٢
آل « داي كو فيات » تبيح فيجايا ، عاصمة « الشاميين » ، للسلب	١٠٤٤
بورما : ملك اناروذا في باغان . اصلاحات سياسية ودينية . انشاء معابد كثيرة . فتوحات اقليمية	١٠٤٤ – ١٠٧٧
اليابان : بدء حرب « السنوات التسع » بين ميناموتو وفوجيوارا	١٠٥١
	١٠٥٤
	١٠٥٥
	١٠٥٩
	١٠٦٠
	١٠٦٢ – ١٠٦٦
	١٠٦٣
	١٠٦٤ – ١٠٦٥
	حوالي ١٠٦٥ – ١١٠٠
	١٠٦٦
	١٠٦٨

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٠٧٠	لانفرانك رئيس اساقفة كنتربري : اصـــلاح الكنيسة الانكليزية . البوادر الاولى للتكتل القروي في شمالي الكوار (له مان)	
١٠٧١		سحق الجيش البيزنطي في «منتزيكرت»
١٠٧٣	غريغوريوس السابع يعتلي السدة البابوية	
١٠٧٥	براءة الحكم على التولية العلمانية	
١٠٧٧	مقابلة غريغوريوس السابع والامبراطور هنري الرابع في كانوسا	
١٠٧٨	القديس انسلموس رئيس دير بك	
حوالي ١٠٨٠		تنظيم شيعة الحشاشين
١٠٨١		ولاية الكسيوس كومنينوس
١٠٨٢		الكسيوس كومنينوس يمنح البندقيين امتيازاً
١٠٨٤	تأسيس دير « الشارتروز الكبرى »	
١٠٨٥	الفونس السادس ملك قشتالة يستولي على طليطـــلة . وفاة غريغوريوس السابع	
١٠٨٦		انتصار المرابطين على مسيحيي اسبانيا
١٠٨٧		
١٠٨٨	بدء تعليم ارنيريوس في بولونيا . القديس هوغ يشرع في تشييد دير كلوني الكبير	
١٠٩٢		موت ملك شاه
١٠٩٤	تشييد كنيسة القديس مرقس في البندقية	
١٠٩٥	اوربانوس الثاني يدعو في كليرمون الى الحملة الصليبية الاولى	
١٠٩٥ — ١١٢٧	نشاط ادبي يبديه غليوم دوق أكيتين	
١٠٩٨	تأسيس دير سيتو	
١٠٩٩		استيلاء الصليبيين على اورشليم
١١٠٠		
١١٠١	تأسيس دير النساء في مونتفرو	
١١٠٣	غليوم دي شامبو ، مدير مدرسة باريس الاسقفية	
١١٠٨	رونيه دي هوي يصب جرن العماد في كنيسة سان برتلمي في لياج	
١١١٢		وفاة الغزالي
١١١٥	القديس برناردوس رئيس دير كليرفو	

التواريخ	آسيا الشرقية
١٠٧٠	الصين : البدو التيبتيون « سي ـ هيا » يخضعون الشمال الغربي
١٠٧١	
١٠٧٣	
١٠٧٥	
١٠٧٧	الصين : وفاة الفيلسوف شاو يونغ
١٠٧٨	
حوالي ١٠٨٠	
١٠٨١	
١٠٨٢	
١٠٨٤	
١٠٨٥	
١٠٨٦	شمبا تعقد صلحاً مع الصين . . بورما : المغتصب كينزيتا يتولى الحكم. انطلاقة جديدة في الفن البوذي
١٠٨٧	اليابان : تجدد الاعمال العدائية بين فوجيوارا ومیناموتو
١٠٨٨	
١٠٩٢	
١٠٩٤	
١٠٩٥	
١٠٩٥--١١٢٧	
١٠٩٨	
١٠٩٩	
١١٠٠	الهند : مملكة ال « هويسالا » تتحرر من سيطرة ال « شالوكيا » ـ الصين : ولاية هواي تسونغ. انطلاقة الادب والفن (هانغ ـ تشيو) . عقد تحالف مع الجورتشات ضد الكيتات .
١١٠١	
١١٠٣	
١١٠٨	
١١١٢	الامبراطورية الخميرية : ولاية سوريافرمان الثاني باني انغكور فات . امتداد النفوذ الخميري الى سلام الوسطى وشمبا وانام .
١١١٥	

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١١١٥ — ١١٢٠	تزيين بوابة مواساك بالنقوش	
١١١٨	حملة روجيه الثاني ملك صقليا على تونس	
١١٢١		سقوط تفليس في ايدي الجيورجيين
١١٢٢	اتفاقية وورمس بين البابا والامبراطور. نهاية صراع التوليات.	
١١٢٥ — ١١٢٦		
١١٢٧	المدن الفلمنكية تحصل على بعض الاعفاءات.	زنكي في الموصل
١١٢٨	اقرار نظام فرسان المعبد .	
١١٣٠		وفاة المهدي الموحد ابن طومرت
حوالي ١١٣٥ — ١١٤٤	الاب الرئيس سوجر يعيد بناء القسم الامامي والخورس في كنيسة سان دنيس .	
حوالي ١١٤٠	براءة غراثيانوس	
١١٤٠	مجمع سنس يصدر حكمه على ابيلار	
١١٤١	القراخيطاط يحتلون ما وراء النهر	
١١٤٣	تأسيس لوبك	
١١٤٤		استيلاء زنكي على الرها
حوالي ١١٤٥	مدخل شارتر الملكي	نور الدين يتولى الحكم في حلب
١١٤٦		
١١٤٧	القديس برناردوس يدعو للحملة الصليبية الثانية	
١١٤٨		اخفاق الحملة الصليبية الثانية امام دمشق
حوالي ١١٥٠		
١١٥٢	ولاية فردريك بربروس	غزو الاوغوز لخراسان
١١٥٣	وفاة القديس برناردوس	
١١٥٤	جمعية رونكاليا ، فردريك بربروس يبغي استعادة الحقوق الملكية في ايطاليا الشمالية – ولاية هنري بلانتاجنه الثاني ملك انكلترا .	
١١٦٠		
١١٦٢ — ١١٨٢	نشاط « كريتيان دي طروا » الادبي	
١١٦٣ — ١١٩٦	تشييد كنيسة السيدة (نوتردام) في باريس .	
١١٦٧		
١١٧٠	اغتيال توماس بكيت	

التواريخ	آسيا الشرقية
١١١٥ — ١١٢٠	
١١١٨	الهند : الاتراك الغزنويون في البنجاب
١١٢١	
١١٢٢	
١١٢٥ — ١١٢٦	الصين : الكيتات يهزمون السونغ
١١٢٧	الصين : السونغ يتخلون عن الشمال ويملكون في نانكين
١١٢٨	
١١٣٠	الصين : الفيلسوف تشوهي ، تأليف الكونفوشيوسية الحديثة ، انقسام المثقفين .
حوالي ١١٣٥ — ١٤٤	
حوالي ١١٤٠	
١١٤٠	
١١٤١	
١١٤٣	
١١٤٤	
حوالي ١١٤٥	
١١٤٦	
١١٤٧	منغوليا : « الملك » المغولي الاول ينتصر على الكين (الصين الشمالية الشرقية) .
١١٤٨	
حوالي ١١٥٠	الصين : تجزئة سياسية
١١٥٢	
١١٥٣	
١١٥٤	
١١٦٠	اليابان : اضطرابات سياسية حتى السنة ١١٨١
١١٦٢ — ١١٨٢	
١١٦٣ — ١١٩٦	
١١٦٧	منغوليا : مولد تاموجين (جنكيز خان)
١١٧٠	

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١١٧١		صلاح الدين يلغي الخلافة الفاطمية ـ تقتيل الفاطميين في القسطنطينية .
١١٧٦	نشأة الشيعة الفالدية في ليون	انهزام البيزنطيين امام الاتراك في ميرسكيفالون
١١٨٠	ولاية فيليب اوغست ملك فرنسا	وفاة مانويل كومنينوس .
١١٨١		
١١٨٥		
١١٨٦		
١١٨٧		سقوط القدس في ايدي صلاح الدين
١١٩٠	وفاة فردريك بربروس	الحملة الصليبية الثالثة ؛ الصليبيون يحتلون قبرص
١١٩٢	اصدار نقد الجملة في البندقية	انتصار الخوارزميين في ايران
١١٩٣		
١١٩٦		
١١٩٧		لاون الال ملك ارمينيا ـ كيليكيا
١١٩٨	ولاية انوشنتيوس الثالث (توفي في السنة ١٢١٦)	وفاة ابن رشد
١٢٠٢	بلاط ملك فرنسا يقر مصادرة اقطاعات « جان سان تير »	
١٢٠٤	استيلاء اللاتين على القسطنطينية	«فتوة» الخليفة الناصر ـ وفاة الميمون.
١٢٠٦	اسطفان لنغتون رئيس اساقفة كنتربري . ـ القديس دومنيك يدعو في تولوز الى مناهضة هرطقة الاطهار.	
١٢٠٧		
١٢٠٨	بدء الحملة الصليبية على الالبيين	
١٢٠٩	تأسيس الاخوية الفرنسيسكانية الاولى.	
١٢١٠	خطر شرح فلسفة ارسطو الطبيعية في المدارس الباريسية	
١٢١٢	مباشرة تشييد كاتدرائية « رمس »	معركة لاس نافاس دي لا تولوزا
١٢١٤	معركة بوفين	
١٢١٥	انكلترا : الاتفاقية الكبرى . ـ فردريك الثاني يفرض نفسه في المانيا . ـ مجمع لاتران الرابع . ـ انظمة جامعة باريس .	
١٢١٨		
١٢٢٠	فردريك الثاني يضع اول تشريع ضد الهراطقة .	
١٢٢١		

آسيا الشرقية	التواريخ
	١١٧١
	١١٧٦
	١١٨٠
الامبراطورية الخيرية : ولاية جايافرمان السابع تشييد « البايون » و « انغكور ثوم »	١١٨١
اليابان : اصلاح الميناموتوالسياسي، تأسيس كاماكورا. ادخال«الشوغون». دخول زراعةالشاي	١١٨٥
محمد الغوري يضم البنجاب اليه	١١٨٦
	١١٨٧
الهند : تقسيم ماهارا شترا	١١٩٠
	١١٩٢
الهند : محمد الغوري يضم سلطنة دلهي	١١٩٣
منغوليا : تاموجين يحمل اسم شنكيزخان	١١٩٦
الهند : سقوط « البالا » في البنغال . ولاية « السينا » .	١١٩٧
	١١٩٨
الهند : انهيار السينا ، السلاطين البوذيين الأخيرين ، في البنغال ، انتصار الجيوش الاسلامية	١٢٠٢
منغوليا : جنكيزخان يخضع النيمان ويستخدم كاتبا تركياً يتكلم الويكور ويكتبها .	١٢٠٤
الهند : وفاة محمد الغوري . سلطنة دلهي تنتقل الى المماليك الاتراك .	١٢٠٦
منغوليا : جنكيزخان يوحد قبائل الاويرات والماركيت والكركيز	١٢٠٧
	١٢٠٨
الصين : جنكيزخان يهاجم الـ« سي ـ هيا »	١٢٠٩
	١٢١٠
	١٢١٢
	١٢١٤
	١٢١٥
جنكيزخان يهاجم القراخيطاط	١٢١٨
جنكيزخان يهاجم خوارزم	١٢٢٠
جنكيزخان يهزم الكبشاك	١٢٢١

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٢٢٢		
١٢٢٤ — ١٢٣٥	روبير غروستات مستشار جامعة اركسفورد	
٢٢٦	ولاية القديس لويس	
١٢٢٧		
١٢٢٩		عقد معاهدة بين فردريك الثـاني والكامل الايوبي
١٢٣١	شرائع ملفي تعيد تنظيم ادارة مملكة صقليا	وفاة شاه خوارزم جلال الدين
١٢٣٢		
حوالي ١٢٣٦	الجزء الاول من « قصة الوردة » لغليوم دي لوريس	
١٢٣٦ — ١٢٤٢		المغول يغزون روسيا وهنغاريا
١٢٤١		
١٢٤٣	الشروع ببناء « السانت شابيل »	المغول يسحقون سلاجقة آسيا الصغرى
١٢٤٤		معركة غزة
١٢٤٥	مجمع ليون . اقالة فردريك الثاني	
١٢٤٥ — ١٢٤٨	البير الكبير يلقي الدروس في باريس	
١٢٤٦		
١٢٤٨		حملة القديس لويس على مصر
١٢٤٨ — ١٢٥٥	القديس بونا فنتورا يلقي الدروس في باريس	
١٢٤٩		ولاية المماليك في مصر
١٢٥٠	وفاة فردريك الثاني . بدء « فترة خلو كرسي الملك »	
١٢٥١		
١٢٥٢	اصدار الفلورين الذهبي في فلورنسا	
١٢٥٢ — ١٢٥٧	الاساتذة العلمانيون يحاولون الحد من مراكز «المتسولين» في جامعة باريس	
١٢٥٣		
١٢٥٦	تزاويق كتاب المزامير للقديس لويس	المغول يقضون على الحشاشين
١٢٥٨	انكلترا : استيلاء البارونات على السلطة	المغول يقضون على الخلافة في بغداد
١٢٥٩	معاهدة باريس بين لويس وهنري الثالث ملك انكلترا .	
١٢٦٠	نيقولا بيزانو يزين جرن العماد في بيزا ـ باب العذراء في كنيسة السيدة في باريس	هزيمة المغول في عين جـالوت في سوريا . ـ ولاية بيبرس في مصر .

آسيا الشرقية	التواريخ
جنكيزخان يستدعي الراهب الطاوي كسيو تشانغ . تشيو ـ اليابان : مولد الفيلسوف نيشيرن	١٢٢٢
	١٢٢٤ — ١٢٣٥
جنكيزخان ينتصر على السي ـ هيا . ـ الهند : تشييد قطب المنار في دلهي	١٢٢٦
وفاة جنكيزخان .	١٢٢٧
ولاية اوغوداي . يي ـ ليو تشو تساي ينظم الامبراطورية المنغولية على الطريقة الصينية . تأسيس قراكوروم . انجاز فتح الصين الشمالية وايران . فتح كوريا	١٢٢٩
انجاز فتح الصين الشمالية وايران . فتح كوريا .	١٢٣١
الهند : سقوط الـ « سرلانكي » في قاتياوار .	١٢٣٢
	حوالي ١٢٣٦
الصين : اوغوداي يصدر للمرة الاولى النقد الورقي .	١٢٣٦ — ١٢٤٢
منغوليا : ولاية غويوك	١٢٤١
	١٢٤٣
	١٢٤٤
	١٢٤٥
	١٢٤٥ — ١٢٤٨
الفرنسيسكان « جان دي بيان كربينو » في البلاط المغولي	١٢٤٦
وفاة غويوك	١٢٤٨
	١٢٤٨ — ١٢٥٥
	١٢٤٩
القديس لويس يوفد ثلاثة اخوة متسولين الى البلاط المغولي	١٢٥٠
منغوليا : ولاية مونكا	١٢٥١
	١٢٥٢
	١٢٥٢ — ١٢٥٧
الفرنسيسكاني غليوم دي رويروك في البلاط المغولي	
ولاية هولاكو . مجمع بوذي في قراكوروم	١٢٥٣
	١٢٥٦
	١٢٥٨
	١٢٥٩
	١٢٦٠

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٢٦١		ميشال باليولوغ يستعيد القسطنطينية من اللاتين
١٢٦٣		
١٢٦٥	القديس توما يشرع في وضع « الخلاصة اللاهوتية »	
١٢٦٦	روجيه بيكون يحرر « العمل الاكبر ». - شارل دانجو يتولى فتح صقليا	
١٢٦٧	نظام مارلبرو يعين حدود السلطة الملكية في انكلترا	
١٢٧٠	صدور الحكم الاول على تعاليم سيجر دي برابان	وفاة القديس لويس اثناء الحملة الصليبية على تونس
١٢٧١		
١٢٧٢	ولاية ادوارد الاول ملك انكلترا	
١٢٧٣		
١٢٧٤	مجمع ليون : وحدة سريعة الزوال بين الكنيستين الشرقية والغربية	
١٢٧٥	الجزء الثاني من « قصة الوردة » لجان دي مونغ	
١٢٧٦ – ١٢٧٩		
١٢٧٨ – ١٢٧٩		وصول الراهبين النسطوريين الشرقيين الى بلاد ما بين النهرين
١٢٨١		
١٢٨٢	مجزرة القبرسيين في صقليا	
١٢٨٤	معركة ميلوريا . خراب بيزا على يد جنوى .	
١٢٨٥	ولاية فيليب له بيل	
١٢٨٨		
١٢٨٩		
١٢٩٠		
١٢٩١	اتحاد طوائف سويسرا الوسطى	سقوط عكا – وفاة السعدي
١٢٩٣		
١٢٩٤	الحرب الفرنسية الانكليزية لاجل غويان . - ولاية بونيفاسيوس الثامن	

آسيا الشرقية	التواريخ
	١٢٦١
النسطوري السوري ، عيسى ، يعين مديراً لمكتب الاحوال الفلكية لدى كوبيلاي .	١٢٦٣
وفاة هولاكو	١٢٦٥
اقامة الـ « بولو » الاولى في بكين	١٢٦٦
	١٢٦٧
	١٢٧٠
الـ « بولو » يسافرون مرة ثانية من البندقية الى الصين	١٢٧١
	١٢٧٢
الصين : المغول يستولون على سيانغ ـ يانغ بعد حصار دام خمس سنوات	١٢٧٣
	١٢٧٤
احداث مركز رئاسة اساقفة نسطورية في بكين . الـ « بولو » في الصين	١٢٧٥
سقوط السونغ . كوبيلاي يؤسس سلالة يوان	١٢٧٦ — ١٢٧٩
الصين : منع الدعاوة الاسلامية . ـ الهند : الكتابات الشولية الاخيرة	١٢٧٨ — ١٢٧٩
كوبيلاي يخفق في مهاجمة اليابان	١٢٨١
	١٢٨٢
	١٢٨٤
	١٢٨٥
ماركو بولو في البلدان الجنوبية الشرقية	١٢٨٨
كوبيلاي يحدث مكتباً يسند اليه شؤون العبادة المسيحية	١٢٨٩
الهند : انتقال سلطة دلهي الى الاتراك (فيروز)	١٢٩٠
ماركو بولو يعود الى اوروبا	١٢٩١
كوبيلاي يخفق في مهاجمة جاوا . ـ جاوا الشرقية : تأسيس امبراطورية ماجا باهيت	١٢٩٣
الصين : اهتداء النسطوري الاونغوت الامير جورج ، على يد جان دي مونتيكورفينو ، الى المعتقد الكاثوليكي الروماني . ـ ولاية تيمور . ـ الهند : المسلمون يسيطرون على المهاراشيرا . انهيار السلالات الاقليمية في الميزور	١٢٩٤

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٢٩٦		
١٢٩٧		
١٢٩٨		
قبل ١٣٠٠		تكون الامارات التركمانية في آسيا الصغرى
١٣٠١ – ١٣٠٢		
١٣٠٢	فيليب له بيل يستشير ممثلي المملكة في باريس . ـ هزيمة الفرسان الفرنسيين في كورتريه	
١٣٠٣	اعتداء أنانيي . ـ وفاة بونيفاسيوس الثامن	الكاتالونيون في الشرق
١٣٠٤ – ١٣٠٨	دونس سكوت يلقي الدروس في باريس	
بعد ١٣٠٦	رسوم « الارينا دي بادرا » الجدرانية لجيوتو	
١٣٠٧	بروز قضية فرسان المعبد . ـ وفاة ادوارد الاول	
١٣١٢	اتفاق كورتنبرغ في برابان	
١٣١٢ – ١٣١٤	دانتي يكتب « جهنم »	
١٣١٤	الساعة العامة الاولى في فرنسا ، في كان . ـ وفاة فيليب له بيل واكليمنضوس الخامس	
١٣١٥	بدء ازمة حبوب وأوبئة في كافة أنحاء اوروبا . ـ احلاف اقطاعية في فرنسا . ـ دوتشيو يرسم لوحة « الجلال » في سينا .	
١٣١٦	صلح فكس في لياج ـ الشروع ببناء قصر البابوات في افينيون	
١٣١٧	كتاب « الملكية » لدانتي	
١٣١٨ – ١٣٢٤	غليوم اوكهام يلقي الدروس في اوكسفورد	
١٣٢٢	براءة يوحنا الثاني والعشرين حول « الفن الجديد » . ـ ثورة الفلاحين في فلاندر البحرية	
١٣٢٣		
١٣٢٤	« حامي السلام » لمارسيل البادواني	
١٣٢٥	جامعة بارولس تعود عن حكمها على تعليم توما الاكويني	
١٣٢٧	اقالة ادوارد الثاني ؛ ولاية ادوارد الثالث	
١٣٢٨	ولاية فيليب السادس دي فالوا . ـ تتوج لويس دي بافيير في روما	

آسيا الشرقية	التواريخ
تشيو تا ـ كوان في البلدان الجنوبية الشرقية	١٢٩٦
الهند : سلطان دلهي يضم اليه قاتياوار	١٢٩٧
معاملة الصينيين كالمغول سياسياً	١٢٩٨
	قبل ١٣٠٠
الصين : اعادة النظر في القوانين لمصلحة البلدين	١٣٠١ — ١٣٠٢
	١٣٠٢
	١٣٠٣
	١٣٠٤ — ١٣٠٨
	بعد ١٣٠٦
وفاة تيمور . ـ جان دي مونتيكوروفينو يعين رئيس اساقفة بكين	١٣٠٧
	١٣١٢
	١٣١٢ — ١٣١٤
الفرنسيسكاني اودوريك دي بوردينون يبدأ رحلة الى آسيا الشرقية	١٣١٤
	١٣١٥
	١٣١٦
وفاة الاونكوت مرقص ، بطريرك بغداد النسطوري	١٣١٧
	١٣١٨ — ١٣٢٤
	١٣٢٢
الصين : ولاية يـون	١٣٢٣
	١٣٢٤
	١٣٢٥
	١٣٢٧
	١٣٢٨

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٣٣٠	« الاعراس الروحية » لجان ري روبسبروك . ـ « رينار المقلد »	
١٣٣٣		
١٣٣٥		زوال الامبراطورية المغولية في بلاد فارس
١٣٣٧	وفاة جيوتو . ـ القطيعة بين فيليب السادس وادوارد الثالث	
١٣٣٨		
١٣٤١	بترارك يكلل بالغار في الكابيتول	ولاية يوحنا كنتاكوزين
١٣٤٦	افلاس آل باردي . ـ معركة كريسي	
١٣٤٧	تأسيس جامعـة براغ . ـ دكتاتورية كولادي رينزو في روما . ـ بوادر الطاعون الاسود . ـ استيلاء ادوارد الثالث على كاليه	
١٣٤٨	جان بوريدان على رأس جامعة باريس للمرة الثانيـة . ـ اكليمنضوس السادس يبتاع افينيون من الملكة « جان دي نابولي »	
١٣٤٩	وفاة غليوم اوكهام . ـ حركة الجلادين	
١٣٥٠	ولاية جان له بون	
١٣٥١	كتاب المعلومات البحرية في المكتبة اللورنسية . ـ انكلترا : انظمة « الفلاحين » و « الوكلاء »	
١٣٥٢	ولاية اينوشنتيوس السادس	
١٣٥٣	« الايام العشرة » لبوكاس	
١٣٥٤	« حياة العزلة » لبترارك	العثمانيون في غاليبولي
١٣٥٥		وفاة القيصر الصربي اسطفان دوسان
١٣٥٦	معركة بواتيه . ـ الامبراطور شارل الرابع يذيع البراءة الذهبية	
١٣٥٧	الولايات الجنوبية تفرض « النظام الاكبر » على ولي العهد شارل	
١٣٥٨	اخفاق ثورة اتيان مرسيل في باريس . ـ ثورة الفلاحين . ـ ايفاد الكردينال البورنوز مرة اخرى الى ايطاليا	
١٣٦٠	مقدمات بريتينيي ومعاهدة كاليه . ـ فرق الادلاء في فرنسا	
١٣٦٢	النزاع بين الهانس والدانمرك	السلطان مراد يستولي على اندرينوبولس

التواريخ	آسيا الشرقية
١٣٣٠	
١٣٣٣	الصين : كنيسة كان ـ تشير النسطورية تؤدي عبادة لوالدة كوبيلاي
١٣٣٥	
١٣٣٧	
١٣٣٨	الجنوي اندالودي سافيليانو يعين سفيراً للصين في اوروبا . ـ بعض الألين من الحرس الامبراطوري في الصين يعتنقون الدين الكاثوليكي الروماني .
١٣٤١	
١٣٤٦	
١٣٤٧	
١٣٤٨	
١٣٤٩	
١٣٥٠	
١٣٥١	
١٣٥٢	الصين : ثورة الجنوب على اليوان
١٣٥٣	
١٣٥٤	
١٣٥٥	
١٣٥٦	
١٣٥٧	
١٣٥٨	
١٣٦٠	
١٣٦٢	

التواريخ	الغرب	الشرق الادنى
١٣٦٤	تأسيس جامعة كراكوفيا. ـ فرنسا : ولاية شارل الخامس	
١٣٦٥	تأسيس جامعة فينا	الحملة القبرصية على الاسكندرية
١٣٦٧	عودة اوربانوس الخامس الى روما . ـ معركة ناجيرا	
١٣٦٨	تأسيس الفرنسيسكان المحافظين	
١٣٦٩	زواج فيليب الجسور من وريثة الفلاندر . ـ تجدد الحرب الفرنسية الانكليزية . ـ هنري دي تراستامار يغتـال بيير القاسي في مونتيال	
١٣٧٠	صلح ستراالسوند بين الهانس والدانمرك	
١٣٧٣	الكتاب الاول من « يوميات » فرواسار	
١٣٧٤	وفاة بترارك	انهيار مملكة كيليكيا الارمنية
١٣٧٦	انكلترا : البرلمان الجيد . « السيادة المدنية » لويكليف	
١٣٧٧	عودة غريغوريوس الحادي عشر الى روما . ـ « حـلم الروضة » . ـ وفاة ادوارد الثالث	

التواريخ	الغرب
١٣٧٨	انتخاب اوربانوس السادس واكليمنضوس السابع وبدء الانشقاق الكبير.ـ ثورة « الشيومبي »في فلورنسا . ـ وفاة الامبراطور شارل الرابع .
١٣٧٩	تشييد مبنى بلدية بروج وصحن كاتدرائية كنتربري . ـ انتفاضات ثورية في بعض مدن الفلاندر
١٣٨٠	وفاة القديسة « كاترين دي سيان » ودوغسكلين وشارل الخامس
١٣٨١	انكلترا : ثورة الفلاحين ؛ اولى وثائق الملاحة
١٣٨٢	وفاة نقولا اورسم والملكة « جان دي نابولي » . ـ ولاية لادسلاس جاجلون في بولونيا . ثورات في بعض مدن فرنسا ، ـ معركة روسبك
١٣٨٤	وفاة ويكليف.جيرار دي كروت.مؤسس اخوة الحياة المشتركة. فيليب الجسور، كونت الفلاندر
١٣٨٥	انتصار البرتغاليين على القشتاليين في (الجوبارونا)
١٣٨٦	تأسيس جامعة هيدلبرغ . ـ انكلترا : البارونات يفرضون الوصاية على ريشار الثاني
١٣٨٧	(قصص كنتربري) لشوسر
١٣٨٩	
١٣٩٢	جنون شارل السادس وسقوط حكومة (المرموزيه)
١٣٩٥	كلوس سلوتر يشرع في تأليف (بئر موسى)
١٣٩٦	اجتماع ريشار الثاني وشارل السادس في آردر . ـ جنوى تنضم الى فرنسا تلقائياً .

آسيا الشرقية	التواريخ
	١٣٦٤
	١٣٦٥
	١٣٦٧
الصين : تشيو يوان ـ تشانغ يستولي على بكين ويؤسس سلالة المنغ	١٣٦٨
	١٣٦٩
البابا يعين رئيس اساقفة في بكين	١٣٧٠
	١٣٧٣
	١٣٧٤
	١٣٧٦
	١٣٧٧

الشرق الادنى	التواريخ
	١٣٧٨
	١٣٧٩
انتصار ديمتري دونسكوي ، دوق موسكو ، على المغول	١٣٨٠
	١٣٨١
	١٣٨٢
	١٣٨٤
	١٣٨٥
	١٣٨٦
	١٣٨٧
انتصار بايزيد الاول على الصرب في كوسوفو	١٣٨٩
	١٣٩٢
	١٣٩٥
كارثة هزيمة الصليبيين امام العثمانيين في نيكوبوليس	١٣٩٦

التواريخ	الغرب
١٣٩٧	وحدة « كلمار » بين الممالك السكندينافية . ـ « استبداد » ريشار الثاني
١٣٩٨	فرنسا : رفض الخضوع لبابا افينيون ؛ بدء الغاليكانية
١٣٩٩	انكلترا : هنري الرابع دي لنكستر يقيل ريشار الثاني
١٤٠٢	جان هوس عميد جامعة براغ . ـ « بحث في خراب الكنيسة » لنقولا دي كلامانج . ـ استعمار جزر « الكناري» على يد جان دي بيتنكور
١٤٠٣	غيبرتي يبدأ نحت نقوش جرن العماد في فلورنسا
١٤٠٥	
١٤٠٦	ادخال الاستغراق الى جامعة « المعرفة » . ـ بيزا تقع تحت سيادة فلورنسا
١٤٠٧	اغتيال « لويس دورليان » بايعاز من « جان سان بور »
١٤٠٨	«ساعات الدوقدي بري المثمرةجداً» لبول دي لمبورغ . ـ تأسيس «بيتالقديس جورج» فيجنوى
١٤٠٩	مجمع بيزا ؛ الانشقاق المثلث الرؤوس
١٤١٠	البولونيون يسحقون الفرسان في تانتبرغ
١٤١٣	النظام الكابوشي . ـ ولاية هنري الخامس دي لنكستر
١٤١٤	افتتاح مجمع كونستانس
١٤١٥	معركة ازنكور . ـ تعذيب جان هوس
١٤١٦	« القديس جورج » لدوناتلو . ـ ولاية الفونس الخامس المعظم في اراغون
١٤١٨	دخول البورغونيين الى باريس . ـ هنري الخامس يحتل نورمنديا .
١٤١٩	احداث اسواق ليون الدورية . ـ وفاة القديس فنسان فيريبه . ـ اغتيال جان سان بور
١٤٢٠	كتاب « الاقتداء بيسوع المسيح » . ـ معاهدة طروا تجعل هنري الخامس يترقب تاج فرنسا . ـ ذروة الازمة النقدية في فرنسا
١٤٢١	برونسكلي يشرع في تنفيذ قبة فلورنسا
١٤٢٢	وفاة هنري الخامس وشارل السادس . وصاية بدفورد في فرنسا
١٤٢٤	هزيمة جيوش شارل السابع في فرنوي
١٤٢٥	تأسيس جامعة لوفان . ـ لوحة « الحمل السري » لجان فان ايك . ـ « رقص الاموات » في مقبرة الابرياء في باريس
١٤٢٨	غليوم دوفاي عضو في « الحاشية » البابوية
١٤٢٩	مسيرة جان دارك وتكريس شارل السابع . ـ وفاة جان جرسون
١٤٣١	تعذيب جان دارك . افتتاح مجمع بال . ـ البرتغاليون في جزر الأسود
١٤٣٤	كوزمادي مديتشي يستلم السلطة في فلورنسا . ـ البرتغاليون يدورون حول رأس بوجادور . ـ سحق الطابوريين في بوهيميا
١٤٣٥	معاهدة أراس بين شارل السابع وفيليب له بون

الشرق الادنى	التواريخ
	١٣٩٧
	١٣٩٨
مانويل باليولوغ يبحث عن المساعدات في الغرب	١٣٩٩
تيمورلنك يسحق بايزيد الاول في انكرا	١٤٠٢
	١٤٠٣
وفاة تيمورلنك	١٤٠٥
وفاة ابن خلدون	١٤٠٦
	١٤٠٧
	١٤٠٨
	١٤٠٩
	١٤١٠
	١٤١٣
	١٤١٤
البرتغاليون يحتلون سبته	١٤١٥
	١٤١٦
	١٤١٨
	١٤١٩
	١٤٢٠
	١٤٢١
	١٤٢٢
	١٤٢٤
	١٤٢٥
	١٤٢٨
	١٤٢٩
	١٤٣١
	١٤٣٤
	١٤٣٥

التواريخ	الغرب
١٤٣٧	الشروع ببناء كنيسة « سان ماكلو » في روان . ـ « العائلة » لألبرتي
١٤٣٨	قرار الملك والمجلس في بورج
١٤٤٠	برونلسكي يشرع في بناء قصر بيتي ، وميشلوني في بناء قصر مديشي في فلورنسا
١٤٤٤	«اللغةاللاتينيةالانيقة»للوران فالا. ـ البرتغاليونفيالرأسالاخضر.هدنة تور بينالانكليز والفرنسيين
١٤٤٥	شارل السابع يحدث فرق النظام
١٤٤٧	وفاة اوجانيوس الرابع ؛ انتخاب نقولا الخامس
١٤٤٨	اتفاقية فينا مع البابا حول البلدان الالمانية
١٤٤٩	نهاية انشقاق بال . ـ شارل السابع يبدأ حرب استعادة نورمنديا
١٤٥٠	تنظيم دار الكتب الفاتيكانية . ـ « سر الآلام » لارنولد غريبان . ـ كتاب ساعات اتيان شفاليه لجان فوكيه . معركة فورمينيي
١٤٥٢	البير يتولى اعادةبناء كنيسة القديس بطرس في روما.ـ مولد ليوناردو دي فنشي.ـ اصلاح جامعة باريس على يد الكردينال دستونفيل . ـ آخر تكريس لامبراطور (فردريك الثالث) على يد البابا
١٤٥٣	معركة كستيلون . ـ الحكم على جاك كور
١٤٥٤	معاهدة لوذي تعيد السلام الى الامارات الايطالية
١٤٥٥	غوتنبرغ يطبع « التوراة المازارينية » . ـ روسلينو يشيد قصر البندقية في روما . ـ وفاة الاخ انجليكو بيزانلو وغيبرتي ونقولا الخامس
١٤٥٦	« الانظمة الافلاطونية » لمارسيل فيسين . ـ « الوصية الصغري » لفيون
١٤٥٨	اينيا سيلفيو ينتخب حبراً اعظم (بيوس الثاني)
١٤٥٩	وفاة بوجيو والقديس انطونيوس البادواني . ـ مؤتمر مانتو . حرب اهلية في انكلترا
١٤٦٠	اوائل عهد بورصة انفرس . ثورة كاتالونيا على يوحنا الثاني
١٤٦١	فرنسا : ولاية لويس الحادي عشر . ـ انكلترا : ولاية ادوارد الرابع دي يورك
١٤٦٢	
١٤٦٣	تأسيس الاكاديميا الرومانية
١٤٦٤	تأسيس الاكاديميا الافلاطونية . ـ وفاة روجيه دي لاباستور ونقولا دي كو وبيوس الثاني
١٤٦٥	طبع « فن الموت » في كولونيا . ـ جان اوكجهم رئيس خورس لدى لويس الحادي عشر . ـ حلف الصالح العام
١٤٦٦	تدريس اللغة اليونانية في جامعة باريس ، ـ مولد ايراسم
١٤٦٧	« تتويج العذراء » لفيليبوليبي. ـ لقاء لويس الحاديعشر وشارل الجسور في بيرون. ـ ثورة لياج
١٤٦٨	رسوم « كمبوسانتو » في بيزا بريشة بنوزو جوزولي
١٤٦٩	«اللاهوت الافلاطوني» لمارسيل فيسين . ـ ولاية لوران وجوليان دي مديشي . ـ زواج فردينان الاراغوني من ايزابيل القشتالية . ـ ماتياس كورفين ملك هنغاريا

الشرق الادنى	التواريخ
	١٤٣٧
اتحاد الكنائس في مجمع فراري	١٤٣٨
	١٤٤٠
هزيمة الهنغاريين والبولونيين في فارنا	١٤٤٤
	١٤٤٥
رحلة انطونيو ملفنتي الجنوي الى طوات	١٤٤٧
	١٤٤٨
	١٤٤٩
	١٤٥٠
	١٤٥٢
محمد الثاني يستولي على القسطنطينية	١٤٥٣
	١٤٥٤
	١٤٥٥
	١٤٥٦
	١٤٥٨
	١٤٥٩
	١٤٦٠
	١٤٦١
سقوط ترابزون	١٤٦٢
	١٤٦٣
	١٤٦٤
	١٤٦٥
	١٤٦٦
	١٤٦٧
وفاة اسكندر بك ونهاية المقاومة الالبانية في وجه العثمانيين	١٤٦٨
	١٤٦٩

الغرب	التواريخ
غليوم فيشيه يقيم مطبعة في جامعةباريس . ـ جبهة « سانتا ماريا نوفلا » في فلورنسا (البرتي)	١٤٧٠
البرتغاليون يتخطون خط الاستواء	١٤٧١
وفاة الكردينال بساريون . ـ توقيع اتفاقية بين سكستوس الرابع ولويس الحادي عشر .	١٤٧٢
لقاءات تريف بين شارل الجسور وفردريك الثالث دي هابسبورغ	١٤٧٣
« يوميات » رجيومونتانوس	١٤٧٤
فتح دار الكتب الفاتيكانية للعموم. ـ مولد ميكال انجلو .ـ (داود) لفروكيو . ـ معاهدة بيكينيي بين لويس الحادي عشر وادوارد الرابع . ـ لويس الحادي عشر يصدر (الدينار الشمسي)	١٤٧٥
انتصارات السويسريين على شارل الجسور في غرانسون ومورا	١٤٧٦
طبع اول كتاب باللغة الفرنسية. ـ تأسيس جامعة اوبسال. ـ مؤامرة (البازي) في فلورنسا.ـ وفاة شارل الجسور على مقربة من نانسي	١٤٧٧
« زواج القديسة كاترين السري » لملنغ	١٤٧٩
وفاة الملك رينه دانجو	١٤٨٠
وفاة جان فوكيه . ـ ولاية جان الثاني البرتغالي	١٤٨١
دياجو كام يكتشف مصب الكونغو. ـ معاهدة أراس بين لويس الحادي عشر ومكسيميليان النمساوي	١٤٨٢
مولد لوثر ورافائيل وغيشاردين . ـ وفاة لويس الحادي عشر وادوارد الرابع	١٤٨٣
اجتماع ممثلي الطبقات في تور . ـ انتخاب انوشنتيوس الثامن	١٤٨٤
بيك دي لاميراندول في باريس . ـ الحرب الجنونية في فرنسا . ـ ولاية هنري السابع تودور	١٤٨٥
برتلمي دياز يدور حول رأس العواصف (الرجاء الصالح) . ـ مكسيميليان ينقل الى انفرس امتيازات التجار الاجانب في بروج . ـ « مذخرة القديسة اورسولا » لملنغ	١٤٨٨
كومين يشرع في وضع مذكراته	١٤٨٩
تشييد باتالها . ـ « المدخل الى فلسفة ارسطو الميتافيزيقية » للفيفر ديتابل . ـ سافونارول رئيس دير القديس مرقص في فلورنسا .	١٤٩٠
(الزيارة) لغيرلنداجو . ـ مولد اغناطيوس دي لويولا . ـ زواج شارل الثامن من آنا البريطانية	١٤٩١
وفاة لوران العظيم . ـ انتخاب الكسندروس السادس بورجيا. ـ كريستوف كولومبوس يكتشف العالم الجديد	١٤٩٢

الشرق الادنى	التواريخ
	١٤٧٠
ايفان الثالث يضم نوفغورود	١٤٧١
ايفان الثالث يتزوج من زويي باليولوغ	١٤٧٢
	١٤٧٣
ايفان الثالث يكل الى بعض الايطاليين تشييد الكرملين	١٤٧٤
سقوط كافا في ايدي العثمانيين	١٤٧٥
	١٤٧٦
	١٤٧٧
	١٤٧٩
	١٤٨٠
وفاة محمد الثاني	١٤٨١
	١٤٨٢
	١٤٨٣
	١٤٨٤
	١٤٨٥
	١٤٨٨
	١٤٨٩
بيير دي كوفيلهام في الحبشة	١٤٩٠
	١٤٩١
الملوك الكاثوليك يستولون عل غرناطة	١٤٩٢

جدول الاعلام

ـ ا ـ

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ش

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

هـ

و

ي

فهرست الخرائط والتصاميم

فهرست الصّـــــوَر

٢٣ ـ فارس مغولي يلاحق حصاناً هارباً
٢٤ ـ الاحصنة في المشرب .
٢٥ ـ اعمال الحقول
٢٦ ـ سوق لنديث . تزويق يزين كتاب الطقوس في سنس (فرنسا ، اواخر القرن الرابع عشر)
٢٧ ـ قبة بيزا وبرجها المنحني ، القرن الثاني عشر
٢٨ ـ مدينة ايطالية في القرون الوسطى
٢٩ ـ مدينة كركسون . منظر الاسوار
٣٠ ـ كنيسة نوتردام في باريس (القرنان الثاني عشر والثالث عشر)
٣١ ـ ملاك بواسي . نقش على حجر مصدره كنيسة دير بواسي (حوالي ١٣٠٠)
٣٢ ـ فارس شاكي السلاح
٣٣ ـ مباراة عسكرية
٣٤ ـ تشييد كاتدرائية (كاتدرائية بورج)
٣٥ ـ سفينة (يونان يبتلعه الحوت)
٣٦ ـ تجار وزبن .
٣٧ ـ دعوى دوق ألانسون
٣٨ ـ درس لاهوت في السربون
٣٩ ـ مشهد عرس
٤٠ ـ القصر القديم في فلورنسا (القرن الرابع عشر)
٤١ ـ ضريح فيليب بوت وزير العدالة في بورغونيا (القرن الخامس عشر)
٤٢ ـ قصر رؤساء الجمهورية في البندقية . (القرن الخامس عشر)
٤٣ ـ الباب الضخم لجامعة سلمنكا (اسبانيا) ، اوائل القرن السادس عشر
٤٤ ـ الحمراء في غرناطة (اسبانيا) . بهو الاسود (القرن الرابع عشر)
٤٥ ـ ابو زيد والحارث يزوران مزرعة
٤٦ ـ الامير هماي والاميرة همايون في حدائق امبراطور الصين
٤٧ ـ القبة والبرج في فلورنسا
٤٨ ـ مطبعة .

فهرست عام

القسم الأول

القسم الثاني

عصور اوروبا الاقطاعية

والاسلام التركي وآسيا المغولية

(منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر)

القسم الثالث

الايام العصيبة

(القرنان الرابع عشر والخامس عشر)

انتهى المجلد الثالث ، ويليه المجلد الرابع
القرنان السادس عشر والسابع عشر

منشورات عويدات ٩٢٠/ ١٩٨٦

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME III

LE MOYEN AGE

L'EXPANSION DE L'ORIENT ET LA NAISSANCE DE LA CIVILISATION OCCIDENTALE

TROISIÈME ÉDITION

par

Édouard PERROY
Professeur à la Sorbonne

avec la collaboration de

Jeannine AUBOYER — *Conservateur au Musée Guimet*
Claude CAHEN — *Professeur à la Sorbonne*
Georges DUBY — *Professeur à la Faculté des Lettres d'Aix*
Michel MOLLAT — *Professeur à la Sorbonne*

Texte Traduit en Arabe

Par

Youssef A. DAGHER et Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth — Paris

